طبعة جديدة ومزيدة
بفصلين إضافيين

روبرت فيسك

مراسل "التايمز" حتى ١٩٨٧ ومراسل "الأندبندنت" حالياً

ويلات وطن



صراعات الشرق الأوسط وحرب لبنان

وَيْلاتُ وَطَن

روبرت فيسك

وَيْلاتُ وَطَن

صراعات الشرق الأوسط وحرب لبنان

طبعة جديدة ومزيدة

بفصلين إضافيين

شركة المطبوعات للتوزيع والنشر



شركة المطبوعات للتوزيع والنشر
شارع جان دارك ـ بناية الوهاد
ص. ب. : ٨٣٧٥ ـ بيروت ـ لبنان
تلفون: ٣٥٠٧٢٢ (٠١)
تلفون + فاكس: ٣٤٢٠٠٥ ـ ٣٥٣٠٠٠ (١ ٩٦١)
E-mail: Adnan@all-prints.com

الطبعة السابعة عشرة ٢٠٠٥

صورة الغلاف للفنان المصور أحمد عياش
الإخراج الفني: تركية التالي

كلمة شكر

إنني مدين لمجموعة من اللبنانيين والفلسطينيين والسوريين والإسرائيليين والأوروبيين والأميركيين . فالعديد منهم ساعدني في تغطية الأحداث في لبنان قبل أن أعقد العزم على وضع هذا الكتاب . بين هؤلاء ، رئيس لبناني سابق ، هو المرحوم كميل شمعون ، وبشير الجميل الزعيم الكتائبي والرئيس اللبناني المنتخب الذي اغتيل في أيلول (سبتمبر) ١٩٨٢ ، وحسين الموسوي من «أمل الإسلامية» في بعلبك والرئيس اللبناني الأسبق سليمان فرنجية .

أما الأشخاص الذين سأورد أسماءهم الآن فهم الذين ساعدوني طيلة السنوات الخمس الماضية في معرفة ما كنت أحتاجه لجمع المعلومات وتحرير هذا الكتاب : تيري أندرسون ، رئيس مكتب «الأسوشيتدبرس» في بيروت الذي خُطف سنة ١٩٨٥ ، الجنرال فرنكو آنجيوني ، قائد الكتيبة الإيطالية في القوات متعددة الجنسيات في بيروت ، ياسر عرفات رئيس منظمة التحرير الفلسطينية ، نيل آتشرسون من صحيفة «الأوبزرفر» ، أوري أفنيري ، صحافي إسرائيلي في تل أبيب ، نبيه بري ، رئيس حركة أمل ووزير العدل اللبناني ، روجيه بويز ، مراسل «التايمز» في وارسو ، الجنرال وليام كالاهان ، قائد قوات المراقبين الدوليين في لبنان (يونيفل) ، داني شمعون ، قائد ميليشيا «النمور» ، أدوارد كودي من «الواشنطن بوست» ، زايمون داتنر ، الشخص الباقي على قيد الحياة في وارسو ممن نجوا بعد الهولوكست ، المرحوم تشارلز دوغلاس هيوم ، محرر «التايمز» ، الجنرال أمانوئيل أرسكين ، قائد القوات الدولية في جنوبي لبنان (يونيفل) قبل الجنرال كالاهان ، شهرزاد فرامرزي من «الأسوشيتدبرس» ، وليام فولي ، من مجلة «التايم» ، المرحوم بيار الجميل ، مؤسس حزب الكتائب ، الكولونيل تيموثي جيراتي ، قائد وحدة المارينز الرابعة والعشرين في بيروت ، تيمور غوكسل من اليونيفل ، خوان كارلوس غوموشيو ، مراسل «الدياريو ١٦» والتايمز ، فيليب حبيب ، المبعوث الخاص للرئيس ريغن إلى لبنان ، الرائد سعد حداد ، قائد «جيش لبنان الجنوبي» ، جلالة الملك حسين عاهل الأردن ، المرحوم إسكندر أحمد إسكندر ، وزير الإعلام السوري ، جوفري كمب من مجلس الأمن القومي الاميركي ، العميد غازي كنعان رئيس جهاز مخابرات الجيش السوري في لبنان ، خليل جرادي ، قائد قوات المقاومة الإسلامية في جنوبي لبنان الذي اغتيل سنة ١٩٨٥ ، كريستيان جولسون من فنلندا ، وليد جنبلاط الزعيم الدرزي ، قسطنطين كابيتانوف من صحيفة «ليتراتونايا غازيت» ،

محمود خضرا ، مدير دائرة الدفاع المدني في الجنوب ، ديفيد كيمحي ، المدير العام السابق لوزارة الخارجية الإسرائيلية والرئيس السابق لاستخبارات (الموساد) الإسرائيلية ، مالغورزاتا كوكزينسكا ، مراسلة «التايمز» في وارسو ، جيري لابيل من «الأسوشيتدبرس» ، الكولونيل جيمس ميد ، قائد وحدة المارينز البرمائية الأميركية رقم ٣٢ في بيروت ، دونالد ميل من وكالة «الأسوشيتدبرس» ، فاروق نصار من «الأسوشيتدبرس» ، ساندرا أوكينز ، التي صممت ورسمت خرائط هذا الكتاب ، إيلين باول من «الأسوشيتدبرس» جوناثان راندال من «الواشنطن بوست» ، باسم السبع من جريدة «السفير» ، بيجي ساي ، شقيقة تيري اندرسون ، رئيس الحكومة اللبناني الاسبق صائب سلام ، منى السعيد من صحيفة «السفير» ، الدكتور أمل شمّاع من مستشفى البربير في بيروت ، الجنرال سبكتر من سلاح الجو الإسرائيلي ، ارلين تاترو من «الأسوشيتدبرس» ، نيقولاس تاترو من «الأسوشيتدبرس» ، آن تود ، أرملة كلارك تود مراسل التلفزيون الكندي ، كارستين تفايت من التلفزيون النرويجي ، تيري وايت ، المبعوث الخاص لأسقف كانتربري إلى لبنان الذي خُطف سنة ١٩٨٧ ، خليل الوزير (أبو جهاد) القائد العسكري لمنظمة التحرير الفلسطينية الذي اغتيل عام ١٩٨٨ ، تشارلز ولسون ، محرر التايمز ، حبيب زيدان رئيس مدرسة صيدا الإبتدائية . كما بودي أن أوجه الشكر أيضاً إلى ستيف كوكس وأستير واينبي الناشرين في دار أندريه دويتش .

كما أن العديد من اللبنانيين والفلسطينيين والسوريين رووا ما تذّكروه وأسدوا نصائحهم لكنهم طلبوا عدم ذكر أسمائهم . إليهم جميعاً عميق شكري . كما أتحمّل شخصياً مسؤولية الاستنتاجات في هذا الكتاب .

الشريط الزمني للأحداث

١٨٦٠ـ حرب درزية مسيحية أدّت إلى مقتل ١٠ آلاف مسيحي . نزول قوات فرنسية لحماية الطائفة المارونية .

١٩١٤ ـ ١٩١٨ ـ إنهيار الحكم العثماني في سوريا ، إبّان الحرب العظمى ، مجاعة كبرى في لبنان .

١٩٣٦ ـ أسّس بيار الجميل حزب الكتائب بعد زيارة قام بها لألمانيا النازية .

١٩٤٠ ـ بعد الانتداب الفرنسي على سوريا ولبنان أنشأت فرنسا دولة لبنان الكبير . وانتُدب البريطانيون على فلسطين .

١٩٣٩ ـ ١٩٤٥ ـ الجيش البريطاني وجيش فرنسا الحرة يقومان بغزو لبنان سنة ١٩٤١ واستوليا على بيروت الخاضعة لقوات فيشي . فرنسا وعدت بالاستقلال الكامل .

١٩٤٦ ـ القوات الفرنسية تجلو عن لبنان .

١٩٤٨ ـ إقامة دولة إسرائيل ونزوح الفلسطينيين إلى لبنان والأردن .

١٩٥٨ ـ حرب أهلية في لبنان حيث تجاوب المسلمون مع الدعوة القومية العربية التي أطلقها الرئيس عبد الناصر . إنزال المارينز الأميركيين في بيروت وفقاً لمبدأ أيزنهاور المناهض «للشيوعية الدولية» وبناء على طلب الرئيس كميل شمعون .

١٩٦٤ ـ إنشاء منظمة التحرير الفلسطينية .

١٩٧٠ ـ قوات المقاومة الفلسطينية أُخرجت من الأردن واتخذت مقرها في بيروت ، تزايد العمليات الفدائية الفلسطينية داخل إسرائيل انطلاقاً من جنوبي لبنان .

١٩٧٥ ـ نشوب الحرب الأهلية بين المسيحيين الموارنة والمسلمين بعد الهجوم الكتائبي على فدائيي منظمة التحرير الفلسطينية في بيروت .

١٩٧٦ ـ تزايد حدة القتال في الحرب الأهلية . المسيحيون يذبحون السكان الفلسطينيين في الكرنتينا وتل الزعتر ؛ الفلسطينيون يذبحون سكان الدامور المسيحيين . الرئيس اللبناني سليمان فرنجية يدعو سوريا للتدخل لإيقاف القتال في لبنان . القوات السورية تدخل جميع المناطق اللبنانية ما عدا الجنوب .

١٩٧٨ ـ القوات الإسرائيلية تجتاح جنوبي لبنان إثر مقتل مدنيين إسرائيليين في هجوم للفدائيين الفلسطينيين . إرسال قوات الأمم المتحدة (يونيفل) إلى جنوبي لبنان . إسرائيل أنشأت ميليشيا لبنانية تابعة لها في القطاع الجنوبي المحتل . الجيش السوري يقصف المسيحيين في شرقي بيروت .

١٩٨٠ ـ ١٩٨١ ـ تزايد العمليات العسكرية بين إسرائيل والميليشيات الموالية لها ، وبين منظمة التحرير الفلسطينية في جنوبي لبنان .

١٩٨٢ ـ الجيش الإسرائيلي يغزو لبنان إثر محاولة اغتيال السفير الإسرائيلي في لندن . ووفقاً لخطة وضعها أريئيل شارون وزير الدفاع الإسرائيلي ، الجيش الإسرائيلي يشنّ هجوماً على القوات السورية في وادي البقاع ، ويحاصر بيروت الغربية ويطلب إخراج الفدائيين الفلسطينيين والسوريين من العاصمة اللبنانية . قوات أميركية وفرنسية وإيطالية تخلي عن طريق البحر حوالي ١١ ألف شخص من منظمة التحرير ، أما النساء الفلسطينيات والأطفال الفلسطينيون فظلوا حيث هم . اغتيال الرئيس اللبناني المنتخب بشير الجميل بعد خروج القوات متعددة الجنسيات . القوات الإسرائيلية تغزو غربي بيروت وترسل الميليشيات الكتائبية المسيحية إلى مخيمي صبرا وشاتيلا . احتجاجات دولية ومظاهرات في تل أبيب بعد المجزرة التي ارتكبها الكتائبيون بحق مئات المدنيين داخل المخيمين . الإسرائيليون ينسحبون من غربي بيروت . القوات متعددة الجنسيات الأميركية والفرنسية والإيطالية تعود إلى العاصمة اللبنانية . مقر الأركان العامة الإسرائيلية في صور يجري تدميره في انفجار كبير .

١٩٨٣ ـ تدمير السفارة الأميركية في بيروت في هجوم انتحاري يقوم به أحد رجال منظمة «الجهاد الإسلامي» . الحكومتان اللبنانية والإسرائيلية تتفقان على انسحاب القوات الإسرائيلية من لبنان شرط خروج القوات السورية أيضاً . السوريون يرفضون الانسحاب . نشوب القتال بين المقاتلين المسلمين والقوات اللبنانية الحكومية التابعة للرئيس أمين الجميل . القوات الإسرائيلية ترتب انسحاباً من جانب

واحد فتغادر جبال الشوف شرقي بيروت باتجاه خطوط جديدة شمالي صيدا . مقرا القوات العسكرية الأميركية والفرنسية يجري تدميرهما تدميراً كاملاً على يد رجال انتحاريين من منظمة «الجهاد الاسلامي» ومصرع ما يزيد على ٣٠٠ جندي بعد القصف البحري الأميركي الذي تعرضت له المناطق الإسلامية لدعم حكومة الجميل . اللبنانيون يعقدون أول مؤتمر «للمصالحة» في سويسرا . مجاهد انتحاري يدمّر مقرّ القائد العام الإسرائيلي في صور .

١٩٨٤ ـ القوات متعددة الجنسيات تغادر بيروت بعد انهيار الجيش اللبناني الرسمي . الرئيس الأسد يستقبل الجميل في دمشق . فشل مؤتمر المصالحة اللبناني الثاني في سويسرا . خطف الغربيين في بيروت ، بمن فيهم رئيس مركز المخابرات المركزية الأميركية وليم بكلي الذي مات تحت التعذيب . مقاومة لبنانية عنيفة تصدر من المسلمين الشيعة خاصة ضد الجيش الإسرائيلي المحتل في جنوبي لبنان .

١٩٨٥ ـ الجيش الإسرائيلي ينسحب من صيدا . إسرائيل تبدأ سياسة «القبضة الحديدية» وتلجأ إلى القمع العسكري ضد المقاومين من قرى لبنان الجنوبي . سيارة ملغومة تقتل اكثر من ثمانين مدنياً في منطقة يقطنها الشيعة في بيروت (واشنطن تحدثت عن تورط المخابرات المركزية) . عمليات خطف أخرى لأشخاص غربيين في لبنان ، بمن فيهم الصحافي تيري أندرسون من «الأسوشيتدبرس» . الإسرائيليون ينسحبون من صور . ميليشيا أمل الشيعية تهاجم المخيمات الفلسطينية في بيروت . إنتحاريون آخرون يقومون بهجمات ضد الإسرائيليين وحلفائهم في جنوبي لبنان .

١٩٨٦ ـ ميليشيا أمل الشيعية تعاود هجماتها ضد المخيمات . خطف المزيد من الغربيين . مئات الفلسطينيين يقضون في حصار المخيمات .

١٩٨٧ ـ المبعوث الخاص لأسقف كانتربري تيري وايت يختفي في بيروت الغربية حين كان يطالب بإطلاق الرهائن الأميركيين . القتال بين الميليشيات الشيعية والدرزية في بيروت استعجل عودة آلاف الجنود السوريين إلى العاصمة اللبنانية . حصار المخيمات الفلسطينية يستأنف .

١٩٨٨ ـ فشل مجلس النواب اللبناني في انتخاب رئيس جديد . رئيسان للحكومة متنافسان واحد في بيروت الغربية وآخر في الشرقية .

١٩٨٩ ـ العماد ميشال عون «رئيس وزراء لبنان» المسيحي يعلن الحرب على الجيش السوري في لبنان . حصار بيروت الشرقية على يد السوريين والميليشيات المتحالفة معهم .

شخصيات رئيسية

الرئيس السوري حافظ الأسد .

ياسر عرفات ، رئيس منظمة التحرير الفلسطينية .

مناحيم بيغن ، رئيس الوزراء الإسرائيلي .

نبيه بري ، زعيم حركة أمل ووزير العدل اللبناني .

كميل شمعون ، رئيس لبناني سابق ، رئيس حزب الوطنيين الأحرار .

داني شمعون ، نجل الرئيس الأسبق ، قائد ميليشيا «النمور» .

البريغادير جنرال رافايل إيتان ، رئيس أركان الجيش الإسرائيلي .

سليمان فرنجية ، رئيس لبناني سابق ، حليف لسوريا .

طوني فرنجية ، نجل الرئيس الاسبق فرنجية .

بشير الجميل ، قائد ميليشيا الكتائب ، الرئيس اللبناني المنتخب .

أمين الجميل ، الرئيس اللبناني بعد اغتيال بشير الجميل .

بيار الجميل ، مؤسس حزب الكتائب وميليشيا الكتائب .

فيليب حبيب ، المبعوث الشخصي للرئيس ريغن إلى لبنان .

الرائد سعد حداد ، قائد ميليشيا «جيش لبنان الجنوبي» الموالي لإسرائيل .

إيلي حبيقة ، قائد رجال الميليشيا الكتائبية التي ارتكبت المجزرة ضد الفلسطينيين في صبرا وشاتيلا .

خليل جرادي ، قائد المقاومة في جنوبي لبنان .

كمال جنبلاط ، الزعيم الدرزي ورئيس الحزب التقدمي الاشتراكي .

وليد جنبلاط ، الزعيم الدرزي ورئيس الحزب التقدمي الاشتراكي بعد اغتيال والده كمال جنبلاط .

رشيد كرامي ، رئيس وزراء لبنان .

دافيد كيمحي ، المدير العام لوزارة الخارجية الإسرائيلية ، رئيس مخابرات الموساد سابقاً .

حسين الموسوي ، رئيس «أمل الإسلامية» في بعلبك .

الإمام موسى الصدر ، قائد «حركة المحرومين» في جنوبي لبنان (حركة أمل في ما بعد) .

الياس سركيس ، رئيس جمهورية لبنان .

إسحاق شامير ، وزير خارجية إسرائيل ومن ثم رئيس حكومة إسرائيل .

أريئيل شارون ، وزير دفاع إسرائيل ومهندس غزو لبنان سنة ١٩٨٢ .

الصحافيون

تيري أندرسون ، رئيس مكتب «الأسوشيتدبرس» في بيروت .

إيفان بارنز ، محرر السياسة الخارجية في «التايمز» .

تشارلز آسي ، مكتب «الأستوشيتد برس» في بيروت .

إدوارد كودي ، مراسل «الأسوشيتدبرس» في بيروت ومن ثم مراسل «الواشنطن بوست» .

تشالز دوغلاس هيوم محرر «التايمز» .

شهرزاد فرامرازي ، مراسل «الأسوشيتدبرس» في بيروت .

وليام فولي ، مصور «الأسوشيتدبرس» في بيروت ومن ثم مصور مجلة «التايم» .

فرانسوا غطاس ، رئيس الفريق التقني لدى «الأسوشيتدبرس» في بيروت .

خوان كارلوس غوموليو ، مراسل «الأسوشيتدبرس» في بيروت ومن ثم رئيس مكتب «سي بي اس» في بيروت ومراسل «التايمز» الكندية .

ستيفان هنري ، مراسل «الأسوشيتدبرس» في القاهرة المعيّن في بيروت .

لورين جنكينز ، مراسل «الواشنطن بوست» في بيروت .

قسطنطين كابيتانوف ، مراسل «لتراتورنايا غازيتا» في بيروت .

جيري لابيل ، المحرر الإخباري لدى «الأسوشيتدبرس» في بيروت .

دونالد ميل ، مصور «الأسوشيتدبرس» في بيروت .

فاروق نصار ، مراسل «الأسوشيتدبرس» في بيروت .

إيلين باول (زوجة لابيل) مراسلة «الأسوشيتدبرس» في بيروت .

جوناثان راندال ، مراسل «الواشنطن بوست» في بيروت .

زهير سعادة، مصوّر ومحرّر لدى «الأسوشيتدبرس» في بيروت.

أرلين تاترو، مراسل «الأسوشيتدبرس» في بيروت، عُيِّن من ثم لدى «الأسوشيتدبرس» في تل أبيب.

نيقولاس تاترو، رئيس مكتب «الأسوشيتدبرس»، ومن ثم رئيس مكتب «الأسوشيتدبرس» في تل أبيب.

كلارك تود، مراسل التلفزيون الكندي في بيروت.

كارستن تفايت، مراسل التلفزيون النروجي في بيروت.

كريستوفر ووكس، مراسل «التايمز» في القدس.

تشارلز ولسون، محرّر «التايمز» بعد دوغلاس هيوم.

مقدمة الطبعة الجديدة

في ربيع ١٩٧٨ ، يوم أحد الفصح ، وعلى طريق متعرّج يؤدي لإحدى التلال في خراج قرية قانا جنوبي لبنان ، كنت أجري مقابلة مع مزارعين في أحد حقول التبغ ، حين توجهت دبابة إسرائيلية بسرعة إلى أقرب تلة وفتحت النار علينا فجأة . وكما يحدث في فيلم سينمائي ـ والتجارب الأولية في مثل هذه الحروب ترتدي على العموم طابعاً لا واقعياً ـ ارتمينا أرضاً في الأعشاب الكثّة فيما كانت ألسنة اللهب البرتقالي تُفرقع من حولنا . وكان دويّ الانفجارات شديداً إلى حدّ أنه ظلّ يؤلم رأسي عدة ساعات من بعدها .

ومن ورائنا ، داخل غابة صغيرة من أشجار «البتولا» الفضية ، كان مقاتلون فلسطينيون يقيمون موقعاً مؤقتاً لمدفعية الهاون ، وقد مررنا بهم مرتاحي البال قبل دقائق دون أن ندري بأننا نخترق خطهم الأمامي . وكانت الدبابة التي تقدمت إلى أعلى التلة الخط الأمامي لإسرائيل ، وكانت تطلق النار على من افترضهم طاقمها «إرهابيين» ، والذي كان يعني آنذاك ، أنهم كانوا يطلقون النار على كل إنسان يرونه أمام آليتهم . كانت الصبيحة حارة ، وعلى شريط التسجيل الذي حضّرته يومذاك ، لا يزال بوسع المرء حتى الآن أن يصغي لأزيز زيزان الحصاد بين الشجيرات ، قبل ثوان من بدء صفير القذيفة الأولى التي أطلقت باتجاه الطريق نحو سيارتنا .

وبينما كنّا نفرّ مذعورين بسيارتنا الصغيرة ، وقد التصقنا بالمزارعين اللذين قفزا إلى داخلها من بابها الخلفي ، كان الميكروفون الذي أحمله يضغط على صدري . واليوم ـ وأنا أصغي للشريط الذي سجّل صراخنا الهستيري ، ودويّ الانفجارات ـ باستطاعتي أن أسمع دقات قلبي التي كان يتزايد إيقاعها في كل جزء من الثانية ، فيما كان بوب دير مصوّر «الأسوشيتدبرس» في السيارة يصيح على زميله الأرمني زافيم ورطان : زيك زاك ، زيك زاك» (إمش بتعرّج) . وأظن أنه من المستحيل أن نعيد تماماً إحياء تلك الحالة من الذعر التي عرفناها آنذاك ، وأن نستحضر الظروف التي خبرنا فيها تجربة الخوف . واليوم ، يبدو التسجيل هزلياً تقريباً ، إذ كان صياحي يتعالى في إيقاع مجنون وأنا أصف بكلام لا معنى له دويّ القذائف وانعطاف سيارتنا على الطريق وزعيق عجلاتها على الأرض الحامية .

انقضت عشر سنوات قبل أن أقوم بإحياء التجربة ، ليس على آلة التسجيل بل على صفحات حرّرتها استناداً إلى آلاف الملاحظات المدوّنة والمذكرات والتقارير التي احتفظت بها في لبنان منذ

العام ١٩٧٦ حتى الآن . وما أن عدت إلى مكتب وكالة الأسوشيتدبرس في غربي بيروت حتى بعثت برسالة وحيدة على الكمبيوتر إلى دائرة الشؤون الخارجية في صحيفة التايمز ، أحضّهم فيها على استخدام رسالتي العاجلة ، وقد استهليتُ رسالتي إلى صحيفتي بإعلان ميلودرامي : «كدت أن أقتل اليوم» .

ولكن ما الذي يدفع المراسل الصحافي للمجازفة بحياته ؟ هل هو الشعور بالرضى عند كتابة تقرير إخباري أو «قصة» كما نسميها خطأ نحن معشر الصحافيين؟ أمن أجل فهمنا السخيف للسبق الصحفي الذي لا يود المشاركة فيه إلا قلة من الزملاء في أي حال؟ من المؤكد أنه ليس بحثاً عن الإثارة . والحقيقة أن التقرير الذي أعددته في النهاية وأبرقت به من مكتب الأسوشيتدبرس لجريدة التايمز قد أُبعد إلى صفحة داخلية ، بسبب الأخبار الواردة من واشنطن عن ترتيب الولايات المتحدة وقفاً لإطلاق النار أوقف الحرب في جنوب لبنان مؤقتاً .

وأظن أنني ما أقمت في لبنان إلا لأنني اعتقدت بطريقة ما ، لا أستطيع تفسيرها ، بأنني سأكون شاهداً على التاريخ ـ سأشاهد بأم العين جزءاً يسيراً من الأحداث الملحمية التي رسمت ملامح الشرق الأوسط منذ الحرب العالمية الثانية . فأقصى ما يستطيع الصحفيون عمله هو الوقوف على حافة التاريخ ، كما يفعل علماء البراكين الذين يصعدون إلى فوهة البركان الذي يتصاعد منه الدخان ، محاولين الرؤية من فوق حافته ، فتشرئب أعناقهم وهم يحدّقون من فوق الحافة المنهارة ، ليشاهدوا عبر الدخان والرماد ما يجري في داخله . وتسعى الحكومات للتأكدمن بقاء الأمر على هذه الحال ، لكنني أظن أن الصحافة ، أو على الأقل ما ينبغي أن تكون عليه الصحافة ، هو أن تراقب التاريخ وأن تشهد عليه ، وأن تعمد من ثمّ إلى تسجيله بقدر ما تستطيع من الأمانة على الرغم من المخاطر والضغوط ونقائصنا كبشر .

وينظر المؤرخون الأكاديميون إلى دورهم على نحو مختلف . . فهم يقصدون إلى المصادر الأولية ، إلى الوثائق الصادرة عن أطراف النزاع المتضادّة ، وإلى محاضر الاجتماعات الوزارية واجتماعات اللجان والمؤشرات العسكرية الميدانية . وبوسعي أن أفهم جانب المتعة في مثل هذا البحث عن الحقيقة ؛ فكتابي الأخير ، «تاريخ إيرلندا خلال الحرب العالمية الثانية» ، تطلّب سنوات من البحث في الأرشيفات البريطانية والإيرلندية واشتمل على ٥٦ صفحة من المراجع ، وعلى ملحقين اثنين وأربع صفحات بيبليوغرافيا . ولكن مثل هذه الأدلة الوثائقية غير متوفّرة في الشرق الأوسط الآن . ففي إسرائيل يستطيع الدارسون أن يبحثوا في السنوات الأولى لقيام الدولة العبرية ، ولكن ليس ثمة

مستندات متوافرة بتصرف أولئك الراغبين بدراسة التورط الإسرائيلي المدمر في لبنان خلال السنوات الأربع عشرة المنصرمة . وحين تركت منظمة التحرير الفلسطينية بيروت سنة ١٩٨٢ ، حملت معها جزءاً من ملفاتها على متن البواخر التي أجلتها إلى تونس واليمن . ووقع القليل من هذه الملفات في أيدي الإسرائيليين ، ومعظمها أتلف في بيروت قبل دخول الإسرائيليين المدينة . أما الوثائق السورية حول لبنان فمن المفروض نظرياً أن تكون محفوظة خلف الواجهة المهيبة لمبنى الأرشيف الحكومي في آخر شارع القوتلي بدمشق ، وهو صرح ضخم نُصب أمامه تمثال لحافظ الأسد ، الرئيس الذي كان يصبو إلى أن يكون رجل الطليعة في العالم العربي . وغنيّ عن القول إن هذه الملفات ليست مُتاحة للعموم .

إذن ، ليس كتابنا هذا كتاباً أكاديمياً ، ولا هو ، في أي وجه من الوجوه ، تاريخاً للحرب في لبنان بالمعنى الاصطلاحي ، ولا تاريخاً للتورط الإسرائيلي في هذا النزاع . وبوسع القرّاء الذين يبحثون عن رواية لهذه الأحداث وفق تسلسلها الزمني أن يراجعوا كتاب «مأساة لبنان» من تأليف جوناثان راندال مراسل الواشنطن بوست ، أو إلى ما قد يكون أشمل كتاب حول الغزو الإسرائيلي للبنان وهو «حرب إسرائيل في لبنان» من تأليف الكاتبين الإسرائيليين زئيف شيف وإيهود يعري . أما أقوى تحليل لتلك المرحلة فهو في كتاب نوعام تشومسكي ، «المثلث المشؤوم : الولايات المتحدة ، إسرائيل والفلسطينيون» ، الذي يضم مقداراً كبيراً من التفاصيل ومقداراً أكبر من الغضب ، ويخلص إلى القول بأنه ما دامت الولايات المتحدة ملتزمة بإسبرطة إسرائيلية كرصيد استراتيجي فالتوقعات تنبئ بالمزيد من المآسي : قمع ، إرهاب ، حروب ، وحتى احتمال نزاع قد تتورط القوى العظمى فيه .

إن صعود ميخائيل غورباتشيف إلى السلطة في موسكو يوحي بأن هذا التكهن السوداوي قد يكون مبالغاً فيه . ولكن منذ صدور هذه الكتب ، راحت الأزمة السياسية في المشرق تتفاقم وتصبح أكثر سواداً . ولا بد للانتفاضة الفلسطينية في الضفة الغربية التي تحتلها إسرائيل من أن تكون قد أقنعت أولئك الاسرائيليين الذين أرادوا تدمير منظمة التحرير الفلسطينية في بيروت ، بعدم جدوى الغزو الذي أقدموا عليه سنة ١٩٨٢ . والثورة الإسلامية التي تفجرت في لبنان نتيجة مغامرة إسرائيل الكارثية ، خلقت مناخاً شرساً إلى حد أنه ما من غربي يستطيع بعد الآن أن يعيش في هذا البلد دون خوف من الاغتيال أو الخطف . وحدث هذا لواحد من أعز أصدقائي شجعني أكثر من أي إنسان آخر على وضع هذا الكتاب . إنه تيري أندرسون ، رئيس مكتب وكالة الأسوشيتدبرس في بيروت الذي أُخذ رهينة من مكان لا يبعد كثيراً عن منزلي في ١٦ آذار (مارس) ١٩٨٥ وعانى أكثر من أربع سنوات من الاعتقال مكبّلاً إلى الجدران في طبقات تحت الأرض ، وتحت وطأة التهديد المستمر بالإعدام . كما مرّت أيام في سنة

١٩٨٦ كنت فيها شخصياً أتوجّس خوفاً من الخطف ، بحيث كنت أقود سيارتي إلى عملي في بيروت الغربية بسرعة ٩٠ ميلاً في الساعة ، أو أقبع في منزلي خوفاً من اقتيادي أنا أيضا للانضمام إلى صديقي في عذابه .

وطيلة السنوات الثلاث عشرة الماضية ، مارست غريزة الصحفي الشبيهة بغريزة الطائر أبو زريق ، فرحتُ أجمّع وأخبئ ليس فقط تقاريري الصحفية إلى التايمز - ثلاثة في اليوم الواحد أحياناً - بل كل رسالة على الكمبيوتر ، وكل مذكرة ، وكل ملاحظة شخصية دوّنتها وحتى الخربشات على الأوراق القديمة والمظروفات . إنها فضلات الصحافي - المَطَالب الحانقه المرسلة بالتلكس لتأكيد وصول التقارير سالمة إلى التايمز ، والمَطَالب المثيرة للغيظ الواردة من لندن لتوضيح أسماء الأمكنة في غمرة المعركة ، وتوسلاتي الملحّة لهم لإرسال سلفة لمصاريف العمل - كلها كانت محشوة في أكياس الغسيل غير المستعملة أو أكياس المشتريات من السوق الحرة في مطار بيروت . كما حفظت أكواماً من دفاتر الجيب وقصاصات الصحف ورسائل القراء اللطيفة والمهينة على حدّ سواء - فضلاً عن البيانات الصحافية والصور .

وقد عثرت وأنا أنقّب فيها ، على قصاصات من الورق سمراء ووردية طُبعت عليها باللغة العربية تعليمات لأرباب العائلات في بيروت ليأخذوا عائلاتهم ويتركوا منازلهم إذا كانوا حريصين على حياة زوجاتهم وأبنائهم - المنشورات عينها التي ألقى بها الإسرائيليون من الجوّ فوق العاصمة اللبنانية سنة ١٩٨٢ .كما عثرت على مناشير مغفلة التوقيع صادرة عن حركة المقاومة اللبنانية الناشئة في جنوبي لبنان تحذر المخبرين وتنبئهم بدنو ساعة إعدامهم ، حتى أنني وجدت في كيس رث أصفاداً مقطعة من البلاستيك والفولاذ استخدمها الجنود الإسرائيليون في تكبيل يدي أحد السجناء بعد أن عصبوا عينيه في مدينة صور . وكنت قد احتفظت بأجزاء من القنابل الإسرائيلية و السورية وبأجزاء من قنبلة عنقودية إسرائيلية ، وبشظية ضخمة من قذيفة أطلقتها البارجة الحربية الأميركية «نيوجرسي» على جبال الشوف ، تلك البارجة التي تعود إلى أيام الحرب العالمية الثانية وتعتبر أقوى قطعة بحرية عائمة ، والتي ثَبُتَ أن مدافعها في حرب لبنان كانت عقيمة عُقم السياسة الخارجية للدولة التي أرسلتها إلى هناك .

ويغطي العديد من هذه الملفات الثورة الإيرانية ، والغزو السوفييتي لأفغانستان والحرب الإيرانية العراقية ، دفاتر مدرسية كتبتُ فيها باجتهاد تقاريري الصحفية بقلم الحبر . على أن معظم الأوراق يتعلق بلبنان ، ويسجّل تدميره كأمة وشعب ، على مدى ينيف على العشر سنوات . ذلك هو الأرشيف الذي اعتمدته بشكل رئيسي لوضع هذا الكتاب ، وهو لذلك ، عمل مراسل صحافي أكثر منه عمل مؤرّخ .

وهناك لائحة كاملة بأسماء جميع الذين مدّوا إليّ يد العون أوردتها في كلمة الشكر . ولعل هذا الكتاب ما كان ليبصر النور لولا تيري أندرسون ، الذي يظهر مراراً في هذه الصفحات . ففيما كنت أكتبه كان يقبع يائساً في سجون تحت الأرض في بيروت الغربية ، يذرف دموع الإحباط لأنه لا يستطيع أن يرى زوجته أو يحمل طفلته التي لم يشاهدها إلا في الصور ، ولا يجد عزاء له إلا في الكتاب المقدس ، أو في تعلّم القراءة بالفرنسية من جريدتين قديمتين ممزقتين . وصادف في بعض الأحيان أنه كان معتقلاً على بعد ميل واحد من منزلي . وقد ثارت ثائرته يوماً على زملائه لاستخدامهم كلمة «إرهابي» مدعياً أنها تعبير تحقيري يجب أن يُطبّق على جميع الأطراف في لبنان أو لا يُستخدم إطلاقاً . وهو كان أولّ من لفت نظري إلى مثابرة رئيس الوزراء الإسرائيلي ، مناحيم بيغن ، على الإشارة ، خلال غزو لبنان عام ١٩٨٢ ، إلى الحرب العالمية الثانية والمحرقة النازية . ولهذا السبب كنت أعاين أفران المحرقة وحُفر الرماد في معسكر الاعتقال في أوشفيتز ببولندا ، فيما كان تيري يعاني في زنزانته تحت الأرض .

كما أنني مدين بشكل خاص لتشارلز دوغلاس ـ هيوم ، الذي كان محرر الشؤون الخارجية في صحيفة «التايمز» ومن ثم مدير تحريرها خلال حرب لبنان وحتى وفاته بداء السرطان في تشرين الأول / أكتوبر ١٩٨٥ . لقد وقف إلى جانبي بغاية الإخلاص حين كنت في خطر ، وعمل دائماً على نشر تقاريري دون تعديل ـ رغم تعارضها دائماً مع افتتاحيات «التايمز» ، التي كانت تزداد نزوعاً إلى اليمين . وبعد خطف تيري ، اتخذ تشارلي موقفاً واقعياً وعملياً جداً من وجودي في لبنان ، موقفاً كان موضع تقديري الشديد : فإذا كنت كمراسل للتايمز أرى ضرورة الاستمرار في تغطية أخبار البلد ، وإذا ارتأيت أن ذلك أمر مهم بالنسبة للصحيفة ، وإذا كنت أنا شخصياً مستعداً للبقاء هناك ، إذاً عليّ أن أبقى . ولهذا استمرت إقامتي في غربي بيروت ، وكنت قادراً على مواصلة تسجيل قصة لبنان من أجل هذا الكتاب . وأنا ممتن أيضا لتشارلز ولسون الذي حلّ محل تشارلي كمدير للتحرير . فقد قدم إلى بيروت خلال أسبوع مشهود من خريف ١٩٨٤ ، حيث تكبّد مشقة اجتياز مواقع المليشيات في جبال الشوف ، واعتقله الإسرائيليون وسلّموه للمسلحين اللبنانيين الموالين لهم ثم انتقل ليلاً عبر خط النار في بيروت ليساعدني في كتابة تقريري عن الهجوم الانتحاري الثاني على السفارة الأميركية في لبنان . وكان كل يوم من أيام رحلته يقول لي : «ستكون أحمق كبيراً إن لم تضع كل هذا بين دفتّي كتاب» . حتى حين بعثت إليه الخارجية البريطانية بمذكرة رسمية شديدة اللهجة تطلب منه إخراجي من لبنان حرصاً على سلامتي رأى أن يترك الأمر لتقديري ، وهكذا بقيت . وكان ذلك قراراً شجاعاً يتخذه مدير تحرير صحيفة . إذ لو أنني وقعت فريسة في أيدي الخاطفين في بيروت ، لكان سيُحاسب شخصياً . وواجبي توجيه الشكر لجريدة التايمز التي سمحت لي باستخدام مقاطع من سلسلة مقالاتي «أرض فلسطين» في

هذا الكتاب ، ولسماحها لي أيضاً بالاقتباس من مختلف المذكرات الشخصية التي جرى تبادلها بيني وبين مكتب لندن .

ثم إنه لا جريدة التايمز ولا محرّروها ولا أولئك الذين وجّهت لهم شكري في كلمة الشكر يتحملون أي مسؤولية عن وجهات النظر التي عبّرت عنها هنا . بل لعلهم في بعض الحالات يعارضون بشدّة ما أوردته في هذه الصفحات . ولمّا كان الإسرائيليون والفلسطينيون والسوريون قد هاجموا تقاريري الصحفية في مناسبات عديدة ، فليس هناك من سبب يمنعهم من إدانة ما كتبته هنا . فهناك منطق أساسي واحد يكاد أن يكون مبدئياً ، يواجه الصحافي في بيروت : أن الجيوش المتحاربة ـ مثلها مثل حكوماتها ـ يجدر النظر إليها بدرجة عالية من الريبة وحتى التشكيك في حُسن أو صدق دوافعها . وعندما يتعلق الأمر بالجيوش والميليشيات ، فلا وجود لأشخاص طيّبين في لبنان .

على أنه ليس مقصوداً أن يكون هذا العمل كتاباً سياساً مباشراً . وإذا طُرحت فيه أي أسئلة فإنها ، في المقام الأول ، محاولة لتحرّي سبب حدوث الأمور التي شاهدتها تحصل فعلاً في لبنان . إنه من بعض النواحي استقصاء شخصي في جذور العنف الذي كنت شاهداً عليه .

قلائل هم العرب الذين يستطيعون حمل أنفسهم على تناول موضوع محاولة إبادة يهود أوروبا ، لأنهم لا يودّون تشجيع التعاطف مع الإسرائيليين . وعلى نحو متساو ، فإن قلائل من الإسرائيليين بإمكانهم التحدث عن تاريخهم في مرحلة ما بعد الحرب دون ذكر محرقة الإبادة النازية ـ ومع ذلك ، فإنهم في أغلب الأحيان غير مستعدين للتعاطف مع معاناة العرب .

هذا الكتاب يبدأ من موقع قد يجده الطرفان غير مناسب ، ولأسباب مختلفة : موقع ليس في لبنان وإنما في صقيع بولندا .

ومهما يكن من أمر فإن الأحداث والناس في هذا الكتاب يتحدثون بأنفسهم وينبغي على القراء أن يستخلصوا الاستنتاجات التي يرونها مناسبة ، فأنا لا أوحي بالأجوبة ولا أقدّم الحلول .

منذ أن وضعتُ مقدمتي الأولى ، عرف لبنان التحرير كما عرف سفك الدماء . انتهت الحرب الأهلية لكن النزاع الأوسع لم يتوقف . ففي العام ١٩٩٦ ، كنتُ أسير وسط دماء المئات من اللاجئين الذين فجّرهم الإسرائيليون أشلاء في مخيم القوات الدولية في قانا ـ وكانت ، لسخرية القدر ، القرية عينها التي شرعتُ فيها بكتابة مقدمتي الأولى . وفي غضون أربع سنوات ، مُني هذا الجيش الإسرائيلي

نفسه بهزيمة مُنكرة وانسحب من آخر مواقعه في جنوب لبنان تحت وطأة الهجمات الشرسة لمقاتلي حزب الله ، ليجد نفسه في مواجهة انتفاضة فلسطينية ثانية في الأراضي المحتلة .

ومذذاك أيضاً ، أُطلق تيري أندرسون من الأسر بعد سبع سنوات أمضاها في زنزانات تحت الأرض . وعاد ياسر عرفات إلى «فلسطين» . وفي نواحي المنطقة ، راح الملوك والدكتاتوريون المعمّرون ، يموتون الواحد تلو الآخر : رحل الرئيس حافظ الأسد والملك حسين وأمير البحرين وملك المغرب . . . ولكن إذا كان هذا الرواح قد بدا بشيراً يحمل أملاً ترتجيه شعوب الشرق الأوسط السجينة ، فقد جاء حدث آخر ليوحي بأن الستار لم يُسدل بعد على مشهد الدم ، وأن المأساة ، وليس السلام ، هي ما ينتظر العرب والإسرائيليين على حد سواء . فقد وُلدت من جديد شخصية مشؤومة ، يداها ملطختان بالدماء ؛ بُعث رجلٌ عجوز ارتبط اسمه ارتباطاً وثيقاً بفعل الاغتصاب والمجازر ، الفعل الذي يشكّل واسطة العقد الرهيبة لهذا الكتاب . ففي شباط (فبراير) من هذا العام ، انتُخب أريئيل شارون رئيساً لحكومة إسرائيل .

بيروت ٢٠٠١

الفصل الأول

صور داكنة على حائط

«أظن أن جذوع الأشجار لا تستطيع أن تنمو في الرماد» .

ستكيفيتش ووجشيتش ،

دليل الزوار في معسكر الاعتقال في أوشويتز .

وارسو ، ١٦ كانون الأول / ديسمبر ١٩٨٦

كان الثلج يتساقط في شارع لتيوسكا لا على شكل شرائح كبيرة ثقيلة ، بل على شكل كرات صغيرة صلبة تعمي البصر وأقرب إلى البرد ، وقد فرشت على طريق الضاحية الكئيب نوعاً من الضباب الرمادي . أوقفنا سيارتنا على الرصيف بمحاذاة شجرة صغيرة سقطت أوراقها وتلألأت أغصانها وسط الصقيع . ولم يكن في الشارع سوى عدد قليل من الناس الذين تقوقعوا في الفراء . لقد ضرب الشتاء بولونيا بقساوة تفوق المألوف .

وحين صعدنا إلى الطبقة الثانية الواقعة في الرقم ١٠ ، شارع لتيوسكا ، كانت العتمة شديدة بحيث وجدنا صعوبة في قراءة الاسم على باب الشقة ١٥ . وحين ضغطنا على الجرس ، سمعنا أولاً وقع قوائم كلب ضخم في الجهة المقابلة مصحوباً بنباح مخنوق ، تبعه وقع أقدام إنسان يمشي متثاقلاً . وبدا أنه يلزمهما وقت طويل للوصول إلى الباب . فتح الباب فأطل رجل عجوز يتنفس بصعوبة ، و«سلاحه» إلى جانبه . كان وهو منحني الظهر قليلاً ينظر بعينَي من لم يبلغ العشرين . على أن ما أبداه زايمون داتنر من تعبير عن الشباب الدائم لم يكن إلا وهماً وذلك لأنه ناجم عن المعاناة .

قدّمنا نفسينا . قلت : «أنا الصحافي الذي جاء من لبنان» ، لكنه لم يبتسم . وتذّكر مكالمتنا الهاتفية . وسار الكلب الضخم الأغبر ذو العينين الثقيلتين الجميلتين متحمساً عندما قادنا زايمون داتنر

إلى غرفة صغيرة فيها خزانة على طول الحائط محشوة بالمجلدات والكراريس والكتب التي ضغطت على الرفوف كيفما اتفق حتى بدا وكأنها على وشك الإنهيار . وحين جلس زايمون بدا أقصر قامة وأكبر سناً في سترته البنية ذات السحّاب . ودعانا للجلوس أمامه إلى الطاولة الخشبية وفق زاوية قائمة ، ووضع يديه المشبوكتين على سطحها وكأنه في جلسة رسمية وقال : «ما الذي أستطيع عمله لكما»؟ وكان أشبه بموظف الأرشيف أو الباحث الذي ألف سذاجة طلابه المبتدئين .

أوضحت له أنني بصدد إعداد كتاب عن لبنان يتناول الأحداث التي شهدتها وأرسلت عنها التقارير طوال ما يزيد على عقد من الزمن ، ويشرح الأسباب التي جعلت هذه الأحداث تأخذ هذا المنحى .وقلت إنني أتوقع الحصول على بعض الأجوبة من خلال الهولوكست (المحرقة) ولهذا جئت إلى بولونيا . وهزّ زايمون داتنر رأسه بتؤدة وكان هو نفسه قد نجا من الإبادة مع آلاف قليلة من البولونيين اليهود الذين آثروا أن يبقوا في مسقط رأسهم . وكان ثمة رابط صغير ضعيف يربطه أيضاً بإسرائيل التي كنت أكتب عنها . فهو من أبناء جيل مناحيم بيغن وإسحاق شامير . إذ ولد بيغن في برست ليتوفسك التي كانت جزءا من بولونيا ، وأصبحت اليوم تابعة للاتحاد السوفييتي . وولد شامير في قرية راشونا في شرقي بولونيا ودرس في المدرسة العبرية في بياليستوك . ولم يكن الذي علمه الرياضة والموسيقى في بياليستوك الا زايمون داتنر .

قال داتنر ببطء شديد : «لا زلت أتذكر صبياً أميل إلى القصر ، شديد الحيوية ذكياً . وكان كل شيء في المدرسة يجري تعليمه باللغة العبرية ما عدا بولونيا والتاريخ البولوني . حتى أنني علّمت الرياضة والموسيقى باللغة العبرية . والعبرية هي اللغة التي درس بها» . ولا يزال داتنر يشعر بالاعتزاز لكونه مدرّساً . وأضاف : «كان تلامذتنا ينشأون على روح المحبة والولاء نحو بولونيا ــ وكذلك على المحبة لإسرائيل . وهاجر بعض تلامذتي إلى البلد الذي كان يدعى فلسطين .وفي كل سنة كان يمر بنا ــ نحن المدرسين ــ مئات التلاميذ عبر الصفوف المختلفة» . ونهض زايمون داتنر بهدوء عن كرسيه ودلف عبر الممر إلى غرفة صغيرة ضيقة كان في جانب منها سرير مغطى بحرام عليه مربعات .

وعلى الجدار المقابل عُلّقت بعض الصور الداكنة الباهتة . وكانت إحداها صورة صف من أواخر العشرينات يضم فتياناً يهوداً يتطلعون بانتباه شديد . وبدا أحدهم في آخر الصف مكشراً وأشاح آخر بوجهه لحظة التقاط الصورة . وقال داتنر : «لعل شامير بينهم» . وبحثنا دون جدوى عن الوجه المألوف الممتلىء . ولا يعرف داتنر كم من هؤلاء الصبية قصد إلى فلسطين ، وكم واحدا تخلّف .وكانت تحت تلك الصور ، مجموعة أخرى من صور أصغر حجماً ظهر في كل منها عدد من المعلّمين جلسوا على صفوف من الكراسي ، وأولاها مؤرخة عام١٩٢٦ وآخرها عام ١٩٣٨ .وإذا أمعنّا النظر عبر الصفوف ،

أمكننا أن نلاحظ هؤلاء المدرسين وهم يتقدمون في السنّ ، وأن نرى الوجوه النبيهة والطريفة أحياناً لمعلمي العبرية في بياليستوك تسير قدماً وبشكل حتمي إلى الهولوكست . وبدا في الصفّ الأمامي رجل عليه سمات الوقار ولعله مدير المدرسة ، كما بدت في الصف الثاني امرأة ذات ملامح أرستقراطية بارزة وشعر حالك السواد . وخلال السنوات العشر أصبح الرجل الوقور أكثر سمنة ، وإزدادت المرأة جمالا وإذا حاول المرء أن يلحظ تغييرا ما في تعبيرهما أو علامة من علامات القلق في عيونهما الغامقة في آخر صورة أخذها المصور - ويفترض أن تكون الصورة الأخيرة سنة ١٩٣٨ - فلا يمكن أن نلحظ أي تغيير .

وسألت : هل بقي أحد من هؤلاء المعلمين بعد الهولوكست؟ ووضع زايمون داتنر أصبعه القصير الغليظ على الجهة اليسرى من الصورة الأخيرة ومرّ بها بثبات باتجاه اليمين فوق المعلم القصير والبدين وقال وأصبعه يمرّ بصورة المرأة الجميلة «لا أحد منهم على ما أظن» وأضاف بعد هنيهة صمت : «إلا هذا» وأشار إلى قسمات وجه زايمون داتنر الصارمة المحدّقة .

ورأيت هناك صورة فوتوغرافية أخرى وراء سرير الرجل العجوز . وكانت صورة داكنة لعلّه تم تكبيرها عن صورة أخرى ممزقة لأن في أسفلها خطاً أبيض غير مستو . وتظهر في الصورة امرأة شابة جميلة مبتسمة ، ذات شعر أسود وإلى جانبها فتاتان صغيرتان . أما المرأة فهي سوزانة ، زوجة زايمون داتنر ، والفتاتان ابنتاه مريام وشالوميت .

ورغب في الحديث عنهن . قال : «حين جاء النازيون كنت وأفراد عائلتي نزلاء حارة اليهود (الغيتو) في بياليستوك . والتحقت بالحركة السرّية وذهبت إلى الغابات وصرت عضواً في مجموعة مؤيدة لليهود ما لبثت أن انضمت إلى عناصر روسية وبولونية مماثلة . لقد سقط نصف شعبنا في أرض المعركة . وظلّ النصف الثاني على قيد الحياة» . وتوقف زايمون داتنر لعدّة ثوان ، فلعلّه عرف السؤال الذي أردت أن أطرحه عليه وهو : ما الذي حصل لسوزانة ومريام وشالوميت؟ وظلّ صامتاً لأنه لا يعرف الجواب كاملاً . ثم أجاب أخيرا : «لكن يبدو لي أنهن متن يوم إبادة حي اليهود في بياليستوك سنة ١٩٤٣ . كن مختبئات في العنبر السفلي في البيت الذي نقيم فيه ، وأفشى أحدهم السرّ للنازيين فأعدموهن على الفور ، على ما أعرف . ولا أعرف المكان الذي دفنت رفاتهن فيه . إلا أنني كل ليلة قبل أن آوي إلى فراشي ، أتلو صلاة الكاديش ، وهي صلاة الموتى عند اليهود» .

وعاد زايمون داتنر إلى مكتبه . وأراد أن يعرف شيئاً عن لبنان فسألته عمّا يشعر به إزاء ما يحصل هناك وعن تلك الأحداث التي تورطت فيها إسرائيل ، وحول غزو لبنان سنة ١٩٨٢ . وكان ذوو داتنر قد هاجروا إلى فلسطين قبل الهولوكست وتوفيت والدته خلال الحرب . قال : «ذهبت لمقابلة أبي في

فلسطين سنة ١٩٤٧ .وأسعدني كثيراً أن أرى المكان الذي قدم اليه حوالي ١٠٠،٠٠٠ يهودي من جميع أنحاء العالم قبل الحرب . كان بمثابة الجنة الآمنة بالنسبة إليهم . وأنا متأكد أنه لولا سياسة الانتداب البريطاني في فرض قيود الهجرة على اليهود إلى فلسطين لنجا مئات الآلاف ، بل الملايين من اليهود من جميع البلدان الأوروبية التي احتلها النازيون ، وإسرائيل ــ في رأيي ــ أوّل وآخر خط دفاع للشعب اليهودي في العالم . وهذا هو رأيي اليوم» .

إن قناعات الرجل العجوز جعلت صوته يرتفع . وكان لدي سؤال لا بدّ أن أطرحه عليه . وقلت له إنه من المفترض أن يكون غير راغب في الإجابة عنه . وهو : كيف أقدمت إسرائيل ــ وهي الدولة التي تقدّر أفضل من جميع الآخرين فظاعة القتل الجماعي ــ على السماح بقتل الفلسطينيين في مخيمي صبرا وشاتيلا في بيروت؟ إن عدد الفلسطينيين الذين قتلوا ــ والذي بلغ ألفين ــ ليس له صلة بقتل الملايين الستة من اليهود الذين أبيدوا في الهولوكست . إلاّ أننا ــ زملائي وأنا ــ طرحنا على أنفسنا هذا السؤال مرّات عديدة في شاتيلا يوم المجزرة وأكداس الجثث مطروحة حولنا .

نظر زايمون داتنر أمامه . وأدرك لماذا طرحت عليه السؤال . تحدث ببطء ، وهو يختار كل كلمة بعناية فائقة وبإنكليزية ممتازة . قال : «في حدود علمي ، لم يشارك الجنود اليهود مباشرة في هذه المذبحة . إنها مذبحة أبرياء وهو أمر ممقوت دائماً بالنسبة لليهود . أنا لست في وضع يسمح لي بتحديد المسؤول عن الخطأ الذي أدّى لارتكاب هذه الجريمة المروّعة ، لكنني على يقين من أن اليد اليهودية لم تتورط في المجزرة» . وتوقف عن الكلام حوالي عشر ثوان ثم قال : «لكنني أعرف مجزرة أخرى ، مجزرة بشعة ذهب ضحيتها أطفال يهود في مكان يدعى معالوت ارتكبها رجل أو اثنان ينتميان لمنظمة التحرير الفلسطينية . أكثر من عشرين طفلاً سقطوا ضحايا ، في حدود علمي . بالطبع ، لا يمكن تبرير مثل هذه الجرائم بل يجب استنكارها وفضحها» .

ونظراً لأن محدثنا هو زايمون داتنر بالذات ، ونظراً لمأساته الشخصية ، ولأنه كان شاهداً على ما لا يخطر ببال ، بدا لنا من المستحيل أن نكلمه عمّا خبرناه في عالمنا الصغير . ذاك ان الحجّة التي قدمها بشأن صبرا وشاتيلا ــ من أجل أي أمر كان ــ هي تقريباً نفس الحجة التي يقدّمها العشرات بل الآلاف من الإسرائيليين الذين يلجأون فيها للمقارنات التاريخية حين يسألون . فالجنود الإسرائيليون الذين عرفوا بما حصل ، ولم يقدموا على عمل أي شيء للحؤول دون وقوع المذبحة التي كانت ترتكب على بعد مئات الياردات فقط عن مكان وجودهم ، ذكروا لنا هم أيضاً معالوت حين طرحنا عليهم أسئلتنا في غربي بيروت يوم ١٧ أيلول (سبتمبر) ١٩٨٢ . لقد أعربوا عن أسفهم لوقوع المجزرة بالمنطق ذاته . وكنا قد طرحنا الأسئلة مشككين ونحن ندرك ما كانت عليه الحقيقة . كانوا يعرفون ولكنهم لم يفعلوا

شيئاً . ولكن هل كان باستطاعة أحد أن يشكك في قناعة هذا العجوز الذي فقد زوجته وابنتيه والذي يعتقد بأن شقيقته وشقيقه وأعمامه وعمّاته ـ أي ما لا يقل عن ثلاثين من أقاربه ـ قضوا على أيدي النازيين ؟

كان الثلج قد بدأ يتراكم وراء نافذة مكتب زايمون داتنر ، والرقع تكبر ، والزجاج من الداخل يكتسي بالبخار . فقد هبطت درجة الحرارة في شارع لتيوسكا . قال داتنر : «يبدو لي أن الضمانة الفضلى لأمن إسرائيل إنما هي التفاهم والصداقة بين الإسرائيليين وجيرانهم العرب . لكن للزواج الذي يتأتى من الحب والاحترام شروطاً مسبقة ، حيث يجب أن يكون الحب متبادلاً لا مجرّد نيّة طيبة من قبل اليهود والعرب» .

وجلس زايمون داتنر على كرسيّه ثانية . ولم يشأ أن يذكر المزيد عن الفلسطينيين ، عن ذلك الشعب الذي يتطلع هو أيضاً إلى أرض فلسطين ـ التي نشد أبواه فيها الأمان ـ باعتبارها وطنه . وعليه فإنه تجاهل الشعور بالانتماء الذي يشعر به اليهود والعرب الفلسطينيون تجاه فلسطين . وسألته عن عدد من بقي من اليهود في بولونيا ، بلد الهولوكست ، ممن يعيشون بجوار أرواح شعبهم الذي رحل . وقال بحسرة : «بين أربعة آلاف وسبعة لا ندري ، إذ تجدر الإشارة إلى حقيقة محزنة وهي أن الخوف الذي تولد لدى اليهود من تجاربهم بلغ حداً صار معه الكثيرون من اليهود الذين نجوا من الهولوكست ـ أو قسم كبير منهم ـ يحرصون على إخفاء أصلهم . إنهم مختبئون وراء انتمائهم البولوني» .

وزايمون داتنر؟ تزوج ثانية بعد الحرب . وزوجته ، رغم أنها يهودية ، كانت عضواً بارزاً في الحزب الشيوعي البولوني . وبدل الهجرة إلى إسرائيل الناشئة حديثاً ، آثر البقاء بعيداً ليكتب عن الهولوكست ، وينشر الكتب والكراريس والمقالات الصحافية حول إبادة البولونيين واليهود . لقد نشأ في المتاعب ، وعيناه اللتان هما أشبه بعيون الشباب منهوكتان . ها قد بلغ الرابعة والثمانين من العمر . «وكل ذلك ـ كما قال ـ يكمن وراء الأسباب التي جعلتني أفضل البقاء لأعمل هنا . واليوم أنا رجل عجوز ينتظر النهاية المرّة التي يبلغها كل انسان في هذه الحياة ، وهي الموت» .

أوزويشم ـ بريزيك (أوشفيتز بير كنو)

يكاد أكثر الطريق من كراكاو إلى أوشفيتز أن يكون مكسّواً بالثلج . هذه الطريق تخترق سلسلة من القرى الفقيرة . وكان علينا أن نتوقف لنمكّن المزارعين من العبور . وهم رجال طوال القامة . يمتطون عربات نقل خشبية تجرّها أحصنة غليظة الرقاب لا تنفك عن الشخير . ولا تزال هناك أكواخ خشبية على جوانب الحقول ، وهي عبارة عن منشآت ضخمة لخزن المحاصيل ، سقوفها مقوّسة إلى أسفل

عند وسطها كما لو أنها ناءت مع الزمن بما تحمل ـ وحدث مرّة واحدة أن لاحت لبضع دقائق شمس شاحبة وردية اللون ضعيفة من خلال الغيوم الثلجية الغبراء .

وعلى بعد سبعة أميال شمالي أوزويشم قوي السير عند تقاطع مع سكة الحديد . فنزلنا من سيارتنا وغصنا بجزماتنا في الثلج وانتظرنا القطار الذي استغرق وصوله وقتاً طويلاً ، وكان باستطاعتنا أن نسمع هديره من بعيد . إذ إن سكة الحديد البولونية الرسمية كانت تستخدم قاطرات ديزل على خطوط نقل الركاب الرئيسية . و أخيراً أطل من الغابة على يسارنا قطار ضخم على البخار يعج بالمواسير والمكابس ومزوّد بمحولي هواء في جهته الأمامية ، وراح ينفث دخانه الأبيض عبر حقول الثلج ، ساحباً وراءه سلسلة طويلة من عربات البضاعة .

سمعنا ضجيج العربات وهي تمرّ أمامنا على مهل : عربات للمواشي ، وشاحنات ، وحافلة كبيرة للحرس ، كلّها تغرق في الضباب البارد . على أن سائقي السيارات أخذوا ينظرون إليها بلا اكتراث ، ويصعدون إلى سياراتهم بارتياح . وفي الوقت الذي وصلنا فيه إلى مدينة أوزويشم ، كان الضباب قد بدأ يظلم . وعلى غرار العديد من بلدان ومدن أوروبا ـ وإيرلندا ـ نجد أن لاوزويشم اسمين ، هما إرث المحتل أو المستعمر ، إرث الحضارة المشتركة أو المهزومة بولونية كانت أو روسية أو ألمانية . لكن مكاناً كهذا يحتاج إلى اسم مستعار ، إذ من يريد أن يعترف بأنه اختار الإقامة في أوشفيتز . وعليه فإن أهمية الاسم البولوني هي أنه ضروري للمصداقية الروائية وإلا فمن ذا الذي يستطيع القول أن محطة القطار المحلية (رحلات إلى وارسو كل ثلاث ساعات) زاهية نظيفة تمّ تزيينها بقرميد جديد . والحقيقة أن في محطة أوشفيتز ساعة حائط رقمية حرصاً على وقت المسافرين إلى كراكاو في فترة الازدحام . وهناك تحويلات من الخط تصل مباشرة إلى المصانع التي أنشئت منذ ٤٥ سنة ، وهي المصانع عينها التي بناها الألمان لأعمال السخرة . ولا تزال سكة الحديد المؤدية إليها هي نفسها حتى أن ستاكوتيز ووشيتز ، دليل الزوار الرسمي إلى معسكر الاعتقال ، صرّح بأنه يعيش في بيت بني للحرس الألماني بالمعسكر .

فهل الأمر في النهاية جزء من تفاهة الشر ، على حدّ تعبير حنّه آرنت الدقيق الذي أصبح عبارة مألوفة في المحاولات الساعية لفهم طبيعة الشرّ؟ وهل هناك ما يبرر أن يكون للخط الفرعي لسكة الحديد ـ الذي يتفرع بعد ميل واحد من محطة أوشفيتز ، وهو أفظع خط حديدي في العالم ـ سحر خفي أشد تأثيراً من شواهد الإبادة والجنون في المعسكر؟ ذلك أن الخط الحديدي الذي حمل الملايين إلى غرف الغاز لا يزال هو هو ، يمرّ باتجاه منحن وراء بعض الأكواخ الزراعية ويقطع طريقاً ضيّقة في أحد الحقول باتجاه بوابة القرميد والبلاط الأنيقة في بيركنو . ففي مئات الصور الفوتوغرافية ، وعلى أغلفة

يصعب حصرها لكل ما كُتب عن الهولوكست ، أصبح منظر هذه البوابة الهندسية مألوفاً . فهي مَعلم جغرافي فوق أرض غريبة يُميّزه الناظر إليه كما يُميّز لأوّل وهلة السور العظيم أو المدينة المحرّمة ، حتى ولو لم تكن قدماه قد وطئتا أرض الصين من قبل . وكما نقول :ها هو السور العظيم . نقول : أجل ، لا بد أن تكون هذه بيركنو . ترجلت من السيارة وسرت باتجاه سكة الحديد . كانت قضبان السكة وأربطتها الحديدية لا تزال مشدودة بإحكام إلى الأذرع الخشبية . وبوسع المرء أن يستقل القطار إلى معسكر أوشفيتز ــ بيركنو ، بدون التعرّض لخطر خروجه عن السكة ـ مباشرة حتى المنعطف الذي يريده . وكان الطقس بارداً إلى حدّ أن عدسات الكاميرا التي كنت أحملها قد تجمدت . لكنني التقطت صورتين لبوابة بيركنو ، واحدة على مستوى الأرض حيث كان الثلج يتراكم ناعماً على السكة . وفي الداخل كانت إشارات التحويل لا تزال موّجهة نحو اليسار وكأن أحدهم قد نشط في الإعداد لوصول شحنة جديدة . وأظن أنني افترضت ، فيما بعد ، أن حقيقة ما لا بدّ أن تظهر من خلال الصور ، حقيقة من شأنها الإحاطة بفظاعة ما حصل هنا .

قبل ذلك بأربعة أيام ، كنت في بيروت أقود سيارتي عبر مخيمي صبرا وشاتيلا الفلسطينيين بإتجاه المطار ، لأنني قدّرت أن في بولونيا ، وفي أوشفيتز بالذات ، لا بدّ أن توجد مفاتيح الحل لما شاهدته في بيروت . ومع ذلك ، فإن بين حرارة الشرق الأوسط وأعمال القتل الفوضوية فيه ، وبين هذا المكان المتجمد المنظم ، مرحلة كان ينبغي أن تقطع في مركبة فضائية وعبر سنين ضوئية .

فما من مجازر في لبنان تمكن مقارنتها مع ما جرى هنا ، إن من جهة الحجم أو من جهة الشر العلمي . فحجم الهولوكست هنا ـ محرقة الغجر والبولونيين من يهود وغير يهود ــ يبلغ حدّاً يفوق التصور بحيث تبدو المقارنة غير جائزة على الرغم من وقوع عشرات الآلاف من القتلى في لبنان . وليس هذا بالطبع ما ينبغي أن يعلّمنا إياه التاريخ ، ولا هو في حدّ ذاته بالأمر الصحيح . ولكن ، إذا كان هذا ما أفكر فيه ـ ولو لوقت قصير ـ أنا الغريب غير اليهودي الذي ولد بعد موت هتلر بعام ـ فكيف يمكن لأحد أن يطرح أسئلة على الناجين من الهولوكست أو على أبنائهم؟ وأهم من ذلك كله كيف يمكننا الاقتراب من فهم سلوك الدولة التي صنعت في أفران أوشفيتز الحقيقية ـ على حدّ قول الكثيرين من مواطنيها؟ كل يهودي من ضحايا الهولوكست صار مواطن شرف في إسرائيل ، كما كتب على نصب ياد فاشم التذكاري خارج القدس . واذا كانت هذه الفرضية مقبولة ، فإن زيارة أوشفيتز ليست إذاً مجرّد حج إلى أضخم مقبرة جماعية في العالم ، بل هي اعتراف أيضاً بارتباطها الوثيق بالشرق الأوسط وبالمأساة التي لا معنى لها إذا ما عولجت بالأرقام فقط ، لا سيما وأنها مأساة شعب ، مأساة عدد من الشعوب شهدنا بأنفسنا ـ زملائي وأنا في لبنان ـ ما يقاسونه من ويلات .

ويمكن حتى لما كتب عن الهولوكست أن يكون في فظاعة تجربة العنف الراهنة في الشرق الأوسط . ففي الليلة التي سبقت سفرنا إلى أوشفيتز ، كنت مستلقياً على فراشي في فندق بولسكي في كراكاو أستمع إلى الثلج وهو يتساقط على الزجاج وأقرأ إحدى القصص القصيرة التي كتبها تادور بوروفسكي عن معسكر بيركنو وهي قصة بعنوان : «من هنا طريق الغاز ، سيداتي سادتي»(١) . فقد حدث بعد أن نجا بوروفسكي من أوشفيتز ودخاو أن خنق نفسه عام ١٩٥١ بالغاز . ويشير الكتاب إلى أنه من وضع إنسان شبه ميت . ويتوسع المؤلف في عباراته ليبلغ حدود المعنى تماماً . فالمعنى عنده أكثر أهمية من القواعد اللغوية . فتجنب الخطاب المباشر وأورد جملاً بكاملها دون أفعال . كتب بوروفسكي يقول : «الحيّ دائماً على حق ، والميت دائماً على خطأ» ، لكن الناشر لا يوافقه على ذلك إذ يقول في المقدمة : ان ما كتبه بوروفسكي عن أوشفيتز يدل على أن الميت على حق .

يتخذ بوروفسكي لنفسه شخصية كابو في المعسكر ، وهو سجين ينتظر رحلة القطار لنقله مع اليهود من هنغاريا وهولندا وفرنسا وألمانيا نفسها . يقول :

« ببطء ، ببطء رهيب يتقدم القطار . الآلة تطلق صفيراً أشبه بزعيق يصمّ الآذان . مرة أخرى وجوه منهوكة شاحبة أمام النوافذ مسطحة كأنما اقتطعت من أوراق الصحف ، وعيون واسعة محمومة تحترق . ها إن العربات تتوقف ، وصاحب السجل الهادىء يقف في مكانه ، ورجال الحرس يظهرون آتين من مقرّهم حاملين الحقائب المخصصة للذهب والمال . نزعنا الأختام من أبواب القطار . فمن المستحيل أن يسيطر المرء على نفسه وقتاً أطول . فاختطفنا الحقائب من بين أيديهم بشراسة وانتزعنا معاطفهم بلهفة ، وصحنا فيهم : أغربوا من أمامنا . رجال ونساء وأطفال بعضهم يعرف ذلك» .

كان الضحايا من اليهود الهنغاريين الذين وصلوا إلى أوشفيتز سنة ١٩٤٤ حيث لاقوا مصرعهم . والأربعمئة ألف جميعاً أحرقوا في غرف الغاز بمعدل ٢٤،٠٠٠ في اليوم بالرغم من أن ذلك كان يفوق طاقة الأفران .

إنهم يجرّون إلى العربة رجلاً متقدماً في السن يرتدي سترة طويلة وقد طوّق ذراعه برباط . رأسه يصطدم بالحصى وبحجارة الرصيف . كان يئن ويولول بصوت رتيب : «أريد أن أكلم القائد . . .» . عدة رجال آخرين يحملون فتاة صغيرة بساق واحدةوالدموع تنهمر على وجهها وهي تتمتم خائرة القوى :

(١) **This way for the Gas, Ladies an Gentlemen** by Tadeusz Borrowski: Introduction by Jan Cott (London, Penguin, 1986) PP 42 - 6.

«سيدي إنها تؤلمني ، إنها تؤلمني . . .» . وألقوا بها في العربة فوق الجثث التي ستحرق معها وهي حية» .

فهل ينبغي للمرء ـ بناء على ذلك ـ أن ينظر إلى أوشفيتز على أنها المكان الذي يدرك فيه معنى الشر ، أو أنها حرم للموتى والعذاب : أو أنها فقط مقياس للمسافة الفاصلة بين أولئك الذين نجوا بعد أوشفيتز وأولئك الذين لم يستطيعوا أبداً أن يفهموا معنى ما حصل؟ في وارسو ، التقينا بمراسل الأسوشيتد برس . وكان قصد إلى أوشفيتز برفقة وفد يهودي لإقامة صلاة تذكارية . قال المراسل : «كان اثنان منهم وهما رجل وامرأة على رصيف المحطة حيث جرى انتقاء الأشخاص الذين سيلقون في غرف الغاز ، فأخذا يتجادلان حول المكان الذي وقف فيه مانجل طبيب المعسكر المولج بإجراء الاختبارات . قال الرجل إن مانجل كان يقف في هذه الجهة ، بينما أقسمت المرأة ـ وقد أجهشت بالبكاء ـ أنه كان يقف في الجهة الأخرى من الرصيف . وكانت جميع عدسات الكاميرا التلفزيونية تسجل حركات تلك المرأة المسكينة التي أصيبت بانهيار عصبي عندما دخلت في جدل حول المكان الذي وقف فيه مانجل . فهل تستطيع أن تتصوّر ذلك؟ .

إن سؤاله يصيب بلا قصد جوهر القضية التي تواجه كل قادم جديد إلى هذا المكان . لا لأن ما حصل هنا يستعصي على الفهم فحسب ، بل لأنه كذلك يتعدى الخيال . وربما كان هذا هو السبب في أن ما كتبه بريمو ليفي ينقل لنا من حقيقة ما حدث أموراً أهم من الآثار الموجودة في أوشفيتز وهو الدليل الواقعي المرعب على أن ذلك كله حدث كما سمعنا به . فغرفة الغاز الباقية في معسكر أوشفيتز الأصلي ، والمحرقة التي تحمل توقيع صانعها في معامل ايرفورت والتي لا تزال حتى الآن معروضة في الفرن ، وأكداس الشعر البشري التي تملأ الغرف ، ومجموعة أجهزة الاختبار الطبية ، وأكوام النظارات ، وقضبان حديد سكة بيركنو وحائط الإعدام ، وكميات المشانق ، كل ذلك هو الذي يثبت صحة ما رواه بوروفسكي أو ليفي ، وليس الأدلة التي يسوقانها لأن الدليل لا يقوم إلا في اطار الخيال .

ولا يختلف عن هذا بعض الشيء إلا صفائح زيكلون ب البلورية الفارغة التي قام طباخ أهوج بنزع سداداتها كما ينزع قشور الفاصوليا وأفرغها على عجل . ويدل تثلّم أطراف السدادات المعدنية على مدى استعجال الرجل الألماني في سكب المواد في غرف الغاز ، فلعله كان يقول «علي أن أسرع في إنهاء هذا العمل» . وكانت هذه الفظاعات الصغيرة العفنة جزءاً من عمل روتيني بوسع الخيال أن يحيط بها .على أن ثمة أشياء في صناديق العرض بأوشفيتز لا يُعرف مغزاها .

ففي إحدى غرف المباني القديمة ، كانت هناك أكوام من الحقائب ، معظمها يحمل أسماء

أصحابها . إنها نماذج قليلة من تلك الحقائب التي ذكر بوروفسكي أن كابو وزملاءه انتزعوها بعنف من أيدي اليهود في محطة سكة الحديد في بيركنو . وليس هناك شيء غير واقعي في هذه الأمتعة . فالأسماء كُتبت على أكياس على عجل ، وكتبها أولئك الذين كان عليهم أن يغادروا بيوتهم وحاراتهم بسرعة . وكانت إحدى هذه الحقائب بنية اللون مشققة تحمل إسماً خطته يد أحد الصغار بحروف غير متناسقة وهو «كارل إسرائيل هافنر ، فيينا ١ ، شارع بيبر ١٤» ودوّنت الاسم والعنوان . ترى هل كان كما يوحي خطه صبياً صغيراً في عمر تلاميذ المدرسة؟ وهل نجا من أوشفيتز بأعجوبة ، وعاد إلى بيته القديم؟ وما الذي جرى لأبيه وأمه وأخوته واخواته ؟ هل نجا أحد من أفراد عائلته من الهولوكست؟

في طريق عودتي إلى بيروت ، جعلت سفري عبر فيينا ، وركبت سيارة أجرة إلى المدينة . وكان البرد كبرد بولونيا . كما أن شارع بيبر كان غارقاً في الثلج . وهو شارع ضيق أنيق والنوافذ فيه مزدوجة الزجاج اتقاء للبرد . ويبدو أنه عرف في الماضي أياماً أفضل . ذلك أن رقم ١٤ لم يعد شقة فقد كتب على البوابة الرئيسية التي لا بدّ ان يكون كارل هافنر عبرها قبل ٤٥ عاماً لآخر مرة ممسكاً بحقيبته الثقيلة : «وزارة الزراعة» . أصبح المجمّع السكني قسماً من وزارة الزراعة النمساوية وحوّل داخله إلى مكاتب . سرت إلى مكتب البريد المجاور لكن الفتاة الموظفة فيه لم تستطع الإجابة على أسئلتي وقالت أن ليس بامكان مكتبها أن يقتفي أثر واحد من السكان طال غيابه عن الحي . وحتى الحاخام المحلي في شارع بيبر الذي يشكل كل ما تبقى من منطقة اليهود في فيينا ـ لم يكن لديه سجلّ يحمل هذا الاسم . لقد اختفى كارل إسرائيل هافنر واختفت عائلته وهويته وحتى وجوده ذاته . فكأن عائلة هافنر لم توجد على الاطلاق وهو ما قصده هتلر . فتلك الحقيبة القديمة التي تحمل خط الصبي هي الشاهد على اختفاء كارل ومكان اختفائه .

لقد فهم ووجيك ، دليل الزوّار الذي رافقنا في أوشفيتز شيئاً من هذا ، إمّا لأنه التقى بالعديد من الناجين ، وإمّا لأنه يقطن هو وزوجته وابنه في أحد بيوت الحراس وأنه بالتالي بات ينظر إلى حقيقة أوشفيتز على أنها أمر مألوف . كما أنه يعرف أموراً أخرى تستند إلى حقائق مرعبة من واقع أوشفيتز قال : «منذ أسابيع ، استقبلنا هنا وفداً من ألمانيا الغربية جاء لوضع الأكاليل على حائط الإعدام ، حيث قتل الألمان بالرصاص آلاف الأشخاص ، بينهم عائلات بأكملها وأمهات وآباء أمسكوا بأيدي أطفالهم الذين وقفوا بينهم لحظة إعدامهم . وكان علينا دائماً أن نبعد الأكاليل بعد أن تذبل . وبهذه المناسبة ، ذهب زملائي لنقل بقايا الأكاليل بعيداً . وحينما رفعوا عن الحائط إكليلاً ذابلاً عثروا خلفه على صليب معقوف صغير صنع من البلاستيك . ترى لماذا يقدم أحدهم على مثل هذا العمل؟» .

وما على المرء إذا أراد المزيد من الشواهد على ظلام العقل إلا أن يلاحظ أحوال حرس المعسكر .

أجل ، لا يزال إلى الآن حرس في بيركنو ، يرتدون اللباس الأسود ، وهم مولجون رسمياً من قِبل الحكومة البولونية بحماية أوشفيتز . وبَيَّن ووجيك السبب بطريقة واقعية فقال :«كما ترى نحن نعتقد بأنه لا ينبغي لأحد أن يأخذ شيئا من هنا ، لكن الناس الذين يفدون علينا يحملون معهم آلات لكشف المعادن بحثاً عن بعض الأشياء» . ولم يكن بوده أن يسترسل في الكلام لأنه على ما يبدو كان سيذكر شيئاً مخجلاً . فلما ألححنا عليه بالسؤال عما يمكن للمرء أن يبحث عنه بواسطة آلة الكشف عن المعادن ، قال : «في الليل ، يأتون إلى هنا ويتوجهون تواً إلى الحفر ، حيث ألقى النازيون برماد الأموات ويبدأون البحث . فقد تناهى إلى أسماعهم أن بعض الرجال والنساء كانوا قبيل إرسالهم إلى غرف الغاز يعرفون مصيرهم سلفاً . ولما كانوا يحملون مجوهرات وأشياء خاصة ، فقد آثروا أن تدفن معهم على أن تقع في أيدي النازيين . من أجل هذا يأتي هؤلاء الأشخاص بآلاتهم الكاشفة أثناء الليل . يأتون للبحث عن المجوهرات . ولهذا السبب عُيّن الحراس» .

إن زوّار أوشفيتز لا يقومون عادة بزيارة حُفر الرماد . فالطريق إليها طويلة غير معبّدة ، وتقوم عليها سلسلة من أبراج الحراسة وتتميز بسطوح قرميدية أنيقة وبأعمدة للأسلاك الشائكة في مجمّع غير مكتمل ببيركنو . إذ كان الألمان ماضين في توسيع أوشفيتز حين وصل الجيش الأحمر لتحريرها . وعبر بوّابة صدئة ، دخلنا غابة صغيرة بين صفوف من أشجار الشوح الباسقة . وكان الثلج يكسو لحاء الأشجار وذلك على أثر عاصفة ثلجية وقعت في الليل ، إلا أنه في خضّم السكون ـ ومن وقت لآخر ـ كانت رقائق الثلج تتدحرج من أعلى الأغصان فتحدث انهيارات صغيرة في قلب الجبل .

وعلى يميننا كانت توجد بقايا بناء حجبها الثلج عن النظر ، وهي بقايا واحدة من غرف الغاز الأربع في بيركنو التي دمرها حرس المعسكر خلال الأيام الأخيرة . وعلى مسافة منها كانت هناك حفرة عميقة بجوار الغابة ، وهي عبارة عن خندق حفر وفق زاوية قائمة إلى جانب سور من أشجار الشوح ، وهناك أيضاً أبراج الحراسة الأنيقة الحسنة البناء القائمة بين الأغصان . والحفرة واحدة من حفر استخدمها الألمان حين ضاقت الأفران بالجثث التي كانت تحرق بمعدل ٢٤،٠٠٠ جثة في اليوم . وكانت الأجساد تُكوّم على شكل أهرامات وتحرق على حوامل خشبية فوق الحفرة ، ثم تُرمى البقايا مع سائر أنواع الرماد في البحيرات الطبيعية الصغيرة بجوار البقعة الجرداء من الغابة .

وقف ووجيك هناك في الثلج دون أن ينبس بكلمة . إنه قيّم المتحف الذي دفن فيه رفات ما يقارب أربعة ملايين إنسان معظمهم من اليهود . ومن فوق الأشجار ، من الجهة البعيدة من أوشفيتز سمعنا زعيق قطار بخاري . وربما كان هذا نفس القطار الذي شاهدناه صباحاً ، يعود بمركباته الفارغة إلى كراكاو ووارسو . وكان صفيره يتحول إلى زعيق قوي يعلو وينخفض قبل أن يلفه الضباب . وخيّم

السكون على الغابة . فقال ووجيك أنه لم يرَ ولم يسمع قط زقزقة العصافير في هذا المكان ، وأنه لم تنبت أية أشجار على ضفاف البحيرات الصغيرة وأضاف : «أظن أن جذور الأشجار لا يمكن أن تنمو في الرماد» .

والواقع أن هذه لم تكن بحيرات ، بل مجرّد برك صغيرة متجمدة ذات حواش من النبات التحتي يغطيها الجليد . ولو أن ما رأيناه كان في مكان آخر لاسترعى انتباهنا بجماله ، وحفز أحدهم إلى إقامة دكة خشبية على ضفة إحدى البرك لصيادي السمك ، أو ربط عندها أحد القوارب . بل لو وجد ذلك في بلد آخر لكانت هناك على الأقل إشارة ما إلى ما فيه . فبقايا ثلاثين من البشر فقط تستحق شاهداً ، والمكان الذي قضى فيه ٣٠٠ شخص يستحق فناناً ذا شهرة عالمية لإقامة نُصب . والنُّصب التذكارية في الحقيقة موجودة في بيركنو بين طرفي المكان الذي تقع فيه غرف الغاز ، ولكن هنا عند هذه الحفرة من الرماد ، لا يوجد أي شيء من هذا . فإذا كانت أضرحة ٣٠٠ إنسان تستوجب التكريم ، فما الذي يمكن قوله بالكلمات عن رفات ٣٠٠٠ أو ٣٠,٠٠٠ من البشر؟ ولنكن واقعيين بشأن هذه البركة الصغيرة التي دفن فيها ٣٠٠,٠٠٠ شخص .

في مكان ما من الأعماق الباردة تحت الجليد يوجد مسحوق عظام بيضاء لسكان مدن بأسرها ، وأجيال وقارة بأكلمها . وعلى إحدى ضفاف البركة عشب طفيلي متجمد داسته الأقدام ، وعلى الشاطى آثار أقدام حيوانات صغيرة محفورة في الجليد . فلعل أحد الثعالب اختصر الطريق عبر البقعة الخالية من الأشجار . وفي الوسط حفرت أظافر الحيوانات سطح القشرة الخارجية . وواضح أن الثعلب فرّ مذعوراً إلى داخل الغابة وذلك لأن آثار قوائمه قد عكست اتجاهها على الجليد .

التقطت صوراً عديدة بالأسود والأبيض لهذه البحيرة الصغيرة بصفحتها المتجمّدة وللأشجار من ورائها . وحينما عدت إلى بيروت عملت على تظهير الصور . لكن تَبيَّن أن هناك خطأ ما في المادة الكيماوية التي استُخدمت في التظهير . ويبدو أنها مُزجت بالماء قبل بيعها . فبعد أربعة أسابيع أو خمسة بدت صور أوشفيتز ورأس السكة في بيركنو ، وغرف الغاز وحفر الرماد كأنها ناتئة باهتة يلفّها لون داكن معتم جعلها أشبه بصور أيام الحرب . إنه اللون نفسه الذي يميّز تلك الصور الفوتوغرافية السريعة التي التقطت لليهود الذين كُتب عليهم الموت ، وعُلّقت على الحائط في غرفة نوم زايمون داتنر العجوز .

الفصل الثاني

مفاتيح فلسطين

«إنها مأساة لشعبينا . كيف يمكنني أن أفسّر بإنكليزيتي الضعيفة؟ أعتقد أن للعرب ذات الحقوق التي لليهود ، كما أعتقد أنها مأساة تاريخية أن يتسبب شعب لاجئ بخلق لاجئين جدد . ليس لديّ أي شيء ضد العرب . . . إنهم تماماً مثلنا . أنا لا أدري ما إذا كنّا نحن اليهود قد خلقنا هذه المأساة ـ لكنها وقعت» .

شلومو غرين

«لاجئ يهودي هارب من النازية ، حين علم أن بيته في إسرائيل انتزع من عائلة عربية عام ١٩٤٨» .

حين قام ديفيد روبرتس بجولته في الأراضي المقدّسة ، كان مستكشفاً بقدر ما كان فناناً . كان رومانطيقياً عمد إلى تنقية الحقائق الساخنة الفجّة في الشرق الأوسط بغربال خاص . سافر على ظهر حصانه عبر فلسطين قبل أن يبلغ ساحل لبنان الجنوبي في ثلاثينات القرن الماضي . وأمضى هذا المغامر ليلة ضيفاً على حاكم صور ، ثم قطع سلسلة جبال الشوف وسط الثلوج إلى أن بلغ وادي البقاع المتميز برونقه الخاص ، حيث رسم الهياكل العظيمة في مدينة هليوبولس الرومانية .

والعالم الذي رسمه كان خلواً من الحروب والنزاعات السياسية والأخطار . وليتوغرافياته (رسوم على الحجر) التي تمثل القرى الفلسطينية واللبنانية ، من صور إلى رأس الناقورة ، إلى هياكل بعلبك ، تنعم بسلام القِدم . إنها صور حالمة من القرن التاسع عشر ، قد ازداد سحرها في عقود السنوات التالية التي شهدت انهيار الإمبراطورية العثمانية ومن بعدها الإمبراطورية البريطانية .

وبالإمكان اليوم أن نشاهد ليتوغرافيات روبرتس ومائياته الملوّنة التي تمثل فلسطين زمن العثمانيين ، في مداخل البيوت وغرف النوم وغرف الإستقبال لدى عشرات الآلاف من الفلسطينيين في لبنان . وفي مخيّم عين الحلوة ـ المخيّم الفلسطيني الضخم شرقي صيدا تماماً ـ نجد نسخاً زهيدة الثمن من ليتوغرافيات روبرتس المطبوعة ، تمثل نابلس والخليل والجليل والقدس ملصقة على جدران الإسمنت في بيوت اللاجئين المتواضعة أو معلقة عليها في إطارات زجاجية باهتة . أما ليتوغرافياته عن وداعة لبنان التي غرقت في عالم النسيان ، فمعلّقة هي الأخرى في بيوت اللبنانيين . ويمكن شراء المجلّدات من أعمال روبرتس عن لبنان وفلسطين من جميع متاجر بيروت . كما يمكن ابتياعها من معظم الفنادق السياحية في إسرائيل . فهي البلسم الذي يمكن أن يؤمن به أيّ كان .

وفي رسم روبرتس ليافا تطل عليك المدينة القديمة بقببها ومآذنها وطرقها المغبرة . وترى إلى جانب الصورة ريفياً وزوجته وقفا إلى جانب حمارهما وهما ينظران إليها . وفي عكا ، تصل أسوار قلعة ريكاردوس قلب الأسد الضخمة إلى المتوسط الهادىء في الوقت الذي يمرّ فيه طيف وجوه عربية تتنزه عند الغسق على طريق السراي . ونرى من وقت لآخر كثبان الرمل الملوّنة مغسولة بالضوء الأخضر ، فلعلها تشكل بالنسبة للفلسطينيين شبه دليل على أن الصحراء ازدهرت قبل أن ينشىء الإسرائيليون دولتهم . وفي لوحة القدس الملحمية التي رسمها في نيسان (أبريل) ١٨٣٠ صورة ظلية للمدينة المقدّسة تبدو فيها أبراج كنائسها ومآذنها ، وقبة الصخرة ، مجرّد خطوط رمادية تحت سماء ليل جميل . كما يظهر فيها ستة أشخاص من العرب ـ يشير لباسهم وما على رؤوسهم إلى أنهم بدو ـ وهم يستريحون بجوار بئر عتيقة ملأى بمياه زرقاء صافية . وإلى جانب البئر عمود روماني مكسور تذكرنا قاعدته الضخمة بعظمة التاريخ . إن ليتوغرافيات روبرتس قد أصبحت نوعاً من «الكليشيهات» التي استنفدها الإستعمال المفرط ـ وهي تمثل قضية وحلماً في آن . فإذا كانت تلك الأرض كذلك فيما مضى ، فلِمَ لا تعود إلى ما كانت عليه؟

وعلى جدار منزلي في بيروت إحدى ليتوغرافيات روبرتس التي تمثّل مدينة صور الواقعة جنوبي لبنان . ومن بعيد تبدو شبه الجزيرة العظيمة التي بني فيها الإسكندر مدينته ، كما تلوح في صدر الصورة الوجوه العربية المألوفة ، والصرح الروماني المحطم . وحدث بعد ظهر أحد الأيام عام ١٩٧٨ أن عدت من صور بعد أن قضيت فيها ١٢ ساعة تحت القصف الإسرائيلي . وكانت صور التي رجعت منها مدينة الطرقات غير المعبدة والمجارير المفتوحة ، مدينة المخيمات الفلسطينية والفدائيين الفلسطينيين ، مدينة البنادق والسفن الغارقة والإنفجارات المدوّية . فهل لهذا صلة ما بالصورة التي وضعتها في غرفتي؟ هل هي جزء من لبنان الذي عرفته؟ هل هي مشهد من تلك المشاهد التي سأشعر بالحنين أو

الشوق إليها في السنين القادمة؟ إن الآثار الرومانية في صور ، وعدداً قليلاً من مستودعات الميناء العثمانية ، وشوارع الحي المسيحي الصغيرة بجوار المرفأ ، كلها لا تزال موجودة . والمتوسط ، البحر الكبير الأخضر الشاحب المائج على شاطئ فينيقيا الذي يتحكم في حركاتنا ونمط حياتنا ، هو مصدر الصلة الأساسية الثابتة بين عالم روبرتس البعيد الذي لم تلتقط له صور فوتوغرافية وبين البلد الذي أعيش فيه اليوم .

من يقرأ سيرة روبرتس يدرك أن العالم الذي زاره كان مليئاً بالعنف : فحين كان يعبر جبال الشوف المكسوّة بالثلوج ، أخبروه بأن هناك مسلحين على طريق بعلبك ـ تماماً كما هي الحال اليوم . لكن في الصورة المعلقة على حائط غرفتي عالم جديد من العمق والصفاء . وإذا كنت أنا أستطيع أن أستمتع بالحلم ، أفليس أولى بأولئك الذين ولدوا في إسرائيل أو لبنان أو فلسطين ـ أو أولئك الراغبين في العيش على الأرض التي كان اسمها فلسطين ـ أن يصدّقوه .

لا ريب فيما يقوله الفلسطينيون العرب وهو أن عدد اليهود عندئذ لم يكن يتجاوز ١٠ بالمئة من مجموع السكان . إلا أن وجود اليهود فيها لم ينقطع وأن اليهود أنفسهم يعتبرونها وطنهم القديم . لكن قبل ثماني سنوات من قدوم روبرتس وجلوسه على أعلى تلة مشرفة على المدينة ، لم يكن في فلسطين أكثر من ٢٤،٠٠٠ يهودي[1] ، على أن جولة سريعة على المكتبات القديمة في بيروت أو القدس كافية لأن ترينا أن الأشباح بدأت بالظهور . ففي سنة ١٨٣٥ ، على سبيل المثال ، أي بعد ليتوغرافيات روبرتس لمدينة القدس الآمنة بخمس سنوات ، نرى الكاتب الفرنسي ألفونس دي لامارتين يوصي قراءه أثر زيارته إلى هناك في كتابه «رحلة إلى الشرق» بأن فلسطين أرض خصبة للمشاريع الإمبريالية أو الإستعمار ما دامت لا تشكل دولة .

وفي غضون ستين سنة أخذ افتتان القرن التاسع عشر بالشرق الأوسط يفقد رومانطيقيته حتى في نظر أشد الرحالة اهتماماً بالشؤون الدنيوية . فذات يوم اشتريت من مخزن للكتب النادرة نسخة من طبعة ١٨٩٢ لدليل المسافرين الذي وضعه جون موري . وكان غلافه الأحمر ممزقاً وعنوانه المذهّب باهتاً . ولفت نظري فيه قسم تحت عنوان «العرب المسلمون» يقول :

إنهم معتدّون بأنفسهم ، متعصبون وأميون . . . هم على العموم نبلاء في سلوكهم ، حسنو التهذيب ، مسرفون في الكرم ، إلاّ أنهم لا يعبأون بالصدق ، وليسوا شرفاء في التعامل ، ولا يقيمون في

(١) Said, Question of palestine p. 9.

سرّهم وزناً للسلوك الأخلاقي» . أما اليهود ، من جهة أخرى ، فيعتبرهم الدليل نفسه«أشد الناس إثارة للاهتمام في تلك الأرض . . . ويهود فلسطين غرباء ، قدموا من جميع أصقاع الدنيا . . . في السنوات الأخيرة حصلت حركة هجرة قوية لليهود إلى فلسطين ، لكن الحكومة التركية تجدّ في منع توطينهم بكل ما تملك من وسائل» .

تلك هي المشاعر الحقيقية التي أثارتها المنطقة التي تقطعها طرق الترانزيت إلى الهند لدى بريطانيا الإمبريالية . لقد شجعت بريطانيا نموّ الصهيونية في فلسطين خلال السنوات الأولى للحرب العالمية الأولى لأنها كانت تريد من اليهود الأميركيين أن يحملوا بلادهم على دخول الحرب ضد تركيا . وبما أن القيصر كان قد أصبح حليفاً ضد ألمانيا لم يكن من السهل سياسياً المطالبة بوضع حد لمناهضة السامية في روسيا . وحول فكرة توطين اليهود في فلسطين ، أبرقت الخارجية البريطانية سنة ١٩١٦ لاثنين من سفرائها تقول :«من المرجح أن تصبح (الفكرة) أكثر جاذبية بالنسبة لغالبية اليهود إذا حملت الأمل في إمكان قيامهم بإدارة شؤون فلسطين الداخلية عندما يسمح عدد المستوطنين اليهود بالوقوف في وجه السكان العرب . . . إن غرضنا الوحيد هو إيجاد تدبير فيه من الجاذبية لغالبية اليهود ما يمكننا من المساومة على الدعم اليهودي»(٢) .

إنها في الحقيقة صفقة عقدت عن سابق عزم وتصميم مثل إعلان بلفور عام ١٩١٧ الذي أعلن فيه البريطانيون عن تأييدهم لإقامة وطن قومي لليهود في فلسطين يضمن عدم حصول أي شيء من شأنه إلحاق الضرر بالحقوق المدنية أو الدينية للطوائف غير اليهودية المقيمة في فلسطين» . أما التصريح المماثل الذي صدر عن الإنكليز والفرنسين سنة ١٩١٨ ، وتضمّن وعداً للعرب من رعايا السلطنة العثمانية بالحصول على استقلالهم إذا هم ساندوا الحلفاء ضد الأتراك ، فهو تصريح من النوع نفسه ، على الرغم من أنه لم يكن في نية أصحابه الوفاء به . فبلفور نفسه صرّح في العام التالي :«في فلسطين ، نحن لسنا مستعدين حتى للوقوف على رغبات السكان الحاليين في هذا البلد» . فبالنسبة لبلفور ، كانت الصهيونية ذات أهمية أكبر بكثير من رغبات وميول ٧٠٠،٠٠٠ عربي يعيشون على هذه الأرض القديمة (أرض فلسطين)(٣) وقد ساعدت المذبحة الفظيعة التي وقعت على نهر السوم وفي باستندال

(٢) من الكتب التي تتصف بعمق النظرة وسعة البحث وتشتمل على مزيد من الأمثلة على السياسة الخارجية الذرائعية الكتاب التالي :

Frank Hardie and Erwin Herman: Britain and Zion: The Fateful En Tanglement, Blackstaff Press, 1981.

(٣) Said, Question of palestine p. 16.

على تمهيد الطريق لقطع تلك العهود المتناقضة ، تماماً كما أدّى حصول مجزرة أشد فظاعة خلال الحرب العالمية الثانية في أوروبا إلى قيام دولة يهودية في فلسطين . ففي مواجهة هذا التجديف التاريخي ، تقف سليلو الأشخاص ذوي الألبسة الزاهية الذين ترسمهم ليتوغرافيات روبرتس بلا أمل .

أما البريطانيون أنفسهم فقد بدأوا بالإنزلاق على تلك الأدراج الدموية في الوقت الذي وضع بلفور توقيعه سنة ١٩١٧ . وعبّر عن هذا ونستون تشرشل في مناسبة مختلفة فقال : «في البداية ، كانت الدرجات عريضة وقصيرة ومفروشة بسجّادة ، ولكن في النهاية تحطمت الحجارة تحت أرجلهم» . ومن الرجال الذين كان عليهم أن يمشوا على ذلك الدرب الخطر مالكوم ماكدونالد وزير المستعمرات (سنة ١٩٣٨) الذي سعى عبثاً للتوفيق بين الوعود التي ولدها اليأس في الحرب العالمية الأولى وذلك قبل اندلاع الثانية ، وعمل على المحافظة على النظام في فلسطين الخاضعة للانتداب البريطاني بالحدّ من هجرة اليهود .

وبعد أربعين سنة ، جلست في صالون منزله بسفنوك في مقاطعة كنت ، وأخذت أرقبه وهو يهزّرأسه بقوة ذات اليمين وذات اليسار ويتأمل حطام جهوده لحلّ المشكلة الفلسطينية . إذ قوي وجود الأشباح . فتشرشل المناصر الكبير للصهيونية ، أدان ماكدونالد بعنف في مجلس العموم سنة ١٩٣٨ وتابع حملته الكلامية عليه بعد ذلك في قسم اللوبي بمجلس العموم . قال ماكدونالد :«اتهمني تشرشل بأنني مؤيد للعرب . وقال إن العرب متوحشون ولا يأكلون شيئاً سوى روث الإبل» . لكن كان بمقدور البريطانيين أن يتحاشوا تحويل هذه النزاعات إلى نزاعات شخصية بكرم لن يتوافر لمن كتب عليهم أن يكونوا ضحاياهم . وأضاف ماكدونالد :«كنت أرى أنه من غير المجدي إقناعه (أي تشرشل) بتغيير رأيه . وفجأة قلت له إنني أتمنى لو كان لي ولد . وسألني لماذا فقلت : كنت أقرأ كتاباً اسمه «حياتي المبكرة» بقلم ونستون تشرشل ووددت لو كان لي ابن ليعيش حياة مماثلة ، عندئذ أغرورقت عينا تشرشل بالدموع وغمرني بذراعيه قائلاً : «مالكولم ، مالكولم» . كان ماكدونالد يجلس على كرسيه الوثير وهو يتذكر هذه القصة ، كما يتذكر العجوز الفرص الضائعة ـ توفي بعد ذلك بأربع سنوات . وتحوّل لإبريق الشاي وملأ لكلّ منا فنجاناً كبير الحجم . ثم وضع الإبريق من يده ، وحدق هنيهة في الأرض ورفع ناظريه محملقاً ، وأشار بأصبعه نحوي بحركة أخافتني لكونها مفاجئة وقال : «لكنك تعيش الآن في بيروت ، لأنني فشلت» .

كيف كان له أن ينجح والأشباح تتزايد والصور تتداخل . فمن المفترض أن يكون نُصب ياد فاشم على تلال القدس الغربية قد وضع من أجل إحياء ذكرى الهولوكست . إن عبارة«من المفترض» قد تغضب العديد من القراء اليهود ، لكنّ ياد فاشم ليس نصباً تذكارياً بقدر ما هو بيان سياسي ، فوثائقه

وصوره ترشد إلى موضوعه وهو أن الهولوكست قد أنتج دولة إسرائيل ، وأن كل معارض لقيام هذه الدولة يقف على مستوى واحد مع النازيين . وهكذا ففي نفس المبنى الذي تظهر فيه صور الشرطة السرية الألمانية وهم ينتقون اليهود على أرصفة بيركنو ، نجد صوراً جديدة للمظليين البريطانيين يشيرون إلى الناجين من معسكر الاعتقال بالابتعاد عن فلسطين ما بعد الحرب . فما يراد قوله هو أن البريطانيين كالنازيين ، فهم أيضاً مجرمو حرب . وحين زرت ياد فاشم لأوّل مرة سنة ١٩٧٨ ، وجدت أن هذا النصب يمثل تهمة لا ترد . لكن عندما عدت إلى المكان نفسه سنة ١٩٨٧ ، بعد رحلتي إلى أوشفيتز ، بدا لي أنه سطحي بعض الشيء ، إذ أصبح أداة للدعاية يستخدم الفظائع التي وقعت في أوشفيتز وترابلانكا وغيرهما من المعسكرات ، لا لتبرير وجود إسرائيل فحسب ، بل لتبرير كلّ ما فعلته إسرائيل منذ ذلك الوقت .

إنه أيضاً مسرح لاتهام عرب فلسطين . ففي ياد فاشم صور لمفتي القدس الأكبر في ألمانيا النازية وهو يتلقى التحية من هنريش هملر . والصور واضحة تمام الوضوح . ونشاهد فيها الحاج أمين الحسيني وهو يصافح قائد الشرطة السرية . ونشاهده هناك وهو يستعرض باعتزاز كتيبة المتطوّعين المسلمين في «الويرماخت» . وعلى الحائط عُلّقت كلماته المترجمة بدقة وفيها يحضّ الحكومة الألمانية على منع اليهود الأوروبيين من الذهاب إلى فلسطين . والمقصود واضح وهو أن الزعيم الديني المسلم للعرب الفلسطينيين هو كذلك مجرم حرب . فلم لا يكون خلفاؤه السياسيون مجرمي حرب أيضاً؟ وإذا كان العرب الفلسطينيون الذين وجدوا لدى النازية بعض الأمل في منع الهجرة اليهودية إلى فلسطين على قدم المساواة مع الشرطة الألمانية ، فلم لا يكون الفلسطينيون الذين يواجهون إسرائيل اليوم مذنبين كسواهم؟

إن الحرب الأهلية في فلسطين التي تلت نهاية الحرب في أوروبا أصابت بلا شك أولئك المتعبين الذين كانوا يمسكون بزمام الإنتداب البريطاني . فأخذ الصهيوني العتيق تشرشل وهو بركن المعارضة السياسية بوستمنستر يفكر في قتل أفراد الجيش البريطاني برصاص المسلحين اليهود ويعلن أن فلسطين «جحيم من الكوارث» . وكان الأمر أسوأ بكثير بالنسبة للعرب الذين كانت بيوتهم في ذلك القسم من فلسطين الذي قررت هيئة الأمم إنشاء دولة إسرائيل فيه . أما أولئك الذين وصفهم بلفور «بالطوائف غير اليهودية الموجودة في فلسطين» فكانوا مقبلين على كارثتهم الأولى .

وأُخرجت الجيوش العربية التي غزت إسرائيل ، وطُرد ٥٠٠ إلى ٧٠٠ ألف عربي فلسطيني كانت بيوتهم تقع في ذلك الجزء من فلسطين الذي قامت عليه إسرائيل أو في تلك المناطق من فلسطين التي استولى عليها الإسرائيليون . وظل الإسرائيليون عدّة عقود من الزمن بعد حرب «الإستقلال» يزعمون

بأن غالبية العرب الفلسطينيين غادروا بملء إرادتهم بعد أن حثتهم النداءات الصادرة عن الإذاعات العربية على ترك بيوتهم واللجوء إلى البلدان المجاورة بإنتظار اكتساح الجيوش العربية للدولة الإسرائيلية الحديثة . ويجمع الباحثون الإسرائيليون اليوم على أن هذه النداءات الإذاعية لم تجر إذاعتها إطلاقاً وأن تلك الإدعاءات ملفّقة . لقد ترك العرب الفلسطينيون بيوتهم بسبب الخوف لا سيما وأنهم سمعوا الكثير من القصص الحقيقية حول قيام العصابات اليهودية بارتكاب مجازر بحق المدنيين العرب .

وكانت النتائج حتمية . ففي الوقت الذي راح فيه اليهود الإسرائيليون يهلّلون لإنبعاث نهضتهم ، هجر عرب فلسطين أرضهم بعد أن استولى عليهم اليأس . ووصل أولئك الذين تمكنوا من تجنب حُفر الإعدام وغرف الغاز في معتقلات أوروبا إلى أرض الميعاد التي كان يتغنّى بها المنشدون في أوشفيتز . وهاك على سبيل المثال وصف الصحافي الأميركي أ .ف ستون للساعات الأخيرة من رحلته إلى حيفا على متن الباخرة التركية «إقبال» التي نقلت اللاجئين ، وهي عبارة عن سفينة من الطراز القديم ناءت بحمل مئات الناجين من معسكر الإعتقال في رحلتهم إلى فلسطين . وكانت السفينة قد اقتربت من الشاطئ عند الفجر في مكان يقع شمالي جبل الكرمل .

«قبيل الفجر» ، استسلمت قليلاً للنوم فوق غرفة القيادة . وعندما استيقظت لاحت صورة قاتمة لجبل ناحية الجنوب الشرقي . وحين لاح الضوء وأشرقت الشمس ، سمعت صوتاً يدوّي في السفينة : «إنها أرض إسرائيل» .

«وشاهدنا جبل الكرمل فوقنا ، ومدينة حيفا تحتنا لا تزال نائمة في تلك الصبيحة المشمسة . . . وغمرت اللاجئين البهجة وراحوا ينشدون «هاتيك فاه» ، النشيد الوطني اليهودي . . . ويقفزون فرحاً ، ويتبادلون القبلات ويتعانقون على ظهر السفينة»(٤) .

وهنا أيضاً يتذكر الكاتب الفلسطيني المناضل غسان كنفاني إحدى العائلات الفلسطينية وهي تغادر الأرض نفسها بعد ذلك بأربعة أشهر فقط . يقول :

«في الناقورة ، توقفت عربتنا إلى جانب عربات أخرى كثيرة ، وراح الرجال يسلّمون أسلحتهم إلى الضباط الذين تمركزوا هناك من أجل هذه الغاية بالذات ، وحين جاء دورنا ، شاهدت البنادق

(٤) I.F Stone: Undreground To Palestine and Reflections Thirthy Years Later Pantheon Books (New-York, 1978) PP.205-6

والرشاشات ملقاة على الطاولة ، كما شاهدت قافلة الشاحنات الطويلة مخلّفة أرض الليمون وراءها وهي تنتشر على الطرق المتعرّجة باتجاه لبنان ، عندها بدأت بالبكاء والعويل وذرف الدموع . أما بالنسبة لأمك ، فراحت ترمق بنظرها أشجار البرتقال بصمت . . .»(٥) .

إن مشاعر الغبطة واليأس في هذين المقطعين يوازن أحدهما الآخر . فصياح اليهودي مغتبطاً لمّا أبصر بالساحل الفلسطيني في المقطع الأول ، وصورة بنادق العربي وفقدانه الأمل وهو يغادر فلسطين في المقطع الثاني ، هما اليوم أكثر صلة بما يجري مما كانا عليه يومذاك . والفكرة القائلة بأن إسرائيل هي الملاذ النهائي والحقيقي لكل اليهود أو أنها«أول وآخر خط دفاع للشعب اليهودي» على حدّ تعبير زايمون داتنر هي الفكرة التي يأخذ بها الإسرائيليون اليوم كما في سنة ١٩٤٨ . وبين أكواخ صبرا وشاتيلا في بيروت ، وعين الحلوة ، ومخيم نهر البارد في طرابلس ، وبرج الشمالي في صور أو الرشيدية جنوبي صور ، تحولت البنادق والمرارة والدموع التي كان كنفاني شاهداً عليها إلى حقد .

وهكذا فإن الآلاف الكثيرة من العرب الذين فروا وآلاف العرب الذين بقوا في أرضهم وعرب القدس والضفة الغربية الذين ما لبثوا أن أُلحقوا بالأردن - باتوا جميعاً يدعون أنفسهم بالفلسطينيين . أما يهود فلسطين فأصبحوا الآن إسرائيليين . ومن «أرض البرتقال» وصل المنفيون الجدد إلى الضفة الغربية وإلى لبنان وإلى مملكة شرقي الأردن حاملين الهوية الفلسطينية - وهي هوية بلد لم يعد موجوداً ، والحقيقة هي أنه لم يكن دولة مستقلة . ومما يزيد من هذه المفارقات اعتقاد اللاجئين في البداية أن غيابهم سيكون قصيراً ، أو أنه لن يبلغ سوى عدة أيام ، أو شهراً على الأكثر ، يعودون بعده - مع العديد من المدنيين الآخرين الذين هجروا بيوتهم فراراً من المعركة - إلى منازلهم وحقولهم لاستئناف حياتهم العادية التي قطعتها الحرب .

ولهذا السبب عمد الكثيرون منهم إلى إقفال البوّابات الأمامية بإحكام عندما غادروا بيوتهم . والذين كان لديهم المزيد من الوقت ، جدّوا في جمع معظم مستنداتهم القانونية - من صكوك ملكية وخرائط بساتين البرتقال ومن بيانات ضرائبية وأوراق ثبوتية شخصية تعود لفترة الحكم العثماني - ووضعوا كلّ ذلك في حقائب وعلب إلى جانب متاع العائلة والمجوهرات ومفاتيح الأبواب . وتصوروا أنه إذا أسعفهم الحظ فإن بيوتهم ستنجو من السطو وأن أي نزاع قد يحصل حول حقوقهم يمكن حسمه بسهولة عند إبراز هذه الصكوك الهامة الملفتة للنظر لأن بعضها قديم جداً يحمل إشارة الباب العالي .

(٥) The Land Of The Sad Oranges, Quoted in Dispossessed: The Ordeal of the Palestinians 1917-1980 by David Gilmour (London. Sidgwick and Jackson, 1981). Gilmour's book is among the most readable accounts of the Palestinian tragedy in Lebanon.

ومن أقسى المظالم التي عرفها تاريخ الشرق الأوسط أنه قُدِّر لهذه الأوراق والمفاتيح أن تكون من أكثر ممتلكات الفلسطينيين رمزية وأقلها قيمة . وما أسبغوه عليها من أهمية أخذت تشتد إيلاماً عندما تحولت الأيام والأشهر خارج أرضهم إلى سنوات . أما الجيل الثاني من الفلسطينيين كالذين ولدوا في لبنان على سبيل المثال فيتذكرون جيداً كيف كان ذووهم يرمون بحنق تلك المفاتيح في بداية الخمسينات ، وكيف أن المستندات التي حرصوا عليها أشد الحرص في أيام منفاهم الأولى قد ضاعت أو أتلفت بعد أن أصبحت قيمتها الفعلية واضحة للعيان . فهي أدوات ثبوتية لعالم اختفى من الوجود . فمفاتيح الحديد الضخمة الداكنة ذات المقابض المزينة كانت بمثابة وعد بالعودة حطمه التاريخ . فأصحاب البيوت الجدد حرّموا عليهم العودة وبدّلوا الأقفال .

ومع ذلك ، فإن كثرة من نصف المليون فلسطيني الذين يعيشون في لبنان ظلوا يتمسكون بعناد بالمفاتيح وصكوك الملكية في فلسطين . وحين بدأت الهوية الفلسطينية بالظهور بعد الحرب العربية الإسرائيلية سنة ١٩٦٧ واحتلال إسرائيل للضفة الغربية وقطاع غزة ، تجدّد الاهتمام بالوعد الذي تحمله تلك الأدوات والمستندات . وتحول تذكار المذلة مرة أخرى إلى ملكية لا تُقدّر بثمن ، وصار لها من الأهمية العاطفية ما كان لها من قيمة فعلية . ففي لبنان ـ حيث تمركزت الحرب الفلسطينية ضد إسرائيل بعد إخراج فدائيي منظمة التحرير الفلسطينية من الأردن سنة ١٩٧٠ ـ أخفيت هذه المستندات تحت الأرض أو تحت السجاد ، أو أودعت أحياناً علب البسكوت الصدئة ، أو الحقائب المحطّمة أو خزانات الثياب العتيقة ، وكلها في الغالب من الصناديق التي حمل فيها اللاجئون الفلسطينيون أثمن ممتلكاتهم من فلسطين عام ١٩٤٨ .

كان كل مستند يحمل توقيع أحد المسؤولين في حكومة الإنتداب البريطاني ويوضح بالأرقام المفصّلة قيمة البيع والإشغال باسم الفلسطيني الذي ورث الأرض أو اشتراها . وقد تمزق بعض هذه المستندات وتجعّد البعض الآخر لكثرة ما أعيدت قراءته وتكرّر فتحه خلال إحدى وأربعين سنة . ولكن في أعلى كل مستند يظهر الدرع البريطاني وطرّة الملك جورج السادس ، أي أن المستندات صدرت رسمياً في ظل التاج البريطاني . ومن شأن هذه المستندات أن تجعل من خريطة إسرائيل خليطاً من الملكيات المتنازع عليها . فلكل أرض من الجليل الأعلى حتى عسقلان صكّا ملكية شرعيان بكل معنى الكلمة : واحد في القدس أو تل أبيب أو بئر السبع ، يثبت بما لا يقبل الشك أن الأرض يملكها الآن إسرائيلي ـ والثاني في بيروت أو عمّان ـ يظهر أن المالك الحقيقي هو عربي فلسطيني . وإذا قابلنا بين الصكّين وجدنا أن كليهما يعكس تناقضاً حول الأرض والسياسة . واحد يبرهن على وجود إسرائيل ، وآخر يحمل في طيّاته حلم فلسطين .

وفي مخيم شاتيلا في بيروت شاهدت عام ١٩٧٧ لأوّل مرة واحداً من تلك المفاتيح. وكنت عندئذ أجري مقابلة مع أسرة مؤلفة من أربعة أشقاء وشقيقتين فضلاً عن الأب والأم والجدة من ناحية الأب. وكان موضوع المقابلة وجودهم في مدينة هي اليوم تحت مراقبة رجال المخابرات السورية؟ الأمر ممكن. هل جرى توقيف أحد من أفراد العائلة؟ ربما. وهل يعتبرون ياسر عرفات ممثلهم الحقيقي؟ بالطبع. والغريب أن أعمق الأسئلة تظفر بأقل أهمية في مثل هذه المقابلات. وعلى أي حال سألتهم: هل يعتقدون حقاً بأنهم سيعودون إلى فلسطين؟ عندها، قامت الجدة ودلفت إلى سقيفة صغيرة تنام فيها، ثم عادت حاملة شيئاً ما ملفوفاً بمنديل، وقالت بعد أن أخرجته: «إنه من بيتنا في حيفا». وكان ذلك مفتاحها الحديدي القوي الذي علاه الصدأ وإحتفظت قبضته بلمعانها. كم من العائلات تحتفظ بمفاتيحها؟ إنهم لا يعرفون. والجدّة وحدها هي التي سمح لها سنّها المتقدم بالعيش فترة في فلسطين. أما إبنها وأفراد عائلتها فيعتبرون المفتاح مفتاح «منزلهم»، تماماً كما يعتبرون حيفا «مدينتهم» رغم أنهم لم يعرفوها قط.

وقد قيّض لي خلال الأعوام الثلاثة التالية أن أرى المفاتيح مرّة أخرى، وكثيراً ما رأيت صكوك ملكية الأرض الضائعة. وفي العديد من الحالات، كانت الصكوك محفوظة في حقائب مع جوازات السفر الفلسطينية السمراء من العهد البريطاني. أما تاريخ آخر استعمال لها فيعود إلى اليوم الذي غادروا فيه إلى منفاهم. حتى أنه قبل نشوب القتال سنة ١٩٤٨، عمد بعض الفلسطينيين إلى أخذ إجازاتهم خشية اندلاع القتال، واتصلوا بالقنصلية اللبنانية في فلسطين للحصول على تأشيرات دخول إلى بيروت. وهكذا كان خروجهم قانونياً، غير أنه لم يقدّر لهم الحصول على إذن قانوني بالعودة. ولكن، إذا كان من السهل عليّ أن أطّلع على هذه الأدلة وأن أتحدث مع أولئك الذين لديهم براهين مهمّة تتعلق بملكية البيوت إبّان الانتداب البريطاني، فمن المؤكد أنه لن يكون من الأصعب أن أقصد إلى إسرائيل وأعثر على البيوت نفسها ـ والفكرة على جانب كبير من الإثارة ـ وأن أطرق البوابات الأمامية نفسها. فمن الذي سيفتح يا ترى؟

إن ما لم أدركه يومذاك ـ وهو ما كنت سأكتشفه يوم شددت رحالي قاصداً تلك البوّابات ـ هو أنني لمست جوهر الحرب القائمة بين العرب وإسرائيل. ذلك أنه في الوقت الذي يشكّل فيه الوجود الفلسطيني ومطالبة الفلسطينيين بوطن مستقل لبّ الأزمة في الشرق الأوسط، فإن التناقض الكامن في حق ملكية الأرض الفلسطينية ـ أرض الميعاد بالنسبة لليهود وفقاً لوعد بلفور ـ هو الذي يثير الغضب والخوف لدى كلّ من الفلسطينيين والإسرائيليين. إن أدلة التاريخ ـ إذا تناسينا الأدلة المادية على صحة الصكوك ـ تثير موضوعاً لاستقصاء صحافي مشروع: ترى من هو صاحب الحق القانوني والمعنوي؟

لقد بدا السؤال ساذجاً وحتى مهيناً للفلسطينيين . ففي نظرهم أنهم ليسوا لاجئين بل سكان فلسطين الأصليين وأنهم طردوا منها بغير وجه شرعي ، وإليهم تعود ملكية بيوتهم التي جُرِّدوا منها واحتلها آخرون . إن مجرد طرح السؤال يعني أن عدالة قضيتهم موضع شك . أما بالنسبة للإسرائيليين ولمن يدعمهم في الشتات اليهودي (دياسبورا) فإن السؤال نفسه يمس صميم الخلقية الصهيونية . فكان من الجلي إذاً أن طرق البوابات الأمامية يثير الشكوك حول شرعية دولة إسرائيل نفسها .

ولم يُغيِّر من الوضع شيئاً أنني بعد عدة أسابيع من المقابلات مع ٣٥ عائلة فلسطينية مقيمة في لبنان ـ اخترت الكتابة فقط عن تجربة أولئك الذين ليس لهم ارتباط مباشر بحركة الفدائيين الفلسطينيين . ولم يُغيِّر منه أيضاً اختياري أربع عائلات لا تزال تحتفظ بجوازاتها الفلسطينية الأصلية وبكامل صكوك الملكية ورسوم الضرائب زمن الانتداب . لكن بما أن ثلاثاً من هذه العائلات كانت متوسطة الثراء في فلسطين واستطاعت أن تحصل على وضع اجتماعي مماثل في بلد المنفى ، وبما أن هذه العائلات تشبه في سلوكها ونمط حياتها ملايين الأسر من الطبقة الوسطى في أوروبا أو في إسرائيل فإن الخطأ الذي وقعت فيه تضاعف . غادرت بيروت قاصداً القدس في أواخر ربيع ١٩٨٠ . وفي اللحظة التي دخلت فيها مكتب رافي هورو فيتز في القدس ، أدركت أنني قد ألقيت على عاتقي مهمة غير سهلة . وكان هورو فيتز هذا الناطق الرسمي بلسان الحكومة الإسرائيلية وفي أواسط العمر . فأخذ يشرح بأسلوب الغاضب ما حصل للعرب الذين كانوا في فلسطين خلال فترة الانتداب . وكان بين الفينة والفينة ، يقطع حديثه ليعتذر عن أسلوبه التهكمي قال : «عليك أن تدرك أن دولة فلسطين لم توجد قط . وأن العرب شنّوا حرباً علينا سنة ١٩٤٨ من أجل القضاء على الدولة اليهودية . لكن أرجو أن تغفر لنا أننا ربحنا الحرب» .

وفي تلك الأمسية الممطرة وساعة ازدحام المرور كانت طريق يافا تعج بالسيارات . فاستغرق وصولي إلى مكتبة صغيرة عبر الشارع نصف ساعة . وكان الشارع مليئاً بالحناطير وخلف نوافذها السيّاح الأميركيون ينظرون إلى لوحة تحمل اسم الشارع وتشع بأضواء النيون عبر الرذاذ . وكانت الإعلانات على الباصات وغيرها وأسماء المتاجر كلها بالعبرية . وفي المكتبة الصغيرة كانت بائعة الصحف فتاة إسرائيلية حسناء . فلم تكد ترى ما اخترته حتى قالت باقتضاب : «صار المبلغ دولارين . نهارك سعيد» . قالت ذلك وكأنها كاتبة في مخزن للكتب بمنهاتن . فهل يمكن أن تكون هذه البلاد هي فلسطين؟

هذا السؤال ذاته أثار الحنق في مكتب الناطق الرسمي . وما عليك إذا أردت أن ينفجر الحنق إلا أن تسأل عن المالك القانوني للأرض في فلسطين ـ عمّن بحوزته صكوك ملكية البيوت والبساتين وقِطع

الأراضي كما قسمت في عهد الانتداب . وترك هوروفيتز الغرفة لحظة ثم عاد وهو يحمل كتاباً أحمر قليل الصفحات ، عنوانه «ملكية الأراضي في فلسطين ١٨٨٠ ـ ١٩٤٨» من تأليف موشي أومان عضو اللجنة الأكاديمية للشرق الأوسط في إسرائيل . وكانت صفحاته وعددها أربع وعشرون ملأى باستشهادات عمرها مئة عام من مارك توين ولامارتين إلى اللورد ملنر واللجنة الملكية لفلسطين سنة ١٩٣٧ ـ وكلها تشير إلى أن فلسطين كانت مرتعاً لقطاع الطرق وأرضاً فقيرة قاحلة قبل أن تبدأ الهجرة اليهودية إليها أواخر الثلاثينات .

يستشهد أومان ، مثلاً ، بمارك توين وهو يروي أخبار زيارته للأراضي المقدسة سنة ١٨٦٧ وفيها يتحدث الكاتب الأميركي عن «البلاد المقفرة ذات الأرض الغنية التي لا تنبت فيها سوى الأعشاب الضارّة ـ انها قفار خاوية كئيبة . . . فلم يقع نظرنا على أي كائن حيّ طيلة الطريق» . والاستشهاد مأخوذ من المقطع الذي يسجّل فيه توين ملاحظته بأن «بوسع المرء أن يقطع على حصانه مسافة عشرة أميال في الجوار دون أن يقع نظره على عشرة من البشر» ، وأن «التلال جرداء . . . والأودية مقفرة قبيحة المنظر . . . إنها أرض لا رجاء منها ، أرض كئيبة مسحوقة . . . فلسطين أرض متوحشة بشعة» . ان المقاطع المختارة صحيحة ، لكن ما يقصد أن يوحي به أومان هو أن فلسطين ليست خالية من السكان فحسب ـ وهو أمر غير صحيح أبداً ـ بل وأن هؤلاء الناس الذين عاشوا هناك قد لا يستحقون تلك الأرض ، وأنهم توانوا عن استخدام وسائل الريّ الحديثة أو عن غرس الأشجار أو بناء بيوت القرميد . لقد زرع الفلسطينيون الأرض في القرن التاسع عشر ـ كما يظهر بوضوح من ليتوغرافيات روبرتس ، لكن أومان لا يلاحظ ذلك لأنه يستنتج أن القول بأن ٩٥ بالمئة من أراضي دولة إسرائيل كانت ملكاً للعرب لا أساس له إطلاقاً في الواقع(٦) .

وفي رأي هوروفيتز أن الفلسطينيين الآن لاجئون لا أكثر ولا أقل . قال : «حين انتهى عهد الانتداب ، كان من المفروض أن تنشأ دولتان : دولة العرب ودولة اليهود إلا أن دولة العرب لم تقم ، بل ضُمّت إلى الأردن . وبالطبع ، فان العرب يملكون الأراضي وبصورة شرعية في داخل ما يعتبر الآن إسرائيل . وبعض العرب الآخرين من أصحاب الأراضي يستطيعون دون أدنى شك إثبات ملكيتهم . إلا أن هؤلاء الناس هم الآن مواطنون في دول عربية تعتبر في حالة حرب مع إسرائيل ولا يمكنهم بالتالي المطالبة بملكية هذه الأراضي . وأدت خسارة العرب للحرب سنة ١٩٤٨ ـ ومعذرة لأننا ربحنا ـ إلى تحوّل قسم من العرب إلى طائفة من اللاجئين . ذلك جزء من مشكلة الشرق الأوسط» .

(٦) Moshe Aumann: Land Ownership in Palestine 1880-1948 (Israel, Academic Committee on the Middle East, Undated. PP. 5 - 8

وساد الصمت برهة قبل أن ينهي هورو فيتز كلامه ، وانحنى فوق مكتبه قائلاً : «إنك تعلم أنكم أناس اعتدتم المجيء إلى هنا في إسرائيل ومعكم بعض التفاصيل المحدّدة ، وفي ظنكم أن بوسعكم الانطلاق منها والتوصل إلى حقائق عامة . واسمح لي أن أعبّر عن شكي في هذا» . والواقع أنه لم يكن هناك حاجة إلى اعترافه بشكّه . ففي لبنان حيث يتجمع العديد من فلسطينيي ١٩٤٨ ، هناك دائماً تفصيلات مهمة عن الأراضي التي كانوا يمتلكونها ذات يوم .

فحتى الذكريات نفسها تخون المرء . أراد أحد الفلسطينيين المسنّين في بيروت أن يرسم أمامي خريطة البستان الذي يملكه ، وقضى عشر دقائق وهو يخطط ويعيد تخطيط شبكة الطرق جنوبي يافا . وما هي الا لحظات حتى لاحت الطرق تتقاطع فوق خريطته على نحو غريب عجيب ، وبدا واضحاً أنه نسي موقع أرضه .

قال : «أنا آسف جداً . وينبغي لك أن تدرك أنه مضى على الأمر وقت طويل . . .» والحقيقة هي أن للذكريات التي يحلو للفلسطينيين أن يسردوها عن فلسطين ترتدي طابعاً باهتاً . وكثيرون منهم لا يزالون يذكرون بفرح كيف كان اليهود والعرب يعيشون جنباً إلى جنب قبل عام ١٩٤٨ ، على الرغم من أن بعض الحروب الأهلية الصغيرة قد وقعت قبل هذا التاريخ في بعض المناطق من فلسطين . وتجد بعض الذكريات الحزينة ما يعكسها في ليتوغرافيات روبرتس ، وهي الرسوم التي أصبحت جزءاً من سبات عميق حالم غرق فيه الفلسطينيون منذ سنة ١٩٤٨ .

ولا صلة تذكر لتلك الذكريات بالأراضي التي تقع الآن غربي القدس . ففي أماكن عديدة ، اختفت القرى العربية من الوجود ، وامحّت أسماؤها عن الخريطة . حتى قرية دير ياسين المعروفة في التاريخ الفلسطيني على أنها القرية التي قتلت العصابات اليهودية على أرضها ٢٥٠ عربياً ، نصفهم من النساء والأطفال ، في نيسان ١٩٤٨ ، اختفت أيضاً . وتدعى اليوم جيفات شاؤل ، وهي مجرّد ضاحية من ضواحي القدس . وفي شارعها الرئيس صف من محطات بيع الوقود والمرائب ، والأبنية السكنية الشاهقة ، فهي أقرب إلى «أجوير رود» أو بروكلين ، منها إلى مسرح للقتل الجماعي . ولا يمكنك أن تشاهد شيئاً من فلسطين القديمة الا بالصدفة . فبجوار دير اللطرون ، على سبيل المثال ، وعلى طول الطريق الخلفية إلى عسقلان ، يمكن أن يقع نظرك على نساء عربيات يجمعن الثمار من البساتين المعتمة ويرتدين لباسهن الفلسطيني التقليدي بتطريزه الذهبي والأحمر الذي يلمع بين الأوراق الكثيفة ، إنهن من ذرية ١٧٠ ألف عربي لم يتركوا البلاد سنة ١٩٤٨ . وفي الحيّ العربي بيافا اختفت الشوارع المؤنسة التي تبدو في ليتوغرافيات روبرتس . ومنازل العرب ليست أكثر من أكواخ تحولت الأراضي بينها إلى خرائب بعد أن هدم المقاولون ما فيها من بيوت عربية مهجورة . وبينما كنت أبحث عن أملاك



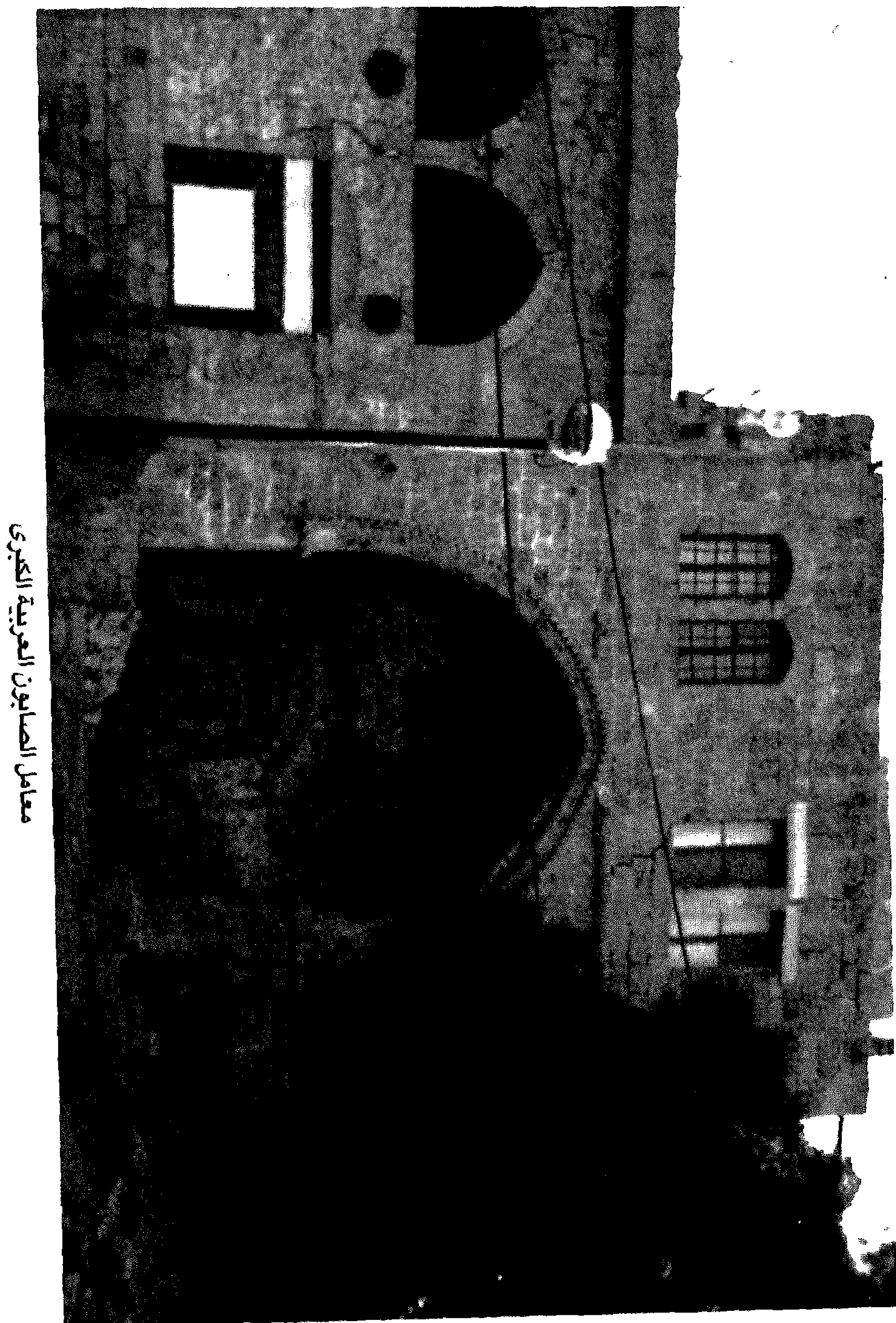
ديفيد دمياني وزوجته

عربية في المنطقة ، صادفت ثلاثة شبان فلسطينيين يقفون بجوار حانوت متواضع (كشك) لبيع المواد الغذائية على مقربة من الشاطيء . وكانوا ثلاثتهم ـ وجميعهم مواطنون إسرائيليون ـ يتجادلون بحدّة حول استدانة عشر شاقلات إسرائيلية . وكان أحدهم يتكلم العربية ، أما الآخران ، فكانا يصيحان بالعبرية . وإذا تذكرنا الكفاح الفلسطيني المسلّح في لبنان ، بدت هذه الصورة وكأنها تعكس الوجه المظلم للمرآة : إنها فلسطين أمام المرآة .

ترى هل هذه هي الأرض التي يصبو الفلسطينيون المشتتون في بقاع الدنيا إلى العودة اليها؟ لم يكن من الصعب الحصول على الجواب في لبنان . فمقابل كل فلسطيني أعرب عن شكوكه حول أهمية العودة ، هناك المئات ممّن يودون الرجوع إلى المكان الذي هو اليوم إسرائيل اذا ما سنحت الفرصة بذلك . وهؤلاء أناس من أمثال ديفد دمياني ، وهو مسيحي عاشت عائلته في فلسطين منذ عهد الصليبيين . راح دمياني يصف شجرة العائلة باعتزاز كبير ، وهو جالس على كرسيّه المعدني الرقيق المشرف على أكثر شوارع بيروت ضجيجاً ، وعيناه تلمعان بعزم من وراء نظارته بإطارها الكثيف . ولد بطرس دمياني في القدس سنة ١٦٨٧ وكان أبناؤه الأربعة قناصل هناك لكلّ من بريطانيا وفرنسا وهولندا وتسكانيا . وآخر قنصل من أسرة دمياني هو فرديناند الذي مثل المكسيك سنة ١٩٣٢ . وعند ديفد رسم فوتوغرافي له ، عليه بعض مظاهر الأبّهة ، وفيه يعتمر قبعة رسمية ويحيط به عدد من وجهاء القدس ورجل إنكليزي أو اثنان .

قال ديفيد دمياني : «حين حاصر نابليون يافا ، قام جدّي أنطون دمياني بالتوسط للشعب المسلم ، وحمى المسلمين من غضب الفرنسيين ـ ولدينا شهادة رسمية من المحكمة الشرعية بهذا الخصوص» . وفي بداية القرن التاسع عشر ، حلّ لامارتين ضيفاً على عائلة دمياني في يافا ، وأتى على ذكر العائلة في كتابه «رحلة إلى الشرق» ، وهو الكتاب نفسه الذي أعلن فيه عن الفرص الاستعمارية في فلسطين . وكان جان دمياني والد ديفيد يملك بساتين برتقال ، وله أملاك واسعة في يافا وتل أبيب والقدس ، ومعمل للصابون كان يديره داخل السراي التركية القديمة الواقعة على تلة يافا غير بعيد عن كنيسة مار بطرس . فقد اشترى آل دمياني الأبنية المقبّبة المهدّمة من بلدية يافا ، وظلّ اسم دمياني طيلة عقود عدّة بعد الحرب العالمية الأولى مرفوعاً باعتزاز بالانكليزية والعربية فوق البوابة الكبيرة المقفلة حيث كان الباشوات الأتراك يصرّفون شؤون العدالة .

إن ذكريات ديفيد دمياني عن تلك الفترة هي ذكريات تلميذ مدرسة يعيش في أرض آمنة . كان يقيم مع أخوته الخمسة وأخته وأهلهم في بناية قديمة بجوار فندق كليف في يافا ، ولا يزال يتذكر ذلك اليوم من سنة ١٩٣٥ الذي اشترى فيه جان دمياني أوّل سيارة للعائلة ، سيارة بويك صالون فخمة لونها



معامل الصابون العربية الكبرى

أخضر فاتح وثمنها ٣٥٠ جنيهاً فلسطينياً . وكان هذا المبلغ عندئذ يساوي نفس العدد من الجنيهات الاسترلينية . واستعان كبير آل دمياني بسائق ينقله في جولاته في بساتين البرتقال التي تملكها العائلة . ومما يذكره دمياني أنه «قبل ١٩٣٦ ، كان مرفأ يافا مزدهراً ، ترسو فيه على الدوام ما بين ٢٥ إلى ٣٠ سفينة بانتظار تحميلها . أجل كان المكان مزدهراً والعرب واليهود سعداء بالعيش في فلسطين . كان كل شيء متوفراً بكثرة - من الفاكهة إلى الخضار إلى المواد الغذائية من جميع الأنواع . وكان من الممكن للناس أن يعيشوا في سعادة لولا الاضطرابات التي حرّضت عليها الحكومة والوكالة اليهودية» .

وما أن وصل دمياني إلى العام ١٩٣٦ حتى امتقع وجهه فجأة وراحت يداه اللتان كانتا على ركبتيه تتحركان باضطراب . قال : «أتذكر الإضراب العام الذي بدأ سنة ١٩٣٦ وأنا في الرابعة عشرة من عمري . بدأ في نيسان (أبريل) ، نهار أحد . وفي اليوم التالي لم أرغب في الذهاب إلى المدرسة . كان الباص يأتي يومياً لنقلنا إلى المدرسة في ساحة العجمي بيافا ، وسررت كثيراً لأن المدرسة أقفلت أبوابها في ذلك اليوم . كان الإضراب عربياً لكننا كنّا في منطقة آمنة . لقد كان إضراب الطبقة الوسطى» . وهنا توقف دمياني عن الكلام بضع ثوان وقال :«حين بدأت الثورة العربية سنة ١٩٣٦ ، عمد القياديون العرب لفرض رسوم على الفئات الميسورة .وحذا أبي حذو الكثيرين وقصد إلى بيروت ليتخلص من الدفع . وفي أثناء غيابه ، كان العمال الشرفاء يسيّرون المعمل . وكنت لا أزال في المدرسة ، لكنني في البيت كنت أعنى بحسابات معمل الصابون ، والواقع أن أبي دفع مالاً للعرب ليحفظ رأسه» .

وباندلاع الحرب العالمية الثانية ، عادت الحياة الطبيعية إلى فلسطين «في يوم واحد» على حد قول دمياني ، وذلك عندما أخذ الأعداء القدامى يتعاونون فيما بينهم ولو بصورة مؤقتة . وحين حرّر الحلفاء لبنان سنة ١٩٤١ ، التحق ديفيد دمياني بالجامعة الأميركية في بيروت لدراسة إدارة الأعمال . كانت الحياة لطيفة والسفر بالسيارة من بيروت إلى يافا لا يستغرق أكثر من ست ساعات ونصف الساعة . وفي عام ١٩٤٥ ظهرت أول إشارة إلى أن الأمور لم تكن في الواقع تتحول إلى الأحسن وذلك كما يقول دمياني عندما قام يهوديان فلسطينيان بزيارة لوالده . قال دمياني :

«كان كلاهما من وجهاء اليهود في المدينة ، أحدهما يدعى جاد ماشغنس والثاني لا أذكر سوى أنه رومانو ، واقترحا على والدي إعداد قائمة بجميع ممتلكاته في فلسطين لأنهما على استعداد لشرائها ، وقالا إن باستطاعته إذ ذاك أن يذهب بعائلته إلى سويسرا . ولم ترق هذه الفكرة لوالدي ، وأجابهما بأننا عائلة قديمة جداً في فلسطين وأننا نتمتع فيها باحترام كبير ، وقال أن أجدادنا حاربوا دفاعاً عن الأرض المقدسة وأن علينا أن نتشبت بهذه الأرض المقدسة . عندها انتحى بي رومانو جانباً - إذ كان أبي جالساً

وراء مكتبه ـ قائلاً أن أمامي مستقبلاً باهراً وأن الناس على استعداد لبيع ممتلكاتهم إلى آل دمياني . وأخرج قائمة بثلاث عشرة قطعة يملكها العرب ، وعرض عليّ أن أشتريها ثم أبيعها لليهود . وكان بين هذه الممتلكات عقار مساحته خمسة آلاف دونم لبطريركية اللاتين في القدس بجوار نابلس . وأخبرني أنني إذا أقدمت على شراء هذه الأرض بخمس ليرات للدونم الواحد ، فهو وصاحبه على استعداد لشرائها مني بخمس وعشرين للدونم . كما عرض علي أن أشتري أرضاً من قاض عربي يدعى عزيز داودي كان يملك بستان برتقال بجوار تل أبيب . وقال لي : سوف تجني مليوني ليرة . وعندها بامكانك أن تقصد إلى سويسرا وتعيش مع عائلتك هناك» . وأخبرت والدي ووالدتي بالأمر فقال أبي : «هل هناك شيء ينقصك؟ هل أنت بحاجة لثياب أو طعام أو بيت؟ فلماذا نقدم على مثل هذا العمل القذر ونلطّخ اسمنا ، نحن الذين حافظنا على سمعتنا الطيبة طيلة قرون؟» فرفضت عرض رومانو» .

حين أصدرت الأمم المتحدة قرارها الخاص بتقسيم فلسطين سنة ١٩٤٧ ، كان آل دمياني في القدس ، يشترون عقاراً بجوار تراسنطة في الحي اليهودي من المدينة . قال دمياني : «فكرنا بأنه إذا لم نرغب في الإقامة بالقطاع العربي من القدس بعد التقسيم ، فسوف يكون لنا عقار في القطاع اليهودي . كما فكّرنا بأن القدس ستصبح عاجلاً أو آجلاً مدينة دولية . ورأينا أن نوظف أموالنا في أماكن مختلفة حتى إذا تبيّن أن أحدها غير آمن تحوّلنا إلى غيره . ولم نفكّر بالحياة أو شراء أملاك خارج فلسطين . فلم نكّن نقدّر أن الأمور ستؤول إلى هذا الحدّ من السوء» .

قبل ذلك بعام ، تزوج ديفيد دمياني من فتاة من الناصرة في الثامنة عشرة من العمر اسمها بلانش ، وأسس بيتاً مستقلاً في ناحية عرقتنجي في يافا .فقد اشترى منزلاً من طابقين يقع في آخر شارع ضيّق تجاه طريق تل أبيب ، وجهّزه بطاولات جديدة ومقاعد وأسرّة . وكان للمنزل رواق خارجي أنيق وأربعة أعمدة يونانية مقلّدة في آخر القاعة الأمامية أضفت على المنزل طابع المتحف . ولم يكن للشوارع أرقام . لكن ديفيد دمياني استطاع من بيروت وبعد سنوات عديدة أن يتذكر أن رقم صندوق البريد كان ٥٨٢ . وكان من المنازل التي امتلكها في فلسطين .

قال : «ينبغي أن تدرك أننا لم نفكر على أساس دولة عربية وأخرى يهودية . وظننا أن أسوأ ما يمكن أن يحدث هو تقسيم وطني يبقى معه العرب واليهود في بيوتهم . لكن منذ بداية كانون الأول (ديسمبر) ١٩٤٧ وحتى نيسان ١٩٤٨ كان القتال يجري على نحو متواصل حول يافا . وفي مطلع ١٩٤٨ ، بدأ الناس بإرسال عائلاتهم خارج يافا إلى نابلس وغزة واللّد . وقصد بعض العرب إلى عمّان ومصر ولبنان أو سوريا . وأصبحت الحياة في يافا صعبة للغاية . وتوقف ضخّ المياه من قبل البلدية ، وقطعت الأسلاك الكهربائية ، وتعاون البريطانيون مع اليهود ضد العرب . وكانت الكلاب والحمير تُقتل وتُرمى جثثها في

الشوارع بقصد تهديد الوضع الصحي . وعاشت المدينة في فوضى تامة ، وبتنا نخشى أن يهاجمنا المسلّحون . وقصدت مرة إلى مركز بوليس العجمي طالباً الحماية لكن الشرطي البريطاني رفض أن يفتح لي الباب» .

ويكاد يستحيل على الفلسطينيين أن يتذكروا يوم مغادرتهم النهائية لبلادهم بدون أن يشعروا بالتأثر الشديد . فما حدث لم يكن مأساة لهذه أو تلك من الأسر فحسب ، بل كان منعطفاً خطيراً في التاريخ الفلسطيني الحديث . وقررت عائلة دمياني مغادرة البلاد في الأسبوع الثالث من نيسان / أبريل بعد أن بدأ القناصة في بيت يام إطلاق النار على وسط يافا ، وأصابوا ديفيد دمياني . وغادرت العائلة إلى بيروت بطريق البحر في ٢٥ نيسان (أبريل) .

قال دمياني : «رفض والدي في البداية مغادرة يافا ، لكن باقي أفراد العائلة أصرّوا على اصطحابه لأننا لم نرد له التعرض للخطر . كنّا أناساً مسالمين . ولم يكن لنا اهتمام كبير بالسياسة . ولا زلنا حتى الآن لا نعنى كثيراً بالسياسة . أقفلنا بوّابة بيتنا الأمامية قبيل الغداء تماماً ، وحملنا حقائبنا وثيابنا وصندوقاً بداخله المجوهرات وصكوك الملكية . ولم يكن ليدور بخلدنا قطّ أننا لن نستطيع العودة . فلو خطر ببالنا هذا الأمر لما كنّا غادرنا أبداً . اعتقدنا بأن غيابنا لن يطول أكثر من شهر أو نحو ذلك ينتهي بعده القتال . وحملنا مفاتيح بوابتنا الخارجية لكننا رمينا هذه المفاتيح منذ عدّة سنوات . فلم تعد لها قيمة الآن . . .» .

ومن مرفأ يافا استقل آل دمياني الباخرة السياحية المريحة الايطالية أرجنتينا التي حملت العائلة في رحلة استمرت ١٦ ساعة إلى مرفأ بيروت . ولا يزال دمياني يحتفظ ببطاقات السفر . قال :

«حين بدأنا بالابتعاد عن يافا ، وقفت فوق مؤخرة السفينة ورحت أنظر نحو المدينة القديمة . كنت أستطيع أن أرى معمل الصابون الذي نملكه في السراي على رأس التلة وكنيسة مار بطرس إلى جانبه . وتساءلت في نفسي عمّا إذا كنّا سنرى هذا المكان ثانية . ثم راحت يافا تختفي على يمين الباخرة . وأذكر أنني قلت لنفسي . «لو غيرّت الباخرة وجهة سيرها ، فإنني سأعود إلى يافا . لقد فقدنا صوابنا وفات الأوان» .

وتوقف ديفيد دمياني هنيهة عن الكلام بعد أن أنهى قصته ، ثم فتح حقيبة وأخرج منها جواز سفر بريطانياً أسمر باهتاً وفتحه على الصفحة السادسة . في أعلى الصفحة على زاوية اليسار ، توجد تأشيرة خروج تقول : «مرفأ يافا ـ ٢٥ ـ ٤ ـ ٤٨» . ولا تزال التأشيرة تحافظ على نفس اللون الأزرق الغامق الذي دمغ به شرطي بريطاني جواز السفر قبل ٣٢ سنة ، إنها آخر تأشيرة خروج من فلسطين .

منذ ١٩٤٨ ، أصبحت حياة ديفيد دمياني مزيجاً من الحرمان العائلي والمعاناة والعمل المحدود

النجاح . أمضت العائلة صيف ١٩٤٨ في مصيف عاليه الجبلي في لبنان ، وعاشت على ٧،٠٠٠ ليرة حملتها معها من فلسطين . لكنهم كانوا بمقاييس اللاجئين الآخرين بحال جيدة . قال دمياني : «سمعنا الإذاعة وشاهدنا صور الأضرار في الصحف ، وأصبح بالنا مشغولاً بشأن من سيتولّى الاعتناء ببساتين البرتقال التي نملكها . وما هو إلا شهر حتى أدركنا أن كارثة قد وقعت . ووقع أبي فريسة للحزن الشديد . صار رجلاً عجوزاً بلا بيت ولا أملاك ولا مال . وتوفي سنة ١٩٥٢ مكسور الخاطر» . وقصد دمياني وزوجته إلى الأردن سنة ١٩٥٠ ، بينما أخذ أشقاؤه يبحثون عن عمل في بيروت . وفي عمّان ، عمل مع الأونروا ـ الوكالة الجديدة التي أنشأتها الأمم المتحدة لغوث اللاجئين الفلسطينيين ـ وأسس معملاً صغيراً للصابون ، لكن مشروعه لم ينجح . وشغل وظيفة حكومية في الأردن اشترك بعدها في ملكية أحد الفنادق في بيروت . وفي سنة ١٩٤٩ أصبح مواطناً أردنياً . وفي سنة ١٩٥٤ ، حصل على بعض أموال العائلة المودعة في حسابات أحد مصارف يافا ، الأمر الذي لم يجعله غنياً وإنما قادراً على العيش» .

ولا يزال حتى الآن محتفظاً بجميع صكوك الملكية وجميع الملفات التي تخصّ العائلة . وعلى صحيفة نظيفة تعلوها الشارة البريطانية سجّلت صكوك الملكية الخاصة ببيته في يافا الذي اشتراه من أبيه ب ٣٤٩٣ ليرة فلسطينية بتاريخ ٢٧ تشرين أول/ أكتوبر ١٩٤٧ . حتى أنه كان باستطاعته إبراز صكوك الملكية التركية الرثّة الخاصة بسراي يافا ، وكذلك المستندات التي تثبت ملكية بساتين البرتقال الواقعة على الطريق الرئيسية بين يافا والقدس (٢٢ دونماً) بجوار حولون (٦٧ دونماً) وفي بيت دجن (٢٤٠ دونماً) فضلاً عن عقار مبنى في القدس أجّر قسماً منه لمساعد حاكم اللواء .

قال دمياني : «لقد سنحت لي الفرصة مرة لزيارة يافا . وذهبت زوجتي ، أما أنا فرفضت الذهاب إلى هناك . كنت سأجد بيتي محتلاً ، ولم يكن بمقدوري أن أتصرف به أو أعيش فيه . كيف يكون شعورك إذا لم يسمح لك بالعودة إلى وطنك والعيش فيه؟ واذا استطعت العودة ، هل تبقى في بيروت لأن لك فيها بيتاً أنيقاً؟» .

ثمة أمر مهين في الطريقة التي يستطيع بها الغريب أن يزور مكاناً محرّماً على شعب هو أجدر بكثير بمثل هذه الزيارة . فإذا استطاع دمياني أن يذهب إلى يافا ، فإن معظم أصحابه في المنفى حُظر عليهم إلى الأبد المشي في الشوارع أمام بيوتهم القديمة ، كما حُظر عليهم طرق أبوابها . وربما كان أقصى مكان يمكن أن يصله فلسطيني مقيم في لبنان يود رؤية البقعة التي يقع فيها بيته السابق داخل ما يعرف بإسرائيل ، هو بساتين البرتقال جنوبي صور أو الضفة الغربية لنهر الأردن . وعليه فإن المفتاح أو الصك الميت أو الصورة المنسوخة من ليتوغرافيات روبرتس ، أو الصورة العائلية السريعة أو البطاقة البريدية

من الثلاثينات ، هي أقرب ما يمكن أن يحرّك أشجان معظم فلسطينيي المنفى تجاه المكان الذي يعتبرونه وطنهم . وما أسعد حظ المراسل الأجنبي الذي يطير من بيروت إلى أثينا ، ويستطيع مع ذلك وفي نفس اليوم أن ينجح في العثور على رحلة لطيران العال من أثينا إلى تل أبيب ويحطّ في مطار بن غوريون ثم يسافر ـ بأسرع مّما كانت تستغرقه الرحلة البريّة انطلاقاً من بيروت ما قبل الحرب ـ قاصداً القدس . وأسعد حظاً منه الصحافي الذي يستطيع خلال ٣٤ ساعة أن يغادر بيروت ليشاهد ما تبقى من العالم الذي فقده دمياني في ذلك اليوم من نيسان حين أبحرت الباخرة أرجنتينا من مرفأ حيفا باتجاه بيروت ، حاملة عائلته من فلسطين للمرة الأخيرة . لم يكن من الصعب العثور على أشباح ذلك العالم . لقد حوّل الإسرائيليون معمل آل دمياني للصابون إلى متحف للبلدية . لكن بوسع المرء حتى الآن أن يقرأ اسم العائلة مكتوباً بأحرف عربية باهتة فوق القنطرة على أحد أطراف المبنى . فالريح والمطر على التلة الصغيرة المشرفة على يافا تسبّبا في تشقق الدهان لكنه لا يزال من الممكن تبيّن كلمتي «حنا دمياني» على يسار البوابة الخشبية المكسورة .

إن باقي الجدار ملطخ بقشرة مهترئة من الدهان البني . وفي معمل السراي القديم شقوق عميقة أحدثتها أمطار الشتاء . ويشغل المتحف الطرف الشمالي من المبنى . أما القاعة الرئيسية التي كان يقوم عليها معمل دمياني بسقفها المقوس وسراديبها فشبه مهجورة . ويجري تأجيرها من حين لآخر لشركة يديرها يهود إيرانيو المولد يعملون بالفن الفارسي : وقد تحطمت النوافذ الخارجية ، وتصدعت الحجارة المنحوتة . وعلا الغبار الكثيف الأرض التي تصدّع بلاطها . أما الشيء الوحيد الذي يذكّر بالعمل الذي جعل آل دمياني من أغنى الأسر العربية بيافا فقد رأيته وأنا أهبط الدرج الخطر . إنه العربة الحديدية التي كانت يوماً تنقل الزيت في المصنع . وربما كان من حسن حظ دمياني أنه لم يعد .

على أن متحف تاريخ تل أبيب ـ يافا الذي يحتل قرنة الطابق الأول قد حظي بعناية خاصة ، بالرغم من أنه ليس سجلاً لتاريخ يافا العربية ، بل للتاريخ التوراتي للبلاد . ففيه معروضات توضح تاريخ مملكة إسرائيل (٩٣٠ ق . م) بالإشارة إلى الملك داود . وفيه خريطة توراتية كبيرة لحياة الملك سليمان تحت الآية ١٦ من الإصحاح ٢ من سفر الأيام الثاني التي تقول : «ونحن نقطع خشباً من لبنان حسب كل احتياجاتك ونأتي به إليك أرماثاً على البحر إلى يافا وأنت تصعده إلى أورشليم» .

وعرف موظفو المتحف اسم دمياني لكنهم لم يذكروه بحماس . وقال الموظف اليهودي بمكتب أمين المتحف : «(تسألني) إن كنت أعرف تاريخ البناية؟» وكان مرحاً ممتلئ الوجه . ولد في أوستراليا ولا يزال يستخدم لهجات أستراليا ونيوزيلندا . ومضى يقول : «كان هذا المكان مقراً للإدارة التركية بيافا ، ومن أهم الأماكن في المدينة . وبعد ذلك بوقت طويل اشترته أسرة مسيحية عربية طائلة الثراء

تعرف بأسرة دمياني وحولوا هذا المبنى . . .» وسكت لحظة وعلى وجهه تعبير هزلي ثم قال : «إلى مصنع صابون . وفي عام ١٩٤٨ أصبحت المدينة يهودية واستولينا على المبنى» . على أن المبنى كله الآن ملك لبلدية يافا التي تعتزم توسيع المتحف بحيث يشغل المبنى كله وذلك عندما يتوافر المال .

وحين أخبرت موظف المتحف أنني التقيت بديفيد دمياني ، فتح عينيه مليّاً باهتمام . وسأل «هل يعرف أن هذا المصنع هو اليوم متحف؟» ثم سار بضع خطوات نحو خزانة ذات واجهة زجاجية وأخرج منها الجزء الثاني النادر من كتاب «فلسطين في صور» لفرانسوا شوتن الذي نُشر في باريس سنة ١٩٢٩ . وقلّب الرجل الإسرائيلي الصفحات المصوّرة بإصبعه ، وهي عبارة عن رسوم فوتوغرافية معتمة تمثل فلاحين عرباً وعربات نقل تجرّها الحمير وتنقر شوارع فلسطين المنسية ، إلى أن أستقر اصبعه على صورة عمّال داخل ردهة أشبه بالكهف . وكانت الصورة قد التقطت داخل مصنع الصابون الذي يملكه جان دمياني وتمثل صفاً من عمال فلسطينيين لهم شوارب يكوّمون ألواح الصابون الواحد تلو الآخر حول الجدران . وقد ظهر كل واحد منهم محملقاً بالمصوّر مشدوهاً وهو يحمل لوح صابون بكل يد من يديه وكأنه يؤدي نوعاً من الطقوس المريبة . وقال الإسرائيلي : «عندما تعود إلى بيروت يجب أن تسأل دمياني إذا كانت هذه الصورة لديه» .

وتحت التلة التي تقوم عليها السراي ، لا تزال بوابة الحديد الرئيسية لمرفأ يافا منتصبة إلى جانب صفّ من الحوانيت الصغيرة المبنية من الحجارة ، وتتناقض هندستها العربية مع الأسماء العبرية المكتوبة على نوافذها . لقد غادر ديفيد دمياني هذا المكان في نيسان (أبريل) ١٩٤٨ ، ولم يكن من الصعب عليه مشاهدة معمل الصابون القديم وكذلك الكنيسة ـ وكلاهما مشرف على المدينة ـ وهما ينتصبان بوضوح عند الأفق بينما الباخرة أرجنتينا تمخر عباب البحر باتجاه بيروت .

على أن العثور على بيت عائلة دمياني القديم لم يكن بالأمر السهل . إذ إن الإسرائيليين حوّلوا الأبنية القديمة التي كان يقيم فيها العرب جنوبي السراي إلى منطقة للمتاجر والمطاعم ، أي إلى مركز له رونقه الخاص لاجتذاب السيّاح وحافظوا على طابعه المعماري المميّز . ولكن ما من أحد هناك سمع بحيّ عرقتنجي في يافا حيث ابتاع دمياني بيتاً له على إثر زواجه . ولم يكن لدى الإسرائيليين في سوق برج الساعة أدنى فكرة عن هذا المكان . وحين دخلت الحي العربي الذي يتألف من شبكة من الطرقات المكسوّة بالغبار والأرض المهملة الملأى بالحجارة الصغيرة والبيوت المتناثرة جنوبي المدينة ، عثرت على شخص فلسطيني واحد استطاع أن يتذكر هذا الاسم وأرشدني إلى الطريق الرئيسية على طرف يافا وإلى زقاق صغير يتفرّع منه شمالاً . واتبعت تعليماته وانحدرت إلى شارع ضيّق يؤدي إلى درب مسدود يهيمن عليه بيت كبير أبيض له رواق بمواجهة الباب الأمامي .

كان اليهود والعرب يعيشون جنباً إلى جنب في هذا الشارع ، ويتحدث الواحد منهم بلغة الآخر بطلاقة . وكان أول من أشار إلى البيت الأبيض يهودياً إسرائيلياً . ورأينا بالشرفة العليا امرأة تنظر حولها . فصاح اليهودي بالعربية«هل كان هذا بيت دمياني؟» فأجابته بالعبرية بأنه هو . ورافقني صبي فلسطيني صغير عدة خطوات نحو المبنى قبل أن تدعوني المرأة إلى الدخول . ووجدت نفسي في غرفة بسيطة جيدة التهوية عُلّقت على جدرانها بعض الرسوم الريفية ، وتفضي على الجانبين إلى غرفتي نوم . وقالت المرأة في خجل أنها جورجيت عبود وأنها هي وزوجها لويس الذي يملك كراجاً ابتاعا الطابق العلوي من عائلة يهودية ، وأنهما ينشّئان فيه أولادهما الأربعة . وطلبت من أصغرهم وهو زهير أن يُعدّ لنا القهوة .

وقادتني السيدة عبود إلى الشرفة ، ومنها بدا واضحاً أن العديد من الأبنية المجاورة ـ على غرار سائر الأبنية في الحي العربي ـ قد جرى تخريبها ، فتحطمت سقوفها وخرجت نوافذها من أطرها . قالت : «إن اصحاب البيوت هم الذين يفعلون ذلك» ، وأشارت إلى ثلاثة أكواخ صغيرة تم إخلاؤها ودُمّرت خلال الساعات الأربع والعشرين الماضية» . وقالت : «كانت تعيش فيها عائلتان عربيتان وعائلة يهودية . وما أن خرجت هذه العائلات حتى قام أصحابها بهدمها وذلك لإقامة أبنية جديدة على الأرض» . وبدا أن السيدة عبود وزوجها اللذين يحملان الجنسية الإسرائيلية مستسلمان لهذا الدمار التدريجي الذي يلحق بالمجتمع الصغير المختلط المحيط بمنزلهما . لكن عائلتهما لا تملك سوى الطابق العلوي من منزل دمياني القديم . قالت :«هناك رجل مسنّ يقطن في الطابق السفلي ، وعلى العموم نحن لا نقابله . إلا أنه رجل لطيف . وهو يهودي» .

بدأ الظلام يشتد ، وهبّت ريح لافحة عبر المتوسط ، ملأت محيط المنزل بالغبار . لكن عندما نزلنا من الطابق العلوي قرعت الجرس المجاور للبوّابة الفولاذية السوداء ، وسمعت بعد هنيهة شخصاً يقترب من الباب الأمامي . وفتحت البوّابة وظهر رجل مسنّ ظهره منحنٍ نوعاً ما وراح يحملق فينا باستغراب . كان يضع فوق كتفيه كنزة رقيقة اتقاء للهواء البارد . أخبرناه عن سبب مجيئنا . قال :«إذا كنتم تعرفون الشخص الذي يملك هذا البيت فمن الأفضل أن تدخلوا .» وهكذا لحقنا بالرجل المسنّ وصعدنا درجات من الحجر أمام الرواق ثم دخلنا الردهة الطويلة .

وشاهدنا في أقصى الردهة الأعمدة الرومانية المقلّدة والمطلية باللون الأبيض وهي تلمع تحت ضوء المصباح الكهربائي الوحيد . وقال الرجل بعد أن جلس بهدوء على كرسي له ذراعان بجوار الأعمدة : «إنني أعيش مع ابنتي» . وكانت بيننا وبينه طاولة تكدّست عليها الكتب وفوقها رسم فوتوغرافي لرجل يرتدي الزي الخاص بأفراد الجيش البريطاني ويقف إلى جانب شابة يهودية جميلة .

أشار اليها الرجل المسنّ . وقال : هذه كانت زوجتي ، انخرطت في الجيش البريطاني خلال الحرب . وأنا مقيم هنا منذ ثماني سنوات ونصف السنة واشتريت هذا الطابق من عائلة عربية . ولم أتعرف أبداً على السيد دمياني» .

تحدّث الرجل بعبارات قصيرة ، وكأنه يريد أن يقصر كلامه على الوقائع الأساسية . وساد صمت طويل قال بعده وعلى شفتيه ابتسامة باهتة :«أنا نحّات ، أنا رجل مُسِنّ وأنا يهودي» . وبدا أنه يريد أن يتحدث . فقال إن اسمه ، شلومو غرين ، وأنه لاجئ من رومانيا ، ترك قرية كلاغ على الحدود الرومانية الهنغارية عام ١٩٣٩ وجاء على ظهر سفينة إلى فلسطين قبيل اندلاع الحرب العالمية الثانية . قال : «احتجزت البحرية البريطانية سفينتنا لكنّ الحظّ حالفنا ، لقد كانت آخر سفينة سُمح لركابها بالإقامة في فلسطين بصورة شرعية . وأقمت سنة ونصف السنة في الكيبوتز ثم التحقت بالجيش البريطاني لمدة خمس سنوات . سافرت من العلمين إلى طبرق ثم إلى سوريا . أما أفراد عائلتي فقد أرسلوا إلى أوشفيتز ، ونجت والدتي وحدها . فسخّروها في أعمالهم . وأخبرتني أن والدي توفّي في المعسكر عام ١٩٤٤ . لقد فقدت حوالي مئة من أقاربي في أوشفيتز» .

وتوقف شلومو غرين عن الكلام لبرهة . ثم قال كما هو متوقع أنه التحق بالجيش الإسرائيلي عام ١٩٤٨ ، وقاتل في اللطرون والجليل وعاد إلى الجيش مرة أخرى في ١٩٥٦ وفي ١٩٦٧ . وتوفيت زوجته قبل عام فقط . وتعمل احدى ابنتيه مدرّسة في تلّ أبيب ، والثانية رسّامة . وشلومو غرين نفسه كان نحّاتاً على جانب من الشهرة ، نظّم ١١ معرضاً في القدس ، وبعض إنتاجه يزّين جدران بيته الصغير ، بيت ديفيد دمياني . كان شلومو غرين في الثانية والستين لكنه بدا أكبر بكثير .

ودار سريعاً حول الغرفة بهدف عرض منحوتاته ثم قال : «أخبرني عن السيد دمياني ، فأنا لا أعرف شيئاً عنه» . ثم عاد إلى الجلوس وأصغى لقصة آل دمياني وأخبار حياتهم في يافا وهروبهم سنة ١٩٤٨ . وكيف أن ديفيد دمياني وقف في مؤخرة السفينة وهي تبتعد عن مرفأ يافا وتمنّى لو أنها تستطيع أن تقفل راجعة ويعود هو إلى بيته . وإذا اعتبرنا موت البشر مقياساً للعذاب ، فإن دمياني ولا شك يسلّم بأنه لم يلق من العذاب ما لقيه شلومو غرين .

وجلس اليهودي العجوز طويلاً دون أن ينبس بكلمة بينما كانت الريح والمطر يطرقان نوافذ بيت دمياني وسط الظلام . ثم تطلّع فجأة وقد اغرورقت عيناه بالدموع وقال :«لقد تأثرت كثيراً بما أخبرتني . فما عساني أن أقول؟ بودّي لو ألتقي بهؤلاء الناس . أخبرهم نيابة عني . . .» وهنا توقف قليلاً عن الكلام ثم قال : «إنها مأساة لشعبينا . كيف يمكنني أن أفسرّ بإنكليزيتي الضعيفة؟ أعتقد أن للعرب ذات

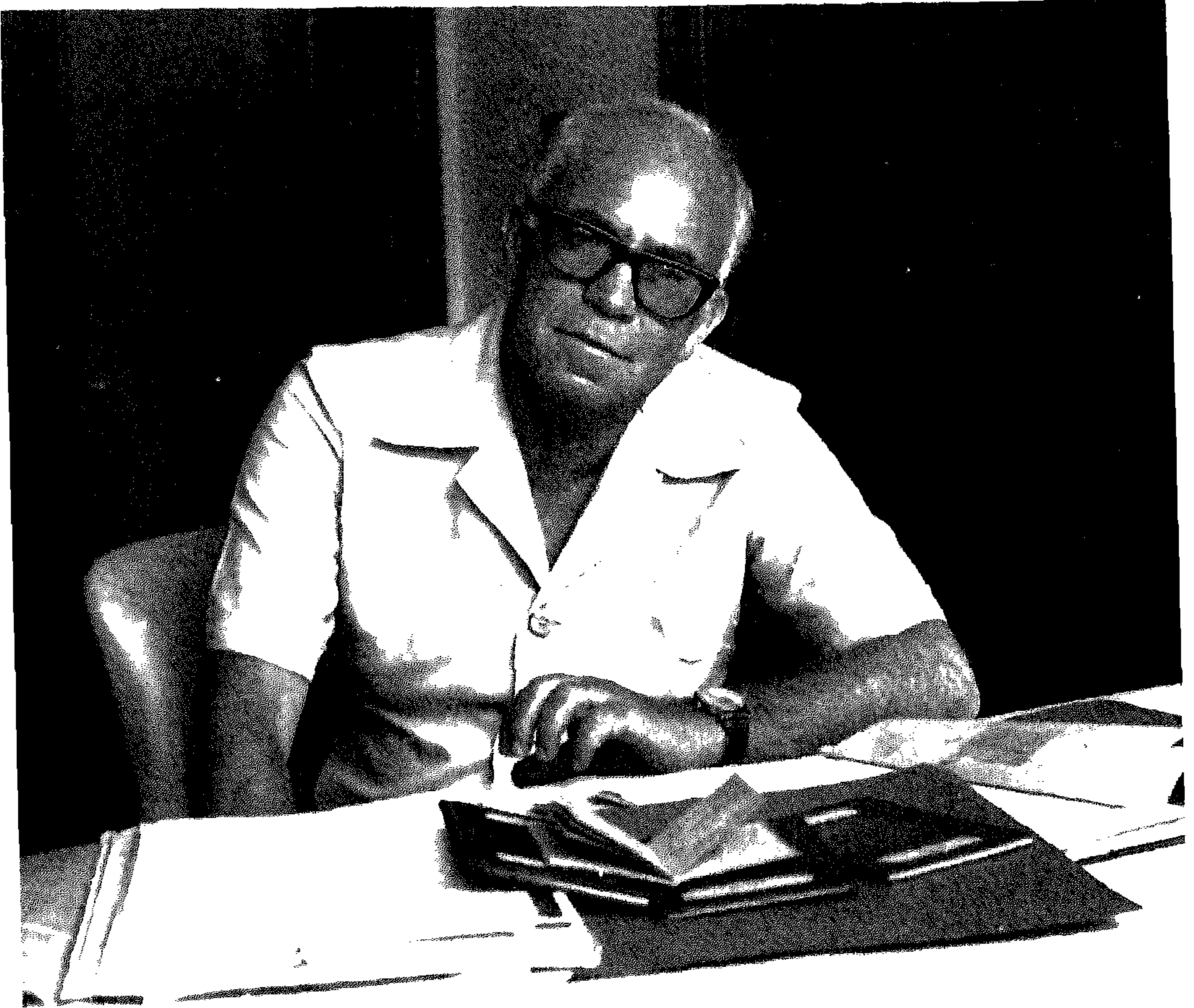
الحقوق التي لليهود ، كما أعتقد أنها مأساة تاريخية أن يتسبب شعب لاجئ بخلق لاجئين جدد . إنني أعيش هنا بسلام مع أناس عرب ولديّ بعض الأصدقاء بينهم . إنهم قوم لطفاء . إنهم تماماً مثلنا . أنا لا أدري ما إذا كنّا نحن اليهود قد خلقنا هذه المأساة ـ لكنها وقعت . أنا لا أريد سوى شيء واحد : السلام والتقدم للجيل الجديد . كيف لي أن أقول أكثر من هذا؟ وأنا أشعر أنني هنا في بيتي» .

في بيروت ، أخبرت دمياني بما قاله شلومو غرين ، وأخبرته عن البيت القديم الدافئ ذي الأعمدة المقلّدة التي لا تزال تنتصب في الردهة الأمامية . وكررت على مسمعه ما جرى للعديد من أفراد عائلة غرين وكيف لاقوا مصرعهم في أوشفيتز . ولم يُبدِ دمياني أية مرارة وقال : «أتمنى له السعادة . هل يمكنك أن تبلغه ذلك؟ هل يمكنك أن تقول له أنني أتمنى له السعادة؟» .

ومهما يكن من أمر ، فليس من قبيل المغالطة التاريخية القول بأن جميع الفلسطينيين يحملون مثل هذا الشعور النبيل تجاه أولئك الذين يملكون اليوم الأرض التي كانت أرضهم . كنعان أبو خضرا يصحّ أن يكون مثالاً في هذا الإطار . كان صحافياً في عهد الانتداب على فلسطين ــ وكل الروايات تشير إلى مدى نضاله وشجاعته حتى في مشايعته جهة من الجهات ـ أسّس جريدة «الشعب» وتولّى تحريرها . وفي سنة ١٩٤٦ صدّر الصفحة الأولى في أوّل عدد من جريدته «الشعب» ، بمقال يحضّ فيه العرب على القتال بمزيد من القوة من أجل الإبقاء على أراضي العرب للعرب في فلسطين . وظهرت في الصفحة نفسها خريطة مغطاة باللون الأسود وتحتها تعليق يقول : «سوف تصبح الأراضي المظللة ملكاً لليهود . هذا ما سيتحوّل إلى وطن قومي لليهود» . تلك كانت نبوءة صحفية حقّة .

لقد كان بوسع أبو خضرا وهو يقلّب مجموعات جريدته القديمة المجلّدة أن يعيش تلك الفترة الشاذة من تاريخ عمله الصحافي المجيد ، على غرار ما يفعله الصحافيون بعد مرور وقت طويل على موت صحفهم . قال : «كنّا نملك صحيفة كبرى بلغ توزيعها سنة ١٩٤٨ ١٢ ألفاً ـ وهو أعلى رقم في فلسطين ـ اشتريت مطبعة إنكليزية مستعملة ، وعملت على إصدار الأسهم . لم نتمتع بالإكتفاء الذاتي ، ولكننا حافظنا على استقلالنا وحيادنا كجريدة . كنّا مستقلّين عن عائلتي الحسيني والنشاشيبي وهما أكبر العائلات العربية في فلسطين . وكانت صحيفتنا صحيفة وطنية ، كرهها اليهود ، لكننا لم نكن ضد اليهود» .

كان أبو خضرا بعظام وجهه الغليظة ونظّارتيه المستطيلتين الكثيفتين يوحي بالرهبة نوعاً ما . إنه من نوع أولئك المحرّرين الذين يراعون الدقة في طريقة كتابة هذا الإسم أو في تحديد عمر ذاك السياسي (أبو خضرا من مواليد ١٩٢٠) . كما كان يتميز بمثل هذه الدقة على صعيد الأعمال أيضاً . والحقيبة



كنعان أبو خضرا

الزرقاء العتيقة التي حملها معه من فلسطين سنة ١٩٤٨ لا تزال محشوّة بملفاته ومستنداته ، وجميعها معنون ومؤرخ بإتقان : من صكوك ملكية الأراضي إلى صكوك البيع إلى الضرائب إلى الإيجارات إلى خرائط الحصص فضلاً عن المراسلات مع الأمم المتحدة بشأن ملكية أراضي أسرته وهي أراض شاسعة . كان آل أبو خضرا من أكبر العائلات في فلسطين ، وكانت بساتينهم وممتلكاتهم موزّعة بين يافا والقدس وغزة . ففي يافا شارعان يحملان اسم أبو خضرا كما أن جامع أبو خضرا في غزة لا يزال على حاله . وتُقدّر أملاك العائلة مجتمعة ب ١٢ ألف دونم من الأراضي الزراعية وحوالي عشرين عقاراً في يافا . وأول ما يذكره أبو خضرا ـ ولا يملّ ذكره ـ هو كيف كان يقطع مع شقيقيه رباح وأنور عبر بستان البرتقال الذي يملكه والده في يافا لزيارة عمّيه . وقد عنيت العائلة بزراعة أشجار البرتقال والحنطة والشعير وقصب السكر . قال كنعان :

«إعتدت أن أقصد إلى هناك كل يوم وأنا صبيّ . عمّاي فوزي وتوفيق كانا مقيمين في منزلين متصلين بنى أحدهما جدّي إسماعيل . وللمنزل ثلاث نوافذ كبيرة وأبواب حديدية وحيطان بيضاء . وكان الزائر يصعد الدرج إليه لأنه يقوم فوق حوانيت . وكان إبراهيم ابن عمي مقيماً في بيت من طبقتين على بعد مئات الأمتار وبعد باب سكة حديد تل أبيب ـ يافا مباشرة : وفي بيته مستأجرون يهود» . وفي عام ١٩٣٧ ، قصد أبو خضرا إلى بيروت لدراسة العلوم والتحق بالجامعة الأميركية ـ على غرار ما فعل دمياني بعد ذلك بأربع سنوات ـ لكن هذا النوع من الدراسة لم يرق له وعاد إلى يافا . وأخيراً قرر دراسة الصحافة بالجامعة الأميركية في القاهرة .

بدأ نشاطه في جريدة «الشعب» التي صدرت في يافا سنة ١٩٤٦ ، وعمل معه في الجريدة فريق من أربعة محررين متفرغين . وكان يجلس وراء مكتبه في الجريدة حين أصدرت الأمم المتحدة قرارها بتقسيم فلسطين . وتابع عمله بعد اندلاع الحرب بين العرب واليهود ، وصدر آخر عدد من الجريدة في ٩ آذار (مارس) ١٩٤٨ . تذكر ذلك بقوله : «كنّا نريد أن نضع عنواناً بارزاً لخبر يتعلق باستيلاء أفراد من الجيش اللبناني على مستوطنة يهودية . إلا أن الرقيب التابع لسلطات الانتداب البريطاني ، وهو شخص «يهودي» اسمه أريبه سييف ، المعروف بدماثة الخلق رغم أننا لم نقابله وجهاً لوجه ـ رفض السماح لنا بطبع الجريدة . وفي اليوم التالي ، أقدم حاكم اللواء على تعليق صدور الصحيفة . وكان والدي ووالدتي قد توفيّا قبل ذلك بعدّة سنوات وأقمت أنا مع شقيقي رباح وشقيقتي ربيعة وزوجتي سلافة وطفلي الصغير . وكان بيتنا في الأصل بيت والدي . وكان مدخل البيت يفضي إلى قاعة داخلية استخدمناها غرفة سفرة . وكان أكثر البيت أبيض اللون . وكان والدي من كبار المعجبين بكمال أتاتورك وقاتل في الجيش التركي ضد البريطانيين في غزّة . وصورة أتاتورك معلقّة في غرفة الجلوس .

«حوالي ١٥ نيسان (أبريل) قُصف منزلي بمدفعية المورتر، وكان يقع في وسط يافا. وأصابت قذيفتان سطح البناء وخلال الليل انفجرت قذيفة ثانية داخل الممر. ولم تحلّ الخامسة صباحاً حتى صار البقاء في المنزل مستحيلاً. فانتقلنا بسيارتنا الروفر الإنكليزية إلى القطاع الجنوبي من المدينة. وأغلقنا باب البيت ولكننا ظننا أننا عائدون. ويردّد البعض أن الدول العربية هي التي طلبت من عرب فلسطين أن يخلوا بيوتهم. وما حدث هو أن الذعر استولى على يافا. فالمدينة بدأت تتهدم. وترك البعض وراءهم حتى الأطفال. كنّا معرّضين للموت». وكان مصدر القصف ــ كما يقول أبو خضرا ــ هو تل أبيب. وأقامت العائلة مع الأقارب عشرة أيام، قبل أن تتوجّه إلى الرملة حيث يقيم أنور الشقيق الثاني لأبو خضرا. ويذكر أبو خضرا أنه حين توقف أمام إحدى المحطات للتزود بالوقود عثر على ثلاثة ثقوب في السيارة أحدثها رصاص القناصة. وبعدها تابع طريقه إلى غزة. وفي ذلك الوقت، دخل الجيش المصري جنوبي فلسطين، لكن أبو خضرا شاهد رجال الجيش المصري بعد ذلك بأيام قليلة وهم ينسحبون عبر الشاطيء باتجاه سيناء. وغاصت سيارة الروفر العائلية في رمال الطريق وتعرّض شقيقه أنور لنوبة قلبية بعد أن أمضى ليلة على الشاطئ في العراء. وتوفي بعد ذلك بعدّة أشهر إثر نوبة قلبية ثانية.

وأقام آل أبو خضرا عدّة أيام في منزل بمدينة غزة التي كانت تُقصف من الجو ليلاً. قال: «لم نكن نستطيع التحرك إلى أبعد من ذلك ولم نكن قادرين على الرجوع وقد بلغنا آخر فلسطين». وفي غزة عيّن أبو خضرا مسؤولاً عن مخيم اللاجئين من قبل الأمم المتحدة، وترك هذا العمل سنة ١٩٥١ ليصبح موظفاً لدى الأونروا في لبنان. ثم تحوّل بعد ذلك إلى صاحب شركة في بيروت تعنى بتسجيل الأفلام التربوية وترجمة الكتب التقنية إلى اللغة العربية. ومع ذلك، حمل معه إلى بيروت حقيبته القديمة وفيها الصكوك وكشوف الضرائب التي تثبت أن آل أبو خضرا يملكون أرضاً في فلسطين. ويشكل مجموع هذه المستندات أرشيفاً صغيراً، ويشتمل حتى على البطاقات الصحفية الصادرة عن سلطات الإنتداب والتي تخوّله «التجوّل في أي مكان من فلسطين، حتى في المناطق التي فرض عليها منع التجوّل». وكذلك على إيصالات دفع الضرائب من البلدية في يافا وسندات تأجير الأراضي إلى القوات الجوية الملكية. فضلاً عن صكوك ملكية المنزل العائلي في يافا باسم والده وهي مؤرخة في أول آب / أغسطس ١٩٣٠ وخريطة الرهن العقاري لبساتين آل أبو خضرا في برقة حول وادي الغربي على الطريق بين يافا وعسقلان.

قال: «كانت البساتين محاذية للبحر. وفيها أفخر أنواع البرتقال الفلسطيني وهو البرتقال اليافاوي الأصلي الذي كان يُغرس في فلسطين قبل مجيء الإسرائيليين. ومن بستان البرتقال، كنت أشاهد

القطار يقطع الشاطئ نزولاً باتجاه غزة ، وأسمع صفيره» . لقد أبدى أبو خضرا بعض الانفعال وهو يتحدث عن ماضيه ، إلا أنه اختار عباراته بعناية كبيرة وإن كانت حانقة أحياناً . قال : «من المؤلم بالنسبة إلينا الرجوع إلى هذه الأشياء ، يقول الغربيون إن الفلسطينيين هم اليوم في حال أفضل ، وقد يكون هذا صحيحاً في بعض الحالات . ولكن ، ليس هذا بيت القصيد . ففلسطين وطننا . ومنذ بضع سنوات سُمح لشقيقة زوجتي بالسفر إلى فلسطين . وحملت لي معها بعض ثمار البرتقال من بستاني ، لكنني لم أقدر على أكلها ورميتها بعيداً . فأنا لا أستطيع حتى الآن أن أتصور أننا لن نعود . أولادي يريدون أن يذهبوا في زيارة وابنتي ترغب في الحصول على صورة لبيتنا . . . وسُئلت عمّا إذا كنت أرغب في الذهاب . إنني لا أستطيع أن أتحمل المهانة وأنا أعبر جسر ألنبي ـ كيف لي في هذه السن أن أتحمل تدابير المرور والتفتيش من قبل شخص صهيوني يهودي هو إما بولوني وإما روسي وإما روماني ، يقيم في بلدي وفي بيتي ويطرح عليّ الأسئلة ويفتشني . إنها بلدي . إنني أفكر في أرضي كل يوم . وأتذكر كل حجر في منزلي وكل شجرة في بساتيني . فلا أريد أن أوقّع أية ورقة من شأنها أن تعطي أرضي لأي كان» .

لم يكن إيمان أبو خضرا بالتفاصيل القانونية إلا مجرّد كلام عابر . فهو يعرف ما الذي حلّ بأرضه . فالقطارات لا تزال تسير على الخط الساحلي جنوبي يافا حيث تقع بساتين العائلة . لكن القطار لم يعد بخارياً ـ بل يسير على الديزل ويجرّ وراءه عربات حمراء وبيضاء وزرقاء . إنه قطار سريع يُسمع زعيقه وهو يتجه إلى عسقلان بين البساتين والبحر . وكان بإمكاني أن أراه من المكان الذي اعتاد أبو خضرا أن يقف فيه على طرف حقوله في برقة . مع أن الذين يعرفون أين كانت برقة هم قلائل . أقول «كانت» لأنها الكلمة الصحيحة . فقد اختفت برقة من الوجود على غرار المئات من القرى العربية الفلسطينية بعد ١٩٤٨ .

إن اليهود الإسرائيليين الذي كانوا في كيبوتز صغير على بعد ميل واحد تقريباً لم يسمعوا بها قط ، لكن امرأة عربية عجوزاً ترتدي ثوباً طويلاً أسود وتقطف الثمار أشارت إلى تلة حين سمعت الاسم وهزّت كتفيها . فالبساتين التي هي الآن جزء من تجمّع للمزارع تمتد عبر التلة الصغيرة . ولم يثر الوادي الغربي الذي تشير إليه خرائط أراضي أبو خضرا إلا رد فعل ضعيفاً لدى المرأة . إذ أصبح اليوم تحت التراب مثل القرية التي كانت تقع بين هذه الأشجار ذات الأغصان المثقلة بالثمار .

كذلك لم يكن سهلاً العثور على إرث أبو خضرا في يافا . فالمنزل الذي هرب منه أبو خضرا في نيسان/ أبريل ١٩٤٨ تُرك لسنوات في حال من الخراب واقتلع قسم من نوافذه من مكانه . وبستان البرتقال الذي ألف المشي فيه حين كان صبيّاً اختفى تحت الطريق الرئيسية وتحت مجموعة من

خشبيات للمهندسين كانت موجودة حتى قبل ١٩٤٨ . لكنني عثرت على البيت الذي كان يملكه ابن عمه إبراهيم بمحاذاة بوابة سكة حديد تل أبيب ــ يافا . لقد تمزق خط السكة قبل سنوات ، وتقطعه الآن أعمدة التلغراف المكسّوة بالنبات المعرّش . لكن البيت الذي ينقصه الدهان لا يزال موجوداً بمحاذاة جسر السكة القديم بالضبط . كما لا يزال عدد من المستأجرين اليهود السابقين يقطنون في الطابق الثاني منه .

رحّب بي ديفيد الرجل القصير النحيل الباسم ذو الوجه المستطيل والملامح الحساسة في بيته الصغير . وهو وزوجته من اليهود المولودين في تركيا . وقدما إلى فلسطين قبل الحرب العالمية الثانية . ولم يتركا بيتهما قط ، حتى بعد أن امتدت جبهة المعارك بين العرب واليهود إلى ما وراء المنزل سنة ١٩٤٨ . إنه يتذكر إبراهيم أبو خضرا جيّداً . قال ديفيد : «كان إنساناً لطيفاً جداً . لكننا لم نره كثيراً سنة ١٩٤٨ . فالبيت كان جزءاً من الجبهة اليهودية الأمامية . وما لم يعرفه أبو خضرا أبداً أن الطابق الأرضي كان مستودعاً للبنادق والذخائر . وكان مناحيم بيغن يتردد على هذا البيت خلال معارك ١٩٤٨ . أتى لزيارتنا ثلاث أو أربع مرات أثناء القتال لتناول القهوة والبسكوت معنا . كان رجلاً طيباً ودمثاً» .

تركت الحرب بصماتها على منزل العمّين اللذين ذكر أبو خضرا مراراً زياراته لهما . وشارع أبو خضرا صار اسمه شارع جرولوت ، لكنّ بيت الحجر الأبيض لا يزال هناك بنوافذه الثلاث الطويلة الأنيقة وزخارفها الحديدية المشجرة . وصدئت الأبواب الحديدية ذات النقوش النافرة ، وانخلع أحدها من المفاصل . ولا تزال عليها آثار خفيفة لما أصابها من شظايا . ويمكن مشاهدة عدة ثقوب أحدثها الرصاص بجانب النافذة . والطابق السفلي عبارة عن مصطبة وعدّة حوانيت صغيرة ، تماماً كما عرفه أبو خضرا . وفي أعلى الدرج باب قديم جداً تشقق دهانه الأخضر .

طرقت الباب ، وكان محطماً إلى حد أنني استطعت أن أرى من خلاله غرفة كبيرة فيها رجل يلبس سروالاً وسترة ويجلس على كرسي مطبخ . تصرّف الرجل بمزيج من الإرتياب واللطف . قال : «نعم ، هنا كان بيت أبو خضرا . لكن البيت لم يعد بيته الآن» . ولحقت به إلى الباب كلّ من زوجته وابنته . لم يكن يريد الخوض في الكلام ولم يشأ التحدث عن نفسه . قال : «أنا مالك البيت حالياً» . عندها تركت المكان ، وقفلت راجعاً إلى سيارتي ، ونظر إليّ الرجل من على شرفته الحديدية الصغيرة التي لعب عليها كنعان أبو خضرا وهو صبيّ صغير ويداه في جيبي بنطلونه ، وانحنى كتفاه قليلاً في الهواء الطلق . إنه إنسان حريص على بيته .

في يافا على الأقل بيوت يمكن طرقها . لكنْ لا يمكن أن نقول الشيء نفسه عن الآلاف من منازل الفلسطينيين الموجودة اليوم في إسرائيل . ففاطمة زمزم مثلاً تعرف تماماً ما الذي حلّ ببيتها وأرضها .

ولا تستطيع اليوم أن ترى من بيتها الصغير المؤلف من غرفتين في المخيم سوى فلسطين . ولا تزال تسميها فلسطين . والواقع أنني أستطيع من وراء صفوف الأشجار دائمة الخضرة التي تحف بالطريق جنوب مدينة صور أن أرى فوق الساحل بشيء قليل من الوضوح خط التلال داخل الجليل على الجانب الآخر من حدود إسرائيل .

كانت السيدة زمزم قد غادرت بيتها القائم على الجانب الآخر من تلك التلال قبل ثلاثين سنة ولم تعد إليه . وتعيش الآن في مخيم الرشيدية البائس الذي يشغل أربعة أميال مربعة ، ويتألف من مجمعات من أكواخ وسقائف لا يخفف من بؤسها إلا شجرة هنا أو هناك ، أو نبتة نافرة من جدار من الطوب ، أو قناة لتصريف المياه تخترق الطرق الموحلة . ولفاطمة حديقة صغيرة جداً . وهي عبارة عن عدة أقدام مربعة من الطين وشجرة كرز مزهرة تظلل ملجأ من أكياس الرمل للحماية من الغارات الجوية . فمخيم الرشيدية يتعرض يومياً تقريباً لتلك الغارات .

وبدت فاطمة أول الأمر امرأة مرحة ممتلئة الجسم . وكانت في الخامسة والستين من عمرها وترتدي فستاناً مزخرفاً زاهي الألوان وعلى رأسها منديل أبيض يكشف طرفه الأمامي عن شعرها المجعد . وبدا وجهها واضح التجاعيد وأنفها بارزاً معقوفاً . على أن نظراتها كانت تنم عن وداعة ولطف . وكشف حديثها عن ميل إلى الدعابة الحادة . وكان مما قالته أنها تطلب من أفراد أسرتها تنظيف أحذيتهم قبل دخولهم بيتها الصغير . وعندما شرحت لي كيف صارت لاجئة كانت تتوقف متأملة عند كل عبارة ، وتشعرني بأنني كأجنبي قد لا أعرف الكثير عن تاريخ فلسطين قبل عام ١٩٤٨ .

قالت : «إنني من قرية أم الفرج بشمالي الجليل . وكانت لعائلتي فيها ثلاثة بيوت . كنّا نستخرج زيت الزيتون ونبيعه في القرى المجاورة ، هذا إلى جانب زراعة الحنطة وإعداد الطحين . واسم زوجي مصطفى زمزم ، وعندنا ثلاثة بساتين ، بستانا زيتون وبستان ليمون حامض . وكنا نزرع الكرمة بجوار بيوتنا ، ولدينا كل أنواع الفاكهة . كان عندنا كل شيء . وفي عام ١٩٤٤ بنينا بيتاً جديداً على حدود القرية لي ولزوجي . واستقدم زوجي لبنائه مهندسين عرباً ، وبلغت كلفته ٧٠٠ ليرة فلسطينية . وكان بعض السيّاح الإنكليز يأتون لالتقاط الصور له . إنه بيت من حجر ـ حجر أبيض ـ مؤلف من أربع غرف في الطابق العلوي ، وأربع في الطابق السفلي . وبنيناه داخل البستان بمواجهة المكان الذي يقع فيه منزلنا القديم . وعُرف في القرية باسم منطقة الجزيرة . ولنا سبعة أولاد ـ خمسة صبيان وبنتان» .

تحدثت السيدة زمزم بتمهّل . وكانت وهي المرأة الريفية تتحدث إلى غريب ، وبدون سابق إنذار . ونهضت متوجهة إلى غرفتها الثانية ، وعادت بعد دقيقة أو نحو ذلك حاملة علبة صفيح صدئة ، استطعت أن أقرأ على غطائها الذي رفعته بواسطة السكين ـ اسم صانع الحلوى الإنكليزي .



السيدة فاطمة زمزم

وأخرجت قصاصة من الورق البنفسجي الباهت . وهي صكّ تركي لملكية أرض العائلة يعود تاريخه إلى عام ١٩١٥ ، والصكّ مبقّع بفعل الرطوبة ، وزواياه ممزقة ، لكن الكتابة والاشارة المزيّنة بالزهور في منتهى الوضوح . وعليه طابع تركي ألصق في أسفل الزاوية إلى اليسار . قالت السيدة : «هذا دليل على أن عائلتي تملك الأرض» وقالت عبارتها ببساطة تُسكت المحامي نفسه . ثم أخرجت ورقة مجعدة أيضاً ، لكنها أكثر نظافة ، كُتب في أعلاها : «شهادة تسجيل صادرة عن حكومة فلسطين . مكتب تسجيل الأراضي في جيلو ـ القضاء : عكا . القرية : أم الفرج . رقم العقار : ١٨١٥١ . رقم الصك :٠٥٢ مجمّع : الهبارا كانل ـ ١٩ دونم . . .» والتاريخ ٢٢ تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٤٧ . وتحمل الوثيقة اسم مصطفى بن أسعد شحادة زمزم ، أي زوج السيدة زمزم . وحين رأت أنني تعرفت على هذا النوع من الصكوك العائدة إلى فترة الإنتداب البريطاني أشرق وجهها وكأن اكتشافاً كبيراً قد تمّ . ولما كان زوجها السيد زمزم قد توفي فإنها تعتبر نفسها الوريثة بموجب الشرع الإسلامي ، وعليه فإنها صاحبة الأرض .

وقالت أنه لم يخطر ببالها قط أو ببال زوجها أن قريتها ستتعرض للأذى وأن أهلها سيتهددهم الخطر . قالت : «كنّا نزور اليهود . ولم تكن هناك مشاكل . وكنا نحمل مرضانا إلى طبيب يهودي . كان هناك الدكتور كاياوي والدكتور ناتاني وطبيبة تدعى مريم . ولقينا منهم جميعاً معاملة طيبة . وأحياناً كنا نحمل بضاعتنا لبيعها في القرى اليهودية . ولكن ، ذات يوم سنة ١٩٤٨ ، أوقفت العصابات اليهودية شاحنة قادمة من قريتنا . نصبوا كميناً للشاحنة وقتلوا السائق . ثم قامت النساء اليهوديات بإطلاق النار على جميع الرجال الذين كانوا في الشاحنة . وقعت هذه الحادثة على الطريق بين أم الفرج وعكا ، وعلى مقربة من بستان الانشراح قبالة نهاريا . وهكذا توقف الجميع عن الذهاب إلى عكا» .

وقالت السيدة زمزم أن اليهود أخذوا يقصفون القرية . وأضافت :«وجدنا أنفسنا محاصرين . وهذا ما قاله لنا غيرنا من العرب ورأوا أن علينا أن ننتقل إلى قرية أخرى . وحاولنا استخدام أشجار النخيل لسدّ الطريق . فلم يكن لدينا في أم الفرج غير ثماني بنادق إنجليزية رقم ٣٠٣ ، والعصابات اليهودية على الأبواب . وعندما رأيت شقيق زوجي طلب مني مغادرة القرية . لكنني بقيت ليلة أخرى في بيتنا الجديد خارج القرية . وفي اليوم التالي تركنا الرجال وغادرنا القرية . وحملت ابني حسن وعمره أربعون يوماً ، وحمل الأولاد الأطفال الآخرين . وحملنا مفاتيح البيت ولكننا أضعناها في الرشيدية . وأوردت السيدة زمزم أسماء القرى التي مرت بها مثل النهر والكابري والدير . ثم أصابها ما يشبه الإغماء ، وأخذت تنوح وكأنها تندب زوجاً أو ابناً . وغمرت وجهها بيديها . أما الشبان الفلسطينيون الذين تجمعوا لسماع قصتها فلم يفقدوا هدوءهم لأنهم كانوا يعرفون أنها ستتغلب على حزنها وأن ما فعلته كان أشبه

بالطقوس حتى ولو كان وراءه حزن عميق . وعلى أي حال فإنها لم تلبث أن رفعت رأسها ونظرت إلى صورة شاب وشابة معلقة على الحائط المواجه داخل إطار . وكان شعر الشابة أسود ووجهها جذاباً يتسم بالجد . أما الشاب فبدا في غاية البراءة . وكان شارباه المعقوفان وشعره الأملس المفروق بشكل مبالغ به يتناقضان مع ملامحه الوسيمة . وكانت تلك صورة للسيدة زمزم وزوجها أخذت عام ١٩٣٩ وبعد مرور ست سنوات على زواجهما .

والتقت وهي هاربة من أم الفرج بمحمد شقيق زوجها ومعه سيارته . فعاد إلى القرية ليحضر من البيت بطانيات وثياباً للأولاد . قالت :«ظننا أننا لن نبقى خارج القرية سوى بضعة أيام . لكن اليهود دخلوا القرية . وكان زوجي في الحقول فشاهدهم وهم ينسفون بيتنا الجديد . واكتشفوا زيت الزيتون الذي تركناه فأخذوا آلات العصر . وهدموا القرية كلها ، وحتى المقبرة . وكان قبر أبي فيها» .

في ايار ١٩٤٨ ، عبر آل زمزم حدود فلسطين إلى لبنان من الناقورة ـ حيث يصف كنفاني الكاتب الفلسطيني بؤس اللاجئين ـ واستأجروا منزلاً في صور لقاء ١٢ ليرة فلسطينية في الشهر . قالت :«من هناك انتقلنا إلى مخيم البصّ . ولم يكن لنا ما نأوي إليه سوى الخيم ، وسعينا لبناء بيوت من الإسمنت . ثم أتينا إلى الرشيدية . وخِلت أنني سأعود إلى بيتي حين غادرت ولكن ها قد مرّ وقت طويل . والآن مضى عليّ في المخيم تسع وعشرون سنة» .

ولم تكد السيدة زمزم تنهي كلامها حتى سُمع في الشارع صوت صفارة الإنذار من الغارات الجوية صُنعت منزلياً وتحرّك الجميع نحو باب الكوخ الصغير . وفي منتصف ذلك النهار كانت ثلاث نفاثات إسرائيلية تجرّ سحب دخانها في السماء الشديدة الزرقة . وحلّقت النفاثات فوقنا باتجاه صور ، ثم تحوّلت جنوباً فوق البحر المتوسط عائدة إلى الجليل . وراقبت السيدة زمزم كلّ ذلك برباطة جأش . فقبل ذلك بعام ونصف ، فقدت بيتها في المخيم السابق حيث قصفه الجيش اللبناني المسيحي الذي تسلّحه إسرائيل وأصابوا سقفه . لقد عاشت نصف عمرها على الأغلب في خضمّ العنف .

وفي أثناء حديثنا كله ، كان رشاش أوتوماتيكي من نوع كلاشينكوف مسنوداً على حائط غرفة الجلوس ، تركه شاب خرج لتناول الشاي . وحين سألت السيدة زمزم ماذا يفعل أبناؤها لكسب عيشهم ، قاطعني أحد الرجال قائلاً أنهم جميعاً يعملون «من أجل الثورة» .

وحين سألت السيدة زمزم هل تريد حقاً العودة إلى فلسطين إذا ما فتحت الحدود ، فلم تتردد أبداً في الإجابة : «نحن جميعاً ننتظر العودة وآمل أن أبقى على قيد الحياة لأعود ثانية إلى فلسطين . إنني أريد أن أموت هناك» . وسمحت لي السيدة زمزم بالتقاط صورة لها ، وجلست باضطراب بجوار حائط

منزلها أمام شجرة الكرز ، وحملقت بالكاميرا كأنها تتحدث إليها . ولكن ما أن اقترحت عليها أن تبتسم ، حتى قاطعني شاب آخر متولياً الإجابة نيابة عنها قائلاً ببرود : «إنها لا تستطيع أن تبتسم لأنها فقدت أرضها» .

وتقع أرض السيدة زمزم على بعد ١٥ ميلاً عبر الحدود الدولية ، تقطعها السيارة في ١٥دقيقة . ولكن نظراً للحدود السياسية بين لبنان وما هو اليوم إسرائيل ، كان عليّ أن أطير إلى اليونان ، ثم إلى تل أبيب ثم أسافر أربع ساعات في السيارة ، وهي رحلة تبلغ ألف ميل تقريباً ذهاباً وإياباً . وعلى الطريق المؤدية إلى أرض السيدة زمزم ، نظرت عبر الحدود اللبنانية نفسها من الجهة الإسرائيلية ، واستطعت في النهاية أن أعيّن من مسافة بعيدة مخيّم السيدة زمزم في الرشيدية داخل لبنان . ولم تكن بالرحلة التي تسعد السيدة زمزم لو استطاعت القيام بها بنفسها .

ذلك لأن أرضها اليوم باتت واقعة تحت حقول مزروعة بأشجار الموز على الطريق الموصل إلى مسجد مبني بالطوب وعلى بعد بضع مئات من الياردات عنه . وكانت الطبقتان اللتان تمثلان بيت الحجر الأبيض قد اختفتا منذ وقت طويل . لقد إختفتا كما اختفى اسم القرية عن خريطة إسرائيل ، وعليه فإنه لا وجود لقرية أم الفرج الفلسطينية .

أما كيف طمست ، فذلك أمر يكتنفه الغموض ، وحتى الإسرائيليون المقيمون في بن عامي ـ المستوطنة الزراعية التي أنشئت في ذلك المكان ـ يصعب عليهم تذكرها . وعندما سألت عن موقعها شاباً يلبس على رأسه قلنسوة صغيرة ويجلس وساقاه متباعدتان فوق جرار زراعي يبعث صوتاً مدوياً قال : «لم يسبق لي أن سمعت بها ـ ولماذا تريد أن تعرف؟» .

حتى مجرد السؤال كان كافياً لإثارة الشك . وتقع بن عامي على بعد خمسة أميال فقط من حدود لبنان الجنوبية وعلى مرمى صواريخ الكاتيوشا التي كان الفدائيون الفلسطينيون يطلقونها آنذاك من محيط صور والرشيدية . وكانت بين بيوتها المؤلفة من طابق واحد ملاجئ من الإسمنت المسلّح لها أبواب حديدية ، وأمامها أسلاك شائكة متعرجة ، تقف وراءها كلاب ألزاسية ضخمة تزمجر في وجه الغرباء . ولم يكن أهلها يعيشون في خوف ، بل كانوا يقفون على أهبة الإستعداد لمواجهة أعدائهم . وننصح المعنيين بالحرب العربية الإسرائيلية عام ١٩٤٨ أن تكون لديهم تفسيرات مقنعة لتساؤلاتهم قبل أن يغوصوا في أعماق الماضي .

وقال إسرائيلي آخر كان يقف في زقاق ضيق تغمره الظلال : «إذن فأنت تكتب عن تلك الأمور . كانت هنا قرية عربية . لكن كما ترى لم يبق شيء منها . لقد انتهى أمرها منذ زمن طويل» . أما صديقه

الطويل الملتحي الذي كان يرتدي سترة سوداء ويحمل مقصاً للنبات فقد حدّق بي وقال : «مع أي جانب تقف؟ هل أنت معنا أم معهم؟» ولم يكلّف نفسه عناء تفسير ما يعنيه بكلمة «معهم» . وحدث أن كانت هناك جرّاحة بيطرية محلية تعامل الصحفيين بكرم وحماس وجدية . فدعتني إلى بيتها وأكدت أن المستوطنة كانت قرية أم الفرج . وقدّمت لي الساندويتشات والقهوة بينما كنت أروي لها كيف هربت السيدة زمزم من القرية عام ١٩٤٨ . فأصغت باهتمام لتفاصيل قصة المرأة الفلسطينية وقيام العصابات اليهود بقتل ركاب شاحنة ملأى بالقرويين العرب قُبيل محاصرة أم الفرج ، وكيف دمّر اليهود بعد ذلك منزل السيدة زمزم والقرية وحتى المقبرة الإسلامية الصغيرة المجاورة . قالت المرأة الإسرائيلية : «كانت هذه بالتأكيد قرية عربية» وتكلّمت بتعاطف عمّا حدث منذ وقت طويل لكّن لهجتها بدأت تفتر مع هبوط المساء . واقترحت أن أتحدث إلى رجل كان يعيش في المحيط سنة ١٩٤٨ . وبعد حوالي عدة ساعات وصل إلى البيت إسرائيلي متوسط العمر علت وجهه التجاعيد ، واحتقنت عيناه بالدم ، وتحدث بالعبرية وتولت المرأة الترجمة . ولم يكشف لي عن اسمه واشترط علي أن أطلب إذناً اذا أردت الاستشهاد به . لكن أياً منهما لم يذكر لي الجهة التي علي أن أستأذنها . وأصغى الرجل بدوره إلى وصف السيدة زمزم للأحداث التي حملتها على الهرب من أم الفرج ، وكان أحياناً يومىء برأسه موافقاً أو يقاطع أحياناً أخرى لتصحيح الرواية .

قال : نعم ، صحيح أن عناقيد العنب كانت تتدلى على الحيطان الخارجية للبيوت . وقد رأى العناقيد بأم عينه حين كان يجلب الزيتون إلى القرية لعصره . وقد كان الأطباء اليهود فعلاً يعنون بالقرويين العرب في ذلك الحين ، على أن السيدة زمزم أخطأت في لفظ الأسماء . كان اسمه الدكتور كيوي وليس الدكتور كاياوي كما تذكرت السيدة زمزم ، والدكتور ناتان وليس«دكتور ناتاني» ، ولكن كان هناك فعلاً طبيبة تدعى مريام تماماً كما قالت السيدة زمزم . وهي من عائلة بير ، وجميعهم أصبحوا الآن في عداد الموتى» . ولكن كان من الواضح أن ذاكرة السيدة زمزم أزعجت الإسرائيلي . فهل كانت تملك بالفعل منزلاً من طبقتين؟ هذا ما أراد أن يعرفه . فجميع البيوت في القرية كانت بيوتاً صغيرة من طابق واحد ، ولعلّ مساحة كل منها لا تزيد على عدة أمتار مربعة . حتى أنه بدا أكثر ضيقاً بالأحداث كما روتها السيدة زمزم .

قال : «الكمين الأوّل لم ينصبه اليهود وإنّما العرب . ففي بداية ربيع ١٩٤٨ ، كان أحد الباصات في طريقه من حيفا إلى نهاريا ، حين أوقفه العرب وأمسكوا بخمسة مسافرين يهود كانوا على متنه وذبحوهم . ثم سرت شائعات مفادها أن الحاج أمين الحسيني المفتي الأكبر كان في طريقه من المقر الذي اتخذه في لبنان بعد الحرب إلى عكا فنُصِبَ كمين للباص الذي ظن أنه فيه في بستان الانشراح .

وحين أُطلقت النار على السيارتين المرافقتين للباص ، انفجرت إحداهما وكانت محملّة بالذخائر المنقولة للعرب» . هذا كما اعتقد الإسرائيلي ، هو الكمين الذي أشارت إليه السيدة زمزم .

قال الإسرائيلي : «أم الفرج لم تتعرض للقصف على الرغم من أن القوات اليهودية ألقت قنابل يدوية بجوار قرية الكابري على بعد كيلومترات من هنا . لقد تذكرت السيدة زمزم بالضبط الطريقة التي غادرت بها أم الفرج لكن اليهود لم يهدموا القرية ، ولم يفجرّوا البيوت أبداً . ولا يزال المسجد قائماً . وهنا أيضاً بيت حجري من بيوت القرية . وباستّطاعتك أن تراه . كما أن المقبرة لم تدمرّ . فهي لا تزال هنا . على أن بعض البيوت تهدم فيما بعد . والسيدة زمزم على حق حين قالت أن القرويين ألقوا بجذوع الأشجار على الطريق ولكن يبدو أنها نسيت لماذا أقدموا على هذا العمل . كانوا خائفين من الانتقام لأن العرب كانوا قد أقدموا على نصب كمين لقافلة إغاثة في الكابري . وكانت القافلة في طريقها إلى كيبوتز معزول ومحمّلة بالمواد الغذائية عندما أوقفها العرب وقتلوا سبعة وأربعين يهودياً . ولهذا السبب تركت السيدة زمزم أم الفرج . ولم تنس شيئاً سوى أن تخبرك عن مقتل سبعة وأربعين يهودياً» .

لا ريب في أن القافلة اليهودية المصفّحة قد نُصب لها كمين في الكابري . وأكثر من ذلك أن الشاحنات الحديدية القديمة بصفائحها الواقية لا تزال فريسة للصدأ على جانب طريق الكابري القديم حيث توقفت في عام ١٩٤٨ . وقد انتزعت إطارات العجلات ولكن الصفائح المعدنية الواقية لا تزال على حالها . أما البنادق التي دافع بها اليهود عن أنفسهم فقد جرى لحمها بجوانب العربات لتكون بمثابة نصب تذكاري . وقد وضعت وزارة الدفاع الإسرائيلية لوحة تشيد بفضل بن عامي باتشر قائد الكوماندوس الإسرائيلي الذي قُتل في الكمين . وذلك سبب من الأسباب التي أدّت إلى زوال اسم أم الفرج من الوجود واستبداله باسم بن عامي .

وكان صحيحاً أيضاً ما قاله الإسرائيلي عن مسجد القرية . فقد كان لا يزال قائماً . وقد سُدّت نوافذه وأبوابه بحجارة الطوب لكّن الآيات القرآنية تحت السقف لا تزال على حالها وعمد أحدهم إلى طمسها بالدهان خلال السنوات العشر الأخيرة . والبيت الوحيد الباقي في أم الفرج جرى استخدامه كمستودع للتخزين .

ولم يكن من السهل العثور على المقبرة التي دُفن فيها والد السيدة زمزم . وكان نفس الرجل الملتحي الذي صادفناه قد ذكر أنها تقع بجوار المسجد ، وراء بعض الأسلاك الشائكة التي وضعت هناك للحماية . قال محدثنا : «من المستحيل أن نستطيع مشاهدتها الآن» . لكنني درت حول الأسلاك وزحفت إلى داخل قطعة الأرض التي تقع فيها . كانت مقبرة أم الفرج الإسلامية عبارة عن حقل من

الدبش والأعشاب ولا تميّزها سوى أكوام ترابية صغيرة ، وحجارة محطّمة مبعثرة . وكان بها ضريحان من الإسمنت قد خرّبا وفُتحا قبل عدّة عقود على ما يظهر . لقد بدا أن المقبرة تمّ تدميرها على نحو منظم ، تماماً كما قالت السيدة زمزم وعلى عكس ما أخبرني به الإسرائيلي .

وكان إلى جانب ملعب رياضي جديد وغير بعيد رجل عربي إسرائيلي يكنّس الطريق . وعندما سألته أين كانت تقع أم الفرج أرشدني إلى مساحة كبيرة من أشجار الشربين وأشار بيده نحو الأرض . «هذه هي أم الفرج» قال هذا ورفع كلتا يديه على عجل كمن يقلّد انفجاراً وتركني هناك .

وعندما مشيت بين الأشجار عثرت تحت قدميّ على قطع من الباطون القديم وعلى قطع كانت فيما يبدو جزءاً من حائط وعلى شيء شبيه بعتبة الباب . وكانت هذه كلها من النوع البسيط الذي يستخدمه القرويون في بيوتهم . وطوال الوقت كان يرقبني ثلاثة مزارعين إسرائيليين وهم يقفون إلى جانب جرّار زراعي .

وبدا وكأن دورة الأقدار الساخرة كانت قوية في مستوطنة بن عامي . فمن رئيس القافلة الميت جاء اسم هذه الأرض التي كانت تقوم عليها يوماً قرية السيدة زمزم ، وصارت المستوطنة اليوم ومن حين إلى آخر هدفاً لصواريخ الفدائيين الفلسطينيين . ويحتمل أن هؤلاء كانوا من الأطفال الذين خرجوا مع السيدة زمزم من أم الفرج على أثر نصب الكمين للقافلة اليهودية .

كان من الممكن أن تنتهي زيارتي لولا أن الوقود نفد من سيارتي على الطريق جنوبي نهاريا . ووجدت في محطة البنزين شاباً من العرب الإسرائيليين له شعر بنيّ فاتح أدرك أنني سائح ، وأراد أن يعرف ما الذي أفعله في هذا البرد القارس شمالي إسرائيل خلال الشتاء . فذكرت له بن عامي وأم الفرج وأتيت على ذكر السيدة زمزم ، عندها أشرق وجه الشاب فجأة وقال «إنها عمتي» .

وهكذا أخذني عثمان عبد العال من محطة البنزين إلى قرية عربية صغيرة تدعى مزرعة ، تقوم حول خرائب قناة رومانية قديمة . وكان يقيم في بيت صغير مع أشقائه وشقيقاته ، وجميعهم مواطنون إسرائيليون يتكلمون العبرية ويعيشون في إسرائيل ويعملون فيها . وكان محمد ، والد عثمان ، هو الذي عاد بسيارته لجلب الثياب لأطفال السيدة زمزم قبل أن يترك العرب الفلسطينيون قرية أم الفرج نهائياً عام ١٩٤٨ . ولم يرغب أفراد العائلة في أن يتحدثوا في الأمور السياسية ، لكنهم استفسروا عن صحة السيدة زمزم . وقالوا لي بابتسام أنهم لم يذهبوا قطّ إلى بن عامي . وسألت : «ما الذي حدث لمنزل السيدة زمزم؟» فأجابت شقيقة عثمان الكبرى : «لقد انتهى أمره . إذ بحثت عنه أمي في وقت لاحق لكنها لم تجده» .

وما الذي حصل لأم الفرج؟ ونظر عثمان إلى شقيقه وشقيقاته وقال :«لقد نسفوها . ولم يشاهد أفراد أسرتي ذلك لكنهم سمعوا دوي الانفجارات وكانوا قد وصلوا إلى هنا ـ إلى مزرعة» .

وهكذا فإن عائلة السيدة زمزم التي تفرّقت ربما للأبد بسبب اختلاف الجنسيات تعيش على بُعد ١٥ ميلاً فقط من الحدود اللبنانية الإسرائيلية . ولو صعد عثمان عبد العال وشقيقاته فوق أقصى تلة إلى الشمال لتمكنوا من مشاهدة مخيّم السيدة زمزم للآجئين في الرشيدية . لكنهم لم يفعلوا ذلك أبداً .

وبالطبع ثمة قوانين إسرائيلية محددة تمنع دمياني وأبو خضرا والسيدة زمزم من العبور في الإتجاه المعاكس . هناك التشريع الإسرائيلي المتعلق«بالغائبين» وهناك قوانين مصادرة الأراضي التي بقيت بعد الانتداب البريطاني . وبإمكان الفلسطينيين الذين لا يزال لهم أقارب داخل إسرائيل القيام بزيارات لمدة أسبوعين . وكثيرون منهم من أمثال زوجة دمياني ، قاموا بالزيارة لأنهم كانوا يتحرقون شوقاً لمشاهدة البيوت التي اشتروها وعاشوا فيها ذات يوم من بعيد . وقد ذكر الناطق الإسرائيلي نفسه الذي وصف الفلسطينيين العرب بأنهم«جماعة لاجئين» أنه عمل بنفسه على مساعدة أربعين ألف فلسطيني على الالتحاق بعائلاتهم وأصبحوا مواطنين إسرائيليين . لكن ، يرفض معظم الفلسطينيين المنفيين بشكل غريزي فكرة الحصول على الجنسية الإسرائيلية من أجل العودة . وقد أخطأ الناطق الإسرائيلي رافي هورو فيتز ، حين قال أنه ليس باستطاعة الفلسطينيين المطالبة بأراضيهم لأنهم مواطنون في بلاد هي في حالة حرب مع إسرائيل . فمهما يكن الوضع القانوني لأي فلسطيني أو فلسطينية ، فإن باستطاعته المطالبة بتعويض من اللجنة الإسرائيلية الخاصة التي تنظر في إعادة املاك الغائبين . لكن حوالي ١٧٠ عربياً فقط طالبوا بمثل هذا التعويض خلال خمس سنوات . فرفع دعوى لمحكمة إسرائيلية يعني الاعتراف بدولة إسرائيل .

لقد شدد محمود اللبدي بقوة على هذه النقطة ، وكان في ذلك الحين ناطقاً رسمياً بلسان منظمة التحرير الفلسطينية ، ويبدو بنظارتيه ودماثته وشكله وتهكمه كنظيره الإسرائيلي . فقد سألني خلال احتفال أقامته احدى السفارات في غربي بيروت :«هل تستغرب حقاً لماذا لا نطالب بتعويض؟ نحن لا نريد تعويضاً ـ نحن نريد أرضنا» . ثم رفع أصبعه في الهواء وقال : «إن من المسيء بالنسبة لأي فلسطيني أن يقبض دفعة نقدية من الإسرائيليين . ذلك من شأنه أن ينسف مطلبنا الداعي إلى العودة إلى بيوتنا» .

وكان ـــ كما يدرك الإسرائيليون تماماً ـ على حق . فحتى سنة ١٩٨٠ كانوا لا يزالون يأملون في أن تسوّى القضية الفلسطينية ـ أي مطالب الفلسطينيين الذين تركوا أرضهم في ما يعتبر اليوم إسرائيل ـ في إطار سلام عربي إسرائيلي ، وأن يُدفع للفلسطينيين المشتتين البالغ عددهم مليونين ونصف المليون

مبلغ إجمالي يكون تعويضاً نهائياً لهم . فهم لا يريدون أن يعود الفلسطينيون . وتكفي نظرة سريعة إلى الإحصائيات لمعرفة السبب . فهناك أكثر من مليوني فلسطيني في بلاد الشتات يعتبرون أنفسهم ضحايا حرب عام ١٩٤٨ . فنصف المليون أو ما يقارب ذلك ممّن هربوا من فلسطين سنة ١٩٤٨ أصبح لهم أولاد ، وفي أكثر الأحيان أحفاد . وهؤلاء كلهم يعتبرون أنفسهم فلسطينيين . وكثيرون من العرب الذين فقدوا بيوتهم في الأراضي التي قامت عليها إسرائيل ونزحوا إلى الضفة الغربية سنة ١٩٤٨ ، أصبحوا لاجئين للمرة الثانية خلال حرب الأيام الستة عام ١٩٦٧ . وجميع هؤلاء يرون أنهم أصحاب حق معنوي في أراض داخل إسرائيل . وبالطبع كان هذا أحد أسباب عزوف منظمة التحرير عن التطلّع إلى وطن فلسطيني خارج حدود الدولة العبرية .

على أنه من غير المتفق عليه مقدار مساحة الأراضي التي يملكها العرب في ذلك الجزء من فلسطين الذي أصبح دولة إسرائيل . وما استخلصه موشي أومان من الأرقام البريطانية الأصلية هو أن اليهود كانوا في سنة ١٩٤٨ يملكون ٦ ،٨ بالمئة من الأرض وأن العرب كانوا يملكون ٢ ،٢٠ بالمئة . ويضيف أن العرب تركوا ٩ ،١٦ مما يملكون حين ظنوا أن الجيوش العربية ستدمر إسرائيل .

لكن كان في إسرائيل شخص يمكن التحدث معه ويعرف أكثر من أي انسان آخر عن موضوع الأراضي في فلسطين وهو جاكوب مانور الذي برهن على أنه نقيض تام مع ديفيد دمياني وفاطمة زمزم . كان هذا الرجل النحيل دقيقاً وفعالاً من الناحية الأكاديمية ويحمل درجة رفيعة في الفقه القانوني من الجامعة العبرية وله مكاتب في تل أبيب والقدس ، ويحمل لقب القيّم على أملاك الغائبين ــ وكلمة «غائب» تعطي انطباعاً غريباً بأن الشخص الغائب لن يجري إزعاجه بالعودة . وكان باستطاعة مانور في طرفة عين أن يستعرض معاملات تسجيل الأراضي إبان حكم الإمبراطورية العثمانية ، وأن يحدّد تعقيدات استملاك الأراضي وأن يصدر نسخة من قانون أملاك الغائبين الإسرائيلي (١٩٥٠) . وكان كل ما يفعله كما قال لي في مكتبه في تل أبيب في منتهى التقيد بالقانون .

وكان في حوزته ملفات مكدسة فيها نسخ عن كل وثيقة تسجيل للأراضي في عهد الإنتداب البريطاني تقريباً وفيها قائمة مفصلة بأسماء مالكي الأرض من عرب ويهود في فلسطين قبل ١٩٤٨ . فإذا سألت جاكوب مانور عن الأرض التي كان يملكها زوج السيدة زمزم في قرية أم الفرج ، شرح لك على الفور كيف أنها آلت إلى سلطة التنمية التي أجّرتها لقرْية بن عامي . وكلّ عملية انتقال تتم طبعاً بدون علم المالكين الأصليين ، تستلزم تحويلاً للمال من إدارة حكومية إسرائيلية إلى ادارة أخرى . فعندما تستملك الحكومة أرضاً يتوجب عليها أن تدفع تعويضاً لمكتب القيّم . عندها يمكن للقيّم من الناحية النظرية أن يدفع تعويضاً إلى المالك الأصلي لكن بعد أن تكون الأرض قد طارت .

هذا القانون صارم ودقيق إلى حد يصعب معه إساءة فهم أهمية إصدار القوانين التي تحكم ملكية العرب الفلسطينيين الذين فرّوا من بيوتهم عام ١٩٤٨ والذين تحظر القوانين ذاتها عليهم العودة . ويعرف مانور الكثير عن هذه القوانين عن ظهر قلب . فالغائب ، وفقاً للقانون الإسرائيلي الصادر عام ١٩٥٠ ، هو كل شخص كان ـ بين ٢٠ تشرين الثاني (وفمبر) ١٩٤٧ ونهاية حالة الطوارئ ـ «مالكاً شرعياً لأراضي واقعة في إسرائيل . . . ومن كان خلال تلك الفترة يحمل جنسية مصرية أو سورية أو سعودية أو أردنية أو عراقية أو يمنية ، أو كان مقيماً في أي من تلك البلدان أو في أي جزء من فلسطين خارج الأراضي الإسرائيلية . . .» ويشمل الغائب أيضاً أي شخص كان «يحمل الجنسية الفلسطينية وترك محلّ إقامته العادي في فلسطين إلى مكان خارج فلسطين قبل أول أيلول/ سبتمبر ١٩٤٨ أو إلى أي مكان في فلسطين كان واقعاً في ذلك الوقت تحت سلطة قوات سعت إلى منع قيام دولة إسرائيل أو حاربت ضدها بعد قيامها» .

وهذا التحديد فضفاض ، لأن حالة الطوارئ لم تنته بعد . ثم إن كل عربي فلسطيني فرّ من بيته خلال القتال عام ١٩٤٨ باتجاه بقعة من الأرض تسيطر عليها القوات العربية ـ حتى ولو لم يشارك في الحرب بأي شكل من الاشكال ـ يُحرم بموجب القانون الإسرائيلي من بيته وأرضه . ولم يعترض جاكوب مانور على ذلك . قال : «دعنا نفترض أن هناك شخصاً ما يدعى محمد وأنه ولد في عكّا وعاش فيها . ودعنا نفترض أنه خلال ١٩٤٨ وبسبب القتال ترك مكان إقامته العادي إلى مسرح العصيان ـ إنه غائب ـ حتى ولو لم يلتحق بالقوات العربية التي كانت تحارب ضد إسرائيل» .

وهناك مادة أخرى في قانون ١٩٥٠ سمحت لمانور أن يؤكد بأنه لا يعتبر غائباً أي شخص ـ رجلاً كان أم إمرأة ـ ترك مكان إقامته «بسبب خوفه من أن يقدم أعداء إسرائيل على إيذائه وإما لخوفه من العمليات العسكرية» . وقال مانور أنه اعطى هذه الفتوى في أربعين مناسبة . لكن ليس في القانون إشارة خاصة للعرب الذين تركوا بيوتهم خوفاً من أن تقدم القوات الإسرائيلية على إلحاق الأذى بهم ـ وهو السبب الذي يفسّر به معظم العرب مغادرتهم المفاجئة . وحسبنا أن نذكر آل دمياني وأبي خضرا وزمزم .

ونكاد لا نجد بين الذين تركوا ـ وعددهم يزيد على مليون إنسان ـ من تخلّى عن أملاكه وطالب بالتعويض بموجب القانون الإسرائيلي المتعلق بالتعويض عن أملاك الغائبين والصادر عام ١٩٧٣ . ولم ينجح خلال السنوات الخمس الماضية في تقديم طلبات للتعويض سوى ١٧٠ شخصاً . وبالطبع فإن الإسرائيليين لا ينكرون قانونية صكوك الملكية من عهد الانتداب البريطاني . قال جاكوب مانور : «ليس هناك أي نزاع حول شرعية الأوراق العائدة إلى الإنتداب . ولا نزاع على الأرض إلا في حال

اعتراض أحدهم . . . . والتعويض المقرر ، بالنسبة للذين يطلبونه عن أراضيهم ويحصلون عليه من قبل السلطات ، يجري حسابه على أساس قيمة الأملاك عام ١٩٧٣ يضاف إليها فارق مؤشر التضخم وفائدة قدرها أربعة بالمئة» .

كان مانور جالساً على كرسي مكتبه وهو يستعرض هذه الإحصاءات . قال : «أنا إنسان لبرالي جداً ينظر دائماً بشكل إيجابي إلى كل مطالبة بالحق» . ومانور نفسه يهودي عراقي يُقدّر عدد اليهود العراقيين الذين طردوا بمئة وخمسين ألفاً . قال «هؤلاء جميعاً تركوا جميع ممتلكاتهم وجاؤوا إلى هنا بلا مال ، وتقدموا إلى وزارة العدل لتسجيل حقوقهم . ولدينا لائحة بجميع هؤلاء الذين ينظرون إلى المستقبل حين يتحقق السلام مع العراق . ولدى مانور أيضاً سجلّ خاص بأولئك الذين فقدوا كل ممتلكاتهم في مصر واليمن والمغرب بعد نشوء دولة إسرائيل . ففي الواقع أن الإسرائيليين سجلّوا بدقة كل دونم أو قطعة أرض من الممتلكات الإسرائيلية الضائعة في العالم العربي بحيث يمكن وضعها في ميزان دفع التعويضات عندما تطرح الديون العائدة للاجئين خلال المؤتمر النهائي للسلام في الشرق الأوسط .

ولم يشأ القيّم على أملاك الغائبين أن يدخل في نقاش سياسي . لكنني حين سألته عن حجم الأراضي الواقعة داخل إسرائيل ويمكن أن يطالب بها اثنان ـ عربي ويهودي أحدهما يحمل صك الملكية من عهد الإنتداب البريطاني والثاني صك الملكية الإسرائيلي لقطعة أرض واحدة ـ قال إنه يعتقد أن حوالي ٧٠ بالمئة من الأراضي تقع ضمن هذه الفئة» . فإذا صحّ هذا الرقم ـ وينبغي أن نتذكر أن حوالي نصف إسرائيل سنة ١٩٦٨ كان في صحراء النقب ـ فإنه يدلّ على أن العرب يملكون جزءاً من فلسطين أوفر بكثير مما كان يظنّ سابقاً . ولم يبد على جاكوب مانور أنه قد تأثر بهذه الحقيقة . وسألني : «هل تعتقد بأن الفلسطينيين يرغبون في العودة؟ لقد مات أكثرهم . وأولادهم الآن في مراكز جيدة» .

قد تعني هذه العبارة غير العادية فيما تعنيه العمى عن الحقيقة ، لكن ليس فيها ما ينذر بتلك العاصفة من الغضب والإساءة التي أثارتها سلسلة مقالاتي بجريدة التايمز بين الإسرائيليين وأنصارهم في بريطانيا . فقد سردت بعناية وبشيء من الإسهاب قصص ديفيد دمياني وكنعان أبو خضرا وفاطمة زمزم وامرأة فلسطينية أخرى تدعى رفقة بولس فقدت أرضها في القدس . وكانت زيارة بيوتهم وأراضيهم السابقة بمثابة لقاء مع التاريخ . لأنني رويت أيضاً حياة أولئك الذين يعيشون الآن على هذه الأراضي أو بجوارها . وفيما عدا الإشارة مرة واحدة إلى أحد المسؤولين في منظمة التحرير في بيروت ـ وهو الناطق باسمها ـ فإنني لم أتطرق أبداً إلى ذكر منظمة ياسر عرفات في آلاف الكلمات التي كتبتها .

ثم إن صحيفة التايمز أجرت مقابلة طويلة مع جاكوب مانور . إلا أن ردود الفعل على المقالات ـ

وهي سلسلة عالجت موضوع الفلسطينيين كأفراد لا كما لو كانواطبقة اجتماعية وراثية من اللاجئين يستغلها المتعصبون و الارهابيون ـ كانت ذات دلالات عميقة .

وفي اليوم الذي ظهر فيه آخر مقال من السلسلة ، نظّم الاتحاد الصهيوني مظاهرة خارج مكاتب التايمز في لندن ، حمل خلالها بعض الأنصار يافطات تقول بأن الجريدة«سلاح عربي سري جديد» وبأن منظمة التحرير ستكون المالك لجريدة التايمز . وندّد شلومو أرغوف ، السفير الإسرائيلي في لندن وقتذاك ، بسلسلة المقالات واعتبرها«دفاعاً وقحاً عن العقيدة الأساسية لمنظمة التحرير الفلسطينية لاغير» . وفي رسائل القراء التي نشرت في التايمز ، أشار مختلف القراء اليهود بشكل أو آخر إلى أنني «أقوم بمحاولة جدية لنسف الأسس الشرعية التي يقوم عليها وجود إسرائيل» وإلى أن الصحيفة أصبحت «منبراً لأعداء إسرائيل» . وأشار التيار الانتقادي العام الذي عبرّت عنه الرسائل إلى أن مجردّ نشر المقالات إنما هو معاد للسامية . وكان أرغوف نفسه قد بعث قبل ذلك برسالة تنم عن عداء بلغ حداً أوجب إعادتها إلى صاحبها لأن المحامين في التايمز اعتبروا محتواها من قبل القدح والذم . وحين فوتح السفير أولاً بالأمر ، قال أنه ليس بالإمكان مقاضاته بتهمة التشهير لأنه يتمتع بالحصانة الدبلوماسية . وحكم الاتحاد الصهيوني على دمياني وأبو خضرا والسيدة زمزم والسيدة بولس بأنهم «ضحايا الاعتداء الذي اقترفوه بأنفسهم» وأنهم «ظلّوا لاجئين لأنه جرى استخدامهم أداة لتدمير دولة إسرائيل» .

أما كيف أمكن تبرير مثل ذلك الفقدان للرحمة فلم يكشف عنه أحد . فأريك غروس ، السكرتير الفخري للاتحاد ، دخل في جدال شديد في الشارع خارج مبنى التايمز مع لويز هيرين ، الذي كان نائب رئيس تحرير الجريدة ومراسلها السابق في الشرق الأوسط . وهيرين كان فعلاً في فلسطين عام ١٩٤٨ وهو من أول المراسلين الذين دخلوا دير ياسين بعد قيام مسلّحي عصابة الأرغون التي كان يتزعمها مناحيم بيغن بقتل أهلها . فانطلق يروي بمرارة أخبار الفظائع التي شهدها خلال الحرب التي لا يزال الإسرائيليون يدّعون أنهم لم يرتكبوا فيها أية فظائع . ولم يعلّق المتظاهرون أو القراء الناقدون أو السفير على اللطافة التي أبداها شلومو غرين ، الإسرائيلي المسنّ الذي أعرب عن مشاعره الطيبة تجاه الفلسطيني الذي يعيش الآن في بيته أي بيت الفلسطيني السابق[(٧)] .

(٧) السلسلة الكاملة للمقالات العشر بعنوان «أرض فلسطين» تمكن مراجعتها في أعداد التايمز الصادرة بين ١٥ و٢٤ كانون الأول/ ديسمبر ١٩٨٠ . كما نشرت تعليقات افتتاحية ، ورسائل للقراء وتقرير عن تظاهرة الاتحاد الصهيوني في الجريدة بين ٢٣ كانون الأول/ ديسمبر ١٩٨٠ و ٢٠ كانون الثاني/ يناير ١٩٨١ .

على أن هذا الكرم ليس بالشعور الذي يمكن العثور عليه في قلوب العديد من الفلسطينيين في لبنان ، وقد أخذ الجيل الجديد هذا الحقد الذي تأجج عام ١٩٤٨ بحماسة . وقد كنت شاهداً على هذه الظاهرة بشكلها المأساوي الرمزي بعد مرور عدة أشهر على نشر مقالاتي في التايمز . ففي بداية ١٩٨١ ، قام الإسرائيليون بغارة جوية على مخيم الرشيدية الفلسطيني ـ حيث منزل السيدة زمزم ـ فقصدت بسيارتي من بيروت إلى جنوبي لبنان لتغطية الهجوم . وكان الفلسطينيون قد بدأوا إطلاق صواريخ الكاتيوشا على منطقة الجليل ، وسقطت الصواريخ في مكان غير بعيد عن قرية بن عامي الإسرائيلية حيث كانت قرية أم الفرج العربية التي تنتمي إليها السيدة زمزم . ووقعت خسائر طفيفة سواء في الجليل أو الرشيدية من جرّاء تبادل القصف . وعلى مقربة من مدخل المخيم الفلسطيني ، عرّفوني بشخص قالوا إنه قائد القوات المشتركة لمنظمة التحرير الفلسطينية في الرشيدية .

ومرّت عدة ثوان قبل أن أتعرف على ملامح الضابط الفلسطيني من منظمة التحرير الذي كان يدافع عن المخيم الفلسطيني ويقصف المنطقة الواقعة في محيط بن عامي . إنه حسن زمزم ، نجل فاطمة زمزم ، وهو حسن نفسه الذي خرجت به أمه وهو طفل عمره أربعون يوماً من أم الفرج سنة ١٩٤٨ وهي والعائلة في طريقهم إلى المنفى . وهكذا فإن أبناء الذين جُرّدوا من ممتلكاتهم ، يقومون بمهاجمة أولئك الذين جرّوا على أبائهم تلك الحالة من البؤس . حقاً لقد دارت الحرب دورتها الكاملة .

الفصل الثالث

عازف دمشق المرقط

«في عام ١٩٣٦ ذهبنا إلى الألعاب الأولمبية ببرلين . وعندئذ شاهدت هذا الإنضباط والنظام . فقلت لنفسي : «لماذا لا نفعل الشيء نفسه في لبنان؟»

بيار الجميل : تموز/ يوليو ١٩٨٢

كان بين الخرائب فتى لبناني مسلم لا يتجاوز الثانية عشرة من عمره . نظر إلينا بدون أي اكتراث وهو يجلس على كرسي مكتب دوار ومحطم في وسط شارع طرابلس . وكان شعره الأسود يتدلى على وجه متعب ، وعليه سترة قطنية خاكية أكبر من حجمه ثلاث مرات وتحتها قميص على صدره صور ميكي ماوس . وكان يمسك بيده اليمنى ماسورة كلاشنكوف كعبها الخشبي على الأرض ، بينما حمل بالأخرى فنجان شاي شديد السخونة . أما الكلاشينكوف فقد حمّله إياه فلسطينيون كانوا يجلسون على جانب الشارع المحطم ويشربون الشاي . وعليه فإنهم خلقوا منه مقاتلاً مع أنه لم يكن إلا صبياً . لكن هذا من سمات لبنان الخاصة حيث يسبغون على الفتى نضوجاً مزيفاً . وكانت المباني حولنا قد أصابتها الحرائق فسقطت سقوفها وتمزقت واجهاتها بزخات الرصاص وقذائف المدفعية .

كان الجو حاراً وهسيس الزيز يترامى إلينا من الظلال البعيدة . وفي مكان ما ، ربما على بعد ميل على خط التماس في بيروت كانت القذائف تنفجر بشكل متواصل يحدث بعض التغير في الضغط الجوي بشارع طرابلس . وكانت أصوات الإنفجارات ثقيلة مملة وأشبه بصوت سجادة ثمينة ألقي بها على الطريق من إحدى الشرفات . لكن أين سبق لنا أن رأينا هذا الصبي؟

نرى صبياً في مثل سنه بفيلم «كنال» الملحمي لأندريج وجدا عن انتفاضة وارسو . نراه لفترة

وجيزة وراء متراس منكباً على إخراج حجر من حذائه الطويل بينما كانت تتقدم في الشارع باتجاهه دبابة تايغر المانية . وكان كلما اقترب الخطر بتقدم الدبابة ازداد اهتمام الصبي بما يزعجه . وأخيراً تحولت عنه الكاميرا وهو لا يزال يهز حذاءه الذي أصبح جزءاً من خط الجبهة الأمامي .

وبينما كنا نتقدم في الحطام نحو هذا الصبي في عام ١٩٧٦ كان يعلم أن أقرب الدبابات إليه لا تبعد أكثر من ٣٠٠ ياردة . ولكنه كان يعرف أيضاً أنها قد تحطمت مثل لبنان وأربعين ألف شخص خلال الأشهر السبعة عشر الأخيرة . ومن حُفَر الخرائب وركام البيوت المسحوقة تكوّن خط أمامي ثابت ثبات الوديان والجبال شرقي المدينة . وعلى هذا المسرح الاصطناعي كان يسير المسلحون والذين نجوا بحياتهم والمصورون والمراسلون وفرق المشتغلين بالأفلام ـ فأثاث «المسرح» من خرائب وبنادق ومؤثرات صوتية كانت دائماً هناك .

عندما اقتربنا من الفتى ابن الأعوام الاثني عشر الذي كان يتربع على عرش الألمنيوم بمقعده الممزق المصنوع من البلاستك وعجلاته الملتوية ، نظر إلينا بتلك اللامبالاة التي تميز رجال الميليشيات اللبنانية . وكان مسلحو لبنان قد تعودوا على التعامل مع الصحافة . فكانوا أحياناً يأخذون الصحفيين إلى خط التماس ، وأحياناً يعرّضون حياتهم للخطر من أجل مساعدة المراسلين . وأحياناً أخرى يسلبونهم ويهددون بإعدامهم . وسيأتي يوم يخطفونهم فيه . وكان أمام فتانا ابن الثانية عشرة من الوقت ما يكفي ليقرر ما سيفعله .

قال الفتى وهو يومىء بفتور باتجاه مطعم خرب : «إذا أردتم مشاهدة الحرب عليكم أن تسلكوا تلك الطريق . ثم وضع فنجان الشاي جانباً وحمل بندقيته على كتفه وسار متثاقلاً نحو الأنقاض . فلحقنا به وعبرنا الشارع إلى البناية . وكانت هذه البناية مطعم العجمي الذي كان من أشهر مطاعم بيروت . ودخلنا إليها من فجوة في أحد الجدران أحدثها القصف ووسعها المسلحون لتسهيل الدخول منها . فأقحمنا أنفسنا في قاعة مظلمة وسرنا فوق أرضها المخملية الرطبة ونفذنا من جدار المطبخ إلى شارع تحف به مبان مجوفة ترتفع الواحدة منها أربع أو خمس طبقات مترنحة لا سند لها إلا البنايات من خلفها . وكانت النار قد أتت على ما بداخلها ـ وبهذا بدا الشارع وكأنه درزْدن حقيقية .

سألت الفتى عما يريد أن يفعله في المستقبل فأجاب بالفرنسية : «أريد أن أكون من قادة المقاتلين» . وعليه فإن الطموحات الفكرية لدى هذا المقاتل الصغير المثقف كانت محدودة . وافترّ ثغره عن ابتسامة عريضة كشفت عن أسنانه الصفراء . لقد كان سعيداً بما يجري . وعندما سألته وماذا بعد الحرب ، هز كتفيه . وقادنا عبر الشارع ثم هبطنا بقايا درج من الإسمنت إلى دور تحتاني تفوح منه

روائح البراز النتنة وعلى أرضه كومة طولها قدمان من الأوراق وغلافات الرسائل البريدية والطرود والاستمارات الحكومية المشبعة بالرطوبة . وخلال عام ١٩٧٥ ـ وهو التاريخ المدموغ على طوابع البريد فوق الرسائل ـ اخترق خط التماس مكتب فرز الرسائل البريدية ، فترك الموظفون عملهم ولاذوا بالفرار . ونفذ من كوة سقف يستند إلى جدار بعيد شعاع مغبر من النور تركز على طاولة مكتب علاها الصدأ . فاستخدمنا الطاولة في الصعود إلى الكوة وخرجنا منها واحداً واحداً إلى شارع آخر .

ومن المؤكد أن هذه كانت ساحة قتال . ففي الخارج كان الهواء يفوح برائحة البارود والبنايات مشوّهة إلى حد يصعب معه التعرف عليها . وقد سقط بعض هذه البنايات في الشارع ، ومال بعضها الآخر ، وارتفعت في الشارع أكوام الاسمنت والحجارة والنبات والأثاث المنهوب ، وأقيم حاجز وطيء من الكراسي والأبواب والطاولات المحطمة . وركض الفتى ونحن وراءه ، وانحنينا والطلقات النارية تئز حول الأبواب المخلوعة والكراسي المقلوبة . وصعدنا بضع درجات على الجانب الآخر من الشارع ودخلنا ممراً كالكهف غطت أرضه الأوحال والنباتات القصيرة . إذ كانت مياه الصرف قد تدفقت طيلة أشهر على الرصيف الملاصق في الخارج فاكتسى بغطاء من النبات المريض الأخضر الذي زحف فوق عتبة الباب واقتحم المبنى . وكان إلى جانب إشارة الضوء المتدلية في الخارج حاجز ترابي نبت فيه العليق .

وبعد ذلك بست سنوات عدت إلى الشارع نفسه ، فوجدت أن العشب قد افترش الدبش وأن الشجيرات بدأت تتسلق الإشارة الضوئية المحطمة . وعندما عدت ثانية في عام ١٩٨٧ إلى شارع طرابلس وجدت العشب قد تحول إلى غابة صغيرة ، والشجيرات صارت أشجاراً ارتفع بعضها فوق الخرائب . لقد تحولت إلى بساتين صغيرة وأحراج من الأوراق الداكنة الكثيفة التي تتمايل برفق في وجه الهواء الساخن . وغاصت جذورها في الثقوب التي أحدثتها القذائف وفي المتاريس الترابية التي تولدت من القناعات الطائفية قبل ذلك بعشر سنوات . فبدا وكأن البيئة اختارت أن تقلد السياسة . إذ كانت الطبيعة تسترد بالتدريج سائر وسط بيروت الذي شهد طفرة شبيهة بطفرة النظام السياسي الذي قوّض دعائم لبنان بشكل منتظم .

ما أقل ما أدركناه في عام ١٩٧٦ . إذ بدا لنا حينذاك أن الحرب الأهلية اللبنانية واحدة من تلك المآسي التاريخية التي تقتتل فيها الطوائف ثم تتوقف عن الإقتتال ، وتجمعها حكومة مركزية ومساعدات اقتصادية خارجية . وعندئذ يجرى تنظيف الشوارع وإصلاح المباني أو إعادة بنائها . ولا أزال أحتفظ بالشريط الذي سجلت عليه تقريراً إخبارياً لإذاعة إيرلندية . وأستطيع الآن أن أدير الشريط وأسمع نفسي وسط لعلعة رصاص الفلسطينيين وأنا أخبر المستمعين في القرى بأقصى مكان من

مقاطعة مايو بأنهم يستمعون إلى «الطلقات الأخيرة في الحرب اللبنانية» . ولدي أكوام من قصاصات الصحف المصفرة التي تشتمل على حجج وآراء واهية مثل أسُس الخرائب على خط التماس وبالتالي تعبّر عن نقص إدراكنا للأمور حينذاك . وقد تبيّن الآن أن تنبؤاتنا عندئذ كانت من قبيل التمني . ومن تلك القصاصات الصفحة الأولى من جريدة «التايمز» في ١٦ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٧٦ حيث أعلنت أن الحرب الأهلية في لبنان ـ أو على الأقل تلك المرحلة من النزاع . . . الذي كلف ما يقرب من ٤٠،٠٠٠ ضحية ـ قد انتهت هذا الصباح عندما قام باحتلال مدينة بيروت بأسرها جيش سوري قوامه ستة آلاف من الجنود الأقوياء ومعهم مئات من الدبابات وناقلات الجند المدرعة .

وهذا ملحق خاص بجريدة «التايمز» خصص كله لمستقبل عودة الحياة الطبيعية إلى لبنان . وقد أشرت فيه إلى السفن العائدة إلى مرفأ بيروت ، وإلى عودة التسهيلات المصرفية وإلى تجديد هياكل بعلبك ، ووصول طلائع سائحي ما بعد الحرب . وكان هؤلاء بالطبع من السويديين الذين استقلوا الباصات إلى أطلال مخيم تل الزعتر الفلسطيني ثم تابعوا طريقهم إلى البقاع . وعندما حاصر الجيش الإسرائيلي بيروت في عام ١٩٨٢ ووافق الفدائيون الفلسطينيون على الرحيل ، كنت على خطوط التماس ذاتها ودعاني مقاتل فلسطيني لإزاحة أكياس الرمل الأخيرة من مكانها . فقد أعلن وقف النار النهائي وانتهت الحرب . ثم دخل الإسرائيليون بيروت واقترف أنصارهم من الميليشيات اللبنانية مجزرة صبرا وشاتيلا وتمركزت الجيوش الأوروبية في بيروت . وقلنا إنها نهاية الحرب . وانسحب الإسرائيليون من معظم المناطق اللبنانية فقيل : لقد انتهت الحرب . وعاد الجيش السوري في شباط/ فبراير ١٩٨٧ لقطع دابر الفوضى التي أحدثتها الميليشيات . وقيل : لقد انتهت الحرب .

وعثرت بين القصاصات على لقطة فوتوغرافية لي وأنا جالس فوق دبابة ت ـ ٥٤ سورية على خط التماس عند غاليري سمعان . ووجدت صورة أخرى التقطها زهير سعادة الذي يعمل مع الأسوشيتد برس ، وفيها أظهر أنا وإد كودي الذي يعمل أيضاً بالأسوشيتد برس وسط الجنود السوريين في الجبال قبل تقدم السوريين إلى بيروت عام ١٩٧٦ . ترى ألم تكن هناك مؤشرات تمكننا من الوقوف على حقيقة ما كان يجري؟ فحتى فتانا ابن الثانية عشرة كان هناك في القصاصات على الصفحة الأولى المؤرخة في ٢٥ أيلول/ سبتمبر ١٩٧٦ بقميص ميكي ماوس وفنجان الشاي ورشاش الكلاشنكوف خلف متراس الأبواب القديمة ، ثم يظهر مرة أخرى في العمود الثالث من الصفحة الرابعة وهو يعبر راكضاً نحو مدخل البناء المعشوشب .

وكان المبنى ذات يوم مبنى مكاتب شركة أفلام . ووجدنا في داخله اثني عشر عراقياً بثياب الميدان قالوا بأنهم فلسطينيون وأعضاء في جبهة التحرير العربية . وكانوا منذ واحد وثلاثين يوماً يدافعون عن المبنى ، وشاهدنا دماء على الأرض . وجررنا أنفسنا وسط الغبار متوقفين بين حين وآخر

ثم من غرفة إلى غرفة لا من الأبواب التي سُدّت بكتل حجرية فيها منافذ بل من فجوات في الجدران وكأننا من سكان الكهوف . وصعدنا درجاً محطماً ضيقاً إلى أعلى المبنى وراء ضابط عراقي وخلفنا الفتى ابن الثانية عشرة . وفي آخر دور من المبنى وجدنا جندياً عراقياً يطلق النار من بندقيته الأوتوماتيكية من خلال فتحة ضيقة بين أكياس الرمل ثم يعيد حشو بندقيته ويستأنف إطلاق النار إلى أن ينهك نفسه . وكانت الأصوات تملأ أسماعنا كلما اهتز كتف المقاتل وجسمه من جراء ارتداد البندقية . أما الصبي فكانت تبدو على وجهه علائم التنبه والاهتمام الشديد .

ومال العراقي إلى الشمال ، فنظرت من خلال الفتحة بين أكياس الرمل إلى بناية دهانها أصفر وتضم مجموعة من المكاتب وهي بناية فتال التي لم يبْق الرصاص من إطارات نوافذها إلا قطعاً لا يزيد طول الواحدة منها على بوصتين . إنها حصن الكتائبيين على خط التماس . وكان من فيها يردون على النار بالمثل فيصلون جدران بناية شركة الأفلام بزخات من الرصاص تبعث موجات صوتية تبقى كل منها بضع ثوان . كما أنهم كانوا يطلقون قذائف المورتر فيسمع صوت إطلاقها وصوت انفجارها فيما بعد . قال الضابط : «كانت الليلة الفائتة سيئة . فقد حاول الكتائبيون مهاجمتنا لكننا رددناهم على أعقابهم . ولم تقع بيننا إصابات» . ولم يكن هذا بالطبع صحيحاً .

هل انتهت الأمور إلى هذا إذن ـ إلى صف طويل من خرائب الموت يُعرف بخط التماس ، عرضه نحو ميل ويمتد من المرفأ إلى غاليري سمعان ، وحتى إلى جبال الشوف؟ ترى كيف خدعنا بكل تلك البساطة؟ كيف صدقنا أن رقعة الخراب تلك لم تكن إلا نتيجة مباشرة للعداء الاجتماعي وتوتر المجتمع والحرب الأهلية . وكيف كاد يغيب عنا أن خطوط التماس لم تكن نقطة استقطاب ، وأنها مهمة في نظر اللبنانيين لأنها السبيل الوحيد إلى تحديد أبعاد ما لا يمكن تحديده ، والطريق الوحيد أمام الذين عانوا من الويلات ـ أي كل لبناني ـ إلى فهم طبيعة الكارثة التي حلت بهم . ففي عام ١٩٧٦ أرسلت حكومتهم الشاحنات لتنظيف الشوارع ، وبدأت الخطوط الجوية والمصارف ترمم مكاتبها . ثم دمرت الحرب كل ذلك مرة أخرى . وفي عام ١٩٨٢ جمع الجيش الفرنسي الذخيرة الحية من حطام الطرق وعطل القذائف التي لم تنفجر . وفي عام ١٩٨٣ دفع رجل الأعمال اللبناني رفيق الحريري ملايين الدولارات لإعادة وسط المدينة إلى ما كان عليه . لكن القتال استؤنف وزرعت الشوارع مرة أخرى بالألغام . والواقع أنه لا يمكن إصلاح خطوط التماس أو ترميمها أو إعادة بنائها لأنها أصبحت من الضرورات في نظر اللبنانيين . فقد تحولت إلى مرجع لا يمكن بدونه تفسير المأساة . والحقيقة هي أنها أشد خطوط التماس قسوة . فهي من النوع الذي استقر في أعماق أذهان جميع من كانوا يعيشون في لبنان أو وفدوا عليه .

لقد خُدعنا جميعاً وخُدع معنا اللبنانيون أنفسهم عندما سلّمنا بفكرة الكارثة الوطنية ، والتجديد

الوطني ، والنهضة السياسية . فقد تبادر إلى أذهاننا أن الهوية تكمن خارج النزاع الداخلي . وأُخذنا بالأكاذيب التي ساقها اللبنانيون عن أنفسهم . فصار علينا أن نصدق بأننا لم نر الدماء على الدرج ، وأن نصدق قصصهم عن إمكان التزلج في الصباح والسباحة بعد الظهر في البحر . لقد كان هذا ككل شيء آخر في لبنان ممكناً من الناحية الفعلية ، لكننا لم نلتق بواحد قام بذلك بالفعل .

والواقع أن قصة لبنان هي قصة انفجار داخلي وخارجي في وقت واحد . لكن مأساته ـ بل تاريخه ـ هي تتابع الغزاة وما يصحب ذلك من مفاوضة وتزلّف وترهيب ثم اندفاعهم نحو بيروت . وما أسهل غزو لبنان . فهو أصغر من ويلز ، وتبلغ مساحته ٤٠/ ١ من مساحة كاليفورنيا . وتحدد قمم الجبال أبعاده الكبرى ، وتكسوها الثلوج التي تبدو للناظر في ليالي الشتاء وكأنها تطاول القمر .

وعلى نهر الكلب شمال بيروت حيث ينساب خيط من المياه الداكنة عبر واد ضيق بجوار سكة حديد معطلة نقوش وأعمدة وكتابات مسمارية ولوحات منحوتة على جانبي الوادي الصخريين تذكر بالغزاة خلال خمسة وعشرين قرناً : نبوخذ نصّر الثاني ، الفرقة الغاليّة الثالثة لماركوس كراكلا ، والإغريق ، والأشوريين والمصريين والحملة الفرنسية عام ١٨٦٠ ، وجيوش الانتداب الفرنسي بقيادة الجنرال غورو ، والجيش البريطاني عام ١٩٤١ . وحدث أنهم جميعاً قصدوا إلى هذا المكان لتسجيل مرورهم فوق مجرى النهر . وآخر تلك النقوش نقش الرئيس بشارة الخوري الذي سجل في عام ١٩٤٦ جلاء ما اعتقد بأنه آخر الجيوش الأجنبية . وربما كان من الواجب أخذ كل من رجال الميليشيات إلى نهر الكلب ليرى تلك الشواهد على الكبرياء والسلطة . ومما يذكر أن الفرقة الرومانية الثالثة التي هزمت أزالت اسمها . أما النقوش الأخرى فقد صدعها النبات من تحتها أو تآكلت بسبب تقادمها وإهمالها .

وأصابت نكسات مشابهة الجيوش التي وصلت لبنان بعد ذلك : منظمة التحرير الفلسطينية والسوريون والسعوديون ، واليمنيون الشماليون ، والسودانيون ، والإسرائيليون ، والأميركيون ، والفرنسيون والإيطاليون وحتى المفرزة البريطانية ـ كلهم غادروا بيروت ومنهم من استولى عليه اليأس أو لحقت به الإهانة أو خجل من نفسه . كل هؤلاء رحّب بهم اللبنانيون بسعادة وود ودهاء وشك . ففي تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٧٦ راقبت الدبابات السورية وهي تعبر ضاحية الحازمية ببيروت . وكان أحد طاقم الدبابة الأولى يعزف على قيثارة . هذا بينما كان المسيحيون اللبنانيون يرشون ماء الورد وينثرون الرز على السوريين من شرفاتهم ، وهي ظاهرة كنا نحن الصحفيين نصفها بأنها «تحية عربية تقليدية» وبعد نحو خمس سنوات ونصف كنت أقف في البقعة ذاتها أراقب الإسرائيليين على الطريق ذاتها بينما كان اللبنانيون ذاتهم يحيونهم بالطريقة نفسها من فوق شرفاتهم . وقال لي إذ ذاك كولونيل إسرائيلي مرح : «أنظر كيف يحيوننا ، لقد جئنا لتحرير بلادهم ، وكانوا في انتظارنا» .

وعندما جاء الإسرائيليون كانوا كالسوريين يحملون معهم التعابير البريئة والوعود بأنهم لم يأتوا الا لإعادة السيادة للبنان . وحذوا حذو الجيوش الأخرى فوعدوا بأن لا يبقوا في لبنان ساعة واحدة أو دقيقة واحدة أطول مما ينبغي . لكنهم بقوا أشهراً أو سنوات حتى طردوا بشكل مؤلم ومهين . وهناك شيء واحد مشترك بين كل تلك الجيوش وهو أنها كلها عللت وجودها بشكل دقيق وأمعنت في شرح مهمتها بتفصيل معقد إلى حد أن الواحد منها كان أحياناً ينسحب قبل أن يتمكن المسؤولون في وزارة الخارجية اللبنانية من فهم المعنى الحقيقي للشرح . وبدا وكأن في بعض الدوائر الحكومية بواشنطن ، ودمشق ، وباريس ، والقدس ، وروما ، ولندن أناس أدركوا المعنى الحقيقي للتورط العسكري وأنهم حاولوا تفسير مغامرتهم في ضوء التاريخ . فالجيوش التي جاءت إلى لبنان دخلت في نفق طويل معتم كان لا بد أن ينتهي في الدخان الداكن وقطع اللحم البشري .

لقد قُدّر للميليشيات اللبنانية أن تسكن في نفس الحصون التي عرفها تاريخها ذاته . ففي عام ١٩٨٢ حاصرت ميليشيات «جيش لبنان الجنوبي» بإذن من إسرائيل قلعة صيدا البحرية التي بناها الصليبيون . وفي عام ١٩٨٥ تقدم الجيش الوطني اللبناني إلى قلعة سانت لويس بصيدا . وفي غالبية أيام الحرب الأهلية في الفترة ١٩٧٥ ـ ١٩٧٦ احتلت الميليشيات الإسلامية الحصن البحري الضخم في قلعة سان جيل التي يرجع تاريخها إلى القرن الثاني عشر والتي لا تزال تشرف على طرابلس ، واتخذت من قاعة المآدب الصليبية مقراً لها . فعلى طول المرتفعات التي تشكل العمود الفقري للبنان الحالي وفوق الأنهار نجد أن القلاع الصليبية التي كانت يوماً قواعد أمامية للعالم المسيحي لا تزال جزءاً من خط التماس وإن انقلبت أدوار المدافعين إلى عكس ما كانت عليه .

وفي تبنين وهي آخر قرية في جنوب لبنان لا تزال في أيدي المقاومة تقع الآثار في أعلى نقطة . وبوسع المرء إذا نظر من البرج القديم أن يشاهد تحصينات جيش الاحتلال الإسرائيلي على بعد ميلين إلى الجنوب . وخلال الحرب الأهلية استولى الفدائيون الفلسطينيون على قلعة أعظم بكثير وهي قلعة الشقيف التي يمكن للمرء أن يشاهد منها المناطق الداخلية في إسرائيل ـ أو فلسطين كما يصر الفلسطينيون ـ وأن يقصفوا القرى اللبنانية المسيحية الواقعة بين الطرفين . وفي عام ١٩٧٧ تسللت إلى دهاليز القلعة بينما كانت قذائف المسيحيين في القرى الحدودية تنفجر حول جدرانها . وفي داخل القلعة المظلم والمليء بالغبار رأينا أعمدة صغيرة وكبيرة محززة وواجهات حجرية صامدة تطل من فوقها تيجان لامعة . وفيما مضى كانت جلبة المدججين بالسلاح تسمع فوق سلالم الجدران . أما اليوم فترى عليها المقاتلين بثيابهم المموهة وبنادقهم مصفوفة حول الأبراج .

وفي أعقاب الكوارث العسكرية التي حلت بالصليبيين عام ١١٩٢ لجأ جنودهم وفرسانهم بقيادة

رينو أمير سايت إلى قلعة الشقيف هرباً من جيوش صلاح الدين التي كانت في أثرهم . وانتهى الأمر بأن خدع رينو أصحابه وخرج من القلعة لمفاوضة عدوه . فأرسل له صلاح الدين خاتمه للدلالة على حسن النية . لكنه لم يكد يصل إلى خطوط المسلمين حتى قُبض عليه وقُيِّد بالسلاسل . وأصيب أتباعه بالهلع وهم يشاهدون المسلمين يجرونه ويعذبونه .

ولم يكن المدافعون الفلسطينيون عن القلعة يعرفون هذا . فعندما رويت لهم قصته لاذوا بالصمت . وكانوا عندئذ يجلسون حول جدران القلعة . فلا بد أنهم رأوا في هذه القصة القديمة شيئاً مألوفاً . لكن عندما قلت لهم بأن هناك نفقاً أسطورياً يصل بين القلعة ونهر الليطاني قفزوا من أمكنتهم وأخذوا يصعدون الدرج . فلحقت بهم . ووصلنا إلى إفريز ضيق متهدم فوق الوداي حيث دفعتنا الريح إلى الوراء . وشاهدنا ثلوج جبل الشيخ ووديان الجليل الزرقاء ومياه الليطاني الداكنة . ووجدنا أننا نقف في مكان مكشوف يستطيع الناظر إليه أن يرانا وذلك لأننا سمعنا أصوا ت الرصاص ، والريح تقذفه على جدران القلعة . وإلى الشرق من الجدار وصلنا إلى بئر ماء محفور في التراب والصخر . فوقف الفلسطينيون على فم البئر ووراء ظهورهم ثلوج جبل الشيخ . وكانت تنبعث من قلب البئر المعتم روائح نفايات محترقة ولحوم عفنة وبول . ترى هل كان هذا هو الممر السري الذي يصل الليطاني والذي حفرته القوى المسيحية للنجاة من المآزق؟

وبعد ذلك بخمس سنوات دك الإسرائيليون القسم الأكبر من قلعة الشقيف بقاذفات ف ـ ١٦ المقاتلة ، ثم أرسلوا قواتهم وميليشيا المسيحيين إليها . وهكذا صار المسلحون اليهود والمسيحيون يواجهون المقاتلين المسلمين إلى الغرب منهم بعد أن كان المقاتلون المسلمون يواجهون المسيحيين واليهود إلى الشرق والجنوب منهم . أما في القرن الثاني عشر الميلادي فإن مسيحيي قلعة الشقيف كانوا يواجهون المسلمين من الشرق والغرب معاً . وما بقي من القلعة يجسّد هذه التحولات السياسية والدينية . وعندما يتجمع الضباب في وديان الجنوب يمكن للمرء أن يرى جدرانها تطل من فوق السحاب . أما في الأحوال العادية فإن خصائص المكان الجغرافية وعدم تناسق ودبانه وأخاديده وسيرها في كل اتجاه تجعل القلعة تبدو وكأنها في مكان آخر وتجعل من حطام استحكاماتها كابوساً يستعصي تحديده على كل أداة للقياس . وفي فصل الشتاء وعندما تعصف رياح البحر باتجاه القلعة وتخضرّ الوديان ، يهبط الضباب وتختفي القلعة .

لقد سبق للموارنة أن ارتكبوا عملاً طائشاً عندما اتخذوا جانب الصليبيين . ومع الأيام تفاقم هذا الإدمان على التحالفات غير الموفقة التي لا تزال نتائجها تبدو للعيان . فعندما حلّت الهزيمة بأوروبا المسيحية تقهقر الموارنة أيضاً وانسحبوا إلى الجبال في شمال لبنان حيث لا تزال مدنهم وقراهم

محشورة بين الوديان الكبيرة ومعلقة على سفوح الهضاب في جبال لبنان . وعندما احتل العرب المسلمون لبنان وجد الموارنة الحماية في تلك القرى المعلقة وسط ما تبقى من غابات الأرز القديمة . والموارنة براغماتيون شجعان لا يثقون بغيرهم . وقد تعلموا أن مسؤولية بقائهم تقع عليهم وعليهم وحدهم ، وأن مصيرهم النهائي معلق بعزمهم ومواردهم الذاتية . وهذا ينطبق على الأقليات الأخرى في لبنان وعلى الإسرائيليين فيما بعد .

وخلال القرون التالية استطاع الموارنة أن ينتشروا عبر بيروت في الجنوب ـ في مناطق الدروز والشيعة في الشوف والبقاع وفي المرتفعات الصخرية المنخفضة جنوب شرقي صور . وقراهم هذه هي التي تشكل اليوم الشريط الحدودي الذي لا يزال يحتله الإسرائيليون . وتوطدت سلطة الموارنة في أعقاب الحرب الأهلية ضد الدروز عام ١٨٦٠ . وقد حفزت المجازر التي اقترفت في هذه الحرب والتي قُتل فيها ١٢٠٠٠ مسيحي ، فرنسا على التدخل في لبنان لصالح الموارنة . ورست السفن الفرنسية الحربية في ميناء بيروت وأقامت معسكراً لها في خلدة حيث يقوم المطار الدولي الحالي ، وحيث اتخذ المارينز فيما بعد ـ بعد ١٢٢ سنة ـ مقراً لهم .

إن هذا التدخل الأوروبي ـ أو بتعبير أدق الأوروبي المسيحي ـ سوف يتكرر ، ويجد ما يساعده في الحقيقة التالية وهي أن كل طائفة مقيمة في الأراضي التي صارت لبنان كانت أقلية . وفي سوريا التي كانت عندئذ تشمل لبنان الحالي ، كانت تعيش قبائل بلا وطن وبعضها وريث انشقاقات دينية واسعة وقد اجتذبت جبال لبنان هذه القبائل بسبب ما توفره لها من حماية .

لقد نشأ الموارنة الذين أخذوا اسمهم من ناسك سوري عاش في القرن الخامس من الخلاف الذي دب في الكنيسة البيزنطية حول المشيئة الإلهية للمسيح . وهذا ما حدث للملكيين الذين يضمون الأرثوذكس والكاثوليك اليونانيين والذين يشكلون أقلية قوية اقتصادياً في لبنان . وأصل الدروز من مصر . وهم يؤمنون بالتقمص . لكنهم كالمسيحيين يشعرون بالولاء أولاً للعشيرة والقرى والزعماء . وترفرف الآن راياتهم المقدسة فوق نقاط التفتيش في الشوف . وليس لدى الدروز مساجد بل خلوات حجرية في الحقول . وتتبوأ الأسرة الجنبلاطية مركز الزعامة بين الدروز . ويمثل وليد جنبلاط مطالبهم السياسية ومطالبتهم بمركز رئيس في الحكومة الوطنية .

وبدأ الخلاف بين الشيعة والسنة على الخلافة منذ مصرع الإمام علي ، صهر الرسول . فالشيعة يؤمنون بأن الخلافة يجب أن تكون للأئمة من نسل علي . على أن الفلسفة الحالية للشيعة تقوم على تاريخهم السياسي بمقدار ما تستمد التوجيه من العقيدة الدينية . وكان الشيعة في سوريا في ظل الدولة

العثمانية يعاملون بازدراء ويسكن قسم كبير منهم في القرى الفقيرة بجنوب لبنان . وأهملتهم الدولة وحولتهم إلى منبوذين بنفس العجرفة والوقاحة اللتين عامل بهما البروتستانتيون الانجليز الكاثوليك الإيرلنديين في الفترة ذاتها .

أما السنة فقد استمدوا قوتهم التجارية من تحالفهم مع المماليك والأتراك العثمانيين . وكان هذا التحالف يقوم على وحدة المذهب . فكانوا هم تجار الساحل الشمالي الشرقي للبحر الأبيض المتوسط الذين سوف يكونون الخاسر الأكبر لو ثبت الشيعة أقدامهم في الحياة الإقتصادية ببلدان المشرق .

وتجلى تدخل الأوروبيين في بلاد المشرق خلال الأربعينات من القرن الماضي عندما اقترح ممثلو الدول الغربية على الأتراك تقسيم لبنان بين المسيحيين والدروز . إذ كان الأمير بشير الثالث الذي حكم جبل لبنان من قبل الباب العالي في استانبول قد عجز عن احتواء النزاعات بين الطائفتين . وفي سنة ١٨٤٢ وافق الأتراك على الإقتراح الأوروبي الذي حمل بذور الصراع في القرن التالي . وانقسم جبل لبنان إلى قطاعين وهما القائمقامية المسيحية في الشمال والقائمقامية الدرزية في الجنوب ، مع اعتبار طريق بيروت دمشق الحد الفاصل بينهما . واليوم نجد أن الطريق ذاتها شرقي قرية الكحالة المسيحية الصغيرة تشكل خط المواجهة بين ميليشيا الكتائب المسيحية وبين مقاتلي الحزب التقدمي الإشتراكي .

على أن ما فعلته الدول الغربية في القرن التاسع عشر لم يكن سوى إذكاء للخلافات القائمة بين الطوائف . وفي حين أن فرنسا والنمسا دعمت المسيحيين الموارنة فإن الإنجليز دعموا الدروز ، وعرض الروس الحماية على الروم الأورثوذكس . ولم تنزل فرنسا قواتها على شواطيء لبنان إلا بعد اندلاع الحرب الأهلية بين المسيحيين والدروز . لكن «المصالح» الأوروبية كانت قد اتخذت معالم واضحة . ولهذا ذكر دليل سوريا ولبنان لعام ١٨٤٢ الذي وضعه موري أن منطقة لبنان يحكمها ماروني يُعيّنه الباب العالي وتكفل الدول الأوروبية سلطته فيها . وقال موري «منطقة لبنان» لأنه لم يُقدّر لها أن تصبح دولة مستقلة منفصلة إلا بعد ذلك بنصف قرن . ويذكر موري نفسه وفي الدليل ذاته أن طوائف لبنان هي : المسلمون الشيعة والسنة ، والدروز ، والمسيحيون الموارنة ، والروم الكاثوليك والروم الأرثوذكس . لكن ليس فيه إشارة إلى الطائفة اليهودية الصغيرة المزدهرة .

على أن لبنان اليوم لا يزال يذكرنا بلبنان عام ١٨٩٢ من عدة نواح وذلك لأن مختلف الطوائف الدينية والأقليات القبلية لا تزال في القرى والمدن ذاتها التي كانت تسكنها عندئذ . فالشوف للدروز ، وصيدا وطرابلس للسنة ، والجنوب للشيعة ، وسلسلة الجبال شمال بيروت تشكل قلب المنطقة المسيحية . وعندما حلت سنة ١٩٨٣ كانت القوات الفرنسية والإيطالية والبريطانية تتولى الحراسة في

غرب بيروت بينما كان المارينز الأميركيون يقومون بحماية الطرف الجنوبي من المدينة . أي أن الدول الأوروبية كانت تدعم سيادة لبنان وأن لبنان لا يزال في الوضع الذي يصفه موري عام ١٨٩٢ في دليله عندما قال بأن الدول المسيحية كانت تكفله . وعليه فإن تاريخ القرن الماضي هو الذي أمد السنوات الخمس عشرة الماضية بديناميت التفجير .

ومما يبعث على الدهشة أن الإنفجار لم يحدث قبل ذلك ، وذلك لأن بوادر الغدر بالأجنبي والحقد عليه كانت واضحة منذ زمن طويل . فخلال الحرب العالمية الأولى تسببت البيروقراطية التركية وآفة الجراد في حدوث مجاعة استفحلت إلى حد حمل سيدة أميركية مقيمة ببيروت على أن تصف لقراء «التايمز» ما يجري فقالت :

«مررت بنساء وأطفال تمددوا على جانب الطريق وعيونهم مغمضة ووجوههم شاحبة كوجوه الموتى . واعتاد المرء أن يرى البعض يبحث في أكوام القمامة عن قشرة برتقالة أو عظام قديمة وغيرها من النفايات . كما يشاهد المرء النساء في كل مكان يبحثن في العشب على جوانب الطرق عما يمكن أكله من النباتات البرية»(١) .

وكان الحلفاء عندئذ يضربون حصاراً على بلاد المشرق لتجويع القوات التركية في فلسطين وسوريا وذلك بقطع المؤن عنها . لكن الأتراك عمدوا إلى الاستيلاء على أقوات السكان مما أدى إلى موتهم جوعاً . فمات لا أقل من ٠٠٠، ٣٠٠ شخص في سوريا وجبل لبنان ضحية مجاعة من صنع الإنسان سببتها حروب الدول الخارجية(٢) . ويصف أميركي آخر من المقيمين في لبنان الحالة في عام ١٩١٧ فيقول إنه :

«خلال رحلة دامت يومين في لبنان مع رئيس الصليب الأحمر الأميركي ببيروت . . . كانت هناك مشاهد يعجز المرء عن وصفها : من ذلك أسر بأكملها تئن على الأرض العارية داخل الأكواخ البائسة . إذ كانت قد باعت ما لديها من أثاث لشراء الخبز . وباع بعضهم قرميد السقف للغرض نفسه . وتذهب التقديرات المحافظة إلى أن عدد الذين ماتوا من الجوع بلبنان خلال السنتين الأخيرتين لا يقل عن ٠٠٠، ١٢٠ شخص(٣) .

(١) The Times , 15 September 1916 quoted in the Arab awakening: The Story ofthe Arab national movement by George Antonius (New York, capricon Books,1965)P.204

(٢) Ibid : P.

(٣) Ibid : P. 241.

وبين أقدم الأشياء التذكارية التي كانت تباع للحلفاء المنتصرين الذي دخلوا بيروت في ٨ تشرين الأول/ أكتوبر ١٩١٧ بطاقة بريدية مروّعة لا تزال معروضة بشارع المكحول في المكتبات الأثرية التي تبيع لوحات ديفيد روبرتس. فعلى البطاقة صورة أطفال بميتم في بيروت لهم أطراف كالأعواد ووجوه كالجماجم ملتصقة ببطونهم الضخمة المنتفخة.

إن رقم ١٢٠،٠٠٠ لموتى لبنان عندئذ يزيد عشرين ألفاً على العدد المقدر لمجموع الموتى في الحروب التي جرت بلبنان بين ١٩٧٥ و ١٩٨٩ بما فيها الغزو الإسرائيلي عام ١٩٨٢. ويذهب جورج انطونيوس إلى أن الإحصاء الحقيقي لضحايا المجاعة في جميع أنحاء سوريا بما في ذلك لبنان قد يصل إلى ٣٥٠،٠٠٠. فإذا أضفنا إلى هؤلاء خسائر سوريا من الجنود، ومن الجنود الذين كانت تساء معاملتهم في السجون، فإن سوريا تكون قد فقدت خلال الحرب العالمية الأولى نحو نصف مليون شخص من مجموع السكان البالغ قرابة أربعة ملايين(٤).

وكان الشاعر جبران خليل جبران الذي تحمل رسومه وأشعاره شبهاً غريباً بأعمال الشاعر وليام بليك يعيش في منفاه الطوعي. فحركت أحداث لبنان مشاعره فنظم قصيدة تقطر غضباً وقسوة لا يتفقان مع رسالته اللطيفة الفلسفية التي تخلد ذكراه. يقول:

«مات أهلي جائعين

ومن لم يمت جوعاً مات بحد السيف . . .

ماتوا جوعاً في الأرض التي تدر لبناً وعسلاً.

ماتوا لأن الثعبان الجهنمي قد التهم كل ما في

حقولهم . . .

ماتوا لأن الأفاعي أبناء الأفاعي قد نفثوا

السموم في الفضاء الذي كانت تملؤه أنفاس

الأرز وعطور الورود والياسمين»(٥).

---

(٤) المصدر ذاته

(٥) "Dead Are My People" from The Treasured Writings of Khalil Gibran (U.S.A Castle Books, 1981).

كانت تلك فترة الهجرة الكبرى التي حملت آلافاً كثيرة من اللبنانيين مثل جبران خليل جبران إلى أميركا هرباً من الأوقات الصعبة التي سبقت الحرب العالمية الأولى . وكان بين ضحايا غرق التيتانك من غير الأوروبيين ومن ركاب الدرجة الثالثة كثرة من اللبنانيين .

لكن من أكثر حركات السكان مأساوية هجرة ضحايا الإبادة الأوروبية الأولى من الأرمن إلى لبنان . ولم يستخدم الأتراك أيا من الآلات الفنية التي استخدمها النازيون ضد إحدى الأقليات بعد ذلك بثلاثين سنة . فالمليون أرمني الذين قضى عليهم الأتراك في عام ١٩١٥ ماتوا طعناً بالسكاكين ، واغتصبت النساء قبل قتلهن . وليس هناك من أثر لرفاتهم ولا لأية قبور جماعية . ومات عشرات الآلاف من الأرمن من العطش والجوع بعد أن أخرجوا من بلادهم واضطروا إلى القيام برحلة طويلة إلى الجنوب .

وحمل الأرمن معهم صوراً مرعبة كان من الممكن لو أن الشعب الذي خرج لتوه من الحرب العالمية الأولى درسها بعناية أن تكون بمثابة تحذير من التطورات التي سيشهدها لبنان . وبين تلك الصور صورة ظهّرها حزب الطاشناق في بيروت من نسخة سالبة داكنة عليها خدوش ، وهي لصف طويل من سكان إحدى القرى الأرمنية يسوقه الجنود الأتراك . ويظهر الأرمن وكل منهم يحمل حقيبة . وكان من الممكن لتلك الصورة أن تكون من بحيرة قان أو من مدينة لفوف في أوكرانيا بروسيا ، ومن غرب أرمينية أو شرق بولندا . ومن الممكن للجند أن يكونوا أتراكاً أو من البوليس السري الألماني . وتظهر في نسخة قديمة من إحدى الصور مجموعة من الجثث لشبان عليهم قمصان بيضاء . وكانوا ممددين بجانب بستان وأذرعهم مفتوحة وبطونهم منتفخة بسبب الحر . وفي بعض الصور يظهر الأتراك الذين شاركوا في تنفيذ أوامر الحكومة التي تقضي بتصفية الأرمن إلى جانب الجثث وهم يبتسمون للكاميرا . وبقايا الأرمن الوحيدة التي تم إنقاذها وجدت في الصحراء بسوريا قرب دير الزور . وترينا إحدى الصور الكهنة وهم راكعون على الرمل إلى جانب كوم من العظام .

وتوجد الآن في ضاحية بيروت الساحلية انطلياس كنيسة مثمنة أقيمت تخليداً لذكرى مجازر ١٩١٥ . وعندما يدخل الزائر بوابة البطريركية الأرمنية يرى الكنيسة إلى شمال الكاتدرائية ، وهي عبارة عن بناية صغيرة من الحجر الأصفر . ويبدو أنها تحوي بعض المخلفات الدينية الموضوعة خلف زجاج قاتم . ولا يمكنك أن ترى ما خلف الزجاج إلا إذا تركت ضوء الشمس ونفذت إلى الكنيسة . فعندئذ تشاهد على الحائط مجموعات مرتبة بعناية من الجماجم البشرية وعظام الفخذ وتجاويف الأعين . وقطع من عظام الأقدام والأذرع . وتبدو بعض الجماجم مسحوقة . على أنها جميعاً صارت داكنة مع مرور الزمن . وعلى أي حال فهذه كلها بقايا بشرية تبدو كما يقول الكهنة أنها من أجساد كانت قد

مزقتها الكلاب قبل العثور عليها في الرمال . وربما كانت أجزاء الجماجم في الأصل ٣٦ جمجمة . ولما كان مجموع الأرمن الذين ماتوا مليوناً على الأقل ، فإن كل جمجمة تمثل ٢٧، ٧٧٧ جثة .

وإلى اليوم ترفض الحكومة التركية الإعتراف باقتراف المذبحة بالرغم من استمرار أعمال القتل بعد عام ١٩١٥ . ويُحتمل أن تركيا قامت بذبح ٧٥، ٠٠٠ من الأرمن الآخرين خلال غزوها للقوقاز عام ١٩١٨ . كما يُحتمل أن يكون عدد الموتى الآخرين الذين توفوا بين عام ١٩١٩ وعام ١٩٢٢ ربع مليون(٦) .

وعدد الناجين من المذابح قليل لأن الأتراك حاولوا قتلهم جميعاً ولأن بعضهم قضى نحبه بسبب تقدم السن . وعندما وصل الأرمن الذين أنهكهم السير وأصابهم المرض بيروت وذلك في أعقاب انهيار الدولة العثمانية سمح لهم ببناء الأكواخ في مستنقعات برج حمود شرقي بيروت وبعد ذلك ببناء بيوت تبدو اليوم وكأنها بيوت بلقانية ، وتتدلى شرفاتها الخشبية فوق شوارع كمب مرعش الضيقة . ويعيش بعض الأرمن الذين زامنوا المذبحة في بيوت العجزة . ولا يمكنّهم تقدّمهم في السن من تسجيل ما حدث قبل ٧٤ سنة . ولا يزال أحدهم وهو خورن بليبوسيان يعيش خارج حي البلدية ببرج حمود في بيت تصعد إليه درجات ضيقة وباباً خشبياً بلا طلاء .

إنه اليوم في التسعين من عمره . وقد ضعف سمعه إلى حد يقتضي محدثه أن يصرخ ليسمعه . ولا يعرف غير التركية لغة مضطهديه بسبب تقدمه في السن . والواقع أن كثرة من الأرمن الذين عاشوا في أرمينية التركية لا يعرفون سوى لغتهم . في أثناء زيارتنا له أخذ يحملق فينا من وراء نظارتيه القويتين وأخذ يروي قصته وهو يمشي متكئاً على عصاه . قال :

«إقتاد الأتراك عمي وعمتي من منزلنا في قرية جيساريا .ثم عثرنا على جثتيهما عند زاوية الشارع وآثار طعنات الحراب بادية عليهما» .

وهنا رفع عصاه وصوبها وكأنه يطعن بها . وكانت في زاوية غرفة نومه التي تسودها الفوضى صورة لامرأة تتشح بالسواد وعلى وجهها علائم الحزن والشقاء . وواصل كلامه فقال :

«إنها صورة شقيقتي فلورنس . لقد قام الأكراد العاملون في خدمة الأتراك بقتل زوجها وأبنائها . ثم

(٦) إذا أردت بعض الاحصائيات الأكثر تفصيلاً راجع :

Christopher J. Walker : Armenia: The Survival of a Nation (New York , St. Martin's Press , 1980) especially P. 230.

اغتصبوها وأخذوها معهم وأرغموها على الزواج بأحدهم . وعندما توفي هذا جاءت إلى بيروت ووجدتنا» .

وهكذا كان الإنقاذ في بيروت . على أن الحظ أسعف الأرمن ، فهم الشعب الوحيد الذي هرب لا من بلاده إلى بيروت طلباً للراحة والحماية . وفي مصيرهم درس للآخرين وخصوصاً للفلسطينيين . وقد حذوا حذو الفلسطينيين فتجمعوا بحسب مدنهم وقراهم الأصلية . فالأرمني الذي قدمت أسرته من أرضروم أو قارص انضم إلى بني جلدته الذين جاؤوا من هناك . وهذا ما فعله الفلسطينيون . فالفلسطينيون الذين جاؤوا من حيفا أو قرية أم الفرج يقيمون بمخيمات اللاجئين بجوار من فروا من هناك وأحياناً في الشوارع ذاتها . ولقد تأخر الأرمن كما قال لهم الفلسطينيون مراراً في القتال من أجل أمتهم .

وفي الثمانينات ظهر مقاتلو كمب مرعش حيث يعيش نحو ١٥٠،٠٠٠ أرمني . وهؤلاء المقاتلون هم الذين يؤلفون «الجيش الأرمني السري لتحرير أرمينيا» الذي نقش بحملة الإغتيال التي شنّها ضد الدبلوماسيين الأتراك ،رثاء البقايا البشرية المرتبة في أنطلياس . ولعل الأرمن الذين يعيشون فيما تبقى من جمهورية أرمينيا ـ أي في الجمهورية السوفييتية الحالية التي تحمل الإسم ذاته ـ هم الوحيدون الذين أمامهم فرصة ولو ضئيلة لإعادة بناء أمتهم . وهم في هذا كالسكان العرب الذين يعيشون في الضفة الغربية وقطاع غزة . فهم الفلسطينيون الوحيدون الذين يستطيعون القتال بنجاح في سبيل تأسيس دولتهم . ومهما يكن من أمر فإن العجز السياسي والعسكري هو واحد من الأثمان التي يفرضها لبنان على من يدخل حدوده .

وليس هذا بالطبع هو ما بدا للدول الأوروبية التي هيمنت على الشرق الأوسط بعد أعوام ١٩١٤ـ ١٩١٨ . إذ أخذت الحضارة الأوروبية وخصوصاً المؤثرات الحضارية والسياسية الفرنسية تسود لبنان . وبينما شمل الإنتداب الفرنسي لبنان وسوريا فإن الانتداب البريطاني شمل فلسطين وشرق الأردن والعراق . واستغل الفرنسيون بشكل مخز الأقليات الدينية في منطقتهم وذلك لتوطيد سيطرتهم . فاستخدموا المقاتلين الدروز كميليشيا استعمارية كما استخدموا أفراداً من الأقلية العلوية الإسلامية في سوريا لإخماد ثورة السنيين .

وحتى فبراير ١٩٨٢ كان متحف بيت العظم في مدينة حماة بسوريا يضم عشرات الصور الممزقة والباهتة لمقاتلين مسلمين كانوا قد حاربوا الفرنسيين الذين شنقوا بعضهم بسبب تحديهم لهم . وكان آل العظم في حماة أشبه بأسرة روكفلر الأميركية . كانوا أسرة من الأرستقراطيين الأثرياء الذين حكموا

المدينة وأثروا فيها طيلة قرنين من الزمن . وفيما بعد صار أحد أحفاد أسعد العظم الذي حكم حماة عام ١٧٠٠ رئيساً للوزراء .

وكثيرون ممن يظهرون في تلك الصور هم من آل العظم . وكانت الصور مرتبة خلف الزجاج في غرفة أمامية فوق الباب . وكتب على باب الغرفة عبارة «شهداء حماة» وكان بين الصور صور شبان ذوي شوارب كبيرة ويحملون على أكتافهم بنادق ضخمة جداً وكلهم من أبناء الريف الذين أدركوا أن القومية لا الإستعمار هي طريق الكرامة . وظهر بعضهم بالزي العثماني أو العربي أو حتى الفرنسي وعلى وجوههم سيماء الجد . وكان هؤلاء في الصور التي أخذت فيما بعد يحملون بنادق «لي انفيلد» . وهم من آل العظم الذين انخرطوا يوماً في الجيش الفرنسي أو حتى في القوات الجوية الفرنسية ثم انقلبوا على أسيادهم الفرنسيين ومن يساندهم من أهل البلاد ، وسقطوا وهم يحاربونهم .

ومن هؤلاء الشبان من قتل في الحروب التالية . فعلى أحد الجدران صورة لشاب يبدو مثل غاري كوبر وشعره المتموج مسرّح إلى الخلف وفكّه بارز على نحو يوحي بالبطولة . واسم هذا الشاب فريد أديب العظم الذي سقط صريعاً وهو يحارب الإسرائيليين عام ١٩٤٨ . وفي شباط/ فبراير ١٩٨٢ ثار أصوليو حماة لكن الحكومة أخمدت ثورتهم وتهدم جزء كبير من المدينة القديمة ، وبالطبع احترقت صور «شهداء حماة» معهم .

لقد أدرك الفرنسيون تماماً أن الشعور القومي السوري سوف يكون مناوئاً لهم . وكان هذا في واقع الأمر يعني أن السنة كانوا هم الخصوم الرئيسيين . وهكذا أخذوا في الإعتماد على المسيحيين أصدقائهم القدامى وذلك بخلق دولة جديدة مجردة من صور وصيدا وطرابلس وسهل البقاع وبيروت ذاتها وإضافتها إلى سنجق جبل لبنان الذي كان يشكل العمود الفقري للموارنة . وبهذا فقدت سوريا أجمل موانئها . أما دمشق التي كانت مركز حركة القومية العربية الإسلامية المناوئة للحكم الفرنسي فقد أضعفت لتقوية بيروت والحكم الجديد الذي يهيمن عليه المسيحيون . وعليه فإن «دولة لبنان الكبير» التي أعلنها الجنرال غورو في ٣١ آب/ أغسطس ١٩٢٠ كانت كلها مصطنعة وعبارة عن كيان خلقه الفرنسيون . وصارت حدود هذا الكيان خلال عشرين عاماً حدود الدولة اللبنانية المستقلة . وعليه فإن الآلاف التي لا تحصى من القتلى الذين سقطوا بعد ذلك بنصف قرن دفاعاً عن السيادة المفترضة لم يضحوا بأنفسهم دفاعاً عن أهداف القومية العربية بل فعلوا ذلك من أجل وزارة الخارجية الفرنسية .

فلا عجب إذاً في أن السنيين تزعموا مقاومة هذه الدولة العشائرية الغريبة . واشترك دروز لبنان مع إخوانهم في سوريا في الثورة على الفرنسيين عام ١٩٢٥ . وطالب الروم الأرثوذكس بالعودة إلى

سوريا . وهكذا فعل غالبية السنة في صيدا وبيروت وطرابلس . وكان الموارنة هم وحدهم الذين شعروا بأن بإمكانهم تجرّع كأس الوصاية الفرنسية ، بالرغم من أنهم سرعان ما اكتشفوا أن الكأس كان يحتوي على سم استعماري خاص سترث عواقبه الأجيال المقبلة . فبإضافة تلك المناطق الواسعة من سوريا الإسلامية إلى «لبنان» الجديد صار من المؤكد أن يفقد المسيحيون مكانتهم المزعزعة كأكبر طائفة في لبنان حالما يزداد معدل الولادة عند المسلمين . وكان هذا من الأسباب التي جعلت الموارنة يعتمدون على الحماية الفرنسية .

لقد أشاد الكثيرون بمنافع الحكم الفرنسي في لبنان ، فذكروا إحياء الإقتصاد ، وتوسيع ميناء بيروت ، وبناء شبكة من الطرق بين المدن ، وإدخال نظام قضائي جديد ، وتحسين مستويات التعليم والصحة العامة والمعيشة . لكن سكان البلاد أنفسهم نظروا إلى هذا كله من زاوية مختلفة . فعندما استحدث الفرنسيون عملة «سورية لبنانية» جديدة ، مثلاً ، ربطوها بالفرنك الفرنسي المنهـــار ، وبهذا نقلوا ضعف نظام نقدهم إلى نظيره اللبناني . ثم إن فرنسا عهدت بإدارة النقد إلى بنك فرنسي قيل أن حاملي أسهمه أثروا على حساب الإستقلال الذاتي المالي العربي(٧) .

وفي المدارس صارت اللغة الفرنسية لغة إلزامية في الوقت الذي كان فيه القوميون العرب ينعمون بانتصار العربية على التركية ، لغة الدولة المحطّمة ، وكان لهذا الإنتصار اللغوي انعكاسات سياسية مهمة على مفهوم الإتحاد العربي(٨) . ورأى اللبنانيون في فرض تعليم الفرنسية عليهم استخفافاً بهم . وجاء العلم اللبناني الجديد على غرار الفرنسي المثلث الألوان . وفي المحاكم جعلت الأفضلية للغة الفرنسية على العربية . ووضع الكثير من المستندات الحكومية وجوازات السفر وبطاقات الإقامة وحتى إشارات الطرق بالفرنسية والعربية ولا تزال كما هي في جمهورية غورو الغربية التكوين .

وكان الفرنسيون يدركون مدى العداء الذي أثاروه في النفوس . فقد أخمدوا ثورة الدروز عليهم في لبنان وسوريا بوحشية كبيرة وبمساعدة عصابات من مقاتلي الأرمن الذين سلّحهم الفرنسيون لمهاجمة الثوار . كما أنهم أحدثوا سوابق لأحداث مقبلة . ففي مدينة السويداء السورية أوقع المقاتلون الدروز هزيمة منكرة بثلاثة آلاف جندي فرنسي وتقدموا إلى مشارف مدينة دمشق . وفي إحدى المراحل بلغوا حتى مشارف العاصمة المحبة للفرنسيين بيروت . فقامت القوات الفرنسية الجوية بقصف المناطق التي

(٧) Antonious, Arab Awakening, P. 73

(٨) لقد طمست بلاغة عبارة الإتحاد العربي حقيقة واقعة وهي أن العرب لم يتمتعوا فعلاً بأي نوع من الوحدة الجامعة إلا في ظل العثمانيين .

يسيطر عليها الثوار حول دمشق وفي القرى الدرزية . لكنهم قصفوا الجميع في سوريا ولبنان دون تمييز بين مدني وغير مدني .

وهكذا شهد لبنان نمطاً من الأحداث التي كانت ستتجدد بوحشية متزايدة في السنوات المقبلة . وكان الموارنة على استعداد للتعاون مع الدولة الأجنبية لأنهم كانوا يعتقدون بحق أن الفرنسيين يريدون خلق لبنان مستقل يتطلع إلى فرنسا لحمايته . وبينما واصلت الأحزاب الوطنية الإسلامية المطالبة بإلغاء حدود ١٩٢٠ والتظاهر ضد الحكم الفرنسي والحكومات التي سبقت الإستقلال ، كان الموارنة يتطلعون إلى الحضارة الفرنسية للإستلهام . كما أن الموارنة اتخذوا أسماء فرنسية وصاروا يتحدثون غالباً بالفرنسية بوصفها اللغة الأولى ، ويلتحقون بالمدارس الفرنسية ، ويبعثون أبناءهم إلى الجامعات الفرنسية .

وفي نوفمبر ١٩٣٦ وقعت معاهدة فرنسية لبنانية فيها اعتراف نظري باستقلال لبنان ، لكن المعاهدة سمحت بأن يكون لفرنسا جيش في لبنان . وبهذا ضمنت لنفسها سيطرة سياسية كبيرة . وشهدت بيروت وطرابلس قلاقل خطيرة أخمدتها السلطات اللبنانية بمساعدة القوات الفرنسية . ولم يكن من الغريب أن تدخل الإحتجاجات الإسلامية الخوف في قلوب الموارنة . إذ كان ما تمثله من تهديد لهم واضحاً بما فيه الكفاية . لكن ما السبيل إلى معالجتها وتشجيع الولاء وفرض النظام على شعب دولة المستقبل المسيحية الوطنية؟

في ١٦ كانون الأول / ديسمبر ١٩٣٦ قامت جريدة «لوريان» اللبنانية التي تصدر بالفرنسية بعمل غير عادي ، فتخلت عن الإخراج العادي الهادئ وطبعت بدلاً من ذلك وعلى رأس صفحتها الأولى صورة تحتل سبعة أعمدة لمئات من الشبان يلبسون قمصاناً وبناطيل في غاية الأناقة ويقفون في صفوف في إحدى حقول ضاحية عين الرمانة . وبدوا في الصورة ينظرون إلى الأمام ، مكرسين أنفسهم لقضية جديدة . فكانوا كما كتب تحت الصورة أول وحدة من حزب الكتائب الجديد ذي القمصان الزرقاء .

ويتعذر على من يزور اليوم مكاتب تلك الجريدة التي صارت تعرف باسم «لوريان ـ لوجور» في بيروت الغربية أن يجد تلك الصفحة الأولى بين الأعداد السابقة .فقد بحثت أنا بنفسي في تموز/ يوليو ١٩٨٢ خلال الغزو الإسرائيلي في أرشيف الجريدة بغية اكتشاف الجذور السياسية للكتائب اللبنانية التي حالفت إسرائيل مؤخراً في الحرب ضد الفلسطينيين ، بينما كانت أصوات المدافع الإسرائيلية والكتائبية التي تضرب بيروت تُسمع من خارج مكاتب الجريدة . ومن وقت إلى آخر كانت تنفجر إحدى القنابل وتهز شبابيك الغرفة الحارة الصغيرة حيث كانت المجموعات المجلدة من أعداد الجريدة منذ صدورها على الأرض . غير أن عدد ١٦ كانون الأول/ ديسمبر ١٩٣٦ كان قد انتزع من

مكانه مثل عدة أعداد من شهر آب/ أغسطس السابق الذي قام خلاله فريق كرة القدم اللبناني بقيادة بيار الجميل الماروني بزيارة ألمانيا لحضور الألعاب الأولمبية في برلين . كما كانت قد انتزعت أعداد من الجريدة ظهرت بعد هذه خلال ذلك الخريف ، واستلت كيفما اتفق مقالات عن حزب الكتائب الجديد لم يبق منها غير عناوينها .

وما كان باستطاعتي العثور على الصفحة الأولى لعدد ١٦ ديسمبر ١٩٣٦ لولا أنني رأيته في إطار معلق على الجدار الأيمن في مكتب بيار الجميل عندما ذهبت لأتحدث معه في صيف ١٩٨٢ ببيروت الشرقية . وهناك وفي غرفة ذات سقف عال ولا تبعد إلا ٤٠٠ متر من خط التماس وعلى الجانب الإسرائيلي من الخط كان رجل القضية المارونية البالغ من العمر ٧٧ سنة لا يزال يستقبل الزوار .

وكان يرتدي لباسه على نحو ما كان يفعل في الثلاثينات : جاكتة طيتاها على جانبي الصدر عريضتان ، وثنيتا الكم واسعتان وربطة عنق داكنة مثبتة تماماً بدبوس ذهبي على قميص ناصع البياض . وكان وجهه النحيف الهزيل يبدو متماسكاً كما لو أن صاحبه يقضي ليله في مكان تكوى فيه الملابس . وكان شعره مرسلاً إلى الوراء مثل سياسي الجمهورية الثالثة . وفضل التحدث بالفرنسية على العربية التي لم يسبق له أن أتقنها .

لم يكن الجميّل يتوقع أن أسأله عن زيارته لألمانيا النازية . فالكتائب كانت عندئذ الحليفة الحميمة لإسرائيل . وعليه فانه لم يجب إلا بعد نحو ثماني ثوان . قال :

«كنت قائد فريق كرة القدم اللبناني ورئيس الإتحاد اللبناني لكرة القدم . وذهبنا إلى الألعاب الأولمبية ببرلين عام ١٩٣٦ . وهناك رأيت الانضباط والنظام . فقلت في نفسي : لماذا لا نفعل الشيء ذاته في لبنان؟ فعندما عدنا أنشأنا حركة الشبيبة هذه» .

لم يذكر الجميّل أدولف هتلر . كما أنه لم يشر إلى أن حكومة الرايخ الثالث استخدمت الألعاب الأولمبية التي جرت عام ١٩٣٦ وسيلة للدعاية للحزب النازي الألماني . وكان قد حظر على الألمان اليهود الإشتراك فيها . وعندما ربح الأميركي الأسود جيسي أوينز سباق المئة متر خرج هتلر من الملعب . لكن الجميّل رأى ذلك على نحو مختلف . قال :

«عندما كنت في برلين لم تكن للنازية سمعتها الحالية . (تسألني عن) النازية؟ يمكنك أن تجد في كل نظام في العالم ما تستحسنه . لكن النازية عندئذ لم تكن نازية على الإطلاق . لقد اتخذت هذا الإسم فيما بعد . وما رأيته فيها هو الإنضباط . وكنا في الشرق الأوسط في حاجة إليه أكثر من أي شيء آخر» .

وإزدهرت حركة الشبيبة التي أنشأها الجميل . والحقيقة هي أن العسكريين كانوا عندئذ يقومون بالحراسة خارج مكتبه ومسدساتهم مشدودة إلى أوساطهم وشارات شجرة الصنوبر مثبتة بألبستهم العسكرية الخضراء الغامقة . وبعد وفاة هتلر ماتت حركة الشبيبة في أوروبا . ولم تبق إلا في لبنان حتى بعد ذهاب حفيدتها السياسية التي أنشأها فرانكو .

وكان الجميّل في عام ١٩٨٢ لا يزال يرى فيها ما كان يراه في أواخر الثلاثينات ، وهو أنها حركة تجديد هيأت الشبان المسيحيين للإستقلال والمسؤولية المدنية . قال :

«عرفنا في لبنان أربعمائة سنة من الحكم التركي . وطالبنا باستقلالنا . لكن كان علينا أن نتحلى بالنضج الكافي لنقوم بما يتطلبه الإستقلال . وأعتقد أننا نجحنا في تجربة إنشاء حركة الشبيبة الكتائبية لأننا نشأنا شباناً مهيئين للسياسة» .

واشتدت حماسة الجميّل للحديث وأخذ يدق الأرض بقدمه ويرفعها بينما كانت طاولته المصنوعة من خشب البلوط تهتز من جراء الحركة . ثم واصل حديثه فقال :

«لقد نجحنا لأننا فزنا في الإنتخابات البرلمانية ، واستطعنا أن نحل في الوزارات التي كانت للفرنسيين والأتراك» .

على أن الإنتقال من الحكم الفرنسي إلى تقرير المصير اللبناني لم يكن سهلاً . إذ نكث الفرنسيون بوعودهم بمنح الحكم الذاتي للبنانيين عدة مرات . وفي عام ١٩٤١ وبعد فترة قصيرة مشؤومة تولت خلالها حكومة فيشي الحكم ، احتلت جيوش الحلفاء لبنان مرة أخرى . وكانت هذه هي المرة الثانية خلال ٢٤ سنة التي تعبر فيها القوات الفلسطينية من فلسطين حدود لبنان الجنوبية . وفاز الجيش الأسترالي بأول وسام من أوسمة فكتوريا التي منحت خلال الحرب العالمية الثانية وذلك لانتصارهم على قوات فيشي في معركة بالدبابات قرب بلدة مرجعيون اللبنانية التي ستصبح مقر الميليشيا المسيحية المحلية التابعة لإسرائيل . وفي ذلك الوقت فقد موشي دايان الذي صار فيما بعد وزيراً للدفاع في إسرائيل عينه في قرية الدامور الساحلية برصاصة قناص من قوات فيشي . وكان دايان عندئذ يحارب مع الجيش البريطاني .

وأقيمت في بيروت إدارة فرنسية حرّة ، وسارع الجنرال ديغول إلى القول بكل وضوح بأنه يعتزم أن يبقي قواته في لبنان مهما قيل عن الإستقلال الذي ظن الشعب اللبناني أنه مُنح له . وكان تشرتشل يقف بقوة ضد استمرار الإنتداب الفرنسي . لكن عندما أصر الرئيس الماروني بشارة الخوري ورئيس الوزراء

السني رياض الصلح على جلاء الفرنسيين قام الفرنسيون بإلقاء القبض عليهما وسجنهما في قرية راشيا بمنطقة العرقوب في جنوب شرقي لبنان . أما الفرنسيون فكانوا يريدون البقاء في لبنان . ومما يجدر قوله أن الموارنة بمن فيهم بيار الجميل والكتائب طالبوا بانسحاب الفرنسيين .

على أن الفرنسيين لم يغادروا لبنان وسوريا إلا في عام ١٩٤٦ ، وذلك بعد أن قصفوا دمشق بحقد ، وقتلوا ٥٠٠ سوري . وهذا ما ستفعله في المستقبل الجيوش الأخرى التي ستقصف البلاد وهي خارجة منها لتقنع نفسها بأن في استطاعتها أن تسيء إلى معذبيها حتى النهاية . وعلى أي حال فإن الفرنسيين تركوا وراءهم أمة يسيطر عليها الموارنة دستورياً . وفي عام ١٩٤٣ وافق الموارنة على ميثاق وطني غير مكتوب منحهم الرئاسة في لبنان وقيادة الجيش اللبناني وغير ذلك مقابل تخليهم عن الحماية الفرنسية . وكان عليهم الإعتراف بأنه صار للبنان ما وصف بعد ذلك بأربعين عاماً بالهوية العربية .

وخلال الجيل التالي كان الميثاق يعتبر نموذجاً للبراعة السياسية في الشرق الأوسط وخصوصاً من قبل الدول الغربية التي أقرته والتي لم يصبها شيء فيما بعد من عواقبه . إذ كان المفترض فيه أن يكون نموذجاً للديمقراطية في عالم عربي أقرب إلى الدكتاتورية منه إلى الحرية . لكن كانت فيه ثغرتان أساسيتان أولاهما أن الطائفة المارونية التي لا تشكل في أحسن الأحوال أكثر من ٣٠٪ من مجموع اللبنانيين كانت بالتأكيد أقل عدداً من السنة ومن الشيعة . ومنذ عام ١٩٣٢ لم يجر إحصاء للسكان ولا كان في النية إجراء إحصاء آخر . وكان على المسلمين أن يقبلوا أسطورة الأكثرية المارونية لتسيير عجلة «الديمقراطية» كما كان عليهم أن يتخلوا عن المطالبة بالإتحاد مع سوريا وذلك مقابل إشتراكهم في الحكم بموجب الميثاق .

وعليه فإنه لم يكن هناك مناص من إعادة النظر في الميثاق إذا تعرّض سلوك المسيحيين أو المسلمين للتحدي . وهذا كفيل بأن يبيّن أن بنية الميثاق كانت بطبيعتها وفي أساسها غربية . كما أنها كانت من نتاج المساواة البرلمانية الأوروبية واستخدمت لتطعيم دولة حديثة الإستقلال كان نصف أهلها يعارضون وجودها منذ عشرين عاماً . وهكذا فإن الميثاق كما قال الناشر جورج نقاش فيما بعد مجرد تسوية رفعت إلى مستوى مذهب في طبيعة الدولة . ومن الحماقة أن يعتبر حدث تاريخي عارض عاملاً من عوامل الإستقرار(٩) . لقد كان في جوهره نظاماً لإقتسام السلطة وزعت فيه المناصب على الطوائف

(٩) George Naccache, Deux Negations Ne Font Pas Une Nation (1949) quoted in Gilmour, Fractured Country, p. 35.

حسب قوتها . وعلى هذا كان الرئيس مارونياً ، ورئيس الوزراء سنياً ورئيس مجلس النواب شيعياً ، وحتى في البرلمان صار للموارنة ستة ممثلين مقابل كل خمسة من المسلمين .

ولاقتسام السلطة اعتبار كبير في الغرب . فالبريطانيون مثلاً أنشأوا نظاماً قوي الشبه به في قبرص للعمل به بعد الإستعمار ، ويقضي بأن يكون الرئيس مسيحياً يونانياً ونائبه من المسلمين الأتراك . وفي أوائل السبعينات حثت بريطانيا الساسة في إيرلندا الشمالية أن يدرسوا الميثاق اللبناني ، وأقامت بالفعل في عام ١٩٧٤ ببلفاست إدارة على أساس إقتسام السلطة يكون بموجبها رئيس الحكومة بروتستانتياً ونائبه كاثوليكياً ، والوزارات مقسمة بحيث يكون للأكثرية البروتستانتية ضعف ما للكاثوليك . على أن النموذج القبرصي فشل على أثر انقلاب قام به القبارصة اليونان مما حدا بالأتراك إلى غزو الجزيرة . وفي السنة ذاتها انهار نموذج بلفاست تحت ضغط معارضة العمال البروتستانت . وبقيت المؤسسات القائمة على اقتسام السلطة بلبنان مدة أطول ، ولم تتشرذم في النهاية إلا عندما بلغ تصادم الموارنة والمسلمين والتدخل الأجنبي حداً عجز معه البرلمان عن انتخاب رئيس للبلاد .

لكن ما حدث بلبنان كان أشبه بالمعجزة . ولا بد لنا من أن نشيد بعناد اللبنانيين لأن العمل بالميثاق استمر طيلة تلك المدة . ومن الأسباب التي مكنتهم من ذلك ما نسجه معظم الفرقاء من أوهام وعاشوا فيها . ففي عام ١٩٧٥ مثلاً كان اللبنانيون يتحدثون للصحفيين الوافدين على البلاد عن الأيام السعيدة التي مرت وعن البلاد الفينيقية الهادئة التي أمكن فيها للمسيحيين والمسلمين أن يضربوا مثلاً على تعايش مختلف الخصوم الدينيين .

وهناك سؤال جوهري وهو : كيف استطاع اللبنانيون أن يعيشوا في سلام وأن يجنوا الأموال؟ فعندما كان الإقتصاد اللبناني آخذاً في الإزدهار كان الناس بوجه عام واللبنانيون بوجه خاص يصدقون ما يقال عن الأيام السعيدة . إذ كان السنّة والموارنة هم المنتفعون من الثروة الهائلة التي تدفقت على بيروت . فالبلاد بوصفها مركزاً مالياً ذات اقتصاد مفتوح ، وهمزة وصل تجارية بين أوروبا والشرق الأوسط ، وذات ميناء حلوب ، وذات نظام حر بالمقارنة بدكتاتوريات العالم العربي حظيت بمباركة الشرق والغرب ، وأخذت قوافلها الجوية الحديثة تصل إلى مينائها الدولي في خلدة .

إن الشواهد الأولى التي أخذت تشوّه هذا السراب بدت عام ١٩٤٦ على حدود لبنان الجنوبية أو في البحر قرب شواطئ بيروت عندما كان الميثاق لا يزال في عامه الثالث . لكن عندما هرب إلى لبنان ديفيد دمياني وفاطمة زمزم وأبناؤها وغسان كنفاني وأسرته ونحو ١٤٠،٠٠٠ فلسطيني آخر من اللاجئين كانت الحكومة اللبنانية ـ كالفلسطينيين أنفسهم ـ تأمل في أن يعودوا بسرعة إلى بيوتهم . على أن الصور المزعجة مثل صور قوافل اللاجئين والمخيمات لم تحدث أثراً كبيراً لأن لبنان لم يقدم

مساعدة تذكر «الجيش التحرير العربي» في الحرب ضد الدولة الإسرائيلية الجديدة . ففشل اللبنانيين العسكري كان يفوق في الأهمية في نظرهم مصير أولئك الذين كان يفترض فيهم إنقاذهم . وجرى توزيع غالبية الفلسطينيين على المخيمات التي أقامتها الأمم المتحدة قرب صور وبيروت وطرابلس أو في معسكر ويفل خارج بعلبك . وكان الفرنسيون والبريطانيون قد أخلوا هذا المعسكر القذر قبل ذلك بقليل ، لكنه كان مناسباً لأولئك الذين قُدّر لهم أن يقضوا غالبية أعمارهم في المنفى ، هذا بالرغم من أنهم هم ومضيفوهم اللبنانيون غير المتحمسين لإضافتهم لم يكونوا يعلمون ذلك .

ومنذ البدء عامل اللبنانيون الفلسطينيين بقليل من الحب . ولما كانت غالبية اللاجئين من السنّة ، فإن اللبنانيين تنبأوا بحق أنهم قد يكونون حلفاء لمسلمي لبنان . وفيما بعد قام بعض الفلسطينيين ممن لهم أقارب في لبنان بتغيير جنسيتهم وصاروا لبنانيين ، لكن غالبية اللاجئين اعتُبروا غير مواطنين ومنحوا جواز سفر بُنّي باهت بلون جواز سفرهم البريطاني القديم طبعت عليه شجرة الأرز . ولم يكن يسمح لهم بدخول الخدمة المدنية أو التمتع بامتيازات المواطنة اللبنانية . وكاد يكون من المستحيل عليهم الحصول على إذن عمل . وكان مصير كثرة من الزراع والعمال الفلسطينيين أن يعملوا في ورش البناء بأجور بخسة .

لكن إذا كان هذا العدد الكبير ممن هاجروا بغير إرادتهم لم يشغل بال اللبنانيين على الفور ، فإنه لم يكن من الممكن أن يتجاهلوا ظهور القومية العربية التي نادى بها جمال عبد الناصر . وفي عام ١٩٧٥ - أي بعد ذلك بوقت طويل - فضّل اللبنانيون عدم الإشارة إلى تلك الفترة . فقد كانت تقع في الحقبة المجيدة من تاريخ لبنان القريب ولهذا لا يمكن للمرء أن يحس بالأشباح التي أخذت تظهر حتى عندئذ في شوارع بيروت إلا في المجلات القديمة أو في شرائط الأخبار المخربشة .

وخلال الإجازة التي قضيتها في إيرلندا خلال وقف إطلاق النار إبان القتال في عام ١٩٧٦ عثرت على مجموعة من الأعداد القديمة لمجلة «ناسيونال جيوجرافك ماجازين» في إحدى مكتبات دبلن . ووجدت في عدد نيسان/ أبريل ١٩٥٨ مقالاً بعنوان «لبنان القديم يعيش على التجارة» بقلم توماس ج . أبركرومبي ، وتحت هذا العنوان عبارة تقول : «أرض الأرز ، والمدن الفينيقية القديمة والقلاع الصليبية تزدهر مرة أخرى كوسيط (كذا) من الشرق الأوسط» . وهنا كان الحلم القديم .

وتظهر في الصور الملوّنة بالمجلة اليخوت والقوارب التي تستخدم في رياضة ركوب الموج في مياه البحر الزرقاء بجوار فندق السان جورج الذي يشترط العضوية ، كما يظهر فيها مهرجان رقص شعبي في الجامعة الأميركية (التي أسسها المبشرون البروتستانت عام ١٨٦٦) ، وأشجار الأرز القديمة في بشري («مجد لبنان» ، الإصحاح ٣٥/ ٢ أشعيا) ومرفأ جبيل أو بيبلوس (ومنها كلمة Bible)

الفينيقي ومنظر جوي لوادي البقاع (وهو سهل فسيح يمتد تحت سلسلة جبال لبنان الشرقية) . وبين الصور لقطة ملونة للرئيس كميل شمعون بلباس الصيد . وكان عندئذ يتناول طعامه مع زوجته (وتحت الصورة عبارة : يجيد الإنكليزية والفرنسية والتركية والعربية . ويمثل بلاده في الأمم المتحدة . وهو مولع بالصيد) .

وخلال تجواله في لبنان ، زار أبركرومبي بيروت وجونيه وجبيل والأرز وبعلبك وحتى قلعة الشقيف . وطافت به السيدة شمعون في أرجاء قصر الأمير بشير ببيت الدين . ومن الواضح أنه أخذ بلبنان الأسطوري وجماهير الزرّاع السعداء الذين يكدّون فيه بإرشاد زعيم خيّر . ففي البقاع ، كما يقول «كانت العصافير تغني بين القصب فيردد ألحانها من بعيد كورس من العمال وهم في طريقهم إلى مزارع البطاطا ومجارفهم الطويلة فوق أكتافهم . ثم أقبل علينا فخامة الرئيس كميل شمعون . . . الذي أضفى شعره الأشيب ووجهه الدابغ المزيد من الهيبة على قامته المنتصبة . وكان يتدلى من حزامه طائر اصطاده» .

وفجأة يسجّل أبر كرومبي في ختام تقريره شيئاً غير عادي وكأن شعاعاً ساطعاً وثاقباً سُلّط فجأة على أرض الأحلام ، يقول إنه سمع بأن مظاهرة ضد الحكومة ستقوم في منطقة البسطة التي سوف يسيطر عليها بعد ثلاثين عاماً مقاتلون موالون لإيران ، وأنه استقل سيارة أجرة واتجه إلى هناك . ويضيف :

«حذرني سائق السيارة بقوله : ينبغي أن لا تذهب إلى هناك . ستُقتل . . . وصاح أحد رجال الدرك : الصور ممنوعة . . . (ورأيت) على ناصية الشارع جمهوراً غاضباً من المتظاهرين يلاحقهم فريق من الدرك . . . وفجأة استدار الجمهور وأخذ يقذف الحجارة . . . وانضم إليهم المتفرجون من فوق الشرفات وملأوا الجو بالحجارة . فتعثر دركي وكأنه أصيب بدوار وألقى بندقيته . فهبط كل من الدرك الباقين على ركبته اليمنى وسمعت طقطقة البنادق . وعندما سمعت الطلقات الأولى انبطحت على الأرض . . . وشاهدت أحد المتظاهرين وهو يتلوى وفر الباقون . . . وراحت سيارات الإسعاف تزعق ذهاباً وإياباً . ثم سمعت هدير الدبابات القادمة من بعيد . .» .

وبعد ذلك بوقت قصير فقد أبركرومبي فضوله الصحفي . وختم تقريره بقوله أنه إن دلّ الحادث (التظاهر) على شيء فهو «الآلام المتزايدة لجمهورية أخذت بعد خمسة آلاف سنة من الغزاة . . . تتطلع إلى مستقبل (يسوده) الإزدهار والسلام» . والواقع أن أبركرومبي كان إذ ذاك يشهد بداية أول حرب أهلية لبنانية . ولم تكن هذه الحرب سوى مشهد تمهيدي من الكارثة التي ستمزق لبنان .

وإذا ذكر الناس اليوم حرب عام ١٩٥٨ فإنهم لا يذكرونها بسبب المعارك الطائفية الوحشية التي وقعت في بيروت ، بل بسبب وصول المارينز الذين اقتحموا الشاطئ . ولكنهم بدلاً من أن يجدوا فيه المسلحين رأوا سيدات بالبكيني وصغاراً كانوا في انتظار آخر المنقذين لبيعهم الكوكاكولا . وهذه القصة صحيحة ولكنها أيضاً أصبحت جزءاً من أسطورة . ذلك أن الحقيقة الكامنة وراء النزاع عام ١٩٥٨ إنما هي تجدد النزاع القديم بين مؤيدي القومية العربية ومؤيدي المارونية ، وهو النزاع ذاته الذي ظهر عام ١٩٢٠ عندما خلق الفرنسيون لبنان .

لكن الآن كانت الجمهورية العربية المتحدة ـ التي وحّدت مصر وسوريا في أمة واحدة ـ والمعارضة الوطنية للنظامين الهاشمي والعراقي هما اللتان أثارتا مشاعر مسلمي لبنان وخصوصاً السنّة . وكان اهتمامهم بأمر رسالة ناصر في المناداة بالوحدة العربية أمراً طبيعياً بالرغم من أنها بدت للرئيس شمعون كابوساً خطراً . وكان شمعون نفسه أقل حباً للفرنسيين منه للإنجليز . وكان في احتقاره لناصر شَبَـهٌ غريب بالحقد غير العقلاني الذي أظهره ايدن للزعيم المصري خلال أزمة السويس . والحقيقة هي أن شمعون كان عندئذ يأمل أن تنجح مغامرة إيدن في السويس بالإطاحة بجمال عبد الناصر . وكان إيدن يعتبر خصمه المصري فاشياً على نمط موسوليني . أما شمعون فقد رأى أو ادعى أنه رأى أنه شيوعي .

كان شمعون رئيساً لحزبه وهو حزب الوطنيين الأحرار الذي كان في ذلك الحين يضم عدداً من زعماء الشيعة والسنّة المحافظين . لكن بالرغم من أنه كان يفاخر بالديموقراطية أمام الصحفيين الأجانب ، فإنه كان عملياً يحتقرها عندما تقف في طريق طموحاته في بلاده . وخلال الإنتخابات البرلمانية عام ١٩٥٧ ، ادعى أنصاره بأن أركان المعارضة هم مرشحو جمال عبد الناصر . ولهذا قُسّمت الدوائر الإنتخابية على نحو يضمن هزيمة صائب سلام أبرز زعيم سني في بيروت وكمال جنبلاط زعيم الدروز في الشوف . وكانت المظاهرات العنيفة التي شاهدها أبروكرومبي في بيروت قد قامت للاحتجاج على هذا الإنتهاك للانتخابات .

فحاول شمعون عندئذ أن يستغل فوزه في إدخال تغيير على الدستور يسمح بانتخابه مرة ثانية رئيساً للبنان . وأصيب الميثاق الوطني بالضعف عندما قرر شمعون قبول مبدأ أيزنهاور الذي وعدت الولايات المتحدة بموجبه باستخدام قواتها لمساعدة الأمة التي تطلب المساعدة ضد المعتدين الذين تسيطر عليهم «الشيوعية الدولية» . وعندما ابتدأت الثورة الدرزية الإسلامية ضد شمعون بحرب شرسة في شوارع بيروت ، لاحظ المسيحيون أن المسلمين كانوا يستخدمون شعارات العروبة التي يستخدمها جمال عبد الناصر . وكان من المفترض أن يكون هناك تحالف بين الثوار ومصر . ولما كان عبد الناصر

شيوعياً في نظر شمعون فقد صار في الإمكان المطالبة بتطبيق مبدأ أيزنهاور . وبالفعل طلب شمعون إرسال قوة من المارينز للمحافظة على سيادة لبنان . وتصدعت بنية الميثاق الوطني كلها من جراء التوتر عندما اتهم سلام في بيروت وكرامي الزعيم السني في طرابلس الشمعونيين بالسماح بقيام حلف بين لبنان وبين الغرب . ولم يحفظ توازن القوى في لبنان إلا وصول فؤاد شهاب إلى الرئاسة ورفضه زج الجيش في الصراع القائم .

وخلال القتال في بيروت ظهرت أعداد هائلة من رجال الميليشيات المسلحين في الشوارع . وحصدت الإغتيالات عدداً من المسلمين والمسيحيين . واستخدمت القوات الجوية اللبنانية طائرات هوكر هنتر في الهجوم على المواقع الإسلامية في قطاع العاصمة المحيط بالفاكهاني . وفي طرابلس منع رجال كرامي القوات الحكومية من دخول المدينة طيلة عدة أسابيع . أما خارج لبنان فبدا وكأن شيئاً لم يحدث . فقد استمر الإقتصاد في نموه وتزايدت الخدمات المصرفية . وبحلول عام ١٩٦٢ كان ٣٨ من خطوط الطيران تُسيِّر رحلات إلى بيروت بمعدل ٩٩ رحلة في اليوم . وتذكر الإحصائيات أن ٦٥،٠٠٠ من سيارات الأجرة في البلاد البالغ عددها ٧٦،٠٠٠ كانت تعمل من أجل السائحين . ويقول دليل «هاشيت» إلى لبنان لعام ١٩٦٥ بجرأة : «إن بيروت . . . تقوم على نحو رائع بدورها الجديد وهو «بوابة السائحين إلى الشرق» .

ترى كيف بقي العالم مغمض العينين كل تلك السنين؟ في أواخر عام ١٩٧٦ قررت شبكة التلفزيون الإيرلندية «تيليفس إيريان» إنتاج فيلم وثائقي عن لبنان وسألتني إن كان باستطاعتي أن أجد أيّة أفلام تتحدث عن لبنان في أوقات السلم . وكان أقرب أرشيف في استوديو شركة الإذاعة خارج نيقوسيا . وأظهر عارض الأفلام همّة عالية في إخراج علبة بعد أخرى من مخزون الأفلام التي كانت العناية بها قد قلّت إلى حد مكّن النترات من طمس صفحاتها الأولى . وكان أطولها فيلم بريطاني جرى إنتاجه في عام ١٩٦٩ . فظهرت على الشاشة الصور المألوفة : شابات يمارسن رياضة الإنزلاق على الماء ، ومزارعون في البقاع ، وأشجار الأرز الكبيرة في بشري . لكن ومرة أخرى ألقت إحدى الصور ضوءاً ساطعاً على الأحداث ، إذ ظهر فيها رجال يحملون بنادق على أكتافهم وهم يسيرون بين تلال جبل لبنان . وظهر فيها الكتائبيون وعليهم سيماء البراءة . وكانت شواربهم قصيرة وإلى جانبهم نيران المخيم على غرار ما يجري لدى حركات الشبيبة . وتتالت بعد ذلك صور التقطت في تلال جنوب لبنان الواطئة والدافئة لضابط بزيه العسكري وهو يقوم بتدريب الشبان المسلحين على تعبئة البنادق وإطلاق النار . وجاء في التعليق أن الضابط من الجيش المصري .

ومرت في الصور لقطة «من الأزمنة غير السعيدة» لطائرة هوكر هنتر تهجم على مجمع من شقق

السكن في بيروت عام ١٩٥٨ . وتبدو فيها الطائرة وهي تنقضّ ثم تتحول الكاميرا بسرعة إلى المبنى الذي انبعثت من داخله سحابة من الدخان الرمادي والأبيض . وقُدّر لي في عام ١٩٨٢ أن أشهد طائرة نفاثة إسرائيلية وهي تنقضّ على النحو ذاته وعلى مجمّع الشقق ذاته في بيروت الغربية . وانتهى الفيلم بهدوء عندما خيّم الظلام وأخذت الأضواء تتلألأ في سماء بيروت .

وهناك شريط من نوع مختلف . في عام ١٩٧٢ قمت بجولة في البقاع بحافلة صغيرة ، وكنت مراسلاً للتايمز في إيرلندا ولكن في إجازة اخترت من غير قصد قضاءها بلبنان الذي قُدّر لي أن أقضي فيه فيما بعد ثلاث عشرة سنة من عمري . وكان الجو حاراً ، ونوافذ الحافلة مفتوحة ورائحة البرتقال تعبق داخلها ، وأخذت أزهار البوغنفيلية (الجهنمية) الارجوانية والقرمزية تصافح نوافذ السيارة ونحن نقترب من بعلبك . وكان دليلنا السياحي اللبناني مسيحياً قصير القامة وشاربه رفيع . واقتصر شرحه على الماضي والماضي الموغل في القدم ، فتحدث عن الأشوريين والفينيقيين والرومان والصليبيين وكأن تاريخ لبنان الحديث مجرد قصة من القصص السياحية . وكانت أعمدة معبد جوبتر ببعلبك تقف عارية تحت شمس النهار وتبدو بيضاء عند منتصف النهار ومحمرة كالورد في المساء . وبدت بجانب معبد باخوس الذي سبق أن تعرفت على بوابته الحجرية الضخمة في لوحات ديفيد روبرتس الأنوار التي كان يجري إعدادها من أجل مهرجان بعلبك . وكانت الكوميدي فرانسيز هي التي ستظهر على مسرح بعلبك ذلك العام .

وفي طريق العودة إلى بيروت توقفنا في شتورة لتناول الشاي . وبسط دليلنا المسيحي القصير خارطة سياحية على ظهرها صورة لرجل شعره فضي وعلى عينيه نظارتان . وكان يلبس جاكتة سهرة وربطة حول عنقه . وكان يلف صدره بوشاح وكأنه سفير يقوم بأعماله الرسمية . وظهرت في أسفل الصورة العبارة التالية : «نداء من فخامة الرئيس سليمان فرنجية . نأمل أن يكون لقاؤنا مع السيّاح ومن يقضون الإجازة في بلادنا فرصة لإظهار نزاهة الشعب اللبناني ، وما هو عليه من كرم الضيافة والحرية والاستقرار الذي أصبح مثلاً للآخرين» . لكننا مررنا في الطريق إلى بيروت بأكواخ صغيرة من الإسمنت وسقوفها من ألواح الحديد الملتوية الجاثمة فوق الحجارة . وعندما سألت الدليل عمن يعيش فيها نظر إلى الأكواخ باستنكار وقال : «فلسطينيون . وليسوا جزءاً من شعبنا» . أما المكان فكان مخيم شاتيلا .

وفي الروشة كان ممارسو رياضة الإنزلاق على الماء يعبرون الممر الضيق بين الصخور . وكانت مطاعم السمك مليئة بالزبائن . وقرأنا في الصحف أنه حدث إطلاق نار في قلب طرابلس وشمالها . وقالت الصحف أن «قطاع الطرق» استولوا «على السوق» . ومرت سيارة جيب فيها عناصر من فرقة ١٦

التي تقوم بنجدة المواطنين . وكانوا يحملون بنادق أوتوماتيكية ويلبسون خوذاً من الفولاذ . ولم يستطع أحد ولا حتى موظف الإستقبال بالفندق أن يفسّر لنا سبب وجودهم .

وفي طريق عودتنا من زيارة آثار بيبلوس الكلاسيكية بحافلة مدرسية قديمة حمراء وخضراء تستخدمها شركة الباصات في الخدمات السياحية ، سرنا من الشمال عبر الطريق الساحلية نحو بيروت باتجاه ساحة الشهداء التي لن تلبث أن تتحول إلى خط تماس . وفي الطريق أشار السائق المسيحي إلى النقوش المحفورة على صخور نهر الكلب . وكان ركاب الحافلة من المسلمين والمسيحيين . وعندما مررنا بالمسلخ في الكرنتينا سألت السائق عن الرائحة الكريهة المنبعثة منه فلم يشر إلى المصنع أو المدبغة بجواره بل أشار بقسوة إلى الأكواخ القذرة القائمة وراء جدار الصفيح وقال : «ربما كانوا من الفلسطينيين» . ولم يكن بين لبنان والحرب عندئذ إلا ثلاث سنوات .

ولنعد إلى ١٩٨٢ إلى الغرفة ذات السقف العالي في بيروت الشرقية حيث يجلس بيار الجميّل وراء طاولة من خشب البلوط . وجدته عازفاً عن الحديث عن زيارته لبرلين عام ١٩٣٦ . لكنه لم ينتظر حتى يُسأل عن الفلسطينيين . وصفهم بكل إصرار بالطابور الخامس . قال : «كانت هناك حرب لا بيننا نحن اللبنانيين بل بيننا وبين الفلسطينيين الذين كانوا يحاولون غزو لبنان والإستيلاء عليه واحتلاله . لقد أرادوا إذابة لبنان في العالم العربي» . ولا بد للمرء وهو يسمع بيار الجميل أن يتذكر أقلية أخرى أضعف بكثير حمّلتها حكومة أخرى في الثلاثينات من هذا القرن وزر ما كانت تعانيه من أمراض اجتماعية .

لا سبيل إلى إنكار ما كان للوجود الفلسطيني من تأثير على لبنان . فعندما حل عام ١٩٧٥ كان الفلسطينيون ، الذين تضخم عددهم بسبب النزوح الذي أعقب غزو إسرائيل للضفة الغربية عام ١٩٦٧ وبسبب الحرب الأهلية في الأردن ، قد بلغوا ٣٥٠،٠٠٠ نسمة . لكن الجديد الآن هو أن الوجود الفلسطيني صار وجوداً مسلحاً يستند إلى مقاتلي منظمة التحرير الفلسطينية وزعمائهم الذين أخرجهم الملك حسين من عمان . وأصبحت بيروت لا مجرد عاصمة ثقافية للحركة الفلسطينية بل مقراً لمنظمة التحرير بزعامة ياسر عرفات . وعليه فإنها صارت أيضاً عاصمة «للعدو» في نظر إسرائيل .

وسبق للبنان أن عانى من وجود الفلسطينيين . فمنذ عام ١٩٦٨ أخذت منظمة التحرير ترسل من جنوب لبنان جماعات للإغارة على إسرائيل . وصار الإسرائيليون يردون عليها بغارات انتقامية كثيراً ما كانت تشن على القرى اللبنانية . أما دافع إسرائيل إلى هذا فبسيط ولا يكلّف بالمقارنة شيئاً : فما دام القرويون اللبنانيون يسمحون للمسلحين الفلسطينيين بالاحتماء في بيوتهم فلا بد أن يدفعوا الثمن من دمائهم ، وعليه فالطريقة الوحيدة لتجنب الهجمات الإسرائيلية هي طرد الفلسطينيين من قراهم .

وبالطبع لم يكن في استطاعة اللبنانيين أن يفعلوا هذا . ففي حين كان الفلسطينيون كانوا مسلحين ، فإن اللبنانيين لم يكونوا كذلك . وكان الجيش اللبناني الوطني ضعيفاً من الناحيتين العسكرية والسياسية إلى حد يعجز معه عن إخراج الفلسطينيين . وكان الفلسطينيون بالطبع ينظرون إلى عملياتهم التي كانت كثيراً ما تؤدي إلى وقوع ضحايا بوصفها واجباً مقدساً . فقد كانوا يحاربون الدولة المحتلة التي سلبت أرضهم .

وذهبت منظمة التحرير إلى أن نشاطاتها بلبنان شرعية بالإستناد إلى إتفاق القاهرة عام ١٩٦٩ ، وهو اتفاق مشكوك فيه تم في القاهرة بين ياسر عرفات وقائد الجيش اللبناني يسمح للفلسطينيين في لبنان «بالمشاركة في الثورة الفلسطينية» وبدعم العمليات الفدائية بحماية «الطريق إلى منطقة العرقوب» وهي جرف بركاني كبير بجنوب شرق لبنان . وكانت عندئذ تحت سيطرة مقاتلي عرفات . وكان للبنانيين بموجب الإتفاق أن «يواصلوا ممارسة جميع حقوقهم ومسؤولياتهم في سائر مناطق لبنان . .» . وبالطبع لم يكن لهذه الضمانة أية قيمة .

أخذ عرفات يكيل الضربات للجنود والمدنيين الإسرائيليين على السواء . ولم يحل عام ١٩٧٠ حتى كان الإسرائيليون يردون بغارات على عمق لبنان . وكانوا في العادة يضربون الأهداف المدنية ويحدثون آثاراً لا تتناسب إطلاقاً مع الهجمات الفلسطينية الأصلية . وعلى سبيل المثال فإنه عندما قتل مدنيان وجنديان نتيجة لقيام الفلسطينيين بإطلاق الصواريخ وتفجير لغم ، قصف الإسرائيليون بلدة حاصبيا وقتلوا ٤٨ وجرحوا ٤٥ . وكان هذا نمطاً آخر (في الرد) وسّعته إسرائيل وطوّرته وأتقنته خلال السنوات الخمس عشرة التالية .

وكان اللبنانيون عاجزين عن السيطرة على هذا النزاع بين إسرائيل الدولة الأجنبية التي كان لبنان لا يزال من الناحية الفنية في حرب معها وبين جيش من الفدائيين الفلسطينيين كان يتزايد ويسيطر الآن على مخيماته في بيروت وأماكن أخرى من لبنان . وتولى المقاتلون الفلسطينيون حراسة مداخل المخيمات ببيروت وهي صبرا وشاتيلا والكرنتينا وتل الزعتر وبرج البراجنة . وزعم الإسرائيليون أن الفلسطينيين أقاموا دولة داخل الدولة ، ولم يختلف معهم في هذا إلا قلة من اللبنانيين .

وكان كلما قام الفلسطينيون بمهاجمة الأهداف الإسرائيلية خارج لبنان قام الإسرائيليون بمهاجمة لبنان . وبعد أن هاجم الفدائيون طائرة العال في مطار أثينا نزلت القوات الإسرائيلية بقرب مطار بيروت ودمرت ثلاث عشرة من طائرات الميدل ايست وغيرها من الشركات . وقام الإسرائيليون بهجمات في بيروت ذاتها . وفي ١٠ نيسان/ أبريل ١٩٧٣ قام فريق اغتيال إسرائيلي بقتل ثلاثة من زعماء الفلسطينيين

وزوجة أحدهم في بيوتهم بشارع فردان . وفي عام ١٩٧٤ بدأ الإسرائيليون بشن ما أسموه بغارات «وقائية» على أهداف فلسطينية حتى وإن لم يقم الفلسطينيون بعمل ضدهم .

وكان لهذا كله تأثيره الحتمي على العلاقات بين المسيحيين والمسلمين في لبنان . فالموارنة كانوا يتذمرون من سيطرة الفلسطينيين على مناطق من البلاد وخصوصاً على العرقوب الذي صار الآن يعرف باسم أرض فتح . على أن المسلمين شعروا بصورة غريزية بالتعاطف مع الفلسطينيين . فقضيتهم قضية عربية عامة ومن واجب جميع العرب أن يقاتلوا في سبيلها . وهكذا رزح الميثاق الوطني مرة أخرى تحت الضغوطات الجديدة . وفي حين أن دمشق حثت اللبنانيين على السماح لمنظمة التحرير بمواصلة عملياتها من جنوب لبنان ، فإنها أمرت أجهزة الأمن السورية بمنع قيام الفلسطينيين بذلك من الأراضي السورية . وكانت أفضل الحركات الفدائية الفلسطينية في سوريا تسليحاً هي الصاعقة التي كان ضباطها أنفسهم من السوريين .

وهكذا فإن الفلسطينيين وجدوا أنفسهم في مأزق أخلاقي مع أنهم نادراً ما اهتموا بأخلاقية ما كانوا يفعلونه للبنانيين . فإذا تقاعسوا عن محاربة الإسرائيليين ، ضحوا بحقهم في العودة إلى فلسطين ؛ وإذا هاجموا الإسرائيليين ، خلقوا طبقة أخرى من اللاجئين اللبنانيين وغالبيتهم من الشيعة بجنوب لبنان . وأصرّ المارونيون فيما بعد على أن الفلسطينيين ساعدوا على تحطيم الحرية الديمقراطية بلبنان . لكن عرفات وزملاءه كانوا يعرفون جيداً أن لبنان غير مدين بشيء للديمقراطية البرلمانية الغربية .

كان يدير لبنان زعيم (أو ، إذا أردنا المزيد من الدقة ، زعماء) وهم الرؤساء الإقطاعيون الذين يصفهم اللبنانيون «بالأسر الكريمة» لكن الغربي العادي يصفهم بالمافيا . إذ كان لكل طائفة ولكل قبيلة زعماء برهنت تصريحاتهم وثراؤهم الفاحش وحرسهم وقسوتهم والتعليم الذي رعوه ، وجيوشهم الخاصة على أنها أقوى من أي شعار إنتخابي . وكانت خصائصهم الرئيسية هي حب لبنان المعلن ورغبة معلنة في احترام الميثاق الوطني وتصميم لا هوادة فيه على تأمين إنتقال السلطة إلى أبنائهم .

أما المسنون الذين تولوا الرئاسة في لبنان فكانوا على جانب من الوحشية المتعمدة التي أذهلت حتى الفلسطينيين . إذ يعتقد أن سليمان فرنجية ، صاحب«الفخامة» الأنيق الهندام الذي أسهب في وصفه البليغ على ظهر الخريطة لحسن الضيافة والأمن في لبنان ، اشترك في المجزرة التي استخدم فيها الرشاش وذهب ضحيتها أفراد من أسرة الدويهي قرب زغرتا عام ١٩٥٧ . وبالرغم من أنه أنكر ذلك ، فإنه هرب عندئذ إلى دمشق حيث لا يتباطأ السوريون في الإستفادة من طالبي المساعدة ، فقدموا له الحماية ودعموا فيما بعد ترشيحه لرئاسة الجمهورية التي فاز بها عام ١٩٧٠ . وعندما اعترض رئيس البرلمان على انتخابه جاء بمقاتليه إلى قاعة البرلمان .

وأصبح طوني ابن الرئيس فرنجية وزيراً لكن صعوده لم يدم طويلاً . فعندما رفض في عام ١٩٧٧ أن يوافق على العلاقات النامية بين الكتائب وإسرائيل ، أرسل بشير ابن بيار الجميل الذي قُدّر له هو أيضاً أن يُنتخب رئيساً للبنان مسلّحيه إلى بلدة إهدن بشمال لبنان لقتل طوني الذي وضع فيه أبوه كل آماله . فاقتحم مسلحو بشير بيت فرنجية وقتلوا ٣٢ من أبنائه وحرسه ، ثم شرعوا بإعدام طوني بموجب طقوس خاصة . ويقول فرنجية الأب أن الكتائبيين قاموا أولاً بإجبار ابنه وزوجته الشابة على مشاهدة قتل طفلتهما بإطلاق النار عليها . ثم أجبروا إبنه على مشاهدة قتل زوجته . وأخيراً قتلوه هو أيضاً .

وعندما قُتلت ابنة بشير الجميل الصغيرة في محاولة قتله ببيروت الشرقية بسيارة ملغومة لم يستطع سليمان فرنجية الذي كان قد اعتزل ببيته في بلدة زغرتا بحماية المردة أن يخفي شعوره بالرضا . وعندما سألته عن رد فعله جلس محدودباً وراء طاولته في قصره الصغير وطأطأ رأسه ونظارتاه النصفيتان على طرف منخريه وقال لي : «آمل أن يشعر بشير الجميل الآن بما شعرت به» .

أما شمعون فقد استندت قوته في الأساس إلى ميليشيا النمور بقيادة ابنه داني الذي كان هو نفسه قد أعلن ترشيحه في انتخابات ١٩٨٨ التي أجهضت . وإذا كان الزعماء المسلمون أقل قسوة فإنهم لم يكونوا أقل تمسكاً بالرعاية والولاء للأسرة . فقد كان رشيد كرامي قد ورث سلطة أبيه السياسية . وعندما اغتيل كمال جنبلاط عام ١٩٧٧ خلفه ابنه وليد في زعامة الدروز وقيادة «التحالف اليساري» أو تكتل المقاتلين اللبنانيين المسلمين والفلسطينيين الذي يمثل بوجه عام الوطنيين . وعاش كمال جنبلاط حيث يعيش إبنه الآن في قصر المختارة الذي تُزيّن ساحاته النوافير والشلالات الإصطناعية . ويظهر فيه المسلحون بلباسهم الأخضر .

وعندما اجتاح مقاتلو الدروز طريق الجية الساحلية عام ١٩٨٥ وقضوا على من بقي هناك من المدافعين الكتائبيين وجدت الزعيم الدرزي جالساً على كرسي قديم خشبي في إحدى غرف الإستقبال بقصره . فأخذ يندد بالمساوئ الخلقية للحرب . قال : «كان هناك قتلى ، نعم . وحدث نهب . آه من هذه الحرب اللعينة» . ووعد بالسماح للمهجرين المسيحيين من المدنيين بالعودة إلى بيوتهم ودفع تعويض مناسب لهم . على أنه لم يحدث شيء من هذا . وعندما زرت المكان فيما بعد وجدت أن البيوت والكنيسة قد هُدمت وسوّيت بالأرض . ولم يكن هناك أسرى لدى الدروز .

هؤلاء إذن هم أبناء الديمقراطية من الرجال الذين اجتهدوا في تنمية قواهم الشخصية بمقدار ما اجتهدوا في ترويج أسطورة لبنان التعددي المستقر . ولم يخف وليد جنبلاط على الأقل تحرره من هذا الوهم . ومع هذا كان لا بد من التمسك بالحلم . وكان بيار الجميل في مكتبه ذي السقف العالي يجسّد

هذا الوهم ، ويحاضر زواره عن إنجازات عالَم منظم لم يكن له وجود إلا في مكتبه بأعلامه الكتائبية واللبنانية وصفحة الجريدة المصورة على جداره . أما في الخارج في الشارع فكانت الخرائب وحفر القذائف والتحذيرات التي تحث السائقين على الإسراع في الدوران حول الميناء لأن القناصين عادوا إلى عملهم .

قال الجميّل : «إن الفترة من ١٩٤٣ إلى ١٩٧٠ هي أسعد الفترات التي شهدها لبنان . كنا أحراراً ومستقلين . وبعض الدول ثرية لأن لديها البترول أو الحديد . ولكن ثروة لبنان هي المبادرة الفردية التي تتطلب الأمن الإجتماعي والمدني . ولا يستطيع النظام الإقتصادي الحر أن يعمل في ظل الشيوعية أو الإشتراكية . وكان لدينا في لبنان نظام خاص ديمقراطي برلماني ، وحقوق متساوية للطوائف الدينية السبع عشرة ، وحرية التعبير لكل رجل وامرأة سواء أكان الواحد منهما مسلماً أم مسيحياً . لقد كان لبنان البلد الذي يجد فيه المرء نفسه صديقاً للآخر دون تمييز . وعليه فقد أصبحت الأسطورة عند بيار الجميل ديناً ، والفلسطينيون وحدهم هم المسؤولون عن تدميرها . ومن الغريب أن الجميل لم يذكر طائفة الشيعة الفقيرة التي عانت أكثر من أي طائفة أخرى .

لقد أصبحت أحداث ١٩٧٥ ـ ١٩٧٦ من الثوابت لدى اللبنانيين . فحتى اليوم نجد على رفوف مخازن بيع الكتب في شارع الحمراء وميدان ساسين مجموعات غالية الثمن من صور القتال ، وكتباً فيها لوحات مصورة يمكن للمرء أن يقرأ فيها بالتفصيل وقائع اللحظات الأخيرة لمقاتل فلسطيني أمام فرقة تتأهب لإطلاق النار عليه ، وأن يرى الألم في عيني أم تتوسل أمام مسلح من أجل أسرتها ، وأن يشاهد أسرة مسيحية مقتولة في بيتها . وهذا كله نوع من التنفيس للبنانيين والفلسطينيين الذين أدركوا منذ وقت طويل الطريقة التي ينبغي أن تفسر بها هذه الوقائع المخيفة . إذ درجوا على اعتبار الإنتصارات وليدة الشجاعة والوطنية والعقيدة الثورية ، وعلى اعتبار الهزيمة وليدة المؤامرة . ويُقصد بالمؤامرة التي يصعب تحديدها والتي تشمل كل شيء الخيانة التي لا بد أن يكون فيها إصبع للأجنبي سواء كان سورياً أو فلسطينياً أو إسرائيلياً أو فرنسياً أو ليبياً . وقد سبق لنا أنا وإدوارد كودي الذي يعمل مع الأسوشيتد برس أن توصلنا إلى استنتاج وهو أنه لا بد لنا أن نخصص كرسياً خاصاً للمؤامرة في كل مقابلة نجريها مع اللبنانيين طالما أن المؤامرة كانت تلعب دوراً قيادياً في جميع المناقشات التي أجريناها مع السياسيين أو الدبلوماسيين أو المسلحين .

ومن المحتمل أن يكون القتال في عام ١٩٧٥ ـ ٧٦ هو الذي يشكل بداية الصراع النهائي حول الميثاق بين العروبة والغرب بالرغم من أننا لو نظرنا إلى وقائعه الملموسة لوجدنا أنه يشتمل على سلسلة

أقرب إلى الفظائع منها إلى المعارك . ومن تلك الفظائع مجزرة السبت الأسود ، ومجزرة مسيحيي الدامور ، ومجزرتا الكرنتينا وتل الزعتر .

ونشب قتال في صيدا أشعل فتيله نزاع إقتصادي بين المسلمين والمسيحيين حول صيد السمك . إذ تخوّف المسلمون من أن يؤدي قيام شمعون وموارنة آخرين بتأسيس شركة جديدة لصيد السمك إلى حرمانهم من مصدر عيشهم ، فقاموا بمظاهرة أصيب فيها رئيس البلدية اليساري معروف سعد بجرح بليغ أدى إلى وفاته . ووقعت إشتباكات بين الجيش الذي كان أكثر ضباطه من المسيحيين وبين المسلحين المسلمين والجماعات الأكثر تطرفاً من الفدائيين الفلسطينيين .

وبوسع الذين كانوا ولا يزالون يعتقدون بأن الحرب كانت بين الموارنة وبين الآخرين ، أي بين قوات الجميل وشمعون وبين اللبنانيين المسلمين والفلسطينيين ، أن يستشهدوا بمجزرة عين الرمانة التي اقترفها الكتائبيون في ١٣ نيسان/ أبريل وذهب ضحيتها سبعة وعشرون فلسطينياً كانوا يمرون بباص في ضاحية عين الرمانة . وادعى الموارنة فيما بعد أن الإستفزاز هو الذي أدى إلى قتلهم ، لكن يبدو أن الهجوم كان مدبراً بعناية . وإذا كان الهدف من تدبير الحادث دفع الفلسطينيين والمسلمين اللبنانيين إلى خوض نزاع مسلح فمن المؤكد أنه تحقق . إذ صرح كمال جنبلاط وغيره من الزعماء الوطنيين أنهم لن يؤيدوا وزارة تضم كتائبيين . وهذا بالضبط ما فعله شمعون في عام ١٩٥٧ عندما رفض إشراك الوطنيين في إدارته . وهكذا انجرّت الجماعات الفلسطينية المتطرفة بمشاركة حذرة من مقاتلي فتح وبالإشتراك فيما بعد مع الميليشيات الإسلامية إلى القتال ضد الكتائب . وتخللت القتال فترات هدنة كانت الأولى بين مئات من اتفاقات وقف إطلاق النار . وفي كل فترة كان اللبنانيون يقنعون أنفسهم بأن الحرب انتهت ، ثم يتضح أن الهدنة هي التي انتهت . وتحدث رشيد الصلح ـ رئيس الوزراء ـ بشكل مبهم عن وصول عدة مئات من مثيري الفتن الإسرائيليين الذين كانت مهمتهم تدمير الجمهورية . وبهذا وصلت المؤامرة إلى بيروت .

وتحالفت ميليشيا المرابطين السنية التي كانت تنادي بالناصرية عن قناعة مع الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ـ القيادة العامة . وكانت هذه ، مثل جورج حبش الذي خرجت عليه نتيجة لإنشقاق ثوري ، تعارض سياسة البندقية وغصن الزيتون العرفاتية تجاه إسرائيل ، وبالتالي كانت خارج سيطرة عرفات . وقامت بالاشتراك مع المرابطين بطرد الكتائبيين من منطقة القنطاري ووسط بيروت وإخراج الميليشيات المارونية من مكامنهم في الفنادق الفاخرة بجوار الميناء .

وفي ٦ كانون الأول/ ديسمبر وهو يوم السبت الذي صار يعرف منذ ذلك التاريخ بالسبت الأسود

عُشر على أربعة قتلى من المسيحيين بسيارة خارج مبنى شركة الكهرباء شرق بيروت . وكان بشير الجميل عندما بلغه الخبر في دمشق . ويصر الضباط الذين كانوا عندئذ في الكتائب أن بشير الجميّل أمرهم بأن ينتقموا من المسلمين بقتل أربعين رجلاً مسلماً . فأقام المسيحيون الحواجز على الطرف الشرقي من طريق الرنغ ، وأوقفوا المسلمين الأربعين الأول الذين وصلوا الحاجز . وكان بعض هؤلاء من العائدين مع زوجاتهم وأبنائهم في سياراتهم إلى بيوتهم في شرقي بيروت . فساقهم المسيحيون إلى داخل النفق تحت الجسر وذبحوهم . وعندما بلغت أخبارهم غرب بيروت ، ردت الميليشيات الإسلامية على المسيحيين بالمثل فأقامت حاجزاً على طرف الرنغ الغربي . وبعد ساعات كان وراء كل حاجز صفوف طويلة من المدنيين الذين ظنوا أن المسلحين يريدون التدقيق في هوياتهم . ولم يكتشفوا ما كان ينتظرهم إلا عندما رأوا رجالاً على رؤوسهم أغطية وبأيديهم سكاكين تقطر دماً . فذبح ٣٠٠ مسلم على الأقل ومثلهم على ما يرجح من المسيحيين .

وفي يناير من عام ١٩٧٦ اقتحم المسيحيون الكرنتينا وقتلوا أو هجّروا سكانها . وحتى هذا التاريخ كان عرفات يحاول إبقاء فدائيي فتح خارج القتال الدائر . لكن عندما حاصر الكتائبيون مخيمي الكرنتينا وتل الزعتر لم يعد في استطاعة منظمة التحرير أن تظل خارج الحرب . فسمح عرفات لرجاله بالإشتراك مع اليساريين اللبنانيين في الهجوم على الدامور . وقد كانت قرية مسيحية جميلة تقع على الساحل وفيها مصانع للحرير ولها كروم زيتون على طريق صيدا بيروت . وكان بيت شمعون ذاته في تلك المنطقة وهو فيلا جميلة سقفها أحمر ولها ملاعب تنس وساحات تنحدر إلى البحر . وقاد شمعون بنفسه الدفاع عن القرية إلى أن فر منها بطائرة هليكوبتر . أما أهل البلدة فمنهم من أجلي بطريق البحر ومنهم من قضى عليهم الفلسطينيون .

والآن أصبح النزاع اللبناني في نظر الفلسطينيين «حرب تحرير» حقيقية ومرتبطة ارتباطاً وثيقاً بهدف العودة إلى فلسطين . وذلك لأن الميليشيات أصبحت عدوة تحارب بالنيابة (عن إسرائيل) . فأخذنا نسمع من منظمة التحرير أن الطريق إلى فلسطين تمر بجونية ميناء الموارنة الجميل الذي يقع في منتصف الطريق بين بيروت وجبيل . وصلاح خلف الإستراتيجي البارز في منظمة التحرير هو نفسه الذي أعلن في أيار/ مايو عام ١٩٧٦ ـ بينما كان الفلسطينيون يتسلقون السفوح الشرقية لجبل صنين ـ أن الطريق إلى فلسطين يجب أن تمر في عيون السيمان وعينطورة وحتى جونية ذاتها لقطع دابر أي تهديد آخر للوجود الفلسطيني في لبنان [١٠] .

(١٠) Quoted in The Lebanese Civil War by Marius Deeb (New York, praeger) P.111.

وهذا النوع من البيانات يتطلب من صاحبه جرأة خاصة . فقد تكشف عمّا أدركه كثرة من الصحفيين منذ زمن طويل وهو أن الفلسطينيين كانوا يعتبرون قضيتهم وبلادهم فلسطين أقدس بكثير من الأمة التي سُمح لها باللجوء إلى بلادها . وعلى أي حال فإن جونية تقع إلى الشمال من بيروت لا إلى جنوبها بإتجاه إسرائيل . وسنرى الفلسطينيين في المستقبل يفعلون الشيء ذاته مرات كثيرة وفي نفس الإتجاه الخاطئ .

وفي صبيحة يوم حار بغرب بيروت دعا المرابطون ـ حلفاء الفلسطينيين ـ الصحفيين إلى حرم الجامعة الأميركية ببيروت ليشاهدوا عملية إطلاق صاروخ أرض أرض ـ كانوا قد حصلوا عليه قبل وقت قصير ـ على جونية . وفيما كان الصحفيون يسألون عن نوع الصاروخ وعما إذا كان سيستخدم ضد إسرائيل ، أطلقه المسلحون شمالاً وفوق الميناء إلى جونية ، فسقط جسم الصاروخ قبل وصوله في البحر ونفذ رأسه المتفجر إلى ميناء جونية النائم وأهلها المطمئنين .وعندئذ عقد المرابطون مؤتمراً صحفياً لشرح أهمية هذا السلاح الجديد بينما كان الصحفيون الذين لا يعرفون العربية ينتظرون بصبر لمعرفة وزن رأس الصاروخ وارتفاعه ومداه . وتحدث أحدهم عن الحاجة إلى المقاومة ، ونبل الكفاح ضد الإنعزال ، وعن إمكانات الثورة . ولم يكن الصحفيون يعلمون أنهم إنما دعوا إلى سماع خطبة بليغة فلما طلبوا ترجمة للخطاب قال لهم محمد سلام أحد موظفي الأسوشيتد برس بشيء من السخرية أن المتحدث يقول :«لا تعليق» .

إن في ذكرى حرب ١٩٧٥ ـ ١٩٧٦ (التي تعرف بحرب السنتين) ما يؤلم الفلسطينيين . ولهذا ما يبرّره .إذ كانت بيروت الغربية الواقعة تحت سيطرة منظمة التحرير الفلسطينية تعاني من الفوضى وغياب القانون واستفحال الفساد وابتزاز المال لقاء الحماية ، وقتال العصابات والإغتيال . وقد جرت محاولات صادقة لمعالجة ذلك كله ولكن منظمة التحرير لم تستطع أن تفعل أكثر من إرسال «وحدات الأمن» إلى الشوارع لمنع النهب . وحدث بعد ظهر يوم حار من شهر حزيران/ يونيو ١٩٧٦ أن طرت إلى بيروت ،فوجدت منظمة التحرير مشتبكة داخل بيروت الغربية مع الصاعقة التي كانت قد هاجمت قوات عرفات بناء على أمر صادر عن دمشق . وكانت الجثة الأولى التي رأيتها هي جثة رجل ملقاة في بالوعة بالروشة . وكان الذراعان يطوقان وجه القتيل ورجله عالقة بالرصيف . وكان القتيل من فتح . ولاذ اللبنانيون ببيوتهم بينما كانت شوارعهم مسرحاً للقتال بين الغرباء . وقد تكررت هذه الظاهرة المخزية لقتال الفلسطينيين فيما بينهم بوحشية لا توصف . وكان اللبنانيون ـ في نظرهم ـ إخواناً من العرب عندما يكونون حلفاء ،لكنهم يتحولون إلى أجانب ويتناسونهم ، عندما تستعر الفتن الداخلية داخل صفوف حركة المقاومة الفلسطينية .

وبدا عندئذ أن الجميع ـ فيما عدا الفلسطينيين ـ أدركوا أن التدخل العسكري السوري بات أمراً لا مناص منه . وكان ياسر عرفات وكمال جنبلاط قد استُدعيا خلال الشتاء السابق إلى دمشق حيث أخبرا الأسد أنهما منتصران في الحرب الدائرة ،وأنهما يأملان في التوغل إلى داخل المناطق المسيحية . فأبلغهما الأسد بأنه سيمنع ذلك بأي ثمن . وعندما أصر جنبلاط على أنه سيأمر أتباعه بالزحف على شرق بيروت ، خرج الأسد غاضباً من قاعة الإجتماع . وقام عبد الحليم خدام بزيارة بيروت في ثلاث مناسبات ليدعو إلى وقف إطلاق النار بين الجانبين أو لمناشدة الفريقين تبني إصلاحات سياسية تعيد الثقة بينهما . ولكن حين ظهر الفلسطينيون في أوائل الصيف على سفوح جبل صنين ووجد المسيحيون أنفسهم مهددين بالهزيمة الساحقة بات التدخل العسكري السوري أمراً مؤكداً . فبعد إقناع الرئيس فرنجية بطلب مساعدة السوريين ـ وهو إجراء رسمي أصروا عليه قبل قيامهم بذلك ـ تقدمت القوات السورية المدرعة إلى وادي البقاع . وهناك وكما حدث لغالبية الجيوش الأجنبية انضمت إليهم حاشية تضم الأعوان من المقاتلين اليساريين وحزب البعث اللبناني الذين تهافتوا على الإعراب عن سرورهم بوصول السوريين المحبين للسلام لإنقاذ بلادهم .

والجيوش كلها متشابهة . إذ لا يلبث الجنود أن يستولي عليهم الضجر الذي لا يخففه سوى تعرّضهم ولكن لثوان معدودات لخطر جنوني لا ينتهي في العادة إلا بالفشل . وفي الأفلام يشاهد المرء كتيبة بعد أخرى من المدرعات وهي تتقدم عبر الحقول والجنود يركضون وراءها لتأمين التغطية . ومثل هذا يشاهده المرء أحياناً في لبنان . وكثيراً ما يلتقي بهم المرء بالصدفة . وهذا ما حدث لنا عندما التقينا بالسوريين في صبيحة يوم من الأيام الحارة في شهر حزيران/ يونيو ١٩٧٦ . وكنا في السيارة على طريق دمشق الدولية فوق جبل لبنان . فانعطفنا إلى الشمال غربي شتورة حيث تحف أشجار البتولا الفضية بالطريق ، وهناك كان يقف جندي سوري بشكل عادي وعلى كتفه بندقية وفي فمه سيجارة وبيده اليمنى عصا بداخل جلد ثعبان . وكان يستند إلى إحدى الأشجار .

وكانت في وسط الطريق صورة انطباعية رسمها فنان للرئيس الأسد وهو بزي رجال القوات الجوية ، فبدا كأنه طيار من طياري معركة بريطانيا وعيناه مشدودتان بسبب الشمس ونظراته مسلطة على الجو . وكانت الصورة مثبتة على لوح خشبي عريض وفي أعلاها علم لبناني صغير جداً . وعندما أمعنا النظر فيما وراء الصورة لمحنا ماسورة إحدى الدبابات وقد غمرتها ظلال محجر قريب .

وهز الجندي يداً متراخية وأشار إلينا قائلاً : «مرحباً بكم يا شباب» . ثم ألقى نظرة على الكاميرات فوق المقعد الخلفي للسيارة بشيء من عدم الرضا وقال :«لا ، لا تلتقطوا صوراً» . فقلنا : «بالتأكيد لا» فقال : «إنه ممنوع» فقلنا : «بالطبع» وأبصرنا خلف ماسورة المدفع الناتئة دبابة ت ـ ٦٢ وعلى برجها

أفراد طاقمها . وكان أحدهم قد ربط خرقة حول جبينه . فأضاف الجندي : «إذا التقطتم أية صورة فسوف أمطر سيارتكم بالرصاص» .وربما كان هذا الجندي قد سمع هذه العبارة في أحد الأفلام . وكلمة رصاص بالعربية التي استخدمها يدل لفظها على معناها . فأكدنا أننا لن نلتقط صوراً على الإطلاق .

وعندما أشار الجندي مرة أخرى بيده المتراخية ، إنطلقنا . وقبل أن ندور حول أحد المنعطفات رأينا دبابة ثانية ثم ثالثة مغمورة بالعشب وكأنها من الذئاب المسنة التي تتشمس في يوم لا نشاط فيه . وعند نقطة تفتيش اخرى ألقى الجندي من خلال نافذة السائق عدداً من المناشير التي تقول بأن سوريا دعيت إلى المجيء لمساعدة لبنان الشقيق وأن الرئيس فرنجية بنفسه طلب منهم ذلك . وكنا عندئذ بجوار ذلك المطعم بشتورة حيث أخرج دليلنا السياحي المسيحي القصير قبل ذلك بأربع سنوات خارطة سياحية على ظهرها صورة فرنجية . إذن فهذا هو ما قصده فرنجية بالضيافة .

كان السوريون في كل مكان على الطريق من البقاع إلى المصنع يشترون الساندويتشات والنبيذ من دكاكين القرى . وقال صاحب دكان : «يسرنا دائماً أن نستقبل الزوار ، كما يسرنا دائماً أن يعودوا إلى بلادهم» . لكن السوريين لن يعودوا . ووجدنا قائد المنطقة السوري يتشمس في باحة فندق بارك المكسوة بأزهار اللقلقي . وفي الأيام الخوالي السعيدة كان العرسان يقضون شهر العسل في ذلك الفندق . قال القائد بأن السوريين سيمدون مهلة إنذارهم للفلسطينيين يوماً واحداً وذلك للإنسحاب من المرتفعات الجبلية بين شتورة وبيروت . وبدا مسروراً عندما هممنا بمواصلة السير وبالطبع بدون التقاط صور . ولسروره بمغادرتنا ما يبرره . إذ لم يكن في البقاع مقاتل واحد .

وكان اسماعيل فهمي وزير خارجية مصر قد أكد قبل ذلك ببضع ساعات تدهور العلاقات بين بلاده وسوريا عندما صرح بأن الغزو السوري قد يؤدي إلى «مجزرة والقضاء على أمة» في لبنان . لكن هذا لم يكن صحيحاً في البقاع . فمدينة زحلة التي كانت تحاصرها الميليشيات اليسارية أصبحت الآن مفتوحة أمام الزوار والسيارات ، وأخذ السوريون يتعاونون بشكل علني مع المدافعين المحليين من الكتائبيين . واتخذ قائد «لجنة الدفاع» عن المدينة مكتباً له في مركز التلفونات بموافقة السوريين . فالسوريون جاؤوا لحماية المسيحيين .

وكما فعل الفرنسيون قبل ذلك ب ١١٦ عاماً دخل السوريون إلى لبنان لإنقاذ المارونيين من الهزيمة . وكان المارونيون في حاجة إلى ذلك لأنهم أقلية . ولما كانوا مدينين بذلك للسوريين وفي تلك اللحظة على الأقل كان للسوريين أن يتوقعوا منهم الطاعة . وعليه فهل كان هناك ما يفاجىء المرء

في أن السوريين الذين التقينا بهم في ذلك النهار الحار في البقاع كانوا يعتزمون فقط المحافظة على المؤسسات اللبنانية الواقعة تحت سيطرة الموارنة ، وإعادة السيادة للحكومة اللبنانية ، وعدم البقاء ساعة واحدة بل دقيقة واحدة أطول مما ينبغي؟

وكانوا يريدون أيضاً سحق الفلسطينيين . ولم يكن الأسد يريد استمرار الحرب الأهلية بلبنان ، لأنه إذا أصاب لبنان مزيد من الجراح فقد يصل النزف إلى سوريا عبر الأودية الرمادية الضيقة في سلسلة جبال لبنان الشرقية ومن ثم إلى الهضبة من ورائها ، وحتى إلى دمشق التي لم تكن العدوى اللبنانية قد انتقلت إليها . ولم يكن الأسد يريد قيام دولة فلسطينية في لبنان ، لأن لبنان ليس المكان الذي يفترض أن تكون فيه فلسطين . فمكانها إلى الجنوب ووراء الجولان في الضفة الغربية وقطاع غزة وفي إسرائيل ذاتها . ولم يكن السوريون يريدون فلسطين الثورية على حدودهم الغربية . والحقيقة هي أن الفلسطينيين لم يلبثوا أن أخذوا يتساءلون عما إذا كانت سوريا تريد قيام دولة فلسطينية .

ومن المؤكد أن اللبنانيين لم يكونوا يرون في الحكم الفلسطيني ما يستحسنونه . إذ لم يحلّ منتصف عام ١٩٧٦ حتى كان السلب والخطف قد أصبحا جزءاً لا ينفصل عن الحرب في غربي بيروت . ووصف فرنجية الفلسطينيين بعد ذلك ببضعة أسابيع بأنهم «ذئاب متوحشة» . وفي ١٦ حزيران/ يونيو خُطف السفير الأميركي فرانسيس ملوي ومستشاره الإقتصادي روبرت وورنغ بينما كانا مع سائق السيارة اللبناني يقطعان خط التماس قرب المتحف . وفي ذلك المساء نفسه عثر على جثثهم بدون أحذية وجوارب مدير الخطوط الجوية البريطانية ببيروت . وطالب الرئيس الأميركي فورد «بإحالة القتلة على العدالة» ، وهو مفهوم غريب عن لبنان عندئذ . وكما هو متوقع جرى تجاهل طلبه . وعندما اكتشف عرفات هوية الفلسطينيين الثلاثة المسؤولين عن مقتل السفير أرسلهم «مهانين» إلى صور . ولكن ظهر واحد منهم على الأقل وبيده بندقية كضابط في القوات التي تصدت لأول غزو إسرائيلي بعد ذلك بعام .

وأمر فورد بجلاء المواطنين الأميركيين من لبنان . وشهدت السنوات التالية جلاءات أخرى براً وبحراً وجواً . وكان كل منها مصحوباً بوعود من الرعايا المغادرين بأن غيابهم سيكون مؤقتاً . وفي بعض الحالات تبيّن أنهم كانوا يعنون ما يقولون . فبحلول عام ١٩٨٦ كان بعض الأجانب قد أجلوا عن لبنان في السنوات الإثنتي عشرة السابقة أربع مرات . وجلا البريطانيون في قافلة من عشرين سيارة ترفرف عليها الأعلام البريطانية وتقودها سيارة السفير وسيارة ستيشن تحمل جثتي ملوي ومستشاره الإقتصادي . وكان الأميركيون قد ودعا جثة سفيرهم وصاحبه بمراسم تسودها مشاعر حزن ظاهري . ودعيت لحضورها فرق التلفزيون التي وقف أفرادها أمام السفارة الأميركية وسجلوا فيلماً لواحد من

كبار هيئة السفارة وهو بلباسه الرسمي وأثناء قيامه بفتح باب كراج السفارة المعدني . وكان بداخل الكراج إثنان من المارينز يقفان بزيهما العسكري وكأنهما تمثالان في أحد متاحف الشمع تحت أضواء التلفزيون وبينهما تابوتان مجللان بالعلم الأميركي . وقال أحدهما : «على شمالي أيها السادة تابوت السفير ملوي . .» . وبدا كلامه وكأنه جزء من مسرحية تعد للتلفزيون ولم يقطعه إلا صوت حارس أمن يلبس «تي شيرت» أزرق : «هيا بنا . علينا أن لا نضيع الوقت . فلنذهب» .

وواكب رجال منظمة التحرير القافلة البريطانية في غربي بيروت حتى خلدة . ومن هناك وحتى الحدود السورية تولى مواكبتها الرائد حسن القصار من الجيش الليبي . وكان عندئذ ضابط استطلاع في قوة السلام التي كانت برعاية جامعة الدول العربية . وقام القصار بمهمته خير قيام . وعندما سلم القافلة للسوريين تلقى كلمة شكر خاصة من البلاد التي ستقوم بعد عشر سنوات بمساعدة أميركا في الغارة على ليبيا وقصفها .

أما عملية الإجلاء الأميركية التي تمت في اليوم التالي فقد كانت فريدة من نوعها . إذ استقدم الأميركيون سفينة إنزال طولها ١١٥ متراً إلى ناد للسباحة على الكورنيش غرب بيروت يحرسه رجال منظمة التحرير الفلسطينية . وكانت السفينة مزينة بشعارات الذكرى المئوية الثانية للإستقلال الأميركي . وشكر الدبلوماسيون الأميركيون علناً الضباط الفلسطينيين الذين وصفهم الأميركيون ذاتهم بعد بضع سنوات بأنهم «إرهابيون دوليون» . ولكي لا يتهم فورد باستخدام كلمة الفلسطينيين نراه فيما بعد يعبر عن شكره لمن أسماهم «الجنود العرب» الذين «ساعدوا» في عملية الإجلاء . لكن الأجانب بلبنان لم ينظروا إلى العملية بحماسة فورد وموقفه الدرامي . ويبدو أنه قضى الليل في المكتب البيضاوي بواشنطن ينتظر أخبار الإجلاء . وعندما غادرت السفينة المياه اللبنانية لم يكن على متنها إلا نصف حمولتها من الركاب وذلك لأن الذين انتهزوا فرصة الإجلاء لم يزيدوا على عشر الأميركيين والبريطانيين الذين كانوا في لبنان . وشك بعض الأميركيين الذين ظلوا في بيروت في الدوافع وراء العملية كلها . وبالرغم من أن السفارة البريطانية حثت رعاياها عندئذ على الجلاء فإنها لم تخف فيما بعد أنها اعتبرت الإجلاء جزءاً من حملة فورد الإنتخابية .

ودعا الفلسطينيون إلى إضراب عام احتجاجاً على تدخّل سوريا في لبنان . وفي صيدا انتهى هجوم السوريين بالدبابات بكارثة عندما قام الفلسطينيون وبعض الجنود المسلمين في الجيش اللبناني المتشرذم الذين تفاخروا بتسمية أنفسهم «الجيش العربي اللبناني» بنصب كمين للدبابات السورية في شارع رياض الصلح ودمروها كلها ، واحترق أفراد أطقمها وهم أحياء في دباباتهم . لكن استمر تقدم السوريين في الجبال المشرفة على بيروت . وكنا في كل يوم نصعد بسيارتنا الجبال باتجاههم فنجد

السوريين يقتربون أكثر فأكثر . وكان الفلسطينيون يرابطون وراء متاريس من التراب والصخور في الهواء البارد بين أشجار الشربين . وعندما كانوا يروننا يلوّحون بقاذفات القنابل ويعلنون أنهم لن يسمحوا للسوريين بالتقدم متراً واحداً أو حتى إنشاً واحداً على الطريق إلى بيروت .

وفي مصيف بحمدون الجبلي حيث كانت هناك محطة صغيرة لسكة الحديد وكشك فرنسي مزخرف للإشارات وعدد من الجوامع والمجمعات السكنية التي بناها رواد المصايف من السعوديين ، حطمت القذائف السورية الدكاكين والشقق وأحدثت ثغرة في جدار فندق الكارلتون . وعندما وصلنا إلى هناك ادعى الفلسطينيون أنهم يقومون بزرع الطريق بالألغام . وكانوا على أتم الإستعداد كالعادة . ورأينا عدداً منهم يتمنطقون بأحزمة الذخيرة ويقرأون الروايات الهزلية قرب مقهى ليس فيه سوى رجل مسن يجمع كسرات الخبز فوق إحدى الطاولات . وكان بعض المقاتلين من المرابطين نياماً عند أسفل الطريق إلى جانب الألغام المعدة للتفجير . وسار بنا ضابط من فتح ذو شعر طويل وسخ إلى خندق شق في التربة الحمراء الناعمة ، ويفضي إلى حقل مكسو بالأعشاب الطويلة ومليء بالفراش تمركزت فيه الدبابات السورية . وقال هذا الضابط : «نحن لا نريد قتال السوريين . إذ علينا نحن والسوريين أن نحارب معاً ضد الصهيونيين . لقد خُدع الأسد بوعود أميركا السرية» ومرة أخرى أطلّت صديقتنا المؤامرة .

على أن الفلسطينيين لم يكونوا يدركون جانب الخداع في مثل تلك المؤامرات . وإلا فكيف كان يمكنهم تعليل الإستشهاد في المخيم الفلسطيني الضخم المحاصر وهو مخيم تل الزعتر شرق بيروت؟ فبعد أن وصل السوريون لإنقاذ المسيحيين صار باستطاعة مهاجميه المارونيين حشد جميع طاقاتهم في هجومهم الأخير على الفلسطينيين . وكان إتيان صقر الملقب «أبو أرز» وصاحب أكثر الشخصيات اضطراباً بين قادة الميليشيات الصغيرة يقود جماعة مختصة بالأعمال الوحشية مثل ربط المساجين الفلسطينيين وراء السيارات وجرهم مسافة ١٢ ميلاً على الطريق إلى جونية ، وإلقاء جثثهم بعد ذلك في قعر أحد الوديان الجافة . وصرح أبو أرز بقوله : «إذا كنت تشعر بالعطف على أطفال الفلسطينيين ونسائهم ، تذكر أنهم شيوعيون وأن النساء سيلدن شيوعيين جداً»[١١] . وكان عرفات قد أمر سكان تل الزعتر بعدم الإستسلام بالرغم من أنه كان يدرك أنهم سوف يهزمون . وقال الناجون منه فيما بعد أن عرفات كان يريد المزيد من الشهداء لكي يجتذب انتباه العالم . فقدمت له كتائب بشير الجميل ونمور داني شمعون الآلاف منهم وغالبيتهم من المدنيين وذلك عندما اقتحموا المخيم أخيراً في شهر آب/ أغسطس .

(١١) Quoted in Randal: Tragedy of Lebanon, P. 91.

وضمن السوريون استمرار حكم الموارنة بتدبير تنصيب مصرفي يتصف بالنزاهة السياسية وهو الياس سركيس الذي سيشهد حكمه المزيد من انهيار البلاد التي وعد بإنقاذها . وحشد السوريون ألفي جندي وأربعين دبابة من طراز ت ـ ٦٢ لحراسة حفل تنصيبه رئيساً في فندق بارك بشتورة . وفاق عدد النواب الذين وفدت زمرهم على الفندق وعددهم ٦٧ نائباً عدد من يؤمون الفندق لقضاء شهر العسل . ونُقل النواب إلى البقاع بطائرات هليكوبتر وسيارات ليموزين مصفحة بحراسة فرق من الجند المسلحين بقاذفات الصواريخ المضادة للدبابات . هذا بينما خرج سرب من طائرات هوكرهنتر اللبنانية من قاعدة رياق التي أصبحت بيد السوريين وحلقت فوق الفندق بينما كان سركيس يعبّر عن «الإيمان الذي لا يتزعزع في قدرة شعبنا على إعادة بناء لبنان جديد قائم على الإخاء والوحدة وكراهية أي شكل من أشكال التقسيم» .

وتقدم السوريون بلا عناء خلال المراكز الفلسطينية في بحمدون بينما كان الكتائبيون يهاجمون الفلسطينيين وراء ذلك في أسفل الجبل . واستخدم السوريون دباباتهم ضد اليساريين بدون ندم ، لكنهم في تشرين الأول/ أكتوبر تسلحوا بسلاح أقوى بكثير من دروعهم وهو انتداب الجامعة العربية لهم لدخول لبنان «كقوة ردع» مما أتاح لهم الآن التقدم إلى المدينة . وفي حين أن هذا الإنتداب قضى بأن تعمل مع السوريين كتائب من السعودية واليمن والسودان والإمارات العربية المتحدة ، فإن احتلال العاصمة اللبنانية أنيط بالقوات والمدرعات السورية . وأعلن السوريون بأنه لن تكون هناك معارضة ، وأنهم فور وصولهم إلى بيروت سوف تُسحب جميع الأسلحة الثقيلة من الميليشيات . وكان هذا إعلاناً آخر (عن جمع الأسلحة) سوف يجري تجاهله ونسيانه طوال العشر سنوات التالية .

واستمد الموارنة الجرأة من ذلك التوفيق ،فذهبوا حتى إلى أنه لا حاجة للمخلصين السوريين في شوارع بيروت الشرقية المسيحية . لكن هذا الطلب كان سابقاً لأوانه . ففي فجر العاشر من تشرين الثاني/ نوفمبر ـ أي بعد نشوب الحرب الأهلية بحوالي ١٧ شهراً ـ كان يهبط من سفوح الجبال المطلة على بيروت طابور بعد آخر من الدبابات والمدافع وناقلات الجند على امتداد عشرين ميلاً مما ملأ الوديان بسحب من دخان الوقود المحترق . وبدأ أكثر من نصف الجنود السوريين الذين دخلوا لبنان وعددهم ثلاثون ألفاً يقتربون من بيروت التي يطلون عليها صبيحة يوم حار والتي كانت تبدو وكأنها مندمجة بالبحر . ولم يسبق لجيش عربي بعد الحرب أن احتل عاصمة أمة شقيقة ، هذا إذا لم نأخذ بعين الإعتبار أن ذلك حدث بمثل تلك الموافقة الدستورية .

وشاهدنا شيئاً دفعتنا صعوبة تصديقه إلى التساؤل فيما بعد عما إذا كنا قد رأيناه بالفعل ـ وهو أن الذي كان يقود تلك الفرق من الجند الذين يرتدون لباس الميدان جندي على رأسه قبعة عادية ويجلس

وحيداً فوق دبابة ت ـ ٦٢ وهو يعزف على قيثارة . وكان طوال الوقت يتأرجح على برج الدبابة الحديدي والدبابة تسير بسرعة ٣٥ ميلاً في الساعة . وكان خداه منتفخين ووجهه متجمداً لتركيزه على لحن غير مسموع بسبب طغيان جلجلة الدبابات عليه . إن عازف القيثارة من دمشق يقود (الجيش) في طريقه إلى بيروت .

وفي قرية الكحالة المسيحية كانت الأعلام البيضاء ناتئة من الشبابيك . وكان الكتائبيون قد أخلوا مقرهم في القرية . لكن الضابط السوري الذي كان قد وزع المناشير التي تصف الجيش السوري بأنه «رسول الحب والسلام الأخوي» إقتلع إشارة كتائبية تصف القرية بأنها منطقة عسكرية ، وألقى باللوح الذي كانت عليه في الوادي . وفي الحازمية رش المسيحيون ماء الورد ونثروا الأرز على أطقم الدبابات . ولم يتوقف الطابور السوري إلا عند غاليري سمعان وذلك عندما وجد الجنود السوريون أنفسهم قبالة خط المواجهة الفلسطيني وبدأت فرقعة البنادق المألوفة في بيروت تثير أعصابهم ، وبدا وكأنهم لا يدركون أهدافهم . إذ كان الجيش النظامي المنضبط على وشك أن يُخرج المسلحين من الشوارع التي كانت منذ وقت طويل تحت حكم الفئات المتنافسة التي كانت تأخذ حقها بنفسها يوماً بعد يوم .

ولاحت لحظة تاريخية حقيقية عندما مرت الدبابات الأولى أمام مجمعات الشقق في ضواحي بيروت حيث كانت المباني قد احترقت وتمزقت خلال شهور القتال . وعلى بعد نصف ميل فقط استطعنا أن نشاهد متراساً من الرمل طوله عشرون قدماً . وكان الفلسطينيون خلفه ينتظرون . وكانوا غير راضين عن المشاركة في وقف إطلاق النار الذي كان عرفات نفسه قد أعلن أنه مقدس . وبدا أن قلة من الأهالي المسيحيين قد لاحظوا أن السوريين جاؤوا وهم على استعداد للبقاء أكثر من بضعة أيام . وكان الكثيرون من الجنود قد أحضروا معهم حقائب الملابس وحمولة شاحنات لا من المؤن فحسب بل من أجهزة الثكنات ومواد البناء ،وحتى أجزاء من البيوت الجاهزة .

أما على خط المواجهة الآخر وخلف أكوام من الأتربة الداكنة عند غاليري سمعان فقد ساد جو أكثر تأرجحاً . ففي حين أن السوريين كانوا يتحركون طبقاً لخطة منسقة ، فإن الفلسطينيين الذين كان يحتمل أن يتصدوا لهم كانوا لا يزالون يعيشون على عواطفهم . وكانت تُسمع من الجهة الأخرى لخط المواجهة أصداء الغناء في كنيسة مار مخايل التي دنستها القذائف . على أن الفلسطينيين الذين كانوا يجثمون وراء متراس الرمل عبر بوليفار العريس أخذوا يرقبون الدبابات السورية متجاهلين أصوات الغناء . لكن عندما دخلنا الكنيسة وجدنا خمسة أولاد فلسطينيين يقفون صفاً واحداً في المكان الذي كان فيه المذبح .

كان كل من الأولاد يرتدي بزة صغيرة كبزات الفدائيين ويحمل بندقية . ولاحظت أن أكبرهم سناً لا يتجاوز العاشرة من العمر ، وأن شعره لم يكن مغسولاً . على أنه كان يحمل بندقية أتوماتيكية . وكان على يميني صبي يقبض على قاذفة صاروخية . أما أصغرهم الذي لم يكن يتجاوز الثامنة من العمر فقد كان ظهره منحنياً بسبب ثقل رشاش م ـ ١٦ الذي كان يحمله . وكانت القنابل اليدوية مشدودة إلى صدره بشريط عسكري . وكانوا يغنون أمام فلسطيني طويل القامة يبدو عليه الجد وفي حزامه مسدس : «يا فتح نحن أشبالك . وعندما نكبر سنكون جنودك» . ثم دقوا الأرض بأحذيتهم الطويلة الواسعةوخرجوا متثاقلين صفاً واحداً من الكنيسة المنكوبة ذات الحجارة البيضاء وعبروا خندقاً في نقطة بعيدة عن المتراس .

وتجاهل الفدائيون الأولاد وأخذوا بدلاً من ذلك يرقبون الدبابات السورية وهي تتقدم على الطريق المنحدرة على بعد نصف ميل وفيما كان يعرف في اليوم السابق بخط المواجهة المسيحي وعلى مسافة بعيدة . وكانت القذائف تنطلق في سماء بيروت وتنفجر في الميناء . وكان دوي كل قذيفة يطرق أسماعنا كما يطرقها باب أغلق بعنف تحت أقدامنا . والتفت أحد الفدائيين الفلسطينيين بتبرم إلى زميل له وسأله : «لماذا لا نطلق عليهم النار؟» ترى ألم يسمع الناطق باسم جامعة الدول العربية ذلك الصباح وهو يهدد بأن «قوة حفظ السلام» السورية سوف «تضرب بيد من حديد» أية مقاومة .

ثم وقع حدث رائع . فقد جاء من خلفنا من حي الشياح الإسلامي الذي يقطنه الشيعة نحو عشرين شخصاً من الأزواج والزوجات ، وبضعة فتيات بالألبسة الصيفية ، ورجل ومعه ولدان صغيران يسيران إلى جانبه . ولما كان جميع هؤلاء من أقرب الأهالي إلى خط التماس ، فإنهم لم يجرؤوا منذ عام على السير على البوليفار . وأخذت السيارات تقف على التراب والحجارة إلى جانب الطريق . ولم تلبث أن نزلت منها أسر بكاملها ، تضم من ٦٠ إلى ٧٠ شخصاً يريدون رؤية المتراس الصامت . وسار رجال الأعمال والعجائز فوق حطام الإسمنت والفولاذ وهم لا يصدقون ما تقع عليه أنظارهم من البنايات المحطمة والجدران المبعوجة والشرفات السوداء .

ثم كان الفصل العظيم الأخير ـ ونقول الأخير لأن الناس اعتقدوا أنه الأخير ـ في ١٦ تشرين الثاني/ نوفمبر ، عندما أسندت مهمة إنهاء الحرب إلى فصيلة تضم أربعة عشر جندياً . فمما يصعب تصوره أن الميناء كان لا يزال منذ تسعة عشر شهراً مسرحاً لحرب الشوارع . فحتى اللحظة الأخيرة اللامعقولة ظل المحاربون يتبادلون إطلاق النار وكأنهم لا يستطيعون مقاومة إغراء الدخول في معركة أخرى أو كأن خط التماس والحرب صار جزءاً لا يتجزأ من حياتهم .

وإكتشفنا السوريين وهم يحتمون بالجدران في جادة شارل حلو ، عندما انهمرت عليهم القذائف التي بدا أن مصدرها المراكز الفلسطينية على بعد ميل . وبدت أيضاً الطريق التي سلكوها في تقدمهم من القطاع المسيحي إلى القطاع الإسلامي كأنها قدر التاريخ . وكان الجنود يحملون قاذفات الصواريخ أو الرشاشات بينما كانت وراءهم صفوف من الدبابات المتباعدة على الطريق ذي الإتجاهين المؤدي إلى الميناء .

وكان قائد الفصيلة - وهو رجل قصير له شارب ويحمل بيديه عصا وراديو يعمل بالإتجاهين - يتجادل مع نفر من المسلحين الكتائبيين المسيحيين الذين لم يكونوا قد أخلوا متاريسهم ولا يزالون يحرسون الشوارع وعلى أوساطهم مسدسات ومعهم بنادق لها مناظير . وبدا واضحاً أن إطلاق النار المتواصل لم يؤثر في أعصاب الضابط الذي كان يحاول إقناع الكتائبيين بإخلاء المنطقة بينما كان في الوقت ذاته يسألهم عن الإتجاهات . وفي كل بضع دقائق كان يسمع صفير إحدى القذائف فوق السطوح قبل أن تنفجر مدوية في أحواض الميناء . وكان بإمكان المرء أن يشاهد السوريين الذين انعكست عليهم زرقة البحر يركضون بجوار سور المرفأ . وكانوا يعتزمون عبور خط التماس ، مما حدا بقائدهم الذي يحمل الراديو أن يسلك بجنوده الطريق المؤدّية إلى ساحة الشهداء .

واستطعنا مشاهدة مدخل ساحة الشهداء في نهاية الشارع حيث كان سوق الخضروات والفواكه وموقف الباصات قبل الحرب . ورأينا إحدى واجهات المدخل التي تعود إلى القرن التاسع عشر وتؤدي إلى السوق . وكان وسط الساحة فيما مضى محاطاً بأشجار النخيل وحولها المقاهي . وقضينا عشرين دقيقة ونحن نتسلل عبر الأزقة القذرة المهدمة والباصات والسيارات المحترقة إلى أن وصلنا إلى المكان الذي نريده . ووجدنا هناك عدداً من المسلحين المسيحيين يجلسون فوق ساتر ترابي ويدخنون السجائر . وكان يصعب على المرء التعرف على ساحة الشهداء . إذ كانت مئات القذائف والصواريخ قد حطمت أو اخترقت كل بناية . أما الباصات التي بدا بعضها مقلوباً وتحولت إلى متاريس فكانت مبعثرة في أنحاء الساحة . وكان المتراس الأخير للمسيحيين يتألف من صناديق الشحن الضخمة . وظل القائد السوري يكرر قوله للمسيحيين : «نرجوكم أن تتركونا الآن . إذهبوا إلى بيوتكم» .

وأخذ السوريون ينظرون بلا مبالاة إلى أحد المسلحين المسيحيين وهو يخرج كاميرا صغيرة من النوع الذي يوضع في الجيب ويُقدّم في عيد الميلاد هدية للأطفال . وعندئذ وقف المسلحون المسيحيون أمام متراسهم وهم بستراتهم الخشنة وبناطيل الجينز وأحزمة رعاة البقر والجزمات الطويلة . ووضع اثنان منهم على رأسيهما قبعتين من الورق تحملان الصليب المعقوف بينما حمل ثالث صليبياً . وهناك وأمام مدينتهم المهدمة التقطت لهم صورة كصور المجلات المدرسية . وهكذا كانوا يخلون

خط التماس الذي أصبح مطبوعاً على وجودهم ذاته ، كما أصبح ذكرى عزيزة وشيئاً يفهمونه ويثير دهشتهم . ثم غادروا المكان بهدوء .

وقضينا نصف ساعة أخرى وراء الساتر الرملي بانتظار توقف إطلاق النيران . ورأينا على الزاوية إلى اليمين ما كان الصحفيون يحبون أن يسموه «الأرض المحرّمة» التي لم يغامر إنسان بدخولها منذ أكثر من عام . وفي الساعة العاشرة والنصف وقف الضابط السوري ودرس خارطة كبيرة لبيروت ثم سار شمالاً إلى شارع مفتوح . فلحق به الجنود وسرنا نحن خلفهم . لكن ما رأيناه لم يكن شارعاً بأي معنى للكلمة ، بل جادة من الركام الذي هوت عليه بنايات من ثمانية أو تسعة أدوار . وكان السقف وأراضي الغرف تتدلى من بناية كانت فيما مضى متجراً ضخماً .

وسرنا وحولنا السوريون في الركام وفوق حطام الآلات الكاتبة ودمى الخياطين وأحياناً فوق قنابل يدوية صغيرة داكنة صالحة للقذف . وخيم الصمت ونحن نعبر شارعين آخرين تآكلت جدرانهما حتى بدت كالأشرطة الرفيعة . ثم وصلنا إلى واجهة حجرية صفراء محطمة تؤدي إلى قبو سفلي . وسمعنا أصواتاً في الداخل قبل أن يخرج علينا من الظلام رجل يحمل كلاشنكوف ويلبس حطة فلسطينية ، وكانت على وجهه آثار الأوساخ . فابتسم لنا على نحو ينمّ عن الخوف . وكنا قد وصلنا إلى الجهة الفلسطينية من خط التماس .

فمد الجندي السوري الأقرب منا ذراعيه كالصديق . وردّ الفلسطيني التحية فاحتضنه وأجهش في الوقت ذاته بالبكاء على كتف الجندي . وخرج فلسطينيان آخران من الظلمة بينهما فتاتان تحملان قاذفتي صواريخ . فصاح الجندي محيياً . وخرجنا من المخبأ عبر شارع ضيق إلى مدخل اكتست عتبته بالعشب . ولم يكن هذا المدخل سوى بوابة مكاتب شركة الأفلام القديمة التي أخذنا إليها الفتى المسلح ابن الثانية عشرة قبل ذلك بأقل من شهرين .

وعلى الجانب الآخر رأينا الساحة الصغيرة التي كان يجتمع فيها البرلمان اللبناني . وكان مبنى البرلمان قد احترق فانهار سقفه وأحاطت أكوام الحجارة وقطع الإسمنت بالأبواب . وكان أمام المبنى تماماً ما بقي من منبر بيروت الرومانية وهو عبارة عن حطام الأعمدة الثلاثة التي قطعها الرصاص ، فهوت في منتصف الطريق .

وأطلق المسلحون من المرابطين والفلسطينيين النار في الهواء ترحيباً بالسوريين ،وارتدت آلاف الرصاصات بعد اصطدامها بالخرائب . ولو أن المسلحين اللبنانيين لم يتحمسوا إلى ذلك باحتفالهم لكان من المحتمل أن يلاحظوا حادثاً صغيراً ولكن رمزياً ألقى ظله على وصول السوريين . ففيما كان

يجري إطلاق الرصاص ، اندفعت دبابة سورية في الشارع المحطم الذي سرنا فيه ودخلت الساحة الصغيرة . وما لبثت أن اتجهت إلى جانب الطريق ثم استدارت مرة واحدة وارتطمت عجلاتها بالركام . وبينما كان المسلحون يطلقون آخر رصاصاتهم كانت الدبابة قد توقفت على نفس باب المبنى الذي كان يجتمع فيه برلمان لبنان الديمقراطي .

وكان من السابق لأوانه أن يدرك أي إنسان المعنى الحقيقي لما حدث . فبعد ظهر ذلك اليوم ذهبنا أنا واد كودي بالسيارة إلى غاليري سمعان . وكان السوريون قد اخترقوا الساتر الرملي . ولكن حين اقتربنا تقدم إلينا فلسطيني يحمل بندقيته . وكان متعباً لا يبتسم وفي حيرة مزعجة . وسألنا : «إلى أين أنتم ذاهبون؟» فقلنا : «صحفيون» فقال : «وأين أوراقكم؟» فنظر كودي إلى المسلح ببرود وتبرم وقال : «لم نعد في حاجة إلى أوراق» وكافأ الفلسطيني قائلاً بابتسامته المألوفة الجامدة :«لقد انتهت الثورة» .

الفصل الرابع

جنة المباهج الدنيوية

«لبيروت . . .

هي من روح الشعب خمر .

هي من عرقه خبز وياسمين .

فكيف صار طعمها

طعم نار ودخان ؟

للمغنية اللبنانية (فيروز)

جارة لي عزيزة عليّ ماتت في بيروت سنة ١٩٨٦ ، ولم تمت قتلاً بل بالسرطان بعد أن قضت ستاً وعشرين سنة في طابقها الأرضي المطل على البحر في بيروت . وكانت تمضي معظم وقتها في الاعتناء بالكلاب والقطط التائهة ، فتؤويها في شقتها وتطعمها في شارع ضيق تظلله الأشجار أمام باب بيتها الحديدي . وفي يوم من الأيام التي كانت الأنباء تسميها أيام قصف متقطع ، أي معركة بالمدفعية الثقيلة ، فتصفر القذائف المتفرقة فوق بيوتنا وتقع في البحر ، وجدتها في موقف للسيارات مهجور وقذر قبالة المنزل تحاول إطعام قطة صغيرة خائفة .

وأقيمت لجارتي مراسم الوفاة اللبنانية التقليدية فنعيت بأوراق بحجم المنديل ملصقة على باب مدخل البناية وعلى الجدران وأعمدة الكهرباء المجاورة . وتوافد الجيران والأقارب والأصدقاء إلى بيتها معزّين ، وتولى ابنها تقديم القهوة ، ثم ترحّم على أمه وتحدث في السياسة . وكان جثمانها في هذه الأثناء مسجى في مستشفى الجامعة الأميركية ينتظر الدفن ، غير أن قضية الدفن كانت أمراً عسيراً ، فالعجوز الطيّبة التي كانت تعتني بالقطط مسيحية ، عاشت في الشطر الغربي المسلم من العاصمة .

وكان خط التماس بين شطري المدينة شديد الخطورة بالنسبة لعائلتها التي كانت ترغب في نقل جثمانها إلى الشطر الشرقي حيث كانت ستقام لها مراسم الجنازة . وأجريت معاملات كثيرة استوجبت توقيع المحافظ على صفحات من الأوراق عديدة قبل إقناع الشيخ الموكل بالمقبرة التي تقع وراء الجدار الخلفي للسفارة الكويتية بتخصيص بضع ياردات من الأرض تستريح فيها إلى الأبد . أضف إلى ذلك تأخر المعاملات الإدارية الناجمة عن كون جارتي مسيحية والمقبرة للمسلمين ، وعن كونها تظل مسيحية حتى بعد وفاتها . على أن الشيخ تجاوز الرسميات واعتبرها مسلمة . وهكذا صارت مسلمة بعد الموت . وهذه ظاهرة لا تحدث إلا في بيروت .

ويعمّ أثر هذه الظاهرة ـ أي تحوّل الإنسان بعد الموت إلى عقيدة أخرى ـ بيروت كلها . وهي أكثر حدوثاً في مجال القوة السياسية منها في الديانة . ويتحمل الأموات ذلك بصبر . فزعيم الميليشيا أو الزعيم السياسي لا يبلغ من القوة ما يبلغه بعد موته ، أي أن اسمه لا يحدث من التأثير ما يحدثه بعد وفاته ، حين يحاط اسمه بهالة من التبجيل على ملصق يعلق على جدار أو بوابة وعلى حواشيه باقات من أزهار التوليب والورود التي تمثل الوسام الفني لأي شهيد من المقاتلين في لبنان . فقد قُتل بشير الجميل وكمال جنبلاط ورشيد كرامي . لكن من يستطيع اليوم أن ينكر تأثيرهم القوي؟ فإخوتهم وأبناؤهم وأخواتهم جميعاً يتنافسون على تخليد عظمائهم . فلا يزالون في شرق بيروت يعرضون ملصقات عليها صورة بشير التي تطل من العالم الآخر بشعاع من النور السماوي على لبنان المثلث . وهذه الصورة تظهر الأمة عن غير قصد على شكل تابوت سيء الصنع .

الموت مهم لأن ميراثه يلزم الأحياء . فأي مسلم يعترض اليوم على أقوال خليل جرادي ، شهيد المقاومة اللبنانية الإسلامية في الجنوب ؟ وأي شيعي يقبل أو يجرؤ على مناقشة طرح جرادي القائل بأن قوى المسلمين ستحرر يوماً القدس ؟ فبالرغم من مرور سنتين على قتل رشيد كرامي بتفجير طائرته المروحية فإنه لا يزال يتحدث إلى مسلمي السنّة في لبنان ، ولا يزال يلقي على شعبه المحاضرات عن هوية لبنان العربية وأهمية الوحدة القومية والكفاح ضد الصهيونية عبر الأشرطة المسجلة التي تباع في شارع الحمراء . ولا يعترض أحد إذا تحدث بلغة عربية فصيحة وعلى وتيرة واحدة كالوعاظ ، وإذا كان سعر الشريط دولاراً ، أو إذا كان أعداؤه يعتبرونه رجل سوريا . فكلماته الآن أصبحت حكماً .

ويمكن الاستماع إلى بشير بانتظام من إذاعة صوت لبنان الكتائبية التي تبث من الساحل فوق جبيل . وبالرغم من مرور سبع سنوات على موته في حادث تفجير في مقر قيادته ، فإنه لا يزال يخاطب مؤيديه عبر الأثير ، ويمكنك أن تستمع إليهم وهم يهتفون له في التسجيلات . وكان ينادي



سناء محيدلي

بلبنان المتحرر من كل نفوذ أجنبي ، وبلبنان المستقل ، ولبنان المحترم . فمن يجرؤ اليوم أن يشك في أن بشيراً كان سيصبح رئيساً صالحاً؟ ومن هو المسيحي الذي يود اليوم أن يتذكر أن كتائب بشير هم الذين دخلوا مخيمي صبرا وشاتيلا بعد موته بأسبوع واحد فقتلوا ألفين من سكانهما ؟ في لبنان رصاصة واحدة أو قنبلة واحدة تخلّد قضية ، وترسّخ حقيقة الكلمة ، وتثبت صحة البرهان . إن الشك في الأموات تدنيس للمقدسات من نوع خاص . انظروا إلى صور أفواج الشهداء المعلقة على الجدران ، إنها صور الذين اتبع جميعهم حكمة الموتى .

تمعنوا بهاتين العينين الباسمتين المفعمتين بالأمل في صورة بلال فحص الذي كرّمته أمل فتوّجته عريساً للجنوب . إنها الصورة التي التقطها فنان أمل الحربي للحظات الأخيرة من حياة بلال الذي كان يقود سيارته المرسيدس قبل تفجيرها بناقلة جند إسرائيلية مدرعة . وبعد فترة قصيرة ابتدأ التلفزيون يذيع بانتظام برنامجاً خاصاً بالشهداء .

ولم تكد تمر بضع ساعات على تخليد سناء محيدلي نفسها بعملية انتحارية ضد جيش لبنان الجنوبي حتى ظهرت صورها على شاشاتنا التلفزيونية في شريط الفيديو ذاته الذي أعدته ليعرض بعد استشهادها . وقد سجّل قبل قليل من قيامها بالعملية . وبدت فيه مشرقة الوجه ، مبتسمة للكاميرا وهي تؤكد إيمانها بضرورة التضحية . وظهرت حتى بزينتها . كانت غاية في الجمال وهي تتحدث من عالم الغيب وعليها بزتها العسكرية وقبعة حمراء . وبدا وكأن الأموات في لبنان يبنون ممراً خاصاً بين عالم الحياة وعالم الموت . ألم يدّع الموارنة أن بشير الجميل انتشل من تحت الأنقاض حياً ، وأن شهود عيان رأوه ينقل في سيارة إسعاف تحمل الرقم تسعين كما ادّعوا ،على الرغم من أن التحقيق أثبت أن لا وجود لأي سيارة إسعاف في بيروت تحمل هذا الرقم . ثم ألا يسود الإعتقاد أن بشيراً سيعود يوماً إلى بيروت في الساعة الظلماء وكأنه الملك «آرثر» الكتائبي .

والإمام موسى الصدر حيّ أيضاً كما يقول الشيعة في الجنوب وكان قد اختفى في عام ١٩٧٨ . ويظهر في الملصقات بوجهه السمح وهو ينظر موافقاً إلى صور الشهداء من الشيعة . وقد زاد إختفاؤه من تعظيم مقامه في قلوب الناس .

أما بيروت فهي على النقيض من ذلك . فسبب اليأس منها هو قدرتها على التكيف . فهناك من يثني على شجاعة شعبها وعلى عزيمته في مواجهة اليأس ، غير أن مأساتها تكمن في هذه القدرة على البقاء وعلى التجدد الدائم . فلو سمُح للمدينة أن تموت بإغلاق مطارها نهائياً وتجميد وارداتها وصادراتها وتحطيم عملتها واستسلام شعبها ، فإن الحرب ستنتهي . لقد طال أمد هذه الحرب إلى حد أنه صار من الصعب تصور بيروت بلا حرب . فإذا عشت فيها بضعة أشهر فإنك ستبدأ في رؤية الوضع

كما يراه اللبنانيون ، أي أنك ستراها عاصمة طبيعية . لكن إذا أنت زرت أوروبا وطرت إلى جنيف أو باريس فإنك ستشعر بأنك تعيش داخل علبة زجاجية في عالم اصطناعي منفصل عن الوجود الحقيقي : أي عن إنقطاع التيار الكهربائي ، وعن حرق النفايات في الشوارع ، وعن حاملي السلاح ، وعن عدم الإستقرار السياسي الدائم .

ويصعب على اللبنانيين أنفسهم فهمُ قلبِهم الأمور إلى عكسها بتعلقهم ببيروت . فإيمانهم الطويل بلبنان ـ لبنان الديمقراطي الريفي الذي لا وجود له ـ لا يمكّن أكثرهم من الوقوف على سبب ذلك البؤس الذي يعيشون فيه بين أمة قبرت أكثر من مئة ألف شخص خلال أربع عشرة سنة . وربما كان هذا هو الذي يفسّر نجاح فيروز . فكما أن أهالي لندن وجدوا عام ١٩٤٠ عزاء في الإستماع إلى صوت فيرا لين وهي تتغنى بالعنادل في حي بروكلين ، فإن اللبنانيين الذين يعيشون اليوم على بعد آلاف الأميال من وطنهم ، مستعدون لدفع آلاف الدولارات في السوق السوداء ثمن بطاقات لسماع فيروز ، أحب وأفضل المغنيين لديهم ـ وهي تغني لبيروت :

لبيروت في قلبي سلام
وقُبل للبحر والغيوم
لصخرة كأنها وجه بحار قديم
هي من روح الشعب خمر
هي من عرقه خبز وياسمين
فكيف صار طعمها طعم
نار ودخان؟

عاشت بيروت كالبلاد كلها أكذوبة . فديفيد روبرتس رسم صورة لبيروت الجاثمة في جبل صنين ، بجاداتها المشجرة وهي تلمع عند الأصيل ، وسراياها التي تطل كالقلعة على الخليج . وتجوّل ت . ي . لورنس في شبابه بمدينة بيروت واستلطفها . وكانت بيوتها مسقوفة بالقرميد الأحمر ، وشوارعها ضيقة . وهناك ألبوم صور منتزعة من البطاقات البريدية القديمة تظهر مدى روعتها الغابرة حين كان الترام البني الفاتح يمر أمام أكشاك الخفر التركية وواجهات الفيلات التي تزينها الدهاليز . وكانت الشوارع القديمة في وسطها مكسوة بالأزهار . وفي صورة التقطت لعين المريسة حيث تقوم البناية التي أسكن فيها حقول تمتد إلى البحر وبضعة بيوت شرقية رائعة بنوافذ ذات ستائر معدنية مشجرة وأعمدة حجرية رفيعة تقوم عليها الشرفات .

لكن للأشباح وجوداً هنا أيضاً . فبينما كنت أقضي إجازتي في لندن عام ١٩٨٤ ، توقفت أنا وصديق لبناني بعد ظهر يوم ممطر عند مخزن للجرائد القديمة . وكنت عندئذ أبحث عن تقارير معاصرة عن المجاعة بايرلندا وعن ديفيد أوكونيل ، فوقع نظري على عدد ٢٩ تموز/ يوليو عام ١٩٤٠ من صحيفة «ستاندارد» التي كانت تصدر في بلاكفايرز . ووجدت على الصفحة الثالثة من العدد نذيراً آخر بأحداث المستقبل في تقرير صغير داخل عمود واحد يقول :

«إن الفوضى سيدة الموقف . أملاكنا وحياتنا في خطر . وليس هنا من يستجيب لدعواك ، والجرائم يقترفها أناس يتمتعون بالحصانة . لقد ترك عدد من الأوروبيين بيوتهم بعد أن أوقفوا أعمالهم طلباً للحماية في بلاد أخرى» .

ترى ما الذي يولد هذا التكرار التاريخي ؟ يبدو أن شيئاً ما في طبيعة لبنان يسبب حدوث هذه الظواهر . ولو جردنا الكلمات من نحوها الفكتوري لكانت هي التقرير الذي كتبته قبل دخولي هذا المكان ببضعة أيام .

ومرة أخرى وجدت في مجلد يشتمل على صور قديمة ، صورة مؤرخة من القرن التاسع عشر للقصف الإنكليزي الفرنسي لمدينة بيروت . وكانت تحتها كلمات تقول بأن أصداء القصف كانت تسمع حتى في صيدا . واشتريت في بيروت عدة بطاقات بريدية قديمة ممزقة على إحداها صورة سفينة حربية صغيرة ذات مدخنة مستقيمة ترسو تحت سماء ملبدة بالغيوم عند جبل صنين . وكانت تحتها كلمات تقول : «السفينة الحربية عون الله قبل القصف الإيطالي في ٢٤ شباط/ فبراير ١٩١٢ بخمس دقائق» . ولا ريب في أن بيروت مدينة قديمة لطيفة بالرغم من أن جامعاتها معروفة بالجدية والاجتهاد الزائد والقسوة . وفي صور ذلك الزمن يبدو المبشرون البروتستانت الذين أسسوا الجامعة الأميركية سنة ١٨٦٦ في غاية الإتزان . ونرى الرئيس «بلس» في مكتبته الخاصة ، في ظل شمعدان نحاسي ، ويبدو رجلاً وقوراً وعيناه وشارباه يميلان بإتجاه واحد . وعلى الأرض سجاجيد عجمية ، وعلى الطاولات أكوام من الكتب . وبعد أكثر من قرن من الزمن قتل أحد خلفائه في المكان عينه على عتبة هذه الغرفة . ولو عاد بلس لما تعرف في المدينة التي توفي فيها إلا على القليل ومن ذلك حرم الجامعة التي كانت تزهو بقلعة صليبية هدمت في أوائل هذا القرن واستخدمت حجارتها في أبنية أخرى . واختفت كذلك السطوح ذات القرميد الأحمر وكذلك النوافذ ذات القضبان الحديدية ، والأعمدة والشرفات المزخرفة . وبين سنة ١٩٥٠ وسنة ١٩٧٠ هدم المضاربون بيروت لإقامة مجمعات سكنية عالية أحدها إلى جانب الآخر دون مراعاة للصحة ، وفي أكثر الأحيان بدون ما يكفي من الماء . فجاءت المدينة حارة بلا أشجار ، فيها العرق ولكن بلا ياسمين .

في هذه المدينة الحديثة المحطمة حاول اللبنانيون سنة ١٩٧٦ أن يعيدوا خلق حلمهم . فواجهة الثروة والترف المرئية التي تمثلت بالفنادق الفخمة في شارع فينيسيا والسان جورج والمصارف والمكاتب التجارية ، كانت قد اختفت وحلت محلها بؤر الفقر والحرمان والأحياء الفقيرة مثل : حي السلم والشياح وبرج البراجنة والغبيري وحارة حريك وصبرا وشاتيلا حيث يعيش اللاجئون الفلسطينيون مع أولادهم وبناتهم مع من فقدوا بيوتهم في الحرب الأهلية ، واللاجئون الشيعة القادمون من القرى الجنوبية المهدمة . فكل هؤلاء جاؤوا ليتقاسموا البؤس مع الجماهير التي لا تخضع بالكلية لرقابة الدولة .

لكن الزعماء المسيحيين والحكومة السورية التي بذلت كل جهد لبقائهم لم يكونوا مصممين على إزالة أسباب الحرب الأهلية بقدر ما كان يهمهم محوها من الذاكرة . ومنذ هذا الوقت أطلق اللبنانيون على تلك الأشهر السبعة عشر الرهيبة إسم «الحوادث» وكأنها نتيجة لكارثة من صنع الطبيعة لا الإنسان . وصاروا يتحدثون عن الزمالة التي ولدتها «الحوادث» لا عن المجتمع الذي دمرته . وبما أنه لم يكن بينهم من يرغب في التحدث عن أسباب الحرب ، فإنه كذلك لم يحاول أحد استخلاص الدروس من تلك المأساة . واحتلت القوات السورية مكاتب النهار والسفير ـ أهم جريدتين تصدران في بيروت ـ وظهرت في جميع الصحف صور الأبنية التي كان يجري ترميمها ، لكنها خلت من أي نقاش حول إعادة البناء السياسي أو حول جدوى الميثاق اللبناني وقيمته .

وحتى اضطرابات الطعام المصرية في عام ١٩٧٧ اعتبرت حساسة إلى حد أن الصحف اللبنانية تجاهلتها تماماً . وصارت الصحف الأجنبية تخضع لرقابة شديدة . فجريدة «هيرالد تريبيون» الدولية مثلاً صارت عند الباعة وفي صفحاتها في كل يوم «نوافذ» . وصارت مجلة ال «ميدل ايست» التي تصدر بالإنجليزية تصل إلى أكشاك الصحف وفيها صفحات ناقصة .

وكذلك فإن الدوائر الكتائبية العاملة في الخدمة المدنية قامت بإشراف السوريين بإنشاء مكتب للرقابة في بيروت الشرقية . وصدر أمر يقضي بأن تحال إليه لا الصحف المحلية فحسب ، بل ورسائل مراسلي الصحف الأجانب .

وكان زاهي بستاني ـ وهو من أبرز مراقبي الصحف في الحكومة اللبنانية ـ يستقبل الصحفيين بإبتسامة دافئة ومصافحة قوية . وهو رجل وسيم طويل القامة له شارب كشارب الجنرال فوش ويتقن الإنجليزية ، ويرتدي بزة رمادية ليس عليها من «موضة» الشباب سوى ربطة عنق كبيرة تحمل صورة إمرأة بألبسة القرن الثامن عشر .

كان زاهي البستاني مؤدباً إلى حد قسر النفس على ذلك ، ولديه عشرون موظفاً وكلهم مؤدبون . على أنه لم يكن بينهم سوى اثنين من المسلمين . وكان من المحظور على أي صحيفة محلية كانت أو أجنبية أن تذكر ذلك . فالمخالف كان يعرّض نفسه لعقوبة قد تصل إلى السجن خمس سنوات في أحد السجون التي لا وجود لها . وكان زاهي البستاني يصرف أعماله في غرفة مستطيلة الشكل في أعلى الدرج ، سدت نوافذها بألواح من الخشب المعاكس .

حدث أن كتبت رسالة بريئة تتضمن تقريراً قصيراً عن محاولات الرئيس سركيس جمع السلاح من الميليشيات . ويبدو أن ذلك أزعج البستاني الذي قال لي : «دعني أشرح لك الأمر . إني أفهم أن يرغب قراؤك في إنكلترا في معرفة الإنتماءات السياسية للناس هنا . لكننا نشعر بأنهم الآن يعرفون جميع الواجهات السياسية في لبنان . ولهذا السبب لم نعد نشير إلى الناس بوصفهم يساريين أو يمينيين . بل نكتفي بتسميتهم بأحزابهم السياسية فنقول حزب الوطنيين الأحرار وحزب الكتائب فسألته : «ولكن كيف نميز بين المسلم والمسيحي» ؟فأجاب : «لقد كانت الحرب بين اللبنانيين والفلسطينيين» .

وهنا التقط البستاني قلماً غليظاً أحمر وأخذ يحذف مقاطع من تقريري . على أنني أرسلت التقرير إلى جريدة «التايمز» بعد أن أعدت إليه المقاطع المحذوفة بحروف مائلة . وفي اليوم التالي نشرته الصحيفة كاملاً . لقد كان عمل البستاني جزءاً من إعادة خلق أكذوبة لا بأس بها مثل كل الأوهام عن لبنان . فقد قام بحذف ما تحته خط فيما يلي :

> «ينتظر أن يجري العميد محمد الخولي رئيس المخابرات العسكرية السورية في اليومين التاليين محادثات مع الرئيس اللبناني سركيس لوضع الترتيبات النهائية لجمع الأسلحة من الجيوش التي كانت تتحارب في الحرب الأهلية طيلة تسعة عشر شهراً . . . . فمنذ انتهت الحرب في نوفمبر عندما قامت قوة السلام التابعة للجامعة العربية وأكثرها من السوريين بإحتلال لبنان تكررت المحاولات التي بذلتها السلطات لإقناع مختلف قوات الميليشيا اليمينية واليسارية بتسليم مدفعيتها الثقيلة ولكن دون جدوى . .» .

وبرر البستاني اعتراضه على ما حذفه بأن الخولي كان عقيداً وليس عميداً وأنه لم يكن رئيساً للمخابرات العسكرية السورية ـ وأنه لا تجوز الإشارة إلى القوات السورية في إطار الجامعة العربية لأنه كان بين تلك القوات سودانيون وسعوديون ـ وأن الإشارة إلى يمين ويسار تولد الإنطباع بأن هناك «إنقسامات» .

ثم أخذ البستاني يعتذر وهو يقطع جملة طويلة تشير إلى محاولات الفلسطينيين في بيروت الإحتفاظ بأسلحتهم وقال : «إنك لا تستطيع أن تقول ذلك» .

وأُخضعت للمراقبة كل إشارة إلى ثكنات الكتائب في شرقي بيروت ، كما أخضعت لها الإشارة إلى ارتفاع عدد القتلى الذي كان عندئذ أربعين قتيلاً سقطوا في حادث انفجار قنبلة قبل ذلك بقليل . فقال البستاني : «لقد سمعنا ما فيه الكفاية عن القنبلة» ولم يسمح بالإشارة إلى جنازات الموتى وقال : «إسمع لسنا مجتمعاً طائفياً . فأنا مسيحي وهذا ـ وأشار عندئذ إلى رجل قصير كان قد دخل الغرفة ـ مسلم» فسألته عندئذ : «لماذا إذن يرفض سائق التاكسي المسلم أن يوصلني إلى شرق بيروت ؟ ترى هل كان يفعل ذلك لو لم تكن بيروت منقسمة؟» فضحك البستاني وقال :«تلك مشكلته هو» . فقلت : كيف يمكن للصحافة الغربية أن تواصل عملها في ظل رقابة شديدة كهذه ؟ فقال : «هذه مشكلتكم أنتم» وعندئذ توقف عن الإبتسام . ولم يكن هناك ما يدعوه إلى ذلك .

ولما علم الرئيس سركيس أن «التايمز» نشرت تقريري عن أعمال البستاني طلب العدد الذي كان قدحرم من قراءته ككل شخص آخر في بيروت . وعندما اطلع على المقال أمر فوراً برفع الرقابة عن تقارير الصحف الأجنبية ، فكان ذلك من الإنجازات المستقلة القليلة التي قام بها الرئيس سركيس خلال ولايته .

على أن اللبنانيين لم يكونوا وحدهم الذين يُخرجون الوقائع بقوالب مبتكرة . فبعد أن احتل الفلسطينيون بلدة الدامور المسيحية جنوبي بيروت وعلى بعد اثني عشر كيلو متراً منها أسكنت منظمة التحرير الفلسطينية الذين نجوا من مجزرة تل الزعتر في بيوت أهلها المدمرة .

واستغرق التمهيد لزيارتي للدامور بعض الوقت بسبب الصعوبة لا في الوصول إلى البلدة ، بل في الوصول إلى الضابط الفلسطيني الذي لا يتحدث إلى صحفي ما لم يثبت له أنه صحفي بالفعل وليس جاسوساً . وكان برهاني مصطفى ، وهو مواطن فلسطيني يميل إلى السمنة ، متوسط السن ، له شارب أسمر ، وعادة يغيظ سامعه لأنه يستخدم تعابير إنجليزية قديمة للتدليل على سهولة استخدامه للغة . وبعد أن انطلقنا بسيارتنا باتجاه الدامور أخذ المطر يهطل بغزارة على الزجاج الأمامي الواقي ، فتحولت شوارع الدامور إلى أنهر ، مما اضطرنا أنا ومصطفى والمسلح طوال ما تبقى من الطريق إلى الصراخ ليرتفع صوتنا فوق صوت المطر المنهمر على سقف السيارة . وكانت الدامور غارقة في الفقر والحزن ، ووجوه أهلها متجهمة حزينة . وكان من الصعب أن نجد في تلك القرية المنكوبة شخصاً لم يصبه الموت في أهله . وكان الرجال فيها قلة ، والنساء قد هرمن قبل الأوان . وفيما كان بعضهن

يطبخ ، كان يحيط بهن عشرة أو إثنا عشر وربما خمسة عشر من الصبيان . وكان في كل كوخ رطب بارد قنديل زيت يخبو ويسطع نوره وصورة مكبرة ومبروزة لعريس متوسط العمر يلبس بذلة وربطة عنق .على أن أكثر الصور كانت صور فتيان ينظرون بارتباك وعداء إلى الكاميرا . وكانوا جميعاً من الشهداء الذين قتلوا في الدقائق الأخيرة من حصار تل الزعتر عندما اقتحمته الميليشيات المارونية واقترفت مجزرة ذهب ضحيتها غالبية الذين بقوا في المخيم .

قال مصطفى وسيارتنا ترشش الماء بإزاء محطة بنزين فاخرة : «هذه القرية شاهد على ما فعله مقاتلو الكتائب . وكل فرد فيها من تل الزعتر ، وفقد واحداً من أسرته . لقد قتل الكتائبيون أقرباءهم . إنهم حيوانات» لكن ألم ترتكب هنا في الدامور مجزرة أيضاً؟ لقد كانت في هذه القرية الساحلية بيوت جميلة واجهاتها من الحجر الأصفر وعلى سطوحها عرائش العنب . قال مصطفى : «لقد نسفها الكتائبيون خلال الحرب وقبيل مغادرتهم لها» .

على أن ما قاله مصطفى لم يكن صحيحاً . ذلك أن الفلسطينيين الذين اقتحموا البلدة في كانون الثاني/ يناير من عام ١٩٧٦ هم الذين هدموها ، وذلك قبل عملية تل الزعتر ، وبعد مضي يومين على المجزرة التي ارتكبها الكتائبيون في الكرنتينا . فانتقم الفلسطينيون في الدامور ، وكان انتقامهم بلا رحمة . وعلى الرغم من فرار الكثير من المسيحيين عن طريق البحر ، فقد بقي منهم ثلاثمائة وخمسون شخصاً ، بينهم عشرون من مقاتلي الكتائب ، والباقون من المدنيين . وقال أناس آخرون غير مصطفى ، أن عرفات أراد فيما بعد إعدام القائد الفلسطيني الذي سمح لرجاله بالإنتقام من المسيحيين . فقد أعدموا الكتائبيين العشرين وأوقفوا المدنيين صفوفاً أمام جدران بيوتهم وأمطروهم برصاص الرشاشات ثم نسفوا بيوتهم بالديناميت . وبقيت تسع وأربعون جثة مطروحة أياماً في الطرقات . وكانت تحمل شواهد واضحة على أن الذين قاموا بالقتل هم الفلسطينيون . واغتصبت نساء كثيرات وقتل الأطفال بإطلاق الرصاص خلف رؤوسهم . أما من بقي من المدنيين وعددهم مئتان فقد تواروا عن الأنظار . وكان بين القتلى أسرة من آل حبيقة فيها فتاة قيل أن شاباً يدعى إيلي سيخطبها . وسوف يتردد اسم إيلي فيما بعد .

على أن النهب لم يقف عند ذلك الحد . فالشبان القساة الذين يسيرون في أثر كل جيش من جيوش الحروب الأهلية شقوا طريقهم إلى الدامور . وكان بعضهم يتعاطى الحشيش كما كان الكتائبيون يفعلون في الكرنتينا . أما في الدامور فكان كثرة منهم من المسلمين اللبنانيين ،وبينهم عدد من «التحالف اليساري» التابع لجنبلاط ، وبعضهم من الفلسطينيين . وفي وقت لا نعرفه بالتحديد صب هؤلاء غضبهم على المقبرة المسيحية القديمة ، فأخرجوا التوابيت من القبور ، وحطموا أبواب

الأقبية التي يدفنون فيها ، وألقوا بأجيال الدامور في ساحة المقبرة ـ وبقيت هناك جماجمهم وجثثهم المتآكلة وعليها آثار الألبسة التي كانوا يلبسونها يوم الأحد في القرن الماضي قبل أن تظهر إلى الوجود فلسطين الخاضعة للإنتداب .

لم يقل مصطفى شيئاً عن هذا كله . وبدلاً من ذلك صعد الدرب الضيّق المؤدي إلى كنيسة الدامور . وترامت إلى أسماعنا أصوات أطفال . وكانت هذه الكنيسة قد أحرقت وظهرت على أحد جدرانها الخارجية صورة كبيرة لفدائيين من فتح يحملون بنادق أ ك ـ ٤٧ ، ويجتازون بعض السفوح الوعرة في تلال منخفضة . وكانت على الجدار أيضاً صورة زيتية كبيرة لعرفات ، رسمت بدقة متناهية ، وتظهر فيها حتى ذقن القائد التي لم يمسها منذ ثلاثة أيام . وكانت قبالة الجدار ساحة مدرسة من الإسمنت ، إذ أن الكنيسة المهدمة ومسكن الخوري المهدمين تحولا إلى مدرسة لأطفال «تل الزعتر» تضم ثلاثمائة طفل وتتخذ من غرف نوم الخوري صفوفاً مدرسية . وبينما كان في إحداها درس في اللغة العربية كان في غيرها درس في تاريخ فلسطين ، وعلى كل من جدرانها خارطة لفلسطين في عهد الإنتداب ونجمة ذهبية حمراء تشير إلى مكان مقدس . وفي صف للرسم كان تلميذ في الحادية عشرة من عمره يقوم برسم صورة شاملة لتل الزعتر تدل على أن لصاحبها قدرة احترافية حقيقية على تمييز التفاصيل الميكانيكية لكل بندقية ومدفع مضاد للطائرات . أما صور الأشخاص في الرسم ـ أي صور الفدائيين الذين يحملون الأسلحة أو يقومون عليها ـ فكانت صوراً ثانوية . وظهر في الصورة جامع على قبته هلال ، وكنيسة على برجها صليب . فمن هو الذي أشار على الصبي بأن يدخل في رسمه هاتين المؤسستين الأساسيتين في تاريخ الشرق الأوسط؟ وما لفت نظرنا بوجه خاص هو منظر النفاثات الإسرائيلية وهي تقصف المخيمات . وكان من الواضح أنها إسرائيلية إذ إن نجمة داود رسمت على هياكلها وأجنحتها . ونرى في الصورة القنابل وهي تتساقط من الطائرات . وقدم لي الصبي الرسم ولكنني شكرته من دون أن أقول له أنني أعلم كما يعلم هو في الأرجح أن الطائرات الإسرائيلية واللبنانية لم تقصف تل الزعتر خلال الحصار .

ويبدو أنهم علّموا الصبي شيئاً غير الحقيقة أو أنه كاللبنانيين اختلق صوراً جديدة للواقع الذي عاناه . وكان يجري اعداده ليكون فدائياً ، وذلك لأن هذه المدرسة كانت مدرسة ابتدائية لتدريبهم من أجل ذلك الغرض . وهذا يفسر لنا لماذا كانت الخارطة على الحائط ، ولماذا استخدمت المدرسة للعرض العسكري .

وفي تلك الأثناء وصل أحد قادة فتح للإطلاع على تمارين الطلاب العسكرية . وكان طويل القامة يلبس البزة الخضراء الغامقة التي يلبسها فدائيو فتح . وأخذ ينظر إلى التلاميذ بطريقة أبوية مبالغ فيها ويكثر من الإبتسام .

وتوافد الطلاب والطالبات على الساحة بزيهم الكاكي ، ووقفوا صفوفاً على جهات الملعب الثلاث . أما في الجهة الرابعة ، فقد وضع عمود خشبي بشكل أفقي ويرتفع قدماً عن الأرض ويرتكز طرفاه على عمودين حديديين . وأخذ كل من الطلبة يركض نحو العمود ثم يهجم عليه ويزحف تحته وسط هتاف عسكري يردد «فلسطين» . فإذا زحف بدون أن يمس العمود هتف له زملاؤه . أما إذا إصطدم بالعمود وأسقطه خيّم صمت محزن .

وتساءلنا إذا كانت هذه هي الطريقة التي يفترض بهم أن يهاجموا بها إسرائيل . هل ينتظر من كل فدائي صغير أن يزحف تحت السياج الكهربائي على الحدود اللبنانية بعد أن يقوم بالطبع بالقفزة الإلزامية ، ومن ثم يكشف عن هويته فيصرخ بأعلى صوته : فلسطين ؟

غير أننا كنا على خطأ ، فهؤلاء الأولاد كانوا مدربين . ولكن ما من أحد ، لا هم ، ولا نحن ، ولا مدربهم ، ولا ذلك الرجل صاحب البزة الخضراء الذي يكثر من الإبتسام كان يعلم أنهم يدربون لحدث أعظم ، أعني لهجوم يشنه الإسرائيليون عليهم وليس العكس ، وأن الإسرائيليين سيأتون إلى الدامور ويطأون أرض هذا الملعب الصغير .

وسرّ مصطفى ، والتقطنا صوراً للأولاد . وتجاوزنا في الظاهر الموضوع المحزن وهو تاريخ الدامور ذاتها . وتوقف المطر ، وعبرت سيارتنا أزقة البلدة نزولاً إلى الطريق العام . وسألت مصطفى : «لماذا قتل الفلسطينيون المسيحيين هنا؟» ، فسكت مصطفى برهة ثم أجاب بقوله : «روبرت ، لا تصدق الدعاية التي سمعتها عنا ، نحن الذين عانوا الكثير . ألا تدرك ما يمثله هؤلاء الأطفال ؟» .

وعاد المطر يتساقط بغزارة . وعندما وصلنا الطريق لم تعد مسّاحات الزجاج الأمامي للسيارة قادرة على منافسة المطر المدرار . وكنت أسوق السيارة . فقال مصطفى الذي كان يجلس على المقعد الخلفي بجانب المسلح : «قد تفاجأ عندما تعلم أن المسيحيين لم يترك جميعهم الدامور . فقد بقيت فيها بعد قدوم الفلسطينيين امرأة مسيحية عجوز لا تزال تعيش في بيتها» . فسألته : «وماذا تفعل هذه المرأة ؟» فأجاب : «إنها تربي العصافير الصغيرة ، بعضها يعيش في أقفاص ، والبعض الآخر صار أليفاً ويأتي إليها لتطعمه . إننا جميعاً نحبها» . وسكت مصطفى مرة أخرى . وسمعت المسلح في المقعد الخلفي يحاول أن يكتم ضحكه . وعندما سألته عما يضحكه أجاب وهو يضحك بصوت أعلى ربما بالرغم منه «المرأة مع العصافير ؟ لقد أصابها الجنون» . فأدرت وجهي . لكنه هو ومصطفى واصلا مرحهما .

وبعد بضعة أيام حظيت الدامور بزيارة من عرفات الذي كان يريد أن يتفقد أسر الشهداء . ولم يُدعَ

رجال الصحافة لسبب وجيه وهو أن لاجئي تل الزعتر لم يكونوا جميعاً قد تبنوا الطريق الثوري إلى الواقع كالصبي الرسام إبن الحادية عشرة . كانوا يذكرون أن عرفات طلب من الرجال بتل الزعتر أن يواصلوا القتال عندما اشتد عليهم الحصار وأصبح وضعهم ميئوساً منه . كانوا يذكرون نداء عرفات لهم بأن يحولوا تل الزعتر إلى «ستالنجراد» . وكان بعضهم يدرك أن أسرهم ماتت لأن عرفات كان في حاجة إلى شهداء . وعليه فعندما وصل عرفات معتمراً كوفيته وفي وسطه مسدسه تجمع عدد من النساء كما روى الشهود أمام أكواخهن وصرخن «خائن» وقال آخرون أنه قذف بالخضروات الفاسدة . ولم يكن مصطفى هناك ليشهد هذه التحية العكسية لشجاعة تل الزعتر .

على أن خرائب الدامور أمّنت لساكنيها الجدد على الأقل نوعاً من الحياة الطبيعية . لكن لا يمكن أن نقول الشيء ذاته عن مخيمات بيروت . فالشتاء دائماً شديد القسوة على سكانها . وفي تشرين الثاني/ نوفمبر عام ١٩٧٦ ضربت عواصف الشتاء المبكر بيروت بقسوة متناهية غير عادية . فغمرت المياه مئات الأكواخ بمخيم صبرا حيث يعيش ثلاثون ألفاً في شقاء الرطوبة داخل جدران فقدت بعض أجزائها وتركت القذائف آثارها عليها . والشيء الوحيد الذي يوحي من الخارج بأن فيها بشراً هو سقوف التنك المثقلة بالحجارة للوقاية من العواصف التي تضرب البيوت كما تضرب المظلات المحطمة . ومع هذا فإن الشوارع التي تكاد تغمرها المياه تعج بعشرات الأطفال الذين يطارد بعضهم بعضاً في المياه التي تتدفق على جدران البيوت الحجرية ذات السقوف الصدئة . وأطلت من النوافذ المظلمة وجوه الأطفال الذين أرادوا رؤية زائريهم . وكان الكبار يحملون أطفالاً عليهم بيجامات واسعة جداً .

عندما بنت منظمات الأمم المتحدة الأكواخ الأصلية للمخيمات عام ١٩٤٨ لم تكن تعلم أن صبرا يقع في منخفض وقد يصبح مستنقعاً عند هطول الأمطار . وعليه فقد بلغ عمق بعض الشوارع ستة إنشات ، وغطت السيول المجارير المفتوحة ، ولهذا كان كبار السن وبعضهم حفاة يتعثّرون في الوحل . وكانت روائح المجارير تنبعث من الشوارع والبيوت . ولا يحتمل أن ينسى الفلسطينيون ما عانوه من الحرب الأهلية اللبنانية . ويقدر عدد القتلى في مخيم صبرا من جراء القصف خلال سنتي ١٩٧٥ و ١٩٧٦ بألفين بين طفل وإمرأة ، مع العلم بأن عشرة في المئة على الأقل من السكان البالغ عددهم ثلاثين ألفاً كانوا لبنانيين . وجميع البيوت متشابهة .فكل منها بناء جاهز يضم غرفتين ومطبخاً ، لكن لا كهرباء ولا ماء . والإضاءة بالقناديل والشموع . وفي مداخل البيوت سجاجيد تلاشت ألوانها منذ زمن طويل وأخذت تتلألأ بفعل الرطوبة . وقد ترك قصف الكتائبيين لها أكواماً من الأكواخ المحطمة والأخشاب المحترقة هذا بالإضافة إلى أضرار أخرى .

إن السيدة حسناوي امرأة جميلة في الخامسة والعشرين من عمرها . تزوجت في سن الثالثة عشرة ولها سبعة أطفال كانوا حولها وثيابهم تقطر ماء بسبب المطر . ووقفوا يستمعون بينما كانت تتحدث بلا انفعال وحتى بابتسام عن إسقاطها لجنين خلال ذلك العام في ليلة من ليالي القصف . قالت : «كانت هناك جراذين كثيرة ، فخاف الأطفال وصاروا يهبون من نومهم وهم يصرخون» . ومرت ربع ساعة قبل أن تذكر هذه السيدة أن ابنها الأصغر ، الذي كان في شهره السابع أصابه الشلل خلال القصف وتوفي .

وبينما كانت تتحدث وصل بعض الفلسطينيين . فنظروا إلي باهتمام ولكن بدون تعليق . وأخذوا يهزون رؤوسهم علامة على موافقتهم عندما قالت السيدة بأنها ستعيش في «فلسطين الحرة» . إذ كان الفلسطينيون حتى عندما يتركون المخيم يسببون مشكلات . فمنظمة التحرير كانت تدعي أنه إذا كان هناك من يريد ترك المخيم من اللاجئين فهم قلة لا تذكر . ولم تكن كما تقول تريد لشعبها أن يهربوا . ولهذا كان على من يرغب في ترك مخيم صبرا ـ حتى ولو تعرض للقصف وأصبح سكانه في خطر ، أن يحصل على إذن من «لجنة الشعب» التابعة لحركات المقاومة الفلسطينية . فإذا رفض الإذن تعيّن على طالبه ـ رجلاً كان أو إمرأة ـ أن يبقى في المخيم . وقد كشف البحث المستمر عن أنه إذا ترك أحد المخيم ثم أراد العودة إليه فإنه يحرم بشكل آلي من حصته من الطعام ومن البطانية المجانية المقررة ـ وهذا عقاب قاس لأن عدد من يرغبون في ترك المخيم قليل جداً .

وأسهب رجال منظمة التحرير ـ ونقول منظمة التحرير لأن الذين وفدوا على المخيم كانوا موظفين فيها ـ في وصف «المركزية الديمقراطية» التي تمارسها لجنة الشعب . وكان الفدائيون يقفون في المخيم وراء أكياس الرمل في نقط تبعد كل منها عن الأخرى خمسين ياردة ، أو على سطوح البيوت القليلة المسقوفة بالإسمنت . وكانوا جميعاً يحملون الأسلحة ، وعليهم بزات يمكن تمييزها بسهولة لأن مخيم صبرا حُشر بدون اعتبار لأمنه ونظافته بين مختلف الفصائل الفلسطينية المتنافسة . وكان رجال فتح يرتدون جاكتات الميدان وبناطيل خاكية وقبعات حمراء ، بينما كان رجال الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين بقيادة جورج حبش يرتدون «الأنوراك» الأسمر . وكان رجال الصاعقة يرتدون بزات مموهة وعلى أكتافهم أحزمة الذخيرة والكوفيات الفلسطينية . وكان هؤلاء فلسطينيين لكن يمثلون السوريين في صبرا وهي حقيقة ثابتة لا يفترض أن يعترف بها أحد .

على أنه لم يكن في الإمكان أن تجد كفاحاً غير منظم أكثر من الحرب الدائرة في جنوبي لبنان . إذ لم يكد السوريون يخمدون الحرب الأهلية حول بيروت حتى نشب القتال مرة أخرى بين الفلسطينيين والإسرائيليين . وفي البداية عرض السوريون حماية جميع الأرض اللبنانية حتى الحدود

الإسرائيلية . لكن هذه الفكرة لم ترق للإسرائيليين الذين اخترعوا ما أسموه ب «الخط الأحمر» الذي لا ينتظر من السوريين تجاوزه . فإذا تجاوزوه فإن إسرائيل حسب ما جاء على لسان الناطق الإسرائيلي بتل أبيب «لن تقف متفرجة» .

وكان هذا الخط الأحمر واحداً من خطوط كثيرة مثله رسمت بسرعة على خرائط لبنان خلال عقد السنوات التالي . ولن تكون هذه هي المرة الأخيرة التي تستخدم فيها إسرائيل لهجة التهديد . فخلال السنوات القليلة التالية أعلنت الحكومة الإسرائيلية مراراً أنها «لن تقف متفرجة» إذا قطع السوريون «الخط الأحمر» ، وإذا هوجم المسيحيون ، وإذا لم يغادر الفلسطينيون بيروت ، وإذا استمر المقاتلون اللبنانيون في مهاجمة القوات الإسرائيلية . لكن تبين أن الخطوط الحمر كانت عقيمة . فبعد أن ثنت إسرائيل السوريين عن سحق الفلسطينيين في جنوب لبنان فإنه صار عليها أن تتولى ذلك بنفسها . ففي البدء وسع السوريون المنطقة التي يسيطرون عليها حتى معامل التكرير في الزهراني على الطريق الساحلي بين صيدا وصور . وتمركزت فصيلة منهم في الخيام في حرج صغير شرقي النبطية ، بحيث أصبحوا على بعد ستة أميال تماماً من أقرب نقطة من الحدود الإسرائيلية . وكانت تقف إلى جانب الحرج ناقلة جند سورية مدرعة وخلفها دبابة ت ـ ٥٤ مغطاة بالقماش المشمع بحيث لم يظهر منها سوى ماسورة مدفعها . لكن بوصف هذا الموقع متقدماً فإنه كان ينقصه الكثير . وكنا كلما مررنا به ـ لأنه لم يكن يبعد سوى ثلاثة أميال من قلعة الشقيف ـ يسألنا جاويش أو عريف باهتمام إذا كنا على علم بشيء لا يعرفونه . إذ كان الواحد منهم يعتقد أننا ما كنا لنتواجد قرب النبطية لو لم نكن نتوقع هجوماً إسرائيلياً ؟

لقد كانوا في وضع لا يحسدون عليه . ثيابهم مبللة بالمطر ، وأحذيتهم الطويلة ملطخة بالوحل ، وأحزمة الذخيرة التي يحملونها في أوساطهم أو على أكتافهم مغلفة بالشريط اللاصق لحمايتها من الماء . وكان عليهم أن يرابطوا يوماً بعد يوم في نقاط حراستهم المعرضة للرياح . ولم يكن لديهم من تسلية سوى الذهاب بين حين وآخر لجلب المؤن من النبطية التي لم يكن فيها سوى مطعم واحد وكراجات لتصليح السيارات ومزارع صغيرة .

وكنا حين يروق الجو نجلس بجوار الطريق غير بعيد عن السوريين نرقب طائرات الإستطلاع الإسرائيلية التي كانت تحلّق في الصباح الباكر وخلفها خط طويل كثيف من البخار ، وتنثني باتجاه موقعنا بينما كان جناحاها الصغيران يلمعان تحت أشعة الشمس البعيدة . وكنا نظن بأن الغرض من خيوط البخار التي تحدثها الطائرات النفاثة في سماء جنوب لبنان هو تحديد الخط الأحمر . إذ لم تكن

هناك طريقة أخرى يمكن للمرء أن يرسم بها صورة سياسية متناسقة للبنان . وكانت الطائرة تتجه بعد ذلك إلى الغرب فوق البحر ويعود السوريون إلى مواقدهم لإعداد الشاي .

كان السوريون دائماً يقولون أن ما يبرر وجودهم في النبطية هو منع إنتقال الأسلحة الثقيلة بعد الحرب الأهلية ووقف القتال الذي كان لا يزال مستمراً بين الفلسطينيين والكتائبيين في الشريط الحدودي الواقع شمال إسرائيل . على أن الفلسطينيين و «الجيش اللبناني العربي» ـ وهو الجناح المسلم المنشق عن الجيش الوطني القديم الذي حافظ بطريقة ما على هويته ـ لم يشيروا بشيء إلى ذلك . وظننا أن الإهتمام الحقيقي للسوريين كان مركزاً على تقاعس جميع ميليشيات الحرب الأهلية عن تسليم سلاحهم الثقيل كما طلب منهم وذلك وفقاً لشروط اتفاقيات وقف إطلاق النار مع الحكومة اللبنانية . وتبادر إلى الأذهان لدى رؤية مسارب العجلات العميقة المؤدية إلى قلعة الشقيف عبر الحقول أن الشاحنات نقلت بعض هذه الأسلحة إلى مخابىء بعيدة عن أعين السوريين . لكن السوريين كانوا يعتزمون عدم التدخل لو تبيّن أن الفلسطينيين نقلوا إلى داخل القلعة بعض المدفعية التي استخدمت في الحرب .

وصرح الإسرائيليون بغضب بأن الوجود السوري في النبطية يشكل تهديداً عسكرياً خطيراً . وكان هذا آخر ما توقع سماعه السوريون الثمانية المكتئبون المتمركزون على الطريق وتحت المطر خارج النبطية . فلم يكن ينتظر من دبابتهم الوحيدة أن تهدد أمن إسرائيل . لكن هذا كان جزءاً من روتين تفهمه بوضوح جميع الأطراف . وقدم الإسرائيليون للسفير الأميركي بتل أبيب لائحة بالمناطق التي لا يرغبون في أن يروا السوريين فيها . وأبلغ السفير الأميركي هذا لوزارة الخارجية الأميركية التي أبرقت للسفير الأميركي بدمشق . فقام هذا بزيارة وزارة الخارجية السورية وشرح لهم التهديد الإسرائيلي . ثم قامت وزارة الخارجية بإبلاغ ذلك لوزارة الدفاع التي قامت بدورها بإبلاغه لقيادة الجيش بلبنان .

وفي أحد أيام شباط/ فبراير ١٩٧٧ قرر الإسرائيليون أنهم لا يريدون أن يبقى السوريون في النبطية أكثر من ذلك . وطارت الرسالة عبر المتوسط والأطلنطي ، ثم ارتدت إلى الشام ، وأخيراً إلى الغابة الصغيرة البهيجة شرقي النبطية حيث كان الجاويش والعريف والجنود الستة الذين كانوا قد قضوا شهور المطر يرقبون السماء . ووجدناهم في صباح اليوم التالي يلفون بطانياتهم ويحملون سرائر مخيمهم خلف ثلاث شاحنات عسكرية مهلهلة . فقد نطقت تل أبيب .

كانت الأسباب واضحة . فالإسرائيليون كانوا قد قرروا أن يتعاملوا بقسوة أشد مع تلك القرى في جنوب لبنان ومع الفدائيين الفلسطينيين الذين أقاموا قواعد لهم فيها أو حولها ، وأخذوا بين حين وآخر

يطلقون صواريخ الكاتيوشا على المستوطنات الإسرائيلية . ولم يرد الإسرائيليون أن يعادوا السوريين . وكان هذا الشعور متبادلاً فأخلى السوريون موقعهم . وكانت كل من الدولتين تستطيع فهم هذا المنطق . فلكي توقف الفلسطينيين عند حدهم أخذت تتبنى الصيغة ذاتها التي اتبعتها سوريا في اتخاذ موالين لها مثل الصاعقة ، فوجدت من يقوم بالعمل عنها في الجنوب ـ أي المسيحيين .

ورأينا أول دليل على ذلك في الأسابيع الأخيرة من عام ١٩٧٦ . ففي صباح يوم ماطر في أواخر نوفمبر توجهت بسيارتي ومعي إد كودي من الأسوشيتد برس إلى الحدود الإسرائيلية . وكان لدينا ـ أنا المراسل الصحفي الذي لا يهدأ وإد كودي المراسل الذي يتقن العربية ـ إيمان راسخ وصحيح بأن الشخص لا يستطيع أن يعرف ما يجري في لبنان إلا بشق طريقه عبر مئات الأميال من الطرق الوعرة .

ففي بنت جبيل وجدنا الفدائيين الفلسطينيين يحتلون المكاتب الحكومية . وتقدمنا إلى الحدود التي يميّزها خطان من الأسلاك الشائكة بينهما طريق ترابي ناعم تظهر عليه آثار أقدام المتسللين الذين يعبرون الحدود إلى إسرائيل . وتوقفت على الجانب الإسرائيلي سيارة جيب فيها جندي إسرائيلي . وعرف أننا غربيان ، فسألنا بدماثة وبلهجة أميركية : «هل تريدان أيها الشابان أن تأتيا إلى هنا ؟»

فواصلنا السير على الطريق ذاتها . وحين صرنا أقرب إلى المطلة ذهبت المجاملات . فبينما كنا نمر بالسيارة قرب سياج الحدود رأينا شاحنة إسرائيلية على الطريق وعلى الطرف اللبناني من الحدود ويقف وراء بابها الخلفي عدد من المقاتلين الملتحين ومعهم ضابط إسرائيلي . وكان في الشاحنة عدد من الجنود الإسرائيليين يرفعون صناديق ذخيرة وبنادق ويسلمونها للمقاتلين . فلما رآنا الضابط أصدر أوامر لأحد المقاتلين الملتحين فتقدم نحو سيارتي ومد رأسه إلى النافذة وانهال علي بالسباب والشتائم ، وقال : «أخرج من هنا . ليس لك شغل هنا . سوف يقبض عليك» . فرجعت بالسيارة رجوعاً عكسياً بينما كان الرجل يرقبنا وبندقيته مصوبة إلى زجاج السيارة الأمامي . وكان هذا الرجل والمقاتلون الملتحون الآخرون كتائبيين يشكلون نواة ميليشيا لبنانية أخرى ستعرف أولاً باسم «جيش لبنان الحر» ثم باسم «جيش لبنان الجنوبي» . وتولت إسرائيل إمداد هؤلاء بالأعتدة ، وتدريبهم ودفع مرتباتهم وتسليحهم وقيادتهم .

وكان في جنوب لبنان في تلك السنوات المبكرة شيء يخدع المرء . ولهذا الشيء صلة بجمال المكان الطبيعي ورائحة البرتقال الدائمة والحشائش التي تنمو في أعقاب هبوب العواصف الممطرة التي تهبط من الجولان ، وكذلك بحقول التبغ الداكنة ، وبالطريقة التي ندور فيها حول قرنة في الطريق الموحلة فيفاجئنا كمين من الورود القرمزية والبيضاء . ففي العرقوب ـ أرض فتح ـ كانت أرض الوادي

مكسوة بالخبيزة والخشخاش . وكانت جوانب الوديان ترتفع فوق رؤوسنا في دوائر كبيرة مختلفة الألوان منقوشة على الصخور البركانية وتبدو وكأنها لفائف ضخمة من الصخور . وعندما أخذنا نهبط في العرقوب وجدنا أنفسنا بين أشجار الحور التي يجري وراءها نهر الحاصباني . ويستمد هذا النهر مياهه الباردة من ثلوج جبل الشيخ . ومن خلال هذه الأشجار يرى المرء جسراً رومانياً حجارته سليمة وعليه آثار عجلات المركبات التي كانت تستخدم في العصور القديمة .

وغالبية سكان جنوب لبنان ـ وأكثرهم شيعة وبينهم مسيحيون ودروز ـ أناس كرماء . فهم يعاملون الأجنبي باحترام ويدعونه إلى بيوتهم لتناول الغداء أو العشاء أو لشرب فناجين لا تنتهي من القهوة مع الهال التي تلصق بالحلق ساعات بسبب كثافتها . والزوج يعرف الزائر على زوجاته اللواتي يصافحنه إن كن مسيحيات أو تضع الواحدة يدها اليمنى على صدرها إن كانت مسلمة . كما يعرفك المضيف على إخوته وأخواته وأبنائه وأبناء عمه وعماته ووالدته . ويتحلق هؤلاء حول الزائر وهم يبتسمون ويحيطونه بكرمهم الذي أصبح جزءاً من حياتهم . وبعد تقديم كل تلك الفناجين من القهوة يبدأون بالحديث بلطف وكياسة ولكن بنزاهة كبيرة عن المأزق الذي هم فيه . ويخبروننا إذا كان الفلسطينيون قد جاؤوا إلى القرية ، وإذا كانت الميليشيات الموالية للإسرائيليين قد هددتهم . ويشكون من فساد السياسيين ومن التضخم والطقس .

وفي أوقات الخطر كان هؤلاء الناس يجازفون بحياتهم ويدخلوننا في بيوتهم لنحتمي من القذائف . وعندما هجم الإسرائيليون بعد ذلك بسنوات ـ في عام ١٩٨٢ ـ على الجزء الأدنى من البقاع الغربي وهم يطلقون مدافعهم بلا تمييز على ما أمامهم من قرى وطرق كنت أسوق سيارتي بجنون شمالاً للهرب من وجههم ، وأمرّ بالقوات السورية المذعورة التي كانت تحترق سياراتها في الحقول المحيطة بها . وتوقفت في قرية تقع شمال قرية كفرمشكي تماماً لأسأل زوجين إذا كانت الطريق إلى الشمال تتعرض للهجوم . وكانت الإنفجارات تهز الأرض تحت أقدامنا والدخان يتصاعد من الشاحنات المحترقة . وكان الزوج عندئذ يراقب السماء لرؤية الطائرات . لكنه هو وزوجته أمسكا بذراعي وأخذا بالفعل يسحبانني إلى بيتهما . وقال : «إبق عندنا . ستكون بخير . لا تخف . سوف نحميك . كن ضيفنا» .

هذان القرويان مسيحيان أورثوذكسيان . وعندما دخلنا إلى بيتهما المبني بالحجر الذي كانت نوافذه تهتز بفعل الإنفجارات قدما لي القهوة والحلويات ، وألحا علي أن أقضي الليلة في بيتهما . وتحدثنا عن الحرب وعن حياتهما سابقاً في زحلة ، وعن أقربائهما في بيروت وخوفهما عليهم . وعرض عليّ الرجل أن يصحبني حتى شتورة إذا كنت لا أزال خائفاً .

أعود فأقول إنهم جميعاً ـ مسلمين ومسيحيين ـ كرماء ولطفاء . ونظراً لأن هؤلاء كانوا يخاطرون بأنفسهم من أجل حمايتنا ، فقد أدرك بعضنا مع مرور الوقت بأننا مدينون لفضلهم وأن علينا أن نرد الجميل ، ففكرنا في أن نقوم نحن أيضاً بالمخاطرة بأنفسنا في سبيل كتابة التقارير عن مأساتهم . ذلك أنهم لم يفعلوا شيئاً يستحقون معه ما سيصيبهم في السنوات التالية ، وتحولهم الإضطراري إلى القوة التي سوف يستخدمونها ضد المعتدي وحتى ضدنا .

لقد كانت الحرب في جنوب لبنان دائماً نوعاً من الأكذوبة . خذ مثلاً كفركلا القرية الشيعية الصغيرة التي تقع على بعد ميل بالضبط من الحدود الإسرائيلية . في تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٧٦ أصدر الكتائبيون بياناً صحفياً صيغ بقالب وردي كعادتهم دائماً في مثل هذه المناسبات يقول بأن الميليشيات المسيحية في جنوب لبنان استولت على القرية من الفلسطينيين بعد أن اشتبكت معهم عن قرب في قتال شرس . أما أجهزة الدعاية التابعة «للتحالف اليساري» برئاسة كمال جنبلاط فقد كذبت خبر الإستيلاء على كفركلا لكنها اعترفت بوقوع «قتال شوارع مرير» .

وعندما توجهت إلى كفركلا تبيّن أن القرية في أحسن حال . وعندما وصلت إلى هناك كان سوق القرية الصغير محتشداً بالفلاحين . وكانت نساء القرية يغسلن الأغطية في مياه النهر المتدفقة من الجبل المطل عليهن . ورأيت رجلاً مسناً راكعاً على حصيرة صلاة بالية قرب مسجد صغير جدرانه بيضاء بينما كانت مكبرات الصوت في المسجد تذيع تلاوة من القرآن الكريم . وتبيّن سبب هذه الحياة الريفية الطبيعية عندما سألت عن القادة العسكريين في القرية . كانوا يجلسون على أريكة في فيلا جميلة تطل على الوادي في الجنوب ويشربون القهوة السوداء الكثيفة نفسها من فناجين دقيقة الصنع عليها رسوم يدوية . وكان جميعهم من اليساريين .

لم تسقط القرية إطلاقاً في يد الكتائبيين ولم يسبق أن دخل شوارعها الضيقة أي مقاتل من اليمينيين . وعندما قصفها المسيحيون بمدفعين قديمين لم يصب أي قروي ولم يتضرر أي بيت . وكفركلا من الأمثلة الجيدة التي تمكن المرء من إدراك عمق الخداع السياسي والولاءات العائلية التي تكمن وراء البيانات البسيطة غير الدقيقة التي تصدرها مختلف الأطراف في بيروت .

لقد اشترك في الدفاع عن هذه القرية الشيوعيون والبعثيون الموالون للعراق وشبان آخرون ولدوا جميعاً داخل مساحة تبلغ بضعة أميال مربعة . وكان أحد قادتها خارجاً سياسياً عن أسرته التي كانت من أعرق الأسر . وكان بيت والديه أشبه بالقصر وله شرفات يراها الناظر من الوادي . ولم يكن في القرية سوى مئتي بندقية . وطوال ستة أشهر لم يكن بين مقاتليها أي من الفدائيين الفلسطينيين .

لم تكن الحرب حول كفركلا مسألة طائفية بسيطة . إذ احتل الكتائبيون قرية قليعة المجاورة التي تبعد أربعة أميال عنها إلى الشمال ، لكن سمح لمن لم يكونوا من المقاتلين من سكانهما أن يتزاوروا . وكانت نساء كفركلا يذهبن كثيراً إلى القليعة لأن مخازن هذه كانت أفضل . وكا ن الإبن الأكبر لأعرق عائلات كفركلا طالباً في العشرين من عمره ، له ذقن قصيرة ويحمل مسدساً في حزام جلدي أسمر . إلا أنه كان يفتقر إلى طموح أقرانه في بيروت وهواياتهم . فأحد أبناء أعمامه مثلاً كان يقاتل مع البعثيين الذين ـ كما قال ـ كانوا يتقاضون مبالغ من المال من الحكومة العراقية ، بينما كان ابن عم آخر مقاتلاً مع بقايا الجناح اليميني في الجيش اللبناني الوطني وموقعه في ثكنة بالقليعة . وكانت القليعة تقليدياً عبارة عن جيش . ومن مواليدها قائد الجيش اللبناني الوطني الجنرال حنا سعيد . وبالرغم من أن ميليشيا الكتائب في القليعة لم تكن على وفاق مع مقاتلي كفركلا اليساريين فإنها أبدت استعداداً لقبول وقف إطلاق النار مع اليساريين بشرط أن لا يعود الفلسطينيون .

ولم يكن من المحتمل أن يحظى اتفاق القاهرة الذي عقده عرفات بقبول يذكر في كفركلا . ذلك أن كثيرين من القرويين كانوا مثل أهالي القليعة يترددون على العيادات الإسرائيلية وراء الحدود ، وكان المسلمون منهم كما أوضح شيوعي من رجال الميليشيا يكنون العداء للثورة الفلسطينية . قال :

«عندما كان الفدائيون هنا كانوا يفعلون ما يريدون وحاولوا
أن يحكمونا . وكانوا إذا رأوا شيئاً وأحبوه سرقوه . ووضعوا
قوائم بأسماء من اشتبهوا في مناصرتهم للقضية الفلسطينية .
وكانوا إذا كرهوا أحداً من أهل القرية ، قبضوا عليه واستجوبوه .
واذا أراد أحد من أهل كفركلا أن لا يتعاطى بالسياسة
اتهمه الفلسطينيون بأنه عميل لإسرائيل» .

وشهد عام ١٩٧٧ إعلانات عن وقف إطلاق النار . وتم التوصل إلى أحدها بعد اجتماع بين عرفات وسركيس . لكن الفلسطينيين لم يروا موجباً للإهتمام بالقلة من اللبنانيين الذي اختاروا البقاء في القرى التي حوّلوها إلى مواقع أمامية في خط المواجهة . وكان هذا واضحاً في راشيا الفخار . وهذه قرية مسيحية صغيرة جميلة تقع في تلال سفوح جبل الشيخ . وبيوتها مبنية بالحجر وفيها كنيسة وعدد من الإسطبلات وعدة حقول ملأى بجرار الفخار المكسرة الملقاة بين الأعشاب .

عندما وصلت إلى راشيا الفخار في ٢١ أيلول/ سبتمبر ١٩٧٧ كانت القذائف تتساقط طوال

الصباح حول القرية . ولم يكن أهلها من المدنيين في وضع يمكنهم من تقدير الفوائد السياسية الدقيقة التي تعود على الفلسطينيين من جراء المعارك التي يخوضونها . إذ كان أكثرهم من المسنين الذين يستخدمون نظارات رقيقة الإطارات ومن المسنات ذوات الشعر الأبيض . وكانوا جميعاً ينامون في الكنيسة وراء أكياس الرمل التي وضعت خلف نافذة المذبح لحمايتهم . وحولهم شموع محطمة ، وفوقهم ثريا نحاسية .

وبينما كنا ندور حول القرية انفجرت عدة قذائف في زريبة بقر وأخرى في كوخ صغير . وكان لكثرة من الأهالي أقرباء قتلوا في انفجارات القذائف خلال الأسابيع السابقة . ووقفت امرأة في الساحة الرئيسية وطلبت منا بصوت مرتفع أن نعلن أنها فقدت جميع أسرتها خلال سنة . ووجدنا القرويين في الكنيسة بجانب المذبح . فدفعوا إلينا رجلاً منهم يلبس نظارات وعلى جانب من الثقافة ، فقال لنا بفرنسية قديمة أنه سيتكلم نيابة عن الآخرين بناء على طلبهم . وأضاف بأنهم يريدون من الفلسطينيين أن يخرجوا . وكان هناك فلسطينيون في شارع بجانب الكنيسة . ومضى يقول :

«ذهبت لمقابلة ضابطهم . ورجوته أن يخرج من القرية ، وقلت له بأنه إذا بقي فإن الإسرائيليين سيقتلوننا .لكنه لم يكترث وطلب مني أن أنصرف» .

فخرجت أبحث عن الفدائيين . ووجدتهم هناك في زقاق بجانب الكنيسة وفي الظل يحتمون من الشظايا ، وكانوا من الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين التي يتزعمها جورج حبش . وكانوا فتياناً لا تبدو عليهم العناية بالمظهر ، ويلفون رؤوسهم بالكوفيات وبأيديهم بنادق . ووجدتهم يقضمون كسرات من الخبز الناشف ويرقبون القرويين بارتخاء وعدم اكتراث . وكانت أسلحتهم بين الشجيرات بجانب الكنيسة وسألت قائدهم : «لماذا لم ترحلوا» ؟فأجاب : «ومن أنت ؟» وكان هذا القائد في العشرين من عمره وشعره يتدلى على كتفيه . وبدا على الأقل مختلفاً في مظهره . فقد كان يلف حول عنقه كوفية بيضاء وسوداء عليها مربعات . قلت له : «أنا صحفي» . فقال : «ليس لدينا ما نقوله» . وسألته عن الرجل المسن الذي جاء لمقابلته .فبدا عليه التعب وعدم الرغبة في التحدث إلى صحفي وقال : «اخرج من هنا» .

وقد تتسم الحرب بتناقض ظاهري . ففي حاصبيا حيث لجأ المسيحيون في عام ١٨٦٠ إلى الدروز طلباً للحماية خلال أكثر السنوات الأولى من الحرب الأهلية نجد غالبية السكان من المسيحيين الأورثوذكس والباقون من المارونيين والدروز . وشغل الفلسطينيون مكتباً فيها لمدة عشرين شهراً ، مما أدى إلى قصفها بانتظام من مرجعيون التي كانت قد أصبحت مقر الميليشيا المسيحية اللبنانية

التابعة لإسرائيل . ومرجعيون كحاصبيا غالبية سكانها من المسيحيين الأورثوذكس الذين يعيشون مع المارونيين . وهكذا فإن لبنانيين مسيحيين يقصفون لبنانيين مسيحيين نيابة عن الإسرائيليين .

وفي الأشهر التي تلت الحرب الأهلية في عام ١٩٧٥ ـ ١٩٧٦ اتسم التجوال عبر هذه التلال الناعمة والوديان بالتكرار . فكنا نستقل السيارة ونقطع الطريق الطويل المليء بالسيارات والحفر إلى صور ،ومن هناك نتجه إلى الشمال نحو داخل البلاد ، ونجد أنفسنا فوق سلاسل متوازية من الواجهات الصخرية فوق الوديان الجافة ، ونستدل على وجهتنا من لمعان الثلج فوق جبل الشيخ أو وهج زرقة البحر بين التلال . وكان يسحرنا منظر أسوار قلعة الشقيف الداكنة حين كانت تطل علينا فجأة .

وقبل الواحدة بقليل سقطت أولى قذائف ذلك اليوم . وكان ذلك في النبطية خلال شهر تموز/ يوليو عام ١٩٧٧ وبعد رحيل السوريين الثمانية بأشهر . وفي هذا الوقت كان الفلسطينيون هنا . ويبدو أن القذائف سقطت خارج البلدة وأحدثت ثلاثة انفجارات مختنقة كان الغريب سيظن أنها صوت عاصفة رعدية لولا أن أصحاب الدكاكين في الشارع الرئيسي أخذوا يقفلون دكاكينهم بإنزال أبوابها المعدنية . وكان على ناصية الشارع مقهى ومطعم اسمه مقهى الأندلس وفيه ثلاث طاولات للأكل وصورة كبيرة لبريجيت باردو معلقة على الجدار . وفيه قدّم لنا صاحبه الشاب الشراب بسرعة ، ووقف على الباب ينظر إلى الشمس بعينين شبه مغمضتين كمن يعتقد أن بإمكانه أن يرى قذيفة على وشك السقوط . وكانت الفراريج المشوية تدور حول السفود خلفه وتميل إلى الإسمرار والإنكماش ثم تصبح سوداء وتتفحم وهو لا يزال منصرفاً بنظره إلى السماء الساخنة . فمنذ أسابيع واللبنانيون المسيحيون في مرجعيون يقصفون النبطية كل يوم وليلة .

في تلك الأثناء دخل المقهى صبيّان ينتعل كل منهما صندلاً من البلاستك ويحمل قطعة معدنية ينقلها من يد لأخرى . وكانا يبتسمان وهما يعرضانهما . وكان عليهما كتابة عبرية . فقال الأصغر منهما : هذه بخمس ليرات (أي دولارين) . فلما قلنا لا قال بأن هناك نوعاً آخر بأربع ليرات . وعندما وصل إلى ليرتين اشتريناها منه وألقينا بها في سلة القمامة بزاوية المقهى . وفيما كان صاحب المقهى والآنسة باردو ينظران قفز الصبي الأكبر إلى الأمام وأخرج القطعة المعدنية من سلة المهملات وخرج راكضاً . ثم أقبلت سيارة وفيها فلسطينيان . وسمعنا قذائف المورتر وهي تطلق جنوباً على المسيحيين والإسرائيليين .

واستمر القصف ساعة من الزمن . وفيما بعد رأينا الدخان يتصاعد من الحقول خارج البلدة التي بقي من سكانها البالغ عددهم عشرة آلاف حوالي أربعمائة . وقال صاحب مقهى الأندلس : «إن

الإسرائيليين وليس اللبنانيين هم الذين يقصفوننا» . واقتنع بذلك بسبب الكتابة العبرية على شظايا القذائف . ولم يبد عليه الاهتمام عندما قلنا له بأن الكتائبيين هم الذين يقصفون البلدة ولكن بذخيرة إسرائيلية . فحتى لو كان هذا صحيحاً ـ كما قال ـ فإن القذائف تطلق من إسرائيل .

وكيف يمكن لأحد أن يختلف معه ، خصوصاً وأننا حين نقطع الوادي جنوب النبطية بالسيارة بإتجاه قرية شديدة الحرارة وكثيرة الأغبرة على رأس تل وهي قرية درْدغَيا ، نجد أن الفلسطينيين ـ وهم هذه المرة يساريون من الجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين ـ قدَ أقاموا فيها مقراً متقدماً ، واحتلوا كالعادة الكنيسة الأرثوذكسية المسيحية . وكانت في صحن الكنيسة عدة أطنان من الذخيرة والقذائف ومدافع المورتر التي غنموها من الميليشيات المسيحية عندما سقطت الطيبة بيد منظمة التحرير قبل ذلك بأشهر . وكانت بإزاء الحائط ثلاثة أطنان من الرصاص والقذائف لا تزال في صناديق الشحن الإسرائيلية التي تحمل علامات عبرية . وكان إلى جانبها حارس فلسطيني أخذ يدخن بصورة مستمرة وهو يحرك قذيفة ١٥٥ ملم ، ووراءه مجموعة من البنادق الإسرائيلية وضعها خلف باب في قاعة الاجتماعات . وكان لدى الفلسطينيين عشرات الصناديق الأخرى من الذخيرة قالوا إنها من مصادر أخرى . إذ كان رصاصها يحمل علامات صينية .

وكنا نظن عندئذ أن هذه الحرب حرب صغيرة سمجة . ففي حزيران/ يونيو ١٩٧٧ لم يقتل سوى عشرين شخصاً في سائر أنحاء الجنوب اللبناني . وكان بمقدور الزائر أن يستمتع في الطيبة التي كانت تبعد أقل من نصف ميل عن أقرب مركز مسيحي بنزهة وزجاجة شراب بجوار الطريق لولا النمل الضخم والسحالى التي كانت تظهر من حين لآخر وتنساب بين الأعشاب . وكان طول السحلية منها ست بوصات ونصف البوصة .

وقال الملازم فهمي قائد الفلسطينيين بأنه لم يقتل ويصب خلال ثلاثة شهور من القتال سوى واحد وعشرين من رجاله . وكان أعداؤه قريبين إلى حد أننا كنا نرى المسيحيين وهم يمشون بين الصخور على جانب سلسلة التلال الأخرى . لكن بدا أنه راض عن الحرب ويعتبرها ضرورية . وكان دائماً يتوقف عن وصف القصف ويشدد على أهمية الكفاح «الثوري» في جنوب لبنان .

والواقع أنه لم يكن بمقدور المرء في تلك الأشهر الحارة الخاملة إلا أن يستنتج أن تلك الحرب ـ إذا كان هذا هو الإسم الوحيد لها ـ ما كانت لتستمر لولا أنه كان لمختلف الأطراف مصلحة في استمرارها . فالفلسطينيون كانوا في حاجة إلى ميدان قتال لإظهار قوتهم العسكرية خصوصاً وأن الحرب في بيروت كانت قد انتهت . ولا بد أن الإسرائيليين كانوا قد أدركوا أن الأزمة في جنوب لبنان تمدهم بعذر دائم للتدخل العسكري في المستقبل . وكان اللبنانيون أيضاً في حاجة للحرب لأنها

تدعم نداءاتهم من أجل المساعدة الدولية وخصوصاً المساعدة العسكرية من الولايات المتحدة . أما السوريون فكان القتال يبرهن على صحة ما كانوا يقولونه عن التوسع الإسرائيلي . وكان دليلهم الواضح هو الوجود الإسرائيلي في جنوب لبنان . إذ لم يكن لدى الإسرائيليين كالسوريين تفويض من أحد سوى أنفسهم .

كان الفلسطينيون قد استولوا على الطيبة في ٥ نيسان/ أبريل . ولو لم يبق فيها رجل مسن وزوجته وبنتاه لكانت بلدة أشباح . كانت أبوابها تحمل آثار الرصاص ، وحدائقها مكسوة بالأعشاب الطويلة ، وشوارعها مليئة بالحفر وجامعها مهجوراً تمرح فيه القطط الضالة . وبعد الظهر وقبل أن تغرب الشمس بوقت طويل بدأ إطلاق النار يتردد صداه في الجبال خارج البلدة . واعترف الملازم فهمي بشيء من التردد بأنه لا يعرف من يطلق النار وعلى من يطلقها . وهذا أوضح دليل على أنها حرب مقيتة .

وعلى أي حال فإنها كانت حقيقية . وكان غالبية القرويين قد تركوا إبل السقي عندما أصبحت جزءاً من خط المواجهة بين الفلسطينيين والمسيحيين . وكان لها هي الأخرى كنيستها اليونانية الأورثوذكسية . وكانت إحدى القذائف قد اخترقت وسط برجها . ولا بد أنها كانت قرية لطيفة . وكان لجميع بيوتها سقوف من القرميد الأحمر ولبعضها شرفات عثمانية رائعة . وكان بالإمكان رؤية الطريق حتى وادي الجليل من حظائر البقر وراء الكنيسة . وفي أيلول/ سبتمبر ١٩٧٧ انهال الرصاص على الشوارع وضرب جدار الكنيسة أو سمع أزيزه في الهواء . وكان الفلسطينيون لطفاء ، فقدموا لنا الشاي قبل أن يرافقونا لرؤية الدبابات الإسرائيلية . وكانت الساعة عندئذ تشير إلى العاشرة أي قبل أن تتهم حكومة الرئيس سركيس إسرائيل بتحريك قواتها عبر الحدود إلى لبنان . وكنا قد تناولنا الشاي في كراج مع رجال فتح الذين كانوا يضطجعون على فراش السفر الممزق ، وبدا عليهم التعب الذي لم يسمح لهم بعمل شيء أكثر من تقديم الشاي الساخن .

ولا عجب إذن في أننا دوماً نربط بين منظمة التحرير وبين الشاي . وكان الفنجان الذي قدّم لي حاراً إلى حد يصعب معه لمسه . وقدموا لنا سجائر مارلبورو . فصار الشاي والمارلبورو جزءاً من قصة الثورة الفلسطينية . وكان الشاي دائماً حلواً والسكر يوضع في إبريق الشاي قبل سكبه ، أما المارلبورو فكانت تُقدّم دائماً بشيء من التأنق ، فتضرب العلبة بكف من تُقدّم إليه للتأكد من أن التبغ جيد التعبئة . وبدا وكأن المقاتلين لا يعملون شيئاً سوى إطلاق الرشاشات على خط الحدود وشرب الشاي والتدخين المتواصل والنوم . وكان هذا هو واقع الحال تقريباً . وفي إبل السقي وجدناهم بين النوم والشاي والمارلبورو ، قبل أن يطلقوا رشاشاتهم .

قال أحدهم : «تعالوا معنا» . ودرنا زحفاً حول الكنيسة من الخلف وركضنا على طريق مكشوف مزعج بسبب قطع الحصى المطلي بالقار (الزفت) وقطع الخشب ، وخطوط التلفون المقطعة التي تتدلى من الأعمدة وترقص أمامنا ، وحفرة في الطين ملئت بأكياس رمل . وقيل لنا : «انبطحوا فوق الأكياس لتروا الدبابات الاسرائيلية» . وبالفعل كانت هناك وهياكلها ظاهرة في الأفق . وكان بالإمكان أن يتكئ المرء بكوعه على فجوة في كيس الرمل وأن يرى بالمنظار المدافع الرشاشة على أبراج الدبابات . وكانت المدافع الثقيلة تهدر إلى جانبنا في الوديان . ورأيت بالمنظار رجلاً يجلس على مؤخرة احدى الدبابات وينظر شمالاً ويداه على وركيه .

وكان الضابط هنا الذي يدعو نفسه «أبو مياد» نحيفاً وله شارب سيء التشذيب . وكان يفتقر إلى الحسّ الأمني . وقال بطريقة عرضية عندما استدرنا للعودة إلى الكنيسة : «أنظروا إلى ما وراء الحائط» ورأينا بالمنظار رجلاً يجلس على قمة مبنى صغير من الحجر وأمامه حزام رشاش معبأ بالرصاص ، وعلى رأسه قلنسوة صغيرة (بيريه) وبدا في وضع عادي . فقال أبو مياد بصوت خافت واحتقار : «إسرائيلي» على أنه لم يكن من الممكن للناظر إليه أن يعرف إذا كانإسرائيليا أو لبنانياً مسيحياً . وقبل أن تمضي عشر ثوان على نظرنا إليه ، انهمر الرصاص على الشارع المحطم . وهكذا أصبح الرجل الجالس على المبنى المحصن خطراً جداً .

وألقى أبو مياد بنفسه على الطريق . وقفزت أنا إلى الشجيرات وألقيت نفسي فوق كومة من النباتات الشائكة . وظل الرصاص نحو دقيقة يئز فوق رؤوسنا بالإتجاهين ويرتطم بجدران المباني خلفنا وينخر بعضها ويرشنا بقطع الحجارة والأخشاب المتناثرة في الشارع . وبدأ عمود التلفون القريب مني يتشقق وتتطاير قطع الخشب بينما كان الرصاص يصطك بالرؤوس المعدنية المستديرة فوقه . وأخذت الأسلاك تتراقص في الهواء .

ثم توقف إطلاق الرصاص . فزحف أبو مياد ناحيتي وهاله ما رأى من أشواك مغروسة بقميصي ، وما أحدثته من بقع حمراء على جسدي وقال : «لقد جرحت . سنقدم لك الشاي» وعدنا إلى الكراج وقدموا لي أربعة فناجين شاي . وفي هذه الأثناء كنا نسمع فرقعة القذائف الكثيرة المتساقطة على سطح الكنيسة . وانفجرت إحداها داخل بيت صغير ودمرته محدثة انفجاراً يصمّ الآذان . وكان فريق من الفلسطينيين ـ وبعضهم فتيان في الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة ـ يردون كل خمسين ثانية ببنادق ٧٥ ملم مخبأة في حفرة من الرمل .

وقبل ذلك بنحو ساعة جلسنا على سفح تلة هادئة وراء إبل السقي بينما كان ثلاثة فلسطينيين في

سيارة لاندروفر ينصبون أنتيناً (هوائياً) طوله خمسة عشر قدماً للراديو الذي يستخدمونه للتنصت على شبكة اتصالات الجيش الإسرائيلي ، فأقنعناهم بأن يحاولوا الموجة المتوسطة . فاستمعنا عندئذ لمحطة الإذاعة البريطانية . وكان الصوت صوت مذيعة إنجليزية للأخبار تقرأ بعناية ولهجة إنجليزية صافية . ومما قالته أن مناحيم بيغن رئيس وزراءإسرائيل مستعد لبحث وقف لإطلاق النار مع الفلسطينيين . وعندما قمنا بترجمة ما قاله إلى العربية لوى أحد الفلسطينيين وجهه وقال : «إذن فهم يعترفون أننا في لبنان» .

وبعد ذلك بيومين كنا في قلعة الشقيف . ولم يدم وقف إطلاق النار . والواقع أنه لم يكن أحد يريد له أن يتوقف . وكان هذا هو الذي جعل الملازم أيمن ينصب مدفعاً رشاشاً مضاداً للدبابات مدهوناً باللون الأخضر في ممر حجري مسقوف في الطرف الشمالي من القلعة . وكانت ماسورته ممدودة بشكل أفقي لكي تطلق الرصاص عبر الليطاني على الطريق الضيقة التي تسير من إسرائيل إلى بلدة مرجعيون المسيحية . وكان صبي فلسطيني لا يتجاوز الثالثة عشرة من عمره يقوم كل ساعة بفتح الممر ويتفقد الذخيرة ويطلق بضع زخات من الرصاص الذي كان يئز في الجو على ارتفاع ألف قدم من الوادي .

وكذلك كان للفلسطينيين عند آخر الدهليز وعلى يمين الصبي مدفع مورتر يطلق أيضاً قذيفة كل ساعة وبانتظام محدثاً صوتاً هائلاً يطرب له الملازم أيمن . وكانت كوفيته مطرزة على نحو دقيق يكاد أن يكون أنثوياً . وكان يركض إلينا منفعلاً كالأطفال كلما أصدر أمراً بإطلاق النار ويقول بسرعة وبابتسامة عريضة : «هيا بنا ، تعالوا وانظروا» وعندئذ تنطلق قذيفة وتنفجر تحتنا في شجرة قرب النهر . على أن أيمن اعترف بأنه لا يعرف تماماً من الذي يطلق القذائف التي كانت من حين إلى آخر تطير فوق القلعة . أجل ، لقد كان بإمكانه أن يرينا نحن الصحفيين مجموعة كاملة من الدبابات الاسرائيلية على الأرض اللبنانية ، لكنه في موقعه على الصخر فوق الوادي السحيق فان كل ما كان باستطاعته أن يفعله هو أن يحدق مخذولاً عبر أميال من الوديان والتلال بدون أن يرى أثراً لأية دبابة ويدعي أن الإسرائيليين لا يظهرون عرباتهم المدرعة إلا في الليل .

هناك المزيد من الكذب . فطوال ذلك الأسبوع ، كانت السلطات المحلية في صيدا تدّعي أن ٤٥٠٠٠ لاجئ تدفقوا على المدينة من مناطق القتال . والواقع أن الآلاف من الناس كانوا قد هجروا بيوتهم المجاورة للحدود ومع إسرائيل قبل ذلك بشهور ، أما خلال الأيام السبعة السابقة فلم نر سوى ثلاث سيارات متجهة إلى الشمال . وكانت اثنتان منهما تجرّان شاحنتين للمواشي . وأذاع الاسرائيليون أن الميليشيات المسيحية قد استولت على ثلاث قرى بينها إبل السقي . وهذا أيضاً غير صحيح .

فوصول الدبابات الاسرائيلية التي صنعت في الولايات المتحدة الأميركية هي التي جعلت جنوب لبنان خطراً إلى ذلك الحد . كانت تلك الدبابات شيئاً حقيقياً . ولأول مرة يثبت أن شيئاً ما هو حقيقي . فحتى مصر شعرت أن في استطاعتها أن تدين «العدوان» الإسرائيلي في جنوب لبنان .

وفيما بعد أعلنت محطة إذاعة مسيحية في بيروت أن الكتائبيين اكتسحوا عدة قرى ، ومزقوا الأعلام الفلسطينية . وكان هذا إعلاناً غريباً لأن الفلسطينيين لم يرفعوا أعلاماً فوق البيوت في جنوب لبنان . وأضافت الإذاعة نفسها أن المسيحيين استولوا على قرية الخيام القريبة من إبل السقي «على أثر عملية حاسمة» تركت وراءها ثمانية عشر قتيلاً من الغرباء ، أي من الفلسطينيين . وفي ٢٦ أيلول/ سبتمبر ، سحب الإسرائيليون دباباتهم . وهكذا أدى القتال إلى توسيع المنطقة الحدودية بعض الشيء . فصارت تمتد من البحر إلى جبل الشيخ تقريباً .

هذا ما كان يجري دائماً : تهديد وإطلاق نار يعقبهما انسحاب . وكانت كل أزمة تحدث هي الأعظم ، وتروى بطريقة أدعى إلى اليأس ، وتحدث تأثيراً كاسحاً . وفي اليوم الذي جلسنا فيه مع الملازم أيمن وزملائه الذين خففوا من الضجر بإطلاق مدفع المورتر عند طرف الشقيف أذاعت وكالة رويتر ببيروت أن القذائف انهمرت على القلعة بغزارة شديدة إلى حد أن سحب الدخان غمرت القلعة . وأضافت رويتر : «ولم يعرف شيء عن مصير المدافعين عنها» . ولا ريب في أن هذا أثلج صدر أيمن ومقاتليه الفتيان ، وأنهم صدقوا الرواية .

وقد يكون سوء التفسير وسيلة لطيفة لوصف العجز عن فهم حقيقة ما يجري . وعلى أي حال فقد انقطعنا في جنوب لبنان عن التطورات الكبرى في الشرق الأوسط . ففي يوم شديد الحرارة من عام ١٩٧٧ ركبنا أنا وإد كودي السيارة واتجهنا إلى قرية شيعية صغيرة فقيرة شمالي بنت جبيل حيث وجدنا الفلسطينيين كعادتهم يشربون الشاي في حقل قرب الطريق الرئيسية بينما كان ضابطهم يحاضرهم عن الحاجة إلى تغيير مواقع المورتر كل ٢٤ ساعة .

وما لفت نظرنا عندئذ هو مقاتل يبدو مختلفاً عن الآخرين . وكان يجلس على الأرض وبندقيته في حضنه وكأنه يخشى أن يضطر فجأة إلى استخدامها . وكان حول عنقه منديل لا كوفية . وبدا أنه لا يتكلم العربية . على أنه كان يتقن الإنجليزية . فسألناه إذا كان يستطيع أن يترجم لنا ما يقوله الضابط له فقال إنه لا يتكلم العربية . وأضاف : «وذلك لأنني لست عربياً . أنا من إيران» ثم قال بانشراح ظاهر : «أنا من المعارضة بايران . وقد جئت إلى هنا لأتعلم كيف يكون القتال . ونحن وأخواننا الفلسطينيون لنا قضية مشتركة وبمساعدتهم نستطيع أن نتعلم كيف نحطم الشاه» . فتبادلت الابتسام مع كودي

ولكن بقلق . ذلك أننا لم نقم وزناً لهذا الشاب الناضج قبل الأوان والمصمم على إسقاط أقوى حاكم في الشرق الأوسط . ولم نكد نغادر المكان حتى أخذ كودي يضحك . وقال : «إنه مغفل كبير» وأذكر أنني وافقته . وبالطبع كنا مخطئين .

وحتى صور الهادئة التي دعاها حكامها بصورة مؤقتة في ذلك الخريف «جمهورية صور الشعبية» كان لها نواح خادعة . فالقيّم على المنارة مثلاً كان لا يزال بلا عمل منذ أكثر من سنة . لكن الحكومة اللبنانية كانت تدفع له راتبه . وفي الصيف كان يخيط الملابس التي يعرضها في دكان له يحتل غرفة واحدة على زاوية الشارع حيث يجد المرء إعلاناً باهتاً بخط أبيض وهو «ملابس راقية من باريس» هذا بالرغم من أن غاز الأسيتيلين لم يعد يصل إلى منارته وأنه لم تكن هناك سوى بضع سفن . وكان هذا الشخص ممن يسهل التعاطي معهم ، ورافقنا بسرور إلى المنارة الصغيرة القصيرة ذات الدهان الأحمر التي كانت تقابل باب دكانه . وعندما صعدنا إلى قمتها قال لنا باهتمام أن من الممكن رؤية أعمدة المدينة الرومانية القديمة في الماء . ونسي أن يشير إلى السفن المحطمة حول ميناء صور .

وكانت إحدى تلك السفن في الماء ولا يظهر منها سوى أعلى الصواري . ورأينا سفينة شحن كبيرة مائلة على الصخور وأمواج الخريف تغمر مدخنتها وظهرها المائل . ومن الغريب أن القيّم على المنارة لم يستطع أن يتذكر كيف غرقت تلك السفن .قال : «من الصعب معرفة الحقائق عن الأحداث الأخيرة» وقد كان ضعف الذاكرة مفيداً خلال التاريخ القصير لجمهورية صور الشعبية .

كانت ثلاث من المدن الرئيسية في لبنان ـ وهي بيروت وصيدا وصور ـ تخضع للقوات السورية منذ حوالي سنة . لكن «الخط الأحمر» الذي حددته إسرائيل أبقى صور فريسة للحرب الأهلية التي توقفت في الأخريين . وهكذا فإنها بمينائها الفينيقي القديم البسيط واقتصادياتها المنهارة ، والسفن الغارقة ، وسكانها الذين تضخموا بسبب اللاجئين وبلغ عددهم ٥٥،٠٠٠ ـ إنها بهذا كله بقيت تحت سيطرة الميليشيات اليسارية والفلسطينية التي حكمت فيما مضى قسماً كبيراً من لبنان . فكانت الزيارة لها أشبه بالعودة زمنياً إلى بيروت في أسوأ أيام الحرب الأهلية .

ولا يعود هذا إلى أن صور كانت تفتقر إلى سلطة مرئية . فعند تقاطع الطرق كان يقف الشبان ذوو الزي الموحد الداكن ومعهم بنادق سريعة الطلقات ، وهم رجال الأمن الذين كانوا يعرفون بلغة الحكام المحليين اليساريين شبه الرسمية باسم «الأمن الشعبي» .وقام عدد منهم بمرافقتنا إلى الآثار الإغريقية ـ الرومانية في المدينة حيث كان يقف مسلحان يلبس كل منهما بنطلوناً أخضر قديماً إلى جانب الساحة العامة (الفورم) الرومانية . وكان واضحاً أنهما يقومان على حراسة الباب المؤدي إلى الفيلا الجميلة التي كانا يقفان أمامها ، والتي كانت فيما مضى بيت القيّم على الآثار . إلا أن لجنة

الجمهورية الشعبية في صور هي التي أصبحت الآن تحتلها وتتمتع بما في حديقتها من أزهار قرمزية وأشجار تحمل زهوراً صفراء .

وهذه اللجنة التي كانت عندئذ تناقش مسألة التخلي عن اسم «الجمهورية الشعبية» خليط من البعثيين الموالين للعراق والشيوعيين والناصريين . وكان أول أمين لها وهو محمد فران شيوعياً . ومع هذا فإنه فضّل استقبالنا في مكاتب حزب جنبلاط التقدمي الاشتراكي على بعد ٣٠٠ ياردة . وكانت المكاتب تضم غرفتين زيّنت جدرانهما بصور للزعيم الراحل كمال جنبلاط الذي أصبحت مكانته بعد وفاته أعظم وأكثر تأثيراً . وكان قد اغتيل قبل ذلك بثمانية أشهر . وكان محمد فران معلم رياضيات . وقدم لنا بدقة أكاديمية قائمة بأعمال اللجنة التي كانت تضم ستة عشر عضواً : ١٨,٠٠٠ دولار في الشهر تُقدّم للمستشفيات المحلية ، توفير الخدمات الاجتماعية ، العناية بالصحة وتوفير الماء ، وما يقرب من ١٨,٠٠٠ دولار تصرف شهرياً على البوليس ، وخطط لإنشاء حديقتين عامتين جميلتين . وقال إنه من المتوقع دخول الجيش اللبناني وإلى جنوب لبنان خلال الأسابيع القليلة القادمة ، وأن اللجنة مع ذلك تصرّ على مواصلة عملها . لكنه لم يكشف النقاب عن الكيفية التي كان يمكن بها تحقيق ذلك ، وعن مصدر الأموال اللازمة للغرض نفسه ، بالرغم من أنه على أثر إلحاحنا عليه مرتين ليعلّق على الموضوع ذاته قال بدون حرج : «أموالنا تأتي من العراق» .

وأصرّ فرّان على أن العلاقات مع زعماء الفلسطينيين المحليين ودية بالرغم مما يشاع عن عكس ذلك . وأضاف وهو يبتسم «وبالطبع فإن لكل واحد مشاكله . لكن رجال شرطتنا وشرطتهم يقومون بتسوية الأمور» والواقع أن إحدى مشكلات فران الأخيرة كانت تتعلق بحسين حمية أحد أعضاء اللجنة الذي كان قبل بضعة أسابيع قد تشاجر مع ضابط فلسطيني ، وعلّقت صورته بعدها على الجدران بصور لأن الفلسطيني المذكور الذي أصيب بجروح ويعالج الآن في مستشفى بصيدا أطلق النار عليه وقتله . وربما تعمد فران أن لا يشير إلى الموضوع .

ولم يُبد فران حماساً للحديث عن السفن الغارقة بالرغم من أن القائد الفلسطيني في صور ـ وهو ضابط شاب ذكي لا يبخل بالمساعدة ويدعى كايد ـ وافق على القول بأن المدينة شهدت بعض الأحداث المؤسفة ، ومنها معركة وحشية بالمدافع بين فتح والصاعقة ، ومعارك أخرى أكثر أهمية . وروى حركي يساري أقل شأناً ويعرفه فران تمام المعرفة كيف تشاجر اثنان من زعماء الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ـ القيادة العامة حول ملكية المدافع والذخيرة التي وصلت من ليبيا إلى صور على ظهر سفينة الشحن «سبيروس» المسجلة في فماجوستا بقبرص . فقام أحد الزعيمين ـ وهو أحمد جبريل الأكثر ميلاً إلى سوريا ـ بإرسال المقاتلين الضفادع لنسف سفينة الشحن وهي في ميناء صور .

وكانت «سبيروس» هذه التي لا يزال اسم الميناء الذي سجّلت فيه واضحاً ويمكن قراءته فوق الأمواج هي التي تميل بحطامها على صخور الميناء وتغمرها أمواج البحر باستمرار . وكان أحد عمال الميناء لا يزال يذكر كيف أن الليبيين دفعوا فيما بعد سبعة آلاف دولار في كلّ يوم للعمال لإفراغ السفينة المنكوبة التي كانت مؤمنة بمبلغ خمسة ملايين دولار .

وكان بجانب الميناء أيضاً ما تبقى من هيكل سفينة شحن تعرف باسم «ريري» التي قال زميل فران بأن الإسرائيليين نسفوها لاعتقادهم بأنها محمّلة بالأسلحة . وكان صاحب هذه السفينة التي كانت صواريها ظاهرة والد صديق لفران . وقيل انها كانت محملة بالويسكي المهرب عندما غرقت . وكانت إحدى السفن التي تحمل الأسلحة بانتظام إلى صور قد وصلت إلى الميناء وهي تحمل شحنة «بريئة» من الإسمنت قد أقلعت قبل يومين . والسفينة الآن مؤجرة لأخ لفران .

واتضح من زيارة قمنا بها لمواطن بارز ومثقف من رجال الطبقة الوسطى بصور رجانا أن لا نذكر اسمه أن أهالي صور لا يعود عليهم وجود الغرباء بمنافع كثيرة . قال هذا المثقف : «إن الفلسطينيين واليساريين يبتزون المال من رجال الأعمال ومن أي ثري . وفي جنوب المدينة يدفع أصحاب البيوت الفاخرة آلاف الليرات كل أسبوع مقابل حمايتهم . إننا نريد أن يتواجد الجيش اللبناني هنا لوضع حد لهذا كله . ولا نستطيع أن نقول أكثر من هذا . فإذا قلنا شيئاً قتلونا» .

والقصة هي ذاتها ـ التعبير العلني عن النوايا الطيبة والفساد الخفي في كل مكان بلبنان . وأسرّ الينا غالبية الناس بأنهم يريدون دخول الجيش اللبناني إلى مدنهم وقراهم . لكن الجيش نادراً ما فعل ذلك ولم يدخل صور على الإطلاق . وعلى أي حال فإن الأمن كان عندئذ ينهار حتى في بيروت . ونشبت المعارك بين السوريين والفلسطينيين في المخيمات . وكان الجيش السوري يجابه صعوبات متزايدة في محاولته وقف القتال بين الميليشيات المتنافسة . ومما زاد المهمة صعوبة ميل السوريين المتزايد إلى مساعدة تلك الجماعات السياسية التي تؤيد وجودهم في المدينة .

وجاء اغتيال كمال جنبلاط في آذار/ مارس ١٩٧٧ نذيراً بما سيحدث . فبينما كان يجلّه بعض اليساريين الأوروبيين بوصفه فيلسوفاً اشتراكياً فإنه برهن على أنه من أشد المشاركين في الحرب الأهلية صلابة وإصراراً على إحراز انتصار عسكري على الكتائبيين . وكان يدين بكبرياء محاولات السوريين إنهاء النزاع معهم . وكثيراً ما كان يدعو إلى الانتقام دموياً من الموارنة ويذكّر بالحرب الأهلية بين المسيحيين والدروز في عام ١٨٦٠ .

وفي يوم من أيام القتال الرهيبة ببيروت قُتل فيها عشرات المدنيين من جراء القصف العشوائي من

الجانبين ، أعلن جنبلاط بغضب أنه منذ ذلك اليوم ستكون هناك «حرب حقيقية» . وكان الناس يعرفون كيف ستكون الحرب الحقيقية . وكان جنبلاط قد اعتاد بنوع من العفوية أن يتهم جميع خصومه بالفاشية . وحالما انتهت الحرب رفض الذهاب إلى سوريا ، فساءت علاقاته معها .

وبينما كان جنبلاط عائداً بسيارته مع حرسه من المختارة وقبل أن يصل إلى بعقلين لحقت بسيارته سيارة ليموزين فيها على الأقل مسلحان . وكان عندئذ يجلس في المقعد الخلفي يقرأ جريدة «النهار» فأصابت الطلقات الأولى رأسه وسقط القسم الأكبر من مخه على الجريدة . وتلت ذلك أعمال قتل قاسية . فقد قام الدروز بقتل عدد من أهالي القرى المجاورة من المسيحيين في بيوتهم وذبحوا بعضهم . واتهم البعض عملاء السوريين بقتله . لكن السوريين نفوا ذلك .

على أن مقتل هذا الزعيم لم يضعف قوة الزعماء التقليدية . وواصل كميل شمعون تحميل الفلسطينيين لا السوريين مسؤولية ما تعانيه البلاد من مشكلات ، بينما تعمّد بشير الجميل العنيف مدح الرئيس الأسد . وعندما دُعي هذا إلى دمشق ذهب بنفسه ليسلّم على الأسد . وعاد وهو يحمل خبراً مفاده أن الرئيس الأسد «قال لنا أشياء عن الزعماء العرب الآخرين وكشف لنا عن آرائه فيهم» وقال إن ذلك «أقنعني بأنه جدير بالثقة» .

وكان أسلوب شمعون أكثر صراحة . وبالرغم من أن هذا الرجل الصياد الذي تعرف عليه أبركرومبي عام ١٩٥٨ كان قد تقدم في السن وشاب شعره ، وخشن صوته ، وانحنى ظهره ، وأخذ يدخل الغرفة مطأطئ الرأس ، فإنه كان لا يزال مهيب الطلعة . وكان بوصفه نائباً لرئيس الوزراء ووزيراً للخارجية والداخلية يسير ومعه مرافق . وفي أوائل عام ١٩٧٧ وصل إلى مؤتمر صحفي ولكن بدون نظارتيه الكبيرتين الحاليتين ، وبدا عندئذ مشتت الذهن وجلس في كرسي بيضاوي عليها غطاء مزخرف وأخذ يتكلم بصوت منخفض . ويبدو أنه لم يلاحظ أن أحد حراسه ـ وهو رجل نحيف له شارب أسود كثيف ـ تقدم ببطء نحو مصور لبناني ونشل ما بجيبه . ويظهر أنه كان يأمل أن يجد بين ما نشله هوية المصور وبالطبع ديانته ولكنه وجد بدلاً من ذلك رخصة السواقة . وأحس الضحية بما كان يجري وقال للحارس : «إذا كنت تريد أن تعرف ما هي ديانتي ، لماذا لا تسألني . إنني مسلم» .

إن الحوادث من هذا النوع تكشف عن الشمعونية أكثر من كل ما قاله شمعون . ففي هذه المناسبة وافق شمعون على أن الطائفية لعبت دوراً في الحرب الأهلية ، لكنه أصر على أنه لم يحدث أي تمييز طائفي في لبنان ، وقال : «لم يكن هناك عدم مساواة اجتماعية . صحيح أن بعض المناطق حُرمت من الاهتمام . . . لكن ليس لأنها مناطق إسلامية . وإنما لأن أهالي تلك المناطق لم يريدوا أن

يعملوا . فهنا أناس كسإلى لا يعملون» . وأضاف أن المسيحيين كانوا قبل الحرب يدفعون ٧٠٪ من ضريبة الدخل لكن ٥٠٪ من المنافع تعود على المسلمين . وقال بأن المسيحيين يؤلفون ٥٢٪ من السكان وأنه لمعرفة ذلك يمكن الرجوع إلى صحف العام السابق . على أن شمعون اعترف بعد ذلك بأن الصحف تلقت الإحصائيات منه . وفي نظر شمعون أن الفلسطينيين هم الذين بدأوا الحرب وأنه لا بد من ترحيلهم ، وأن فرنسا والولايات المتحدة قد تهبّ لمساعدة المسيحيين لأن «الأمم الشيوعية» تساعد الفلسطينيين . وهكذا فإن هذا الرجل لم يكن قد تعلم درساً من أخطاء عام ١٩٥٨ . لكن ابنه دوري أدرك أنه لا يمكن الإعتماد على الغرب في تقديم المساعدة . وعندما قابلت دوري في شهر آب/ أغسطس من ذلك العام وصف الغرب بأنه «رجل هرم خرف» .

ثم وضع شمعون نظارته السوداء وتقدم نحو شاب كان يقف وراء الحضور مرتدياً جاكتة «سبور» . وكان شعره قد أخذ يتساقط قبل الأوان . فوضع شمعون يده على كتف الشاب والتفت إلينا بفخر وقال : «أنظروا إلى هذا الشاب . إنه واحد من «نمورنا» الشبان الشجعان . إن أمثاله من طلاب الجامعات والأطباء تحت التمرين هم الذين حاربوا من أجلنا ومات الآلاف منهم» . هذا ما قاله نائب رئيس وزراء لبنان . لكن لم تكد تمر سنتان حتى كان بشير الجميل قد قضى على القاعدة الرئيسية للنمور الذين تحولوا ـ كما وصفهم داني شمعون فيما بعد ـ إلى «قطط صغيرة» .

وكان زعماء المسيحيين لا يزالون يفكرون في التقسيم بوصفه الحل النهائي لقوتهم المتداعية بالرغم من كل تأكيد على عكس ذلك . وكان أوضح رمز لهذا الإنحراف السياسي مطار بيار الجميل الدولي . على أن اسمه وموقعه لم يردا في أي دليل للطيران . وهو يقع في الجبال شمالي لبنان ، وعلى بعدعشرة كيلومترات إلى الجنوب من طرابلس . وصاحب فكرة إنشائه هو بشير الجميل . ولما كان الموقع يفتقر إلى مدرجات أرضية ومبان لإستقبال المسافرين فقد سوّيت الأرض وشُقت طريق بنسف الصخور وقطع أشجار الأحراج . وكانت هناك خاصة مشتركة بين الكتائبيين والنازيين وهي الإعجاب بالأشياء الضخمة وخاصة تلك التي تتطلب آلاف الأطنان من الإسمنت والحجارة .

لقد أنشئ مطار بيار الجميل طبقاً للمقاييس الدولية : فله مدرج ضخم فرش بالإسمنت والحجارة المقطرنة ويشق الغابة أكثر من ميل ، وفيه مبان حديثة لإستقبال المسافرين وخروجهم تضم برجاً واسعاً للمراقبة وسوقاً حرة . وبلغت تكاليف المشروع الأولية أربعة ملايين دولار . وكان المفروض أن يستقبل المطار طائرات البوينغ وأن ينتهي العمل فيه خلال الشهور الثمانية التي سبقت نهاية الحرب الأهلية . وعندما ذهبت إلى قرية حامات لرؤية هذا المشروع الباهظ التكاليف كانت تعمل على مدرجه سبع عشرة محدلة وجرار وغيرها من الآليات التي تستخدم في أعمال الطرق والبناء .

وكانت تمر كل بضعة أيام دورية سورية للوقوف على سير العمل في المطار الجديد . وبالطبع كانت تلك زيارات اجتماعية للحلفاء المسيحيين . وادعى مدير أعمال البناء الماروني أن المشروع كله كان «بوليصة تأمين» لكن السوريين كانوا يدركون مغزاه الحقيقي . وكان الأسد يرى في أي خطوة لتقسيم لبنان سابقة خطرة للعالم العربي بما فيه سوريا .

وكان أكبر ضمانة لأمن سوريا حتى ذلك الوقت هو عدم مقدرة البارونات المسيحيين على تقرير نوع لبنان الذي يريدون العيش فيه . وبالرغم من الضجة التي كان كل من بيار الجميل وكميل شمعون يحيط بها حديثه عن الحاجة إلى الوحدة مع الاعتراف بالاختلافات الثقافية والدينية ، فإن حزبيهما عجزا عن الاتفاق على رؤية واحدة . فشمعون كان يريد دستوراً جديداً للبنان يمنح المسيحيين والمسلمين استقلالاً تاماً تقريباً في منطقتين منفصلتين مع حكومة مركزية ضعيفة للحفاظ على مظهر الوحدة اللبنانية . حتى أن الشمعونيين وضعوا خريطة ملونة لدويلتهم المسيحية الجديدة ورسموا حدودها المتعرجة من شرق بيروت وعبرَ جبل لبنان بحيث تضمن المصالح المسيحية فيه وإلى البحر - جنوبي طرابلس . وكان بيار الجميل يفضل الحديث عن الكونفدرالية و «المناطق» مع هيئة تنفيذية أقوى لكن بشرط أن يتمتع المارونيون في قطاعهم بالأغلبية العددية التي فقدوها منذ وقت طويل .

ورفض المسلمون من حيث المبدأ الموافقة على أي مشروع لتقسيم البلاد . واستندوا في رفضهم إلى أسباب قومية خالصة . وكان هناك اشتباه في أنه إذا جرى التقسيم أخذ المسيحيون معهم قلب الاقتصاد في البلاد . ثم إنهم كانوا لا يثقون بادعاء المارونيين بأن التقسيم لن يكون سوى الملجأ الأخير لمسيحيي لبنان . فلو كان ذلك صحيحاً كما تساءلوا فلماذا ذهب الشمعونيون إلى حد وضع دستور جديد للبلاد؟ ولماذا كانوا ينشئون خطوطاً تلفونية وتلغرافية جديدة في جونية عاصمة المارونيين أيام الحرب ؟ ولماذا كان الشمعونيون يديرون إذاعة خاصة بهم ؟ ولماذا كان المسيحيون يبنون مطارهم الخاص في حامات ؟

وعلى أي حال فإن السوريين قرروا فضح الأمر كله . فبعد أن وضع المسيحيون اللمسات الأخيرة على مدرج المطار ببضعة أيام ظهرت عدة دبابات سورية خارج الأحراج وشقت طريقها إلى الساحة . وبقيت هناك إلى أن خرج رئيس الجمهورية السابق سليمان فرنجية على شركائه المارونيين وكوفئ على ذلك بتمكينه من السيطرة على منطقته الجبلية في الشمال بما في ذلك مطار بيار الجميل الدولي .

وكان بشير الوحيد الذي عمي بصره وعجز عن التنبؤ بما سيحدث . ألم يلاحظ الملصقات بطول ١٨ إنشاً في شوارع بيروت بل في كل شارع منها وأحياناً في كل بيت؟ فقد ظهر في إحداها

سركيس وعلى وجهه علامات الإرتباك والإعياء . وظهر في غيرها الرئيس الأسد بملامح تدل على الحزم والصلابة ؟ وكان السؤال الذي تبادر فوراً إلى أذهان اللبنانيين عندما شاهدوا الصور : من سيكون رئيس لبنان؟ الا أن بشير الجميل اعتقد بأنه لن يكون على المدى البعيد مجال للتفكير فيهما .

وقد يجد المرء أنه يمكن إلى حد ما تبرير فشل بشير الجميل . فقد كان الزعماء اللبنانيون بعد حرب عامي ١٩٧٥ ـ ١٩٧٦ غارقين في مأزقهم إلى حد أنهم تجاهلوا ما حدث من تطورات في سائر أنحاء العالم العربي أو أنهم قللوا من شأنها . فالأسد مثلاً كان يحاول أن يكتشف الدور الذي يتصوره لسوريا في مؤتمر دولي للسلام في الشرق الأوسط . ولم يكن على استعداد للسماح للبنانيين بالتدخل في مسائل على ذلك الجانب من الأهمية . ثم إن العالم العربي ذاته كان في حالة من الفوضى المستمرة تقريباً . إذ كانت أخبار الصباح تطالع الناس يوماً بخبر يقول بأن الأميركيين والسوفييت متفقون على انتهاج خطة واحدة لإعادة عقد مؤتمر جنيف للسلام وأنهم أشاروا إلى «الحقوق المشروعة» للفلسطينيين ، ثم لا تلبث أن تتبدد آمالهم في اليوم التالي عندما يسمعون أن موشي ديان وزير خارجيةإسرائيل رفض الفكرة . وفي صورة لأحد رسامي الكاريكاتير في بيروت يظهر كارتر وهو يسير متعرجاً على زحافات نحو جنيف وعربي ينظر إليه وعلى وجهه علامات الحيرة .

ويجدر بنا أن لا ننسى أن بعض الأسر اللبنانية لم تكن تعير بالاً للأزمة ومنها أثرياء الحشيش . ففي أيلول/ سبتمبر عام ١٩٧٧ كان أول محصول لوادي البقاع من الحشيش قد أخذ ينضج في الحقول حول بعلبك . وكان إنتاجه ، ككل شيء آخر في لبنان ، ممنوعاً من قبل الدوائر الرسمية . لكن الأسر اللبنانية الثرية الثلاثين التي كانت تسيطر على المحاصيل كانت ذات سطوة سياسية وعسكرية . فإذا تسرّع الجيش اللبناني وأقدم على رش الحقول بالمبيدات من الجو تصدى عدد من المزارعين لطائراته بالمدافع المضادة للطائرات . وعندما ذهبت لمقابلة أحد المزارعين وجدت أمام بيته دبابة ميدان وذلك من قبيل الإستعداد للهجمات الطارئة الخطيرة .

وكانت حقول الحشيش تمتد أميالاً في سهل البقاع الذي يبدو كالبحر الهادئ بأشجاره الشديدة الخضرة المترامية إلى ما وراء الأفق . أما محصول الحشيش فكان يُحمل بالعربات التي تهبط مثقلة إلى زحلة ، أو تصعد باتجاه المعاصر تحت بودي حيث يتحدث تجار الحشيش من تلقاء أنفسهم عن رحلاتهم الأخيرة المربحة إلى روتردام . وكانت أسر بعض الزعماء تعمل بهذه التجارة . ومن المعروف عن بعض أعضاء البرلمان اللبناني أنهم جمعوا ثروتهم منها . وعندما أقبل عام ١٩٧٨ أخذ اللبنانيون يصدرون ما يقدر بعشرة أطنان من الحشيش . وبعد أن قمت بزيارة بريئة إلى البقاع لكتابة تقرير عن المحصول ، رأيت اثنين من أبرز أسر الحشيش في بعلبك بمدينة بيروت . وكانا قد جاءا إليها

ليسألاني إذا كنت أرغب في شراء محصولهم . ولم يُجد نفيي لأي اهتمام لي بالمخدرات . إذ كانت زيارتي لحقول الحشيش ـ في نظرهم ـ دليلاً واضحاً على أني من المشترين ـ وسأل أحدهم :

ـ ما هي الكمية التي ترغب في الحصول عليها ؟ قلت :

ـ لا أرغب في الحصول على شيء منها . إنني صحفي . لا أريد أن أشتري حشيشاً . إنها الحقيقة . فقال :

ـ أجل ، أجل . ولكن كم تريد أن تشتري ؟ قلت :

ـ الحقيقة هي أنني مراسل صحفي . وأؤكد لكم أنني لا

أرغب في شراء أي حشيش . فقال :

ـ نتفق على الثمن . مئة وأربعون دولاراً للكيلو . إلى أين تريد منا أن

نرسله ؟

فقلت متوسلاً :

ـ أرجوكما . . . فقال :

ـ يمكننا إرسال الكمية عن طريق برلين الشرقية . فقلت :

ـ إسمعا . لا أريد أن أشتري حشيشكم . فقال :

ـ حسناً ، فإذن أفيون . فقلت :

ـ أرجوك أن تكف عن هذا .

كانت تلك الحقول الساخنة العطرة تخفي عن كل من يذهب إليها المحور الرطب الخطر لهذه الجنة ـ جنة المباهج الدنيوية . فالمرء يشعر وكأنه قد لسعه يعسوب جميل جناحاه رائعان إلى حد أن الملسوع لا يحس حتى باللسعة . وفيما بعد يبدأ حك البشرة الذي لا يلبث أن يتحول إلى خدش بسبب الغيظ ، ويحاول الضحية أن يتذكر كيف أصابته الخدوش . وبعد ذلك بوقت طويل تنتفخ البشرة ويبدأ الألم الذي يسبب الموت في أحيان كثيرة .

في وقت مبكر من هذا اليوم أبلغ عازر وايزمن مؤتمراً صحفياً أنه في أعقاب هجوم المسلحين الفلسطينيين قرب تل أبيب وهو الهجوم الذي قُتل فيه أكثر من ثلاثين يهودياً تقرر «تطهير جنوب لبنان من جميع تجمعات الإرهابيين مرة واحدة وللأبد» . وكانت الصفحة الثانية من الورقات التي طبع

عليها تقرير الوكالة الفرنسية للصحافة عن المؤتمر في جيبي عندما اتجهت بسيارتي إلى بيروت . وكنا نستطيع أن نشم رائحة الأزهار التي تتوج الأشجار ، ورائحة البرتقال التي تعبق بها البساتين عند الفجر . ولاحت أمامنا جموع من الناس ومئات منهم يسيرون على أقدامهم ويجرّون أنفسهم باتجاه الشمال . ورأينا الدخان المتصاعد من الحرائق فوق الأشجار . وفي تلك الأثناء كنا نسمع صوتاً متواصلاً زلزل السيارة وحتى الطريق . كانت الغارات الإسرائيلية قد بدأت .

وكم من مرة أسعفنا الحظ ببعض البنزين الذي يوصلنا إلى صور ، فهرعنا إلى ميدان القتال وفي جيوبنا أو على الرف الخلفي للسيارة قصاصات الورق المنتزعة من ماكنة الوكالة الصحفية بمكتب بيروت . ففي يوم الأحد الموافق في ١١ آذار/ مارس ١٩٧٨ استطاع مقاتلو فتح التسلل من لبنان وتجاوز الدوريات الإسرائيلية على الساحل قرب حيفا وقتل عدد من السياح على الساحل ، ثم خطفوا حافلة ملأى بالمدنيين واتجهوا بها إلى تل أبيب . وعندما اقتحم الجيش الإسرائيلي الحافلة في مكان قريب من المدينة قُتل ركاب الحافلة جميعاً ومعهم الفلسطينيون التسعة . وبلغ مجموع القتلى الإسرائيليين سبعة وثلاثين . وفيما بعد قالت فتح بأن كثرة من الإسرائيليين قتلوا برصاص جنودهم عندما اقتحموا الحافلة . وقد يكون هذا صحيحاً ، لكنه لا يبرر الهجوم الذي كان من الواضح أنه استهدف قتل المدنيين ، أنه لا بد بالتالي وأن يؤدّي إلى أعمال انتقام هائلة ضد اللبنانيين .

قال وايزمن : «آمل أن تفهم سوريا بأنها عملية محدودة في جنوب لبنان وأن تفهم الحكومة اللبنانية أنها عملية وقائية ، وأن يدرك باقي العالم المتحضر أنها موجهة في الأساس لمنع حدوث هجمات جديدة ضد سكان إسرائيل المدنيين من أمثال الذين فقدناهم» . وزعم الاسرائيليون فيما بعد أن هجمات منظمة التحرير الفلسطينية منذ عام ١٩٧٣ أدت إلى قتل ١٠٨ إسرائيليين . وكان الهجوم الذي يزمعون شنّه سيؤدي إلى قتل نحو ٢٠٠٠ شخص ، كلّهم تقريباً من المدنيين . وكان بعض هؤلاء الذين قُدّر لهم أن يكونوا بين القتلى هم من الذين رأيناهم يسيرون على الطريق العام .

وعند الساعة السادسة وحين كانت الشمس تختفي بين أشجار الصنوبر على الطريق شمالي الليطاني أوقفت السيارة وأخذت أنظر إلى اللاجئين . وجلست إلى جانب الأشجار وأخذت أسجل سير هؤلاء وأنا أتحدث في الميكروفون بعد أن لففت السلك حول رسغي لكي أتخلص من الأصوات التي كان سيسجلها لو بقي متدلياً . وكان علينا أن نشق طريقنا جنوباً عبر الجموع المتجهة شمالاً ، فأخذنا نصيح عليهم ليفسحوا لنا الطريق وذلك لأنهم كانوا يملأونها . وكان قد انحصر مئات منهم في هذا القسم من الطريق ، وبينهم الرجال الذين يرعون أفراد أسرهم ويسيرون معهم مشياً على الأقدام ،

والنساء والأطفال المحشورون في سيارات مهلهلة وكلهم يسيرون بسرعة أربع أميال في الساعة على الطريق إلى بيروت . وبالرغم من كل هذه الضجة كنا نسمع الدوي الذي يزلزل الطريق تحت أقدامنا . ولم نلبث أن سمعنا أزير الطائرات النفاثة في ذلك الفجر الجميل وهي تمر فوق رؤوسنا .

على أن الناس لم ينظروا إلى الأعلى . وأخذ بعضهم ينظر إلينا . ووقفت فتاة ترتدي تنورة طويلة وأخذت تحدق فيّ بعينين متعبتين ورفعت يدها قليلاً بتحريك رسغها وكفها إلى الأعلى . ولم يكن القصد من هذه الحركة في لبنان طلب الإحسان وإنما التعبير عن اليأس ، أو قول : «وماذا بإمكاننا أن نفعل ؟» وكان وراءها رجل مسن يقود ثلاثة جمال . ولا بد أنه كان من صميم الريف في أقصى الجنوب لأنه قلما تُرى الجمال في لبنان . وعلى أي حال فقد كانت مع هذه القافلة تحرّك قوائمها بخطى متزنة وعليها أكوام من الفرش والوسائد والآنية الفخارية .

وكان بين اللاجئين مسلحون وغالبيتهم من الشيوعيين الشبان الذين كانوا يعيشون في قرى الجنوب ويرون أن هذه الحرب ليست حربهم . ولم نرهم عندما وصلوا . وعندما عدنا إلى السيارة التي كانت على الجانب الأيمن من الطريق قام زافيم فارتان مصور الأسوشيتد برس الأرمني بقيادة السيارة . وجلس إلى جانبه روبرت دير الذي يعمل بمكتب الأسوشيتدبرس بلندن . وجلس معي في المقعد الخلفي مايكل دفي وهو مراسل للأسوشيتد برس يعمل بمكتب روما . وكانت أبواب السيارة لا تزال مفتوحة عندما توقفت فجأة سيارة جيب إلى جانبنا . وأخذ المسلحون الذين كانوا يجلسون في مقعدها الخلفي يصيحون علينا ويشهرون علينا بنادقهم .

ولم يتوقف سيل اللاجئين . ووقف بعضهم وأخذوا ينظرون إلينا . وكانت أمام السيارة امرأة تنشج . ومرت عربة ملأى بالأطفال النائمين يجرها حصان هزيل . والتقط فارتان صورة لبعض المزارعين وهم يجرون وراءهم محراثاً . وأخذ مسلح يلبس كنزة وبنطلوناً أسمر يصيح علينا قائلاً : «الصور ممنوعة ، الصور ممنوعة» . وهجم على السيارة فلسطيني آخر يلبس جاكتة تمويه وله شارب أسود أشعث ، وأخذ يصيح علينا وهو يدفع زناد بندقيته إلى الأمام ويشده إلى الخلف بعصبية . وفهمنا من ذلك أنه ينذرنا . وهذا يخالف ما يجري في أمكنة أخرى حيث ينذر أحدهم الآخر بقوله : «قف» أو «لا تتحرك» وإذا كان صاحب الإنذار ممن يذهبون إلى السينما فإنه يقول «تجمّد» أو «قف حيث أنت» . لكن في لبنان قد يشتم الواحد الآخر بصوت منخفض ثم لا تسمع سوى صوت البندقية .

وكنت لا أزال في السيارة عندما ركض الرجل نحوي وصوب علي بندقيته وصاح قائلاً «كذا أختك» . وهذه هي عادتهم بلبنان . فإذا كرهوا شخصاً انهالوا بالشتائم البذيئة على أسرته . وكان

يرجف من شدة الغضب ، وأخذت ماسورة بندقيته ترتطم بزجاج السيارة . ورأيت من خلال الزجاج الأمامي مسلحاً آخر يشد فارتان إلى الخلف ، فيقوم فارتان بفتح كاميرته وإخراج الفيلم الطويل الذي تدلّى من يده .

وفتح المسلح ذو الشارب الأشعث باب السيارة بعنف وقال لي «أعطني الفيلم» وكان يصرخ بصوت عال وهو يقول «أعطني الفيلم» فقلت : «لا فيلم لدي ، فأنا مراسل صحفي» . لكنه عاد وصاح : «الفيلم» فهرع إلينا فلسطيني آخر أكبر سناً وأسمح وجهاً وقال : «أوكي ، أوكي مستر . إصعد إلى سيارتك . أوكي» وعندما عدت إلى السيارة ذهب الرجل لإنقاذ فارتان . وكان دير جالساً في المقعد الأمامي ينظر إليّ بارتياح . فقال المسلح صاحب الشارب : «قلت لك أعطني الفيلم» فخرجت من السيارة مرة أخرى وقلت : «إسمع ، لا فيلم معي ، هذا مسجل كاسيت» . فقال :«كاسيت» وبدا وكأنني شتمته فقال : «كاسيت .كذا أختك . أعطني هذا الكاسيت اللعين» فانتزع الميكروفون من يدي وسحبه . فتركته بينما بقي السلك ملفوفاً حول رسغي . فلما تحرك وشد السلك الميكروفون صاح فيّ «أعطني هذا أيها السافل» وقلت له :«دعني أفك السلك عن رسغي» . فلما عجزت عن فكه أخذ يصيح «سافل ، سافل» وصوّب بندقيته إلى خصري ، ووضع يده على الزناد .

تعلمت فيما بعد أنه يتعيّن علي وأنا في لبنان أن أفكر ملياً وبسرعة عندما يحدث شيء من هذا القبيل . أما عندئذ فقد وقفت كالكلب وأخذت أتوسل . لكن تملكني شعور طاغ بأن الموت ليس مهماً إلى ذلك الحد ، وأنه ربما كان موضوع الموت كله مبالغاً فيه . وفعلت مثل الفتاة التي حركت يدها في يأس فوقفت في الطريق واستسلمت للقدر . لم أجد ما أقوله ، وتوسلت مرة أخرى .

ومرة أخرى قام الرجل المسن بإنقاذي . قال : «لا عليك . إذهب يا مستر» . فهجم الرجل ذو الشارب علي وحطم الميكروفون بقبضة يده مما أزال الغطاء وسقط الكاسيت البلاستك على الطريق . فأمسك به وكأنه مفتاح خلاصه وألقى به في جيبه كالطفل . وفي هذه الأثناء أخذ الرجل المسن يدفعني إلى داخل السيارة . وكان دفي يجلس إلى جانبي وهو يرتجف . وأدار فارتان محرك السيارة وانطلقنا بينما كان دير يدخن سيجارة .

كانت تلك تجربة مفيدة ، لأنها زودتني بفكرة عن مزاج الفلسطينيين في مناطق القتال التي كنا نقترب منها . لقد استولى عليهم الغضب والخوف . وكانوا قد تعرضوا للقصف بالمدافع ولغارات الطائرات . على أن مزاجهم كان معدياً . فنحن أيضاً كنا إذا زال الخطر يعامل أحدنا الآخر بضيق وغضب ، باستثناء بوب دير المصور بمكتب لندن . وكان قد تبنى نظرة خاصة به إلى احتمال الموت

المفاجئ . فعندما كانت تتساقط القذائف يقول : «لا تبقى الأشياء على حالها هنا» . ولا عجب فإنه شهد حروباً أخرى خارج لبنان .

وعند نهر الليطاني أصرّ دير على إيقاف السيارة ليلتقط ثلاث أو أربع صور للجسر الحديدي والقذائف تتساقط حوله . وكان الإسرائيليون يعتزمون احتلال لبنان حتى نهر الليطاني ، وسموا العملية «عملية الليطاني» وبهذا أبلغوا الفلسطينيين بأهدافهم الاستراتيجية قبل أن يصلوا إليهم . وكان من الممكن التنبؤ بالنتيجة . إذ سحبت منظمة التحرير الفلسطينية غالبية قواتها باستثناء قواتها في صور إلى ما وراء الليطاني قبل وصول الإسرائيليين . وعليه فقد وقعت الإصابات كلها تقريباً بين المدنيين .

ولم يستول الخوف على أحد أكثر من المدنيين الذين ظلوا في صور . وكان القيّم على المنارة قد هرب مع عدد من متوسطي الحال من الشيعة . وعاد إلى بيروت كذلك المسؤولون في جمهورية صور الشعبية . ولم يبق في وسط المدينة سوى بضع مئات من المدنيين الذين نزلوا إلى الطوابق الأرضية من بيوتهم الواقعة على اللسان البحري . واحتل الفلسطينيون ما تبقى من المدينة . فالفلسطينيون كانوا في كل مكان .

ووصلنا إلى الواجهة البحرية قبل العاشرة صباحاً بدقائق . وكان الإسرائيليون قد أحاطوا بالمدينة من الجنوب والشمال والشرق وتركوا طريق الساحل إلى الليطاني مفتوحاً . وهذا الطريق المفتوح هو الذي عُرف بلسان أو «جيب» صور . وافترض الإسرائيليون أن يكون الفلسطينيون قد فروا مع باقي السكان .

وكان على الواجهة البحرية مسلحون غالبيتهم من الجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين وبينهم شيوعيون ويساريون فلسطينيون لطفاء يختلفون في نظرتهم للحرب عن رجال منظمة التحرير . إذ كانوا يعتبرونها حتمية سياسية لا كارثة . وكانت تشاهد قوارب إسرائيلية صغيرة مسلحة تشق الأمواج وتدور في البحر . وكانت كلما أطلقت قذيفة نحونا سمعنا دوي إطلاقها وأزيزها ، ورأيناها تنفجر على الساحل فتثير الرمل وترش الماء . وطوال ذلك كانت النفاثات فوق رؤوسنا بصورة دائمة جعلتها شيئاً مألوفاً . وكنا في كل دقيقة أو نحو ذلك نسمع صوت قذيفة تطلق وتنفجر على التلال شرقي المدينة تاركة أعمدة من الدخان المتصاعد في الجو . وهكذا أخذت القذائف تسقط على أطراف المدينة .

وكان يقف بجانبنا رجل في الخمسين من عمره من الجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين . لكنه كان ينظر إلى ما يجري باهتمام أكاديمي ، فيلفت نظرنا إلى إطلاق النار أو القصف كما لو كان معلماً يدرب طلابه ويعلمهم المبادئ الأولية في الحرب . فكان يبيّن لنا الفرق بين القذائف الذاهبة والآيبة

ويقول بأنه لا حاجة إلى الاختباء عندما تنطلق القذيفة من مدافع المورتر بالمدينة باتجاه الجنوب ، وأن المرء لا يرى المسلح الذي يطلقها ، ولكن الصوت الأجوف يدلك على أن القذيفة خارجة من المدينة إلى الجنوب . لكن عندما يرى المرء الدخان الأسود فوق القارب المسلح ، عليه أن يقف خلف حائط حتى يسمع انفجار القذيفة . ثم أشار الرجل إلى السماء حيث كانت ترتسم ثلاثة خطوط من الخطاط وقال إنها صواريخ سام .

وحشد الإسرائيليون ٢٥،٠٠٠ جندي على الأقل لمهاجمة بضع مئات من المسلحين الفلسطينيين . وكان من الواضح أنه إذا كان الغرض هو القضاء على بضع قواعد فلسطينية في الجنوب فإن الأمر لا يتطلب كل ذلك العدد من الجند . وعلى أي حال فقد تحدث بيغن ، رئيس وزراء إسرائيل ، عن عزم إسرائيل على «اقتلاع الشر الذي غرسته منظمة التحرير الفلسطينية» ومن ثم أخذ الإسرائيليون يكررون هذه العبارة المجازية . وقال لنا أحد الإسرائيليين الغزاة فيما بعد بأن الفلسطينيين مدنيين ومقاتلين ليسوا سوى سرطان . وشبّه أحد كبار الضباط الإسرائيليين بعد أن تقاعد الفلسطينيين بـ «الصراصير» وفوق هذا كله كان الفلسطينيون في نظرهم إرهابيين . ولم تلبث كلمة إرهابي أن أصبحت كابوساً أو سرطاناً في إسرائيل ذاتها . فالإرهابيون حيوانات لا بد من القضاء عليها . وأخذت الإذاعة الإسرائيلية تستخدم الكلمة في كل بث إذاعي . بل صارت الكلمة جزءاً من كل فقرة أو حتى جملة تذاع .

وكنا كل صباح عندما نغادر بيروت نفتح الراديو على الإذاعة الإسرائيلية من القدس . وفي كل مرة كان مذيع الأخبار يعلن أن الإسرائيليين يهاجمون «خطوط إمداد الإرهابيين» كنا نفهم المعنى الحقيقي لما يقوله . إذ كان خط الإمداد هو طريق الساحل الذي كان اللاجئون يسيرون عليه هرباً من الحرب . وما كان يقصده دائماً هو أن الطريق كانت هدفاً للقصف الشديد . وفي مثل تلك الحالات كان يستولي علينا الخوف وننطلق بأقصى سرعة . على أنه في ذلك الصباح قال : «شنت القوات الإسرائيلية هجوماً على القوات الإرهابية على طريق الساحل جنوب صيدا» . فاستولت علينا الحيرة ودرنا واتجهنا جنوباً .

وفي هذه المرة كانت على الطريق أعداد أكبر من الناس ومن عربات المزارع وسيارات الأجرة والحافلات القديمة . وكانت علامات الضياع البادية على الوجوه تدل على أن أصحابها قد تركوا كل ما يملكونه ، وأنهم أمام مستقبل مجهول . ولم نكد نصل إلى قرية عدلون الساحلية حتى وجدنا المسلحين الفلسطينيين يملأون الطريق وهم يصرخون ويومئون باضطراب شديد للسيارات لتخفف من سرعتها .

وعندما رأينا طبيباً يلبس رداء أبيض ملطخاً بالدماء ويقف أمام سيارة اسعاف قديمة ويداه ممدودتان أمام جمهور صغير من الناس ، أدركنا أن مذبحة ما قد وقعت . وكانت وراءه سيارتان أصابتهما القذائف التي شقت هيكلهما وأشعلت بهما بعض الحرائق . وكان الفلسطينيون يسحبون كتلاً ثقيلة وناعمة من أبوابهما .

كانت الجثث قد اختلطت داخل السيارة . وأخذ شاب فلسطيني يحمل بندقية على كتفه يسحب ذراعاً ممدوداً من أحد نوافذ السيارة ، فوجد نفسه يجر جثة أحد الضحايا . لكن ما لبث الذراع أن انفصل عن الجثة . فوقف مذهولاً والذراع بيده .

واستدل الفلسطينيون على النساء والأطفال لا من الوجوه التي احترقت وإنما من الثياب الزاهية المشجرة . وكانت إحدى الجثث بلا رأس . ووجدت جثة فتاة صغيرة متكومة في حضن إمرأة مسنة على المقعد الخلفي لاحدى السيارتين . فمد فلسطيني آخر رأسه وأحاط بالفتاة بين ذراعيه وسحبها بلطف وحياء إلى باب السيارة . ولكنه لم يكد يخرجها من السيارة حتى سقط وجهها على الأرض ، فألقى الفلسطيني باقي جثتها وأخذ يتقيأ .

وفي تلك الأثناء كانت حول السيارتين نساء يصرخن ويندبن وإلى جانبهن نقالة تحمل طفلاً شطرت الشظايا جثته . ترى هل يمكن لأي أمرئ أن يصف هذا كله؟ لو كنا نكتب رواية أدبية أو نعد تقريراً طبياً ربما وقفنا عند تفصيلات مشاهد رهيبة كهذه . وحدث أن وصل مراسل صحفي أميركي . وما أن شاهد ما أمامنا حتى انفجر باكياً وهو يستعيذ بالله . ثم استند إلى سيارة الإسعاف وقد علت وجهه الكآبة وقال : «أعتقد أن سبب هذا كله هو ما فعله هتلر باليهود» .

وفي تلك الأثناء كانت الشاحنات المحملة باللاجئين تحاول المرور . ولهذا خففت سرعتها إلى حد أن صارت تزحف زحفاً . وكان باستطاعة المرء أن يرى الكبار بين الركاب يحاولون أن يلقوا نظرة على الجثث . وأخذ الأطفال ينظرون هنا وهناك وكأنهم لا يفهمون معنى الأشياء . وكان عدد الضحايا اثني عشر ، ست جثث في كل من السيارتين المحطمتين .

ولا ريب في أن ما حرق هؤلاء الأطفال والنسوة أصابهم فجأة ومن غير أن يتوقعوه ، فحدث ما حدث . وكان الإسرائيليون الذين أغاروا عليهما قد أنزلتهم القوارب إلى الساحل قرب عدلون في الليلة السابقة للبحث عن «الإرهابيين» ورأوا أضواء السيارتين وهما تقتربان فأطلقوا عليهما الصواريخ المضادة للدبابات . ولم يكن هناك وقت لمحاولة التعرف على هويتهم . وعلى أي حال فهل كان على الطريق غير «الإرهابيين» ؟ وكنت لا أزال احتفظ بتقرير وكالة الصحافة الفرنسية في جيبي .

ويذكر أن وايزمن قال : «لقد أمرت القوات الإسرائيلية بأن تسعى جهدها . . . لتجنب الخسائر من السكان المدنيين» .

واتجهنا بالسيارة إلى النبطية التي كانت شبه خالية إلا من بعض الفلسطينيين الذين تواروا بين الأشجار وهم يحملون قاذفات الصواريخ والبنادق . وكانت في الشارع الرئيسي سيارة جيب لا أحد فيها وبلا حراسة . وكان يتدلى من حاملها الثلاثي الخلفي رشاش وعلى مقدمتها علم فلسطيني ممزق .

ثم قعقعية الجسر . وكنا ندوّن مثل هذه الأسماء في مفكراتنا من غير معرفة دقيقة بالمكان . إذ لم يكن لدينا وقت للنظر إلى الخريطة . ولدى عودتنا إلى بيروت كنا ننظر في المواقع فوق الليطاني فنحدد الموقع الذي كنا فيه . وسمعنا صوت الطائرات مرة أخرى . وظلت تزمجر فوق رؤوسنا قرابة خمس دقائق . ولم نستطع خلال ذلك رؤيتها بسبب أشعة الشمس المتوهجة . ثم وقعت الانفجارات في البيوت القائمة على جانب النهر المقابل . وكان يقف بجانبنا فتى فلسطيني لا يتجاوز الرابعة عشرة عليه سترة ميدان وبيده بندقية . وكان يحاول معرفة ما إذا كانت الطائرات قد دمرت القرية التي كنا فيها أو قرية أخرى على الجانب الآخر من النهر .

وقفنا على الطريق وأخذنا ننظر صوب قرية عدشيت . واستطعت مشاهدة صفوف من البيوت على الجهة الأخرى من الوادي والمسجد الذي تغمره أشعة الشمس . وكنت لا أزال أنظر إليها عندما سمعت صوت شيء نازل كالشهاب لم يلبث أن تحول إلى أزيز آخذ بالارتفاع يشبه صوت إبريق الشاي عندما تقترب حرارة الماء من درجة الغليان . ثم لم تلبث عدشيت أن غرقت في نار متوهجة أخذت تجتاح الشوارع في أقل من خمس ثوان . وبينما كان عمودان من الدخان الأسود يشقان طريقهما فوق التلال دوّى الانفجار في قعقعية الجسر . وزلزلت الطريق والبيوت واقتلعت حديد النوافذ وألقت بحطامه حولنا ، فأصابت الشظايا زجاج السيارة . فابتسم الصبي الفلسطيني ثم أخذ يضحك بينما كانت القرية على الجانب الآخر من النهر تنفجر . إذن فالقرية التي انفجرت لم تكن القعقعية . وهذا ما سرّ الصبي .

كان سكان صور عندئذ من المسلحين الفلسطينيين الذين لم يبق غيرهم جنوب نهر الليطاني . وكان الجسر على النهر لا يزال قائماً بالرغم من أنه كان يصعب أحياناً معرفة الجيش الأكبر خطراً . ففي ١٨ آذار/ مارس وعند تقاطع الطرق على واجهة البحر في صور اقترب مسلح يرتدي ثياباً سوداء من سيارتنا . وكان يسوق السيارة هذه المرة فارتان وإلى جانبه دير كالعادة . فشهر المسلح مسدسه ووضع

فوهته على زجاج النافذة المجاورة لفارتان ، وقال : «خذنا معك إلى الشمال . وإذا لم تفعل كما أقول سأطلق النار وأخرج مخك من رأسك» . وكان هذا المسلح يريد الفرار . ولم يكتف بوضع أحد زملائه في المقعد الخلفي داخل السيارة بل أراد أن نجر له أيضاً مدفعاً مضاداً للطائرات . فقال دير لفارتان قبل أن يرى المسدس : «قل له أن ينصرف» فعندما وقع نظره على المسدس . قال : «إفعل كما يريد» . فركض نحونا من الجانب الآخر ثلاثة فدائيين . وشهر أحدهم بندقيته على حامل المسدس وقال : «اترك الصحفي . لن تستطيع الهرب . عليك أن تبقى هنا وأن تموت معنا» .

كانت المدينة القديمة تتعرض للقصف ليل نهار . وكان الصحفيون يلجأون إلى مقر الصليب الأحمر الدولي في فندق على الشاطئ .فسقطت القذائف على الزقاق المؤدي إلى الفندق وضربت أقرب مجمعات الشقق . وهكذا فإن الإسرائيليين قد أشعلوا نار الحرب التي ستنزل أكبر الضرر باللبنانيين . وكنا نمر بهم صباح مساء وغالبيتهم من المزارعين الذين يعملون في أراضيهم .

هل يمكن لأحد أن يلومهم على تصميمهم الذي لا يتزعزع على الهرب من النار في الجنوب ؟ لقد هرب منهم لا أقل من مئة ألف تمكن بعضهم من تدبير أمره ، واعتمد البعض الآخر على مساعدة الآخرين في الوصول إلى بيروت للإقامة في الأحياء الفقيرة بالضاحية أو حول الأوزاعي . ويبلغ المجموع الكلي للاجئين ـ حسب تقديرات الحكومة اللبنانية ـ ٠٠٠ , ٢٨٥ لاجئ .

وفي إحدى الأمسيات وبينما كنت عائداً من الدامور وجدت أن السوريين كانوا قد أقاموا حاجزاً في وجه المتجهين إلى الشمال وأنهم يأمرون اللاجئين بالعودة إلى مناطق القتال والبقاء في بيوتهم . وشرح ضابط سوري لنا ما يحدث بقوله : «يزعم اليهود أنهم في فلسطين وجدوا أرضاً بلا شعب . فإذا لم يعد اللاجئون فإن الإسرائيليين سوف يستولون على جنوب لبنان ويزعمون أنهم وجدوا أرضاً أخرى بلا شعب» . وعندما اشتد ضغط اللاجئين وأخذوا يبعدون السوريين بالقوة ،عمد بعض الجنود إلى كسر زجاج السيارات بأعقاب بنادقهم .

وبعد ذلك بأسبوع استطعنا أن نشاهد آثار ثلاثين قذيفة على العوارض الخشبية لجسر الليطاني وعلى سطح الأرض على جانبيه . ونظراً للأضرار الكبيرة التي لحقت به اضطررنا إلى السير عليه بسرعة ثلاثة أميال في الساعة بينما كان الإسرائيليون يراقبوننا من رأس تلة تقوم إلى الجنوب الشرقي . وتمكنا بالفعل من أن نراهم يرقبوننا وهم يقفون هناك . وبعد أن أخذنا نقطع الجسر بثوان سمعنا صوت قذائف تنطلق نحونا . ولم يكن أمامنا سوى سبيل واحد لخداع الإسرائيليين . فقد اتجهنا إلى الشمال نحو حافة الجسر الشمالية بسرعة ٧٠ أو ٨٠ ميلاً في الساعة وشددنا بعد ذلك على الكوابح

(البريكات) ومن ثم زحفنا بينما كان الإسرائيليون يتأهبون لإطلاق النار ، ثم أسرعنا في الانتقال إلى الجهة الأخرى . ولم نكد نفعل ذلك حتى سقطت القذائف الأولى على الطريق . ودرجنا على اتباع هذه الوسيلة كلما سرنا في الإتجاه المعاكس . وكانت الروائح الكريهة تنبعث من الكوردايت (المتفجر) كما أن المدنيين الذين لم يغادروا والذين لم يخططوا مثلنا لاجتياز الطريق كانوا لا يزالون في الأخاديد بجانب الطريق . وفي منتصف الطريق بحذاء الطرف الجنوبي للجسر كانت قد أصيبت سيارة فولكسفاجن قديمة بقذيفة فبقيت هناك ثلاثة أيام . وكنا كلما مررنا بها نجد أن الروائح البشعة المنبعثة منها قد ازدادت حدة .

ولم يبق في صور ذاتها من سكانها المدنيين الذين بلغ عددهم قبل الغزو ٦٠،٠٠٠ سوى ثلاثمائة . وبنى بعض هؤلاء جدراناً صغيرة من الحجارة طول الواحد منها قدمين أو ثلاثة أقدام . وأرادوا أن يكون في ذلك رسالة للفلسطينيين تطلب منهم مغادرة المدينة ،وللإسرائيليين تطلب منهم الكف عن قصف المدينة . وكان الفلسطينيون عندئذ ينسحبون من صور ولكن بأعداد غير كبيرة . وفي شمال النبطية كانوا قد أخذوا يتلقون إمدادات عراقية . وشاهد المراسلون الصحفيون شاحنات عراقية متجهة إلى الجنوب بمواكبة الجنود السوريين .

كان هذا هو اليوم التالي لليوم الذي وجدنا فيه أنفسنا بالصدفة نقطع الخطوط الفلسطينية خارج صور ، ونمر بالمسلحين الذين كانوا يجلسون بين الأشجار إلى جانب مدافع المورتر ، ونسير صعداً في الطريق الهادئة المحاذية للناووس الفينيقي الحجري الذي يعتقد أنه يضم رفات حيرام ملك صور الذي أرسل أرز لبنان إلى الملك سليمان لبناء الهيكل في القدس . ولا بد أن الدبابة الإسرائيلية التي قصفتنا ونحن في الحقل تحت قانا فعلت ذلك كجزء من عملها الروتيني . فمن الذي كان يمكن أن يتواجد على الطريق سوى «الإرهابيين»؟ لقد كاد ديفيد هيرست مراسل جريدة «الغارديان» اللندنية أن يقتل في اليوم التالي عندما أطلقت دبابة إسرائيلية مدافعها عليه وعلى زملائه في قرية مجاورة ، فلجأوا إلى مدرسة قريبة . وقال الإسرائيليون الذين وجدوهم وأرسلوهم إلى القدس أنهم افترضوا أن هيرست وصحبه «إرهابيون» مثلهم في ذلك مثل المدنيين على طريق الساحل شمال صور أو سكان عدشيت وغيرها من قرى جنوب لبنان .

إن كابوس «الإرهابيين» البشع هذا الذي أنزل أي شخص ـ أجل أي شخص ـ في منطقة الحرب إلى مستوى الحيوان كان مسؤولاً على الأقل عن جريمة أخرى اقترفها الإسرائيليون . فقرب قرية لبنانية جنوبية تحتلها القوات الإسرائيلية قام اللفتنانت دانيل بنتو ، قائد جماعة من المشاة الإسرائيليين بالنيابة ، بشنق أربعة مزارعين لبنانيين وجدت جثثهم وأيديهم وأرجلهم مكبلة في أحد الآبار . وأمر

ضابط آخر ، وهو اللفتنانت كولونل أريه ساديه بإعدام واحد من سجناء كتيبته خلال الأيام الأولى من الزحف على لبنان . وحوكم بنتو من قبل محكمة عسكرية بتهمة ارتكاب الفظائع لكن الجنرال رفائيل إيتان رئيس هيئة أركان الجيش الإسرائيلي خفف الحكم الصادر عليه إلى سنتين ثم أمر بإطلاق سراحه . أما ساديه فقد حكم عليه بالسجن سنتين ونصف السنة وبإنزال رتبته إلى رائد . لكن هذا الحكم رفع بعد الإستئناف إلى سجنه خمس سنوات وانزال رتبته إلى جندي عادي . إلا أن إيتان أرجع عقابه إلى الحكم الأول . إذ كانت أوامره للجيش المشارك «بعملية الليطاني» تقضي «بإبادة الإرهابيين وتدمير بنيتهم التحتية» . لكن من هم الذين كان الإسرائيليون يحاربونهم في هذه المرة؟

لقد تبادر إلى أذهان أهل صور أن حربهم انتهت في ٢١ آذار/ مارس ، فقال رجل مسن يعاني من شيء من العرج ويلبس جاكتة ممزقة وهو يقترب منا «لقد سمعت هذا من إذاعة ال «بي بي سي» بلندن ـ وقف إطلاق النار .لقد دعا الإسرائيليون إلى وقف إطلاق النار» ولم نر حاجة لوصف ظروف وقف إطلاق النار له .

ففي التاسعة تماماً وبدقة بيروقراطية أخذت المدافع الإسرائيلية تطلق حممها من وراء كروم الزيتون الواقعة جنوب صور ، فتحدث دوياً هائلاً يعقبه انفجارها في بعض مجمعات الشقق السكنية قرب مقر الصليب الأحمر . وبعد أن ضربت هذه القذائف سقوف المباني وجدرانها أخذت تتساقط على الاستاد الروماني لصور القديمة الواقع إلى الجنوب . وكان الذي سقط أولاً هو شرفات مبنى يتألف من ستة أدوار مع النوافذ . فلا بد أن الاستخبارات الإسرائيلية كانت قد علمت بوجود مكتب فلسطيني فيه . لكن الذي لم تعرفه تلك الاستخبارات أن الفلسطينيين كانوا قد غادروه قبل ذلك بأربعة أيام . وعليه فكان المدنيون هم الذين سيخسرون بيوتهم . وعندما تبدد الدخان المنبعث من المبنى رأينا الغسيل المعلق على الشرفة الوحيدة التي سلمت . وفي الساعة الثانية بعد الظهر وبعد القصف الذي كان أحياناً يجري بمعدل قذيفة كل عشر ثوان أو أقل سمعنا راديو إسرائيل يعلن أن جنوب لبنان «أصبح نسبياً ينعم بالسلام» .

لكن نسبة إلى ماذا ؟ لقد احتل الإسرائيليون هذا الحزام الضيق من الأرض جنوب الليطاني . لكنهم صاروا الآن هدفاً للصواريخ التي يطلقها الفلسطينيون من شمال النهر . فالأمر لا يعدو انتقال الخط الإسرائيلي الفلسطيني بضعة أميال إلى الجنوب ، لكنه أودى بحياة ٢٠٠٠ لبناني وفلسطيني وعشرين إسرائيلياً . ووافق الأمريكيون على دعم قوات الأمم المتحدة في جنوب لبنان ، وهو جيش دولي حمل اسم «يونيفل» المكوّن من الحروف الأولى من اسم القوات بالإنجليزية .

صحيح أن الإسرائيليين أرجعوا منظمة التحرير الفلسطينية خلف الحدود ، ولكن الفلسطينيين ظلوا داخل قلعة الشقيف التي يستطيعون منها إطلاق صواريخ الكاتيوشا على الجليل . إذاً لماذا قامت إسرائيل بالغزو؟ أخبرني وليام ريز ـ موج الذي كان عندئذ محرر «التايمز» أنه لن يبعث مراسلاً صحفياً لتغطية الحرب إلا إذا كان المراسل على يقين من أنه يعرف أسباب نشوبها . والواقع أننا قضينا سنوات قبل أن ندرك أننا لن نكتشف الأسباب الحقيقية لأي حرب إلا بعد مرور زمن طويل على انتهائها . ومهما يكن من أمر فإن الشرط الذي وضعه ريز ـ موج لم يكن متوفراً لدي . فقد كان على المراسلين الصحفيين ـ كاللبنانيين ـ أن ينتظروا حتى تنتهي الحرب . وفي لبنان ـ بالطبع ـ لم تنته الحرب . فلم نفهم المعنى الحقيقي لهذه المغامرة الدموية الصغيرة إلا بعد أربع سنوات .

وفي ٢٢ آذار/ مارس خرجنا بالسيارة في مشوار قصير خارج صور عبر بعض البساتين فوجدنا أنفسنا أمام حاجز إسرائيلي . فقلنا معاً : «شالوم» للجندي الأشقر الروسي المولد الذي اقترب منا . ولو حدث هذا قبل أربع وعشرين ساعة لكنا من «الإرهابيين» أما الآن فسألنا إذا كنا سياحاً . وقال : «لم نكن نظن أننا سنصل إلى هذا المكان . «فالإرهابيون لم يحاربونا كثيراً . وغالبية الإرهابيين لم يحاربوا كما يجب . لم يفعل ذلك إلا بعضهم ـ قليلون منهم . وقد فرّ جميع الإرهابيين تقريباً» .

ونظر حوله إلى تلال جنوب لبنان الوادعة وإلى قلعة الشقيف الضخمة عبر الضباب الساخن . ثم أضاف شيئاً غير عادي بقوله : «من المؤكد أن هذه بلاد جميلة» .

كان قد لسعه يعسوب ، ولكنه لم يحس حتى باللسعة .

الفصل الخامس

«رجل مهذب».. من مرجعيون

«اتصل بي ضابط إسرائيلي . . . لينذرني بأنه يحتمل أن يقوم المسيحيون بإطلاق النار علينا . وأخذ يقدم أعذاره على الراديو ويصيح : «سيطلق المسيحيون النار خلال ست ثوان ـ خمسة ـ أربعة ـ ثلاثة ـ اثنان ـ واحد ، وبعد حوالي ثانيتين أخذت القذائف تتساقط خلف خطوط قوات هيئة الأمم . كم كان هذا الضابط دقيقاً . . . كان هو الذي يطلق النار» .

ضابط الكتيبة الهولندية ـ قرية حاريص

جنوب لبنان

أيار/ مايو ١٩٨٠

في ٢٣ آذار/ مارس ١٩٧٨ عاد الفرنسيون إلى لبنان . وتوجهوا من بيروت على الطريق الساحلية بقبعات الأمم المتحدة الزرقاء على متن ١٤ شاحنة بطلاء أبيض . وعبروا حطام جسر نهر الليطاني إلى صور . وكان بعض الفتيان والفتيات في القرى الشيعية الفقيرة يطلقون صيحات التشجيع للجنود في شاحناتهم . أما القلّة من الرجال الأكبر سناً فقد أطلقوا هتاف «تحيا فرنسا» . وقد لقيت هذه البادرة صدى طيباً لدى الكولونيل جان جيرمين سالفان الذي وقع على كتيبته من المظليين الفرنسيين شرف تأليف جزء من مقدمة جيش الأمم المتحدة الجديد .

وساروا في شاحناتهم المفتوحة عبر حقول البرتقال مروراً بالصفوف الطويلة من أشجار الصنوبر كممثلين لجيش أجنبي آخر آت لإنقاذ لبنان . وعندما وصلوا إلى صور شاهدوا الفدائيين الفلسطينيين في الشوارع ، مسلحين لا مهزومين . أما وقد رفض هؤلاء الفدائيون التراجع أمام الإسرائيليين فإنه لم يكن من المحتمل أن ينسحبوا عند وصول الفرنسيين .ورفع بعض الفلسطينيين بنادق الكلاشينكوف

فوق رؤوسهم تحية وهو نوع من الترحيب يحب الجنود الفتيان أن يروه في وطن آخر . فرد الفرنسيون التحية بالتلويح للفلسطينيين مدركين أن صور ستكون قريباً تحت السيطرة الحصرية للأمم المتحدة . وكان هذا هو معنى انتدابهم بموجب قرار مجلس الأمن الدولي ٤٢٥ .

هذه الوثيقة كانت مزيجاً من الأخلاقية والسذاجة والغباء بنسب متساوية تقريباً . فقد نص القرار على أن جيش الأمم المتحدة «سيؤكد انسحاب القوات الإسرائيلية ، ويعيد السلام الدولي والاستقرار ، ويساعد الحكومة اللبنانية في تأمين عودة سلطتها الفعالة في المنطقة . وأنه كذلك سيبذل أقصى الجهد للحؤول دون عودة القتال ولمنع استخدام منطقة عملياته لأعمال عدائية من أي نوع» . وأقل ما يقال في ذلك التعهد أنه تعامى ، وافترض أن إسرائيل ستنفذ انسحاباً كاملاً ، وأن الحكومة اللبنانية أكثر من بيروقراطية عاجزة . فالسلطة الفعالة لهذه الحكومة لم تكن موجودة في جنوبي لبنان لعدة سنوات ،ولم يكن من المحتمل أن يكون هذا الخليط الغريب من الكتائب الدولية التي كانت تستعد للإقامة في المنطقة قادراً على تغيير هذا الأمر .

كانت قوات الأمم المتحدة بموجب انتدابها ستحمل أسلحة دفاعية الطابع . وكان من الممكن لها القيام بواجباتها ـ وربما تمكينها من القيام بشيء من فرض السلام في جنوب لبنان ـ لو لم يكن على الجنود الاعتماد على مساعدة الإسرائيليين والفلسطينيين . ولكن ، وللتأكيد ، فقد أعلن قرار الانتداب أن قوات الأمم المتحدة «ستعمل بناء على افتراض أن أفرقاء النزاع سيتخذون كل الخطوات اللازمة للإنصياع لقرارات مجلس الأمن» . لم تكن المسافة بين مقر الأمم المتحدة الشاهق ذي الواجهات الزجاجية على النهر الشرقي وبين التلال في جنوبي لبنان كبيرة ، ومع ذلك فلم يسبق أن مرت قذيفة فوقه أو قضت على موظفي الأمين العام . لقد تمت صياغة الإنتداب على أساس افتراض جريء وهو أن الأمم المتحدة منظمة مهيبة إلى حد أن الجميع وخاصة الميليشيات اللبنانية وحلفاءها الإقليميين الكبار سيتحاشون التصدي لها . لكن بعيد العاشرة صباحاً في الثالث والعشرين من آذار/ مارس ، وفي ثكنة حسن برو القديمة جنوبي صور ، تلقى الفرنسيون أول إشارة إلى أن هذا غير صحيح .

وكان جيش لبنان العربي وهو الجناح الإسلامي المنشق من الجيش الوطني قد احتل تلك الثكنة حتى الإجتياح الإسرائيلي حين قام هذا الجيش ، وكان في ذلك مصيباً ، بالإنسحاب دون ضجة ، تاركاً للفلسطينيين أن يدافعوا عن هذا الحصن تحت نيران القصف الإسرائيلي . ولذا فقد كان القائد الفلسطيني المحلي ، أبو سيف ، أول من عرض تسليم الثكنة للكولونيل سالفان . وبعد دقائق فقط من قيامه بهذا ، توقفت سيارتان أمام الثكنة وترجل منهما ثلاثة رجال . وقدم الأول نفسه كضابط في جيش

لبنان العربي . أما الثاني فقدم نفسه كأحد موظفي وزارة الدفاع وممثلاً للجيش الوطني «الجديد» وكان الرجل الثالث حارسه . وأعلن العسكريان أنهما قد جاءا لإستعادة الشكنة . فعلت زمجرة الفدائيين الفلسطينيين الذين كانوا على البوابة للتعبير عن استيائهم من ذلك .

وقام واحد منهم يلف رأسه بكوفية رمادية وبيضاء بسحب مسدسه من حزامه ، واتهم موظف وزارة الدفاع بأنه كتائبي . حين ذاك سحب الحارس مسدسه ، فقام فلسطيني آخر على المدخل بوضع قذيفة في جهاز إطلاق الصواريخ ضد الدبابات . في هذه اللحظة تسنى للملازم في البحرية الأميركية كونواي زيغلر ، أن يغتنم لنفسه هنيهة في التاريخ اللبناني . وقد كان هذا الملازم ملحقاً بصورة مؤقتة بقوات الأمم المتحدة لأنه يتحدث بالعربية التي لم يكن الفرنسيون يجيدونها . فتقدم هذا الملازم بخطى واسعة بين الرجال على البوابة ورجا الجميع أن يضعوا سلاحهم جانباً . وكانت هذه واحدة من آلاف التسويات التي تمت بإشراف الأمم المتحدة . وأوقف الفلسطينيون موظف وزارة الدفاع ونقلوه بأحدى السيارات ، بينما احتمى ضابط الجيش العربي اللبناني بالفرنسيين . واختفى المسلح الذي كان يرافقهما .

وعندئذ شعر الفرنسيون بالإرتياح ، وجلسوا تحت شاحناتهم ، وأخذوا يطبخون علب الفاصوليا على مواقد صغيرة إلى أن سُمع صوت صراخ منبعث من البوابة الرئيسية . وكان عدد من الفلسطينيين المدججين بالسلاح قد شقوا طريقهم بالقوة وتجاوزوا حارس الأمم المتحدة ، وأخذ واحد منهم يشتم المظلي الفرنسي الذي أشهر بندقيته بوجهه . فنصبت قوات الأمم المتحدة رشاشاً قرب الشجر في الجهة الغربية من الثكنة . وتذكر ضابط من سلاح الطيران الإيرلندي ، وهو الكابتن مارتن إيغان ، تجربة بلاده الدموية مع الأمم المتحدة في الكونغو . فسألنا هل يحدث الأمر على ذلك النحو هنا؟ فقلنا : «إنه سيكون أسوأ بكثير كما سيتضح . ومع حلول الليل كان لا يزال هنالك فلسطينيون في داخل القاعدة الفرنسية . وكان لا بد من مرور أسابيع لإقامة علاقات رسمية بين الأمم المتحدة ومنظمة التحرير الفلسطينية (م . ت . ف .) .

وفي بادئ الأمر ، لم يظهر معارضو ياسر عرفات المتطرفون داخل م . ت . ف . أي ميل للقبول بوجود للأمم المتحدة في جنوب لبنان ، وخصوصاً في المدينة التي تمسكوا بها تحت القصف الإسرائيلي . وتجاهلت الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ، والجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين ، وجبهة التحرير العربية الموالية للعراق أوامر رئيس منظمة التحرير الفلسطينية بالتعاون مع الكتيبة الفرنسية العاملة في إطار الأمم المتحدة ، واستمروا في مضايقة الجنود الفرنسيين . وفي بعض الحوادث نسي الفرنسيون ـ وهم خلف الجيش نفسه الذي كان يسيطر على لبنان أيام الإنتداب ـ أن

عليهم التفاوض من أجل الوصول إلى نهاية للقتال . وقاموا بدلاً من ذلك بتهديد الفلسطينيين . وبينما كان سالفان ، في أوائل أيار/ مايو ، يتنقل في إحدى سيارات الجيب التابعة لفتح ، أطلقت النار من قبل عناصر منشقة من م . ت . ف . على سيارته ، مما تسبب له بجروح بالغة في كلا الساقين ، ومقتل جنديٍ فرنسي وسائق سالفان الفلسطيني . وقد أدان عرفات محاولة الإغتيال معتبراً إياها جريمة ، وأضاف ، طبعاً ، إنها «مؤامرة ضد الثورة الفلسطينية» .

إلا أن إسرائيل هي التي دمرت أي فرصة للأمم المتحدة لتنفيذ انتدابها . فقد صرح الجنرال موردخاي غور ، سلف إيتان كرئيس لهيئة الأركان الإسرائيلية ، بينما كان جيشه يجتاح لبنان في آذار/ مارس ١٩٧٨ ـ وقبل أن توجد قوات الأمم المتحدة ـ أن في نيته «الإنسحاب إلى الجيب المسيحي بين المتوسط وجبل الشيخ لتشكيل حزام أمني على طول الحدود الإسرائيلية ـ اللبنانية . ولكن بشكل أو بآخر ، صار هذا «الحزام الأمني» الذي سيصبح أقل المناطق أمناً وأشدها خطورة في البلاد أحد معالم جنوب لبنان الدائمة . وبالرغم من خضوعه للإمرة العسكرية الإسرائيلية فان سادة الحزام الإسميين هم رجال الميليشيا المسيحية الذين كانوا يقاتلون الفلسطينيين واليساريين طوال الأعوام الأربعة الماضية . وهؤلاء مجموعة من القتلة الكتائبيين ، والجنود الفارين من الجيش الوطني ، والمجرمين المحليين الذين اشتهروا خلال اجتياح ١٩٧٨ بمجزرة بالغة الوحشية .

أجبر هؤلاء مجموعة كبيرة من الرجال والنساء والأطفال الشيعة على التجمع بمسجد في قرية الخيام ، وذلك تحت أنظار الضباط الإسرائيليين ، وأطلقوا عليهم النار وقتلوهم . وما كان لهذه المذبحة أن تنكشف ـ وهي عمل «إرهابي» حقيقي يفوق أي عمل آخر ـ لولا إصرار جوناثان راندال من الواشنطن بوست . إلا أن ذلك لم يكن له أدنى تأثير على الإسرائيليين . فقد أشادوا علناً بالقتلة المسيحيين كوطنيين بارزين صمدوا وحدهم بثبات ضد الإرهابيين الفلسطينيين . ووضعت إسرائيل ثقتها ـ علناً على الأقل ـ في الرائد سعد حداد المطرود من الجيش اللبناني . وعليه كان هذا هو الذي سيصبح حاكماً على ما قرر الإسرائيليون أن يسموه «لبنان الحر» وهو ذلك القطاع من الأراضي اللبنانية الواقعة على طول حدود إسرائيل ، «والمطهّر» الآن من الفلسطينيين والمعارضين الشيعة غير المرغوب فيهم .

كان هذا إقطاعاً من نوع فريد . فكنتَ إذا زرتَ مملكة حداد الصغيرة بطرقاتها التي شقتها إسرائيل ، والبيرة الإسرائيلية المعروضة للبيع في الدكاكين ، والطعام الإسرائيلي والسيارات ذات اللوحات الإسرائيلية ،وشواهد الطرقات العبرية ، وميليشياتها بسلاحها الإسرائيلي ، ومن أُلحق بها من الجنود الإسرائيليين ، تعتقد أن هذه هي إسرائيل وليس لبنان . وفي حين أن مكتب إعلام الحكومة

الإسرائيلية في القدس اعتبرها «حرة» فإنها كما اكتشف اللواء ألكسندر أرسكين ، القائد الغاني لجيش الأمم المتحدة ، كانت مغلقة في وجه قوات الأمم المتحدة . فبينما كان أرسكين القائد العام لقوات الأمم المتحدة يسير برجاله بخوذاتهم الزرق عبر جسر صغير يبعد حوالي ثلاثة أميال شمال الحدود الإسرائيلية ، أوقفه جندي إسرائيلي ووضع فوهة البندقية على صدره . فهنالك الحد الأقصى الذي يمكن للأمم المتحدة أن تبلغه باستثناء ركن صغير من إمبراطورية حداد ، وهو المكان المسمى الناقورة .

هذا إذن كان حال الإنتداب الذي أمر الأمم المتحدة بالتأكد من انسحاب القوات الإسرائيلية من جنوب لبنان . وهذا هو حال اعادة «السلطة الفاعلة» للحكومة اللبنانية في المنطقة . وهذا هو حال «الضياع» لكل أطراف الصراع . فالانتداب كان وهمياً . وعلى أي حال قررت الأمم المتحدة ميزانية للجيش الدولي قيمتها ٦٨ مليون دولار لفترة أولية مدتها ستة أشهر . ووضعت تحت علم الأمم المتحدة في كل الأوقات أكثر من ستة آلاف رجل . وقدمت كل من فرنسا ، وإيرلندا ، والنروج ، والسنغال ، ونيجيريا ، وهولندا ، وفنلندا ، وفيجي ، والنيبال ، وغانا والجيش الإيراني للشاه في الأيام المبكرة كتائب لهذه القوات . كما قدمت كل من إيطاليا والسويد طائرات عمودية ووحدات طبية . وكان هنالك على الأقل أربع أو خمس دول من الدول المشاركة أعضاء في حلف الناتو «حلف شمال الأطلسي» . وأحضر الهولنديون معهم صواريخ تاو المضادة للدروع . إلا أن اليونيفيل «أي قوات الأمم المتحدة» لم تصل أبداً إلى الحدود الإسرائيلية ، كما أنها لم تُعد أبداً الأرض لسلطة الحكومة اللبنانية ، ولم تتلق أبداً التزاماً بالإنصياع من قبل أطراف النزاع . وفي الحقيقة فإن الفلسطينيين وميليشيا حداد ـ وهذه بتواطؤ كامل من إسرائيل ـ قاموا أحياناً بالهجوم على قوات الأمم المتحدة وقتل بعض جنودها .

ومنذ البداية ، لم يخف الفلسطينيون ارتياحهم إلى تصلّب إسرائيل . فإذا رفض رجال حداد السماح للأمم المتحدة بالتواجد في جيبهم ، فلماذا يسمح الفلسطينيون لها بالدخول إلى صيدا أو إلى تلك المنطقة النائية الممتدة جنوب جسر نهر الليطاني . ولذا بقي كل في مكانه . وعندما دخل وقف النار حيّز التنفيذ ، كانت وحدتان فلسطينيتان ـ إحداهما شرقي صور والأخرى جنوبي حاصبيا ـ لا تزالان صامدتين . وعندما دخل جيش أرسكين ، أصرت م .ت .ف . على بقاء هاتين المنطقتين في أيدي الفلسطينيين ولكن داخل منطقة الأمم المتحدة .

وهكذا دخل الآن جيش أجنبي آخر إلى لبنان .واستقبل جنود هذا الجيش بالهتاف والتكريم وهم في طريقهم إلى الجنوب . ووجدوا شاطئ المتوسط نظيفاً ، والطقس مثالياً لحمامات الشمس ، والشراب رخيصاً ، والشعب ودوداً إلى درجة عظيمة في غالبيته . وأقامت الأمم المتحدة مقر قيادتها

في الناقورة مركز الجمارك القديم بين لبنان وفلسطين وهي قرية مسيحية تمتد طويلاً على البحر ذي اللون الأخضر الداكن غرباً وتعلوها من الشرق سلسلة التلال المنخفضة . ورفض ضباط الأمم المتحدة موقعين محتملين آخرين كمقر لقيادتهم ـ وهما صور ومصفاة الزهراني ـ لأن صور كانت في المناطق التي تسيطر عليها م .ت .ف . ، بينما كانت المصفاة محتلة جزئياً من قبل الجنود السوريين .

وكان المنظر أخاذاً ، وبنود الإنتداب شديدة الوضوح ، وهدفها أخلاقياً إلى أقصى حد وإلى درجة أن الأمم المتحدة ، على ما يبدو ، لم تلاحظ أن هنالك ما هو غير ملائم في تحويل الناقورة إلى قاعدة لها رغم أنها في عمق جيب حداد . كذلك لم يعترض الإسرائيليون أو حداد على ذلك . فمسلحوه يستطيعون عزل الناقورة عندما يشاؤون . وقد فعلوا ذلك وحاصروا مئات من جنود الأمم المتحدة ، ودمروا احدى طائراتهم العمودية وقصفوا مركز اللواء أرسكين . ففي منتصف ليل التاسع عشر من نيسان/ أبريل ١٩٧٨ تعرض مقر قيادة اليونيفيل إلى هجوم بالمدافع والقذائف الصاروخية والرشاشات الثقيلة ، وجرح نتيجة لهذا الهجوم ستة جنود إيرلنديين وهولنديان مما اضطر الأمم المتحدة إلى الطلب من إسرائيل التدخل مع حداد .

واستخلص البعض دروساً من هذا الحادث . فقد أثبت حداد أن لديه القوة ، وأنه على استعداد لاستعمالها . لكن الإسرائيليين أمروا حداد برفع الحصار ، فأثبتوا بذلك أنهم هم الذين يسيطرون على هذه الميليشيا في آخر الأمر . أما الأمم المتحدة فقد أدركت أن عليها التعامل مع الإسرائيليين داخل لبنان . على أن بعض ضباط الأمم المتحدة الذين لا يقبلون بالأمور على علاتها اشتبهوا ـ وتأكدوا فيما بعد ـ في أن ثلاثة ضباط إسرائيليين قادوا الهجوم على قيادة الناقورة ، واستنتجوا أن مهمتهم قد تجر إلى إراقة الدماء وإطلاق النار بالإضافة إلى حمامات الشمس . وكانوا على حق في هذا .

وخلال أسابيع كان لبنان قد بدأ يفرض قيوده الخاصة على الأمم المتحدة . إذ ضرب النروجيون حزاماً من الجنود حول اثني عشر من رجال م .ت .ف .رفضوا مغادرة موقع مساحته مئة ياردة مربعة إلى الجنوب من حاصبيا .ولم يسمح للفلسطينيين بإخراج أسلحتهم من الموقع ولا بإدخال الذخيرة إليه . وكان إذا شاء أحد فدائيي م .ت .ف . المغادرة يسمح بإبداله ـ ولكن لم يكن يسمح للمغادر أو الداخل أن ينتقل بسلاحه . وطبقت هذه القواعد ذاتها على حوالي ١٤٠ فلسطينياً محاطين بالكتيبة الهولندية في المنطقة التي أطلقت عليها الأمم المتحدة اسم «المثلث الحديدي» شرقي صور .

ووجد الجنود النروجيون والإيرلنديون والهولنديون أنفسهم متورطين في نقاشات لا تنتهي مع حداد أو ممثليه حول محاولات وهمية للقرويين المسلمين الشيعة لقطع إمدادات الماء والكهرباء عن

الجيب المسيحي . واعتمدت الأمم المتحدة قاموساً للإشارة إلى أعدائها الذين لم تعترف رسمياً بوجودهم . فقد سميّ الفلسطينيون في سجل تقارير المراقبين التي كانت تعدها غرفة عمليات الأمم المتحدة «عناصر مسلحة» . أما رجال حداد فكانوا «قوات الأمر الواقع» . ولم يكن كلا الاصطلاحين صحيحاً كلياً ، وحتى الأمم المتحدة كانت تجد أن لبنان يشوّه إدراكها للحقيقة .

فعندما كان الجنود النروجيون والهولنديون الذين ينتمي جيشاهما الأم للناتو ، يشتبكون مع رجال حداد كانوا يكتشفون أنهم يواجهون سلاحاً قدمته إسرائيل لهذه الميليشيا ، وتلقته إسرائيل بدورها من الولايات المتحدة . وهكذا فقد كانت أسلحة إحدى قوى الناتو موجهة ضد قوتين أخريين من قوى الناتو في لبنان .

أما الفلسطينيون خارج منطقة الأمم المتحدة فكانوا لا يزالون يتلقون الذخيرة والإمدادات من العراق وكذلك من ليبيا ، عبر ميليشيا جنبلاط في الشوف ، بينما كانت سوريا تساند صراحة قضية م . ت . ف في الجنوب . وكانت الأموال والأسلحة السورية كذلك تجد طريقها إلى أمل ، وهي ميليشيا شيعية متنامية في جنوب البلاد تولدت من «حركة المحرومين» التي أسسها الإمام موسى الصدر . وقد أنشئت منظمة الصدر السياسية لتحارب من أجل حقوق الشيعة السياسية التي كانت الحكومة اللبنانية قد جرت على إهمالها . وكانت أمل ، في لبنان ، الابن الطبيعي لهذه الحركة . أما في بيروت فكان المرابطون السنة أيضاً يتلقون أسلحة من دمشق .

وبهذه الطريقة ، كان مقاتلو الحرب الأهلية يعاد تسليحهم من قبل سوريا ، وهي الدولة ذاتها التي أخذت على عاتقها تجريدهم من السلاح ـ بحجة أن الميليشيات الخارجة عن السيطرة السورية تتلقى سلاحها من مصادر أخرى . وكان هذا صحيحاً . فالكتائب في بيروت تلقوا شحنات من دبابات شيرمان من الإسرائيليين . كما كانت صناديق بنادق ال أم ـ ١٦ تنزل على الشاطئ قرب جونية من سفن إسرائيلية . وكان السلاح السوري قد وصل أصلاً من الإتحاد السوفياتي . أما غالبية السلاح الذي تقدمه إسرائيل فكان من صنع الولايات المتحدة .

ووجد أولئك الذين كانوا يعتقدون أن لبنان ضحية مؤامرة الدول الكبرى دليلاً آخر على ما يقولون في مثل تلك التطورات . ومن المؤكد أن البلاد كانت آخذة في الإنقسام على أساس المبادئ الإستعمارية القديمة . وكما أن الفرنسيين استخدموا أيام الإنتداب عملاء في لبنان ، فإن الإسرائيليين الآن أخذوا يستخدمون عصابات لبنانية للسيطرة على أقصى الجنوب اللبناني ، بينما استخدم السوريون رجال الميليشيات لإخضاع بيروت الغربية ووسط لبنان .

ولم يخف شمعون شعوره نحو الدول التي كانت تتورط الآن في لبنان . فقد قال متذمراً في آذار/ مارس ١٩٧٨ «نريد أن نعرف إذا كان لبنان دولة سيدة أو بيت دعارة . يحكى عن قوات ليبية وعراقية وغيرها تصل إلى لبنان تحت ذريعة تحرير لبنان . إذا كانوا حقاً يعنون ذلك ، فنحن نقول إن اليهود ألطف بكثير» .

كانت ملاحظات شمعون هذه متمشية مع العلاقات المتدهورة بين الموارنة والسوريين . فبالرغم من تعاونهم في البداية مع سوريا ، فقد ازداد تململ الميليشيات المسيحية من مطالب حلفائها المسلمين في دمشق . فقد وصل في مؤخرة القوات السورية التي دخلت إلى بيروت ، كما هي الحال في كل جيش ، جهاز المخابرات في صورة فتيان سوريين بملابس عادية ومسدسات في خواصرهم وأصبحوا هم القانون . وبالرغم من أن القوات السورية أحبطت مئات عمليات الخطف وأنقذت حياة آلاف الأشخاص فإن وجود المخابرات قد ألقى ظلاله على المساعدة الإنسانية التي قدمتها سوريا . فقد ألقي القبض على ضباط الميليشيات المسيحية والإسلامية تحت جنح الليل واقتيدوا إلى السجن في دمشق ، وأصبح آل الجميل وشمعون يرون في السوريين خطراً وقوة أجنبية مزعجة كالفلسطينيين ، وربما أشدّ خطراً . ودعيت القوات السورية إلى مغادرة شرقي بيروت ، ثم طلب منها ذلك ، وأخيراً أُمرت بذلك من قبل الكتائب . ونشب القتال بين الميليشيات ، ونزلت الدبابات السورية إلى خط السكة الحديد حيث نمت الأعشاب في عين الرمانة ، لتقصف منطقة الأشرفية المسيحية . وأمضى شمعون فترة القصف في ملجأ في أسفل شقته في الأشرفية . وكان يخرج خلال فترات وقف إطلاق النار الحتمية ليحذر الحكومة اللبنانية من أنها إذا طالبت بتجديد انتداب الجامعة العربية للجيش السوري في لبنان ، فإن الوزراء سيكونون «خونة» . وقد كان التهديد واضحاً : فإذا حُرم سركيس من دعم الكتائب والشمعونيين فقد يضطر إلى الاستقالة . وعندئذ تضطر سوريا إلى إبقاء قواتها في لبنان بدون الإذن الرسمي ـ والضروري شرعياً ـ من الرئيس اللبناني .

وصدرت من إسرائيل نغمة مألوفة فحواها أن إسرائيل لا تستطيع الوقوف مكتوفة الأيدي بينما مسيحيو بيروت الشرقية يتعرضون للإبادة . وصدرت ضجة أعلى من طائرتين إسرائيليتين خرقتا جدار الصوت وهما على ارتفاع منخفض فوق غرب بيروت ، وحطمتا الواجهات الزجاجية للمتاجر في شارع الحمراء بصوتهما المدوي . وفهم السوريون هذه الرسالة فتوقف القصف المدفعي . وهكذا رُسم خط أحمر آخر على خارطة لبنان .

وكان القتال اليومي بين المسيحيين والسوريين مقوّماً أساسياً لاعتقاد الموارنة بأنهم يكافحون لإنقاذ وحدة لبنان الوطنية . فعندما كان السوريون يفتحون النار على شرقي بيروت ، كان ذلك

يُستخدم برهاناً على أن دمشق ، لم تكن تعمل لحفظ السلام ، بل لإخماد الحرية اللبنانية . وكان شمعون وهو رجل دعاية أكثر منه رجل سياسة يسير عبر الشوارع المحطمة في الأشرفية أمام كاميرات التلفزيون المحلية مثنياً على شجاعة نموره . وقال لي بينما كنا نقف وسط الحطام أسفل ساحة ساسين في أيلول ١٩٧٨ «لقد شاءت الصدف أن يكون الذين يقاتلون اليوم من أجل حرية لبنان مسيحيين . والآخرون لا يقاتلون لأنهم ضعفاء أو لا يملكون الشجاعة . ولسنا نقاتل لأننا مسيحيون بل لأننا نريد الدفاع عن حريتنا وكرامتنا» .

وسألته : «وماذا يحدث إذا غادر السوريون؟ ألن تكون هناك حرب أهلية أخرى؟» قال : أولاً ، سينقص الأعداء واحداً . ثانياً ، لن يكون هنالك من يبدأ بالدس لإشعال حرب . فالفلسطينيون لا يريدون الحرب . ونحن اللبنانيين لا نريد حرباً بين بعضنا البعض في لبنان . فنحن على استعداد لمعالجة كل خلافاتنا ولإيجاد السبل والوسائل للعيش معاً بسلام كما فعلنا طوال خمسين عاماً . وعندما يقولون بأنهم إذا غادروا ، ستنشب حرب أهلية خلال خمس دقائق فذلك هو الإبتزاز» .

لكن ما هو صحيح أيضاً هو أن الخمسين عاماً من السلام التي يتحدث عنها شمعون كانت أكذوبة . فالتدخل العسكري السوري الثاني هو الذي أنقذ بيروت من حرب أهلية دموية تفوق تلك التي حصلت في عامي ١٩٧٥و ١٩٧٦ . كما أن شمعون لم يكن بالصراحة ذاتها حول الدعم الإسرائيلي العسكري الذي كان يتلقاه الموارنة . وعندما سألته عن تلك المساعدة ردّ قائلاً : «الله كبير ويُسّر لنا الطرق والوسائل للحصول على المساعدة المادية والمعدات التي نحتاجها» . إلاّ أن شمعون كان مسناً وكان بشير الجميل هو الذي يتفاوض مع الإسرائيليين للحصول على السلاح والدعم السياسي .

إلاّ أن صوت شمعون كان لا يزال الصوت المسموع في سوريا . فبينما كانت بيروت الشرقية مغطاة بالدخان الرمادي للقذائف المتفجرة في أحد أيام تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٧٨ ، أوقفت سيارتي على الطريق الجبلية إلى دمشق لأقل رقيباً في الجيش السوري كان يحاول تأمين وسيلة نقل إلى بلاده لقضاء إجازته . وكان الرقيب يعمل في هيئة الأركان السورية في لبنان ، عمره ٣٧ عاماً وهو لاجئ من الجولان منذ حرب ١٩٦٧ ، وكانت عائلته تعيش عندئذ في حلب . وبعد أن انتهينا من المقدمات الضرورية من تحية متبادلة وسؤال عن الخلفية العائلية وشجب للحرب بصورة عامة سألته لماذا يحاصر السوريون بيروت الشرقية . وقد ردّ سائلاً «ما الذي يجعلك تعتقد أننا نريد قتل المسيحيين؟ لو كنا نريد قتل المسيحيين لقتلنا مسيحيي سوريا ـ ولكنهم سعداء . أعتقد أن شمعون يقصد بكلامه ، كلما تكلم ، إشعال الحرب» .

وفي دمشق ، كانت العائلات السورية تعرب لنا سراً عن استيائها من أن جنود الوطن يخاطرون بحياتهم من أجل الفصل بين مجتمعين متعاديين . أما جرائد دمشق - وهي جرائد حكومية - فكانت تمتدح صبر وانضباط القوات السورية في بيروت .وكانت أوجه الشبه مع الجيش البريطاني في شمال إيرلندا واضحة ، حتى ولو كانت مضلّلة إلى درجة عالية .

على أن الجنود السوريين كانوا لا يصدقون كل ما يقال لهم في بعض الأحيان . فقد أقل «ستيف هندي» سورياً ثانياً كان عائداً إلى دمشق لقضاء عطلة نهاية الأسبوع . وعندما وصلا إلى العاصمة السورية ، قام هندي إحساساً بالواجب بإيصاله إلى البيت حيث دعته العائلة لتناول الشاي . سألهم :«هل يعتقدون بأن سوريا ستربح الحرب المقبلة ضد إسرائيل؟» فأعربت أم الجندي وأخوته عن اعتقادهم بأن سوريا ستربح . وقال أحد الأشقاء : «لدينا أسلحة جديدة مذهلة» . ولكن عندما استدار هندي إلى الجندي وسأله ما إذا كانت سوريا ستخرج منتصرة من حرب مع إسرائيل ، لم يكن من الرجل إلاّ أن نظر إلى الأرض ، ثم هز رأسه قائلاً : «كلا . لن نربح» .

ظل النزاع اللبناني الشغل الشاغل للسوريين . كانت قواتهم في لبنان لحفظ السلام . ألم يكن ذلك بتفويض من الجامعة العربية؟ أما العائلات في دمشق فتتحدث عن الرغبة «بإعادة الأبناء إلى البيت» . إلاّ أن الموارنة ، الذين أصبحوا يمثلون حركة أوروبية غربية في الشرق ، كانوا دوماً ينظرون بعين الشك إلى العالم الإسلامي . لكنهم نظروا إلى شعب إسرائيل الجديد بالمقارنة مع الشعوب الأخرى نظرة تُداني الإعجاب . وعندما بدا أن إمكانية قيام دولة يهودية قد أصبح أقرب منالاً في الثلاثينات من القرن العشرين لم يشعر المسيحيون في لبنان بخوف من بدء النزاع في الشرق الأوسط . ورأوا أنه من المفيد وجود أقلية أخرى قوية على محيط العالم العربي . فعندما اجتمع الرئيس إميل إده وبطريرك الكنيسة المارونية بالزعيم الصهيوني حاييم وايزمن في باريس سنة ١٩٣٧ - كما ذكر راديو دمشق مستمعيه ذلك الخريف من عام ١٩٧٨ - ذهب إده إلى حد التصريح علناً بأنه يأمل بأن تعقد الدولة اليهودية الجديدة مع لبنان أول معاهدة صداقة لها مع الدول الأجنبية . ففي نظر الموارنة أنهم يقفون صفاً واحداً مع الإسرائيليين في وجه العالم الإسلامي الزاحف . وقد تعاطف الغرب مع هذا الطرح ،ولذلك طالبت دول عديدة بوقف إطلاق النار في بيروت . ولم يصدر نداء من أجل هذا الغرض أقوى من نداء الرئيس جيمي كارتر .

لم تكن معاهدة السلام الأولى لإسرائيل مع لبنان بل مع مصر . وقد تركت موافقة الرئيس السادات في كامب ديفيد في أيلول/ سبتمبر ١٩٧٨ على الإعتراف بإسرائيل وحقها في الأمن مقابل انسحابها من سيناء تركت الأسد معرّضاً للهجوم ومكشوفاً .وكان نصيب الفلسطينيين أسوأ حتى من

ذلك . فاعتبر عرفات وم .ت .ف البند الذي يضمن للفلسطينيين حق «المشاركة في تقرير مصيرهم» خيانة عربية . فقد كان الفلسطينيون يريدون أن يقرروا مصيرهم لا أن يشاركوا في تقريره . وقد كان الغضب القومي عنصر توحيد بين السوريين والفلسطينيين والمسلمين اللبنانيين الذين اعتقد جميعهم أن خليفة ناصر قد اقترف عملاً خيانياً بزيارته القدس عام ١٩٧٧ . ومنذ هذا الوقت أخذ السوريون والفلسطينيون ينسقون سياستهم فيما يتعلق بجنوب لبنان . فمن غيرهم يقف ضد الجيش الإسرائيلي الآن وقد استسلمت مصر؟

اعتمد السادات على المبادرات المثيرة لتحل محل المناقشة السياسية الجدية . وقد أخبرني فيليب حبيب ، مبعوث الرئيس رونالد ريغن الخاص إلى الشرق الأوسط ، أن السادات قال له وهو جالس معه في حديقة بيته في القاهرة قبل زيارة القدس في ١٩٧٧ أنه سأل الآخرين إذا كانوا على استعداد لمرافقته إلى إسرائيل فرفضوا . وأضاف حبيب أن السادات صاح في وجه حبيب «لقد تعبت من الأقزام ، إذا كانوا لا يريدون الذهاب ، فسأذهب لوحدي» .

وساق هذا القرار السادات إلى قبره مباشرة . ففي الكنيست استمع بصمت لمناحيم بيغن وهو يستحضر القصة القديمة لولادة إسرائيل ، وقصة داود وجولياث والدولة الصغيرة التي تحارب عمالقة من أجل البقاء . والسكوت دليل على الموافقة مهما تكن مقتضيات اللياقة البرلمانية . وعليه فقد أظهر السادات العالم العربي بسكوته أنه قبل بالدولة اليهودية . ولقد كتبتُ حينذاك في «الايريش تايمز» :«لقد تحدث إلى العالم من برلمان عدوه ، ولكنه لم يقل ما إذا كان يعتقد أنه في جلوسه مع الإسرائيليين قد وقعّ أيضاً على صك موته» .

لقد كان من الأسهل إدراك هذه الإمكانية في بيروت . فعندما اغتيل السادات أخيراً على يد ضابط من جيشه بعد أربع سنوات ، أضاء الفدائيون الفلسطينيون في مخيمات بيروت سماء الليل برصاص الخطاط احتفالاً . وترددت أصداء نيرانهم لساعات خارج المخيمات . فقد كان من الأيسر فهم الخديعة والخيانة في لبنان . إذ أصبح اللبنانيون والفلسطينيون خبراء في تعرية كل معاهدة كهذه من أي أساس للنية الطيبة .

كان الذي يعيش في بيروت في أواخر السبعينات ، يشعر شعوراً قوياً بالمتغيرات في العالم المجاور ـ في مصر ، ثم في إيران وأخيراً في أفغانستان ـ إلاّ أنه كان أيضاً ، وبصورة غريبة ، منعزلاً عن هذه الأحداث . وفي ملفاتي قصاصة أخرى من تلك القصاصات المصفرة تظهر أنني في ١٣ أيلول/ سبتمبر ١٩٧٨ دونت «الإختفاء الغامض» للإمام موسى الصدر ، القائد الشيعي من جنوب

لبنان ، المولود في إيران . وقد تكهنت صحف بيروت بأنه قد خطف من قبل السافاك ، البوليس السري للشاه ، وألقى البعض المسؤولية على جهاز المخابرات الليبية . وكان لاختفائه تأثير هائل في جنوب لبنان حيث صار مصدر إلهام لفدائيي المقاومة الذين سيطردون إسرائيل من البلاد . إلا أنني وسط القتال الدائر في بيروت الشرقية لم أجد وقتاً كافياً إلاّ لإرسال خمس فقرات إلى التايمز . وقد نُشرت في النصف الأسفل من الصفحة الأخيرة .

وبحلول منتصف تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٧٨ ، أدرك السوريون أن عليهم مغادرة بيروت الشرقية . وقد كانت لطمة لهيبتهم . وأسوأ من ذلك كان تمركز قوات غير سورية من قوات الجامعة العربية ـ وهي القوات السعودية ـ في القطاع المسيحي من بيروت . وكانت العلاقات السورية ـ المسيحية قد أصبحت عدائية إلى درجة أن الموارنة قد سلمّوا مصيرهم الآن ليس «للشقيقة سوريا» التي كانت قد دخلت لبنان بطلب من الرئيس اللبناني المسيحي قبل أكثر بقليل من سنتين ، بل إلى جيش الملك فهد .

وجاء الإنسحاب السوري لقاء اتفاق معقد وإن يكن مضحكاً بين سركيس والسوريين وأربع وزراء خارجية لدول عربية أخرى . فقد اجتمع هؤلاء في الشوف في قاعة العدل الرائعة بقصر الأمير بشير الثاني في بيت الدين الذي يعود إلى القرن التاسع عشر . وبشير هذا هو سلف الحاكم العثماني الذي أدى فشله في إصلاح الحال بين المسيحيين والدروز إلى التدخل الأوروبي الأول في لبنان عام ١٨٤٢ . وقد وجه اتفاق بيت الدين المهيب إنذاراً بأن «يجب إزالة المظاهر المسلحة ، وجمع الأسلحة ومنع حيازتها بطريقة غير شرعية» . وما هو أهم من ذلك وما يستحيل تطبيقه هو وجود فقرة تصر على أنه لن يسمح بعد الآن لمسيحيي لبنان بالتعامل مع إسرائيل .

وقام سليمان فرنجية الذي كان قد قطع علاقته بآل الجميل وشمعون بالمطالبة بمحكمة لبنانية ـ عربية للخيانة لمحاكمة ضباط الميليشيا المسيحيين . ومما ضايق سركيس أشد المضايقة اللافتات التي علقت ـ بإذن من السوريين ـ خارج قصر بيت الدين ، والتي وصفت الموارنة بأنهم فاشستيون وطالبت بانضمام لبنان إلى الكفاح ضد «استسلام» كامب ديفيد .

ولم تعر الكتائب اتفاق بيت الدين أدنى اهتمام . وتعمّد رجال الميليشيا المسيحية السخرية منه . فعلقوا نجمة داود بعد أن طلوها بفرح على جدران المباني المحطمة في الأشرفية ، وكتبوا إسرائيل بالبيرو على قمصانهم الخاكية وثيابهم العسكرية الخضراء . والقليلون منهم نقشوا نجمة داود حتى على أكعاب مسدساتهم إلى جانب صور العذراء المقدسة . وقد قضى ٧٠٠ مسيحي على الأقل ، معظمهم من المدنيين ، نتيجة القصف السوري وتكبد السوريون أيضاً عدداً من الإصابات . فقد

اعترف أحد الجراحين في مستشفى البربير في بيروت الغربية بأن أكثر من مئة وعشرين جندياً سورياً من مرضاه قد قضوا أثناء القتال .

وسمحت لنا جماعة من ميليشيا الكتائب يعتمر أحد أفرادها قبعة راعي بقر سوداء بمواصلة طريقنا على البولفار المؤدي إلى برج رزق حيث كان المسيحيون يحاصرون السوريين منذ أربعة أسابيع . كانت مجموعة من المظليين السوريين المتجهمين الذين لم يحلقوا ذقونهم يحملون المئات من صناديق الذخيرة في شاحنات عسكرية ويكوّمون الفراش على الطريق . وخرج العديد من الجنود بنشاط من البناية يحملون موتاهم .

وكانت هذه أوقاتاً غريبة بالنسبة للبنانيين ، ففي تلك الأشهر أخذت الأنماط السياسية تتداخل وتتباعد وكأنها رسوم متحركة ، واكتسب كل عمل عدائي أو تهديد أو حل بُعداً جديداً . ومما يجعل هذا التطوّر أكثر قبولاً نوعاً ما ، محطات الراديو التي تنافست على جذب انتباه اللبنانيين . فما كان على البيروتيين إلا أن يديروا مؤشر الموجة المتوسطة الترانزستور ليستمعوا إلى موسيقى كوفاديس النحاسية الهوليودية ، وهي تلك الملحمة الدينية التي تعود إلى الخمسينات والتي حوّلت روبرت تايلور إلى مسيحي على طريق ابيان (Appian Way) . وقد سرقت إذاعة صوت لبنان الموسيقى التي مهدت لدخول البطل تايلور إلى ساحة روما القديمة . وكانت هذه الإذاعة تقدم رواية مارونية صرفة للأخبار اليومية لمستمعيها المسيحيين . وفي الشطر الآخر من المدينة وعلى كورنيش المزرعة كان المستمعون الذين يتحولون إلى الموجة المتوسطة ٢٤٠ يسمعون كل ساعة موسيقى «الله أكبر» وهي أغنية الحرب الناصرية القديمة التي تعود إلى الحرب العربية ـ الإسرائيلية عام ١٩٦٧ . وكانت هذه مقدمة لنشرة أخبار أخرى ضد الإنعزاليين كانت تذاع من «صوت لبنان العربي» .

قال نابليون ذات مرة إنه يخشى ثلاث جرائد أكثر مما يخشى مئة ألف حربة . وكانت الرقابة تشوّه جرائد بيروت ، إلا أنه لم يكن باستطاعتها السيطرة على الإذاعات , وكان لدى سركيس سبب للخوف من محطات الإذاعة اللبنانية غير الشرعية الأربع أكثر من خوفه من الميليشيات القائمة في بيروت . فبينما كانت الحرب الأهلية تندلع بتقطع ، كانت حرب الإذاعات ما تزال تطلق الشتائم بانحياز وحقد بلغ أعلى الدرجات . وكانت هذه المحطات الأربع ومن بينها «صوت لبنان الموحد» وإذاعة بشير الجميل «صوت لبنان الحر» غير جديرة بالثقة فيما يتعلق بالحقيقة وخارجة عن الشرعية تماماً . وسينضم إليها لاحقاً «صوت الجبل» الدرزي ومحطات بث إذاعي أخرى . وكانت المحطة الكتائبية تقوم ببث أسطوانات موسيقى «البوب» التي كانت تصل حديثاً من باريس ، وتقطع برامجها لمحادثات هاتفية على الخط المفتوح مع المستمعين . وبلغ الأمر بالمحطة أن أدخلت تحويراً بشعاً

لبرنامج ال ب .ب .سي .«أي سؤال» حيث تتم إدانة كل أخطاء اليساريين والشيوعيين ورفاقهم بتعابير يفوح منها التعطش إلى الدم . وكان هنالك بث يومي «لإسطوانة الجميل اليومية» وهي عبارة عن محاضرة لعشر دقائق حول وحدة لبنان للشيخ بيار ـ أب الكتائب . أما «صوت لبنان العربي» فقد كان يقدم مزيجاً من مشاعر الوحدة العربية والقدح الموجه إلى «المؤامرة الإنعزالية ـ الصهيونية» ـ إشارة إلى التحالف الإسرائيلي ـ الماروني . وكان يحيي ذكرى ثورة ناصر التي كانت توصف بأنها حدث ما زال يقوم بربط لبنان بالأمة العربية . وكانت المحطة لا تبث إلا الموسيقى العربية .

وكانت إذاعة «صوت لبنان الحر» لبشير الجميل تبث أحياناً بلاغاته العسكرية ، وتبث دوماً الموسيقى العسكرية الفرنسية وتعد بتخليص لبنان من كـل «الغرباء» وهو اصطلاح يشمل بالتأكيد كل الفلسطينيين وربما كل اليساريين اللبنانيين كذلك . وكان يبدو أن هذه المحطات لا تؤذي أحداً بالموسيقى الشعبية التي كانت تبثها أو ببرامجها مثل «نصيحة الطبيب» ، ولكنها وخلال معارك الشوارع ـ وعندما لا يتم إسكاتها ـ كانت تبث وصفاً حياً للتصرف «الحيواني» للأعداء . ففي خلال القتال المسيحي ـ السوري كان ما يذيعه بشير الجميل يشير تكراراً إلى خطة عربية شاملة لذبح المسيحيين . أما ادعاؤهم أنه قتل ١٥٠٠ ماروني فكان مبالغاً فيه . إذ تبين أنه أكثر من ضعفي العدد الحقيقي .

ويقع اللوم على عاتق الحكومة اللبنانية وحدها في شأن هذه الإذاعات غير الشرعية . فقد كانت إذاعة بيروت الرسمية تخضع لرقابة شديدة ، ولذا كانت هذه الإذاعة لا تنقل أخبار حوادث القتل على الهوية أو خروقات وقف إطلاق النار . وقد جوبهت المطالبات بإغلاق محطات البث الخاصة بتصريحات من الكتائبيين بأن لديهم ترخيصاً شرعياً للبث صدر قبل سنوات عن وزير يساري . أما إبراهيم قليلات ، قائد «المرابطون» ، فقد ادعى بأنه لا يمكن تصنيف محطته كمحطة خاصة وذلك لأنها ملك «للجماهير» .

وفي خريف العام ١٩٧٨ وفي وسط الدمار في قلب بيروت قُتل حوالي خمسة عشر مدنياً في سلسلة من المعارك المدفعية التي كانت تنشب عندما تحاول الميليشيات المتنازعة السطو على مبنى مدمر للمكاتب . وفي إحدى ليالي الأحد ، عبرت جماعة من الكتائبيين شارع بشارة الخوري بقصد سرقة المكاتب والآلات الكاتبة ومعدات أخرى من غرفة عرض للأدوات المكتبية . وهناك وجدوا أنفسهم وسط زمرة من فدائيي الصاعقة الذين كانوا يفرغون محتويات البناية . وقد طلب كلاهما ـ الكتائبيون والصاعقة ـ إسناداً مدفعياً قبل أن يقضوا على بعضهم البعض في معركة بالبنادق داخل الأطلال . وقد تواصل القصف المدفعي الناجم عن ذلك لعدة ليال وتسبب في مقتل مدنيين .

وطوال هذه الفترة ، بقيت الجالية الأجنبية في بيروت دون تأثر يذكر . وأقامت السفارة البريطانية حفلة أغاني عيد الميلاد في منزل السفير ذي الطابع الشرقي في القنطاري . أما في عين المريسة ، فقد وزع أعضاء السفارة النروجية الشمبانيا على السياسيين المسلمين ، ورسميي منظمة التحرير ، والصحافيين اللبنانيين والأجانب ، والإقتصاديين ، والأكاديميين من الجامعة الأميركية وعدد كبير من النساء اللبنانيات الجميلات . وربما كان الأجنبي الواصل حديثاً إلى بيروت يشعر بالخوف لدى سماعه أصوات إطلاق النار أو تزعجه حواجز الميليشيات قرب بيته ولكنه لم يكن يحس بأنه مهدد شخصياً . ليس بعد .

إلا أن الدلائل على تقلص الثقة الدولية بلبنان كانت موجودة . ففي نهاية العام ١٩٧٨ قررت وزارة الخارجية البريطانية إغلاق مدرستها لتعليم اللغة العربية في شملان . وكانت هذه مدرسة وبيتاً ثانياً لجيل كامل من الدبلوماسيين والجواسيس البريطانيين . وكان مركز الشرق الأوسط للدراسات العربية هذا إسهاماً مشرّفاً للمعرفة العربية حتى وإن كان أحد تلامذه من أبرز الخونة البريطانيين . وعندما زرت شملان في ذلك الخريف البارد وجدت أن كيم فيلبي ما زال في ذاكرة القرية كرجل ودود ذي جاذبية قوية وعربية مكسرة يزيد في تكسيرها تأتأة حادة . إلا أن فيلبي كان مجرد زائر للمدرسة . أما الذي جعل شملان حقاً إسماً سيء السمعة فهو الجاسوس الآخر ، جورج بليك الذي كان تلميذاً متفرغاً في المدرسة ويتمتع بوضع دبلوماسي . وقد أمضى على ما يبدو جزءاً من حياته العملية تحت رقابة جهاز الإستخبارات البريطاني والمكتب الثاني اللبناني وعدد آخر من أجهزة الأمن العربية .

وقد أوحى جوليان ووكر ، آخر مدير لشملان من وزارة الخارجية ، والذي لم يسبق له التعرف إلى بليك ، أن هذا الأخير كان يتكلم عربية ضعيفة ، وتلميذاً مؤقتاً فقط وأنه ربما أرسلته وزارة الخارجية إلى شملان لأنه كان مشكوكاً في أمره . إلاّ أن ذلك لم يحل دون مطالبة كمال جنبلاط المتنظمة بإغلاق ما أسماه مدرسة الجواسيس في شملان . وعندما صرت في الأيام القادمة أسخر من مقولة أن الأجانب في لبنان هم عملاء سريون ، كان هناك من يذكرني بالبريطانيين ـ الصحافي والدبلوماسي ـ اللذين كانا بالتأكيد جاسوسين .

وحاول البريطانيون المحافظة على مظاهر الحياة المتمدنة في شملان . فلوحة الإعلانات كانت لا تزال تحمل التعليمات الصارمة حول «السلوك الصحيح» في الملبس ، وهو ما أصرّ عليه مدير المدرسة السابق السير دونالد ميتلاند . وفي أحد الصفوف الخالية المطلة على البحر ، كانت كومة من الصور التي تجعدت بفعل الشمس تظهر كيف كان خُدّام صاحبة الجلالة يسترخون في أيام طيشهم .

فترى المستعربين الذين تعدهم وزارة الخارجية للمستقبل بياقاتهم المنشاة وبابيوناتهم يتحركون على حلبة الرقص أو حول طاولة . وبالرغم مما يبدو عليهم من قلق دبلوماسي فإن وجوههم تبدو شابة وهم منهمكون في حديث جدي مع سيدات يتمتعن بالحيوية .

لم تكن بيروت حتى ذلك الحين مكاناً خطراً في ذاته على الزائرين ، بالرغم من نصح الدبلوماسيين الأجانب بالبقاء بعيداً عن مخيمات الفلسطينيين . وعندما زار سايروس فانس ، وزير خارجية الرئيس كارتر ، المدينة في خريف ١٩٧٧ للإستماع إلى وجهة نظر الحكومة اللبنانية حول مستقبل الفلسطينيين ، سلك موكبه في طريق العودة إلى المطار طريقاً غير مباشر مما زاد ميلاً إضافياً إلى الرحلة . وقالت السفارة الأميركية لاحقاً بأن سبب هذا هو تجنب المخاطر الأمنية للمرور قرب أحياء صبرا وشاتيلا الفقيرة والمكتظة بالسكان . وقد نجح فانس في تجاهل الناس عينهم الذين أتى إلى الشرق الأوسط لمناقشة مستقبلهم .

إن البلاغة التافهة التي استخدمتها م . ت . ف في إدانة اتفاق كامب ديفيد اللاحق قد ضللتنا وجعلت من الممكن تقريباً نسيان الغضب البركاني الكامن تحت السطح . وأذكر أنني كنت في أحد أيام أيلول/ سبتمبر ١٩٧٨ أراقب فلسطينياً في بيروت وهو يقرأ تقريراً للأسوشيتد برس من تل أبيب يقول فيه مراسلها : «إن المسألة الكبرى الباقية بدون حل في قمة الشرق الأوسط في كامب ديفيد هي مستقبل حوالي مئة مستوطنة يهودية قائمة في الأراضي العربية المحتلة» . وتوقف الفلسطيني عند هذه الجملة بضع لحظات وهز رأسه وهو يضع الجريدة . ثم اشتعل وجهه غضباً وانفجر قائلاً : «ماذا يظننا الأميركيون؟ لماذا لا يقولون ما يقصدون تماماً ـ وهو أن أقل المسائل أهمية هي مصير مليوني لاجئ فلسطيني؟»

كان هناك ما يبرر قلق فلسطينيي لبنان . فكانوا كلما أمعنوا في درس اتفاق كامب ديفيد تكشف عن مزيد من الخيانة . إذ كانت هناك أسئلة خطيرة تنتظر إجابات عليها . ماذا سيحدث لفلسطينيي لبنان وماذا سيكون دورهم في تقرير مستقبلهم؟ هل من المفترض أن يكون جنوب لبنان فلسطينهم الجديدة؟ وإذا كانت إسرائيل توسعية إلى الحد الذي يذكره الأسد وم . ت . ف باستمرار ، فأين ستضرب في المرة القادمة؟ وكان قد تم تحييد الجيش المصري بموجب اتفاق كامب ديفيد فيما يحاول الأميركيون والإسرائيليون إغراء الملك حسين للدخول في المفاوضات ، وعليه فليس أمام الجيش الإسرائيلي مكان يركز عليه قوته أفضل من سوريا ولبنان . ولكن في حين أن مواجهة سوريا باهظة التكاليف فإن لبنان جسم هش ودولة «مواجهة» بدون حكومة ، وبيت مقسّم ويمكن تحويل قبائله المتنازعة إلى أعضاء أو حلفاء .

أصبح جنوب لبنان حافزاً للتغيرات ومكاناً ساخناً خادعاً لموت غير متوقع وانتقام وحشي . إلا أنه كان كذلك مكان السعادة القصوى التي اكتسبت مصداقية أكبر بحضور الجيش الدولي الذي استقر على الأرض ذات الأشجار المنخفضة وعلى التلال الواقعة بين البحر وجبل الشيخ . واستحالت إبل السقي ، تلك القرية الصغيرة الخطرة التي أشار أبو مياد منها إلى الدبابات الإسرائيلية عام ١٩٧٧ ، إلى مقر للكتيبة النروجية وقاعة طعام للضباط ، ومكتبة تضم كتباً نروجية وحمام سونا . وكانت القذائف الفلسطينية والإسرائيلية تمر تماماً فوق رؤوس الجنود النروجيين .

وفي أحد أيام ١٩٨٠ أخذت م . ت . ف تطلق النار بانتظام على مرجعيون البلدة الهزيلة التي صارت «عاصمة» حداد . وقد أمضيت صباح يوم وأنا جالس مع النروجيين في الساحة المغبرة في ابل السقي بينما كانوا يراقبون القصف المدفعي وكأنهم يراقبون مباراة تزلج أو سباقاً بعيداً للزوارق الشراعية . ورأينا سحب دخان قاتم تمر ببطء فوق سطوح مرجعيون الحمراء . وبعد ثانيتين سمعنا دوي انفجارات بعيدة . لكن النروجيين واجهوا ذلك بهدوء وأيديهم على أوراكهم ، وقبعاتهم الزرقاء على أطراف رؤوسهم ، وبنادقهم معلقة بلا مبالاة فوق أكتافهم .

واستمر هذا طوال اليوم . وعند الغسق ظهرت فرقة موسيقية من جنود الأمم المتحدة الغانيين كانوا قد وصلوا قبل وقت قصير . وكان عليهم أن يأخذوا مواقعهم إلى الغرب من النروجيين ، وعزفوا على آلاتهم الموسيقية إلى جانب الكنيسة الخربة . وجاء جندي نروجي بآلة عرض سينمائية من طراز قديم وعرض أفلام كرتون وودي وودبيكر على حائط بيت محطم لأطفال إبل السقي . وعلى سطح قاعة طعام الضباط أصرّ كولونيل نيبالي على أن يشرح لي كيف أن حكمة الملك بيرندرا في شؤون البيئة قد أنقذت أسلوب البناء في كتمندو القديمة . وإلى الشمال ، ارتفعت ثلاث قنابل مضيئة بجلال بينما كانت فصيلة نروجية تحاول العثور على مجموعة من المتسللين الفلسطينيين قرب نهر الحاصباني . وكانت هنالك نار تشتعل في مرجعيون .

وأدمن النروجيون إلى حد خطير على إذاعة حداد «صوت الأمل» التي كانت تمولها مؤسسة دينية انجيلية أميركية . وكانت تبث بالإنكليزية والعربية سلسلة قراءات من الإنجيل وموسيقى الوسترن والريف وتهديدات وحشية ضد الأمم المتحدة والسكان المسلمين المحليين . وعندما أدار ضابط الراديو سمع صوت أميركي يقول : «يا بني أعطني قلبك ودع عينيك تحجبا طريقي . فالغانية حفرة عميقة والمرأة الغريبة قبر ضيق» . ما معنى ذلك بحق الله؟ ولمن هو موجه؟ للجميع وحتى للنروجيين . وهكذا فقد استحصل حداد من الإسرائيليين ، حتى على مجموعة من أغاني البوب النروجية ليرفه عن كتيبة الأمم المتحدة لديه .

وبينما كنا نقود سيارتنا ونحن نتجول في الجنوب ، كنا نستمع إلى اذاعة حداد في السيارة . وكان إذا انفجر غاضباً على سكان قرية اتهمهم بإيواء «المخربين» وأتبع ذلك بوابل من القذائف على أقرب الطرق . وعليه فإن هذه الإذاعة كانت تلعب دوراً أساسياً . فعندما أعلنت نتائج انتصار رونالد ريغن في انتخاباته الرئاسية الأولى كنت في قرية قانا التي كانت تحت سيطرة الكتيبة الفيجية من قوات الأمم المتحدة . في ذلك الصباح سيطرت حالة مختلفة على موجات الأثير . فبعد أن تم بث عدد قليل من الحقائق التوراتية (سيصيب الفقر السكارى والمفرطين في الطعام ، والكسل يورث الرجل ثياباً بالية) ، وتنبيهات إلى الواجبات العائلية التي من المفترض أن حداد ، رجل العائلة ، يعجب بها ، («أصغ إلى أبيك الذي أنجبك ولا تحتقر أمك عندما تتقدم في السن») ، أعلن صوت ذو لهجة شبه أطلسية عن أغنية . ولكن لم يكن هنالك أغنية .

وعلى موجات الهواء جاء صرير باب خشبي كان يجري فتحه ببطء . وقاطع المذيع ذلك قائلاً : «ولكن انتظر دقيقة» . وسمع صوت معدن عندما ارتطم احدهم بالميكروفون . وخفت صوت المذيع برهبة وهو يقول «سيداتي ، سادتي لدينا اليوم شيء مميز لكم . فقد وصل الرائد حداد نفسه إلى استوديوهاتنا . .» . وساد صمت طويل . ونظرت من خلال نافذة السيارة إلى أقرب موقع للأمم المتحدة فرأيت فيجيين وضابطاً فرنسياً ينحنون فوق راديو معهم وإمارات الضيق واضحة في وجوههم . ثم جاء صوت حداد الأجش عبر الأثير .«تهانينا أيها الرئيس ريغن . نرحب بالرئيس ريغن رئيساً لأميركا . أميركا صديقة لنا» . فأغلق جنود الأمم المتحدة جهاز الراديو وهم يتبسمون ابتسامات عريضة لبعضهم البعض . فهم في أمان ليوم آخر . فحداد كان سعيداً ، ألم يكن كذلك؟ ألم يبد سعيداً؟

كان في هذا كله شيء يسحر المرء ، ويعرفه تماماً المعجبون بملحمة كوبولا الفيتنامية «أبوكاليبس ناو» : مدينة بعيدة تحترق ، وفرقة موسيقية ، وغضب يتفجر ، وأفلام وودي وودبيكر ، ومحطة الإذاعة المستمرة الرهيبة هذه . كانت هذه المشاهد كالحلم يصعب تذكرها بتسلسل بسبب لامعقوليتها اللطيفة ، ويستحيل نسيانها لأنها تلخص بقسوة عقم المهمة المشلولة التي تقوم بها الأمم المتحدة بلبنان .

كان هنالك من يقول أنه إذا توفرت النية السياسية الطيبة لدى الأفرقاء المعنيين ، فسيكون في مقدور الأمم المتحدة أن تتحرك جنوباً وصولاً إلى الحدود الإسرائيلية ـ اللبنانية . وتحدثوا عن تعديل الإنتداب وذلك بإدخال تغيير يجعل التأكيد على المحافظة على السلام تأكيداً على فرض السلام ، متجاهلين الحقيقة المرة ، وهي أن جنود الأمم المتحدة لا يملكون القدرة على خوض معركة ضارية

مع جيوش لبنان الخاصة . وما هو أكثر خزياً من ذلك أن موظفي الأمم المتحدة خارج لبنان كانوا يشيرون إلى أعلام الأمم المتحدة الصغيرة في الجيب المسيحي على خرائطهم ، ويقولون لك ان الأمم المتحدة موجودة في ذلك الجيب ، ولا يقولون أن الأعلام التي تشير إلى مواقع الأمم المتحدة معزولة ، وأن من فيها من الجنود النروجيين والهولنديين رهائن لدى مسلحي الرائد حداد .

كانت تكفي زيارة لوحدات الأمم المتحدة لفهم الأثر السيء الذي كانت تتركه تهديدات الرائد فيها . ففي خلال دقائق من وصول الزائر إلى مقر قيادة كتيبة ما ، يجد الضابط متلهفاً على إبلاغه أخبار آخر تهديدات حدّاد . ثم يعقب ذلك سلسلة من التحذيرات المألوفة مثل : سيقصف مسلحو حداد قرية كذا إذا لم يتركها الفلسطينيون الذين زعموا أنهم فيها ؛ سيقتل رجال حدّاد جندياً إيرلندياً آخر إذا تعرض مسلحوه للمضايقة ؛ إن مدفعية حداد ستدمر قرية جبلية صغيرة في منطقة عمل الأمم المتحدة إذا لم تعد السلطات المحلية ضخ المياه وتسمح له بالإستحمام .

هذه التهديدات ، مهما كانت غير معقولة ـ وحتى مجنونة ـ خلقت كابوساً غير صحّي لدى جيش الأمم المتحدة في لبنان وهو كابوس مزاج حداد الشخصي . فقد أصبح حداد لدى جنود الأمم المتحدة الملك لير الذي يهدد بعظائم الأمور من مملكته الصغيرة ، أو الملك الغول الذي كان إذا سمع صوته الأجش على أجهزة الراديو استقبله الضباط الشبان في غرفة العمليات بلحظات من الصمت والذهول . وبالطبع لم يكن الرائد حداد شبحاً ، ولم يكن مجنوناً كما كان يعتقد منتقدوه . والخطر الذي كان يمثله لا يكمن في مسلحيه ، بالرغم من أنهم أثبتوا أنهم قتلة ، بل في أسياده الإسرائيليين . وذلك هو السر الغامض بالنسبة لقوات الأمم المتحدة . إذ لم يكن أحد منهم يستطيع الزعم بأن لديه أدنى فكرة عن السبب الذي يجعل الإسرائيليين يسمحون لحداد بالتحرش بخطوط الأمم المتحدة . وعلى سبيل المثال ماذا كان يفعل المقدّم يورام هامشراشي من المخابرات العسكرية طوال الوقت في قرية بنت جبيل في جنوب لبنان؟ ولماذا كان المقدم غاري غال يتصل كثيراً بمسلحي حداد في الجيب المسيحي اللبناني؟ وماذا كان الرائد حاييم صاحب الشخصية الغامضة وأحد كبار عملاء الشين بيت في مرجعيون في غالب الأوقات؟ وحتى عندما أرسل الجيش اللبناني كتيبة إلى جنوب لبنان لدعم قوات اليونيفيل ، فقد سمح الإسرائيليون لميليشيا حداد بقصفها . ألم يكن الجنود اللبنانيون هؤلاء ممثلي حكومة صاحبة سيادة ومن المفترض أن تمتد سيطرتها حتى الحدود اللبنانية ـ الإسرائيلية؟ فإسرائيل ذاتها كانت قد وافقت على الإنتداب الأصلي للأمم المتحدة الذي دعا إلى إعادة بسط هذه السيادة التي كانت ـ نظرياً ـ ستضع نهاية للتسلل الفلسطيني إلى إسرائيل .

اكتشفت الأمم المتحدة في وقت مبكر أن الإسرائيليين كانوا موجودين فعلاً في مرابض حداد

المدفعية خلال عمليات القصف ، ربما لمساعدة رجال الميليشيا لتنسيق تلك العمليات . وحلّت السخرية مكان الكبرياء . فقد قال لي أحد الضباط الهولنديين في حاريص : «تلقيت مكالمة عبر اللاسلكي من ضابط إسرائيلي أراد أن يحذرني من احتمال قيام المسيحيين بإطلاق النار باتجاهنا ، وقصد بذلك أنه إذا وقع القصف فإن إسرائيل لا تتحمل المسؤولية وذلك لأنه حذرني» . وجاء صوت الإسرائيلي على اللاسلكي معتذراً ثم صرخ : «سيطلق المسيحيون النار خلال ست ثوان ـ خمسة ـ أربعة ـ ثلاثة ـ اثنان ـ واحد» . وبعد ثانيتين أخذت القذائف تتساقط خلف خطوط الأمم المتحدة . كيف صار دقيقاً إلى هذا الحد؟ لقد أراد أن يعلمني أنه إلى جانب البطارية المدفعية . إذ كان هو الذي يطلق النار» .

لقد أعرب اللواء إرسكين تكراراً عن دهشته من الدعم المتواصل الذي تقدمه إسرائيل لمسلحي حداد ، إلاّ أن موقف بعض أركان قيادته كان أقل تفاؤلاً منه . فقد تذكروا خطة إسرائيلية قديمة قدمت إلى مؤتمر السلام المنعقد في فرساي سنة ١٩١٩ تبين أن الدولة الإسرائيلية المقترحة تصل شمالاً إلى قرب مدينة صيدا اللبنانية . واعتقد هؤلاء أن إسرائيل تريد استمرار عدم الاستقرار في جنوب لبنان ، ووضعوا نظرية مفادها أن قيادة المنطقة الشمالية في الجليل للجيش الإسرائيلي تريد إعادة احتلال المنطقة . كما ساورتهم شكوك أكثر تشاؤماً تعود في أصولها إلى قتل رجال حداد لاثنين من الإيرلنديين الشبان من جنود الأمم المتحدة في نيسان/ أبريل سنة ١٩٨٠ .

ففي ١٨ نيسان/ أبريل كان الجنود الأنفار ديريك سمالهورن ، وتوماس باريت وجون أو ماهوني يرافقون اثنين من مراقبي الأمم المتحدة داخل منطقة حداد .فوقعوا في كمين للمسلحين المسيحيين واقتيدوا إلى بنت جبيل حيث ضرب سمالهورن وباريت . أما أوماهوني فقد أصيب بالرصاص في ظهره وفخذه وقدمه ، لكنه استطاع الهرب . وقد شاهد أحد مراقبي الأمم المتحدة ـ وهو ضابط في الجيش الأميركي ـ ومراسل الأسوشيتد برس الذي كان برفقة المجموعة في وقت لاحق سمالهورن وباريت ، وقد ابيّض وجهاهما رعباً عندما أجبرا على الدخول إلى سيارة ونقلا إلى جهة مجهولة . وبعد حوالي الساعة وجد الرجلان مقتولين كل برصاصة واحدة في الجهة الخلفية من الرقبة . وقد تمت عملية الإغتيال داخل منطقة حداد ، وفي منطقة يسيطر عليها الإسرائيليون .

وفي الحال ، نفى الإسرائيليون أي علم لهم بالقتل . أما حداد فقال أنه لم يأمر بالقتل وادعى أنه كان ثأراً لمقتل جندي من رجال الميليشيا المسيحية في قرية الطيرة على يد جنود الأمم المتحدة . وتوصل التحقيق الفوري الذي قامت به الأمم المتحدة والشرطة الإيرلندية (غاردا سيوكانا) إلى أن منفذي عملية الإعدام هما أخوان للرجل القتيل ـ واسمه بزي ـ وكان يعيش في قرية بليدا . ولم يسمح

الإسرائيليون باستجواب هذين الرجلين ، ولم تشعر إسرائيل التي نصبت نفسها جلاداً «للإرهابيين» أن تدين هذين الرجلين «كإرهابيين» ، والحقيقة أن إسرائيل ساعدت كليهما على مغادرة لبنان في وقت لاحق ـ عبر إسرائيل ـ والإقامة في ديترويت . إلاّ أن الذي أثار حنق ضباط كتيبة المشاة ٤٦ الإيرلندية هو المعلومات الاستخباراتية التي أشارت إلى أن أحد ضباط الشين بيت كان في الحقيقة حاضراً أثناء عملية القتل ووقف جانباً ليشاهد النار تطلق على عنقي باريت وسمالهورن . وكل ما عرف عن هوية هذا الضابط الإسرائيلي هو اسمه الحركي «أبو شوقي» . أما اسمه الحقيقي فلم ينشر أبداً .

أما ما كان أكثر أهمية من ذلك فهو رد فعل الحكومة الإسرائيلية . فقد أدان شلومو أرغوف ، السفير الإسرائيلي لدى بريطانيا وكان أيضاً معتمداً في إيرلندا ، عملية قتل سمالهورن وباريت «كعمل جبان» . ولكنه في مقابلة مع الراديو الإيرلندي في العشرين من نيسان/ أبريل ألقى على الإيرلنديين محاضرة وقحة حول واجباتهم المسيحية في لبنان قائلاً « . . . اسمحوا لي أن أقول إنكم تجلسون هناك في دبلن باعتداد وتصدرون الأحكام على أمور تجري على الجهة الأخرى من القمر ، وفي الطرف الآخر من العالم دون أي إحساس حقيقي بالوضع . . . ولكي أكون أميناً تماماً معكم ، يحق لي أن أتوقع أن لا يكون لدى أمة مسيحية سوى قليل من الحساسية تجاه شعب يحاول ، بالإضافة إلى المحافظة على وجوده الجسدي ، المحافظة على نفسه كشعب مسيحي . . . ومما لا يصدق أن أحد الناس في دبلن ، من بين كل الأمكنة ، على هذه الدرجة من عدم الإحساس بمأزق أقلية مسيحية . إلى أين يسير العالم؟[١] .

أحس الإيرلنديون أن أرغوف قد ألصق تهمة انعدام الإحساس بالجهة الخطأ ، خاصة وأن السفير أكدّ على أن إسرائيل قد قدمت الدعم لحداد لأنه كان «سيداً مهذباً» يحاول أن يحول دون تعرّض قومه لإبادة جماعية» . فقبل ذلك بيومين فقط قام مسلحو هذا «السيد المهذب» ـ وهم رجال الميليشيا الذين تدفع إسرائيل رواتبهم وتقدم لهم السلاح والألبسة ـ بقتل جندي إيرلندي شاب آخر بإطلاق النار عليه خلال معركة في قرية الطيره . وكان الضحية واسمه ستيفن غريفن في الحادية والعشرين . وعندما كان تابوته الذي وضعت على غطائه قبعته الزرقاء ينقل من كنيسة القديس يوسف في غالواي ، تحدث الضباط الإيرلنديون الذين كانوا بين المشيعين بغضب عن «تواطؤ» إسرائيل في عمليات القتل .

كان قبره على مسافة كبيرة من لبنان . فاقترحت على تشارلز دوغلاس ـ هيوم ، محرر الشؤون

(١) مقابلة مع شلومو أرغوف أجراها شين كيتي على إذاعة تليفس إيريان ، ٢٠ نيسان / أبريل ١٩٨٠ .

الخارجية لجريدة «التايمز» الذي أعمل لديه ، أن أحضر جنازته . وكانت المقبرة التي دفن فيها صغيرة شديدة البرودة تعصف بها الرياح وتحيط بها جدران واطئة مكشوفة . ووقف إخوته وأخواته العشر حول القبر يبكون بينما كان عازفو ابواق الجيش الإيرلندي يعزفون لحن الوداع . وفي الغرب البعيد كان بالإمكان مشاهدة خط أبيض رفيع من أمواج الأطلسي التي تتكسر على الشاطئ . أما حول المقبرة فقد كانت التلال تتخللها صخور ضخمة رمادية في خطوط متوازية تنحدر باتجاه البحر . وعندما كانت الشمس تشرق لبرهة من خلال الغيوم المنخفضة ، كانت هذه التلال تبدو كتلال جنوب لبنان .

طالب السفير الإيرلندي إلى اليونان ، والذي كان معتمداً لدى إسرائيل ، مناحيم بيغن ، رئيس الوزراء الإسرائيلي ، بتفسير لقتل سمالهورن وباريت . وبدلاً من أن يتلقى تفسيراً ما ، تلقى محاضرة أخرى تدور هذه المرة حول مبادئ الثأر التي تحكم الميليشيات اللبنانية وقال بيغن : ألا يدرك السفير أن قتل أحد رجال الميليشيا اللبنانيين يستتبع ، على الأرجح ، انتقاماً بالمثل من أعداء الرجل القتيل؟ وبعد مرور عامين ، وعندما واجه بيغن اتهامات تحمّله مسؤولية المذبحة الكبرى التي قامت بها إحدى الميليشيات في صبرا وشاتيلا ، تناسى عظته الصغيرة هذه وادعى أنه لم يكن في استطاعته أبداً أن يتنبأ بأن حلفاء إسرائيل من اللبنانيين سيشاركون في قتال للثأر .

كذلك لم يثر مقتل سمالهورن وباريت الكثير من التعاطف مع الإيرلنديين في إسرائيل نفسها . ففي أوائل أيار/ مايو ١٩٨٠ نشرت صحيفة الجيروزاليم بوست مقالاً مطوّلاً عن المواقف الإيرلندية تجاه اليهود ، وذكّرت فيه بمذبحة منظمة جرت في ليمريك سنة ١٩٠٥ وقتل فيها يهودي واحد وبالتأييد الشعبي القصير لمنظمة القمصان الزرق الإيرلندية ، وهي على غرار منظمة القمصان الداكنة النازية ، خلال السنوات التي سبقت الحرب العالمية الأولى . أما الكتائب اللبنانية وماضيها كمنظمة نازية (قمصان داكنة) فلم يأت المقال على ذكرها . وزعم المقال أن إيرلندا كانت خلال الحرب العالمية الثانية «خلية نحل» لنشاط الجاسوسية الألمانية . وقد ثبت بطلان هذا الادعاء منذ مدة طويلة ، إلاّ أن الجيروزاليم بوست ذكرت قراءها ـ وكان هذا صحيحاً ـ بالتعزية التي قدمها إيمون دي فاليرا للسفير الألماني في دبلن بمناسبة وفاة هتلر .

إلاّ أن الفقرة الهامة كانت قبل النهاية بقليل . فقد قالت الصحيفة : «إن انحياز الجندي الإيرلندي العادي في قوة الأمم المتحدة إلى جانب الفلسطينيين ليس سراً . فقد أوردت الصحافة الإيرلندية روايات عن تعاطف رجال اليونيفيل الإيرلنديين مع أولئك الذين يعتقدون أنهم مثلهم أبناء الأرض ، إلا أنهم اقتلعوا من أرضهم من قبل إسرائيل» . واختتمت الصحيفة قائلة بأن الفاتيكان يريد «قدساً مدّولة» ولذا يمكنه بالتأكيد «أن يعوّل على تأييد إيرلندا الكاثوليكية الورعة له تأييداً حاراً» .

والنظر في الجرائد الإيرلندية خلال هذه الفترة لا يثبت إلا أن الجنود الإيرلنديين أعربوا عن تعاطفهم مع اللبنانيين ـ وليس مع الفلسطينيين ـ الذين كانوا يحاولون حمايتهم من غضب حداد . ولكن ما أغضب إسرائيل حقاً هو تصريح لوزير خارجية إيرلندا بريان لينيهان في البحرين في شباط/ فبراير ١٩٨٠ يعترف فيه «بدور منظمة التحرير الفلسطينية في تمثيل الشعب الفلسطيني» وقال إن للفلسطينيين الحق في تقرير المصير وإقامة دولة مستقلة في فلسطين . ومنذ تلك اللحظة أصبح الإيرلنديون هدفاً للتشهير الإسرائيلي . وألقيت على الصحفيين الذين يعملون خارج القدس محاضرات مطوّلة من المفروض أن تكون ظريفة عن الإيرلندي الذي يشرب الويسكي أو «جوني ووكر الإيرلندي» كما أن الإسرائيليين وحلفاءهم من الميليشيات أطلقوا مثل هذه الألقاب على كتيبة الأمم المتحدة دون اعتبار للجغرافيا .

وأرسل حداد بنفسه رسالة إلى التايمز ـ اعترف لي فيما بعد أن ضابط ارتباط إسرائيلي كتبها له ـ يحتج فيها على قتل «صبي لبناني في الخامسة عشرة (وهو من الميليشيا) وأوضح أنه قام شخصياً بإنقاذ حياة جنود إيرلنديين كان أقارب الفتى القتيل قد هددوهم بالموت ، واتهم الناطق الرسمي باسم الأمم المتحدة بأنه فلسطيني بينما كان في حقيقة الأمر تركياً ـ ووقّع رسالته «قائد لبنان الحرّ» . ونشرت التايمز الرسالة وسمحت لحداد أن يذكر العنوان الذي أراده «لبنان الحر» مع أن لبنان هذا لم يوجد إلاّ في مخيلة مكتب الصحافة التابع للحكومة الإسرائيلية . وفي رسالة أخرى كتبها هذه المرة مرسلها وهو أرغوف وشجب فيها «كتاباتي الصحفية المتحيزة» وقال إنها «تلميحات خبيثة» و «وثرثرة داخل ثكنة»(٢) .

كان للطابع التوبيخي لهذه الرسالة أهميته . فمجرد الإشارة إلى اشتباه الأمم المتحدة ـ وهو في حد ذاته أمر بالغ الأهمية لأي استقصاء للأحداث في جنوب لبنان ـ كان دعوة للإدانة الشخصية والتقريع من قبل إسرائيل . كما لم يكن مقبولاً لديها مجرد التلميح إلى أن الإسرائيليين كانوا يتصرفون بخداع في علاقتهم مع الأمم المتحدة ـ وهو أمر يثبته بشكل أكثر من كاف اعترافهم العلني بدعم حداد عسكرياً . وكان الإسرائيليون يشجبون المراسلين الصحفيين الذين يفعلون ذلك ويتهمونهم حتى بمعاداة السامية .

---

(٢) انظر التايمز في ٣ و ٧ حزيران/ يونيو ١٩٨٠ . في رسالة أخرى للجريدة ، وصف الضابط ـ المترجم للكتيبة الهولندية العاملة مع الأمم المتحدة كيف اضطرت اليونيفيل للتفاوض مع الاسرائيليين حول تمركز دبابات حداد « ذاته» وقال «ان تقاريري هي أكثر صحة من أي رسالة إخبارية قد قرأها حتى ذلك الحين وعالجت المواضيع ذاتها» .

وكان وصف إسرائيل المستمر للفلسطينيين بأنهم «إرهابيون» يحقق أحياناً الهدف المرجو . إذ بدأ المراسلون الأجانب الذين يتخذون من إسرائيل مقراً لهم باستعمال الكلمة حتى وهم يغطّون نشاطات م .ت . ف التي لا علاقة لها بكل ما يمكن وصفه بالإرهاب . وهكذا أصبح المقاتلون «إرهابيين» ولبنان «موبوء بالإرهابيين» . وقد استعمل زميل مقرّب لي في القدس هذا التعبير دون تفكير في مقابلة له مع ال ب .ب .س (هيئة الإذاعة البريطانية) حول غارة إسرائيلية على لبنان . واتصل بي صديقان فلسطينيان استمعا اليه للتعبير عن غضبهم قائلين : «إذا كنا نحن إرهابيين فلماذا لا يوصف رجال حداد بذلك؟»

كان الأمر ذا أهمية حاسمة كما تبين لنا في ١٩٨٢ . وحتى التايمز لم تنجح في مقاومة إغراء الكلمة . ففي أيار/ مايو ١٩٨٠ كتبت مقالاً لا يؤذي أحداً عن مشاكل الأمم المتحدة مع الفدائيين الفلسطينيين . إلا أن العنوان الرئيسي أشار إلى مهمة الأمم المتحدة التي تدعو إلى السخرية في حفظ السلام مع وجود إرهابيين في المنطقة . ولم يرد في أي موضع من تقريري أي ذكر لكلمة «إرهابي» . وقمت بكتابة مذكرة إلى دوغلاس ـ هيوم مبيناً له أنه «عندما نشير إلى مقاتلي م .ت .ف في جنوب لبنان كإرهابيين ، فإننا ، كما يبدو لي ، نضع أنفسنا بصورة آلية في موقف إسرائيل» . فبالرغم من أن ميليشيا حداد حينذاك كانت تستخدم العنف على نحو أكبر ضد المدنيين في جنوب لبنان فإن التايمز لم تسمّ مسلحيه «بالإرهابيين» . فإذا كان لا بد للكلمة من أن تستعمل فيجب أن تطبق على الإرهابيين من الجانب الإسرائيلي كما تطبق على الإرهابيين الفلسطينيين . وقبل ذلك بأيام كنت قد أخبرت دوغلاس ـ هيوم أن القذائف الإسرائيلية قد سقطت على بعد أقل من مائتي ياردة من سيارتي على الطريق الرئيسي بين صور وبيروت ، إلا أنّ موشي بريليانت ، مراسلنا في تل أبيب ، كان قد أرسل تقريراً يقول فيه أن زورقاً حربياً إسرائيلياً قصف «أهدافاً إرهابية» في لبنان . ولم يكن هنالك سيارات أخرى غير سيارتي على مدى الرؤية . فسيارتي التي كانت تصدر طنيناً على الطريق الساحلي السريع كانت «الهدف الإرهابي» المفترض لبريليانت . ولم يكن بريليانت يريد مثل هذه النهاية لي . إلاّ أن دوغلاس ـ هيوم فهم المغزى وحظر استعمال كلمة «إرهابي» في كل تقارير التايمز حول الشرق الأوسط إلاّ إذا وردت الكلمة في كلام مباشر .

لا شيء من هذا يجب أن يوحي بأن الفلسطينيين لم يكونوا يقومون بدور أناني وعنيف أحياناً في جنوب لبنان . فقد كانت هجماتهم الصاروخية ضد الجيب المسيحي وأحياناً ضد إسرائيل نفسها ترمي إلى الإستفزاز والرد الإنتقامي . وفي العديد من المناسبات ، أطلق المقاتلون الفلسطينيون النار وقتلوا جنوداً فيجيين كانوا يحاولون منع تسللهم إلى منطقة الأمم المتحدة . وقُتل جندي إيرلندي

واختطف آخر في ١٩٨١ على يد إحدى الجماعات الفلسطينية التي كانت تريد إفساد علاقات عرفات الطيبة مع اليونيفيل وهذا شيء شبه مؤكد . ولم يعد الجندي الإيرلندي بعد ذلك . وأشارت الاستفسارات غير المجدية التي قام بها الدبلوماسيون الإيرلنديون في لبنان إلى أن الجندي ـ وهو ابن مزارع من جزر أران الواقعة بعيداً عن الشاطيء الغربي لإيرلندا ـ قد سجن في زنزانة تحت الأرض في مخيم عين الحلوة الفلسطيني قرب صيدا ولكنه قتل هناك في غارة جوية إسرائيلية دمرت زنزانته الواقعة تحت الأرض . وقيل لاحقاً للجيش الإيرلندي بأنه لم يؤخذ إلى صيدا بل إلى بيروت ، حيث أعدم ببرود قبيل الاجتياح الإسرائيلي في ١٩٨٢ ، وبعد أن أمضى شهوراً من السجن الانفرادي تحت الأرض .

إلاّ أن دور الأمم المتحدة في لبنان لم يكن سيئاً . فقد استطاع جنود الأمم المتحدة ـ إلى حد ما ـ حماية القرويين الشيعة الذين يعيشون في منطقتهم .(ربما لأن الكثيرين منهم قد أتوا من خلفية ريفية) . وقد فهم النروجيون والإيرلنديون هؤلاء الناس بصورة أوثق من فهم الحكومة اللبنانية لهم ربما لأن الكثيرين منهم قد أتوا من خلفية ريفية . فكان النروجيون يقيمون مآدب سنوية للمخاتير أو قادة القرى في منطقتهم . ولم يخالج الضباط أدنى شك في شعبية الأمم المتحدة . إذ أقنع حضورهم القرويين بأن طريق العودة إلى بيوتهم آمنة . وهكذا عادت حقول التبغ وبساتين الزيتون موضع الإهتمام لأول مرة منذ أكثر من أربع سنوات .

وفي ١٩٨١ جلست مع عدد من ضباط الأمم المتحدة النروجيين في إبل السقي بينما كانوا يقيمون مأدبة احتفالية للقرويين في قاعة طعام الضباط المؤقتة . ووقف مختار إبل السقي ليخاطب الضيوف المجتمعين في بيت القرية العتيق الذي أسوّدت أعمدته من النار . وكان هناك فريق من الدبلوماسيين النروجيين بالإضافة إلى الضباط الأعلى رتبة في الكتيبة النروجية .

ووقف الرجل وبدا مرتبكاً . لكنه أدرك الطابع الرسمي للمناسبة . وكان تناول الطعام قد انتهى وجاء دوره ليشكر مضيفيه النروجيين . نظر في اتجاه الكولونيل أول روننغ ، قائد الكتيبة النروجية ، ثم قال بصوت خافت وبالعربية «أنتم آباؤنا ، ونحن أبناؤكم» . وكانت هناك لحظات من الصمت أعقبها تصفيق حاد من المخاتير الآخرين . لقد كانت مشاعر هذا المختار الذي لم يكن في قريته أكثر من مئتين ، مشاعر أصيلة ومثيرة للعواطف . على أنه حمّل الكتيبة مسؤولية صعبة . فماذا يمكنهم أن يفعلوا إذا اضطرتهم الظروف إلى التخلي عن مسؤولياتهم؟ إذن كان من الأفضل عدم الردّ على الإطلاق . فابتسم الكولونيل روننغ ، الذي كان أصلع وله رأس كرأس النسر وعينان حادتان يقظتان ، للشيخ .

كان من المحتم أن يصل الأمر بجنود الأمم المتحدة إلى كراهية ميليشيا حداد التي كانت تعمل دون كلل على تخريب القضية التي تعمل من أجلها الأمم المتحدة . فقد بدأ رجال حداد يزحفون إلى داخل منطقة الأمم المتحدة ليس للتسلل كما كان يفعل الفلسطينيون بل لإقامة مواقع عسكرية في داخلها . وأدى هذا الخرق الفاضح لكل الاتفاقات المعقودة بين الأمم المتحدة وإسرائيل إلى إضعاف الروح المعنوية وسلطة الأمم المتحدة . وحاولت الأمم المتحدة أن تخرج من كل أزمة بالمحادثات ، ولكن الحل الوسط في لبنان أثبت أنه سلاح لا يمكن الركون إليه . فقد كان يعتبر علامة ضعف . والواقع أنه كان من بعض الوجوه كذلك .

ولم يكن هناك مكان أفضل من رشاف لاكتشاف ذلك . وكانت قرية مهجورة مثل كثير غيرها من القرى الاستراتيجية زمن الحرب ، فمنذ أغار سلاح الجو الإسرائيلي عليها عام ١٩٧٨ وبيوتها وفيلاتها أكوام من الركام . ولم يكن يقصدها سوى الدوريات الراجلة من الجنود الإيرلنديين التابعين لقوات الأمم المتحدة . وحتى أيار/ مايو ١٩٨٠ بقي الركام فيها مرتعاً للسحالي . وكانت الأفاعي التي يبلغ طول الواحدة منها ثلاثة أقدام تنعم بأشعة الشمس وهي ممددة على الإسفلت الحار المتكسر في الأزقة .

وفي ربيع ١٩٨٠ ساعد الإسرائيليون حداد على شق طريق إلى خرائبها . ووضعت ميليشيا حداد بعد ذلك دبابة شيرمان زوّدها بها الإسرائيليون على حطامها . وتقع هذه القرية على تلة تكسوها الأزهار البرية والعشب المرتفع الذي كان يسمح ، بالكاد ، برؤية مقر الكتيبة الإيرلندية في تبنين ومقر الكتيبة الهولندية في حاريص . وعندما ظهرت دبابة الشيرمان لأول مرة لاحظ الإيرلنديون أن ماسورتها كانت موجهة إلى تبنين . ومن يوم إلى يومَ كان طاقمها يوجه الماسورة إلى حاريص . ومن أسبوع لأسبوع ، كانت تطلق قذيفة أو قذيفتين في اتجاه مجمعات الأمم المتحدة .

وبين الحين والآخر ، كنت أزور قاعدة هذه التلة الصغيرة وأجلس مع الجنود الإيرلنديين على التلة المقابلة الأقل ارتفاعاً إلى الشمال . وكان الجنود ، يطلعونني على خرائطهم العسكرية وهي خرائط جيدة من صفائح رقيقة تظهر فيها تعرّجات جنوب لبنان وهي تلتف في دوائر تصغر باستمرار كالحلزون ، وتلتف الخطوط بكثافة في الأودية ثم تتسلق بحدة المنحدرات الصخرية فوقها على نحو يكاد يخفي لبنان ذاته . على أن الخرائط كانت كانتهاكات حداد تبعث على الأسى . ففيها يظهر الخط الأمامي للأمم المتحدة كحاجز أزرق سميك يمتد مسافة ميل على الأقل إلى الجنوب من رشاف ، جنوبي قرية الطيرة ، وحوالي ميلين إلى الجنوب من قرية بيت ياحون .

وكان رجال حداد عندئذ على طرف الطيرة . وتمركزت دبابة أخرى له إلى الجهة الشمالية من بيت ياحون . وكان قد حصل بطريقة غير واضحة على إذن لقيادة آلياته العسكرية عبر نقطتي تفتيش للإيرلنديين من قوات الأمم المتحدة . وكان ، طبعاً ، قد سيطر على رشاف . وعندما سألتُ الأمم المتحدة عن سبب كون خرائطهم مضلّلة إلى هذا الحد ، قيل لي إن الخط الأزرق السميك يشير إلى الموقع الأقصى جنوباً للأمم المتحدة وليس إلى الموقع الأقصى شمالاً لميليشيا الرائد حداد . إلاّ أن الأراضي المفقودة ـ مثل سائر الجيب المسيحي اللبناني الجنوبي الذي فشلت الأمم المتحدة في السيطرة عليه ـ لم تكن حتى الآن منطقة عمليات . وقد أغلقت عملياً في وجه الأمم المتحدة . وعليه فقد كانت الخرائط كاذبة . ومن هم الجنود الإيرلنديون الذين سيحاولون إثبات خطئها بدخول الجيب الآن بعد أن أعلن بيغن بذاته أن «الثأر الدموي» أخذ في البداية منهم؟

إن مراجعة الضمير لم تكن إحدى نقاط قوة الأمم المتحدة . كان الجنرال إرسكين يسمح لي بمرافقته في جولاته في منطقة الأمم المتحدة في جنوب لبنان . وكان من السهل رؤية كيفية التعايش مع الحقائق غير المريحة وكيف تناقش بنود الانتداب بدلاً من تحقيقها . فمهمة حفظ السلام في جنوب لبنان كانت تحقيقاً لأفضل ما في مهمة سيئة ، وذلك عملاً بمبدأ الوجه الشجاع . وأحياناً لم تكن الحقيقة تبدو واضحة إلا عند نهاية الرحلة .

كنت أراقب إرسكين في أحد أيام الربيع وهو يزور كتيبته الهولندية . كان صباحاً جميلاً . وكانت مجموعتان من الجنود قد قامتا باستعراض بالقبعات الزرقاء في ساحة حاريص ، واستعرض إرسكين الجنود على وقع موسيقى عسكرية تنبعث من غراموفون قديم . وعندما انتصف النهار انهار جندي إيرلندي بسبب الحرارة ووقع سلاحه إلى جانبه محدثاً صلصلة . وتناول إرسكين عصير البرتقال في قاعة الطعام . ثم توجه إلى الطوافة التي كانت على بعد أمتار . وبعد أن حيا الضابط الهولندي القائد صعد برشاقة إلى طائرته التي كانت قد أدارت محركاتها وجلس كالقطة في مقعد بجوار النافذة . ومال بجسده الضخم نحو النافذة وعصا الجنرالية إلى جانبه .

وطائرة الهيلوكوبتر تتيح لركابها رؤية أولمبية للحقيقة . وكان الجنرال ينظر إلى الأسفل ، إلى تلال جنوب لبنان المتلاحقة التي تغطيها الحجارة والصخور وتعلو كلا منها قرية بسيطة ومئذنة وموقع صغير للأمم المتحدة . وبعد عشر دقائق كانت الطوافة تحلق فوق الساحل وتقطع صفوف أشجار الزيتون في الكروم الواقعة إلى جانب الوحدة الفرنسية اللوجستية (العملانية) الصلبة . أما قيادة الأمم المتحدة فقد كانت إلى الجنوب على مسافة تقل عن ثلاثة أميال . ولكن طوافة الجنرال اتجهت بعد ذلك إلى البحر .

لكن لم تكد طائرته تقطع ميلاً تقريباً فوق المتوسط حتى أدارها الطيار نحو الجنوب وانطلق بأقصى سرعة إلى الناقورة على ارتفاع منخفض لا يعلو كثيراً فوق الأمواج . وكانت قطعة الأرض الصغيرة بين الفرنسيين والناقورة تحت سيطرة ميليشيا حداد التي كانت تستمتع بإطلاق النار على الطوافات . ولذا كان على الجنرال أن يطير بطريقة ملتوية كلما أراد العودة إلى قاعدته . وكانت الناقورة معزولة تماماً مثل أي قلعة تحرم من جيشها الداعم . إلاّ أن ذلك لم يؤثر في إرسكين الذي كان يجلس في مكتبه ويدير الأفكار في رأسه حول حفظ السلام . وذات مساء قال : «إن تغيير انتدابنا إلى فرض السلام يحتاج إلى موافقة الدول المساهمة . وفي الوضع الذي نجد أنفسنا فيه ، لدي شعور بأن أي تغيير في ذلك الاتجاه سيكون ذا مفعول عكسي» .

وبينما كان إرسكين يتكلم ، كان صوت المدفعية الثقيلة في الخارج يسمع عبر نافذة مكتبه متبوعاً بأصوات الانفجارات . فسأل أحد مساعديه باختصار أن يقف على ما يجري . ثم قال : «وحتى في هذه اللحظة نجد أنفسنا في وضع غير مرض تماماً . . . إلا أن لدينا أهون الشرين . إن المسألة التي تواجهنا مسألة سياسية معقدة . ومما يخدم مهمتنا والأمم المتحدة ، وحكومات المنطقة أن يُبذل جهد جاد للوصول إلى حل سياسي لها» . هذا ما كان عليه لبنان : أوضاع غير مرضية ، مسائل سياسية معقدة ، وحلول ممكنة . لقد كان إرسكين في المصيدة . وتعالى صوت القذائف مرة ثانية في الخارج وكان في هذه المرة أعلى ، وبدأ الشباك يهتز بفعل الانفجارات .

وعندئذ دخل مساعد الجنرال إلى الغرفة وقال : «إن صور تُقصف يا سيدي» . فخرج الجنرال عبر المكتب الخارجي ثم عبر المطبخ ووقفنا ثلاثتنا في الشرفة الضيقة المطلة على المتوسط نراقب مدينة الإسكندر القديمة ، صور ، تحت نار قذائف مدفعية الإسرائيليين والميليشيا .

وتأمل إرسكين بعض الوقت في النور الساطع وألسنة اللهب تضيء الشاطيء والتلال المجاورة ووجوه ضباط غرفة العمليات وهم منتشرون على الحصى تحتنا . وقال الجنرال «سيبدأ الناس بإخلاء صور هذه الليلة» . ولكن طبعاً لم يكن بإمكانه القيام بشيء . وتلك هي الحقيقة المسلّم بها وهي أن الناقورة سجينة حداد والإسرائيليين كما أن الأمم المتحدة سجينة لبنان .

الفصل السادس

دعهم يأتون

«لا تستطيع أن تقول أن الأمور ستصبح أسوأ الآن أو غداً أو في الأسبوع التالي . لكن لا بد من اتخاذ قرار في يوم من الأيام . فعاجلاً أو آجلاً سيتعين علينا أن نشن حرب التحرير» .

بشير الجميّل ، ١٠ آب/ أغسطس ١٩٨٠

قال البعض في بيروت أن أرز لبنان أخذ يموت . ففي ذلك الشتاء وهو شتاء عام ١٩٨٠ ذهب بعضهم إلى أنه من المحتمل أن تكون تلك الأشجار التي بلغ عمرها ١٥٠٠ سنة قد أصيبت بفيروس خبيث لا شفاء منه كالفيروس الذي أصاب الجسم السياسي للأمة التي كانت الأشجار منذ زمن طويل ترمز لها .

وكان لامارتين قد وصف أشجار الأرز بأنها «أشهر الآثار الطبيعية في العالم» . لكنه عجز كطالب المدرسة عن مقاومة الرغبة في نقش اسمه على أحد جذوعها الضخمة . وكانت في لبنان في الأزمنة التوراتية غابة واسعة فوق جبل لبنان من أرز الرب الذي استخدم في بناء الهيكل في القدس . على أنه لم يبق من أقدمها إلا القليل في بشري وعلى جبل الباروك في الشوف . وأعلنت وزارة الزراعة بلبنان أنها اكتشفت طفيليات نباتية رمادية على أشجار بشري ، وتحدث البعض عن حقن تلك الأشجار بمواد كيميائية . على أن كتب السياحة القديمة تذكر أن مجموعة من تلك الأشجار كانت تحيط بواد في معاصر الشوف . ومنذ زمن طويل صارت الباصات التي كانت تنقل الناس إلى هناك تستخدم لاقامة المتاريس في بيروت . واختفى أدلاء السياحة .

وكان عيد الميلاد عام ١٩٨٠ بارداً . ونزلت الثلوج أوّل ما نزلت على جبل صنين . وفي حين أن

جو البحر انعكس على طريق صيدا فإن الضباب القاتم غمر الطرق على سفوح الشوف . وفاضت المياه قرب قصر الأمير بشير في بيت الدين . وقرب قرية الباروك في أعالي سلسلة الجبال لمحنا بقعة خضراء غامقة على التلال العارية الباردة التي تعلو ٦٠٠٠ قدم فوق سطح البحر . ورأينا بجانب الطريق ثلاث إشارات علاها الصدأ ترشد كل منها السياح إلى أشجار الأرز . ووجدنا على الطريق الذي سلكناه ثلاثة أكواخ وحيدة مهملة قرب غابة صغيرة ـ كانت فيما مضى تقدم الشراب للذين يقضون أيام عطلتهم في الجبال . وكانت على جدرانها الرطبة رسوم منقوشة لأشجار الأرز . ووجدنا في الغابة عدداً من أشجار الأرز وعلى بعضها سمرة الموت . لكن القرويين أخبرونا بدون حماسة كبيرة أن أشجار الأرز الحقيقية توجد على ارتفاع أعلى بكثير في الجبال ، ولكن الزائرين لا يستطيعون الوصول إليها .

وكانوا على حق فيما يتعلق بالإرتفاع ،ولكن على خطأ في تعذر الوصول إليها . وكانت على طرف معاصر الشوف قرية ذات ماض درزي واضح يتمثل في بيوتها الفخمة التي تتحدث عن أيام أفضل وزمن أقدم ، وأمامها حاجز يحرسه عدد من الشبان . وكانوا يرتدون الزي الخاكي الأخضر الخاص بميليشيا جنبلاط ، ويحملون أسلحة أتوماتيكية . وعندما سألونا عن وجهتنا وقلنا لهم إننا نريد رؤية أرز لبنان ، علت وجوههم ابتسامات عابرة وسمحوا لنا بالمرور . فسلكنا طريقاً ضيقاً يتجه إلى الأعلى ويدور حول تلة تكسوها أشجار الكرمة وبساتين البرتقال المهملة . وانتهينا إلى صخور جبال الباروك . وبعد الإرتفاع ألف قدم ضاقت الطريق بحيث لم تعد تتسع لأكثر من سيارة واحدة . وكانت ضحايا انعطافاتها الحادة التي بنتها الزمر الفرنسية تتجلى في السيارات المحطمة على السفوح الجبلية تحتنا .

وعلى علو ٣٠٠٠ قدم اختفت الأشجار بالرغم من أن المرء كان يستطيع أن يرى فوقه تلك البقعة الزرقاء الغامقة التي تتشبث بقمة الجبل . وتذكر كتب هداية الزوار أن على من يريد أن يتسلق الألفي متر الباقية أن يستخدم البغال . إلا أن الطريق الملتوية كانت لا تزال ترتفع ، فارتفعنا إلى علو ٤٥٠٠ قدم حيث كان البرد شديداً إلى حد أن رقع الصقيع والثلج بدت على جنبات الصخور . وكان علينا أن نجتاز حاجزاً آخر يحرسه رجل مسن له ذقن صغيرة وملامح صلبة . إلا أنه لم يكن يقف في موضعه . إذ كان يقف إلى جانب الطريق يشد معطفه على جسده من قسوة البرد ، وبندقيته على الأحجار بجانبه . وبدا أنه أكثر اهتماماً بجمع الحطب ووضعه خلف سيارة بيضاء مهلهلة . قال وهو ينظر إلينا من نافذة السيارة : «الأرز؟» ولم يزد على ذلك واكتفى بالإشارة إلى أعلى الجبل .

وعلى علو خمسة آلاف قدم كانت فصول الشتاء الخمسة التي مرت خلال الحرب الأهلية بثلجها

وصقيعها قد مزقت الطريق مما اضطرنا إلى السير ببطء فوق الحفر والحجارة المتناثرة . وتضاءل الهواء وصار من الصعب تحريك مقود السيارة . وانقطع نفسي . وعلى علو ٩٠٠، ٥ قدم أخذت الطريق تدور وعجلات السيارة تنثر الحجارة التي كانت تهوي على السفوح . ولاح في الأفق غطاء بلون أخضر غامق بدا وكأنه من صنع الإنسان . وبعد أن درنا مع الطريق الدائرة مرة أخرى وجدنا أنفسنا بين أشجار الأرز .

لم تكن تلك الأشجار تحتضر أو تعاني من الآفات . صحيح أن رياح القرون الخالية جعّدت جذوعها ، ولكن أغصانها التي كبر حجمها مع الأيام كانت تتهادى وكأن الريح الباردة قد نومتها . وكانت الريح تثبت وجودها بهسيسها بين الأغصان . وإلى الجنوب وفوق السحب كانت الجبال تمتد إلى ما عرف بفينيقيا وفلسطين ، وإلى مملكة سوريا القديمة في الشرق . وكان لا يزال بالإمكان بناء هيكل من الأشجار فوق مدن لبنان وميليشياته حيث لا يوجد أثر لمسلح أو زعيم أو جيوش أو انتدابات وعهود . والأرز ـ كما ظن لامارتين ـ «يعرف تاريخ الأرض أكثر من التاريخ نفسه» وإذا صح هذا فلا مجال للعجب من أن هذه الأشجار تشبثت بالحياة هنا على هذا الإرتفاع حيث تتكفل الجبال والثلج والرياح بأن يبقى اللبنانيون الذين أخذوا اسمهم منها بعيدين عنها .

لو كان لهذه الأشجار أرواح لما شعرت بشيء يذكر من الحب تجاه أولئك الذين يزعمون أنهم يستلهمون وجودها الأزلي . فالأرز الذي كان ولا يزال يُتخذ شعاراً للبنان والمحشور حشراً بين الأحمر والأبيض في العلم المثلث الألوان ، والمطبوع على جوازات السفر وأذونات العمل ، والمصور بالدهان على ذيول طائرات البوينغ ٧٠٧ التابعة لخط الطيران الوطني اللبناني قد استخدمته وحوّرته وأفسدته الميليشيات .

ففي غرب بيروت ذبلت الأشجار على أعلام الأحزاب وناءت أغصانها بما تحمله من المطالب السياسية . وفي شرقيها حشرت الكتائب الشجرة العظيمة في مثلث تحطمت فيه جميع الأخشاب المتجعدة والمشققة . فهو مثلث في دائرة ، ورمز بلا حياة .

ولم تُتخذ أشجار الأرز رمزاً مقلقاً وساخراً للبلاد التي ضربت فيها جذورها إلا لأنها استُغلت وأُهملت . ففي بشري وبعد بضعة أشهر عرضت عليّ امرأة تبيع في مخزن ببشري منفضة مصنوعة من خشب الأرز . وقالت : «لا يسمح لنا بصنع هذه إلا من الأغصان الميتة التي سقطت من الأشجار . فالإضرار بالأشجار مخالف للقانون» . وحتى هنا أهين القانون . فبعد دقائق وفي وسط الثلوج التي تحيط بغابة الأرز رأيت جماعة من الشبان ينزعون الأغصان واحداً بعد الآخر من شجرة أرز ضخمة .

ويقول خليل جبران الذي لا يبعد قبره أكثر من ميل عن غابة الأرز : «لبنانكم لبنان السياسي ، ولبناني لبنان الطبيعة بكل جمالها» لكن هذا كان في الماضي .

من الغرابة بمكان بالنسبة لصحفي يعيش في بيروت عند نهاية ذلك العقد من السنين أن يوحي له لبنان بذلك التوازن والصفاء اللذين لن يفهمهما شخص من خارجه . فالمراسل الصحفي الشرق أوسطي الذي يرسل التقارير عن التطورات في إيران أفغانستان ولبنان يجد أن للفوضى والإضطراب في بيروت استقراراً داخلياً ذاتياً من نوع خاص . فكلما تعرف الانسان على معالم الخطأ في لبنان ضعف شعوره بأنه أجنبي . وعليه فإن هذا التعرف الشاذ وحتى الخطر يبدو وكأن له خصائص تأسر الأجنبي وتحببه بالبلاد . فكلما تعلمنا المزيد في بيروت ، ازداد شعورنا بالاطمئنان ، وبهذا نصبح أكثر تعرضاً لاقتراف الخطأ .

فالأخطار التي تهدد حياة الإنسان ليست حكراً على لبنان . إذ ليس هناك شك في جسامة الأحداث التي تجري خارج حدوده . وعندما توقفت «التايمز» عن الصدور مدة أحد عشر شهراً في عام ١٩٧٩ قضيت أسابيع وأنا أكتب تقارير عن الثورة الإيرانية لإذاعة كندية . ترى كيف يمكن لأي شخص أن يقارن بين التطورات الكبرى في القرن العشرين وبين الحروب الصغيرة في لبنان؟ حدث ذات يوم أن جلست على بعد بضع أقدام عن الإمام الخميني و أخذت أستمع إليه وهو يتحدث عن شرور أميركا وضرورة إعادة الشاه إلى إيران لمحاكمته وطبيعة الجمهورية الاسلامية . وكان ينظر إلى الأرض وهو يتكلم . وبدا نظره مسلطاً على بقعة صغيرة نفذ إليها شعاع من نور ، وذلك في غرفة مزدحمة بالناس ببيته في مدينة قم . ولم يرفع نظره عن البقعة إطلاقاً . ولا بد أنه نفذ من شق في النافذة أو انعكس من مرآة . ومضت نصف ساعة قبل أن ندرك أنه لن ينظر إلى أحد في الغرفة ولا حتى إلى مترجمه صادق قطب زاده .

لقد استطاع الإمام الخميني أن يتغاضى عن سجن الدبلوماسيين الأميركيين في طهران ـ وهم سكان «عش الجاسوسية» وأن يثبت دون عناء أن الأميركيين «نمر من ورق» كما استطاع أن يحطم ثقة بعض الأمم العربية الغنية في الخليج بنفسها . لكن لم يكن في لبنان رجل صاحب سلطان روحي مثله . وكذلك لم تحدث ثورات على النطاق الواسع الذي كان للثورة الإيرانية . وقد تنقلت بالقطار عبر صحاري إيران الواسعة ـ بين أصفهان وشيراز وتبريز ، فكانت نوافذ القطارات محطمة وعلى جدران الكابينات الداخلية ملصقات تحمل صور الإمام الخميني . وفي قم شاهدت أحد ضباط الصف في جيش الشاه يدافع عن نفسه أمام محكمة دينية . وكان متهماً بإطلاق النار على المدنيين .

لم يقم في لبنان شخص كالخميني ، وظل مسرحاً للإضطراب والفوضى . ومع هذا كان لبنان مستقراً يمكن التعرف على ما فيه ، وإطاراً لوجود المرء . وكنا دائماً نعود بالطائرة إلى بيروت بين كل مهمتين ، فننزل في مطارها الصغير المألوف الذي قُصفت مبانيه بالقنابل ، ونعود إلى بيوتنا التي تطل على البحر ، وإلى رحلات نهاية الأسبوع في الشوف ، وإلى موائد العشاء في برمانا ، وإلى اللبنانيين الذين يستطيعون بلا عناء إيصالنا بالتلكس أو التلفون بأقصى قرية في إيرلندا ، أو حجز أماكن لنا على خطوط الطيران إلى كابول ، أو تنظيم رحلة في نهاية الأسبوع إلى بعلبك . ولدى اللبنانيين ذوق فني أصيلاً كان أو مصطنعاً . والواقع أنهم موهوبون بكل ما في الكلمة من معنى . وأذكر أنني عندما جئت إلى بيروت من أوروبا شعرت بالإنقباض والحرارة مع الرطوبة ، ورأيت أشجار النخيل المهملة ، وشممت رائحة القهوة العربية ، ورأيت أكشاك الفواكه واللحم المثقل بالبهارات . فكان ذلك بداية الشرق . وعندما عدت بالطائرة من إيران إلى بيروت استطعت الاطلاع على الصحف البريطانية ، وشراء المشروبات ، واختيار مطعم من المطاعم الفرنسية أو الإيطالية أو الألمانية لتناول العشاء . وذلك بداية الغرب . ففيها كل شيء ولكل الناس . ونادراً ما كان أهلها يناقشون أمر هويتهم .

وكان السعي إلى حجز مكان على الطائرات في مكاتب الطيران التي لا مكان لديها بسبب إقبال الركاب على السفر ، ومعاناة الوقوف في المكاتب القذرة داخل القنصليات من أجل تأشيرات السفر والعرق يتصبب على الجسد بسبب حرارة الجو ـ كل هذا كان يجعل من السهل علينا أن نغفل المعنى الحقيقي للأحداث التي كنا نشاهدها عن كثب . كنا كما كان دوجلاس هيوم يقول «أصحاب الوجوه الفحمية» الذين يكدون بمفكراتهم وأقلامهم وهم يبحثون عن رمز هنا واقتباس هناك يمكن أن يهدي الواحد منهم إلى رائحة حدث ما وأهميته ، وبذلك يكشف ماسة صغيرة مدفونة في أعماق الأحداث قد تلقي ضوء على التاريخ الذي نحاول كتابة التقارير عنه .

ويمكن للإنسان أن يعود إلى بيروت بصور وانطباعات لا باستنتاجات . بينها صورة كولونيل بالجيش الروسي وهو يناولني بندقية أدافع عن نفسي بها في الثلوج عندما أحاط الثوار الأفغان بحافلة روسية عسكرية على سفوح جبال هندوكوش ؛ وصورة حارس شاب من حراس الثورة الإيرانية يقف تحت رحمة القصف العراقي في بحيرة السمك جنوب شرق إيران برأس مكشوف للشظايا ويضم القرآن بقوة إلى صدره وهو يبتسم وكأنه يرى الجنة ؛ وصورة أب إيراني جلس على الأرض بجانب قبر ابنه شمال طهران . فلما قرأ على شاهد القبر عبارة «لا تبك يا أبي» ألقى بنفسه على القبر وأغرق في البكاء ، وصورة صف من الأصوليين المسلمين المعصوبي الأعين وهم ينتظرون استجوابهم على أثر اغتيال السادات ، ولا يعلمون أن رجال البوليس من حولهم يحملون أمواس حلاقة . ثم صور الجثث .

ومنها جثث العراقيين المطروحة في العراء بعد معركة دزفول والرائحة المنبعثة منها وهي تتآكل تصل إلى طوافتنا ، وجثث جنود فتيان إيرانيين مزقتها الألغام أمام شط العرب ، وجثة جندي عراقي وضع في كيس وألقي في مستنقعات الفاو وبأصبع يده المسودة خاتم زواج ذهبي يلمع .

وتكشف هذه الصور عن أنماط سياسية واضحة . فاغتيال السادات ، ووفاة الشاه ، وغزو الروس لأفغانستان تشير إلى أميركا الضعيفة التي فقدت قوتها وهيبتها الدولية . وفي الوقت ذاته نجد أن وراء اغتيال الأصوليين للسادات ، وإشعال ثورة الخميني ، وقوة المقاومة الأفغانية تطوارت خطيرة . إذ كان للثقة الجديدة بالنفس ، وروح الثورة في العالم الاسلامي وخصوصاً لدى الشيعة تأثير في كل أمة في المنطقة وحتى في لبنان .

على أن تفكك لبنان الداخلي بدا معزولاً عن كل هذا ، وربما أسهل للفهم ، وبالتأكيد أكثر انتظاماً في مساره . وكنا كلما اعتزمنا العودة إلى بيروت ووقفنا في الصف لركوب الطائرة من أبو ظبي أو دبي أو عمان أو القاهرة إليها ، نشعر بتعلقنا بطائرات البوينغ ٧٠٧ القديمة بذيلها الذي حمل شجرة الأرز ذات الأغصان الخضراء النافرة من جذعها الأسمر الفاتح . وحتى عندما كنت أعود وأجد أن بشير الجميّل قرر أخيراً القضاء على «نمور» شمعون ، كان الحدث يبدو وكأنه جزء من حرب معزولة ومحصورة في رقعة معيّنة . وكان الجميّل قد سئم مشاركة حزب الوطنيين الأحرار في السلطة المارونية وخصوصاً في تحصيل الضرائب غير القانونية . وفي حرب تطهير دامت ٣٦ ساعة تمكنت الكتائب من أن تقتحم جميع الثكنات والمكاتب التي يحتلهـا «النمور» وقتلت عدة مئات من المدنيين ، ثم أعلنت أن شرقي بيروت طُهّر من رجال العصابات الذين «أرهبوا» السكان .

وفي غربي بيروت استخدمت وحشية مشابهة ضد المؤسسة الوحيدة التي واصلت التصدي للأساطير والأكاذيب التي كان يفترض أن يصدقها اللبنانيون ، وهي الصحافة . وكان سليم اللوزي من أكثر الصحفيين اللبنانيين ذكاء وإنتاجاً . إذ كان قد ألّف روايتين سياسيتين وأسس مجلة الحوادث التي لم يفق مستواها الفكري سوى شجاعتها . وبالرغم من أنه لم يكن محبوباً في أوساط الصحفيين اللبنانيين الذين رفضوا أسلوبه الجارح في الكتابة ، وأدركوا أن التقارير السياسية التي كانت مجلته تنشرها كانت في الغالب غير صحيحة ، وفي حين أنه أثار حسد الصحفيين بانتقاده لبعض مظاهر الحكم السوري ، فإنه أغضب السوريين .

أخذ اللوزي يحرر الحوادث في مأمنه بلندن ويطبعها هناك . وفي عام ١٩٨٠ اعتزم القيام بزيارة قصيرة لبيروت . وفيما كان في طريقه إلى المطار في ٢٤ شباط/ فبراير خُطف بجوار حاجز للتفتيش .

وفي الخامس من آذار/ مارس عثر راع لبناني على جثته التي بدأت تتحلل وعليها بعض الثلج في أحراج عرمون جنوبي لبنان . وكانت يداه قد ربطتا وأطلقت رصاصتان على عنقه من الخلف . وأفظع من هذا وأهم أن علامات التعذيب كانت ظاهرة على جثته . وكانت يده اليمنى ـ التي كان يكتب بها ـ قد سلخت وأحرقت بالأسيد . وكان في هذا إنذار لا بد أن يفهم الصحفيون جديته . واعتبر القتيل من الناحية الرسمية ضحية مسلحين مجرمين مجهولي الهوية . أما من الناحية غير الرسمية فقد دفع الضحية ثمن عدائه لبعض الجهات كما دفعه كمال جنبلاط من قبله . إذ كسب عداء السوريين والليبيين والفلسطينيين وجهات أخرى .

ولم يكن اللوزي الوحيد الذي سقط ضحية الصحافة . فقد اغتيل أيضاً رياض طه نقيب الصحفيين . وشجبت الحكومة اللبنانية هذه الجرائم وأعلنت عن جهلها هوية المجرمين . ومن الصحفيين الذين جروا المتاعب لأنفسهم برندت دبوسمان رئيس مكتب وكالة رويتر ببيروت الذي تعرض لمحاولة اغتيال قام بها مسلحان في غرب بيروت .

وكان النظام السوري عندئذ قد تعرض لسلسلة هجمات قام بها الأصوليون في حماة وحلب . وفي إحدى المناسبات أطلقت النار على المتظاهرين في شوارع حلب ، وأرسلت وكالة رويتر تقارير من بيروت تشير إلى أن القلاقل أخذت تتفاقم . وكان فحوى تلك التقارير صحيحاً ، لكن بعضها استند إلى شهادات «مسافرين من سوريا» لم تكشف عن هوياتهم ، بالإضافة إلى أن هذه التقارير بالغت في تصوير حجم القلاقل . فأثارت رويتر حنق السوريين الذين ذهبوا إلى أن التقارير المتتالية غير الصحيحة لا بد أن تكون جزءاً من مؤامرة على الأسد .إنها المؤامرة مرة أخرى .

ومهما يكن من أمر فقد قام مسلحون مجهولو الهوية بإطلاق النار على دبوسمان من الخلف . وبعد أن عولج في مستشفى الجامعة الأميركية بحراسة مقاتلين من فتح خرج من لبنان ولم يعد . وفيما بعد قال تيم لولين مراسل هيئة الإذاعة البريطانية وبريطاني آخر من كبار موظفي الإذاعة نفسها أن حياتهما مهددة وهربا من البلاد .

وليس هناك ما يثير الدهشة في محاولة الكتائب استغلال هذه الأحداث . وكان الصحفيون حينذاك يعيشون في غرب بيروت لأنها المنطقة التي كانت تعمل فيها السفارات ومكاتب الوكالات الدولية ، وتجري فيها الإتصالات عندما اكتسب خط التماس الذي رسمته الحرب الأهلية شكله النهائي عام ١٩٧٦ . فدعت الكتائب هؤلاء جميعاً إلى فتح مكاتب لهم في شرق بيروت . إلا أنهم رفضوا ذلك بلطف . صحيح أن الإقامة في بيروت لم تخل من المخاطر ولكن الإنتقال إلى شرقها كان سيعتبر عملاً سياسياً . ثم إن الذين اختاروا البقاء في غرب بيروت هم الذين أرسلوا التقارير عن اغتيال



بشير الجميّل

سليم اللوزي ورياض طه وأشاروا إلى من يحتمل أن يكونوا قد قاموا باغتيالهما . وسافرنا إلى حلب لتحري حقيقة المظاهرات وبعثنا رسائلنا من بيروت الغربية ،وكتبنا عن المسلحين الذين حاولوا قتل دبوسمان ، وكنا في انتظار المزيد من الأحداث .

وكانت النتيجة الأولى حملة إعلان صاعقة قام بها الجميّل . فقد أعلن أنه إذا امتنع مراسلو الصحف عن اللجوء إلى حماية المسيحيين لهم فإنهم على الأقل سيكونون موضع ثقة بشير الجميّل . وكان هذا يريد أن تختفي صورته كزعيم لإحدى الميليشيات ، وأن تحل محلها صورة المفكر والسياسي وحتى رجل الدولة . فنظمت من أجل ذلك الغرض سلسلة من ولائم الغداء على التلال شرق بيروت حيث حاول بشير أن يكتسب صداقة الصحفيين الذين كثيراً ما اعتبروه سفاحاً أو رجل عصابات . لكنه لسبب ما لم يستطع إطلاقاً أن يغيّر شيئاً من صورته الأولى . بل شك بعضنا ونحن ندور في طريقنا المتعرجة لتلبية دعوة للغداء في عين سعادة في أنه كان بالفعل يريد تغيير تلك الصورة .

وكان من الصعب على من يلقي نظرة على الصالون في مطعم عين سعادة أن يتخيل وجود جماعة أكثر استرخاء وهدوءاً من المدعوين إلى ذلك الغداء . فقد كان بينهم توفيق عواد[1] الذي يعتبره البعض أروع كاتب لبناني حي . وكان قد تقدم في السن وهزل جسمه وجلس يدخن سيجارة بعد أخرى في كرسي له ذراعان . وعلى الجانب الآخر من السجاجيد الإيرانية الفاخرة كان الكاتب الروائي ريمون جبارة يحتسي شرابه البارد ويستمع إلى سلسلة من النكات ويضحك . وكانت هناك كتب عن الفن الياباني وضعت على أطراف طاولة «البوفيه» وصور بارزة لقرى من جلاوسترشير فوق سلّم الدرج ، وتسجيلات ل «مدام بترفلاي» للمؤلف الموسيقي الإيطالي بوتشيني ، وأخرى لشوينبرغ ، والسوناتا ٣٠ و ٣١ لبيتهوفن فوق إحدى الطاولات . وكان الضيف الوحيد الغريب على هذا الجمع رجل له كرش يذرع الشرفة خارج النوافذ الفرنسية وينظر بقلق من خلال نظارتيه إلى هباب الحرارة فوق شرق بيروت والبحر .

وعندما دخل بشير الجميّل الغرفة أخذنا نراقب كل حركة من حركاته . وعندما رفع رأسه ، أخذ ينقل بصره بعينيه الكبيرتين بيننا بقلق ظاهر وكأنه ضحية تحاول التعرف على من ضربه وطرحه أرضاً ـ ولكننا جميعاً كنا شركاء في ذلك .

---

(١) توفي عواد في ١٦ نيسان/ أبريل ١٩٨٩ عندما انفجرت قذيفة في بيت صهره السفير الاسباني في لبنان الذي قتل هو أيضاً .

وكان قد تغيّر بعض الشيء مؤخراً ، فبدا جسمه أكثر امتلاء منه عندما كان يقود ميليشيا الكتائب خلال الحرب الأهلية ، وفقد صوته بعض حرارته ونبراته ، وصار أقل تأكيداً على المواضع التي كان المستمع ينتظر أن يسبغ عليها ثوباً من الحماسة والعاطفة ، وخلت نظراته الخاوية من أي معنى وكأنها نظرات إحدى الدمى .

ومن المحتمل أنه لم يفاجئ الناس بهذا . فقد تبوأ زعامة أقوى جيش خاص لدى المسيحيين وهو في الثانية والثلاثين من العمر ، فوطد أركانه بما عرف عنه من تصميم عندما أمر بذبح «نمور» داني شمعون . وكانت رواية الجميّل لهذا الحدث تتلخص في أنه لم يكن ممكناً لولا أن الجانبين كانا يستخدمان الدبابات للفصل في نزاعاتهما الداخلية ، ويتبادلان إطلاق الصواريخ لتسوية الخلاف على حادث سيارة أو لتسوية نزاع على مناطق السيطرة . وأضاف الجميّل أن إنشاء «القوات اللبنانية» ـ وهو الإسم اللائق الذي أطلق على الميليشيتين بعد أن جرى ضمهما ـ فقد كل تأييد من قبل الجمهور . وقال بأننا اذا دَفَعنا الشك إلى النظر إلى المعركة التي تلت ذلك على أنها صراع على السلطة بين رجال عصابات فذلك شأنكم ـ وهنا هز الجميّل كتفيه بصورة تدل بوضوح على أنه لا يريد منا أن نعتقد ذلك . ومضى يقول :

«إن المشكلة هي أن كل من صارت تحت إمرته ثلاث أو أربع دبابات يرى في هذه الأسلحة مقياساً لأهميته السياسية . فإذا صارت لديه ثلاث دبابات ظن أنه يستطيع أن يصبح وزيراً ، وإذا صار لديه خمس دبابات فباستطاعته أن يكون وزيراً للزراعة ـ وإذا صار لديه خمس دبابات وخمسة آلاف مقاتل ظن أنه قد يستطيع أن يصبح وزيراً للداخلية . إنني أتحدث هنا عن نفسي وعن أخي وعن داني ـ وعن كثيرين منا . لكن من كانت لديه رؤية للقضية اللبنانية التي يبلغ عمرها خمسة آلاف سنة فلا أظن أنه يقيس أهميته بعدد الدبابات الجاثمة في بساتينه» .

وواصل بشير الجميّل حديثه على الوتيرة الروتينية العالية ذاتها . ولم يخفض صوته إلا لبرهة وذلك عندما اعترف أنه هو شخصياً قرر «حل» التقسيمات داخل القيادة العسكرية المسيحية ، ولكن بدون الإشارة إلى ضحايا هذا الحل . وخلال ذلك لم يتخل عن التظاهر بعدم الأنانية . ولم يشب صوته شيء من الحزن إلا عندما تحدث عن علاقاته مع داني شمعون ، فاستهلها كما يستهل ناظر المدرسة كلامه بقوله «إن هذا يؤلمني أكثر مما يؤلمكم» . ثم قال :

«ربما كانت علاقاتي معه جيدة ، ولكن علاقاته معي سيئة جداً .لكن المسألة ليست مسألة حب أحدنا للآخر ، فإن داني سيدرك عاجلاً أو آجلاً بأن ما حدث كان لصالحه وربما لصالح القضية» .

وبهذا الحديث حول إنكار الذات تحول الجميّل إلى تناول الغداء . وكانت المائدة حافلة بالمقبلات والمشاوي والحلويات . ودعي الجميّل إلى الإبتداء . ففعل ذلك بحماسة ثم التفت وانحنى قليلاً وقدم طبقه لأجمل شابة في الحفل . فكان ذلك هو جوهر الجميّل أو شهامة أقوى فارس في البلاط الماروني . وجلس بقلق حول طاولة صغيرة بينما كان البحر يلمع خلفه وضجة السيارات المارة بعين سعادة تسمع من حين لآخر ، والرياح تزحف من الجبال والزيز يئز بين الأشجار . وفجأة جاء الغضب . قال الجميّل :

«بدأت مشاكل لبنان عندما تحدث سليمان فرنجية بالنيابة عن الفلسطينيين في الأمم المتحدة . لماذا كان لبنان هو وحده الذي سمح للفلسطينيين بأن يكونوا أقوى من جيش لبنان الوطني؟ ألم يدرك الغرب أن عليه الوقوف بحزم ضد «الإرهاب» وضد أعدائه؟ لقد أضعتم انتم الغربيون إيران وقريباً ستفقدون غيرها . . . إن الناس يطلبون منا أن ندين الإسرائيليين ، فلماذا نفعل ذلك؟ إذا فعلنا هذا فإنهم سيطلبون منا أن ندين الولايات المتحدة ومن ثم الفاتيكان . إن الإدانات علامة ضعف» .

ثم تناول بشير الجميّل سكيناً عن الطاولة وأخذ يغرز رأسها بقطعة خبز وقال :

«من قال لكم بأننا نريد تقسيم لبنان؟ إن الذين يريدون تقسيمه هم الفلسطينيون . فهم الآن يسيطرون على ثلث البلاد» . وأضاف وهو يواصل مطاردة قطعة الخبز بسكينه : «لا يمكنكم أن تقولوا إن الأمور سائرة إلى الأسوأ الآن أو غداً أو في الأسبوع التالي . لكن لا بد من اتخاذ قرار في يوم من الأيام . فعاجلاً أو آجلاً سيكون علينا أن نشن حرب التحرير» .

ونظر الجميّل حوله ليرى رد الفعل على عبارته المغرقة في التشاؤم ، لكن الصمت خيّم على الجميع وذلك لأننا كنا جميعاً نعرف ما يعنيه ، وهو أن الكتائب الجديدة تعتقد بأنها صارت على جانب من القوة يمكنها من طرد الفلسطينيين من لبنان . قال :

«والآن هناك انشقاق داخلي في سوريا . فماذا ترون أنه سيحدث؟ إن البعض لا يجرؤ على الكلام . وحتى في هذا الوقت يشعر بعضكم أنه مهدد . لقد اغتيل سليم اللوزي ولحق به رياض طه . وتعرّض تيم لولين العامل في هيئة الإذاعة البريطانية للتهديد الذي أخرجه من بيروت . لكنكم لا تستطيعون كتابة هذا . . . فالحكومة محصورة بين أربعة جدران في قصر بعبدا حول طاولة خضراء للعب الورق . لكنني لست سياسياً ، إنني لم ألعب الورق إطلاقاً» .

على أن الجميّل كان سياسياً بكل معنى الكلمة ويمثل الحريات المارونية المهددة تهديداً حقيقياً أو خيالياً من انتقام العرب ، ويحارب من أجل أقلية ربطت نفسها تاريخياً وعسكرياً بالدولة اليهودية التي تقع إلى الجنوب على بعد يقل عن مئة ميل . فإذا شنت الكتائب بالفعل حرب «التحرير» فإنه سيكون من الواضح أن بشير الجميّل هو الذي كان يعتزم أن يلعب الورق في بعبدا .

ومن المؤكد أن أهداف الجميّل كانت قابلة للتحقيق أكثر من أهداف الفلسطينيين الذين كان يحاول الآن طردهم . ولم تحل أواخر عام ١٩٨٠ حتى كان الشطر الغربي من بيروت وغالبية من المسلمين قد أصبح تحت سيطرة الميليشيات اللبنانية «والقبضايات» الذين كانوا يبتزون أموال الناس مقابل حمايتهم . وأنشأت فتح جهاز أمن خاص بها برهن في كثير من الأحيان على أنه أكثر فعالية من الجيش السوري ، فوفر الحماية لقاء المال لبعض الفنادق الكبرى ببيروت . وأصبحت منطقة الفاكهاني ـ حيث كانت مكاتب وبيوت ياسر عرفات وغيره من قادة منظمة التحرير ـ امتداداً لمخيم صبرا وتحت حراسة مقاتلي فتح وسيطرتهم .

وظلت الأسلحة تتدفق على لبنان . وكانت صناديق الذخيرة تنقل براً من دمشق إلى جنوب لبنان لتغذية القوة المتزايدة لحركة أمل الشيعية . كما أن القذائف الليبية كانت تنقل عبر الحدود السورية إلى جنبلاط في جبال الشوف ، بينما كانت المراكب الإسرائيلية ترسو ليلاً في الأكوامارينا شمال جونية وتفرغ ذخائر الدبابات للكتائب . وكذلك كانت تصل المدافع المضادة للدبابات والذخيرة جواً من وارسو إلى منظمة التحرير . وكان بعضها يصل في الصناديق على طائرات شركة الطيران البولندية «لوت» للركاب[٢] .

وكان التحري عن شحن الأسلحة والذخائر ينطوي على كشف الغشاء الرقيق من الإحترام السياسي الذي كانت الميليشيات تحب أن تحيط نفسها به . فلم أكد مثلاً أبدأ تحرياتي عن بيع شاحنات عسكرية مصنوعة بألمانيا في أواخر ١٩٨٠ لمنظمة التحرير حتى وقعت على قصص تجار الأسلحة الخونة ، وحوادث خطف قرب مطار بيروت لا تفسير لها ،وقصص جماعة من النازيين الجدد الذين تدربوا في قلعة متداعية في الريف الألماني ، وصلة محتملة بين منظمة التحرير وكتائب الجميّل . وكما هو الشأن في لبنان فإن هذا الفيض من التفصيلات أدى إلى المزيد من الأسئلة لا من الإستنتاجات .

---

(٢) وعندما أضرب عمال التضامن في هيئة الطيران التابعة للوت أعربوا عن تذمرهم من إجبارهم على شحن الأسلحة إلى مطار بيروت على طائرات مدنية .

وكانت القضية تدور حول شخص كئيب وهو كارل هاينز هوفمان زعيم «الفريق الرياضي العسكري» الألماني الذي كان ينتمي إليه ٤٠٠ عضو فاعل في هايلدبرغ وأنجولستدات وفرانكفورت . وكان جيرهارد بوم وزير الداخلية الألمانية قد حظر وجود الفريق لأنه ـ كما قال ـ استهدف إسقاط الديمقراطية . واعتاد هوفمان على تجهيز أفراد فريقه بالخوذ الألمانية التي استخدمت في الحرب العالمية الثانية ، وبالجزمات العسكرية الثقيلة التي كانوا يدورون بها حول ساحة القلعة التيوتونية قرب أرلنجن . وباختصار فإنهم لم يكونوا من النوع الذي ترغب أية ميليشيا لبنانية تحترم نفسها أن تربط نفسها به بشكل علني .

لكن الكتائب التي نسيت جذورها في عام ١٩٣٦ ، اهتمت بنشاطات هوفمان في بيروت ، وزعمت أنه يبيع شاحنات عسكرية ألمانية قديمة لمنظمة التحرير الفلسطينية . وأصر محام كتائبي أمامي على أن هوفمان وأربعة من زملائه التابعين «للفريق الرياض العسكري» أقاموا مع رجال فتح في مخيم بغرب بيروت في شهر آب/ أغسطس ١٩٨٠ . وقال المحامي الذي كانت معرفته بحركات هوفمان جيدة بالرغم من أن الكتائب كانت تنكر أي علاقة لها بهوفمان ـ إن هذا كان يتنقل في بيروت بسيارة ليلاند تحمل لوحة تسجيل عليها الحروف «فو ـ رو» . وأضاف المحامي أنه ـ أي هوفمان ـ أخبر منظمة التحرير أنه كان يحارب «الصهيونية واليهودية» وحصل مقابل ذلك على وعد من المنظمة بأن يتلقى أفراد فريقه تدريباً حياً على القتال مع الفدائيين الفلسطينيين في جنوب لبنان .

وغني عن القول أن منظمة التحرير أنكرت أي معرفة لها بهوفمان . وصرح محمود اللبدي الناطق الرسمي باسم عرفات أنه سمع عن وجود هوفمان في بيروت ولكنه يعمل مع الكتائب في شرق بيروت . أما الكتائب فقالت إن هوفمان عاد إلى غرب بيروت ، وأنه وصل إلى لبنان من زوريخ على متن إحدى طائرات الميدل ايست في ٦ تشرين الأول/ أكتوبر وبصحبة سائقه واسمه كلنجر .

وفي البداية نفض الدبلوماسيون في سفارة ألمانيا الغربية أيديهم من الموضوع كله . وقالوا إنهم لا يعرفون شيئاً عن أي صفقة لبيع شاحنات عسكرية قديمة لمنظمة التحرير . والحقيقة هي ـ كما رأيناها في كل مرة تجولنا فيها بالسيارة حول قواعد الفدائيين في جنوب لبنان ـ أن كل شاحنة تقريباً من شاحنات منظمة التحرير التي كانت على الطرق كانت سيارة مرسيدس ألمانية غربية . وقالت منظمة التحرير بأنه كان بالإمكان شراؤها بصورة قانونية وأنها لا تتعامل مع أشباه هوفمان ، وقال اللبدي بصوت ناعم : «إن أكثر الناس أناقة وتحرراً ولطفاً يأتون إلى هنا في كل يوم ليبيعونا بضاعتهم . فلماذا نلقي بالاً لرجل له تلك السمعة مثل هوفمان؟»

لكن من الواضح أن شخصاً ما كان يتعامل مع هوفمان في بيروت . واتضح هذا عندما أذاع راديو

الكتائب في أيلول/ سبتمبر خبراً عن حادث خطف غريب لعدة أشخاص . ومما قاله صوت لبنان أن الأعضاء الأربعة من منظمة هوفمان الذين وصلوا في الصيف اختفوا في ٢٤ أيلول بينما كانوا في طريقهم بالسيارات إلى مطار بيروت ليعودوا إلى ألمانيا ، وهم ستيفن دوبر من كارلسروهي ، وبيتر هامبورغر من ميونخ ، وأويفرايد هب من آخن ، وكب ـ أووي برغمان من هامبورغ . وأضافت الإذاعة أنهم كانوا في ٢٠ أيلول يقيمون على شاطئ البحر قبالة الحي التجاري ، وأنهم إذ ذاك رفضوا الإشتراك في مهاجمة الكتائبيين في شرق بيروت .

ونجد في الصحف الصادرة ببيروت في تلك الفترة أنه حوالي ذلك التاريخ قام أربعة رجال وهم دوبر ، وهامبورغر ، وهب ، وبرغمان بإبلاغ البوليس اللبناني أن أربعة مسلحين سرقوا جوازات سفرهم ونقودهم في وسط بيروت . وأيدت الخبر السفارة الألمانية الغربية التي قالت أنها تلقت في أعقاب الحادث مكالمة من أربعة رجال يطلبون جوازات سفر ونقوداً تمكنهم من العودة إلى ألمانيا . وأقرت الحكومة الألمانية الغربية بصورة خاصة أنها كانت على علم بأن للأربعة علاقة بهوفمان بالرغم من أن السفارة ادعت أنه لم يكن لديها علم بذلك . واستمر الدبلوماسيون في ادعائهم الجهل بينما قضى الأربعة الذين «فقدوا» نقودهم ، ثلاث ليال في فندق الكومودور بعد أن حدثت السرقة المزعومة . وكان الكومودور معروفاً بتكاليفه المالية . فقد صرف أحدهم ٨٥ دولاراً على طلباته للغرفة .

وفي صباح ٢٤ ايلول/ سبتمبر زودتهم سفارة ألمانيا الغربية بأوراق سفر وتذاكر طيران إلى فرانكفورت . وتوجه الأربعة إلى المطار لكنهم لم يصلوه أبداً ، ولم يرهم أحد بعد ذلك . وقال الكتائبيون ، الذين بلغت الآن معرفتهم بالقضية حد المعجزات ، بأن الأربعة خطفوا من سيارة أجرة وأن الذين خطفوهم مسلحون كانوا في سيارتين إحداهما سيارة صالون ألمانية صفراء والأخرى سيارة ليموزين سوداء لها «أنتين» للراديو . وما هو أدعى إلى العجب أن الكتائب زعمت أن لديها صوراً لهم وأرقام أوراق السفر التي زودتهم بها السفارة سراً صباح اليوم الذي اختفوا فيه ، وتفصيلات عن هوياتهم «المسروقة» . بل ادعت حتى أنها تعرف بالضبط مكان إقامة هامبورغر في جادة كارل ماركس بميونخ ، وأنهم جميعاً بيد الفلسطينيين . أما منظمة التحرير فقالت إنهم بيد الكتائب . وواصلت السفارة الإدعاء بجهلها .

وكانت السلطات الألمانية الغربية ببون على علم باهتمام هوفمان بشاحنات الجيش القديمة . إذ سبق لأعضاء من منظمته أن ردوا على أعقابهم من الحدود الألمانية ـ النمساوية بينما كانوا يحاولون قيادة شاحنات مرسيدس عبر الحدود . وربما كانت تلك الشاحنات في طريقها إلى الشرق الأوسط . لكن هذا كل ما كانت تعرفه . إذاً فكيف حصل الكتائب على تلك المعرفة العجيبة عن هوفمان

والمستندات المسروقة من الأربعة؟ وكيف وصلت شاحنات المرسيدس العسكرية إلى منظمة التحرير ببيروت؟ هل كان مصدرها جيش ألمانيا الغربية أو القوات المسلحة في دول أخرى؟ وهل خطف الألمان الأربعة بالفعل؟ أم أنهم وصلوا إلى المطار وطاروا إلى بلاد أخرى بجوازات سفرهم الأصلية؟

بعد ذلك بأسابيع لاحظنا وجود سيارات مرسيدس جديدة على طرق جنوب لبنان ، وأن دهانها كان لا يزال لامعاً إلى حد أن الفلسطينيين لطخوا جوانبها بالوحل للحؤول دون معرفة هويتها من الجو . لكننا لاحظنا أيضاً شاحنات جديدة مماثلة تماماً مع الكتائب في المناطق الواقعة شمال بيروت . وبلغنا أن الرجال الأربعة غادروا بيروت بعد خطفهم بشهر . وللقارئ ـ كما كانت إذاعة الكتائب تقول في نهاية الحلقات المسلسلة ـ أن يحكم بنفسه . هذا هو حال لبنان عندئذ . كان في مقدورك أن تجمع وقائع هائلة ،وأن تقابل ممثلي الميليشيات ، وأن تطلب تفسيرات من السفارات الأجنبية ، لكن في اللحظة التي تحاول فيها أن تتوصل إلى استنتاج تجد أنه لا تزال هناك أسئلة لا جواب عليها .

وكان الأمر شبيهاً بمقابلة ياسر عرفات . إذ كان مجرد ترتيب لقاء معه امتحاناً مرهقاً للأعصاب وللإلتزام الصحفي ، ويتطلب من المرء أن يقوم بعدة زيارات لمكتب اللبدي في الفاكهاني . وهناك تلقى الأسئلة : لماذا ترغب في مقابلة رئيس منظمة التحرير؟ وماذا الذي تريد أن تتحدث معه عنه؟ والجواب بالطبع هو خوض حديث عام حول موضوعات الساعة في الشرق الأوسط . وهنا يقول لك اللبدي : حسناً ، سنرى ما يمكننا عمله . وعندما تجد كالعادة شبكة التلفونات مشلولة لا تستطيع أن توصلك بالفاكهاني ، يتعين عليك أن تذهب بنفسك إلى هناك . وتجد هناك حارساً وزائراً أو أكثر يطالعون الصحف فيقال لك أن اللبدي غير موجود . ويقدم لك الشاي أو القهوة . وبعد ساعة أو ساعات من الإنتظار يعود اللبدي ، ويقول لك : أجل إنه أبلغ طلبك وسوف يتصل بك . وبعد أسبوع تقوم بزيارة أخرى للفاكهاني ، وتجد اللبدي يتحدث على التلفون مع زوجته الأميركية . حدث هذا كله معي . وفي الزيارة هذه قال «روبرت ادخل ، ادخل ،لقد أبلغت رئيس المنظمة طلبك» فقلت : «آه أظن أنك قلت هذا في المرة السابقة» فقال : «أجل ، أجل ولكنني أظن بأنك ستجاب إلى طلبك» وكان قول اللبدي بأن رئيس المنظمة سيراك يبدو كطمأنة الطبيب بأن ما لديك ليس سرطاناً وأن التورم غير خطير .

ومر أسبوع آخر . وعند الساعة الحادية عشرة ليلاً بحث عني اللبدي ووجدني في أحد المطاعم فقال : «روبرت ، هل لديك أي ارتباط هذه الليلة؟ هل تذكر طلبك؟ قلت : «أجل ، أجل ، إنني أذكر الطلب» فسأل : «هل بإمكانك أن تنتظر بعد ساعة في فندق الكومودور؟» وفي الواحدة صباحاً ظهر



ياسر عرفات

اللبدي وقال : «روبرت ، هل أنت مستعد؟» وانطلقت السيارة بأقصى سرعة في شوارع بيروت . وكانت السرعة كبيرة إلى حد أنني اضطررت إلى شد المقعد الأمامي أو الباب الجانبي لئلا أفقد توازني . وفي تلك الأثناء كان اللبدي في المقعد الخلفي ينظر مرة بعد أخرى إلى ساعته . وكان هذا هو ما يحدث دائماً : ساعة بعد ساعة تذهب سدى وأسبوع بعد أسبوع من تقديم الطلب ، ثم تكتشف المنظمة أن الوقت قصير وقصير إلى حد أن نصف دقيقة لدى مساعدي عرفات قد تحيل النجاح إلى فشل .

ترى لو أن الإسرائيليين رأوا هذا كله هل كانوا يشجبون «جهاز دعاية» عرفات «الذي يموّله البترول؟» وعلى أي حال وبعد أن قطعت السيارة حواجز التفتيش ، توقفت أمام مجمع سكني بسيط مظلم ، وظهر من الظلام فتيان مسلحون يبدو عليهم التوتر وهياج الأعصاب وحول صدورهم أحزمة الذخيرة . ولم يكد اللبدي يكشف عن هويته وأننا في طريقنا إلى رئيس منظمة التحرير حتى بدا على وجهه الإرتياح . وشبك يداً بالأخرى ومدهما أمامه لا مراعاة للآخرين وإنما كالكاهن الذي ينتظر لحظة التقديس الآخذة في الإقتراب . وكان في تلك الأثناء يبتسم بقوة ولكن بشيء من التعالي كما كان سيفعل دون شك لو أنه أصبح السكرتير الشخصي الخاص لرئيس فلسطين . ولم تفارق وجهه نظرة الرعاية حتى عندما أدخلنا أحد المساعدين إلى مكتب بسيط فيه مقاعد بلاستيك مشققة وقدم لنا الشاي وقال بأن الرئيس مشغول وأننا سنقابله ولا ضرورة للقلق .

وكان المصعد ضيقاً ، وعندما فُتح بابه رأينا مدخلاً يقف أمامه كثيرون . ولم أتبين كم كان عرفات صغير الحجم إلا بعد أن شققت طريقي وسط الناس . وكان يبدو ممتلئاً بعض الشيء وفي وجهه إمارات الذكاء والصلابة وعلى رأسه كوفية مثنية بإتقان خلف رأسه والجهة اليمنى من رقبته . وكان يصلح وضعها من حين لآخر لتتناسب مع رأسه وكتفه .

وفي حين أن وجهه كان يتسم بالجاذبية فإنه كان يبدو وكأنه يخفي أشياء كثيرة . وكانت عيناه كبيرتين معبّرتين وله شارب كث .

وكان متوسط السن يقظاً . أما عيناه فكانتا تتسعان وتضطربان إذا أطال المرء النظر إليه كما كانتا تتنقلان بين أوجه الحاضرين في الغرفة لملاحظة كل إشارة بينما كان فمه ينكمش بطريقة ودية . ولم تتوقف عيناه عن الحركة وعن التساؤل عن سبب وجود المرء أمامه . وكنت أود أن أقول : «يا سيد عرفات ، ما أكبر عينيك» . ولكنني وجدت نفسي أقول بدلاً من ذلك : «مساء الخير يا سيد عرفات . كم كان جميلاً منك أن تقابلني» . فالعمل رسمي ، والصحفي يقابل زعيماً عربياً .

ابتسم عرفات بكل لطف وأصر على التحدث بالإنجليزية التي انكب على إجادة التحدث بها خلال السنوات التالية ونجح في ذلك بالفعل . وفي ذلك الوقت من عام ١٩٨١ كان يتحدث بها بصعوبة تثير الشفقة . وكان اللبدي يدرك بدهائه أن ذلك ذخيرة جذابة ولهذا كان أحياناً يتركه حتى ينهي كلامه ولو بلغة يصعب فهمها ولا تحقق أي غرض . لكنه ـ أي اللبدي ـ في الوقت ذاته كان يحب أن تجري الأحاديث مع عرفات بسلاسة ووضوح ، ويفضل أن يطرح الصحفيون الأسئلة التي كان يصفها بكلمة منفرة وهي «مسؤولة» . إلا أنه لم يوضح على الإطلاق من يفترض أن تكون مسؤولة أمامه .

واستهل عرفات الحديث بعرض واسع أو جولة أفق . وأظهر اهتماماً بأفغانستان ،وعبر عن استعداده لأن يكون وسيطاً إذا كانت وساطته ستساعد في تحقيق وقف لإطلاق النار بين السوفييت والثوار . وقال إنه دهش عندما أدان ريغن منظمة التحرير ووصف رجالها بأنهم «إرهابيون» ، وأنه صدرت تعليمات لممثل المنظمة في الأمم المتحدة لكي يحتج للأمين العام كورت فالدهايم الذي تبيّن فيما بعد أنه هو نفسه كان خبيراً في «الإرهاب» وحرب العصابات .

ومن المواضيع الرئيسية التي طرقها عرفات ، الغدر . قال : «ما زلت أذكر ما حدث مع كارتر . ففي اليوم الأول الذي مارس فيه سلطته كرئيس للولايات المتحدة أطلق شعاره المشهور حول «وطن للفلسطينيين» . وقلنا في البداية : «حسناً ، دعونا ننتظر ونر» وبوصفي رئيساً لمنظمة التحرير قلت بأنني سررت بما قاله .«لكنني بالغت في ذلك . . . فماذا كانت النتيجة؟» وتطرّق إلى كامب ديفيد فقال : «لقد كان مؤامرة للحكم الذاتي . وبعد زيارة السادات للقدس قال زبجنيو برجنسكي ، مستشار كارتر للأمن القومي ، في إحدى المقابلات : باي باي يا منظمة التحرير» . وأعاد عرفات هذه الكلمات مراراً ولكن باحتقار وقال : «ولهذا نحن الآن لا نأبه لما يقوله الأميركيون . إن الإدارة الأميركية سوف تعترف بالحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني التي اعترفت بها الأمم المتحدة» .

وحوالي تلك اللحظة أخذ مزاج عرفات يتغير تغيراً مخيفاً . فتارة يلخص بعناية كبيرة وصوت هادئ علاقته بالملك حسين ، وتارة يصيح بغضب شاجباً «الزمرة العسكرية الإرهابية» التي تحكم إسرائيل . فكان الإنطباع الذي يتولد لدى المرء عنه أنه أسير العاطفة والبلاغة وأنه لو تمعن جيداً في مستمعيه لكان من المحتمل أن يقرر أيهما أدعى إلى إحداث التأثير المطلوب . والمشكلة هي أن غضبه حقيقي .

ومن المؤكد أنه كان قد صقل وهذب بضعة سطور يسمعها للأجانب . فقال :«نحن أربعة ملايين شخص يعيشون المأساة منذ اثنتين وثلاثين سنة . ونصف هؤلاء طردوا من أرضهم ولا دولة لهم . . .

ويتحمل الأميركيون مسؤولية أخلاقية وتاريخية تجاه الفلسطينيين» . وعندما سألته عن الألم الذي تسببه الغارات الفلسطينية على إسرائيل ، ازداد هياجه كثيراً . وعندما بدأت أحاوره في هذه القضية أخذ يقاطعني وهو يرفع أصبعه أمام وجهه ويصيح ويضرب الطاولة بقبضة يده ، بينما كان اللبدي يجلس مكتئباً بلا حراك في قرنة الغرفة . قلت له :

ـ يبدو من الحروب الأخرى أن مختلف جيوش الفدائيين أو الثوار أو المتمردين ـ سمّهم ما شئت ـ تمكنت دائماً أو عادة من أن تقصر هجماتها على الأهداف العسكرية والصناعية . لكن يبدو أن الفلسطينيين كثيراً ما ينتهي بهم الأمر إلى قتل الأطفال والنساء الإسرائيليين .

وهنا ضرب عرفات بقبضته على الطاولة وقال :

ـ أطفال . . . وأطفال فقط . . . ورضّع وأطفال . هل تصدق الإسرائيليين؟ . . . كذبة أخرى كبيرة . ماذا يجري في جنوب لبنان؟

وضرب الطاولة مسرة أخرى بقبضة يده وأضاف :

ـ من الذين يعانون من طائرات الفانتوم وطائرات ف ـ ١٥ وف ـ ١٦ ومن القنابل العنقودية والقذائف المتفجرة وحتى الأسلحة المحظور استخدامها . . . .لكن للإسرائيليين «الحق» في استخدام أحدث الأسلحة وأكثرها فتكاً ، أما أنا فلا حق لي في استخدام الجيوش للدفاع عن شعبي وللدفاع عن أطفالي الصغار .

وأخذ عرفات يتحدث عن «الإشاعات» التي أراد بها الأكاذيب ولكن كلمة «الإشاعات» هي التي كانت تقفز مكانها . فسألته إذا كان يسلّم بأن مدنيين إسرائيليين قتلوا . فقال :

ـ إشاعات . فقلت :

ـ ولكن قُتل أطفال من جراء الهجمات الإسرائيلية الأخيرة . فصاح عرفات :

ـ «إشاعة» (كذبة) أخرى كبيرة .

وعندئذ أخذ اللبدي يميل بجسمه إلى الأمام إلى الطاولة ليتدخل إذا خرجت المقابلة عن السيطرة . فسألته إذا كان الفلسطينيون لا يجدون صعوبة في تبرير بعض الهجمات . فقال :

ـ إنهم (أي الإسرائيليين) لا يكفّون عن إعداد البلاغات عن الأطفال الصغار والنساء المسنات . فقلت :

ـ ولكن هذه الهجمات وقعت بالفعل . ألم تقع؟ فقال :

ـ لا . لا تقع . هذا شيء أكيد .

ثم أخذ عرفات ينقل بصره بين اللبدي ومستشاريه الثلاثة الذين كانوا يجلسون عن يمينه بألبسة العمل ويستمعون إلى الحوار ببرود ومن غير تأثر .والتفت عرفات إلي وقال :

ـ ولماذا تطرح هذه الأسئلة؟

وهنا أدركت أن عرفات كان يحاول استخلاص سبب سير الأمور في الاتجاه الخاطئ . (ولا بد أن الذي خطر بباله هو) المؤامرة ـ أي أن أحدهم طلب مني طرح هذه الأسئلة . لم يقل هذا ولكنني عرفت أنه كان يفكر به . على أنه قال :

ـ من المؤكد أن لي الحق في المقاومة . فلينسحبوا من وطني ، من وطننا . . .

كنت في تلك الأثناء أسجل هذا الحوار . فأخذ صوت عرفات يعلو إلى حد تعذر علي معه السيطرة على مستوى الصوت . وأدى صراخه إلى اضطراب الإبرة في آلة التسجيل بشكل مخيف . فكانت مرة بعد أخرى تقفز إلى إشارة الإنذار الحمراء .

ثم أخذت ركبة عرفات تعلو وتهبط وتهز الطاولة بحركتها . وبعد ذلك بثمانية عشر شهراً أخذ بيار الجميّل عندما اهتاج ،يدق الأرض بقدمه بطريقة مشابهة وذلك في مكتبه ذي السقف العالي . وربما كان في لبنان نوع من الإشارات الخطرة التي فاتني الانتباه لها وهي توجيه رسالة تكون بمثابة المعادل السياسي لصوت الكلاشينكوف (كلاك كليك) عندما يسحبه فلسطيني على طريق صيدا ويضع فيه الرصاصة ويحرك زناده . فهذه وسيلة أكثر تقدماً من «الكلاك ـ كليك» .

وكان عرفات في هذه الأثناء ينتظر مني أن أواصل طرح الأسئلة . فقلت إنه قد يتفق البعض مع عرفات في انتقاداته . ولكن الأمر يختلف عندما يصيب الأطفال والنساء . فقال :

ـ أنا ضد ذلك .

وسادت فترة صمت قطعها عرفات بقوله :

ـ لكن عليك أن تسأل هؤلاء المواطنين (كذا) لماذا يعيشون في وطني . فقلت :

ـ كان حدوث هذا خطأ . فقال :

ـ خطأ؟ وأضاف وقد كف عن الصياح ، وخفت صوته بحيث صار من الصعب سماعه :

ـ أجل . أنا ضد ذلك . لكن عليك أن تسأل هؤلاء المواطنين لماذا يعيشون في وطني . انهم يشاركون في المأساة .

وأخذ صوت عرفات يرتفع مرة أخرى وقال :

ـ إنهم يشاركون الحكومة في الجريمة . إنهم يشاركون «الزمرة العسكرية الإسرائيلية» . فعليهم أن يكفوا عن ذلك . . .

وأخذت إنجليزية عرفات تنهار تحت وطأة غضبه ، فصارت الأفعال وأزمنتها تتنافر بسبب التوتر . لقد انقطع نفسه فعلاً . فوقف اللبدي وبادر إلى طلب الشاي . فكان كالمريض في عيادة جراح الأسنان يخشى أن يكون هناك تجويف آخر يتوجب حشوه .

وكان سؤالي عن مستقبل الدولة الفلسطينية بمثابة وضع الحشوة في السن الذي يسبب الألم . إذ تحول غضب عرفات في الحال إلى رقة ، وأخذ يتحدث بإسهاب عن أحلامه الشخصية . وقال بأن «فلسطين ستكون واحة ديمقراطية في الشرق الأوسط . وستكون ديمقراطية لبرالية» وبدا أن كلمة «الديمقراطية» تستحوذ عليه ، فقال :

ـ نحن فخورون بديمقراطية ثورتنا . وهي أقسى وأصعب نوع من الديمقراطية . وذلك لأنها وسط البنادق . لكننا نجحنا في إنشاء ديمقراطية ، وسوف يواصل المقاتلون من أجل الحرية اتباع الديمقراطية في دولتهم المستقلة» .

الديمقراطية ثم الديمقراطية ثم الديمقراطية . وبدا أن للديمقراطية من التأثير على عرفات ما لكلمة «إرهاب» من تأثير على الإسرائيليين . فإذا واصلت تكرار الكلمة فإنك تستطيع أن تبرر كل شيء .

ودس عرفات يده في جيب سترته العسكرية وأخرج قطعة نقد قديمة زرقاء باهتة ، وقال : «أترى؟ أترى؟» وأخذ عندئذ يبتسم . وأضاف : «هذه ورقة جنيه فلسطيني واحد . أصدرها البريطانيون . إنها تحمل كتابة عربية وعبرية . إنها تعود إلى ما قبل ١٩٤٨ . العربي واليهودي كانا يعيشان معاً في فلسطين واحدة» .

وبدا أنني سأقسو عليه إذا ذكرته بأن الإنتداب البريطاني في فلسطين لم يكن عهد صداقة بين العرب واليهود . كما أنه لم يكن ديمقراطية بأي معنى من معاني الكلمة . لقد كان كالنظام الذي ادعى بأنه يحتقره . لقد كان استعماراً . فالعرب واليهود لم يحكموا فلسطين في ظل الإنتداب . إن الذين حكموها هم البريطانيون . وكان بإمكان عرفات أن يرى هذا في ورقة النقد الصغيرة الحزينة التي تحمل إسم «البنك الإنجليزي ـ الفلسطيني» الأسطوري حيث تتقدم كلمة إنجليزي على كلمة فلسطين .

على أن رئيس منظمة التحرير نسي هذا ولجأ إلى الأحلام . فهو متأكد من أنه سيشهد في حياته قيام دولة فلسطينية يكون العرب واليهود مواطنين فيها يتمتعون بحقوق متساوية .وقال عرفات بأن الفلسطينيين تقدموا في عام ١٩٦٩ باقتراح يقضي بإنشاء دولة مشتركة بين اليهود والمسيحيين والمسلمين ، وأن ذلك يثبت قدرتهم على تقديم حلولهم الخاصة . وسألت عرفات إذا كان اليهود الذين يعيشون في بيوت كانت للفلسطينيين سوف يجبرون على إخلائها؟ فأبدى عرفات كل تسامح وعطف على هؤلاء اليهود الذين سيكونون مواطنين في دولته وقال :

ـ لا ، لا . يمكننا أن نعالج هذه المسألة . أجل يمكننا ذلك . سنجد حلاً . ولكن سيكون عليهم أن يسلّموا بحقنا في العودة .

ولم يشأ عرفات أن يدخل في التعقيدات . وكانت لدى اليهود شكوك قوية فيما يمكن أن ينطوي عليه حل عرفات . ومضت سبع سنوات أخرى من الفشل والهزيمة ومزيد من المآسي للفلسطينيين قبل أن يتخلى عرفات عن حلمه .

في عام ١٩٨١ كان لا يزال هناك الكثير الذي يمكن لعرفات أن يتعلمه .سألته :

ـ لنفترض أن فلسطين عادت إلى الوجود واتخذت شكلاً من الأشكال فهل يمنحني عرفات تأشيرة لدخولها عدة مرات؟

فأشرق وجه عرفات وقال بكرم :

ـ لم لا؟ لم لا؟

وعندئذ همس أحد مساعدي عرفات بكلمات في أذنه فقال :

ـ أجل ، لم لا؟ لكن إذا كنت رئيساً .

ولم يكن لدى عرفات ما يقوله عن لبنان سوى بضع كلمات . فقال انه سيواصل الكفاح من أجل وطنه «لكي يترك لبنان ويشكر اللبنانيين على ضيافتهم» وقال ان اللبنانيين كانوا «يعانون الكثير» . وكان في هذا على الأقل متفقاً مع الجميّل بالرغم من أنه لم يكن الشيء الوحيد الذي كان يكمل به الرجلان أحدهما الآخر . فالجميّل كان يزعجك لأنه يبدو وكأنه يهددك . أما عرفات فكان يخيفك لأنه يريد أن يكون صديقك .

وكان على كليهما أن يعيش بجوار السوريين ، وأن يراعي حساسيات هؤلاء الأصدقاء بمنتهى اليقظة والحذر ، بالرغم من أن ما كان يقال عن قسوة النظام السوري مبالغ فيه . فالأسد ليس في الأساس شريراً كما يصوره أعداؤه . فحياته الخاصة لا مأخذ عليها ووطنيته حقيقية . وفهمه لعمل السلطة السياسية ومعرفته بضعف الإنسان عظيم جداً . وقد استطاع أن يوفر لسوريا أول عهد طويل من الاستقرار منذ الاستقلال ، ويعتبر ذلك إنجازه الضخم . وعليه فإن كل معارضة لنظامه تعتبر خيانة ـ خيانة لحزب البعث العربي الاشتراكي وللقيادة السورية والشعب السوري . وعليه فإن الحذر من المؤامرة كان يعيش أيضاً في سوريا . والحقيقة هي أن الخوف من الأجانب الذي أظهره السوريون مرات كثيرة يوحي بأنه في حين أن اللبنانيين كانوا يضعون المؤامرة الدولية في الواجهة ، فإنها أصبحت لدى السوريين بمثابة عقيدة ثابتة . ورأى الأسد في النوبة القلبية الخفيفة التي ألـمّت به في عام ١٩٨٣ إنذاراً بأن الإنسان لا يبقى على حال . . .

وسمعت الكثير عن جورج حداد الذي ساعد أجهزة الأمن السورية قبل أن يبدأ حكم الأسد في سوريا ، وقيل أنه ساعد أيضاً في المجال عينه مصر في عهد الرئيس جمال عبد الناصر . وكان حداد يعيش في شارع هادئ بين صفين من الأشجار غير بعيد عن السفارة البريطانية . وعلمت أنه نمساوي قليل الكلام محال على المعاش وفي الحادية والسبعين من عمره ، وأن جيرانه يعرفونه باسم جورج فيشر ويرون فيه رجلاً غريب الأطوار مسالماً . وكان فيشر يربي الأرانب فوق شقته ويخرج في العاشرة تماماً من كل صباح من شقته للنزهة ، ويذهب مرة في الأسبوع ، إلى سوق الحميدية لشراء الخضروات والفاكهة . وكان ما يميزه عن غيره من زوار السوق عيناه الزرقاوان وأصابع أربعة مفقودة من يديه . وكان يرافقه إلى السوق مسلحان من رجال المخابرات يحملان بندقيتي كلاشينكوف .

وقمت بزيارة لجورج حداد لاحظت خلالها أنه مغترب متقاعد غير عادي . وكان يعيش في الدور الثالث من بناية مدهونة باللون الأصفر وفيها شقق للسكن . على أن اسمه لم يكن بجانب أي من الأجراس الصغيرة بجانب البوابة الحديدية المزدوجة العالية للمبنى . وكان الأكثر تأكيداً على تفرده هو أن شاباً كان يقف ليل نهار مقابل باب المبنى يلبس جاكتة جلد مفتوحة وفي حزامه مسدس ، وكان على كل طرف من الشارع اثنان آخران من جهاز الأمن السوري وعلى كتف أحدهم رشاش .

ومن المؤكد أن فيشر هذا كان بحاجة إلى حماية . ففي عام ١٩٨١ وصله طرد بريدي عليه ختم نمساوي . وكان في داخله متفجرات طيرت أربعة من أصابعه . وكان قد أخبر جاراً له من دبلوماسيي السفارة السويدية أنه كان قبل زمن طويل يدرب كلاب شبرد الألمانية للجيش السوري ، وأنه ذات ليلة ، وقبل ثورة الأسد التصحيحية ، كان سكراناً فأخبر صديقاً له كيف علّم السوريين استخدام آلة عجيبة لإستجواب المتهمين .

وإذا كان فيشر رجلاً غير عادي فإن أصله كان يشير إلى أن في ماضيه ما يزعج . إذ كان قد أسرّ إلى صديقه أن جورج فيشر هو في الحقيقة ألوا برونر الذي كان من كبار قوات الكوماندوز الألمانية ، زمن النازيين ، وأنه كان مسؤولاً عن نقل عشرات الآلاف من اليهود من مدينة سالونيك اليونانية في عام ١٩٤٣ .

ولد برونر في قرية روربرون النمساوية عام ١٩١٢ وانضم إلى الحزب النازي في عام ١٩٣١ . وبعد سنة التحق بمدرسة البوليس في جراز . وساعد أدولف إيخمان في القبض على يهود فيينا عام ١٩٣٨ وإبعادهم . وفي عام ١٩٤٣ نُقل إلى سالونيك حيث كان يعمل تحت إمرة ماكسمليان ميرتن ، ووقّع على أوامر بإرسال ٤٩،٠٩١ يهودياً إلى أوشفيتز وغيرها من معسكرات الإبادة . ويذكر اليهود اليونانيون الذين نجوا من المحرقة (الهولوكوست) أن برونر كان يجلد المساجين الذين لا يتعاونون أو يهددهم بمسدسه . ونُقل فيما بعد وعُيّن قائداً للمعسكر الفرنسي الانتقالي في درانسي . ومن هذا المعسكر بعث ٢٤،٠٠٠ يهودي إلى معسكرات أوروبا الشرقية .

ثم اختفى . وفي الخمسينات شوهد في القاهرة حيث قيل أنه كان يساعد النظام الناصري في تدريب بوليس الأمن المصري على أساليب الاستجواب الفنية . وخلال فترة الوحدة بين مصر وسوريا سافر إلى دمشق وعندما وقع الإنفصال بين سوريا ومصر كان لا يزال يساعد المخابرات السورية . وفي عام ١٩٦٥ نصح بشراء ٢٠٠٠ وحدة من أجهزة التنصت من ألمانيا الشرقية ،لكن يبدو أنه استغني بعد ذلك عن خدماته . وعندما تقلد الأسد الحكم عام ١٩٧١ «ورث» برونر الذي أصبح باعتراف

السوريين مصدر إحراج ، ومذكراً كريهاً بعهود السياسة العربية الرجعية . فأحيل على المعاش بعد أن وعد بأن يظل صامتاً . وسُمح له في مقابل ذلك بالإقامة في دمشق .

ولم يكن السوريون يريدون أن يكونوا مسؤولين عنه . لكنهم وجدوا أنهم يواجهون مشكلة ، لأنه إذا جرت الحكومات الجديدة على عدم الإعتراف بموظفي الحكومة السابقة وأبعدتهم فإن الموظفين يفقدون ثقتهم في الدولة . وعليه فإن الحكم السوري الجديد احتفظ ببرونر .

وعبثاً حاولت في عام ١٩٨٣ دق جرس برونر بدمشق . فتقدمت بطلب إلى وزارة الإعلام السورية استفهم فيه عما إذا كان برونر ـ أو فيشر إذا أرادوا ـ يعيش في مدينة دمشق . فتلقيت بعد يومين اتصالاً تلفونياً من عادل زعبوب ، رئيس دائرة العلاقات الصحفية الأجنبية بالوزارة الذي قال : «لقد قمت بالتحريات فلم أجد هذا الشخص في سوريا» ثم أضاف في الحال : «أعتقد أنك تريد أن تكون علاقاتك جيدة مع سوريا» وعندما سألته إذا كانت عبارته الأخيرة تحمل تهديداً أجاب : «لا ، إنها ليست تهديداً . نحن لا نهدد الناس . وما قصدته هو أنك ـ على ما أعتقد ـ تريد لعلاقاتنا الطيبة أن تستمر» .

واستطعت أن أوصل رسالة إلى برونر بواسطة جاره السويدي أسأله فيها إن كان يستطيع مقابلتي للتحدث عن عمله خلال الحرب العالمية الثانية . فبعث لي مع السويدي جوابه ويقول فيه : «لا ، لا أستطيع أن أفعل هذا . لقد وقّعت اتفاقاً مع الحكومة السورية يقضي بعدم المقابلات» وبدا أن برونر خبير في توقيع الوثائق .

إذا كان برونر قد اعتُبر عبئاً على السوريين فإنهم لم يظهروا أدنى حرج سياسي في موقفهم من التمرد المسلح . ففي عامي ١٩٨٠ و ١٩٨١ قام الإخوان المسلمون بسلسلة من الهجمات بالقنابل والاغتيالات ضد المباني الحكومية وموظفي الدولة . وكانت مطالبهم تظهر على ملصقات غير موقعة . وفي حلب عام ١٩٨٠ مثلاً طالبت هيئة علماء حلب «الالتزام بأحكام الشريعة في التشريع» وإلغاء حالة الطوارئ ، وإطلاق جميع الموقوفين وإعادة جميع الأساتذة الجامعيين الذين كانوا قد فقدوا وظائفهم من جراء آرائهم السياسية ، ووقف «الدعاية السياسية» ، ومنح «الحرية الكاملة» . واشتبه السوريون في أن الإسرائيليين أو الكتائب أو كليهما ، متورطون في تشكيل هذه الجماعات المتطرفة بالرغم من أنه تبين أن الأسلحة التي صودرت في حلب كانت قد جاءت عبر الحدود التركية من ميليشيا «الذئاب الغبراء» التابعة لأتراك ألب أرسلان والتي كانت تطالب الحكومة التركية بتنبي

الأحكام الاسلامية . فألقي القبض على الكثيرين في مدينتي حلب وحماة المعروفتين تاريخياً بأنهما من أكثر المدن السورية عصياناً .

وحماة مدينة قديمة جميلة تقع على نهر العاصي وعلى بعد ١٢٠ ميلاً من بيروت . وقد حافظت بعناية فائقة على أسوارها الحجرية القديمة ونواعيرها المشهورة ذات الصرير المتواصل . وغالبية سكانها من السنة . وتقضي الأسر الحموية عطلات نهاية الأسبوع على ضفتي النهر ويبردون البطيخ في مياه النهر والدواليب الخشبية تدور حول محاورها . وكنت قد زرت حماة في ست مناسبات خلال السنتين الفائتتين ، وتناولت الغداء أحياناً على ضفة النهر وأنا أراقب الأطفال وهم يتعلقون بالنواعير ويصعدون عليها ثم يلقون بأنفسهم في النهر .

وفي حماة كما في المدن السورية الأخرى التي يزورها المرء بعد أن يقطع الحدود اللبنانية قد تكون الظواهر خادعة . فقد قضيت ليلة في خريف عام ١٩٨١ في الفندق الوحيد بالمدينة .وكان هذا الفندق حقيراً وأرض دهاليزه من الإسمنت . ولم يقطع صمت ساعات الليل سوى صوت اطلاق النار . وعندما زرت بيوت ثلاثة من العاملين في المساعدات الأجنبية ، وهم أستراليان وهندي ، كانوا يشعرون بخوف شديد ، مما أكد إشاعة منتشرة في دمشق وهي أن حماة على حافة الثورة على النظام .

وكان قد اغتيل العشرات من كبار موظفي البعث في بيوتهم وفي حالات كثيرة مع زوجاتهم وأطفالهم . فقامت القوات الخاصة بملاحقة كثيرين بينهم أطباء ومهندسون . وضُرب في الشارع نائب مدير مصنع محلي للفولاذ . ووجد رجل يدعى الشيشكلي قيل أنه كان من كبار الإخوان مقتولاً في أرض خربة خارج حماة . وبالرغم من أن الإخوان مسلمون سنّة ، فقد كانوا قد تأثروا بالثورة الإيرانية . وعندما تجوّلت في الشوارع في صباح يوم من أيام الخريف عام ١٩٨١ كان رجال المخابرات المدججون بالسلاح يمزقون الملصقات التي كانت قد ألصقت في الليلة السابقة . وكان كل من الملصقات يحمل توقيع «زعامة الثورة الإسلامية في سوريا» وقائمة بالهجمات التي زعموا أن مقاتلي الإخوان قاموا بها ضد المباني في دمشق ، بما فيها العامرية التي كانت مقر مخابرات القوات الجوية ، ومقر المخابرات العسكرية ، ومبنى المخابرات الروسية ومقر سرايا الدفاع والقوات الخاصة . وكان على رأس كل ملصق «بسم الله الرحمن الرحيم» وإعلان يقول بأن الهجمات موجهة ضد مجرمي الحكومة . وشكل هذا كله خطراً حقيقياً على النظام ولهذا قمع النظام الثورة بشدة .

وعندما نشبت الثورة في حماة في شهر شباط/ فبراير عام ١٩٨٢ ، قطع السوريون في الحال

جميع الاتصالات التلفونية والبرية مع المدينة . وكان بامكان الصحفييْن الأجانب أن يسافروا إلى دمشق لكنهم كانوا يُحذّرون هناك من الأخطار التي يعرّضون حياتهم لها إذا هم زاروا حماة .

وصدف أن كان اثنان من أصدقائي الإيرلنديين يعيشان عندئذ في حلب . فتوجهت في ١٧شباط/ فبراير إلى تلك المدينة بسيارة أجرة وأنا أعرف جيداً ـ بالطبع ـ أن الطريق إلى حلب تمر بحماة . ومن المؤكد أن المسافر الأجنبي لم يكن ليعتقل لمجرد مروره بتلك المدينة . ومهما يكن من أمر فقد كان رجال البوليس يأمرون سائق السيارة عندما يصل إلى حماة أن يدور حولها . وعليه فلم يكن هناك ما يدعو إلى الإعتقاد بأن المسافر سيكون أكثر نجاحاً في رؤية حماة خلال عودته في اليوم التالي إلى دمشق .

وفي دمشق كان دبلوماسيو السفارات الذين كانوا يعتبرون عادة «المراجع الموثوقة» سيئة السمعة والذين كانوا يتصيدون تقارير المراسلين الصحفيين من الحكومة ـ هؤلاء كانوا يتحدثون عن آلاف الموتى في حماة بعد أسبوعين من القتال . لكن لم يكن قد سُمح لأي من المراسلين الصحفيين بالذهاب إلى هناك ، ولم يكن من المحتمل أن ينجح أجنبي في المرور إليها .

وفي الطريق إلى دمشق في اليوم التالي وعلى بعد اثني عشر ميلاً من حماة كان باستطاعة المرء أن يرى إطاراً من الدخان في الأفق يغطي منطقة عرضها أربعة أو خمسة أميال . وعندما تقدمنا باتجاه حماة أوقف البوليس التاكسي وأمرنا هذه المرة أن ندور حول حماة عبر طريق كانت ستؤدي بنا إلى شرق المدينة . لكن اقترب جنديان من السيارة ، وألقيا نظرة علي وطلبا من السائق أن يعود بهما إلى وحدتيهما في حماة . فنظر السائق إلي ، فقلت له : «خذهما إلى حماة» وكان لبنان قد علمني منذ زمن طويل أن وجود الجندي السوري معك في السيارة يمكنك من الذهاب إلى أمكنة لا يستطيع الآخرون الوصول إليها .

كان الجنديان في سن الشباب وربما في الثامنة عشرة لا أكثر . وكانا غير سعيدين بالعودة من عطلتهما وقال أحدهما : «مضى على القتال ستة عشر يوماً ولا يوجد ما يدل على أنها ستنتهي» . وأخذا يدخنان سيجارة تلو أخرى ونحن في طريقنا إلى أطراف حماة . وكانت هناك مجمعات شقق سكنية حديثة لم يلحق بها ضرر يذكر على الطريق حولها جنود يعدّ بعضهم الشاي . وسألني أحد الجنديين : «من أين أنت؟» فقلت : انجلترا . فقال : «إنجلترا ، جيد» وكنت قد مررت بتجارب شبيهة فلم أقل أنني صحفي . وتساءلت بيني وبين نفسي : ألم يشعر هذان المسلحان بشيء من الغرابة في مرافقتهما إنجليزياً إلى مدينة حماة المغلقة؟ من الواضح أنهما لم يشعرا بذلك لأنهما هما اللذان طلبا منا أن نذهب إلى حماة .

وطرقت أسماعنا من خلال نافذة السيارة دمدمة خفيفة مستمرة . وعندما اجتازت السيارة إحدى نقاط التقاطع أطلت مدينة حماة القديمة من وراء الأشجار . وكانت سحابة كثيفة سمراء تخرج من الجدران والأزقة الضيقة وراء نهر العاصي . وكان لا يزال القتال في الشوارع دائراً لأننا سمعنا أصوات العيارات النارية داخل المدينة .

وكانت تصطف على ضفتي العاصي دبابات ت ـ ٦٢ وفي كل دقيقة أو نحو ذلك تهتز ماسورة إحداها فترتد الدبابة إلى الخلف وتنطلق القذيفة وتنفجر في أحد الجدران . وهنا طلب الجنديان من السائق التوقف . فوقفنا إلى جانب السيارة ننظر إلى ستار الدخان الذي كان يتصاعد باطراد من الضفة الأخرى . وكانت إحدى النواعير التي ضربتها قذيفة وحطمت ألواحها الخشبية تقف بيننا وبين المدينة القديمة .

وعاد أحد الجنديين إلينا وبيده فنجان شاي ، وبرفقته عدة زملاء ذقونهم غير محلوقة وأعينهم حمراء بسبب قلة النوم . وانفجرت على بعد نصف ميل إلى الغرب قذيفتان حول مجموعة مبان . فخرج عمود من الدخان الأسمر من نافذة بيت دهانه أزرق . وتصافح الجنود بأيد متعبة وأخذوا ينظرون إلينا . ثم ساروا نحو إحدى الدبابات واستلقوا عند عجلاتها .

وكان رجال المخابرات في كل مكان وحتى إلى جانب أطقم الدبابات يراقبون أفرادها وينظرون عبر النهر بطريقة قاسية تثير الأعصاب . وكانت خلفنا جماعة من النساء يلبسن أردية سوداء وبعضهن محجبات ينظرن إلى الدخان . واندلع لهب فوق أحد السطوح ثم اختفى . وأخذ أحد رجال الأمن ينظر إلينا بارتياب . فتظاهرت أنا والسائق بتوديع الجنديين وأخذنا نصافحهما بحرارة . وعندئذ تقدم أحدهما من رجل الأمن وتحدث معه ، ونحن نأمل أن يقول له بأنه هو وزميله اللذان أعادانا إلى حماة لنوصلهما إليها .

وقال السائق : «علينا أن نذهب الآن» وأظهر بذلك أن اليوم ونصف اليوم اللذين مرّا ولّدا لديه إحساساً بالخطر . ولم يرتح لاهتمام رجل المخابرات بنا فقال مرة أخرى بطريقة توحي بضرورة الإسراع : «هيا . . . علينا أن نذهب» . فدخلنا في السيارة . وانطلق السائق بنا من ضفة النهر . وفي تلك اللحظة أطلقت إحدى الدبابات النار . ورجانا رجل شرطة أن ننقله معنا فانضم إلينا . ثم رأينا فلاحة في العشرينات من عمرها تعترض طريق السيارة وحول وجهها منديل . وتوسلت إلينا أن نسمح لها بالركوب . وجلست إلى جانبي في المقعد الخلفي وقالت بهدوء : «ذهبت لأبحث عن أخي . فوجدت بيته يحترق . ولم يكن هو هناك . فذهبت إلى المقبرة لكنني لم أر جثته . رحمتك يا رب !» .

ثم دوّى صوت إنفجار آخر في المدينة الخاوية تلتها أصوات طلقات نارية في أحد الشوارع ، لكنها بدت هزيلة وغير حقيقية وأشبه بصوت أوراق اللعب عندما يلقي بها أحدهم على طاولة خشبية . وأخذ الدخان يتصاعد من البنايات مرة أخرى ويزحف على الشوارع على شكل مظلة من الضباب الأسمر .

واعترضت السيارة امرأة أخرى ترتدي لباساً أسود ومعها طفل وتوسلت :«يا رحمة الله !» فجلست على المقعد الخلفي بيني وبين الشابة وطفلها الصغير يبكي . ويبدو أنها هي وطفلها لم يغتسلا منذ أسبوع على الأقل فكانت رائحتهما تزكم الأنوف . قالت :

ـ أنا هنا منذ أيام . وجئت لأبحث في المقابر عن أسرتي . رأيت الجثث مسجاة وكانوا يراقبوننا . . . ولم آكل» .

وتذكرت أنني اشتريت في اليوم السابق وأنا في دمشق أصبع شكولاته من نوع «مارس» فأعطيته للصبي الصغير . ولكن أمه انتزعته ، ومزقت غلافه وأخذت تأكله بنهم محاذرة ألا يخطفه منها ابنها . فأخذ الطفل يصيح .

وأوقف السائق السيارة عند نقطة تفتيش . وفي تلك الأثناء كانت تتوقف سيارة جيب مصفحة كل بضع دقائق وفي مقعدها الخلفي عدد من اللاجئات المتشحات بالسواد اللواتي كانوا يخرجونهن من المدينة بعد أكثر من أسبوعين . وكن يطلبن الماء حالما تتوقف سيارتهن . وبدت خطورة القتال مما قاله ضابط أخذ مكان الشرطي الذي كان في سيارتنا . وكان الضابط متوسط العمر . وكانت تعلو وجهه صفرة مخيفة من أثر الغبار الدقيق الذي كان على وجهه وكتفيه ، وجلس صامتاً بضع دقائق والسيارة تحاول الدخول في شارع آخر . وكانت الثقوب ظاهرة في جدران البيوت وأعمدة المصابيح وشظايا الزجاج مطروحة في الشوارع . وأخذ هذا الضابط كل بضع ثوان يحثنا على الإسراع في الشوارع التي كانت تدوي فيها أصوات الطلقات . ثم قال : «لقد انضم بعض جنودنا إلى الجانب الآخر . هل تعلم أننا كنا نحارب تحت الأرض؟» وعندئذ شدت المرأة ذراعي ، وسألتني إذا كان لدي شيء يؤكل . فطلبت من السائق أن يتوقف إذا رأى أي كشك يبيع الطعام . ولكنه لم يوفق . فاستأنف الضابط كلامه وقال :

ـ إن هؤلاء المتعصبين يحاربون في أقبية تحت الأرض ويستخدمون الصواريخ . وأمس وجدنا مستشفى تحت الأرض . وفي صفوف الإخوان فتيات . وحدث أن جُرحت إحداهن في الليلة الفائتة ، وعندما هممنا بالقبض عليها فجّرت قنبلة ببطنها فقتلت عشرين من أصدقائنا .

وسكت الضابط مرة أخرى . فبدا وكأننا نحمل هموم المعركة في سيارتنا . وكانت على رأس كل مئة ياردة نقطة للتفتيش يحرسها أفراد من ميليشيا البعث يرتدون ألبسة في غاية الأناقة تتألف من قمصان ناصعة البياض وبناطيل سوداء . ورجانا ضابط آخر أن ننقله معنا . وتبيّن أن الضابطين يعرف أحدهما الآخر وأن لكل منهما بيتاً في حماة . فقال الضابط الجديد لزميله : «كم وددت لو كنا نحارب بالجولان بدلاً من هنا» . ومرت قافلة من سيارات الإسعاف وأنوارها تشع وخلفها عاصفة من الغبار . ورأينا دبابات أخرى وشاحنات عسكرية ربطت خلفها مدافع هويتزر وإلى جانبها جنود يتصببون عرقاً ، وبينهم جندي علّق ذراعه برقبته . وبدت على الرباط بقعة حمراء قاتمة .

كانت حماة مبنية على مستويين : المدينة الداخلية السفلى على العاصي التي كانت في أيدي الإخوان المسلمين ، واللسان المرتفع من الأرض حيث تقوم مباني الشقق الجميّلة والفيلات الصغيرة التي أصابتها القذائف . وعندما وصلنا مسرعين إلى طريق حولها ، رأينا سحابات صغيرة من الدخان تتصاعد من الشوارع الواقعة بجوار النهر . وكان حولنا جمع من النساء اللواتي يرتدي جميعهن تقريباً ثياباً سوداء ينظرن إلى الدخان وكأنهن متفرجات في معركة من معارك القرن التاسع عشر ، وبينهن من كانت تبكي أو تتوسل إلى سائق ينقلها في سيارته . كما كان هناك شرطي يحاول السيطرة على حركة السير ، بينما كانت الدراجات النارية والشاحنات وناقلات الجند المسلحة تمر بسرعة .

كنت حتى ذلك الحين أول غربي يشاهد بعينه حصار حماة ، وبالرغم من أن زيارتي تمت في غاية من العجلة وكانت من أقصر الزيارات ، فإنها كانت كافية لإثبات أن القتال كان لا يزال مستمراً وعلى نطاق واسع يتطلب مشاركة فرقة من الجند على الأقل ، وأن الإصابات كانت كثيرة . وفي حين أن السوريين قدروا الإصابات بالمئات ، فإن بعض الصحفيين قدروها بعشرة آلاف . وما نؤكده هو أننا عندما زرنا حماة في عام ١٩٨٣ كانت المدينة القديمة ـ بما فيها الأسوار والشوارع الضيقة ومتحف بيت العظم ـ قد اختفت وسويّت الآثار القديمة مع الأرض وحُوّلت إلى مرآب كبير للسيارات .

وعندما وصلت إلى دمشق سعيت إلى الحصول على تعليق من وزير الإعلام اسكندر أحمد اسكندر وهو رجل ذكي ومن كبار رجال البعث ويدخن السيجار . وكان هذا الوزير قد دعا الصحافة الدولية إلى دمشق لكن من غير أي استعداد للسماح لهم بزيارة حماة . وكانت المسافة بيني وبين وزارة الإعلام قصيرة ولا يستغرق قطعها بالسيارة أكثر من عشر دقائق . وبينما كنت في طريقي إليها وقع انفجار رهيب ، وتصاعدت من مبنى الوزارة سحب الدخان . وتبيّن أن الإخوان قد نسفوها بطنٍّ من المتفجرات . ونجا اسكندر أحمد اسكندر الذي أصيب بخدوش في جسمه . ولم يعد الاتصال به ممكناً ؛ فكتبت تقريري للجريدة وأرسلته بالتلفون .

وبعد يومين شجبت الإذاعة السورية «أكاذيبي الشريرة» وقالت بأن روبرت فسك لم يزر حماة ، وبالتالي فإنه لم يشهد أي قتال . ووصفت كل ما قلته عن الجائعين ، وانضمام بعض الجنود إلى المتمردين ، والقصف العشوائي بأنه مجرّد تلفيق . وبادرت جريدة «التايمز» على الفور إلى القول بأنها ستتمسك بروايتي للأحداث ، وشرحت كيف دخلت المدينة ، وعبّرت عن دهشتها من إنكار الإذاعة السورية لصدق روايتي . وبالرغم من هذا فإنني فضّلت أن أسعى للحصول على اعتذار عن تكذيبي على أن أكذّب نفسي . فاتصلت بالتلفون بالوزير اسكندر احمد اسكندر من بيروت وأصررت على العودة إلى دمشق لمقابلته . وفوجئت بأنني منحت تأشيرة جديدة لدخول سوريا . وفي دمشق وجدته جالساً في مكتبه الثاني في مبنى الإذاعة وكانت الضمادات لا تزال تلف جروحه . واعترض على بعض ما أوردته في تقريري عن حماة ولكنه لم ينكر زيارتي لها . وتساءلت في نفسي إن كان يعتزم الاستمرار في اتهامي بالكذب . لكنه قال : «روبرت ، أنا لم أقل إنك كاذب» فقلت : «لكن الإذاعة قالت ذلك . فقال : «الراديو ؟ لم أستمع إليه» . ثم ابتسم وقدم لي سيجار هافانا وقال : «روبرت ، روبرت . إن هذا الحوار لا يجري إلا بين أصدقاء» . وهكذا رضيت سوريا عني .

وكان أي نزاع بين دمشق ومسيحيي لبنان لا بد أن يؤدي إلى مضاعفات دولية . صحيح أن الغرب عبّر عن قلقه حول موقف الحكومة من الاخوان في حلب وحماة منذ ١٩٨٠ ، ولكنه كان يعلم أن أعداء سوريا في الداخل وهم الاخوان المسلمون الذين كانوا يطالبون بثورة إسلامية لن يكونوا أصدقاء لأميركا أو أوروبا إذا استولوا على الحكم . لكن قضية المسيحيين في لبنان كانت مختلفة .

منذ صيف عام ١٩٧٦ كان السوريون يسيطرون على وادي البقاع . وكان مقر «قوات الردع العربية» في المدينة التجارية شتورة . وكان جنودها موجودين على طول الوادي وحول زحلة ـ حيث رأيت أنا وكودي السوريين والكتائبيين في عام ١٩٧٦ وهم يتعاونون معاً ـ وفي قاعدة رياق الجوية وفي بعلبك والهرمل . وعندما انسحب السوريون من الجبال المسيحية فوق بيروت جرى تفاهم مع المارونيين يقضي بأن لا يستغل الكتائبيون ذرى جبل صنين أو هضبة الثلوج التي تومض بين السحب فوق وسط لبنان . وكان السوريون يسيطرون على غالبية سلاسل الجبال ،ولكن صنين اعتبر منطقة محايدة . وفي حين أن المارونيين كانوا يرون في وجود السوريين هناك تهديداً للمارونيين في شرق بيروت الذي كان يرى من صنين ، فإن السوريين كانوا يرون في وجود الكتائب هناك تهديداً لسيطرتهم العسكرية على البقاع الذي كان يمكن رؤيته بوضوح من أعالي ذلك الجبل .

وانهار هذا الاتفاق كسائر الاتفاقات في لبنان بسبب المطامع السياسية . فبشير الجميّل الذي كان حتى ذلك الحين صديقاً علنياً لسوريا قرر أنه حان الوقت لحماية مسيحيي زحلة كما كان الكتائب

يحمون موارنة شرق بيروت . ولم يثن بشير الجميّل عن الإستمرار في «بادرته الإنسانية» أن مسيحيي زحلة لم يكونوا يأبهون كثيراً له أو للكتائب . فصمم بشير على بناء طريق إلى زحلة لمصلحة المسيحيين المحليين الذين ـ كانوا كما أكد لأنصاره ـ يخشون السفر عبر المناطق الواقعة تحت سيطرة السوريين . والحقيقة هي أنه لم يقل شيئاً يذكر عن القصد من بنائها ،وهو استخدامها لتزويد الكتائبيين الذين كانوا يعيشون في زحلة بالإمدادات العسكرية . وبوشر في الحال ببنائها ،وأخذت تصعد بشكل مخيف على المنحدرات الغربية لجبل صنين .

وفي دمشق كان من الطبيعي أن تساور السوريين شكوك عميقة حول هذا الطريق الصخري . اذ كان الكتائبيون لا يزالون يفاخرون بصداقتهم لإسرائيل وبالأسلحة الإسرائيلية التي كانت تصل بانتظام إلى ساحل جونية . ومن كان يضمن لو سُمح للكتائبيين بإكمال الطريق ولم يتدخل السوريون وتركوها تهبط من سفح صنين الجنوبي إلى شرقي زحلة أن أصدقاءهم الإسرائيليين لن يستخدموها هم أيضاً؟والواقع أنه كان يمكن أن يؤدي هجوم المدرعات الإسرائيلية المفاجىء من الجبال إلى شطر الجيش السوري في البقاع وإلى تقدمها شمالاً إلى الحدود السورية قرب حمص وشطر سوريا ذاتها أيضاً . وعليه فإنه كان لا بد من وقف العمل بطريق الجميّل .

وكانت زحلة مسرحاً للقتال قبل ذلك . وزحلة بلدة جميلة فيها فندق قديم مبني بالحجر ونهر جميل يسير عبر طريقها الرئيسي . واشتهرت بكونها مسقط رأس عمر الشريف . وفي أواخر عام ١٩٨٠ أراد بشير الجميّل أن يظهر كزعيم للبنان المسيحي لا لبنان الماروني فقط ، فأقدم بلا خجل على تشجيع كتائبيي زحلة على مهاجمة السوريين . فتعرضت البلدة للقصف بمدافع الدبابات ووقعت عشرات الإصابات بين المدنيين . وأخذ الإسرائيليون يعبّرون عن قلقهم من أن السوريين يريدون إبادة مسيحيي لبنان ، ولم يصدر عن بشير الجميّل ما يناقض زعم الإسرائيليين . ومن ثم تعرّض شرق بيروت للقصف بالمدافع ، وأخذ الكتائبيون يحفرون الخنادق في أعالي صنين ويقصفون منها أقرب المراكز السورية .

وصوّر الكتائبيون معركة أعالي صنين للعالم وخصوصاً لإسرائيل على أنها كفاح له أهمية سياسية ودينية كبيرة ، فزعموا أن المسيحيين يحاربون من أوكارهم الجبلية مرة أخرى جحافل الإسلام التي تشن حرب إبادة على الأقلية اللبنانية الشجاعة . وتوقع الكتائبيون أن يستثير الكفاح المزعوم همم الإسرائيليين والأميركيين ، والكنائس الغربية والمؤسسات الدينية المسيحية ومحرري الصحف . والواقع أنها كانت قضية حقيرة . فحتى كتل الثلج على سفوح صنين كانت تبدو ملوثة بحزام أسود لامع من الأوساخ يمتد عبر الطريق العسكرية الضيقة التي كان الكتائبيون لا يزالون يعملون بعناد على شقها في الثلوج .

وتصدت إسرائيل للدفاع عن المسيحيين وأعلنت من القدس أنها «لن تقف موقف اللامبالي» إذا استمرت «مذبحة» المسيحيين في زحلة . وكان الجميّل قد أخبر الإسرائيليين بأنه إذا سقطت زحلة وسقط جبل صنين فإن السوريين سيضمنون هيمنتهم على لبنان كله . وكان من الواضح أن ذلك شرك لجر الإسرائيليين إلى لبنان . ومن المؤكد أن هذا هو ما رآه الميجر ـ جنرال يهوشوا ساجوي رئيس مخابرات الجيش الإسرائيلي فيما قاله الجميّل(٣) . إلا أن رفائيل إيتان رئيس أركان الجيش الإسرائيلي اقترح القيام بغارة جوية على الطوافات التي كانت تزود القوات السورية على سفوح صنين بالإمدادات .

إن تلك الطوافات التي قال السوريون بأنها لم تستخدم إلا في أعمال الشحن شنت هجوماً مفاجئاً على الكتائبيين في صنين . وفي ٢٨ نيسان/ أبريل أرسلت إسرائيل طائرات ف ـ ١٥ وف ـ ١٦ لمهاجمة الطوافات السورية وأسقطت اثنتين منها . إلا أن هذا لم يفد الكتائبيين الذين تواروا في مراكزهم الخلفية .

وفي أواسط عام ١٩٨١ وجدتُ الميليشيا المسيحية ترابط في مربض مدفعية مورتر قذر تحيط به أكياس الرمل على علو ٧٥٠٠ قدم فوق جبل صنين . واضطر الكتائبيون بسبب هذا العلو إلى ربط دوارق الماء بصدورهم لكي لا يتجمد . وكانوا يجثمون في خنادقهم الصلبة المكسوة بالصقيع بينما كانت تمر فوق رؤوسهم قذائف طائشة تطلقها دبابة سورية على بعد ميل ؛ وكان من الصعب على المرء هناك أن يتنفس بسبب قلة الهواء وانخفاض درجة الحرارة إلى ما دون الصفر . ووجدت نفسي هناك ألهث كالحيوان وأبتلع الهواء المتجمد الذي كان يلسع داخل رئتي ويجعلني أسعل .

ورحّب بنا الكتائبيون في مركزهم الصغير المنعزل بحماسة شبيهة بحماسة المسنين الذين يتساءلون لماذا نسيهم أقرباؤهم في أخريات حياتهم . وكانوا يحومون بسرعة حول عشهم ويطلقون بضعة قذائف من مدفع المورتر ، حتى إذا رد السوريون أخذوا يصرخون بصوت غريب يمتزج فيه الخوف والإثارة . وكانت هذه الحرب كما وصفها ملازم كتائبي من محبي الفرنسيين عندما ركضنا وجثمنا وراء أكياس الرمل «حرباً كئيبة» ، إذ كانت من الحروب التي لا يرغب أي من الطرفين كثيراً في كسبها .

واستطاع السوريون أن يمنعوا الكتائبيين من إكمال الطريق إلى زحلة ، ومنع الكتائبيون السوريين

(٣) راجع شيف ويعاري ، حرب إسرائيل في لبنان ، ص ٣٣ .

من الوصول إلى فاريا منطقة التزلج والطريق المؤدية إلى البحر . وكان السوريون فوق أعلى قمم صنين . لكن المسيحيين كانوا تحتهم وعلى مسافة تقل عن خمسين قدماً . وبدا وكأن الطرفين كانا راضيين بهذا الترتيب الجغرافي .

على أنه هنا فوق صنين كان من السهل على المرء أن يلاحظ أن كلاً منهما كان يخشى قوة الآخر . قال الملازم الكتائبي : «أنظر إلى حافة أكياس الرمل .إذا رفعت عينيك قليلاً فإنك ترى البقاع» . وفعلت ذلك فاستطعت رؤية وادي البقاع الأخضر ينعم بالحرارة في مكان بعيد إلى الشرق ، ووراء الجبال على حدود سوريا .

وصعدت بجهد جزءاً من الطريق الحربي ، وأقول الحربي لأنه كان بالفعل كذلك بسبب مرابض المورتر ودبابات شيرمان التي زودتهم بها إسرائيل . كانت هذه كلها في حُفر محصّنة إلى جانب الالتواءات الحادة والأخاديد المغمورة بالثلج . ومما قاله قادة الكتائبيين المحليين ـ وغالبيتهم شبان حصلوا على شهادات جامعية في إدارة الأعمال ويتقنون الفرنسية ولهم اهتمام بالحرب والأسلحة يصل حد الهوس ـ أن السوريين هم الذين بدأوا معارك الجبل وذلك في ٢ نيسان/ أبريل . وأضافوا أن القوات السورية الخاصة أُنزلت في ٢١ نيسان من الطوافات فوق أحد قمم جبال صنين ، وأن السوريين استولوا في ٢٧ من الشهر نفسه على الحصن الفرنسي القديم ومخابئه إلى الجنوب باستخدام طوافاتهم ، وأن هذا كله هو الذي دفع الإسرائيليين إلى مهاجمة الطوافات السورية في اليوم التالي .

وادّعى الكتائبيون أنهم لا يزالون هدفاً لغارات الطائرات السورية وخصوصاً هليكوبتر «الغزال» التي تطلق الصواريخ . وقالوا أن السوريين استخدموا في ١٦ أيار/ مايو طائرة نفاثة من نوع ميج في قصفهم . وكان من المستحيل عندئذ الإطلاع على آثار تلك الغارات المزعومة . ومما أثار الشك في روايتهم عدم اهتمامهم بوقوع غارة أخرى .

ولاحظت أن حملتهم هذه على سفوح صنين تنقصها الخبرة . ففي مربض مدفع المورتر الأول الذي زرناه وقف الجاويش المسؤول عن إطلاق المدفع نصف دقيقة وهو يحملق عندما فشل في اطلاق القذيفة . ثم نظر بحذر شديد في ماسورة المدفع وأخرج القذيفة . ثم أعادها مرة أخرى . وعندما حاول مرة ثانية وانطلقت ، تساقطت عليه وعلينا قطع معدنية صغيرة مشرشرة .

وبعد أن أطلق بضع قذائف على الدبابة السورية التي تبعد نحو ميل رأينا ماسورة تلك الدبابة توجّه إلينا لتطلق نيرانها فصاح ملازم كتائبي يده اليسرى من البلاستيك ـ لأنه فقد يده الأصلية في

حادث إنفجار صاروخ ببيروت ـ قائلاً : «سوف يردون بإطلاق النار علينا» وبالفعل أخذت القذائف السورية تئز فوق رؤوسنا وتنفجر خلفنا .

وعندما حاولنا مغادرة هذا المكان السخيف والمخيف في آن واحد ، انفجرت إحدى عجلات الشاحنة الألمانية التي كنا نتجول بها . وهي من نوع شاحنات المرسيدس التي تستخدمها منظمة التحرير . ولم نجد حولنا عجلة أخرى ، ما اضطرنا إلى النزول مسافة تسعة أميال إلى فاريا . فأخذنا نتعثر ونحن نتزلق على كتل الثلج وألواح الجليد المتهادية بينما كانت قنابل المورتر وقذائف الدبابات تدوي بالاتجاهين فوق رؤوسنا . وعندما وصلنا إلى فندق المزار بفاريا كنا لا نزال نسمع أصوات المدافع . وكان هذا الفندق قد تحول إلى ثكنة محطمة النوافذ وغلايات وفناجين قهوة وأجهزة راديو ومختلف الألبسة الإسرائيلية ـ وكانت جميع ملابس الكتائبيين هنا إسرائيلية . بل إن بعضهم حيَّانا بكلمة «شالوم» ومحاضرات قصيرة عن معركة الحرية في العالم التي كانوا يزعمون أنهم يخوضونها على سفوح جبل صنين . وأكد جميعهم لنا أنه ليس بينهم إسرائيليون حتى ذلك الوقت على الأقل .

وأدى عجز إسرائيل عن الوقوف موقف اللامبالي إلى نشوء أزمة جديدة أكثر خطورة . ففي تلك الأثناء كان من المسلّم به في هيئة الأمم المتحدة وما يعتقده الدبلوماسيون في بيروت وحتى الإسرائيليون ولكن بشكل غير علني أن إسرائيل وسوريا متفقتان اتفاقاً غير مكتوب على أن لا تهاجم احداهما الأخرى في لبنان . وكان الإسرائيليون قد خرقوا ذلك الاتفاق المزعوم عندما هاجموا الطوافات السورية في ٢٨ نيسان/ أبريل . وقام السوريون في فجر اليوم التالي (٢٩ نيسان) بجلب بطاريات صواريخ أرض ـ جو من نوع سام ـ ٦ إلى البقاع . ولم يكن هذا سراً .

وفي غضون ساعات كنت أراقب السوريين وهم ينصبون تلك الصواريخ في الحقول شرقي طريق رياق ـ المصنع على هضبة واطئة خلف بعض البساتين شمالي طريق بيروت ـ دمشق الدولي . وكان طول الواحد منها ثمانية عشر قدماً ، ودهانه أبيض لامع جداً ، وله رأس حربي فضي مصقول . وكانت كلها مرتبة بحسب ظروف الموقع ومنصوبة على حوامل ،وكل ثلاثة منها على حامل واحد . ونُصبت بطارية أخرى من هذه الصواريخ جنوب غرب شتورة . وكان من الواضح أن السوريين تعمدوا إظهارها . فصوّرتها طائرات الاستطلاع الإسرائيلية النفاثة على علو كبير ، وقام المراسلون الصحفيون الغربيون العاملون في بيروت بالتجول على طرق البقاع لتصويرها .

على أن السوريين لم يرحّبوا في المبالغة بالإهتمام بصواريخهم . فعندما أوقف بل فولي من الأسوشيتدبرس سيارته بجوار مقهى لبناني مقابل لإحدى قواعد الصواريخ ، حمله السوريون وألقوا به

في شاحنة عسكرية وصادروا عدداً من آلات التصوير التي كانت معه . وقال فولي فيما بعد أنه كان ينتظر فرصة لتصوير غارة إسرائيلية . ولو حدث ووقعت الغارة فإن قرب فولي من القاعدة وميل الإسرائيليين في غاراتهم إلى تدمير منطقة واسعة حول الهدف يتجاوز طولها الميل كانا كفيلين بإزالته هو وآلات التصوير من الوجود . وعندما مررت بسيارتي بعد ذلك بأيام حول بطارية الصواريخ ذاتها هجم علي اثنان من المخابرات السورية وأمرا سيدتين كانتا معي بالركوب معهما في سيارتهما . وعندما رفضت السماح لهما بذلك ، أصر أحدهما على الجلوس في المقعد الخلفي بسيارتي ، وأمرني بأن أنطلق بالسيارة إلى مقر المخابرات السورية بشتورة . فوعدته أن أفعل ذلك . ولكنني توجهت بدلاً من ذلك إلى محطة بوليس لبنانية محلية وادعيت أنني خطفت . فتركني السوريون .

على أن السوريين أرادوا أن تنتشر صور الصواريخ . وبالفعل قُدّر لتلك الصواريخ أن تصبح بسرعة من أكثر صور المنشآت العسكرية في الشرق الأوسط انتشاراً . إلا أنها كانت بالنسبة لمقاييس حلف وارسو قد أصبحت قديمة النوعية ، وأنها أسلحة جوية دفاعية ، ولم يكن من الممكن لها أن تصل إلى ما وراء الحدود وتهدد المدن الإسرائيلية كما قيل فيما بعد . وما استهدفته هو الاستفزاز السياسي . وحمل ظهورها في تلك الزاوية العامرة من البقاع ألكسندر هيج ، وزير الخارجية الأميركي ، على مناشدة السوفييت المساعدة . وقبل نهاية ذلك الأسبوع صرح مناحيم بيغن رئيس الوزراء الإسرائيلي أنه لا يعرف شيئاً عن تلك الصواريخ بالرغم من أن قواته الجوية قدمت صوراً مفصلة لمراكز البطاريات إلى الحكومة الإسرائيلية . وهكذا انتهكت إسرائيل تعهدها بعدم الاعتداء في لبنان . لكن الإسرائيليين أبوا الاعتراف بالنتائج . فصواريخ سام ـ ٦ لم تهدد إسرائيل ولكنها شكلت حظراً على تحليق الطائرات الإسرائيلية في أجواء البقاع . وعليه فإن الإسرائيليين فقدوا بصورة مؤقتة على الأقل تفوقهم الجوي في شمال شرق لبنان . وكان هذا هو الثمن الذي دفعته إسرائيل لقاء تعيين نفسها حامية للمسيحيين في لبنان . ولم يقرر بيغن أن يعلن بأن تلك الصواريخ تشكل «تهديداً قومياً» لإسرائيل إلا فيما بعد .

ولم تحل أوائل شه تموز/ يوليو حتى كان حصار زحلة قد انتهى . فقد كان الصراع رغم الظواهر صراعاً بين دول كبرى في المنطقة وليس بين سوريا والكتائب . وكالعادة كان المدنيون هم الذين دفعوا ثمن هذه الحرب القائمة على الخداع . وعندما دخلت البلدة في أول تموز/ يوليو أراد كتائبي أن يطوف بي فيها وقال : «هل تريد أن ترى القبور؟» وكانت يداه فوق كعب وماسورة بندقية م ـ ١٦ معلقة برقبته . وأضاف : «أنظر خلفك» ورأيت وسط أكوام من الرمل والقاذورات والنفايات صلبان خشبية رقيقة ، وبعض الزهور الميتة ، وشريطاً باهتاً من أشرطة التسجيل الزهرية يعيّن حدود المقبرة المملوءة بالنفايات .

قال الكتائبي : «توجد خمس وثلاثون جثة هنا . ولم نجد فرصة في ظل القصف لدفنها كما يجب . ونصفهم من المدنيين وبينهم أطفال» . ثم أخذ يمسح العرق عن وجهه . وكان النهار قد انتصف وأخذ الذباب يحوم حول وجوهنا . وهبت ريح أطارت قصاصة ورق مربوطة بسلك وألصقتها بأحد الصلبان وكانت تحمل اسم «جورج» بالعربية . وكان بجوار القبور جرافة مهيأة لجرف زاوية أخرى من الأرض إذا استؤنف القصف وقال الكتائبيون بأن ٣٠٠ قتلوا وجرح ٣٠٠٠ .

وكان على أحد جانبي سكة الحديد حطام عمارة من خمسة أدوار انهارت على ثمانية وثلاثين مدنياً كانوا قد اختبأوا في دور منها تحت الأرض . ولم ينج منهم سوى طفل كان قد فقد رجليه . وكانت الدبابة التي قصفت أعمدة الإسمنت التي ترتكز عليها لا تزال متوقفة في أحد البيادر وفوهة مدفعها مصوبة نحونا . وكانت البيوت من حولنا تنطق بما أحدثته القذائف من دمار فيها يتجلى في الفجوات والصدوع التي سدها السكان بأكياس الرمل . وعليه فإن زحلة اتخذت ذلك المظهر الكئيب الذي اتخذته بيروت قبل ذلك بخمس سنوات .

وتم ترتيب وقف النار بواسطة فيليب حبيب مبعوث ريغن الخاص إلى الشرق الأوسط وهو دبلوماسي من أصل لبناني . وكان هو الذي اتفق مع السوريين على السماح للكتائبيين بالجلاء عن زحلة قبل سحب صواريخ سام ـ ٦ . لكن هذا الاتفاق كان كالكثير من جوانب السياسة الأميركية في الشرق الأوسط فضفاضاً . فلم يكن هناك مثلاً علاقة مباشرة بين الصواريخ وحصار زحلة . وكانت الصواريخ ذاتها قد جلبت على أثر قيام المقاتلات الإسرائيلية بإسقاط طوافتين سوريتين . وعلى أي حال فإنه لم يترك زحلة سوى ٩٥ كتائبياً كانت بيوتهم في بيروت . وهكذا فإن الكتائبيين لم يسحبوا أغلبية مقاتليهم منها . ولهذا لم يسحب السوريون صواريخهم .

وفي هذه الأثناء ،وعلى أثر حدوث غارات فلسطينية صغيرة داخل إسرائيل وانفجار ألغام في شريط حداد قد لا يكون الفلسطينيون هم الذين وضعوها ، هددت إسرائيل بالقيام بغزو شامل للبنان . على أن فيليب حبيب هذا ضخّم الأزمة عندما استخدم الأمم المتحدة وقائدها الإيرلندي الجديد اللفتنانت ـ جنرال وليم كلاهان في وضع اتفاق آخر غير مكتوب لوقف إطلاق النار بين منظمة التحرير والإسرائيليين .

ولم يكن دور الأمم المتحدة خالياً من الغرض . فميليشيات حداد كانت تواصل مضايقة قوات الأمم المتحدة . وفي آذار/ مارس ١٩٨١ أطلقت عدة قذائف مدفعية على مركز الوحدة النيجيرية الواقعة شمال منطقة الكتيبة الإيرلندية ، فقتلت جنديين نيجيريين . واعتقد كلاهان بأن

المدافــع الإسرائيلية لا مدافع حداد هي التي أطـلقت القذائف . وتحدث عن «حنقه» على الظروف «البربرية» التي أحاطـت بمقتــل النيـجيريين . وعبّر إيتان فيما بعد عن «أسفه العميق» لموتهما وذلك حسب ما ورد في خطاب ألقاه كلاهان في ١٧ آذار/ مارس أمام القوات الإيرلندية التابعة للولايـات المتحـدة . وقـال كلاهان بأن «تدخل» إيتان هدّأ الحالة في أعقاب مقتل النجيرين . ثـم أضاف : «لا مجال لي إطلاقاً للمفاوضة في ظل التهديد بإطلاق النار أو بإطلاق النار ، وليس في نيتي أن أفعل ذلك» . وكانت هذه من العبارات التي سيندم على إيرادها . وقال لي في ١٩ نيسان/ أبريل أنه كان قد حذر الميجر ـ جنرال أفجدور بن ـ غال ، قائد الجيش الإسرائيلي الشمالي بأن قـوات الأمم المتحدة لن تواصل غض النظر عن مضايقة القوات الإسرائيلية . وأضاف : «استـطعنا أنا وبن ـ غال أن نتفاهم بشكل حقيقي . وعندما قـال لي بأن قوات الأمم المتحدة لا تستطيع أن تـلعب بإسرائيل قلت له : على مهلك . إنك تعلم أنه لم يحدث شيء من هذا القبيل . على أنني قلت بأن إسرائيل تجاوزت كل حد بالسماح لمقاتليها بإطلاق النـار على قوات الأمم المتحدة من جنوبي لبنان ، واتهامنا بعد ذلـك بالسماح للفلسطينيين بالتسلل إلى منطقة عملياتنا»(٤) .

ولم تكن الهدنة بين إسرائيل ومنظمة التحرير سهلة . لكن القوات الفلسطينية التزمت بها إلى حد كبير وأظهرت انضباطاً في قيامها بذلك ، فكان عرفات يذكرها باستمرار بأن الإسرائيليين يبحثون عن عذر للعودة مرة أخرى إلى جنوب لبنان بقوات كبيـرة . وكان الفلسطينيون في الضفة الغربية المحتلة يشاركون في مهاجمة الإسرائيليين . كما أن المسلحين العرب كانوا يهاجمون أهدافاً إسرائيلية في أوزوبا . وادعى الإسرائيليون أن هذا خرق لاتفاق وقف النار في جنوبي لبنان . وقال الفلسطينيون بأن تحليق الطائرات الإسرائيلية فوق جنوب لبنان هو أيضاً إنتهاك للهدنة .

لقد كانت الهدنة امتحاناً عسيراً لمنظمة التحرير الفلسطينية . وقال عرفات فيما بعد أنه كان على علم بأن الإسرائيليين كانوا يمكّنون لتحالفهم مع الكتائب ، وأنه كانت لهذا مضاعفات خطيرة على المدى البعيد للبنان وخصوصاً للفلسطينيين . وفي آذار/ مارس ١٩٨٢ أعلنت الجبهة الديمقراطية

(٤) وأثناء المحادثة ذاتها قال كلاهان بأن بعض الإسرائيليين كانوا أيضاً يحاولون الافتراء عليه . وأضاف أنهم كانوا يزعمون أنه عندما تسلم قيادة قوات الأمم المتحدة قال للجنود : « لست قرداً قفز عن الشجرة» وأنه قصد بذلك الإشارة إلى سلفه الغاني إرسكين . وقال لي كلاهان : «سأجتمع مع بيغن يوم الثلاثاء وسوف أقول له ما أعتقده بشأن ما يقوله الإسرائيليون عني . والحقيقة هي أنني لم أقل ذلك . فأنا لا أقول أشياء من ذلك القبيل» .
وكان الإسرائيليون يحاولون باستمرار الطعن في أخلاق ضباط الأمم المتحدة . وقد استمع المراسلون الصحفيون الغربيون إلى بيان للجيش الإسرائيلي بعد غزو لبنان عام ١٩٨٢ قال فيه ضابط إسرائيلي للصحفيين بأن الكتيبة الفيجية مسؤولة عن نشر السفلس بين النساء في جنوب لبنان .

لتحرير فلسطين مسؤوليتها عن هجوم بالقنابل على القوات الإسرائيلية في قطاع غزة أوقع بينهم اصابات . وكان هذا التصريح بما اشتمل عليه من إشادة بأعمال الفدائيين البطولية تطوراً في غاية الخطورة . فانتقد ضباط عرفات الجبهة الديمقراطية لإصدارها هذا التصريح في وقت لم يكن ممكناً فيه للمنظمة أن تشن هجوماً من لبنان على مكان بعيد مثل غزة . وكان ما ادعته الجبهة مجرد تبجح . لكن الإسرائيليين سجلوه .

وفي ٢٢ نيسان/ أبريل ١٩٨٢ قام الإسرائيليون بغارة جوية على الدامور قتلوا فيها تسعة عشر فلسطينياً على الأقل . وكانوا قد ادعوا أن الهدنة خرقت وأنه قتل جندي إسرائيلي في جنوب لبنان . على أنهم لم يذكروا شيئاً عما كان يفعله الجندي هناك . وعندما تجولت في جنوب لبنان بعد ذلك اكتشفت أنه كان يقوم بزيارة لمرابض مدفعية حداد ، وأنه من الجائز أن يكون اللغم الذي انفجر به قد وضع عام ١٩٧٨ وربما حتى بواسطة الإسرائيليين أو الميليشيا التابعة لهم . لكن إسرائيل اعتبرته عذراً كافياً .

وظلت الطائرات الإسرائيلية تهاجم من البحر مدة ساعتين . وكنت في السيارة مع كودي وبعض الزملاء على طريق صيدا عندما بدأ الغزو . وعندما تساقطت القنابل على التلال التي تحف بالطريق كانت ترتفع في مكان الانفجار كرة من اللهب علوّها خمسون قدماً . واستطعنا من المكان الذي اختبأنا به على جانب الطريق أن نرى النفاثات الإسرائيلية بوضوح . وكانت كل اثنتين منها تنقضان معاً بسرعة مخيفة وتدوران حول مدرجات المطار . وفي كل مرة كانت كل طائرة تسقط مواد فسفورية لتضليل الصواريخ التي يطلقها الفلسطينيون ، وقبل أن تعود باتجاه البحر يتصاعد اللهب البرتقالي والقرمزي فوق تلال الدامور .

وفجّر الإسرائيليون كوخاً صغيراً من الطوب في بستان موز بعد أن مررنا به بثوان ، وادعوا فيما بعد أنه كان «قاعدة بحرية إرهابية» . وكان الفلسطينيون في هذه الأثناء يطلقون المضادات الأرضية ولكن بدون جدوى . وفي الطريق بعد الدامور لحقت بي شاحنة فيها مدفع رشاش ،وأخذت أمشاط الرصاص المتدلية ترن على الطريق وعلى ظهر سيارتي . وكان يمسك بالحزام شاب فلسطيني ملتح لف منديلاً حول رأسه . وعندما سقط منه الحزام وأخذ الرصاص يتناثر على الأرض جنحت سيارتي وارتطمت بشاحنته . ولاحظت أنه ظن أنني تعمدت الإرتطام به فصحت قائلاً : «أنا آسف أنا آسف جداً» . وأرجعت السيارة إلى الوراء ثم انطلقت . ورأيته من خلال المرآة منحنياً يجمع الرصاص المضاد للطائرة بينما كانت إحدى النفاثات تمر فوق الطريق .

وقضى عرفات شطراً كبيراً من تلك الليلة في الفاكهاني يناقش مع مستشاريه ما إذا كانت منظمة

التحرير سترد على الهجوم . ولم يثر الهجوم غضب عرفات فحسب ، بل ارتيابه ، لأنه وقع بعد ساعة واحدة فقط من إعلان الإسرائيليين عزمهم على الانسحاب مما تبقى من سيناء حسب شروط اتفاق كامب ديفيد . فهل كان المقصود من الهجوم تحويل أنظار الإسرائيليين عن المستوطنين اليهود الذين كانوا يرفضون إخلاء آخر مستوطناتهم في سيناء؟

وهدد الأميركيون بشكل غامض بوقف المعونة العسكرية والاقتصادية لإسرائيل إذا هي غزت لبنان . وعندما اغتيل الدبلوماسي الإسرائيلي ياكوف بارسمنتوف بباريس في شهر نيسان/ أبريل أبلغت حكومة الولايات المتحدة الإسرائيليين بأنها لا تعتبر ذلك «استفزازاً كبيراً» يشكل انتهاكاً لوقف إطلاق النار . لكن غالبيتنا أدركوا أن إسرائيل لن تلبث أن تغزو لبنان . وسرى همس في أوساط الكتائبيين عن «مبادرة» إسرائيلية . وأذاعت شبكة تلفزيونية أميركية برنامجاً إخبارياً تضمن تفاصيل غزو عسكري للبنان قد «يتوغل حتى بيروت» . وصرح بيغن أنه في حين أنه كان على المستوطنين أن يرحلوا عن سيناء ، لكنهم لن يتركوا «أرض إسرائيل» . وكانت هذه في نظره ونظر حزبه ـ حزب الليكود ـ تضم الضفة الغربية أو اليهودية والسامرة ،كما كان يسميها الإسرائيليون . وظن الإسرائيليون أنهم إذا وجهوا ضربة أخيرة ساحقة لمنظمة التحرير الفلسطينية في لبنان ، فإنهم سيقضون نهائياً على حلم الفلسطينيين في الضفة الغربية المحتلة بإنشاء دولة لهم . لكن كان لا بد أن يؤدي غزو لبنان إلى تدخل سوريا .

وفي ذلك الربيع قمت بجولة في البقاع الغربي والعرقوب ظننت أنها ستكون الأخيرة قبل الحرب . وأردت أن أرى ساحة المعركة قبل أن تقع . وكان الخشخاش المزهر يكسو التلال الصخرية حيث شهد الفلسطينيون الأمطار الشتوية الأخيرة وهم في الخيام التي يتسرب منها الماء . وكان وهج الأزهار الحمراء والقرنفلية يضيء المروج حتى حاصبيا . وكان الجسر الروماني فوق الحاصباني قد أعيد رصفه من أجل الرعاة . وكانت الدبابات السورية ترابط في المروج جنوبي قرية صغيرة يكثر فيها الدجاج والبرك والبيوت الصغيرة . ووقفت في بستان منفرد على بعد ميل أو ميلين من نقطة تفتيش تابعة للأمم المتحدة شاحنة وحيدة تابعة لفتح وفي مؤخرتها بطارية صواريخ كاتيوشا . وإلى الشرق كانت ثلوج الجولان التي تبدو فضية في شمس الصباح تغمر مخابىء الإسرائيليين في المرتفعات .

ونقل الفلسطينيون الكثير من الذخيرة والقليل من الأسلحة إلى الجنوب . وادعى الإسرائيليون أنه كانت لدى منظمة التحرير دبابات ميدان حديثة . لكن كل ما رأيته شمال الليطاني بضع دبابات روسية من طراز ت ـ ٣٤ تصلح للمتاحف . وكانت المنظمة قد اشترتها بأسعار متدنية من فائض الأسلحة لدى الجيش الهندي . وكانت هذه الأسلحة قد استخدمت في روسيا عام ١٩٤٢ . ونصب السوريون على الطريق جنوبي دمشق مدافع ضخمة مضادة للطائرات وجهاز رادار محمولاً على أربع عربات

قصيرة وراء أربعة رشاشات . وكان من الواضح أن السوريين اعتقدوا بأن الإسرائيليين سيقومون بغارات جوية على البقاع .

وفيما كانت حرارة الجو ترتفع ،ظهر المزيد من العلامات المنذرة بالسوء . إذ أعيدت صواريخ سام ـ٦ التي كانت قد أخرجت من أجهزة الإطلاق . وتجاهل ضباط قوات الأمم المتحدة اعتقاد كلاهان بأن «قوة الرأي العام الدولي» ستمنع الإسرائيليين من اختراق خطوطهم ، وأسرّوا لنا بأنهم تلقوا أوامر سرية تقضي بأن ينزلوا في مخابئهم ، وأن يبقوا فيها إذا قام الجيش الإسرائيلي بالغزو . وعندما سأل جمع من الصحفيين عرفات ذات مساء بالفاكهاني إذا كان الإسرائيليون سيغزون لبنان قال منشرحاً : «دعهم يأتون» .

وكان لا بد لي في ذلك الربيع من أن ألغي بسرعة جميع المهمات التي أسندت لي خارج لبنان . وعندما هدد عرفات بإنهاء وقف إطلاق النار ، وادعت إسرائيل بأن الهدنة لا قيمة لها ،قررت أن أتوجه إلى مطارات البحرين ودبي من أجل تذكرة سفر إلى بيروت . وفي دمشق تلقيت مكالمات عاجلة من إيفان بارنز محرر «التايمز» تطلب مني العودة في الحال إلى لبنان . وفي الثالث من حزيران/ يونيو كنت في القاهرة عندما دعا إسحق شامير وزير خارجية إسرائيل ـ الذي علمه زيمون داتنر وهو صبي في المدرسة اليهودية في بيياليستوك ـ إلى القضاء على منظمة التحرير الفلسطينية من أجل «تقدم» عملية كامب ديفيد للسلام . وفي مساء ذلك اليوم أطلقت النار على شلومو أرجوف سفير إسرائيل بلندن .

وكان المسلحون الذين أطلقوا عليه النار وأصابوه بجروح خطيرة من جماعة أبو نضال . وفي ذلك الوقت كانت قيادتهم في بغداد التي كان يسعدها أن تسبب المتاعب لسوريا . وأدان عرفات محاولة اغتيال السفير ، ولكن القوات الجوية الإسرائيلية قامت في ٤ حزيران بقصف جنوب لبنان وغرب بيروت .

وكانت إسرائيل قد قررت إنهاء الهدنة . لكن ما علاقة وقف إطلاق النار في جنوب لبنان بشوارع كنسنجتون (بلندن) البعيدة عن الشرق الأوسط ؟ هذا ما لم توضحه إسرائيل . وفي تلك الليلة شاهدت في فندق مينا هاوس بالقاهرة شريطاً مصوراً على التلفزيون . وكان قد قُتل مصور فرنسي من معارفي وهو يصور غارة على مخازن منظمة التحرير للذخيرة في المدينة الرياضية قرب الفاكهاني . وكان قد وصل لتغطية نتائج القصف الجوي الأول فقتل في الثاني . وقالت مسجلة الصوت لأصدقائه فيما بعد أنه اختفى بعد أن نسفته الشظايا . وكانت هي لا تزال تحمل سلك الكاميرا المحطمة عقب اختفائه . وذكر الفلسطينيون أنه قُتل خمسون منهم . وذكرت السلطات اللبنانية أن عدد المدنيين الذين قتلوا بلغ ٢٥٠ مدنياً . وأصيب مستشفى للأطفال في مخيم صبرا بقنبلة وأخرجت منه خمسون جثة .

لم تكن هناك في ذلك المساء رحلات جوية إلى بيروت . وفي صباح ٥ حزيران/ يونيو استؤنفت الغارات وشهد ذلك اليوم خمسين غارة . وشاهد توم بالدوين مراسل الأسوشيتد برس ببيروت نتائج قصف الطريق الساحلية بعد أن انطلق من صيدا بالسيارة في ذلك الصباح . وظهر تقريره على شاشة تلفزيون الفندق في النشرة الإخبارية التي تذاع ظهراً . وكان تقريراً مرعباً وصف كيف احترق الناس في سياراتهم من جراء القنابل التي أطلقها الإسرائيليون شمال الدامور . فتوددت لعامل التلفون بالفندق ورجوته أن يطلب لي مكالمة لبيروت . وبعد حوالي ساعتين وصلني بمكتب الأسوشيتد برس . وكانت إيرلين تاترو هي التي ردت علي وسألتها : هل كان ما حدث غزواً ؟ فأجابت : «لقد كنت منهمكة في العمل يا فسك . ليست لدي أية فكرة عما يجري . لكن يبدو أنه لا بد من وجودك . فلا تُضع الوقت . والآن تكلم مع بالدوين» .

وطرحت السؤال نفسه على بالدوين بالتلفون فقال : «إقرأ شريط الأخبار» وبدا من صوته أنه كان قد صُدم . قال : «رأيت اليوم أشياء رهيبة» . ولما سألته إذا كان يعتقد بأن الغزو قد بدأ ، قال مرة أخرى : «عليك بشريط الأخبار» وانقطعت المكالمة . وانتظرت النشرة الأخبارية التالية على شاشة التلفزيون . وانتظرت طويلاً . وأذيعت تقارير عن حرب فولكلند التي كانت عندئذ في ذروتها . وكانت القوات البريطانية تحارب الأرجنتيين . لكن كان لما يحدث في لبنان نتائج أعظم أهمية . ثم قرأت على الشاشة مرة أخرى أخبار من حرقوا في سياراتهم . وتخلل ذلك خبر عن قيام الفلسطينيين بإطلاق صواريخ الكاتيوشا على الجليل انتقاماً للغارات الإسرائيلية . وتسبب صاروخ منها في مقتل إسرائيلي وهو يسوق سيارته قرب أحد الكيبوتزات .

فطلبت سيارة أجرة ، وتوجهت إلى مطار القاهرة . وكانت طائرة البوينج ٧٠٧ التابعة لشركة الميدل ايست والتي تقوم برحلة مسائية إلى بيروت قد تحركت من موقفها ، فوعدني مدير مكتب الميدل ايست بالمطار بأن يحجز لي مكاناً في طائرة الصباح . لكنني لم أستطع النوم وراقبت شريط الأسوشيتد برس للأخبار . وصرت أستمع كل ساعة إلى الإذاعة العالمية لهيئة الإذاعة البريطانية . واتصلت تلفونياً ببارنز المحرر الخارجي في بيته . وكان ذلك يوم السبت . وأخبرته أنه يتوجب علي أن أعود . فقال «آمل أن لا تضيع وقتك مرة أخرى» وضحك . وفي الخامسة من صباح اليوم التالي كنت في مطار القاهرة . ووصلت طائرة البوينج ٧٠٧ من بيروت ، وعلى ذيلها صديقتنا القديمة شجرة الأرز . وكان الجو حاراً . وابتسم مدير مكتب الميدل ايست وقال :«ها أنت ترى . هل سبق للبنانيين أن خذلوك ؟ كانت تلك الرحلة الأخيرة إلى بيروت .

الفصل السابع

لا أعلام بيضاء

«إسمع ، أنا أعلم أنك تسجّل هذا ، ولكنني شخصياً أود أن أراهم جميعاً أمواتاً . أود أن أرى جميع الفلسطينيين أمواتاً . إنهم مرض أنّى ذهبوا» .

ملازم بالجيش الإسرائيلي ، بعبدا ، لبنان ١٦ حزيران/ يونيو ١٩٨٢ .

لم يحل الباب الخشبي البني لمكتب الأسوشيتدبرس في غرب بيروت دون سماع صوت إيرلين تاترو وهي تقول : «قل لي فقط كم عددها» . وسمعت صوت بالدوين وهو يصرخ على التلفون مخاطباً تيمور جوكسل الناطق باسم الأمم المتحدة في جنوب لبنان : «كم عددها؟ ما هو عددها؟ كم دبابة؟» ودفعت البا ب . فوجدت أمامي الزملاء الذين سأقاسمهم الأشهر الأربعة التالية .

كان فاروق نصّار يجلس على طاولته إلى جانب النافذة وأمامه الآلة الكاتبة وهو يسأل إيرلين : «كم عددها؟» وكان سؤاله سخيفاً . فأجابت إيرلين : «وأنّى لي أن أعرف بالله عليك إذا كان بالدوين نفسه لا يعرف إلى الآن !» ووقف نصار ببطء وهو يستدير قائلاً بيأس تشوبه الكآبة : «وكيف سيتأتّى لي أن أكتب تقريري الليلي وأنا لا أعرف أين بلغ الإسرائيليون؟» ورآني نصار عند الباب فصاح : «حبيبي ! جئت والحمد لله !»

ونصار هذا فلسطيني الأصل ، لبناني الجنسية . ولأسرته علاقة بجريدة «التايمز» إذ كان والده الذراع الأيمن للجريدة في حيفا خلال الأيام الأخيرة للإنتداب البريطاني على فلسطين . ولم يكن باستطاعة أحد في الوكالة أن يبزه في سرعة إعداد تقرير الوكالة الليلي ، أو في براعته في تقدير قوة إحدى الميليشيات ، أو في حذقه في صوغ العبارة . وكان يحب الخيل ، ولم يتقاعس يوماً عن

المغامرة بنقوده في ميدان سباق الخيل . وكان كريماً صلباً يدخن سيجار تشرتشل وبه شيء من ملامح الفتى اللعوب . وكان يجمع إلى ذلك كله ما يضمن استمرار عمله في أية وكالة ، وهو أنه رجل يعتمد عليه .

وتوقف التيار الكهربائي ، وكذلك مكيّف الهواء ، وتلطّخ قميص نصار بالعرق ، وانساب عرقه نقطاً من جوانب شعره الأبيض الخفيف حلقات صغيرة فوق وجهه وحتى شواربه السمر الكثة . وانفرجت ذراعاه القصيرتان الممتلئتان . قال : «فيسكي ، كيف استطعت القدوم إلينا؟ لقد بدأ الغزو الإسرائيلي . إنهم يقصفون الجنوب اللبناني كله» . تفوّه بذلك بلهجة تدل على خطورة الموقف كأنه واعظ يعلن لرعيته أن خطاياهم قد قارب عقابها ، مكرراً ما كان يقوله دوماً . وكانت إيرلين تاترو قد عادت إلى الغرفة ، وهي أميركية من انديانا تلبس نظارات ولها شخصية قوية . وعاشت مع الأسوشيتد برس ١٤ عاماً . وكانت ذات طاقة هائلة وسخرية محببة اكتسبناها جميعاً كي نستطيع أن نبقى أحياء في لبنان . قالت : «الآن يا فيسك ، لقد استمتعت بوقتك فلا تهدر وقتنا . لقد بدأ الإسرائيليون غزوهم واخترقوا خطوط الأمم المتحدة . هذا وقد طلب عرفات صباحاً وقف إطلاق نار آخر ، ولكن بلا نتيجة» . وكان مدير مكتب الأسوشيتدبرس نك تاترو ، زوج إيرلين ، غائباً . وأضافت : «إنه في اليمن ، لا يجد طائرة ترجعه ، وكودي معه» . ولا أزال أذكر انطباعاتي عن وجه كودي ، وعينيه شبه المغلقتين ، وذلك القنوط الخاص به الذي يبدو عليه حينما تُفسد قصة الشرق الأوسط عليه خططه وطموحاته . وكان كودي يعمل عندئذ مع «الواشنطن بوست» . وكان عليه أن لا يذهب إلى اليمن في وقت كهذا .

كانت إمارات التعب بادية على وجه إيرلين . قالت :«إسمع يا فيسك ، اكتب قصتك ، إفعل ما تشاء لكن اغرب عن وجهي . ليس لدينا كهرباء ، لقد تعطل المولد ، وفرانسوا ليس هنا ليصلحه ، وليس بإمكاننا أن ننجز تقريرنا الليلي . دع هيئة التحرير ، واكتب مقالاتك أنى شئت» . كنا كلنا نحب إيرلين ، وحينما كان يعمل خط الكمبيوتر مع لندن ونيويورك ، كانت تزج تقاريري في الفواصل بين تقارير الأسوشيتد برس وتبعث بها . وحينما اقترب الإسرائيليون من بيروت ـ لدرجة أن قنابلهم كانت تدك الأبنية المحيطة بمكتب الأسوشيتدبرس ـ كنت أجلس إلى جانب إيرلين تاترو قرب التلكس ، وأعد لها نسخ تقارير الأسوشيتد برس وكأنني عضو فخري يعمل متبرعاً في هيئة تحريرها . ومرت أوقات في الأسابيع التالية كنت أسأل نفسي خلالها عما إذا كان ولائي لهؤلاء الرفاق يفوق ولائي للتايمز .

وكان الخط المستقبِل لا يزال يعمل ، وتَرِدُ عبره سلسلة طويلة من الأخبار وكلها تؤكد حصول

ضربة عسكرية إسرائيلية كبيرة في جنوب لبنان . وكانت الرسائل تتوالى على مكتب إيرلين وتسبق كل واحدة منها دقة جرس ميكانيكي صغير للتنبيه إلى أهميتها البالغة . وكانت الأخبار ترد من تل أبيب أو القدس . لكن ردود الفعل العالمية عليها كانت تتأخر . ولم تكن الأرقام المذكورة فيها واضحة .وكانت تؤكد أن حوالي ٢٥٠٠٠ جندي إسرائيلي دخلوا إلى لبنان من ثلاثة محاور : على الخط الساحلي مروراً بقيادة الأمم المتحدة في الناقورة ـ حيث كان في الواقع تيمور جوكسل يراقب طوابير دبابات الميركافا وهي تمر أمام مكتبه ـ ومن وسط تبنين حيث كان مقر قيادة الفرقة الإيرلندية ، وعبر إبل السقي حيث أمضيت أياماً كثيرة مع الجنود النرويجيين خلال السنوات الأربع المنصرمة .

هل كان ذلك تكراراً لغزو ١٩٧٨؟ لقد تأكد أن هذه العملية كانت على نطاق أوسع بكثير . وكان الإسرائيليون قد أخذوا يقتربون من صور . إذ اتصل بنا أحمد منتش ، رجل الأسوشيتد برس في صيدا ، بالهاتف ليقول لنا أن الزوارق والطائرات الإسرائيلية تقصف المدينة . وكانت الأجراس على طاولة إيرلين تدق باستمرار . إذ جرى إبلاغ موظفي الأسوشيتد برس في تل أبيب أن للغزو «أهدافاً محدودة» وهي دفع منظمة التحرير ومدفعيتها بعيداً عن الحدود وعن منطقة الجليل الشمالية . وقالوا إن الحرب ليست حرب اعتداء وإنما مجرد عمل وقائي لضمان السلام . فما أسهل الربط بين الحرب والسلم على الإسرائيليين . وعلمنا صباح الأحد من موظفي الأسوشيتد برس أن إسرائيل أطلقت على الغزو اسم «عملية الجليل» على الرغم من أنه لم يكن الاسم الحقيقي للغزو . فالواقع أن اسمه الأصلي هو «كرة الثلج» . وكرات الثلج كما يعرف الجميع تكبر كلما تدحرجت على الأرض . ودق الجرس منبهاً إلى خبر عاجل آخر : لقد قُتل جندي نرويجي أثناء تبادل الإسرائيليين والفلسطينيين قصفهم المدفعي من جانبي إبل السقي .

كانت غالبية التقارير الواردة من إسرائيل للأسوشيتد برس مصحوبة لا برنات الجرس فحسب ، بل وأيضاً وبشكل روتيني بجملة تتوج كل تقرير مرسل بأنه قد عرض على الرقيب العسكري الإسرائيلي . وفي بعض الأحيان كانت وكالة الأنباء تذكر بأن الرقابة قد أمرت بإلغاء المواد . لقد تأكدنا جميعاً أن هذه ستكون حرباً لم نشهد مثلها . فلم تكن هنالك رقابة في بيروت . وكانت هذه هي المرة الأولى التي ستعمل فيها الصحافة الغربية على جانبي الخطوط الأمامية للحرب العربية ـ الإسرائيلية والتي سيشعر فيها الصحفيون الأجانب بحرية أكبر في إيرادهم الحقائق من زملائهم في إسرائيل . ففي الحروب السابقة كان الضباط الإسرائيليون المسؤولون عن الصحافة ينظمون الرحلات في مناطق القتال للمراسلين الصحفيين في تل أبيب والقدس ، فكانوا يشاهدون ما يجري من الجانب الإسرائيلي ، بينما كان زملاؤهم في العواصم العربية ـ في مصر وسوريا ـ يعاملون معاملة الجواسيس

ويحبسون في الفنادق الضخمة حيث تقدم لهم «وجبات» من البيانات . لكن هذا انتهى . فلم تكن في بيروت رقابة على التقارير الصحفية الخارجية . فعندما كنت أريد كتابة تقاريري ، كان علي فقط الإهتمام بالتيار الكهربائي ، ويخلل الخطوط ، وتَعطُّل مولّد فرنسوا .

كان مكتب الأسوشيتد برس صورة مصغرة لبوتقة لبنان الدينية . إذ كان أحد موظفيه وهو سمير غطاس وأبوه فرنسوا كبير الفنيين فيه من الطائفة الأرثوذكسية اليونانية ، وفاروق فلسطينياً سنياً ، ومدير المكتب شارل عاصي مارونياً . وكان فريق المصورين يضم رئيس تحرير سنياً وشيعياً وأرمنياً هو زافيم فارتان . وكانت شهرزاد فارامارزي إيرانية وظفها تاترو عندما نشبت الحرب الإيرانية العراقية . فبيروت كانت المقر الرئيسي لوكالة الأسوشيتد برس للأخبار في الشرق الأوسط .

أما المكتب نفسه . فكان متاهة من مكاتب صغيرة حشرت في بناء قديم متآكل اتسخت جدرانه البيضاء . وكانت تكسو طاولات مكاتبه المعدنية الثقيلة التي كان لونها كلون السفن الحربية ، ألواح من الزجاج عليها آلات كاتبة . ووضع جهاز التلكس وخط الكمبيوتر في غرفة عُلّقت على جدرانها أشرطة التسجيل المستعملة . وكان على الشرفة مولد كهربائي كبير ذو مزاج سيء ، وبجانبه البنزين الذي وضعه عاصي في علب صغيرة . لكن نصف المكتب كان يشكو من رائحته . وكانت في الزاوية المقابلة للمولد قطع الغيار وأدوات اللحام التي صنعها فرنسوا عاصي في بيته . وهكذا فقد كان المكتب يبدو كورشة لتصليح السيارات وخاصة عندما كان عاصي يحضر كل صباح «بمايوه» السباحة لتنظيف الحمامات وأرض الغرف والشرفات .

كانت اللغة توحد هيئة المكتب وتفرقها في الوقت ذاته . فتاترو كان يتكلم باللهجة المصرية ، وغالبية الأمريكيين مثل بالدوين والآخرين القادمين من روما وباريس خلال الغزو وحصار بيروت الذي تلا ذلك ـ لم يكونوا يتكلمون العربية . وكان الموظفون المحليون يتحدثون فيما بينهم بالعربية ومعنا بالإنجليزية . فايروين وبالدوين كانا يعتمدان مثلاً على نصار لترجمة عناوين صحف بيروت ، وكانا يعتمدان على سمير غطاس أو فارامارزي التي كانت تتكلم العربية بطلاقة بالإضافة إلى الفارسية والانجليزية لشرح الإذاعات العربية . وكان كل ما يجري بين هؤلاء الموظفين المحليين يبقى مجهولاً لدى جميع محرري المكتب ما عدا تاترو . وكانت اهتماماتهم ومخاوفهم تبقى غير معروفة لنا اللهم إلا إذا تحدثوا عنها بالإنجليزية .

وهكذا نشأ تضامن عجيب . فالموظفون الذين يتعلمون العربية مع عائلاتهم وأصدقائهم القدامى في بيروت كانوا يعتمدون على الآتين من الغرب من أجل معيشتهم ، ومع ذلك فإن هؤلاء الأخيرين كانوا يعتمدون كلياً على زملائهم اللبنانيين والفلسطينيين والإيرانيين من أجل معرفة الأحداث .كان

فاروق نصار وفارامارزي أو غطاس باستطاعتهم أن يفتحوا النافذة التي يستطيع الأمريكيون منها أن يروا لبنان أو أن يغلقوها إذا رأوا أن الأحداث خارجها ليست مهمة . وحتى إذا ظهرت أشكال في الخارج فانه كان ينقصها المعنى . وكان هذا التفاهم الذي يحكم علاقاتنا يوضح الكثير مما يجري في لبنان . فمكتب الأسوشيتد برس ـ بخلاف أمور كثيرة في لبنان ـ كان يعمل بسبب وجود مصالح وثقة وصداقة متبادلة . إذ كان على الصحفيين في ذلك المكتب أن يعتمد أحدهم على الآخر ولم تكن هناك طريقة أخرى . ولم يكن من قبيل الصدف أن يعمل المكتب بهذا الإنسجام البالغ .فقد كان المكتب الوحيد الذي دخلته في لبنان ووجدت كل طائفة دينية ممثلة فيه .

وفي منتصف النهار صار الإرسال ممكناً . وبدأ نصار يرسل تقريره الليلي بجهاز الكمبيوتر للارسال ، وهو جهاز قديم من طراز «تليتايب» ١٥ ، كان يجثم على الطاولة كالخطيئة . وفي عام ١٩٨٢ لم تكن وكالات الأنباء في الشرق الأوسط قد جهزت بشاشات كمبيوتر . ومرت سنتان قبل أن تحصل عليها . وعليه فإن أخبار حصار بيروت كانت سترسل على أجهزة لم تتغير كثيراً منذ الحرب العالمية الثانية . وكان جهازنا وحشاً حديدياً صنع على طراز نظام تليتايب كان يستخدمه الجيش الأميركي في كوريا . وكان بطيئاً . وفي الحالات التي كان ينقطع فيها التيار الكهربائي في منتصف الإرسال ، كان يتعين إعادة تسجيل الشريط من جديد وإرساله بأجمعه .

إن الإحباطات التي يشعر بها الصحفي لا تظهر أبداً لأولئك الذين ينظرون إلى هذه المهمة نظرة رومانتيكية . ففي فيلم «المراسل الأجنبي» لهتشكوك ـ الذي جعلني وأنا لا أزال طالباً أحب أن أكون مراسلاً ـ مثّل جويل ماكريا دور مراسل صحفي غلب ذكاؤه العملاء النازيين ، وفاز بأجمل فتاة في الفيلم ، وأرسل الخبر تلو الخبر لمكتبه الرئيسي في نيويورك ، وبقي سالماً بعد أن أطلقت بارجة حربية ألمانية النار على طائرته في الأطلسي . وكان عليه أن يرسل تقاريره بقراءتها على التلفون . ويا ليت الصحافة كانت بهذه البساطة ! ففي بيروت مثلاً كان مجرد الحصول على مكالمة خارجية يستغرق ست أو سبع ساعات . وكان التلكس كثيراً ما تختلط كلماته ويتعذر فهمه . وكان خط الكمبيوتر يعتمد على التيار الكهربائي في المدينة وعلى الخط البحري إلى الخارج وعلى مهارة فرنسوا في إصلاح مولّده[1] .

---

(١) كانت التايمز بخلاف منافساتها تطبع فقط في لندن وتنقل بالمطار إلى شمالإنجلترا وإلى اسكتلندا . وكان هذا يتطلب طبعة مسبقة . وعليه كان علي أن أكمل إرسال تقريري إلى لندن بعد الظهر ، وفي موعد لا يتجاوز الساعة الرابعة الأمر الذي كان يقضي بأن أبدأ بالإرسال حوالي الساعة الثانية والنصف . وعليه فإن إعداد التقارير عن القتال الذي كان يتطلب رحلات طويلة بالسيارة كان لا بد أن يتم صباحاً .

كنت أعلم أن بارنز ، محرر الشؤون الخارجية ، ينتظر مني تقريراً عن خلفية الغزو للصفحة الوسطى ، وخبراً مهماً للصفحة الأولى ، وتطورات أخرى للأعداد التالية . فكانت هذه الفروض الصارمة تحكم حياتي وعملي في لبنان . وفي ذلك اليوم الدرامي الأول من الغزو الإسرائيلي ، تأكد لي في الحال أنه لن تكون لي فرصة أغيب فيها عن مكتب الأسوشيتد برس . وبينما كنت عائداً من المطار رأيت أولى سيارات اللاجئين التي وصلت إلى الضاحية الجنوبية ، فأعادت إلى ذهني طوابير اللاجئين الهاربين من الإسرائيليين الذين رأيتهم في جنوب لبنان قبل أربع سنوات . وكانت مدافع منظمة التحرير المضادة للطائرات بجانب المدينة الرياضية المفسّخة . وظهرت القوات السورية في ذلك الصباح في الشوارع بلباس الميدان والخوذ الفولاذية . ونصبت مدافعها على صخور الروشة .

لو اشترك السوريون في هذه الحرب ، فإن هذا الغزو سوف يثير أزمة بين الإتحاد السوفييتي والولايات المتحدة . فعلى الرغم من أن موسكو كانت دائماً تنزعج من عادة الأسد في استشارة حلفائه السوفييت بعد لا قبل أعماله العسكرية ، فإن معاهدة الصداقة بين الإتحاد السوفييتي وسوريا كانت تعتبر غير قابلة للإنتهاك . وعليه فإن أي تهديد لسوريا كان لا بد أن يورط السوفييت . إذن فإلى أي مدى سيذهب الإسرائيليون؟ وبعثت رسالة بالكمبيوتر إلى بارنز في لندن أخبره فيها أنني عدت سالماً إلى بيروت الغربية وأنذره «بأن الإسرائيليين إذا توجهوا صوب البقاع فإنهم سيواجهون السوريين الأمر الذي قد يؤدي إلى توسع النزاع بشكل مفاجئ» . وأشرت عليه بالحصول على فيزا لمراسل مقيم في لندن ومستعد للسفر إلى دمشق .

إبتدأ جرس التلكس يدق . كان راديو إيرلندا يريد طرح أسئلة والإجابة عليها . وتلاه في الحال الراديو الكندي . وكان كلاهما يريد الإجابة على سؤال واحد : إلى أي مدى سيذهب الإسرائيليون؟ فطبعت الأسطر الأولى من تقريري لراديو كندا وقلت « . . . ان الجنود الإسرائيليين يتدفقون على لبنان في منتصف النهار بتوقيت بيروت فيما يبدو أنه غزو على أوسع مدى لجنوب البلاد . . . فإذا كان الغزو مدبراً ـ كما يبدو بالفعل ـ فإنه يكون قد أُعد قبل زمن طويل من محاولة اغتيال السفير الإسرائيلي في لندن التي يزعم الإسرائيليون أنها سبب المجزرة التي اقترفوها في لبنان خلال الأيام الثلاثة السابقة . على أن المسألة قابلة للجدل . ويبدو مما يجري اليوم في لبنان أن الإسرائيليين كانوا يخططون لهذه العملية العسكرية منذ مدة طويلة . . . والإسرائيليون ـ إذا صدّق المرء التقارير التي وردت من إسرائيل خلال الأيام القليلة الماضية ـ مصممون على إخراج المقاتلين الفلسطينيين من لبنان» .

جلست في مكتب نك تاترو الخلفي أطبع على الآلة الكاتبة كل ما تذكرته عن هذا البلد الجميل ، وعن ضعف الأمم المتحدة ، وعن حتمية الغزو الإسرائيلي ، وعن الدلائل والتعليقات الساخرة التي

سمعتها عن التخطيط للغزو . وأخذت أتساءل عما إذا كانت محاولة اغتيال أرغوف في لندن هي حقاً سبب هذه المذبحة . فقلت في تقريري : «كيف يمكن لإتفاق هدنة على نهر الليطاني أن يسري على الرصيف المحاذي لفندق دورتشستر (بلندن)؟» وقلت إن جماعة أبو نضال هم الذين حاولوا قتل آرغوف ، وهو ما تبيّن فيما بعد من محاكمة المسلحين الفلسطينيين . ثم تذكرت إيمان الفلسطينيين واللبنانيين بالقضاء والقدر فقلت في تقريري : «لقد كان في هذا الشيء الفظيع الذي حدث بعض الفرج . فمنذ زمن ولبنان يعيش في ظل التهديد بالغزو ، وضاقوا بذلك إلى حد أنهم أرادوا أن يواجهوه بالفعل» .

وفي الشوارع انتشر المسلحون من فتح والإشتراكيين والمرابطين والمقاتلين الدروز . وتركت مكتبي لبرهة قصيرة لأتحدث مع صديق قديم من ألمع المشتغلين بتاريخ لبنان الحديث وهو كمال صليبي . فتنبأ وهو جالس على شرفة منزله العثماني بأن الإسرائيليين سيكونون أكثر اهتماماً بتدمير منظمة التحرير من مجرد تحقيق أهداف محدودة . وقال : «إن باستطاعتهم القدوم هنا إلى بيروت ، ولم لا؟» . كان صليبي يرى أنه لا يبدو أن الإدارة الأميركية ستكبح جماحهم . فألكسندر هيج أعطى «الضوء الأخضر» للإسرائيليين . وقال : «ألم نفهم زيارة مناحيم بيغن الأخيرة إلى واشنطن؟» وصليبي باحث في التاريخ العبري القديم . وكان ناعم الصوت وفي غاية الأناقة . وكان مما يقلق فعلاً أن نرى شاباً مهذباً مثله يتكلم بهذه الدرجة من التشاؤم .قال بهدوء : «يمكن لهذا الوضع أن يكون سيئاً لنا جميعاً . أخشى أن يحدث الأسوأ» .

إتصلت من الأسوشيتد برس بأحد الفلسطينيين وهو ضابط في الجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين كان في صبرا . وكنت أسمع صوت إطلاق المدافع المضادة للطائرات على الطرف الآخر من الخط . قال أنه لا يستطيع أن يتنبأ بشيء إلاّ بالفوضى فقط . وكان هذا هو تعليقه الوحيد . وابتدأت أكتب من جديد عن هذا الصراع الذي لا فائدة فيه للأميركيين . قلت : «إن مصداقيتهم في الشرق الأوسط ستتأثر تأثراً بالغاً من جراء هذا الغزو الجديد فقد كانوا يعتقدون أنهم يستطيعون أن يمارسوا ضغطاً متزايداً على إسرائيل إذا دعموا ارتباطهم العسكري باتفاقية استراتيجية ، وإذا زادوا من التزامهم العسكري أيضاً . ومع ذلك فإن الطائرات المقاتلة ف ـ ١٦ هي التي كانت تقصف جنوب لبنان . . . وإن الطريق مفتوح لمزيد من التزام السوفييت نحو الرئيس الأسد في سوريا . وسوف يعززون وجودهم كلما تقدم الإسرائيليون بلبنان» .

ولم يحل المساء حتى كان الإسرائيليون قد عزلوا صور . وأمطرت طائراتهم السكان المدنيين بمنشورات تنذرهم بأن الجيش الغازي سوف ينسف بيوتهم إذا ما آووا «إرهابيي» منظمة التحرير

وتأمرهم برفع الأعلام البيضاء على نوافذهم وشرفاتهم . ولقد ذكرت تقارير الأمم المتحدة أن الدبابات الإسرائيلية كانت تطلق نيرانها على البيوت التي تعتقد أن رجال المنظمة قد اختبأوا فيها . وتدفق المئات من اللاجئين الخائفين إلى مراكز الأمم المتحدة داخل معسكرات حسن برو التابعة للجيش اللبناني طلباً للأمان . ولكن الثكنة نفسها تعرضت لإطلاق النار حينما تبادل الإسرائيليون والفلسطينيون النار في المدينة . وبدا أن الأهداف الإسرائيلية تشمل الإستيلاء على شريط يمتد من صور إلى جسر الليطاني ـ وهي المنطقة التي فشلوا في الاستيلاء عليها عام ١٩٧٨ ـ ثم احتلال قلعة الشقيف والنبطية وجزء من جنوب وادي العرقوب . وكانت هذه هي الأهداف التي أوردتها في تقريري الذي بعثت به ذلك المساء إلى لندن . ومن المؤكد أن هذا هو ما فهمه غالبية العاملين في الدبابات الإسرائيلية . ولكنهم بعد أيام قالوا بأنهم دهشوا عندما تلقوا الأوامر بالتقدم . وكانت الإصابة الإسرائيلية الوحيدة المعروفة ذلك النهار هي سقوط طيّار أصيبت طائرته السكايهوك بصاروخ كتف بينما كان يقصف المنطقة المحيطة بالنبطية ، فقذف بنفسه من طائرته . وقيل إن منظمة التحرير الفلسطينية أسرته .

كان قد حل الظلام حينما تلقت فارامارزي اتصالاً هاتفياً من منظمة التحرير وصاحت : «يقولون أنهم سيحضرون الطيار» . فتوجهنا بسيارتنا إلى صبرا .وكانت أضواء الشوارع قد خبت وسُمع إطلاق نار قرب الفاكهاني . وأوقفنا المسلّحون عدة مرات على الطريق طالبين التأكد من هوياتنا . وأحضر الفلسطينيون أسيرهم إلى الطابق الأرضي من إحدى المستشفيات . واقتيد الكابتن أهياز آهارون وعليه رداء من أردية الأطباء إلى غرفة جيدة الإنارة . كانت الغرفة مكتظة وحارة . إذ أحاط بآهارون على الأقل عشرون شخصاً من منظمة التحرير وبأيديهم أسلحتهم الأوتوماتيكية . وكان آهارون يتصبب عرقاً ، ويشبك يديه أمامه وينظر أحياناً إلى الكاميرا وعلى شفتيه ابتسامة بلهاء . وقال رجال المنظمة أنه سيدلي ببيان . وتكلم آهارون ببطء بالإنجليزية . وكان من الواضح أنه يزن كل كلمة يتفوّه بها . قال : لقد جئت لأقصف أهدافاً مدفعية وقلعة الشقيف ، ولكنني لم أجد أهدافي وأصيبت طائرتي . وعندما هبطت من الطائرة بالباراشوت في إحدى القرى واجهت صعوبات بسبب غضب المزارعين . ثم قدم رجال منظمة التحرير وانتهت المصاعب .

حاول المزارعون الذين ظلّوا ثلاثة أيام يتعرضون للقصف الإسرائيلي أن يشنقوا آهارون . وكان يضرب على قفاه عندما أنقذه رجال منظمة التحرير . ولم ترد المنظمة الاستمرار في الوصف ، فصاح أحد المسؤولين الفلسطينيين : «لا مزيد من الأسئلة» . وحاولنا الاستمرار في التحدث مع آهارون أثناء وقوفه وعليه الرداء الطبي الأبيض الذي بدا في غير موضعه . فقال بينما أخذ المصورون والمسلحون

يدفع أحدهم الآخر : «لقد عوملت جيداً وأكثر من أي وقت» . وهنا صاح أحد رجال المنظمة على آهارون وأمره بالتوقف عن الكلام . ولكن ، وبينما كنا نبتعد عنه ابتسم ابتسامة عريضة وصاح :«انني من هرتسليا . تحياتي إلى أسرتي وزوجتي وابنتي وشقيقتي . آمل أن أراهم مرة أخرى» . وعندما أخذ يخرج من الباب الخلفي أراد أن يكمل جملته فقال : «قريباً » .

وفي تلك الليلة ، ابتدأ الإسرائيليون يطلقون النار على السوريين ؛ وأعلن راديو دمشق أن الجنود السوريين «يواجهون الآن» جيش الغزاة ، في مكان ما جنوب صيدا . وكانت خطوط الهاتف من بيروت إلى صور قد تعطلت بعد ظهر ذلك اليوم ، ولكن مندوبي الأسوشيتد برس كانوا لا يزالون يوالون اتصالاتهم من صيدا . وقال منتش أنه سمع بأن الإسرائيليين فتحوا نيران مدافعهم على المراكز السورية في الشوف الأدنى إلى الشمال تماماً من نهر البيسرية ، وأن السوريين شوهدوا وهم يخلون مراكزهم في الليل في الوقت الذي كانت مراكزهم الأمامية تتفجر وراءهم .

وقبل فجر اليوم التالي اتجهت إلى البقاع بصحبة كارستن تفايت الذي كان يعمل لراديو النرويج . وكان رجلاً ضخماً شعره بلون القش ، وعيناه زرقاوان فاتحتان ، وكانت شهيته خطرة مفتوحة على رؤية كل شيء في لبنان عند حدوثه . وكان كودي هو الذي علمني منذ ست سنوات بأن على الصحفي أن يذهب إلى أرض المعركة إذا أراد أن يبعث تقريراً عنها . ذلك أن استقاء الأنباء من روايات الآخرين لم يكن بالطريقة التي يُكتب بها عن أحداث لبنان . لكن تفايت كان يذهب إلى أبعد الحدود في تطبيق نصيحة كودي . وبالمناسبة كان أكثر الناس الذين عرفتهم يهربون عندما يتعرضون لإطلاق النار . ولكن تفايت كان لا يقف في الطريق إلا عندما تتعرض للنيران . وعليه فإن المرء كان يشك في حكمته لا في شجاعته . وكنت أعجب دائماً من بقائه حياً بلبنان . فكان يعود من كل مهمة سالماً . وأمثاله هم الذين كنت أحب السفر معهم .

كان لا يزال الطريق العام عبر الجبل إلى دمشق سالكاً . وكان الطريق ينساب عبر المدينة الدرزية عاليه وعبر بحمدون وهي المصيف الذي وقفت فيه في الجانب الذي وقف فيه الفلسطينيون في مواجهة السوريين قبل ذلك بستة أعوام . كانت حركة المرور السورية العسكرية قوية على الطريق والسلاسل الجبلية تطل على المرء بحجارتها الرمادية وعشبها الأخضر ، والجو يعبق برائحة أشجار الصنوبر التي تحف بالطريق . وكان بإمكاننا ونحن في السيارة التي أغلقنا نوافذها أن نسمع صوت الطائرات النفاثة في أعالي الجو . ولم نبدأ بالشعور بالخطر إلا عندما اجتزنا الزلاقات المحطمة على ظهر البيدر . وكان هذا الشعور لا يداخلنا إلا عندما كنا ندخل مناطق القتال . ورأينا بضع شاحنات ملأى بالجنود السوريين وهي تنحدر متجهة نحو شتورة .

وعندما اتجهنا من الطريق العام جنوباً نحو العرقوب وباتجاه الإسرائيليين الآخذين بالتقدم ، رأينا سكان البقاع الغربي يقفون خارج حوانيتهم وبيوتهم وهم يحملقون في السماء وأيديهم تحمي عيونهم من الشمس . وكان سكان قرى بأكملها يقفون على النحو ذاته ينظرون إلى السماء وأيديهم على رؤوسهم وكأنهم يوجهون تحية طويلة للسماء . وحينما وصلنا إلى القرية الدرزية راشيا لاحظنا أن صوت الطائرات قد أخذ يتعالى وأن همسها قد تحوّل إلى هدير تتخلله أصوات متفجرة من بعيد . وراشيا قرية قديمة ترتدي نساؤها الأثواب الطويلة الملونة ، ويرتدي رجالها السراويل الواسعة . وكان سكانها يهمون بمغادرتها لأنهم كانوا يعتقدون بأن الإسرائيليين قادمون . وكان في شوارعها المثلّمة مسلحون يشتعلون بالحماس الذي يملأ قلوب الشبان عندما يشعرون بالخوف . على أن هؤلاء وهم من الحزب التقدمي الاشتراكي كانوا يمسكون ببنادقهم وعلى أتم الاستعداد لإطلاقها . ولكن حركاتهم وأصواتهم ـ وحتى الطريقة التي حملقوا بها فينا ـ كانت توحي بعدم الارتياح . وقال لنا شاب يرتدي بذلة خاكية : «إن كل شيء هادىء هنا . ولا توجد مشاكل» . ثم أشار إلى حيث يضيق العرقوب وراء حاصبيا وقال : «إن القرية التالية تسيطر عليها فتح . وسيأتي بعد ذلك الإسرائيليون . وأراد بذلك أن يقول أنه لا يوجد غير قلة من الفلسطينيين بين راشيا وحاصبيا حيث كانت الدبابات تتقدم إلى الشمال لتقضي عليهم . ولم يقل ما كان يفكر به الجميع وهو أن راشيا ستتعرض لغارات الطائرات التي تعرضت لها النبطية وغيرها من مدن الجنوب اللبناني .

وكانت الساعة بعد الحادية عشرة بقليل عندما أطلق السوريون من أرض الوادي تحتنا طلقتهم الأولى على الإسرائيليين . وسُمع دويها عندما أطلقت وصفيرها وهي تئز فوق تلال العرقوب باتجاه المدرعات الإسرائيلية المحيطة بكوكبا . وأطلقها مدفع روسي ضخم قديم من عيار ١٣٠م م . وكان مثبتاً في الأرض الصلبة الحمراء تحت الطريق الصغيرة الصاعدة إلى راشيا . وبعد دقيقة أطلقت قذيفة أخرى من مدفع فوق الأول . ودوّى صوتها كالأولى ورددته التلال الجميلة التي يطل عليها جبل الشيخ .

عند ذلك فقط استولى الفزع على أهل القرية واستقلواسياراتهم أو طلبوا من أصحاب السيارات نقلهم من ذلك الوادي المتعرّج . وأوصلنا أنا وتفايت زوجين عجوزين إلى بيت ابنهما على طريق مجاور . ومن هناك رأينا التحركات في الحقول . وكان السوريون يخرجون من مخابئهم وخنادقهم إلى الشوارع الفرعية الصغيرة والخنادق الكبيرة . وشاهدت بعضهم ينظرون بمناظيرهم باتجاه الجنوب وآخرين يحملقون في السماء .

كان الجو حاراً . وكان يخيم ذلك الإحساس الدافىء الذي ينذر بصيف قاس أكثر مما ينذر بالحرب . ولعل السوريين كانوا يشعرون بذلك أيضاً لأن عملياتهم الحربية كانت تسير ببطء . وكانوا

يطلقون طلقة كل دقيقة من مدافع ميدان وضعت حديثاً في حُفرها . ولم يأبه أحد بتغطيتها فظلت ماسورة المدفع وطولها ٢٢ قدماً تلمع تحت الشمس . وكان مئات الجنود السوريين يحفرون المخابئ في الحقول وقرب الكروم وعلى جنبات التلال الصغيرة وينزلون الذخيرة بشكل روتيني وكأنهم في مناورة لا حرب . فكان الصراع الذي شهدناه في البقاع الغربي منضبطاً ومهذباً تقريباً .

أما في القرى الدرزية الصغيرة الأخرى التي كانت تصطبغ سطوحها بلون أحمر تحت شمس الظهيرة فقد بدا على أهلها القلق الذي خيّم على راشيا . وجمع بعض الأهالي أمتعتهم واستقلوا الحافلات القديمة وبدأوا رحلتهم إلى الشمال . وكان بين النساء عدد من الشيعيات اللواتي كن يلبسن مناديل بيضاء على رؤوسهن ومعهن أطفالهن .

وكانت تمر بهم سيارات مسافرين آخرين أتعس حالاً ، وناقلات جند سورية ، ومقاتلون فلسطينيون غطوا جوانب سياراتهم وسقوفها بالوحل لئلا تعكس نور الشمس وتكشف الطائرات الإسرائيلية حركاتهم . ورأينا قاذفات كاتيوشا على الطريق المتفرعة من شتورا وشاحنات محملة بالقذائف في الحقول . وشاهدنا أثناء عودتنا السوريين يقودون ناقلات تحمل مدافع مضادة للطائرات . وكانت الطلقات تدوي واحدة إثر أخرى كل دقيقة بينما كان اللوجستيون السوريون يعلقون الأسلاك ويمدون الكابلات لإقامة خطوط اتصال بين كتائب الجيش التي كانت تحفر قرب القرى العديدة مثل السلطان يعقوب ومحيدثة ورفيد وخربة روحا ، وقرى أخرى صغيرة تظهر على الخرائط الملأى بالأسماء والإشارات . وكنا ننكب عليها يومياً ندرسها بقلق يتزايد باستمرار .

لم تكن هناك حاجة لخريطة عندما ابتدأنا نهبط السفوح الغربية لجبل لبنان . وشاهدنا عموداً كبيراً من الدخان الأسود يتصاعد من المخيمات الفلسطينية وينتشر باتجاه الشمال في المدينة . وكان الإسرائيليون قد أغاروا على الفاكهاني . وكانت طائراتهم لا تزال تحوم حولها . وكنا نستطيع أن نراها بسهولة ، كالسمك الفضي البالغ الصغر وهي تتنقل ببطء وبصبر كبير فوق المدينة وتحوم بلطف حول عمود الدخان .

وأدار تفايت جهاز الراديو على محطة الكتائب «صوت لبنان» التي أعلنت سقوط قلعة الشقيف بيد الكوماندوس الإسرائيلي . وأعلنت نزول الجنود الإسرائيليين «شمال صيدا» . ولم يستطع تفايت أن يصدق ذلك وصاح : «شمال صيدا . . . إنهم قادمون إلى بيروت» . فأوقفنا سيارتنا جنوب الكحالة على أوتوستراد الجبل وأخذنا نرقب الغارة على الفاكهاني . وخرجت إحدى الطائرات من دورانها بشكل متراخ ، ثم ابتدأت بالإنقضاض وهي تزيد من سرعتها . ثم اخترقت الدخان وانبثق عمود جديد من الدخان قاتم اللون . وبعد أربع ثوان وصلنا الصوت ، وأحسسنا بارتجاج السيارة . إذا كان

الإسرائيليون قد وصلوا إلى شمالي صيدا فإنهم إذن ينوون الاستيلاء على المدينة وعلى مخيم عين الحلوة وسيهاجمون الدامور . لقد كان من الواضح في راشيا وانعدام المقاومة أن الطرق التي تخترق الشوف وتمر بقصر جنبلاط في المختارة ستكون مشرعة لهم ، وأنهم سوف يبدأون ما لم نكن نصدقه وهو حصار بيروت .

وكان مكتب الأسوشيتد برس كخلية نحل وسمير غطاس يضغط بالهاتف على أذنه ويصيح على نصار : «الإسرائيليون يقتربون من الدامور» . وترك نصار الآلة الكاتبة وقال :«مستحيل ! لا يمكن أن يكونوا قد وصلوا الدامور» . وحينما شاهدني نصار أنا وتفايت حرّك يده كمن يطلب الإيضاح وقال «قل لي بسرعة ـ بسرعة ـ ماذا شاهدتما؟» قلنا : «إن السوريين يطلقون النار على الإسرائيليين في البقاع» . فقال : «حبيبي ، هل أنت متأكد؟» قلت : «فاروق ، لقد شاهدناهم . لقد كنا هناك . ماذا جرى في الفاكهاني؟» . وظهرت إيرلين وقالت «إنكم تضيعون وقتنا مرة ثانية يا فيسك ! كنتم تتنزهون في البقاع ونحن نقوم بتغطية غارة . إقرأ هذه البرقية الملعونة» . وعندئذ دق جرس التلكس وسجل الرسالة التالية : «نرجو نقل هذه الكلمة بأقرب وقت إلى روبرت فيسك مراسل التايمز بواسطة الأسوشيتد برس في بيروت : إن الإذاعة البريطانية للشؤون العالمية تريد حواراً حول الحدث التاريخي في قلعة الشقيف والهجوم العسكري الاستراتيجي عليها وذلك لإذاعته اليوم . هل هناك أمل في اتصالك بنا اليوم؟» لقد كانت خطوط الهاتف صامتة منذ عدة ساعات . ولكن لم يكن قد مضى وقت طويل قبل أن يصبح احتلال قلعة الشقيف حدثاً تاريخياً . وسألنا فرنسوا غطاس الرجل الكبير المحب ، الذي كنا نعتمد عليه : «هل هناك خط يعمل بالأسوشيتد برس؟» فأجاب وسيجارته في زاوية فمه ورمادها يتساقط : «أنا يدكم اليمنى» . وكان معنى ذلك أن الخطوط صالحة . وأرسلت كلمة إلى التايمز ، أقول فيها لبارنز بأن السوريين قد أصبحوا الآن مشتركين في القتال ، وختمت الرسالة بقولي : «هنالك إشاعة عن تقدم الإسرائيليين نحو الدامور جنوبي بيروت وأن السفن الإسرائيلية يمكن رؤيتها على شاطئ بيروت ، وأن الطائرات الإسرائيلية تملأ الأجواء ولكنها لا تقصف في هذه اللحظة بالذات ، وأن هنالك أصوات مدافع مضادة للطائرات فقط» .

لم تكن المدافع سورية بل فلسطينية ذات فوهات أربع من الحرب العالمية الثانية ومن صنع روسي . ولم يكن باستطاعتها أن تصيب طائرات السوبرسونيك التي تحلّق على علو شاهق . وكانت المنظمة تدعي أن باستطاعتها تدمير الطائرات الإسرائيلية بأسلحتها الأثرية هذه ، في حين أن أقصى ما كانت تستطيع تحقيقه هو توزيع الشظايا في الشوارع . وإذا كانت هناك فائدة منها فهي رفع الروح المعنوية عند الفلسطينيين وجعلهم يشعرون بأنهم يردّون على هذه الطائرات . أما اللبنانيون الذين كانوا يقطنون في بيروت الغربية فلم يكونوا يشعرون بالارتياح لهذه المدافع .

كانت أصوات طلقاتها تهز الجدران ونوافذ مكتب الأسوشيتد برس . ونقل جماعة من رجال المنظمة مدفعاً مضاداً إلى أحد طرفي شارع نعمة يافث وابتدأوا يطلقون سيلاً لا ينقطع من القذائف في الهواء . وعلّق نصار بقوله : «سوف تذوب مواسيرها» وكانت هناك أربعة طوابق فوق مكتب الأسوشيتد برس فأخذنا نراقب انفجار هذه القذائف العشوائية في كبد السماء الشاحبة . وكانت أقرب طائرة إلى هذه القذائف تبعد ميلاً على الأقل . لكن الشظايا كانت تتناثر حولنا وتتساقط على جوانب البيوت وجوانب فندق الكومودور الذي يقوم على الطرف الآخر من الشارع .

وعند الرابعة والنصف بعد الظهر ، ظهر سرب من الطائرات النفاثة التي كنا نشاهدها تتلوّى فوق سماء بيروت الغربية ، ثم انقض بأقصى سرعته فوق المدينة محدثاً أصواتاً هادرة أثناء انطلاقه فوق أسطح المنازل ، ونثر بالونات فوسفورية لحمايتها من الصواريخ التي تجذبها الحرارة . وارتفع من الفاكهاني عمود من الدخان كان أكبر وأضخم من ذلك الذي شاهدناه من فوق التلال أثناء رجوعنا من البقاع . ومن جوف الدخان لمع لون زهري رجراج ، تبعته خمسة انفجارات هائلة كانت قوتها كافية لأن تهز المباني والشوارع هزاً عنيفاً على بعد ثلاثة أميال . وللحظة فريدة واحدة ،امتلأت السماء بخطوط خضراء نارية لامعة أحدثها انفجار الطلقات التي كانت تطلق عبثاً على الطائرات المنسحبة . ودمر الإسرائيليون بغاراتهم هذه أبنية شقق بكاملها . وكانت قنابلهم تتفجرّ في أعماق البنايات المحيطة بالفاكهاني وتحيل آلاف الأطنان من أرضيّات المنازل وشرفاتها وممرّاتها إلى أنقاض تسقط على رؤوس السكان .

وبحلول الليل ، كانت القوات الإسرائيلية قد أصبحت خارج صيدا حيث سيطرت على معظم الأراضي جنوب الزهراني . وكان هذا يعني ومع التقدير المتواضع أن ما يقارب ال ٤٠٠ ميل مربع من لبنان ـ وهو عشر مساحة البلد بأجمعه ـ قد أصبحت الآن بأيدي الإسرائيليين . وبعث مكتب جوكسل تقريراً يقول فيه أن جنود الأمم المتحدة يشاهدون إمدادات تشمل مئات الدبابات الإسرائيلية تعبر الحدود إلى لبنان . وعندما حل الظلام كانت إسرائيل قد أدخلت إلى لبنان حسب تقدير الأمم المتحدة ٤٥،٠٠٠ جندي .

إن القول بأن حرب إسرائيل ضد الفلسطينيين كانت آخذة بالتحول إلى صراع خطر بالغ الوحشية يقلل من أهمية الواقع السياسي لمغامرتها في لبنان . فقد أدت هذه الحرب إلى تزايد الشعور المعادي للأمير كيين في معظم دول الشرق الأوسط المعتدلة . وتزايد كذلك شعور بالغضب عبّر عن نفسه في الأحداث التي جرت بعد ظهر ذلك اليوم نفسه في بيروت حينما حاصر المتظاهرون السفارة الأمريكية في الكورنيش وقذفوها بعد ذلك بالصواريخ . وحتى الرئيس المصري حسني مبارك الذي كان لديه

كل الأسباب لإقامة علاقات طيبة مع واشنطن وخاصة بعد الجلاء الإسرائيلي عن سيناء ، وصف الغزو بأنه «مثير للغضب» . وأدانت صحافة دمشق الحكومية ألكسندر هيج مؤكدة أنه كان لديه علم مسبق بخطة بيغن للغزو وتواطأ عليها على أمل أن تحصل واشنطن على مكاسب استراتيجية نتيجة لتصفية منظمة التحرير الفلسطينية .

ومع ذلك فقد كان يبدو أنه لا يمكن إجراء ضغوط على الإسرائيليين . وكانت صيدا تلك الليلة تتعرض لقصف مدفعي عنيف ولغارات قاسية . وكان آلاف اللاجئين قد فرّوا من جنوب لبنان إلى صيدا في الرابع والخامس من حزيران مفترضين أنها ستكون ملجأ آمناً لأنها تبعد خمسة وعشرين ميلاً عن أرض المعركة . وكان خطأهم مأساوياً . ففي تلك الليلة قصف الطيران بناء في وسط المدينة . أما في صور فقد لجأ أكثر من ألف لاجئ إلى مركز الصليب الأحمر في الفندق الساحلي ذاته الذي غطيّنا منه الغزو الإسرائيلي الأول منذ أربعة أعوام .

وعلى الرغم من أن الإسرائيليين كانوا لا يزالون على بعد ١٢ ميلاً من العاصمة ، فإن بيروت شعرت بأنها قد أصبحت محاصرة . فألغيت جميع رحلات الميدل ايست إلى المدينة . وكانت آخر طائرات القاهرة ـ بيروت التي كنت على متنها قد هبطت في بيروت وغادرتها بلا ركاب إلى لارنكا بقبرص . وبعدها بقليل سمح أحد مسؤولي الميدل ايست لطائرة قادمة من باريس أن تهبط في بيروت . على أنها لم تغادر المطار . فخلال الكشف عليها بعد أيام وبينما كان الباب الذي نزل منه الركاب مفتوحاً قصفتها طائرة إسرائيلية بقنبلة أشعلت النيران في أحد خزاناتها وفجرتها . وصار المسافرون إلى لبنان يهبطون في دمشق ويستقلون السيارات من هناك إلى بيروت عبر البقاع ، أو يسافرون على متن طائرة إلى قبرص ومن هناك إلى الميناء المسيحي جونية بطريق البحر . واختفت فجأة من بيروت الخضروات والفواكه التي كانت ترد من جنوب البلاد . وتعذر الحصول على المحروقات إلاّ بالرشوة . وبدأت الإتصالات الدولية تتعطل . ولم يعد على من يريد أن يحطم اقتصاد بيروت[٢] إلا أن يهز بنيته الهزيلة .

(٢) إن الرسالة التي بعثت بها على خط الكمبيوتر في الساعة ٤٥ : ٦ صباحاً إلى التايمز تعكس فحوى المشكلات التي كانت تواجه الصحفيين وقلت فيها : «أرجو أن تعلموا أن الاتصالات أخذت تنهار . فخطوط التلفون اختفت تقريباً ، وأخذ خط الأسوشيتد برس يتعثر . أرجو أن تطلبوني بالتلفون ابتداء من الساعة الثانية بعد الظهر بتوقيتكم . واذا تعذر عليكم الاتصال بي بالتلفون أرجو أن تطلبوا من مركز الاتصالات بالتايمز أن يتصل بي بالتلكس رقم ٢٠٦٣٦ ـ لبنان . وتنقطع الكهرباء هنا اثنتي عشرة ساعة في اليوم والمولدات معطلة . ولا زلت أعمل من خلال الأسوشيتد برس . . . وأحاول أن أضمن عدم اقتحام اللاجئين لشقتي على البحر خلال غيابي . والشقة بلا كهرباء لكن التلفون غير معطل» .

وفي ذلك الصباح ، كان جنود الدبابات المتقدمة قد وصلوا إلى السعديات جنوبي الدامور على الطريق الساحلية بين بيروت وصيدا . لماذا يا ترى؟ إذا عدنا إلى الوراء يتضح أنني أنا وتفايت قد استوعبنا الاستراتيجية العسكرية الإسرائيلية حينما كنا نراقب في اليوم السابق الغارات الإسرائيلية على الفاكهاني من التلال المشرفة على بيروت ، ولكننا لم ندرك الدوافع السياسية التي كانت وراء هذه العملية . فحتى لو اختار الإسرائيليون أن يحاصروا بيروت فهل يحاولون عندئذ أن يشقوا طريقهم إلى غرب المدينة؟ وهل كانوا يريدون حقاً ان يدمرّوا منظمة التحرير في لبنان وبالتالي أن يقتلوا أو يأسروا آلاف المقاتلين الفلسطينيين الذين كانوا يتراجعون الآن إلى المدينة؟ أم أنهم كانوا يريدون وضع اللمسات الأخيرة على تحالفهم مع الكتائب لا أكثر . وإذا كان الأمر كذلك فما هو الهدف؟ هل كان الإسرائيليون والأميركيون يعتقدون أنه يمكن للكتائبيين أن يحكموا لبنان كما يريدون؟ وهل سيكون بشير الجميّل رجلهم الذي سيرأس دولة جديدة موالية للغرب على ساحل البحر الأبيض المتوسط؟

كانت الطريق الواقعة جنوب بيروت قد أصبحت كابوساً . فقد كان المسلحون الخائفون يسوقون سياراتهم بالاتجاهين عند مثلث خلدة في جنوب المطار ، حيث كانت بقايا المدنيين الذين قتلوا بفعل الغارات الإسرائيلية في ٥ حزيران/ يونيو لا تزال ملتصقة بسيارتهم المحروقة . وكانت تنبعث سحب من الدخان الأبيض على منحدرات عرمون حيث كانت تتساقط قذائف الإسرائيليين . ومررنا في طريقنا بمحمد سلام الذي كان يعمل مع وكالة الأنباء الكويتية . وتحدث الينا من نافذة سيارته أثناء قيادته لها ـ وهي عادة لبنانية شائعة ـ وقال لنا أنه يحاول مثلنا الوصول إلى السعديات . لقد أردنا أن نشاهد الإسرائيليين وأن نراقبهم . وكنا نريد بطريقة أو بأخرى أن نتحادث معهم وأن نسألهم لماذا هم هنا .

وعندما وصلنا إلى خلدة اتجهنا إلى اليسار نحو تلال الشوف . ورأيت عناصر وحدة سورية مدرعة منتشرين في الحقول والبساتين على كلا جانبي الطريق ، ومعهم عدد من دبابات ت ـ ٥٤ المرابطة تحت الأشجار شمال الطريق العام ، وحولهم سواتر من أكياس الرمل . كما شاهدت على الطريق شاحنة عتيقة للإتصالات التلفونية لها مدخنة رفيعة طويلة . ومررنا بهذه الأشياء بأقصى سرعة لعلمنا بأن للطيران الإسرائيلي ولعاً بمثل هذه الأهداف .

وأدركنا أن الطريق العام الساحلي كان يتعرض للقصف ، وأن الدامور تتعرض أيضاً للغارات الجوية . ورأينا أننا إذا درنا حول شرق الدامور فقد نجد الإسرائيليين في السعديات . فعبرنا بسيارتنا شوارع ضيقة تكتنفها الشجيرات وتعلوها جدران تطل منها أزهار عسلية . ووجدنا أن سكان القرى الدرزية الصغيرة لم يفرّوا منها ، وأن المسلحين المحليين طلبوا منهم أن لا يغادروا بيوتهم . وقيل عندئذ أن الإسرائيليين لن يتعرضوا لقراهم . وأشاع الجنود الدروز في الجيش الإسرائيلي أن الدروز

اللبنانيين لا ينوون محاربة جيش الغزو . وحينما وصلنا إلى بَعْوَرتا ، وجدنا السكان أمام بيوتهم يشربون القهوة ويدخنون وهم يستمعون تحت ظلال عرائشهم إلى أصوات الحرب المقتربة .

وآوتنا أسر البلدة في بيوتها الصغيرة بينما كانت المعركة تمتد باستمرار نحوهم . وفي الخامسة والنصف من صباح ذلك اليوم قصف الإسرائيليون وادياً يقع إلى الشمال منهم تماماً ، وأصابت الشظايا الحمراء الساخنة البيوت ، ولكنهم لم يهاجموا القرية . وعزا السكان ذلك إلى عدم وجود قواعد فلسطينية في الجوار . وارتجت بعورتا من جراء الانفجارات ، ولكنها لم تُصب بأي أذى . وفي الدامور الواقعة إلى الغرب وراء تلة مخروطية الشكل كان مدفع مضاد للطائرات يطلق نيرانه ويغمر سماء البحر المتوسط الداكنة الزرقة بنفثات الدخان الأبيض . وجاء ضابط من ميليشيا جنبلاط عليه ثياب لا تناسبه ، وفي رجليه حذاء كاوبوي ، وفي وسطه حزام أبيض ووقف معنا على سطح أحد الأكواخ وهو يراقب التلة المخروطية بمنظاره ليتأكد من أن الفلسطينيين لا يحاولون دخول بعَوْرَتا . ولم ينقص القرويين التعاطف مع القضية الفلسطينية ، ولكنهم كانوا مصممين على حماية حياد تلّتهم العزيزة عليهم .

وعندما نظرنا إلى البحر ، لم يصعب علينا أن نعرف السبب . ففي البحر وعلى بعد أقل من ميلين كانت سفينتان حربيتان تقصفان الطريق الساحلية جنوب الدامور . وكانت قذائفها تقع على الطريق ذات الإتجاهين وتحدث دوياً ضخماً عند وقوعها وتثير الغبار الأبيض . وإلى الجنوب من ذلك كانت تقع السعديات حيث كانت دبابات السنتوريون الإسرائيلية الضخمة قد جثمت إلى جانب الطريق .

وقفنا بدون أي نشاط على السطح نحو ساعة تقريباً مع رجل الميليشيا وجدّ الأسرة العجوز . وعند منتصف النهار تماماً تسلقت درجات الإسمنت إلى السقف ، فتاة صغيرة شعرها طويل وترتدي ملابس زرقاء فاقعة وتحمل صينية عليها فناجين قهوة مزخرفة وغلاية قهوة ، وعلى شفتيها ابتسامة عريضة . إذ أراد والداها أن يعبـّرا عن كرمهم للأجانب الذين حلّوا عليهم بشكل مفاجئ . ولم نكد نمسك بالفناجين لملئها حتى سمعنا صوت طائرة نفاثة كانت آخذة في الانقضاض .

وظهرت أول طائرة إسرائيلية في السماء بسرعة كبيرة إلى حد أننا لم نكد نسمع ضجيج محركها حتى مرت فوق رؤوسنا باتجاه التلال وهي تشعل النار خلفها وتسقط تسعة أو عشرة أشياء صغيرة داكنة فوق الوادي الصغير جنوباً . وعندما أخذت في الصعود وهي تتلوى تحت أشعة الشمس ، كانت الأرض تبدو وكأنها ترتفع قرب الوادي ، ثم انبعثت ثمانية أعمدة كثيفة من الدخان الأسود الكثيف إلى الأعلى . وارتجت الجدران والأرض ـ وحتى الهواء ذاته ـ في البناء الصغير الذي كنا نقف على سطحه بفعل موجات الانفجارات التي تلاحقت . وقبل أن تتوارى الطائرة كانت الأخرى في طريقها .

وأطلت الطائرة من الشرق هذه المرة وانثنت بسرعة فوق نهر الدامور الجاف وألقت بقنابلها على طرف الوادي المواجه للبحر . وما كان باستطاعة أي قوة غير القوة الإلهية أن تنقذ أحداً من الفلسطينيين المتوارين تحت الأشجار من ذينك الهجومين . وفجأة رأينا الطائرة الثالثة فوق رؤوسنا . ويبدو أن الطيار خشي أن يطلق أحدهم صاروخ أرض ـ جو عليه ، فانقض بطائرته التي أخذت تتلوى بسرعة جعلتنا نحبس أنفاسنا . ولم يلبث أن ألقى من طائرته بالونات فوسفورية أخذت تشعل اللهب وراءه ، وتكوّن عموداً أخضر من الضوء والنار . وتمكنت بالمنظار من إلقاء نظرة على طائرة ال ف ـ ١٦ بجناحيها المموّهين ولمعان قمرتها تحت أشعة الشمس . ثم تتالت الانفجارات في الوادي وأرسلت أعمدة من الدخان بدت كيدٍ ميتة ترتفع من الأرض .

راقبنا كل ذلك بأعصاب مشدودة كمرتادي المسرح الذين يخشون أن يقع عليهم السقف أثناء التمثيل . وكان الجمال المرعب لهذا كله هو الذي جعلنا نلوذ بالصمت . وبعدها بدقيقة واحدة أو أكثر التفت الرجل العجوز الجالس على السطح وقال لنا : «ما الذي سيحصل في بلدنا؟» فلم نجب . وذكرّنا رجل الميليشيا صاحب قبعة الكاوبوي بلطف بالتاريخ القريب للشرق الأوسط وبالانتداب على فلسطين وبإنشاء دولة إسرائيل . وأنصت الرجل العجوز ثم قال : «إن بلدكم قد ساعد على خلق إسرائيل . إنكم تقررون مصيرنا» .

وكانت لحظة صمت محرجة ، لحظة فهمها الكاوبوي رجل الميليشيا وحتى الفتاة الصغيرة ، فعلق المسلح قائلاً : «ليست المسألة مسألة إسرائيل فقط . إننا نريد لبناناً جديداً . نريد أن نتخلّص مما كان عليه هذا البلد . نريد رئيساً وزعيماً مناسباً مستقل الرأي لا يفعل ما يمليه عليه السوريون» . وكان تعليقه هذا مبتسراً وغريباً لأن الطائرات التي كانت تحرق الأرض حولنا هي طائرات إسرائيلية لا سورية .

ومع هذا فإن هاتين الدولتين هما اللتان كانتا ستقرران المستقبل القريب للبنان . ووجدنا السوريين بعد ذلك بساعة . وكانت دروعهم ومدافعهم المضادة للطائرات مخبأة ومموّهة بكثافة تحت الأشجار والشباك الممتدة على طول الممرات شرقي خلدة . ولم يكن تجمعهم هناك من قبيل الاستعداد لشن هجوم بل رسالة للإسرائيليين بأنهم لم يتخلوا عن بيروت التي كانت سوريا تعتبرها «خطاً أحمر» . وبينما كنا نمر بدباباتهم كان الجنود ينظرون إلينا بعيون اتسعت بشكل غير عادي . وبنظرات تائهة ينظرون حولهم وإلى السماء والبحر في خوف .

وبحلول الظلام كان معظمهم قد مات . إذ هاجم الإسرائيليون الدبابات في وقت متأخر من بعد الظهر ودمرّوها كلها . وعندما زرت المكان بعد أربعة أيام كان كل ما تبقى من الدروع هو حطام شاحنة

الاتصالات التي كانت ملقاة على جانبها في خندق . وكانت إحدى الدبابات الإسرائيلية قد سحقت مدخنتها . واجتاح الإسرائيليون ما تبقّى من الدامور بنيران دباباتهم ، وتقدموا وسط الخرائب حتى وصلوا إلى الكنيسة المدمرة التي شاهدت فيها الأطفال الفلسطينيين يتعلمون كيف يصبحون مقاتلين صغاراً تحت إشراف قائدهم قبل ستة أعوام . وفي مساء الثامن من حزيران/ يونيو ١٩٨٢ كانت الدبابات الإسرائيلية تقصف مفترق الطرق في خلدة قرب المدارج ١ ـ ٩ من مطار بيروت . وكان بإمكان الجنود أن يروا العاصمة اللبنانية بالعين المجرّدة . أما في أعالي الشوف فكان الدروز يراقبون وصول طوابير الإسرائيليين المدرعة بكل هدوء . وفي بيت الدين حيث يقوم قصر الأمير بشير الثاني على الهضبة المشرفة على وادي نهر الحمّام ، كانت مئة دبابة إسرائيلية تصعد الطريق من بعقلين بعد أن قذفت بكشكي الحراسة السوريين في المدينة بمن فيهما إلى الوادي . ونزل المظليون الإسرائيليون على مرتفعات جبال الباروك حيث عاشت شجرات الأرز القديمة التي ظلت في منأى عن حرب لبنان ، وأخذوا يقيمون قاعدة تنصت واتصالات بالراديو . ومن هناك من تلك القمم الجبلية الباردة كانوا يستطيعون مشاهدة البقاع بأسره ، وما وراء بعلبك ، والمنحدرات الرمادية الطويلة لسلسلة جبال لبنان التي تؤلف الحدود اللبنانية السورية وطريق بيروت ـ الشام الدولية .

وأذهلت سرعة الغزو الإسرائيلي وتوغلّه كلاً من الفلسطينيين والسوريين . وفي بيروت وفي الليلة ذاتها شجب قادة منظمة التحرير الفلسطينية تقاعس العرب الآخرين والدول التي كانت تقول أنها «راديكالية» عن نصرتهم . فقد أصدرت نداءات «لتعبئة الجماهير» ولكنها لم ترسل رجالاً ولا عتاداً انتصاراً للقضية التي خاضت من أجلها أربع حروب ضد إسرائيل . وكان صلاح خلف ـ واسمه الحركي «أبو أياد» ـ أول الذين أعربوا عن غضب المنظمة . وكان باعتباره المسؤول عن جهاز أمن فتح يتحمل مسؤولية الدفاع عن غرب بيروت . قال : «إن الدول العربية بأنظمتها الحاضرة تقف صامتة صمت القبور وهي تواجه الضربات الإسرائيلية بالإدانات الكلامية والخطابية» .

واستمرت مقاومة منظمة التحرير الفلسطينية في جنوب لبنان وفي صور وصبرا . وكان الإسرائيليون ماضين في تدمير مخيم عين الحلوة على رؤوس من فيه .

وابتدأ الفلسطينيون يتكلمون عن ستالينغراد ، وعن «وقفة أخيرة» ، وعن النصر في التراجع . قال خلف : «إن الأرض ليست كل شيء ، ولا تقلّ عنها في الأهمية إرادة القتال . وسنقاتل الإسرائيليين من شارع إلى آخر» . وبدا أن بيروت ستكون ستالينغراد الفلسطينيين . أي أنهم سيلعبون دوراً بطولياً كدور الروس في الدفاع عن المدينة خلال الحرب العالمية الثانية . لكن كان الألمان لا الروس هم الذين حوصروا في ستالينغراد . وكان الفلسطينيون هم الذين سيدافعون عن بيروت .

وفي تلك الليلة ، وبينما كان مولد الكهرباء يدوي على شرفة مكتب الأسوشيتد برس وبينما كانت الأضواء مطفأة حول آلة التلكس ، طبعت رسالتي للتايمس ، ثم ختمتها بفقرة أخيرة تقول :«يبدو وكأن الإسرائيليين يعتزمون الزحف من الشوف إلى الشمال لقطع طريق بيروت ـ دمشق الدولي على تلال بحمدون وذلك لفصل الجيش السوري في بيروت عن قواته في سهل البقاع . وإذا صح هذا واتبع الإسرائيليون هذه الاستراتيجية ، فإن باستطاعتهم الانضمام إلى القوات المسيحية الكتائبية اليمينية الساكنة التي لم يقم أحد بانكار حماسها لإسرائيل أو بإخفائه» . وكانت هذه الفقرة مجرد تنبؤ . ولكن لم تكد تنقضي ٤٨ ساعة حتى تحققت النبوءة .

وفي هذه الأثناء تدفق على بيروت سيل من آلاف اللاجئين الذين افترشوا الشوارع واحتلوا مداخل البنايات السكنية والحدائق العامة . وفي تلك الليلة طرق باب شقتي صاحب المبنى وهو درزي لطيف طيب عاملني أنا وأصدقائي كأننا من أسرته . وكانت تبدو على وجهه إمارات الخوف . إذ إن أفراد أسرته الذين هربوا من القتال في بيروت الشرقية عام ١٩٧٥ كانوا يفكرون بالهرب ثانية .

وكان يعلم إنه إذا فرّ فإن المسلحين ، والذين امتهنوا احتلال الشقق ، سوف يحتلون بنايته . فحزمت ملفاتي وغالبية وثائق التايمز المهمة وتوجهت بسيارتي إلى مكتب الأسوشيتد برس لإيداعها في مكتب تاترو . وأنذرت صحيفتي في رسالة لاحقة بأنني قد لا أتمكن من ردع رجال الميليشيات عن سرقة منزلي إذا ما غادر المالك بنايته . وأن مكتب الأسوشيتد برس لن يخلى . أو هكذا كان أملنا .

وكان في بيروت شيء غير واقعي بالنسبة لنا نحن الذين أسعدنا الحظ وكنا من الأجانب . إذ وصل إلى بيروت عدد ضخم من الصحفيين الأجانب ، وتحرك مئات من المراسلين والمصورين المقيمين في إسرائيل شمالاً وراء الجيش الإسرائيلي ، في حين قدم مئات منهم أيضاً عن طريق البحر للانضمام إلى المراسلين المقيمين في بيروت . وفي حين أن المراسلين الجدد أخضعوا للرقابة الصحفية فإن القدماء أعفوا من ذلك . وحلّ كثير من الصحفيين الجدد شرقي بيروت الأكثر اماناً بالمقارنة ، لكن أكثرهم انضموا إلى من سبقهم في بيروت الغربية . وقام الثري الفلسطيني يوسف نزّال مالك فندق الكومودور بدور المضيف لبعض أصحاب الأسماء الكبيرة من رجال التلفزيون الأمريكي . وكان الجلوس إلى مائدته في مطعم الكومودور الفخم والمعتم كالقبور في الوقت ذاته شبيه بالجلوس إلى مائدة القبطان في سفينة سياحية عظيمة . وفيما كان مولد الكهرباء في الفندق ـ وهو مولد كبير تم انقاذه من سفينة تحطمت قرب صيدا ـ يعمل صامتاً ، كان نزال يأمر باحضار الشراب وهو ينظر إلى ضيوفه بفخر . غير أن الكومودور نفسه كان مصيدة . ففي حين أنه كان ملجأ آمناً من الحرب ـ حتى تلك اللحظة على الأقل ـ فإنه كان يعزل رجال الصحافة عما يحيط بهم . فالعاملون في شبكات

التلفزيون الأميركية ، والصحفيون المقيمون الذين لهم بيوت في المدينة ، والمراسلون الذين يبعثون تقاريرهم برقياً ، وكثيرون من المراسلين الجدد ـ هؤلاء كلهم كانوا يتنقلون في البلاد يومياً . ولكن الفندق كان يؤوي أيضاً صنفاً من الصحفيين ومن المراسلين الذين كانوا يرابطون كالسحالي في ردهة الفندق أو باره الأرضي ، ويلتقطون فتات الأخبار من وسائل الاتصال في صالون الفندق . وكان اللبنانيون الوحيدون الذين يتصلون بهم هم موظفو الفندق والسعاة والخدم . أما «مصادرهم حسنة الإطلاع» فهم فريق الدبلوماسيين من زوار الفندق الذين كان عددهم يتناقص باستمرار . وكان لا بدّ أن تتناول كتاباتهم الفندق والمراسلين الآخرين ، والببغاء التي كانت تقلد صوت القذائف والمقاطع الأولى من «المارسييز»وسيمفونية بيتهوفن الخامسة .

لقد أضفى الكومودور على قصة بيروت بريقاً زائفاً . إذ كان عالماً غير واقعي يوهمنا أحياناً بأننا نشاهد تمثيلية على المسرح . وكان ما يجري في الخارج بمثابة مسلسل تلفزيوني يومي يمكننا الاستمتاع به بدون أن يلحقنا أي أذى . وكنا كلنا نأكل ونشرب في الكومودور . فكان هذا الفندق مكاناً للاجتماع ، ونادياً للصحافة ، وقاعة مؤتمرات . وفي أروقته المغبرّة وغرفه المتسخة كنا ننظم رحلاتنا ونعد ملفاتنا المستعجلة . ألم يكن من حقنا أن نستريح بعد عناء رحلة تحت القصف أو بعد المجازفة بحياتنا خلال غارة جوية؟ لكن الفندق أيضا حوّلنا إلى متفرجين يصلون إليه وهم متعبون ومتلهفون على رؤية الخدم والسعاة وعازف البيانو يبتسمون لهم وينتظرون طلباتهم . إذن فالدنيا «بخير» .

ان هذه العزلة هي التي بعثت الشعور بالصدمة الحقيقية في هؤلاء الصحفيين الذين نادراً ما غادروا الكومودور عندما اخترقت الفندق قذيفة دبابة وانفجرت في إحدى غرف النوم . ولم تخترق الجدار فحسب بل وحوض السمك كما لو أن بيروت فقدت أخيراً صبرها على تلك المخلوقات الأنيقة المهندمة التي كانت تشاهدها من خلال الأبواب الزجاجية .

وأصبح من النادر وصول رسالة بالكمبيوتر إلى مكاتب الأسوشيتد برس . وكان جهاز الاستقبال يعمل يومياً ساعة فقط . لكن حتى الرسائل التي كانت ترد إليه لم يكن لها علاقة تذكر بما يجري حولنا . وبعد ظهر كل يوم كانت أجراس الرسائل «المستعجلة» الواردة التي تدق في مقر الأسوشيتد برس بنيويورك تذكّر إيرلين تاترو وزملاءها بأنهم لم يبعثوا بعد تقريرهم اليومي عن الطقس . وهل اليوم مشمس أم غائم في لبنان؟ أم أن هناك ما ينبىء بالمطر؟ وهل على المراسل أن يبعث بتقريره عن القصف الخفيف ، أم الغارات الثقيلة أم القصف المتقطع؟

في التاسع من حزيران/ يونيو استطاعت «التايمز» أن ترسل لي عدة مذكرات تسأل في إحداها أن

أختصر رسائلي في المستقبل في صفحات أقصر وذلك لأنهم «عندما يقصّونها يختلط أحياناً بعضها ببعض» . وجاء في مذكرة أخرى أن صديقة لي فنلندية ، هي كريستينا جويلسن ، يُنتظر أن تصل قريباً في إجازة ـ تصوروا إجازة . وجاء في مذكرة ثالثة : «تابع عملك وتجنب الخطر !»

وفي صباح التاسع من حزيران/ يونيو بدأ الإسرائيليون يقطعون طريق بيروت ـ الشام . وعندما انطلقنا بالسيارة عند الفجر أنا وتفايت من الإذاعة النرويجية ، وآن ـ كارين آرفسون من السفارة النرويجية ، وصعدنا الجبل إلى الكحالة بدأت الغارات الجوية على بيروت . ولم يستطع هواء الجبل النقي وأشجار التنّوب التي كانت تكسو السفوح أن تخفف من قلقنا . وإذا كان الإحباط سِمة من سِمات الحروب في الشرق الأوسط ، فإنه كان واضحاً على مرتفعات جبل لبنان . ففي الممرات العالية ، كان جنود الدبابات السورية الذين لم تتجاوز أعمارهم العشرين يبذلون كل جهد للإبقاء على طريق إمداداتهم الوحيد مفتوحاً مع العاصمة اللبنانية بواسطة مدرعاتهم التي ركزوها على سفوح الجبل بسرعة لم تسمح لهم حتى بإلقاء شبكات التمويه عليها .

وكانت القوات السورية المدرعة على الطريق من ظهر البيدر وحتى شتورة ـ هي الطريق ذاتها التي أوقفنا فيها أنا وكودي ذلك الجندي السوري الضجر في صيف ١٩٧٦ قبل ذلك بست سنوات وخمسة أيام تماماً . والآن ، وبدلاً من طليعة الجيش السوري القوي وجدنا بقايا الكتيبة المدرعة التي كان رجالها ينظرون بخوف إلى السماء . وكان اهتمامهم منصباً على استكشاف الطائرات الإسرائيلية بمناظيرهم . لكنهم عندما تعرضوا للنار فإنها لم تُطلق من الجو هذه المرة.بل من الأرض . وبدا أن القذائف الأولى التي كان يُسمع صفيرها فوق قمم الجبال كانت تطلقها الدبابات الإسرائيلية في العزّونية فتنفجر على جوانب التلال الصخرية إلى الشمال . ومرت دقيقتان قبل أن يرد السوريون بتوجيه فوهات مدافعهم نحو الطريق خلفهم .

وجلس تفايت في مقدمة السيارة مع سائق لبناني وهو يحسب عدد الثواني التي تفصل بين طلقة وأخرى . قال : «إنهم يأملون أن يجمع السوريون أغراضهم ويرحلوا ـ وهذا غير جدّي» . وشاهدنا إلى الشمال القذائف الإسرائيلية وهي تنفجر بين أكوام الحجارة ، وكانت أصوات الانفجارات وأصداؤها تُسمع على طول سفح الجبل . ووقعت عدة قذائف على طريق أصغر إلى الجنوب وهو طريق فرعي يوصل إلى عاليه . وحينما سلكنا هذا الطريق الجنوبي ، أوقفتنا دبابة سورية من طراز ت ـ ٥٤ كان جنودها يجلسون فوقها وهم يحاولون قراءة الخريطة ليتعرفوا إلى موقعهم ، ويتجادلون فيما بينهم حول مصدر القذائف الإسرائيلية . وعندما وصلنا إلى السلسلة المقابلة فوق عاليه كانت السحب تلحق بنا .

وفجأة أخذت الشمس المشرقة تحتجب وراء ضباب كثيف خيّم على سفح الجبل . وتحت ستار هذا الضباب وبعيداً عن أعين الطيارين الإسرائيليين كان السوريون يتراجعون من الشوف الأعلى ، آخذين معهم ما يستطيعون انقاذه من مدرعاتهم ومدفعيتهم . وشوهدت شاحناتهم التي تجر المدافع المضادة للطائرات والشاحنات المحملة بمدافع المورتر وبصناديق الذخيرة تشق طريقها وسط مدينة عاليه بسرعة جنونية . وكان الجنود المتعلقون بجوانب الشاحنات يصيحون على السيارات المدنية لتخلي لهم الطريق . وكان دوي المدافع الثقيل المفزع يخترق الغيوم . وفي إحدى اللحظات انسابت طائرة لم يرها أحد على ارتفاع منخفض فوق المدينة . وبدا الجنود الفارون وسط الضباب الكثيف وكأنهم ضحايا وهمهم بقدر ما كانوا ضحايا أعدائهم . فلو قُدّر لجيشين أن يصطدما بطريق الخطأ لما وجدا أفضل من تلك السفوح . وعلى الجانب الآخر من عاليه ـ ولم نكن نبعد أكثر من ميل عن أقرب الإسرائيليين ـ ظهر صف طويل من الأشخاص يسيرون بتثاقل نحو الشمال .

كان هؤلاء من مقاتلي فتح الذين استغلوا ستار الضباب للتراجع . وعندما أوقفنا السيارة لنتحدث إليهم استمروا في سيرهم وكأننا لسنا هنالك . وقدّرنا عددهم بثلاثين رجلاً . وسألت أحدهم عن وجهته فواصل سيره وتوارى في الضباب وكأنه شبح . وكان تفايت غارقاً في أفكاره . فلما انتبه قال «إنهم نيام» .

وكان من الواضح أنهم بعد قتال دام ثلاثة أيام تعرّضوا خلالها لقصف مستمر من قبل الطائرات الإسرائيلية المغيرة قد دفعتهم غريزة حب البقاء إلى محاولة النجاة بأنفسهم . وكان بينهم عدد من الجرحى الذين تجمدت الدماء على أذرعهم . ورأيت أحدهم يسير وبندقيته على كتفه وقطعة كبيرة من الشاش القرمزي تغطي جبهته . وكانوا جميعاً يلبسون الكوفيات . لكن هذه لم تكن مدلاة على رقابهم بل ملفوفة حول رؤوسهم كما يظهر المقاتلون الفلسطينيون في الملصقات التي كانت منظمة التحرير تلصقها ببيروت . وبالرغم من حالة الإعياء البادية عليهم وابتعادهم عن ساحة المعركة فقد كان كل منهم يحتفظ بسلاحه . وكنا لا نزال على جانب الطريق عندما ابتلعهم الضباب .

ورأينا فلسطينيين غيرهم على طريق بيروت ـ دمشق الدولي وجميعهم في حالة إعياء كالذين شاهدناهم . وكانوا من الذين حاربوا في جنوب لبنان وتراجعوا أمام الزحف الإسرائيلي وأوقفوا سيارات الجيب والشاحنات على جانب الطريق غربي شتورة . وكانت مدافع الكاتيوشا منصوبة في بعض الشاحنات وإلى جانبها الصواريخ الرفيعة التي تنتظر الإطلاق . وكان عدد من الفلسطينيين قد استلقوا إلى جانب شاحناتهم واستغرقوا في النوم على العشب . أما السوريون ـ الذين حاربوا هؤلاء الرجال أنفسهم منذ ستة أعوام وعلى ذات الطريق ـ فقد اعتبروهم الآن حلفاء لهم . ولعل ذلك هو ما

عناه الرئيس الأسد حينما قال في ذلك الاسبوع أن السوريين «يقفون في خندق واحد مع الفلسطينيين» .

وأخذ السوريون يجلبون المزيد من دباباتهم إلى الطريق الدولية بين بحمدون وعاليه . على أنهم وضعوا بعضها على أطراف الطريق وسط العشب والأزهار البرية . ويبدو أن أطقم هذه الدبابات كانوا لا يعلمون أن الإسرائيليين على مقربة منهم . فلم يهتموا كثيراً بتغطيتها بالأغصان والشباك التي تستخدم للتمويه . فانهمرت قذائف الإسرائيليين محدثة انفجارات مخيفة . وكان صوت القذيفة بعد الانفجار يظل يدوي مدة ١٥ ثانية . وهكذا انقض الإسرائيليين على الشريان السوري الحيوي للاتصال ببيروت .

كان الإسرائيليون يحاولون أن يدفعوا السوريين إلى التقهقر بإطلاق أربع قذائف فقط في الدقيقة متجنبين خوض معركة معهم . وظهرت على هذا المسرح العجيب قافلة من المتفرجين ومعظمهم من المدنيين الذين كانوا يسوقون سياراتهم بشكل جنوني وهم يتجهون إلى دمشق هرباً من بيروت . وفي حين أن أرجلهم كانت على الدواسات ، فإن عيونهم كانت شاخصة إلى الأمام . وظهر المزيد من الشاحنات المليئة بالمقاتلين الفلسطينيين العائدين من مناطق القتال في البقاع الجنوبي . وكانوا يلوّحون بإشارات النصر لسائقي السيارات المذعورين وكأنهم في طريقهم إلى نصر عسكري لا كارثة .

وأقبلت أيضاً سيارة زرقاء ملطّخة بالوحل تقلّ بسام أبو شريف الناطق الرسمي باسم الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين الذي كان يرتدي بذلة خاكية . وكان أبو شريف في العادة حسن الإطلاع غنياً بالمعلومات . وكان قد وصل لتوّه من العرقوب حيث كان الإسرائيليون يتجهون شمالاً . ولكنه بدا أقل كرماً في معلوماته وهو على الطريق الرئيسي إلى بيروت . قال لنا «نعم لقد جئت مباشرة من ساحة المعركة في الجنوب وإن كل شيء يسير سيراً حسناً» . فسألناه : «كل شيء؟» فأجاب وعلى شفتيه ابتسامة خفيفة : «كل شيء» . وأضاف وهو ينظر إلى عجلة القيادة : «إن الامور تسير بشكل جيد بالنسبة إلينا ـ بشكل جيد جداً» . وبعد أن أكمل عبارته غير الصحيحة انطلق بسيارته وهو يلوّح لنا بيده من النافذة . واستمرت قذائف الإسرائيليين تضرب جوانب الطريق وكأنها رد قاس عليه ـ والواقع أن ما كان يجري على الطريق المؤدية إلى بيروت على الجانب الآخر من الجبل كان مشهداً تعساً . فالدخان كان يغطي المدينة ولكن السوريين الموجودين على الطريق العام لم يبدوا أي اكتراث بذلك . على أن كثرة من نقاط التفتيش كانت قد أخليت وأخذ الجنود السوريون في الحقول يملأون الشاحنات بالذخيرة . وفي غرب بيروت شاهدنا رجال المخابرات السورية يحملون أمتعتهم في اسطول من

سيارات (الرنج روفر) الخضراء الداكنة . وبدا عندئذ أن الجيش السوري كان يستعد للجلاء عن بيروت التي دخلها قبل ستة أعوام دخول المنتصر وبنظام . ولم يتوقع عازف المزمار السوري الذي كان على برج الدبابة عندئذ هذه النهاية .

وفي تلك الأثناء تعرّض السوريون في وادي البقاع إلى ما هو أسوأ . فبعد الظهر قصفت الطائرات الإسرائيلية كل بطارية من بطاريات صواريخ سام ـ ٦ . ولم تنطلق هذه الصواريخ لأن طائرة بوينج ٧٠٧ قامت من علو شاهق بالتشويش على أجهزة الرادار ومهدت بذلك للطائرات الإسرائيلية المغيرة القادمة من البحر التي قصفت في طريقها بطاريات المدافع على طول طريق الشام ـ بيروت . ودفع السوريون بطائراتهم إلى المعركة ، ولكن صواريخ «سايدويندر» الإسرائيلية أسقطت لهم عشرين طائرة ميغ . وبلغ مجموع خسائرهم في ثلاثة أيام ٧٩ طائرة سقطت خلال سلسلة من الهجمات عليهم . وبينما كان أحد رجال التلفزيون الأميركي يشرب الشاي في حديقة فندق «بالميرا» في بعلبك سقطت طائرة ميغ كادت تصيب معبد باخوس ، وانفجرت قرب الآثار من الناحية الجنوبية . أما الطائرة السورية الوحيدة التي هاجمت الإسرائيليين فقد ظهرت على الطريق الساحلية قرب صيدا ، وألقت قنبلة على الساحل لم تحدث أضراراً ثم انكفأت وتوجهت شرقاً على علو منخفض فوق الشوف .

وأعلن السوريون عن «أكبر قتال جوّي» منذ حرب ١٩٧٣ ، وكان هذا بمثابة وصف لما حل بهم . وبالغوا في حجم القتال البرّي بينهم وبين الإسرائيليين ، بالرغم من أنهم كانوا يتحاشون الدخول في معركة جدية . ولهذا دُعي فيليب حبيب الذي كان يحاول عبثاً في تل أبيب تأمين وقف إطلاق نار آخر ، إلى سوريا . وأعلنت سوريا أنها فقدت ثلاث طائرات فقط فوق البقاع مع أن كل من زار البقاع عندئذ كان يشاهد غير ذلك . لكن مثل هذه التصريحات البعيدة عن الحقيقة لم تكن وقفاً على السوريين . فالإسرائيليون كانوا يدعون أن القتال توقف كلياً في صور وفي صيدا . وكان ذلك كذباً ، ففي كلتا المدينتين ـ وخاصة في مخيم عين الحلوة في صيدا ـ كانت منظمة التحرير لا تزال تقاوم . ووردت من صيدا أنباء مروعة عن إصابات بين المدنيين وعن مئات من اللاجئين الذين قتلوا بغارة جوية إسرائيلية ليلية على إحدى المدارس ، وعن عدة أسرى لبنانيين وفلسطينيين ضربهم الإسرائيليون وتركوهم يموتون جوعاً . وأظهرت التحقيقات التالية التي قام بها صحفيون غربيون صحة هذه المعلومات . وفي بعض الأوقات كان الجانبان يحتالان على إنكار الحقيقة . فبعد ظهر ذلك اليوم مثلاً وصلت كريستينا جويلسون إلى بيروت لقضاء إجازتها . وكانت قد طارت إلى سوريا ثم أقنعت سائق سيارة من دمشق بأن يقلّها عبر البقاع ومن خلال الشريط الصغير من الأرض الذي كان لا يزال يصل الجيش السوري مع بيروت . وبينما كانت تغادر دمشق شاهدت طائرة إسرائيلية تطير على علو

منخفض وبسرعة فوق ضاحية المزة حيث ألقت قنبلة فوق مجمّع سكني . وروت لنا في المساء بمكتب الأسوشيتد برس ما شاهدته . قالت :«لقد رأيتها . . . رأيت الطائرة تلقي القنبلة والدخان يتصاعد من المبنى» . وذكر لويس فارس ، عماد مكتب الأسوشيتد برس ببيروت الذي يشبه النجم السينمائي القديم بيتر لور في شخصيته وجاذبيته ، أن السوريين نفوا رواية جويلسن . وكذلك فعل الإسرائيليون . لكنني أوردت الخبر في تقريري الأخير إلى لندن . وكانت جويلسن الموظفة في شركة خطوط الطيران الاسكندنافية تعمل أيضاً كمراسلة لصحيفة فنلندية ، وسبق لها أن زارت لبنان وشاهدت الغارات . وعليه فلا يحتمل أن تكون قد أخطأت .

ومرت عشر ساعات قبل أن يعترف السوريون والإسرائيليون بالحقيقة . وتبيّن فيما بعد أن الطائرة الإسرائيلية قد لحقت بها طائرة ميغ سورية فألقى الطيار بحمولته من القنابل ليخفف من حمله ويسرع في الهرب . وأدى ذلك إلى قتل ثمانية مدنيين وجرح خمسين . وفي حين أن الإسرائيليين لم يريدوا الاعتراف بأنهم قصفوا مدنيين في دمشق ، فإن السوريين لم يريدوا أيضاً الاعتراف بأن الإسرائيليين يستطيعون أن يقصفوا المدنيين في دمشق .

غير أن رحلة جويلسون المثيرة في البقاع كشفت أكثر من مجرد حادث عسكري فوق دمشق . إذ صحبت في سفرها صحفياً سويدياً وذهلت لكثرة الدبابات السورية على طول الطريق . وبالرغم من أنها كانت وهي تتحدث مرهقة ، فقد أصررنا على سماع كل التفاصيل عن رحلتها . وعندما سألناها عن عدد الدبابات التي شاهدتها قالت : «لست أدري ـ ربما كانت أربعين» . قلنا : «وإلى أين كانت متوجهة؟» قالت : «كانت متوقفة» . فقلنا : «لماذا؟ كيف يتأتى للسوريين أن يوقفوا دباباتهم على طول الطريق العام في الوقت الذي كان فيه الإسرائيليون يقصفون بطاريات الصواريخ؟» قالت جويلسن بنفاد صبر : «إنهم لم يستطيعوا التحرك . . . ألم تفهم؟ لم يكونوا قادرين على التحرك لأنهم كانوا يتعرضون لإطلاق النار» . وفي ذلك الوقت تمكن مراسل الأسوشيتد برس في بعلبك من الاتصال هاتفياً بالمكتب من البقاع وقال إن السوريين أرسلوا طابوراً من الدبابات التي اجتازت الحدود اللبنانية شمالي بعلبك . لكنها فوجئت بحركة سير كثيفة بسبب جموع اللاجئين الهاربين الذين حملهم الخوف على الاقتراب من الدبابات للإحتماء بها مما أربك حركتها . وفاجأتها الطائرات الإسرائيلية وهي في تلك الحال من الفوضى . ولا بد أن الطيارين رأوا عشرات السيارات المدنية ولكن هذا لم يمنعهم من قصف الدبابات وتدميرها والقضاء على جميع اللاجئين . واحترق أكثر من مائة مدني أحياء في سياراتهم .

واستمر ورود الأخبار إلينا من الجهة الأخرى للجبهة الإسرائيلية عن مقتل المزيد من اللاجئين .

وقام الإسرائيليون بتنظيم رحلة تحت المراقبة الشديدة لمراسل التايمز في القدس وهو كرستوفر ووكر إلى قلعة الشقيف . وبعث بارنز برسالة مزعجة تقول إنه كان «يتنزه» بعد ظهر ٩ حزيران/ يونيو بجانب الآثار . ولكننا هنا لم نستطع أن نجد طريقاً نعبر به الخطوط الإسرائيلية من بيروت . وكنا نريد أن ندخل المنطقة التي تحتلها إسرائيل بدون عوائق من موظفي المطبوعات والرقابة لتقدير الثمن الذي تريده إسرائيل لوقف إطلاق النار .

في تلك الليلة أوردت فقرة قصيرة في آخر رسالتي الإخبارية اليومية أثارت السؤال ذاته ، فقلت إنه في مقابل الهدنة «يبدو من المحتمل أن الإسرائيليين سيجرّبون ممارسة نفوذهم وتأثيرهم في الانتخابات الرئاسية اللبنانية القادمة . وليس من المستبعد أن تهتم الحكومة الإسرائيلية بالسيد بشير الجميّل القائد العسكري الكتائبي وتعتبره مرشحاً لأرفع منصب في البلاد . ففي السنوات الست الأخيرة استفادت سوريا من موقعها المميز في لبنان في اختيار الرئيس اللبناني كضمانة لها فيه . وقد يكون الآن دور إسرائيل» . وتذكرت ذلك الغداء الذي تناولته مع الجميّل ، وتذكرت أيضاً شيئاً قاله لي فيما بعد ونحن نتناول القهوة . ونسيت لسبب لا أعرفه أن أورده في تقريري الذي أرسلته إلى لندن قبل سنتين . قال عندئذ : «سوف نستعين بإسرائيل ، ولكن عليك أن تعرف أن الإسرائيليين لا يساعدونك إلا وهم في حاجة إليك . فهم لا يفعلون شيئاً بلا مقابل» .

والواقع أنه لا يمكن الوثوق بما يقولونه . ففي الصباح الباكر من ١٠ حزيران/ يونيو حلّقت طائرة إسرائيلية ببطء وعلى علو شاهق فوق بيروت الغربية . وكنا عندئذ على سطح مكتب الأسوشيتد برس ننظر إلى سحابة مستطيلة من الأوراق الصفراء هبطت من الطائرة . ولا بد أنه كان هنالك عشرات الآلاف من المنشورات التي حملتها النسائم الدافئة في تلك الساعة المبكرة ، وألقت بها هنا وهناك على سطوح المنازل وفي الشوارع والحدائق الخلفية وفوق سطح البحر مقابل الكورنيش . ولم تكن تلك المنشورات موجهة إلى اللبنانيين بل إلى من بقي في المدينة من الجنود السوريين وخصوصاً قائدهم المقدم عمر هلال . وكانت المنشورات تحمل توقيع البريجادير ـ جنرال أمير دروري قائد الجبهة الشمالية للغزو الإسرائيلي . وكان توجيه رسالة مفتوحة من علو عشرة آلاف قدم تنذر المقدم هلال بأن أيامه معدودة طريقة غريبة في التخاطب بين قائد عسكري وآخر حتى ولو كان هذا عدواً . وجاء في الرسالة وباللغة العربية قوله :

«سوف نستولي على المدينة خلال مدة قصيرة . وقد خصصنا جزءاً كبيراً من قواتنا الجوية والبحرية والبرية لمنطقة مدينة بيروت . . . وهذه القوات تفوق قواتكم عدداً وعدة . وإنك بوصفك قائداً محنكاً لا تنقصه الحكمة تدرك أن أي محاولة للتصدي بقواتك لجيش الدفاع (الإسرائيلي) هي

بمثابة انتحار» . وفي حين أن صاحب الرسالة تبرع وشرح أهداف إسرائيل العسكرية ـ وهي الاستيلاء على بيروت الذي يتطلب من الإسرائيليين قطع الطريق الدولية بين بيروت ودمشق ـ فإنه نصب شركاً للمقدم . فبالإضافة إلى «تفضّله» بالإشارة إلى أنه «لا تنقصه الحكمة» فإنه عيّن له طريقاً للخروج بقواته سالماً من بيروت . إذ كانت على ظهر رسالة درووري خريطة لبيروت الغربية ظهر فيها ممر آمن للخروج من المدينة . وقالت الرسالة انه إذا سلك السوريون هذا الطريق فإنهم لن يتعرضوا للقصف . وكانت الاتجاهات مرسومة بخط أسود عريض يخرج من غرب بيروت عبر خطوط الجبهة في غاليري سمعان وإلى الطريق العام ، إلى دمشق مروراً بالحازمية ثم صعوداً حتى مفترق الطرق في المديرج على سفوح جبل لبنان .

وفي الحال أدرك المسلحون في شوارع بيروت الخطر الذي تتهددهم به الرسالة . فأعلنوا أن المنشورات «مسمومة» . وشاهدنا عدداً من رجال الميليشيا يجمعونها ويلفونها بأوراق الجرائد القديمة ويلقون بها في صناديق النفايات . ومع ذلك فقد كانت هذه المنشورات شكلاً خبيثاً من «السم» لمطاردة الجنود السوريين الذين كانوا يرون أن عليهم البقاء في بيروت .

وكان بين صحفيي الأسوشيتد برس الذين وصلوا مؤخراً إلى بيروت الغربية مصور لطيف وشجاع اسمه بل فولي . ولكنه كان متسرعاً . وخلال عمله مع الموظفين غلب عليه سوء الطبع وحدة المزاج . وفولي هذا هو الذي ألقى السوريون القبض عليه قرب بطاريات صواريخ سام ـ ٦ خلال العام الماضي . وقررنا أنا وهو أن نخرج من بيروت بسلوك «طريق الأمان» الإسرائيلي لمراقبة الوضع . فشاهدنا قرب غاليري سمعان بمنطقة الشياح في بيروت الغربية شاحنات محملة بصناديق القذائف . والتقينا قرب الحازمية بجنديين سوريين يتصببان عرقاً ، وطلبا منا أن نقلّهم إلى الجانب الآخر من الجبل . وجلسا في المقعد الخلفي للسيارة صامتين يرفضان الكلام وينظران باضطراب وقلق من نافذة السيارة .

وكانت نقاط التفتيش السورية على الطريق الرئيسي شبه مهجورة . وفجأة وعلى الطريق العام الجبلي فوق الكحالة طلب الجنديان النزول بعد أن شاهدا دخاناً أسود كثيفاً يتصاعد فوق الجبال . فتابعنا سيرنا . ومررنا بسيارات جيب ومدفعية تتحرك . وكانت لا تزال هنالك دبابات سورية في مدينتي عاليه وبحمدون . ولكن الضباط السوريين كانوا يخلون البيوت الحجرية الصفراء في صوفر التي كانوا يقيمون فيها منذ أن دخل الجيش السوري لبنان قبل ست سنوات . وفي تلك اللحظة شعرت أنا وفولي بالقلق . إذ سمعنا صوتاً يعلو على هدير محرك سيارتنا وشعرنا بهبة هواء قوية تمر من نوافذ السيارة .

ووقع انفجار كبير وراء قرنة الجبل عند تقاطع طرق المديرج ، وهو التقاطع الذي ظهر على الخريطة التي ألقاها الإسرائيليون على بيروت . وشاهدنا قطع الركام تتطاير وترتفع مئات الأمتار وسط سحابة دخان قاتمة . وهممنا بالانطلاق ، ولكن رجل فولي علقت بكابح السيارة . وفي تلك اللحظة شاهدنا شاحنتين عسكريتين قد قذفتا على منحدر بجانب الطريق . وكانت حولهما سيارات أخرى محطمة بين صناديق الذخيرة ، أو تحترق في حفرة إلى شمالنا . فقلت لفولي :«لقد قصفت هذه السيارات . هيا بنا بحق المسيح» .وكنا فيما بعد نتذكر كلماتنا عندئذ . إذ يسهل تذكر أشد التعابير سوقية عندما نتفوه بها في حالة ذعر . فقد ظللت عندئذ أصيح على فولي : «در بالسيارة ، بحق المسيح» وكان فولي يجيب صارخاً «وماذا تظن أنني أفعل يا ابن كذا وكذا» .

وأدرنا السيارة وعدنا من المديرج بأقصى سرعة . وكان فولي يلعن ويشتم ، ويغيّر سرعة السيارة بعصبية ، ويضرب مغيّر السرعة كما لو أن السيارة قد تآمرت علينا . إذن فهذا هو «الممر الآمن» الذي رسمه الإسرائيليون للخروج من بيروت . لقد كان كميناً وقع فيه السوريون . ولا عجب في أن الجنديين المذعورين غادرا سيارتنا فوق الكحالة . ولا عجب كذلك في أن المقدم هلال قرّر البقاء مع من بقي من لوائه في بيروت ومواجهة الحصار .

لم نتوقف حتى وصلنا إلى الحازمية . وهنالك وتحت أشعة شمس ما بعد الظهر ، أوقفنا سيارتنا إلى جانب الطريق وأمامنا بيروت كلها . وكانت أطرافها الجنوبية والغربية في جحيم . فقد استؤنفت الغارات الجوية بعنف لم نشهده من قبل . وأخذت سحب الدخان الأسود تتصاعد فوق الطريق المؤدي إلى حرش الصنوبر شرقي المطار ، وغرب المدينة حتى الفاكهاني ومخيمي صبرا وشاتيلا . وحتى في المكان الذي كنا واقفين فيه ، على بعد ثلاثة أميال في الحازمية ، كانت الشظايا المتساقطة ترن فوق الطريق على سطوح البيوت ، وقوة الانفجارات تهز البيوت التي تجمعت فيها العائلات المسيحية في بيروت الشرقية لتشاهد هلاك الفلسطينيين في الغرب .

كان انتقام إسرائيل من الفلسطينيين رهيباً تمثل في سلسلة لا تنتهي من التفجيرات والحرائق واللهب اجتاحت كل المنطقة الغربية من المدينة . وفي تلك الأثناء كان الإسرائيليون يقولون لرجال الصحافة في تل أبيب والقدس أنهم يساعدون على تدمير «الإرهاب» . وكانت محطة الإذاعة الفلسطينية قرب الفاكهاني تتحدث عن استشهاد الفلسطينيين . وكنا ونحن نشاهد كل ذلك من منحدر الحازمية نشعر بأننا فقدنا كل إحساس بما يجري ، وتحوّلنا إلى متفرجين كأولئك الذين كانوا لا يغادرون فندق الكومودور ويكتبون مع ذلك عن مأساة لبنان . بل بلغ الأمر بنا أنا وفولي أن أخذ كل منا يلتقط صوراً للآخر وهو متكئ على شرفة بيت قدم لنا أصحابه المسيحيون القهوة عليها . ولا تزال هذه

الصور في ملفاتي القديمة . فيسك وفولي يبتسمان وبيروت تحترق ! إنها ابتسامات سخيفة غارقة بالعرق . ابتسامات من نجا من الموت قبل قليل وأخذ يشرب القهوة في منزل عائلي مريح ، ونسي كل شيء !

وانبثقت من غشاء الضباب الرقيق وراءنا أعمدة ملتوية من الدخان الأبيض في مخيم برج البراجنة الفلسطيني . ولم تلبث أن اتحدت كلها في سحابة كثيفة سوداء أخذت تتسع بفعل الانفجارات المتلاحقة . وحدث الشيء ذاته إلى الغرب حيث كانت المنظمة والسوريون يضعون مدافعهم المضادة للطائرات قرب المطار . فكان كل عمود دخان يلتحم بأعمدة أخرى ، وتتصاعد جميعاً في أعقاب كل انفجار جديد ، وتبدو لنا على مسافة ثلاثة أميال كأنها أسلاك من النور . وواصلت الطائرات النفاثة انقضاضها وقصفها . وبعد مضي خمس عشرة دقيقة تحولت الغارات إلى المدينة الرياضية حيث كانت منظمة التحرير تخزن الكثير من ذخيرتها . وكانت هذه هي المرة الثانية التي تتعرض فيها للغارات منذ ٤ حزيران/ يونيو . ولا بد أنه كان لا يزال فيها بقايا من الذخيرة وذلك لأن اللهب تأجج فيها من جديد .

كان من المستحيل أن لا تحركنا مظاهر هذا العنف الواسع ونحن في بيوت الحازمية التي تزينها الورود والبوغنفيلية (الجهنمية) وحولنا العصافير تتواثب على السطوح وتنتقل من غصن إلى غصن على شجيرات التنّوب بجانب الطريق ،والنساء ينشرن غسيلهن تحت أشعة الشمس .

من الواضح أننا كنا شاهدي عيان على التاريخ ـ على مأساة الفلسطينيين . غير أن هذه النيران كانت تتطلب الإجابة على كثير من التساؤلات لا حول الإصابات بين المدنيين ـ على الرغم من أن هذا قضية أخلاقية في منتهى الأهمية ـ وإنما حول إمكان القضاء بالعنف والانفجارات المروعة على مقاتلين كالفلسطينيين لهم آمالهم السياسية وطموحاتهم الوطنية .

وانضمت إلينا على الشرفة العائلة المسيحية التي كانت تتألف من تاجر يستورد الأقمشة في منتصف العمر وزوجته وابنه . وكان هذا طالباً في صف البكالوريا يتأهب للعودة إلى صفوف ما بعد الظهر . وكانت المخيمات الفلسطينية عندئذ غارقة في سحب الدخان الأسود . ولم يكن يخرج من تلك السحب إلا صاروخ يطلقه من حين إلى آخر فلسطيني يحمله على كتفه ، أو شعلة من اللهب لا تلبث أن تتلاشى في أشعة الشمس .

وأخذ الطالب يتحدث على نحو يدل على النضج عن الحرب وتأثيرها على الاقتصاد وعن التعليم ودراسته . وقال أنه يعتقد أن الفلسطينيين قد استغلّوا لبنان . ولم يكن في لهجته ما ينم عن أي

ضغينة . ولكن حين سألناه عن رأيه في النيران التي تجتاح بيروت الغربية ، نظر إلينا وكأن السؤال لا ضرورة له ثم قال «إن ذلك جيد» .

كانت غارات الإسرائيليين الجوّية أيسر بكثير من قتالهم على الأرض . ففي مثلث خلدة على الساحل أمطر الفلسطينيون ومسلحو أمل الذين انضموا إليهم طليعة الدبابات الإسرائيلية بنيران مركزة من مدافع المورتر وصواريخ الكاتيوشا والمدافع الرشاشة . وحينما وصلت المصورة الفرنسية كاترين لوروا ، وهي صحفية من المحاربين القدماء في فيتنام ، إلى شاطىء خلدة وجدت فدائيي الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين يقاتلون من جحورهم ، ويطلقون قنابلهم الصاروخية على الدبابات الإسرائيلية . وفيما بعد قال من كانوا معها من زملائها الفرنسيين كيف ألقت بنفسها على الشاطىء قبل أن تصاب سيارتها بنيران الغارات الإسرائيلية بلحظات . ثم انفجرت السيارة بعد أن أصابتها دبابة إسرائيلية كانت تتقدم وهي تطلق النار . وخشي الفرنسيون الذين عادوا أن تكون لوروا قد لقيت حتفها . لكنها عادت بعد ساعات إلى فندق الكومودور وهي تنفض الغبار والرمل عن نفسها . وقالت إنها احتمت بالمقاتلين الفلسطينيين وأضافت :«كانوا يقاتلون الإسرائيليين ويوقفون تقدمهم . إنهم مقاتلون محترفون وفي غاية البراعة»[٣] .

كانت لوروا على حق . فالقوات المشتركة من الفلسطينيين ومن أمل كانوا يواجهون الإسرائيليين بمقاومتهم الجدّية الأولى في البر للزحف الإسرائيلي على بيروت . وبالرغم من أن بعضنا قال بأن ذلك من قبيل الصدف ، فإن يوم خلدة تكشف عن ظاهرة رائعة وهي أن مقاتلي الشيعة كانوا يندفعون راكضين ويهجمون على المدافع والدبابات الإسرائيلية ويقذفونها بالقنابل . وكانوا بالفعل يقذفونها عن بعد عشرين قدماً .

وعمد بعض الشيعة إلى قطع أجزاء من قمصانهم لفوا بها رؤوسهم لتكون رمزاً للاستشهاد كما فعل الحرس الثوري الإيراني قبل ذلك بسنة خلال الهجمات الجماعية على العراقيين في حرب الخليج وعلى بعد ألف ميل إلى الشرق . وحينما تمكنّوا من إشعال النار في سيارة إسرائيلية مدّرعة تشجعوا على التقدم . وأعتقد أنه لم يدرك أحد منا تلك الليلة مدى الأهمية الكبيرة لتلك الأحداث التي جرت في خلدة . لقد كان الشيعة اللبنانيون يمارسون عقيدة الاستشهاد . إذ لم يسبق لنا أن شاهدنا هؤلاء الرجال يضعون هذه العصابات على رؤوسهم على ذلك النحو . وتبادر إلى أذهاننا في أول الأمر

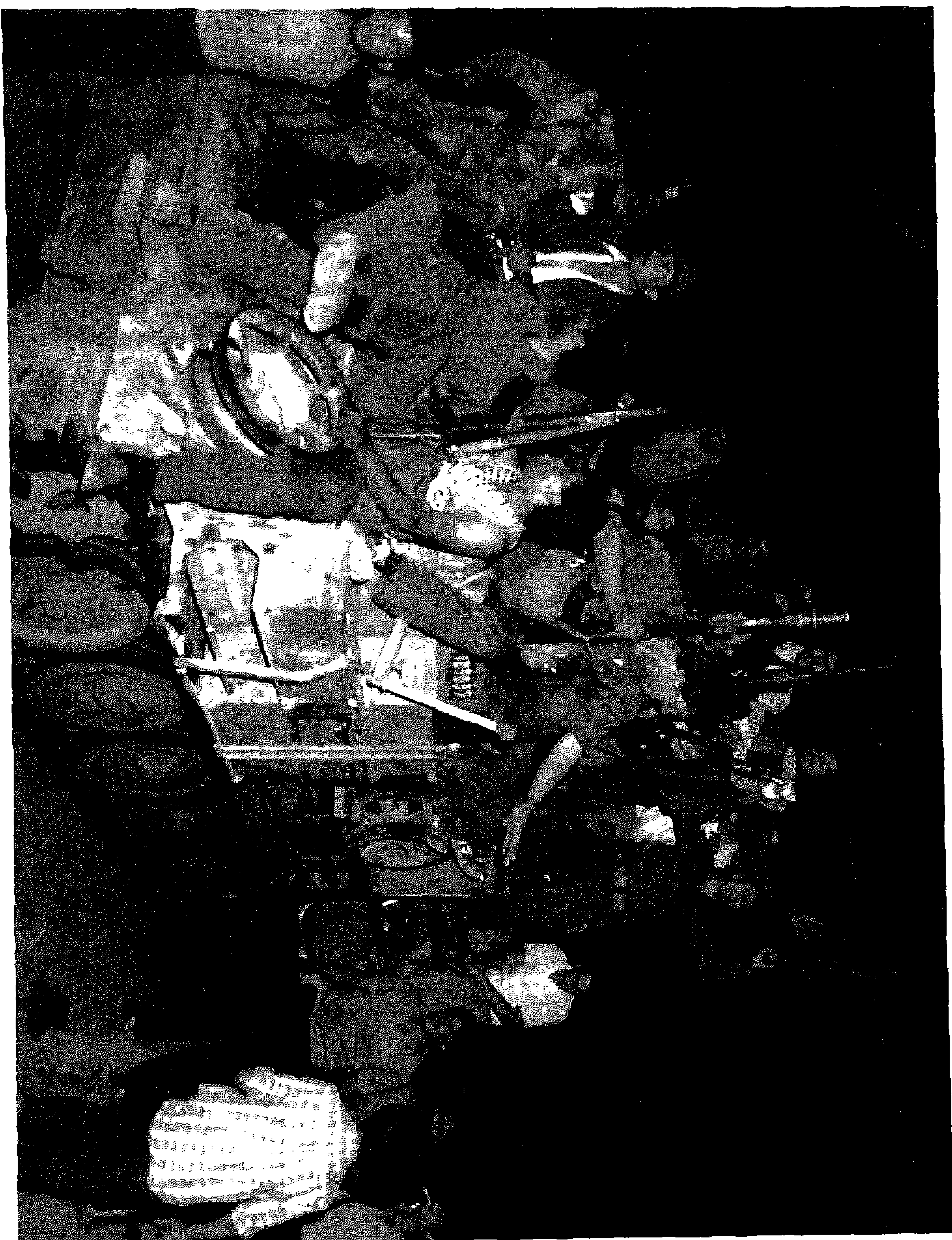
(٣) من المظاهر غير العادية لطبيعة الحرب أنني عند اختفاء لوروا تمكنت من إرسال رسالة إلى ووكر مراسل التايمز في القدس عبر التايمز بلندن أطلب منه فيها أن يعلم الجيش الاسرائيلي بخلدة بأن لوروا اختفت وأن عليه أن يساعدها إذا اقتحم خطوط الفلسطينيين

أن ذلك مجرد علامة فارقة من تلك العلامات التي تتخذها الميليشيات . ولكن تبيّن أنها بداية حقيقية اتخذت شكل الأسطورة . وأصبح الشيعة هم المقاومة اللبنانية . وما يميّز وطنيتهم أنها تستمد شعلتها من الدين . وكان جماعة حزب الله في تلك الليلة على ساحل خلدة .

وتخلّى طاقم ناقلة إسرائيلية مدرعة عن ناقلتهم وتراجعوا مع بقايا مجموعة من المشاة إلى مبنى مدرسة مهدم في مدينة الزهراء على سفح جبل عرمون . وبعد مضي بضعة أسابيع ذكر لي جنود إسرائيليون في بيروت الشرقية أن المسلّحين الشيعة استولوا على دبابة سنتوريون إسرائيلية مع طاقمها . وقال أحدهم إن النار أطلقت عليهم من الخلف . ومن المؤكد أنه كان يمكن مشاهدة دبابتين إسرائيليتين فيما بعد تحترقان على الطريق . وفي وقت متأخر من ذلك المساء ساق الشيعة المسلّحون وهم يلفون تلك العصابات البيضاء حول جباههم ، الدبابتين اللتين استولوا عليهما إلى بيروت . وكانت الرسالة التي ينطوي عليها هذا بسيطة وهي : «لم يعد الإسرائيليون بعد اليوم قوة لا تقهر» .

وفي تلك الليلة عاد الإسرائيليون وأغاروا بطائراتهم على المخيمات ، وكانوا بذلك يثأرون لهزيمتهم العسكرية في خلدة . فبعد ساعات معدودة من النداء الذي وجّهه ريغن إلى بيغن من أجل وقف النار الفوري في لبنان ، كانت عشرات الطائرات الإسرائيلية تقذف آلاف الأطنان من المتفجرات المحرقة على التجمعات الفلسطينية في بيروت الغربية . وتقدمّت الزوارق الحربية من الساحل لتقصف شواطىء خلدة . واستمعنا ، في مكتب الأسوشيتد برس ، إلى أحد مذيعي إذاعة منظمة التحرير في الفاكهاني ، يعلن بعصبية هستيرية : «العدو يقصف مخيماتنا ونساءنا وأطفالنا» . وتملّك الغضب هذا المذيع واختنق صوته . وكان يصيح : «سوف نقاتل ، نقاتل ، نقاتل» .

كانت إحاطة الإسرائيليين ببيروت قد اكتملت تقريباً . ففي عصر هذا اليوم ، وصلوا إلى بلدة عاليه الجبلية . وتقدمت قافلة من الدبابات إلى مدخل معسكر للجيش اللبناني ، فانبرى لهم رجل من الأعيان المدنيين المحليين كان في الظاهر مخوّلاً بأن يفاوضهم بالنيابة عن القائد العسكري بشأن استسلام من في المعسكر . وعندئذ أمر هذا القائد جنوده بإلقاء السلاح . وصرح لمراسلي الصحف الذين تواجدوا هناك بقوله : «إن المعركة انتهت ، ويسرنا أن نرى الإسرائيليين» . أما الفلسطينيون فقالوا طبعاً عكس ذلك . فبسام أبو شريف الناطق حسن الاطلاع باسم الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين الذي سبق له أن قال أن كل شيء على ما يرام في منطقة العرقوب بينما كان الإسرائيليون يقصفون طريق بيروت ـ دمشق ، أعلن في تلك الليلة أن منظمة التحرير الفلسطينية دمرت ١٥٠ مدرعة إسرائيلية . وكان هذا كذبة سخيفة . لكنه قال أن الفلسطينيين صدوا ست هجمات إسرائيلية على خلدة وكان ما قاله صحيحاً . وأضاف أبو شريف : «سيهزم بيغن ، وستكون هزيمته هنا ـ ستكون بيروت مقبرته» .



دبابة إسرائيلية استولى عليها مقاتلو حركة أمل في خلدة .

وأخيراً تمخضت رحلات فيليب حبيب بين تل أبيب ودمشق عن «وقف إطلاق النار» . وقد درجنا على وضع هذه العبارة بين مزدوجين لأن الهدنة الأخيرة في بيروت وحدها هي التي صمدت فترة أطول من يومين . وحتى هذه كانت تمهيداً لمجزرة صبرا وشاتيلا . وكانت معظم هدنات وقف إطلاق النار تتم بناء على طلب إسرائيل التي كانت تنتهك أكثرها كما تبيّن لنا ونحن نقف على حدود بيروت الغربية . وذهبت منظمة التحرير إلى أن إسرائيل كانت تعلن هذه الهدنات بهدف تعزيز مواقعها العسكرية . والحق أن كل هدنة أو وقف لإطلاق النار كان ينتهي ، عادة ، بالأسلوب نفسه : تتقدّم وحدة إسرائيلية خلف خط وقف إطلاق النار المحدّد لها بهدف إحراز مزيد من الأرض . فتعتبر منظمة التحرير ذلك إنتهاكاً للهدنة ، فتفتح النار ، فيعلن الإسرائيليون أن الفلسطينيين انتهكوا وقف إطلاق النار ، فتعاود المدفعية الإسرائيلية قصف بيروت الغربية . وقد شهد الشهران التاليان حوالي ٦٠ وقفاً لإطلاق النار من هذا النمط . وكانت كلها وهمية على غرار الانتصارات الوهمية التي كان كلّ من الإسرائيليين والفلسطينيين يدّعي أنه على وشك أن يحرزها .

أما السوريون الذين لم يكن أمامهم غير الخسارة على المدى البعيد ، فقد أحرزوا نصراً عسكرياً في غاية الأهمية بمنعهم الإسرائيليين من الاستيلاء على أعلى منطقة تشرف على الطريق الرئيسي بين بيروت ودمشق . إذ تصدى السوريون لهجمات الدبابات الإسرائيلية بالرغم من الغارات الإسرائيلية الجوية المتواصلة في معركة لا يعرفها الكثيرون في قرية صغيرة تعرف بعين دارا . والواقع أن السوريين الذين لم يكن لديهم غطاء جوي في وقت كانت فيه القوات الأرضية تحت رحمة الطائرات ، استماتوا بكل معنى الكلمة لإبعاد الإسرائيليين عن المديرج أي عن تقاطع الطرق المنكوب نفسه حيث كدنا أن نقتل أنا و«فولي» قبل هذه المعركة بيوم واحد .

وحين وصلنا إلى قرية عين دارا بعد ساعتين من وقف إطلاق النار الذي توّصل إليه فيليب حبيب ، كانت النيران لا تزال تشتعل في الدبابات السورية قرب طريق القرية الضيق . وكان قتلاهم وجرحاهم موزّعين في الحقول غارقين في دمائهم . أما «عين دارا» نفسها فكانت مدمّرة ، وقد صدّعت القذائف الإسرائيلية بيوتها فهدمتها . وكانت النيران لا تزال تتصاعد من بعض هذه البيوت . وفي أسفل الطريق ، وقف مرضى مستشفى الأمراض العقلية على سطح هذا المستشفى المدمّر الذي هجرته ممرضاته يُعوِلون بأعلى صوتهم . ولدى وصولنا تقدّم جندي سوري يحمل جثة قائده ، وقد انتزع رأسه . وتوسّل إلينا وهو يبكي بكاء مراً أن نحمل الجثة في صندوق سيارتنا ونوصلها إلى دمشق . وكانت على الطريق الرئيسي أربع دبابات أصيبت بالقذائف الجوّية وألسنة النيران تفجّر ذخيرتها فتحيل الصخور القريبة إلى سواد قاتم . وشاهدنا شاحنة مدمرة في واد صغير ودبابة مصفحة محترقة على حافة منحدر طوله أربعمائه قدم .

وكانت ألسنة الحرائق الذهبية البراقة تختلط بالخضرة الداكنة في البساتين فتأتي على الدبابات التي احترق جنودها أحياء في داخلها . وقُدّر لثمر تلك البساتين في ذلك الصيف أن يكون مراً . وفي وسط الشارع الرئيسي في القرية ، وقفت شاحنة سورية سالمة لم تصب ، وكانت حمولتها أكواماً من الجثث والجرحى الذين حشروا معاً والدم يسيل منهم ويسقي جثث رفاقهم . وجلس جندي في مؤخرة الشاحنة وقد شج مقدم رأسه فكان يسيل من وجهه نوع من السائل الأبيض ممتزجاً بالدم . وكان هو أيضاً يبكي ، وشفتاه تتحركان ببطء كما لو كان يتمتم بالدعاء .

وعين دارا قرية جبلية تحتل منطقة صغيرة من طريق منحدر يلتف حول نفسه ، وتصطف على جانبيه الفيلات الجميلة البهيجة التي كانت عندئذ تحترق . وخرج من هذه الفيلات المدمرة جنود آخرون ، ربط بعضهم رؤوسهم أو سواعدهم بالضّمادات ، غير أنهم كانوا ما يزالون يعتمرون الخوذ ويحملون البنادق . وكانوا قد حاربوا الإسرائيليين مدة يومين تقريباً وصدوهم . وظهر الدليل على نصرهم في زاوية الشارع الرئيسي في القرية . فعلى امتداد الوادي بين أشجار الصنوبر ، ارتفعت أعمدة الدخان الأزرق من الدبابات الإسرائيلية المحترقة . وكانت هذه الدبابات قد وقعت في كمين سوري نصبته الدبابات السورية التي دمرها القصف الجوي ، والوحدات السورية التي استخدمت صواريخ ساجر من قرية «عين دارا» ومن الأحراش المحيطة بها . وبذلك تمّ وقف تقدم الجيش الذي لا يقهر ، مرة جديدة[٤] .

اتسمت ملامح السوريين الذين قابلناهم في «عين دارا» بالذهول نفسه الذي بدا على رجال فتح الذين قابلناهم بينما كانوا يسيرون كالنيام في الضباب المخيم فوق عاليه ، غير أن الإعياء لم يبلغ ما بلغه لدى رجال فتح . فقد رحبوا بنا نحن الغرباء ، وقدموا لنا الشاي في مواقعهم المدمرة . وصافحنا ضابط من القوات الخاصة التابعة لرفعت الأسد .

كنت قد ربطت منديلي حول أنتين راديو السيارة ليكون بمثابة علم أبيض . وكان الغرض من ذلك الإشارة إلى السوريين بأننا حياديون ولا ننوي أي أذى . وقد خطر ببالنا أيضاً أن هذا العلم الأبيض سيمنع الإسرائيليين من إطلاق النار علينا فيما لو أخطأنا الطريق فدخلنا ، دون قصد ، إلى الخطوط

(٤) تم وصف هذه المعركة من وجهة النظر الإسرائيلية في كتاب حرب اسرائيل في لبنان ، تأليف شيف ويعاري ص ١٦١ ـ ١٦٢ ويسمي الإسرائيليون هذه المعركة معركة عين زحلتا نسبة الى القرية المجاورة لقرية «عين دارا» .

الإسرائيلية . ولكن بالنظر إلى فداحة الهزيمة الإسرائيلية ، فإنه لم يكن من المحتمل أن يحمينا من الموت .

على أن هذا المنديل المثير للشفقة والذي كان يرفرف على واجهة السيارة من جهة السائق ، لفت انتباه جنود دبابة سورية خارج عين دارا . وكان هؤلاء يتناولون طعام الغذاء فوق الحشيش الأخضر قرب دبابتهم . ووقف أحدهم ، وكان طويل القامة ، ذا شعر لونه رملي ويظهر من تحت خوذته ، وسار في اتجاه سيارتنا وانتزع المنديل عن الهوائي . ولم يكن ذلك بدافع الحقد بل من إحساس عميق بالهدف والقضية . قال : «لا أعلام بيضاء» .

وبحلول ليلة ١١ حزيران / يونيو كان وقف إطلاق النار بين السوريين والإسرائيليين قد أصبح ساري المفعول . وكان هذا أهم بند من بنود الهدنة بالنسبة للإسرائيليين الذين لم يكن في مقدورهم خوض حرب شاملة مع سورية . على أن التقارير التي أرسلتها وكالة الأسوشيتد برس من تل أبيب أشارت إلى أن الإسرائيليين لا يعتبرون منظمة التحرير طرفاً في هذه الهدنة . وهكذا استمر القتال في محيط بيروت . فقام الإسرائيليون بمحاولة فاشلة جديدة للتقدم بدباباتهم على محور خلدة . وبدأوا أيضاً بقصف المناطق اللبنانية الآهلة بالسكان في بيروت الغربية .

كانت السفن الحربية الإسرائيلية قد أطلقت صواريخها في الليلة الفائتة على العمارات السكنية القائمة على الشاطئ . لكن القصف اشتد بعد ظهر الحادي عشر من حزيران/ يونيو . وسقط العديد من القذائف في محيط الحمراء . وأعلنت الإذاعة الإسرائيلية ، كما هي عادتها ، أن الهجوم كان موجهاً ضد «الأهداف الإرهابية» في بيروت الغربية . لكنها كذبت . وفي ذلك المساء ، عاينت جثتي شاب مدني وطالب مدرسة تُنقلان من بيتهما المدمر قرب المدرسة البروتستانتية . وكانت الجثتان تتأرجحان في مؤخرة شاحنة حملتهما إلى المشرحة .

كان الإسرائيليون الآن يحتلون ربع مساحة لبنان . وبالنسبة إلى أهالي بيروت الغربية ، أصبحت حدود لبنان الجنوبية عبارة عن خط متعرّج يمر بأسفل المدرج رقم ٢ في مطار بيروت ، وهو المكان الذي كان مسرحاً للنيران والشقاء والذي لقي فيه المئات من المقاتلين الفلسطينيين واللبنانيين الشيعة مصرعهم خلال الأيام الثلاثة الماضية وهم يحولون دون تقدم امتداد الحدود الجنوبية الجديدة شمالاً باتجاه بيروت . أما اليساريون اللبنانيون ـ وهم عماد التحالف العسكري القديم الذي أنشأه كمال جنبلاط سنة ١٩٧٥ / ١٩٧٦ ـ فقد خلعوا بذلاتهم العسكرية . ورأى الدروز أن لا يدافعوا عن الشوف . فلم يبق ممن يقاتلون سوى منظمة التحرير وحركة أمل .



دخان القصف الجوي الإسرائيلي على بئر حسن



وبالنسبة إلى الفلسطينيين فإنه لم يكن أمامهم أي مستقبل إذا لم يواصلوا معركتهم . فلو سمحوا للرهبة أن تتمكن منهم ، لدُمّرت منظمة التحرير وقُتل قادتها أو تبعثروا ، ولفقد وجودها كل أهمية سياسية . ولم يكن تدمير منظمة التحرير أمراً يقلق إدارة ريغن . ولا ريب في أنه كان سيسرّ الإسرائيليين . أما السوريون فكانوا قد شاركوا بالفعل في القتال من أجل القضية الفلسطينية لكنهم لم يكونوا متحمسين لمنظمة التحرير . ولم تكن الدول العربية الأخرى ستكترث كثيراً إذا تلاشى نفوذ منظمة التحرير . صحيح أن كثرة من سكان الخليج كانوا يرون في الفلسطينيين التعبير الوحيد المتبقي للنضال العربي ، غير أنه كان هناك أيضاً من يرون في هذا تهديداً لهم .

وكان ما يبرر الاجتياح الإسرائيلي في نظر الإسرائيليين تبريراً كافياً هو اعتقادهم بأنهم لن يقدروا أبداً على ضبط الضفة الغربية وقطاع غزة الفلسطينيين المحتلين ـ اللذين تم الاستيلاء عليهما إبان حرب ١٩٦٧ ـ ما دامت منظمة التحرير على قيد الحياة . كما كانوا يعتقدون ـ وهم على حق في ذلك ـ أن أهالي المناطق المحتلة يستمدون إرادتهم السياسية من منظمة التحرير . فلو أرادت الحكومة الإسرائيلية أن تزيد عدد المستوطنات اليهودية غير الشرعية في الضفة الغربية ، أو أن تضم المنطقة إلى دولتها ، فإنها لن تستطيع تحقيق ذلك ما لم يتم تحييد الفلسطينيين في بيروت . فإن لم يسحق الإسرائيليون منظمة التحرير ، فقد يأتي يوم يثور فيه الفلسطينيون في الضفة الغربية وفي قطاع غزة ضدهم . وعليه فإنه لم يكن هناك في اعتقادهم مفر من القضاء على منظمة التحرير .

ولكن كانت للاجتياح الإسرائيلي مدلولات أخرى . فسكان بيروت الغربية ، ومعظمهم من اللبنانيين المسلمين ، بدأوا يتساءلون الآن عمّا ستفعله إسرائيل بقطاعهم فيها . هل كان الإسرائيليون يريدون الاستيلاء على قطاعهم ، أم أنهم كانوا يريدون تغيير الحدود المتغيّرة باستمرار حول محيطها وتسليمها للكتائب المسيحية في بيروت الشرقية ، وتحويل لبنان إلى دولة تابعة لا فلسطينيين فيها وتدين بالولاء لتل أبيب ـ الباب العالي الجديد في المتوسط؟ وخشي حتى الكتائبيون أنفسهم أن يكون هذا هو هدف الاجتياح . وعلى غير عادته سكت بشير الجميّل الذي سبق له أن قبل السلاح والمعونة الإسرائيلية .

ولم يكن بإمكانه أن يمتدح الإسرائيليين بعد أن قتلوا ذلك العدد الكبير من المدنيين اللبنانيين أي من مواطني الشعب الذي كان يأمل في أن يترأس جمهوريته . وكان قد قُتل ثمانية آلاف نسمة على الأقل ـ ألفان منهم في صيدا وحدها ـ منذ بداية الاجتياح ، وتمّ نسف ما يزيد على الأربعمائة نسمة في منازلهم في الغارات الجوية الإسرائيلية يومي ١٢ و١٣ حزيران/ يونيو . وشكك الإسرائيليون ، فيما

بعد ، بصحة هذه الاحصائيات ، مدّعين أنها تصدر عن أبواق منظمة التحرير أو أنها دعاية لا سامية ـ وقد صارت هذه التهمة «اللاسامية» ردة فعل روتينية ضد الصحافة .

على أن الذين كانوا يوردون أرقاماً كاذبة هم الإسرائيليون كما يعلم قادتهم ورجال حكومتهم تمام العلم . إذ تم دفن مئات الجثث في قبر جماعي واحد في صيدا في الأسبوع الأول من الحرب . ويعرف هذا المدفن الآن باسم ساحة الشهداء ،ويقع على مفترق الطرق في نهاية شارع رياض الصلح . وتزيّنه اليوم النباتات وأشجار النخيل التي غرست بعناية ، وأحيطت بالرعاية فترعرعت بفعل السماد الرهيب الذي يغذيها .

وكانت الصحف اليومية في بيروت تملأ أعمدة عديدة في صفحاتها الأخيرة بأسماء الموتى . وورد في القائمة أكثر من مائتي اسم قتلوا في غارة جوية إسرائيلية واحدة على بيروت يوم الخامس من حزيران/ يونيو ، أي قبل يوم واحد من بدء الاجتياح . وقد جمعت التفاصيل من مصادر المستشفيات التي قام الصليب الأحمر وأجهزة الدفاع المدني بنقل الجثث إليها .

وقد أحال هذا العدد الهائل من الإصابات أخبار حرب جزر الفوكلاند إلى المرتبة الثانية من الأهمية ، حتى في الصحف البريطانية . وكان معظم القتلى في العاصمة من المسلمين ، وإن يكن بين الضحايا قلّة من المسيحيين المارونيين الذين كانوا يسكنون بيروت الغربية . ولم يعد في المقبرة الإسلامية القائمة على أطراف صبرا متسع بسبب العدد الضخم من قتلى الغارات الإسرائيلية ، فصارت الجثث تدفن في قبور جماعية يضم الواحد منها ثلاثين جثة تُسجّى الواحدة فوق الأخرى .

وأخذ عشرات الآلاف من اللاجئين ، وبينهم الكثير من الأجانب ، يحاولون مغادرة لبنان عن طريق مرفأ جونية . لكن الإسرائيليين الذين كانت زوارقهم البحرية المسلحة تقوم بمراقبة الشواطئ ، رفضوا السماح للسفن بالإقلاع . وفي ليلة الرابع عشر من حزيران/ يونيو كان الفرنسيون والإيطاليون يخططون لإرسال سفن حربية لفكّ الحصار البحري الإسرائيلي وإجلاء مواطنيهم عن لبنان . وسمحت الكتائب لمعظم المسلمين اللبنانيين باجتياز خطوطها إلى مناطقها . أما بالنسبة إلى الفلسطينيين فلم يتمكن من الإنتقال إلى بيروت الشرقية منهم غير الأثرياء ممن لهم صلة بالمجتمع الماروني . وبقيت الغالبية العظمى من الفلسطينيين تواجه مصيرها في بيروت الغربية .

وفي ختام رسالة أرسلتها إلى صحيفة «التايمز» قلت : «يتمتع اللبنانيون . . . براحة ساخرة

متوقعة تنبع من حقيقة الحياة العسكرية هنا : إن لبنان يثأر بطريقته الخاصة من زواره المسلحين . فكل جيش دخل إلى لبنان ـ الفلسطينيون والليبيون والسوريون والعراقيون وحتى الأمم المتحدة ـ وجد نفسه غارقاً في أتون سياسي وعسكري مما يذله ويهينه أمام أعدائه . وليس هناك سبب تاريخي يمنع انضمام إسرائيل إلى هذه القائمة» . وفيما كنت أبرق برسالتي هذه على آلة الكومبيوتر في مكتب الأسوشيتد برس ، ذلك المساء ، كان آرييل شارون ، وزير الدفاع الإسرائيلي ، يقود جيشه في درب الذل والمهانة المذكور : درب قُصف بالقنابل ، لكنه تحوّل الآن إلى درب للأرز وماء الورد والأهازيج التي ستؤدي دون شك إلى سفك الدماء والمأساة .

ذلك أن شارون الذي اتهمه زملاؤه بأنه كان طيلة الوقت يضلل الحكومة الإسرائيلية فيما يتعلق بأهداف الغزو السياسية والعسكرية شق الطريق لمدرعاته في سهل قرية الشويفات جنوب بيروت . وقبل منتصف الليل بقليل وصل مع طليعة قواته إلى بعبدا مقر الحكم اللبناني حيث يقوم قصر الرئيس الياس سركيس على تلة تطل على بيروت .

وقبل أن يبزغ فجر اليوم التالي ، قبل سائق تكسي أن يجتاز بنا خط التماس ، وتمكنا من إقناع الحرس الفلسطيني على آخر حاجز بالسماح لنا بالمرور . فاجتزنا منطقة غاليري سمعان المدمرة ،ثم توقفنا بعد الحازمية بقليل في القسم المسيحي من بيروت الشرقية . وكان الجو مشبعاً بالتوقعات . إذ تجمعت العائلات على شرفات المنازل ، وهي تحمل الأرز وماء الورد ، وتتحدث بهدوء . وكان الكثيرون يشدون أجهزة الراديو إلى آذانهم . وهذه العائلات هي نفسها التي شاهدتها منذ ست سنوات وهي ترسم القبلات للجنود السوريين . وبالرغم من أن الذي جاء هو جيش آخر فإنه لم يثر شيئاً من الخوف . والواقع أنه كان هناك شعور بالراحة بلغ حد الفرح الممزوج بقلق الانتظار الذي يسبق لقاء عاشق عُلّقت عليه الآمال . ومرة أخرى قيل إن هذه نهاية الحرب ، ونهاية المعاناة . إذ ظهر على المسرح جيش جديد يفترض أنه يمثل تجديداً ونهضة سياسية . وبدا للمسيحيين أن النصر على الفلسطينيين بات مؤكداً الآن ، ويحمل معه الاستقلال الحقيقي . ألم تكن الحكومة الإسرائيلية منذ بدأ الاجتياح قبل ذلك بثمانية أيام تؤكد مرة بعد أخرى أن جيشها لن يمكث في لبنان ساعة ـ بل دقيقة ـ أطول من المدة الضرورية؟

وفيما كانت بيروت تنعم بالفجر الرائع الذي أخذ يبدد القتام فوق المدينة ، ويشع كاللهب من خلال نوافذ آلاف الشقق السكنية ، ويضيء الأفق الممتد فوق البحر ، سُمع هدير الدبابات التي كانت تدق الطريق المحفوف بالأشجار وكأنها سلاسل حديد تُجرّ عليها . ومال المسيحيون على

حواجز شرفاتهم لرؤية ما يجري . أما سائقنا ، وهو مسلم سني ، فقد تركنا فزعاً ، وركض إلى سيارته واتجه بها إلى بيروت الغربية . فوقفنا هناك وحدنا ، وعيوننا مركزة على قرنة الطريق حيث كان النسيم يداعب إحدى أشجار الليلك . وطال انتظارنا ، نحن أيضاً ، للقاء الإسرائيليين . كنا قد بذلنا أقصى الجهد لاختراق خطوطهم ولقائهم لسؤالهم عما حملهم على غزو لبنان . وها هم الآن يأتون إلينا .

وكان من المتوقع أن تتقدمهم دبابة . فإذا نظرنا إلى جيوش الغزو نجد أن كلا منها كانت تقوده دبابة . لكن عندما رأينا الدبابة الأولى تتقدم في الطريق من الحدث إلى الحازمية ، وعلى متنها عدد من الجنود الإسرائيليين يمسكون بماسورة المدفع البالغة الطول صعب علينا أن نصدق أعيننا . فقد وصل الإسرائيليون إلى هنا ، إلى مشارف بيروت القريبة ، وتراكضت العائلات المسيحية المحلية إلى الشارع ، وأشرقت وجوه أفرادها بالبسمات ، وبكى بعضهم من الفرح .

أما الجنود فلم يكونوا في مثل هذه السعادة . وبدوا في غاية الاتساخ والإرهاق . وكانوا قد دهنوا وجوههم بدهان الأحذية (البوية) للتمويه وستر وجوههم تحت جناح الظلام في الليلة الفائتة ، وكان العرق يقطر ببطء من خوذهم . وحدّق بعضهم في ضباب الدخان المخيم فوق بيروت . وتطلع قلة منهم إلى الأعلى حيث كان رئيس جمهورية لبنان العاجز يعدّ الساعات الباقية لانتهاء حكمه . وحين صعدنا على أقدامنا إلى أعلى الطريق اكتشفنا أن الإسرائيليين يناقشون ما سيفعله الياس سركيس الذي لم يعد يسيطر على أكثر من مائتي ياردة من لبنان . كان معظم هؤلاء من الأشكناز ، وعيون الكثيرين منهم زرقاء اللون ، ولهجة بعضهم هي لهجة أهالي مدينة نيويورك . وكانوا شباناً صغاراً ، تملأهم الثقة والمودة .

أيمكن أن يكون هذا هو الجيش الذي كان يروع سكان بيروت الغربية ، الجيش الذي قتل الألوف العديدة من الفلسطينيين ، واستخدمت قواه الجوية مثل ذلك السلاح الفتاك الرهيب دون تمييز بين جندي ومدني؟ لكن ، كيف يستطيع المرء أن يكره هؤلاء الشبان؟ كانوا مثقفين ، يتحدثون عن السلام ، ويختلف أحدهم مع الآخر حول أهداف هذه الحرب ، وهو شيء لم نجده بين الفلسطينيين والسوريين . كان من الصعب ألا تشعر بالقربى والمودة نحو هؤلاء الأوروبيين . ولكن الأصعب هو البحث عن مبررات للأعمال الهمجية التي كان جيشهم وقواته الجوية يقترفونها باسمهم . فهم الإسرائيليون ، الشعب الذي لا يقهر والجيش الذي لا يقهر ، وأولاد المحرقة ، وشعب الشتات ، والذين بقوا على قيد الحياة من ذريتهم فأنشأوا دولة جديدة حاربوا وماتوا في سبيل الدفاع عنها . وهذا هو الجيش الذي ما فتئ يكرر ضرورة تجنب الإصابات المدنية ، الجيش الذي يؤكد



جندي إسرائيلي يقرأ مجلة في منطقة الفياضية

على «طهارة السلاح» ، الجيش الذي قام جنوده المدنيون بإخصاب الصحراء ـ حسب ما تروجه خرافات هوليوود .

كان أحد المساعدين الطبيين الشباب ـ وهو من عسقلان وذو شعر أحمر طويل كاد أن يبلغ قبة سترته ـ يناقش الاحتمالات السياسية في لبنان . أدار رأسه ناحية القصر الجمهوري المرتفع فوقنا بين أشجار الصنوبر ، وسأل : «هل تعتقد أن رئيس الجمهورية يراقبنا من هناك؟» ثم أردف : «أعتقد أن على فيليب حبيب أن يطير إلى هنا ، ويأخذ سركيس إلى نافذة القصر ويشير إلى أننا قد وصلنا» .

لقد وصل الإسرائيليون حقاً ، وأوقفوا دباباتهم وشاحناتهم التي تقل الجنود على مرتفع قرب الطريق الرئيسي ، وهو مرتفع يشرف على مخيم برج البراجنة الفلسطيني . وكانت ترافقهم جماعة مرحة من مسلحي الكتائب اللبنانية الذين كانوا يقومون بدور الأدلاء ، وينظمون السير أمام الدبابات وهم في منتهى السعادة . وكان الإسرائيليون يقفون على الحشيش ، يدخنون سجائرهم وهم يحملون علب المشروبات . كنا نتوقع أن نقابل جبابرة ، وذلك بعد أن عاينّا شراسة هجماتهم الجوية وقصفهم المدفعي مدة تزيد عن الأسبوع . لكن الإسرائيليين الذين قابلناهم ـ شأنهم في ذلك شأن معظم الجنود خارج نطاق الوظيفة ـ كانوا أناساً ذوي كرم عفوي وسذاجة سياسية ، كما كانت تعتريهم بعض الحيرة بالنسبة لهذه الحملة الدموية المعقدة في لبنان .

كان أحد الجنود ـ وهو رائد من نتانيا ذو شارب أسود ولغة إنجليزية ممتازة ـ يجلس داخل شاحنة مصفحة ، وقدم لي كمشة من الكرز الأحمر الشهي . وتجمهر عدد من صغار الضباط حول الشاحنة منصتين إلى حوارنا . لقد جاؤوا كلهم عن طريق البحر فنزلوا في شاطئ الدامور وشقوا طريقهم وهم يقاتلون ، وداروا حول عاليه للوصول إلى هذه البقعة ذات الهواء اللطيف على الروابي المشرفة على بيروت حيث استقبلهم المارونيون وغمروهم بكرم الضيافة الذي نعموا به لأول مرة منذ وطئت أقدامهم أرض لبنان . وسأل جندي من القدس عن شكل الفلسطينيين . واستغربنا هذا السؤال لأن القدس مدينة فلسطينية أيضاً ، ولأنه قضى الأسبوع المنصرم يقاتل الفلسطينيين . فسألناه نحن عن صورة الفلسطيني في ذهنه؟

قال : «لم يقاتل الفلسطينيون جيداً . لقد أسرنا بعض الجرحى وقتلنا آخرين . من السهل عليهم أن يطلقوا صاروخاً أو يرموا قنبلة علينا وأن يهربوا . فذلك عمل لا يستلزم أن تكون جندياً ماهراً . ووجدنا أن السوريين أفضل منهم . وكان هناك بعض السوريين من رجال المخابرات التابعين لرفعت الأسد ، وقد حاربوا أيضاً» . وأكلنا المزيد من الكرز ثم سألته : هل يرغب الإسرائيليون في البقاء في

لبنان؟ فأجاب بالنفي . وقال أنهم لا يودون البقاء ويرغبون في إحلال السلام . ورمقناه بإمعان وبندقيته على كتفه والقنابل حول خصره ، فبدا أنه يعني ما قاله . ووافقه جميع زملائه الجنود بهز رؤوسهم . وأضاف : «لم نكن لنقاتل الفلسطينيين لو أنهم لم يقاتلونا» .

وكانت على الناحية الأخرى من الشارع فتاة لبنانية تلوّح بيديها لجنود دبابة إسرائيلية . وقدم عدد من العائلات في سياراتهم إلى هذا المنحدر الأنيس كالسياح ليتفرجوا على الجيش الغريب في بلد أجنبي . وهؤلاء هم الذين رشوا السوريين بماء الورد . وها هم يبادرون الإسرائيليين الآن بـ «شالوم» . أما الرائد من عسقلان ، فكان هناك ما يقلقه . سألنا : «ما هو الوضع في بيروت الغربية؟» .

واقترب منا بقية الجنود لأن السؤال كان يدور في أذهانهم أيضاً . فأخبرناهم بهدوء ودون مبالغة ، عن الوضع في بيروت الغربية عندئذ ، عن آلاف اللاجئين الذين تدفقوا إلى المدينة هرباً من جيش الاجتياح . وتحدثنا عن البيوت التي يحتلها المسلحون ويسرقون أصحابها ، وعن النوعية الجديدة الشرسة من المسلحين التي تنطلق في الشوارع الآن . كما أخبرناهم عن الغارات الإسرائيلية وعن المئات من ضحاياها من المدنيين في منطقة صبرا وكورنيش المزرعة ، وقلنا أن أكثر من نصف هؤلاء الضحايا من النساء والأطفال وأنهم ليسوا مجرمين أو «إرهابيين» أو أي نوع آخر من الأعداء ـ ويستحيل أن يكونوا كذلك .

وأنصت الجنود بانتباه إلى أرقام الإصابات التي زوّدناهم بها . وخيّم عليهم السكوت عند توقفنا عن الحديث . فسألناهم لماذا تُقصف الأماكن المدنية في رأيهم . وكان أول المجيبين هو الجندي ذو الشارب الأسود ـ وهو من نتانيا . هزّ كتفيه قليلاً ، ثم قال : «هذا سؤال سياسي . ونحن جنود» . وأدرك رفاقه بوضوح طبيعة هذا الجواب غير المرضي . فتقدم ملازم آخر وقال : «لقد قتلنا عدداً أقل مما قتل بلدكم في حرب الفوكلاند» . وابتسم الجنود الآخرون لهذا الهراء الإحصائي . وفي الختام ، تكلم المساعد الطبي ، فقال : «نريد السلام ، وجئنا إلى هنا من أجل أن يحل السلام . جئنا لنضع حداً للقتل» .

وبالرغم من أن هذا الكلام كان بلا معنى بعد أن سقط ذلك العدد الكبير من الضحايا في لبنان على مدى الأيام الثمانية المنصرمة ، فإن طلائع الإسرائيليين الذين دخلوا مشارف بيروت لم يدركوا ذلك . وكذلك فإنهم لم يجلبوا السلام معهم . فبعد أن قاد شارون بنفسه الطلائع المسلحة التي طوقت بيروت ، غادرها إلى شرقي المدينة حيث عقد سلسلة من الاجتماعات مع زعماء الموارنة لتوطيد

تحالفه مع الكتائب . وفي الحال سمح للمئات من مسلحي الكتائب بالدخول إلى منطقة الاحتلال الإسرائيلي الجديدة في الشوف الأعلى ، حيث أقاموا حواجز مسيحية مسلحة حول القرى المارونية التي بقيت حتى ذلك الحين في مأمن من الأذى ، رغم وجودها في مناطق تخضع ، تقليدياً ، للسيطرة الدرزية . ولم يسمح السوريون للكتائب بدخول هذه القرى إطلاقاً ، لأن دمشق كانت قد ضمنت أمن وسلامة هؤلاء المسيحيين . ولم يشكل أمن هذه الأقلية في الشوف أية مشكلة سياسية أبداً ـ فيما عدا استثناء وحيداً وهو هدر الدماء الذي أعقب اغتيال كمال جنبلاط .

وبإدخال ميليشيا حلفائهم المسيحيين إلى المنطقة حوّل الإسرائيليون هؤلاء القرويين المارونيين إلى أنصار متعاونين مع الكتائب ، رغم أن الغالبية العظمى من السكان لم تبد أية حماسة لمثل هذه «الحماية» . وفي غضون ساعات قليلة كان الإسرائيليون قد قلبوا توازن الثقة الدقيق الذي كان سائداً بين مختلف التجمعات في الجبل ، ذلك أن الدروز رأوا في وصول الكتائب دليلاً على أن القرويين ينوون التعاون مع أعدائهم . وهكذا تم وضع بذور مأساة جديدة ليلة وصول شارون لإحلال «السلام» في بيروت .

وتشجع الكتائبيون عندما رأوا رغبة الإسرائيليين في التعاون معهم ، فظهروا في شوارع بيروت الشرقية وفي التلال المحيطة ببعبدا ، وأقاموا مراكز تفتيش خاصة للشرطة العسكرية التي أنشأوها . وألصق المسلحون المسيحيون المسؤولون عن هذه الحواجز قطعاً من اللاصق الأحمر اللون حول خوذهم وكتبوا على مقدمتها حرفي

«م . ب»[٥] كما أحضر الكتائب مدفعيتهم ونصبوها في التلال المحيطة بالمدينة . ولم يقم الإسرائيليون بأدنى بادرة لمنعهم . أما القوات الإسرائيلية فكانت تذهب بدورها إلى بيروت الشرقية حيث تلقى الترحيب بوصفها قوات تحرير . وكان القادة الإسرائيليون يسهرون ويتعشون في أرقى المطاعم بينما يقوم جنودهم بالتسوق من متاجر بيروت الشرقية المترعة بالبضائع .

كانت شوارع المدينة الضيقة تزدحم بالشاحنات وسيارات الجيب الإسرائيلية التي كانت تلتزم بإشارات المرور الضوئية كما لو أنها تسير في تل أبيب أو حيفا . غير أن هذه الشوارع كانت تزدان بالأرزة المثلثة ـ رمز الكتائب ـ كما كانت صور كبيرة لبشير الجميّل ووالده بيار ملصقة على جدران البيوت . ولم تكن تلك الصور لبيار ابن السبعة والسبعين عاماً بل نسخاً من صورته وهو شاب يرتدي

(٥) هذان الحرفان مختصر للشرطة العسكرية (Military Police).

رباط عنق قصير أسود . إنها نسخ من صورة وزعت على المكاتب الكتائبية سنة ١٩٣٦ على أثر عودة الجميل من زيارته المهمة إلى ألمانيا النازية . وكانت النساء المسيحيات يلوحن ترحيباً بالقوات الإسرائيلية الغازية . وبعد ذلك بأربعة أسابيع أعلنت الصحافة الإسرائيلية زواج جندي إسرائيلي من فتاة مارونية ، وهو الزواج الأول من نوعه منذ الاجتياح .

أما في بيروت الغربية فقد أخذ المسلمون السنيون يتدفقون على التلال المطلة على المدينة ، لا بوصفهم لاجئين بل بوصفهم سياحاً يقصدون معاينة القادمين الجدد إلى لبنان . وكان بعضهم يستريح متنزهاً إلى جوار التجمعات العسكرية الإسرائيلية في بعبدا ويطلبون إلى الجنود الإسرائيليين أن يتصوروا معهم .

ويتميز اللبنانيون عن غيرهم بالغفران القائم على حساب حدسي يوازن بين خطايا الماضي واحتمالات الفوائد في المستقبل . فالإسرائيليون كانوا يربحون . إذ طوّقوا بيروت الغربية ، ووعدوا بالسلام وبإخراج الفلسطينيين ، وقالوا أنهم لا يبيّتون خططاً ضد لبنان . وبناء عليه تجاهلت العائلات اللبنانية القادمة للتنزه من بيروت الغربية مجزرة الأسبوع الفائت ، وابتسمت تحية للجنود الشبان الجدد الذين احتلوا البلاد .

لقد شاهدوا ـ كما شاهدنا نحن إبان إجتيازنا للخطوط الفاصلة ذهاباً وإياباً ـ الإسرائيليين يحضرون المئات من دبابات الميركافا المقاتلة والمدفعية بعيدة المدى إلى محيط بيروت الغربية . أما في أعالي الشوف ، على مقربة من بيت الدين وبعقلين ودير القمر ، فقد وجدنا الإسرائيليين يشيدون قواعد من الإسمنت المسلح لإطلاق القذائف الضخمة ، م ـ ١٠٧ . وفي بعض المواقع ، كان فريق من خمسة جنود قد أتم تركيز الصواريخ التي يبلغ طول الواحد منها ثلاثة وثلاثين قدماً ، فلاحظنا أنها موجهة ، دائماً ، فوق أعالي الجبال باتجاه بيروت . أما في بعبدا فقد شاهد اللبنانيون رتلاً من دبابات الهويتزر م ـ ١٠٨ تنحدر صوب الحدث . وشاهد المتنزهون اللبنانيون المسلمون كل ذلك ، لكنهم لم يكفّوا عن الابتسام . ثم جمعوا أطفالهم في سياراتهم وعادوا إلى بيروت الغربية .

وتخلت الميليشيات اليسارية المسلحة المتحالفة مع الفلسطينيين عن منظمة التحرير في الرابع عشر من حزيران / يونيو ، وأعلن سركيس قيام «حكومة الإنقاذ الوطني» التي تضم وليد جنبلاط ونبيه بري ، وبشير الجميّل ، وهذا هو الأهم . وفي ذلك المساء ، على مقربة من المطار ، وجدت جماعة من رجال أمل يرمون أسلحتهم في أحد الخنادق ويمزقون بطاقات هوياتهم خوفاً من اقتحام الإسرائيليين لبيروت الغربية في اليوم التالي فيثأرون منهم بسبب معارك خلدة . وفي مساء الرابع عشر

من حزيران / يونيو نفسه ، شاهدت ملاءات ومناشف ترفرف على أنتينات سطوح البنايات وفي شرفاتها في منطقة الحمراء ببيروت الغربية . وكانت بمثابة أعلام بيضاء تعلن الاستسلام . وأصبح الفلسطينيون الآن محاصرين من كل ناحية ، ولم يبق لديهم غير بيروت الغربية يحاربون فيها . وكرّر جورج حبش ، زعيم الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ، وعده بأن يجعل من بيروت «ستالينغراد جديدة» .

ولم يكن باستطاعة السوريين أن يقبلوا بأن تقع المدينة التي أقسموا على حمايتها في أيدي الإسرائيليين . وكان فيليب حبيب راغباً في مساعدة سركيس على تأليف «حكومة الإنقاذ الوطني» . لكن كان من المستحيل خلق واقع جديد في لبنان بدون تعاون سوريا . وفي الخامس عشر من حزيران (يونيو) أصرت سوريا على أن قواتها موجودة في المدينة بموجب اتفاق حفظ السلام الذي أقرته جامعة الدول العربية . وأذاع راديو دمشق أن الجنود السوريين المحاطين بالفلسطينيين في بيروت الغربية هم هناك «بموجب قرار عربي وبطلب من السلطات الشرعية اللبنانية» . ولذلك فالقوات السورية «سوف تؤدي مهمتها بالدفاع عن السلطة الشرعية للحكومة اللبنانية ، وعن الحدود اللبنانية والشعبين اللبناني والفلسطيني» .

وبهذا سقط آخر وقف لإطلاق النار . ولم تكن هناك أية نيّة لإنجاحه أصلاً . وانهارت الهدنة بعد يوم واحد بسبب قصف المدفعية الكتائبية المنصوبة على مرتفعات بعبدا للفلسطينيين . وكان معظم قصف الميليشيات المسيحية يستهدف وحدة تابعة للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين تتمركز في كلية العلوم التابعة للجامعة اللبنانية ، وهي عبارة عن بناء مستطيل الشكل حديث الهندسة عمارته من الإسمنت والمعدن وصفائح الزجاج يقوم على مساحة صغيرة تكسوها الحشائش في أسفل منطقة الحدث ، على طرف حدود بيروت الغربية . ولم يحاول الإسرائيليون الذين كانت كتيبة من مشاتهم تتمركز في مدرسة تحت موقع المدافع التي تقصف ، التدخل على الإطلاق . والواقع هو أننا عندما رأينا الإسرائيليين ذلك الصباح ، كانوا يجلسون فوق جدار من الإسمنت جنوبي الغرف الدراسية الخالية ، يراقبون القذائف وهي تنفجر رمادية فوق حرم الكلية .

وكان معظم الإسرائيليين في هذا الموقع هم من اليهود السفارديم ، وكانوا يتحدثون باللغة العربية مع مسلحي الكتائب الذين نزلوا من تلة نُصبت عليها مدافعهم . على أن بعض الضباط الإسرائيليين كانوا من اليهود الأشكناز مثل الضباط الذين التقينا بهم قبل يومين . لكن كان قد حدث بعض التغيير الذي تجلى في غياب المتنزهين المسلمين ، وفي العداء الذي واجهنا به الكتائبيون على مرأى من الإسرائيليين ، إذ أخذوا ينتزعون البطاقات الصحفية من أيدينا ويأمروننا بالعودة إلى بيروت الغربية ،

ويصوّبون بنادقهم نحونا لدى اعتراضنا . كما أن هذا التغيير تجلى في اللامبالاة التي أظهرها الإسرائيليون وهم يطلبون من الكتائب ألا يتعرضوا لنا . فلقد كان من المخيف أن يعتبر الإسرائيليون تلقائياً أن للكتائب الحق في الاشتراك في الحرب ، وهي الميليشيا التي تألفت على غرار ميليشيات سياسية في أوروبا في الثلاثينات من هذا القرن . ألم يدركوا أن كلمة «كتائب» ذاتها تنم عن الدكتاتورية واللاّسامية الأوروبيتين؟

اقترب منا ملازم إسرائيلي شاب خلع عليه شعره المجعد ونظارته ذات الإطار الفضي رقة تبلغ حد الزهد . ويبدا للوهلة الأولى أنه لا ينسجم مع الدبابات وناقلات الجنود الُمتمركزة في ميدان القتال على التلة فوقنا . وكانت المدافع الكتائبية تقصف من مواقعها قرب الكنيسة المارونية وفوق تلة على يسارنا ، حين اقترب هذا الجندي منّا وحيّانا بهدوء بقوله «شالوم» ، ثم تطوّع بإخبارنا ، وكأنه رجل أكاديمي ، بأن المدفعية هي من عيار ١٥٥ مليمتر . وكانت القذائف تنفجر في السهل الضيق الذي يفصل بين التلال والبحر والمطار المهجور ، وفي كلية العلوم حيث تزحف ألسنة اللهب على جانب البناء الفضي .

قال الجندي الشاب : «هناك إرهابيون في الأسفل وفي المخيم إلى جهة اليمين» وهو يشير بيده في اتجاه بيروت الغربية . لقد عاش هذا الجندي معظم أيام شبابه في فرنسا ، ولم يهاجر إلى إسرائيل إلاّ قبل ست سنوات . وكان يتكلم اللغة الإنجليزية بلكنة فرنسية واضحة ، ويستعد للفصل الدراسي الأول بكلية الحقوق في القدس في الخريف القادم . أما الآن فكان يقوم بدوره كجندي . وشق طريقه من الجنوب اللبناني ماراً بصور . وكان من الواضح أنه يعرف أن بين زملائه من يستنكر ما فعله جيشهم خلال الأيام العشرة الماضية . فقد شاهد الدمار في صيدا .

قال : «أعتقد أن ذلك لم يكن جميلاً ، لكن على المرء أن يؤدي مهمته . وعليكم أنتم كصحفيين أن لا تنسوا كيف تبدو قرى الجليل وهي تتعرض للقصف» . ونظرنا جميعاً إلى الأسفل فإذا بالكتائب في الحدث قد تحولوا بمدافعهم إلى اليمين . فصارت سحب الدخان الرمادي تتصاعد من أطراف مخيم برج البراجنة . لكننا سألناه اذا كان يعتقد أن الدمار والمجازر التي حلت بلبنان خلال هذه الأيام الأخيرة ـ وكانت التقديرات تشير إلى مقتل ما يقارب العشرة آلاف نسمة ـ تتناسب مع ما أحدثه القصف في شمالي إسرائيل .

وأجاب على الفور بقوله :«الفرق بين قتيل واحد وألف قتيل ليس مهماً . الألم واحد في الحالتين . إن مرأى القتلى من النساء والأطفال هنا ليس مما يسر ، غير أن الجميع منخرط في مثل هذه الحرب ـ بما في ذلك النساء ـ ولهذا السبب لا نقدر دائماً أن نعاقب المسؤولين مباشرة لأن ذلك

يكلفنا عدداً كبيراً من القتلى . وبالنسبة إلينا فيما أعتقد ـ وكلّي أمل أن تتفهموا موقفنا ـ فإن موت جندي إسرائيلي واحد يفوق أهميّة مقتل عدة مئات من الفلسطينيين . اننا لا نلعب كرة القدم . وأعني بذلك أن المهم ليس عدد القتلى وإنما هو الهدف الذي نحاول تحقيقه . فأنا أرجو أن يسود السلام في لبنان ، وإن كان ثمن ذلك العديد من الضحايا ، فهذا هو واقع الأمر» .

وتبيّن لنا أن هذا الشاب لم يدرك ما في قوله من تناقض . قال إن إسرائيل تحاول أن تجد حلاً للسنوات المقبلة ، قد يكون التوصل إلى سلام مع حكومة مسيحية أو حتى مع المسلمين وبالتالي «بيننا وبين واحد من جيراننا ، على الأقل» . وقال أن مصر ليست في حالة سلام مع إسرائيل لكنه رفض ان يقول ما سبب ذلك . وكان من الواضح أنه يتحدث عن إسرائيل بوصفها دولة ذات رسالة .

قال : «لدينا هنا فرصة سانحة لإقامة سلام دائم لأن الناس في حاجة إلينا . نحن في حاجة اليهم كجيران مسالمين ، وهم في حاجة الينا لأننا الأقوى ، ولأننا الأكثر تنظيماً . فنحن قادرون على مساعدتهم . قد نحب وقد نكره هؤلاء الناس ، لكننا في حاجة إليهم لأن ذلك يخدم مصلحتنا» . وكان هذا الجندي يتحدث بحماسة بالغة كما لو أن وجوده هنا نابع من شعوره بأنه المخلّص . واعترانا إحساس بالقلق والتوتر لدى سماع كلماته . وكنت أسجل حديثه للإذاعة الكندية ، غير أنه لم يبد أي اكتراث بالميكروفون الذي رفعته أمام وجهه . وقصفت المدافع الكتائبية فوقنا من جديد ، وتصاعد اللهب مرة أخرى من بناية الجامعة تحتنا . وكانت الرشاشات تطلق النار بانتظام للتعبير عن القوة من خلال النيران .

سألناه : وماذا عن الفلسطينيين؟ فتنهد الجندي الإسرائيلي برفق ، كأنما كان يدرك منذ البداية حتمية إثارة هذا السؤال . قال : «إسمعوا . أنا أعرف أنكم تسجلون هذا الحديث ، لكنني شخصياً ، أتمنى أن أراهم كلهم أمواتاً . يمكنكم أن تنشروا هذا حيث شئتم . أتمنى أن أرى جميع الفلسطينيين أمواتاً لأنهم مرض أنّى ذهبوا» .

سألناه : أليس هذا هو ما قاله هتلر حرفياً عن اليهود؟ أجاب : «هو كذلك ، مع فارق بسيط وهو أن الفلسطينيين يتلقون المعونة ، وفي المنطقة دول كثيرة على استعداد لأن تساندهم وتمدهم بالمساعدة . لكن هذا هو النفاق ، كما تعلمون . فالدول العربية تساعدهم لتدمير إسرائيل ، لكنها لا تهتم بالانعاش الاجتماعي . إنني أدرك أنه يصعب علي التعبير عن رأيي هذا ، لأنني قد أكون عاطفياً فيما يتعلق بهذه القضية . لكنني شخصياً أرحب بموت جميع الفلسطينيين ، ولن أمانع في المساعدة على تحقيق ذلك» .

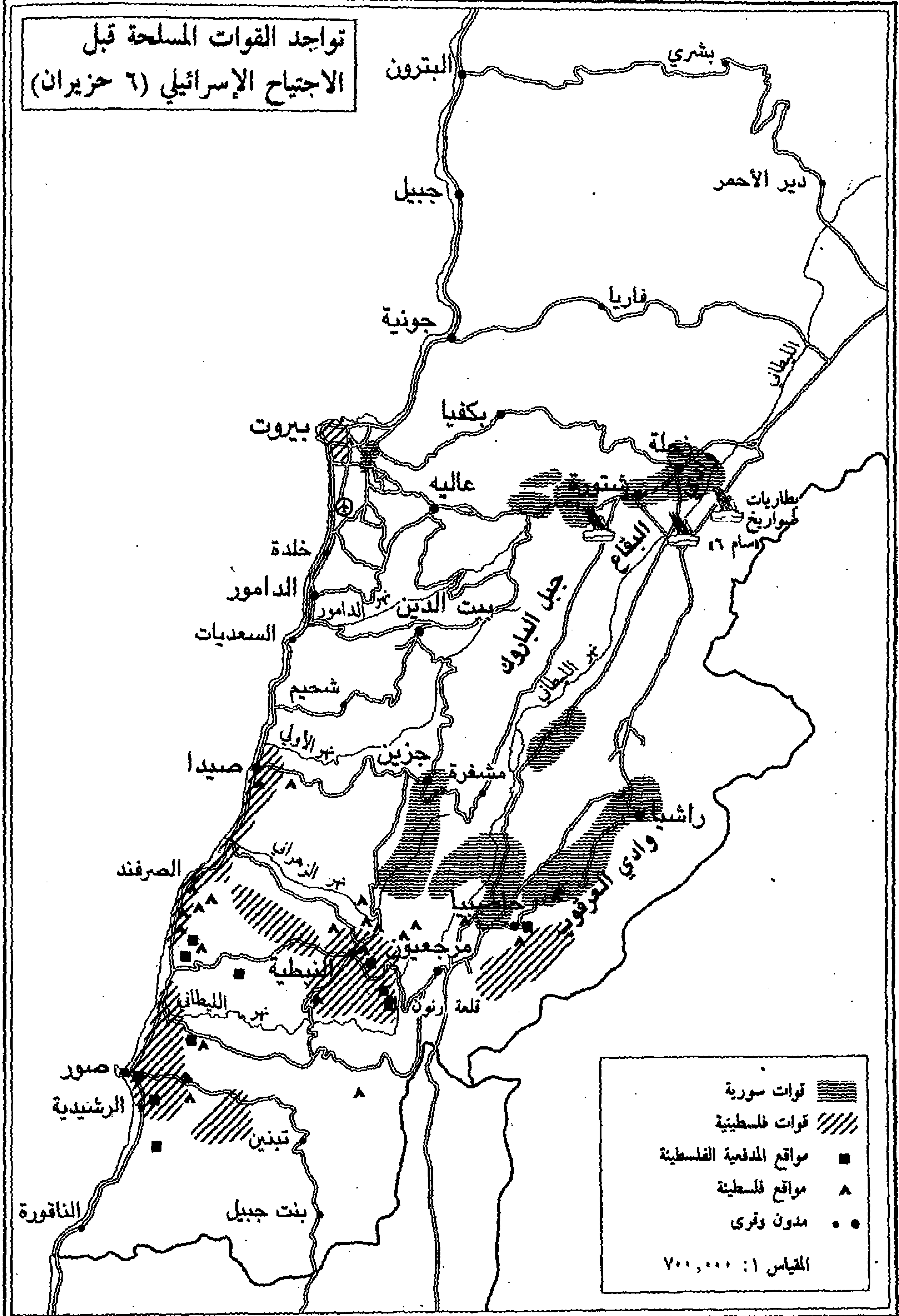
كان هناك شيء فظيع مقلق للغاية يتفجر في أعماق هذا الجندي الشاب ـ نوع من مرض الخوف قوي كالمدافع المدوية فوق رؤوسنا . فكأن هذا الملازم قرر فجأة ودون مبرر أن يضحي بأخلاقيته في سبيل قوة عاطفة عنيفة رهيبة تجتاحه . ولعلّ جهاز الميكروفون الذي كنت أحمله هو الذي جعل هذا الملازم الشاب يتردد ويقول : «أدرك أن أقوالي تبدو غير مستحسنة أو مرضية ، و . .» . ثم صمت عدة ثوان كأنه يحاول أن يكبح أفكاره ، وأن يضبط الأمور التي تفجرت خلال تعبيره عن الكراهية . وسمعنا صفير القذائف فوق رؤوسنا وتلاه صوت انفجارها في الأسفل بعد ثوان معدودات . قال :«كنتَ تتحدث عن هتلر . أعرف مقولة أن اليهود قد ذاقوا العذاب على يدي هتلر ، وأنه يجب أن لا يعاني أحد من طغيان اليهود . لكنني لا أفهم ذلك . إن مصلحتنا الأساسية تكمن في أن نعيش في أمن وسلام وأن نزدهر في بلادنا ، فإن أزعجنا أحد أو حاول أن يدمرنا ، فلا ينبغي أن يمنعنا شيء من تدميره . والتوراة كما تعلم تقول بذلك أيضاً» .

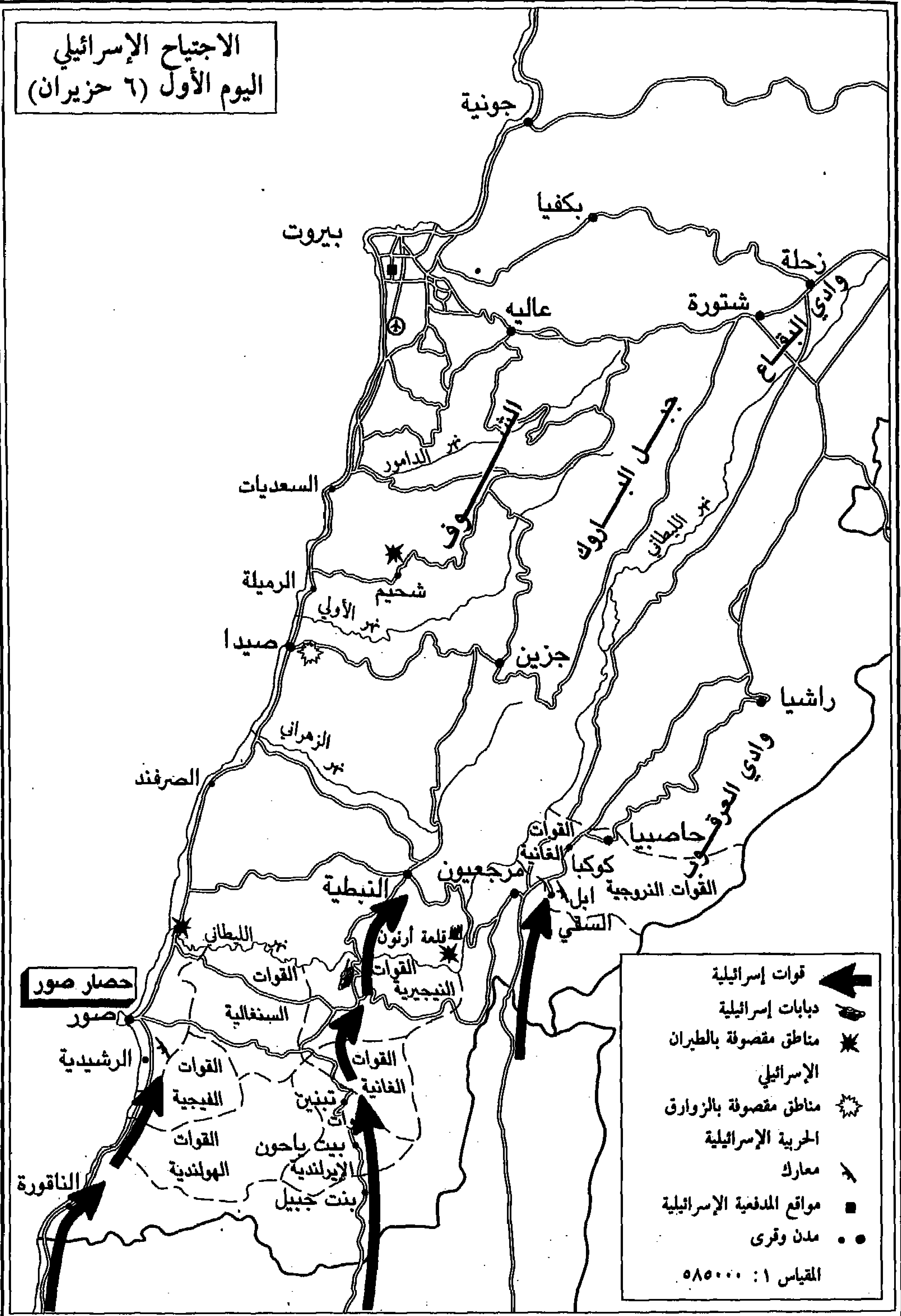
وكان القصف يشتد عنيفاً في السهل تحتنا ، ولعله قد أثّر في الإسرائيلي الذي امتدت يمناه لتستقر فوق بندقيته فقال : «أنا لا أقول اقتلوا كل فرد منهم ، فهذه مجرد أمنية ، كما تعلمون . وأنا شخصياً لا أعتقد أن حكومتنا يمكن أن تتحمل المسؤولية عن مجزرة يذبح فيها الكثير من الفلسطينيين . لكن أقل ما يجب أن نقوم به ، في أية حال ، هو القضاء على قدراتهم العسكرية ومنظمتهم السياسية» .

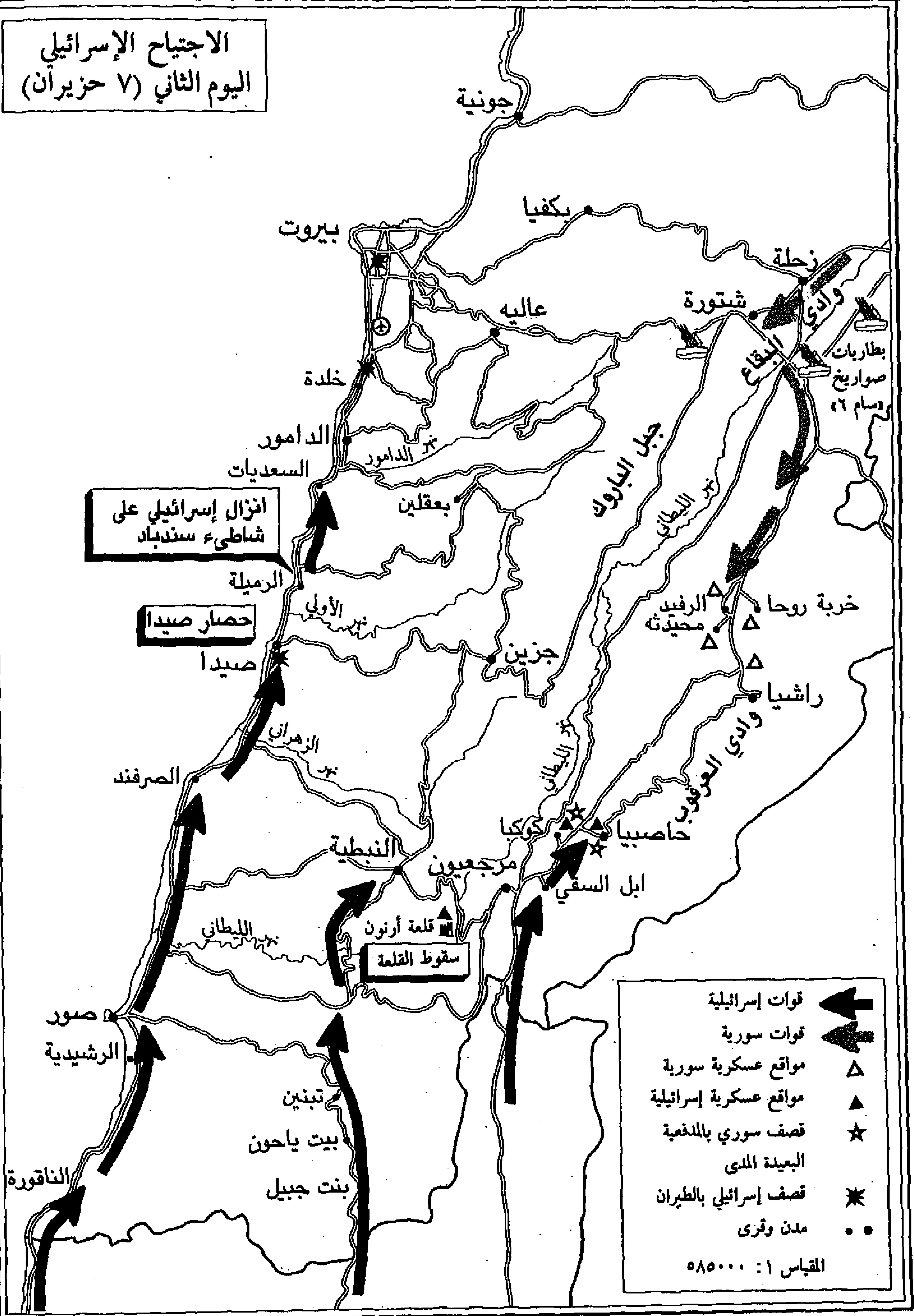
وعاد الجندي بذهنه إلى مسألة القوة الإسرائيلية قال : «لكننا أقوياء . لا شكّ في ذلك . ونحن أقوياء إلى درجة تمكّننا من تقرير خياراتنا . . . فإن نحن لم ندخل الآن إلى بيروت الغربية ، فليس مردّ ذلك إلى أننا لا نقدر ـ بل السبب هو أننا لا نريد ذلك . أما الآن فنحن في موقع الضغط . وأرجو أن لا يعود الفلسطينيون إلى الجنوب أبداً . وما لم تقم قوة حقيقية هنا ـ وأرجو أن لا تكون قوة إسرائيلية ، بل أميركية أو تابعة للأمم المتحدة ـ ما لم تقم مثل هذه القوة ، سيعود الفلسطينيون في غضون سنوات قليلة ، وسيكون كل هذا الذي قمنا به بلا جدوى» .

وعندما أستمع الآن إلى هذه المقابلة غير العادية على شريط التسجيل الذي كان يهتز بفعل القذائف الكتائبية المتطايرة فوق رؤوسنا ، أستطيع سماع صوتي وهو يعلو ويعبّر عن صعوبة تصديقي بعض ما سمعته من ذلك الجندي . واليوم أدرك أن كلماته الرهيبة كانت مشحونة بالنبوءة . لكنها عندئذ كانت مجرد مؤشر إلى ما سيحدث ، ومثلاً على التدهور الأخلاقي الذي سيحوّل الاجتياح إلى أول هزيمة عسكرية لإسرائيل .

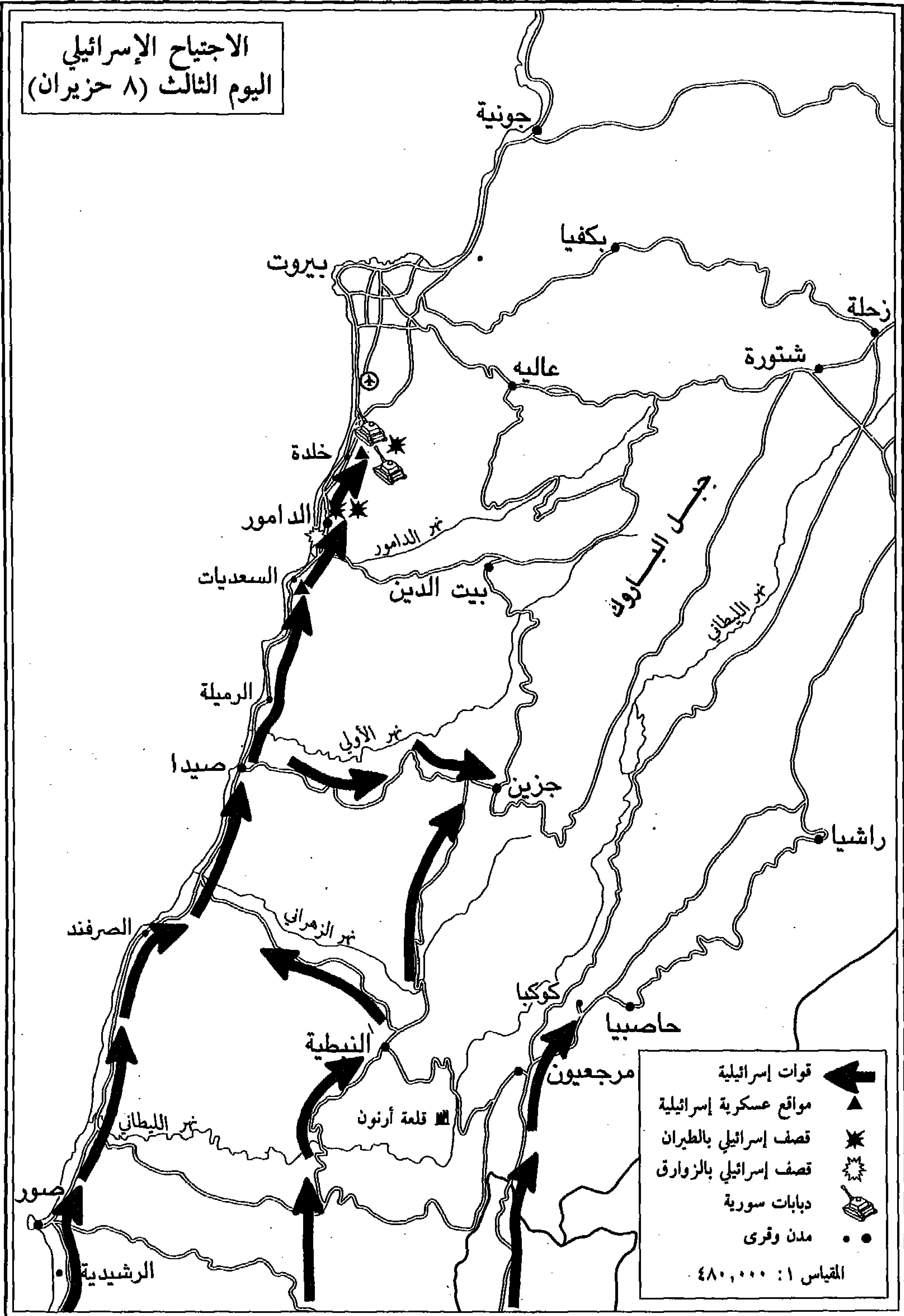
تبادلنا تحيات الوداع بأدب لطيف وقام الملازم الشاب حتى برفع يده اليمنى إلى جوار رأسه في تحية لطيفة ودودة . وتطلعنا من جديد إلى الأسفل ، إلى السهل حيث شكّل الدخان المنبعث من بناية الجامعة بساطاً من السحاب الأسود غطى غربي المدينة ، وإطاراً من الأوساخ حول البحر امتزج بالقتام ، وسيستمرالسعي إلى السلام في القضاء على المزيد من البشر .

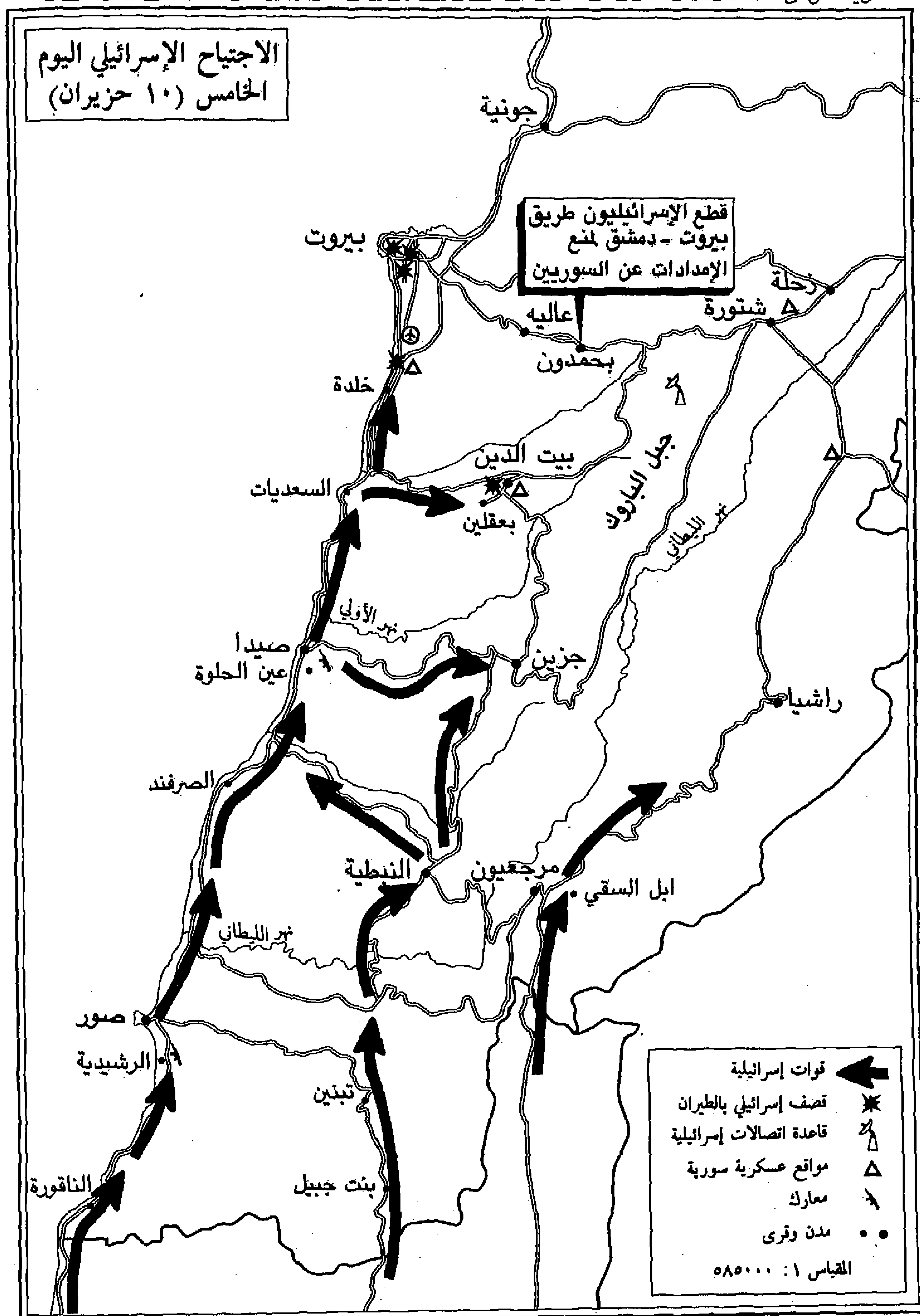

تواجد القوات المسلحة قبل
الاجتياح الإسرائيلي (٦ حزيران)
بشري
البترون
دير الأحمر
جبيل
فاريا
جونية
الليطاني
بكفيا
بيروت
عاليه
شتورة
بطاريات
صواريخ
سام ٦
خلدة
الدامور
نهر الدامور
بيت الدين
السعديات
جبل الباروك
البقاع
نهر الليطاني
شحيم
نهر الأولي
جزين
صيدا
مشغرة
راشيا
وادي العرقوب
الصرفند
نهر الزهراني
مرجعيون
النبطية
قلعة أرنون
نهر الليطاني
صور
الرشيدية
تبنين
الناقورة
بنت جبيل
قوات سورية
قوات فلسطينية
مواقع المدفعية الفلسطينية
مواقع فلسطينية
مدون وقرى
المقياس ١ : ٧٠٠,٠٠٠

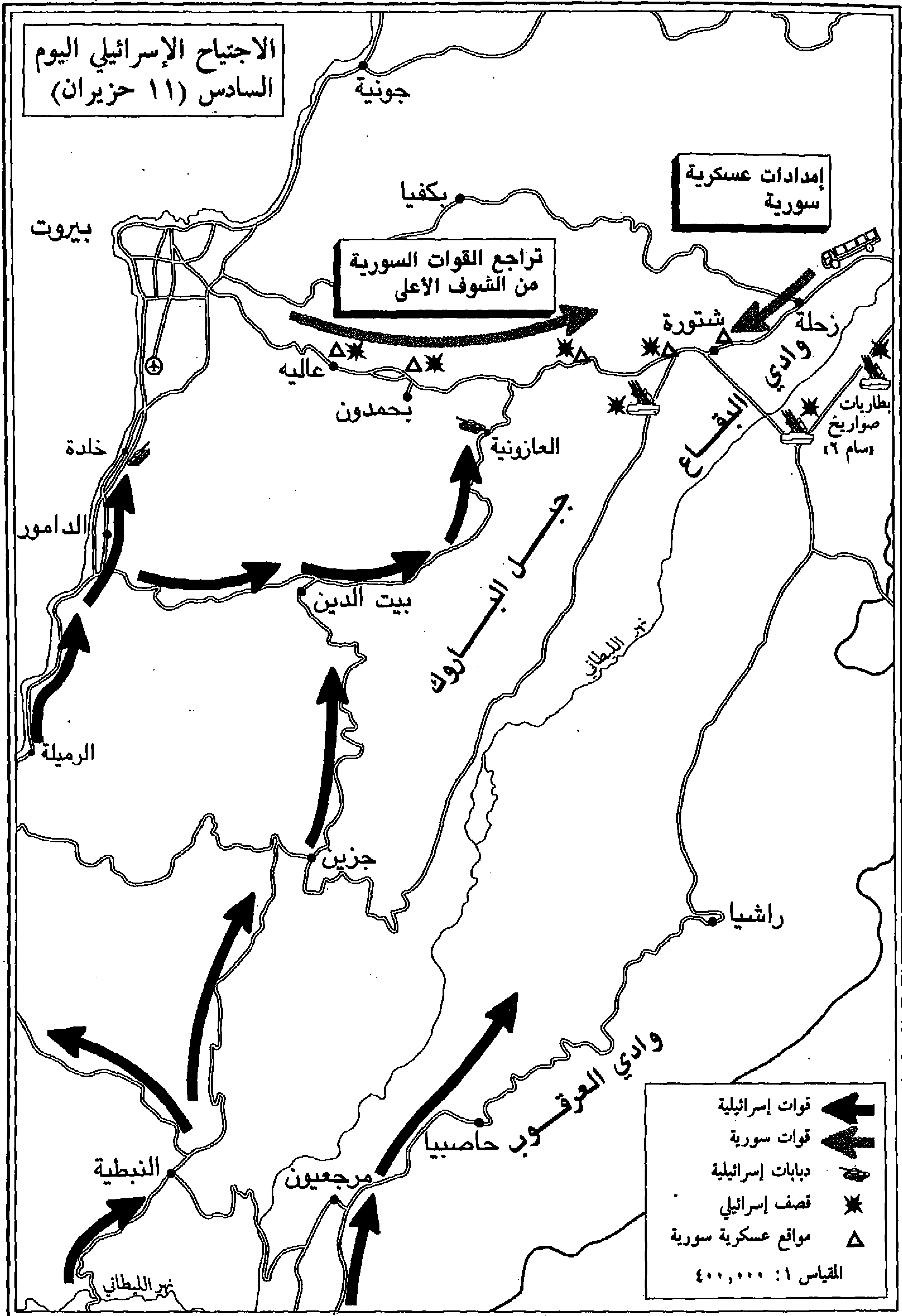

الاجتياح الإسرائيلي
اليوم الأول (٦ حزيران)
جونية
بكفيا
بيروت
زحلة
شتورة
عاليه
وادي البقاع
الشوف
جبل الباروك
الدامور
السعديات
الليطاني
شحيم
الرميلة
نهر الأولي
صيدا
جزين
راشيا
الزهراني
نهر
الصرفند
وادي العرقوب
القوات الغانية
حاصبيا
مرجعيون
كوكبا
القوات النروجية
النبطية
ابل
السقي
قلعة أرنون
نهر الليطاني
القوات النيجيرية
القوات
حصار صور
صور
السنغالية
الرشيدية
القوات الفيجية
القوات الغانية
تبنين
القوات الهولندية
بيت ياحون
الإيرلندية
الناقورة
بنت جبيل
قوات إسرائيلية
دبابات إسرائيلية
مناطق مقصوفة بالطيران الإسرائيلي
مناطق مقصوفة بالزوارق الحربية الإسرائيلية
معارك
مواقع المدفعية الإسرائيلية
مدن وقرى
المقياس ١ : ٥٨٥٠٠٠

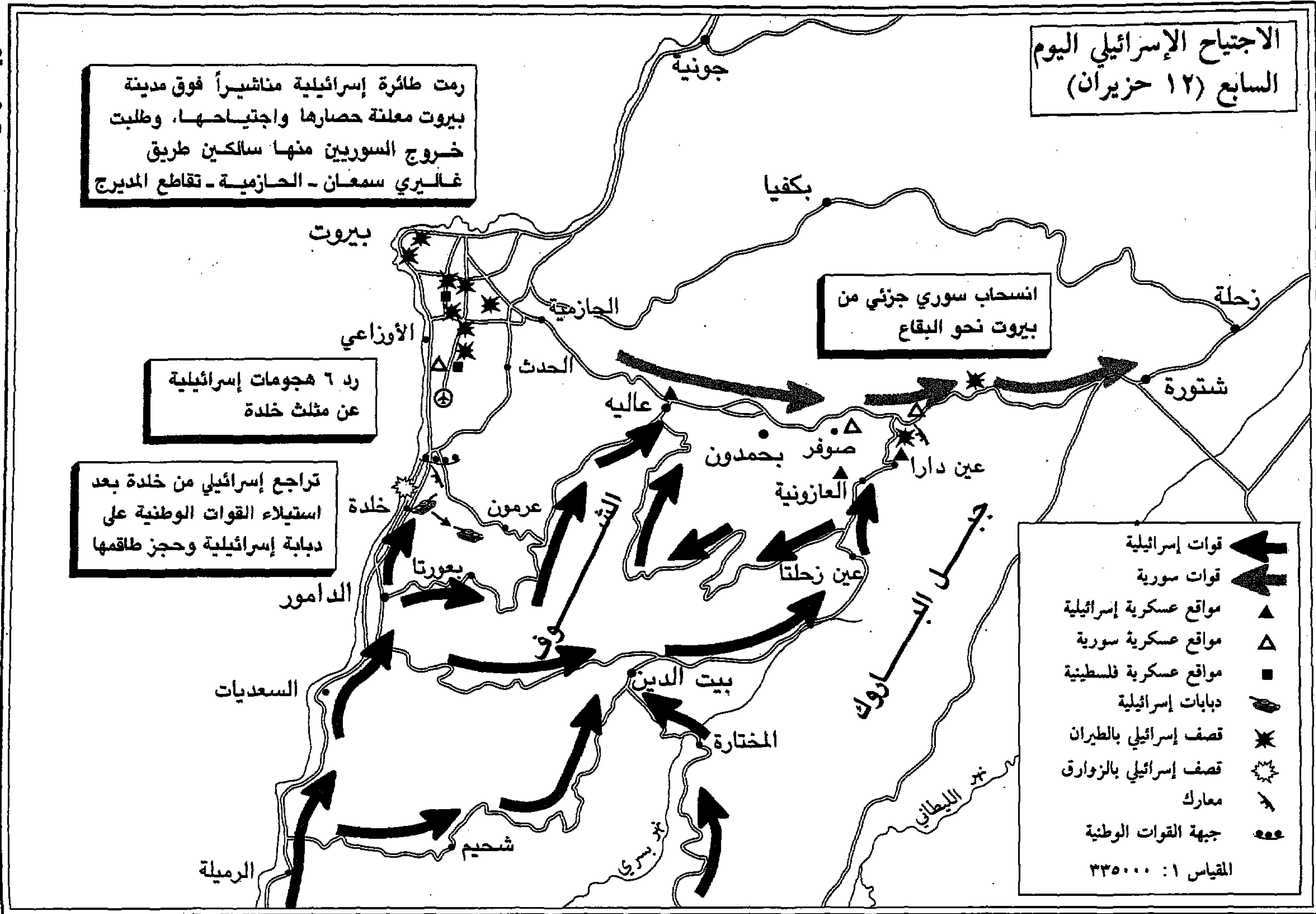


الاجتياح الإسرائيلي
اليوم الثاني (٧ حزيران)
جونية
بكفيا
بيروت
زحلة
شتورة
عاليه
وادي البقاع
بطاريات صواريخ (سام ٦)
خلدة
الدامور
نهر الدامور
السعديات
جبل الباروك
انزال إسرائيلي على شاطىء سندباد
بعقلين
نهر الليطاني
الرميلة
الأولي
خربة روحا
الرفيد
محيدثه
حصار صيدا
صيدا
جزين
راشيا
وادي العرقوب
الزهراني
الصرفند
كوكبا
حاصبيا
النبطية
مرجعيون
ابل السقي
قلعة أرنون
الليطاني
سقوط القلعة
صور
الرشيدية
تبنين
بيت ياحون
بنت جبيل
الناقورة
قوات إسرائيلية
قوات سورية
مواقع عسكرية سورية
مواقع عسكرية إسرائيلية
قصف سوري بالمدفعية البعيدة المدى
قصف إسرائيلي بالطيران
مدن وقرى
المقياس ١: ٥٨٥٠٠٠

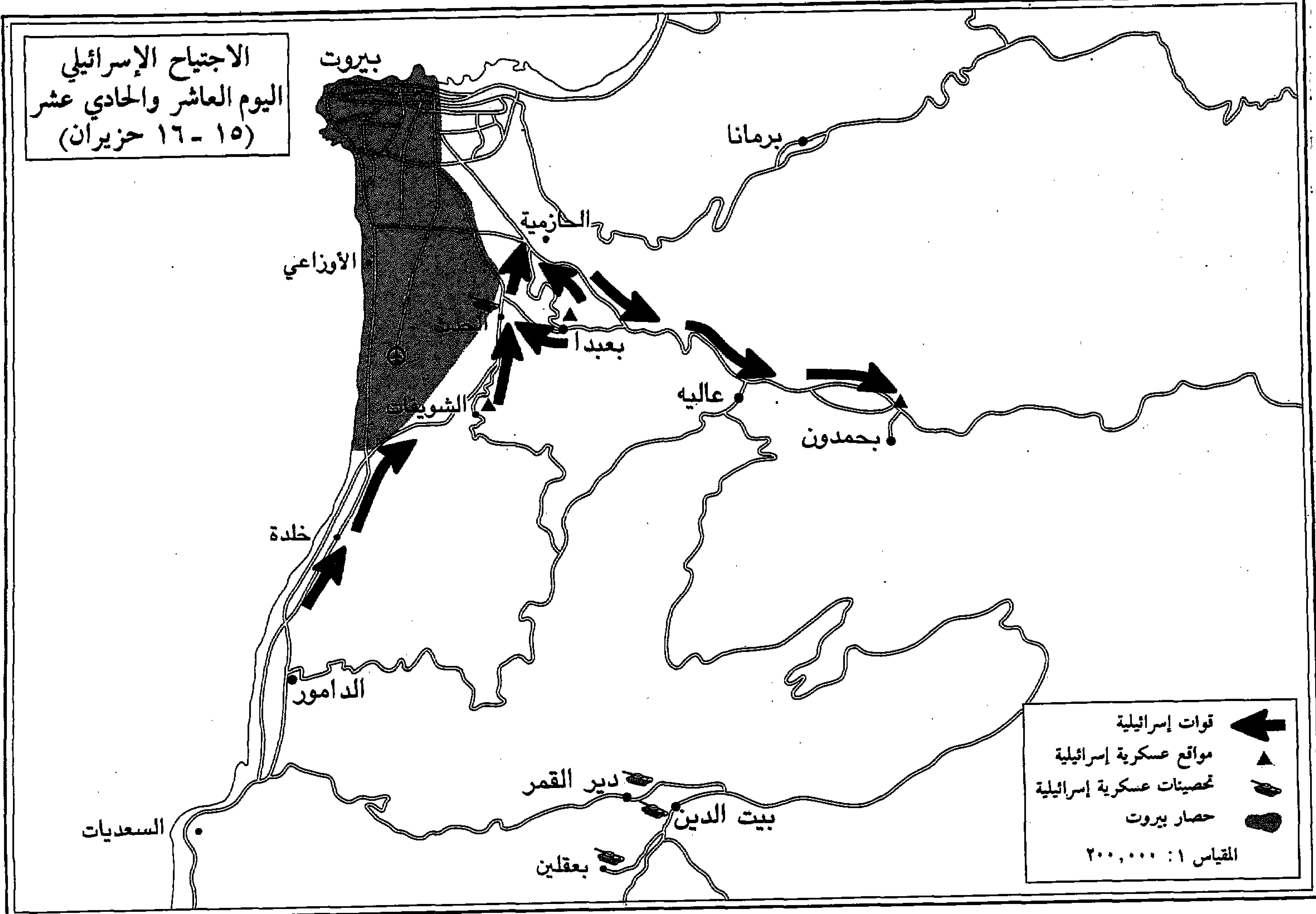

الاجتياح الإسرائيلي
اليوم الثالث (٨ حزيران)
جونية
بكفيا
بيروت
زحلة
شتورة
عاليه
خلدة
الدامور
نهر الدامور
السعديات
بيت الدين
جبل الباروك
نهر الليطاني
الرميلة
نهر الأولي
صيدا
جزين
راشيا
الصرفند
نهر الزهراني
كوكبا
حاصبيا
النبطية
مرجعيون
قلعة أرنون
نهر الليطاني
صور
الرشيدية
قوات إسرائيلية
مواقع عسكرية إسرائيلية
قصف إسرائيلي بالطيران
قصف إسرائيلي بالزوارق
دبابات سورية
مدن وقرى
المقياس ١: ٤٨٠,٠٠٠


الاجتياح الإسرائيلي اليوم
الخامس (١٠ حزيران)
جونية
بيروت
قطع الإسرائيليون طريق
بيروت - دمشق لمنع
الإمدادات عن السوريين
زحلة
شتورة
عاليه
بحمدون
خلدة
بيت الدين
جبل الباروك
السعديات
بعقلين
نهر الليطاني
نهر الأولي
صيدا
عين الحلوة
جزين
راشيا
الصرفند
النبطية
مرجعيون
ابل السقي
نهر الليطاني
صور
الرشيدية
تبنين
الناقورة
بنت جبيل
قوات إسرائيلية
قصف إسرائيلي بالطيران
قاعدة اتصالات إسرائيلية
مواقع عسكرية سورية
معارك
مدن وقرى
المقياس ١ : ٥٨٥٠٠٠

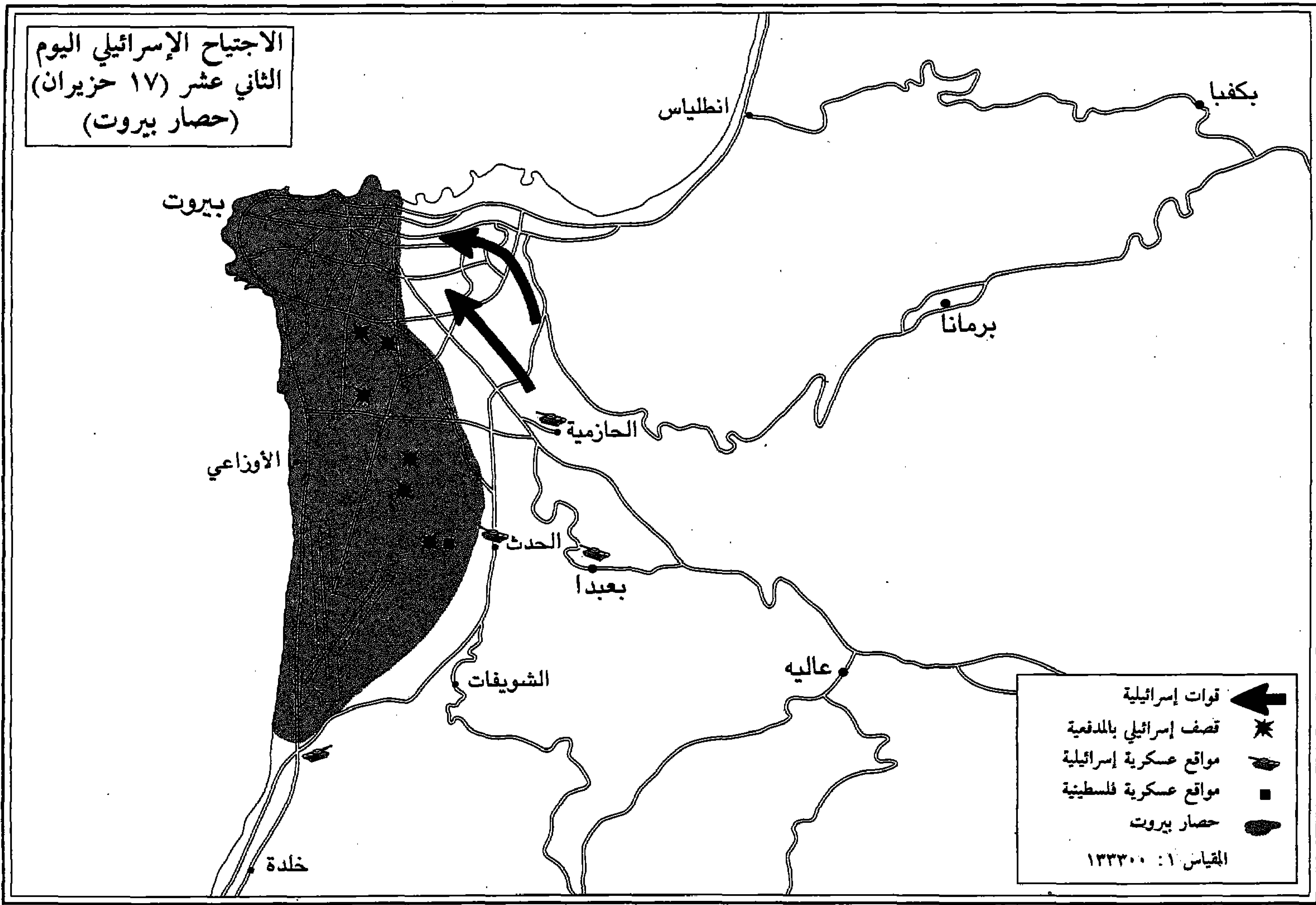

الاجتياح الإسرائيلي اليوم السادس (١١ حزيران)
جونية
إمدادات عسكرية سورية
بكفيا
بيروت
تراجع القوات السورية من الشوف الأعلى
شتورة
زحلة
عاليه
بحمدون
وادي البقاع
بطاريات صواريخ «سام ٦»
خلدة
العازونية
الدامور
جبل الباروك
بيت الدين
نهر الليطاني
الرميلة
جزين
راشيا
وادي العرقوب
حاصبيا
النبطية
مرجعيون
نهر الليطاني
قوات إسرائيلية
قوات سورية
دبابات إسرائيلية
قصف إسرائيلي
مواقع عسكرية سورية
المقياس ١: ٤٠٠,٠٠٠


الاجتياح الإسرائيلي اليوم
السابع (١٢ حزيران)
رمت طائرة إسرائيلية مناشيراً فوق مدينة بيروت معلنة حصارها واجتياحها، وطلبت خروج السوريين منها سالكين طريق غاليري سمعان - الحازمية - تقاطع المديرج
رد ٦ هجومات إسرائيلية عن مثلث خلدة
تراجع إسرائيلي من خلدة بعد استيلاء القوات الوطنية على دبابة إسرائيلية وحجز طاقمها
انسحاب سوري جزئي من بيروت نحو البقاع
جونية
بكفيا
زحلة
بيروت
الجازمية
الأوزاعي
الحدث
شتورة
عاليه
صوفر
بحمدون
عين دارا
العازونية
خلدة
عرمون
بعورتا
الدامور
عين زحلتا
الشوف
جبل الباروك
السعديات
بيت الدين
المختارة
شحيم
الرميلة
نهر بسري
نهر الليطاني
قوات إسرائيلية
قوات سورية
مواقع عسكرية إسرائيلية
مواقع عسكرية سورية
مواقع عسكرية فلسطينية
دبابات إسرائيلية
قصف إسرائيلي بالطيران
قصف إسرائيلي بالزوارق
معارك
جبهة القوات الوطنية
المقياس ١: ٣٣٥٠٠٠

الاجتياح الإسرائيلي
اليوم الثامن (١٣ حزيران)
بكفيا
انطلياس
بيروت
برمانا
الأوزاعي
الحدث
بعبدا
الشويفات
عاليه
وصول الإسرائيليين إلى أطراف مدينة بحمدون
بحمدون
صوفر
خلدة
الدامور
دير القمر
قوات إسرائيلية
مواقع عسكرية إسرائيلية
مواقع عسكرية سورية
قصف إسرائيلي بالطيران
معارك
جبهة القوات الوطنية
المقياس ١ : ٢٠٠,٠٠٠



الاجتياح الإسرائيلي
اليوم العاشر والحادي عشر
(١٥ - ١٦ حزيران)
بيروت
برمانا
الحازمية
الأوزاعي
بعبدا
عاليه
بحمدون
الشويفات
خلدة
الدامور
دير القمر
بيت الدين
بعقلين
السعديات
قوات إسرائيلية
مواقع عسكرية إسرائيلية
تحصينات عسكرية إسرائيلية
حصار بيروت
المقياس ١: ٢٠٠,٠٠٠


الاجتياح الإسرائيلي اليوم
الثاني عشر (١٧ حزيران)
(حصار بيروت)
بيروت
انطلياس
بكفيا
برمانا
الحازمية
الأوزاعي
الحدث
بعبدا
عاليه
الشويفات
خلدة
قوات إسرائيلية
قصف إسرائيلي بالمدفعية
مواقع عسكرية إسرائيلية
مواقع عسكرية فلسطينية
حصار بيروت
المقياس ١ : ١٣٣٣٠٠

الفصل الثامن

يوميات حفار القبور

«١٢٥ شخصاً أكثرهم من الأطفال والنساء لجأوا إلى الطابق الأرضي هرباً من القنابل .ماتوا جميعاً ـ لقد احترقوا . احترق أكثر لحمهم . جمعت عظام ١٢٥ شخصاً ، وأكياساً من الخواتم الذهبية والجواهر . واستطعت التثبت من العدد من شهادة سبعة كانوا خارج البناية عندئذ ونجوا . حملت العظام إلى المقبرة . قررت أن أدفن الجثث هناك» .

من تقرير لمحمود خضرا ، مدير خدمات الدفاع المدني في حزيران/ يونيو ١٩٨٢ عن قصف الإسرائيليين لمجمّع سكني في صيدا .

أراد الشاب مساعدتنا . قال إن الإسرائيليين قصفوا المدرسة الابتدائية القائمة على الزاوية وأن هناك ١٢٠ مدنياً ميتاً لا يزالون ممددين في الطابق الأرضي . وبدا من الصعب تصديق ذلك . لكن الرائحة الخفيفة البشعة التي حملها الهواء جعلتنا نظن أن ما قاله قد يكون صحيحاً . ثم عندما درنا حول الزاوية تهافت الذباب علينا وحط على وجوهنا وشفاهنا .

وأخذنا شاب أصغر سناً إلى المدرسة الصغيرة ، فإذا بكتل الحجارة والإسمنت وحطام ألواح الحائط والكراسي متناثرة هنا وهناك على ساحتها الترابية وملعب كرة السلة . قال : «انتبه عندما تصل إلى أسفل الدرج» . وهناك بالضبط كانت جثة مشطورة والذراعان ممدودان إلى الخلف وكأنهما تعبّران عن اليأس . وأضاف : «والآن أنظر إلى الشمال» . فرأيناهم من خلال سطح الطابق الأرضي المحطم .

كانت الجثث مسجاة إحداها فوق الأخرى إلى علو يبلغ نحو ستة أقدام ، والأذرع والأرجل متشابكة في أحضان الموت بطريقة غريبة غير طبيعية . وكان المدنيون الذين لقوا حتفهم في الغارات الجوية الإسرائيلية على صيدا كثيرين إلى حد أن الصليب الأحمر لم يكن قد فرغ بعد من دفنهم . ولهذا رشّوا مسحوق الحامض على الجثث في المدرسة الصغيرة الواقعة إلى جانب طريق جزين ، فخفف الغبار الأبيض الجميل من تعاسة المكان ، وحوّل أجساد الرجال والنساء والأطفال إلى تماثيل تشبه سكان مدينة بومبي القديمة عندما صب بركان فيزوفيوس عليهم حممه ، وحوّل أجسادهم إلى كتل متفحمة .

ولم تكن الكارثة التي حلت بصيدا أخف وطأة ، فقد كانت في المدينة طوابق أرضية مروّعة وعدة قبور جماعية دُفنت فيها بأمر المحافظ الجثث التي لم يُطالب بها أحد . وكان أحدها الذي دفنت فيه أربعون جثة قد حُفر في نقطة تقاطع طرق وغُمر بالركام . والتقينا بطبيب هاله عدد الإصابات والجثث التي عاينها خلال الأيام الخمسة الماضية إلى حد أنه عجز عن وصف ما رأى بدون أن يشعر بالانهيار .

ورأينا في عدد من الأقبية جثثاً ممزقة ، ورؤوساً ، وأيدي وأصابع أقدام وبطوناً مفتوحة اختلط بعضها ببعض . وشممنا رائحة الموت في كل مكان ـ في الشوارع والبيوت وحتى على ساحل البحر . أجل كان عبير الموت قوياً . فالإنسان لا الحيوان هو الذي يبعث هذا العبير أو المزيج الخاص من العرق والأحشاء والأجساد التي لفظت أحشاءها والجثث التي أخذت تتحلل تحت أشعة الشمس .

كانت الغارات الجوية الإسرائيلية ـ حتى ذلك الوقت على الأقل ـ أشرس غارات وقعت على أي مدينة لبنانية . فالقطاع الجنوبي من صيدا بدا وكأن إعصاراً قد اجتاح بناياته السكنية وشققها ، وأطاح بالشرفات والأعمدة التي تقوم عليها السقوف مما أدى إلى انهيار الجدران والسقوف على رؤوس أهلها . وانحشرت بعض الأجساد بين الركام . واستولى الذهول على أهل صيدا وهم يرون الجرافات الإسرائيلية تحفر الأرض وتجرف الركام . لم يعودوا يردون على التحية ورأوا في البنايات التي نجت ما لم يروه من قبل .

فلا عجب إذن في أن الإسرائيليين كانوا يحاولون منع مراسلي الصحف العاملين في بيروت من كتابة تقارير عن شؤون صيدا . وكان الصحفيون الذين يفدون عليها من إسرائيل يصلون مع مرافقين من الجيش الإسرائيلي . كما أن تقاريرهم كانت تخضع للرقابة الإسرائيلية . ولم يكن هؤلاء الصحفيون يرون من صيدا سوى الواجهة البحرية والقلعة الصليبية ومنطقة السوق التي لم يدمرها القصف . ومن ثم كان الإسرائيليون يأخذونهم إلى مخيم عين الحلوة المدمر . لكن لم يكن يسمح للمراسلين في بيروت أن يدخلوا المنطقة التي تحتلها إسرائيل .

وتحدث الرائد الإسرائيلي الذي أوقف جوناثان راندال مراسل «الواشنطن بوست» وأوقفني على الطريق جنوب خلدة عن هذا الموضوع بصراحة منفرة . وبدا عندئذ ممتلئ الجسم وله شعر أسمر دب فيه الشيب . وتحدث بإنجليزية ضعيفة وهو يميل على سطح سيارتنا وينظر من نافذتها ، ويهز رأسه بقوة من جهة إلى جهة . قال : «إنني أعمل بموجب أوامر تقضي بعدم السماح لأي مراسل صحفي من بيروت بالعبور من هنا إلى الجنوب . عليكما أن تعودا» . فقال له راندال ببطء وهدوء أنه بالرغم من أننا مراسلان صحفيان ـ وكنا قد أظهرنا له بطاقتينا ـ فإننا مسافران إلى صيدا لنرى إذا كانت زوجة صحفي لبناني من زملائنا وابنته قد نجتا من أحداث الغزو ، وأننا نحمل لهما مالاً منه . فقال الرائد :«لا سبيل إلى ذلك» . فقال راندال :«من الواضح أنك لا تفهم . إننا ذاهبان إلى صيدا للبحث عن زوجة أحد زملائنا . ولهذا عليك أن تسمح لنا بالمرور» .

كانت الفوضى تعمّ الطريق . إذ كانت ناقلات الجند ، والسيارات المسلحة واللوريات التي تجر المدافع تحاول أن تمر من خلال الفسحة الضيقة بين سيارتنا وبين حفرة في الطريق طولها ثلاثة أقدام أحدثتها إحدى القذائف . وعلا فوق رؤوسنا صفير صواريخ كاتيوشا أطلقها مقاتلو منظمة التحرير وانفجرت في جُرف غير بعيد . فغضب الرائد . وغضب كذلك زميلي راندال النحيل صاحب المزاج الحاد . وكان من الصحفيين الذين يجرون وراء التفاصيل . فخرج من السيارة وقال للرائد :«انظر يا صديقي ـ وهذه هي طريقته في مخاطبة الناس ـ قلت لك أنه لا بد لنا من المرور . وليس أمامك سوى خيار واحد وهو أن تدعنا نمر . لدينا مهمة إنسانية» . فمد الرائد اصبعه نحو وجه الرائد وصاح قائلاً : «لا يهمني هذا» .

فرفع راندال نظارته إلى جبينه ـ وكانت هذه اشارة تنذر دائما بالخطر ـ وسار على الطريق نحو قافلةجند تتقدم دبابة ميركافا ، والرائد يسير خلفه . وتوقف راندال أمام الناقلة وقال للرائد «أنظر إلى تلك الدبابة . إنني أدفع الضرائب اللعينة (في أميركا) لكي تحصلوا على هذه اللعب اللعينة . وعليه فإنه ينبغي لك أن تدعنا نمر» . وعندئذ انضم إليهما ضابط شاب أخذ يتحدث بالعبرية مع الرائد . فقال راندال : «لن أحرك سيارتي من هذه الطريق حتى تدعنا نمر» . وعندما حذره الرائد من ذلك قال : «إنني أعني ما أقول . إنكم لا تريدون إخراج أميركي من الطريق . لكنني لن أتحرك لأنني أدفع الضرائب لدعم حروبكم اللعينة» . فهز الضابط رأسه لراندال موافقاً وقال «يمكنك المرور» . وبهذه الطريقة استطعنا أن نذهب إلى صيدا .

كانت الطريق الساحلية مدمرة ، والدامور كتلة من الخرائب ، وروائح الجثث تزكم الأنوف حتى على الطريق الساحلية ، وعلى الجانب الآخر من الطريق جثة فلسطيني أسهمت في طحنها سيارة بعد

أخرى من السيارات المتوجهة إلى بيروت ، ولم تبق منها إلا قطع لا يزيد سمك الواحدة عن ثلاث بوصات .

وكانت قطع القماش الأبيض والمناشف معلقة على أنتينات التلفزيون وعلى أعمدة رفعت على الشرفات وسطوح البيوت والمخازن . وبدت على الساحل بين البحر والطريق الثكنات التي أقامها الإسرائيليون ونصبوا عليها أعلامهم . وعلى نهر الأولي طلب منا المسلحون من قوات حداد وشرطي إسرائيلي إبراز جوازي سفرنا . فلما هموا بوضع إشارة عليها تحمل نجمة داود رفضنا السماح لهم بذلك على أساس أن نقطة التفتيش التي يقفون عليها ليست جزءاً من حدود إسرائيل الشمالية .

وكنت أنا وراندال نعرف صيدا جيداً . فمنذ عام ١٩٧٦ ونحن نتردد عليها . أما هذه المرة فكان من الصعب التعرف على الساحة التي تقوم فيها مكاتب البلدية ومراكز الإطفائية . وكان شارعها الرئيسي مليئاً بالحفر وقطع الحديد المشرشرة ، وبناياتها محترقة أو مصدعة ، وأبواب مكاتبها التي تفجرت القنابل أمامها مشرعة . ورأيت فوق باب بناية من الحجر فجوة طولها خمسة عشر قدماً . وقالت لنا عاملة بالصليب الأحمر اللبناني إن ما يقرب من ألفي شخص لقوا حتفهم .

وقالت : «عليكما بالحذر . فالناس في خوف . وقد ألقى الإسرائيليون القبض على كل الذين تتزاوح أعمارهم بين السادسة عشرة والستين وساقوهم إلى الساحل . ثم وصل أشخاص مقنعون يحرسهم رجال الشرطة الإسرائيلية الذين كانوا يرتدون ألبسة مدنية . وصاروا إذا أشاروا إلى شخص سحبه الإسرائيليون وأخذوه . وكان على الساحل عشرات الآلاف من الأشخاص . وسحب الإسرائيليون منهم عدة مئات . وكان بين هؤلاء من لم يسبق له أن حمل بندقية . وكان المقنعون عملاء للإسرائيليين وكان بين الذين أشاروا إليهم أناس يكرهون الفلسطينيين فأُخذوا مع من أخذهم الإسرائيليون . وإذا ذهبتما إلى طريق جزين وجدتما أمواتاً . وإذا ذهبتما إلى المدرسة وبناية حداد وجميع البنايات المجاورة وجدتم أن القصف أصابها كلها» . وبينما كنا نهم بالانطلاق ركضت المرأة خلفنا وأمسكت بذراعي وقالت : «لا تقولا عن الناس ما قد يؤذيهم . وأرجوكما أن تتذكرا أننا الآن في ظل الاحتلال» .

ورأينا على طريق جزين سيارة متوقفة إلى جانب بيت مدمر وجنوداً يأكلون البرتقال . وكان المارة من الرجال والنساء يشيحون بوجوههم عن الجنود وينظرون إلى وسط المدينة ، وسحب الغبار تتصاعد حولهم وتصرف أنظارهم عما حولهم . وكانت الطريق غارقة في ضباب أصفر مشبع بالرائحة الكريهة . وبدا وكأن رد فعلنا على الموت ـ على حقيقة الأجساد الميتة والتشويه ـ هو قبوله باعتباره جزءاً من عملنا ، وأنه أمر لا مفر منه .

إذ يفترض في الصحفي الذي يكتب تقارير عن الحروب أن ينظر إلى المظاهر المادية للأخلاقيات بتجرد كما يفعل الأطباء . وكنا في حاجة إلى قدرة نفسانية لإقناع أنفسنا بأن كل تفصيل من التفصيلات المخيفة هي أيضاً حقيقة علمية ، وعليه كان علينا أن نفسر رائحة تحلل الجسم البشري لا كشيء يشمئز منه الإنسان لكن كعملية تغيّر كيميائي طبيعية وإن كانت بشعة . على أن القول بهذا غير الفعل به . فالموت مخيف حتى ولو لغير سبب سوى أن موتى لبنان ـ أي تكرر رؤية الجثث ممددة كالأكياس على قارعة الطريق والحفر والأقبية ـ تذكّر المرء فيه بالسهولة التي يمكن للمرء فيها أن يقتل . وهو درس ضروري ، فخطوة واحدة صغيرة على خط رقيق جميل ، وأي خطأ مهما كان صغيراً في اختيار الوقت الذي تقطع فيه طريقاً ما ، واختيار الوقت الذي تبتسم فيه لمسلح أو تنظر إليه نظرة جدية يمكن أن يكون الفاصل بين الحياة والموت .

لكن عندما تأخذ الأجساد في التعفن فإنها تبعث على الاشمئزاز .فرائحة أشلاء الإنسان في جو حرارته مئة درجة تصيب المرء بالغثيان . فهي تُناقض القيمَ الأشد رسوخاً في أعماق المرء وهي قيمَ الحب والجمال واللطف ، والصحة ، والنظافة والوقاية والحياة . فالرائحة الكريهة من الناحيتين الجسدية والذهنية مظهر من مظاهر الخوف والنفور .

وعندما هبطنا درجات تلك المدرسة الابتدائية بصيدا نشأت لدينا تلك الرغبة القديمة في التقيؤ . اذ اجتاحتنا رائحة أولئك الرجال والنساء والأطفال . وكانت على وشك أن تطرد من عقولنا وأجسامنا تلك الأسئلة التي كان علينا أن نطرحها . لماذا ماتوا هنا؟ كيف حدثت هذه الفظاعة؟ فإذا كان «الإرهاب» هو هجوم بالكاتيوشا على الجليل قتل واحداً أو اثنين أو خمسة أو حتى عشرة فماذا يقول الإنسان عن هذه المقبرة الجماعية؟ وجواباً على هذا أخذ الذباب يحاصرنا ونحن نصعد درج الطابق الأرضي ويحط بشراسة على شفاهنا وحول أعيننا وينقل عفن الأجساد إلى وجوهنا .

وكان من السهل الإجابة على السؤال الأول وهو : لماذا؟ فالمدرسة كما قال جيرانها قصفت في الليل وفي الساعة الثانية من صباح السابع من حزيران/ يونيو وهو اليوم الثاني للغزو . وكان الذين لجأوا إلى الدور الأرضي من الفلسطينيين واللبنانيين الذين فروا من صور إلى صيدا طلباً للسلامة ، وسُمح لهم بأن يقضوا الليل في حرم المدرسة الابتدائية . لكن وجدنا خارج المدرسة وفي الشارع الضيق المتعرج الذي يربط بين المدرسة وطريق جزين بقايا مدفع مضاد للطائرات على حطام سيارة جيب كان قد احترق وتشوه والتوت ماسورته .

وتبادر إلى أذهاننا عندئذ أن أحد مقاتلي فتح جلب المدفع خلال الليل وأطلق النار على الطائرات

الإسرائيلية التي كانت تجوب الأجواء فوق المدينة . ومن المحتمل أنه لم يكن يعلم أن في المدرسة أكثر من مئة لاجئ . لكن الإحتمال بعيد . وكان هذا من جانبه عملاً إجرامياً كقتلهم . ولا بد أن الطيار الإسرائيلي رأى وميض المدفع وقرر نسفه . ولم يكن باستطاعته أن يرى الهدف الذي قصفه وأن يعرف عدد المدنيين الذين كانوا في المنطقة . وعلى أي حال فإن هذا لم يكن يهمه . إذ لو كانت إصابة المدنيين تقلق الإسرائيليين لما أسقطت القنابل في الليل على مدينة مأهولة بالسكان . لكن الطيار كان يحارب «الإرهابيين» .

كان في سطح المدرسة فجوة أحدثتها قنبلة إسرائيلية كالفجوة التي رأيناها فوق بوابة مبنى البلدية . على أن تلك القنبلة لم تنفجر عندما أصابت السقف . إذ كانت من النوع الذي لا ينفجر إلا عندما يرتطم بحاجز لا يمكن اختراقه . وعليه فإنها اخترقت السطح وأرض الغرف ونفذت إلى القبو المظلم حيث تجمع اللاجئون المذعورون ، وعندئذ فقط ولدى ملامستها أرض القبو انفجرت .

وتكوّمت الأجساد بحيث بقي الأطفال فوق أجساد أمهاتهم . ولابد أن القنبلة هزت وضغطت عدداً كبيراً من اللاجئين ورفعت أثقلهم في الهواء . وكان مسحوق الحامض الابيض قد رش بكثافة أكبر على بعض أجزاء الكوم ولم يرش على الأطفال ، فظهرت أرجلهم المتباعدة ورؤوسهم المدلاة على صدورهم .

كان راندال يقف إلى جانبي ويدوّن ملاحظاته في مفكرته . ثم دس المفكرة في جيبه وألقى نظرة على الأجساد المكوّمة . ورأيت الدمع يترقرق في عينيه وهو يقول : «يا إلهي ! هؤلاء المساكين . هؤلاء المساكين» .

وفي اليوم التالي أخبرني ضابط إسرائيلي ملحق بوحدة الارتباط الصحفية التابعة للجيش الإسرائيلي أن قصة الأجساد غير المدفونة في صيدا «دعاية من منظمة التحرير» وأن كل من مات في صيدا «إرهابي» أو ـ وهذا أسوأ ـ مدني قُتل بأيدي «الإرهابيين» . واعتبر القول بأن مئة شخص بينهم أطفال ماتوا في الدور الأرضي من المدرسة «هراء» . وعندما أخبرته أنني زرت المدرسة ورأيت الجثث بعيني قال بأنه كان يجب أن لا يسمح لي بزيارة صيدا ، وأنه كان ينبغي أن أكون برفقة إسرائيلي ، وأنه ينبغي علي أن لا أعود إلى تلك المدينة مرة أخرى .

وبعد ظهر ذلك اليوم الحار كان الجنود الإسرائيليون خارج المدرسة لا يزالون يأكلون البرتقال . ولا بد أنهم شموا رائحة العفن المنبعثة من الأجساد ، لكنهم لم يبدوا أي اهتمام . وبالرغم من أنهم قُتلوا قبل أحد عشر يوماً فانهم لم يُدفنوا . ترى كم هم الذين نقلوا من أقبية أخرى؟

لم ألتق بحبيب زيدان مدير تلك المدرسة الابتدائية إلا بعد سنتين ونصف السنة . وكان في غاية اللطف والكياسة ، واصطحبني إليها بعد ظهر يوم من أيام شهر شباط/ فبراير عام ١٩٨٥ . وكانت قد أجريت إصلاحات فيها فرُدمت فجوة السقف ودهنت الدرجات باللون الأخضر ، واستبدل زجاج الشبابيك بغيره ، ورصفت الساحة وملعب كرة السلة . وعُلّقت شبكتان جديدتان على عمودي الملعب . وكانت الكرة موضوعة إلى جانب قاعدة أحد العمودين . وأعيد بناء جدار الدور الأرضي .

قال زيدان ـ وهو مسيحي تتدلى على جبينه خصلة من شعره :«سمحت لهم بالدخول في ذلك اليوم كما تعلم . ولا تستطيع أن تتصور كيف كانت صيدا عندئذ . جاؤوا في مساء السادس من الشهر . وكانوا مئة وعشرين شخصاً أكثرهم من النساء والأطفال وبينهم بعض المسنين وثلاثة شبان مسلحين . كانوا مرضى ويشعرون بالتعب ورجوني أن أدخلهم . فأحضرت مفتاح الدور الأرضي وفتحت لهم المدرسة . فلما دخلوا إلى المبنى أخذتهم إلى هناك . فنزلوا في ذلك المساء إلى الطابق الأرضي . وكان الأطفال في غاية التعب وبعضهم نيام على «أكتاف» أمهاتهم .

وأضاف زيدان أنه علم بأن الفلسطينيين أطلقوا النيران من مدفع مضاد للطائرات كان على الطريق خارج المدرسة . وقال : «هل تصدق أنهم فعلوا ذلك؟ وهل تصدق أن الإسرائيليين يقصفون مدينة مثل هذه ليلاً وعلى ذلك النحو؟» وسألته :«وماذا حدث للأجساد؟» فقال :«عندما حضر الطلاب ورأوا ما حدث استولى عليهم الخوف من الجثث . فنقلنا غالبيتها ودفناها في «ساحة الشهداء» . ولم تكن لدى الموتى بطاقات هوية لكن غالبيتهم من صور . فدفنوا هناك إلى جانب الضحايا . وبقي نحو ستين جثة هنا فدفناهم تحت ساحة المدرسة ـ هناك» .

إذن فهذا هو السبب في أن الساحة كسيت بالإسمنت . ودفن الموتى تحت أحد عمودي ملعب كرة السلة وحيث كانت الكرة . وقال زيدان : «فيما بعد أخبرت الطلبة بأن جميع الموتى دفنوا في المقبرة . لكن بالطبع هنا تحت الملعب يرقد ستون منهم . ولم نقل هذا للطلبة أبداً . وليس هناك ما يدل على دفنهم هنا» .

وكانت تقوم على الجانب الآخر من الشارع الذي تقع عليه المدرسة بناية تضم مجمعاً سكنياً وهي بناية جاد التي طارت جدرانها الجنوبية بقوة كبيرة وبقيت طاولات وكراسي وسرائر الشقق على حافة أرض الغرف . وذهبت أنا وراندال إلى هناك أيضاً . وإذ كانت مظلمة من الداخل ، فإننا أشعلنا عيدان الكبريت . ووجدنا فيها أيضاً دوراً أرضياً مروعاً شديد الحرارة وتنبعث منه رائحة كريهة إلى حد أننا كدنا نتقيأ لمجرد التفكير في دخوله في ذلك الضوء الخافت . على أننا استطعنا رؤية بقايا الأجسام ومادة دهنية متجمدة على الأرض . وبعد ذلك بسنوات اكتشفت قصتها الرهيبة .

وقع على محمود خضرا ، مدير خدمات الدفاع المدني في جنوب لبنان ، عبء دخول بيت الموتى هذا . وفي عام ١٩٨٥ سحب لي ملفات حزيران/ يونيو ١٩٨٢ وقرأ التقرير الذي كتبه بعد القصف مباشرة . قال : «بناية جاد . داخل هذه البناية ١٢٥ شخصاً غالبيتهم من الأطفال والنساء . اتخذوا من الطابق الأرضي ملجأ لهم . ماتوا جميعاً . وهناك محافظ فيها خواتم ذهبية ومجوهرات . استطعت الوقوف على عددهم من شهادات سبعة أحياء كانوا عندئذ خارج المبنى . أخذنا العظام إلى المقبرة . قررت دفن الجثث هناك» .

وكان من الأمور الغريبة المثيرة أن نتحدث عن هذه المذبحة مع خضرا في شباط/ فبراير ١٩٨٥ عندما كان الجيش الإسرائيلي يتأهب لمغادرة صيدا ، وعندما أخذ المسلحون اللبنانيون يظهرون في شوارع المدينة ويهاجمون الإسرائيليين المنسحبين بالقذائف الصاروخية . وحتى بينما كنا ندرس ذلك التقرير الذي كتب قبل ذلك بسنتين ونصف السنة دوى انفجار في صيدا بعد أن هوجمت دبابة إسرائيلية قرب مخيم عين الحلوة . فبدا وكأن أحداث لبنان تتسارع بشكل لا يسمح بالقيام بدراسة تاريخية جدية .

استطاع خضرا أن يجري حديثاً مطولاً مع الأحياء السبعة من بناية جاد الذين كانوا في الشارع عندما قتلت القنبلة الإسرائيلية أسرهم في الطابق الأرضي في ٧ حزيران/ يونيو ١٩٨٢ . قال خضرا : «بينهم رجل اسمه أحمد شمس الدين فقد زوجته وأبناءه الأربعة وأخته وأبناءها الخمسة ، وصهره وأمه . وكانت طائرة إسرائيلية قد أسقطت القنبلة وسحقت نصف المبنى . وهوى أحمد على الأرض مغشياً عليه من جراء الانفجارات ، لكنه كان يعتقد أن أسرته نجت» . وكان بين ضحايا بناية جاد ، المحامي معين الزين وزوجته فاطمة وإبنه عامر ، وكذلك ليزا نزار البزري ، ابنة شقيق الدكتور نزيه البزري .

وابتسم خضرا بحزن وهو يروي قصته وقال : «كان شمس الدين في الخامسة والأربعين أو السادسة والأربعين من عمره . وأصيب أحمد على أثر الحادث بشيء من الجنون . وكان في كل يوم يدور على المستشفيات ويسأل عن زوجته ويذكر أسماءهم لكل من سأله . كما كان يذهب إلى الجنود الإسرائيليين في شاحناتهم ، ويتسلق لورياتهم ، ويطلب منهم أن يبحثوا عنهم . وذهب لمقابلة القادة الإسرائيليين في مكتب المحافظ . وكان عدد من جرحى صيدا قد نقلوا إلى المستشفيات في إسرائيل بعد أن سمح لهم الإسرائيليون بذلك . فسافر أحمد ثلاث مرات إلى هناك وأخذ يدور على مستشفيات نهاريا ويذكر أسماء أفراد أسرته . وبالطبع لم يجدهم» .

وأخفي مصير المدنيين في بناية جاد وعددهم ١٢٥ للسبب ذاته الذي أخفي من أجله مصير

المائة والعشرين في الدور الأرضي من المدرسة الابتدائية . قال خضرا : «قصف الإسرائيليون كل مبنى تواجد فيه المقاتلون . ولم يكترثوا بمن في البناية وبمن قتلوا . فقصفوا بناية جاد لأنه كان بجانبها مقاتلون معهم مدافع للطائرات . وعندما بدأ الغزو ذهبت لمقابلة ممثلي جميع فئات المقاتلين في صيدا ، وأصدرت لهم تعليمات تقضي بالابتعاد عن المباني التي تسكنها أسر . ولكن لم يطعني أحد منهم» .

قيل لنا أنا وراندال الشيء ذاته في ذلك اليوم من عام ١٩٨٢ عندما رأينا في المرة الأولى ما حدث بصيدا . وأخبرنا عدد من الأهالي أن الفلسطينيين جروا الموت على أنفسهم وعلى المدنيين من حولهم . وأخيراً وجدنا زوجة الصحفي اللبناني السنية . قالت : «عندما جاء الإسرائيليون نقل الفلسطينيون مدافعهم ونصبوها قرب بيوتنا ، وقرب المباني السكنية والمدارس والمستشفيات ظناً منهم بأن هذا يحميهم . وتوسلنا إليهم أن يبعدوا مدافعهم لكنهم رفضوا . وعندما أطلقوا النار على الإسرائيليين جاءت الطائرات وقصفت بيوتنا» .

وقال لنا طبيب لن نذكر اسمه لأن من تحدثنا إليهم في ذلك اليوم رفضوا الكشف عن أسمائهم ، بأن الفلسطينيين وضعوا مدافعهم على سطح المستشفى الحكومي بجانب مخيم عين الحلوة . وأضاف : «لقد عرف المقاتلون ما سيحدث . وجاءت الطائرات الإسرائيلية وقصفت المستشفى مما أدى إلى موت من فيه من المرضى والجرحى ومعهم المقاتلون» . وكان ما قاله صحيحاً . فملفات خضرا التي رأيناها بعد ذلك بسنوات تُبيّن كيف دُمّر المستشفى . وكان الإسرائيليون يعرفون أنه مستشفى ، ولكنهم قصفوه لأن رجال منظمة التحرير أطلقوا عليهم النار من فوق سطحه ، فدمروه تدميراً تاماً . ويقول تقرير خضرا :«خمسة أطفال مرضى في سرائرهم ، وآخرون من المرضى والجرحى . مات جميع هؤلاء وعددهم تسعون . ومزقت القنابل أجسادهم» .

أما في أماكن أخرى من صيدا فقد دمرت القنابل الإسرائيلية البيوت وأهلها بدون تمييز . فقتلت أسرة بكاملها في بيتها في حي الصباغ . وقتلت قنبلة إسرائيلية عشرين مدنياً حرقاً في الطابق الأرضي من بناية البابا ،وقذفت بجثثهم إلى الخارج فتناثرت على الطريق . وزعم الإسرائيليون فيما بعد أنهم ألقوا مناشير على المدينة تأمر المدنيين بالتجمع على الشاطئ للفرار من القصف . كانوا قد فعلوا ذلك في صور . أما في صيدا ـ كما قال لنا السكان في ذلك اليوم واعترف الإسرائيليون لي فيما بعد سراً ـ فإن الإسرائيليين لم يحذروا الأهالي في الوقت المناسب . صحيح أن المناشير أُلقيت ولكن بعد القصف وعندما كان المحافظ يصدر تعليماته بشأن حفر أول قبر جماعي في الميدان عند نهاية شارع رياض الصلح .

كانت سُحب الرمل والغبار تلف المكان ، والحرائق لا تزال مشتعلة في صيدا ، وكانت الغارات على مخيم عين الحلوة ليل نهار قد نشرت الخراب والدمار في أرجائه إلى حد أن الجو امتلأ بالشظايا المتطايرة من مئات البيوت المدمرة . ومرت عدة ساعات قبل أن ندرك لماذا كان مئات الفتيان ينظرون بأعين مفتوحة . لقد أصابتهم أحداث الأسبوع السابق بالذهول واستولى عليهم الذعر خوفاً من احتجازهم . وكانت الشائعات قد سرت في صيدا بأن الإسرائيليين قتلوا المساجين بضربهم وإماتتهم جوعاً .

وكان غالبية الذين أخذهم الإسرائيليون من الشاطئ معصوبي الأعين . ونقلوا إلى أحد مكانين : إلى مدرسة راهبات مار يوسف أو إلى مصنع تعليب الفواكه على أطراف صيدا . وقيل أن عشرة أشخاص على الأقل ماتوا هناك عطشاً أو بعد أن ضربهم الحراس الإسرائيليون . و وجدنا أنا وراندال بينهم أحد العاملين بالصليب الأحمر . قال عامل الصليب الأحمر : «احتجزونا مدة أربعة أيام قضينا اكثرها في العراء . وكانوا يقدمون لنا الماء ويحبسون عنا الطعام . وتوفي عشرة أشخاص كانوا بجانبي . وسمعت أحدهم ـ وأعتقد أنه فلسطيني ـ يطلب الطعام فضربه جندي إسرائيلي ببندقيته على بطنه ، فأخذ هذا يسعل ويخرج دماً . ثم غص حلقه بالدم وانهار وقضى نحبه . ولا أعرف لماذا يفعل الإسرائيليون هذا . وكان كثرة منا حتى ذلك الوقت يكرهون الفلسطينيين وابتهجوا عند قدوم الإسرائيليين . لكننا رأينا هؤلاء يأخذون مئات الأشخاص وبينهم شخص في الثانية والستين من العمر» .

وسمعنا في الأيام التالية الكثير من الروايات المشابهة . على أن الإسرائيليين أنكروا صحتها وزعموا أنها شهادات «من يشتبه في أنهم إرهابيون» . وطالما أن الذين احتجزهم الإسرائيليون هم وحدهم الذين شهدوا هذه الوحشية ، وطالما أن الإسرائيليين اعتبروا كل من احتجز بأنه «من المشتبه في أنهم إرهابيون» فإن إسرائيل اعتبرت الصحفيين الذين صدقوا ما سمعوه ، من المغفلين أو من ضحايا دعاية منظمة التحرير . لكن القصص قصص حقيقية . وفيما بعد كتب الضباط الإسرائيليون عن تلك الوحشية المستمرة[1] . وبعد ثمانية عشر شهراً وبعد أسابيع من التحري في صيدا رأيت قبور

(١) راجع مثلاً : اللفتانت ـ كولونيل دوف يرميا : مذكراتي عن الحرب ، إسرائيل في لبنان (لندن مطبعة بلوتو ، ١٩٨٣) وخصوصاً ص ٢٧ ـ ٢٨ و ٦٧ و ١٠٩ ـ ١١٥ . إذ أورد يرميا عدة شهادات عن الضرب المتكرر بالهراوات الذي تعرض له أشخاص معصوبو الأعين بإشراف القوات الإسرائيلية . ويقول المؤلف بأن المقنعين الذين كان الإسرائيليون يسمونهم «القردة» كانوا يشيرون إلى الأهالي الأبرياء بوصفهم من الإرهابيين و . . . يساعدون أصدقاءهم على النجاة من القبض عليهم (ص ٢٨) . وأدت شهادة يرميا هذه إلى شطب اسمه من قائمة جنود الاحتياط .

سبعة أشخاص من الذين ماتوا في الأسر الإسرائيلي وأحضر جثثهم ضابط إسرائيلي إلى مقبرة المدينة وذلك ليلة الحادي عشر من حزيران/ يونيو وقبل قدومي أنا وراندال إلى صيدا[٢] .

وكان من الواضح أن الاحتلال الإسرائيلي سيكون قاسياً وأحياناً مميتاً بالرغم من أن شين بيت (أي المخابرات الإسرائيلية) كانت قد بدأت في القدوم إلى صيدا لإنشاء نظام للهويات يقسم السكان إلى ثلاث فئات وهي : الموثوق فيهم ، والمحايدون ، والمناوئون (للإحتلال) . وبعد ظهر ١٣ حزيران/ يونيو أظهر لي عدد من اللبنانيين ـ بينهم مسنّ في السبعين ـ جوازات سفرهم وعلى كل منها ختم إسرائيلي ، وعليها كلها الرقم (٥٠٧) . وكانت الأختام مستطيلة أو بيضاوية أو مستديرة ، وعلى كل منها نجمة داود . إلا أن حامليها اللبنانيين لم يكونوا يعرفون من أي فئة هم . وكان الختم على جواز الرجل المسن ابن السبعين مستديراً . ترى هل اعتبر مطيعاً للقانون؟ أم صنف في فئة «المشتبه بأنهم إرهابيون؟»

ورأينا أنا وراندال عملاء إسرائيليين بألبسة مدنية ويحملون بنادق أوزي سريعة الطلقات . وأخذ هؤلاء ينظرون إلينا بارتياب ونحن نتحدث مع اللبنانيين في شوارع صيدا . وبعد أن تحدثت مع امرأة رأيت أحد هؤلاء الإسرائيليين المسلحين يأخذها جانباً ويستجوبها . وكنا عندئذ في أقصى ساحة بجنوب المدينة وعلى بعد بضع ياردات من القبر الجماعي . وكان المشردون الفلسطينيون يقفون إلى جانب الطريق بين سحب الغبار التي تثيرها الحافلات المدنية والدبابات الإسرائيلية ولم نطرح عليهم أية أسئلة خشية أن يعتبرهم الإسرائيليون من المذنبين . لكن تقدَمت نحونا من بينهم فتاة لا يتجاوز عمرها السابعة عشرة ، وتشبه في شكلها الأوروبيات ، وعليها ثوب طويل أزرق .

وعندما دنت منا الفتاة بدت في ضعفي سنها . وكانت عيناها حمراوين وتسير منحنية بعض الشيء ، وإلى جانبها شخص يجر عربة عليها بعض الملابس . فأوقفناها وسألناها من تكون . قالت «أنا ألمانية متزوجة من فلسطيني . لكن الإسرائيليين احتجزوه ولا أعلم أين هو . وأنا في طريقي إلى المخيم لأتفقد بيتنا» . وكان الإعياء بادياً عليها ورأسها مائل إلى أحد الجانبين . ولم تشأ أن تزد على ما قالته واتجهت عائدة إلى الجمهور . لكنها توقفت ونظرت إلينا وقالت : «أنا هنا منذ ستة أشهر وشهدت كل ما جرى» . ثم اختفت .

وخرجنا أنا وراندال من صيدا بالسيارة . وكان كلانا يطرح على نفسه السؤال ذاته . فإذا كان هذا هو ما فعله الإسرائيليون بصيدا ، وإذا قُتل المئات من المدنيين هنا على أيدي الإسرائيليين ، فكم يكون

(٢) المصدر ذاته ، ص ٤٢٣ ـ ٤٢٨ .

عدد الذين قتلوا في بيروت حيث يعيش نصف مليون شخص محاصرين في القطاع الغربي من المدينة؟

وفي جنوب الدامور وجدنا قافلة بعثت في نفوسنا الخوف من الأسوأ . والحقيقة هي أننا اكتشفنا أنها لم تكن قافلة بل كانت شيئاً رهيباً . كانت طابوراً من دبابات ميركافا وسنتوريون على امتداد خمسة عشر ميلاً تتقدمها ثلاث دبابات وتسير بسرعة ١٥ ميلاً في الساعة على الطريق الساحلية باتجاه بيروت . وبدا وكأن الجيش الإسرائيلي برمّته كان يزحف على بيروت كأم أربع وأربعين مدرعة ضخمة . وكانت عجلاتها تنقر سطح الطريق وتحصد العشب على جانب منه ، وتنفث سحباً من الدخان الأزرق فوق المكان كله .

وشققنا طريقنا بحذر خلال تلك الفرقة المدرعة ، مروراً بناقلات الجند وصهاريج البترول ، وشاحنات الذخيرة ، وسيارات الجيب . وكانت قوافل من الدبابات قد توقفت على سطوح التلال وتمترست فوق كفرشيما والحدث . وكانت هذه المعدات التي ينقلها الإسرائيليون إلى بيروت كثيرة إلى حد أن الدبابات والمدافع الإسرائيلية غمرت الشواطئ وبساتين الموز بين البحر والطريق الساحلية مسافة ٢٠ ميلاً مما اضطرنا أنا وراندال أن ننحرف بشكل حاد لنتجنب الاصطدام بمواسير دبابات الميركافا التي كانت تميل يميناً وشمالاً وهي تتقدم .

وفي خلدة كان رجال الشرطة الإسرائيليون يحاولون توقيف الدبابات صفاً واحداً على الطريق الضيقة حول بيروت الغربية التي كانت تتناثر عليها قطع الركام وصناديق الذخيرة المحطمة وآلاف من القذائف الفارغة . ولا بد أنه كانت هناك فرقة عسكرية كاملة تسير بجميع دباباتها ومدفعيتها . ونصبت المدافع الإسرائيلية شرقي خلدة في مكان يشرف على المطار وطرف بيروت الجنوبي ـ وكانت غالبية الدبابات بريطانية من طراز سنتوريون . وقام الإسرائيليون بإحاطة قواعد أبراجها بالدروع . ولما كان الجيش الإسرائيلي يفتقر إلى شاحنات لنقل الجنود من الحدود ، فإنه صادر باصات إيجد للركاب . وكانت الإعلانات من القدس وحيفا لا تزال ظاهرة على مؤخرتها .

كان منظرها يدعو إلى الإعجاب ويوحي بالاحترام والخوف . ففي حين أنها كانت تعبيراً عن القوة بأجلى مظاهرها فإنها كانت تزعج المرء لأنها لا تتناسب مع عالمها الطبيعي . وبينما كنا أنا وراندال نشق طريقنا بين تلك الطواغيت بسيارتنا الصغيرة كان لا بد لنا أن نشعر بجبروتها . فبالرغم مما رأيناه في صيدا شعرنا بشيء من الابتهاج لدى رؤية هذا العرض العسكري المذهل . ترى هل كان مرد ذلك إلى أننا كنا نفعل ما نحب أن نفعله وهو تدوين التاريخ لما يحدث ، ونشهد أحداثه بأنفسنا

فور وقوعها ، أم أن مرده إلى شيء ليس من السهل تحديده - إلى شيء جديد أو إحساس بأن الأمور لا تبقى على ما هي عليه ولا تعود يوماً إلى ما كانت عليه؟ وعليه فإنه كان من المثير أن نراقب أمة وهي تخلق حقائق جديدة (على الأرض) . وكان الإسرائيليون يستمتعون بممارسة ذلك .

فقد كانوا قد غيروا جغرافية شبه جزيرة سيناء التي استولوا عليها في عام ١٩٦٧ ، وفعلوا الشيء ذاته في الضفة الغربية وقطاع غزة والقدس الشرقية والجولان بغض النظر عن التكاليف . وهذا ما يقوله لنا ذلك العتاد الضخم إذا تناسينا تكاليفه . فأمامنا ظاهرة لا تأبه بالعاطفة - ظاهرة تغير البيئة والحياة وحتى الجغرافيا من غير تردد ولو للحظة واحدة . لقد كانت تلك الظاهرة تمثل القوة - القوة ذاتها التي كان الملازم الإسرائيلي يتحدث عنها باعتزاز كبير على تلال بعبدا .

لم يكن لتلك الظاهرة صلة تذكر برائحة الجثث التي زكمت أنوفنا ولوثت عيوننا في صيدا قبل ذلك بساعة لا أكثر . فلا بد لمن يطلق مدفعاً خلال الحصار أن يشعر بالغبطة وهو يشاهد من بعيد ما أحدثه . ففي داخل الدبابة أو خلف مدفع م - ١٠٧ يرى المرء الدخان المتصاعد من بناية من خلال خريطته . وعليه فليس للدم والعظام المحطمة على الطرف الآخر صلة ملموسة بالمدفع . لكننا أنا وراندال كنا في طريقنا إلى الطرف الآخر أي إلى غرب بيروت حيث تعكس الإحصائيات الجانب الآخر من المرآة المقعرة التي تقوم الجيوش بحروبها من خلالها .

وكما أن الإسرائيليين قتلوا آلاف المدنيين خلال الأسبوع ونصف الأسبوع الأولين من غزوهم للبنان ، فإن جهاز الدعاية التابع لجيشهم أخذ يحاول إعادة الضحايا إلى حياتهم العادية . فالاستنكار الدولي الذي أثارته الإصابات الكبيرة بين المدنيين فرض عليهم أن يفعلوا هذا . وكان عمل ذلك على الورق سهلاً . فقد قيل لنا شيء يسبب الغثيان وهو أن الجنود الإسرائيليين جازفوا بحياتهم من أجل حماية أرواح المدنيين . وأعد الناطق باسم جيش الدفاع الإسرائيلي بتل أبيب وثيقة تشتمل على ٦٦ صفحة للصحافة . فجاءت متحيزة ومليئة بالأخطاء في إيراد الوقائع ، وبالبيانات الكاذبة إلى حد أن الإسرائيليين أنفسهم عبّروا فيما بعد عن الحرج بسبب نشرها[٣] .

زعمت الوثيقة أنه لم يمت سوى عشرة مدنيين أثناء القتال الضاري حول النبطية ، وأن الذين قتلوا في صور كانوا خمسين ، وأن «نحو أربعمائة» قتلوا في صيدا . وبالرغم من الشواهد على مجزرة صيدا ووحشية القصف ، وقصف عين الحلوة التي كان يقطنها آلاف من المدنيين ، وبالرغم من القوائم

(٣) عملية سلامة الجليل ، الحل اللبناني ، نشر في ٢١ حزيران/ يونيو ١٩٨٢ .

الرهيبة للموتى في بيروت الغربية من جراء قصف البنايات السكنية ـ بالرغم من هذا ذكرت الوثيقة أن قوات الجيش والطيران الإسرائيلية «إتخذت إجراءات غير عادية لتجنب وقوع إصابات بين السكان المدنيين» .

وحتى عندما حاول واضعو الوثيقة المذكورة أن يبرهنوا على أن المقاتلين الفلسطينيين نصبوا مدافعهم قرب البنايات السكنية والمستشفيات ، فإنهم استشهدوا بالتقرير الذي أرسلته من صيدا في ١٨ حزيران/ يونيو . على أنهم لم يذكروا من تقريري سوى تلك الفقرات التي أوردت فيها ما قاله السكان الذين شكوا من أن رجال منظمة التحرير عرضوا حياة المدنيين للخطر . وأورد واضعو الوثيقة فقرة من ذلك الجزء من تقريري وحذفوا القسم الأول منه الذي يشتمل على ٥٣١ كلمة ويسجل وحشية الغارات الجوية والجثث المئة أو أكثر التي كانت في الدور الأرضي من المدرسة الابتدائية ، وتقدير الصليب الأحمر لعدد الموتى من المدنيين بألف وخمسمائة إلى ألفين .

ويمكن الحكم على خبث وثيقة الجيش الإسرائيلي من معالجتها لفقرة واحدة فقط من تقريري . إذ حذفت القسم الثاني من الفقرة . وتقول الفقرة :

«وفي مخيمهم بعين الحلوة وضع الفلسطينيون بالفعل مدافعهم فوق سطح المستشفى . وقال احد الأطباء :«كان المسلحون يعرفون ما سيحدث . إذ أغارت الطائرات وقصفت المستشفى . فتوفي كل من فيه ـ المرضى والجرحى ومعهم المسلحون» .

وقد حذف واضعو الوثيقة الإسرائيلية السطور التي وضعنا خطاً تحتها . وسبب الحذف واضح ، وهو أنني ذكرت الحقائق التي لا تسرّ الإسرائيليين . فإذا كان الفلسطينيون قد وضعوا المدافع على المستشفى فان الإسرائيليين لم يتورعوا عن قصفه وقتل جميع المرضى . وهذا بالطبع يناقض ما ادعته الوثيقة من أن القوات الإسرائيلية «كان يجري تنبيهها باستمرار إلى تجنب وقوع إصابات بين المدنيين» ولهذا السبب ذاته حذفت الكلمات الأخيرة من تقريري وعددها ٥٨٥ كلمة وهي التي أتيت فيها على وصف الوحشية الإسرائيلية في معاملة المساجين(٤) .

وعلى أي حال فعند نهاية الأسبوع الثاني من الغزو الإسرائيلي انهارت إعادة كتابة التاريخ الفجة تحت وطأة ما جُمع في بيروت الغربية وفي المناطق اللبنانية التي تحتلها إسرائيل من دلائل على أنه

(٤) التقرير الكامل في التايمز ، ١٩ حزيران/ يونيو ١٩٨٢ .

قُتل نحو ١٤،٠٠٠ شخص غالبيتهم من المدنيين وجُرح ٢٠,٠٠٠ آخرون . أما الأرقام التي أوردها الصليب الأحمر والشرطة اللبنانية والتي جمعها أحياناً أناس متعاطفون مع «الحقائق» السياسية الجديدة التي خلقها الغزو الإسرائيلي ، فتشير إلى أن عدد الموتى حتى نهاية الأسبوع الأول (١٤ حزيران/ يونيو) بلغ ٩،٥٨٣ والجرحى ١٦،٦٠٨ وذلك في جميع أنحاء لبنان . ولم تقسم الإحصائيات هؤلاء إلى رجال ونساء وأطفال ، لكن الشرطة قالت بأن غالبيتهم ماتوا من جراء الغارات الجوية الإسرائيلية .

وأكثر الإصابات التي وقعت خارج بيروت كانت في صيدا حيث أوردت الشرطة ـ التي كانت عندئذ تتعاون مع سلطات الاحتلال الإسرائيلي ـ في تقرير لها أن ١١٠٩ ماتوا في المدينة نفسها و ٣،٦٨١ جرحوا . وتوفي ١١٦٧ وجرح ١٨٥٩ في مخيمي عين الحلوة والمية مية . وجاء في التقرير أن ١٢٠٠ شخص من الرجال والنساء والأطفال قتلوا في صور ، وغالبيتهم من مخيمات اللاجئين وهي الرشيدية وبرج الشمالي والبص . وجُرح في صور ٢٠١٨ .

وقضت إيرلين تاترو العاملة بمكتب الأسوشيتد برس ساعات في جمع هذه الأرقام من الصليب الأحمر ، وأخبار الصحف ، وقوائم ضحايا الغارات الجوية في مستشفيات بيروت ، وموظفي الأسوشيتد برس خارج العاصمة اللبنانية . وأوقع القتال على أطراف بيروت قرب المطار الدولي إصابات كثيرة . ففي القسم الصغير الذي يشتمل على خلدة والأوزاعي والزهراء والسان سيمون مات ٥١٨ شخصاً وجرح ٦١٩ . وكان كثرة منهم من المقاتلين الفلسطينيين والشيعة . وبعد ذلك بسنة وعندما احتلت الفرقة الأميركية في القوة المتعددة الجنسيات جزءاً من هذه المنطقة رأيت مشاة البحرية الأميركية يرفعون الغطاء عن جثة على الشاطئ قُتل صاحبها في معارك حزيران/ يونيو ١٩٨٢ . واكتشف الأميركيون جثث المدافعين الفلسطينيين ـ أو أجزاء من جثثهم بمعدل جثة في الأسبوع . وأعيد دفن جميع هؤلاء . وتوفي ١٦٥ شخصاً وجرح ٢١٥ في ضواحي بيروت قرب مستديرة المطار .

على أن أفظع الإصابات كانت في بيروت الغربية حيث قُتل نحو ٢٤٦١ شخصاً من جراء القصف الإسرائيلي من الجو ، ونيران المدافع من البر ، ومن سفن البحرية الإسرائيلية . ومات أكثرهم في صبرا وشاتيلا ومنطقة الجامعة حول الفاكهاني واليونسكو وبئر حسن وبئر العبد وأبو شاكر والبسطة ، والطريق الجديدة والمصيطبة . وجرح في هذه المناطق ٣،٥٧٤ شخصاً .

ومات مئات الأشخاص في قرى الجنوب اللبناني وخصوصاً حول نهر الليطاني . ويتبين من تقارير الدفاع المدني أن ٧٦٨ شخصاً قتلوا في عدلون ، والصرفند وأرنون وجباع ، وعرب صاليم ،

ومغدوشة وجزين والغازية وروم والنبطية . وجرح في هذه البلدان نحو ٢،٨٣٤ . وكان بين الموتى في جزين سوريون من الوحدة المدرعة التي قُصفت في أحراج الجبل . وتُركت جثثهم حيث ماتوا أكثر من أسبوعين ، وحتى شكا القرويون من الرائحة ، فصب الكتائبيون البترول على مـا تبقى من أجسادهم وحرقوهم . وفي عدد من هذه البلدان وقعت أكثر الإصابات بين الفلسطينيين . فالنبطية مثلاً كانت معقلاً فلسطينياً . وكان في قرية صرفند ـ صرفة التوراتية التي اشتهرت بأنها شهدت معجزات النبي إيليا (الإصحاح ١٧ / سفر الملوك الأول) قاعدة ضخمة لمنظمة التحرير . وكانت أرنون قريبة من المراكز الفلسطينية في قلعة الشقيف . وكانت هناك قرى أخرى كثيرة أهميتها العسكرية ضئيلة أو معدومة(٥) .

إن المحاولات التي بذلتها إسرائيل لإنكار هذه الأرقام اختلفت باختلاف النقد الدولي لها . ولم يلبث أن اتضح أن الأرقام التي وضعتها للإصابات بين المدنيين ـ وهو ٤٦٠ في جميع أنحاء لبنان بين ٤ و ٢١ حزيران/ يونيو كانت منافية لكل منطق بمقدار ما أتت به من نتائج عكسية . إذ كان من المضحك أن تؤكد إسرائيل في بياناتها أن «الإصابات بين المدنيين اللبنانيين كانت ضئيلة بالمقارنة مع الأرقام المبالغ بها التي تنشرها الصحف الأجنبية»(٦) . فما الذي حدث للموتى الذين بلغوا ثلاثة عشر ألفاً؟ ما كان لجهاز العلاقات العامة الإسرائيلي أن يتوقع من العالم أن يصدق مثل هذا الإحياء للجماهير من الناس من موتهم .

وبناء على ذلك عمدت إسرائيل إلى أسلوب جديد ، فأخذت تصدر أرقاماً عن خسائرها وحدها ، وكفّت عن إصدار مثلها للإصابات بين الفلسطينيين واللبنانيين من جراء الغزو . وبدلاً من

---

(٥) وهناك أرقام أخرى عن الإصابات في الدامور والناعمة وحارة الناعمة ويسكنتا وعين درافيل (مات ٣٩٩ وجرح ٢١٢) ومن القرى جنوب الدامور السعديات (مات ٢٦٩) ويرجح أن عدداً كبيراً من موتى الدامور كانوا من المقاتلين الفلسطينيين . ومات ٤٨٧ شخصاً غالبيتهم من المدنيين في عين دارا وعين زحلتا والباروك ، حيث وقع قتال شديد بين الإسرائيليين والسوريين ، وفي القصف الذي تعرضت له بيت الدين وبعقلين والمختارة . وتوفي ٢٥٧ في عاليه وكفارحتا وعبيه وعين كسور والبنّي وقبر شمون وعرمون وشملان وسوق الغرب وكيفون ، وبيصور والجمهور وضهر الوحش والكحالة . ومات ٣٦٨ في وادي البقاع حيث وقع قتال بالدبابات وحيث قصفت الطائرات الاسرائيلية بطاريات صواريخ سام ـ ٦ . ومات أكثرهم في حاصبيا وسحمر ويحمر وشتورة التي تقع على طريق بيروت ـ الشام وعلى الطريق الرئيسي بين بعلبك والحدود السورية قرب حمص . وجميعهم تقريباً من المدنيين وكثيرون منهم من سائقي السيارات الذين كانوا يحاولون الهرب من البلاد إلى سوريا .

(٦) عملية سلامة الجليل ، الحدّ اللبناني ، ص ٥٦

ذلك ، ادعى الناطق الإسرائيلي والموالون لإسرائيل بأن مصدر الإحصائيات هو منظمة التحرير الفلسطينية ـ من «الإرهابيين»ـ وأن عرفات مع «جهاز الدعاية الفاسد الذي يموله البترول على أحسن وجه» قد خدع الصحافة الدولية التي كانت إسرائيل حتى ذلك الوقت تعتمد على مناصرتها لها بالإجماع . والحقيقة هي أنه لم يسبق لأي إحصائيات جدية أن جاءت من منظمة التحرير ، وأن المحاولة الوحيدة التي قام بها عرفات لتقدير الإصابات ـ عندما ادعى أنها بلغت ثلاثين ألفاً بين قتيل وجريح ـ كانت محاولة سخيفة إلى حد أنني قررت أن لا أخلع المصداقية على كلماته في جريدة التايمز . كما أنه كان لا بد من الفصل بين الموتى والجرحى لتقديم فكرة عن خطورة الإصابات .

وكذلك فان الإسرائيليين اتهموا رجال الصحافة بأنهم «يبتلعون» أرقام منظمة التحرير بالنسبة للمشردين المدنيين ، وزعموا أن فتحي عرفات رئيس الهلال الأحمر الفلسطيني قال إن الغزو الإسرائيلي شرد ٦٠٠،٠٠٠ شخص من بيوتهم . والحقيقة هي أن فتحي عرفات عقد مؤتمراً صحفياً في فندق الكومودور ، لكنه كان خاوياً إلى حد أنني لم أورده في تقاريري . ولم يُنشر الرقم الذي قدره للمشردين ـ وفيه مبالغة غريبة ـ الا بعد ١٣ حزيران/ يونيو . لكن الذي نشره ليس منظمة التحرير ، بل فرانسيسكو نوسيدا رئيس اللجنة اللبنانية للصليب الأحمر الدولي . واستطعنا أنا وصحفيون آخرون أن نفند تقرير اللجنة ، ونشرنا هذا في صحفنا . لكننا لم نستطع أن نختلف مع نوسيدا حول الأمور الأخرى التي نشرها . إذ قال أيضاً إن الظروف التي يعيش فيها اللبنانيون أصبحت «لا تحتمل» وأنه يخشى «الأهوال التي ستواجه مدينة بيروت إذا تعذر إيجاد حل» .

ولم نحتج إلى الانتظار طويلاً لنجد ما قصده نوسيدا بذلك . فحشد الدروع الذي اصطدمنا به أنا وراندال في طريق عودتنا من صيدا إلى بيروت صار يستخدم في قصف بيروت الغربية الإسلامية . وطالب الإسرائيليون علناً بوجوب استسلام منظمة التحرير . ومن أجل تحقيق هذا الهدف بدأ الإسرائيليون في الصباح الباكر من ٢١ حزيران/ يونيو بقصف بيروت الغربية . وسقطت القذائف في داخل المدينة على المباني السكنية والشوارع والمنتزهات العامة حيث كانت خيام اللاجئين ، وعلى أكواخ المخيم الفلسطيني في برج البراجنة ، وعلى الفاكهاني حيث كانت مكاتب منظمة التحرير ، وعلى المستشفيات .

وأخرج الفلسطينيون بعض مدافعهم من المخيمات إلى منطقة الحمراء السكنية . فإذا كانت هذه الحرب تدور حول «الإرهاب» فإن حياة الناس في بيروت الغربية أصبحت مهددة من قبل جماعتين إرهابيتين ، أحدهما حركة الفدائيين الفلسطينيين التي لم تتورع عن وضع مضاداتها الأرضية وقاذفات الصواريخ بين المباني السكنية من أجل الحماية . أما الجماعة الأخرى فهي الجيش الإسرائيلي الذي كان أيضاً يتعمد إطلاق قذائف بمعدل قذيفة في الدقيقة على الأحياء السكنية في بيروت الغربية .

كانت البداية عند الفجر ، عندما دوّت القذائف الفلسطينية التي أطلقت على الخطوط الإسرائيلية عبر بعبدا وخلدة في المدينة . وجاء الرد الانتقامي يهدر في الجو . ولم تكد تمضي دقائق حتى انطلقت سيارات الإسعاف في الشوارع . وقبيل طلوع الفجر سُمع صفير القنابل التي أطلقتها المدفعية الإسرائيلية الثقيلة في أجواء بيروت ، وانفجرت إحداها في شقة بالدور الأول من بناية في شارع اميل إده ، وهو منطقة سكنية بيوتها قديمة تتراكم فيها النفايات وتقوم خلف مكتب الأسوشيتد برس . واخترقت القذيفة الشرفة قبل أن تقع على سيارة فولكسفاجن صغيرة سوداء كانت مارة في الشارع .

وعندما نزلت مسرعاً من مكتب الأسوشيتد برس وجدت أن السيارة انفجرت . وخرجت من الشقة امرأة غارقة في الدماء طار ذراعها الأيمن وبرز العظم من رسغها . وتجمع المسلحون كما كانوا دائماً يعملون في مثل هذه المناسبات وهم يصيحون على الناس لإخلاء الشوارع ، ويطلقون النار من بنادقهم الأتوماتيكية في الهواء لحض الناس على ضرورة العمل بذلك . وخرجت من باب مجاور امرأة طويلة بعباءة زهرية فضفاضة ربما كانت ثوب نوم ومعها طفل صغير بقماطه . وبدت وكأنها تقدمه ليكون قرباناً . وكانت تولول بصوت مرتفع كما يفعل الناس في لبنان عندما يندبون .

وعندئذ فقط رأينا بقعة دم على وجه الطفل . وتقدم مسلح عليه ثياب رعاة البقر وأخذ الطفل من المرأة بلطف ورعب ، وأنزله من نافذة مفتوحة في سيارة إسعاف بلون الوحل . وكان يوم القصف الرهيب قد بدأ ببيروت . وقد ساعدت ذكريات الحرب الأهلية في ١٩٧٥ ـ ١٩٧٦ على إنقاذ حياة الناس . إذ كان أهل بيروت قد تعلموا أن يبقوا في بيوتهم أثناء القصف . وعليه فإن الشوارع حول كورنيش المزرعة كانت خالية ، والواجهة البحرية في الرملة البيضاء التي رأت أياماً أفضل ،كانت مهجورة بسبب القصف .

وتصاعدت هبات من الدخان الأسود من سطوح الشقق السكنية ومن الأحياء الفقيرة في صبرا . واجتاحت القذائف كل ما اعترض مسارها .وفي كثير من الأحيان كانت تطلق أربع أو خمس قذائف مرة واحدة فتحطم الجدران وأعمدة التلفون والأشجار وألواح الإعلانات والسطوح وسلالم الدرج . واشتدت نيران المدافع في أحد الأوقات إلى حد أن الشوارع امتلأت بروائح المتفجرات .

وصدرت عن محطة الإذاعة اللبنانية تحذيرات للمدنيين في بيروت الغربية البالغ عددهم نحو ٦٠٠،٠٠٠ وطلبت منهم اللجوء إلى الطوابق الأرضية . على أن ما شاهدناه بأعيننا في صيدا لا يدل على أنها كانت آمنة تماماً . وعندما حل الظلام كان مقاتلو فتح يشاهدون وهم يوقفون شاحناتهم التي تحمل المدافع الرشاشة إلى جانب الفنادق والمجمعات السكنية وكأنهم يسعون إلى جر الخراب على

السكان المدنيين . على أن عدة ضباط فلسطينيين بذلوا كل جهد لتنظيم خدمات الإغاثة وتنظيم مرور سيارات الإسعاف في الشوارع المؤدية إلى مستشفى الجامعة الأميركية . لكن المسلحين الأقل شجاعة منهم كانوا يهددون المدنيين بالبنادق ويضايقون مراسلي الصحف الأجنبية الذين كانوا يغامرون بالخروج إلى الشوارع .

وفي اليوم التالي حاول الإسرائيليون مرة أخرى الاستيلاء على أعلى نقطة على الطريق الدولي بين الشام وبيروت وذلك بالهجوم بالدبابات على السوريين خارج عاليه . وكان صوت إطلاق النار في الجبل ، الذي وضع نهاية للهدنة الإسرائيلية السورية ، يُسمع بوضوح في بيروت ويدوي بصوت أعلى حول القصر الرئاسي في بعبدا حيث كان سركيس يحاول إقناع السياسيين المسلمين والمسيحيين بالتوصل إلى صيغة تضع نهاية للحرب . ودعي فيليب حبيب مبعوث الرئيس ريغن لأول مرة للإنضمام إلى المحادثات وبذلك أتيح للنفوذ الأميركي أن يؤثر مباشرة على اللبنانيين . وكان جنبلاط وبرّي وبشير الجميّل قد اتفقوا فيما بينهم على أن تخرج منظمة التحرير من بيروت الغربية . لكن كيف؟

في اليوم التالي للغزو الإسرائيلي واختراقهم ـ دون أن يلحق بهم أي أذى ـ خطوط قوات الأمم المتحدة في الجنوب ، استدعى ياسر عرفات سمير صنبر الناطق باسم الأمم المتحدة إلى مقره بالفاكهاني ، حيث استولى عليه الغضب وأخذ يصرخ بصوت عال عليه بسبب عدم فعالية الأمم المتحدة ، «وتواطئها» مع الغزاة الإسرائيليين . وكان أقل لطفاً حتى مع كلاهان القائد الإيرلندي لقوات الامم المتحدة . وبعد أسبوع واحد أصبح عرفات أكثر اعتدالاً .

وعاد صنبر ، المرح ذو الجسم الممتلىء ، ثلاث مرات إلى مكتب عرفات حيث رحب به عرفات بوصفه واحداً من عدة أشخاص يمكنهم أن ينقذوا حركة الفدائيين الفلسطينيين من الفناء . ووجد الوزراء اللبنانيون الذين لم يكن عرفات يوليهم الكثير من الاهتمام في الماضي موضع ترحيب لدى الرجل الذي كان رجاله محاصرين في بيروت . وسألهم إذا كان باستطاعة الجيش أن يسيطر على بيروت الغربية ، وإذا كانت الولايات المتحدة ترغب في التحدث بصورة رسمية مع منظمة التحرير إذا نبذ الفلسطينيون استخدام العنف ضد إسرائيل .

ولم يكن عرفات عند ذلك على استعداد للتسليم بأكثر من إعلان عدم الاعتداء . وكان حبيب قد أوضح لرئيس الوزراء شفيق الوزان الذي كان يقوم بدور الوسيط مع عرفات أن ذلك لم يكن كافياً ، لأن الاميركيين يريدون أن تعترف المنظمة بإسرائيل . لكن عرفات كان يعلم أن التسليم بذلك سوف

يدمّر بنية الحركة الفدائية الفلسطينية إلى الأبد ، مثلما دمّرت بنيتها العسكرية في جنوب لبنان على أيدي القوات الإسرائيلية . وكان عرفات يأمل في أن يكون للاتحاد السوفييتي بعض التأثير بالرغم من أن ليونيد بريجنيف لم يفعل شيئاً سوى إدانة الغزو الإسرائيلي . وكانت الأعتدة السوفييتية قد أخذت تصل إلى سوريا لتعوض ما دمره الإسرائيليون .

وبدا بسّام أبو شريف الذي سبق له أن تحدث بتفاؤل خادع على الطريق الجبلي مستعداً للاعتراف بمأزق المنظمة خلال كشفه عن أساليبها السياسية . قال في إحدى الأمسيات حول بركة السباحة في فندق الكومودور : «نحن في بيروت ، ونحن محاصرون . إن منظمة التحرير في وضع صعب . لكنه ليس صعباً إلى الحد الذي يتصوره البعض . ففي الساعات القادمة سوف تتدخل أطراف أخرى مثل هيئة الأمم المتحدة والاتحاد السوفييتي وسوف تطرأ تغيرات» .

كان كثرة من مستشاري عرفات يعتقدون عندئذ بأن الغزو الإسرائيلي مجرد تمهيد لضم الضفة الغربية وغزة ، وهو شيء لن تستطيع إسرائيل تحقيقه ما دام الوطنيون الفلسطينيون في الأراضي المحتلة يركزون آمالهم السياسية ببيروت . وإذا صح هذا ، فإن الإسرائيليين لن يكونوا على استعداد للسماح لمنظمة التحرير بالاستمرار بأي شكل مثل شكلها الحاضر . وإذا كان من الجائز أن ترضخ إسرائيل إلى مشيئة المجتمع الدولي بشأن عدم إيقاع المزيد من الإصابات في صفوف المدنيين ، فإنها لم تكن على استعداد لاقتحام بيروت الغربية والمجازفة بوقوع عدد كبير من الإصابات بين جنودها .

لكن إذا تعذر على الإسرائيليين المجازفة بقواتهم البرية ، ألم يكن في استطاعة قواتهم الجوية أن تجبر بيروت الغربية على التسليم؟ بعد ظهر الثاني والعشرين من حزيران/ يونيو وقع حادث مشؤوم . إذ حلقت ست طائرات إسرائيلية مقاتلة من طراز سكايهوك وكفير على ارتفاع منخفض فوق المناطق السكنية قرب شاطئ البحر واطلقت البالونات لتضليل صواريخ سام ـ ٦ ، ثم اتجهت إلى البحر من غير أن تلقي بالقنابل . وراقبتُ الطائرات بعد ظهر ذلك اليوم وهي تمر فوق السطوح على علو يسمح برؤية معالم طياريها من غرف القيادة . ومن الجائز أن يكون هذا جزءاً من الحرب النفسانية أي محاولة من الإسرائيليين لإفهام منظمة التحرير بأن كل شبر من بيروت الغربية تحت رحمة طائراتهم . لكنني تذكرت ما قاله أهالي صيدا عن النشاط المشابه الذي كانت تقوم به الطائرات الإسرائيلية قبل أن تقصف المدينة وتترك أكثر من ألف قتيل .

وفي تلك الليلة بعثت برسالة إلى التايمز أخبر فيها بارنز بأنه «إذا لم يكن ما تقوم به إسرائيل مجرد ألعاب بهلوانية ، فظني أننا مقبلون على ساعات عصيبة» . وفي اليوم التالي طلبت من ووكر في القدس أن يطلعني على ما يفهمه مما يجري . وكتبت لبارنز : «لقد انتقل عدد كبير من الصحفيين من بيروت

الغربية إلى الشرقية . أما أولئك الذين يعتزمون البقاء هناك (في بيروت الغربية) . . . فمن الطبيعي أن يعرفوا إذا كانت هنالك أية إشارة إلى هجوم متوقع . فبعد الذي حدث في صيدا ، يشعر بعضنا بأن الشيء ذاته سيقع هنا (وأنا مثلاً أعتزم تجنب الطوابق الأرضية .)» وتلقيت جواب بارنز بعد نحو ساعة في برقية على الكمبيوتر تقول بأنه علم من ووكر أن الزيارات المقررة للصحفيين الذين يتخذون من إسرائيل مقراً لهم في الثالث والعشرين ، والذين سيسلكون الطريق الساحلي ، قد ألغيت . ونصح بارنز «بأنه يبدو أن اليوم مناسب جداً لزيارة جونيه للوقوف على سير الجلاء ، لكن أكرر أن اليوم ليس يوم الطوابق الأرضية . احتراماتي» .

وفي المساء تلقيت رسالة أخرى من بارنز تقول : «لقد سمع ووكر أنه بالرغم من أن شعبه (أي الإسرائيليين) يقولون أنهم لا يرغبون في الاستيلاء على المدينة ، فإنهم يؤكدون أنهم لا يستبعدون قيام القوات الجوية وقوات الكوماندوز بنشاط ضد أهداف معيّنة» وأجبت التايمز بقولي : «أعتزم البقاء هنا ومشاهدة كل ما يجري» وفي وقت متأخر من تلك الليلة انفجرت سيارة مفخخة قرب مخزن للذخيرة تابع لمنظمة التحرير على الجانب الإسلامي من خط التماس القديم . وكانت القنبلة التي بداخلها ضخمة إلى حد أنها أحدثت حفرة في الطريق طولها ٤٥ قدماً وهدمت مبنى كاملاً للشقق . وسحق خمسون من سكانه غالبيتهم من الشيعة الذين نزحوا من جنوب لبنان . ووجدت القوات السورية سيارتين مفخختين وقبضت على ثلاثة من الشيعة اللبنانيين كانوا في إحدى السيارات .

واستجوبت منظمة التحرير السائق فاعترف بعد استخدام القسوة معه أن ضابطاً من شين بيت (المخابرات الإسرائيلية) مقره في الدامور قام بلغم السيارات . وقال أحدهم إن الإسرائيليين قبضوا على أخيه وهددوا بقتله إذا لم يساعد على وضع القنبلة . وكانت المتفجرات التي رأيناها في اليوم التالي تحمل كلمات عبرية . وفيما بعد نقلت منظمة التحرير الأشخاص الثلاثة إلى الحفرة . وبينما كان أقرباء من ماتوا في المبنى ينظرون ، أطلقت النار عليهم من البنادق الأوتوماتيكية . ورش البترول على جثثهم وأحرقت . ثم دفنهم الحاضرون وأهالوا عليهم التراب والحجارة .

وجاء اليوم الرابع والعشرون من حزيران/ يونيو سيئاً كما توقعنا . فبينما كنا نتناول طعام الإفطار سمعنا هدير الطائرات النفاثة التي كانت تشق الفضاء في ذلك الصباح نحو المخيمات الفلسطينية ، وتلت ذلك أصوات الانفجارات التي هزت الشبابيك . وقبل وقت الغداء ظهر أحد الزوارق الحربية الإسرائيلية الصغيرة قبالة الشاطئ . وبينما كنت أنظر اليه من شرفة بيتي انبعث منه شعاع رفيع ، وما لبث أن انطلق بعد ذلك صاروخ رأيناه وهو يتلوى في طريقه فوق الأمواج نحو الكورنيش . وضرب الصاروخ الأمواج في البحر على بعد مئة متر من الشاطئ فانفجر وسط رذاذ الماء الأخضر . على أن

الصاروخ الثاني الذي كان يجر وراءه عموداً من الدخان الأسود فوق واجهة البحر ارتطم بفندق غير مكتمل كانت تتخذه ميليشيا الدروز مقراً لها .

وأمطر الإسرائيليون بيروت الغربية بالقذائف التي أحرقت مجمعاً للشقق السكنية قرب الشاطئ ، وضربت الشوارع حول الحمراء والطريق الساحلي في الرملة البيضاء ، والمخازن والشقق التي تسكنها الأسر اللبنانية وموظفو السفارات ومراسلو الصحف . وتعطلت جميع الاتصالات التلفونية بين بيروت الشرقية والغربية . ومزق القصف شبكة مواسير المياه الممدودة تحت الأرض مما أدى إلى نقص حاد في المياه ببيروت الغربية . وعمد المسؤولون إلى تقنين الكهرباء بحيث اقتصر استخدامها على أربع ساعات في اليوم . وعرض الإسرائيليون «وقف إطلاق نار» آخر ، لكن منظمة التحرير رفضت الشروط الملحقة به واعتبرتها بمثابة استسلام «كلي»(٧) .

وصار لإسرائيل في لبنان ١٠٠،٠٠٠ جندي و ١٢٠٠ دبابة ، وعدد مساو من الناقلات و ١٢٠٠٠ شاحنة للجند والمؤن . وليس هناك شك في صحة هذه الأرقام لأن مصدرها هو تيمور جوكسل الناطق باسم الأمم المتحدة في الناقورة . ومعلوماته مستقاة من قوات الأمم المتحدة التي كانت من خلال نقاط التفتيش التابعة لها تراقب الإسرائيليين وهم يعبرون منها الحدود بدون أي اكتراث للرأي الدولي . ونشرت سبعمائة دبابة حول بيروت وإلى جانبها ٢١٠ مدافع من عيار ١٥٥ و ١٧٥ ملم . وخلال الساعات الأولى من ٢٥ حزيران/ يونيو نزلت جماعة من الإسرائيليين في غارة تجريبية على الصخور قرب بيتي وأطلقت النار على أقرب المباني ، وأصابت رصاصتان جدار الشرفة في شقتي . وكان هدف الغارة هو اختبار قوة المدافعين . ورد الدروز والفلسطينيون على النار بالمثل فانسحب الإسرائيليون . ترى ما الذي كانوا يخططون له؟

في هذه الأثناء كان الإسرائيليون يوجهون التحذيرات والنصائح للمسلمين اللبنانيين . فقالوا لهم إن عليهم مغادرة بيروت الغربية والهرب من بيوتهم إذا كانوا يحرصون على أسرهم . وكان الإسرائيليون يكررون هذا باستمرار في منشوراتهم التي كانت تكتب بالعربية وتلقى عليهم . لكن المسلمين رفضوا ترك بيوتهم . وكان عشرات الآلاف منهم فقراء لا يتمكنون من الانتقال إلى أي مكان

(٧) كانت مطالب الاسرائيليين (١) لا يسمح بوجود منظمة التحرير والوجود العسكري الفلسطيني في لبنان ـ وعلى المسلحين الفلسطينيين أن يسلموا أسلحتهم ويستطيعون مغادرة البلاد إذا شاؤوا . (٢) عدم وجود قطاعات فلسطينية ذات حقوق خاصة (أي سيطرة منظمة التحرير على المخيمات) (٣) يجري انتشار الجيش اللبناني في جميع انحاء لبنان .

آخر . كما أن اصحاب الممتلكات لم يكونوا على استعداد لترك بيوتهم للمسلحين واللصوص . هذا فضلاً عن أن بيروت الغربية هي بيتهم الذي ولدوا وتعلموا وتزوجوا وأنجبوا الأطفال في أحضانه .

وفي الأيام الأولى من الحصار اكتشف كثرة من اللبنانيين الذين يعيشون في بيروت الغربية حبهم العظيم لمدينتهم . ومن خلال مقاومتهم لمطالب الإسرائيليين اكتشفوا شيئاً في داخل نفوسهم لم يفكروا فيه من قبل ، وهو أن كون الإنسان مواطناً يتطلب ما هو أكثر من إغنائه لأسرته . لقد أرادوا أن يخرج الفلسطينيون من مدينتهم ولكن كانوا يدركون أنهم لا يستطيعون إخراجهم . ومع هذا أخذوا يناقشون مستقبلهم يومياً على صفحات النهار والسفير ـ وهما أكبر الصحف اللبنانية ـ وفي الإذاعة وفي الاجتماعات الطويلة على ضوء الشموع مع الأصدقاء والأقارب الذين كانوا قد توقفوا عن زيارتهم .

إن «المرونة» أفضل كلمة نصف بها هذه الصفة الجديدة . فعندما عدت ذات صباح ، وبعد أن أرسلت تقريري عن سلسلة من الغارات التي وقعت عند الفجر ، وجدت صاحب المبنى الذي أقيم فيه واقفاً على الباب ، ومعه شبكة ملأى بالسمك . فصاح قائلاً : «سيد روبرت أنظر إلى ما أحمله . نزلت إلى الصخور واصطدت هذه الأسماك . ليس لدينا كهرباء ، ولا غاز ولا ماء ولا تلفونات كما ترى ، ولكننا نستطيع أن نعيش ـ أنظر . أنظر» . ورفع شبكة السمك الداكن أمام وجهي .

كان هذا الرجل قد تعلم بأن يقوم بأموره ، وقال بأنه لا يتوجب عليه أن يترك بيروت الغربية لأن الإسرائيليين طلبوا ذلك منه . ومن السهل أن نبالغ في تأثير الحصار على أهل بيروت الغربية ـ صحيح أن بعض مظاهر ذلك المزيج من كرم الضيافة والشك والتشاؤم قد قوي لديهم ، ولكنهم اكتسبوا شعوراً جديداً بالهوية قُدّر له أن يمكنهم من الصمود للسنوات المروّعة القادمة .

وهذا ما حدث للفلسطينيين أيضاً . لكن شعورهم بالكرامة وعزة النفس كان سيتعرض إلى اختبار بالنار . إذ سيموت المئات من لاجئي المخيمات خلال الأسابيع التالية بينما كانت منظمة التحرير تراوغ وتحارب وتتحايل وتهدد بالنيابة عنهم . لكن هذه المنظمة ستواصل القتال اليائس غير المتكافئ بشجاعة عظيمة إلى أن يدرك العالم أن الفلسطينيين ربما كانوا يقومون بدور داود ضد جوليات الإسرائيلي .

ومما هو ثابت أنه لم يكن لمنظمة التحرير خيار في ذلك ، وأن قرار عرفات أخيراً بالانسحاب من بيروت أدى إلى إنقسام المنظمة على نفسها . لكن الفلسطينيين في خرائب صبرا وشاتيلا وبرج البراجنة تعلموا أيضاً أنهم غير مضطرين إلىَ الاستسلام . ورأيتهم في أعقاب إحدى الغارات الجوية الشديدة على شاتيلا يخرجون من ملاجئهم وهم ينددون بالطائرات المغيرة . ولم يكونوا عندئذ

يفعلون ذلك من أجل عدسات التلفزيون . وكنت أنا الغربي الوحيد هناك . لكنهم لم يحسوا بوجودي . وكانت الحرائق لا تزال مشتعلة في احدى زوايا المخيم والدخان الكثيف ينساب برائحته الخانقة بين الأكواخ ، بينما كانوا جميعاً أطفالاً ونساء ورجالاً ومسلحين كانوا هناك يتجاذبون ويضحكون .

وكان لهذا جانبه الأناني . ففي ٢٥ حزيران/ يونيو أذاع عرفات من إذاعة منظمة التحرير حديثاً طويلاً حماسياً امتدح فيه «المقاومة البطولية» لمقاتليه ، ووعدهم بأنهم بأعمالهم هذه سوف «يحفظون كرامة الأجيال القادمة ، ويؤمنون الحرية بعزة وشموخ لأطفال فلسطين والعالم العربي» . وطلب من المستمعين أن «يصمدوا في بيروت» لكنه لم يشر في أي موضع من أحاديثه إلى أن بيروت ليست للفلسطينيين بل للبنانيين .

اشتدت الغارات الجوية الإسرائيلية ، كما اشتد قلق وحتى ذعر زعماء المسلمين اللبنانيين الذي تحول أحياناً إلى هستيريا . وكان وليد جنبلاط يحاول التفاوض مع سركيس حول خضوع منظمة التحرير ونزع سلاح بيروت الغربية .لكن لم يكن مقدراً لجهوده أن تنجح ، إذ لم يكن عرفات على استعداد لأن يضع سلامة منظمة التحرير تحت رحمة تلك المفاوضات . إلا أن جنبلاط عقد في الخامس والعشرين من حزيران/ يونيو مؤتمراً صحفياً في وزارة الإعلام ببيروت الغربية وأعلن فيه توقف المفاوضات . وكانت الطائرات الإسرائيلية تجوب سماء المدينة وهديرها يُسمع في البيوت ويهز النوافذ عندما ضرب جنبلاط يده على الطاولة وصاح قائلاً :«فلتكن منظمة التحرير إرهابية» .

وأضاف جنبلاط بصوت أخذ يزداد حدة وانفعالاً وسط الانفجارات التي دوى صوتها في مبنى وزارة الإعلام بأن منظمة التحرير على استعداد للرضوخ رضوخاً مشرّفاً ، ثم قال : «ولكنني لا أعتقد ان إسرائيل على استعداد لقبول ذلك . إنها تريد قتلهم وقتل اللبنانيين» . وقال وهو يضرب الطاولة بيده بأنه ستنبعث من أنقاض المنظمة المهزومة منظمة أكثر تطرفاً . وأخيراً فقد جنبلاط سيطرته على عواطفه وقال والعرق يغمر وجهه : «إنني أود أن تمارس منظمة التحرير الإرهاب أولاً ضد الزعماء العرب ، ثم ضد إسرائيل . . . لأن علينا أن نواجه الإرهاب الأميركي والإرهاب الإسرائيلي» . وختم كلامه بقوله إن بيروت سوف تدمّر .

كان يجلس خلفه عندئذ رئيس الوزراء شفيق الوزان الذي وقف بهدوء وعلى وجهه المشرق عادة بالابتسام علامات الاحتقار لا لما قاله جنبلاط وإنما لإسرائيل التي كانت أصوات طائراتها تكاد تغطي على ما يجري في المؤتمر . واهتز المبنى كله عندما وقعت انفجارات أخرى ، فتقدم الوزان نحو

الطاولة وقال بصوت يشوبه الغضب : «في كل مرة نتوصل فيها إلى نوع من التفاهم (حول خضوع المنظمة) نواجه بتصعيد جديد يبدو وكأنه يستهدف الضغط علينا . لقد أبلغت الرئيس سركيس أنني لا أستطيع الاستمرار في تحمل مسؤولياتي في ظل الابتزاز والتصعيد» .

وفي ذلك الصباح أصابت قذائف الطائرات الإسرائيلية مجمعاً سكنياً آخر أدى إلى قتل كل من فيه . وربما قصد الإسرائيليون بذلك إسقاط قذائفهم على مكتب «المرابطون» على كورنيش المزرعة . لكنهم أخطأوا الهدف وبدلاً من ذلك نشروا الخراب والنيران على نصف شارع أبو شاكر . ولم يستطع السكان الذين نجوا أن يفهموا ما حدث لهم .

وغني عن القول بأن الشارع بدا كالأفلام الإخبارية الحربية في المدن الغربية ، وذلك لأن القصف الجوي كله للمناطق المدنية كان يحدث النتيجة ذاتها . إذ عمّ الخراب شارع أبو شاكر ، وأخذ الدخان يتصاعد من مبانيه السكنية ، بينما أطبقت آلاف الأطنان من الإسمنت والحجارة على بعض السكان . وتناثر على الطريق حطام ممتلكاتهم من حُصر وصور تعلّق على الجدران ، وقطع من كرسي خشبي عليه خربشات أحد الأطفال ، وطعام ولعب ، وبرك ماء صغيرة وقذرة تهافت عليها الذباب .

وأحصى رجال الإسعاف الذين كانوا يتصببون عرقاً اثنتين وثلاثين جثة غالبيتها جثث رجال ونساء كانوا مختبئين في شققهم عندما انفجرت قنبلة على سطح البناية وشطرتها . وكانت هناك اريكة لا تزال معلقة فوق أرض إحدى الغرف وصور ناتئة من الجدران التي كانت معلقة عليها . وبدت في الطابق الخامس ثريا وسط الأغبرة . وكانت لا تزال تشع بأنوارها من سلك كهربائي لم تدمره القنبلة .

كان هناك فولي وألكس أفتيفولوس مراسل الأسوشيتد برس في قبرص الذي حضر لتقوية مكتب بيروت ، وهو نصف روسي ونصف قبرصي يوناني ، وله لحية سوداء بطول تسعة إنشات جعلته يبدو كأنه راسبوتين . ولاحظت أن فولي الذي كان يصور في آخر الشارع ينظر إلى السماء باستمرار . وكانت الطائرات النفاثة قد بدأت تعود . وبدا افتيفولوس غير مكترث . وتقدمت بشكل غريزي إلى ظلال الطوابق المهدمة حيث كان صبي صغير ينظر إلى السماء . وكانت ست نفاثات تحلق على علو ٧٠٠٠ قدم غير آبهة بنيران المضادات . ثم اتجهت إلى الجنوب .

وسحبت امرأتان الثياب من تحت ركام الإسمنت المكوم على قارعة الطريق . وتقدم منا لحام ، يدعى شحادة ضناوي أثناء تفحصنا للهب الذي كان لا يزال يتصاعد من مطبخ أحدهم . قال إن ابنته قد أخذت إلى المستشفى ، ووصف لنا باختصار وبلا انفعال يذكر كيف تمزقت معدتها بفعل شظية قنبلة إسرائيلية . لم يكن شحادة قد حلق ذقنه . وكانت عيناه محمرتين ونظراته ثاقبة . وكان لا يزال

تحت تأثير الصدمة . وبينما كان يرتجف أخذ يتكلم ببطء وتماسك وتؤدة . قال «هذه منطقة مدنية . . . إن الطائرات تحاول إرهابنا . . . وما هذه بالطريقة التي يجب أن يحارب بها الجنود» . ثم سمعنا صوت الطائرات ثانية .

أسرعنا إلى مداخل البنايات التي صدعتها الغارات السابقة إلى حد كانت معه على وشك الانهيار . وكانت الطائرات الإسرائيلية هذه المرة تطير على ارتفاع أقل وتنقض على برج البراجنة . لكن الانفجارات التي أحدثتها خلقت نوعاً من الذعر في محلة أبو شاكر . وكانت على الطريق امرأة استولى عليها الذعر ، ووقفت تبكي ذاهلة عن نداء أصدقائها لها .

وابتسم أفتيفولوس بشكل لطيف يوحي بالخطر وقال : «لِمَ لا نذهب ونعرف إلى أين تتوجه هذه النفاثات؟» وكنت بالطبع أعرف رغبته المزعجةوالمحرجة في اقتحام المخاطر لا الخروج منها ، فقلت : «طبعاً ولم لا» . وانضم إلينا فولي . وهكذا وبدافع لا يغيرّه سوى الواقع ، لاحقنا الطائرات النفاثة بالسيارة ، وسلكنا باتجاه برج البراجنة طريقاً خالياً مخيفاً كان الفتيان يطلقون منه مضادات تصلح للمتاحف على النفاثات التي تفوق سرعتها سرعة الصوت وسط انفجارات مخيفة تزلزل الأرض .

وعندِ الطرف الشمالي من طريق المطار أراد فولي أن يترك السيارة ليلتقط بعض الصور . وعندما تستعيد الذاكرة تلك الأحداث فانها تستعرضها بسرعة متزايدة تجعلها أشبه بفيلم قديم صامت تختلط فيه الصور بعضها ببعض وتصبح أقل وضوحاً . وكنت لا أحب السيارة وذلك لأن الطائرات قد تقصفها وخصوصاً هناك . وكان ما حولنا قفر من الشاحنات المحروقة والحفر التي أحدثتها القنابل والدخان . وكان على الجانب الآخر من الطريق مبنى شب فيه حريق خارج عن السيطرة ، وجعله شعلة كبيرة تتصاعد ملتوية كالريح الدائرة . وكانت القذائف تمر صافرة على علو منخفض وتنفجر خلفنا بين الأشجار .

وكان منظري وأنا واقف إلى جانب حفرة مضحكاً : كانت يداي على خصري أرقب فولي وهو يلتقط الصور والدخان يلف البنايات المجاورة والسيارات المحروقة . ونظر فولي إلى أفتيفولوس وقال متبرماً : «لا يوجد هنا ما تصوره . دعنا نتقدم قليلاً» . فقال فولي : «تقول إلى الأمام يا إفتي؟» أعتقد أن علينا أن نعود» . وفي تلك اللحظة وقع انفجار جعل فولي يجثم على الأرض . فقال أفتيفولوس : «لماذا؟ هل نعود بعد أن أخذت الأحداث تقع؟» ولم يكن أفتيفولوس متهوراً بل مثلنا جميعاً يحسب حساب المخاطر . وتراءى له أنه ما دام الإسرائيليون لا يروننا فليست هناك مجازفة ، وإذا حدث وأصبنا فان ذلك سيكون من سوء الحظ ، لا من سوء التقدير .

كان الدخان الأسمر يحيط بنا من كل جانب . وكانت الأرض تفوح برائحة المجارير . وأدركت أنني أقف إلى جانب نهر من الوحل يسير ببطء عبر الطريق . ومرّ بنا مسلحان فلسطينيان . ورفع أحدهما بندقيته في الهواء تحية لنا . لكن كانت تبدو عليهما علائم التعب والضجر . وكانا عندئذ عائدين إلى مركزهما في المدينة الرياضية .

وعدنا إلى السيارة وواصلنا السير . لكنني أخذت أشرح بإسهاب لأفتيفولوس ما يتطلبه عملي وأن علي أن أرسل أول تقرير في خلال ساعة . وأضفت بأنه ينبغي علينا أن نعود في الحال . إلا أن فولي وأفتيفولوس تجاهلا ما قلته . فقد كانا يعرفان أنه لا يزال هناك متسع من الوقت لكتابة تقريري . وعندما وصلنا إلى نهاية الطريق قرب السفارة الكويتية توقفنا مرة أخرى وأخذنا نرقب الطائرات وهي تقصف المخيمات وهدير محركاتها يطغى على دوي الانفجارات .

كان من الصعب مشاهدة النفاثات قبل انقضاضها لأنها كانت تهبط من علو كبير فوق رؤوسنا ومن خلال أشعة الشمس فوق البحر . لكنني لمحت واحدة منها فقط وهي تنقض كالشهاب مثل نسر تنيسون . ترى هل كان الطيار يفعل مثله عندما يطير فوق البحر ويستعد لقصف أكواخ الطين في المخيمات فيرى «البحر المتجعد يزحف تحته . . . ويسقط بعد ذلك كالصاعقة؟» فلم تكد تتصاعد أعمدة الدخان الأسمر من تلك الأكواخ البائسة حتى تلاها انفجار عال إلى حد جعل أفتيفولوس يقوّس كتفيه .

سمعت صوت محرك سيارة فولي يدور بجانبي . ولكن كانت هنالك صورة باقية لخط التماس الجنوبي هذا ، جعلتني أشعر فيما بعد بالخجل من خوفي المذل . فهناك وتحت القصف وفي منتزه صغير مملوء بالغبار وصناديق الذخيرة كانت تقف دبابة سورية قديمة من طراز ت ـ ٥٤ وعليها بضعة أغصان جافة للتمويه . وكنا دائماً نعرف دبابة ت ـ ٥٤ بموضع الأنبوب المعدني على ماسورة المدفع . ففي حين أنه في دبابات ت ـ ٥٤ يكون في نهاية المقدمة نجده في دبابات ت ـ ٦٢ في منتصف المسافة . ولاحظت هذه الحقيقة التافهة وسط ضباب القلق . ويبدو أن الدبابة لم تلفت نظر الطيارين أو أنهم تركوها لوقت آخر . لكن كانت ستقصف . فلن يفوت هؤلاء الإسرائيليين أن يتناولوا هذه «الوجبة» الصغيرة . ومهما يكن من أمر فقد كان علينا أن نغادر المكان .

وعندئذ رأيت جنديين سوريين على رأس كل منهما خوذة ، وبيديه بندقية . وكانا يقفان في مخبأ لا يظهر منه سوى رأسيهما ، وعلى بعد مئة ياردة من الدبابة . وكانا في العادة يسألاننا عن عملنا . ولكنهما هذه المرة وقفا ولوّحا لنا بأيديهما برغم القصف . وحيّانا أحدهما بقوله : «مرحباً يا شباب» .

وشعرنا بالأسى لأننا كنا ندرك أنه سيموت . وقال السوري الآخر : «شلونك ، كيف الحال؟» وكان الاثنان عندئذ على الطرف الآخر من الطريق . وحيانا السوري الثاني مرة أخرى ، ثم طلب مني أن أعبر الطريق اليه . وكنت أعرف ما يدور في ذهنه . كان خائفاً لأنه كان يعلم أنه سيموت . ولهذا كان يسعى إلى صلة مع البشر ـ مع إنسان يمكنه أن يخفف بوجوده إلى جانبه شيئاً من خوفه الذي له ما يبرره .

أردت أن أتركه . وحلقت فوقنا طائرة أخرى وانقضت من الجو ، وتفجرت القنابل التي ألقتها محدثة صوتاً كصوت الرعد . وأشار إليّ الجندي مرة أخرى ولكنني لم أستطع عبور الطريق إليه . أجل ، عرفت أن الجنديين سوف يموتان . ولكنني لم أنتظر ثلاثين ثانية أخرى لأمنحهما تلك الصلة مع البشر التي كانا في حاجة إليها لأنني أيضاً خفت أن أموت .

قال فولي : «دعنا ننصرف من هنا» وهكذا لم يكن هناك وقت لعبور الطريق والتحدث إلى أولئك الفتيين السوريين اللذين كانا يقفان في المخبأ أمام تلك الدبابة البلهاء بزيهما العسكري الذي لم يكن يناسبهما . ونظرت إليهما للمرة الأخيرة فأحنى كل منهما رأسه محيياً وكأنهما أشركاني في أسرارهما . ثم استدار الجندي الآخر بغير اكتراث واختفى في مخبئه . تركناهما محاصرين في بيروت الغربية وبلا أمل في الاتصال بجيشهما . وينتظران بصبر الجندي الهجوم الجدي الذي سوف يحرقهما ويحولهما إلى رماد .

عدنا إلى السوبر ماركت المدمر سبينس الذين نُهب في حرب عام ١٩٧٥ ، ووقفنا نراقب أبراج الدخان الأسود الجنائزية فوق الأوزاعي والمطار إلى أن بدأ زورق مسلح يكاد يحجبه قتام البحر بإطلاق قذائفه حولنا وفوق رؤوسنا . فهربنا نحو الروشة حيث كانت مطاعم السمك تحترق من جراء قصف سابق . وهبطنا من الصخرة باتجاه الكورنيش فأطلق الزورق قذيفة أخرى علينا ـ على سيارتنا الصغيرة المنطلقة على طريق البحر . ومرة أخرى سمعنا صفير القذيفة التي فجرت جزءاً من الطريق على بعد عشرين ياردة . فعدنا مسرعين إلى المكتب ، إلى إيرلين تاترو ، وإلى آلة الإرسال الحديدية القديمة[٨] .

(٨) لا تخلو حياة الصحفي من عوامل الاحباط . ففي لندن عطّل نزاع صناعي كانت نقابة المشتغلين بالكهرباء طرفاً فيه نشر جريدة التايمز . فلم تطبع الجريدة في تلك الليلة . ولهذا لم ينشر تقريري عن الغارات الجوية . وبعث لي عامل التلكس رسالة تقول : «لا جريدة يا بوب هذه الليلة أيضاً» فأجبت عليها بقولي : «حسناً يا صديقي . لكن بالله عليك أن تتصور ما أشعر به» فعاد عامل التلكس برسالة أخرى متعاطفة تقول «أجل . شيء لعين . وخاصة بالنسبة لك . فظاعة ونكران للجميل . أما بشأن عمال الكهرباء . . . لن نقول أكثر» .

وانتهزت بعد ذلك فرصة إعلان من إعلانات بيروت عن «وقف إطلاق النار» وتسللت خجلاً بسيارتي نحو المطار وذهبت إلى البقعة التي حياني فيها الجنديان . وعندما رأيت برج إحدى الدبابات مائلاً على أحد جنبيه في أحد الخنادق عرفت ما حدث ، ونظرت إلى داخل أحد المخابئ ، فلم أر سوى آثار ضئيلة لبقايا بشرية محترقة .

وجاءت نهاية هذه الغارات أشبه بالسحر . فبعد ثلاث دقائق بالضبط من استقالة ألكسندر هيغ وزير الخارجية الأميركية توقف القصف في بيروت . فبدا وكأن أحدهم ضغط على الزر . إذ اتصل فيليب حبيب بصائب سلام رئيس الوزراء السابق وأحد ساسة المسلمين الذي سبق لعرفات أن وسطه للتفاوض مع الأميركيين وأعلن عن وقف لإطلاق النار وهدنة وصفها سلام بأنها «نهائية وشاملة» . ويبدو أنه طرأ تغيير على السياسة الأميركية الخارجية أدى إلى صمت فوري في مدينة بيروت المظلمة .

إن القوة السياسية التي استطاعت أن تحدث هذا التغيير بذلك الشكل المفاجئ قوة تثير الدهشة . وكان هيغ قد وافق موافقة ضمنية على غزو إسرائيل للبنان ، ويرى الإسرائيليون أن «الضوء الأخضر» الذي قدمه كان استجابة ودية لشارون في ٢٠ أيار/ مايو عندما كشف هذا عن خططه للهجوم على لبنان . ولم يكن هيغ يخفي تعاطفه مع الإسرائيليين . وفيما بعد كشف المسؤولون في وزارة الخارجية الأميركية سراً أنه رأى «فرصاً» للولايات المتحدة في لبنان الموالي للغرب بعد أن يعمّه السلام .

وبالرغم من هدوء السعودية الظاهر فانهم بعثوا سلسلة من الرسائل العاجلة إلى واشنطن تحث ريغن على ممارسة الضغط على الإسرائيليين لكي يوقفوا غزوهم . الا أن هذه الرسائل لم تصل إلى ريغن . ويبدو أن هيغ أخفاها في وزارة الخارجية . وعندما بدا أن الجيش الإسرائيلي المحاصر على وشك أن يشق طريقه إلى بيروت الغربية هدد السعوديون بفتح جبهتهم . وهدد الملك فهد ـ كما قال الدبلوماسيون السعوديون ببيروت بأن بلاده ستسحب جميع استثماراتها من الولايات المتحدة في الحال وتفرض قيوداً على تصدير البترول للغربَ خلال ساعات إذا لم تجر السيطرة على الجيش الإسرائيلي . وعندما أبلغ ريغن أخيراً بخطورة الأزمة استقال هيغ الذي كان يفكر أنه أعطى «الضوء الأخضر» لإسرائيل . وهكذا قضى لبنان على ضحية أخرى .

كان قلة منا يعتقدون أن هذا سيوفر للبنان شيئاً أكثر من تأجيل مؤقت للحصار الإسرائيلي . وفي صباح اليوم التالي أرسلت لبارنز في التايمز رسالة تقول : «الأمل ضئيل هنا في استمرار وقف إطلاق النار أكثر من يومين . وإنه من الغباء الاعتقاد بأن إطلاق النار قد انتهى» . وكان مكتب الأسوشيتد برس قد جلب المزيد من الموظفين إلى بيروت الغربية . وكان نك تاترو ـ زوج إيرلين ـ قد عاد من اليمن

بعد بدء الغزو الإسرائيلي بأسبوع عن طريق دمشق . وكان تاترو يجمع بين الصلابة ورقة الإحساس بطريقة تروق لموظفي الأسوشيتد برس من اللبنانيين الذين كان يفهمهم أكثر من زملائه . وعلى أي حال فإنه كان يتكلم العربية . وكان بالإضافة إلى ذلك سند الشركة الذي يرقب جهاز الإرسال بكبرياء المدير ، في الوقت الذي يحرص فيه على شهرتها كشركة صحفية بعيدة عن التحيز في تقاريرها الإخبارية . ولقد كان يظهر شعوراً وحشياً تجاه الحرب ـ معتبراً إياها ، كما أظن ، ظاهرة طبيعية أثارتها النفس اللبنانية . وكان حينما يختلف معي في تحليلي للوضع ، يصيح : «دعك من هذا يا فيسكي» . وكأنني أروّج لدواء من أدوية المشعوذين» . وحين يتفق معي يصيح «لقد فعلتَها» .

وبعد ظهر أحد الأيام دخل إلى مكتب تاترو شخص طويل القامة يضع نظارات تبدو عيناه وراءها كأنهما حصاتان . وكان بالغ المرونة واللطافة ويعمل مراسلاً للأسوشيتد برس في جوهانسبرج ـ ذلك هو تيري أندرسون الذي كان يعاني من زيادة الوزن ويتكلم أحياناً وهو يلهث كأنه مدرب لكرة القدم ، ويصر على الجري حول الملعب وهو يتكلم إلى فريقه . وقد انتدبته الأسوشيتد برس لمساعدة المكتب . وقدم أندرسون إلى لبنان وعبر خط التماس إلى بيروت الغربية .

وقد نتجاوز الحقيقة إذا قلنا بأن اندرسون كان لا يعرف الخوف لكنه كان بالتأكيد متهوراً . ونشأت عنده عادة غريبة وهي النوم في ساعات غير متوقعة خلال النهار . فكان يتمدد على أرض المكتب ليغفو خلال غارة جوية ، ثم ينهض فجأة ويعبر الشوارع بسيارته أثناء القصف العنيف . وكان يتصرف كرجال الأعمال إزاء شكوى الإسرائيليين من تحيّز الصحافة ، فيقول : «كل ما عليهم أن يفعلوه هو أن يفهموا شيئاً واحداً وهو أنك عندما تقوم بعمل سيء فإن الناس سيقولون شيئاً سيئاً عنك» .

وفي ٢٧ حزيران/ يونيو وقعت غارة «مناشير» أخرى . وفي هذه المرة أسقطت الطائرات النفاثة مناشير مطبوعة بدون عناية على قصاصات ورق زهرية وخضراء بعربية ركيكة مكسرة وكلها موجهة إلى سكان لبنان الذين أصبحت سلامتهم ـ بعد أسبوع من القصف الشديد دون تمييز ـ أمراً يهم الإسرائيليين . ولم يترك نصها شكاً في أن الهدنة مؤقتة . يقول النص :

«إن جيش الدفاع الإسرائيلي يواصل حربه ضد الإرهابيين . ولم يستخدم بعد كل قوته . ويحرص هذا الجيش على عدم إلحاق الأذى بالمدنيين الأبرياء وبأي شخص لا يحاربه .

يا سكان بيروت ، انتهزوا فرصة وقف إطلاق النار وأنقذوا حياتكم . . . أنقذوا حياة أولئك الذين تحبونهم» .

قائد جيش الدفاع الإسرائيلي

وكان من المقلق أو المربك لأي شخص أن تسقط هذه الرسالة على بيته . وقد أثار هدف الرسالة الكثير من الجدل : هل كان المقصود منها إنقاذ حياة الناس الذي يخلّص إسرائيل من بعض ما لحق بها من عار من جراء آلاف الإصابات بين المدنيين في لبنان ، أم كان المقصود منها ممارسة المزيد من الضغط على منظمة التحرير الفلسطينية كي تستسلم؟ ورد عرفات على ذلك في الحال من إذاعته ، فوعد مرة ثانية «بالدفاع عن بيروت . . . وتكبيد العدو ثمناً باهظاً وباهظاً جداً لأية محاولة يقوم بها لاقتحام المدينة» .

كانت هذه الكلمات الحربية تعكس المناقشات الحادة التي كانت لا تزال تجري بين كبار المسؤولين في منظمة التحرير . وكانت آخر الشروط الإسرائيلية للاستسلام قد قدمت من خلال الأمريكيين بواسطة صائب سلام . وأضيف إليها الآن شرط جديد هو المطالبة بترحيل كل مقاتل عن العاصمة . وخرج خليل الوزير ، الرجل الثاني بعد عرفات في القيادة الذي اغتاله الإسرائيليون فيما بعد في تونس عام ١٩٨٨ ، من أحد الاجتماعات وقال للمراسلين بأن شروط وقف النار «حل مهين» . وأضاف أن المنظمة ترفض أن تلقي سلاحها وتستسلم .

كان معظم قادة منظمة التحرير يعرفون أن الفلسطينيين كانوا على حافة الهزيمة العسكرية . وكان عرفات وزملاؤه يطالبون بنوع من الاستسلام المشرّف كإلقاء السلاح مع استمرار المنظمة كهيئة سياسية .اذ كان قبول عرفات وزملائه للعرض الإسرائيلي بأن يخرجوا هم ومقاتلوهم من بيروت معناه أن المنظمة ستفقد إلى الأبد مكانتها كحركة مقاومة ، وهذا بدوره سيؤدي إلى تحطم إرادة المقاومة لدى الفلسطينيين في الضفة الغربية وغزة . وكان الإسرائيليون يدركون هذا ويسلمون بصحته . وعليه فإن الفلسطينيين رفضوا بعناد الخروج من بيروت الغربية .

وفي تلك الليلة قابل عرفات شفيق الوزان في مكتب هذا الأخير من أجل مزيد من المحادثات . وفي الوقت الذي كانت تجري فيه هذه المحادثات انفجرت سيارة مفخخة على بعد ٥٠٠ ياردة من مكتب رئيس الوزراء فقتلت أربعة من المارة . ترى من كان يزرع هذه المتفجرات؟ ولم كانت السيارة الأخيرة المفخخة التي لم تنفجر ملأى بأجهزة تفجير من صنع إسرائيل؟ في تلك الليلة ، أعلن

الصليب الأحمر والمستشفى ودوائر البوليس أن حصيلة القتلى منذ الغزو الإسرائيلي قد وصل إلى ١٠،١١٢ قتيلاً معظمهم من المدنيين . وقتل ٢٥٠ منهم في الغارات التي شاهدتها أنا وفولي وأفتيفولوس قبل ذلك بيومين .

كانت الآمال الأخيرة في السلام معلقة كما يظهر على صائب سلام . وكان يمكن أن يوصف في أي بلد آخر «بالسياسي المخضرم» .غير أن وجود عدد كبير من السياسيين في مثل سنه جعل ذلك الوصف بلا معنى . وكان سلام قد رئس الوزارة أربع مرات . ويعود تاريخ عائلته السياسي إلى والده الذي كان عضواً في مجلس النواب العثماني . وكان سلام الذي يبلغ السابعة والسبعين من عمره والذي يبدو في الستين ويدخن سيجار تشرشل ، يحتفظ ببطاقة والده البرلمانية في برواز على رف للكتب في مكتبه ببيروت الغربية ، وهي بطاقة خضراء باهتة اللون فيها صورة صغيرة لرجل شاب خشن المظهر له شارب وطربوش مائل على رأسه .

على أنه من الخطأ الاعتقاد بأن سلام كان ينوء بهذا الحمل السياسي الملقى عليه . إذ كان يستمتع به بإيجابية ، فيجلس في مكتبه الصغير وبين يديه فتاحة مغلفات من الرخام الرفيع . ومن الواضح أنه كان يسره أن يكون محور الاهتمام الدولي ، وأن يكون سياسياً لبنانياً استحق منصبه باجتهاده ، وحفظ نفسه من عدوى التلوث السياسي . وكان هو الوسيط الرئيسي بين الأميركيين وبين منظمة التحرير الفلسطينية ، وموضع ثقة عرفات وبشير الجميل ، والرجل الوحيد ـ كما كان يعتقد ـ الذي كان بوسعه إنقاذ بيروت من الدمار .

كان سلام مقتنعاً بأن على منظمة التحرير أن تلقي السلاح ولكن بشرف ، وأنها قد خاضت «حرباً مشرّفة» إلاّ أنه حان الوقت لمواجهة الواقع السياسي والعسكري . وكان هذا على الأقل ما قاله سلام رغم أنه لم يكن من قبل يصف حرب الفلسطينيين على ذلك النحو . وكان السلام في نظره شيئاً يسهل إفلاته من بين أيدينا .

قال لي في أواخر حزيران/ يونيو وهو يضرب الفتاحة بلطف على يده اليسرى «إنه (السلام) كالتفاحة الشهية التي ما إن تكاد تقترب منها حتى تفرّ منك . إنك تجد المرونة في جانب ثم لا تلبث أن تلمس التصلب في الجانب الآخر» .

كان الفلسطينيون والإسرائيليون عندئذ يخلقون من المشكلات حول الاصطلاحات ما جعل التفاحة الشهية المتأرجحة أبعد منالاً . ففي حين أن الإسرائيليين كانوا يتحدثون عن «تعديل للخطوط» في بيروت الغربية ، كان الفلسطينيون يتكلمون عن «فك ارتباط» . وهز سلام كتفيه وقال : «قد تكون

أقدر مني على معرفة الفرق بين الكلمتين» . وكان يحب أن يطرح على مستمعيه وخاصة على الصحفيين مثل هذه التساؤلات . وكان في بعض الأحيان ينهض عن كرسيّه بلباسه الأبيض الأنيق وحواجبه البيضاء تعلو وتهبط مع حرارة اهتمامه السياسي .

كان قد شغل منصب رئيس وزراء لبنان منذ عام ١٩٥٢ أربع مرات . وقاطع انتخابات سركيس . وكان ذلك في مصلحته . واستطاع أن يهيىء اجتماعاً بينه وبين عرفات في بيته المؤلف من ثلاثة أدوار ، وأن يتصل من هناك بالتلفون مع بشير الجميل في بيروت الشرقية . إذ لو أمكن اتفاق هذين الرجلين على طبيعة الاستسلام الفلسطيني ، فمن المؤكد أنه لن يبقى مبرر لمهاجمة إسرائيل بيروت مرة أخرى .

ومما زاد في صعوبة مهمة سلام الفوضى الإدارية في وزارة الخارجية بواشنطن . قال سلام : «حدث في احدى المراحل في الأسبوع الماضي أن أبلغ السعوديون منظمة التحرير أنهم تلقوا تأكيدات من وليم كلارك (مستشار الأمن القومي للولايات المتحدة) أنه سيكون هنالك فك ارتباط . ولكن وزارة الخارجية كانت تشتغل على خط آخر ، وتقول أنه سيكون هناك تعديل للخطوط (العسكرية)» على أن الرسالة التي تلقاها فيليب حبيب هي رسالة وزارة الخارجية . وكان هذا ـ كما تكهن سلام ـ وراء استقالة هيغ .

وبدا سلام غير مكترث بسقوط مثل هذه الشخصيات العالمية . كان قد خلق لنفسه مكاناً لائقاً في تاريخ بلاده الحديث عكسته فخامة منزله الشرقي المزدان باللوحات الزيتية والسجاد الإيراني وثريات الكريستال ، وغرفه البيضاء العالية المعتدلة البرودة . وكانت رفوف الكتب مزدانة بالكتب الإنجليزية والفرنسية والعربية المغلفة بالجلد ، وعلى أحد الجدران صورة ملونة للملك فيصل وهو يصلي ، وفي الخارج وراء النباتات المعرشة على المدخل جامع صغير .

كانت منظمة التحرير الفلسطينية آنذاك قد وافقت في محادثاتها مع سلام على عدم استمرارها كقوة عسكرية في لبنان وعلى خضوع مخيماتها ورجالها للسلطات اللبنانية . ولكن الإسرائيليين كانوا لا يزالون يريدون نفي القادة الفلسطينيين من لبنان .قال سلام : «إن الجميع يشعر بأن الوقت آخذ بالنفاد . وأن الوقت ثمين جداً» . وفجأة أخذت فتّاحة الرسائل تضرب بشدة على ظهر يد سلام اليسرى ، وبسرعة متزايدة وكأنها رقاص ساعة أفلت زنبركها . على أن الوقت كان يسير أيضاً لصالح سلام ، لأن الرئيس سركيس كان بحاجة إلى رئيس وزراء جديد . وكان سلام هو حلال العقد الذي كان سركيس وحتى بشير الجميّل خليفته المحتمل يبحث عنه .

وكان المشاركون الوحيدون في حرب لبنان الذين لم يكن سلام على اتصال بهم هم السوريون . وكان قد بدا واضحاً أن وضعهم في العاصمة بيروت يائس . وكان جيشهم في الجبل قد أصيب بنكسات خطيرة على الطريق العام هناك . وعلى الرغم من أنهم لم يفقدوا المرتفعات في المديرج إلاّ أن الوحدات المدرعة السورية القريبة من بيروت هاجمها المظليون الإسرائيليون وأرجعوها إلى خط جديد خلف بحمدون . وكان الهجوم الإسرائيلي مفاجئاً للسوريين ـ الذين كانوا لا يزالون ملتزمين بوقف إطلاق النار ـ إلى حد استطاع معه المشاة الإسرائيليون أن يدمروا الدبابات السورية .

ولاحظت ما حل بالسوريين على طول الطريق من الكحالة باتجاه دمشق : دبابات مهجورة في الحقول ومدفعية ثقيلة متروكة على حالها فوق سطوح البيوت ، وجنود سوريون أطلقت النار عليهم من الخلف فسقطوا إلى جانب الطريق .

وظلت جثة أحد الجنود ممددة حتى قام أحد المسيحيين اللبنانيين برشها بالبترول وإحراقها . وبعد أن احترقت الجثة واسودت أقبلت سيارة من أعلى الجبل يقودها شخص ومعه أسرته ، فتوقف على الجهة الأخرى من الطريق . ورأيته يخرج يهدوء من السيارة وبيده كاميرا ، وتقدم نحو بقايا الجثة والتقط صورة لها . وعاد إلى السيارة وهو يبتسم . فقد أضاف صورة إلى مجموعة صوره . حقاً إنه من الصعب النفاذ إلى عقل اللبناني .

كانت هناك دبابات سورية محطمة ومحترقة ، وجثث ملقاة بين الحشائش على جانبي الطريق وفي الحفر . وكانت الرائحة التي تصل إلى الطريق العام تدل على أن الجثث كانت هناك . أما الدبابات المحترقة فكانت على جانب الطريق وبروجها مائلة على جنوبها . وكانت الانفجارات قد أذابت طلاءها وقتلت من فيها . وفي بحمدون ذاتها كانت شاحنات سورية قد سُحقت على الأرصفة وترك بعضها بينما كان يجري تحميلها بالبطانيات والمؤن في محاولة فاشلة للانسحاب بنظام .

أصبح خط التماس على الجبال فوق بيروت متراساً من الطين والحجارة علوه عشرة أقدام يقوم على الطريق ذات الاتجاهين . وكان هذا المتراس منعزلاً ووراءه عدد من سيارات الجيب الإسرائيلية العسكرية التي تتمايل أنتيناتها في وجه الريح الباردة ، بينما كان سائقوها يراقبون ما حولهم بمناظير الميدان . وعلى بعد ميلين إلى الأعلى كان الجيش السوري ينسحب بآلياته من صوفر .

ولم يشعر الإسرائيليون الذين كانوا وراء المتاريس بحركات السوريين . لكن عندما سلكنا بالسيارة طريقاً ريفياً ضيقاً في مزارع التبغ وخلال قرية تظللها الأشجار الطويلة وجدنا أنفسنا قرب الكازينو القديم في صوفر إلى جانب مظلي سوري . وعندما واصلنا السير رأينا زملاءه يحملون الفراش

وأحد المواقد على آخر شاحنة في المدينة . وإذ كانوا يتوقعون مزيداً من التقدم الإسرائيلي فقد وقفوا على أهبة الاستعداد للرحيل .

على ان استعدادات السوريين هذه لم تكن ضرورية . فالإسرائيليون اعتبروا انسحاب السوريين من بحمدون هزيمة لهم . واستولى الكتائبيون الذين كان الإسرائيليون قد أدخلوهم مرة أخرى إلى الأراضي الجديدة التي احتلت على الدبابات المهجورة التي كانت بحالة حسنة . وادعى الضباط الإسرائيليون الذين كانوا ببحمدون ويتحدثون بلا مبالاة وأيديهم في جيوبهم ونظارات الشمس على عيونهم أنه كانت لدى السوريين معدات جيدة ولكنهم لم يقاتلوا . على أن المسألة لم تكن بهذه البساطة . فأكثر الآليات كدبابات ت ـ ٥٤ كان عمرها اكثر من خمس عشرة سنة ، كما أن الإصابات الكثيرة التي لحقت بالإسرائيليين واعترفوا بها تدل على أن السوريين ماتوا وهم يقاتلون . فإذا لم تكن هذه هي الحقيقة فلماذا أوقف الإسرائيليون ومعهم دبابات السنتوريون على أطراف صوفر وفي موقع لم يكن ملائماً من الناحية العسكرية؟

لكن هدف الإسرائيليين الحقيقي كان مواصلة التقدم على الطريق الجبلي . وحشدوا مدرعاتهم على أطراف صوفر لمنع السوريين من العودة إلى بيروت ، وخرق الحصار الإسرائيلي لها ، وبالتالي لكي يكون خروج السوريين ومقاتلي منظمة التحرير من بيروت إلى دمشق رهناً بمشيئتهم .

وأخذ مئات من أهالي غرب بيروت ـ وهذا جزء ضئيل من سكانها البالغ عددهم ٦٠٠،٠٠٠ ـ يغادرون مدينتهم المحاصرة ، ومع بعضهم شاحنات محملة بالأثاث . وكان الكتائبيون لا الإسرائيليون هم الذين يقومون بتفتيش السيارات المتوجهة إلى بيروت الشرقية . وسنرى أن الإسرائيليين سيعهدون بالمزيد من الأعمال للكتائبيين خلال الأسابيع القادمة ، وسيرفضون التدخل عندما يهدد المسلحون المسيحيون سائقي السيارات ، أو يسرقون الطعام من الأسر المسلمة وحتى عندما يقومون بهذا أمامهم .

ولم يظهر على الإسرائيليين شيء من الإحراج بسبب هذا ، لكنهم جروا على شيء لم يحيدوا عنه إطلاقاً وهو أنهم لم يكونوا يسمون الكتائبيين باسمهم ، وإنما باسم «القوات اللبنانية» وهو الاسم الذي أطلق على تحالف الجميل ـ شمعون . وكان هذا التحالف قد فقد معناه الحقيقي بعد أن تكرس تحالف الكتائب مع إسرائيل حول بيروت الغربية . وكان الإسرائيليون سيثيرون تساؤلات لو أنهم سموا حلفاءهم بالكتائب . ذلك أن هذا الاسم كان سيوجه الأنظار لا إلى صداقة قوية في المستقبل بين اليهود والمارونيين بل إلى عام ١٩٣٦ أي إلى أولئك الشبان ذوي القمصان الداكنة الذين كان

يستعرضهم قائدهم الشاب في عين الرمانة . أي أن تكرار الاسم كان سيعيد إلى الأذهان فرانكو والفاشية والنازية .

وجرت إذاعة إسرائيل على اتباع أقرب طريق حول التاريخ فأخذت تشير باستمرار إلى الترحيب الحماسي الذي لقيه الإسرائيليون من «القوات اللبنانية» . وحذا حذوها كثرة من المراسلين الأجانب الذين كانوا يكتبون من إسرائيل ولا يعرفون شيئاً يذكر عن تاريخ لبنان . ولم تبدأ جريدة «الجيروزاليم بوست» بتحري الصلات التاريخية بين الإسرائيليين والكتائبيين إلا بعد الغزو بسنة . وحتى ذلك الوقت كانت هي أيضاً تشير إلى الكتائبيين باسم «القوات اللبنانية» .

كان اسم «القوات اللبنانية» مناسباً ، ويبدو خارجاً على التاريخ ورسمياً ، ويولّد الانطباع بأن الكتائب أبعد ما تكون عن مجرد ميليشيا لبنانية ، وأنها جيش منظم له وضع قانوني ، ويعمل لا من أجل بشير الجميل بل للرئيس اللبناني . والحقيقة هي أن الإسرائيليين كانوا يأملون في تولي بشير رئاسة لبنان ، فعندئذ قد تصبح «القوات اللبنانية» تلك السلطة التي تظاهر الإسرائيليون بالاستيلاء عليها .

وفي صباح ٢٨ حزيران/ يونيو تساقطت مرة أخرى على بيروت الغربية مناشير بلون خريفي غير طبيعي وهو اللون الأخضر أو الأصفر وتحمل رسالة مستعجلة . وكانت فظة وبعيدة عن اللياقة وتذكّر المرء بالتهديدات التي كان يوجهها البارونات الغربيون للقلاع المحاصرة : «عليكم أنتم في بيروت الغربية أن تتذكروا اليوم أن الوقت يكاد ينتهي وأن كل تأخير يزيد الخطر على أبنائكم . . . إن الإسرائيليين لا يرغبون في إيذاء المدنيين الأبرياء . أسرعوا . أنقذوا حياة العزيزين عليكم قبل فوات الأوان» . وسقط أكثر تلك المناشير فوق كورنيش المزرعة حيث كان المئات من المدنيين قد ماتوا من جراء الغارات الإسرائيلية الجوية .

وبادر الإسرائيليون إلى الضغط على الصحافة الغربية في بيروت . واعترف الإسرائيليون سراً للمراسلين في بيروت الشرقية أن الصحفيين في بيروت الغربية «شوكة في جنبهم» وادعوا بأن تقاريرهم متحيزة إلى جانب «الإرهابيين» . وقال ضابط إسرائيلي بعد انفضاض مؤتمر صحفي في بيروت الشرقية أن على المراسلين الذين يعملون من بيروت الغربية أن يغادروها في الحال «لأسباب أمنية» .

وبعثت رسالة لبارنز (بالتايمز) تذكر أن ضابطاً إسرائيلياً قال في مناسبة أخرى لي «بأنني قد لا أستطيع أن أتجول في المنطقة المحتلة في المستقبل لأنني لا أخضع للرقابة» . وكان قبل ذلك قد

سألني إن كنت رأيت قوات سورية في صوفر ، وطلب مني تحديد أماكن انتشارها . فرفضت تزويده بالمعلومات كما كنت سأرفض طلباً سورياً مشابهاً لمعلومات عن الإسرائيليين . وقلت للضابط الإسرائيلي بأن أي تلميح إلى أنني لا أستطيع التجول في البلاد «غير مقبول» على الإطلاق ، وأنني سأواصل عملي كصحفي في البلاد . وفي لندن حولوا رسالتي هذه إلى دوغلاس هيوم ، رئيس تحرير التايمز . فأصر هذا على أن أواصل العمل في جميع مناطق لبنان سواء أشاء الإسرائيليون أم أبوا . وهكذا كنا بين شاهدين قلائل على النتائج المروّعة لغاراتهم الجوية وقصفهم دون تمييز .

وكان وصفنا المتواصل الدقيق لهذه المعاناة الإنسانية أهم واجب صحفي خاصة وأن المعارك السابقة وحركة الجيوش الكبيرة حول بيروت كانت قد توقفت . وكانت إيرلين تاترو قد بذلت جهداً كبيراً في جمع قوائم بأعداد وأسماء المصابين من المستشفيات والصليب الأحمر . وصار علي وعلى نك تاترو أن نتحرى عن الموتى في المقابر . وكان الإسرائيليون لا يزالون يدعون أن أرقام الإصابات كاذبة وأن مصدر المعلومات هو منظمة التحرير لا تحرياتنا . لكنهم لم يستطيعوا ولا حتى مرة واحدة أن يقدموا معلومات تناقض معلوماتنا . صحيح أنه لا سبيل إلى التحدث إلى الموتى . لكن إذا استمر الإسرائيليون في انكار الحقيقة فعلينا أن نستمع إلى ما يقوله حافرو القبور .

توجهت أنا وتاترو إلى مقبرة صغيرة على زاوية مخيم صبرا وعلى مسافة تقل عن ميل من خط التماس حيث كانت القذائف الإسرائيلية قد مزقت كشرة من أشجار الصنوبر . وكان طنين الزيز المرتفع بين تلك الأشجار القديمة دائمة الخضرة يبعث فيها الحياة . لكن أبا الطيب لم يحفل بذلك كله . قال : «لم يسبق لي أن قبرت ذلك العدد من الموتى الذين قبرتهم في الشهر الماضي» . ثم سرنا معه بتؤدة ولطف إلى حيث كان الرفش وغيره من أدوات الحفر . وكانت القبور الجماعية الصغيرة تحت الأشجار والتراب لا يزال طرياً فوقها . ولم يتعمق أبو الطيب في حفرها بسبب القصف .

كان هؤلاء ضحية الغارات الجوية الإسرائيلية وأكثرهم من المدنيين وبينهم عدد من المقاتلين الذين ألقي بهم في الحفر بينما كان مخيم صبرا يتعرض للقصف . لم تكن هناك شواهد على قبورهم ، كما أنه لم يبق من دليل على أسمائهم سوى مفكرة صغيرة سمراء على بعض صفحاتها آثار الطين وفيها أسماؤهم وبعض التفاصيل عنهم . وأشار إلى مربع من الطين الأسود إلى يسارنا وقال : «هنا يرقد الأشخاص الخمسة عشر التالية أسماؤهم» . وأخذ يقرأ قائمة أسمائهم ومن هم كما يفعل الخطيب على المنبر : «جمال محمد ابراهيم ، رجل مسن ، محمد أحمد بكري جندي سوري ، أشرف محمد ، صبي في التاسعة من عمره . .» .

كان أبو الطيب في منتصف العمر وله أسنان تحمل آثار أطباء أسنان عديدين حاولوا عبثاً إصلاحها . وكان يبتسم من حين لآخر وخاصة عندما يبدي عجزه عن فهم الأهمية السياسية لإحصائيات الموتى من المدنيين . ولم يدرك ذلك الا مسؤول فلسطيني كان يقف تحت الأشجار . ولهذا تقدم منا وأشار على أبو الطيب بالعربية بأن لا يذكر أن جابي حسين الذي كان يرقد بجوارنا كان من مقاتلي الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين .

لكن غالبية من دفنوا مؤخراً من المدنيين . وكانت في مفكرة أبي الطيب قائمة بأسماء ٢٥٠ شخصاً دفنوا بعد ابتداء الغزو الإسرائيلي في ٦ حزيران/ يونيو ، ودفن أربعة عشر منهم في قبر واحد في ١٣ منه ، وثلاثون في قبر جماعي مماثل في اليوم التالي ، وخمسة عشر في ٢٢ من الشهر ذاته . وكان بعض هؤلاء كما قال أبو الطيب من النساء وكثرة منهم من الأطفال . وكان يستمع إلى هذا بنضوج الكبار أربعة أبناء له بينهم فتيان كانا يعملان معه في حفر القبور .

ومنذ أن قدم أبو الطيب إلى بيروت في عام ١٩٧٠ قام بحفر غالبية القبور في تلك البقعة وعددها ١٨٠٠ . وكان هناك صفان من قبور «الشهداء» الفلسطينيين الذين ماتوا في حرب السنتين الأهلية ١٩٧٥ ـ ١٩٧٦ وفي الحروب الحزبية الداخلية التي تلت ذلك . وكانت على كل قبر صورة لوجه صاحبه محفوظة في غلاف من البلاستك وبرواز حديدي لوقايتها من الشمس ، وإلى جانبها في غالب الأحيان خريطة لفلسطين في عهد الانتداب البريطاني . وكانت على بعض القبور صور شابات وأطفال في ثيابهم الناصعة البياض . كما كان يرقد هناك ٣٠٠ لبناني وفلسطيني قتلوا في غارة على بيروت عام ١٩٨١ . لكن إذا كانت تلك القرنة الصغيرة من صبرا قد استقبلت ٢٥٠ شخصاً من ضحايا شهور الحرب الأخيرة فلا ريب في أنه كان هناك آلاف الموتى يرقدون هنا وهناك في مقابر بيروت الغربية الثمان . وكان لدينا ٢٧٠ اسماً من أسماء الرجال والنساء والأطفال الذين ماتوا في يوم واحد من أيام قصف بيروت في حزيران/ يونيو وهو اليوم الثاني منها .

وانبعثت من تحتنا رائحة حادة ذكرتنا بقلة عمق القبور . وكانت قد سقطت في قرنة من المقبرة إلى الجانب الآخر من الأشجار بعض القذائف الإسرائيلية ، واستهدفت على ما يحتمل قاعدة فدائية على بعد ٤٠٠ ياردة . وقد تركت هذه القذائف آثارها على القبور التي تحطمت حجارتها ، وعلى الصور وقطع الرخام التي تناثرت حولها . وكان أبو الطيب قد حفر هناك ثلاثة قبور جماعية أخرى لاستقبال المزيد ، وذلك لأنه كان يتوقع أن لا يطول وقف إطلاق النار . وبذلك ـ كما قال ـ تصبح المقبرة مليئة بالموتى .

وكأن أرقام هذه الإصابات لم تحرج الإسرائيليين بما فيه الكفاية . فقد ظهرت دلائل على أنهم أخذوا يستخدمون في قصف بيروت الغربية قنابل عنقودية اشترطت الولايات المتحدة عند بيعها لهم أن لا تستخدم ضد المدنيين . وكان الرئيس ريغن قد عبّر عن قلقه حول استخدام تلك القنابل خلال الغزو الإسرائيلي للبنان . إذ تبين أن الإسرائيليين لم يسقطوا هذه القنابل على الدبابات والسيارات الصغيرة التي صنعت من أجلها فحسب ، وإنما على أشخاص في المناطق المدنية . وكنا أنا وراندال وتاترو قد اكتشفنا عدداً لم ينفجر من هذه القنابل في المخيمات الفلسطينية ببيروت وحولها ، وعدداً من الغلافات البلاستيكية لتلك القنابل في العاصمة وفي أنحاء أخرى من لبنان ، وعليها رقمها الأميركي وتاريخ صنعها بالولايات المتحدة .

أما الذي جعل القنابل العنقودية مخيفة إلى ذلك الحد فهو طبيعتها التي لا تعرف التمييز . إذ تقتل بإمطار كل من حول مكان انفجارها بوابل من الكرات الفولاذية والشظايا المعدنية . وهي سلاح مميت في المناطق السكنية . وكانت الولايات المتحدة قد باعت إسرائيل نوعين من هذه القنابل بشروط معينة . ومن الغريب أن الأميركيين لم يكشفوا النقاب عن تلك الشروط . وكان اكتشافهما في مخيمات اللاجئين هو الذي أثار القلق في واشنطن لأن كثرة من ضحاياهما كانوا من المدنيين .

وأتيح لي أن أشاهد وأفحص قنبلة من أحد النوعين ، فإذا بها عبارة عن مجموعة من العلب المعدنية المثلثة تحتوي كل منها على كرات أسطوانية من المواد المتفجرة المصنوعة من مسحوق كيميائي أبيض . وقيّض لي أن أجد عشرات من تلك العلب في مخيم شاتيلا وفي الأزقة بين الأكواخ المهدمة قرب السفارة الكويتية . وكان الإسرائيليون «كرماء» في استخدام هذه القنابل لضرب المخيمات إلى حد أنني استطعت أن أجمع كيساً من العلب وأن أعيد تجميعها على طاولة في الصالون ببيتي . فجاء شكل الذي جمعته منها شبيهاً بقنبلة يطلق عليها في الولايات المتحدة اسم مختصره (سي بي يو ـ ٥٨) الذي يصنع خصيصاً من أجل ضرب سيارات الجيب ومجموعات الرادار المتحركة وغير ذلك من تجهيزات القتال الخفيفة . وعثر راندال وصحفيون آخرون على علب مماثلة في كورنيش المزرعة الآهل بالسكان من السنة والشيعة .

والنوع الآخر من هذه القنبلة يشبه القنابل العنقودية للدبابات التي تشتمل الواحدة منها على عدد من القنابل الصغيرة كل منها يتألف من ثلاثة أجزاء ، وقطر كل واحدة نحو ثلاث بوصات . وقد سقط عدد منها لم ينفجر على طريق الأوزاعي جنوبي بيروت . وكانت تبدو للوهلة الأولى وكأنها رؤوس سهام كبيرة وسميكة . وكان طول أكثر غلافاتها نحو ثلاثة أمتار ويتألف الغلاف من مادة بلاستيكية

خفيفة وتنشطر عند إطلاقها . وعثرت منظمة التحرير التي أذاعت خبر هذا السلاح من أجل أغراض الدعاية على عدة غلافات حول بيروت خلال الأسابيع الثلاثة الماضية(٩) .

ورأينا في مستشفى البربير أطفالاً أصابتهم تلك القنابل الصغيرة بجروح . وكان بعضهم قد عثر عليها في الشوارع أمام بيوتهم ، فأخذوا لجهلهم بحقيقتها يلعبون بها حتى انفجرت في أيديهم . ودوّنا ملاحظات عن هذا كله ملأت مئات الصفحات . وكنا في تلك الأثناء نتردد باستمرار على المستشفيات ونتحدث إلى رجال الصليب الأحمر الدولي ، وأحياناً كنا نذهب بالسيارة أو مشياً على أقدامنا إلى مجمعات الشقق التي قصفها الإسرائيليون . وكنا وسط هذا الحطام والبقايا البشرية ندوّن ملاحظاتنا في مفكرات وعلى قصاصات الورق . وعليه فإنه يمكن القول بأن ما دوّنه الواحد منا صار أشبه بيوميات حفار القبور .

وعندما صار هذا السلاح المتطور يستخدم ضد بيروت الغربية استمر نزوح المواطنين البائسين وسياراتهم محملة بالفراش والمواقد . وكان المسلحون يتقاتلون فيما بينهم في بعض أحياء بيروت على احتلال البيوت التي تركها أهلها . ولم يبق في الروشة المواجهة للبحر سوى جماعات المسلحين الذين يحملون البندقية بيد والترانزستور باليد الأخرى . وأصبح الراديو شريان الحياة بالنسبة للمواطنين والمسلحين على السواء .

لقد تعرضت بيروت خلال التاريخ لحصارات كثيرة ـ مثل حصار الصليبيين وصلاح الدين في القرن الثاني عشر والأسطول الانجليزي التركي عام ١٨٤٠ ـ لكن أياً من تلك الحصارات لم يبلغ ما بلغه الحصار الإسرائيلي في القرن العشرين . وأدى ذلك إلى تفريغ بيروت الغربية من جميع السفارات الغربية تقريباً بما فيها السفارة البريطانية . وأظهر النروجيون والكنديون شجاعة كبيرة فأبقوا على سفارتيهما فيها . لكن لم تلبث الغارات الجوية الإسرائيلية أن أخرجت السفير الكندي من بيته .

وأعلنت منظمة التحرير رسمياً بأنها ستخلي بيروت . وصرح بذلك صائب سلام في ٣٠ حزيران/ يونيو . لكن هذا لم يخفف الكثير من البلاء عن بيروت . ذلك أن الزعماء الفلسطينيين لم

(٩) كتبت تقريراً مطولاً للتايمز عن استخدام القنابل العنقودية بلبنان . ونشرت الجريدة الحقائق الفنية والأعداد المسلسلة التي رأيتها محفورة عليها . وكانت على غالبيتها علامات تدل على أنها «قنابل عنقودية مضادة للدبابات» وعلى بعضها عبارة «بحرية الولايات المتحدة الأميركية» وبدا أن العديد منها يوجه بالرادار . ووجد في واحدة منها كانت بالأوزاعي جهاز ألكتروني معقد يشتمل على آلة توقيت وعليه اختصار اسم الشركة التي صنعته . راجع التايمز ، ٢ تموز/ يوليو ، ١٩٨٢ .

يكونوا قد اتفقوا بعد على كيفية الجلاء وتاريخه ـ وحتى على التفاصيل حول عدد المقاتلين الذين سيتركونها . والواقع أنهم كانوا يحاولون ما وسعهم ذلك اطالة المفاوضات ، وبالتالي إجبار إسرائيل على مواصلة الحصار . وكان آريئيل شارون في الانتظار ويتلهف على التأكيد بأن صبر إسرائيل قد نفد .

ففي الثاني من تموز/ يوليو ظهر على مائدة غداء في فندق ألكسندر ببيروت الشرقية بحراسة مسلحين إسرائيليين ، وأعلن من قاعة الغداء للمراسلين الصحفيين أن «السبب الوحيد لوجودنا هنا هو تدمير منظمة التحرير الفلسطينية الإرهابية . .» . وكان عرق شارون يتصبب بغزارة في حر الظهيرة بسبب السمنة . ولكنه كان يبتسم باستمرار وهو جالس وعليه قميص أزرق زاهي اللون . وقال للصحفيين الذين احتشدوا في المكان ما كان يقوله دائماً وهو أن جيشه «لا يعتزم الاحتفاظ بإنش مربع واحد من الأراضي اللبنانية» فالإسرائيليون ـ كما أضاف ـ لم يكونوا يحاربون اللبنانيين أو الشعب الفلسطيني بل منظمة التحرير .

وبعد ذلك بساعتين عاد بشير الجميّل من المملكة العربية السعودية حيث أبلغته عدة دول عربية بأنها قد تساعد ترشيحه لرئاسة الجمهورية إذا سمح لمنظمة التحرير أن تحتفظ بوجود ملموس في بيروت . ولكنه رفض العرض ، وذهب في الحال إلى قصر الرئاسة للإجتماع بحبيب وسركيس والوزان . ثم خرج وقال وهو على الدرج للمراسلين الذين كانوا بالانتظار أن منظمة التحرير لا تنوي الخروج من بيروت الغربية . قال ذلك وكأنه يقرر حقيقة مسلماً بها ، ولكن وجهه كان جامداً بينما كانت عيناه تتفرسان في وجوه الحاضرين . إلا أن منظمة التحرير قالت بأنها ستجلو عن بيروت . وقال بالعربية العامية : «إنهم يكذبون . لقد كذبوا على حبيب وسركيس والوزان . إنهم كذبوا في كل مكان» . وأضاف بأن هذه الكذبة تهدد بمحو بيروت الغربية «محواً كلياً» .

وعادت الطائرات قبل الفجر وأسقطت قنابل صوتية فوق بيروت الغربية . وبدا وكأن المدينة كلها آخذة في الأنهيار . وحلقت الطائرات النفاثة على علو منخفض وهي تطلق فوق سطوح البيوت أعمدة من الأنوار المشعة التي لا تلبث أن تولد سحابة من الضوء الأصفر فوق المدينة . وأخذ الإسرائيليون يحثون المدنيين من مكبرات الصوت المعلقة على واجهة المتحف على الخروج من بيروت الغربية . على أن الفلسطينيين على الجانب الآخر من خط التماس كانوا يقولون للناس من مكبراتهم أن الكتائبيين سوف يغتصبون نساءهم .

وعندما قمنا أنا وأفتيفولوس بزيارة لجنوب لبنان قطعنا فيها خلال الذهاب والإياب مئتي ميل ، وجدنا الإسرائيليين يضعون الكتائبيين حول صيدا بجانب بقايا مخيم عين الحلوة ، وفي مدينة جزين

فوق الجبل . وأقام الإسرائيليون نقاط تفتيش إسرائيلية ـ كتائبية مشتركة ، وفي الغالب تحت صورة بيار الجميل الشاب وهو ينظر إلى فجره السياسي الجديد . ووجدنا أن الإسرائيليين قد سمحوا للمسلحين في بعض القرى الشيعية بأن يحملوا أسلحتهم لكي ينضموا إلى «الحرس الوطني» الموالي لإسرائيل . وظهر الآن مسلحو حداد الذي كان سيفاً مصلتاً على القرى الشيعية ذاتها في صيدا لحراسة نهر الأولي جنباً إلى جنب مع الإسرائيليين .

وفي طريق عودتنا إلى بيروت شاهدنا الإسرائيليين ينقلون إلى إسرائيل الدبابات القديمة التي استولوا عليها من منظمة التحرير . وهي دبابات ت ـ ٣٤ المصنوعة عام ١٩٤٤ ، وشاحنة محملة ببنادق أك ـ ٤٧ وفي مؤخرتها مئات من الأسلحة التي كانت ترتفع وتهبط كأنها هدايا ستوزع على الأطفال . وبالفعل جرى توزيعها على مسلحي حداد . لكن كانت هناك المشكلات السياسية المتكررة وراء القضايا الخلقية للحرب .

فإذا كان المقاتلون الفلسطينيون جيشاً ـ أي إذا كانوا قوة عسكرية لديها أسلحة هائلة خطرة كما كان يدعي الإسرائيليون ـ كيف تأتّى للإسرائيليين أن يصفوهم بأنهم «إرهابيون»؟لقد سبق للبريطانيين أن وصفوا اليهود والعرب الذين كانوا يقاومونهم في فلسطين بأنهم «إرهابيون» واعتبروا مناحيم بيغن الذي كان قد نسف فندق الملك داود بالقدس زعيماً «إرهابياً» ،كما اعتبروا تلك الجريمة بأنها الأشد وحشية بين الجرائم التسع في القرن العشرين .

وفي بيروت الشرقية كان ضباط الجيش الإسرائيلي وحتى الصحفيون الإسرائيليون الذين صاروا يزورون بيروت الشرقية بانتظام يستخدمون كلمة «إرهابي» بلا تدقيق مسبغين بذلك على الحرب نكهة أخلاقية كانت في الواقع غريبة عنها الإرهاب ـ الإرهاب ـ الإرهاب ! لم يسبق لهذه الكلمة أن استخدمت على ذلك النحو الشامل والمشؤوم والخطر . على أن الإرهاب كان من بعض النواحي اكثر مظاهر الحرب إثارة للرعب . إذ من هم «الإرهابيون» الذين كانوا ببيروت؟ المقاتلون الفلسطينيون الذين ذبحوا خصومهم المسيحيين في الحرب الأهلية؟ أم مسلحو الكتائب الذين ذبحوا المدنيين الفلسطينيين وتحالفوا مع الإسرائيليين؟ أم الجنود والطيارون الإسرائيليون الذين قتلوا آلاف الأبرياء وهم يلاحقون شبح «الإرهاب الدولي»؟

فإذا كان الإسرائيلي يعتبر المقاتل الفلسطيني إرهابياً فماذا يقول عن أخيه الذي يحافظ على بندقيته ، وعن أخته التي تنظف له سترته العسكرية ، وعن أبويه اللذين يعتقدان أنه يقاتل ولو بلا رحمة من أجل قضية؟ ثم إنه كان هناك خلل في الكلمات التي كانت منظمة التحرير تصف نفسها بها . فكان

عرفات يتحدث عن التحدي ولا يدرك أو يتجاهل أن اللبنانيين ينكرون عليه العنف الذي استخدمه . ورفض الفلسطينيون أن يعيدوا النظر في بلاغتهم بالرغم من حصارهم ببيروت . وكان مسلمو بيروت يشكلون الحماية الوحيدة لهم ، وعلى استعداد للتضحية بحياة المدنيين من أجلهم .

وفي صباح الخامس من تموز/ يوليو قطع الإسرائيليون التيار الكهربائي والمياه عن بيروت الغربية . ولم يسمحوا بادخال المزيد من الطعام إليها . وفي اللحظات الأخيرة من «وقف إطلاق النار» رأيت الجنود الإسرائيليين ينتزعون سلال الطعام من المسلمات اللواتي يعبرن إلى بيروت الغربية ويلقون بمحتوياتها في أحد الخنادق . ورأينا الإسرائيليين على نقطة العبور قرب المتحف يقومون بعملهم بحماسة كبيرة إلى حد أنهم صادروا «ساندويتشين» من شرطي كان يعبر من بيروت الشرقية إلى بيروت الغربية . كما شاهدت مسلحاً كتائبياً عند غاليري سمعان ينتزع زجاجتي ماء من امرأة مسنة كانت قد سمعت بأن الماء قطع عن بيروت الغربية ، وأملت في أن تستطيع إدخالهما إليها . وقام الكتائبي بكسر الزجاجتين على الطريق أمام أعين أربعة من الإسرائيليين . وصاح الكتائبي في المرأة المسنة : «كذا . . . أمك» بينما كان الجنود الإسرائيليون يضحكون .

كانت هذه المرأة تبلغ الخامسة والستين أو حتى السبعين من عمرها ، وعلى رأسها منديل . وكانت تتصبب عرقاً بسبب سمنتها الزائدة وحرارة الشمس . لماذا كانوا يفعلون هذا؟ ومما حيرني وأنا أقف إلى جانب المرأة عدم تدخل الإسرائيليين . وصاح الكتائبي على المرأة : «يا كذا . . . هل كنت تحملين الماء إلى الإرهابيين؟» وكان الإسرائيليون لا يزالون يضحكون .

كان ذلك كالمرض المعدي . وكانت له علاقة بكلمة «إرهابيين» . وكان الكتائبي قد استخدم كلمة «محاربين» وفهمها الإسرائيليون . وبدا وكأن العطف الذي يشعر به البشر تجاه امرأة مسنة مثلها قد تبدد فجأة . فهل كانت كلمة «الإرهابيين» هي التي تخطر ببالهم عندما يتحدثون عن المدنيين ببيروت الغربية؟ الإرهابي ! كانت هذه الكلمة كالتعليمات التي تظهر على شاشة الكمبيوتر أو كالشيفرة التي تكشف كلمة السر التي تسمح بالقيام بعمل أو تبارك في عمل مستقبلي . فهل يدك الإسرائيليون بيروت حتى يسووها بالأرض؟

عندما اقتربت من المسلح وسألته لماذا يصرخ في وجه المرأة العجوز ، انتفض كالنمر والتفت إلي ، وسحب رتاج بندقية أم ـ ١٦ وصوبها على بطني . وقال : «كذا . . . أختك» ، وبهذا عدنا مرة أخرى إلى الكليك كلاك . وحوّل البندقية إلى بطن المرأة . وكان الإسرائيليون على بعد عشرة أقدام فقط ، ولكنهم لم يفعلوا شيئاً . وكنت متأكداً من أن المسلح لن يطلق النار . ورأيت صحفيين آخرين

مقبلين نحونا . وذعرت المرأة . ومدت يديها متوسلة بدون أن تقول شيئاً . وأمالت رأسها ونظرت إلى الكتائبي وقالت «يا الله ! أرجوك» !

الفصل التاسع

دقة جراحية

«كان عليّ أن آخذ الطفلين وأضعهما في دلو ماء لأطفئ اللهب وعندما أخرجتهما بعد نصف ساعة كانا لا يزالان يحترقان . وحتى في غرفة الموتى ظلا يحترقان طوال ساعات» .

د . أمل شماع من مستشفى البربير

بعد أن أشعلت القذائف الإسرائيلية الفوسفورية النار في بيروت الغربية .

٢٩ تموز/ يوليو ١٩٨٢ .

كانت عليا أبو سعيد مستلقية على جنبها في المستشفى ، وهي تسعل باستمرار في منديل ملطخ . وقال الطبيب : «هناك فوسفور في رئتيها . لقد ولّدت هذا الصباح قبل الأوان ، ولا أعرف إذا كان باستطاعتنا إنقاذ الطفل ، فالمشكلة هي أنه هو أيضاً يسعل ، ويعاني من التسمم بالفسفور» . وكان وراء الباب عدد من الشابات من قريبات عليا وصاحباتها اللواتي لففن رؤوسهن بالمناديل . وكن يتهامسن في انتظار رؤيتها . فنظرتْ إليهن وحاولت أن تبتسم . إذ كانت قد فقدت ثلاثة من أطفالها .

عرفنا أنا وتيري أندرسون هذا المستشفى جيداً . فليس من السهل علينا أن ننسى ما رأيناه فيه . وكنا نزوره لمعرفة ما يفعله إطلاق النار في الجسم ، ولإزاحة الستار عن أسرار المدافع الكبيرة التي رأيناها أنا وراندال في طريق عودتنا من صيدا .



جريح محترق بقذيفة فوسفورية إسرائيلية

لم يكن باستطاعة عليا أن تتذكر الكثير عن القذيفة الإسرائيلية الفسفورية التي أصابت كوخها في مخيم برج البراجنة في ٢٥ تموز يوليو . بل كان من المؤلم أن نسألها عن ذلك وهي تغص بالكلمات ، وتسعل بمنديلها الملطخ . وكانت مستلقية على جنبها الأيمن بسبب الحروق على ذراعها ورجلها اليسريين والجانب الأيسر من وجهها . قالت : «أخذني زوجي إلى الدور السفلي من بيتنا للإحتماء عندما بدأ القصف . ولكن القنبلة سقطت في ذلك الدور . وكان دخانها أبيض» .

عندما وصلت عليا أبو سعيد مع أحد عشر فرداً من عائلتها إلى مستشفى البربير ، كانت أجسادهم لا تزال تحترق ، لأن الفسفور تغلغل في جلودهم ودب في شعر رؤوسهم . وكان على الدكتورة أمل شماع أن تلفهم ببطانيات وتحلق شعرهم المحترق قبل أن تقتلع الفوسفور الأبيض من أجسادهم . وفي غرفة أخرى على بعد بضعة ياردات كانت شقيقة عليا مستلقية إلى جانب زوجها حسين بيتم ، وكلاهما مصاب بحروق بليغة ، ويتكلمان بصعوبة لأنهما كانا يصابان بنوبة سعال عندما يحاولان الكلام . وكان حسين يبلغ الثالثة والخمسين من العمر ، لكنه كان يبدو أصغر بكثير بسبب صلعه واللون الزهري الرهيب الذي كان يكسو وجهه المحترق . وبالرغم من سعاله الشديد فإنه كان يحمل بيده سيجاره وهو ينظر إلى النافذة . ولم يكن بين أطباء بيروت من سبق له أن عالج جروحاً فسفورية سوى قلة . وكان أكثرهم يلجأون إلى حرق كريم يخلع على البشرة لوناً أحمر فاقعاً . وأُخذ حسين وزوجته عند دخولهما المستشفى إلى وحدة التوليد ليغسلهما الأطباء باستمرار في أحواض الحمامات .

صدمت الجروح الهيئة الطبية في مستشفى البربير . فعندما أُحضرت العائلة في آخر تموز/ يوليو إلى غرفة الطوارئ ، وجدت الدكتورة شماع أن توأمين يبلغان من العمر خمسة أيام قد توفيا ، وأنهما مع ذلك كانا لا يزالان يحترقان .

كانت قصة شماع مروّعة واختنق صوتها وهي ترويها . قالت : «كان علي أن آخذ الطفلين وأضعهما في دلو ماء لأطفئ اللهب . وعندما أخرجتهما بعد نصف ساعة ، كانا لا يزالان يحترقان . وحتى في غرفة الموتى ظلا يحترقان طوال ساعات» . وفي صبيحة اليوم التالي أخرجت أمل شماع الجثتين الصغيرتين من قاعة الموتى لدفنهما . واستولى عليها الذعر والخوف عندما اندلع اللهب مرة أخرى من جثتيهما .

كان أدهم ، ابن عليا أبو سعيد البالغ من العمر أربع سنوات ونصف السنة ، يبكي في جناح الأطفال والممرضات يضمدن جراحه للمرة الثانية . وبالرغم من أن وجهه كان خالياً من الحروق ، إلا أن ساقيه وذراعيه كانت مشوهة تشويهاً شديداً . وكان يسعل ويبصق بينما كان الطبيب في الجناح ـ

وهو رجل لطيف أصلع وذو عينين مرهقتين ـ يتحدث إليه باستمرار ويحاول أن يطمئنه إلى أنه سيكون بخير . لكنه في الواقع لم يكن واثقاً من ذلك وقال إن الفتى سوف يسترد عافيته ، إلا إذا أصيب في رئتيه . وسبق للدكتورة شماع أن رأت في اليوم السابق طفلاً آخر من أطفال عليا يموت بسبب ثقوب في رئته .

لكن لم تكن أي من عائلتي بيتم وأبو سعيد تعرف شيئاً عن الفوسفور وعن سبب استخدام الإسرائيليين له . ونُقل الكثيرون من أصدقائهم في المخيمات الفلسطينية إلى المستشفى وهم مصابون بجروح من جراء الشظايا . وأحصت الدكتورة شماع تسع عشرة حالة حروق فوسفورية ما بين ٦ حزيران/ يونيو و٢٩ تموز/ يوليو . وكان أحد المصابين فدائياً فلسطينياً ، أما الباقون فكانوا مدنيين ، وتوفي ثمانية منهم ، من بينهم أطفال عليا الثلاثة .

قضينا أنا وأندرسون وقتاً كثيراً في مستشفى البربير الذي يقع على الطرف الغربي لنقطة عبور المتحف على طول خط التماس القديم . ولقد بدا واضحاً لنا أن مأساة مدنيي بيروت الغربية لم تكن في جداول الأموات وملفات دفن الموتى وسجلات حفاري القبور فحسب ، وإنما أيضاً في أجنحة المستشفيات التي كانت أكثر تعرضاً للدمار . فنيران المدافع الإسرائيلية دمرت الطابق العلوي من مستشفى البربير وأصابت مستشفى المقاصد ومستشفى الجامعة الأميركية ، كما أصابت دار الأيتام الاسلامية قرب شاتيلا مما حمل الممرضات على التخلي عن الأطفال الرضّع الذين وجدهم الصحافيون يبكون بين ركام الميتم .

كنا ـ أندرسون وأنا ـ في شوارع بيروت الغربية عندما تعرّضت لأسوأ حوادث القصف التي شهدها شهر تموز/ يوليو . إذ استهدفت المدافع شارعاً ضيقاً ، وأمطرته بخمسين قذيفة دفعة واحدة ، وقتلت كل شخص في دائرة نصف قطرها ٥٠٠ ياردة . فوقفنا على سطح مكتب الأسوشيتد برس طيلة بعد الظهر بينما كانت القنابل الفسفورية تتساقط على المباني حولنا ، وتنفجر وسط سحب ناعمة بيضاء تنساب فوق المباني وكأنها دخان نار مشتعلة في إحدى الجنائن . وسقطت إحداها فوق سطح المقر الرئيسي للصليب الأحمر الدولي . ورأيناها تنفجر وراء علمه الضخم الذي رُفع لحماية المكان من الغارات الجوية . وأرسلنا الخبر إلى الصحف . لكن الصليب الأحمر الدولي تذمر من نشره ، ونفته إسرائيل نفياً باتاً .

سألتني الدكتورة شماع إذا كان بإمكاني أن أهتدي إلى تركيب القذائف الكيميائي كي تستطيع تحضير أدوية أكثر فعالية لحالات الحروق المروعة التي كانت تستقبلها . فطلبت مساعدة «التايمز» ، فأرسل لي مايكل هورسنل ، وهو مراسل ومركزه لندن ، رسالة مخيفة في ٣٠ تموز/ يوليو كتب فيها :

«منذ الحرب العالمية الأولى والفسفور الأبيض يستخدم لتعبئة القذائف المدفعية والقنابل اليدوية . واستخدم لإشعال العواصف النارية في هامبورغ خلال الحرب العالمية الثانية . . . تصنع القذائف الفوسفورية البيضاء في المملكة المتحدة والولايات المتحدة وألمانيا الغربية . . . ولها رأس مستدير شديد التفجر ويطلق من مدافع هوايتزر م ـ ١٠٩ من عيار ١٥٠ ملم .ولا يعتقد أن الولايات المتحدة تزود إسرائيل بها بموجب أية شروط خاصة لأنها «ذخيرة عاديه» . ومن المؤكد أن الاتفاقات الدولية لا تأتي على ذكرها . . . إلا أنها تعتبر «مفيدة جداً في تنظيف البيوت» . وينبعث منها دخان يبقى مدة طويلة ويحرق . وينبغي أن تلف حروق المصابين بسرعة ثم تغطس في الماء . وخلال العواصف النارية في هامبورغ ، كان البوليس يرسل دوريات في القوارب لإطلاق النار على الضحايا وتخليصهم من العذاب» .

بدأنا نفهم لماذا . فبعد ظهر يوم ٢٩ تموز/ يوليو ، عاد أندرسون إلى مكتبه من مستشفى البربير وهو في حالة من الغضب المكتوم . وكان قد رأى هناك أحمد بيتم وهو يموت . وظننت أن باستطاعة الدكتورة شماع إنقاذ الطفل البالغ عمره ثلاث سنوات بالرغم من الحروق المخيفة بوجهه . وتركت أندرسون في المستشفى وعدت لأغطي القصف المدفعي الإسرائيلي للرملة البيضاء . وعندما عاد أندرسون جلس أمام الآلة الكاتبة إلى جانب ماكنة القهوة وأدخل فيها ورقة ، ونظر إلي وقال : «لقد راقبته وهو يموت» ثم أخذ يبكي وقال : «لماذا كان لا بد لذلك أن يحدث؟ بالله عليك لماذا؟» كان لأندرسون ابنة في السابعة من عمرها ، وكان يحب الأطفال . وتلاشت حدة طبعه . وانقض على الآلة الكاتبة كما لو أنها كانت السبب في موت الطفل وبدأ يسجل واحداً من التقارير المثيرة للمشاعر عن الحرب :

«أحمد بيتم ، عمره ثلاث سنوات ، مصاب بحروق في وجهه وقسم من صدره . وربط بسريره بالأحزمة الرقيقة . وعندما انحنت الدكتورة أمل شماع فوقه لتشير إلى الإصابات التي سببها الفوسفور الحارق ، توقف قلبه .

«انحنت الطبيبة فوق جسمه ووضعت سماعتها على صدره ، ثم استدعت ممرضة وممرضاً وقالت : «شداً» . وبدأت الطبيبة النحيفة القوية تضغط بشدة على صدر الجريح ، بينما لجأ الممرض إلى التنفس في فمه والممرضة إلى حقن القلب وآلة الصدمة الكهربائية . وانحنت الدكتورة شماع باتجاه الحائط . وقالت : «لقد أصيب جهاز التنفس . إنه يستنشق الفوسفور» .

عندما عدت إلى المستشفى وجدته يتعرض للقصف ، ورأيت القذائف تتساقط في الشوارع على جانبي المبنى . وكانت الطفلة الوحيدة التي لا خطر على حياتها هي ابنة عليا ، أميرة ، التي كانت جالسة على سرير وفوق ساقيها المحترقتين ما يشبه الخيمة .وأخذت تبتسم لزائر إنجليزي لا تتوقع زيارته . وحوّلت عينيها باتجاه السرير المجاور حيث استلقت طفلة صغيرة كالزهرة ، كانت ساقها تكاد تنقطع . وكانت تبدو أصغر حجماً بسبب الملاءات التي كانت مستلقية عليها . ولم يبد على زوج عليا الذي كان يتمشى خارج الغرفة أنه من المدنيين كأسرته . كان يرتدي زي المقاتلين الفلسطينيين الأخضر ، ولا أثر للعاطفة على وجهه الملتحي .

وهمست الدكتورة شماع في أذني أنه «جاء لرؤية زوجته . وعندما أخبرناه أن ثلاثة من أطفاله ماتوا طلب أن يلقي عليهم نظرة الوداع» .

كان مستشفى البربير على خط النار منذ ثلاثة أسابيع تقريباً وعندما التقيت بشماع لأول مرة في ١٢ تموز/ يوليو ، وجدت المؤسسة غارقة في الفوضى ، والزجاج وقطع الإسمنت المسلح الصغيرة فوق أرض الأجنحة والأروقة ، وقناة من الدماء عرضها قدمان تتسلل من جناح الأطفال إلى الطابق الثالث من المستشفى ، ثم تتعرج بين شظايا الزجاج والستائر الممزقة وتنفذ إلى سلّم الدرج . وكانت قد انفجرت قذيفة إسرائيلية على بعد عشرين قدماً من النوافذ ، واكتسى الدم بلون شديد السواد كما لو أن رساماً تجريدياً جن جنونه وأخذ يضرب بفرشاته المبللة بالطلاء الأسمر الفاتح كيفما اتفق .

وكانت الدكتورة شماع متلهفة على تقديم تفسير لذلك كله . فقالت بصوت هادئ يستخدمه الجراحون في عياداتهم عندما يشعرون بالتعب : «عندما أصابت القذيفة سطح المبنى على الجانب الآخر من الطريق ، كان يقف بجوار السرير ، ففقد الكثير من عروقه ولحمه . وقد يفقد رجله» .

كان ذلك وصفاً غير شخصي للقصف المسائي الذي جعل مشاعر أمل شماع ـ عندما تجلت ـ تصدم المرء . كانت امرأة صغيرة الجسم ذات شعر داكن وعينين واسعتين ويدين قويتين مثل أيدي الأطباء إجمالاً . وبقيت القذائف الإسرائيلية تتساقط حول المستشفى الذي تعمل فيه لمدة أربع ساعات وأصابت الطوابق العليا بأضرار بالغة . قالت : «كان هذا مقصوداً . إن الإسرائيليين يعلمون أن المستشفى هنا . أعني أنه حتى إذا قصف شخص ما من البحر أو من الجبال فإنه يستطيع أن يكون أكثر دقة . ان أقرب هدف عسكري هو . .» . وتوقفت الدكتورة شماع طويلاً وهي تتأمل في الفرق بين العاطفة والحقيقة . ثم قالت : «إنه (أي الهدف العسكري) بعيد جداً من هنا» .

لكن الأمر لم يكن كذلك . إذ كانت على الطريق وعلى بعد ١٨ ياردة دبابة عملاقة قديمة من

طرازت ـ ٣٤ وضعها المرابطون ـ الميليشيا السنية الناصرية ـ وراء متراس من الرمل فوق متحف الآثار القديمة . وكان يحرس الطرق حولها مقاتلون فلسطينيون وقوات سورية . وكان المرء يرى المسلحين من الميليشيات ومن خارجها يسيرون داخل المستشفى وخارجه ، بينما استند شاب يحمل مدفعاً للقذائف الصاروخية ويجيبه بعض القذائف ذات الزعانف البيضاء إلى عمود من الرخام أمام العيادة الخارجية .

كان ذلك بالطبع من حقائق الحياة في بيروت . لم يكن يُنتظر في مدينة مثلها تحولّت إلى معسكر أن تنجو المستشفى من عدوى ميول مرضاها السياسية . إذ كان ثلاثون بالمئة من الجرحى الذين تكتظ بهم طوابق المستشفى السفلية من المسلحين الذين يرقدون بألبسة الميدان الخاكية ، أو بلا ألبسة وتحت ملاءات ملطخة بالدم ، وفوقهم أنابيب التغذية والجلوكوز ، وحولهم مسلحون يجلسون إلى جانب بنادقهم ،وأيديهم تتشابك مع أيدي المرضى . وكان الحرج يبدو على وجوههم غير الحليقة وسط الجدران البيضاء ورائحة المعقمات .

كان لا بد من نقل كثرة من مرضى البربير إلى مستشفيات أخرى بعد أن أتلف القصف المبنى ، وبقي فيه أربعون أكثر من نصفهم من المدنيين . وكان أكثر من نصف المرضى الذين أحضروا خلال القصف الأخير وعددهم ٢١ يعانون من جروح سببتها الشظايا . وأصيب ستة منهم بالشظايا وهم داخل المستشفى . واستقبل البربير مئتي ميت بين ٤ حزيران/ يونيو و١٠ تموز/ يوليو . وفي أحد الأوقات وضعت عشرون جثة في غرفة الموتى التي تستقبل عادة ست جثث . ولم تستطع الدكتورة شماع التي تدربت في جامعتي جون هوبكنز وديوك الأميركيتين إخفاء اشمئزازها عندما تذكرت ذلك . قالت : «لم يستطع فريق المستشفى مغادرة المبنى بسبب الهجوم الجوي ونيران القصف . وظلت تفوح رائحة الموتى في المكان كله طوال أربعة أو خمسة أيام . ثم قررنا مغادرة المكان ، ووضعنا الجثث في مقبرة جماعية . ولا نزال نجهل هوياتهم» .

إن لم يقصد رجال المدفعية الإسرائيلية قصف مستشفى البربير ، فإنهم لم يكترثوا بوجوده . والواقع أن كل خارطة محلية صادرة عن بيروت ، كانت تشير بوضوح إلى أن المبنى هو مستشفى . وكانت الطريق في الخارج مشوهة بحفر وثقوب أحدثتها القذائف التي كانت دائماً تخطئ مواقع المراكز العسكرية المحصنة بأكياس الرمل ، والقريبة من خط التماس . وكان مصدر القذائف المدفعية بعبدا حيث تمركز رجال المدفعية واختاروا ذلك المسار المعقد لقذائفهم .

حاول الإسرائيليون/ يونيو حتى في هذا الوقت ـ أن يخضعوا التقارير عن معاناة مدنيي بيروت

الغربية للرقابة . ففي صباح يوم ٢٥ حزيران/ يونيو ، مثلاً ، انتقل فريق تلفزيون أميركي تابع للمؤسسة الوطنية للإرسال إلى مستشفى البربير لتصوير فيلم عن ضحايا قصف ذلك اليوم في برج البراجنة . وهالهم ما رأوه . إذ تبيّن أن كثرة من الجرحى لم يكونوا مسلحين ، وإنما أطفالاً لا تتجاوز أعمارهم السنة . وكانت الشظايا قد مزقت أجسادهم . وتوفي الأطفال الأكبر سناً لكثرة ما نزف من دمائهم . وبكى أحد رجال التلفزيون الذي تحطم قلبه وسط صراخ وأنين الأطفال . أجهش بالبكاء تماماً مثلما فعل أندرسون عندما توفي أحمد بيتم .

حظي العمل في المستشفى بتغطية تلفزيونية وافية خصصت عشرين ثانية للجرحى من الأطفال . وكان التسجيل يرسل فوراً عبر الخطوط الأمامية إلى شرقي بيروت ثم يؤخذ بسرعة عبر الحدود الإسرائيلية إلى تل أبيب لنقله إلى نيويورك بواسطة القمر الصناعي . لكن بالرغم من أن التقرير لم يصوّر في منطقة واقعة تحت السيطرة الإسرائيلية العسكرية ، فلقد أصر الرقيب الإسرائيلي في تل أبيب على تعديل الفيلم . فالإسرائيليون كانوا دائماً يقولون للأميركيين بأنهم ليسوا مسؤولين عن إصابات المدنيين . وكان مشهد الأطفال في نظره لا يطاق . لذلك ـ «ولأسباب أمنية» ـ قام بحذفه من الفيلم ، وأعفى الشعب الأميركي من مشاهدة الرعب في مستشفى البربير .

لم تكن تلك المرة الأولى التي يتدخل فيها الإسرائيليون في عمل شبكات التلفزيون الأميركية الثلاث ، كما أنها لم تكن المرة الأخيرة . وكثيراً ما كان المسؤولون الإسرائيليون يعبثون بالأفلام التي كانت ترسل من بيروت الغربية بإذن الرقابة الإسرائيلية وتشجيعها . ومن المؤسف أن الأفلام التي كانت تصور الغارات الجوية الإسرائيلية على المناطق المدنية في بيروت والتي كان تصويرها يتطلب شجاعة كبيرة وينطوي على مجازفات خطيرة ـ كانت تتعرض للتشويه بلا مبالاة . وحدا الغضب بالمخرجين الأميركيين في نيويورك إلى تعتيم الشاشة مدة تساوي المدة التي كان يستغرقها عرض المادة المحذوفة وبالإعلان على الشاشة للمستمعين أن الرقابة الإسرائيلية هي التي قامت بحذفها .

ثم بدأت شبكات التلفزيون تشحن الأفلام إلى دمشق . وكان السوريون يصرون على رؤية الأفلام ، لكنهم لم يكونوا يحذفون شيئاً منها[1] .

(١) عندما رفضت سلطات الاتصالات الدولية في أحد الأوقات أن تسمح لسوريا باستخدام القمر الصناعي لأن الحكومة السورية رفضت أن تدفع فواتيرها الجديدة ، ضمنت شبكات التلفزيون الأميركية الثلاث ديون سوريا وأعادت القمر الصناعي . وبذلك خسر الإسرائيليون وذاقوا شيئاً من الهزيمة . لكن عندما استمر الحصار أخذت الدولتان تبديان حساسية نحو الأفلام المصورة والتعليق عليها . ومر وقت صار فيه ديفيد فيلبس الذي كان من أنشط المصورين الميدانيين يبعث أفلام الفيديو إلى دمشق دون تعليق وإلى إسرائيل بلا صور لاعتراض السوريين أحياناً على التعليق واعتراض الإسرائيليين المستمر على الصور .

وما حدث بالطبع ولأول مرة منذ تأسيس الدولة اليهودية أن الصحفيين الغربيين أخذوا يتنقلون ويكتبون تقاريرهم بحرية عن النزاع الشرق أوسطي ، من الجانب الآخر لخط المواجهة الإسرائيلي . فصار فريق عمل التلفزيون ومراسلو الصحف المقيمون في بيروت يتنقلون في كل أنحاء لبنان ، ويتحدثون إلى المسلحين الفلسطينيين والقوات الإسرائيلية ، ويقومون بأخطر عمل في نظر الإسرائيليين وهو وصف الإصابات المدنية التي أوقعها الغزو الإسرائيلي . وكان رجال الصحافة في بيروت ـ والصحافة الأميركية بشكل خاص ـ يقومون وهم في الخنادق أو في المخابىء تحت الأرض أثناء الغارات الجوّية ، بتسجيل نتائج المغامرة العسكرية الإسرائيلية بكل تفصيل ودقة ، وهو ما كان الإسرائيليون يفضلون أن لا يصل إلى سمع العالم وبصره .

ولخّص الإسرائيليون رأيهم في هذا تلخيصاً وافياً في منشورهم المؤرخ ٢٠ حزيران/ يونيو الذي أعلن بكل صراحة أن «عملية السلام للجليل» «ليست موجهة ضد الشعبين اللبناني والفلسطيني . . . إن الإرهابيين هم المسؤولون عن إصابات المدنيين لأنهم (أي الإرهابيين) هم الذين وضعوا مراكز قياداتهم وقواعدهم العسكرية في مناطق آهلة بالسكان وأسروا الرجال والنساء والأطفال اللبنانيين» .

لكن سكان بيروت الغربية لم يكونوا أسرى . صحيح أنه حدث في مساء أحد الأيام من شهر تموز/ يوليو ، وخلال أربع ساعات ، أن منع الفلسطينيون السكان المدنيين من مغادرة المدينة من جهتهم . لكن هذا كان رداً على إغلاق الكتائب معبر بيروت الشرقية . وكان الشيء الوحيد الذي منع سكان بيروت الغربية من مغادرة بيوتهم هو عدم رغبتهم في ذلك حتى ولو تعرضوا للقصف الإسرائيلي . وانتهى الأمر بأن غادر بيروت الغربية نحو ١٠٠,٠٠٠ من السكان المدنيين ، وكثيرون منهم غادروا بعد توقف القتال في شهر آب/ أغسطس . وعلى أي حال فقد بقي فيها نصف مليون شخص .

وكالعادة ، فإن الفقراء واللاجئين الذين قدموا إلى بيروت من جنوب لبنان وفي أوج الاجتياح هم الذين عانوا أكثر من غيرهم . فقد أقاموا في مباني المكاتب ودور السينما وأروقة الشقق والممّرات المقنطرة بين الدكاكين وفي خيام على الطرقات .

وفي مبنى تجاري مهجور مؤلف من عدة طوابق ، وجدت عشرات من اللاجئين يأكلون وينامون على الأرض العارية من كل غطاء . وكانت الغرف تعج بالذباب . ولما كان المبنى بلا كهرباء تشغل المضخات ، فإن السكان كانوا على وشك استهلاك مخزون المياه وتعطيل الحمامات الثلاثة .

في الخامس من تموز ، أيدت الولايات المتحدة قرار مجلس الأمن الدولي الذي دعا إلى إعادة

المياه والكهرباء ل ٠٠٠، ٦٠٠ شخص في بيروت الغربية ، مما دعا الناطق العسكري الإسرائيلي في تل أبيب على الفور إلى إصدار بيان ينفي بشكل قاطع قطع الإسرائيليين الطاقة الكهربائية والمياه عن غربي العاصمة . على أن محمود عمار وزير الموارد المائية والكهربائية ـ الذي كان خصماً للفدائيين الفلسطينيين في بيروت الغربية ـ أعلن في وقت مبكر من اليوم التالي أن الإسرائيليين أوقفوا ضخ المياه من المحطة الرئيسية بالأشرفية في شرقي بيروت ، وبذلك حرموا سكان بيروت الغربية من المياه ، وأدان عمل إسرائيل بوصفه عملاً «غير إنساني» .

وبعد بضع ساعات ، اكتشف فريق من المراسلين الغربيين يضم بالدوين من الأسوشيتد برس ، وجود جنود إسرائيليين بالفعل داخل محطة الكهرباء التي كانت تسيطر على عملية ضخ المياه إلى المنطقة الغربية من المدينة . وكان الجنود في الطابق الأرضي من المحطة وحولهم أكياس النوم والطباخات ، وأسلحتهم حول المبنى . وقال عمار بأنهم اقتحموا المحطة ببنادقهم الأوتوماتيكية ، وأغلقوا الصمامات وفكوا العجلة التي تسيّر الأنابيب إلى بيروت الغربية . وأضاف : «بدون العجلة ، لا نستطيع أن نوصل المياه إلى بيروت الغربية . انه كالمفتاح ، وهو بأيدي الإسرائيليين» .

ثم اتضح أن الإسرائيليين عبثوا في الأسبوع الثالث من حزيران/ يونيو بخطوط الطاقة الكهربائية التي تغذي بيروت ، وذلك حين قطع أخصائيو الكهرباء في الجيش الإسرائيلي أسلاك (كابلات) محطة الحازمية الكهربائية الفرعية . فتمكنوا بذلك من إضعاف التيار في بيروت الغربية . ثم قطعوه في أوائل شهر تموز/ يوليو عندما وصل ضباط إسرائيليون إلى المراكز الرئيسية لمؤسسة الكهرباء في شرقي بيروت ومعهم خرائط لنظام شبكة توزيع التيار . وبعد ساعات قليلة دخل المزيد من الجنود الإسرائيليين إلى المحطة الفرعية المؤلفة من ثلاث طبقات والواقعة في الكرنتينا القريبة من المرفأ في شرقي بيروت ،وأمروا الموظفين اللبنانيين بقطع الطاقة المخصصة لبيروت الغربية .

أما الإسرائيليون فقد نفوا نفيهم السابق . إذ اعترفوا الآن أن الماء والكهرباء قطعا عن بيروت الغربية . لكنهم لم يقدموا تفسيراً واضحاً لكذبهم الذي لم يعد يخفى على أحد . وبدلاً من ذلك عقد الكولونيل بول كدار ـ وهو من مكتب الاتصال التابع للجيش الإسرائيلي في بيروت الشرقية ـ مؤتمراً صحفياً ادعى فيه أن الإسرائيليين لم يقصدوا إيذاء المدنيين ، وقال : «نحن لا نستهدفهم . أعترف بأنهم يتعذبون ، لكنني لا أعلم إلى أية درجة . انهم لم يموتوا جوعاً ، ولم يموتوا عطشاً . . . وكل ما يجري عمله (كذا) يستهدف شيئاً معيناً وهو إخراج منظمة التحرير الفلسطينية من بيروت» .

لكن ، كما قال لنا عمار ، كان لدى الفلسطينيين ما يحتاجونه من الماء ومولداتهم الكهربائية . وأضاف : «منذ سنوات وهم يحاربون ولديهم المؤن» . وكان هذا صحيحاً . فقد كان لدى منظمة

التحرير ما تحتاجه . فكان هدير مولداتهم الكهربائية يسمع حول الفاكهاني خلال الليل . وعندما دعي المراسلون الأجانب لحضور مؤتمر صحفي لمنظمة التحرير الفلسطينية في الأسبوع الأول من تموز/ يوليو ، أخذونا إلى غرفة مكيفة تحت الأرض ، وقدموا لنا عصير الأناناس البارد والقهوة الساخنة . كان من الممكن قصف منظمة التحرير . لكن حصارها بقصد حرمانها من المؤن لم يكن مجدياً . إذ كان لدى المخيمات الفلسطينية من المؤن ما يمكنها من الصمود للحصار عدة أسابيع .

كنا نحاول زيارة الفاكهاني عند توقف الغارات الجوية أو أثناء وقف إطلاق النار القصير الخادع . ومع ذلك فإن أقصر زيارة كانت كافية للتأكيد على اعتداد منظمة التحرير الفلسطينية بنفسها . ففي منتصف تموز/ يوليو صاح علي أحد المسؤولين الصغار فيها : «لماذا لم تقم بتجديد تصريحك قبل يومين؟» وكنّا نحمل معنا أوراق اعتماد صحفية صادرة عن كل الميليشيات والجيوش في بيروت وما حولها ـ الدروز ، المرابطون ، فتح ، أمل ، الكتائب ، الحكومة السورية والجيش الإسرائيلي . لم يكن هذا رضوخاً لسلطتهم وإنما مجرد دليل نقدمه للمسلحين ليعرفوا أن ضباطهم كانوا قد تحققوا من هوياتنا . واتبع الإسرائيليون هذا النظام بحماسة لأنهم كانوا لا يريدون السماح لأي مراسل بعبور نقاط تفتيشهم إلا إذا كان مرضياً عنه .

اعترض المسؤول بمنظمة التحرير الفلسطينية على إخفاقي في تجديد تصريحي . فلقد كان يفترض فينا أن نقوم بذلك مرة كل أربعة أيام ، وذلك ،من الناحية النظرية ،لأسباب بيروقراطية . أما من الناحية العملية فكانت محاولة لإرغام المراسلين الصحافيين على زيارة مكاتب منظمة التحرير الفلسطينية مرة في الأسبوع على الأقل . وكنت أنا قد تأخرت يومين . فسألني موظف منظمة التحرير الفلسطينية : «حسناً ، ما سبب تأخرك؟ ألم تكن تخرج إلى الشوارع»؟فقلت له بلطف ان على الصحافيين أحياناً أن يقوموا بأمور أخرى أهم من الانتظار خارج المكاتب الفلسطينية من أجل قصاصات ورق .فرد الرجل بحدة : «لا تفعل ذلك مرة أخرى فقد تجر على نفسك المتاعب» . ووجدت في نفسي الجرأة على القول بأنني في لبنان ، وأن الفلسطينيين لا يملكون بيروت الغربية .

فأخذ الرجل نفساً مسموعاً وقال : «لن أضيع وقتي في الجدل معك» . كانت لا تزال العلة في بيروت الغربية خلال السنوات السبع السابقة أن كثيرين من الفلسطينيين كانوا يتصرفون وكأنهم يمتلكون هذا القطاع من المدينة . وكان عرفات عندئذ يمتدح عبر إذاعة منظمة التحرير الفلسطينية ـ «الجماهير اللبنانية» التي كانت تدافع عن «بيروت المحاصرة بكل اعتزاز» . على أنه لم تكن هناك «جماهير» لبنانية . فالذين كانوا يؤيدون القضية الفلسطينية من سكانها الستمائة ألف تأييداً صادقاً كانوا قلة . وكان يسرّ أكثرهم كما يسرّ الإسرائيليين أن ترحل منظمة التحرير ولكن بشرط أن لا تحل الكتائب محلها .

وحتى عندئذ كان لا يزال في منظمة التحرير الفلسطينية من لم يكن بوسعهم أن يعترفوا أن الوجود الفلسطيني في لبنان قد زاد في معاناة الأمة . فواصل عرفات ورفاقه بجدل ظاهر الربط بين الكتائب وقوى الاستعمار ـ أي المؤامرة الدولية التي كانت تقلق الأنظمة العربية . إلا أن هذا أسهم في الانقسام الديني والسياسي في لبنان . صحيح أن الكتائب كانت عندئذ تتعاون مع الإسرائيليين ، ولكن الفلسطينيين كانوا لا شعورياً يتخذون ذلك الموقف حتى قبل الغزو الإسرائيلي . ففي عام ١٩٧٨ أخذ مسؤول فلسطيني يشرح لي في قرية بنت جبيل بجنوب لبنان أنه كان باستطاعة المدنيين اللبنانيين دائماً أن يتنقلوا في المنطقة بحرية . فلما سألته إذا كان ذلك ينطبق على المارونيين من الشمال احتد وقال : «لا نريد غرباء هنا» .

كان التحالف بين منظمة التحرير الفلسطينية وحركة أمل قد انهار فعلياً قبل الاجتياح . وكان الفلسطينيون قد زودوا قرويي الجنوب الشيعة بالأسلحة ، لكن رجال ميليشيا أمل طلبوا من الفلسطينيين مغادرة بعض المناطق شرقي صور ، وأطلقوا النار عليهم عندما رفضوا ذلك . وقبل الاجتياح الإسرائيلي بثلاثة أشهر اشتبك الفلسطينيون مع المسلحين في صيدا لمدة سبع ساعات وقُتل مدنيان ، وجُرح سبعة عشر ، واحترق جزء من السوق القديمة . وبلغت الخسائر ستة عشر مليون دولار . فلا عجب إذن في أن سكان صيدا السنّة انقلبوا ضد الفلسطينيين المهزومين بعد أن قصفت مدينتهم ، بدلاً من أن يقفوا في وجه الغزاة الذين أحدثوا كل ذلك الدمار .

وهكذا فإن المأساة كانت ستتكرر في بيروت الغربية . فهنا كان المقاتلون الفلسطينيون يقفون وراء الحواجز حول بيروت الغربية ، وكانوا هم الذين يتجولون في الحمراء أمام المتاجر المقفلة . كما أن أحدهم قضى أسبوعين في غرفة الأخبار بجريدة النهار يراقب الرسائل لحذف ما ينتقد منظمة التحرير .

وأخذ المسلحون اللبنانيون الذين كانوا لا يزالون يقومون بدوريات في الشوارع يطلبون من الفلسطينيين بأن يبقوا خارج مناطق معينة من بيروت الغربية ، وكان هناك ما يبرر ذلك . ففي منتصف تموز/ يوليو التقيت مصادفة في شارع نعمة يافث بمسلح فلسطيني ذكي وشجاع عرفته منذ سنوات . وكان عندئذ يشعر بالانزعاج بسبب ظهور تقارير حول خطة لانسحاب منظمة التحرير . فقال بحزم : «لن ننسحب أبداً ، وإذا دخل الإسرائيليون إلى بيروت الغربية ، فإننا سندمرها وندمرهم معها . وإذا اقتضى الأمر ، فسندمر لبنان بأسره» . لكن لم يكن باستطاعتهم أن يفعلوا ذلك . فالمجموع الكلي للمسلحين الفلسطينيين ببيروت الغربية كان أقل من ١٢٠٠٠ . ولا ريب في صدق عاطفته . لكن تبين أن فلسطين التي لم تولد كانت أهم في نظره .

وأخذ عرفات يقف أمام الكاميرات . فرأيناه يستقبل الصحافي الإسرائيلي يوري أفنيري ، ويحيي خمسة أعضاء من الكونجرس الأميركي كانوا في غاية التهذيب والحماس والسذاجة ولكن ليس إلى حد الانخداع . كما صار عرفات يفضل أن يصوروه وهو يملأ أكياس الرمل على الخط الامامي لبيروت الغربية . فقد ولت الأيام التي كان يحمل فيها الأطفال الفلسطينيين أو التي كان يعانق فيها المقاتلين الشبان . لذلك كان يرتدي الآن قلنسوة أنيقة من قلانس الفرقة الأفريقية تتمشى مع الأيام العصيبة التي كان يتخيل أنه يمر بها . لكنه في الواقع كان يواجه مشكلة لم يكن يرغب في التحدث عنها إلى الصحفيين الذين كانوا يسألونه . فلم نكن متأكدين من درجة خطورة المشكلة ، لكنّي أشرت في رسالة إخبارية للتايمز بتاريخ ٢٦ تموز/ يوليو إلى «تحدٍ لسلطته أشد خطراً عليه في نظره من الإسرائيليين» .

كان من الصعب تحديد طبيعة هذا التحدي ، مع أننا كنا أحياناً نرى ما يدل عليه . فالمقاتلون الفلسطينيون حول بيروت الغربية أخذوا يتحدثون عن رفضهم الامتثال لأي أمر يتعلق بالجلاء عن بيروت ، ويعبّرون عن قلقهم حول العائلات الفلسطينية التي قد يلحق بها الأذى بعد رحيلهم . وتفاقم الاستياء من قيادة منظمة التحرير الفلسطينية عندما قرر عرفات أن يكون رحيله عن بيروت مشروطاً باعتراف الولايات المتحدة بمنظمة التحرير . ذلك أنه أيا كانت المكاسب السياسية التي سيجنيها من الاعتراف ـ حتى لو كان وشيكاً ـ فإنها لم تكن لتغيّر شيئاً من الوضع ، وهو أن الصراع قد أصبح سياسياً أكثر منه عسكرياً . كما أن تلك المكاسب كانت ستوحي للمقاتلين بأن معركتهم انتهت .

وكانت الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين من أشد الرافضين لقرار الرحيل . فمنذ أن حاصر الإسرائيليون بيروت وجورج حبش يرى في حصارهم فائدة للفلسطينيين . إذ كان منذ زمن يقول لجماعته بأن على الفلسطينيين أن يقتحموا إسرائيل لمهاجمة الإسرائيليين . وعليه فإن وجود الدبابات الإسرائيلية على بعد ياردات فقط من بيوتهم يتيح لهم فرصة مواجهة الإسرائيليين . أما نايف حواتمه فقد رأى اتخاذ الطريق الذي يتطلب أقل قدر من المقاومة .

ذهبت في الأسبوع الثالث من الحصار إلى مقر الجبهة الديمقراطية تحت الأرض ، فوجدت قائدها يسعى إلى حل مشرّف لإنهاء القتال . وكان حواتمه شاحب اللون لا يبتسم ويرتجف من حين لآخر من جرّاء الإرهاق . ولم يتطرق في حديثه إلى المقاومة المسلحة بل تحدث عن حل مشرف للخروج من بيروت . ولم يكن موقفه هذا يدعو إلى الدهشة . فقبل ذلك ببضعة أيام زار السفارة السوفييتية في بيروت الغربية . وكان الاتحاد السوفييتي يدعم الجبهة الديمقراطية ، ويواصل إدانته

للغزو الإسرائيلي ، ويحذر من أن الحريق المشتعل قد يمتد إلى الدولتين الكبيرتين . وكان حواتمه قد بعث برسالة إلى ليونيد برجنيف يطلب فيها دعماً عسكرياً ويقترح أن تقوم القوات الجوية السورية بإنزال صواريخ روسية جديدة مضادة للطائرات ، للفلسطينيين في بيروت الغربية .

وكانت القذائف الإسرائيلية تتساقط على كورنيش المزرعة حين وصل حواتمه إلى السفارة السوفييتية بحراسة شاحنتين من المقاتلين . لكنه لم يمكث سوى خمس دقائق . وعندما خرج بدا وكأنه لا يسمع الانفجارات على بعد بضع مئات من الياردات . وكان وجهه ممتقعاً . ولما سألته إذا تسلّم أية رسالة من موسكو ، ضبط غضبه الشديد بصعوبة . وقال وهو يقذف الكلمات : «أرسل الرفيق بريجنيف تحياته الأخوية ودعمه إلى الشعب الفلسطيني في كفاحهم البطولي» . ثم صعد إلى سيارة الليموزين وانطلق ووراءه حرسه . ولم تصل الصواريخ .

لم يكن لدى السوفييت وقت للفلسطينيين وذلك لأنه كان عليهم أن يحموا أصدقاء آخرين . فبين ٢٠ و ٢٥ حزيران/ يونيو ، تسلم السوريون العشرات من بطاريات صواريخ سام ـ ٨ المضادة للطائرات التي تبلغ سرعتها ٢ ماك (قياس لسرعة الصوت) وتفوق في فعاليتها صواريخ سام ـ ٦ التي دمرها الإسرائيليون في سهل البقاع ، وتضاهي في سرعتها طائرات الفانتوم المقاتلة التي تبلغ سرعتها ١,٤٥٠ ميلاً في الساعة . ودمر الإسرائيليون ثلاثاً من بطاريات الصواريخ الجديدة في هجماتهم الجوية في ٢٠ حزيران/ يونيو . لكن السوريين أسقطوا طائرة إسرائيلية نفاثة . وقال لنا صحفيون سوفييت في بيروت الغربية أن موسكو كانت ترسل أيضاً شحنات جديدة من طائرات ميغ ـ ٢١ وميغ ـ ٢٣ المقاتلة إلى مرفأ اللاذقية السوري لتحل محل الطائرات النفاثة الثمانين التي فقدها السوريون في معاركهم ضد الطائرات الإسرائيلية في سماء لبنان . وقالت الإذاعات الكتائبية أن عسكريين سوفييت أرسلوا إلى سوريا لضبط عيار الصواريخ الجديدة . وكان بسام أبو شريف على حق عندما قال في الأيام الأولى للحصار أن السوفييت أصبحوا طرفاً في النزاع .

لم يكن لمثل هذه التطورات معنى في بيروت الغربية . فبعد شهر من الحصار ومن التفجير والهجوم الجوي المتكرر ، أصبحت مسرحاً للقلق والنفايات . وحتى في الأوقات التي كان يتوقف فيها القصف كانت سحب الدخان المتصاعدة من النفايات المحترقة تجتاح الشوارع والأحياء . وكانت الروائح الكريهة تفسد الهواء لأن الإسرائيليين قطعوا المياه مما جعل السكان يدبرون أمورهم كما كان أجدادهم يفعلون في العصور الوسطى .

ورأينا أطفالاً مصابين بالجرب ، ونساء يسعلن أثناء سيرهنّ في صباح كل يوم باتجاه أقبية الشقق التي أرغم المسلحون أصحابها على حفر آبار ارتوازية . وصار الناس يغسلون بمياه البحر التي كانت

تترك آثارها من الملح والدهن على أجسادنا . وكان الصحفيون بالمقارنة مع آلاف المدنيين من حولنا ، يعيشون حياة مترفة . فقد كنا نملك المال ، وباستطاعتنا شراء الطعام بأسعار باهظة ، وبوسعنا المغادرة إذا شئنا . وكان بإمكاننا ـ إذا قطعنا خط التماس خلال القصف أن نتنقل بسيارة أجرة إلى جونية ، ومن ثم إلى قبرص ، وأن نصل بعد ذلك إلى سويسرا أو فرنسا خلال ست وثلاثين ساعة . وعليه فلم يكن هناك مبرر لمن يختار البقاء للشكوى من المصاعب والمخاطر .

كان الصحفيون يتناقصون . فمن المراسلين من طالب فجأة وبصورة غير متوقعة باجازاته . وبالفعل غادروا منازلهم أو فندق الكومودور بهدوء ، بينما عبر آخرون ليعملوا بصورة دائمة في بيروت الشرقية ، طالبين منا أن ننقل رسائل إلى زملائهم في بيروت الغربية عندما كنا نعبر الخطوط ونعود في اليوم ذاته . لكننا لم نرتح لمغادرة الغربيين لبيروت . وقسونا في تفسيرنا لرحيل الدبلوماسيين الغربيين ، الذين هرب معظمهم ـ ومعهم البريطانيون ـ عند أول تفجير . وكان أركان السفارة منذ سنوات يلقون المحاضرات عن «المراسلة الصحفية غير المسؤولة» . ولكن هذه الصحافة «غير المسؤولة» هي التي صمدت عندما تعرضت بيروت للتدمير وذلك لتسجيل مصير سكانها .

وأصيب الصحفيون الذين لم يغادروا بيروت بأمراض المعدة وخصوصاً بالإسهال المزمن . وأصبت أنا بطفح جلدي دب في رسغي ، وامتد إلى ذراعي وعنقي وصدري . وكنا خلال الليل نحلم بأشياء سخيفة وغير معقولة . ففي شقتي المطلة على البحر ، استيقظت عند فجر أحد الأيام وأنا أرتعش من الخوف . فلقد رأيت في الحلم طائرة إسرائيلية نفاثة ـ من طراز ف ـ ١٦ لم أستطع تمييز شكلها بوضوح تخترق النافذة التي تقع في الجهة اليسرى من غرفتي والتي يبلغ ارتفاعها ثلاث أقدام ، وتمر على علو قدم فوق سريري وتخرج من النوافذ الفرنسية إلى اليمين وسط هدير المحركات . ماذا كانت قاذفة القنابل المصغرة هذه تفعل في غرفتي؟ لماذا طار طيارها البالغ طوله إنشاً واحداً فوق سريري؟

كانت بيروت الغربية لا تزال غارقة فيما يشبه النوم . إنها المكان الذي توقف فيه الزمن في السادس من حزيران/ يونيو . فعندما ذهبت إلى مكتبة أنطوان ، مكتبتي المفضلة الواقعة في شارع الحمراء ، خلال شهري تموز وآب/ يوليو ـ أغسطس ، وجدت أن أحدث الطبعات التي وصلت بالبريد الجوي يعود تاريخها إلى السادس من حزيران/ يونيو . وعندما قمنا بزيارة قاعة المسافرين في المطار الذي يقع بين الخطوط الأمامية للفلسطينيين والإسرائيليين ، وجدنا أن البطاقات الخضراء والحمراء المعدة للصعود إلى الطائرات لا تزال مكدسة على مكاتب تدقيق بطاقات المسافرين الذين كانوا سيسافرون في ٦ حزيران/ يونيو إلى أوروبا بطائرة لم تقلع على الإطلاق . وكانت على المطار طائرة الميدل ايست التي كانت ستقوم برحلة إلى باريس في ٦ حزيران ، لكنها أصيبت بقذيفة إسرائيلية

فبقيت جاثمة وحولها عربات وجبات الطعام التي كانت ستقدم للمسافرين . وكان الطعام قد فسد منذ زمن . وفي الطريق إلى المطار ، كان على موقف الباصات باص أوقفه سائقه في ٦ حزيران وقرر بنفسه تعليق خدماته العادية .

كان لا بد للمرء أن يتأثر بهذا الاحساس بتوقف الزمن الذي تسرّب كالميكروب إلى بيروت الغربية من لبنان الجديد في الخارج . ففي الجامعة الأميركية التي أسسها دانيال بلس الصارم سنة ١٨٦٦ ، كان لا يزال باستطاعة الطلاب أن يقوموا بأبحاث علمية حول الصحف العثمانية ، أو يلعبوا التنس على الملاعب الصلبة .وكانت الأعمدة الرومانية ترى أمام القاعة الرئيسية وحولها النباتات الزهرية والحمراء المعرشة . ولم يسبق قبل الآن أن شوهد مدفع مضاد للطائرات في آخر ملعبها .

كان يمكن للمرء أن يجد الأستاذ جون ريان من دوبلن في مستنبت خلف كلية الزراعة يدرس سلسلة من النباتات التجريبية ، وفي كل وعاء قدر معيّن من الماء لتقدير مستقبل محاصيل القمح (التي لم تزرع) في لبنان . وكان مولّد الماء الذي يستخدم لضخ المياه ورشها على النباتات يحول الدفء إلى حر لا يلطفه سوى النسيم عندما يتسلل من ثقب في سطح المستنبت . وكانت حول جذور احدى النباتات قطع ماسية من حطام الزجاج الذي يشهد على أن شظية من العالم الخارجي اخترقت المكان .

ولكن أين كان العالم الحقيقي؟ كنت تستطيع البحث عنه إذا شئت في الفاكهاني حيث بدت الشوارع مصابة بالجنون . فالبنايات كانت بلا نوافذ وبلا أبواب ، والأرصفة مليئة بأكوام الزجاج . وكان قد انهار فيها مبنى سكني أو اثنان تحولا إلى مزيج من الإسمنت والستائر والركائز الحديدية والأسلاك والبقايا البشرية . ووجدنا مكتب محمود اللبدي الناطق باسم منظمة التحرير ، الذي لم يكن يأبه للوقت ، في نهاية رواق بأحد المباني أقيم أمامه جدار من أكياس الرمل . وكان سقف الرواق قد صُمّم على طراز الريجنسي في القرن التاسع عشر .

لقد تغير اللبدي بعد الاجتياح . فبدا أثر للسخرية والتشاؤم خلف شاربه ونظارته الخفيفة الداكنة . وحل محل اللبدي رجل الصالون الإشتراكي ، رجل العمل . لكن هذا التحول لم يكن مقنعاً . وربما كان لسرواله المتسع ، ومسدسه الصغير أثر في ذلك . فاللبدي لم يكن مقاتلاً . تحدث عن صعوبات الحصار ، وتعقيدات المناقشات بين سلام وسركيس وحبيب في بعبدا ، وعن رفض منظمة التحرير الفلسطينية المساومة على المبدأ . ولم ترد كلمة «جلاء» (أو رحيل) قط على لسانه .

وكانت على جدران مكتبه ملصقات لشابات فلسطينيات يحملن بنادق ، ولفدائيين يسيرون في

حقول الخشخاش بجنوب لبنان ، ولمقاتلين شهداء عيونهم مشدودة إلى صور للقدس طبعت فوق صورهم . ولم تكن هناك إشارة إلى تأثير الغزو على الأرض المحتلة أو إلى أن حقول الخشخاش أصبحت بيد الإسرائيليين . ورأيت خارج المكتب قنابل إسرائيلية غير متفجرة خضراء وبيضاء وصفراء مصفوفة حسب أحجامها ولها زعانف كالألعاب ، تعكس بتركيبها الفني عنف الحصار المضروب على بيروت الغربية .

لكن هل كان هذا الحصار لبيروت الغربية الذي يسمح لغالبية المدنيين بالتنقل في الفترات التي يتوقف فيها القتال حصاراً حقيقياً؟ كانت هناك ستة جيوش وراء المتاريس قرب نقطة العبور بجانب المتحف تترصد عدواً لم يظهر على الجانب الآخر من خط التماس . وفي منتصف تموز أمضيت هناك صباح يوم بطوله . ورأيت مسلحاً من حركة أمل ومقاتلاً تبين أنه من بورما ومن جنود العالم الثالث الذين كانت منظمة التحرير تقوم بتدريبهم . كما رأيت مقاتلين من الناصريين السنة وفوقهم صورة لجمال عبد الناصر . وكان خلف هذا الرمز لوحدة الأمة العربية حارس من الجيش اللبناني .وعلى الطرف الشرقي من الطريق ، وقف جندي إسرائيلي وبجانبه ضابط كتائبي .

وكانت تلك الجيوش الستة كلها تتظاهر بعدم شعورها بوجود الآخرين . وحتى البوليس كان يقوم بالدور نفسه . وكنت على وشك أن أصطدم بشاحنة خارج منطقة المتحف بين الإسرائيليين والفلسطينيين . وخرج من داخل موقف باص صدئ شرطي سير ، على رأسه خوذة وحول عنقه نظارته . وهناك وعلى أشهر خط تماس في العالم ، نبهني إلى أنني ارتكبت مخالفة سير .

كان مكتب الأسوشيتد برس في تلك الأثناء كالعادة مسرحاً لشتائم نك تاترو بسبب تعطل التلكس ، ورائحة سيجار تشرشل الذي يدخنه نصار ، وانشغال شارل عاصي بتحضير القهوة بالرغم من تساقط القذائف على الأبنية المجاورة ، وحتى الحيوانات كانت تبحث عن مأوى في الشوارع بغريزة دقيقة ومثيرة للأعصاب . فقد دخلت هرتان وكلب إلى مكتب الأسوشيتد برس . ورحبت بها إيرلين تاترو التي كان حنانها للحيوانات الذكية يوازي احتقارها للمراسلين الصحفيين البلهاء . وعندما تعطل خط الكمبيوتر مدة ثلاثة أيام متتالية اكتشف فرنسوا غطّاس ، مهندس الأسوشيتد برس ، أن قوة بطاريات مركز الاتصالات السلكية واللاسلكية هبطت لأن الإسرائيليين قطعوا الكهرباء . فعمد إلى مد سلك بين مكتب الأسوشيتد برس ومركز الاتصالات الذي كان على خط التماس . واستخدم مولّد الأسوشيتد برس لتغذيته بالكهرباء أملاً في إعادة خط الكمبيوتر . ولم تكد تمر ساعتان حتى عاد جهاز الإرسال إلى العمل .

كنا لا نزال أنا وتاترو نخشى أن يدمر القصف خطوط اتصالنا أو أن يؤدي نفاد الوقود إلى توقف مولدنا الكهربائي . وقالت لي منى السعيد التي كانت تعمل بمجلة «مندي مورننغ» اللبنانية التي تطبع بالانجليزية أن أخاها فؤاد من هواة الاتصال بالراديو . ووصل فؤاد إلى المكتب في الوقت المناسب ، وذلك خلال شهر آب/ أغسطس لربطنا على طريقته بالأصدقاء في إنجلترا . وفيما كان فؤاد يجرب جهاز ارسال كنا اشتريناه خلال حرب السنتين ١٩٧٥ ـ ١٩٧٦ ولم نستعمله ، كان بارنز على الطرف الآخر في لندن يطلب من عمال التايمز أن يضبطوا أجهزتهم لالتقاط موجتنا . وكان هذا كله بقصد استمرارنا إذا توقف الآخرون .

هكذا كان لبنان الذي لا ينتهي فيه شيء . فعندما بلغ الحصار شهره الثالث وجدنا فاكهة طازجة في بيروت الغربية بعضها موضوع في صناديق عليها كتابة عبرية . وكان اللبنانيون يشترونها من الإسرائيليين بآلاف الدولارات . وكنا أحياناً نحتال على الجيش الإسرائيلي للحصول على الوقود . واكتشف اللبنانيون أن ذلك سهل ، وكانوا على حق في ذلك . إذ لم نعد بحاجة إلى التوسل للحصول على ما نريد . صرنا ندفع الثمن والرشوة بالدولار . وقيل إن احدى وكالات الأخبار أفرغت جميع الوقود الاحتياطي من إحدى دبابات الميركافا الإسرائيلية بالتواطؤ مع طاقمها الإسرائيلي المؤلف من أربعة جنود من أصل روسي . وكان هؤلاء يصرّحون علناً بأن الحرب مهزلة . وشاهدت عملية رشوة عند المرفأ ، عندما صافح جندي إسرائيلي سائق تاكسي لبنانياً بحرارة ، بعد أن باعه صندوقاً فيه حصص تموين للجنود وسمح له بالعودة إلى بيروت الغربية . وعليه فإن السائق كان يجني الربح الوافر ، بينما كان الجندي يحصل على مال ينفقه . وهكذا أفسد اللبنانيون الجنود الإسرائيليين .

لم يكن حصار بيروت الذي صار يُعرف بمعركة بيروت نزاعاً عادياً يطوّق فيه جيش أجنبي جيشاً آخر . فقد أفسدت كلا الطرفين نتائج أهدافهم السياسية والاستراتيجية . كان عرفات قد اعترف بأن على منظمة التحرير الفلسطينية أن تنسحب من بيروت . لكنه كان يسعى من وراء التأخير إلى الحصول على مكاسب سياسية وضمانات أمنية . وكان الإسرائيليون يدركون أن منظمة التحرير الفلسطينية سوف تغادر بيروت ، لكنهم كانوا يخشون من أن يذهب التأخير بالفوائد السياسية التي كانت إسرائيل تصر على تحقيقها . وعليه فبينما كانت إسرائيل تعلن عن وقف لإطلاق النار بعد آخر من جانب واحد ، وتقوم هي نفسها بخرق كل منها باستغلال الهدنة لتحقيق مكاسب تكتيكية ، فإن منظمة التحرير كانت تعد بالجلاء عن بيروت ثم تجد سبباً لإطالة المفاوضات من أجل طمس بريق الانتصار العسكري الإسرائيلي . وكانت كل غارة إسرائيلية ، وكل قصف مدفعي إسرائيلي ، يساعد على تحقيق أهداف عرفات . وذلك لأن العدوان الإسرائيلي كان يُظهر المدى الذي كانت إسرائيل على استعداد للذهاب إليه في سبيل أهدافها .

كان عرفات قد أعلن أنه لن يقبل حماية عسكرية أميركية لجلاء مسلحيه الأحد عشر ألفاً أو أكثر عن بيروت .فلم يكن في وسع المنظمة أن تظهر بمظهر من يختبئ وراء الولايات المتحدة هرباً من الإسرائيليين . وكان عرفات يخشى أن يحدث هذا . لكنه كان أكثر خوفاً من عدم تدخل الأميركيين لضمان ما يجري الاتفاق عليه .

فإذا لم يتواجد الأميركيون ـ حلفاء إسرائيل ـ في بيروت فقد يتراجع اليهود عن الاتفاق حول خروج الفلسطينيين بأمان ، فيهاجمونهم أثناء جلائهم ، أو يقتلون المدنيين الفلسطينيين بعد ذلك . ولهذا أبدى عرفات استعداده للرحيل برعاية قوة متعددة الجنسيات تضم بالإضافة إلى الأميركيين قوات فرنسية وإيطالية . وحمّل الأوروبيين والأميركيين مسؤولية الاخلال بالترتيبات اللازمة .

وكانت هناك مشكلات أخرى تحتاج إلى حلول . وأخذ عرفات يماطل . ففي صبيحة يوم ٢٩ تموز/ يوليو ١٩٨٢ ، مثلاً ، قام بزيارة صائب سلام مرة أخرى من أجل مباحثات إضافية حول جلاء منظمة التحرير الفلسطينية . إذ كان الإسرائيليون قد أمهلوه ٢٤ ساعة لإصدار قرار نهائي ، لم يكن بوسعه أن يصدره . إذ كان الإذعان للإنذار الإسرائيلي يعني الاعتراف بالهزيمة . ولم يبد عليه شيء من القلق بسبب ذلك . وبالرغم من أنه بدا نحيلاً بالقياس إلى ما كان عليه فإنه عندما خرج مسرعاً من بيت سلام كان نموذجاً مثالياً لقائد المقاتلين الحديث من قلنسوته الألمانية وحزامه المشبك النظيف إلى جزمته العسكرية السوداء . ولم يكن قد لبس كوفيته منذ أسابيع .

ومع هذا شعرنا بأن هناك تلميحاً خفيفاً أو اقتراحاً في كلماته عندما قال بأنه قد يكون في الجو اتفاق لم يجر التوقيع عليه أوتقديمه ، ولكن من الممكن تقديمه لمكتب فيليب حبيب في بعبدا . وقال عرفات إنه لم يتلق «اقتراحات رسمية» من حبيب . وعندما سألته عن صحة ما يقال عن طلب حبيب من منظمة التحرير «جواباً لا غموض فيه» خلال ١٢ ساعة ، رمقني بغضب وصاح قائلاً : «هل أنت الناطق الرسمي بلسان حبيب؟ إني آسف . ولكن ينبغي علي أن أتعامل بصورة رسمية مع سعادته ، وليس معك أنت» .

كان مفتاح موقفه كلمة «رسمية» التي تكررت فيما بعد . وقال إنه سيبحث موضوع الجلاء مع قادة منظمة التحرير الآخرين ـ مع صلاح خلف وخليل الوزير (أبو جهاد) وحواتمه وحبش ـ لكنه لم يتلق بعد «أية رسالة رسمية» حول إجراء محادثات مباشرة بين الرئيس ريغن ومنظمة التحرير الفلسطينية . وكان عرفات لا يزال يتمسك بضرورة اعتراف الولايات المتحدة بمنظمة التحرير الفلسطينية في مقابل انسحابها من بيروت . وكان يعمل على أساس أن حرج ريغن المتزايد بسبب

الحصار الإسرائيلي سوف يتغلب على رفض أميركا التفاوض مع منظمة التحرير الفلسطينية إلى أن تعترف هذه بحق إسرائيل في الوجود وتتخلى عن «الإرهاب»(٢) .

وكالعادة ، فإن اختيارات إسرائيل ومنظمة التحرير الفلسطينية وتنازلاتهما ومطالبهما وما يرفضانه كانت مدار بحث بين سركيس وحبيب في بعبدا ، بينما كانت المدافع تطلق حممها . وكان الإسرائيليون قد وجدوا أن استمرار الحرب تكلفهم الكثير في ميادين أخرى غير السياسة . إذ تكبد الإسرائيليون في معركتهم الخاسرة ضد السوريين للوصول إلى بحمدون سبعاً وعشرين إصابة .

وفي العاشر من تموز/ يوليو ، أراد ضابط إسرائيلي ـ على ما يُعتقد ـ أن يصور للفلسطينيين الكميات الهائلة من القذائف التي كانت ستطلق عليهم ، فسمح لمصوري صحف بيروت المحلية أن يلتقطوا صوراً لمستودع الذخائر الحربية الإسرائيلي الرئيسي الواقع على تلة صغيرة قريبة من القصر الرئاسي . فلم يكد مقاتلو منظمة التحرير يرون الصور في صحف الصباح حتى أمطروا المستودع في مساء ١١ تموز/ يوليو بعشرات من قذائف الكاتيوشا التي أصابته في غضون ثوان قليلة .

وكنت واقفاً على سطح بناية في القنطاري ببيروت الغربية عندما انفجر مستودع الذخائر . وحتى في تلك البناية التي تبعد خمسة أميال عن المستودع شعرت بالانفجار الذي تصاعد اللهب والدخان منه إلى علو يزيد على ميل في الفضاء . وفي ٤ آب/ أغسطس أصاب الفلسطينيون والسوريون موقعين إسرائيليين قرب المطار ، فقتل ثلاثة عشر وجرح تسعة عشر من الإسرائيليين ، وأصيب ستة آخرون منهم بالشلل أو العجز من جراء الصدمة . وأنحى الضباط الإسرائيليون باللائمة مباشرة على شارون لاتباع سياسة «تضييق الخناق» على بيروت الغربية التي أدت بشكل مباشر إلى مقتل الجنود الإسرائيليين(٣) .

(٢) تم الاتفاق على الخطة النهائية للجلاء أثناء اجتماع عرفات بسلام في ٢٩ تموز/ يوليو ، ونص في تلك المرحلة على انسحاب المقاتلين الفلسطينيين من بيروت وتوزيعهم على سوريا والاردن والعراق والجزائر واليمن الجنوبية والكويت والإمارات العربية المتحدة . كما نص على انتشار القوة متعددة الجنسيات في بيروت الغربية لضمان جلاء منظمة التحرير الفلسطينية بسلام في إطار قرار من هيئة الأمم المتحدة يتيح إعلان اعتراف متبادل بين منظمة التحرير واسرائيل تتلوه محادثات مباشرة بين منظمة التحرير الفلسطينية والحكومة الأميركية . وبعد «وقف ثابت ودائم لإطلاق النار» في لبنان يوضع جدول «للانسحاب الكلي» للجيشين السوري والإسرائيلي في لبنان .

(٣) لم يُعرف شيء عن احتقار الضباط الإسرائيليين لشارون بسبب هذه الحوادث إلا في عام ١٩٨٤ عندما طالب خمسة ضباط احتياطيين ، بينهم ثلاثة برتبة كولونيل بالتحقيق في وفاة الجنود . أنظر الجيروزاليم بوست ، عدد ١٣ نيسان/ أبريل ١٩٨٤ حيث ورد مقال بعنوان «جيش الدفاع الاسرائيلي صامت إزاء «إني أتهم» للكولونيلات» وكذلك عدد ٩ أيار/ مايو حيث ورد مقال «الضباط يطالبون بالتحقيق في دور شارون في معارك ١٩٨٢» وعدد ١٠ أيار/ مايو حيث ورد مقال «منتقدو شارون يشككون في الإصابات» .

لم تكن لهذه الإصابات بالطبع علاقة بالكارثة التي حلّت بآلاف المدنيين اللبنانيين والفلسطينيين . بل إن مجموع الإصابات في صفوف الإسرائيليين طوال الحرب وهي أكثر من ٥٠٠ إصابة لا تشكل سوى ٣،٥ ٪ من القتلى اللبنانيين والفلسطينيين .لكن خسائر الإسرائيليين ازدادت في السنوات الثلاث التالية التي استمر فيها احتلالها . وقد ساعدت الإصابات الإسرائيلية على إثارة الحركة المناهضة للحرب في إسرائيل التي بلغت ذروتها في أعقاب مجازر صبرا وشاتيلا .

أخذت ميليشيا مسلمي لبنان تسعى بالتأكيد إلى حصر نطاق الهجوم الإسرائيلي النهائي على بيروت الغربية بقدر الإمكان . فأقام الدروز المتاريس حول عين المريسة ـ ومنها متراس ضخم من الطين والرمل تحت شقتي ـ وذلك لمنع مقاتلي منظمة التحرير من تحصين البيوت والمرابطة فيها . وذهب بعض سكان الرملة البيضاء الذين وضع الفلسطينيون في أدوارهم الأرضية ذخائر حربية للإقامة في فندق الكومودور أو البرستول .

وسمعنا أيضاً شائعات تغري بتصديقها ولكن يصعب التأكد من صحتها تقول إن منظمة التحرير الفلسطينية لم تكن وحدها المطوّقة في بيروت . إذ أوحت المعلومات التي سمعناها من الأصدقاء الفلسطينيين مثلاً بأن فريقاً من حركة الباسك (إيتا) الذين كانوا يتدربون على أيدي جماعات فلسطينية متطرفة في لبنان محاصرون أيضاً في بيروت الغربية مع عدد من «المستشارين» السوفييت . وقال أحدهم في تقرير له بأن الذي أحضر فريق الباسك إلى لبنان رجل يدعى كارلوس راميريز الذي كان مطلوباً للبوليس الفرنسي بعد حصول عملية تفجير في فرنسا . وخطر ببالنا أنه قد يكون كارلوس راميريز المعروف « بابن آوى» الذي سبق له أن خطف قادة منظمة أوبيك أثناء اجتماعهم في فيينا سنة ١٩٧٥ والذي اتهمه البوليس الفرنسي بتفجير قطار .

كثيراً ما كان الإسرائيليون يتهمون منظمة التحرير الفلسطينية بتدريب «إرهابيين أوروبيين» . ومن المؤكد أن الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين كانت تشجع أعضاء حزب الجيش الأحمر الياباني على زيارة لبنان ، كما أنّ أعضاء جيش التحرير الإيرلندي كانوا يتلقون بانتظام مساعدات من منظمة التحرير . ورأيت خلال زياراتي لجنوب لبنان متطوعين بنغلاديشيين وإيرانيين وبورميين وباكستانيين في صفوف منظمة التحرير ، لكن لم يكن بينهم إيرلنديون . وقد كنت مراسلاً للتايمز في بلفاست بين عامي ١٩٧٢ و ١٩٧٥ ثم صرت أقوم بزيارة الفرقة الإيرلندية التابعة للأمم المتحدة . فلو كان هناك إيرلنديون مع الفلسطينيين لكنت سمعت بهم .

ولكن في مساء أحد الأيام من ذلك الصيف في بيروت الغربية ، وبعد أن انفجرت سيارة ملغومة

خارج مكاتب مؤسسة الأبحاث الفلسطينية ، احتميت من القصف في رواق مبنى مخصص للمكاتب . وكان هناك شاب أوروبي طويل القامة ، أزرق العينين ، شعره بني يكاد يغلب عليه الاحمرار . وكان يتكئ على الجدار متعباً من القتال ويحمل بندقية أك ـ ٤٧ . قال لي إنه كندي اختار أن يقاتل مع منظمة التحرير الفلسطينية . لكنني تذكرت أنني رأيته في بوجسايد بلندندري عام ١٩٧٢ وهو يحمل بندقية . كان هذا إيرلندياً من جيش التحرير الإيرلندي . وتذكرت حتى اسمه الأول . كان ودوداً وتحدث بلهجته الإيرلندية الشمالية عن خوفه من عدم الخروج حياً من الحصار المضروب حول بيروت . وقال لي وهو يهم بالخروج : «احترس من القذائف ، بوب» . ولم أره بعد ذلك .

ومع ذلك ، فأنه لم يكن من الصعب عليه مغادرة بيروت . بل كان في استطاعة أفراد جيش التحرير الإيرلندي وأفراد إيتا (الباسك) الإفلات من الإسرائيليين ، بسبب سهولة اختراق الخطوط الإسرائيلية . فبدفع رشوة للكتائبيين كان هؤلاء يساعدون في إجلاء بعض العائلات الفلسطينية . وخلال الحصار في ذلك الصيف استطاعت جماعة من الخاطفين بطريقة ما أن تهرّب ركناً جامعياً ربما كان الرجل الجامعي الأكثر شهرة في العاصمة اللبنانية من حرم الجامعة في بيروت الغربية إلى إيران .

كان خطف ديفيد دودج ، القائم بأعمال رئيس الجامعة الأميركية في ١٩ تموز/ يونيو وفي وسط القتال ، مجرد شيء هامشي . فلم يزد ما كتبته في ملف وأرسلته إلى التايمز عن أربع فقرات تسجل خوف الزملاء اللبنانيين من أن «زمرة معادية لأميركا» قد تكون مسؤولة عن اختطاف دودج . لكنني أضفت أن منظمة التحرير الفلسطينية قد أمرت مسلحيها بالبحث عن الرجل المفقود .

لم يكن أحد منا عندئذ يُقدّر مدى أهمية اختطاف دودج . فلم نكن بعد قد سمعنا بالجهاد الاسلامي . ولم نكن نتصور أن الثورة الإيرانية كانت قد تغلغلت ذلك التغلغل العميق في مشاعر الشيعة بلبنان وتطلعاتهم . وكنا حتى ذلك الحين ننظر إلى تلك المقاومة الباسلة التي أظهرها المقاتلون الشيعة على أساس الحقد على الغزاة الإسرائيليين لا غير .

لو قيل لنا عندئذ أن منظمة الجهاد الاسلامي هي التي رتبت أمر اختفاء دودج ، لما كان بوسعنا إلاّ اظهار جهلنا بذلك . وقال طالب فلسطيني شاهد عملية الخطف أن مسلحين بسيارة رينو أوقفا السيارة إلى جانب دودج أثناء مروره بقاعة الوست هول ، وعندما رفض الأميركي ركوب السيارة ، قفز أحد الرجلين من السيارة وضربه على مؤخرة رأسه بعقب مسدسه .

ظننا أن الخطف روتيني ولا بد أن تتضح ظروفه وأسبابه بالسرعة ذاتها التي تم بها . فقبل ذلك بيومين دعاني سمير صنبر ممثل هيئة الأمم المتحدة في بيروت مع دودج إلى طعام الغداء في فندق

البريستول . وكان دودج في غاية الظرف . قال إنه سخر من الدبلوماسيين الأميركيين الذين طلبوا منه مغادرة بيروت الغربية ، وأصر على وجوب بقاء الجامعة الأميركية مفتوحة بالرغم من الاجتياح الإسرائيلي .

وانقضت سنة قبل أن يُطلق بمساعدة سورية . وكان قد أقسم أن يلزم الصمت وأن لا يتحدث عن اختطافه . ودار بخلد عدة غربيين أن الخطف سوف يطغى على الاجتياح الإسرائيلي للبنان ويدوم أكثر منه . ولم تكد تمضي ثلاث سنوات حتى صرنا نشعر بالخوف من الجهاد الإسلامي التي كانت ستحرم تيري أندرسون من عائلته وأصدقائه وزملائه ، وتهدد كل واحد منا . على أننا أخطأنا فهم أهمية الحادث . فإن بذور الحرب التالية لم يبلغ وضوحها ـ والجهل بها ـ ما بلغاه خلال الحرب التي غرستها .

كان هذا الصراع يشتمل على عنصري الوهم والموت . ففي الصباح كنا نستطيع التحدث إلى المدافعين الفلسطينيين عن بيروت الغربية ، ونشرب الشاي بعد الظهر مع الجيش الذي كان يريد تدميرهم . وهذا ما فعلته في منتصف تموز/ يوليو . كان النقيب ماهر والملازم شارون يواجه أحدهما الآخر عبر ربع ميل من المتاريس ، والطرقات الملغومة ومدرج من مدرجات المطار . ولم يسبق لهما أن التقيا بالرغم من أن نطاق نيرانهما كان واحداً ويشمل الأبنية المدمرة ، وأكوام القمامة المحترقة ، وطريق المطار المقفرة على طول خط المواجهة في بيروت الغربية .

كان النقيب ماهر أبا لطفلين ، عميق التفكير ، قليل التكلف ، يدخن سجائره بواسطة مبْسم ويتكلم ببطء وعبارات مصوغة بدقة ، كما لو أنه كان يخشى الوقوع في كمين سياسي . أما الملازم شارون فكان أصغر منه سناً ويبلغ الثالثة والعشرين من عمره ويتحدّر من عائلة متوسطة وله شعر أسمر وأشعث يتدلى على جبينه ، ويتمتع بصراحة الجندي التي كانت تنفجر في حديثه من وقت إلى آخر كالقذائف . وكان النقيب ماهر قائد سرية تابعة للجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين . أما الملازم شارون فكان قائد سرية في الجيش الإسرائيلي . وقُدّر لهما أن ينجوا من الحرب بالرغم من أن كلاً منهما كان يسعده أن يموت الآخر .

ولكي أصل إلى ماهر كان علي أن أنطلق بسيارتي خلال مخيمي صبرا وشاتيلا المدمرين وحول عشرات من السواتر الترابية ، وعلى طول طريق ضيّق غُسل بمياه المجاري ، في محاذاة مدفع متحرك مضاد للطائرات ، وأن أدخل مرأب فيلا خرقها الرصاص الذي انطلق من الطرف الآخر من حقل من الحجارة المكسرة ، واعتبر انتهاكاً لوقف إطلاق النار الأخير .

كان ماهر طويل القامة له شارب صغير ولحية صغيرة ويجلس على كرسي شبه مزخرف ويطرد الذباب عن فنجان قهوة كُسرت يده . وكانت على سترته العسكرية شارة عليها خريطة فلسطين وإلى جانبها نجمة حمراء . وكانت جيوبه ممتلئة بأمشاط من الذخيرةبينما كان حزام من القنابل اليدوية حول خصره .

كان ماهر يفضل التحدث في السياسة على أن يخدم في الجندية ؛ولم يخف دوافعه . كان قد درس للحصول على شهادة البكالوريوس باللغة الإنجليزية بالمراسلة . لكن السنوات التي قضاها في كلية عسكرية سوفييتية أضفت مسحة خطابية على طلاقته فيها . قال ببطء :

«إن الإسرائيليين يريدون إبادتنا . وإحساسي هو إحساس مقاتل فلسطيني يريد مجابهة الاجتياح . أريد إبادة الجندي الذي يريد إبادتي . أظن أنه مجرّد شعور بأن على الإنسان تصفية مثل هذا الشخص . وأشعر هنا بأني أواجه عدواً حقيقياً . لقد واجهنا ضباطاً إسرائيليين . واجهنا جنودهم وأرغمناهم على التراجع ، وكبدناهم خسائر فادحة» .

تصفية ومجابهة ! ما أكثر ما تتردد على ألسنتهم هاتان الكلمتان اللتان يُقصد بهما الالتفاف حول المعنى المطلوب . فبدلاً من قول «يقتل» و «يحارب» قال «يصفي» و «يجابه» . لقد أوقع نفسه في شرك بلاغته كما وقع في شرك الإسرائيليين ، لكنه بهذه الطريقة علّم نفسه أن يفهم دوافعه وأن يعبّر عنهما بالعقيدة والإيديولوجية . ويئس المراسلون الغربيون في بيروت من الكتابة عن الأفكار الحقيقية للمقاتلين الفلسطينيين ،لأن هؤلاء كثيراً ما كانوا يصوغونها بعبارات براقة تستعصي على الفهم .

أجريت مرة مقابلة طويلة مع ضابط شجاع في منظمة التحرير الفلسطينية في جنوب لبنان . وكان تحت إمرته لا أقل من ألف مقاتل ، لكنه لم يتحدث إلا عن المجابهة . قال : «سنقف في خندق واحد لمجابهة عربة الموت الصهيونية» . ولم أستطع إقناعه أن يتفادى تلك اللغة المبهمة ويكلمني باللهجة العادية الذي كان يستخدمها مع رجاله . إذ كيف كان بإمكاني أن أكتب عن كلام مبهم؟ ومَن من قرّاء التايمز كان يقبل مثل ذلك؟ ولم أستطع أن أضمن تقريري مثل تلك الدعاية ولو بإيراد مقتبسات منها .

لم أتعلم كيف «أجابه» ذلك الكلام المبهم بأن أتحداه بطريقة مباشرة إلا فيما بعد . وشعرت بالحاجة إلى اتباع ذلك الأسلوب مع ماهر . وكان قد صمت برهة بعد كلماته الأولى ، لأنه أدرك التضارب الغريب بينها وبين الوضع اليائس الذي وجد الفلسطينيون أنفسهم فيه في بيروت الغربية . بالرغم من كلّ هذا الحديث عن «دفع الإسرائيليين إلى الوراء» فإنهم كانوا يتقدمون بعناد إلى الأمام .

وفجأة قال : «لسنا في مصيدة . صحيح أن القوات الإسرائيلية تطوّقنا على المستوى العسكري ، لكنها ستقع من جهة أخرى في الشرك إذا حاولت التقدم . سوف تتكبد إصابات كثيرة . قد تستطيع أن تتقدم بضعة أمتار لكنها لن تستطيع أن تفلت من الشرك» . وترجمت كلماته (إلى العربية) للمقاتلين الخمسة الذين صعدوا للاستماع إليه . وأبدى الجميع موافقتهم على ما قاله ، ولكن ليس بالثقة ذاتها التي قصد ماهر التعبير عنها .

ولكن ألم يكن هذا في الواقع شركاً نُصب للفلسطينيين؟ ألم تكن ثورتهم في طريقها إلى النهاية بين ركام بيروت الغربية؟ وفي تلك الأثناء بدا ماهر أكثر إحساساً بما يفكر فيه رجاله ، فقال إن ذلك ما تقوله «الأنظمة العربية الرجعية ، ولم نفاجأ لدى سماع هذا لأن الاجتياح الإسرائيلي كان جزءاً من اتفاقيات كامب ديفيد التي ساعد الإسرائيليون بها الأميركيين في الشرق الأوسط . لكنه سوف يكون شركاً للرجعيين العرب وللإسرائيليين أيضاً» . وهكذا تحول ماهر إلى الخطابة ـ إلى عالم مؤامرات القوى العظمى ـ أي إلى المؤامرة . فكان لا بد لي من أن أقاطع كلامه .

لم يغضبه ذلك . ووافق على أن منظمة التحرير الفلسطينية قد عقدت اتفاقيات محددة مع الحكومة اللبنانية «حول انسحاب جزئي من بيروت» لكن ذلك لن يكون على حساب المبادئ الفلسطينية . ثم سألني «هل تحدثت إلى الإسرائيليين هنا؟ ماذا يقولون عنا؟» فأجبته أن الإسرائيليين يعتبرونه إرهابياً ، ويعتبرون منظمة التحرير الفلسطينية منظمة إرهابية ، وأن إسرائيل تدعي أن منظمة التحرير الفلسطينية قد تعمدت وضع بنادقها في مناطق آهلة بالسكان . وانتظرت رد فعل ماهر .

لم يصدر عنه أي شيء في بادىء الأمر . فسألته : أليس صحيحاً أن الفلسطينيين احتموا بالمناطق الآهلة بالسكان؟ فابتسم قليلاً للمأزق الذي وضعه فيه هذا السؤال وأجاب : «نعم ، هذا صحيح» . واعترف بأن الأسلحة السوفييتية أدنى مستوى مما توقعه الفلسطينيون . لكن كان هناك شيء آخر يشغل ذهنه فقال : «إن الفلسطينيين ليسوا إرهابيين» وأضاف ماهر :

«أنا إنسان ، والجندي الإسرائيلي المواجه لي إنسان أيضاً . وريغن وبيغن بشر كابنتي التي تتعرض كل يوم لقصف المدافع . كلنا بشر . لكن الواحد منا يختلف عن الآخر . فالإنسان الذي يتعرض للقصف والاجتياح والظلم هو أفضل من الذي يأتي بهدف اجتياح المدنيين وإبادتهم . فعندما أفكر في خصمي هناك ـ وأشار عندئذ إلى الطرف الآخر من المطار حيث يقع خط المواجهة الإسرائيلي ـ أشعر بأنه عدوي» .

ونظر ماهر كمن يتوقع رد فعل أو ربما بعض العطف وسألته إذا كان قد التقى مع الإسرائيليين ،

فأجاب : «كلا . لقد كنت أتحدث إليهم من خلال بندقيتي» . وكان من الجائز أن أعتبر ذلك من قبيل البلاغة لولا ذلك التعبير القلق الذي بدا على وجهه . ولم يكن بحاجة إلى طلب لمواصلة كلامه فقال : «أنا جندي منذ ست سنوات . وكنت قبل ذلك في الشعبة السياسية ، لكني بدأت أشعر أن الجندية أكثر أهمية ، وأنه من الضروري أن أكون جندياً» . وتبادر إلى ذهني في الحال أن كفاح ماهر كان داخل نفسه ، وأنه كان هناك تضارب بين معتقده السياسي وواقعه ، وأنه كان يحاول حسمه هنا ، بين الذباب وأكوام القمامة والطرقات المحطمة والخطر الجلي المحدق على محيط بيروت الغربية .

لم يكن الملازم شارون كذلك . كان مقر وحدته المظلية الرئيسية على مسافة نصف ميل على الطرف الآخر من المطار . ولكن كان علي للوصول إليه أن أقطع بيروت الغربية وأعبر الحواجز الفلسطينية واليسارية قرب المتحف وأظهر جواز سفري لجندي إسرائيل على بعد ٤٠٠ ياردة عن الطريق . كان الملازم شارون يستريح تحت حافة التلال المشرفة على بيروت الغربية . وكان اليوم يوم سبت وشارون يلعب كرة الطاولة مع زملائه الضباط في مبنى مدمر وهو يلبس سترة القتال المجعدة وبنطلوناً قصيراً للركض . فبدا نصف جندي ونصف متنزه .

كان رجلاً خجولاً يبدو كالطالب بشعره غير المسرح . وكان منزله في هولون قرب تل أبيب ، ولديه رفيقة . إلا أنه لم تكن لديه خطط لما سيفعله بعد انقضاء سنوات خدمته الخمس في الجندية . وبدت له الحرب حرباً لا صلة لها بالواقع . قال : «كانت الحرب في الأسابيع الأولى حرباً حقيقية ، وتعرف أنك تطلق النار وتركض وتتصرف كجندي . ولكنها أصبحت بعد ذلك بمثابة زيارة للبنان . فنحن نتحدث الآن إلى المدنيين ، ونعيش حياة عادية تقريباً . وعندما يكون لدي وقت للتفكير وإعادة التفكير في تلك الأسابيع الأولى ، أشعر بأني لا أريد أن أعيد التجربة . ولكن إذا اضطررت إلى ذلك فإنني سأقوم بواجبي على خير وجه كما فعلت بالأمس» .

قال كل ذلك بحماسة الشباب . لم يتردد أبداً ، ولم يذكر المجابهة والإبادة . وفي الأسابيع الأولى من الإجتياح الإسرائيلي قاتل كل من الملازم شارون والنقيب ماهر حول عاليه ، وربما رأى الواحد منهما الآخر ، بالرغم من أن شارون لم يكن يعرف اسم قائد السرية الفلسطينية على الطرف الآخر من المطار (أي ماهر) وقال : «إنه إنسان بكل تأكيد ، وأنا أنظر إليه وإلى الفلسطينيين على أنهم بشر مثلي تماماً ، ولا مانع لدي أن أجاور فلسطينياً في إسرائيل أو في أي مكان آخر . ولكن إذا اقتضى الأمر فإننا سنحارب» .

لم يكن هناك التزامات إيديولوجية ملحة توقف تدفق كلمات الملازم شارون . ولم تشغله مسألة

أسباب الحرب لأنها كانت واضحة في ذهنه قال : «من الواضح في ذهني أن الشيء الذي نقاتل من أجله هو الدفاع عن إسرائيل ، وبالتأكيد الدفاع عن مناطق حدود البلاد الشمالية لضمان عدم تعرضها للهجوم باستمرار . أما الكلام عن توغلنا مسافة أربعين أو ستين كيلومتراً فإنه مصدر فوضى كبيرة . أجل ، ما كان لأحد أن يقول أربعين كيلو متراً لأن المسألة ليست مسألة كيلومترات محددة .فالذي ينبغي علينا أن نتأكد منه هو عدم استمرار العدو في مضايقتنا . علينا أن نتأكد من عدم استمرار قوتهم وأسلحتهم» .

قد يكون شارون قد عبّر بذلك عن رأي حكومته ، ولكن من المهم أن نلاحظ أنه خرج على نهج الناطقين الرسميين الإسرائيليين فلم يقل بأن الفلسطينيين «إرهابيون» . لكن عندما سألته هل يعتبر ماهر ورجاله إرهابيين قال : «أجل انهم كذلك . فالفدائيون يقاتلون الإسرائيليين ويطلقون النار عليهم ويقتلونهم هنا . لذلك فنحن نقاتلهم الآن لأنهم إرهابيون . ولكنهم قد يتخلون عن بنادقهم غداً ويأتون ويتفاوضون ويرحلون عن بيروت . إني أعتبرهم إرهابيين لأني أعلم أنهم مسؤولون عن كل الأعمال الإرهابية التي حصلت خلال السنوات العشر الأخيرة» .

لكن شارون لم يستخدم لفظة «إرهابي» مرة أخرى . وبدا عليه أنه غير متأكد من سبب استمرار الفلسطينيين في القتال . قال : «من الواضح أن ثمة دافعاً سياسياً وخاصة داخل القيادة . ولكن ينبغي ألا ننسى أن نسبة كبيرة منهم مرتزقة وغرباء وأوروبيون وبنغلاديشيون ، وأناس ينتمون إلى إيديولوجيات مختلفة إما لأنهم يؤمنون بها أو لأنهم قبضوا مالاً من أجل ذلك : ولكنني لا أنكر أن هناك بوجه عام دافعاً سياسياً» . وبالفعل كان هنالك بضع مئات من الغرباء يقاتلون مع منظمة التحرير الفلسطينية ، بالرغم من أن رأي شارون في قوتهم كان مبالغاً فيه . ومع ذلك فإن شيئاً ما كان يقلق شارون كما كان يقلق ماهراً وهو فكرته عن إنسانية الجميع بلا تمييز . قال :

«قبل أيام رأيت بعض الفلسطينيين . وكانوا قد خرجوا من مواقعهم وأخذوا يسيرون أمام مدافعهم أمامنا وهم يحملون صوراً لياسر عرفات ، ويلوّحون بها في الهواء ، ويرقصون ويصرخون علينا . ولم نعرف ما الذي يمكننا أن نفعله ، كما أننا لم نعرف لماذا كانوا يفعلون ذلك أمامنا مباشرة . لم نطلق النار عليهم . أخذوا يلوّحون بالصور ثم عادوا إلى مواقعهم ولم نرهم مرة أخرى . لا أريد أن أتحدث عن القضية الفلسطينية لأنها بدأت قبل وقت طويل . . . عليهم أن يجدوا حلاً . فبغير ذلك لن تنتهي . ومما يدل على ضخامة المسألة هو أنه لا أحد يريد أن يأخذهم (إلى بلاده)» . وسألته إذا كان من المحتمل أن يقبل فكرة تأسيس دولة فلسطينية ، فسكت برهة ولم يجب على سؤالي لأنه ، كما قال : «ضابط لا يستطيع الإجابة على سؤال سياسي» .

كان الملازم شارون والنقيب ماهر يقف أحدهما قبالة الآخر على جانبي المطار ، والأول جندي لا يريد الخوض في السياسة ، والثاني مقاتل لا يستطيع فصل السياسة عن كل كلمة يقولها عن الشؤون العسكرية وكل عمل عسكري يقوم به . ثم أخذت منظاره الميداني وأجلت البصر فيما وراء المنطقة العازلة . فلاحت لي فيلا ماهر التي لم يكن الإسرائيليون يعرفون موقعها . فأخذ شارون يراقبني وأنا أجيل ببصري من خلال المنظار وقال بلهجة أقل حماسة : «إن الشيء الوحيد الأكيد هو أنه حين نغادر هذا المكان ، لن تبقى أية قوى فلسطينية في بيروت» .

وفي أواخر تموز/ يوليو تتالت الغارات الإسرائيلية على بيروت ، يوماً بعد يوم ، وساعة بعد ساعة . وكانت الطائرات تظهر كالأسماك اللامعة في أعالي الجو قبل أن تنقض من القبة الزرقاء على المخيمات والكورنيش والمباني السكنية في بيروت الغربية . وفي ٢٢ تموز/ يوليو وبعد أن نصب مسلحون فلسطينيون كميناً لدورية إسرائيلية للحراسة داخل جنوب لبنان المحتل وقتلوا منها خمسة جنود ، عمد الإسرائيليون إلى الانتقام فأغاروا على بيروت الغربية بأسراب من طائرات كفير ، وقاذفات قنابل من طراز ف ـ ١٦ . وكالعادة كان الثأر الإسرائيلي لا يتناسب بحال مع الهجوم الفلسطيني . ووقفنا أنا وايرلين تاترو وأندرسون فوق سطح مكتب الأسوشيتد برس ننظر برهبة إلى الطائرات عند دورانها وانقضاضها المفاجئ على المخيمات .

كانت سحب الدخان القاتم لا تلبث أن تتصاعد من المباني بسرعة هائلة ، متبوعة أحياناً بانفجارات كثيرة يزلزل كل منها الأرض تحت أقدامنا أكثر من دقيقة . وبعد ظهر ذلك اليوم ، كانت السماء حولنا تعج بالطائرات والقذائف المضادة للطائرات والصواريخ . وقررنا أن لا نتوجه إلى الأدوار السفلية . فبعد صيدا لم نعد نحتمي فيها . وفي حين أن عدداً من الصحفيين لازموا أقبية فندق الكومودور ، فإننا تحاشينا المكان لا بدافع الشجاعة وإنما بدافع الجبن . إذ صرنا نعتقد أنه على من يلجأ إلى الطوابق الأرضية أن يكون شجاعاً . وهكذا وقفنا على السطح والشظايا تنهمر ، وكنا أحياناً نحشر أنفسنا في حجرة آلات المصعد ، وأحياناً نجثم وراء جدار طوله ثلاثة أمتار يحيط بالسطح .

لم يتوقع أحد أن تستمر الغارات طوال تلك المدة . وأعلن الإسرائيليون «وقف إطلاق النار» وذلك للمرة السابعة ، إلا أنهم رجعوا عنه في اليوم التالي ، وزعموا أن الهدنة قد خُرقت . كنت أقود سيارتي على الكورنيش باتجاه منزلي عندما حلقت الطائرات على علو منخفض فوق البحر الأبيض المتوسط . وكانت سوداء كطيور البحر البعيدة التي تتسابق نحو الشاطئ . وارتفع صاروخ مضاد للطائرات يجر خطاً من الدخان الأبيض ، وسُمع دويه بين الشقق السكنية . لكنه أخطأ الهدف وسقط في البحر .

وأدخل ذلك الفزع إلى قلوبنا . ولا نجد تعبيراً أفضل من هذا عما شعرنا به . فقد كانت الغارات الجوية مفزعة . وأثارت خوفاً حقيقياً من الإبادة الكلية المباغتة التي لا يمكن الفرار منها . وكنا في أحيان كثيرة لا نشاهد الطائرات بسبب سرعتها . فكنا في الأصباح (جمع صبح) ونحن نغالب العرق وروائح النفايات نسمع هديرها وهي قادمة ، ولكننا لم نكن نرى القنابل التي تلقيها إلا نادراً . فمن هم هؤلاء الذين كانوا يلقونها؟ لم يكونوا من الإسرائيليين الذين كنا نلتقي بهم يومياً ومرة بعد أخرى على الخطوط الأمامية ، وإنما من الطيارين الذين كانوا يقصفون بيروت الغربية بوحشية كبيرة . ألم يكن يقال لهؤلاء الطيارين - أي ألم يكونوا يعرفون - أنهم كانوا يقتلون الآلاف من المدنيين ويسحقون الأسر بين الجدران ، ويحطمون أراضي الغرف والأثاث بعنف تتراءى معه جثثهم بين الركام وقد تقلص سمك الواحدة منها إلى إنش أو إنشين ، وتبدو معه رؤوسهم مهشمة كالبيض؟

ترى بم كان يفكر أولئك الطيارون وهم يحلقون فوق البحر؟ هل كانت بيروت في نظرهم تختلف عن حيفا وتل أبيب؟ وهل خدّرت كلمة «إرهابي» الطيارين والجنود؟ بعثت رسالة تلكس إلى التايمز أطلب فيها من ووكر إجراء مقابلة مع «محاربي الجو» . وكانت الإجابة أن الإسرائيليين لا يسمحون بالمقابلات الصحفية مع طيّاريهم . وكانت الدعاية الإسرائيلية تصف القوات الجوية الإسرائيلية بأنها من أكثر القوات الجوية تطوراً في العالم ، وتدعي بأن طيّاريهم يصيبون أعداءهم بدقة بالغة . وكان الإسرائيليون يصفون هجماتهم الجوية بعبارة «دقة جراحية» ، وهي كليشيه مبتذلة وجدت طريقها بسرعة إلى الرسائل الإخبارية التي يرسلها المراسلون الأجانب المقيمون في إسرائيل . وكان الإسرائيليون يقولون الشيء نفسه عن قصف المدفعية .فما الذي كان يحدث؟ هل كان الإسرائيليون يظنّون أنهم يستهدفون «الإرهابيين» لكنهم كانوا يخطئون أهدافهم فيقتلون الأبرياء خطأ؟ أم أنهم كانوا دقيقين كما ادعوا وبالتالي لا مفر من الاستنتاج بأنهم كانوا يتعمدون قتل ذلك العدد الكبير من الناس؟ لقد كان واضحاً للبنانيين والفلسطينيين أن الإسرائيليين قتلة أو غير مهرة وكثيراً ما سُئلنا عن الصحيح منهما فلم نستطع الإجابة . وعلى أي حال فمن المؤكد أن الإسرائيليين كانوا من واحدة من الفئتين .

وفي السابع والعشرين من الشهر نفسه ، رأيت القنبلة فعلاً . ففي وقت قصير لا يعدو نصف ثانية انقضت كالشهاب بين مجمعين سكنيين في الروشة ، وشعرت كأن الانفجار انطلق من مؤخرة رأسي . وغمرتني سحابة من الدخان القاتم والغبار الثائر اللذين زحفا من ضاحية مرتفعة . وعندئذ فقط سمعت صوت الطائرة النفاثة العائدة .

اعتقدنا أنه لم يكن لدينا سوى عشر دقائق . فالطائرات كانت تعـود عادة بعد عشر دقائق .

ألكي تجهز على الناجين؟ ألكي تجهز على مَن يخفّ لنجدتهم في العراء؟ هذا ما لم نعرفه أبداً . وعندما وصلنا ـ نك تاترو وأنا ـ شارع إسكندر ، كان قد انهار نصف مبنى سكني من ثمانية طوابق ، وتحول إلى ركام متلاحم من الإسمنت والحجارة علوّه عشرة أقدام . وبعد مرور تسع دقائق ، كانت النيران تلتهم واجهة منزل السفير الكندي على الجانب الآخر من الطريق . ورأينا من مدخل شقة مدمرة رجلين يحملان ملاءة قذرة مبللة وثياباً ملوّثة تتدلى من طرفها رجل مسوّدة . وبعد ثماني دقائق كان ركام الحجارة والأسلاك وقطع من الأسمنت سمكها ثلاثة أقدام تملأ الشوارع . وأصابت الشظايا مبنى على رأس التلة فأحدثت في جداره فجوة طولها عشرة أقدام وكشفت بذلك حبال المصعد . وكان هناك فتيان مسلحون ببنادق أوتوماتيكية ورجال أكبر منهم سناً مزوّدون بمسدسات مشدودة إلى أوساطهم يوجهون حركة سيارات الإسعاف المصفرة . وكانت هناك فتاة من الصليب الأحمر شعرها منسدل خلفها ، تتسلق متراساً ترابياً بمعطف أبيض طويل ، ووجه تجمد عليه الاهتياج والخوف . وبقي لدينا سبع دقائق .

كان الحطام الذي تركه سقوط القنبلة هائلاً ومثيراً للشفقة . رأينا أكوام الستائر وأسلاك الهاتف ومجموعة كاملة ممزقة من موسوعة كولينز المصورة ذات الغلاف الأزرق . وكانت قطع أوراقها متناثرة بجانب البنايات المدمرة . وبقي ست دقائق ، وفي أسفل الطريق ، وقف رجل متوسط العمر له شارب ، يتصبّب العرق على قميصه الملوث . قال : «لا يوجد هنا شيء يضربونه سوى المدنيين . إنما هناك مدفع للفلسطينيين على بناية غير بعيدة من هنا . لكن الإسرائيليين لم يصيبوه» . وكان هذا صحيحاً . فإن أقرب دبابة منا ـ وهي دبابة سورية من طراز ت ـ ٥٤ كانت لا تزال سليمة على بعد نحو ربع ميل . وبعد خمس دقائق ، كنّا نقول إنها الاستراحة بين الجولتين .

سأل تاترو : «لماذا فعل أولاد (كذا) ذلك؟» وكان السؤال موجهاً إليّ . لكن إذا كان المكان الذي استهدفه الإسرائيليون هو شارع إسكندر فإنه كان من الصعب معرفة السبب . وقيل عندئذ أن محامياً من زملاء وليد جنبلاط كان يسكن في المبنى الذي دُمّر ؛ وقُتل في القصف زوج وزوجة وابنتاهما . وسبق لي أن التقيت بهم . وكانوا أصدقاء للسفير الكندي . وبعد أربع دقائق أخذنا نفقد أعصابنا . إذ كانت هناك جماعة من المسلحين الفلسطينيين تحرس مبنى سكنياً حول الزاوية فيه بضع مئات من اللاجئين غالبيتهم من الفلسطينيين . وكانت الطريق ، مثل معظم شوارع الروشة على البحر قد زرعت قبل ذلك بأسبوعين بالألغام . لكن سكان شارع إسكندر كانوا من المدنيين . وكان أبرز المقيمين فيه ـ وبعضهم ممن فقدوا منازلهم ـ سفراء كندا وسويسرا ويوغوسلافيا واليونان الذين كان من الصعب اعتبارهم أهدافاً عسكرية . وبقي ثلاث دقائق .

حضرت واحدة من سيارات الإطفاء الثلاث الباقية إلى شارع أستراليا على الطرف الأعلى من شارع إسكندر ، وشاهدنا أفراد طاقمها بألبستهم البائسة يضخون شيئاً من الماء من خرطوم مطاطي على شقة تحترق . وبدا رجال المطافئ وهم يمسكون بالخرطوم التعس ويتطلعون إلى السماء كأنهم صور من لندن خلال الغارات في الحرب العالمية الثانية . وبعد دقيقتين قال تاترو الذي كان لا يزال يحافظ على اتزانه «هيا يا فسك نترك المكان» . فحاولنا أن نعود إلى السيارة بهدوء لا ركضاً . وكنا لا نزال نسمع الطائرات ، وولّت فتاة الصليب الأحمر هاربة . فقلت : «هيا نذهب ، هيا نذهب» .

ناتانيا ، إسرائيل ، ١٤ نيسان/ أبريل ١٩٨٧

كانت الأزاليا تغمر الأرصفة ، والزهور معرّشة على الجدران بكثافة لا تسمح برؤية المنازل المؤلفة من طابق واحد وراء الشجيرات ، وعند نهاية الشارع شجرة ليلك . وكان البريجادير جنرال سبكتر في حديقة منزله تماماً كما قال لنا ، ومرتدياً بنطلونه القصير وصندله وهو يقتلع الأعشاب البرية من حوض الأزهار . وكان رجلاً طويل القامة ، أسمر اللون ، عريض الوجه ، لطيف الملامح . فصرخ قائلاً : «لقد وجدتنا إذاً . تقدم . أتريد أن نشرب الشاي هنا؟ إنه بعد ظهر رائع» .

تبعتُه عبر المرجة وزوجته أليزا تبتسم بخجل وبلطف . وكان في البيت ابن صغير له . وعندما دخلنا إلى قاعة الجلوس المفتوحة سمعنا صوت قطعة موسيقية لباخ . وجلس سبكتر على كرسي عادي له إطار معدني ، قال : «كيف أستطيع مساعدتك؟» وكان ودوداً لطيفاً ذكياً نشيطاً يتحدث عن أخلاقية السلاح ونظافته . هذا الرجل كان أحد الطيارين . أجل ، كانَ هذا الرجل ذو العينين الكبيرتين والنظرة التأملية وزوج المرأة صاحبة الابتسامة اللطيفة ، والمعجب بموسيقى باخ قد انقض بطائرته من السماء قبل ذلك بخمس سنوات . وكانت طائرته من الطائرات التي راقبناها بخوف وهلع .

عندما اتصلت بالتلفون من القدس بسبكتر قلت له ما كنت أسعى إلى معرفته وهو : «كيف حدث ذلك؟ لماذا فعل هو وزملاؤه ما فعلوه؟» وفهم سبكتر لماذا طرحت هذه الأسئلة ، وكان يرغب في الكلام . وفي بداية حديثه كثيراً ما كان ينظر إلى قدميه وصندله ، ثم يرفع رأسه وينظر إليّ ليرى ما إذا كنت أفهم ما يقول . ولم يكن يتقن الإنجليزية ، لكنه كان يتكلم بحرص شديد ، ويتوقف عند الكلمات ليتأكد من أنها تعكس بدقة ما كان يريد قوله . لقد كان قائداً لقاعدة جوية في الجليل ، ولكنه كما قال نفّذ هو وطياروه مهمات فوق بيروت .

قال : «كان شعورنا هو أننا لا نهاجم مناطق مدنية تماماً . . . بل أهدافاً معينة في المدينة . وعليه فإننا لم نكن نضرب مناطق . ولم نكن نستخدم قاذفات للقنابل كتلك التي استخدمت في الحرب

العالمية الثانية . كانت طائراتنا طائرات مقاتلة . وكنّا نشنّ هجمات على الأهداف المعينة التي كان لها دائماً علاقة بالقتال على الأرض . وكان بوسعنا رؤية ذلك من الجو . كنّا نقدم الدعم . ومضى بعض الوقت قبل أن نفهم أنه كانت هناك أشياء غير التي تصورناها» .

وسألته : «ألم تقم بزيارة بيروت بعد ذلك عندما احتلها الإسرائيليون لترى ماذا فعل الطيارون؟» فأجاب : «لا أحد منا قام بزيارة المواقع على الأرض . كانت تلك مهمات نفذناها في الحرب . كنا نذهب ، ونعود ونهبط ، ثم نعود ونهاجم مرة أخرى . وكان الطيارون يستريحون لمدة عشر أو خمس عشرة دقيقة ويقومون بمهمتين أو ثلاث في اليوم الواحد» .

قلت : «ولكن ألم يعترض أحد من الطيارين؟ ألم يكن أحد منهم يعلم ما كان يحدث ، وإلى ماذا كانوا يوجهون ضرباتهم؟» فأجاب : «في البداية أظهر بعضهم حساسية نحو الموضوع ، ومنهم من قال : أنظروا ، إننا نقصف المناطق المدنية . عليّ أن أقول شيئاً مهماً ألا وهو أنّ هذه الحساسية استمرت إلى النهاية . وكان الجنرال إيفري (ميجر جنرال ديفيد إيفري ، قائد القوة الإسرائيلية الجوية) أكثر الأشخاص إحساساً بذلك . وكنّا نناقش الموضوع في كلّ مذكرة» .

ثم أخذ سبكتر يتحدث بثقة الآن ، وهو يومئ برأسه إلي تأكيداً على نقاطه ، ويبتسم حين كان يظن أنني فهمت تماماً ماذا كان يريد قوله . قال : «كانت هناك قواعد للعمل ، أولها أنه يحظر على الطيار الذي لا يجد الهدف أن يلقي قنابله على منطقة غير مستهدفة ، وثانياً ، كانت الأهداف غير المقرر قصفها لا تقصف إلا إذا أطلقت علينا النار ، بشرط أن تكون على مسافة ثلاثة أميال من مناطق المباني السكنية . وإذا أطلق الإرهابي النار من منطقة سكنية فالرد عليه محظور علينا حظراً باتاً . .» .

وسألته : «هل كان جميع الطيارين يلتزمون بتلك القواعد؟» قال : «كنت أصدر التعليمات وأطير . وأعرف أننا كنا نفكر في تلك القواعد في كل طلعة . وكان هناك ضباط من المخابرات يشرحون أهمية الهدف وأهمية توقيت ضربه . ولم يكن في استطاعتنا أحياناً أن نجد الهدف . وفي هذه الحالة كنا عادة نلقي بالقنابل في البحر . ولم تكن لدينا وسيلة لمعرفة ما إذا أصبنا أهدافنا . لأنه لم تكن لدينا مصادرنا الخاصة» .

وسألته : «ومن هم ضباط المخابرات (الذين ذكرتهم)؟ ومن أين كانوا يستقون معلوماتهم؟» فحرك سبكتر يده اليمنى من اليسار إلى اليمين كمن يريد التخلص من الموضوع وقال : «لا أستطيع الاجابة على ذلك» . قلت : «هل كان الطيارون يثقون بضباط المخابرات الذين كانوا يحددون الأهداف ؟ فأجاب : «يمكنني الآن القول بأن البلاد ذاتها أصبحت حساسة . . . إذ ظننا أن القصف

تجاوز الحد وأنه لن يؤدي إلى شيء . وكان شعبنا خلال ذلك يطرح الأسئلة . نعم ، كانت الدلالات واضحة على ما هو مشترك بينهم وبين خلفياتنا في الحارات المغلقـــة (الغيتو) . لكن الإرهابيين الذين نجدهم هنا ، هم الذين كانوا قبل بضعة أسابيع يقتلون الإسرائيليين في كريات شمونا ومعلوت» .

وقال سبكتر إن طياريه كانوا في أكثر الأوقات يعتقدون بأن ضباط المخابرات يحددون لهم الأهداف بدقة . وأضاف : «لكن شن الهجوم على مناطق مكتظة بالمباني مثل ضواحي بيروت ، كان يتيح للإرهابيين فرصة لتغيير مواقعهم والانتقال إلى مكان آخر . أم أني على خطأ في ذلك؟»

تحولت إلى صفحة بيضاء في مفكرتي ورسمت عليها صورة غير متقنة يمكن تمييزها لبيروت الغربية - للكورنيش ، و«البيجن روك» والروشة - ورسمت بدقة متناهية مخطط شارع إسكندر . ورسمت قرب أسفل الشارع المذكور مربعاً ، وقلت لسبكتر إن هذا المبنى - هذا المبنى حيث كان يحتشد السكان الأبرياء - قذف بالقنابل في ٢٧ تموز/ يوليو ، وان مئة تقريباً من هؤلاء السكان الأبرياء قد قتلوا داخل هذا المبنى . وسألته إذا كان بين الطيارين في ذلك اليوم وهل يتذكر تلك الغارة . فلم يتذكرها - وكان يقول الحقيقة - على أنه لم يحب السؤال .

قال : «قد يكون لذلك أسباب . أولاً ، من المحتمل أن أحدهم فعل ذلك عن سوء قصد ولأسباب في نفسه» . فسألته إن كان يقصد بذلك ضباط المخابرات . فهز برأسه موافقاً وقال : «أما التفسير الثاني فهو خطأ الطيار الذي يضرب هدفاً غير الهدف المحدد له - وهذه بعض مخاطر الحرب . لكن السؤال ينبغي أن يدور حول الإحصائيات . كم هي أخطاء الطيارين الإسرائيليين؟ وكم هي أخطاء المخابرات الإسرائيلية؟ وهل كان توقيتنا خاطئاً؟ وهل كان الإرهابيون قد غادروا المبنى؟» .

قلت له : ماذا عن الإصابات؟ ألا يقرأ الجنود عما فعلوه؟ ألا يلقون نظرة على الصحف؟ قال : «بلى ، نحن نقرأ الصحف . ولكنك تعرف موقف بيغن وهو أنه لو كان هتلر موجوداً في منزل مع أناس أبرياء فإنه يفجره» . ونظر سبكتر إليّ ليرى رد فعلي على هذا التعليق لكنه كان يبدو مضطرباً ، وكأنه يرفض الأساس المنطقي لأخلاقيات بيغن . قال : «لكن أثيرت في الأسابيع الأخيرة بعض الأسئلة . كنا نعلم أننا نضرب أمكنة يسكنها أناس أبرياء . كان شعورنا في البداية أننا إذا ضربنا بعض الأبنية فإنهم سيرحلون» هذا ما شعرنا به . ولكن ما لم يقله أحد ومع مرور الوقت ، شعرنا أننا نضرب المزيد من هذه المباني . وتغلبت ثقافتنا العادية التي حصلنا عليها من المدرسة . وبدأت الحساسية بين القواد . فصرنا نقول للطيارين : أنظروا أيها السادة ، سيجري توجيهكم في أحيان كثيرة إلى أهداف مشكوك

فيها . . . وأذكر أن الجنرال إفري كان يقول لنا : سوف ينتهي الأمر بصلح مع لبنان ـ وليست مهمتنا تدميره» .

قلت : «لكن من المؤكد أن الأخطاء التي ارتكبت كثيرة» وكان سبكتر لا يزال جالساً على كرسيه ذي الاطار المعدني ، ينعم بضوء الشمس الذي كان ينفذ من خلال أوراق الشجر . وأحضرت اليزا الشاي وقطع الحلوى ووضعتها على الطاولة تحت الشجرة . أجل شاي وحلوى مع الطيار المقاتل . وفي هذه الأثناء تسجيل باخ . قال سبكتر : «إنك في الحرب تقوم أحياناً بقتل الناس . وذلك هو ما يجري دائماً في الحروب . لكن الشعور الإنساني يبقى هناك . كنا نعتمد كثيراً وكثيراً جداً على المخابرات . لكن اعتمادنا عليهم لم يبلغ حد الإيمان المطلق فيهم . ودولتنا كما تعلم تعتمد على المخابرات حتى في زمن السلم . وفي الحالة الوحيدة التي فشلت فيها وهي يوم كيبور (عيد الغفران) دفعنا الثمن» .

قلت : «لكن من المؤكد أن المخابرات أخطأت . فقد قُتل آلاف المدنيين في لبنان . ودمرت الطائرات الإسرائيلية بنايات بأكملها . وعليه فإن المخابرات الإسرائيلية كانت بالتأكيد على خطأ» . وكان سبكتر لا يزال متردداً في الحديث عن تعليمات المخابرات في قاعدته الجوية بالجليل . لكنه اعترف بأنه لم يجر البحث في القضايا المطروحة .

قال : «سأقول لك هذا .سوف تكون هناك تعليمات ، وسوف تكون هناك خريطة ، وسوف يقول رجال المخابرات : لقد جرى اعتبار هذا المنزل مركزاً للإرهابيين . ويوجد عدد كذا من الإرهابيين في هذا البيت ـ عشرة ، خمسة عشر ، عشرون ، خمسة ، رقم محدد ـ وأن وقت ضرب هذا المبنى هو ساعة كذا في النهار أو الليل أو في أي وقت آخر» . وكان هذا يعني أن هناك من كان يعرف عادات الإرهابيين وأن هناك احتمالاً قوياً أن يكونوا هناك في هذا الوقت المحدد» .

لكن من هو هذا الذي كان يعرف عاداتهم؟ وما هو «الاحتمال القوي؟» ان من كان في بيروت الغربية عام ١٩٨٢ يدرك أن هذا كلام فارغ . قال : «لا بد من القول إنني لا أظن أنه حتى في يومنا هذا يوجد (في بيروت الغربية) من عنده خريطة ويضع علامات على منزل بعد منزل . كلاّ . كانت مخابراتنا تسعى إلى قتل بعض الإرهابيين ـ ولكن اتضح أنها طريقة غير فعالة لعمل ذلك . وكنا في ذلك الوقت ـ كما ترى ـ نعتقد أنه عندما كان الإرهابيون يستولون على أحد المباني ، يقومون بطرد غالبية (كذا) الأبرياء ، ويستخدمون السكان الأبرياء رهائن لحماية أنفسهم . . .كنا نعتقد أن الهدف هو ما نشير إليه بعبارة «أصبح عسكرياً» .

وسألته : «ومتى أدرك الطيارون أن هذا كان كله خطأ؟» قال : «كانت مذبحة صبرا وشاتيلا حجر الزاوية في كل شيء . كان ما نفعله ليس مجرد غلطة وإنما خطأ فاحشاً . وكان التوتر الذي ولده لدى البعض هنا حقيقياً . فقد أخذ الطيارون يسألوننا مرة بعد أخرى : هل نستطيع التأكد من الأهداف؟ هل هي صحيحة؟» .

لم يعد باستطاعة سبكتر الآن التوقف عن الكلام . لقد تلاشى تحفظه . قال : «أنظر ، هناك مشكلة . فلقد كانت حرب عيد الغفران (كيبور) حرب حياة أو موت بالنسبة إلى دولتنا . لكن بعض طيارينا تحولوا إلى دعاة سلام في الوقت غير المناسب . . . أجل ، وسط المعارك وجدوا أنفسهم دعاة سلام . والآن لا بأس في أن يكون الإنسان داعية السلام ، وأن يبقى كذلك أكثر أيام السنة ، لكن ليس في زمن الحرب . وبعبارة أخرى كنا نقول لطيارينا : إذا أردتم رفض أوامرنا فعليكم النظر في إيديولوجيتكم قبل أن تبدأوا درس الطيران . وكان الضباط ـ خلال حرب لبنان ـ يقولون للطيارين : إننا لا نضرب المناطق (أي دون تمييز) ـ هل هذا واضح؟ وكانوا يجيبون بقولهم : نعم . وكان الضباط يسألون الطيارين إن كانوا يدركون أن المخابرات كانت تقوم بدورها جيداً فيقولون : نعم . ثم يجري ذكر سبب الحرب للجنود وهو الإرهابيون . وكان الضباط يطلبون من الطيارين أن يتذكروا أنهم يعيشون في تل أبيب الآمنة لا في كريات شمونة» . وسكت سبكتر هنيهة ثم قال :

«لكن الأشياء تغيّرت بسرعة فائقة . فحالتنا النفسية تغيرت بسرعة تامة عندما أدركنا أن هناك شكاً حقيقياً في الحرب . ففي البداية كان رجال المخابرات يسألوننا عندما نعود من الهجمات : «هل أصبتم أهدافكم بدقة؟ وكانوا إذا أصبناها يظهرون الصور ويذكرون عدد من قتل من الإرهابيين» .

الإرهابيون ! أخذ سبكتر يكثر من استخدام هذه الكلمة . وعندما سألته لماذا كان يفعل ذلك ، أقلع عن استخدامها . قلت له :

«أخبرني كيف يشعر المرء عندما يقصف بيروت الغربية . كيف تشعر وأنت في الطائرة النفاثة ، وتعلم أنك ستقوم بضرب بيروت بالقنابل؟ كيف كانت بيروت تبدو لك؟

أجاب سبكتر «شبيهة بحيفا» .ورفع حاجبيه ليرى إذا كنت فهمت ما قاله . وكانت حيفا تقع على شبه جزيرة ، مثل بيروت . ومبانيها السكنية شاهقة . وتقع التلال خلفها . أضاف سبكتر : «إنها تذكّرني بحيفا . إنها تشبه حيفا في ريفها وبحرها وشبه جزيرتها» . وأدركت فجأة ماذا كان ذلك يعني ، وهو أن سبكتر والطيارين الآخرين كانوا يتدربون فوق حيفا ، وأن مرفأ حيفا الإسرائيلي كان «النموذج» للانقضاض الحقيقي على ساحل بيروت .

وبدا الانفعال على سبكتر وهو يتذكر ضرب بيروت . واعتدل في جلسته على كرسيه ذي الاطار المعدني في ركن حديقته . وأنزل رجله التي كانت على الأخرى وقال : «إنك في اللحظة التي تكون فيها فوق بيروت ، وفي تلك الثواني التي تحلق فيها لكي تقوم بالهجوم لا تفكر في العموميات . لكنك عندما ترجع من مهمتك تعود إنساناً وتتصرف بالطريقة التي نشأت عليها وتثقفت بها . وعندما تقوم بأداء عمل فني ، تكون أكثر تركيزاً . .» .

قلت له : ولكن إذا كانت فنية إلى ذلك الحد فلمَ كل تلك الأخطاء؟ أليست المسألة مسألة كمبيوتر؟ أليس الكمبيوتر هو الذي قام بتنظيم الهدف؟ ألم يكن الكمبيوتر يقصد أنّ المبنى الذي يصاب هو دائماً الذي اعتزم الإسرائيليون إصابته؟ فقال سبكتر :

«ليس كذلك . نحن نستخدم عيوننا ، ونقارن ما في أذهاننا بالذي نراه على الأرض في بيروت . والكمبيوتر يساعدنا ، نعم ، يساعدنا في التوقيت . ولا تقتصر مشكلة الطيار على إيجاد الهدف بل تتعدى ذلك إلى إصابته . والكمبيوتر يحسب اللحظة الصحيحة للقصف ، لكنه لا يجد الهدف» .

ـ من الذي يجده؟

ـ نحن نجده .

ـ كيف؟

ـ «لدينا صور فوتوغرافية . أنظر ، اننا نحصل على صور فوتوغرافية للهدف ، لمبنى مثلاً ، ويبقى علينا أن نجده .

ـ كيف؟

ـ بأعيننا . نحلق في الجو ونبحث عنه .

ـ ألا تكون الصور الفوتوغرافية داخل جهاز الكمبيوتر؟

ـ كلا . نحن نمسك الصور بيدنا» .

ورفع سبكتر يده اليسرى وتظاهر أن يده اليمنى على جهاز القيادة وقال : «هكذا كنا نحمل الصور ، وننظر إليها ، ثم نحاول إيجادها على الأرض . .» .

بيروت الغربية ، ٥ آب/ أغسطس ١٩٨٢

وكما كان يجري عادة ، فإننا لم نسمع صوت الطائرات إلا فيما بعد . وخفتت أصوات الانفجارات ، وارتفعت أصوات الأبواب وهي تتهاوى تحت الركام . لكن عندما وصلنا إلى شارع

عاصي كان يبدو وكأن زلزالاً قد ضربه . فقد كانت القنابل قد دكّت وسوّت بالأرض بنايتين سكنيتين تتألف كل منها من خمسة طوابق . وطمر الركام الذي بلغ علوه ثلاثين قدماً ـ كما قالت امرأة كانت تصيح في بيتها المدمر على الجانب الآخر من الطريق ـ مئة شخص .

كانت هناك جثة أو اثنتان ممددتين على شكل نسر فوق الطريق ، وعدد من الرجال ، الذين اشتد غضبهم ويرتدون الألبسة الخاكية ،يزيلون بأيديهم الدعائم والقضبان الحديدية ، وكتل الحجارة التي يعجز أي إنسان عن رفعها . ووقف وسط حطام النوافذ رجل يبكي ويداه شبه مضمومتين ، ويرفع أحياناً كفيه وهو يطلب الرحمة من الله والعطف من الناس . لقد كانت زوجته هناك بين الركام . وبقي تسع دقائق على وقوع الغارة التالية .

ورأينا بجانب الدبش والحجارة سيارة جيب عليها مدفع رشاش حوله ثلاثة شبان . وكانت سليمة مما يدل على أنها لم تكن هناك وقت الغارة الإسرائيلية . ومنذ أشهر كان رجال فرقة الأمن ١٧ التابعة لمنظمةالتحرير يضربون نطاقاً حول هذا الشارع الصغير الذي كان فيه مكتب لمنظمة التحرير . وبقي ثماني دقائق . قال أحدهم إن عرفات بنفسه كان قد عقد اجتماعاً في احدى العمارتين لكنه غادر المكان قبل دقائق فقط من وصول الطائرات . ولا بد أن الإسرائيليين وضعوا علامة على تلك البيوت .

كان عدد المدنيين بالطبع يفوق عدد المسلحين في شارع عاصي . وكالعادة خفض الإسرائيليون عدد المدنيين . وكان في الطابق الأرضي لإحدى البنايتين كراج لتصليح السيارات .وكان كثرة من سكان شارع عاصي قد لجأوا إلى الطابق السفلي عندما سمعوا أزيز الطائرات . فانهار المبنى على رؤوسهم . وركض رجل في منتصف العمر من منزله باتجاه الشارع . وصاح قائلاً : «التقطوا صوراً ، التقطوا صوراً . هذا ما فعلته قنابلكم» . بقيت سبع دقائق .

وصل متطوعو الهلال الأحمر إلاّ أنهم لم يكونوا يملكون الأجهزة الضرورية لرفع الأطنان من ركام الأبنية المهدمة عن القتلى والجرحى . لذلك نظر جميعنا إلى هذا القبر بعجز تام . وكان معظم سكانه قد قدموا من مخيمي صبرا وشاتيلا أو من جنوب لبنان . ثم صرخ أحدهم قائلاً : «طيّارة ، طيارة» . وكنا قد اعتدنا على سماع هذه الكلمة . فأدرنا ظهورنا وهربنا من الطريق باتجاه حديقة الصنائع . وبقيت ست دقائق .

وصل تيري أندرسون وهو يتصبب عرقاً ويلهث . وكان يرافقه سام كو الكوري المولد والمحرر في مكتب الأسوشيتد برس في روما . فقلت : «انتبه يا تيري ، لم يبق سوى خمس دقائق» . ونظر أندرسون إلى الأشكال الفضية التي تتحرك على علو كبير فوقنا وقال : «إنهم لا يقصفون يا فيسكي .

إنهم يقومون بطلعات استكشافية فقط» . على أني لـم أكن متأكداً من ذلـك . ورأينا على الطريق امرأة سمينة حبلى تصرخ وتولول حزناً على زوجها المدفون في المبنى المقصوف . وكانت الطائرات لا تزال هناك ، تتحرك مثل السمك في السماء من فوقنا ، وهي تراقب ببطء .

تركت أندرسون ، وذهب كو للتحدث إلى المرأة الحزينة . كنت أريد أن أغادر المكان . فلم تبق سوى أربع دقائق . ولم يعجبني منظر الطائرات . وكان متطوعو الهلال الأحمر لا يزالون ينبشون الركام . واختفى المدفع الرشاش . وكانت هناك سيارة متوقفة بين الركام وحديقة الصنائع . وأخذت تتصاعد سحب الغبار والدخان من المبنى . وبقيت ثلاث دقائق . وكانت الطائرات لا تزال تحلق في الجو . ترى ماذا كانت تنتظر؟ وانطلقت بسيارتي . وكان عمال الإنقاذ في الشارع قد سحبوا إحدى عشرة جثة ، بينما كان الجرحى من السكان يخرجون من الشقق على الجهة المقابلة من الطريق . ثم صرعهم الانفجار إذ كانت قد مرت عشر دقائق . ولم تكن الطائرات هذه المرة ، بل سيارة وضعت في وسط شارع عاصي . كان كو يتحدث إلى المرأة لحظة الانفجار . فقطع رأسها وسط بركة من الدماء بينما كان يملأ مفكرته بكلماتها . أما هو فقذفه الانفجار ، كما قذف أندرسون داخل حطام المبنى المدمر . وكانت الطائرات لا تزال تحلق وتراقب . مهمة استطلاعية ، نعم . لكن الذي حصل هو انفجار سيارة ملغومة . لم يخطر هذا ببالنا . وعندئذ بعثت رسالة بالتلكس للتايمز :

«من فيسك بيروت . أظن أنه ينبغي عليك أن تعلم في أسرع وقت أن القذائف والقنابل التي تلقي بها الدبابات الإسرائيلية دفعة واحدة ، تضرب الآن كلّ المباني الواقعة حولنا ، بما فيها فندق الكومودور الذي أصيبت غرفة بثلاثة قنابل من عيار ٧٥ مليمتراً . . . أصيب بيت بجوار المستشفى (مستشفى الجامعة الأميركية) بأربع قذائف . جميع الإصابات بين المدنيين . (رأينا رجلاً وطفلاً ميتين) . سأكون لك شاكراً إذا طلبت من ووكر أن يسأل شعبه عن مسألة الأهداف العسكرية الخ . وأنا أنوي تقديم تقرير مفصل عن هذا كله وأود أن أضمّنه ما يقوله . إنّ الأهداف المدنية ليست أهدافاً عسكرية فأين هي إذن الدقة المتناهية الخ . . . لا تزال الأسوشيتد برس تعمل . . . ولا أزال معهم . وعليه يمكنك الاتصال بي على خط التلكس المباشر أسوشيتد برس بيروت ٢٠٦٣٦ لبنان» .

وقام بارنز بالرد في الحال . على أن رسالته وصلت مشوّهة من جرّاء تعطل الخطّ والتفاوت في قوة مولّد فرنسوا الكهربائي . قال بارنز :

«ركّزْ على إرسال نسخة إلى الولايات المتحدة في حالة توقف الخطوط . أناشدك الله أن لا تعرّض نفسك لإطلاق النار . .» .

لم يكن لرسالته هذه معنى في الشوارع . فقد انطلقت مع فريق شركة «إن بي سي» إلى الكورنيش حيث وجدنا القذائف تتساقط على الملعب الرياضي ، مدمرة زجاج النوافذ في برج الجفينور بجانب مقر شركة طيران الشرق الأوسط . وكانت المدافع الإسرائيلية تصب حممها على بيروت الغربية كلها . وأصابت إحدى القذائف مكتب رئيس الوزراء ، وأصابت أربع منها فندق البريستول من الخلف ، وثلاث قذائف فندق الكومودور ، وقذيفتان صالة سينما في منطقة البيكاديللي ، وست قذائف المنزل المقابل لمستشفى الجامعة الأميركية . ورأينا أنا وأندرسون بأعيننا كيف انفجرت القنابل وتصاعد منها لهب ذهبي هائل وذلك قبل أن سقطت قنبلة على سطح المستشفى .

كانت القذائف تتساقط بمعدل قذيفة كل عشر ثوان . وانفجرت قذائف فوسفورية في شارع الحمراء ، واخترقت جدران مكاتب صحيفة لوريان لوجور ، وخربت المكتب الدولي «للأميريكان يونايتد برس» . وعليه فان القول بأن النار أطلقت دون تمييز هو أقل من الحقيقة بكثير ، بل وكذب . وقد أدركنا فيما بعد أن قُصف ٤ آب/ أغسطس الإسرائيلي كان في الواقع مميزاً لأنه استهدف كلّ منطقة مدنية وكل مؤسسة في بيروت الغربية ـ من مستشفيات ومدارس وشقق سكنية ، ومتاجر ، ومكاتب صحف ، وفنادق ومكتب رئيس الوزراء والحدائق . وفجرت القذائف الإسرائيلية بطريقة لا تصدق سقف الكنيس اليهودي في وادي أبو جميل حيث كانت الجالية اليهودية القليلة العدد لا تزال تسكن هناك .

في ذروة القصف ، كنت أركض من منزل إلى منزل كهرّة مذعورة وأعدو بين المداخل ، على طول الطريق الممتدة من مكتب الأسوشيتد برس وصولاً إلى مستشفى الجامعة الأميركية . كان الدم في كل مكان . وفي أجنحة الطوارئ ، وجدت مئة رجل وامرأة وطفل على الأقل يستلقون مضرّجين بدمائهم على الأرض ، أو يئنون على عربات في الأروقة . كان هناك تقيّؤ ودم على الجدران . ورأيت على نقالة امرأة مسنة نصف عارية تئن وتبكي وثدياها يتأرجحان على جانبي النقالة ، وسط الدماء التي تغمر الأرض . وركضت باتجاه قاعة الموتى . فوجدت عشرات الأعضاء والأذرع المبتورة المكدسة إلى جانب الحائط ، وعدة أطفال قتلى ممددين على الأرض في حقائب بلاستيكية حُزمت بإحكام . وكانت أشرطة السيلوفان تحيط برؤوسهم الصغيرة التي بدت وكأنها ترسل لإصلاحها . وتناثرت الأحشاء البشرية على الطريق في الخارج حيث كان أحد الأشخاص يحاول أن يعيد الأجزاء إلى الجثث التي بترت منها . ووجدت رجلاً وثلاثة أذرع إلى جانب جسم بلا أطراف . وكان المكان زلقاً ورائحة الأحشاء قوية . وقلت في نفسي : رجل بثلاثة أذرع . ورددت ذلك مرات .

لم يجد اللاجئون في حديقة الصنائع أمامهم أية فرصة . فلم يكن هناك ما يحميهم غير خيامهم .

وفي الوقت الذي وصلت فيه إلى الحديقة رأيت بين الأشجار نساء ينتحبن ويولولن والدماء تغمر أجسامهن . وأخذن يتنقلن هنا وهناك وسط سحب الدخان وكأنهم في حلم . ولاحظت أنه كلما كانت المرأة أكبر سناً كانت الدماء عليها أغزر . وأدركت في ذلك اليوم ما لم أكن أدركه . أدركت أن المرء يرى الكبار وقد مزقت أجسادهم وبدا منظرهم رهيباً ، بينما يرى الفتيان مضرجين بالدماء . أما الأطفال فيبدون وكأنهم نائمون .

ديتشلي ، انكلترا ، ٢٦ أيلول/ سبتمبر ١٩٨٧

فليب حبيب ، رجل أجش نَهِم يضع نظارات ضخمة . كان يجلس على طرف مائدة العشاء . وكان قد قضى صباح اليوم يحاضر المندوبين الأميركيين والإسرائيليين واللبنانيين في ندوة سنوية عن الشرق الأوسط . وكانت أشعة شمس الخريف تنفذ إلى غرفة الطعام وتتلألأ على سطح اللوحات الزيتية . لم يسبق له أن تحدث إلينا في بيروت ، ولم يكن في نيته أن يتحدث هنا . لكني جلست إلى جانبه وسألته مرة بعد أخرى عن ذلك اليوم . لقد كان هناك ممثلاً ومبعوثاً خاصاً لريغن . وكان بوسعه التحدث إلى الإسرائيليين . فلماذا لم يضع حداً لإراقة الدماء؟ قال :

«كنت في بعبدا . وكنت أرى ذلك . وأبلغت الإسرائيليين أنهم كانوا يدمرون المدينة ، ويطلقون النار بدون توقف . فقالوا أنهم لا يفعلون ذلك . فاتصلت بشارون بالتلفون فقال لي أن ذلك ليس صحيحاً . لقد قال لي هذا الرجل اللعين أن ما كنت أراه يحدث لم يكن يحدث . فأخرجت السماعة من النافذة لكي يسمع الانفجارات فقال لي : «ما هذا الحديث الذي تخرج فيه السماعة من النافذة؟»

بيروت الغربية ، ٤ آب/ أغسطس ١٩٨٢

كانت أسراب المقاتلات الإسرائيلية تعبر أجواء المدينة عند الغسق وتنطلق بأقصى سرعة بين نيران المدافع المضادة للطائرات لتقصف المخيمات وتعود في المساء إلى قواعدها بالجليل . وأعلن الإسرائيليون فيما بعد أنهم كانوا «يضيقون» الحصار على بيروت الغربية لا أكثر . وصرّح ناطق في تل أبيب بأنه ليست هناك «محاولة شاملة للاستيلاء على المدينة» . لكن كانت هناك في واقع الأمر محاولة . فقد حاولت دبابات الميركافا الإسرائيلية أن تعبر خط التماس عند المتحف ، وكادت أن تصل البربير لولا أن القوات السورية نصبت كميناً لها ودمرت الدبابة الخامسة بعد أن أوقعت الأربعة الأولى في الشرك . وهكذا أصبحت معركة بيروت معركة شاملة لا رحمة فيها .

وأخذت القلة الباقية من الدبلوماسيين ببيروت تصرح بإدانتها لإسرائيل . فتيودور أركند ، السفير الكندي الذي كان يعرف عائلات قتلت في التفجير الذي حصل في شارع إسكندر ، وجد أن قتل المدنيين بهذه الطريق هو أمر «لا يمكن تصديقه فعلاً» وقال : «لقد قُتل ثمانون شخصاً ـ وهذا كثير بالنسبة إلى التفجير بغاية الدقة . . . لقد كان الإسرائيليون وموسيقيوهم وعلماؤهم دائماً موضع إعجابي ، وكنت أفكر فيهم بالرغم من رحلاتي إلى جنوب لبنان . . . وإني أتساءل إلى أين ذهبت إسرائيل التي عرفتها ، وأنا متأكد من أن هناك إسرائيليين كثيرين يتساءلون أيضاً» .

على أن هذه الضجة التي أثارها القصف الإسرائيلي لم تقلق بال الإسرائيليين . وأنكر هؤلاء مقارنة الصحفيين له بما حدث في الحرب العالمية الثانية ، وأنكروا وصفهم لبيروت بدرزدن . على أني لم أسمع بصحفي وصف بيروت بهذه العبارات . إذ لا يمكن مقارنة ما حدث بما حدث في الحرب العالمية الثانية . كما أن في مساواة بيروت بدرزدن مبالغة كبيرة . إذ كانت بيروت وصمة عار ومدينة ركام وخراب ، وبيوت تمزقت بوحشية وسرعة كبيرتين إلى حد أن العمال لم يبدأوا بعد برفع الأنقاض بحثاً عن الضحايا .

وما نتيجة ذلك كله؟ ليس هذا وقت السؤال ولا بعد بضعة أيام ولا حتى بعد رحيل منظمة التحرير الفلسطينية . ولكن ما الذي سيحل خلال سنة أو خمس سنوات لشعب تعرض لهجوم عسكري لم يسبق له مثيل ، وقصفه غرباء بذخائر حربية صنعت في أميركا وفرنسا وبريطانيا وحتى في أوروبا الشرقية؟ أخذت أنا وأندرسون عندئذ نتحدث عن هذا ، ونتساءل عما إذا كان لبنان يضمر الانتقام الرهيب من تلك الدول ، ومن الغزاة والزوار والأجانب .

طرحنا ، نك تاترو وأنا ، على نفسينا السؤال نفسه عندما كنّا في سيارتنا على الطريق الساحلية القديمة متجهين نحو الأوزاعي بعد أن أعلنت إسرائيل «وقف إطلاق نار» آخر من طرف واحد . لم يكن هناك منزل واحد ـ ولا دكان صغير واحد ـ لم يلحقه الضرر . ويمكن القول بأن حوالي ٨٠٪ من مباني الضواحي الجنوبية التي تبلغ مساحتها أربعة أميال مربعة وتضم عمارات سكنية وسفارات ومخازن ومكاتب قد أصيبت بالثقوب ، أو اندلعت فيها النيران ، أو دمرت كلياً من جراء القصف . لقد أصابت القنابل الإسرائيلية كل شيء ـ من المنازل السكنية إلى المستوصفات ، والأزقة والمقابر . وحتى محطة المطافئ المحلية لم تسلم من الدمار الكلي .

سرنا على الطريق الرئيسية بسرعة عشرة أميال في الساعة فقط بسبب ما فيها من حفر أحدثها القصف ، وما عليها من حجارة مكسوة بالإسمنت والقطران والذخيرة الحية ، وعلب القذائف

والركام . ولم يكن هناك إلا القليل من الناس ، بينهم شاب مسلح يرتدي حمالة وقميصاً أبيض قرب طريق المطار ، وخمسة أكراد متقدمون في السن ، يلفون رؤوسهم بكوفيات بيضاء ، ويحملون بعض الحصر القذرة والأوعية . وكانوا يسيرون وسط الطريق المحطم وعيونهم مشدودة إلى الأمام وكأنهم يخشون إذا أداروا رؤوسهم أن يستعيدوا شيئاً لا يودون تذكره .

كان الدمار قد أصاب صف السفارات العربية على جانب الطريق ، فاحترقت نوافذها وتحطمت جدرانها بسبب القذائف . ولم يسلم فندق السمرلاند وبركة السباحة ومطاعم الهواء الطلق من الحرائق . وكانت البيوت الممتدة من بئر حسن إلى المطار قد قصفت في الغالب من البحر ، فحطمت القذائف واجهاتها ، أو اخترقتها وبلغت غرف الجلوس ، وخرجت من الطرف الآخر .

وفي الأوزاعي ، لم نستطع الذهاب إلى أبعد من متراس عبر الطريق وخلف أنوار المدرجات المخصصة لعملية هبوط الطائرات . وكانت أولى الدبابات الإسرائيلية تبعد مئتي ياردة . ولم يكن للفلسطينيين بين الأوزاعي والروشة سوى مراكز قليلة لا تستطيع منع الإسرائيليين من التقدم إلى بيروت الغربية . لكن لو فعل هؤلاء ذلك لما وجدوا إلا الخراب الذي أوقعه الجيش الإسرائيلي .

وعندما اتجهنا بالسيارة نحو الشرق وجدنا الحال أكثر سوءاً . فالمدينة الرياضية ـ وهي واحدة من الأهداف العسكرية الحقيقية ـ كانت قد انشطرت وتحطمت مدرجاتها التي تحولت إلى كتل من الاسمنت . وكان القصف قد أصاب أيضاً الشقق السكنية الواقعة خلفها في صبرا وشاتيلا ، ودمر بنايات سكنية من عشر طوابق تدميراً تاماً أو جزئياً بحيث برزت أراضي الغرف وكأنها قطع طويلة من الورق الثقيل وضعت كعلامات بين صفحات أحد الكتب ، بينما بقي من كل غرفة نصفها وعليه الكراسي والقناديل النحاسية التي توضع عادة في غرف الجلوس . ولم يكن ينقصها سوى السجاد الذي كان قد تطاير في الفضاء .

وقرب الفاكهاني ، حيث كانت مكاتب منظمة التحرير الفلسطينية ، كانت لا تزال أبنية كثيرة تحترق ، وألسنة النار التي لم تستطع الإطفائية إخمادها تتصاعد ملتوية حول الخرائب . ولا عجب في ذلك ، لأن القذائف الإسرائيلية كانت قد حطمت محطة الإطفائية قرب الجامعة العربية وعطلت سيارتيها اللتين لم يعد في الإمكان إصلاحهما . وجرح من الإطفائيين الخمسين خلال الشهرين السابقين اثنا عشر . وخف الضغط المائي في المحطة الرئيسية إلى حد جعل نشاطاتها رمزية . فاستمر رجال الإطفاء في تلبية النداءات والذهاب إلى أماكن الحرائق ، ولكن بدون الأجهزة التي تمكنهم من إخمادها . وهذا يفسر لنا لماذا كانت الحرائق لا تزال مشتعلة في خمسة وعشرين مكاناً ذلك الصباح .

وأصيب مستشفى البربير ـ للمرة الثالثة خلال أسبوعين ـ بقذيفتين ، وأشعلت نيران الدبابات النار في الأشجار حول مقبرة صبرا حيث كانت الأغصان تبعث دخاناً أزرق مخيفاً فوق المقابر . وفي برج البراجنة ، لم يسلم كوخ ولا مبنى من الغارات الجوية . حتى أن مستشفى المقاتلين الصغير أصيب ، وانفجرت قنبلة في الصليب الأحمر المرسوم على السطح . ورأينا في الطابق السفلي امرأة فلسطينية متقدمة في السن ، على وجهها وشم . وكانت قد لجأت إلى المخيم قبل شهرين هرباً من الغارات الجوية على جنوب لبنان . وكان زوجها وابنها قد توفيا في بيروت الغربية .

وتصدى السوريون والفلسطينيون للإسرائيليين ـ واحترقت للسوريين عدة دبابات قرب برج البراجنة . وقام زورق إسرائيلي مسلح بقصف المدفعية السورية في أحد المواقع . وظل ثلاثة من الفلسطينيين ثماني ساعات على طرف كورنيش المزرعة يطلقون النار عبثاً على الطائرات النفاثة التي كانت تسقط قنابلها على البنايات من حولهم . على أنهم استمروا بشجاعة كبيرة يطلقون النار والشظايا تتطاير هنا وهناك إلى أن ضربت إحدى القذائف شجرة إلى جانبهم فأسقطتها عليهم وحطمت ماسورة مدفعهم .

كانت الريح تسوق سحب الغبار والدخان كل مساء من بيروت الغربية إلى البحر . وكان باستطاعة الأميركيين أن يشموا رائحتها من سفنهم الحربية على بعد عشرين ميلاً من الشاطيء . وكان المساء في بيروت الغربية يحل قبل أوانه فتسقط الشمس في البحر ولكن وراء حجاب قرمزي . وعلى بعد مئة ميل في حيفا لاحظ الإسرائيليون ذلك الأثر الغريب عينه في الأفق البعيد أي الظلام الزاحف الذي حجب به تدمير بيروت الشمس الغاربة . ومن طرابلس وجبال الأرز العتيقة إلى الأرض التي تدعى فلسطين ، كانت السماء المتوهجة حمراء كالدم .

الفصل العاشر

فجر منتصف الليل

«نحن على عتبة تحقيق ما وضعنا نصب أعيننا تحقيقه : وقف حمام الدم في بيروت . . .»

الرئيس رونالد ريغن

في أول أيلول/ سبتمبر ١٩٨٢

قبل ١٥ يوماً من مجازر صبرا وشاتيلا .

كانت السفير من الصحف التي تؤمن بمبدأ إعداد الأخبار قبل حدوثها بوقت طويل . لذلك ، أمر مدير تحريرها باسم السبع قبل الغزو الإسرائيلي بعدة أسابيع بتجهيز كمية كافية من ورق الطباعة والمحروقات اللازمة للمولد الكهربائي للاستمرار في إصدار الصحيفة في حال وقوع حصار . وطلب في مطلع شهر آب/ أغسطس ١٩٨٢ إلى رسام الصحيفة الكاريكاتوري ناجي العلي رسم صورة للصفحة الأخيرة تنشر في اليوم الذي يبدأ فيه الفلسطينيون جلاءهم عن بيروت .

وانكب ناجي العلي على إعداد الصورة طيلة أربعة أيام باتت بعدها جاهزة على مكتب رئيس التحرير . ويظهر الرسم الذي تبلغ مساحته ثمانية إنشات فدائياً فلسطينياً معتمراً كوفيته ومتمنطقاً بندقيته يقول لأحد مسلحي الميليشيات اليسارية وقد مدّ له يده : «حسناً ، إنه الوداع إذن» ، فيجيبه المسلح اللبناني : «هل أنت حقاً متأكد من ذلك؟» وكان هذا الرسم دقيقاً غامضاً يؤكد رحيل الفلسطينيين في الوقت الذي يشدد فيه في الظاهر ـ على صداقة مسلمي بيروت الغربية الذين ذاقوا الأمرّين خلال وجود منظمة التحرير الفلسطينية . ولم يكن هذا الرسم يعكس الحقيقة ، وإنما كان يمثل نظرة إلى الواقع . وهذا هو بالضبط ما كانت تفعله الصحافة البيروتية دائماً :

كانت السفير جريدة صغيرة شجاعة، تناقص توزيعها من ٤٥٠٠٠ ألف عدد «زمن السلم» إلى نحو ٧٠٠٠ عدد. ولم يكن السبع يخفي اتجاهاته اليسارية ودوافعه السياسية في عمله الصحفي، ولم تكن مبيعات السفير اليومية تتجاوز الألفي دولار يومياً. وكانت إعلاناتها قليلة. والجدير بالذكر أن أربعة من مراسليها قتلوا في أوائل حرب السنتين ١٩٧٥ـ ١٩٧٦، وأصيب ثلاثة من مصوريها بجروح بالغة خلال الغزو الإسرائيلي، وأصابت الشظايا ظهر أحدهم في منطقة خلدة. وكانت الصحيفة ترسل أعدادها إلى بعض الدول العربية كسوريا وليبيا على أساس قاعدة البيع دون مرتجع. وكان هذا بمثابة إعانة مالية.

وعندما اغتيل الصحفي اللبناني سليم اللوزي عام ١٩٨٠، بادرت السفير وبكل جرأة إلى نشر خبر الاغتيال في مانشيت صفحتها الأولى في ثمانية أعمدة. وكان استمرار صدور هذه الصحيفة تحت وابل القذائف الإسرائيلية عمل سياسي بحد ذاته. فخلال أكثر أيام القصف عنفاً، استطاع قلة من العاملين فيها ـ وعددهم خمسة وأربعون ـ إصدار عدد خاص من أربع صفحات يشتمل إحدى وعشرين صورة عن الدمار والخراب، ورسماً كاريكاتورياً يمثل صبياً يقدم زهرة كان يحملها لامرأة شابة متعبة تجلس في بيتها المدمر ويقول لها: «صباح الخير يا لبنان».

كانت السفير صحيفة لبنانية قبل كل شيء. قال لي السبع: «لم يكن أمامنا من خيار سوى الاستمرار في الصدور، لأن توقف السفير يعني موت بيروت. ونحن نريد أن تظل حية». لقد كان هذا الاعتزاز وهذا الحب لبيروت وراء استمرار هيئة الجريدة في العمل خلال الحصار وتجمعهم على المقاعد حول أجهزة التلكس[1] وكان عمال الطباعة ينامون إلى جانب آلات الأوفست (غوس) في الدور السفلي من البناء بعيداً عن الشظايا التي تتناثر يومياً حوله. لقد كانت السفير تمثل روح العروبة الأصلية، كما كانت صوت اللبنانيين الذين عارضوا لبنان الكبير الذي أعلنه الفرنسيون. وكان السبع يرى في نفسه الناطق باسم «الحركة الوطنية» اللبنانية، وهذا ما يفسر لنا الاستمرار في إصدار الجريدة «حتى يأتي الإسرائيليون».

حتى يأتي الإسرائيليون؟ لكنهم قالوا بأنهم لن يأتوا. إذ وافقوا على البقاء خارج بيروت الغربية إذا غادرتها منظمة التحرير الفلسطينية. على أن السبع لم يكن واثقاً من ذلك تماماً. وشعرت بأن المؤامرة

(١) لم يكن العاملون في السفير من اللبنانيين والفلسطينيين وحدهم بل ومن المصريين والتونسيين والسوريين الذين كان لكل منهم أسلوبه الخاص. ومن الذين كتبوا فيها سليم الحص الذي خلف شفيق الوزان في رئاسة الوزارة، ومحمد حسنين هيكل الصحفي المصري المشهور، وكمال جنبلاط وحتى اللورد كارينغتون قبل أن يشغل منصب وزير الخارجية البريطانية ـ إضافة إلى منظمة التحرير الفلسطينية وحزب البعث السوري.

ستؤثر في موقفه . كان الإسرائيليون قد وعدوا الأميركيين بأنهم لن يدخلوا بيروت الغربية . لكن باسم السبع كان يخشى ذلك الصراع الدائم بين الوعود والأطماع . وكان يؤمن بأنه ينبغي عدم فصل السياسة عن الصحافة قال : «لا نستطيع أن نمارس عملنا كصحفيين بمعزل عن السياسة . فالصحافة والسياسة لا ينفصلان وخصوصاً في لبنان . نحن في حالة حرب ، والإسرائيليون على الأبواب ، ولا بد لنا أن ندخل في اللعبة السياسية اليوم لأننا نريد أن يبقى شعبنا حيث هو . لكننا نريد أن يرحل الفلسطينيون الآن ، لأنّ رحيلهم هو المخرج الوحيد لإنقاذ بيروت . والفلسطينيون يعلمون أنه ليس لنا خيار آخر . شيء مؤسف ، لكن هذه هي الحقيقة» .

كنا نشاهد على مقربة من شاطىء بيروت كل ليلة أضواء سفينتين كبيرتين تتقدمان الأسطول الأميركي السادس الذي ستنضم قواته من المارينز إلى القوات الفرنسية والإيطالية لتواكب خروج الفلسطينيين من المدينة إلى اليمنين الجنوبي والشمالي وتونس والسودان ومصر بحراً ، وسوريا والأردن والعراق براً .

كانت الأضواء تتلألأ أمامنا وسط الظلمة كأنها يراع صغير براق يحمل رسالة خاصة للبنانيين والفلسطينيين تقول : الغرب قادم ، والأميركيون قادمون . وأصبح مستقبل لبنان مضموناً . على أننا كنا كلما توقعنا خيراً كانت إسرائيل تقف بالمرصاد . ففي العاشر من آب/ أغسطس طلب كرستوفر ووكر مراسل التايمز في القدس من بارنز أن ينقل إلي خبراً عن «تقدم معدات ثقيلة نحونا» . وتساءلنا عما يعنيه هذا .

ولم يُعر نك تاترو الرسالة أهمية كبرى . واعتبر التحركات تحركات روتينية للقوات الإسرائيلية ، ومجرد عملية تبديل للجنود على محيط بيروت . ولكن إن كان الأمر كذلك ، فلم «الأعتدة» الإضافية؟ إن دباباتهم ترابط حول بيروت ، فما حاجتهم إلى المزيد منها؟

حضر إلى فندق «الكومودور» مسؤول في الجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين اسمه جميل يستخدم مبسماً للسجائر مثل ماهر ، وصرح للصحفيين بأن منظمته ملتزمة بجلاء منظمة التحرير ، وأن المخيمات الفلسطينية ستبقى مجردة من السلاح ، ولن يبقى فيها سوى المدنيين ومعظمهم من النساء والأطفال والشيوخ . كما سينتقل أولئك الذين كانوا يحتلون الشقق إلى المخيمات قبل مغادرة منظمة التحرير ، وسيكونون في أمان . فهناك ضمانات أميركية ووعود من فيليب حبيب بأنه لن يلحق بهم أي أذى . كما تلقى عرفات ضمانة خطية من حبيب بذلك المعنى .

تداولت في الأمر مع آن كارين أرفيسون السكرتيرة الثانية في السفارة النروجية التي رافقتنا أنا

وتفايت خلال الأيام الأولى للغزو الإسرائيلي . وكانت «آن» كدبلوماسية تثق بالضمانات وخصوصاً عندما تكفلها الدول الكبرى . أما أنا فكانت دائماً تساورني الشكوك فيها . وتوصلت ـ ربما لأنني كنت متعباً ـ إلى معادلة مبسطة مبنية على التجربة ، صرت أطبقها دائماً على أطراف النزاع في هذه الحرب ، وهي أنهم مهما قالوا ووعدوا فلن يلتزموا بشيء منه .

لقد أعلن الإسرائيليون أنهم لن يتقدموا أكثر من ٤٠ كيلومتراً داخل الأراضي اللبنانية ، لكنهم استمروا في تقدمهم حتى وصلوا إلى بيروت . وكذبوا فيما يتعلق بعدد الإصابات بين المدنيين ، وفيما يتعلق بقطع الماء والكهرباء عن بيروت الغربية . وكانت منظمة التحرير الفلسطينية قد أعلنت عن استعدادها لمغادرة بيروت الغربية ، في حين أنها كانت تعتزم المراوغة . وأعلن عدد من المسؤولين بالمنظمة أنهم لن يتركوا بيروت ، لكنهم لم يقولوا الحقيقة . وأنكر الإسرائيليون أنهم كانوا يستخدمون القنابل العنقودية والقذائف الفسفورية لضرب المناطق المدنية . وكانوا يكذبون . وجاؤا بعد ذلك يعدون بأنهم لن يدخلوا بيروت . وفيما كانت كل حاسة سياسية تؤكد أنهم سيلتزمون بذلك ، كانت كل حاسة صحفية تؤكد العكس .

وعندما سئل جميل في نهاية مؤتمره الصحفي عما يمكنه عمله لحماية المدنيين الفلسطينيين في مخيمات صبرا وشاتيلا وبرج البراجنة ، إذا ما نقض الإسرائيليون تعهداتهم ودخلوا بيروت الغربية . أجاب بكلّ بساطة : «لا شيء» . وكان جميل كلما تذكر سؤالي وجوابه بعد ذلك بسنوات ، يعجب كيف لم يدرك كلانا آنذاك أهمية ما جرى .

قد يعود ذلك إلى انشغالنا عندئذ بأمور أخرى . ففي ١٢ أغسطس وبدون سابق إنذار ـ وبالطبع بدون أية استفزازات عسكرية ـ حلقت الطائرات المقاتلة الإسرائيلية بعيد الفجرعلى علو منخفض فوق العاصمة . ولم يسبق لنا أن شاهدناها قبلاً فوق رؤوسنا وعلى علو مئة قدم فوق سطوح المنازل ، لدرجة أننا عندما صعدنا إلى سطح مكتب الوكالة استطعنا رؤية نجمة داود على هياكل الطائرات . وقامت إحداها بالتحليق فوق سطوح المنازل ثم انخفضت فوق المكتب ، فرأيت رأس قائدها يتحرك داخلها كأنما يبحث عن هدف يصيبه . والواقع أن القائد كان يعرف هدفه تماماً : المخيمات التي استمر الإسرائيليون يقصفونها لمدة تسع ساعات متتالية أمطروا صبرا وشاتيلا خلالها بمئات الأطنان من القذائف الشديدة الانفجار . وكانت القنابل تسقط من ثلاث أو أربع طائرات في وقت واحد محدثة أصواتاً تشابه أصوات ألواح الفولاذ حين تنشطر . ولم تكن هناك نيران مضادة ولا صواريخ لمقاومتها ، مما أتاح للإسرائيليين التحليق على ذلك العلو المنخفض . وتصاعدت سحب الغبار والدخان فوق المخيمات والضواحي الجنوبية .

لماذا؟ هذا ما لم يفصح عنه الإسرائيليون قط . وناشد سركيس والوزان كلا من الرئيس ريغن والملك فهد التدخل . وبدا أن الأميركيين لا يستطيعون أو لا يرغبون في كبح جماح الإسرائيليين .

ووقف الوزان على درج القصر الجمهوري وصرخ وهو يشير بيديه إلى الطائرات التي كانت تزمجر فوق رأسه : «إذا كان الإسرائيليون يريدون قتلنا جميعاً ، فليفعلوا ذلك وننتهي مرة واحدة مما نحن فيه . لقد قدمنا كل التنازلات المطلوبة منا لرحيل منظمة التحرير . حتى وصل بنا الأمر إلى تحديد الطريق التي ستسلكها في رحيلها . ونفاجأ الآن بالقصف . فما معنى تلك الآلاف من المتفجرات المدمرة؟ ولماذا؟»

وفي منطقة «كورنيش المزرعة» لاحظت أن النفاثات الإسرائيلية كانت تطلق قذائفها التي تتفجر أثناء سقوطها كل خمسين قدماً وسط سحب من الدخان قبل بلوغها الأرض . كما قام الإسرائيليون بإلقاء القنابل العنقودية المضادة للدبابات مرة أخرى فوق منازل بيروت الغربية . وأحاطت التعزيزات الإسرائيلية الجديدة ببيروت ـ وهي الدبابات والمدافع التي نبهني إليها ووكر . وكان من الممكن رؤية عشرات الجنود وهم يركزون الأنوار الكشافة على التلال المحيطة بمنطقتي الحدث والشويفات . وهكذا أمكن إضاءة المدينة كلها ليلاً . ولكن لماذا؟

في تلك الليلة أجاب الكولونيل يهيل بن زفي الناطق الرسمي باسم قيادة الجيش الإسرائيلي في بعبدا على جزء من السؤال فقال :

«لقد انتهينا من تعزيز مواقعنا تعزيزاً مكثفًا في بيروت وحولها كجزء من عملية كبيرة . . . عندما نضطر للهجوم وعلى أية ناحية» . وبدت تعليقاته هذه عندئذ سخيفة وأبعد ما تكون عن اللياقة . إنه لم يشر إلى الغارات الجوية ، بل إلى احتمال زحف إسرائيلي على بيروت الغربية . لكن الإسرائيليين كانوا قد وافقوا على عدم القيام بمثل ذلك وأنهم سوف يرحلون حالما تغادر منظمة التحرير المدينة . لقد انتهت الحرب .

وبلغت حصيلة القتلى في بيروت وحدها ٣٩٨٣ قتيلاً ، وأما في لبنان كله فوصل العدد منذ بدء الغزو الإسرائيلي إلى ٤٩٢ , ١١ . وهذان العددان أقل بكثير من العددين الحقيقيين . فبعد ظهر ١٢ آب/ أغسطس نُقلت إلى المشارح بالمستشفيات أشلاء كثيرة إلى حد أن الأطباء اكتفوا بالقول بأن «عدة مئات» لاقوا حتفهم .

كانت تلك الفترة فترة تقلبات وتحولات . فبينما كان اللبنانيون يتحدثون عن التجديد ، كان

الفلسطينيون يتحدثون عن النصر ـ أي الهزيمة . وفي أحياء بيروت الفقيرة كان الأهالي يزدادون فقراً . ولم يعد للنتائج الاستراتيجية للحرب والفرص السياسية والدعاوى الأخلاقية في نظرهم صلة بحاضرهم . وكان المرء يدرك عند التحدث إليهم أنه لم يكن لمقالاتنا الطويلة عن مبادىء الحرب وعن الأطماع الإسرائيلية والنفوذ الأميركي الفلسطيني أي تأثير في حياة هؤلاء الناس الذين عانوا أكثر من غيرهم خلال الحصار .

ففي العاشر من آب/ أغسطس مثلاً وصلت سلمى الشريف إلى الفرن المجاور في وادي أبو جميل في تمام الساعة الرابعة صباحاً وغادرته بعد ست ساعات وهي لا تحمل معها سوى عشرة أرغفة . وبالطبع فان أمثال بيغن لا يسمعون بسلمى الشريف . بل ويمكن القول إن اسمها كان بعيداً حتى عن أسماع المقاتلين في تلك المحلة . فلم تكن سوى واحدة من النصف مليون مواطن الذين ظلوا في بيروت الغربية . ولمّا كانت من أولئك الصامتين الذين لا يسعون إلى النفوذ ، فانه لم يكن هناك من يعبأ بها . لقد كان شغلها الشاغل هو البحث المتواصل عن طعام رخيص لأطفالها الكثر . وفي ذلك اليوم دفعتْ دولاراً ونصف دولار ثمن الخبز الذي يطعم أولادها الستة وأولاد أخيها السبعة لمدة يومين . ولم يكن في مدخرات الأسرة سوى ستين دولاراً . وكان نفاد هذه يعني بداية الجوع . والواقع أنهم كانوا قد بدأوا بشرب المياه المالحة .

كانت سلمى امرأة جميلة ذات عينين سوداوين ويفتر ثغرها عن ابتسامة كتلك التي كان فنانو عصر النهضة يخلعونها على ربات الجمال ، غير أنها تبدو أكبر بكثير من عمرها البالغ تسعة وعشرين عاماً ، خصوصاً وأنها كانت حاملاً في شهرها السادس . وكان شعرها مشدوداً إلى الخلف بوشاح أزرق باهت ، وعليها ثوب طويل فضفاض تبدو عليه رسوم طغى فقر صاحبته وتعاستها على تفاهتها . وكانت عائلة الشريف تعيش في مستشفى مهجور مهدم على بعد ٦٠٠ ياردة من مواقع الدبابات الإسرائيلية في ميناء بيروت ، وتطبخ في حمام ، وتفترش أرض ما كان يوماً جناحاً للمرضى . وكان الذباب يتهافت على الجدران والأرض ووجه سلمى ووجه زوجها وأطفالها الستة ، كما كانت الغرفة تعبق برائحة البول .

وربما كان هذا هو السر في أن حسين الشريف كان يسحب سيجارة بعد أخرى من علبة فيها سجائر رخيصة من صنع لبنان . وقدم لنا منها . لكن التعبير الذي ارتسم على وجهه جعلنا نرفض سخاءه . كان حسين بائع خضار متجولاً ، شاء حظه العاثر أن يمنع الإسرائيليون دخول الفاكهة والخضار إلى بيروت الغربية ، فأصبح عاطلاً عن العمل . وعائلة الشريف من أصل تركي ، واعتادت سلمى التزين بالعقود والأقراط الذهبية ولكنها باعتها كلها بثمانمئة دولار عندما ضرب الإسرائيليون

حصارهم في شهر حزيران/ يونيو ، وأنفقت معظم هذا المبلغ على الطعام . ولم تظهر على أطفالها الستة حتى ذلك الوقت معالم سوء التغذية . ولكن أجسامهم بدت نحيفة . وبالرغم من أن ابنهما محمد البالغ من العمر خمس سنوات كان يسرح ويمرح على هواه في أروقة المستشفى ، فإنه كان يعاني من إسهال حاد .

وكانت الابتسامة لا تفارق شفتي سلمى وهي تتحدث . وكانت قصتها لبنانية في جوهرها ـ قصة حظ عاثر وشجاعة وخوف وعدم ثقة . قالت لنا : «لقد عرفنا صعوبات جمّة في الماضي ، ولكنها لا تضاهي الصعوبات التي تواجهنا اليوم . كنا خلال الحرب الأهلية نسكن في مخيم تل الزعتر الفلسطيني وأجبرونا على المجيء إلى هنا قبل سبع سنوات . لكننا كنا نعيش في أمان ، وكان زوجي يكسب أحياناً مئة ليرة في اليوم الواحد . وأما اليوم ، فلا نعرف ما يحمله لنا الغد . لقد أتى رجال اليونيسف منذ يومين وزودونا بمياه نقية ، ولكننا نشرب في معظم الأيام مياهاً مالحة . وأخاف الذهاب إلى الفرن حتى لا يفاجئني القصف الإسرائيلي ، ويحرمني من العودة لرؤية أبنائي . ولم تكن سلمى تبالغ في مخاوفها . فعندما قصف الإسرائيليون المناطق المدنية في بيروت الغربية قبل نحو أسبوع ، اخترقت ثلاث شظايا شباك مطبخها واستقرت إحداها بينها وبين ابنة لها اسمها ناديا في الثالثة عشرة من عمرها . وكانت سلمى تشير إلى الزجاج المتناثر على الأرض كما لو كان تحفة متوارثة ثمينة مثل ماكنة سنجر للخياطة الغارقة بالغبار في غرفة النوم .

وسألت لماذا لم يغادروا بيروت الغربية إلى المناطق الجنوبية التي تحتلها إسرائيل طلباً للأمان النسبي . فأجابت سلمى بشكل يحرك مشاعر المرء ويصدمه : «إننا نعيش في هذا المكان لأنه أجمل الأمكنة . جذورنا هنا وكذلك أحاسيسنا ومشاعرنا . إنه أكثر الأمكنة حرية» .

وتدخل «حسين» وقال بشيء من المرارة والنقمة : «لقد كانت الحريات كثيرة في الماضي» . وعندئذ أصبحت سلمى أكثر واقعية وقالت : «أنظر إلى الأسعار . إن إيجار سيارة تاكسي إلى الجهة الأخرى من بيروت يكلف ضعفي ما تبقى من مدخراتي . لم يعد في وسعنا الاستمرار في العيش» كانت حزينة ولكن بلا مبالاة . وما لبثت أن تحولت بنظرها إلى النافذة ومن ثم إلى الشارع الضيق في الخارج حيث كان بضعة أطفال حفاة يلعبون بالقرب من مكب للقمامة .

وتابعت كلامها : «إن سبب مصائبنا هو بيغن . هل تعلم أن هذا المكان كان ذات يوم حي اليهود في بيروت؟ ولكن لم يبق اليوم منهم سوى الطاعنين في السن وسيبقون هنا حتى يموتوا . لم يفعل الإسرائيليون ذلك؟» .

وفجأة أدركت سلمى معنى ما تفوّهت به ـ أو الجانب المظلم من مشاعرها فقالت : «إسمع ، أننا نريد أن نعيش في سلام مع الجميع ولا نعرف لماذا قامت هذه الحرب» .

والواقع أنه بقي عدد من اليهود المتقدمين في السن هناك ، وقُدّر لأربعة منهم أن يظلوا حتى وفاتهم . فقد خُطفوا فيما بعد وقُتلوا وتُركت جثثهم على بعد مئة ياردة من وادي أبو جميل . ورأى بعض الناجين منهم أن ما حدث كان نتيجة غير مباشرة لوحشية الغزو الإسرائيلي وأثرها العميق في نفوس المسلمين . على أن مصالح هؤلاء اليهود لم تسلم من مغامرة مناحيم بيغن العسكرية في لبنان ، إذ هدمت إحدى القذائف الإسرائيلية سقف الكنيس اليهودي الذي لا يبعد سوى ٣٠٠ ياردة عن بيت سلمى ، كما أجبر الرصاص الإسرائيلي المنهمر على وادي أبو جميل معظم الخمسين يهودياً مسناً في المنطقة على الهرب إلى بيروت الشرقية وجونية . ولم يبق منهم الآن سوى خمسة عشر شخصاً .

وطارت نوافذ الكنيس اليهودي الجميّل المبني من الحجارة الصفراء والبيضاء عندما انفجرت سيارة على بعد ربع ميل منه . وبعد هذه الحادثة بيومين ، أحدثت القذائف الإسرائيلية ثقوباً في سقفه . وذكر أحد اليهود الذين بقوا في وادي أبو جميل ، وهو يعقوب أشكنازي ، أن القذائف كانت تطلق من البحر ، وأن السفينة التي أطلقتها هي ذاتها التي قصفت البيوت المحيطة بهذا الكنيس . وأصابت قذائف أخرى المبنى فألحقت أضراراً بالغة بغرفة حمام النساء ، إضافة إلى القاعة الأمامية في الكنيس . وعلى واجهة الكنيس لوحة من الرخام نقش عليها بالعبرية والفرنسية أن البناء شيد عام١٩٢٦ وأن الذي شيده يهودي من كلكتا اسمه مويز إلياهو ساسون تخليداً لذكرى أبيه أبراهام إلياهو ساسون الذي توفي في بيروت في اليوم الأول من آذار سنة ١٨٩٨ . وكان معظم يهود بيروت قد غادروا لبنان بعد الحرب العالمية الثانية . وحدثت هجرة أخرى لهم بعد حرب ١٩٦٧ بالرغم من أنه ليس هناك أي دليل على وجود شعور معاد لهم عندئذ في المدينة . بل إنه عندما سيطرت منظمة التحرير على المنطقة بعد أحداث ١٩٧٥/ ١٩٧٦ ، عمدت إلى وضع حراس حول الكنيس . وهو اليوم مدمر . وعندما اخترقت سقفه إحدى القذائف الإسرائيلية قامت العائلات العشر الأخيرة التي ظلت تؤمه من أجل العبادة بإقفاله .

ويعيش اليوم لاجئون مسلمون ومسيحيون خلف هذا المعبد ، ويطبخون طعامهم في باحة جانبية منه . وقد أحضر لي أحدهم سلّماً وأسنده إلى نافذة مكسورة كي أشاهد الخراب . كان إطار السقف المعدني قد هوى على المقاعد في الجهة الشمالية من المبنى وتناثرت الحجارة وغيرها على المنبر الذي كان وسط القاعة ـ كما هي الحال في المعابد اليهودية الشرقية ـ والكراسي حوله على شكل مستطيل ، وبدا مسند التوراة في الخلف سليماً بالرغم من شظايا الزجاج التي لصقت بالثريات .

وكانت إحدى القذائف قد حطمت لوحتين من الرخام تمثلان الوصايا العشر ، مما أدى إلى تناثر قطع الرخام التي تحمل نصف الوصايا في القاعة . ووجدت أمام الكنيس نجمة داود رخامية شطرتها الشظايا . وقال أشكنازي - وكان أصلع داكن الشعر - انه لا يفهم لماذا قُصفت المنطقة . لكنه لم يعلق بشيء ، ولم يُدن القصف ، بل أخذ دفتر ملاحظاتي بهدوء وكتب فيه بضع كلمات يقول فيها : «لي ابن في تل أبيب» .

وكان الوضع في برج البراجنة مختلفاً عنه في وادي أبو جميل . فهنا كان من الصعب أن تجد شيئاً قائماً . وكنا بعد أن نزوره ونسير فوق الجدران والسقوف المحطمة نشعر بتأثيره على إحساسنا بالأبعاد والأحجام . إذ كنا ونحن نسير على السقوف المنهارة نشعر وكأننا على سطح القمر . وكان دليلنا الفلسطيني يشير كل بضع دقائق إلى كوم من الأنقاض ويذكر عدد من طمرتهم من السكان .

وأدرك الفلسطينيون أهمية الطواف بالزوار في برج البراجنة ، لأن معظمه كان مدمراً من جراء الغارات الإسرائيلية . وحتى الآن لا يزال بعض مسؤولي منظمة التحرير الفلسطينية يعتبرون أنه من الضروري حقن هذا الخراب برسالة سياسية . وفي منتصف آب/ أغسطس أوقفني على أطراف المخيم رجل ممتلىء الجسم يرتدي بذلة زرقاء لا تناسبه . ولا بد أنه كان من المسؤولين في منظمة التحرير . وفاجأني بإلقاء محاضرة عقيمة علي عن تاريخ الفلسطينيين ، أكد فيها مرة بعد أخرى أنه لا يمانع في بقاء الإسرائيليين في فلسطين ، لكن في ظل حكم ديمقراطي يشارك فيه الجميع . وكرر كلمة ديمقراطية مرات . إلا أنه لم يبدُ على من حوله أنهم فهموا ما قاله .

على أن الخراب من حولنا جعل كلماته بلا معنى . إذ امتد إلى كل شارع وكل زقاق . وحينما درت حول المخيم مع فتى من المقاتلين ، لم نكن نسمع سوى وقع أقدامنا فوق شظايا الزجاج والحصى . فلم يكن حولنا طيور ، وحتى البشر كانوا قلة . وقال لي الفتى : «كان هذا بيت أربعة عشر شخصاً» . وكان له شارب أسود نافر ويحمل على كتفه بندقية أتوماتيكية ببساطة وبلا تكلف . وكانت اللامبالاة التي تحدث بها تثير الإعجاب وتميزه عن رجل الإعلام ذي البذلة الزرقاء الذي احتاج إلى كل ذلك الخراب ليثبت ما يقوله .

كنا نقف إلى جانب ثلاثة جدران هبطت فوق سقف ممزق من الإسمنت الكثيف بدت قطعه المتراكمة كقطع الصور التي يركبها الأطفال . وكان على أحد هذه الجدران لوحة زيتية بسيطة تمثل نهراً فيه مركب كبير من المراكب التي يستخدمها سكان الأهوار في العراق عندما يبحرون في مياه شط العرب . وكانت على الجدار الآخر صورة ملونة لشاب يرتدي بذلة أنيقة ويقف تحت العلم

الفلسطيني . وكان يحملق فينا من خلال إطار الصورة مبتسماً بغباء . قال لي الفتى وهو يشير إلى السقف الممزق : «هنا مات السكان الأربعة عشر . ماتوا جميعاً» .

وعند زاوية الشارع رأينا أنابيب ماء تبقبق في أحد المجارير بجانب ما بقي من بناء يتألف من طابقين . وكان على نصف أرض الطابق العلوي الذي بقي سليماً متماسكاً طاولة خشبية فوقها كوم من الثياب الزاهية الألوان . وكانت إلى جانب الطاولة آلة خياطة كبيرة سوداء مذهبة مكشوفة وكأنها أحد الآثار العظيمة . وقال لي الثائر المقاتل : «هنا ماتت أم وأطفالها الثلاثة» . وتتالت هذه المشاهد طوال سيرنا . وكنا نتسلق ركام الإسمنت بجهد ، ثم نقف ليعلن لنا الفتى المسلح قائمة أخرى بالإصابات كما لو كنا أمام مزارات أو أضرحة أولياء لا أمام مشاهد الخراب . وكان يمكن أن أشك في قوائمه لولا الروائح النتنة المنبعثة من حطام المباني .

وتناثرت في أرجاء المكان قطع خبيثة ضخمة من كبسولات القذائف ، وشظايا القنابل ، وكتل معدنية ثقيلة ذات أطراف حادة قاطعة كالسكاكين يمكنها اختراق عشرين رجلاً وامرأة وقتل آخرين غيرهم . وكانت الكبسولات النحاسية الصغيرة تلمع كالذهب في أشعة الشمس . ورأينا حول قرنة أخرى امرأتين تقدم بهما العمر وتجلسان إلى جانب بيت لا سقف له . وكانت بشرتهما قد ذبلت وخف سمعهما من جراء دوي الانفجارات . وكانتا تلاعبان ثلاث قطط صغيرة . وعندما شاهدت إحداهما الفتى المسلح إلى جانبي رفعت يدها اليمنى وصورت بأصبعين علامة كان من الواضح أنها علامة نصر رهيبة محزنة . فأي نصر كان يمكنها أن تلمح وسط هذه الأنقاض؟ وعندما سألناهما بكل بطء وبصوت عال من أين أتتا ، أشرق وجهاهما وقالتا معاً بصوت عال «من الناصرة» وأخذتا تتضاحكان وتثرثران على نحو أفزع القطط . وكانت تقف في أحد المجارير طفلة عارية القدمين لا تعدو الثانية من عمرها . وعندما ناديناها هربت .

وعلى بعد مئة ياردة تقريباً ، اكتشفت مرأباً قديمًا للسيارات تحت الأرض ، تحول وسط الغبار إلى عيادة للطوارىء ، وفيه جراح بلجيكي يقوم بمعانية بعض الأشخاص الممددين على الأسرة . وكان رجلاً حساساً ذكياً يتكلم بذات الأسلوب كالفتى المقاتل ، وبلا مبالاة بما لكلامه من انعكاسات سياسية . قال : «إنك تعلم أنه عندما ترى هذه الغارات الجوية للمرة الأولى ، تجدها مثيرة ، ولسبب ما يحلو لك رؤيتها وهي تنقض ثم تسمع دوي الانفجار . لكن عليك أن تنتظر حتى ترى النتائج» .

كان الطبيب يسير بين الأسرة وهو يتكلم ويراقب مرضاه بشيء من الشك وكأنه يخاف أن يموتوا

في غفلة عنه . قال : «كان بجوارنا ملجأ في داخله ثلاثون شخصاً معظمهم من المدنيين وبينهم ثلاثة أو أربعة مقاتلين . فأصيب الملجأ إصابة مباشرة وانهار السقف على رؤوسهم . ونُقل إلى هذا المكان رجلان فقد كل منهما الجزء الأعلى من رأسه وحتى عينيه . ولا أدري كيف كان بإمكانهما التنفس فألقيتهما على الأسرة ليموتا في جو هادئ» .

وصلنا إلى سرير رجل أصيب بحروق بالغة ، وأحيط جسمه من قمة رأسه إلى أخمص قدميه بضمادات سمكها نحو ثلاث بوصات . ولولا ذلك السائل المحمر الذي كان ينز من وسطه لبدا كواحد من أولئك الذين يظهرون في إعلانات إطارات ميشلين .

وكان من الواضح أنه يشعر بألم شديد . لكننا حييناه بالعربية فحرك رأسه قليلاً ، بينما راح فمه المحروق يتحرك في دائرة مظلمة كالنبتة تحت الماء . وكانوا يدفئون جسمه بالبطانيات ، لأن أصحاب الأجسام المحترقة يتجمدون من البرد خلال الليل ، ولا يلبث الواحد منهم في الغالب أن يلاقي حتفه .

وسألت الطبيب : «هل القنابل الفسفورية هي التي سببت حروقه؟» فأجاب : «لا . أحرقت الغارات بيته وحاصرته النيران فاحترق جسمه . على أن حروقه هذه عادية» .

كان الإعياء يخيّم على المخيّمات وبيروت الغربية كلها وحتى الخطوط الإسرائيلية حيث كنا نستطيع مشاهدة الجنود ممددين على العشب بلا مبالاة قرب حلبة السباق وإلى جانبهم أسلحتهم وأجهزة الراديو العسكرية . وبدت اللامبالاة ذاتها على الفلسطينيين الذين كانوا على الجانب الآخر . وكان أبو الروسان يقف في الأوزاعي على بعد أربعين ياردة فقط من الخط الإسرائيلي عندما وجدته في ١٦ آب/ أغسطس يتناول غداءه كالسائح وأمامه على الطاولة كوم صغير من الأرز والجبنة وصحن من الزيتون ، بينما كان المسلحون الآخرون يفرغون الطعام في صحونهم بسكاكينهم . قال : «لم نكن نعلم أننا راحلون ، وقد يأتي الفرنسيون أو الإيطاليون» . وأضاف وهو يمسح فمه بمنديل كبير : «قد يأتي الفرنسيون أو الإيطاليون . ولم يقل لنا أحد شيئاً . على أن كل شيء هادىء . هل ترغب في شيء من الزيتون أو الجبن؟»

ولم يكن أبو الروسان يدري إلى أين سيذهب : إلى الجزائر أم اليمن الجنوبية أم سوريا . وقدم لنا أحدهم الشاي . وكنا عندئذ بجانب مقر أبو الروسان في بناء من خمسة أدوار تدلت شرفاته على الجدران .

على أن الحرب كانت قد انتهت . وكان أبو روسان يعلم ذلك . وشعرنا بالشيء ذاته في كل مكان قصدناه في بيروت الغربية . وكان لنهاية الحرب تأثير غريب على المقاتلين الفلسطينيين . فنزل أحدهم على حصانه إلى شارع الحمراء وبندقيته بيده وعلى رأسه قبعة راعي بقر . ووقف ثلاثة جنود سوريين في جادة باريس على شاطيء البحر يطلقون نيران مسدساتهم على السمك . وعلى الشاطيء قرب السفارة الأميركية كان الفلسطينيون يتجولون بين المستحمين . وبالرغم من أن بعضهم كان بثياب الاستحمام ، فإن بنادق الكلاشينكوف التي كانوا يحملونها كانت تميزهم عن غيرهم . وليس معنى ذلك أن السلام قد خيم على البلاد ، ولكن من المؤكد أن البلاد لم تعد في حالة حرب .

وفي ١٩ آب/ أغسطس قدمت الحكومة اللبنانية مذكرات رسمية تطلب فيها قوة متعددة الجنسيات «للفصل» بين المتحاربين . وسلم وزير الخارجية اللبنانية فؤاد بطرس المذكرات إلى سفراء الولايات المتحدة وفرنسا وإيطاليا في القصر الرئاسي . ودعا لبنان أجانب آخرين لمدة محدودة وذلك لمرافقة الفلسطينيين إلى خارج البلاد .

ولم يكن للأميركين والفرنسيين والإيطاليين أطماع في لبنان . فكانت مهمتهم تقتصر على المساعدة في حل المشكلة ولا تستغرق سوى بضعة أيام يحلون فيها ضيوفاً معززين مكرمين حتى تنتهي قضية منظمة التحرير بشكل نهائي .

ولم يكن هذا غزواً ولا تخويفاً . وكان لبنان يرسل الدعوات متناسياً أن الغزو الإسرائيلي هو الذي جعل حضور القوة المتعددة الجنسيات ضرورياً . ثم كم كان عدد اللبنانيين الذين يرغبون في أن تبقى منظمة التحرير؟ ألم تقدم إسرائيل خدمة لهم جميعاً؟ فحتى في بيروت الغربية كانوا يطرحون هذا السؤال . فقد كانت بيروت الغربية في حاجة إلى زعيم جديد قوي يتصف بالجرأة ويخلص لبنان من جميع الغرباء . وكان الجميع يسلم بذلك .

تقرر إجراء انتخابات الرئاسة في ٢٣ آب/ أغسطس . وكان الجميع أيضاً يعرفون أن بشير الجميّل سيصبح رئيساً للبنان . فكما أن السوريين هيأوا الظروف لانتخاب سركيس ، فسيفعل الإسرائيليون ذلك بالنسبة لانتخاب الجميّل . واشتملت اتفاقية جلاء منظمة التحرير على بند يدعو جميع الجيوش الأجنبية إلى مغادرة لبنان . وكان من المنتظر أن تلقى هذه الخطة السياسية قبولاً لدى كل لبناني .

وفي شارع الحمراء ، كان الفلسطينيون يشترون حقائب بنية بلاستيكية كبيرة الحجم تتسع لثيابهم ولأوراقهم ولصور العائلات التي سيتركونها في مخيمات صبرا وشاتيلا وبرج البراجنة .

واعتقد اللبنانيون أنهم فهموا معنى ذلك ـ أي أن رحيل منظمة التحرير سوف ينهي مشكلاتهم . فما أكثر المرات التي قيل لهم فيها أن وصول هؤلاء المقاتلين الفلسطينيين من الأردن عام ١٩٧٠ ـ وليس أولئك اللاجئون الأكثر تمدناً والذين سبقوهم عام ١٩٤٨ ـ قد دمر بلادهم .

وأمرت الحكومة بإعادة تجديد مبنى البرلمان المؤقت في قصر منصور على خط التماس مقابل المتحف . وكان هناك شبه بين البرلمان وديمقراطية لبنان . إذ كانت قد تحطمت أبوابه وتساقطت نوافذه على أرضه وتكسرت المرايا الكبيرة في قاعة الاجتماعات وتناثرت شظاياها على الأرض . وكان الرصاص قد أحدث ثلاثة ثقوب في الجدار خلف رئيس المجلس . ولم يسلم من التخريب سوى لوحة جدار عليها صورة تمثل فتاة مثقلة بالثياب وتقطع نهراً .

إلا أن الديمقراطية ـ أو على الأقل ذلك المظهر الخادع لها ، أحدث تغيرات رائعة في بيروت . فعمد الإسرائيليون قبل وصول الأميركيين والفرنسيين والإيطاليين إلى إخلاء مواقعهم من منطقة المتحف . وكان وصول الشاحنات المحملة بالفاكهة وبالخضروات عبر طريق المطار القديمة يبشر بنهاية الحصار التمويني الإسرائيلي .وأعلنت منظمة التحرير أنها ستطلق سراح أهياز أهرون الطيار الإسرائيلي الذي أسر في أول أيام الغزو الإسرائيلي ورأيناه آخر مرة في قبو المستشفى بصبرا .

وظهر الجيش اللبناني مرة ثانية . فوصل الجنود اللبنانيون إلى المطار . ودخلوا المتحف الوطني ووضعوا أسرتهم داخله . وكانت رؤيتهم في تلك القاعات التي كرسّت وكرّمت أمجاد الفينيقيين الغابرة درساً بحد ذاته في تاريخ لبنان . إذ أخذوا يدورون في أروقة المتحف المهجور كالغرباء . وأخذ هؤلاء ذوو الأجساد النحيلة والشوارب الجميّلة والبذلات المجعدة ينظرون إلى النواويس التي حفظت عند بدء الحرب الأهلية في توابيت من الإسمنت لحمايتها . وكانوا يدوسون بجزمهم قطع الجرار الفينيقية التي لا تقدر بثمن والتي حطمها القصف . وكانت تحت الشعارات التي خربشها الجنود السوريون على الجدران ، بقايا أرض رومانية عظيمة من الفيسفساء ، وفي أعلى الجدار خريطة من الرخام تمثل تمجيداً للشعار الثقافي والتجاري الفينيقي الممتد من مراكش إلى بلاد الفرس .

وبينما كان هذا التراث يقف بشموخ أمام أولئك الجنود الشبان ، أخذوا هم يرمقونه بنظرات تائهة وهم يدخنون سجائر المارلبورو . فقد أصبح المتحف ثكنة أخرى .

كان الفلسطينيون يفكرون كثيراً بمصيرهم . فكثيراً ما سمعناهم يقولون أن رحيل المنظمة عن بيروت يعني نهاية النضال الفلسطيني . وبعثت بتقرير مطول إلى «التايمز» في ٢٠ آب/ أغسطس أتوقع فيه أن تنقسم المنظمة على نفسها بعد الرحيل . وكتبت عن مسلح فلسطيني كنت قابلته خلال غارة

جوية ووصفت كيف دق فنجان القهوة على الطاولة أمامه بغضب شديد . كان يرفض التفكير في الرحيل . وسألني : «أتعرف معنى ذلك؟ إنها نهاية منظمة التحرير ، نهاية الفلسطينيين كشعب . هل تظن أنه إذا طلب منا أبو عمار الرحيل فإن كل شخص سيطيعه ، وأننا سنترك أولئك الناس (الإسرائيليين) ينتصرون؟» وفي أثناء حديثنا بدأت غارة جوية وأخذت تؤكد على كلماته بنيران المدافع الرشاشة والانفجارات . فرفع إبهامه مشيراً إلى الطائرات النفاثة التي لم نستطع رؤيتها وقال : «من الأفضل أن نموت هنا» .

من الواضح أن هذا الشاب كان قد ناقش آراءه مع زملائه وهو في غاية التأثر من الحديث عن الجلاء ومن بعض التلميحات إلى الفساد في زعامة المنظمة ، وسألني إن كنت سمعت أن قائد قوات منظمة التحرير في صيدا ترك موقعه وهرب عندما دخل الإسرائيليون ، وأن مالاً سُرق من حساب حركة الأشبال التابعة لمنظمة التحرير ، وأن ضباطاً من منظمة التحرير نقلوا زوجاتهم وأولادهم إلى دمشق وتعذر عليهم الرجوع منها لقتال الإسرائيليين . لكن مما يدل على قدرة قيادة المنظمة أن هذا الرجل نفسه كان يستعد للرحيل احتراماً لتعليمات أبو عمار .

قبل أسبوع قيل لهذا الرجل وآلاف غيره من مقاتلي منظمة التحرير الفلسطينية في بيروت الغربية أنهم قد أحرزوا نصراً عظيماً ، وأن معاناتهم خلال الشهرين السابقين كانت عملاً بطولياً ليس له مثيل في تاريخ العرب الحديث منذ عام ١٩٤٨ . وقال عرفات أن قواته تصدت للجيش الإسرائيلي بكامل قوته البرية والجوية طوال شهرين ، وأنه ما من دولة عربية استطاعت أن تفعل ذلك من قبل .

وفي ٢٠ آب/ أغسطس كتبت ثلاثة تقارير إلى التايمز لمس أقصرها بالصدفة مأساة الفلسطينيين في المستقبل . وقلت فيه :

«سيصبح مقاتلو منظمة التحرير تحت رحمة الأنظمة العربية التي لا تحب عدم الاستقرار الثوري ، ولهذا السبب تركت منظمة التحرير تواجه مصيرها عندما أحاط الإسرائيليون ببيروت . وسوف تحتفي العواصم العربية لمدة أسبوع أو أكثر بمقاتلي عرفات . . . ولكن ذلك لن يدوم طويلاً . .» .

وقلت أن عرفات يدرك ذلك تماماً ، وأنه لذلك قرر أن يجعل مقره في تونس . إذ كانت تونس القطر الوحيد الذي قد يوفر له بعض الاستقلال في التفكير والعمل . لكن كان يجب عليه أن يدفع الثمن أيضاً . فكما أنه كان سيصعب عليه الانطلاق من تونس إلى القدس ، فسوف يصعب عليه أن يسيطر من هناك على المقاتلين الذين سوف تراقبهم وتستميلهم وتتشدد في معاملتهم الدول العربية المتنافسة على بعد مئات الأميال .

لكن حتى في عام ١٩٨٢ في خضم الهزيمة العسكرية ، كان هناك حديث عن الانتفاضة الفلسطينية في الضفة الغربية . وكنت نسيت هذا تماماً حتى عدت إلى تقريري في ٢٠ آب/ أغسطس الذي قلت فيه بأن التشتت الجديد هذا ، هو السبب في أن :

«منظمة التحرير تعهدت بأن تركز اهتمامها في الضفة الغربية وغزة وتعزيز المقاومة بين الفلسطينيين هناك . فإذا كان الهدف من مهاجمة إسرائيل لمنظمة التحرير التمهيد لضم الضفة الغربية وغزة كما ظنت منظمة التحرير ـ فإن رد الفعل المنطقي بين الفلسطينيين سيكون إشعال نار الثورة في الأراضي المحتلة ، وبالتالي تجريد الضم من كل معنى» .

والواقع أنه كان في إمكان الفلسطينيين التحدث عن انتصارين لهم : الأول أنهم استدرجوا إسرائيل إلى مستنقع لبنان حيث ستجد ـ كالدول التي سبقتها وتدخلت فيه ـ أنه سيستنزف قواها العسكرية والاقتصادية بالحرب الأهلية ومصاعب احتلال بلد أجنبي . كما أنها كانت ستجد أن السيطرة على لبنان ورطة أكبر من السيطرة على الضفة الغربية وغزة . والواقع أنها كانت قد بدأت تكتشف ذلك . والثاني هو أن العالم ـ والولايات المتحدة الأميركية بالتحديد ـ قد شاهد وجهاً جديداً للشرق الأوسط وهو وجه إسرائيل التي تقصف المدنيين في حين أن الفلسطينيين أظهروا أنهم جنود لا «إرهابيون» .

كان من الواضح أن كلمات عرفات في وداعه الرسمي لبيروت موجهة للأجيال القادمة ، وذلك لأنه لم تكن لها صلة بالحاضر . إذ قال إن حصار بيروت كان عملاً بطولياً تاريخياً دموياً وعظيماً . وأن «جحيم مئات الآلاف من القنابل وحَّد اللبنانيين والفلسطينيين» ، وأن بيروت سجلت «أعجوبة بطولية» وستصبح رمزاً في تاريخنا . لو كان هذا الخطاب موجهاً للفلسطينيين لكان بالإمكان فهم فحواه ، بالرغم من أنه لم يذكر الحقيقة . فلم يشر إلى مئات الآلاف من المسلمين اللبنانيين الذين لم يرغبوا في رؤية مدينتهم تتحول إلى ساحة حرب ، ولا إلى «الأخوة» من مقاتلي الميليشيات اللبنانية الذين أخذوا يستعدون للدفاع عن مناطقهم حتى ضد منظمة التحرير .

لكن رسالة عرفات في ٢٩ آب/ أغسطس كانت موجهة بالتحديد إلى «الجماهير اللبنانية» التي يفترض أن تضحياتها في حرب منظمة التحرير ضد الإسرائيليين قد خلقت روابط أخوية جديدة وأزلية . قال : «إن ينبوع الدم اللبناني ـ الفلسطيني الذي تفجر من الركام والغبار والدمار ، ومن المذابح والمآسي ، ومن قوافل الشهداء ، قد أكد عظمة الثبات وعزيمة المواجهة ومعجزة التضحية» . وفي مكان واحد فقط خاطب عرفات «أولئك الاخوة اللبنانيين الذين كانت لنا خلافات معهم في

الماضي» . ولكنه لم يكشف عن هويتهم . ومن البديهي أنه لم يكن يشير بذلك إلى الكتائب الذين لا يقبلون على الإطلاق قوله بأن الفلسطينيين استشهدوا «دفاعاً عن لبنان» .

وسنرى الإسرائيليين فيما بعد يتحدثون عن موتهم في سبيل لبنان كما يموتون في سبيل الجليل . وكذلك سيتحدث الأميركيون والفرنسيون عن تضحياتهم الجسام من أجل شعب لبنان . وكلمة التضحية هي التي استخدمها السوريون عندما أشاروا إلى خسائرهم «في سبيل لبنان الشقيق» . جميع هذه الأمم أقسمت أو ستقسم بأن شبابها قد ماتوا من «أجل لبنان» وليس «في لبنان» . ولكنهم نادراً ما كانوا يتساءلون لماذا؟

وكانت القضايا المطروحة في نظر عرفات بسيطة إن لم تكن مبسّطة . فالفلسطينيون واللبنانيون ماتوا دفاعاً عن أرض «ستبقى عربية إلى الأبد» . كانت طريقه كطريق من يمشي في نومه ، طريق المؤمن بالتضحية بالدم . فالذين صمدوا في المعركة ضد إسرائيل يعرفون كيف يحوّلون «يقظتهم الثورية الجديدة» إلى «شعاع من النور والنصر على درب الآلام الطويل درب الجلجلة ، نحو فلسطين المحررة وإلى قدسنا الشريف»[٢] . لكن عرفات لم يكن عندئذ في طريقه إلى القدس ، بل إلى تونس على ظهر سفينة يونانية .

كانت بلاغة عرفات عنصراً مهماً في الأسطورة التي كان ينبغي خلقها للفلسطينيين وهم مقبلون على تلك الأيام المظلمة من مراجعة النفس والاتهامات المضادة التي تلت خروجهم من بيروت . إذ كانوا سيجدون تحت سماء عدن الحارة وفي مخيمات الصحراء جنوبي تونس الوقت الكافي لمراجعة نتائج أخطائهم في لبنان ، والنظر في تخلي بعض قادتهم وبعض الدول العربية عنهم . ولن تلبث القوة العسكرية أن تتحول إلى إحباط . كما أن قرارات الأمم المتحدة والخطابات التي تلقى فيها تأييداً للحكم الذاتي الفلسطيني لن تعني الكثير لأولئك الذين كُتب عليهم أن يضيعوا حياتهم في المخيمات في تونس واليمن الجنوبية وغيرهما .

وسبق رحيل الفلسطينيين رمز مناسب للموت تمثل في تسعة أكفان وضعت في مؤخرة شاحنة رمادية للصليب الأحمر كانت تسير بسرعة على طول أرصفة ميناء بيروت المهجورة والمخربة . وكانت منظمة التحرير تعيد في تلك الأكفان جثث تسعة من الإسرائيليين الذين قتلوا في هذه الحرب أو في المواجهات السابقة . أما الأكفان فبينها أربعة قديمة كانت ـ كما قال مسؤول في منظمة التحرير ـ

(٢) للاطلاع على خطاب عرفات كاملاً راجع وكالة «وفا» الفلسطينية ، التقرير رقم ٨٢/ ١٧٤ ، مادة رقم ٥ في ٢٩ آب/ أغسطس ١٩٨٢ .

قد وضعت في مبنى قصفه الإسرائيليون في إحدى غاراتهم الجوية في شهر تموز/ يوليو ، وقضى المقاتلون الفلسطينيون ساعات طويلة وهم يبحثون عنها بين الأنقاض . وأما الأربعة الباقية ، فكانت جديدة اشتراها رجال المنظمة من أحد الحانوتية ببيروت الغربية . وكانت مصنوعة من خشب الماهوغاني الأحمر اللامع ولها مقابض نحاسية .

وكانت تصاحب شاحنة الصليب الأحمر التي تحمل الأكفان سيارة بيجو زرقاء داكنة فيها اثنان من الأحياء الإسرائيليين وهما «أهياز أهارون» الطيار الذي أسر في ٦ حزيران/ يونيو ، وجندي إسرائيلي أسر حول غربي بيروت خلال الأسبوع الأخير من القتال . وكانت ترافق هذا الموكب سيارات جيب تابعة «للشرطة العسكرية» في منظمة التحرير الفلسطينية . وكانت على رؤوس رجالها خوذات تحمل أعلاماً فلسطينية . وقد شاهدت أهارون لحظة إطلاق سراحه في منطقة الفاكهاني أبيض الوجه متعباً عصبياً . وابتسم بارتياح ظاهر عندما وقع بصره على كاميرات التلفزيون ، خارج مكاتب المنظمة (في الفاكهاني) وارتسمت على وجه الجندي الآخر أمارات الدهشة وأخذ يحملق باستمرار في بنايتين عند زاوية الشارع قصفتهما الطائرات الإسرائيلة قبل ذلك بأسبوعين .

وبدا أهارون وكأنه عاجز عن الكلام . قال : «لقد عوملت معاملة جيدة خلال الشهرين ونصف الشهر الماضيين» . وعندما سئل عن رأيه في الحرب أجاب بحذر : «الحرب مأساة كبيرة رهيبة دائماً ، وآمل أن تنتهي الحروب كلها . . . كنت أتابع ما يحدث . فقد كان معي جهاز راديو . كنت أستمع إلى إذاعة إسرائيل وإلى محطة الإذاعة البريطانية الخارجية (البي بي سي) وعندئذ تقدم أحد المسؤولين بمنظمة التحرير وهو أبو الزعيم الذي كان على علاقة طيبة مع السوريين ووضع يده على كتف أهارون وقال : «كنا ننقله من مكان إلى آخر حفاظاً على حياته ، وعاملناه كإنسان ، وشعر أثناء وجوده معنا بأن حرّاسه لم يكونوا حراساً بقدر ما كانوا أصدقاء له» .

والواقع أن منظمة التحرير كانت تدرك أهمية استغلال الأسرى في المساومة ، وتعلم أن إسرائيل كانت دائماً تحاول استعادة أسراها وطياريها .وكان الإسرائيليون يستخدمون أسراهم من الفلسطينيين واللبنانيين للغرض ذاته . والآن أعيدت هذه الجثث مع الأسيرين مقابل حرية المرور في بيروت والجلاء عنها .

وكان بيغن قد «سمح» لرجال المنظمة بأن يأخذوا معهم أسلحتهم الفردية . والواقع أنه لم يكن بوسع الإسرائيليين أن يفعلوا الشيء الكثير لمنع المقاتلين الفلسطينيين من حمل بنادقهم على أكتافهم أثناء مغادرتهم . ولما كان الإسرائيليون لا يرغبون في القتال وجهاً لوجه ، فإنه لم يكن أمامهم من خيار سوى ترك الفلسطينيين يغادرون كجنود . ومع ذلك فإن بيغن اعتبر مغادرة المنظمة بشرف كرماً منه .

ورحل عن بيروت الغربية خلال أسبوعين عشرة آلاف مقاتل فلسطيني وجندي سوري بحراسة القوات الأميركية والفرنسية والإيطالية . وبالطبع قُدّمت ضمانات لحماية عشرات الآلاف من الفلسطينيين المدنيين الذين كانوا سيتركونهم في مخيمات صبرا وشاتيلا وبرج البراجنة بكفالة فيليب حبيب شخصيًا . وكان عدم تنفيذ تلك الضمانات يعني أن وعود أميركا وتعهدات أوروبا لا قيمة لها .

ومع هذا فقد كان المقصود من ظهور الوحدة الأولى من القوة المتعددة الجنسيات ـ وهي كتيبة فرنسية قوامها ٣٥٠ جندياً مرّت سفينتهم الحربية على مقربة من هياكل السفن نصف الغارقة في ميناء بيروت ، أن توحي بالثقة إلى اللبنانيين والفلسطينيين . والواقع أن واشنطن وباريس وروما جعلت سمعتها رهناً بهذه العملية . وبينما كانت طلائع الفلسطينيين تتقدم نحو مرفأ بيروت لركوب البحر والرحيل في ٢١ آب/ أغسطس . كانت الدولة الفلسطينية داخل الدولة ـ أو اثنا عشر عاماً من الحكم شبه الذاتي في لبنان والحرية التي تجاوزت أحياناً الحدود ـ تقلب آخر صفحاتها .

وخرج المقاتلون الفلسطينيون الأربعمائة في تظاهرة مهيبة تملك على المرء حواسه . وكانوا يطلقون العيارات النارية والصورايخ المضادة للدبابات ومدافع الهاون أثناء مرورهم في شوارع بيروت باتجاه البحر . وبات واضحاً أن حصار بيروت بلغ نهايته ، وأن إسرائيل ستحاول أن تدعم الحكومة اللبنانية وأن تعيد إليها شكلاً من أشكال السيادة . ولكن نصيب هذا من الديمقراطية لن يكون أكثر من نصيب الياس سركيس عند انتخابه عام ١٩٧٦ . ولن تكون الحكومة الجديدة إلا صنيعة «للسلام الإسرائيلي» رمزها بشير الجميّل .

هل كنا يومئذ ندرك معنى ذلك؟ رجعت فيما بعد إلى مذكراتي وأشرطة الفيديو والأفلام المصورة عن رحيل الفلسطينيين وعن انتخاب بشير الجميّل وإلى رسائلي إلى التايمز ، فوجدت في هذا كله إشارات وتلميحات إلى أن الفصل الأخير من المأساة لم يكن قد كتب بعد .

ففي ٢٢ آب/ أغسطس ، وهو اليوم الثاني لرحيل الفلسطينيين ، تضمنت الجملة الرابعة من التقرير الذي أرسلته إلى لندن ملاحظة تقول «إن عشرات الآلاف من المدنيين اللبنانيين والفلسطينيين في القطاع المسلم من بيروت يخشون الآن أن ينقضّ الكتائبيون اللبنانيون المسيحيون ـ أعداؤهم القدامى في حرب ١٩٧٥/ ١٩٧٦ ـ على بيوتهم التي لا مدافع عنها وأن يحتلوا العاصمة بأكملها في غضون أسابيع» .

ترى لماذا كتبت ذلك؟ رجعت إلى هذه الكلمات التي ثبت بعد أربعة أسابيع فقط أنها تنبأت بشيء يسير من الفظائع التي حدثت . لم أتذكر بوضوح لماذا كتبتها بكل ذلك اليقين . لكن لا ريب في أن أصول هذه الجملة التحذيرية تعود إلى مشاهد الحزن والضياع التي رأيتها بعيني ذلك الصباح .



وداع الدفعة الثانية من المقاتلين الفلسطينيين إلى تونس



الأيدي ترتفع في وداع المقاتلين الفلسطينيين المغادرين إلى صنعاء

وأخيراً حان موعد رحيل الفلسطينيين عن بيروت ، وأخذت النسوة والأطفال يودعون الأزواج والآباء والأحباء .

و بدا وكأنهم يعرفون شيئاً لا أوافق عليه . وكان كل ما أستطيع أن أفعله هو أن أنقل ما عرفوه بغريزتهم ولم أعرفه عندئذ . إذ كنت كمنظمة التحرير أعتقد أن الضمانة الأميركية وعد لا بد من الوفاء به . وكنت عندئذ أستعد للسفر إلى إيرلندا لقضاء العطلة ، فكتبت من غير أن أعرف أهمية ما كتبته .

وربما كان السبب هو انشغالنا التام بما كان يجري أمامنا . فقد كنا نقضي ساعات الظهيرة الحارة من أيام آب/ أغسطس الأخيرة ونحن نراقب الفلسطينيين وهم يودعون القتال وقوافل شاحنات الجيش اللبناني تنقل الآلاف من رجال المنظمة إلى الميناء . وغادر مقاتلو فتح بيروت وهم يرتدون البزات الخاكية والكوفيات الجديدة وقاذفات الصواريخ فوق أكتافهم . وكان بيغن يُشبّه «سماحه» للمنظمة بأخذ أسلحتها الخفيفة معها بالشرف الذي كان يمنح للجيوش المغلوبة في القرون الوسطى . وبذل الفلسطينيون كل ما في وسعهم للرحيل كجنود .

ورفضوا بالطبع أن يتصرفوا كمنهزمين . وبينما كانوا يطوفون في شوارع بيروت الغربية ببطء ، كان رجال الميليشيات اللبنانيون يطلقون في الهواءِ عشرات الآلاف من أمشاط الذخيرة التي راحت تدوي في سماء بيروت كالرعد . إذ كانت بيروت تشهد لحظات أخرى من اللحظات التاريخية . وكان جميع الفلسطينيين واللبنانيين يعرفون أنه من غير المتوقع أن تعود المنظمة إلى بيروت بوضعها الحالي ، وأن مقاتليها سوف يتفرقون ـ كما كانت إسرائيل ترغب دائماً ـ في مختلف الأقطار العربية . وكانت النساء يصرخن ويولولن وهن يطوقن أزواجهن وأشقاءهن الراحلين بأذرعهن . ترى هل كان ذلك إشارة لما يخبئه المستقبل القريب؟ فلماذا صحب العديد من المقاتلين أولادهم معهم على ظهر السفن المغادرة؟

كثيرون هم الذين تحدثوا عن العودة إلى بيروت ، وأكدوا أن ثورتهم لن تموت ، وأنهم صنعوا التاريخ بتصديهم للإسرائيليين . ولكن البسمات كانت تتوارى كلما اقتربت الشاحنات من الميناء . على أنهم كانوا لا يزالون يهتفون : «فلسطين ، فلسطين» ويرسمون بأصابعهم علامات النصر عندما وصلوا إلى آخر نقطة تفتيش فلسطينية ، وهي عبارة عن بناية على الرصيف . وعندما اقتربوا منها أخذ المرابطون بين جدرانها المهدمة يهتفون . أما عند المنعطف الذي كان يؤدي إلى مدخل الميناء المهدم فكان يقف جنود القوة الفرنسية بملابس الميدان والقبعات الخضراء وهم ينظرون بوجوه جامدة وبلا اكتراث برحيل الفلسطينيين .

وواكب الفرنسيون الشاحنات بسرعة عبر الميناء المهجور إلى مخزن كبير ، ومن هناك سار الفلسطينيون إلى السفينة القبرصية التي كانت بانتظارهم . وصعدوا إلى ظهرها بسرعة ، ووقفوا هناك يلقون نظرة وداع على المدينة العظيمة التي قاتلوا فيها .

وكان الجنود الإسرائيليون يراقبون رحيلهم بمناظيرهم من فوق مبنى يبعد نحو نصف ميل عن أحواض السفن . وكان من الواضح أنهم ينظرون إلى إجلائهم لا على أنه إجلاء عسكري ، بل على أنه طرد «للإرهابيين» . وعاد آرييل شارون إلى بيروت ليؤكد مرة أخرى أن المنظمة خسرت المعركة وأن رجالها يرحلون رحيل المنهزم . وعلى الرغم من أنه كان من المفترض أن يكون الميناء تحت السيطرة الكلية للقوة الفرنسية ، فقد بقيت فيه بضع ناقلات إسرائيلية مدرعة .

وكان من المفروض أن يشارك الجيش اللبناني في عملية الأمن الفرنسية ، ولكن الإسرائيليين حالوا دون ذلك . وأشرت في نهاية تقريري المؤرخ في ٢٢ آب/ أغسطس إلى أن الأمور لم تكن كما تبدو . ولما غادرت القوات المتعددة الجنسيات بيروت كتبت أقول : «لم يعد في بيروت الغربية من يستطيع حماية المدنيين سوى الجيش اللبناني . . . لكن لا يبدو أنه الجيش الذي يستطيع سكان القطاع المسلم من المدينة الاعتماد عليه كثيراً» .

ومع ذلك ـ وكما أذكر ـ لم يأبه أحد منا للنتائج المنطقية لشكوكنا : فالمدنيون في بيروت الغربية ، والفلسطينيون منهم بصورة خاصة ، لم يكونوا يوماً في مثل ذلك الضعف ، وقد يدفعون أرواحهم ثمناً لذلك . ومرة أخرى عاد التضارب بين الغريزة السياسية والصحفية . فبالرغم من أن ما كتبته عندئذ كان يشتمل على إشارات لما سيحدث ، فإنني أغفلت تلك الإشارات للمرة الثانية ، وبذلك تغلبت الغريزة السياسية على الصحفية .

وفيما بعد لم يتذكر أي من أصدقائي وزملائي في الوكالة أنه ساوره عندئذ أي قلق بشأن ما سيحدث . وذهب نك تاترو وايرلين في إجازة إلى اسكتلندا . فالحرب قد وضعت أوزارها . وأنا بدوري قررت أن أسافر إلى ايرلندا حينما يصعد آخر فلسطيني إلى ظهر آخر سفينة تغادر بيروت .

لكن جيري لابل الذي كان يعمل بمكتب الأسوشيتد برس بواشنطن ، وأُرسل إلى بيروت قبيل رحيل الفلسطينيين ، قال فيما بعد أنه عندما انتهى أمر الجلاء وغادرت القوة المتعددة الجنسيات قبل الوقت المحدد شعر بأن الأمور لا تسير على ما يرام .

غير أن لابل نفسه لم يسبق له أن سافر إلى الخارج سوى مرتين . وكان في واشنطن يتتبع أخبار

الذرة ونشاط لجان سلامة السلع الاستهلاكية . كان قد بلغ الأربعين من عمره وأخذ الشيب يغزو شاربيه . وكانت عيناه الواسعتان تفيضان براءة وحماسة للاضطلاع بمسؤوليته الجديدة وهي كتابة التقارير عن «نهاية» حرب لبنان .

ولابل نيويوركي الأصل ، أريزوني المنشأ . وأسوأ ما فيه هو أنه كان يستمتع بالسجائر ويكثر منها بالرغم من إصابته بالربو المزمن . وفيما عدا هذا كان شجاعاً طيب القلب يسلّي أصدقاءه و يثير فيهم الضجر في آن معاً لكثرة ما كان يأتي على ذكر هـ . ل . منكن الصحفي والمحرر الأميركي المشهور . فكثيراً ما كان يستهل تعليقاته بعبارة «كما يقول صديقي القديم هـ . ل . منكن» . وكانت أحب عبارات منكن إليه عبارة يقول فيها بأن هناك شيئاً مستحيلاً وهو وجود سياسي شريف .

كنا نذهب في كل يوم لمشاهدة الفلسطينيين وهم يرحلون وكنت أعرف بعضهم . ووجدتهم عندئذ وبعد أن تركوا مناصبهم أناساً مختلفين ، يخشون مخافة الانهيار ، ويساورهم القلق حول المستقبل الذي لا يرغبون في الحديث عنه .

كان بينهم مصطفى أحد أفراد المنظمة الذي اصطحبني منذ ست سنوات إلى مدرسة المقاتلين الأشبال في الدامور . وجدته الآن أكثر نحافة وأقل زهواً . وكان متجهاً مع ولديه إلى الشاحنة التي كانت ستنقلهم إلى مرفأ بيروت . وكان الولدان في السابعة والثامنة من عمرهما ، يرتديان بذلتين خاكيتين وينوءان تحت ثقل أسلحتهما الأتوماتيكية التي وضعهما أبوهما على كتفيهما . وعليه فإن هذا اليوم كان بالنسبة لهما يوماً لا ينسى . وابتسم مصطفى بارتباك وحرج ، وقال إنه حزين ، ولا يعرف ما يخبئه المستقبل . وأضاف بأن المنظمة ستكون بخير وأنه يسره أن لا يطرح عليه المزيد من الأسئلة .

وكان ماهر أقل اهتماماً . ولم يكن ماهراً الذي عرفته في اجتماعنا قبل خمسة أسابيع . عندما رأيته حينذاك كان يجلس على مقعد صغير في منطقة «الأوزاعي» يدخن بمبسم . وأخذ يشرح لي مبادىء الثورة و «المواجهة» و «التصفية» . وها هو الآن يتصبب العرق من تحت خوذته الحديدية التي لم أرها على رأسه من قبل ، وحول عنقه كوفية بيضاء وسوداء . وكان في الظاهر يشعر أنه ممثل في مأساة كان ينبغي أن لايكون له دور فيها . قال : سوف تقوم فلسطين وسيستمر الكفاح . لكن بدا عليه شيء من الشك ، لأنه كان يتكلم بتردد وقد تملكه الإعياء وأذهله ما حل بالمنظمة .

كان ماهر يبدو على وشك البكاء . ولكن كثيرين غيره تجاوزوا ذلك . ولم يقتصر هؤلاء على النساء والفتيات الفلسطينيات اللواتي انهمرت دموعهن وهنّ يودعن أزواجهن ، بل شمل أيضاً اللبنانيين الذين كانوا يشعرون بالتعاطف العميق مع القضية الفلسطينية التي كانت بالنسبة إليهم قضية

العرب جميعاً . ورأيت بالصدفة صديقاً قديماً لي نـادلاً في أحد المطاعم وكان قد تبنى سبعة من الأيتام الفلسطينيين . شاهدته يتجول بلا هدف محدد بين الشاحنات التي كان يصعد إليها المقاتلون . قال إنه بصحة جيدة وأن عائلته نجت من القصف وأنها بخير .

ورفع صديقي هذا رأسه وأخذ ينظر إلى شيء ما ورائي حيث كان يحترق مكب للقمامة . وحينما استدرت ، شاهدت مقاتلاً على بعد أمتار عديدة يقبّل صبياً صغيراً ، بينما أمسكت أمه رأسها بيديها . ورفعت امرأة عجوز يديها إلى وجه الرجل . فكان المشهد كلوحة من لوحات إل جريكو التي تمثل الأيدي والأعين المتوسلة . ولما التفت ورائي ، وجدت صديقي غارقاً في البكاء . ولم يكن يبكي على فرد بعينه .

كان هنالك شيء أكثر عمقا يلفت الأنظار في الملعب الكبير الذي قُصف بالقنابل وتجمع فيه رجال منظمة التحرير . إذ تناثرت عليه شظايا القنابل الإسرائيلية وأكوام الركام الذي كانت تفوح رائحته النتنة في ذلك الجو المحرق . ولعبت الخطابات المشحونة بالعاطفة دورها ، إذ تحدث أصحابها عن فلسطين والقدس ، وعددوا المخيمات الفلسطينية التي تهدمت في لبنان بدءاً بأيام الحرب الأهلية وانتهاء بالغارات التي شنها الإسرائيليون في الأسابيع الأخيرة وضربوا بذلك صبرا وشاتيلا وبرج البراجنة . ولم تتناول الخطابات معاناة الفلسطينيين فحسب ، بل وكذلك العروبة ومقوّماتها . ومن أجل هذا لم يتحدث أحد بمرارة عن البلدان العربية التي تقاعست عن مساعدتهم .

ولعل هذا هو السبب في أن الفلسطينيين لم يغادروا بيروت كجنود كما يرغبون . فعلى الرغم من ملابسهم الجديدة وخوذهم الفولاذية وأحزمة بنادقهم الحديثة ، فإنهم غادروا بيروت بكبرياء كمقاتلين ، وودعوها وسط سيل من رصاص بنادقهم . ومروا في شوارع الفاكهاني وكورنيش المزرعة والقنطاري وكأنهم في حلم . وكان آلاف المسلحين من الفتيان والجنود ورجال الميليشيات و«الإرهابيين» بغضّ النظر عن الاسم الذي يطلقه عليهم الصديق أو العدو ـ يطلقون النار في السماء ، وكأنهم يتحدون آخر غارة جوية .

كان المقصود أن يكون رحيلاً ملحمياً . ولكن ولسبب ما لم يكن كذلك تماماً . وذلك بسبب ما في الطريق إلى الميناء من دمار وصوت الرصاص الذي يصم الآذان ، وأكوام القمامة المحترقة . وأطلق أحد المسلحين سيلاً من الرصاص اخترق إحدى الشاحنات وأصاب فلسطينياً من ركابها في رأسه ومزق دماغه الذي تناثرت قطعه في الشارع . وقرب القنطاري توقفت سيارة ليموزين سوداء إلى جانب سيارتي ونزل منها وليد جنبلاط . وقبل أن أستطيع التحدث معه رفع بندقيته الأتوماتيكية ، وأخذ يطلق

الرصاص وهو ينظر إلى السماء والابتسامة لا تفارق فمه . وكان جورج حبش واقفاً على زاوية الشارع وهو يبتسم أيضاً . وفي تلك الأثناء كان المسلحون ينثرون الأرز على الطريقة التقليدية تحية ووداعاً .

ومن المحزن والمزعج في آن واحد هو أن دوي الرصاص كان ولا يزال الصوت الفلسطيني الذي يعرفه الناس أكثر من غيره . إذ كان الأطفال يحملون مسدسات كبيرة ويطلقونها على الجدران ، ورجال الميليشيا يطلقون قذائفهم المضادة للطائرات على أهداف قريبة فتزلزل الأرض وتكثف الهواء . وكان المقاتلون الشبان يلتقطون الصور . ترى كم كان سيبقى ويموت منهم لو كان الخيار لهم؟ وكم منهم كان بالفعل يدرك ما يجري؟ وكم عدد أولئك الذين يحاسبون أنفسهم على بعض أعمالهم في لبنان خلال السنوات السبع الأخيرة منذ الحرب الأهلية التي جعلتهم على ذلك الجانب الكبير من القوة؟

وعند مدخل الميناء كان المقاتلون اللبنانيون يتراكضون وهم بملابس القتال الزهرية والزرقاء والصفراء وثياب التمويه على أكوام النفايات الممتدة على طول الشاطىء ويطلقون قاذفات الصواريخ ويفجرون القنابل اليدوية ويزرعون الجدران بالرصاص . ولم تتمالك فتاة جميلة صغيرة ذات قوام ناعم دقيق نفسها من الضحك عندما رأت رجلاً ينهار وبيده بندقيته . ترى هل مات من مات من الرجال والنساء والأطفال بذلك الشكل الفظيع من أجل هذه الساعة؟

على أن المارونيين الذين كانوا على الجانب الآخر من الميناء رأوا منطقاً في هذه الأحداث .ففي ٢٣ آب/ أغسطس احتفلوا بثمرة تحالفهم مع إسرائيل وهي انتخاب بشير الجميّل رئيساً للجمهورية اللبنانية . ولم يكن في ذلك ما يثير الدهشة لأنه كان رجل إسرائيل . وجرت الانتخابات في المدرسة الحربية اللبنانية في الفياضية على التلال المشرفة على بيروت الشرقية ورضي معظم أعضاء المجلس بأن يقوموا بالأدوار التي رسمت لهم . وحضروا بسيارات الكاديلاك السوداء وهم يرتدون بذلات بيضاء لامعة ويحيط بهم الحراس وهم يحملون بنادقهم الأتوماتيكية ومسدساتهم وقنابلهم اليدوية وصواريخهم .

وقام كميل شمعون بمحاولة ضعيفة لمعارضة المرشح الكتائبي فذكّر بعض النواب بأن بشير الجميّل قد لا يكون الرجل المناسب الذي يرغبون في التعاون معه . غير أنه جلس أثناء انعقاد المجلس إلى جانب الأب الفخور بيار الجميّل مؤسس حزب الكتائب الذي بات بإمكانه أخيراً أن ينعم بتحقيق حلم حياته . ففي أوقات كهذه يفهم الزعيم معنى الوحدة الوطنية .

كانت القضية في جوهرها لبنانية . فأكثر النواب الذين حضروا كانوا من الموارنة والمسلمين .

وعندما اكتشفوا أنهم لم يستطيعوا تأمين النصاب (٦٢ عضواً) سارعوا إلى الاتصال بالتلفون بعدد من النواب الثلاثين الذين لم يحضروا لسبب ما . وعند الغداء وبعد انعقاد الجلسة بمدة طويلة حضر أربعة نواب متقدمون في السن إلى الثكنة ودخلوا مكان الاجتماع بمساعدة مسلحين ضخام الأجسام مدججين بالسلاح . وصرخ رجال الأمن في وجه الصحفيين ومنعوهم من التقاط صور لهؤلاء النواب الذين جُلبوا بسرعة وبصورة لا تليق بهم وذلك لكي لا يساء فهمها خارج لبنان(٣) .

وبعد تذكير النواب بواجباتهم الديمقراطية ، أمّنوا النصاب المطلوب لجلسة الاقتراع الثانية وانتخبوا بشير الجميّل الذي كان يقاتل مع الكتائب ويسيطر على أضخم جيش خاص بلبنان . وفي اليوم الذي انتخب فيه كان ينظر إلى بيروت بلهفة وانفعال . وقال لي ذات يوم بأنه لا بد من اتخاذ القرار ، وأنه «عاجلاً أو آجلاً لا بد من خوض حرب التحرير» لكن لم تكن هناك عندئذ حاجة للحرب . فالإسرائيليون كسبوا الحرب من أجل الكتائب ، ولن يكون هناك تقسيم . وسيجلس بشير الجميّل في قصر بعبدا حول «طاولة الورق» التي أشار إليها بسخرية خلال الغداء في عين سعادة قبل ذلك بسنتين .

كان اللبنانيون يعرفون أن القوة تجلب الاحترام . وحتى صائب سلام ـ كما قيل لنا ـ كان يفكر في قبول رئاسة الوزارة إذا أسندت إليه . وفي ذلك اليوم عينه ظهرت في شوارع بيروت الغربية صورة لبشير الجميّل الزعيم وهو يطل مبتسماً بعطف على شارع الحمراء . وعلق بعض التجار صورته على واجهات مخازنهم .

لم يكد كامل الأسعد رئيس المجلس يعلن فوز بشير الجميّل حتى سُمع دوي الأسلحة الرشاشة من نوافذ القاعة . وفي الخارج ، كان عدد من الكتائبيين بقمصانهم البيضاء يطلقون النار من مدفع رشاش فوق سيارة جيب . وطغى أزيز رصاصهم على كلام النواب . وما هي إلا دقائق معدودة حتى كانت سبع دبابات ميركافا إسرائيلية تنطلق من بيروت الشرقية إلى بعبدا وعلى كل واحدة منها صورة جديدة للرئيس المنتخب . وكان يبدو في الصورة شاباً جذاباً ممتلىء الجسم يلبس بذلة وربطة عنق

(٣) لم يكن بمقدور البرلمان بالرغم من الدهاء وغير الدهاء أن يخفي الحقيقة وهي أن كثرة من النواب السنة قاطعوا الجلسة وقدّم ثلاثة من الذين حضروا أوراق بيضاء خلال دورة الاقتراع الأولى ، بينما كتب رابع اسم «ريمون إده» وهو ماروني لبرالي يعيش في منفاه الطوعي بباريس . ولم يكن ريمون مرشحاً . وفي أعقاب انتخاب الجميل قام المسلحون اللبنانيون في بيروت الغربية باحراق بيوت أحد عشر نائباً من النواب الذين انتخبوه . وقتلوا صبياً في الخامسة عشرة من عمره لأنهم ظنوه إبن أحد النواب .

تدلان على الوقار . وكانت الصورة تحية من الجيش الإسرائيلي لبشير الجميّل المقاتل الذي صار دبلوماسياً ورجل دولة .

على أن علاقات بشير الجميّل بالإسرائيليين كانت في أفضل الأحوال تتسم بالحذر ، وفي أسوأ الأحوال تتسم بالشك العميق . وسبق له أن قال في كثير من المناسبات أنه لا بد من تحرير كل كيلو متر مربع من لبنان من السيطرة الأجنبية التي أوضح بعد انتخابه رئيساً بأن ذلك يشمل السيطرة الإسرائيلية . وفي زيارة سرية قام بها لإسرائيل طلب منه بيغن وشارون عقد معاهدة سلام بين لبنان وإسرائيل قبل نهاية العام . إذن ، فهذا هو سبب غزو لبنان .

اعتقد الجميّل أن الرجلين استأسدا عليه . فما دامت إسرائيل ـ كما ظن بيغن ـ قد وضعت السلطة بيد الكتائب ، فإنه قد حان وقت تسديد الدين . ونسي أن اللبنانيين هم الذين كانوا دائماً يقررون الثمن الذي ينبغي دفعه . وفيما بعد قال لي أحد مساعدي الجميّل أنه عندما عاد هذا من إسرائيل وصف بيغن بأنه محتال وأضاف : «خاطبني بيغن كأنني تابع له ، وأسماني بالولد ، متناسياً أنني رئيس لبنان»(٤) .

لم يكن بشير يقبل بأن يدفع به الإسرائيليون إلى خوض حرب مع سوريا . فبعد انتخابه بيومين أعلن راديو دمشق أن السوريين لن ينسحبوا من لبنان إلا بعد رحيل آخر جندي إسرائيلي منه . ونقل عن مسؤول عسكري سوري في دمشق قوله أنه إذا عقد الشيخ بشير الجميّل ـ وهو لقب لائق لم يكن السوريون يستخدمونه عادة عند الحديث عنه ـ اتفاقية سلام مع الإسرائيليين ، فإن سوريا ستعتبر نفسها في حالة حرب معه .

وأقل ما يمكن قوله عن الأميركيين أنهم باركوا ما فعله بشير الجميّل . فما دام أنه كان مرشح إسرائيل ، فمن البديهي أن يكون مرشح أميركا أيضاً . وكثيراً ما تحدث الجميّل عن «تدويل» بيروت وعن ضمان مساعدة الدول الكبرى الغربية لاستعادة السيادة اللبنانية . وبدا الآن أن لبنان سيحصل على الدعم . ففي ٢٥ آب/ أغسطس نزل مشاة البحرية الأميركية المارينز إلى لبنان للمرة الأولى منذ عام ١٩٥٨ . وخلال سبع ساعات كانوا يواكبون مقاتلي منظمة التحرير إلى السفن التي كانت ستنقلهم إلى ميناء طرطوس السوري . ورست سبع سفن حربية من الأسطول السادس أمام مرفأ بيروت بينما كانت القوات الفرنسية تنتشر على طول الخرائب التي تشكل خط التماس حتى المتحف ، بينما أخذ

---

(٤) هناك بداية مشابهة للحديث الذي دار بين الجميل وبيغن في كتاب شيف ويعاري : حرب إسرائيل في لبنان ص ٢٣ ـ . وتقول الرواية أن الجميل قال : «إن بيغن عاملني وكأني طفل» .

الجنود الإيطاليون الذين وصلوا قبيل ذلك يتخذون مراكز لهم في محيط بيروت الغربية عند غاليري سمعان . وفي هذا المكان ـ كانت قوات «فك الارتباط التابعة لعرفات» .

وبعد الخامسة صباحاً بقليل ، بدأ الجنود الأميركيون الثمانمائة التابعون للوحدة الثانية والثلاثين من قوات المارينز البرمائية ينزلون إلى الشاطىء في المرفأ . ووقف الكولونيل جيمس ميد ـ الذي سبق له أن كان طياراً حربياً في فيتنام ـ على رأس جنود تحت علم أحمر ذهبي على بعد ٣٠٠ ياردة من خطوط الفلسطينيين الأمامية يحيط به المصورون والمراسلون .

وبعد ذلك بدقائق تقدم الكابتن روبرت جونستون ـ وهو ضابط اسكتلندي الأصل في البحرية الأميركية ـ عبر الخطوط نحو الجهة الغربية وصافح المقدم زعرب قائد جيش التحرير الفلسطيني . ووقف الرجلان أحدهما بجانب الآخر وأخذا يجيبان على أسئلة الصحفيين . وأكد جونستون أنه أتى لبنان في إطار قوة دولية ، وأصر ببراءة ظاهرة على أن اجتماعه بالضابط الفلسطيني شيء جيد إذا ساعد على إيجاد تسوية للبنان . أما زعرب فقال وهو يرتدي ثياب القتال ويعتمر قبعة حمراء وعلى أكمامه شارات منظمة التحرير «إن أميركا تقوم بما تريد أن تفعله إسرائيل في بيروت برغم كونها من قوات الفصل» . وأضاف أنه لم يتصور قط أن يأتي اليوم الذي يصافح فيه ضابطاً من المارينز . وكان هذا أقرب نقطة يمكن للولايات المتحدة أن تبلغها سنة ١٩٨٢ في اعترافها بمنظمة التحرير .

وأصبح جونستون رجلاً مشهوراً ، وأما زعرب فقد طواه النسيان . على أنني عدت في اليوم التالي لرؤية زعرب وسط الركام على الخط الفاصل القديم . ورافقني لابل الذي لم يكن قد سبق له أن شاهد هذا المكان المعتم المظلم الذي كان يعبّر إلى حد كبير عن لبنان وويلاته . وكان المارينز سيزيلون هذا الخط خلال بضع ساعات ، ولكن زعرب بقي مع مقاتليه في مراكزهم إلى أن وصل الأميركيون . وقد سخر منا لأنه لم يفهم لماذا كنا نرغب في التحدث معه وليس مع الأميركيين .

وسألني : «لماذا لا تحمل بندقية؟» فأخرجت له قلمي وقلت إنه بندقيتي وسلاحي . فابتسم وأخرج من حزامه مسدساً أسود صغيراً وصوبه إلى رأسي وسأل : «أيهما أقوى؟» فأجبت مازحاً : «المسدس» ثم اتجه إلى الطرف الآخر من الشارع وطلب منا أن نتبعه .

كنت أعرف المكان معرفة جيدة . فهناك بناية فتال وشارع طرابلس حيث عاملني الفتى المسلح بازدراء وهو يجلس على كرسي ملتو من كراسي المكاتب عام ١٩٧٦ . واجتزت المدخل الخلفي النتن الرائحة لمكتب فرز الرسائل البريدية الذي دخلته قبل زمن طويل . وسار بنا زعرب إلى مبنى خرب كتب على واجهته التي مزقها الرصاص «سينما أوبرا» وقال : «اتبعوني» . ويبدو أن قدرنا في لبنان أن نسير دائماً وراء مسلح يطلب منا أن نتبعه ، فيعبر بنا في كهف بعد آخر من الركام والأنقاض .

ولاحت لنا وسط الظلمة وجوه فلسطينيين آخرين يجلسون على حُصر ومفارش . على أن زعرب اتجه بنا مباشرة إلى فتحات خشبية تتخلل متراساً من صفائح الزيت الصدئة وأكياس الرمل في أقصى المبنى . كنا عندئذ خلف ما كان يوماً شاشة للسينما . وكانت أشعة الشمس تنفذ من خلال الفتحات الخشبية الضيقة . ومن خلالها أيضاً شاهدنا الشجيرات والأعشاب التي تحف بما كان يسمى ساحة الشهداء .

في ذلك الجو المعتم استدار زعرب وقال لنا : «لم يُسمح لأحد من قبل أن يدخل إلى هذا المكان . كنا نحارب هنا ، ولكن الحرب انتهت . هل تساعداني على إزالة هذا كله؟» فوقف ثلاثتنا ـ أنا وهو ولابل وأكتافنا متلاصقة ودفعنا بكل قوانا صفائح الزيت المملوءة بالإسمنت وأكياس الرمل وأقدامنا تحتك بشظايا الحطام المتناثر على الأرض . وبدا المتراس وكأنه يرفض التفريط بتلك الكتل المتراصة التي التحمت عبر السنين . لكنه لم يلبث أن اهتز قبل أن يرتد قليلاً نحونا بالرغم من دفعنا له .

واستجمعنا قوانا مرة أخرى ودفعناه ، فلم تمر بضع ثوان حتى دوى صوته وهو يتهاوى . وبذلك سقط وكر الرشاشات الذي أقامه الفسطينيون قبل ذلك بأربع سنوات على ساحة الشهداء . فأخذنا نسعل وسط سحب الغبار ونور الشمس الذي غمر المكان . وبدت أمامنا الساحة نصف الدائرية التي لم يجروء أحد على السير فيها منذ عام ١٩٧٨ . ولاح وراءها ومن خلال الأغبرة علم الكتائب المثلث وعليه شجرة الأرز .

وأخذ أحدنا ينظر إلي الآخر . ولم نكن نعرف ما سيحدث . لكن لم يطلق أحد النار من الجانب الآخر لساحة الشهداء . لقد انتهت الحرب فعلاً .

وتسلق فلسطيني على الجانب الآخر من الشارع الذي كان غارقاً في مياه المجارير متراساً آخر وغرس سارية العلم اللبناني فوق أكياس الرمل وفي أعلى نقطة إشارة إلى أن منظمة التحرير أخذت تعيد إلى لبنان سيادته . ويبدوا أن زعرب أراد أن تكون هذه مناسبة خاصة يشهدها الفلسطينيون وحدهم . وأخذ ينظر إلينا ليرى ما إذا كنا قد فهمنا مغزى الاحتفال .

في عام ١٩٧٦ كنت هنا وفي هذا المكان بالذات أرقب الفلسطينيين وهم يخرجون من بين الأنقاض على طول الطريق ويعانقون الجنود السوريين الذين كانوا قد وصلوا إلى بيروت وهم يبكون . لقد كانوا يستقبلون «حماة السلام» الذين جاؤوا لاحتلال المدينة . وفي تلك الأثناء اقتربت من خط التماس على الجهة الكتائبية . وها أنا أرقب إزالة هذا الخط وأشارك في تدميره ولكن من الجانب

الفلسطيني .ترى هل كنت عندئذ اعتقد بأن هذا كان نهاية الحرب؟ الواقع أن هذا هو ما كتبته تلك الليلة في رسالتي للتايمز . قلت : «الحقيقة هي أن الحرب انتهت» .

كان من المتوقع وصول مشاة البحرية الأميركية بعد بضع ساعات ورحيل زعرب بطريق البر إلى دمشق . ورفع يده وقال : «إسأل عني عندما تأتي إلى سوريا ، فأنا لن أعود إلى هنا» . وكتب لي رقم هاتف في سوريا قبل أن يذهب ليتفقد رجاله الذين كانوا يملأون حقائبهم الصغيرة في الشارع . وكان قد تم رحيل أربعة آلاف مقاتل فلسطيني .

وأبحرت سفينة الصليب الأحمر فلورا إلى اليونان وعليها مئات الجرحى من الفلسطينيين الذين كان أكثرهم بلا أرجل وبلا أذرع . وأقلتهم إلى السفينة قوافل من سيارات الإسعاف التي كانت تطلق صفاراتها . وبالرغم من نداءات الصليب الأحمر بالتزام الهدوء ، فقد أخذ رجال المنظمة الذين كانوا لا يزالون في بيروت يطلقون النار تحية لهم . وبلغ عدد الذي قتلوا بالرصاص الطائش خلال ا لأيام الخمسة التي شهدت وداع المنظمة تسعة ، وعدد الجرحى ٢٧ .

وبينما كان أفراد الفوج الأخير من الفلسطينيين الراحلين يعبر الكورنيش على البحر ، أخذ زملاؤهم في بيروت يطلقون مدافع الهاون على البحر الأبيض المتوسط . وتوقفت قافلة من الجنود الفرنسيين كانت سائرة في الاتجاه المعاكس لترقب رحيل الفلسطينيين .وكان رجال المنظمة قد زينوا شاحناتهم بصور عرفات ولينين وماركس والقادة الاشتراكيين اللبنانيين الأقل شهرة منهم . ورفع ضابط فرنسي اصبعين علامة النصر في وجه شاحنة تقلّ مقاتلين من الجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين . وعندما رد المقاتلون عليه بإهدائه كوفية ، قذف لهم علبة سجائره .

كان الإيطاليون هم الذين تلقوا في ذلك اليوم إشارة أخرى من تلك الإشارات التي لو تأملنا فيها لازددنا تحفظاً في اعتقادنا بأن الحرب انتهت . فقد نزلت الكتيبة الإيطالية في الميناء وعبر جنودها وسط بيروت الغربية إلى غاليري سمعان ، وأقاموا نقطة تفتيش في كنيسة مار مخايل التي كانت بلا سقف . وكانت الكنيسة في بولفار العريس ، وهو الشارع ذاته الذي شاهدنا منه أنا وكودي عام ١٩٧٦ السوريين يعودون ثانية[٥] .

(٥) أثبت الإيطاليون لاحقاً أنهم أكثر القوات المتعددة الجنسية شعوراً بالمسؤولية بالرغم من أنهم وصلوا في ظروف تدعو إلى التشاؤم . فعندما رست أول ناقلاتهم البحرية على رصيف الميناء تبين أن أبواب الناقلة موصدة وسمع المراسلون المتجمعون على الرصيف القناصين الإيطاليين يدقون بقوة على أبوابها للخروج . وعندما خرجوا أخيراً إلى أشعة الشمس المتوسطية فاجأوا الجميع بخوذاتهم البيضاء المزينة بريش أسود كبير

لم يكد الإيطاليون ينتشرون في غاليري سمعان حتى رفض القائد المحلي لمنظمة التحرير وزملاؤه من مسلحي أمل الانسحاب من الشارع . فدخلوا في جدل مع المسلحين استغرق خمس ساعات سُمح لهم بعدها بالتقدم ولكن إلى بناية واحدة على زاوية الشارع . ورفض ذلك الكابتن كورادو كانتاتور الملحق العسكري الإيطالي الذي كان أيضاً ضابطاً في الأمم المتحدة . وقال للضابط الفلسطيني الملتحي : «اسمح لي أن أخبرك بأن الشروط واضحة تماماً ، وتفرض عليكم أن تكونوا على بعد مئتي متر عنا على الأقل . وما عليك إلا أن تسأل أبا الوليد (رئيس أركان المنظمة) الذي سيخبرك» .

لكن هذا لم يقنع الفلسطيني الذي اقترب من الإيطالي وصرخ قائلاً : «ستحدث اضطرابات . لقد أصبح بشير الجميّل رئيساً للجمهورية ، وحالما يغادر الإيطاليون ، ستغزو قواته هذا المكان ، فلماذا تتراجع الميليشيات اللبنانية الآن وتخلي له الساحة؟»

ومرة أخرى دوّنت كلمات هذا الرجل في دفتر ملاحظاتي ونقلت ما قاله تماماً في رسالتي التي نشرت في مكان بارز من التايمز في اليوم التالي . وأرفقت بالرسالة تفصيلات عن مشاريعي للعطلة ، فتلقيت جواباً من رئيس التحرير جون غرانت يشكرني فيه على عملي «بعد أن أصبحت الحرب في حكم المنتهية» .

وجاءت اشارة تحذير أخرى . فبينما كنت في ٢٧ آب/ أغسطس أقف عند مستديرة الحازمية منتظراً انسحاب طابور من الجيش السوري عبر غاليري سمعان ، اقتربت مني امرأة إنكليزية تنتمي إلى منظمة صهيونية بريطانية ومعها آلة تسجيل ، وسألتني : «لماذا لفقت الصحافة الغربية التقارير والأخبار عن عدد الإصابات خلال الحصار الإسرائيلي لبيروت؟» فشرحت لها ببطء وبالتفصيل كيف أن الأرقام صحيحة ، ولكن دون جدوى . قالت : «ولماذا نجد الصحافة معادية للسامية إلى هذا الحد؟» فأخبرتها بأدب أن هذا غير صحيح وأننا لا نستطيع تزوير إحصائيات الإصابات بتقليل عددها الحقيقي لمجرد أن الإسرائيليين وأنصارهم قد يطعنون فينا ويتهموننا بمعاداة اللاسامية إذا لم نزوّرها .

وأخذت المرأة تتكلم بدون أن تطرح أسئلة ؛ فتحدثت عن مخاوفها بالنسبة إلى انضباط الجيش

= ومدرعاتهم ذات الطلاء الأبيض . وإذا عدنا بنظرنا إلى ذلك أدركنا أن الإيطاليين كانوا بالفعل قوة محافظة على السلام ، كما كان اللون الأبيض يعكس بكل صدق نواياهم ، في الوقت الذي فضل فيه الأميركيون والفرنسيون إنزال شاحنات عليها طلاء للتمويه ومملوءة بصناديق الذخيرة . وحمل الإيطاليون معهم شاحنتين من الأغذية وذلك للاعتماد على أنفسهم كما قال قائدهم اللفتنات كولونيل برونو توسيتو .

الإسرائيلي ، وكيف أن الحرب أفسدت بعض الجنود الإسرائيليين ، وكيف أن ابن عمتها وهو جندي إسرائيلي قد هاله رؤية رفاقه يسرقون البيوت . ثم تحدثت عن الكتائب فقالت إنهم قد يدخلون بيروت بعد رحيل منظمة التحرير ، وأضافت : «أعرف أنهم حلفاء إسرائيل ولكنني لا أثق بهم» . فقلت لها بأن القتال سينشب إذا سُمح للكتائب بدخول المخيمات . ووافقت على ذلك .

ولكن كيف كان رد فعل اللبنانيين على ملحمة الهزيمة هذه؟ قبل السادسة صباحاً بوقت طويل تجمع الدروز تحت أشجار الصنوبر ببحمدون في انتظار الموكب . وكان هناك أكثر من أربعمائة قروي من الجنسين من مختلف الأعمار ، بينما جلست العجائز على بسط فوق الأرض بألبستهن السوداء يحكن بالأبرة الصوف الأبيض . وكانت مع بعض العائلات مواقد عليها أباريق القهوة العربية بينما كان الأطفال يلعبون . وكان الجميع يرقب بزوغ الفجر فوق الجبال وكأن اليوم يوم عطلة . وأدارت كل عائلة راديو ترانزستور ، وأخذت تستمع إلى كلمة وتعليق عن سير القافلة السورية والفلسطينية من بيروت نحوهم .

وعندما وضحت الرؤية ، ظهر على بعد ثلاثة أميال من أعلى الجبل خط طويل لا نهاية له من الشاحنات التي كانت تسير ببطء وراء سيارتي جيب لونهما أبيض . وساد بحمدون جو غريب من الترقب . وكان الدروز يخشون الكتائبيين الذين حلوا في منطقتهم الجبلية محل السوريين . أما الإسرائيليون ، فراحوا يراقبون المسيرة بمناظيرهم من وراء الأشجار .

وخيّم جو من الصمت على العائلات عندما رأت الشاحنة الأولى الملأى بالجنود السوريين الذين كانوا يرتدون ألبسة الميدان ، وعلى رؤوسهم الخوذ الفولاذية وبنادقهم مرفوعة فوق رؤوسهم . ولكن لم يلبثوا أن أخذوا يصيحون : «فلسطين ، الأسد» . وردد الجنود هتافهم بصوت واحد .

وظهرت صور الرئيس «حافظ الأسد» على الشاحنات الأولى ، وصور ياسر عرفات على التي تلتها . وكان الفلسطينيون يرتدون الزي الأخضر لجيش التحرير الفلسطيني ، أي الجيش النظامي لمنظمة التحرير . وكانت وجوههم تنطق بالانفعال وهم يرددون اسم عرفات ويصيحون «النصر لفلسطين» كأنما كانوا متوجهين إلى وطنهم . وعندما أصبحت الشاحنات على طول جانب الغابة ، نثر الناس الأرز على الجنود والمقاتلين .

وبلغ عدد الشاحنات التي صعدت الجبل تحمل المقاتلين والذخائر وقاذفات الصواريخ والدراجات والفرش وغيرها ألفا وخمسمائة شاحنة . وتعطلت بعض الشاحنات القديمة التي كان بعضها يحمل رقم الكتيبة ٨٥ بالجيش السوري مما استدعى جرّها . وعمد الإسرائيليون إلى تجاهلها

بالرغم من أن دورياتهم كانت تنتقل بالسيارات بين الشاحنات . وكانوا لا يرفعون رؤوسهم لكيلا يروا الأعلام الفلسطينية المرفوعة بألوانها الحمراء والسوداء والبيضاء والخضراء . وحينما اجتاز المقاتلون وسط بلدة بحمدون ، وقع نظر بعضهم على علم نجمة داود الزرقاء والبيضاء معلقاً فوق الطريق ، فاستداروا وبصقوا على الأرض أمامها . ولم يكن هذا مجرد جيش يغادر بيروت الغربية ، بل كان جماعة من المقاتلين حملوا معهم حقداً على أعدائهم بالإضافة إلى ذكرى معاناتهم أثناء حصار بيروت طوال عشرة أسابيع .

وعندما أكملت الشاحنات صعودها في الجبل وخفت أصوات الهتاف للفلسطينيين ، أخذ ضابط إسرائيلي يرتدي ملابس مدنية وعلى رأسه قبعة بيضاء واسعة يرقب القافلة وهي تمر بامتعاض . قال : «إنني مسرور لرحيلهم» .وسألته عن رأيه في أنهم يرحلون كالواثقين من النصر ، أجاب : «وما الذي نستطيع أن نفعله؟» وعندئذ أخذ الجنود السوريون الذي كانوا على الطرف الآخر من الخط الفاصل قبالة الإسرائيليين يطلقون النار ترحيباً بأصدقائهم الجنود القادمين من بيروت . فقال الضابط الإسرائيلي : «لقد أخذوا يسرحون في عالم الأوهام» .

ولم تكن أحلام اليقظة كثيرة بعد الخط الفاصل في الجبل . وكان السوريون يقفون على طول الطريق فوق الوهاد وسط المديرج ونزولاً حتى شتورة وهم يطلقون بنادقهم في الهواء . ولكنني عندما لحقت القافلة بسيارتي وصرت بمحاذاتها لاحظت أن جواً من الواقعية خيّم على الفلسطينين الذين علت هتافاتهم وهم يعبرون لبنان المحتل ، فلاذوا بالصمت وهم يقطعون الطريق الملتوية نحو البقاع . وبدت عليهم علائم الإعياء . ولعلهم أخذوا يفكرون في الصفحة الجديدة من حياتهم ونضالهم خارج لبنان .

وكان الآلاف من المقاتلين الفلسطينيين قد هرعوا من كل أنحاء البقاع إلى شتورة ، واستقبلوا المقاتلين بنيران بنادقهم ومدافعم المضادة للطائرات وهتافاتهم التي ردد أصداءها البقاع كله . وكان بين السوريين القادمين من بيروت العميد محمد زهران ، نائب قائد القوات السورية بالعاصمة اللبنانية . وبينما كان يبتسم لجنوده وهو في سيارة رانج روفر تحول بنظره إلى سيارة سورية قفز منها ابن صغير له لا يتجاوز الخامسة من عمره يلبس قميصاً بنياً ، وجلس إلى جانبه .

واحتضن العميد زهران ابنه وحوله رجاله ، وانهمرت الدموع من عينيه على وجهه ، وتساقطت على وجه ابنه وعلى قميصه . ولم يلبث أن توجه بمن عاد من لوائه الخامس والثمانين إلى دمشق حيث استقبلتهم الدولة استقبال الأبطال ، ثم سرّحتهم .

وظهرت اشارة تحذير أخرى . ففي ٢٩ آب/ أغسطس غادرت براً جماعة أخرى من المقاتلين الفلسطينيين . وفي هذه المرة اقترب الإسرائيليون كثيراً منهم . فما كان من بعض هؤلاء إلا أن أخذوا يشيرون باحتقار إلى الأعلام الإسرائيلية فوق غاليري سمعان ، بينما مال آخرون على حواجز شاحناتهم وهم يبتسمون للإسرائيليين ، فردّ عدد من الجنود الإسرائيليين بابتهاج ملوّحين لأعدائهم الفلسطينيين . على أن الإسرائيليين تقدموا بعد ظهر ذلك اليوم بطلب آخر قالوا إنه صدر عن الجنرال رفائيل إيتان رئيس الأركان الإسرائيلي ويقضي بإجلاء ميليشيا «المرابطون» من بيروت . لماذا؟

فالمرابطون لم يكونوا من المقاتلين الفلسطينيين بل من اللبنانيين . ولم يرد ذكر لانسحابهم في خطة فيليب حبيب لإجلاء المقاتلين . فكيف كان يعقل أن يتم إجلاء لبنانيين عن لبنان ، حتى وان لم يتورع الإسرائيليون عن طرد الفلسطينيين من الضفة الغربية؟ لماذا أراد إيتان إخراج الميليشيا السنية من بيروت الغربية علماً بأنه لم تكن هناك نية لإخراج الكتائب من بيروت الشرقية؟ لقد أوضح إيتان بعد ذلك أنه أسيء نقل ما قاله وأن ما يريده هو إبعاد ميليشيا «المرابطون» عن الخطوط الأمامية المحيطة ببيروت . لماذا؟

وفي ٣٠ آب/ أغسطس غادر عرفات بالأسلوب الذي اعتاد عليه : عواطف جياشة ، وعزة نفس وشعور بالكرامة ، وأصوات إطلاق النيران . ونُقل إلى الميناء في موجة من الهستيريا عبر الشوارع وقد أحاط به المقاتلون والمصورون والجنود الفرنسيون والدبلوماسيون والمارينز الأميركيون . ولم يسبق لهذا الوداع مثيل .

جلست فوق موقع من مواقع زعرب المبنية بالإسمنت المسلح قرب بوابة المرفأ أرقب رحيله . وكانت النقطة الوحيدة التي أتمكن فيها من رؤيته . وكان قد أعطي شهراً على الأقل ليقوم خلاله بالاستعدادات اللازمة . ولا بد أن الأمر كان مزعجاً له من الناحيتين المعنوية والنفسية ، فبذل قصارى جهده ليحول الهزيمة إلى انتصار . والواقع أنه تحلى بقدر كثير من الصبر والشجاعة . وكان من المنتظر أن يؤمن بما كان هو نفسه ينادي به وهو أنه لا يقهر . لقد كان رجلاً صلباً عنيداً .

كان وجه عرفات يطفح بالنشوة والتصلب أثناء عبوره الخطوات الأخيرة الموحلة إلى المرفأ .ووقف حرس الشرف في ثلاثة صفوف على الخرائب التي كانت تشكل فيما مضى خط التماس وبنادقهم بأيديهم . وحيا الأعلام الفلسطينية التي أدنيت منه . وكان هناك جمهور كبير من المقاتلين والجنود والمراسلين الصحفيين . واستقل سيارة ليموزين سوداء إلى رصيف الميناء بحراسة المارينز .

وكان عرفات قد وصل إلى الميناء بسيارة شفيق الوزان الليموزين السوداء المضادة للرصاص . وتوقف في طريقه للتحدث إلى الزعيم الدرزي وليد جنبلاط بمنزله في المصيطبة حيث قال لمجموعة من الصحفيين : «إنني مغادر لمتابعة النضال حتى نحرز النصر . . . وأنا فخور جداً لأنه أتيح لنا شرف الدفاع عن هذا الجزء من بيروت . . . سأغادر اليوم هذه المدينة ، ولكن قلبي سيبقى فيها» . وحينما سُئل عن البلد العربي الذي يقصده ، قال : «إلى فلسطين» .

وكان محمود اللبدي في الميناء يلهو بمسدسه وعلى صدر معطفه إشارة ملازم خاطتها زوجته الأميركية خلال الليل . قال : «علينا أن نحرص على حسن الهندام» . لم يعد يشغل باله بالعلاقات العامة وشرْح آراء عرفات . فالتاريخ يتكفل بالدقائق الأخيرة . وسألته : «هل أنت حزين؟» قال : «طبعاً . وأبو عمار حزين . فكيف تتصور شعورنا؟»

وأعلنت المنظمة أنها تبحث عن عاصمة عربية «تقدم لنا ما قدمته بيروت» . ولا ريب في أن هذا الإعلان أدخل الخوف إلى قلوب الكثيرين في أي عاصمة عربية يقع اختيار عرفات وزملائه عليها . فإذا كان هناك ما يميز رحلة عرفات الأخيرة داخل بيروت فهو ذلك التباين الشديد بين وجه عرفات الطافح بالبشر وبين الخرائب من حوله .

ولما اقترب عرفات من المواقع الفرنسية في الميناء ، وقعت عدة انفجارات فوق البحر حولت انتباهه إليها . وتبين أن أحد رجال الميليشيات اللبنانية كان يطلق قنابله على الموج . ووقف جنود المارينز الأميركيين بملابس المدفعية بينما كان الجنود الفرنسيون يرابطون بأسلحتهم فوق أقرب العنابر . ووصل بعض السفراء ـ الفرنسي واليوناني والإيطالي والكوري الشمالي ـ لوداع رئيس منظمة التحرير . وفي هذه الأثناء كان الجنود الإسرائيليون الذين يعتبرونه إرهابياً يدرسون حركاته بهدوء من سطح أحد المصانع .

ولم يتمكن عرفات من استعراض حرس الشرف بسبب تدافع المصورين الفرنسيين الذين كادوا يسقطونه على الأرض . كما أنه لم يتمكن من تحية ضباط الميليشيات اللبنانية الذين كانوا يرفعون الأعلام تحية له .

كانت هذه المأساة من النوع الذي يفهمه عرفات جيداً . وعندما أبحرت به السفينة اليونانية أتلانتس أطلقت صفارتها مدة دقيقتين . وشوهد عرفات وعدة مئات من مقاتليه على ظهر السفينة يلوحون بعلامة النصر . وواكبت السفينة سفينتان حربيتان أميركيتان . ولم تحل الساعة الثالثة حتى كانت قد اختفت وراء الأفق .

ومن المؤكد أن عرفات تعلّم الكثير في لبنان . وحين هبط الليل جلس على كرسي فوق ظهر السفينة وأخذ يقرأ لرجاله من كتاب بيده . على أنه لم يكن يقرأ من القرآن الكريم بل من الكتاب المقدس . وقرأ من الإصحاح الثاني من سفر حبقوق المقطع التالي :

«لأن العنف الذي تولد في لبنان سيجرفكم ، ولأن الخراب الذي لحق بوحوشها سيقضي على أرواحكم ويمزقها بفعل إراقة الدماء والعنف الذي حل بالبلاد وبالمدينة وبسكانها» .

وشعر عرفات أن هذا هو قدر الإسرائيليين الآن في لبنان .

واستمر الرحيل الحزين يومين آخرين بعد مغادرة عرفات . وغادرت آخر وحدات اللواء ٨٥ السوري برّاً في ٣٠ آب/ أغسطس . ورحلت قافلة تضم ناقلات عسكرية مهشمة ومدرعات خرقتها الشظايا . وعبرت الخطوط الإسرائيلية في غاليري سمعان بصمت ، وبدون أي من المراسم العسكرية التي كان المرء يشهدها في مثل هذه المناسبة . وكانت تضم عشر دبابات ت ـ ٥٤ قديمة حملت على ناقلات . وبدا أن اثنتين منهما مصابتان بأعطال غير قابلة للإصلاح ، كما كانت في القافلة عشرون مركبة مدرعة يجلس أفراد أطقمها عليها ، وينظرون بوجوه عابسة وهم يمرون بالأعلام الإسرائيلية .

وأسوأ من هذا أنه كان على أولئك الجنود أن يشاهدوا الرائد حداد نفسه الذي كان الإسرائيليون قد أتوا به إلى بيروت . فوقف على مستديرة الحازمية يرقب الشاحنات السورية المكشوفة وهي تقطع ببطء خط التماس عند غاليري سمعان . وعندما سألته إذا كان يعتقد بأن السوريين والفلسطينيين قد هزموا ، نظر إلي باحتقار وصاح قائلاً : «إنني أرى النصر في هزيمة السوريين . ولماذا ينسحبون في رأيك؟ بالطبع ليس للسياحة . هذا جزء من انتصارنا» .

وعندما مرت الدبابة السورية الأولى بحذاء الرائد ، ظنه أحد الجنود السوريين من الناس العاديين فلوح له بيده . فما كان من حداد إلا أن مدّ يده وأخذ يوجه إليه أقبح الشتائم ، ويشجع الجنود اللبنانيين على أن يحذوا حذوه . ففعل بعضهم ذلك . . .

كان من المفروض أن تسلم منظمة التحرير أسلحتها الثقيلة ـ من مدفعية ميدان وكاتيوشيا إلى الجيش اللبناني ، لكن هذه الأسلحة ظهرت الآن في أيدي أمل والمرابطون . وكانت هذه الميليشيات تبذل كل جهد استعداداً لحماية بيروت الغربية من الإسرائيليين والكتائبيين . وفي تلك الأثناء ظهرت اشارة أخرى إلى ما سيأتي . فعندما أبحر آخر فوج من المقاتلين الفلسطينيين من ميناء بيروت في أول

أيلول/ سبتمبر ظهر كاسبار واينبرغر وزير الدفاع الأميركي في بيروت وادعى بأن مشاة البحرية الأميركية أحرزوا نصراً ميدانيا(٦) .

وأعلن وزير الدفاع الأميركي وهو محاط بنصف كتيبة من المارينز الثمانماية ـ وكانت تلك طبعاً مناسبة لالتقاط الصور ولتوجيه رسالة سياسية ـ «أن مهمة القوة المتعددة الجنسيات في بيروت قد تمت على أحسن وجه . . . من الناحية العملية» . وكان من المفروض أن يكون الجيش الإسرائيلي قد أخلى محيط المرفأ . غير أنه كان بالإمكان مشاهدة أربع سيارات إسرائيلية مدرعة على بعد ٤٠٠ ياردة من

(٦) تمت عملية إجلاء الفلسطينيين والسوريين من بيروت الغربية وسط فوضى شديدة لم تسمح مطلقاً بتحديد عددهم . وكان من الصعب أيضاً التوصل إلى إحصائيات دقيقة لأن بعض مقاتلي منظمة التحرير اصطحبوا معهم زوجاتهم وأولادهم على متن السفن ، كما أجّل بعضهم الآخر موعد رحيلهم . ورفضت القوة المتعددة الجنسيات إبراز الأرقام الصحيحة للراحلين . واستناداً إلى معلومات قدمها لي الضباط الإيطاليون قدرت عدد الذين رحلوا حتى ٢٧ آب/ أغسطس بـ ٦٧٦٤ مقاتلاً . وبلغ عددهم حتى ٢٩ منه ٩,١٠٠ وإذا أضيف إلى هذا الرقم ألف آخرون رحلوا بالبحر وألف رحلوا بطريق البر يكون مجموع من رحلوا أكثر من ١١,٠٠٠ مقاتل .

ويقدر راندال (راجع مأساة لبنان ص ٢٧١) المجموع الكلي لمن رحلوا بـ ١٤,٠٠٠ . ويقرب من هذا مجموعهم الكلي عند شيف ويعاري (حرب إسرائيل في لبنان ، ص ٢٢٨) فهو ١٤,٣٩٨ بينهم ٦٦٤ امرأة وطفل . ومن هؤلاء كلهم غادر بيروت بحراً ٨١٤٤ ، وغادرها براً ٦٢٥٤ من الجنود السوريين ومن جيش التحرير الفلسطيني .

وهناك تقديرآخر . للمجموع الكلي وهو ٨١٨٥ (راجع كتاب العقل لا الحاجة : الأحداث كما يرويها شهود عيان الذي نشرته مؤسسة برتراند رسل للسلام بلندن ، ص ٩٥ ـ ٩٧) .

وتشير التقارير المعاصرة إلى خطط لإجلاء ١٥,٠٠٠ مقاتل فلسطيني وجندي سوري (راجع مثلاً مجلة . مندي مورننج اللبنانية ، ٣٠ آب/ أغسطس ـ ٥ أيلول/ سبتمبر ١٩٨٢) وقد صحح شفيق الوزان رئيس وزراء لبنان هذا الرقم ١٢,٠٠٠ (راجع مندي مورننج ٦ ـ ١٢ أيلول/ سبتمبر ١٩٨٢) .

وقد نشرت أنا الأرقام التالية : في ٢١ آب/ أغسطس أجلي ٢٦٢ شخصاً من جيش التحرير الفلسطيني النظامي (كتيبة بدر) بالبحر إلى الأردن ، و١٣٥ من مقاتلي جبهة التحرير العربية إلى العراق ؛ وفي ٢٢ منه أجلي ٨٠٠ جندي من جنود كتيبة عين جالوت ، ومئتا مقاتل من الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ـ القيادة العامة ومن مقاتلي فتح . وذلك بطريق البحر إلى الأردن والعراق وسوريا ؛ وفي ٢٣ منه أجلي ٧٠٠ مقاتل من الجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين والجبهة الشعبية لتحرير فلسطين بالبحر إلى تونس والعراق واليمن الجنوبي ؛ وفي ٢٤ منه أجلي ٩٠٠ مقاتل من فتح والجبهة الشعبية لتحرير فلسطين بالبحر إل سوريا واليمن الجنوبي والسودان ؛ وفي ٢٥ منه أجلي ١١٦٠ من مقاتلي الجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين والصاعقة بالبر إلى السودان وسوريا ؛ وفي ٢٦ منه أجلي ٦٩٧ من مقاتلي فتح وجيش التحرير الفلسطيني والجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين ومعهم بعض الجرحى ، وفي ٢٧ منه أجلي ١٥٠٠ من كتيبة حطين التابعة لجيش التحرير الفلسطيني وفتح وجنود سوريين من اللواء السوري ٨٥ براً إلى دمشق ، وكذلك ٦٠٠ =

واينبرغر، ورؤية أفراد طاقمها وهم ينظرون إلى الوزير الأميركي من خلال مناظيرهم . وكان من المفروض أن لا يكونوا هناك . ويبدو أن واينبرغر لم يرهم . ولم يستطع المسؤولون في وزارة الدفاع الأميركية تفسير وجودهم .

ظن واينبرغر أن المشاكل اللبنانية يمكن حلها ببرنامج سياسي وثقة متبادلة ومزيد من الإدراك . وهذا ما كنا ندعوه بمدرسة «واحد ـ اثنان ـ ثلاثة» الأميركية في السياسة الشرق أوسطية، أي عمل عسكري تتلوه أهداف سياسية ثم الحل . ودائماً حل لا تسوية . وإذا نظرنا الآن في ذلك المؤتمر الصحفي الذي عقده واينبرغر على مرفأ بيروت وجدناه ساخراً ورهيباً .

وكان قد سبق لريغن أن اقترح خطة سلام أميركية جديدة للشرق الأوسط تتضمن إنشاء حكم ذاتي فلسطيني في الضفة الغربية وغزة مرتبطاً بالأردن، وعدم تقسيم القدس ولكن مع ترك وضعها للمفاوضات . على أن بيغن رفضها بغضب واتهم الإدارة الأميركية بأنها تحاول إسقاط الحكومة الإسرائيلية كما أسقطت من قبل حكومة ألندي في تشيلي .

والظاهر هو أن واينبرغر لم يكن قد سمع برد بيغن العجيب، وطلب أحد موظفي السفارة الأميركية من الصحفيين إعارته تقارير وكالات الأنباء حول ردود فعل بيغن ليطلع عليها وزير الدفاع الأميركي .

وقال واينبرغر : «إن الرئيس يبحث مع رئيس الوزراء بيغن ومسؤولين آخرين السُبل الكفيلة بحل هذه المشكلة التي طال أمدها، لأن ما أنجزناه اليوم هو المرحلة الأولى، وأما المرحلة الثانية فهي إخراج جميع القوات الأجنبية من لبنان، والمرحلة الثالثة هي بالطبع إيجاد حل ـ إذا أمكن وهو في نظري ممكن ـ للمشكلة الفلسطينية ككل لا لمنظمة التحرير وحدها . وهذا برأيي أمر أساسي جداً إن كنا نريد التوصل إلى سلام دائم» .

= من جيش التحرير الفلسطيني وفتح من البحر؛ في ٢٨ منه أجلي ٧٠٠ من الجبهتين الديمقراطية والشعبية لتحرير فلسطين بالبحر إلى طرطوس بسوريا (معهم حبش وحواتمة وأحمد جبريل)؛ وفي ٢٩ منه أجلي ٢,٤٠٠ من منظمة التحرير بينهم ١٢٠٠ من جيش التحرير الفلسطيني (كتيبة القادسية) سافروا براً إلى سوريا و٧٠٠ من فتح غادروا بحراً .

وبهذا يكون المجموع ١٠،٠٥٤ . على أنه أضيف إليه ٦٠٠ فلسطيني غادروا بالبحر مع عرفات في ٣٠ آب/ أغسطس، و١٢٠٠ جندي سوري غادروا براً في اليوم نفسه، و١٠٠٠ من جيش التحرير الفلسطيني غادروا في ٣١ منه وما يقرب من ٦٠٠ غادروا بحراً في أول أيلول/ سبتمبر . وبهذا يكون المجموع ١٢,٥٤ بالرغم من بعض المبالغة في عدد من غادروا في الأيام الثلاثة الأخيرة . وبقي منهم ١٠,٠٠٠ في غربي وشمالي لبنان وخصوصاً حول طرابلس، أي في المناطق التي بقيت بيد السوريين .

واحد ـ اثنان ـ ثلاثة . هذا هو الأمر بكل بساطة . لقد أدهشتنا سذاجة كلمات واينبرغر ، هذا إذا تناسينا كلمات ريغن الذي وجه رسالة إلى المارينز في بيروت قال فيها : «نحن الآن على وشك انجاز ما ذهبنا لإنجازه . وهو وضع حد لحمام الدم في بيروت وإعادة بسط سيادة الحكومة اللبنانية على العاصمة» . لكن رؤية الإسرائيليين وهم يراقبون سير الأحداث من محيط المرفأ ـ وهو انتهاك صارخ لاتفاقية فك الارتباط ـ واقتصار القوة اللبنانية على كتيبة عسكرية واحدة لا تزيد عن الأربعين جندياً أي أقل بكثير من المارينز ـ جعل أمر السيادة اللبنانية إذا تحققت شيئاً واهياً .

وكالعادة حمّل واينبرغر الفلسطينيين ضمناً مسؤولية النزاع في الشرق الأوسط ـ لأنه أشار إلى «القضية الفلسطينية» لا إلى القضية «الفلسطينية ـ الإسرائيلية» ـ وبنى اعتقاده بأن السلام سيعود إلى لبنان على أمرين خطيرين جداً ، وهما أن «السوريين قالوا للكثيرين بأنهم يرغبون في الانسحاب والعودة إلى ديارهم وأن الإسرائيليين أبلغونا أنهم يريدون العودة إلى بلادهم ومغادرة لبنان وأنهم لا يطمعون في شبر واحد من الأراضي اللبنانية» . ترى من هم هؤلاء «الكثيرون» الذين أعرب لهم السوريون عن رغبتهم في الانسحاب؟ ثم لو أن الإسرائيليين كان يرغبون حقاً في الرحيل ، فلماذا كانوا لا يزالون في بيروت؟ ولماذا كان الإسرائيليون يراقبون ما يجري على بعد ٤٠٠ ياردة وخلافاً لجميع وعودهم؟ وهل صحيح أنهم لا يريدون شبراً واحداً من الأراضي اللبنانية؟ ثم أليس هذا هو ما كان السوريون يقولونه دائماً؟ لقد بدأ لبنان يسحر الأميركيين أيضاً .

وعدني لابل أن يتصل بي في إيرلندا إن رأى ضرورة لعودتي إلى بيروت . وفي اليوم التالي سافرت على مركب إلى قبرص لأنني كنت قد حجزت مكاناً بالطائرة منها إلى أوروبا . وفي عرض البحر أجبر زورق حربي إسرائيلي المركب على التوقف لمدة ساعتين أخذ الركاب خلالها يتصببون عرقاً . وظل الركاب يصرخون في وجهي طالبين مني عدم التقاط صور لهم إذ كان معظمهم من الموارنة وبعضهم من الكتائب . وكانوا جميعاً يشعرون بالخوف من الإسرائيليين .

وفي دبلن بإيرلندا كان الرذاذ يتساقط ويمحو أثر العرق والاختناق . وطالعتنا صحيفة التايمز الإيرلندية في عددها الصادر بتاريخ ١١ أيلول/ سبتمبر ١٨٨٢ وعلى صفحتها الأولى بعنوان بارز يقول «قوات السلام تبدأ بالرحيل» . وبدا هذا سابقاً لأوانه لأنه كان من المفروض أن تبقى شهراً ، ولم تكن قد أكملت منها سبعة عشر يوماً .

سافرت إلى دونيغال . واشتريت في بلفاست عدداً من جريدة الديلي تلغراف يقول أن شارون قام «بزيارة مفاجئة للمراكز الأمامية لقواته في ضاحية بيروت الجنوبية» . وتضيف أنه ادعى بأن ألفي

«إرهابي» ظلوا في بيروت بعد رحيل منظمة التحرير الفلسطينية . وبدا وكأن لبنان كان يلاحقني وأنه من المستحيل نسيان أحداث الشهور الثلاثة الأخيرة .

وبينما كنت في مكتبة جامعة كوينز تقدمت نحوي موظفة وقالت لي : «سمعتك تتحدث عن لبنان» . وكانت قد قرأت تقاريري حول الغارات الجوية على بيروت الغربية . وسألتني : «هل تذكر ما كتبته عن الغارة الإسرائيلية على منطقة أبي شاكر التي دمرت إحدى المباني وتدلت أريكة من إحدى الشقق؟» فأجبتها بأنني أذكر التقرير بالطبع . فقالت : «أنا لبنانية . وكانت تلك الشقة شقتي والأريكة أركيتنا . لقد ماتت عائلتي هناك ولم ينج سواي» .

من هم أولئك «الإرهابيون» المجهولون الذين اكتشفهم شارون فجأة في بيروت الغربية؟ ولماذا لم يرد ذكرهم من قبل؟

اتصل لابل بالتايمز وترك لي رسالة . وكان محتاراً في تفسير رحيل المارينز المبكر . وتجاهل كلمات شارون بوصفها هذراً عادياً . وما كان يزعجه حادث وقع في بيروت الغربية حيث أطلقت النار على أحد الجنود الفرنسيين التابعين للأمم المتحدة ، فأصيب في صدره وقتل قرب أحد المراكز الإسرائيلية . وأعلنت الجهات الرسمية أن هذا الجندي الفرنسي قد أصيب برصاصة طائشة خلال تبادل إطلاق نار لم يدم كثيراً بين الإسرائيليين ومسلحين لبنانيين . وعلمنا لاحقاً من مصادر الأمم المتحدة أن هذا الجندي أصيب عند التقاطه صوراً للجنود الإسرائيليين وهم يتقدمون بضع مئات من الأمتار باتجاه المدينة . لقد كان الإسرائيليون يلعبون لعبتهم القديمة «لعبة تشريح لحم السلامي» فيقتطعون شريحة بعد أخرى من بيروت الغربية التي أخذ الجزء غير المحتل منها يتقلص يوماً بعد يوم . ولم يرد في تقارير هيئة الأمم المتحدة في تلك الفترة ذكر لوقوع معارك استخدت فيها الأسلحة النارية . واعترف الإسرائيليون فيما بعد بأن جنودهم المتمركزين قرب المطار ، تقدموا ولكن ـ كما ادعوا ـ «لإزالة الألغام» وظن لابل أن الأمر ثانوي وأشار علي بالاستمتاع بعطلتي .

وسرت ببطء بسيارتي على طول ساحل إيرلندا الغربي .وعندما وصلت وستبورت بمقاطعة مايو ، كان المطر يهطل بغزارة ، فلجأت إلى بار فرشُه قديم ملطخ بالبقع وفيه حشد من الزبائن يختلسون النظر إلى تلفزيون ضخم وأصواتهم تطغى على صوته إلى حد أنني كدت أن لا أسمع أجراس أنجيلوس وهي تدق السادسة . وعندما ظهر المذيع على الشاشة وأخذ يقرأ الأخبار ، أحسست بأن دقات قلبي أخذت تتسارع . وما هي إلا لحظات حتى دوى صوت قاذفة مقاتلة على الشاشة . ويبدو أن المصور كان خائفاً فأخذت يده تهتز . وتمكنت من مشاهدة الطائرة ترش البالونات واللهب الزهري يجتاح الشاشة .

وعندما تحولت الكاميرا إلى اليسار ظهرت أعمدة الدخان المألوفة وصور الجرحى ، كما ظهرت ملابس عسكرية سورية . وكان في خلفية الصورة جبل تعرفت بواسطته على البقاع . كان الإسرائيليون يقصفون السوريين . فتوترت أعصابي . ماذا كان يجري في لبنان؟

وعندما اتصلت من البار بالتايمز أخذ بارنز يسخر من قلقي . ذلك أن الأسوشيتد برس التي نقلت الخبر لم تتحدث إلا عن غارة واحدة شنها الإسرائيليون على بطارية صواريخ سورية في البقاع . ولم أجد رسالة من لابل .

وعندما تحسن الجو تابعت سيري تحت قوس قزح كبير في سماء الأطلنطي الزرقاء . على أن ما رأيته على الشاشة أثار فيّ الإحساس بأن كارثة ما على وشك الوقوع . وكانت طريقي إلى غالوي مستقيمة وتمر وسط الحقول . ولكنني لم أستطع أن أطرد من رأسي فكرة ظلت تلح علي وهي ضرورة وجودي في لبنان . وكنا عندئذ في ١٤ أيلول/ سبتمبر . وبالرغم من تقدم المساء فقد كان المزارعون يحرقون أعشاب حقولهم التي أخذ دخانها يتصاعد كالأعمدة في كبد السماء .

في تلك الليلة ، أذاعت محطة هيئة الإذاعة البريطانية (بي . بي . سي .) أن انفجاراً وقع في مقر قيادة الكتائب في بيروت الشرقية . وعندما اتصلت بالتايمز من أحد فنادق غالوي علمت أن بشير الجميّل كان موجوداً في المبنى ولكنه لم يصب بأذى . ونمت منزعجاً . لكن الإذاعة ذاتها كشفت عما حدث . لقد اغتيل بشير الجميّل وغزا الإسرائيليون بيروت الغربية . وكان تاترو وكودي عندئذ في عدن .

إذن دخل الإسرائيليون بيروت الغربية وأنا بعيد على ساحل إيرلندا الغربي . وإذا كان واجبي كصحفي يحتم عليّ أن أنقل أخبار لبنان فكيف أظل حيث أنا؟ وكيف أبقى طوال أيام الحصار في بيروت ثم أجد نفسي هنا في اللحظة ذاتها التي بلغت فيها المأساة نهايتها؟ وما الذي سيحل بالمخيمات الفلسطينية؟ على أن هذا لم يكن السؤال الأول الذي طرحته على نفسي . إذ حاولت أن أتذكر اسم شقيق بشير ورقم هاتف مكتب الأسوشيتد برس في بيروت الغربية والوقت الذي يصل فيه إيفان بارنز إلى مكتبه في التايمز بلندن .

سقت سيارتي بسرعة جنونية باتجاه الشرق إلى دبلن . فهنا كنت على الأقل أستطيع السفر بالطائرة إلى أوروبا ثم إلى دمشق ، وذلك لأن مطار بيروت كان مقفلاً منذ السادس من حزيران/ يونيو . فاتصلت من مقهى قريب بتشارلز دوغلاس هيوم رئيس تحرير التايمز . ورد هيوم بلهجة تنم عن الارتياح وعدم الاكتراث قال : «إسمع يا بوب ، لا أرى ضرورة لذهابك إلى بيروت . لقد أعلن

الإسرائيليون أنهم سيدخلون بيروت الغربية للمحافظة على النظام والقانون . على كلّ حال ، اذهب إذا شئت . لكن لا ضرورة لقطع إجازتك» . فأعربت له عن اعتقادي بأن الإسرائيليين سيصحبون الكتائب معهم إلى بيروت الغربية . فأبدى شكه في ذلك ، وأضاف أنه لو صح ، فإن الإسرائيليين سيبقونهم تحت سيطرتهم .

كان من المستحيل أن أصدق ذلك ، فقد سبق لي أن تحدثت مع الإسرائيليين وراقبت طيرانهم وهو يقصف ، ولمست كابوس الإرهاب الذي يطغى على تفكيرهم . إرهابيون ! إرهابيون ! إرهابيون ! ونظراً لما حدث في لبنان منذ ٦ حزيران/ يونيو لم أتصور أنه باستطاعة الإسرائيليين دخول بيروت الغربية بدون حدوث كارثة . تلك كانت غريزة الصحفي التي لا تخونه . لكن كنت لا أزال بإيرلندا .

اتصلت ببارنز من كشك التلفون ذاته ، فعلمت أن خطوط التلفون مقطوعة مع بيروت . ولكن لابل تمكن من إرسال تلكس إلى التايمز ضمّنه رسالة قصيرة لي . قال إنه يعتقد بضرورة عودتي على وجه السرعة . فالميليشيات اليسارية اللبنانية تقاتل الإسرائيليين . ولم يفلح الإسرائيليون في احتلال جميع بيروت الغربية وأن الطريق إلى ذلك لا يزال طويلاً . وانقطع بعد ذلك خط التلكس .

طلب بارنز تحليلاً حول مستقبل لبنان ونبذة عن حياة بشير الجميّل قبل الثالثة بعد الظهر . فكتبتهما بقلمي ولا أزال احتفظ بنسخة عن كل منهما . بدأت التحليل بذكر ما حذرني منه كولونيل إسرائيلي قبل مغادرتي بيروت مباشرة ، فقلت :

«لم يكن الكولونيل من المتشائمين . لكنه كان يتمتع بالبصيرة . وكان صوته ينم عن التعب عندما التفت إلينا وقال : لن تكون مشكلتنا الكبرى كما تعلمون التخلص من الفلسطينيين ، بل ستكون منع الكتائب من دخول بيروت الغربية للانتقام من الفلسطينيين» .

لم ترد ملاحظة الكولونيل هذه في تقاريري السابقة لأنني تجاهلتها . فكان مصيرها كمصير غيرها من النذر التي تجاهلتها . فبدا وكأنني عندئذ أقمت حاجزاً ذهنياً في وجه كل ما ينذر بالسوء . فبالرغم من كل ما كنت قد شاهدته ، فإنني لم أدرك إلا اليوم الأهمية الحقيقية لما قاله لي . على أن الكتائبيين لم يكونوا عندئذ قد دخلوا إلى بيروت الغربية . وحتى منتصف ذلك اليوم الذي كنت فيه متوجهاً إلى دبلن ، كان الكتائبيون لا يزالون في بيروت الشرقية . لم يكونوا قد قطعوا خط التماس بعد .

ومن كشك تلفون في دبلن أخذت أملي التحليل والنبذة للتايمز التي نشرتهما . غير أن الفقرة الأولى التي تضمنت ملاحظة الكولونيل الإسرائيلي حذفت من التحليل . ولم يكن في الأمر مؤامرة ولم تحذف لأسباب سياسية . والتقيت فيما بعد بالمحرر الذي ارتكب الخطأ . فأبدى أسفه وقال إن

ضيق الصفحة اضطره إلى الاقتصار على نشر تحليلي لمستقبل لبنان وحذف ما قاله لي الناس في الماضي . وهكذا فإنه هو أيضاً تجاهل أهمية كلام الكولونيل ، فهل أصيب هو الآخر بالحاجز الذهني؟

كانت المرأة التي تعمل في مكتب طيران لنجوس كالأم الرؤوم التي تشجع طفلها على اجتياز الامتحان . قالت : «طبعاً يجب أن تذهب إلى بيروت . المطار مغلق أليس كذلك؟ حسناً ، سنرسلك إلى دمشق عن طريق جنيف حيث تقضي ليلة واحدة . لا تخبر الطيران السويسري أنك لا تملك تأشيرة دخول إلى سوريا فقد يمنعونك من السفر . وعندما تصل إلى دمشق عليك أن تشق طريقك إلى بيروت .حظاً سعيداً» .

قضيت ساعات في جنيف بسبب تأخر الطائرة السويسرية . وعند الفجر ، كنت أحلق فوق جبال الألب . وحطّت طائرتي في دمشق عصراً . كان المسؤول في مكتب الجوازات لطيفاً معي واشترى لي فنجان شاي . ولكنه أبدى أسفه لعدم تمكنه من السماح لي بمواصلة السفر من دمشق إلى بيروت بدون إذن من وزارة الإعلام .

فاتصلت بعادل زعبوب المسؤول في الوزارة في منزله . فأجابني أنه سيساعدني ولكن في الصباح ، وأنه من الضروري موافقة وزارة الخارجية ولكنها مقفلة في الليل .

رجوت زعبوب والمسؤول في مكتب الجوازات ورجال المخابرات الذين يحرسون المطار . كانوا لطفاء ، وأدركوا مدى خطورة مهمتي ، لكن كان علي أن أنتظر إلى الصباح . وكان هذا مساء ١٦ أيلول/ سبتمبر والواقع أن السوريين كانوا عندئذ في حاجة إلى صحفيين دوليين يشاهدون ما يجري ببيروت ، ويكتبون عن موت الجميّل وعما بدا لهم بأنه ضربة مروّعة لأطماع إسرائيل الاستراتيجية في لبنان .

لكن كان أكثر ما يمكنهم أن يفعلوه من أجلي في المطار هو السماح لي بالانتظار حتى الصباح لأن المسؤولين في وزارة الخارجية كانوا نياماً . ولم يكن أحد قد عرف بعد أن الكتائب دخلوا بيروت الغربية مع الإسرائيليين .

لم أنم في تلك الليلة . وكنت أذرع قاعة الوافدين عندما أشرقت الشمس وغمرت بأشعتها الأرجوانية الدافئة قمم الجبال . وعندئذ أبلغني المسؤول اللطيف في مكتب الجوازات أنه تلقى مكالمة تلفونية سُمح لي بموجبها بدخول سوريا ودعاني إلى الشاي مرة أخرى .

أقلتني سيارة أجرة إلى فندق شيراتون حيث وجدت سائقاً مستعداً للذهاب إلى لبنان . وكان السفر إليه براً في الظروف العادية يستغرق ثلاث ساعات . وحينما وصلنا إلى الحدود عند المصنع

رفض مواصلة السير . فتطوع سائق آخر لبناني بأخذي إلى بيروت . ولكن حينما وصلنا إلى شتورة في البقاع الغربي رفض هو أيضاً متابعة السير ، وقال لي بالإنجليزية : «بيروت بُم ، بُم» ثم أطفأ محركه . ورجوت سائقاً آخر وضع قرآناً صغيراً على زجاج سيارته الأمامي أن يوصلني بسيارته .

قال لي : «هيا بنا» . وسمح لنا السوريون بصعود الطريق الجبلي فمررنا بالموقع الذي سبق لي أنا وكودي عام ١٩٧٦ أن شاهدنا منه الجيش السوري أول مرة قرب تقاطع الطرق في المديرج . وفي ذلك المكان ذاته كدنا أنا وفولي أن نقتل في غارة جوية . وإلى الشرق من بحمدون تماماً توقف السائق فحملت أغراضي وسرت وراءه إلى أحد الحقول . وكان يسير مسرعاً بحذاء خط من القطن . نعم القطن ، صعوداً نحو واد يقع إلى جنوبي حاجز من الإسمنت والحجارة . وكنت أعلم أن دبابة إسرائيلية كانت ترابط وراء فتحة في الحاجز . وقال لي السائق الشاب : «سر خلفي واتبع خط القطن . إننا في حقل ألغام» .

حقل ألغام ! بعد دبلن بست وثلاثين ساعة ، وبعد ثمان وأربعين ساعة بلا نوم سار بي هذا الشاب إلى حقل ألغام إسرائيلي . فكاد ينقطع نفسي . وصرت أنظر إلى القطن باهتمام وحذر . وما لبثنا أن شاهدنا على مقربة من صف من الزهور بضع سيارات ، خرج من إحداها رجل به شبه ضئيل بسائقي الشاب الشجاع وأكبر منه سناً . قال السائق : «هذا أخي ، وسوف يأخذك إلى بيروت . ادفع له أجرتي عندما تصل . «وكدت أبكي» .

وانطلق أخوه بسرعة نحو بيروت الغارقة في وهج الشمس . وبدت من الجبل شبه جزيرة داخلة في البحر وتعلوها مباني الشقق العالية ، ومخيمات اللاجئين المدمرة ، ومدرجات المطار التي تتلألأ أنوارها . وعند المتحف ، رفض ضابط كتائبي اسمه مكسيم أن يسمح لنا بالعبور . قال لي :

ـ روبرت ، ما الذي تفعله؟ لا يوجد هنا ما تكتب عنه . لقد دخل الإسرائيليون لحفظ الأمن والنظام .

النظام والأمن ! فسألته :

ـ وهل تصدق ذلك؟ قال :

ـ ولم لا . قلت :

ـ أرجو أن تسمح لي بالعبور . قال :

ـ إذن أين الأمن والنظام؟ وأضاف وهو يبتسم :

ـ لا سبيل إلى العبور يا روبرت .

فأخذني السائق إلى فندق ألكسندر في بيروت الشرقية . ووجدت هناك صديقاً آخر هو ناطق صحفي باسم داني شمعون . واتصل هذا هاتفياً بسائق ماروني بدا خائفاً ولكنه أعرب عن استعداده للتفكير في نقلي بسيارته إلى بيروت الغربية مقابل ٥٠٠ دولار . وتوجه بي نحو المرفأ . ولم يكن هناك أثر للإسرائيليين في المتحف ، فقدرت أنهم اتخذوا من المرفأطريقاً لإمداداتهم إلى بيروت الغربية .

وشاهدت خارج الميناء دبابة ميركافا كبيرة استولى الذعر على من فيها فأخذوا يحركون مدفعها يمنة ويسرة فقلت للسائق : «اتبعه» . وكان هذا السائق شخصاً لطيفاً ذا شارب صغير . أراد المساعدة والخمسمائة دولار . ولحق بالدبابة حتى صار بجوارها . وسمعت صوت إطلاق نار . وخشيت أن يصاب إذا كانت الدبابة هي المستهدفة فقلت له : «إرجع واجعل بينك وبين الدبابة مسافة أربعين متراً» . فخفف من سرعته . وأشار أحد رجال البوليس العسكري الإسرائيلي إلى سيارتنا ، فلوّحت له بيدي ، وأشرت إلى الدبابة . ونجحت الخطة . إذ ظن رجل البوليس أنني صحفي إسرائيلي فقلت للسائق : «إنطلق . لقد سمحوا لنا بالمرور» .

وارتطمت جنازير الدبابة بقضبان الحديد على الطريق فارتجت بعنف ، وصكّ زعيقها الآذان . وكنا عندئذ في منتصف طريقنا إلى الميناء . ولاحت لنا بناية الجفينور وراء الخرائب . وعند منعطف الطريق التالي كانت السينما ومتراس زعرب الذي سبق أن تحدثت عن اشتراكي في هدمه .

وظهر رأس وكتفا أحد أفراد طاقم الدبابة من البرج وهو يتكلم بسرعة على جهاز الراديو . وكانت الميركافا تسير بسرعة لا تقل عن أربعين ميلاً في الساعة . وطرق أسماعنا صوت انفجار بعيد .فخفف سائقي من سرعته . فقلت : «لا بأس انطلق» . لكنه استمر في التباطؤ . وكان من الواضح أن شجاعته أخذت تخونه ، فصحت «لا تخف إلحق بالدبابة» . على أن رجله أخذت تتحرك بعصبية بين دواسة البنزين والكابح (البريك) ، وضغط على الكابح بدلاً من الآخر . فصحت مرة أخرى : «لا ، لا ، إلحق بالدبابة فلا خوف علينا» فضغط على دواسة البنزين . لكنه لم يلبث أن رفع رجله عنها . فأخذت أصيح وأشدد على ضرورة اللحاق بالدبابة .

وطغى خوف السائق مني على خوفه من الدبابة فانطلق . وأخيراً عبرنا خط التماس إلى بيروت الغربية . واستطعنا عندئذ رؤية الفنادق المدمرة والجنود الإسرائيليين على جانبي الطريق ، وبعضهم يوصلون خطوط التلفون . وكانت سيارات الجيب الإسرائيلية على طول الكورنيش . وواصلنا اللحاق بالميركافا على طول الشاطىء . وكان هذا حلماً أقوى وأصدق من أي وهم . وظللنا وراء الدبابة حتى وصلت إلى المبنى الذي أسكن فيه . ولمحت صاحبه في حديقته الصغيرة . فلم يكد يراني حتى أخذ يلوح بيده وصاح قائلاً : «هل عدت يا روبرت؟ أهلاً وسهلاً» .

كانت الشمس قد غربت وحل المساء . ووجدت لابل في مكتب الأسوشيتد برس يسب ويشتم بسبب توقف أجهزة التلكس عن العمل . ونظر إلي بعينيه الواسعتين ووجهه المتجهم وسيجارته في فمه وقال : «إذن نجحت في الوصولى وفي الوقت المناسب» .

وكنت أترنح في سيري بسبب حاجتي الشديدة للنوم في أي مكان . وكان هناك إطلاق نار في المخيمات . وفي فندق الكومودور رأيت لورن جنكينز مراسل «الواشنطن بوست» ـ وهو من كولورادوا وله لحية ، ورأس كبير يكسوه شعر كث أسود ، ومزاج أسوأ من مزاج راندال . وكان صلباً شديد المراس ويعتقد بأن جميع الساسة كذابون .

رأيته عندئذ مستنداً إلى مكتب الاستعلامات يتكلم بالتلفون . فلما أنهى المكالمة التفت إليّ بدون كلمة ترحيب واحدة . وكان هذا في ١٧ أيلول/ سبتمبر ، ولم أكن قد رأيته منذ أسابيع . قال : «فسكي ، شيء ما يجري في المخيمات لقد جلب الإسرائيليون الكتائبيين (أل كذا) معهم . قبل قليل وصلت من ناحية منزل صائب سلام . فقالت لي امرأة أنها شاهدت بأم عينيها أحد أولاد الكلب يذبح زوجها في شاتيلا . هل تريد الذهاب معي في الصباح؟

والتقيت أيضاً بنكارستن تفايت مندوب الإذاعة النروجية ، الذي صرخ قائلاً : «أين كنت؟» ووافق على مرافقتنا . والواقع أن هذا سرني . ففي مرافقة اثنين أقوياء صمدا للأحداث حماية أكيدة . وغندما عدت إلى بيتي لم أستطع النوم . ورأيت من النافذة سجائر رجال الدبابات الإسرائيلية تتوهج في الظلام الذي يلف الكورنيش . وكانت رحلتي طويلة وطويلة جداً إلى النوم .

وقفت على الشرفة وسمعت هدير الطائرات القاذفة المقاتلة وهي تخرق الظلام على علو منخفض . وألقت واحدة منها قنابل ضوئية حوّلت الظلمة إلى نور ذهبي أنار السماء فوق المخيمات . ثم أصبح النور فضياً لامعاً حوّل الليل إلى نهار . واستطعت أن أقرأ وأنا على شرفتي . ولم تلبث الأنوار أن تركزت فوق صبرا وشاتيلا . وسقطت في شارعنا قنبلة ضوئية كانت لا تزال معلقة بمظلتها الصغيرة بالسياج المعدني للبيت وسقطت في عرض الطريق .

وبدا وكأنه لم يكن لدى أطقم الدبابات الإسرائيلية فكرة عن هذه الأنوار الكاشفة . ورأيتهم ينظرون حولهم كأطفال اكتشفوا الفجر عند منتصف الليل . وأخذت الأضواء تنتشر حتى عمّت بنورها الذهبي بيروت الغربية كلها . إنه الفجر عند منتصف الليل .

أجل الفجر عند منتصف الليل . وكأن قانوناً من قوانين علم الطبيعة الأساسية التي تحكم الوقت والضوء قد تحطم .

الفصل الحادي عشر

الإرهابيون

«سوف تلد الحوامل إرهابيين ، وسيصبح هؤلاء الأطفال إرهابيين عندما يكبرون» .

ـ كتائبي متورط في مجازر صبرا وشاتيلا لدى استجوابه من قبل الجنود الإسرائيليين في بيروت الغربية .

١٧ أيلول/ سبتمبر ١٩٨٢

«إننا نعرف (ما يجري) . لا نحبّه . ولا تتدخلوا فيه» .

ـ رسالة قائد كتيبة إسرائيلية إلى رجاله عندما بلغه خبر ذبح الفلسطينيين .

١٧ أيلول/ سبتمبر ١٩٨٢

إن الذي أبلغنا هو الذباب . إذ كان طنين الملايين منه أبلغ من الرائحة . هذا الذباب الأزرق الكبير تهافت علينا في البداية وكأنه لا يفرّق بين الأحياء والأموات . ولو بقينا في أماكننا ندوّن الملاحظات في كرّاساتنا ، لتداعت جحافل الذباب على أوراقنا وأيدينا وأذرعنا ووجوهنا ، وخصوصاً حول أفواهنا وأعيننا ، متنقلة من جسم إلى آخر ، من طوابير الأموات إلى الفئة القليلة من الأحياء ، ومن جثة هامدة إلى مراسل ، وأجسامها الصغيرة الخضراء تتلهف على لحم جديد تقع عليه وتنعم به .

كان علينا أن نتحرك بسرعة قبل أن يلسعنا . إذ أحاط برؤوسنا كأنه سحابة رمادية ، وأخذ ينتظر أن نتكرم عليه بأن نلعب دور الأموات . على أن الفضل يعود إليه في أنه كان الصلة الملموسة الوحيدة

بيننا وبين الضحايا من حولنا ـ الصلة التي تذكّرنا بأن هناك حياة في الموت . ولا بد من القول بأن ذلك الذباب لم يعرف التحيّز . فلم يكن يأبه إطلاقاً بهوية الجثث حتى ولو كانت لضحايا المجازر الجماعية . وكان سيتصرف بالطريقة ذاتها لو كانت الجثث لضحايا أي مجتمع آخر . ولا بد أن الأمر كان كذلك خلال أيام الوباء الكبير في أوروبا .

وفي البدء لم نستخدم كلمة «مجزرة» ولم نتكلم كثيراً لكي لا يجد الذباب طريقه مباشرة إلى أفواهنا . ولهذا السبب أيضاً وضعنا المناديل فوق أفواهنا ومناخيرنا . وفي حين أن رائحة الموتى في صيدا سببت لنا الغثيان ، فإن رائحتهم في شاتيلا جعلتنا نتقيأ . وكانت تنفذ من خلال أسمك المناديل إلى مناخيرنا . وبعد دقائق رأينا الموتى .

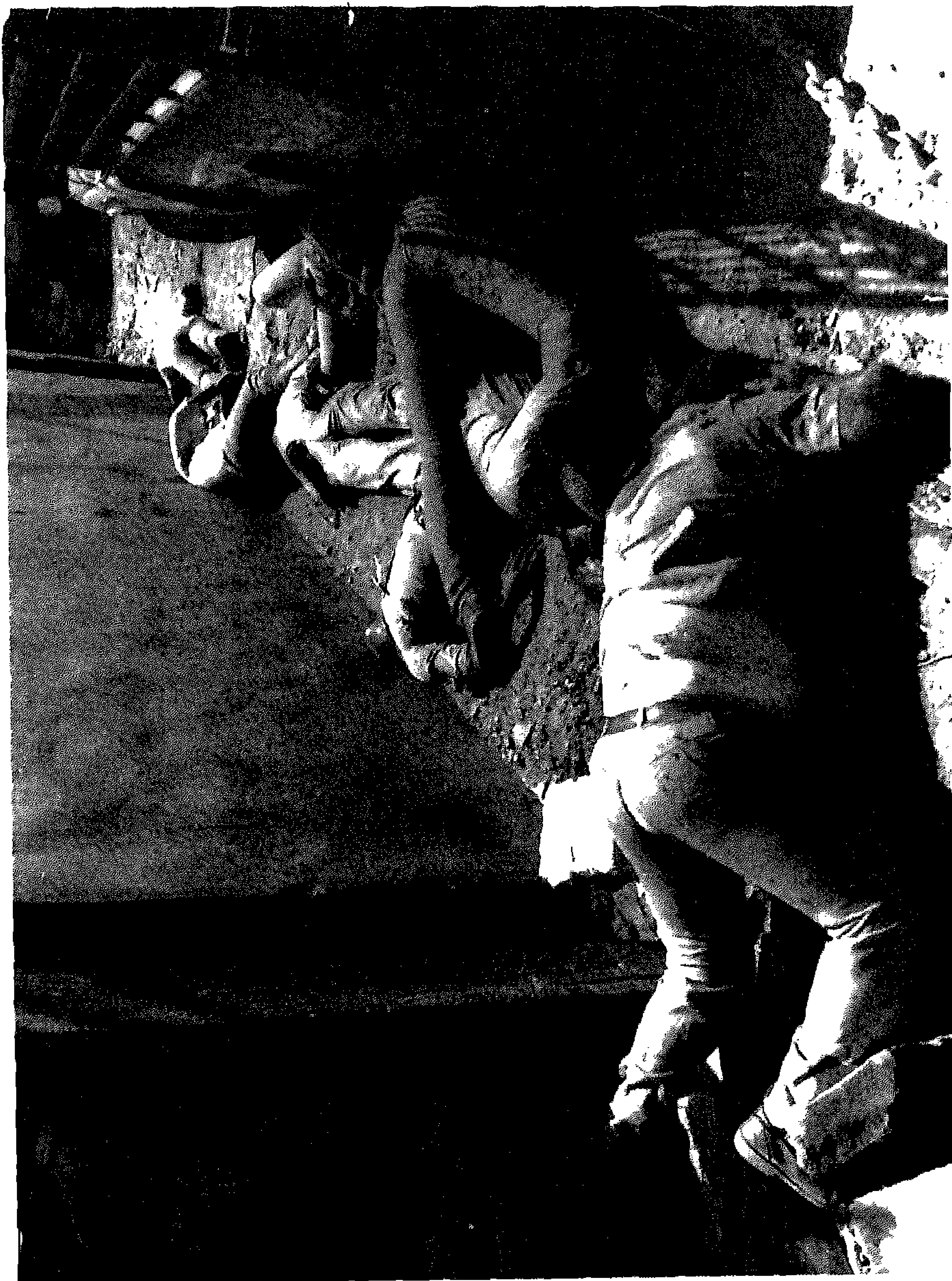
كانوا في كل مكان ، في الطريق ، في الأزقة ، في الساحات الخلفية ، في الغرف المحطمة ، بين الركام وفوق النفايات . وأما القتلة فهم رجال الميليشيا المسيحية الذين سمحت لهم إسرائيل بدخول المخيمات . وكان الدم في بعض الأماكن لا يزال رطباً . وبعد أن أحصينا مئة جثة ، توقفنا عن العد . وكانت جثث الشبان والنساء والأطفال والمسنين ممدة في الزواريب حيث طعنوا بالسكاكين أو قُتلوا بالرصاص . وكان كل دهليز في الركام يكشف عن المزيد من الجثث . واختفى مرضى إحدى المستشفيات الفلسطينية بعد أن أمر المسلحون الأطباء بالخروج . ووجدنا في كل مكان معالم قبور جماعية حُفرت على عجل . وقد بلغ عدد ضحايا المجزرة ألفا أو حتى ألفا وخمسمائة .

وحتى في الوقت الذي كنا فيه داخل المخيمات ـ وسط هذه الأدلة على الوحشية الفظيعة ـ كنا نستطيع رؤية الإسرائيليين وهم يرقبوننا . واستطعنا رؤيتهم كذلك على سطح البناية الثانية في جادة كميل شمعون من الناحية الغربية وهم يجولون بأنظارهم من خلال مناظير الميدان بين صفوف الجثث التي تغصّ بها الشوارع . وكانت عدسات المناظير تلمع أحياناً تحت أشعة الشمس وهم يصوبونها على هذا القسم أو ذاك من المخيم . وأخذ لورن جنكنز يسب ويلعن . لقد كنا جميعاً نشعر بالغثيان . كنا نتنشق رائحة الموت ذاته ، من خلال تحلل الجثث المحيطة بنا . وأدرك جنكنز في الحال أن لشارون وزير الدفاع الإسرائيلي ضلعاً في هذه الفظاعة المرعبة . فصاح قائلاً : «شارون ابن الزانية . هذه دير ياسين ثانية» .

إن ما شاهدناه في مخيم شاتيلا الفلسطيني في العاشرة من صباح ١٨ أيلول/ سبتمبر ١٩٨٢ لا يستعصي على الوصف فحسب ، وإنما يجعل من الأسهل نقل الصورة بلغة الفحص الطبي الذي لا يرحم . لقد حدثت مذابح من قبل في لبنان ، ولكنها نادراً ما كانت بهذا الحجم أو بإشراف جيش نظامي يفترض فيه الانضباط . لقد قُتل عشرات الآلاف في هذا البلد في خضمّ معارك الذعر



طفلة فلسطينية في مخيم صبرا تحمل صورة والدها الذي قتل في المجزرة



مجموعة من القتلى المدنيين إلى جانب منازلهم في صبرا وشاتيلا

والكراهية ، ولكن أصحاب المئات من الجثث المتناثرة حولي ، كانوا من العزّل الذين لا سلاح معهم . لم يكن هذا مجرد «حدث» - وما أسهل استخدام هذا التعبير في لبنان - بل قتلاً جماعياً أو مجزرة تجاوزت كلّ ما كان يصفه الإسرائيليون في ظروف مشابهة بأنه «إرهاب وحشي» . لقد كان من أبشع الفظائع .

أصابنا - أنا و جنكنز و تفايت - ما شاهدنا في شاتيلا بذهول لم نتمكن معه في بادىء الأمر من ترجمة الصدمة إلى كلمات . أما بل فولي مراسل الأسوشيتد برس الذي رافقنا فاقتصر ما كان يقوله وهو يدور حولنا على الشكوى إلى الله من فظائع البشر . كان بوسعنا أن نتقبّل منظر بعض جرائم القتل وحتى مشاهدة عشرات القتلى في ميادين المعارك . لكن الذي كنا نشاهده شيء آخر : جثث نساء في بيوتهن مُزّقت ثيابهن حتى الخصر في حين انفرجت سيقانهن ، وأطفال ذبحوا وقطعت رقابهم ، وطوابير من الشبان أطلقت النار عليهم من الخلف ، وأطفال اسودّت أجسادهم لأنهم ذبحوا قبل أربع وعشرين ساعة ، وألقيت ممزقة مشوّهة في أكوام القمامة بجانب علب الطعام والزجاجات الفارغة وبقايا المواد الطبية الإسرائيلية .

أين كان القتلة؟ أو بلغة الإسرائيليين أين كان «الإرهابيون»؟ بينما كنا نتجه بالسيارة إلى شاتيلا ، شاهدنا الإسرائيليين من أعلى البنايات في بولفار كميل شعمون ، ولكنهم لم يحاولوا إيقافنا . والواقع أننا ذهبنا أولاً إلى مخيم برج البراجنة لأن أحدهم ذكر لنا أن مجزرة وقعت فيه . لكننا لم نشاهد سوى جندي لبناني يطارد سارق سيارة في الشارع . وعندما عدنا ووصلنا إلى مدخل مخيم شاتيلا قرر جنكنز أن نوقف السيارة . وقال : «لا أحب هذا . أين ذهب الناس؟ وما هذه الروائح»؟

كان المرء في الماضي إذا اجتاز مدخل شاتيلا يرى صفاً من البيوت الصغيرة التي يتألف كل منها من طابق واحد . وفي أواخر عام ١٩٧٠ أجريتُ هناك عدداً من المقابلات الصحفية . أما هذه المرة فعندما اجتزنا المدخل الموحل وجدنا أن البيوت قد نُسفت ، وتناثرت كبسولات الرصاص على الطريق الرئيسي ، ورأيت بعض القنابل الضوئية الإسرائيلية وهي لا تزال مشبوكة بمظلاتها الصغيرة . هذا في حين كانت أفواج الذباب تغير على الركام وكأنها تشم رائحة النصر .

رأينا الجثث مكوّمة في زاروب إلى اليمين وعلى بعد خمسين ياردة فقط من مدخل المخيم . وكانت هناك أكثر من اثنتي عشرة جثة لشبان صغار التفت أرجلهم وأيديهم بعضها حول بعض وهم يعانون آلام الموت . وكان كل منهم مصاباً برصاصة أطلقت على صدغه واخترقت مخه . وبدت على الجانب الأيسر من رقاب بعضهم ندوب قرمزية أو سوداء . وخُصي واحد منهم بعد تمزيق بنطلونه والذباب يتداعى على أحشائه .

كانت عيون هؤلاء الشبان مفتوحة ، وأصغرهم لا يتعدى الثانية أو الثالثة عشرة من عمره . وكانوا يرتدون الجينز والقمصان الملونة التي ضاقت عليهم بعد أن انتفخت أجسادهم بسبب الحرارة . ويبدو أنهم لم يُسرقوا ، فقد كانت حول رسغ مسودّ لأحدهم ساعة سويسرية تشير إلى الوقت الصحيح . وكانت مدلاة وكأنها تلفظ أنفاسها الأخيرة .

وشاهدنا في زاروب مغمور بالأنقاض ويتفرع من الطريق الرئيسي جثث خمس نساء متوسطات العمر وعدد من الأطفال فوق كوم من الركام . وكانت جثة إحداهن ممدة على ظهرها وقد تمزق ثوبها وبرز من ورائها رأس طفلة شعرها قصير أسود وأجعد ، وعيناها تحدقان فينا بغضب . لكنها كانت قد فارقت الحياة .

ورأينا طفلة أخرى لا تتجاوز الثالثة من عمرها ملقاة على الطريق وكأنها دمية مطروحة ، وقد تلوث ثوبها الأبيض بالوحل والدم والتراب . وكانت قد أصيبت برصاصة طيّرت مؤخرة رأسها واخترقت دماغها . ورأينا جثة امرأة تضم طفلة إلى صدرها . وكانت الرصاصة قد اخترقت صدرها وقتلت الطفلة أيضاً . وتبيّن أن أحدهم بقر بطنها ومزقه . وربما كان يحاول قتل الجنين الذي لم ير النور بعد . وكانت عيناها جاحظتين ووجهها الأسود قد تجمد بسبب الذعر والهلع .

حاول تفايت أن يسجل بصوته كل الوقائع على شريط باللغة النروجية . وتكلم ببطء ومن غير انفعال . قال : «وجدت جثتين لامرأة وطفلها ، وجثث ثلاث نساء غيرهما» . وأخذ من حين إلى آخر وهو يسجل يضغط على الزر ويوقف آلة التسجيل كالمريض ويميل نحو جانب الطريق للتقيؤ فوق الروث . واكتشفنا أنا وجنكنز وفولي شارعاً ضيقاً وسمعنا صوت عربة مجنزرة على الطريق . نظر إلي جنكنز باهتمام وقال : «إنهم لا يزالون هنا» . وبالفعل كانوا هناك . كان القتلة المجرمون لا يزالون في المخيم . وكان هاجس فولي أن يأخذ رجال الميليشيا المسيحيون فيلمه وهو الدليل الوحيد الذي يعرفه على ما حدث . وأسرع يجري في الزقاق .

وكانت مخاوفنا أنا وجنكنز أكبر من ذلك . فإذا كان القتلة لا يزالون في المخيم ، فإن رغبتهم في التخلص من الشهود ستفوق رغبتهم في الحصول على الصور . ورأينا بوابة معدنية بنية اللون شبه مفتوحة ، ففتحناها وأغلقناها وراءنا بسرعة ، واندفعنا نحو الباحة . وسمعنا صوت جنازير العربة وهي تصطدم بركام الإسمنت والحجارة . فاستولى علينا أنا وجنكنز الخوف ، وأخذ أحدنا ينظر إلى الآخر . ثم شعرنا أننا لسنا وحدنا وأن حولنا شخصاً آخر . وتبيّن لنا أننا بجانب شابة جميلة مستلقية على ظهرها .

كانت مستلقية كأنها تستحم بأشعة الشمس الدافئة . لكن الدم الذي نزف من ظهرها كان لا يزال رطباً . كان القتلة قد غادروا المكان قبل دخولنا بقليل . وكانت الضحية قد ضمّت قدميها وفتحت ذراعيها وكأنها قد شاهدت منقذها . وكان وجهها هادئاً وعيناها مغمضتين وفوق رأسها حبل غسيل عليه سروايل أطفال وجوارب مثبتة بالملاقط . وكانت هنالك ثياب متناثرة على الأرض . ولا بد أنها كانت تنشر ثياب عائلتها حينما دخل المجرمون القتلة . فلما وقعت ، تناثرت الملاقط من يدها فكوّنت حول رأسها دائرة خشبية صغيرة .

وكان المفتاح لمعرفة طريقة قتلها هو خرق في صدرها وبقعة متزايدة الاتساع على الأرض . ولم يكن الذباب قد اهتدى إليها . وظننت أن جنكنز يصلّي ، ولكنه كان يشتم ويلعن ويتمتم بين اللعنة والأخرى «يا إلهي» . وشعرت بحزن شديد على هذه المرأة . ويبدو أن حزن الإنسان على الميت يشتد إذا عرف أنه شاب بريء لم تبدأ جثته بالتحلل . وظللت أتأمل في وجهها وفي الطريقة اللائقة التي استلقت بها تحت حبل الثياب كما لو أنني كنت أنتظر أن تفتح عينيها .

لا بدّ أنها كانت مختبئة في بيتها حين سمعت إطلاق الرصاص في المخيم ، ولعلها استطاعت أن تفلت من المسلحين الذين يدعمهم الإسرائيليون حتى صبيحة ذلك اليوم ، وعندما خرجت إلى ساحة البيت ولم تسمع صوت إطلاق النار ظنت أن الخطر الداهم قد زال فعادت إلى مشاغلها اليومية . ولم يكن باستطاعتها أن تعرف ما حدث . ولا بد أن باب الباحة قد فتح بسرعة كما فتحناه نحن ، فدخل القتلة وراءها ، وغادروا المكان قبل دخولنا إليه بدقيقة أو دقيقتين .

مكثنا في الباحة بضع دقائق أخرى . وكنا أنا وجنكنز نشعر بالخوف . لكننا نجحنا مثل تفايت الذي اختفى مؤقتاً في البقاء على قيد الحياة . وكان وجودي مع جنكنز يشعرني بالاطمئنان . لقد اغتصب الجناة من رجال الميليشيا ـ أي قاتلو هذه الفتاة ـ النساء في شاتيلا ، وقتلوهنّ بالسكاكين ، ثم أطلقوا النار على الرجال . على أنني كنت أظن بأنهم سيترددون في قتل جنكنز لأنه أميركي يعرف كيف يخاطبهم . قال : «دعنا نخرج من هنا» ثم غادرنا . وألقى نظرة على الشارع قبل أن ينطلق فتبعته ، وأغلقت الباب ببطء شديد حتى لا أزعج الشابة الجميلة النائمة التي تحيط برأسها هالة من ملاقط الثياب .

كنا لانزال في مخيم شاتيلا . وعاد فولي إلى الشارع القريب من مدخل المخيم . وكانت العربة المجنزرة قد اختفت مع أنني كنت لا أزال أسمع صوت جنازيرها وهي تصطك بالشارع الرئيسي في طريقها إلى الإسرائيليين الذين ظلوا يراقبوننا . وسمع جنكنز صوت تفايت قبل أن يتوارى عن نظره وراء كوم من الجثث . وفجأة وجدت نفسي أمام شاب مال على عمود بيت ويداه خلف رأسه .

وكنت أسمع جنكنز وتفايت وهما على بعد مئة ياردة تقريباً وعلى الجانب الآخر من متراس عال مغطى بالرمل والتراب ، ويرتفع نحو ١٢ قدماً . وكان من الواضح أن إحدى الجرافات أقامته قبل ساعات . وصعدت بصعوبة على أحد جوانبه وقدماي تنزلقان فوق كتل القذارة الإنسانية . وفقدت توازني عند القمة ، فاستندت إلى عمود من الحجر المسودّ الناتىء من الأرض . وسرعان ما تبيّن أنه ليس حجراً لأنه كان دافئاً ولزجاً ولصق بيدي . وعندما أمعنت النظر إليه وجدت أنه كوع إنسان مغروس في الأرض .

يا لهول ما رأيت ! وجدت نفسي ألقي بالكوع بذعر وهلع وأنفض لحم الميت عن سروالي ، وأقفز الخطوات الأخيرة نحو قمة الحاجز . لكن الرائحة كانت مرعبة . وفجأة رأيت تحت قدمي وجهاً ينظر إلي وقد طار نصف فمه . وكان من الواضح أنه أصيب برصاصة أو طعن بسكين . أما النصف الثاني من فمه فكان يعج بالذباب . وحاولت أن أنظر إليه . ورأيت جنكنز وتفايت يقفان بعيداً بجانب بضع جثث تكوّمت أمام أحد الجدران . ولم أستطع أن أصرخ طالباً مساعدتهما خوفاً من أن أصاب بمرض إذا فتحت فمي .

مشيت على قمة الحاجز ، وأخذت أبحث كاليائس المستميت عن مكان أقفز منه إلى الجانب الآخر . لكن وجدت أنني كلما تقدمت خطوة ، ارتفع التراب أمامي . وأخذ الحاجز كله يهتز اهتزازاً مخيفاً تحت قدمي . وعندما نظرت إلى الأسفل تبيّن لي أن الرمل لم يكن إلا غطاء رقيقاً وضع لإخفاء الوجوه والأطراف البشرية عن الأعين . ورأيت شيئاً كالحجر ، فإذا به معدة إنسان . ورأيت رأس رجل وصدر امرأة عارياً وأقدام طفل ! يا للفظاعة ! . كنت أسير على عشرات الجثث التي كانت تهتز تحت قدمي .

كان أحدهم قد دفن الجثث والذعر يستولي عليه . ثم جُرفت كلها إلى جانب الزاروب . والواقع أنني عندما رفعت رأسي شاهدت جرافة بلا سائق تشهد على الجريمة البشعة .

وعبثاً أخذت أحاول بكل طاقتي أن لا أطأ على الوجوه بقدمي . فنحن جميعاً نشأنا على احترام الموتى حتى على هذا الحاجز وفي تلك اللحظة ، وظللت أقول لنفسي بأن هذه الجثث المرعبة ليست جثث أعداء وأن أصحابها يوافقون على وجودي بينهم ، وأنهم يريدون أن يشهد تفايت وجنكنز هذا كله ، وعليه فلا مبرر لخوفي من الوقوف فوق جثثهم . على أنه لم يسبق لي أن شاهدت كل هذا العدد من الجثث .

قفزت إلى الأرض وركضت باتجاه جنكنز وتفايت . وأظن أنني كنت أئن بشكل سخيف لأن

جنكنز أخذ ينظر حوله باستغراب . ولم أكد أفتح فمي لأتكلم حتى دخل إليه الذباب . وكان تفايت يبدو مريضاً وهو ينظر إلى الجثث التي بدت كالأكياس بجانب الجدار . وكانت جثث شبان وفتيان ممدة على الأرض في صف واحد . وكانوا قد أعدموا رمياً بالرصاص وأطلقت النار عليهم من الخلف وهم يقفون صفاً واحداً ووجوههم إلى الحائط . وبقي كل منهم حيث وقع .

إن هذا الجدار ومجموعة الجثث يذكّرنا بشيء كنا رأيناه جميعاً من قبل . ولم ندرك إلاّ فيما بعد كم كان هذا المشهد مشابهاً لتلك الصور الفوتوغرافية للإعدامات التي جرت في أوروبا خلال الحرب العالمية الثانية . وعندما انحنيت لأنظر عن كثب إلى هذه الجثث التي تبلغ بين اثنتي عشرة إلى عشرين جثة لاحظت وجود الجرح ذاته على الجهة اليسرى من حلوقهم . ومعنى هذا أنهم كان يجرحون حلوق «الإرهابيين» الذين كانون يحكمون عليهم بالاعدام رمياً بالرصاص .

في تلك الأثناء سمعنا أحدهم يصيح بالعربية : «لقد رجعوا» . فاستولى علينا الخوف وركضنا نحو الطريق . وأعتقد أنه إذا عدنا بالذاكرة إلى ما حدث ندرك أن الغضب هو الذي منعنا من مغادرة المكان ، لأننا انتظرنا آنذاك قرب مدخل المخيم علّنا نلمح وجوه الذين يتحملون وزر ما حدث . لا بدّ أنهم دخلوا المكان بإذن من الإسرائيليين ، ولا بد أن الإسرائيليين هم الذين أمدوهم بالسلاح . وكان الإسرائيليون يشاهدون بوضوح وعن قرب ما يجري . وهم الإسرائيليون الذي كانوا يرقبوننا بمناظيرهم .

وسمعنا صوت عربة مدرعة إسرائيلية أو كتائبية تتحرك وراء جدار يقع إلى الغرب . غير أنه لم يظهر أحد . فواصلنا السير . وتكررت المشاهد أمامنا . فقد كانت الأسر في شاتيلا قد أوت إلى فراشها في غرف النوم عندما اقتحم المسلحون أكواخهم . ورأينا جثثهم ممددة على الأرض أو متكومة تحت الكراسي . وبدا أنه قد جرى اغتصاب كثرة من النساء . وكانت ملابسهن مبعثرة على الأرض ، وألقيت أجسادهن فوق أجساد أزواجهن وكلهم متشحون بسواد الموت .

وكان في المخيم زقاق جانبي آخر على أوحاله آثار جرافة أخرى . وقادتنا تلك الآثار حين تتبعناها إلى قطعة أرض مساحتها نحو مائة ياردة مربعة . ولاحظنا أنها حُفرت قبل وقت قصير . وكانت أفواج الذباب متجمعة عليها وتنبعث منها الرائحة الرهيبة المألوفة . وداخلنا الشك في أمر المكان ، وخطر ببالنا أن يكون فيه قبر جماعي حُفر بسرعة .

وقويت شكوكنا عندما أخذت أحذيتنا تغوص في أرض طرية ، ورأينا على الأرض سائلاً شبيهاً بالماء ، فتراجعنا وقد تملكنا الهلع إلى موضع آثار الجرافة .

وكان دبلوماسي نروجي من زملاء آن ـ كارينا قد حضر بسيارته عبر الطريق ذاته قبل بضع ساعات ، وشاهد جرافة تحمل في مغرفتها الحديدية نحو اثنتي عشرة جثة تدلّت منها الأذرع والأرجل . من الذي حفر الأرض بهذه المهارة؟ من الذي كان يسوق الجرافة؟ شيء واحد كنا متأكدين منه وهو أن الإسرائيليين يعرفون ما حدث ، وأنهم شهدوا حدوثه ، وأن حلفاءهم من الكتائبين ومسلحي سعد حداد أرسلوا إلى شاتيلا فاقترفوا جريمة القتل الجماعية هذه .

إنه أفظع عمل إرهابي في تاريخ الشرق الأوسط الحديث ، وهو الأكبر حجماً وزمناً ، وارتكبه أفراد يعرفون تمام المعرفة أنهم يذبحون أناساً أبرياء .

ومن أغرب وأفضل الصدف أن بعضهم نجا من المجزرة . إذ نادانا ثلاثة أطفال كانوا على سطح أحد المنازل وقالوا أنهم اختبأوا خلال المذبحة . وصرخ عدد من النساء اللواتي كن ينتحبن وقلن بأن رجالهن قتلوا . وقال جميعهن بأن الذين اقترفوا الجريمة هم رجال حداد والكتائب ، ووصفن بدقة شارات كل من الفريقين .

وكانت على الطريق الرئيسية جثث أخرى . وأشارت إحدى النساء إلى جثة رجل وقالت : «هذا هو جاري السيد نوري الذي يبلغ التسعين من عمره» . ورأيناه ممدداً فوق القمامة على الرصيف ، بلحيته الرفيعة وقبعته الصوفية التي كانت لا تزال على رأسه . وشاهدنا رجلاً مسناً آخر ممدداً أمام بيت وعليه بيجامته . ويبدو أنهم أمسكوا به وذبحوه وهو يحاول النجاة بنفسه . والأمر الذي يصعب تصوره وتصديقه هو أنه كانت هناك خيول مقتولة بجانب أحد الأكواخ . وكان حافر أحدها على الجدار مما يدل على أنه قتل وهو يحاول الهرب .

كان قد دار قتال داخل المخيم . فالطريق قرب جامع صبرا كانت زلقة وعليها علب الرصاص وأنواع الذخيرة وبعض التجهيزات السوفييتية من النوع الذي كان يستخدمه الفلسطينيون . وحاول قليلون من رجال المخيم كانوا لا يزالون يحتفظون بأسلحتهم أن يدافعوا عن عائلاتهم . لكن لا سبيل الآن إلى معرفة ما فعلوه . ترى متى عرفوا أن أهلهم كانوا يذبحون؟ وكيف تسنّى لهم أن يقاتلوا بذلك السلاح القليل؟

وكان في وسط الطريق كلاشينكوف خشب يلعب به الأطفال . وحتى هذا كان قد انشطر .

أخذنا نذرع المخيم مرة بعد أخرى . وكنّا في كلّ مرة نشاهد في الخنادق المزيد من جثث الذين صفّوا قبل إطلاق النار عليهم . وبدأنا نتعرف على الجثث التي سبق لنا أن رأيناها . فهناك المرأة والطفلة

التي تطل من وراء كتفها . وهناك السيد نوري الذي ألقيت جثته فوق القمامة . وفي إحدى المرات نظرت إلى المرأة والطفلة كمن يتوقع أن يجدها قد تحركت أو في وضع مختلف . كان الموتى قد أصبحوا في نظرنا أناساً أحياء .

وإلى الشمال في صبرا جاءت إلينا اللواتي استولى عليهن الخوف باكيات يطلبن المساعدة . كان رجالهن وأبناؤهن وأزواجهن وآباؤهنّ قد أخرجوا من بيوتهم ساعة المجزرة . بعضهم وجدت جثثهم ، وبعضهم لم يعثر لهم على أثر . وشاهد مراسل لوكالة رويتر رجالاً تحت حراسة الجنود الإسرائيليين بين أطلال المدينة الرياضية . وحضر المزيد من الصحفيين ومصوري الصحف اللبنانيين والدبلوماسيين .وكان بينهم مندوبان سويسريان للصليب الأحمر الدولي ، أرشدناهما إلى مكان القبور الجماعية . وكان بينهم كذلك مراسل للإذاعة السويدية .

وجدنا في المدينة الرياضية المئات من الأشخاص المفقودين الذين ذكرهم لنا مراسل رويتر . وكانت غالبيتهم من اللبنانيين الذين كانوا يعيشون في صبرا . وكان المسلحون قد ساقوهم إلى هناك لاستجوابهم . وكانت تحرس الجانب الغربي للمدينة الرياضية قوات من الجيش الإسرائيلي ورجال من الاستخبارات الإسرائيلية «شين بت» بملابسهم العادية ونظاراتهم الشمسية ورشاشات أوزي . وكان هناك أيضاً مسلحون من رجال الميليشيات . ورأيت ثلاثة منهم يسوقون رجلاً استولى عليه الذعر . ومن الواضح أن الإسرائيليين هم الذين سمحوا للمسلحين بالقيام بذلك . وذكر لنا الإسرائيليون أنفسهم أن ما يجري هو عملية بحث عن «الإرهابيين» . الإرهابيون مرة أخرى .

إن كلمة «إرهابيون» ذاتها أصبحت من الكلمات القذرة . صارت تدل على الإجرام . وهي التي أدت إلى اقتراف تلك الفظائع . وشاهدت أنا وجنكنز مئات من السجناء الذين وقفوا أو جلسوا على التراب بجانب الجدار . وسرت نحوهم متجاهلاً الإسرائيليين . وكان من الواضح أنهم ظنوا أننا أنا وجنكنز من رجال مخابرتهم فلم يوقفوني . فنزلت إلى غرفة في الطابق السفلي من المدرج كانت تستخدم كزنزانة . فصاح أحدهم : «ساعدونا» . وعندئذ ظهر أحد الجنود الإسرائيليين ، فقلت : «صحافة» فقال : «اخرج من هنا ، هؤلاء إرهابيون» .

لكنهم لم يكونوا إرهابيين . فعلى بعد بضعة أمتار رأى مراسل لرويتر في إحدى الزنزانات لبنانياً من كورنيش المزرعة كان يعمل عنده على التلكس . فذهبنا إلى ضابط إسرائيلي برتبة كولونيل اسمه تات ألوف وأخبرناه أننا وجدنا موظفاً لدى رويتر يعمل على التلكس ، وأنه من الواجب إطلاق سراحه . وبعد أخذ ورد وكثير من الرجاء سلّم الرجل إلينا . فسار به موظف رويتر البريطاني وذراعه حول كتفيه .

وقال لنا سجين كان في زنزانة أخرى : «إنهم يأخذوننا واحداً بعد آخر للاستجواب . وهم من ميليشيا حداد . وهم في العادة يعيدون السجناء بعد استجوابهم ولكن ليس دائماً . فمنهم من يؤخذ ولا يرجع . وظهر كولونيل إسرائيلي آخر وأشار إلي وطلب مني الرحيل . وأردت الاستمرار في الكلام ولكن السجناء لاذوا بالصمت . فسألت الكولونيل : «لماذا لا يستطيعون الكلام؟» فأجاب : «يستطيعون ذلك إذا أرادوا . ولكن ليس لديهم ما يقولونه» .

كانت أقرب الجثث تقع على بعد ٥٠٠ ياردة . وكانت رائحتها قوية في المكان الذي كان يقف فيه الجنود الإسرائيليون ورجال الشين بت لكنهم استمروا يتحدثون عن «الإرهابيين» . وهذا بالطبع إنكار بشع للواقع . والتقى جنكنز بضابط كان قد تعرف إليه . قال هذا : «هؤلاء موقوفون للاستجواب . إذ يُشتبه في أنهم إرهابيون» . ولم يكن لما قاله أي صلة بالواقع . فقلت : «اسمح لي بكلمة . ما الذي يجري هنا؟ الجثث في كل مكان . إنها هناك . انظر ، هناك أكوام منها» . قال : «لا أدري» فقلت : «يمكنك أن تشم رائحتهم» فقال : «آسف ، لا معلوما ت لدي» .

كان هذا الإسرائيلي ممتلئاً طويل القامة ، قوي البنية ، . له شعر قصير أسود وسحنة سمراء . قلت له : «اسمح لي أن أقول لك بأن هذه المشاهد تبدو مشابهة بعض الشيء لما في (معتقل الإبادة النازي) تربلنكا . وكانت هذه هي أول مقارنة خطرت ببالي . ولم أقل تربلنكا لأن اليهود قتلوا هناك ، بل لأنه كان معتقل إبادة . فنظر إلي الإسرائيلي بدون أي تأثر .

كنت أحاول أن أصوّر له فظاعة ما حدث وأنه ليس مجرد تجاوز بل مجزرة اقترفها حلفاء إسرائيل أمام سمع الإسرائيليين وبصرهم . وسألته : «ألا تشم رائحة الهواء؟» وكنت أتوقع أن يجادلني أو أن يقول بأنه لا وجه للمقارنة بين ما حدث وبين تربلنكا . لكنه لم يفعل . إذ كان عليه أن يتظاهر بأنه لا يعرف ما بداخل مخيم شاتيلا .

وقال له جنكنز بغضب : «لماذا لا تقول لنا ماذا حدث؟ قل لنا ما الذي حدث . هل سمحتم بالأمس للميليشيا المسيحية بدخول هذا المكان»؟ قال الإسرائيلي : «لم أكن هنا البارحة . ولم أصل إلا هذا الصباح» .

فزوى جنكنز ما بين عينيه وثارت ثائرته وصاح قائلاً : «أنت تكذب . لقد كنتَ هنا البارحة ، ورأيتك بعيني ، وأوقفت سيارتي عندما كنت متجهاً إلى شاتيلا . لقد تحدثت معك البارحة . كنت هنا . إنك تكذب» .

كان من الواضح أن الإسرائيلي تذكر جنكنز فرفع يده قائلاً : «ظننت أنك تسألني عن شيء آخر . لا أتذكر وليس لدي أية فكرة عما كان يحدث هنا» .

وشاهدنا صفاً من دبابات الميركافا على الطريق الرئيسي ورجالها يجلسون على أبراجها يدخنون ويتفرجون على الناس وهم يساقون من الملعب فرادى أو كل اثنين معاً ، وبعضهم يطلق سراحه والبعض الآخر يسوقه رجال المخابرات الإسرائيلية أو اللبنانيون الذين كانوا يرتدون بدلاً خاكية فضفاضة .

ثم عدنا إلى المخيم حيث أقبلت عليّ امرأة فلسطينية على فمها ابتسامة قاسية وقالت : «هل حصلت على صور جيدة؟ وهل لديك ما يكفي للكتابة؟ هل تسير أمورك على ما يرام؟ إنه يوم جميل ، أليس كذلك؟» وظننت أنها ستصب لعناتها على رأسي ، ولكنها واصلت سخريتها المقصودة فقالت : «أنتم رجال الصحافة تلتقطون صوراً جيدة . آمل أن يسير كل شي معك على ما يرام ، طاب يومك» .

ذهب جنكنز ليتصل مع مكتبه بالتلكس . وانطلق تفايت بسيارته إلى فندق الكومودور لاستخدام التلفون . وعدت أدراجي عبر المخيم وأنا أضع منديلي فوق وجهي . ومررت بالسيد نوري وبالرجل المسن الآخر ، وسرت إلى يسار جدار الإعدام فحاجز الجثث ، والجرافة الخاوية ، والخيول المقتولة ، والمرأة التي تنظر الطفلة ـ من فوق كتفها . وعندما دنوت من باب المخيم ، عند الممر الذي يؤدي إلى الطريق الرئيسية بين السفارة الكويتية ومنطقة الفاكهاني ، أدركت أنني كنت المخلوق الحي الوحيد في هذا الجزء من المخيم .

وسمعت هدير محركات على الطريق . وعندما نظرت فوق الجدار الواقع خلف الأشجار شاهدت صفاً من الدبابات الإسرائيلية ، وطرق سمعي صوت ضابط إسرائيلي يصيح من مكبّر على السيارات المصفحة : «ابتعدوا عن الشوارع . إننا نبحث فقط عن الإرهابيين . ابتعدوا عن الشوارع . سوف نطلق النار» .

تجاوز ما كان يجري كل حدود البشاعة . فالإسرائيليون يأمرون الأموات بأن يبتعدوا عن الشوارع . هل هناك ما هو أكثر سخافة وغرابة ووحشية؟ وسرت إلى البوابة ومنديلي على فمي وأنفي . ورأيت خلف جدار المخيم صف الدبابات الإسرائيلية يتبعه صفان من المشاة الإسرائيليين . وحينما بلغوا مدخل شاتيلا اندفعوا إليه بأقصى سرعة ، وبنادقهم بأيديهم وتمركزوا في الداخل ، وكل منهم يحمي الآخر من شبح الإرهابيين .

وسرت في الشارع ، فتقدم مني ضابط صغير وقال : «ليس مسموحاً لك بالدخول إلى هنا . أخرج» . فقلت له : «صحافة» . ورفضت لأنني كنت قد شاهدت بما فيه الكفاية . فقال : «إنني آمرك بالرحيل في الحال» . فهززت رأسي ولم أتحرك . وشعرت بالغثيان . فالرائحة النتنة كانت تنبعث من ثيابي . أجل ، كانت تفوح مني رائحة الأموات . لم أعد آبه للأوامر بعد كل ما شاهدته . وجعلني أولئك الجنود أتسمر في مكاني . وكانوا لا يزالون يتراكضون عبر مدخل المخيم لتحاشي «الإرهابيين» الوهميين .

تقدم الضابط مني وحملق في وجهي فقلت له : «لا أحد هنا» . فما كان منه إلا أن صرخ في وجهي قائلاً : «أمرتك بأن تغادر المكان . افعل ما تؤمر به» . قلت : «أنت لا تفهم . كل شخص هنا مات . ماتوا جميعاً . ولن تجد سوى الأموات» . وكان إلى جانب الضابط ثلاثة جنود إسرائيليين ينظرون إليّ كما لو كنت مجنوناً . فنظرت إلى الضابط لأنني اشتبهت بأنه مصاب بشيء من الجنون وقلت : «لا لن أذهب» .

ووضع أحد الجنود يده على ذراعي ، وقال : «في المخيم إرهابيون . وسوف يقتلونك» . فقلت له : «هذا غير صحيح . كل من في هذا المخيم قضى نحبه . ألا تشم رائحتهم؟» فنظر إليّ غير مصدق لما أقول . فأضفت : «تأكد أن النساء والأطفال قد قتلوا هناك . وبينهم رُضّع» . فأشار إليّ الضابط بدون اهتمام بما قلت . وقال قبل أن يتابع سيره : «سوف يقتلونك» .

أخذت أشعر بأنني ممثل في فيلم بوليسي يقوم بالإبلاغ عن جريمة قتل ، فيتهم باختلاقها . ولعلني لو رجعت إلى شاتيلا عندئذ ، لوجدت أن الجثث قد اختفت ، والشوارع قد نظفت والأكواخ قد أعيدت ، وأن سكانها الأموات يطهون طعامهم أو ينعمون بالقيلولة في غرف النوم الخلفية التي أشرنا إليها .

فعبرت الطريق باتجاه أحد صفوف المشاة الذين كانوا يقتربون من مدخل المخيم . وسرت بمحاذاة جندي طويل بدت على وجهه علامات الدماثة . فسألته :

ـ ماذا يجري؟ فأجاب :

ـ لا يُسمح لي بأن أتحدث معك . فقلت له :

ـ صدقني إنني جاد فيما أقول . ما الذي يجري؟

وأحسست بأنه يحاول أن يكون لطيفاً معي . وكان يرتدي بذلة متسخة ويحمل بندقية من بنادق

الجليل الهجومية ولكن بدون توتر . ويدا لي أنه جندي محترف يشعر بالتعب وبالحاجة إلى أصدقاء . فقلت له :

ـ لن تجد هنا سوى الأموات . لقد قُتل الأطفال والنساء فسأل :

ـ لماذا؟ وكنت أحاول أن أكتشف إذا كان على علم بما جرى . فأضاف يقول :

ـ لقد كان المسيحيون هنا . ولا أدري لماذا . لا أدري لماذا ولا علاقة لي به . لم أكن هناك .

وما أن وصلنا إلى بوابة المخيم حتى وقف على أهبة الاستعداد للقتال .

وحتى هذا الرجل الأليف الجذاب كان مستعداً لقتال الأشباح . وسرت باتجاه مدخل شاتيلا . ووقفت في وسط الطريق . وعجبت من الكابوس الذي يسيطر على هؤلاء الجنود الشبان . فكم كانت دهشتي كبيرة عندما جثموا هم أيضاً عند جانب من المدخل ، ثم ركضوا نحو ثلاثين قدماً إلى الجانب الآخر ، ثم جثموا مرة أخرى على مقربة مني وهم يصوّبون بنادقهم نحو المخيم . وتصوّرت أنهم زمرة من المجانين . ولا بد أنهم تصوروني كذلك . إذ كانوا يؤمنون بصورة لا تقبل الشك بأن «الإرهابيين» كانوا في شاتيلا .

هل كان باستطاعتي أن أوضح لهم بأن الذين يبحثون عنهم ذهبوا ، وأن الإرهابيين الحقيقيين قد ارتدوا زيّاً إسرائيلياً ، أرسلهم الضباط الإسرائيليون إلى شاتيلا ، وأن ضحايا الإرهابيين لم يكونوا إسرائيليين بل فلسطينيين ولبنانيين؟ لقد حاولت ذلك .

سرت بمحاذاة أولئك الجنود وأخبرتهم بأنني صحفي وأخذت أسألهم عن أسمائهم . وما هي إلا دقائق حتى اعتادوا على وجودي بجانبهم . وهكذا تسنّى لي معرفة موشي ورفائيل ، وبني . وظلوا طوال الطريق إلى شاتيلا يحملون بنادقهم الثقيلة وهم في فزع من الإرهابيين .

إرهابيون ! إرهابيون ! إرهابيون .

لم تخل جملة واحدة قالوها من كلمة إرهابي ! وكأنها علامة وقف داخل الكلام . وبدا وكأنه لا يمكن لأي عبارة أن تستقيم ولأي معتقد أن يصح بدون كلمة إرهابي . قال بني :

ـ الإرهابيون في كل مكان . كن حذراً .

كان بني من عسقلان ويريد العودة إلى بيته وزوجته . وكان غرضه من المجيء إلى لبنان هو التخلص من الإرهابيين ، ومتى تم ذلك عاد إلى إسرائيل . قلت له :

ـ لكن منظمة التحرير رحلت عن بيروت . ألم تشاهد رحيلها؟ ألم تقرأ عنه في الصحف . قال :

ـ إنهم لم يرحلوا . ولا يزال الكثيرون منهم هنا . ولهذا السبب تجدني في هذا المكان . قلت :

ـ لكن الناس هنا في شاتيلا قُتلوا . قال :

ـ ذلك ما لا أعرفه . لكني أعرف أن الإرهابيين في كل ناحية من هذا المكان . هذا مكان خطر جداً . ألم تسمع إطلاق النار؟

فأخذت أشرح له كيف أن رجال الميليشيا اللبنانيين هم الذين يطلقون النار على الإسرائيليين لأن هؤلاء غزوا بيروت ، وأن بعض الفلسطينين أطلقوا النار للدفاع عن أنفسهم ضد المسلحين المسيحيين الذين اقتحموا مخيمهم . إلا أن شرحي ذهب سدى .

زحفت طوابير الإسرائيليين وعبرت ضواحي بيروت الجنوبية إلى غاليري سمعان مقابل خطهم الأمامي الذي كانوا يحاصرون منه بيروت . وهناك وأخيراً ظهر لهم إرهابي عقد العزم على مقاومتهم وأطلق النار . واستدللت من صوت الرصاص أن مصدره كان أحد الشوارع المتفرعة من بولفار العريس ، لكن الإسرائيليين اعتقدوا أنه أطلقها من بناية مهدمة .

لم تكد تطلق النار حتى ألقى الجنود الإسرائيليون بأنفسهم في القاذورات بجانب الطريق . وألقيت أنا بنفسي في خندق قريب فإذا بي بجوار رائد إسرائيلي .

وفي تلك الأثناء أقبلت عربة جند مصفحة وأخذ من فيها يطلقون النار من مدفع فولكان مزّق البناية المهدمة وحوّلها إلى قطع صغيرة تناثرت كقصاصات الورق . وظللت أنا والرائد رابضين في الخندق مدة خمس عشرة دقيقة . وعندما سألني عن شاتيلا أخبرته عما رأيت . فقال :

ـ أود أن أقول لك بأنه كان من المفروض أن يكون رجال حداد معنا . وقد اضطررنا بالأمس إلى إطلاق النار على اثنين منهم . فقتل أحدهما وجرح الآخر . وألقينا القبض على اثنين آخرين . وكان هؤلاء قد أساؤوا التصرف . هذا كل ما أستطيع أن أقوله لك .

وعندما سألته إن كان ذلك قد حصل في شاتيلا وإذا كان عندئذ هناك ، فلاذ بالصمت .

وفيما بعد اكتشفت أن جانباً واحداً فقط من قصته كان صحيحاً . وفي تلك الأثناء زحف نحوي عامل الراديو الذي كان يصحب الرائد . وكان شاباً صغيراً . فأشار إلى صدره . وقال : نحن الإسرائيليين لا نقوم بمثل تلك الأعمال . إنهم المسيحيون .

إذن هل كنا نعرف نحن الصحفيين ماذا حدث بالضبط حتى بعد أن سمعنا ما سمعناه ، وبعد كل تلك الشواهد ، وبعد أن تجاهلنا جميع غرائزنا الصحفية ، وبعد أن شاهدنا بأعيننا ما شاهدناه في شاتيلا؟

عندما عدت إلى مكتب الأسوشيتد برس وجدت أن خطوط التلكس والكمبيوتر والتلفون معطلة . وكان ستيف هندي ـ وهو من مكتب الأسوشيتد برس في القاهرة يدير المكتب في غياب تاترو الذي كان في عطلة . وكان هندي يتحدث مع لابل وفولي عما رأياه . فسألهما :

ـ هل أنتما متأكدان من أنها كانت مجزرة؟ فأجابه فولي الذي كان يلوّح بالصور أمامه :

ـ أنظر إليهم . فأنت لم تذهب بعد إلى هناك . فقال هندي :

ـ وكم عدد الموتى؟ فأجاب فولي :

ـ وما أهمية الأعداد أيها المغفل؟ إنها مجزرة . فقال هندي :

ـ مجزرة! تقول مجزرة؟ ألم ترتكب مجازر في لبنان؟

كنت في زاوية الغرفة استمع إلى هذا الجدل . وكانت رائحتي عفنة . وكان اليوم يوم سبت ومعنى ذلك أن التايمز لم تكن ستطبع قبل ليلة الأحد . وكان باستطاعتي أن أذهب إلى منزلي إذا شئت ، لكن الحديث كان جزءاً من المأساة ذاتها التي كنت قد شاهدتها صباح ذلك اليوم . على أي حال كان لا بد من الإجابة على عدد من الأسئلة .

متى يكون القتل من الفظائع؟

ومتى تصبح الفظائع مجزرة؟

كم قتيلاً يجعل الأمر مجزرة؟ ثلاثون ، مائة ، ثلاثمئة؟

أو بعبارة أخرى : متى لا تكون المجزرة مجزرة؟

ومتى لا تكون الأرقام كافية لاعتبارها مجزرة؟

وهل تكون مجزرة إذا قام بها حلفاء إسرائيل لا أعداؤها .

هذا ما تصورت أن الجدل يدور حوله . فلو دخل الجنود السوريون إلى إسرائيل وحاصروا إحدى المستوطنات الجماعية المعروفة باسم الكيبوتز ، وسمحوا لحلفائهم الفلسطينيين أن يذبحوا سكانها

اليهود ، لما ترددت أي وكالة من وكالات الأخبار الغربية في تسمية ما حصل بالمجزرة . لكن الضحايا في بيروت كانوا من الفلسطينيين .

لا ريب في أن المجرمين كانوا من المسلحين المسيحيين الذين لا نزال نجهل الجهة التي ينتمون إليها ، لكن إسرائيل كانت طرفاً في الجريمة . فإذا صح أن الإسرائيليين لم يشاركوا في قتل الفلسطينيين ، فإنهم ـ من غير شك ـ هم الذين أرسلوا الميليشيا إلى المخيم ، ودربوهم وزودوهم باللباس ، وحصص الطعام من الجراية التي يوزعها الجيش الأميركي على جنوده ، بالإضافة إلى المعدات الطبية الإسرائيلية . ثم أخذوا يراقبون القتلة في المخيمات وأمدوهم بالمساعدة العسكرية . فقام الطيران الإسرائيلي بإسقاط كل تلك القنابل الضوئية لمساعدة المسلحين الذين كانوا يقومون بقتل أهالي صبرا وشاتيلا . هذا بالإضافة إلى أن الإسرائيليين أقاموا جهاز ارتباط مع المجرمين في المخيمات .

كل ذلك عرفناه قبل عصر يوم السبت . ومع هذا كان هندي يجادل في أمر تسمية ما حدث بالمجزرة .

كان فولي لا يزال يصيح مرة بعد أخرى : «إذهب وتحقق بنفسك . وأخذ يرفع صورة بعد أخرى لجثث الأشخاص التي التصقت كل منها بالأخرى . وكانت بين الصور صورة طفل بلا دماغ ، وصورة امرأة اخترقت الرصاصة صدرها . ثم أخذ يصيح بصوت مشحون بالعاطفة وعصبية ظاهرة . كما لو كان يبيع صوراً فاضحة لأحد الزبائن على شاطىء البحر :

ـ وهذه الصورة ، وهذه . . . وتلك . قل لي بالله عليك أليست هذه مجزرة .

عدت إلى منزلي وأنا أشعر بأنني مريض بسبب رائحة ملابسي . وقضيت أكثر من ساعة في الحمام أغسل جسمي لعلي أزيل الرائحة النتنة فلم أستطع . وبعد أن أويت إلى فراشي بأربع ساعات أفقت وأنا أتصبب عرقاً ، وتقيأت . وكنت مقتنعاً بأن جثث شاتيلا مكوّمة على الملاءات والبطانيات في فراشي ، وأنني كنت مستلقياً بينها ، وأنها كلها وحتى السيد نوري ذاته في الغرفة . وفي الصباح رفضت السيدة عائشة التي تنظف البيت أن تغسل ملابسي ، وقالت انها نتنة .

وما أطلّ اليوم التالي حتى كان اسم شاتيلا قد أصبح عاراً في جبين المجرمين ، وغص بمراسلي الصحف والمصورين والدبلوماسيين . وللمرة الأولى منذ المذبحة فاق عدد الأحياء عدد الموتى . ولما كانت الجثث معرضة لحرارة الشمس فإنها أخذت تتمدد وتلتوي متخذة أشكالاً مختلفة ، وانتفخ بعضها إلى حد ضاقت معه الألبسة والأحزمة عليها ، وغاصت أشرطة الساعات في لحمها . وكانت

تظهر عليها الفقاقيع وهي تحترق بأشعة الشمس وينزّ منها سائل أسود لزج تجمّع حول جدران الإعدام .

ولم يكن في وسع أحد أن ينشر صور هذه المشاهد أو أن يصفها في الصحف .

عاد الكومبيوتر بمكتب الأسوشيتد برس إلى العمل ظهر يوم الأحد . فأرسلت تقريراً مطولاً للتايمز عن كل ما شاهدته في صبرا وشاتيلا ، وعن رجال الميليشيا المسيحيين حلفاء إسرائيل ، وعن الانسحاب الشائن للجنود الإسرائيليين من محيط المخيمات ، وعن انهيار مهمة توطيد «القانون والنظام» في بيروت الغربية التي الزمت إسرائيل نفسها بالقيام بها ، وأخذ الإسرائيليون ينحون باللائمة على الأميركيين .

واجتمع الفلسطينيون والإسرائيليون ولو لمدة وجيزة على سياسة واحدة وهي لوم الولايات المتحدة . وقد يكون للفلسطينيين بعض الحق في ذلك . إذ أبلغ فيليب حبيب منظمة التحرير بأن الإسرائيليين لن يدخلوا بيروت إذا رحل عنها المقاتلون . على أن المارينز غادروا في وقت مبكر ـ بعد قدومهم بسبعة عشر يوماً ـ وغزا الإسرائيليون بيروت الغربية . فأي جدوى بقيت للضمانات الأميركية؟

كان عرفات في دمشق عندما شاهد شريط فيديو للجثث ، فقال إن فيليب حبيب نفسه وقّع على تعهد كتابي بحماية الفلسطينيين الذين يبقون في بيروت الغربية . وكان ما قاله صحيحاً .

وفي خريف ١٩٨٧ وبينما كنا حول مائدة قرب أكسفورد ، اعترف فيليب حبيب بأن عرفات كان محقاً . قال :

ـ إن ما قاله عرفات هو الحقيقة بعينها . فقد وقّعت الوثيقة التي تتضمّن عدم إنزال الضرر (بالفلسطينيين) في بيروت الغربية . وحصلت على ضمانات محددة من بشير ومن الإسرائيليين ـ أي من شارون . وكنت جالساً على شرفتي التي تطل على خليج سان فرانسيسكو عندما سمعت بما حدث . واتصل بعضهم بي بالتلفون يستفسرون عما جرى . واتصلت بدوري بالرئيس ولا أذكر ما قلته له . وقد أقلقني ما جرى . لم أتصل بعرفات فيما بعد . فلم يكن هناك داع لذلك . فقد كان الفلسطينيون يعرفون حقيقة شعوري .

اعتبر الفلسطينيون الإسرائيليين أصحاب الدور الرئيسي . ولموقفهم هذا ما يبرره . فإسرائيل هي التي بعثت بالقتلة إلى المخيمات . ولكن السلطات الإسرائيلية ألقت اللوم في الحال على الولايات

المتحدة . فحتى الجنرال رفائيل إيتان ـ رئيس الأركان الإسرائيلي ـ عقد مؤتمراً صحفياً عاجلاً قرب المدينة الرياضية اتهم خلاله موريس درابر مساعد نائب وزير الخارجية الأميركية لشؤون الشرق الأوسط بأنه رفض إقامة اتصال بين الجيش الإسرائيلي الجيش واللبناني . وقال إن تقاعس الأميركيين عن تسهيل الاتصالات بين الإسرائيليين واللبنانيين لم يمكّن الإسرائيليين من أن يطلبوا من الجيش اللبناني دخول بيروت الغربية بعد مقتل بشير الجميّل ، وبالتالي كان عليهم اصطحاب الميليشيا المسيحية ليقوموا بهذه المهمة .

وحتى لو أخذ كائن من كان هذا التفسير مأخذ الجد فإنه لا يفوته أن يلاحظ أن الإسرائيليين سيطروا على الكثير من ثكنات الجيش اللبناني خلال الأسابيع الثلاثة السابقة ، وأنهم بالتالي ، كانوا على اتصال وثيق مع السلطات العسكرية اللبنانية بدون مساعدة من الأميركيين . والواقع أن الجنود اللبنانيين كانوا دائماً يؤدون التحية للجنود الإسرائيليين عندما كان هؤلاء يمرون بمراكز مراقبتهم .

وبعد ظهر الأحد دب الذعر والهلع في شاتيلا من جديد عندما سرت شائعات بين من بقي على قيد الحياة من أهله أن الكتائب وميليشيا الرائد حداد ينوون العودة إلى المخيم ليكملوا جريمتهم . فاندفع مئات منهم نحو المخرج في حين أن رجال الصليب الأحمر كانوا يقفون أمام القبور الجماعية التي فتحت قبل ذلك بقليل . حتى أن عدداً من الفلسطينيين طالبوا بقدوم الجنود الإسرائيليين لحمايتهم . على أن موقفهم هذا كان سيختلف لو أنهم استمعوا إلى إيتان وهو يعلن في مؤتمره الصحفي أن جيشه لا يستطيع أن يمنع رجال الميليشيا المسيحيين من دخول المخيمات «لأنهم لبنانيون وهذه أرض لبنان ـ وهم أحرار في أن يتحركوا كيفما شاؤوا في بلادهم» . ومن الواضح أن هذه العبارة لا تصمد أمام النقد لأن الجيش الإسرائيلي لم يكن ليسمح إطلاقاً للميليشيات المسلمة بدخول بيروت الشرقية ، مع أنهم أيضاً لبنانيون ـ وعليه فإن القول بأنه كان من حق الميليشيات دخول شاتيلا كان يعني اغماض العين عن الجريمة .

وبالرغم من تزويد رجال الدفاع المدني الذين كانوا يجمعون الجثث بأقنعة الأوكسجين لحمايتهم من الروائح العفنة ، فإن كثرة من الرجال والنساء واصلوا البحث عن أقربائهم وليس لديهم ما يضعونه على أنوفهم سوى المناديل . وفي ٢٠ أيلول/ سبتمبر اكتشف الصليب الأحمر مقبرتين جماعتيين ثانيتين وأخرج جثث ١٢٠ ضحية أخرى . واستمر الناجون يصرون على أن ميليشيا حداد لعبت الدور الرئيسي في عمليات القتل . وعندما سارت ناقلتان مدرعتان كانت إسرائيل قد قدمتهما لحداد في شارع الحمراء ، دبّ الذعر ثانية بين من بقي من الفلسطينيين .

كنا كل يوم نقضي ساعات في المخيمات نحصي الجثث ونتحدث إلى المزيد من الشهود الذين

اختبأوا خلال المجزرة . واستمعنا من هؤلاء إلى قصص مرعبة عن المذبحة . وذكر كثيرون أنهم سمعوا رجال الميليشيا ينادون على بعضهم باسماء مسلمين شيعة . وزعم الإسرائيليون أن غالبية رجال حداد كانوا من الشيعة . على أن الأحياء وصفوا بدقة وبالتفصيل الشارات التي كانت على أزياء القتلة ، فجاءت مطابقة لشارات رجال حداد .

وعرفت أنا وتفايت أنّ وحدات الجيش اللبناني قرب المطار شاهدت رجال الميليشيا وهم يتحركون حول صبرا وشاتيلا بين ١٦ و ١٨ أيلول/ سبتمبر . وفي ٢٠ منه أخبرنا أربعة ضباط من الجيش اللبناني وأحد رجال الدرك اللبناني المتمركزين في حي السلم إلى الشمال تماماً من مدارج المطار ، أنهم شاهدوا وصول رجال ميليشيا لبنانيين إلى مطار بيروت على متن طائرة نقل إسرائيلية من طراز هيركوليز وذلك قبل المجزرة بأربع وعشرين ساعة . وكانوا يشعرون بالخوف لأنهم كانوا يعرفون المصير الذي ينتظرهم إذا اشتبه الكتائبيون في أنهم يفشون السر .

وفي قاعة الوصول بالمطار ، علمنا أنا وتفايت أنه في الخميس السابق الواقع في ١٦ أيلول/ سبتمبر ، هبطت طائرتا هيركوليز - ١٣٠ على المدرج الأول ونزل منها مسلحون وسيارات جيب . ووقفت الطائرة على مسافة كبيرة من قاعة الوصول لا تسمح لموظفي المطار بالتعرف عليهم . على أنهم لاحظوا أن إحدى الطائرتين غادرت في الحال باتجاه الجنوب ، في حين أن الطائرة الأخرى بقيت على المدرج عدة ساعات . لكن الإسرائيليين لم يظهروا أي استعداد للتعاون . فقال أحد موظفي الأمن في النقطة العسكرية قرب المطار أنه لا يتذكر وصول طائرات في ١٦ أيلول/ سبتمبر . على أننا - أنا وتفايت - وجدنا خمس اشارات مرور معدنية تبدأ بالمعسكر الإسرائيلي في المطار ، وتنتهي عند تقاطع طريق كفرشيما في الطريق الخلفي إلى شاتيلا مكتوب على كل منها بالعربية «الشرطة الحربية الكتائبية» .

وشاهد ضابط في منظمة مراقبة الهدنة التابعة لهيئة الأمم المتحدة في ١٦ أيلول/ سبتمبر مسلحين يغادرون منطقة المطار . وقال إن بعضهم كان يعلّق شارات كتائبية ، في حين كان الآخرون يرتدون زي ميليشيا سعد حداد[1] . وفي المخيم ، قيل لنا إن جرائم القتل الأولى ابتدأت صباح الخميس

(١) كان من السهل تحديد هوية المسلحين من الطرفين . فالكتائبيون كانوا يضعون الشارة التي تحمل شجرة الأرز المثلثة وعليها كلمتا «الكتائب اللبنانية» على جيب السترة . أما رجال حداد فكانوا يضعون شارة عليها سيف ذهبي فوق أرزة - حقيقية بخلاف أرزة الكتائبيين المثلثة - وعليها ثلاث كلمات وهي «جيش لبنان الحر» . وأشارت الصحف عندئذ إلى أن الإسرائيليين أدخلوا حداد إلى المخيم وعليهم زي الكتائب وذلك لتشويه سمعة أمين الجميّل المرشح للرئاسة من أجل توفير النجاح لكميل شمعون ، الذي أصبح عندئذ المدافع السياسي عن إسرائيل في لبنان . فالمؤامرة كانت لا تزال حية .

حينما وصل المسلحون في ثلاثين شاحنة . وأخذ القتلة يذبحون بالسكاكين رقاب النساء والأطفال في شاتيلا ، وبعدها أخذوا يطلقون النار على كل من يتحرك خارج الأبواب . ولكن المجزرة «الحقيقية» ـ كما قالوا ـ بدأت يوم الجمعة بعد الظهر .

وأعددت تقريراً للتايمز ذكرت فيه أنه قد أخذت تظهر أدلة على أن «الجيش الإسرائيلي أبعد ما يكون عن الجهل بوجود الميليشيا اليمينية في شاتيلا إبان مجزرة الفلسطينيين خلال الأسبوع المنصرم وأنه في الواقع قام بنقل بضع مئات من مسلحي سعد حداد من الجنوب إلى بيروت يوم الخميس وسمح للميليشيات بالسيطرة على مدخل مخيم شاتيلا بضع ساعا ت قبل الشروع في عملية القتل . .» .

وفي اليوم التالي ، هاجم الإسرائيليون مقالي ووصفوه بأنه مقال «خبيث» ولم يعترفوا بأن طائرتين من طراز هيركوليز هبطتا في بيروت في ١٦ أيلول/ سبتمبر إلا فيما بعد ، ولكنهم أكدوا أن الطائرتين كانتا تقلاّن جنوداً إسرائيليين .

كان الذي يحدث شيئاً غريباً جداً . فالإسرائيليون لم يكونوا يحاولون إخفاء مسؤولية الكتائب عن المجزرة بالرغم من أن إسرائيل زودتهم بالألبسة العسكرية كرجال حداد . وكانوا مسلحين بذات الأسلحة التي قدمت لرجال حداد . وارتكبوا الأعمال الوحشية نفسها في منطقتي الشوف والمتن اللتين كانت تحتلهما إسرائيل ، ثم في بيروت الغربية كما فعل رجال حداد في الجنوب اللبناني . والواقع أن الكتائب كانوا أقرب من جنود حداد إلى كونهم حلفاء سياسيين .

لقد قامت إسرائيل من تلقاء نفسها بكشف تورط الكتائبيين في المجزرة . حتى أن البلاغات السرية الإسرائيلية التي كانت تصدر في تل أبيب كشفت النقاب عن اسم قائد كتائبي كان في شاتيلا وهو «إيلي حبيقة» . ولكن مجرد ذكر تورط حداد في المجزرة كان يثير حنق إسرائيل . فلماذا؟

لماذا كان اسم حداد مقدساً لهذه الدرجة في حين كان من السهل التضحية بسمعة الكتائبيين؟ وفي الحال تبادر إلى أذهاننا أنه لم يعد لدى الكتائبيين ما يقدمونه لإسرائيل . فبعد مقتل بشير الجميّل ظلوا يقومون بأدوار هامشية مفيدة ـ مثل «كنس الإرهابيين» من بيروت الغربية ـ ولكن لم تعد لهم أهمية سياسية . فموت الجميّل قضى على كل أمل لإسرائيل في معاهدة سلام إسرائيلية ـ لبنانية ، وأصبح جيش حداد المرقع أكثر أهمية من أي يوم مضى . إذ كان تخلي إسرائيلي عن مغامرتها في لبنان يحتم عليها الاعتماد على ميليشيا حداد لحماية الجليل من تسلل المقاتلين ، حتى لو كان في ذلك اعتراف بأن الغزو فشل في تحقيق أهدافه كلها .

صمّمت على التحدث إلى حداد على انفراد إذا أمكن لا بحضور ضابط الجيش الإسرائيلي الذي كان يظهر إلى جانبه دائماً عندما يتحدث إلى الصحفيين . وفي ٢١ أيلول/ سبتمبر توجهت إلى أقصى الجنوب اللبناني ـ إلى مرجعيون قرية حداد حيث كان هذا الأخير يطلق التهديدات الدموية العنيفة ضد جنود الأمم المتحدة والمسلمين الشيعة في القرى الواقعة إلى الشمال منه . وفي حين أنهم كانوا لا يزالون يحفرون الأرض بحثاً عن الجثث المطمورة ، كنت أقوم برحلتي الطويلة إلى الجنوب في يوم جميل من أيام الخريف كانت السحب فيه تزحف على قمم الجبال فوق جزين والضباب الأزرق يلف الوادي عند الغسق . وشاهدت من مرجعيون أنوار أقرب كيبوتز في إسرائيل ، وقافلة من الشاحنات وعربات النقل العسكرية الإسرائيلية وهي في طريقها إلى العرقوب والبقاع الغربي .

كان منزل حداد يقع في طريق ضيق يحرسه رجل مسلح واحد لا يكف عن التدخين . وعندما سألته عن الرائد قال : «ربما غداً» . فطلبت منه أن يذكر اسمي له ويقول بأنني قادم من بيروت لمقابلته . فذهب الحارس إلى البيت وعاد بعد دقيقتين وقال وهو يهز كتفيه : «آسف . انه في غاية التعب» . فأخرجت ورقة من جيبي وكتبت رسالة صغيرة محزنة إلى حداد أشرت فيها أولاً إلى الصعوبات الكبيرة التي تجشمتها لمقابلته ، ثم أكدت على مدى أهمية توضيح أمر تورط قواته في المجزرة ، خاصة وأن أعداءه كانوا يعلنون أنه كان وراء هذه المذابح . وقلت له أيضاً إن رئيس التحرير سيغضب علي إذا رفض التحدث معي .

ثم توجهت بسيارتي إلى الحافة العشبية المقابلة لبيته وأخذت أفرك ركبتي بسبب البرد بانتظار معرفة ما إذا كان هذا السيد من مرجعيون أو الشيطان الذي يقض مضاجع الأمم المتحدة سيبتلع الطعم .

في ذلك المنزل الكئيب القائم على الجانب الآخر من الطريق كان يعيش الرجل الذي لا يتورع عن قصف جميع القرى إذا ما نفد ما لديه من ماء . أجل ، في ذلك البناء الذي تتناثر أعقاب السجائر على الدرجات المؤدية إليه يعيش الرجل الذي قام قبل الغزو الإسرائيلي بقصف صيدا يوم الأحد في عيد الفصح فقتل جميع رواد مقهى في نهاية شارع رياض الصلح . وعندما فتح الباب ، خرج رجل آخر من رجال الميليشيا يشعل مثل صاحبه ـ سيجارة من الأخرى ، وكان نحيفاً يرتدي ملابس خضراء مجعدة وعلى وجهه علائم التعب .

ولم أدرك أن هذا الرجل نفسه كان الرائد حداد إلا بعد أن أصبح على بعد عشر ياردات مني . وبدا لي أكثر نحافة مما كان عليه عندما رأيته قبل ذلك بشهر عند غاليري سمعان يكيل اللعنات والشتائم البذيئة للسوريين خلال رحيل اللواء ٨٥ من الجيش السوري . سألني بلهجة تنم عن التبرم : «ماذا

تريد؟ إنني أشعر بالتعب» . وبالفعل رأيت انتفاخات تحت عينيه . وبدا لي أنه مريض . فأعدت ما كتبته على الورقة البيضاء التي بعثتها إليه .

لم يدعني «حداد» إلى منزله ، بل جلس على الدرج خارج المنزل يدخن باستمرار . وبالرغم من انقطاع انفاسه فقد كان متحمساً للحديث . ونزلت عن الدرج ابنة له صغيرة شعرها طويل متموج ، وأخذت تلعب على التراب في الطريق . ولم يكن إلى جانبه مراقب صحفي من الجيش الإسرائيلي يوجهه ، فأخذ يتحدث بثقة كما لو أنه ينتهز الفرصة للبوح بما في نفسه . قال : نحن أناس أبرياء مسالمون . لم نؤذ أحداً . وأنا دائماً صريح وأتحدث بصدق . وإذا فعلت شيئاً فإنني لا أنكره ، وأعترف به دون خوف . وفي هذا الاتهام لنا بأننا متورطون في القتل طعنة لي . واتهامنا أفظع من الجريمة ذاتها .

ولم يكن في هذا الذي قاله ما يرضي الفلسطينيين واللبنانيين الذين نجوا من مجازر صبرا وشاتيلا . فتحولت إلى سؤاله عن تحركاته وعن التعليقات المثيرة التي سمعتها من الرائد الإسرائيلي ونحن جاثمون في الخندق عند غاليري سمعان ، بينما كان مدفع الفولكان يمزق البناء المهدم . فسألته إذا كان صحيحاً أنه كان في مطار بيروت في ١٧ أيلول/ سبتمبر . فأجاب قائلاً :

«نعم كنت في المطار ، وذهبت إليه بطوافة ، وهي طوافة إسرائيلية . ولكنني كنت ذاهباً إلى بكفيا لتقديم التعازي إلى عائلة الجميّل بوفاة بشير . وكل ما في الأمر أنني أشعر بشيء من التعب حينما أسوق السيارة كل تلك المسافة . ووصلت إلى بيروت حوالي الساعة التاسعة صباح يوم الجمعة وغادرت المطار بعد ظهر اليوم ذاته بقليل . لا أتذكر الوقت بالضبط . ولكنني كنت في بكفيا وليس في بيروت في ذلك الوقت . وفي جريدة «الأنوار» صورة لي وأنا في بيت الجميّل .

وجدت صورة حداد في الصفحة الثالثة من عدد الأنوار الصادر بتاريخ ١٨ أيلول/ سبتمبر . ولكن ماذا عن الاتهامات التي وجهها العشرات من الناجين بأن رجاله كانوا في مخيم شاتيلا بزيّهم في تلك اللحظة يقتلون النساء والأطفال؟ أخذ حداد يتذكر بحذر ما حدث ، وساق حججاً وأعذاراً قوية في الظاهر ، لكنها انهارت في سورة غضب فقال :

ـ كلهم كذابون . وأكثرهم يقبضون المال من منظمة التحرير .

وصمت فترة طويلة تمالك فيها غضبه ثم قال وهو ينظر إلى يديه الممدودتين أمامه :

ـ من الجائز أنهم رأوا بعض شاراتنا . إذ من الجائز أيضاً أن بعض رجالنا كانوا يعملون مع قوات أخرى ببيروت . أما من الناحية الرسمية فلم يكن لنا رجال هناك . ثم إن بعض المسلحين يجمعون الشارات كتذكار . ومن الجائز أنهم استخدموها خلال القتل .

وهنا أمسك حداد بكمّه وضرب بيده عل كتفه حيث كانت شارة تحمل الرمز الذي اختاره وهو السيف المذهب على الأرزة . وقال :

ـ يدعي هولاء الناس أننا استخدمنا الدبابات والجرافات في بيروت . لكن ليس لدي إلا جرافة كاتربلر وهي الآن في إسرائيل حيث يجري اصلاحها .

وسألته عن حقيقة ما قاله الرائد الإسرائيلي وهو أن الإسرائيليين أنفسهم قتلوا على الأقل أحد رجاله في بيروت ، فمسح عينيه ، وقال :

ـ ذهب ثلاثة من رجالنا إلى بيروت يوم الجمعة لأنهم سمعوا عن عمليات القتل ، فأرادوا إنقاذ بعض أقاربهم في منطقة المصيطبة . وثلاثتهم من الجنوب ، من هنا . . . وحدث أن تشاجروا مع بعض أعضاء الحزب الاشتراكي اللبناني في بيروت ، فجرح أحد رجالي واحتمى الآخران بجيش الدفاع الإسرائيلي .

ولكن إذا علم رجاله الثلاثة بالمذبحة التي جرت يوم الجمعة ، ألم يعلم حداد نفسه بها؟ قال :

ـ كلا . لم نكن نعرف شيئاً عنها عندئذ . ولم نتحدث أنا وأمين الجميّل عن هذا الموضوع . إسمع ، منذ سبع سنوات ونحن في قتال مستمر . إنني أتحدى أي إنسان أن يذكر لي مذبحة جماعية واحدة اشتركنا فيها ضد اللبنانيين أو غير اللبنانيين . إن حربنا كانت ضد الارهاربيين وضد السوريين . وبعد أن غادر الإرهابيون بيروت ، لم يعد هناك ما يدعونا إلى الذهاب لقتال اللبنانيين أو الفلسطينيين غير المسلحين . ولو كنا نقصد تهديد الفلسطينيين ، فإن هناك أكثر من مائة ألف منهم جنوب نهر الأولي حيث يسمح لنا بالعمل . وبإمكانك أن تسألهم إذا قمنا بقتل أي منهم .

وأضاف حداد أن رجاله لا يقومون بأي عمل إلا بالتنسيق مع الجيش الإسرائيلي وكرر ذلك عدة مرات . وعليه فإنه لم يكن من المتوقع أن يقوم بعمل منفرد . وقال إن لديه أوامر مشددة تقضي بعدم تجاوز نهر الأولي . وفي الوقت الذي كانت كلماته تثبت ما كانت تقوله الأمم المتحدة منذ وقت طويل وهو أن الإسرائيليين نسّقوا كل عمل عنيف قام به مسلحو حداد ، فإنها لم تكن صادقة . فبالرغم من أن نهر الأولي يجري إلى الشمال من صيدا فإنني شاهدت وأنا في طريقي لمقابلة حداد مسلحيه وعلى ستراتهم شارة السيف المذهب فوق الأرزة جالسين مع الجنود الإسرائيليين على بعد عشرة أميال شمالي النهر .

كان لدى حداد إحساس قوي بأهميته في تاريخ لبنان . إذ قال لي قُبيل انتهاء المقابلة :

ـ سأخبرك بما يقوله الناس عني . يقولون إنه كان بلبنان رجلان قويان : بشير الجميّل وحداد . وقد قتلوا بشير ويحاولون الآن حرق حداد . إن الذين يقولون هذا لبنانيون . إنهم لا يريدون وطنياً مثلي» .

ترى هل كان يريد أن يقول بأن الكتائبيين يتهمونه باقتراف هذه المجزرة ، وأنه يحتمل أن يكونوا هم الذين قتلوا زعيمهم بشير الجميّل؟ قال :

ـ أنا لم أذكر كلمة كتائب على الإطلاق .

قال هذا ووقف . فسألته مرة أخرى عن عدد رجاله الذين كانوا في بيروت في ١٧ أيلول/ سبتمبر . ولم يكن يتوقع أن يُسأل ثانية السؤال نفسه . فجاء سريعاً وصريحاً . قال :

ـ ربما كان عشرة منهم يعملون مع الآخرين هناك . وربما كانوا عشرين . . . ولكن لا علاقة لي بهذا الأمر . ولماذا يكون لي علاقة بالموضوع ، وأنا لا أعرف حتى طريق شاتيلا .

وجدت أن بعض ما قاله حداد يثير عدداً من التساؤلات . ترى من هم أولئك «العشرون» الذين كانوا «يعملون مع آخرين» في بيروت في ١٧ أيلول/ سبتمبر؟ هل كان حداد يحاول زج عناصر من الكتائب في مقتل بشير الجميّل؟ ولماذا؟ ومع هذا فإنه لم تكن لأي من هذه التساؤلات صلة بما كان يشغل أفكارنا أنا وتفايت .

كنا لا نزال نريد معرفة ما قد حصل فعلاً في تلك الفترة الحرجة بين ١٦ و ١٨ أيلول/ سبتمبر . كان الذي يحيرنا أكثر من أي شيء آخر هو إمكان حدوث ذلك . وهذا لا يعني أننا لم نكن متحمسين لمعرفة هوية القتلة ، ومدى تورط الإسرائيليين الذين أرسلوا رجال الميليشيا إلى المخيمات ثم أخذوا يراقبون المذبحة ، لكن معرفة هذا كله كان من شأنها أن تلقي الضوء على السؤال الذي كان يستقطب اهتمامنا وهو : كيف كان يمكن لجيش يدعي «طهارة السلاح» في حروبه ، ويدافع علانية عن أخلاقيات رجاله ، ويمثل أبناء «الإبادة الجماعية» أن يسمح بحدوث تلك الجريمة البشعة؟

قمنا بزيارة كل رجال التلفزيون الذي صوّروا منطقة شاتيلا قبيل المجزرة أو أثناءها . وتحدثنا مع كل دبلوماسي وكل محرر تواجد في منطقة شاتيلا بين ١٦ و ١٨ أيلول/ سبتمبر . ووجدنا أنهم كانوا إذ ذاك يجهلون أن القتلة كانوا عندئذ يقترفون المجزرة . لكن مقابلاتنا لهم لم تخل من الأدلة التي تفسر ما كان يجري من أحداث على بعد خطوات منهم .

فمثلاً وصل جيمس برنغل مراسل «النيوزويك» إلى خارج مدخل شاتيلا عند الساعة الرابعة من بعد ظهر الجمعة ، وذهب إلى مسلح عرف أنه من مسلحي حداد ، وسأله عما يجري في المخيم .

فأجابه المسلح ـ وكان قصيراً بديناً وله شوارب ـ بالإنجليزية :

ـ إننا نقوم بالذبح .

وتجا هل برنغل عندئذ هذه الكلمات باعتبارها نكتة سمجة . وبعد أن سار نحو أربعين ياردة رأى ضابطاً إسرائيلياً في الثالثة والخمسين من عمره قال إن اسمه إيلي وأنه من تل أبيب . وقال برنغل إن هذا الكولونيل قال له ان الإسرائيليين «لن يقوموا بتطهير المنطقة» . وعندما سأله ماذا سيحدث إذا خرج المسلحون المسيحيون عن السيطرة ، كان جوابه : «آمل ألا يحدث ذلك» .

جمعنا كل البيانات الصحفية الإسرائيلية الصادرة بين ١٦ و ١٨ أيلول/ سبتمبر . فكان أكثرها تجريماً للإسرائيليين هو الذي صدر في الساعة الحادية عشرة والثلث في ١٦ أيلول/ سبتمبر ، وجاء فيه :

ـ إن قوات جيش الدفاع الإسرائيلي تسيطر على جميع النقاط الرئيسية في بيروت . ولا تزال مخيمات اللاجئين التي تؤوي تجمعات للإرهابيين محاصرة ومغلقة . . . إن الناطق باسم جيش الدفاع الإسرائيلي يؤكد أنه خلافاً للاتفاقات (حول رحيل منظمة التحرير المبكر) ، بقي عدد من الإرهابيين في بيروت ومعهم مدافع هاون من جميع الأنواع بالإضافة إلى أسلحتهم الشخصية وأسلحتهم المضادة للدبابات .

إن «الإرهابيين» هذه المرة هم المسلحون اللبنانيون الذين لم يكن عليهم مغادرة بيروت بموجب شروط اتفاقية الرحيل . ولكن الكلمتين الرئيسيتين هنا هما «محاصرة ومغلقة» ومعنى هذا أنهم اعترفوا بأن المخيمات كانت تحت سيطرتهم ، وبالتالي فإنهم يتحملون مسؤولية ما كان يجري داخلها . لكن هذا لا يجيب على سؤالنا وهو : «كيف سُمح بارتكاب المجزرة؟»

حصل تفايت على أشرطة تلفزيونية مجزأة من غير عناية وتستغرق رؤيتها ساعات ، وعلى فيلم لم ينشر تُرك على أرض غرفة التقطيع في أحد مكاتب بيروت لشبكات التلفزة الأجنبية المختلفة خلال فترة حصول المجزرة . وبالطبع لم يكن لدى المصورين عندئذ فكرة عن أهمية ما كانوا يصورونه . فبين الصور صورة شاحنة عليها عدد من النساء منعت من مغادرة صبرا وشاتيلا ، وصورة لرجل طاعن في السن له لحية بيضاء وعلى رأسه طاقية صوفية وهو يؤمر بالرجوع إلى شاتيلا . وحتى ذلك الحين لم تر تلك الصور النور . وكان من الممكن أن تظل كذلك لولا أن تفايت طلب رؤيتها .

واستطاع تفايت بمساعدة رجال شبكات التلفزيون الأميركية ، وخصوصاً بمساعدة وحدة تلفزيونية دانمركية جريئة أن يجمع ما يستغرق عرضه أكثر من ساعة من الصور التي التقطت حول شاتيلا خلال الأيام الثلاثة الحرجة . ووضعنا الشريط في جهاز فيديو تفايت . فلما أدرنا الفيديو تراقصت الصور لأن الفيلم لم يكن قد جهز بعد ، لكنها ولهذا السبب عينه كانت أقوى تعبيراً .

كانت تلك ومضات من التاريخ . شاحنة ملأى بالنساء تظهر في مدخل شاتيلا ومسلح يصعب التعرف على شارته لبعد مكانه يأمر سائقها بالرجوع إلى المخيم ، والنساء يصرخن ويبكين لكن جهاز الصور لا يتلقط كلماتهن . وفي تلك الأثناء يصل جيب عسكري فيه جنود لبنانيون إلى المدخل ، فيأمر الكتائبيون الجنود اللبنانيين بالدخول إلى المخيم وأيديهم مرفوعة في الهواء . ويصوّب كتائبي بندقيته نحو الكاميرا وهو يشتم ويلعن . فتوجه العدسة إلى الأرض ثم يعاد توجيهها بجرأة إلى الكتائبي والجيب .

أخذ تفايت يعيد مشهد الجيب مرة بعد أخر ى ويوقفه في اللحظة التي يظهر فيها رقم السيارة واضحاً فإذا به «٥٠٢٤٩٣» . وتلا ذلك مشهد الرجل ذي اللحية والطاقية الصوفية . فعرفه تفايت في الحال وصحنا معاً : «السيد نوري» أجل إنه السيد نوري الذي شاهدنا جثته في الثامن عشر من ذلك الشهر فوق كومة من القمامة . إنه بعينه العجوز الذي يبلغ التسعين من عمره والذي تعرفت عليه جارته وهو راقد تحت أشعة الشمس . وعندما أعدنا الشريط إلى نوري رأيناه وهو عائد إلى المخيم لأنه منع من مغادرته . وعدنا بالشريط مرة أخرى وإلى المشهد الذي سبق هذا ، فإذا بنوري يتوسل إلى الكتائبي عند مدخل المخيم ، والمسلح يشير إلى الخلف . وبذلك قُدّر له أن يلقى أجله . ولم تكن الكاميرا قريبة منه بحيث نرى التعابير التي ارتسمت على وجهه . تُرى هل كان يعلم بما يجري؟ شاهدنا منظره وهو يتوسل ويعود عدة مرات . فعاش معنا تلك اللحظات على الشاشة .

ورأينا في الصورة التالية القوات الإسرائيلية قرب المدينة الرياضية . وكان ذلك في مساء الخميس في السادس عشر من الشهر . وظهرت امرأة مسنة بثوب مزخرف وشال أصفر وهي تبكي وتتوسل إلى ملازم إسرائيلي يجلس على كرسي خارج أحد البيوت . سألته بالعربية التي كان يتكلم بها هو أيضاً :

ـ من الضابط هنا؟ أجاب :

ـ يمكنك التحدث إلي . قالت :

ـ لقد أخذوا زوجي وابني وهشموا أسنان أحدهما ، وطرحونا أرضاً مدة طويلة بدون ماء وبلا طعام ، وكان معنا أيضاً طفل صغير . . . ألم تأتوا إلى هنا لحمايتنا؟ فقال الملازم :

- ومن الذي فعل ذلك ، الكتائب؟ قالت :

- نعم . الكتائب جاؤوا إلى صبرا وشاتيلا والآن لا نستطيع العودة إلى بيوتنا . فقال :

- أين شاتيلا؟ قالت :

- هناك . نحن نقبل بوجودكم إن كنتم هنا من أجل مساعدتنا . قال :

- لو أنني رأيت الكتائب لتحدثت معهم . ولكنني لم أشاهد أحداً منهم . . . قال لنا البعض إنه لا يوجد إرهابيون في هذه البناية . ولكننا وجدنا عشرة منهم ومعهم أسلحة . فقالت :

- ولكن هل يرضيك أن الكتائب قتلت أربع أسر؟ إذا ذهبت إلى شاتيلا الآن فإنك ترى الضحايا بعينك . ما عليك إلا أن تذهب . يمكننا أن نريك الضحايا . لقد قتلوا طفلاً عمره تسعة أشهر . هل في ذلك العمل أية رحمة؟ أرجوك أن تعيد إلي أطفالي . فقال الملازم :

- وأين هم أطفالك؟ قالت :

- مع الكتائب . وقد قتلوا أيضاً شيوخاً . قتلوا رجلاً مسناً وامرأة مسنة .قتلوهما أمام عيني . لقد رأيت ذلك بنفسي . قال :

- لا أعرف ما الذي أستطيع عمله . إذهبي إلى بيتك . فقد يكون الكتائب قد خرجوا .

كان مصور هذا الشريط أميركياً يعمل مع «فزنيوز» ولا يعرف العربية . ولم تكن لديه أدنى فكرة عمّا كان الرجل والمرأة يتحدثان عنه . وكان من الممكن أن يرمي الشريط لو لم يجده تفايت .

لم يَبدُ على الملازم الإسرائيلي الذي ظهر على الشريط أنه تأثر بما سمعه . فنظراته لم تكن مركزة على المرأة . وهنا ينتهي المشهد .

ونرى في المشهد التالي على الشريط الجدارَ الخارجي للمخيم الذي يقع فوق المدينة الرياضية ، حيث كان ثلاثة من الجنود الإسرائيليين بزيهم الإسرائيلي يتناولون غداءهم من وجبات الجيش على الرصيف . وعندما تحولت الكاميرا إلى اليسار ظهر مسلحان من رجال الميليشيات من كوة في الجدار وهما يحملان بندقيتين أتوماتيكيتين . ولم يلبثا أن صرخا على الإسرائيليين والكاميرا تركز عليهما . كان هذان من المجرمين الذين قاموا بالقتل في شاتيلا . وهما في الثلاثين من العمر ويميلان إلى البدانة

ويتكلفان الابتسام وقالا للإسرائيليين شيئاً غير واضح وهما يبتسمان بشكل كريه . على أن ابتساماتهما تبددت عندما وقعت أعينهما على الكاميرا . وهنا وقف أحد الإسرائيليين وانتهى الشريط .

نعم ، كان الإسرائيليون يعرفون ما يجري . فما أن اقترُفت المجازر حتى تظاهر بعض الجنود الإسرائيليين الذين كانوا حول شاتيلا بأنهم يتحلون بالتهذيب والنزاهة ، وأنهم لا يرضون عن الأشياء التي سمعوا عنها أو التي شاهدوها . على أنهم كانوا في السر يقولون للصحفيين بأنهم كانوا على علم بما يجري داخل المخيمات ، وأنهم في بعض الحالات شاهدوا أعمال القتل ، ولكنهم لم يحركوا ساكناً . وقد رشح أنه في تمام الساعة السابعة والنصف من صباح يوم الجمعة ١٧ أيلول/ سبتمبر سمع زيف شيف المراسل الحربي لصحيفة «هآرتس» الإسرائيلية خبراً من مصدر في رئاسة أركان الجيش الإسرائيلي في تل أبيب يقول إن مذبحة تجري في المخيمات . فقام بنقل هذا الخبر إلى مردخاي زيبوري وزير المواصلات الإسرائيلية الذي كان صديقاً قديماً له . واتصل زيبوري بإسحق شامير وزير الخارجية الإسرائيلي . إلا أن هذا لم يلاحق هذه المسألة ، ولم يطلب من موظفيه التثبت من خبر المذبحة . ولكن لماذا لم يتصل شيف على الأقل بزملائه في بيروت؟ فلو أنه أبلغ الجسم الصحفي الدولي في بيروت الغربية خبر المذبحة صباح الجمعة ـ بدلاً من أن يكتشفوا الجثث بأنفسهم صباح السبت ـ لربما أمكن وقف المذابح .

لكنه اختار بدلاً من ذلك أن يذهب إلى صديقه الوزير الإسرائيلي . حتى الصحافة الإسرائيلية نفسها فشلت في تحمل مسؤولياتها في تلك اللحظة الحرجة .

والواقع أن شيف لم ير المذبحة خلال وقوعها . ولم يكن متأكداً من صحة الخبر . لكن إسرائيليين آخرين كانوا يشاهدون المجزرة وهي تجري ، وبعضهم كان يشاهدها من مكان قريب للمدرج الرياضي ، أي من المواضع ذاتها التي كانوا يراقبوننا منها ونحن نسير بين الجثث صباح يوم السبت .

ومن هؤلاء الإسرائيليين الملازم آفي غرابوسكي نائب قائد الكتيبة المدرعة الإسرائيلية الذي قال لاحقاً أمام لجنة التحقيق الإسرائيلية حول المجزرة أنه كان قد شاهد مقتل خمس نساء وأطفال . إذ جاء في التقرير النهائي للجنة التحقيق[٢] أنه بين الساعة الثامنة والتاسعة من صباح الجمعة شاهد اثنين من الكتائب يضربان شابين فلسطينيين في مخيم شاتيلا . قال :

(٢) «أحد جنود جيش الدفاع الإسرائيلي يرى نساء وأطفالاً يقتلون» ، الجيروزاليم بوست ، ١ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٨٢ .

اقتاد المسلحان (كذا) الشابين إلى داخل المخيم ، وبعد وقت قصير سمع (أي غرابوسكي) طلقات ، وبعدها شاهد الكتائبيين يخرجان . وفي ساعة متأخرة شاهد . . . المسلحين الكتائبيين يقتلان خمس نساء وأطفال . ويصف تقرير اللجنة كيف حدث ذلك فيقول :

ـ أراد الملازم غرابوسكي نقل هذا الخبر بطرق الاتصال العادية مع رؤسائه ، ولكن رجال الدبابة أخبروه بأنهم سمعوا أن تقريراً قُدّم لقائد الكتيبة بأن المدنيين يُقتلون وأن قائد الغرفة أجاب : «نعرف ولا نحب ذلك ولا تتدخلوا» . وشهد الملازم غرابوسكي حادثة أخرى قتل فيها كتائبي مدنياً .

وفي شهادته أمام اللجنة روى غرابوسكي أنه في ظهيرة يوم الجمعة سأل رجالُ دبابته أحد الكتائبيين عن سبب قتلهم المدنيين . فأجابه الكتائبي : ستلد النساء الحوامل إرهابيين ، وسيصبح الأطفال كذلك ارهاربيين عندما يكبرون[٣] .

وبينما كان الإسرائيليون يحتجون بالخلقية والاستقامة التي أصبحت جزءاً من الدفاعات الدعائية للجيش الإسرائيلي ظهر شيء لم يكن في الحسبان ، وكان خطيراً ومقلقاً . فما الذي قاله لي الملازم الإسرائيلي عند التلال المطلة على بيروت في ١٦ حزيران/ يونيو؟ قال :

ـ أحب أن أراهم جميعاً أمواتاً . . . . أحب أن أرى جميع الفلسطينيين أمواتاً لأنهم مرض أنى ذهبوا . . . وأنا شخصياً ، لا أعتقد أن حكومتنا ستتحمل مسؤولية قتل الكثير من الفلسطينيين .

وكان مصيباً . فالصحفيون الذين أشاروا بكثير من الدقة والواقعية إلى أن إسرائيل بوصفها قوة احتلال مسؤولة عن كل ما جرى داخل المخيمات ، اتهمتهم حكومة بيغن في القدس «بالتشهير الدموي» باليهود . وقالت الحكومة الإسرائيلية مهدّدة :

ـ لا نقبل أن يعظنا أحد حول القيمَ الأخلاقية أو احترام الحياة الإنسانية التي تعلمناها والتي سنواصل تعليمها لأجيال المقاتلين في إسرائيل .

لكن القيمَ الأخلاقية الإسرائيلية كانت على المحك في هذه الجريمة الجماعية . فلقد شاهد الإسرائيليون حلفاءهم يذبحون الأبرياء ولم يفعلوا شيئاً لمنع هذه الوحشية . ولم يكن الإسرائيليون

(٣) «لجنة التحقيق حول أحداث مخيمات اللاجئين في بيروت» ١٩٨٣ ، التقرير النهائي لإسحاق كاهان رئيس المحكمة العليا الاسرائيلية ، وأهارون باراك قاضي المحكمة العليا ، ويونا أفرات اللواء الإحتياطي في جيش الدفاع الاسرائيلي .

ليتصرفوا على هذا النحو المشين لو أن الضحايا كانوا مدنيين إسرائيليين لا فلسطينيين . «فاحترام» إسرائيل للحياة البشرية يميّز قطعاً بين حياة الفلسطينيين وحياة الإسرائيليين . ففي حين أن هذه الأخيرة مقدسة ، فانه يمكن التضحية بالأولى . وبالفعل فإن الفلسطينيين الذين تمنى الملازم الإسرائيلي «موتهم جميعاً» قد قتلوا ، وشاهد الإسرائيليون الجريمة بواسطة مناظيرهم الميدانية ، ولكنهم لم يفعلوا شيئاً . فالفلسطينيون بالنسبة إليهم إرهابيون .

وحتى تقرير لجنة كاهان عام ١٩٨٣ وقع ضحية لكابوس «الإرهاب» الوحشي . ووصف الإسرائيليون التقرير بأنه دليل قوي على أن ديمقراطيتهم تشع كالمنارة على دكتاتوريات دول الشرق الأوسط الأخرى . وقالوا بأنه لا يوجد لدى أي أمة عربية وثيقة مشابهة تدين جيشها وزعماءها .

لكن تقرير لجنة كاهان لم يكن فوق النقد . فعنوان التحقيق ـ «الأحداث في مخيم اللاجئين» تعمد أن يغفل كلمة «الفلسطينيين» المحرجة من الناحية السياسية . ألم يكن التحقيق يدور حول «الأحداث» في مخيمات اللاجئين «الفلسطينية» لكنه لم يذكر هذا . ولماذا استخدمت اللجنة كلمة «أحداث» وهي تعني «مذبحة»؟

لقد وردت إشارات متكررة في تقرير اللجنة النهائي عن «الإرهابيين» الفلسطينيين في المخيمات ، وهو يعني الإرهابيين الوهميين الألفين الذين ذكرهم شارون في أوائل أيلول/ سبتمبر ١٩٨٢ . ولكن القضاة لم يقدموا أي دليل يثبت وجود «الإرهابيين» كما يدعون . والواقع أن الإرهابيين الوحيدين الذين كانوا في المخيمات هم المسلحون المسيحيون الذين أرسلهم الإسرائيليون إلى داخل المخيمات . لكن القضاة لم يقولوا عنهم «إرهابيين» ووصفوهم بكلما ت توحي بالاحترام مثل كتائبيين أو جنود .

ووصفت لجنة التحقيق ثلاثة أطباء أجانب أحدهم يهودي متعاطف مع الفلسطينيين وشاهد على بدء المجزرة بأنه ليس لديهم «تعاطف خاص مع إسرائيل» . وكان وصفها هذا في محله . لكن شهادات الإسرائيليين الذين لا يعطفون بصورة خاصة على الفلسطينيين قُبلت على علاّتها . وحتى شهادة حداد الذي قتل رجاله الوحشيون عشرات الأرواح البريئة في جنوب لبنان ـ بمن فيهم جنود الأمم المتحدة ـ قوبلت بالاحترام . وفي حين أن اللجنة لم تستطع استبعاد إمكان . . . قيام «واحد» من رجال الرائد حداد بالتسلل إلى المخيمات ، فإن القضاة قرروا «إنه لا تقع أية مسؤولية مباشرة أو غيرء مباشرة على قادة قوات الرائد حداد» . ولم تشر اللجنة إلى أنّ قادة ميليشيا حداد هم إسرائيليون .

لقد أدين بيغن وشارون وإيتان ودوروي وضباط إسرائيليون آخرون بدرجات مختلفة من الشدة .

وقررت اللجنة بكل دراية وحكمة «أنها لا تستطيع قبول قول رئيس الوزراء بأنه لم يكن هناك أحد يتصور إمكان حصول ما حدث ، وأنها لا تستطيع الموافقة على أن بيغن «لم يكن يشعر إطلاقاً» بخطر وقوع مذبحة إذا أرسل الكتائبيون إلى المخيمات .

كانت بالطبع لا تستطيع . إذ ألم يكن هو نفس بيغن الذي حاضر سفير إيرلندا في إسرائيل عن مبادىء الثأر في لبنان بعد مقتل الجنديين الإيرلنديين في الأمم المتحدة : سمولهورن وباريت عام ١٩٧٨؟ لكن القضاة لم يريدوا أن يتذكروا هذا .

وخلص تقرير لجنة كاهان إلى أن شارون يتحمل «مسؤولية شخصية» عما حدث في المخيمات ، واقترح إقالة بيغن من منصبه ، وأوصى بطرد اللواء «يوشا ساغوي» مدير المخابرات العسكرية ، وأنحى باللوم الشديد على دروري ، ولكن «بدون تقديم أية توصيات بشأنه» .

ومع ذلك فإن تقرير لجنة كاهان لم يتناول عاملين أساسيين في المذبحة وهما : هاجس «الإرهاب» والتأثير الكبير للحرب العالمية الثانية على بيغن وعلى أعمال الإسرائيليين خلال حرب لبنان . وبدا واضحاً أن الإسرائيليين حتى بعد فظائع شاتيلا وبعد حصول المذبحة مباشرة لم يتعظوا . إذ ظلوا حتى مغادرتهم بيروت الغربية يطلقون القنابل الضوئية على المدينة في السابعة من كل مساء . فكانت الأضواء الصفراء تسطع فوق المباني والأحياء الفقيرة والأبنية المهدمة ومخيمات الفلسطينيين . وكانت تذاع الأوامر بالعبرية للجنود الخائفين في الشوارع المظلمة بواسطة الراديو . وهكذا أخذ الجنود الإسرائيليون مرة أخرى يبحثون عن «الإرهابيين» .

لم يعد البحث عن الإرهابيين مجرد كابوس بل هدفاً عسكرياً غير واضح لا نهاية ولا معنى له . فالمقاتلون الفلسطينيون «إرهابيون» ورجال الميليشيات اللبنانية «إرهابيون» ، ثم صار المدنيون الفلسطينيون في شاتيلا «إرهابيون» حتى وهم أموات .

وصرنا ـ أنا وفولي ـ نراقب في كل مساء الدوريات الإسرائيلية في شارع الحمراء ، ونسمع الضباط الإسرائيليين يصرخون من خلف ناقلاتهم المدرعة :

ـ لقد جئنا لننظف منطقتكم من الإرهابيين .

وكان اللبنانيون ينظرون إليهم وعلامات الاستفهام والخوف بادية على وجوههم .

وجاء رد الفعل أسرع مما توقع الإسرائيليون الذين ما لبثوا أن وجدوا أنفسهم هدفاً للكمائن والاغتيال في شوارع بيروت الغربية المحتلة . وأخذت تتشكل حركة المقاومة في صفوف الميليشيات

الشيعية . وبعد ظهر ٢٤ أيلول/ سبتمبر . لم يكد الإسرائيليون يكملون بحثهم غير المجدي عن رجل أطلق قنبلة صاروخية على إحدى دورياتهم حتى هاجم أحد المسلحين ثلاثة ضباط إسرائيليين كانوا يشربون القهوة في مقهى «الموفنبك» في شارع الحمراء وأطلق عليهم النار . وعدما وصلت أنا إلى مسرح العملية ، وجدت مسلحين إسرائيليين بثياب مدنية يسوقون رجالاً لبنانيين إلى مدخل «بوتيك» لاستجوابهم .

وقال لي شاهد عيان ان المسلح هجم على الضباط الإسرائيليين في المقهى وهو يصرخ : «أنتم تقتلون اللبنانيين» وأطلق عليهم مشطاً كاملاً من الذخيرة . وعندما هرب كان اللبنانيون المتواجدون حوله يراقبون ما يجري بدون اكتراث . فألقى الإسرائيليون القبض على كل شاب ظهر خارج منزله . وأخذ ضابط إسرائيلي يصرخ بالعربية بواسطة بوق داخل ناقلته :

ـ إننا نبحث عن الإرهابيين . ساعدونا لإلقاء القبض على من أطلق الرصاص على جنودنا وسنأخذه إلى المحكمة . نريد تطهير المنطقة من الإرهابيين .

لم يُحدث هذا أي رد فعل في مباني الشقق المجاورة ، ولم تكن هناك محاكم في لبنان . ولم يؤخذ «الإرهابيون» إلى المحكمة . وأخذت العائلات اللبنانية تتصل بالمراسلين بحذر بسبب عدم تأكدها من أننا كنا نعيش في بيروت أو قدمنا مع الإسرائيليين . وكانت تعرض صور شبان وحتى شابات أخذهم الإسرائيليون من بيوتهم ، وتسأل إذا كنا نستطيع أن نجدهم . وممن قصدوني والدا شابة فلسطينية أنزلها مسلح كتائبي من سيارة أجرة قرب الدامور ، وأخذها على مرأى من الجنود الإسرائيليين . وكان الأبوان يأملان أن لا يلحق بها أي أذى لأن الإسرائيليين شاهدوا ما جرى لها . إلا أن الكتائبي أمر سائق السيارة بمواصلة السير إلى صيدا ، واقتاد الفتاة التي لم يظهر لها أثر بعد ذلك .

وأخبرتني فتاة شيعية كانت تنظف شقة مترجم لبناني يعمل مع شبكة تلفزيون أميركية في بيروت الغربية أن الجنود الإسرائيليين أخذوا زوجها من بيتهما في منطقة الفنادق المدمرة ، ونقلوه بشاحنة عسكرية تابعة للجيش الإسرائيلي . وسألتْ إذا كان باستطاعتي أن أجده أو أن أحصل من الإسرائيليين على معلومات عنه . ولم يظهر زوجها منذ ذلك الحين . ترى ما الذي يفترض فينا أن نفهمه من حوادث اختفاء الناس؟ .

قال لي الضباط الكتائبيون الذين تعرفت عليهم في بيروت الشرقية إن حوالي ألفي «إرهابي» على الأقل من الرجال والنساء قُتلوا في شاتيلا . وذكر لي مسلح مسيحي أنه رأى في ١٧ أيلول/ سبتمبر سيارة قمامة ملأى بالجثث تمر بالجنود الإسرائيليين خارج شاتيلا . وقال أحد الكتائبيين لتفايت :

ـ لن تجد ما حدث للآخرين إلاّ إذا قررت الحكومة شق طريق تحت بيروت .

ومن حين إلى آخر كنت أسمع شائعات عن وجود ألف جثة مدفونة «حيث تمارس رياضتك» . واعتقدت في أول الأمر أنه لا بد أن تكون هناك مقبرة جماعية تحت المدينة الرياضية المهدمة قرب شاتيلا . ولم أعرف إلا بعد ذلك أن الجثث دفنت تحت ملعب الغولف بين شاتيلا والمطار . وعندما ذهبت إلى هناك وجدت مساحات كبيرة محفورة حديثاً وعليها آثار الجرافات . ورفض الجيش اللبناني الذي كان يسيطر عندئذ على المنطقة أن يسمح للصليب الأحمر بأن يقوم بتحرياته . وحتى يومنا هذا لم يجر الكشف على تلك القبور .

وحتى بعد شاتيلا اتضح أن تصفية الأعداء «الإرهابيين» استمرت في بيروت الغربية . فمن هو الذي كان يرتكب هذه الجرائم؟ وهل كان الكتائبيون لا يزالون في بيروت الغربية؟ أم أن المخابرات الإسرائيلية هي التي كانت تقوم بذلك؟ لا شك في أن فِرق الموت كانت منذ سنوات موجودة في مناطق حداد في الجنوب اللبناني ، وتزايد ظهورها في المنطقة المحتلة خلال السنتين التاليتين . إذ كان لجهاز الموساد الإسرائيلي كما ظهر من تحقيقات لجنة كاهان عام ١٩٨٣ نظام ارتباط معقد مع الكتائب ببيروت أتاح لرجال الموساد أن يجتمعوا في مكاتب الكتائبيين مع منفذي المجازر في صبرا وشاتيلا . فاستنتج اللبنانيون بسرعة أن الإسرائيليين والكتائبيين كانوا يغتالون المشتبه في أنهم إرهابيون .

أخذ الإسرائيليون يغوصون أكثر فأكثر في عالم مظلم لا هدف له . وكانت الفترة الوحيدة التي بدا فيها للإسرائيليين أن الفرصة سانحة لهم هي أوائل شهر حزيران/ يونيو . ففي تلك الفترة رأوا أن مهمتهم هي العمل على الاستقرار وذلك بقتال أعدائهم الذي سينتهي بإقامة منطقة عازلة عمقها خمسة وعشرون ميلاً على طول نهر الأولي . لكن نشوة النصر دفعتهم إلى بيروت حيث ظهرت لهم جوائز أخرى يمكنهم الحصول عليها . فبدا لهم من الممكن إقامة دولة مارونية صديقة وعلى رأسها زعيم أكثر صداقة ، يمكن لجيشه مهما كانت المقدمات محرجة أن يساعد في إخضاع بيروت الغربية .

وبهذا بالطبع بدأت الأمور تنقلب ضد إسرائيل . فقد حاولت هذه تحقيق هدفين عسكريين وسياسيين متناقضين أولهما القضاء على «الإرهاب» . لكن مدلول هذه الكلمة اختلط في أذهانهم بحيث أخذوا يستخدمونها دون تفكير . وثانيهما إنشاء لبنان مسيحي يخضع للسيطرة المارونية ويقبل عقد معاهدة سلام مع إسرائيل . ومما جعل الهدف الأول ملحاً ومفهوماً لدى الإسرائيليين على الأقل هو وجود الفلسطينيين حول صيدا .

ولم يكشف النقاب تماماً عما حدث عندما حاصر الإسرائيليون مخيم عين الحلوة الفلسطيني

شرقي صيدا . غير أن كثرة من الجنود الإسرائيليين ـ وقد يربو عددهم على الخمسين ـ قُتلوا في تلك المنطقة في الأسبوع الثاني من الحرب . وهناك ما يدل على أن منظمة التحرير هي التي قتلت الكثيرين منهم . لكن إسرائيل رفضت بعد ذلك بحث الموضوع . ووصف لي شاب من المقاتلين الفلسطينيين ما حدث كما يلي :

ـ عندما قصف الإسرائيليون مخيم عين الحلوة ، قتلوا المئات من أهله المدنيين . لم يأبهوا لقتل شعبنا . أرادوا قتلنا جميعاً . وشنوا بعد ذلك هجوماً برياً ، فأسر المقاتلون الفلسطينيون ثلاثة وأربعين شخصاً منهم . وكان الكولونيل عزمي القائد الفلسطيني موجوداً في المكان . فقيّد هؤلاء الجنود ، وربطهم حول أحد المباني ، ووصل أرجلهم بالمفتجرات . وأنذر بتفجيرهم إذا لم يُسمح لمقاتلينا بمغادرة المخيم . عندئذ سمح الإسرائيليون للمقاتلين بالخروج . فاقتاد الفلسطينيون بعض الإسرائيليين معهم . كان عزمي رائعاً . فقد نجا رجالنا . ثم صعد إلى التلال وأمر بالتخلص من جميع السجناء الإسرائيليين لأنهم كانوا عبئاً عليه . وكانت المتفجرات لا تزال مربوطة بأرجلهم ، فأمر بتفجيرهم ، وبذلك قتلوا .

هل كانت هذه الحادثة جزءاً من الخلفية النفسية لمجزرة شاتيلا؟ لم أسمع ما يؤكد هذه الرواية . لكن عدداً من الجنود الإسرائيليين ذكروا فيما بعد أن «شيئاً رهيباً» حدث في صيدا . وعندما وصل الجيش الإسرائيلي إلى بيروت لم تكن لديهم الرغبة في مهاجمة المخيمات الفلسطينية بمشاتهم . وعليه فإنهم عندما اقتحموا بيروت الغربية أرسلوا الكتائبيين لقتل «الإرهابيين» .

لكن تبيّن أن الإرهابيين الحقيقيين هم حلفاء إسرائيل المسيحيون الذين سلحتهم إسرائيل ودفعت لهم المال ، وزوّدتهم بالألبسة وأحياناً بالطعام . كان هؤلاء من صنائع إسرائيل . وفي معرض الإشارة إلى معاناة اليهود في الخارج قالت لجنة كاهان :

ـ كان الرأي العام الإسرائيلي دائماً يلقي بمسؤولية مثل هذه الأحداث لا على أولئك الذين . . . اقترفوا الفظائع فحسب ، بل على المسؤولين عن السلامة العامة والنظام والقانون الذين كان بوسعهم منع هذه الجرائم ، لكنهم تقاعسوا عن القيام بذلك .

لكن رجال الوحدات الإسرائيلية التي كانت تحاصر شاتيلا لم تكن عندئذ تفهم هذا . لقد عميت عيونهم عنه ، ونسوا القاعدة الرئيسية التي لا بد لجميع الجيوش التي تغزوا لبنان أن تتعلمها ، وهي أنك عندما تصبح صديقاً لفريق من الإرهابيين فإنك أنت نفسك تصبح إرهابياً .

على أن هذا كله لا يفسر لنا ما حدث في شاتيلا فلا بد لنا من النظر في طبيعة زعامة بشير الجميّل للميليشيا التي كانت ظاهرة للجميع . فقد كانت رئاسته ـ التي انتهت فجأة بطريقة وحشية ـ تنذر بأسوأ العواقب .

ففي أوائل حزيران/ يونيو قارن الأستاذ يوسف إبش حكم الجميّل بحكم فرانكو الذي «كان شراً على الجميع ولم يحسن لأحد» . وتنبأ بأن إسرائيل ستستخدم «قوائم بالأسماء» في عمليات التوقيف الجماعي والقتل . وأضاف أنه ستكون هناك مذبحة أخرى على غرار تل الزعتر عام ١٩٧٦ .

وادعى الإسرائيليون أن الذي قاد الكتائبيين إلى تل الزعتر هو إيلي حبيقة الذي عاش قبل ذلك في الدامور . وكانت أسرته بين تلك الأسر التي قتلها الفلسطينيون ، كما أن خطيبته كانت بين الذين ذبحوا هناك .

لكن الإسرائيليين ـ كما بيّنت لجنة كاهان بوضوح ـ قصروا كلمة «إرهابين» على وصف أعدائهم دون أصدقائهم الكتائب . ووصف أوري أفنيري ، الصحفي الإسرائيلي اللبرالي الذي قابل عرفات خلال حصار بيروت الغربية وطالب مجلسُ الوزراء الإسرائيلي لاحقاً بمحاكمته بتهمة الخيانة ـ اصطلاح «إرهابيين» بأنه «جريمة اعلامية ومبرر للقتل» . وقال لي في تل أبيب عام ١٩٨٦ بأنه «أسلوب نازي» للتأثير على العقول «وعملية تجريد للإنسان من إنسانيته تمهيداً للحرب»[٤] .

ولم يكن مدلول كلمة «إرهابيين» لدى الإسرائيليين ـ شارون وبيغن وجنودهم ـ كمدلولها خارج إسرائيل . ففي أوروبا وأميركا وفي كثير من الدول الآسيوية وحتى في الاتحاد السوفييتي ، كانت كلمة «إرهابي» تصرف الذهن إلى عمليات الخطف والقنابل المزروعة في المطاعم والمدارس والمطارات ، وقتل المدنيين في الطائرات والباصات والقطارات والسفن . ولكن كلمة «إرهابي» في إسرائيل تطلق على كل الفلسطينيين العرب ، وفي الغالب كل العرب الذين يعارضون إسرائيل قولاً أو فعلاً . واعتاد لورن جنكنز أن يشير إلى «الانتقاص العفوي من المعنى» الذي كان الإسرائيليون يفرضونه على معنى الكلمة ويشوهون به حقيقة الإرهاب . ولكن ذلك لم يكن عفوياً بل مقصوداً . إذ حذا الإسرائيليون حذو السوفييت والأميركيين والبريطانين فميزوا بدقة بين الإرهابيين الأخيار والإرهابيين الأشرار . ففي

(٤) ويذكر أفنيري أن شارون أخبره قبل بدء الحرب بثمانية أشهر أنه يريد القضاء على منظمة التحرير في لبنان ، وإسناد السلطة للكتائبيين في كيان أشبه «بالمحمية المسيحية» وإخراج السوريين من لبنان ، ودفع الفسلطينين إلى سوريا آملاً في أن يدفع السوريون بهم إلى الأردن الذي يمكن تحويله عندئذ إلى دولة فلسطينية . وكانت لدى شارون فكرة نابليونية وهي قيام ثورة فلسطينية في الأردن . ومن المفارقات أن الجيش الإسرائيلي لم يكن يقيم وزناً للفلسطينيين لأن منظمة التحرير لم تكن تشكل تهديداً عسكرياً لهم . وما كان يقلقهم هم السوريون .

حين أن الأخيار ـ في نظر الإسرائيليين ـ كانوا متعاطفين مع إسرائيل التي خلعت عليهم صفات مختلفة أقل إيذاء مثل الميليشيات والمقاتلين والجنود ، فإنهم اعتبروا الأشرار المعارضين لإسرائيل إرهابيين من الدرجة الأولى ، ومجرمين وسفاحين وقتلة من النوع الذي ينبغي تطهير المجتمع منهم .

وكان وصف الإسرائيليين للفلسطينيين بأنهم إرهابيون يعني أنهم لم يعتبروهم مجرد أعداء بل أشراراً لا يمكن لعاقل أن يأخذ مطالبهم السياسية مأخذ الجد . وعليه يصبح المتعاطف مع الفلسطينيين متهماً بمناهضة السامية ـ أي متهماً لا بمعاداة إسرائيل أو اليهود فحسب ، بل بمناصرة النازية ، وهي تهمة لا يقبل عاقل بأن يتهم بها . وذهبت إسرائيل إلى أبعد من ذلك فصار كل من يقول إنها مخطئة في حربها ضد الفلسطينيين معرضاً لاتهامه أيضاً بذلك .

لكن لو اعتبرت إسرائيل منظمة التحرير عدوة لها فإن الشرق الأوسط يصبح مسرحاً للنزاع بين فريقين وهذا ما لم تكن تريده . كانت باتهامها للفلسطينيين بأنهم أشرار وأنهم يمثلون الخطيئة بأسوأ أشكالها ، تريد أن تظهر للعالم بأنها تحارب الشر ، وعليه فإنه لا وجود لنزاع في الشرق الأوسط . فالمعركة ، حسب المنطق الإسرائيلي معركة بين الحق والباطل ، بين داود وجولياث ، بين الإسرائيليين و«الإرهابيين» . ومأساة الإسرائيليين هي أنهم صدقوا هذه الأسطورة .

على أن كلمة «الإرهاب» ارتبطت مع تلك الأحداث التي يرد ذكرها باستمرار والتي تذكّر بمصير اليهود في الحرب العالمية الثانية . ففي أعقاب مجازر صبرا وشاتيلا أخذت بعض الأمم تتساءل كيف يمكن لشعب عانى ما عاناه على يد هتلر أن يسمح بحدوث تلك الفظائع تحت سمعه وبصره . وطوال حصار بيروت كانت منظمة التحرير تتهم إسرائيل باستخدام الأساليب ذاتها التي استخدمها هتلر ضد اليهود . لكن الناجين من الإبادة الجماعية ـ أي اليهود ـ اعتبروا هذا من قبيل الكفر . فقد استنكروا مقارنة جيشهم الذي كان ـ على حد قولهم ـ يحارب «الإرهابيين» لحماية مواطنيهم والذي نشأ منذ البداية على اعتبار «طهارة السلاح» قانونه الأخلاقي بمقترفي المذابح الجماعية في ألمانيا النازية .

لم تغيّر مذابح صبرا وشاتيلا حجج الإسرائيليين ، لكنها أصابتها في الصميم وشوّهتها . فقد شهد الإسرائيليون فظائع صبرا وشاتيلا . ولا يمكن لأي جندي من جنود الاحتلال أن يتوقع تبرئة المحكمة له بحجة أن حلفاء ه من الميليشيات المسيحية هم الذين اقترفوا الفظائع .

لكن حتى بعد أن شاهدنا الحروق الفوسفورية التي حوّلت رضيعين في مستشفى البربير إلى شعلتين من النار ، لم نتحدث إطلاقاً عن الإسرائيليين بوصفهم نازيين . وذلك لأنه لم تحاول أية حكومة إسرائيلية أن تقضي على أمة بكالمها . ومع هذا تظاهر ٣٥٠,٠٠٠ إسرائيلي ـ أي عشر إسرائيل ـ في تل أبيب للتعبير عن اشمئزازهم مما حدث في صبرا وشاتيلا .

وكان لا يزال من المستحيل أن نستبعد مقارنة صبرا وشاتيلا بما يماثلها من وقائع الحرب العالمية الثانية . ففي هذه الحرب سمح الجيش الألماني لرجال الميليشيا الكر واتيين ـ الذين كانوا متوحشين ومسيحيين كالكتائب بذبح سكان القرى الصربية في يوغوسلافيا عام ١٩٤٢ . وفيما بعد قام اليوغوسلافيون بإعدام الضباط الألمان لأنهم سمحوا بحدوث تلك الفظائع .

وبالطبع فإن الحرب اللبنانية لا تقاس بالحرب العالمية الثانية . فبحلول عام ١٩٨٨ وبعد ثلاث عشرة سنة من الحرب بلبنان لم يتجاوز مجموع القتلى فيه ١٠٠,٠٠٠ ، وهذا أقل من عدد ضحايا القنبلة الذرية من المدنيين في هيروشيما عام ١٩٤٥ الذي بلغ ١٣٨,٦٩٠ . ولا يزيد عدد القتلى في لبنان كثيراً على ضعفي ضحايا الغارة المحرقة على هامبورغ عام ١٩٤٣ . وكذلك فإن قتلى الحرب الأهلية الإسبانية التي امتدت من ١٩٣٦ إلى ١٩٣٩ أكثر من خمسة أضعاف قتلى الحرب اللبنانية حتى الآن . وقدّر الاتحاد السوفييتي عدد قتلاه من المدنيين بين ١٩٤١ و ١٩٤٥ بسبعة ملايين . وقتل «الخمير الحمر» (أي سكان كمبوديا الأصليون) ما يقرب من ثلاثة ملايين شخص أكثرهم من المدنيين . وفي تقدير الجزائريين أنهم فقدوا مليون شخص في حربهم ضد فرنسا بين عامي ١٩٤٥ و ١٩٦٢ .

لكن إذا نظرنا إلى مستوى الفظائع الفردية نجد أن مجزرة صبرا وشاتيلا تضاهي مثيلاتها من فظائع الحرب العالمية الثانية . فالجثث التي وجدت في صبرا وشاتيلا والقوائم المتزايدة «للمفقودين» من المدنيين الفلسطينيين واللبنانيين وشهادات الضباط الكتائبيين في الأسابيع التي تلت تشير إلى أن عدد الذين قتلوا في مخيمات بيروت بين ١٦ و ١٨ أيلول/ سبتمبر ١٩٨٢ يزيد على الألف قتيل وقد يبلغ الألفين . وإذا أخذنا أقل تقدير إسرائيلي لضحايا المجزرة وهو ٤٦٠ نجده لا يقل إلا تسعة عن عدد الذين قتلهم النازيون في قرية ليديس التشيكوسلوفاكية عام ١٩٤٢ أو نقلوا بعد ذلك إلى معسكر الاعتقال[(٥)] . كما أن أقل تقدير لمجموع ضحايا المجزرة ببيروت أورده مدير المخابرات

(٥) أظهرت لجنة كاهان حكمة كبيرة عندما قررت أنها لا تستطيع الاعتماد على الإحصائيات اللبنانية أو الفلسطينية لضحايا المجزرة فقدرت العدد الأدنى بـ ٤٦٠ قتيلاً ولكنها اعترفت بأنه «من الممكن أن تكون هناك جثث أخرى . . في المقابر التي حفرها المهاجمون بالقرب من المخيمات» . وهذا إشارة إلى الجثث المدفونة تحت ملعب الغولف . وذكر تقرير اللجنة أن مدير المخابرات العسكرية الإسرائيلية قدر عدد ضحايا شاتيلا في شهادته بين ٧٠٠ و ٨٠٠ . وأما عمليات القتل في ليديس فقد اقترفت انتقاماً لاغتيال رينهارد هايدريش «حامي» بوهيميا ومورافيا النازي . بواسطة عملاء الحلفاء . وقتل الالمان ١٩٧٣ قروياً من الذكور وأرسلوا ١٩٨ امرأة و٩٨ طفلاً إلى معسكر الاعتقال في رافنزبورك .

العسكرية الإسرائيلية وهو ٧٠٠ لا يزيد إلا ٥٨على عدد المدنيين الفرنسيين الذين قتلهم جنود الصاعقة الألمان في قرية أورادور ـ سور ـ غلين عام ١٩٤٤ .

إن مجّرد إجراء مثل هذه المقارنات يثير غضب الإسرائيليين ، وآلاف اليهود في العالم الذين نجا بعضهم من الإبادة الجماعية . وهناك حقيقة تتجاهلها كثرة من الدول العربية مع الأسف وهي أن المظاهرات الإسرائيلية التي قامت في تل أبيب احتجاجاً على المجزرة كانت في الأساس تأكيداً من الإسرائيليين على أنهم غير مستعدين لأن يسمحوا لبلادهم بأن تتصرف كألمانيا النازية . ولهذا كان أحد مطالبهم الرئيسية استقالة بيغن .

وركز المتظاهرون ـ ربما عن غير قصد ـ على بيغن الذي عمل أكثر من أي شخص آخر على المقارنة بين الغزو الإسرائيلي للبنان والحرب العالمية الثانية . فبيغن الذي نجا من الإبادة الجماعية وقتل النازيون عائلته في بولندا ، كان خلال أسابيع الصيف الطويلة إبان حصار بيروت يعقد المقارنات بين غزو لبنان والحرب العالمية الثانية . وهو ذاته الذي صوّر نفسه في رسالة بعث بها إلى الرئيس ريغن في ذلك الصيف كالزاحف على «برلين» للقضاء على «هتلر» . وبينما كان عرفات آنذاك مشغولاً بمقارنة قواته بالمدافعين عن ستالينغراد ، كان بيغن يعود بإصرار يثير الدهشة إلى الحرب العالمية الثانية .

وكرر بيغن الإشارة إلى الإبادة الجماعية إلى حد أنه حمل مؤرخاً يهودياً بارزاً مختصاً بتاريخ الإبادة الجماعية على الكتابة شخصياً إلى رئيس الوزراء يرجوه التوقف عن استغلال ضحايا أوشفيتز في تبرير حرب لبنان ، ولكن بلا جدوى . إذ إن الإبادة الجماعية كانت في نظر بيغن تبرر ما لا يمكن تبريره . وتملكته ـ كما يقول ندف سفران الاستاذ بجامعة هارفارد ـ «عقدة الإبادة الجماعية» . «فهو يعيش الإبادة ويعتقد بأن مقدماتها ونتائجها وأهميتها حكر عليه» . على أنه ـ أي بيغن ـ اختار أمثلة أخرى من عهد هتلر .

ففي معرض الدفاع عن غارات إسرائيل الجوية على بيروت ذكّر الغرب بغضب بغارة الحلفاء في فبراير ١٩٤٥ على درسدن حيث قُتل ٣٥ ألف ألماني على الأقل معظمهم من المدنيين . وعندما واصلت الدول الأوروبية انتقادها للإصابات بين المدنيين من جراء غارات الطيران الإسرائيلي على بيروت ، رد بيغن بتذكير هذه الدول بأن سلاح الجو الملكي البريطاني قصف عرضاً خلال الحرب العالمية الثانية مدرسة في كوبنهاغن خلال غارة له على مقر قيادة الغستابو .

على أن هذه المقارنة قائمة على الخداع . فالبريطانيون لم يقصفوا المدرسة لمجرد خطأ بسيط من الطيار في تحديد هدفه العسكري . وهي الحجة التي تذرّع بها بيغن لتبرير الغارات الإسرائيلية

الجوية على بيوت المدنيين في بيروت . فالواقع أنه عندما وقعت غارة كوبنهاغن في ٢١ آذار/ مارس ١٩٤٥ ، هبط أحد الطيارين من سلاح الجو الملكي بطائرة الموسكيتو القاذفة إلى ارتفاع منخفض إلى حد أن طرف جناحه اصطدم بأحد أبراج سكة الحديد قبل أن يهوي على مدرسة الدير . وأشعل وقود الطائرة الذي يشتمل علي نسبة كبيرة من الأوكتين الحريق في المبنى . وفي أعقاب ذلك ألقت خمس طائرات قنابلها على المدرسة ظناً أن المبنى المحترق هو مقر الغستابو . وأسفر القصف عن مقتل ثلاثة وثمانين طفلاً وعشرين راهبة وثلاثة رجال إطفاء .

لكن لم يحدث أن ضلت طائرة إسرائيلية طريقها فوق بيروت . ولم يقع حادث مماثل فيها . ومات المدنيون في لبنان بالآلاف لأن الإسرائيليين قصفوا منازلهم مرة بعد أخرى من علو شاهق وطوال أسابيع . ولم تحلّق الطائرات الإسرائيلية على علو منخفض لتحديد أهدافها بوضوح كما فعل سلاح الطيران البريطاني خلال محاولته الفاشلة لتجنب وقوع اصابات بين المدنيين في كوبنهاغن .

على أن أكثر تشبيهات بيغن دلالة ورد في الخطاب الذي ألقاه في كلية الدفاع الوطني الإسرائيلي في ٨ آب/ أغسطس ، ١٩٨٢ ، ولم يثر هذا الخطاب أي اهتمام يذكر في تلك السنة وفي السنوات التي تلت . ودار خطابه حول ضرورة غزو لبنان بالرغم من أنه لا يمكن اعتباره «حرباً لا خيار فيها» كالحروب السابقة . لكن بينما كان الجيش الإسرائيلي يحيط بيروت ويحاصر عرفات ، أخذ معارضو بيغن داخل إسرائيل يعبّرون عن شكوكهم المتزايدة في هدف الغزو . فلماذا قامت إسرائيل بحرب كان في الامكان تجنبها لأن وجود إسرائيل لم يكن مهدداً كما كان الحال عليه في الأعوام ١٩٤٨ و١٩٦٧ و ١٩٧٣؟ حاول بيغن أن يتحدى منتقديه بحجة جديدة تقول «ليس هناك تفويض إلهي بعدم القيام بحرب إلا إذا لم يكن هناك خيار آخر» .

وقال بيغن بأن المثل السائر على الحرب التي لا خيار فيها هي الحرب العالمية الثانية . ففي عشية الحرب كانت بريطانيا تقف وحدها في الميدان . وكانت لندن وباريس قد أجبرتا تشيكوسلوفاكيا على «الركوع» أمام هتلر . ووقع روبنتروب ومولوتوف معاهدة سوفييتية ألمانية . وفي أيلول/ سبتمبر ١٩٣٩ هاجمت القوات الألمانية بولندا . وفي حزيران/ يونيو ١٩٤١ هاجم الألمان الاتحاد السوفييتي ، قال بيغن :

ـ كانت حرباً لا خيار فيها لبولندا ، وحرباً لا خيار فيها لفرنسا وحرباً لا خيار فيها لروسيا . فما هو الثمن الذي دفعته الإنسانية لهذه الحرب التي لا خيار فيها؟ ثلاثون أو اربعون مليوناً من البشر . . . بينهم ستة ملايين يهودي كانوا الوحيدين الذين استخدم النازيون الغاز ضدهم . . . هذه هي النتائج الرهيبة للحرب التي لا خيار فيها .

ومع هذا فان بيغن ادعى أنه «بفضل الأبحاث والمعلومات المتوافرة لدينا» لم يعد هناك أدنى شك في أنه كان من الممكن الحيلولة دون وقوعها . قال :

ـ في السابع من آذار/ مارس ١٩٣٦ أعلن هتلر فسخ معاهدة فرساي . . . وأدخل كتيبتين من الجند في منطقة الراين المنزوعة السلاح . وكان يكفي آنذاك فرقتان فرنسيتان لأسر جميع الجنود الألمان الذين دخلوا أرض الراين . ولو حدث ذلك لأدى إلى سقوط هتلر . . .

على أن بيغن لم يكشف لنا عن اسم مصدر «الأبحاث» التي بنى عليها هذه النظرة المبسطة للتاريخ . لكنه أخذ في فقرة غير عادية من خطابه يقيم صلة مباشرة بين نتائج الحرب العالمية الثانية وبين رغبة إسرائيل في الاحتفاظ بالضفة الغربية الفلسطينية المحتلة وهي الأرض التي يُدخلها بيغن في «أرض إسرائيل» قال :

ـ لو حصل هذا (أي التحرك الفرنسي) لأدى إلى تجنب الحرب العالمية الثانية ، والإبقاء على حياة أكثر من ثلاثين مليون إنسان ، وعدم وقوع عشرات الملايين من الجرحى ، وتفادي مأساة هيروشيما . ولو حصل لكانت الإنسانية مختلفة اليوم ، ولأصبح الستة ملايين يهودي الذين ذبحوا أكثر من ١٢ مليوناً ولكانت أرض إسرائيل كلها بين أيدينا(٦) .

لهذا التصريح دلالات بعيدة الأثر . إذ استنتج بيغن أن ذبح النازيين لستة ملايين يهودي حال دون تحقق الحلم بأرض إسرائيل . فلو لم يقتل هتلر يهود أوروبا ، لساعد هؤلاء على تأسيس دولة إسرائيل ، ولكان عدد اليهود أكبر من عدد السكان الأصليين في فلسطين . ولم يدع بيغن المجال لعدم دقة محتوى عباراته التاريخي أن يفسد عليه حجته . لقد حال هتلر دون تحقيق بيغن لحلمه اليهودي . وحذا عرفات حذوه . إذن فقد كانت لهتلر وعرفات قضية مشتركة . ولا عجب في أن يشطح بيغن بخياله إلى عالم الوهم فيقول في الرسالة التي وجهها إلى ريغن أن زحفه على بيروت هو زحف على برلين وأن عرفات هو هتلر بعينه . .

هنا كانت الصلة الحاسمة بين الماضي والحاضر التي تمثلت في النصب التذكاري الذي أقيم خارج القدس في ياد فاشم تخليداً لذكرة الإبادة الجماعية . والواقع أن ياد فاشم تدعم بشكل مرئي آراء بيغن لأنه يجسد اتهام عرب فلسطين كما يجسد اتهام النازيين في أوروبا وحتى الانتداب البريطاني في فلسطين الذي أعاد اللاجئين الهاربين من الإبادة الجماعية على أعقابهم . وإذا كان الحاج أمين

(٦) يمكن العودة إلى نص خطاب بيغن في الجيروزاليم بوست ٢٠ آب/ أغسطس ١٩٨٢ .

الحسيني الذي يرى المرء صورته عند النصب التذكاري مجرم حرب لتحالفه مع النازيين ، فإن ذلك ينطبق على عرفات أيضاً . فعرب فلسطين كانوا أثناء حرب ١٩٣٩ ـ ١٩٤٥ قد لجأوا إلى الألمان لمنع الهجرة اليهودية إلى فلسطين . والآن فقد أصبح عرفات عدو الدولة اليهودية الذي يقوم رجال بيغن بمحاصرته في مخبأه في بيروت الغربية(٧) .

قال بيغن لمستمعيه إن إسرائيل تمكنت بغزوها لبنان «من تحطيم القدرة القتالية ل ٢٠ ألف إرهابي» وتدمير «أفضل الدبابات والطائرات السورية» و ٢٤ بطارية صواريخ سورية أرض ـ جو . فإذا كانت بيروت هي برلين ، فمن الواضح أن الجنوب اللبناني هو أرض الراين التي سمح الفرنسيون لهتلر باحتلالها عام ١٩٣٦ . وهذه هي المرة الأولى التي أمكن فيها تحويل الحرب من حرب لا خيار فيها إلى حرب خيارات .

وهنا ادعى بيغن أن «انتهاء القتال في لبنان يتيح لنا في السنوات الكثيرة القادمة عقد معاهدات سلام وإقامة علاقات سلمية مع مختلف الدول العربية» . وتبيّن فيما بعد أن هذا غير صحيح . فلا هو عقد معاهدات سلام ولا أقام علاقات سلمية ولا حتى مع لبنان . ولكن بيغن لم يبد أية شكوك . ووعد بأن لا تبدأ إسرائيل هجوماً على أية دولة عربية إلا إذا كان ذلك لمنع الحرب .

كان هذا الخطاب صدمة كبيرة للصحفي الإسرائيلي أفنيري فكتب يقول :

ـ إن لدى بيغن عقده الشخصية وضميره الخاص . فعندما زحف هتلر حاول الهرب من بولندا إلى رومانيا ، ولكن السوفييت ألقوا القبض عليه في لتوانيا . وجاء إلى هنا (إلى إسرائيل) عام ١٩٤٢ تحت لواء الجنرال البولندي آندرز ، وبقي في الجيش البولندي حتى تسريحه . . . وقد يكون تركه لأهله ومجيئه إلى هنا هما اللذان جعلاه يتشدد في موقفه من الإبادة الجماعية . كان ديماغوجيا من الطراز الأول . فكان يخاطب أعمق مشاعر الناس . والديماغوجيون بوجه عام صادقون ولا يستطيعون

(٧) حتى عام ١٩٨٩ كان شارون نفسه يضرب على نغمة هذا القياس التاريخي المشوه . ففي أواخر شتاء ١٩٨٨ ، وبعد أن أدان عرفات «الإرهاب» بدأت وزارة الخارجية الأميركية محادثاتها مع منظمة التحرير الفلسطينية في تونس . وهذه المحادثات ـ كما أعلن شارون في مقابلة له مع جريدة «وول ستريت» بتاريخ ١٠ ـ ١١ شباط/ فبراير ١٩٨٩ ، هي أسوأ من سياسات التهدئة البريطانية والفرنسية قبل الحرب العالمية الثانية وخيانة تشيكوسلوفاكيا لهتلر عندما ضحى العالم بإحدى الديموقراطيات تجنباً للحرب . كان عرفات «مثل هتلر الذي أراد التفاوض مع الحلفاء في النصف الثاني من الحرب العالمية الثانية . . . ورفض الحلفاء التفاوض معه ، وقالوا : هناك أعداء لا يتكلم المرء معهم . فدفعوه إلى مخبأه في برلين حيث لاقى حتفه . وعرفات عدو من النوع الذي لا تستطيع التحدث معه لأن يديه تقطران دماً» . وكان محور ما ذهب إليه شارون هو أن قيام دولة فلسطينية يعني حرباً «ينطلق فيها الإرهابيون من وراء حزام قوات الأمم المتحدة ومراقبيها» .

أن ينجحوا إلا إذا آمنوا بما يقولونه ـ على الأقل أثناء كلامهم . فبيغن كان يعتقد بأن عرفات هتلر آخر . وكان في الأساس يعتقد بذلك كما يعتقد بأنه كان ينقذ المسيحيين في لبنان من الإبادة .

وهذا بالطبع لا يجيب على أكثر الأسئلة إلحاحاً . فحتى لو استطعنا مساواة الفلسطينيين بالنازيين فكيف سمح الإسرائيليون الذين هم ضحايا النازيين باقتراف المجازر؟ في عام ١٩٨٦ ـ أي بعد ذلك بأربع سنوات ـ أخذ البريجادير جنرال سبكتر ـ الطيار الإسرائيلي الذي قام بقصف بيروت الغربية ـ يقلّب الرأي فيما فعله الإسرائيليون في لبنان . قال :

«كان أبناء الجيل الأول الذي عاش بعد الإبادة الجماعية يدرك تمام الإدراك إمكان انحطاط اخلاقياتنا وأنفسنا . وسألنا أنفسنا عما جرى للألمان ، وكيف انتهوا إلى ذلك الحل الذي أودى بحياة كثرة من البشر . وعندما التحقت بالقوات الجوية تعلمت متى تُعصى الأوامر ، وأن تحديد الهدف في صميم نفس الطيار . وأعتقد أن القيام بعملية (في لبنان) كان بدون أدنى شك ضرورياً في ذلك الوقت . أما الآن فأعتقد أن الناس عموماً ـ كشارون ورفائيل (إيتان) ـ كان لديهم حل نهائي مهماً تكن عبارة الحل النهائي رهيبة . كانوا يريدون حرباً تختم الحروب كلها . . . لكنهم تجاوزوا الحد وأسرفوا . والسؤال المهم هو أسلوبنا في محاربة الإرهابيين . تُرى هل نخطىء أكثر مما نصيب؟» .

كان أفنيري أكثر تشاؤماً وسخرية عندما قال :

«سأقول لك شيئاً عن الإبادة الجماعية . ما أجمل أن يعتقد المرء أن الذين عانوا من الآلام طهرتهم آلامهم . لكن الأمر على العكس ، إذ يصبحون أسوأ مما كانوا . فالآلام تفسدهم . إذ يبدو أن في العذاب والمعاناة ما يخلق نوعاً من الأنانية . فحين تحدث هرتزوغ (رئيس إسرائيل) في معسكر الاعتقال ببيرغن ـ بلسن ، لم يتحدث إلا عن اليهود . كيف تأتّى له أن لا يذكر الآخرين ـ أو الآخرين الكثر ـ الذين تجرّعوا الآلام هناك؟ (دعني أقول لك) أنه حين يتألم المرضى فإنهم لا يتحدثون إلا عن أنفسهم . وعندما يتعرض شعبك لمثل تلك الجرائم الوحشية تشعر بأن لا شيء يقاس بها أو يضاهيها . إنك عندئذ تشعر بأن لديك توكيلاً خلقياً أو إذناً يخوّلك بأن تفعل ما تريد . وهذه حصانة أخلاقية يشعر بها الإسرائيليون بكل وضوح . فكل إسرائيلي مقتنع بأن جيش الدفاع الإسرائيلي أكثر الجيوش إنسانية . وكان شعار جيش الهاغاناه في أوائل عام ١٩٤٨ «طهارة السلاح» . وهو أبعد ما يكون عن الصحة» .

فالسياسيون كما يرى أفنيري يستخدمون الإبادة الجماعية (على يد النازيين) أداة للابتزاز الخلقي . قال :

إن هذا (الابتزاز) حقيقي وليس مخترعاً . إنه موجود ، ويولد نوعا شاذاً من الشعور بانفصام الشخصية . إنك تسمع الإسرائيليين يقولون لك : لن نسمح بوجود غيتو مثل غيتو وارسو أو أوشفيتز مرة أخرى . ثم لا تلبث أن تسمعهم يقولون : يمكننا أن نغزو الشرق الأوسط في ثمان وأربعين ساعة . ولا يشعر الواحد منهم بأي تناقض في هذا الكلام .

هل يمكن لهذا أن يفسّر ولو جزئياً كيف يعجز أصحاب العقل والفكر وحتى من ذاق منهم مرّ العذاب عن انتقاد إسرائيل عندما تخطىء خطأ فادحاً وواضحاً فيتصرف جيشها بوحشية وقسوة؟ يبدو أنهم في هذا الزمن يعلّقون العمل بمقاييس الحكم العادية . فهذا ايلي ويزل ـ أحد الناجين من اوشفيتز ـ الذي يظهر شجاعة كبيرة في كتبه عن الإبادة الجماعية ـ لا يجد ما يقوله عن مجازر الفلسطينيين في صبرا وشاتيلا . وكل ما فعله هو أنه عبّر عن «الحزن» لكنه أضاف أن هذا «الحزن» هو «مع إسرائيل وليس ضد إسرائيل» واستنتج أخيراً أننا «إذا أخذنا كل شيء بعين الاعتبار وجدنا أن الإسرائيليين لم يقوموا بالقتل» . ويعلّق ناحوم تشومسكي على هذه الملاحظة المذهلة بقوله :

ـ إن قيام الإسرائيليين بقتل (الأهالي) في صبرا وشاتيلا (بالقصف) خلال الأسابيع السابقة لا يثير شيئاً من الحزن لدى ويزل(٨) . . .

وكذلك فإن ناتان شارنسكي المنشق السوفييتي الذي أمضى سنوات طويلة سجيناً في المعسكرات السوفييتية قبل أن يهاجر إلى إسرائيل لم يقم بإدانة سياسات إسرائيل الوحشية في الضفة الغربية . وفضّل كونر كروز الكاتب والسياسي الإيرلندي المشهور في كتاب له عن إسرائيل أن ينظر إلى مجزرة صبرا وشاتيلا في إطار الحرب اللبنانية التي اعتادت فيها الطوائف المختلفة أن تقترف الفظائع ضد بعضها . فكتب في «النيوريببلك» يقول :

ـ إن الغزو الإسرائيلي للبنان سرّ غالبية اللبنانيين بما فيهم المسلمون والدروز (كذا) والمسيحيون .

وحتى جين فوندا التي أثارت غضب الرأي العام الأميركي حينما زارت هانوي وعبّرت عن تعاطفها مع شعب فيتنام الشمالية المعذب خلال حرب فيتنام ، تقاعست عن انتقاد إسرائيل خلال حرب لبنان . ولم يقف الأمر بها عند هذا الحد فسافرت إلى بيروت الشرقية للترفيه عن الجنود الإسرائيليين خلال الحصار . وعندما شاهدت القصف الذي تتعرض له بيروت الغربية عبرت عن

(٨) تشومسكي : المثلث المشؤوم ، ص ٣٨٦ ـ ٣٨٧ .

تضامنها مع كفاح إسرائيل ضد الإرهاب الفلسطيني وتفهمها لغزو إسرائيلي للبنان(٩) . . . وبعد الحرب أعلنت في نيويورك عن «دعمها غير المحدود لإسرائيل . وأدانت النفاق في المواقف من إسرائيل وصِلتها بالحرب اللبنانية . وعزت ذلك النفاق إلى «مناهضة السامية»(١٠) . وأما المؤرخة باربرا تخمان التي يعتبر تحليلها الرائع للأيام الأولى من حرب ١٩١٤ ـ١٩١٨ في كتابها «مدافع أغسطس» فريداً في بابه ، فقد مرت بالمجزرة مرور الكرام مكتفية بالإشارة إلى «أن» تعقيدات العالم العربي ليست من النوع الذي يمكن لإسرائيل السيطرة عليه . وما استأثر باهتمامها هو «بقاء إسرائيل ومستقبلها ومستقبل يهود الشتات وأنا منهم» .

وعلى النقيض من ذلك تعليق للروائي الاسرائيلي أ . ب . يهوشوا يقول فيه :

ـ حتى لو استطعت أن أصدّق أن جنود جيش الدفاع الإسرائيلي الذين كانوا على بعد مئة متر من المخيمين لم يعلموا بما كان يجري فيهما ، فإن عدم معرفتهم تكون كعدم معرفة الألمان الذين كانوا يقفون خارج بوخنوالد وتربلنكا ولم يكونوا على علم بما يجري فيهما . فنحن أيضاً لم نرد أن نعرف(١١) .

ويستشهد تشومسكي الذي أظهر في بحثه حول الحرب اللبنانية تعمقاً لا يبلغه أي كاتب معاصر بعبارات ليشهاياهو ليبووتزو الأستاذ بالجامعة العبرية ومحرر الموسوعة العبرية يقول فيها :

ـ نحن ارتكبنا المجزرة . والكتائبيون مرتزقتنا كالمرتزقة الأوكرانيين والكرواتيين والسلوفاكيين الذين نظمهم هتلر للقيام بما يريده . وحذونا حتى حذو هتلر فنظمنا القتلة في لبنان لقتل الفلسطينيين .

وكانت الإجابة على مثل هذه الاتهامات هي ذاتها . فقال يوسف بورغ وزير الداخلية والشؤون الدينية الإسرائيلي : «لقد قتل المسيحيون المسلمين ـ فلماذا يدان اليهود؟» وكان بيغن أكثر تأكيداً على النزاهة الذاتية عندما قال لوزرائه :

ـ الناس يقتلون الناس . ويريدون أن يشنقوا اليهود بسبب ذلك .

وفي ٢٦ أيلول/ سبتمبر ١٩٨٢ رحل اليهود عن بيروت الغربية دون سابق إنذار وبلا ضجة ،

(٩) «يدعوت أحرونوت» ٤ تموز/ يوليو ١٩٨٢ في المرجع ذاته ، ص ٢٦٨ .
(١٠) «هامشمار» ٥ كانون الأول/ ديسمبر ١٩٨٢ في المرجع ذاته ص ٢٦٩ .
(١١) المرجع ذاته .

وخرجوا مسرعين بدباباتهم كجيش اقترف خطأ وعرف ذلك . وأسرعوا في ذلك إلى حد أن الجنود اللبنانيين الذين تمركزوا حول حطام مخيم شاتيلا فوجئوا برحيلهم السريع . وغادر كثرة من الإسرائيليين قبل بزوغ الفجر ، وانطلقوا بدباباتهم على طول الكورنيش متجهين إلى الميناء . وعند هبوط المساء عشية يوم الغفران ـ وهو الاسم الذي كان مرادفاً ذات يوم للانتصار العسكري الإسرائيلي ـ كان الإسرائيليون قد رحلوا .

وحلّت محلهم في الشوارع مصفحات الجيش اللبناني القليلة العدد وعدد من الشاحنات الفرنسية والمظليين الفرنسيين . إذ كانت القوة المتعددة الجنسيات قد عادت إلى المدينة بتكليف من الأمم المتحدة التي كانت تشعر بالذنب . وكان الأميركيون والفرنسيون والإيطاليون يدركون أن المسؤولية عن المجازر تقع عليهم هم أيضاً . وشوهد الفرنسيون في شاتيلا يبحثون في الحطام عن ألغام وعلى وجوهم أقنعة كأقنعة الجراحين للوقاية من الجثث المتآكلة .

ورحل الإسرائيليون في الوقت المناسب . فقُبيل رحيلهم كانت بيروت الغربية تشهد كل خمس ساعات محاولة لاغتيال الجنود الإسرائيليين . وكان هؤلاء قد وجدوا أنفسهم متورطين في حرب عصابات ضد مسلحين لا تعرف هويتهم . ولم نكن عندئذ نعلم أن حركة المقاومة الاسلامية قد ولدت . ففي مساء يوم واحد هوجم الإسرائيليون بالقذائف الصاروخية قرب شارع الحمراء والفاكهاني وكورنيش المزرعة .

حاولت أنا وتفايت أن نجد إيلي حبيقة . فوجدنا عنوان زوجته الشابة . ولكنه كان على ما يبدو قد غادر بيروت الشرقية . وقال لنا ضباط كتائبيون إن حبيقة كان الحارس الشخصي لبشير الجميّل ، وأن بشير قدّمه لعدد من الدبلوماسيين الأجانب بوصفه نوراً هادياً في السياسة المارونية .

وبعد يومين من العمل اتصلت بضابط في مخابرات الجيش اللبناني أكد لي أن رقم تسجيل سيارة اللاند ـ روفر التابعة للجيش اللبناني والتي رأيناها أنا وتفايت في شريط الفيديو الذي صُوّر خارج شاتيلا هو رقم تسجيل سيارة جيب متمركزة في ثكنات الجيش اللبناني بمنطقة بئر حسن قرب شاتيلا . ولم يشأ الضابط أن يضيف شيئاً لأن الإسرائيليين كما قال «متورطون تماماً» في مجزرة شاتيلا . ولما سألته عما يقصد بذلك أجاب بقوله :

ـ لقد شوهدوا من نقطة المراقبة التابعة لنا (في الثكنة) وهم يدخلون إلى شاتيلا . وكانوا من الإسرائيليين والكتائبيين ورجال حداد . ثم سألني :

ـ هل أنت الذي قال بأن الإسرائيليين نقلوا رجال حداد بالطائرة إلى المطار يوم الخميس؟ وعندما قلت نعم قال :

ـ ما قلته صحيح . فقد رأيناها وذكرت ذلك في تقرير المراقبة . وعندما قلت له إن الإسرائيليين أنكروا ذلك قال :

ـ بالطبع .

من الذي قتل بشير الجميّل؟

بدا هذا السؤال في غير محله والجثث حولنا في شاتيلا . فالجميّل كان قائد ميليشيا ، وكان له أعداؤه . وقد ادعى الكتائبيون أنهم ألقوا القبض على أرمني اعترف بأنه يعمل لحساب المخابرات السورية . وسرت إشاعات بأن الفلسطينيين دبروا مقتله . ولم لا؟ فهنالك حسابات كان يجب أن تُسوّى بعد أحداث الكرنتينا وتل الزعتر . وذكرت الصحف اللبنانية أن سليمان فرنجية قد يكون وراء مقتل الجميّل . وهذا افتراض يسهل قبوله لأن فرنجية لم يكن قد أخذ بثأره من الرجل الذي أمر بقتل ابنه طوني وكنّته وحفيدته في تلال شمالي لبنان الباردة عام ١٩٧٨ . وفيما بعد قالت الكتائب بأن الإسرائيليين هم الذين قتلوا بشير الجميّل لأنه رفض قبول طلب بيغن وهو عقد معاهدة سلام رسمية مع إسرائيل . ولم يكن هناك لبناني واحد يستبعد هذا الاحتمال .

وقبل اغتيال أخيه بوقت قصير كشف أمين الجميّل بعض ما لديه من أفكار حول الرئاسة اللبنانية ، فقال لمجلة لبنانية : «ليس من مصلحة أحد أن نربح الرئاسة ونخسر الجمهورية» . لكن كان هذا هو قدره . فهو ـ أي أمين الجميّل ـ بعينيه الواسعتين وشعره الأسود الكثيف المفروق في الوسط كان أقرب إلى رجل (الموضة) المتأنق منه إلى الزعيم السياسي . فلم يكن لديه ما كان لأخيه من حزم عسكري وقدرة على الكراهية بالرغم من أنهما كانا محاميين وتعاونا خلال السنتين ١٩٧٥ ـ ١٩٧٦ .

وكان السيل المخيف من الشظايا على بيروت عند انتخاب أمين الجميّل مناسباً بل أكثر من مناسب للحدث . ولم تطغ على أصوات الاحدى وعشرين طلقة التي أطلقت تحية للرئيس إلا أصوات انفجار أحرق مستودع ذخيرة للجيش اللبناني على بعد ثلاثة أميال تقريباً . وانتُخب الجميّل في ثكنات الفياضية ، وحاز على ٧٧ صوتاً من الثمانين وسط انفجارات كان صوتها كصوت الرعد . ووعد وهو يقف ببدلته البيضاء تحت صورة أخيه بشير بإعادة السلام إلى بلاده وإنهاء «حروب الآخرين» في لبنان دون أن يذكر بالفعل الإسرائيليين والفلسطينيين والسوريين . وبدا عليه التردد

والتجهم وهو ينطلق بسيارته مع ضابط المخابرات المرافق له ليتناول طعام الغداء مع فيليب حبيب الذي كان في وضع مثالي يمكنه من تعريفه بحقائق السلطة .

ولم تشمل تلك الحقائق بالطبع مدى سلطة أمين الجميّل ، وإنما القيود التي تفرضها عليه الجيوش التي تحتل بلاده . ولم يكن باستطاعته أن يهينهم لأنه كان عليه أن يتوسط معهم ، وأن يتعامل معهم ، وأن يتآمر معهم لتحقيق الهدف الذي أعلنه ، والذي تسعى القوة المتعددة الجنسيات العائدة إلى تحقيقه ، وهو «دولة قوية مستقلة ذات سيادة قادرة على حماية الحريات العامة وضمان انسحاب جميع الجيوش الأجنبية من أرض الوطن كله» .

دُفنت الجثث التي وجدت في شاتيلا في قطعة أرض إلى يمين مدخل المخيم في احتفال عمّه الحزن الشديد ، وانتشرت فيه رائحة تبعث على الغثيان . ووضعت الجثث في أكفان وأنزلت في حفرة حيث أهالت إحدى الجرافات عليها التراب .

من الإسرائيليين القلائل الذين كانوا يدوّنون بانتظام يوميات مفصلة عن الأحداث التي جرت أثناء المجزرة بروس كاشدان . وكان هذا مسؤولاً بوزارة الخارجية ، أصلع ، بينه وبين بل فولي مصور الأسوشيتد برس شبه كبير إلى حد أنه كان يصعب علينا أحياناً التمييز بينهما . وفي حين أن هذا كان يسر كاشدان ، فإنه كان يثير أعصاب فولي .

كان كاشدان في بعبدا عند حدوث المجزرة وقال في شهادته أمام لجنة كاهان كيف تلفن له في ١٧ أيلول/ سبتمبر موريس دريبر الدبلوماسي الأميركي من بيروت الشرقية وحذره من أن «استخدام الكتائبيين في بيروت الغربية قد يؤدي إلى نتائج رهيبة» . وقال كاشدان بأنه لم يعرف بعد ذلك ما إذا كان الكتائبيون قد دخلوا إلى المخيمات .

وفي تمام الساعة العاشرة من صباح السبت ، تلقى مكالمة أخرى من دريبر قال له فيها :

ـ عليكم أن توقفوا المجازر ، إنهم قذرون . لدي ضابط في المخيم يعدّ الجثث . عليكم أن تخجلوا من أنفسكم . إن الحالة مقرفة ورهيبة . إنهم يقتلون الأطفال . إنكم تسيطرون سيطرة مطلقة على المنطقة ، ولذا فأنتم مسؤولون عنها» .

ونُقل كاشدان بعد ذلك إلى «مكتب الارتباط» الإسرائيلي الجديد المطلّ على البحر إلى الشمال من بيروت ، وهو المكتب الدبلوماسي «النواة» الذي كان الإسرائيليون يأملون في تفاؤلهم الحالم أن يحوّلوه ذات يوم إلى سفارة كاملة .

عرفت كاشدان وأحببته . فمن الواضح أن المجازر أقلقته كثيراً . وأحببت أن أعرف عما شعر به تجاه المسؤولية عما حدث .

جلست في مكتبه وعلى سطحه العلم الإسرائيلي ، وسألته عن رأيه فيما كان سيفعله ضحايا الإبادة الجماعية لو قُدّر لهم أن يشاهدوا ما حدث في شاتيلا . ماذا كانت آن فرنك ستقول؟ فيومياتها التي قرأتها في المدرسة وأنا في الثانية عشرة من العمر تدل على أنها كانت تؤمن بأن الإنسان صالح في جوهره ، وماتت عام ١٩٤٥ في بيرغن ـ بلسن بداء التيفوس . ووشى بعضهم بها للنازيين مثل أسرة زيمون داتنز في بياليستك . ماذا كانت آن فرانك ستقول لو أنها دخلت إلى شاتيلا صباح ١٨ أيلول/ سبتمبر وشاهدت ما شاهدته؟

أطال كاشدان التفكير بهذا . ثم قال : «حسناً ، لا أظن أنها كانت ستفهم ذلك . فلبنان بلد غاية في التعقيد» . وتبادلنا النظرات . ولا بد أنه عرف أن جوابه غير واف وضعيف . فآن فرانك تروي باشمئزاز كيف أن الألمان خططوا «لتطهير» اترخت من اليهود «كما لو كانوا صراصير» .

وهذه هي الكلمة التي كان رفائيل إيتان يستخدمها بعد تقاعده بوقت قصير وفي وصف الفلسطينيين بالضفة الغربية(١٢) . وأشك كثيراً في أن آن فرانك ستعجز عن فهم ما حدث في شاتيلا . وكان لدي إحساس قوي بما كانت ستقوله . وأعتقد بأنه كان لديه الإحساس ذاته .

تابعنا أنا وتفايت تحرياتنا . فتحدثنا إلى الناجين مرة ثانية ، وسمعنا قصصاً مذهلة . فقد قيل لفولي إن أحد المصورين الإسرائيليين يعتقد بأن بين ضحايا المجزرة امرأة يهودية نجت من الإبادة الجماعية في أوشفيتز . فهل كان ذلك صحيحاً؟ جاءت هذه المرأة عام ١٩٤٦ إلى فلسطين مع مهاجرين آخرين . وتزوجت من عربي ، ونزحت معه عام ١٩٤٨ ، واستقرا معاً في أكواخ شاتيلا . وشاهد بعضهم الرقم الذي نقش على رسغها في أوشفيتز . فأخذها الكتائبيون في ١٧ أيلول/ سبتمبر واطلقوا عليها النار ، وألقوا بها في قبر جماعي . ولم ير فولي المصور ثانية . ولم نتمكن من تأكيد هذه الرواية .

وكنا في السنوات التي تلت المجزرة نعود إلى المخيم في ذكرى تلك المجزرة لنتحدث إلى الناجين . قال بعضهم إن الإسرائيليين كانوا في المخيم مع الكتائب خلال عملية القتل ، وأن كثرة من الفلسطينيين المتقدمين في السن الذين يفهمون اللغة العبرية ويتكلمونها تحدثوا بالعبرية إلى الإسرائيليين خلال المجزرة فهل كان الإسرائيليون في المخيم؟

(١٢) رفائيل إيتان في حديث له أمام الكنيست بأنه بعد أن تتكاثر المستوطنات في الضفة الغربية «سيكون كل ما باستطاعة العرب عمله هو الدوران كالصراصير في الزجاجة» . راجع التايم ١٥ نيسان/ أبريل ١٩٨٣ .

وأصاب شاتيلا المزيد من الدمار والخراب بعد ذلك . وكانت القذائف في تلك الأثناء تنهمر على آخر قبر جماعي دفن فيه مئات من ضحايا مجازر ١٩٨٢ .

استطاعت شهرزاد فارامارزي مراسلة الأسوشيتد برس الإيرانية أن تقيم صداقات مع لفيف من النساء الفلسطينيات ، فكانت تقضي معهن ساعات طويلة يتحدثن خلالها عن ذكرياتهن ، وتجرّهن إلى إعادة ما تسمعه منهن مرة بعد مرة لترى إذا كن قد أغفلن شيئاً من التفصيلات أو الحقائق .

في أيلول/ سبتمبر ١٩٨٤ قالت سوسن :

ـ أمنيتي أن يأتي كتائبي إلى هنا كي أقتله بسكين وآخذ بثأري . لقد قتل الكتائبيون أخوتي الثلاثة وجدي وعميّ الاثنين .

وقالت أمينة شحادة التي تبلغ الأربعين من عمرها وولدت قرب حيفا :

ـ أتمنى لو أنني رأيت جسد ابني ، أتمنى لو أنني رأيته ميتاً ، وأتمنى لو أعرف من قتله وارتكب هذه الجريمة ضده . كان هنا يهود أيضاً ، وكانوا أكثر رحمة من الكتائبيين . ولولا اليهود لقتل جميع الأطفال والفتيات والنساء . وقال يهودي كان هنا وقت المجزرة : «تعالي تعالي أيتها السيدة . من هنا» . وكان هنا كتائبي على وجهه قناع به ثقوب تظهر منها عيناه .

وكانت النساء ، يتحدثن باكيات وحين يصلن إلى كوارثهن الشخصية يتحول بكاؤهن إلى عويل .

أم حسين (٣٦ سنة) قُتل زوجها حميد مصطفى واثنان من أبنائها في المجزرة . وكانت لا تزال تقوم برعاية ثمانية أبناء ، حلوة الملامح وتبتسم عندما تتحدث وكأنها تريد أن تحمينا من قصتها . قالت :

ـ بعضهم يُشفق عليّ ويساعدني ، لكن من الصعب أن اعتاد على هذه الحياة الجديدة التي لا أملك فيها شيئاً . لقد اعتدت على أن أعامل كسيدة ، وعلى أن يأخذني الناس هنا وهناك وأن يفتحوا لي الباب . أما الآن فأنا مقصوصة الجناحين ومحطمة . كان زوجي وأبنائي سندي ودعامتي . ويمكنك القول بأن منزلي قد انهار . وحينما أرى الناس سعداء ، أشعر بالحزن . فإبني محمد لا يتوقف عن طلب أبيه ، وينتظره عند المدخل أو أمام النافذة ويمد ذراعيه . . . لقد تعبت ويداي ترتجفان . لا أستطيع العمل في البيت أو تنظيفه وتكنيسه . ودائماً أشعر بالوحدة . . . أحاول تجنب المرور بالمكان

الذي قتلوا فيه . وما أزال أذكر كيف كانوا يقذفون برأس حسين وجسده هنا وهناك . وغيّرت منزلي كي لا أرى المكان . وأتوجه كل اثنين وخميس إلى المدفن لزيارتهم والدعاء لهم . وأذهب كلما تراءت لي وجوهم . فالمجزرة حصلت بعد ظهر يوم الخميس في الساعة السادسة من ذلك اليوم الأسود . أخذوهم وقتلوهم . وأدعوا لهم كلما زرت قبرهم وآخذ معي شريطاً مسجلاً لآيات الله ، وأبكي . أحمل لهم معي الزهر وأنثره عليهم عندما أدخل إلى المقبرة . ولست أدري أين دُفن زوجي وابناي . أتمنى لو أعرف أين دُفنوا حتى أعلق صورهم وأقيم لهم شاهداً من المرمر ، وأغسله بين الفينة والفينة . ولكنني أعرف أنهم موجودون هناك . لذا ، حينما أذهب إلى المدفن ، أنثر الورود آملة أن تقع في المكان الصحيح .

الفصل الثاني عشر

صندوق الآلام

«باستطاعتنا أن نستمر على هذا النحو ، نعيد خلق تصورنا الحالي لبعضنا البعض ونتأمل فيه ، ونعود ونتأمل في تأملاتنا وهكذا إلى ما لا نهاية وبحقد وكأننا في قاعة من المرايا . وستكون النتيجة أننا كلنا ـ يهوداً وفلسطينيين ، وعرباً ـ سنغرق أنفسنا في عذاب دموي لا نهاية له ، وفي قاعة للمرايا من صنع مخيلتنا ولا سبيل إلى الخروج منها . وباستطاعتنا بدلاً من ذلك أن نبدأ بالتحلي بقدر من النزاهة والكرم في استخدامنا للغة .

وليس هذا بالأمر البالغ الصعوبة . إنه أيسر الأشياء الصعبة التي ينبغي القيام بها إذا أردنا التوصل إلى سلام فيما بيننا ومع أنفسنا» .

الصحفي الإسرائيلي مايكل ألكنز

الجيروزاليم بوست ، ١٣ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٨٣

في الأسبوع الذي تلا مجزرة صبرا وشاتيلا ، رأت مجلة «النيوزويك» أن أهم حدث جرى في الأيام السبعة الماضية هو وفاة غريس أميرة موناكو ، في حادث سير . وبعد أسبوعين من المذبحة ـ وبعد أن وصلت فظاعة ما قد حدث إلى مكاتب «النيوزويك» بنيويورك لم يعد لهذه المجلة شك في أمر أولوياتها . فحمل غلاف المجلة العنوان الرئيسي «إسرائيل تتعذب» وصورة لحمامة ميتة تحمل في منقارها غصناً من الزيتون ، ويلطخ دمها نجمة داود . وحمل الغلاف كذلك عنواناً ثانياً «عذاب اليهود الأميركيين» ، في حين تناولت أبواب المجلة «روح إسرائيل المضطربة» .

كانت لهذه التعابير دلالاتها الواضحة . فكل إنسان في بيروت الغربية كان سيستنتج أن الفلسطينيين ـ وليس الإسرائيليين ـ هم الذين كانوا «يتعذبون» وأن الناجين من صبرا وشاتيلا وليس «اليهود الأميركيين» هم الذين كانوا يقاسون أشد الآلام . فإذا كانت إسرائيل تشعر بالقلق ، فماذا نقول عن مشاعر الفلسطينيين الذين غدر بهم وعد أميركا بأن تحمي المدنيين الفلسطينيين بعد رحيل منظمة التحرير؟

كانت الأخبار التي غطتها المجلة أقل أخطاء من العناوين ، فقد حاولت أن تقدم تسلسلاً زمنياً لوقائع المجزرة ، واستطلاعاً مفصلاً للآراء يُظهر سقوط وهبوط التأييد الأميركي العام لإسرائيل كنتيجة لهذه الجرائم ، وانتقدت بشدة بيغن وشارون وقالت «النيوزويك» إن إسرائيل «حولت نفسها من ضحية في الشرق الأوسط إلى طاغية . ولكن ما الثمن الذي دفعته من الحلم الأصلي الذي قامت عليه الصهيونية؟» . وخلصت إحدى مقالاتها إلى أن إسرائيل «قد انتقلت بشكل مطّرد وبلا رجعة إلى اليمين» ، «وأنها عندما ازدادت عزلتها ، لجأت إلى مدافعها ، في حين أن حسها الأخلاقي الذي كان في الأحوال العادية من أكثر الأحاسيس رهافة في العالم صار في الغالب متحجراً» .

ومع ذلك فقد أظهرت «النيوزويك» تحيّزها . إذ أشارت في تغطيتها للمجزرة إلى «القضية العربية المزعجة» ولاحظت «أن الحقد العربي الأعمى قد أسهم أكثر من أي شيء آخر في حشر إسرائيل وتصلبها» . وما كانت إسرائيل ستجد تعابير «صارخة» أفضل من هذه لو طلب منها أن تكتب مقال «النيوزويك» . وهكذا فإن القضية العربية «المزعجة» ـ القذرة ، غير النظيفة ، الفظة ـ و «الحقد العربي الأعمى» ـ غير المعقول ، غير المتفهم ، الشرير ـ هما المسؤولان في النهاية عن خطايا إسرائيل ، وذلك لأن حس إسرائيل الأخلاقي الذي ذكّرت المجلة قراءها به كان «في الأحوال العادية الأشد رهافة في العالم» . ولم تكشف «النيوزويك» عن المصدر الذي استقت منه هذا التعميم الواسع .

لم يبُد أحد في بيروت أي استغراب لهذا النوع من التغطية الإعلامية . تُرى لو كان أموات صبرا وشاتيلامن اليهود بدلاً من الفلسطينيين ، ومن الإسرائيليين بدلاً من العرب ، هل كانت «النيوزويك» تصر على اعتبار غريس كيلي خبراً أكثر أهمية؟

أما صحيفة «وول ستريت جورنال» التي كان تعاطفها مع إسرائيل وراء افتتاحياتها عن الشرق الأوسط ، فقد صرفت النظر عن أهمية مجزرة صبرا وشاتيلا في افتتاحيتها السريعة بمناسبة السنةالأولى لوقوعها . قالت الصحيفة :

ـ وفي حين أن «الهجمات» (كذا) تثير الشعور بالصدمة ـ فمما يجدر ذكره أن ... الإصابات في صبرا وشاتيلا ... شملت ١٥ امرأة و٢٠ طفلاً . وأما باقي الضحايا وعددهم ٤٦٠ فكانوا من الذكور وبينهم كثرة من اللبنانيين والإيرانيين بالإضافة إلى الفلسطينيين» .

وبغضّ النظر عن عدم صحة هذا ـ لأنني أنا وجنكنز شاهدنا يوم انتهت المجزرة عشرات من الموتى من الأطفال والنساء ـ فإن صياغة تلك الكلمات ودلالاتها عار على الجريدة .

ما أهمية الادعاء بأن عددا قليلاً من النساء والأطفال قد قتلوا؟ وهل موت ٣٥ امرأة وطفلاً غير جدير بعاطفة «وول ستريت جورنال»؟ طبعاً هنالك لبنانيون بين الموتى ، إذ كان الآلاف من اللبنانيين الفقراء ، وخاصة من الطائفة الشيعية ، يعيشون بين الفلسطينيين في صبرا . وولد كثرة من الفلسطينيين في سوريا وصاروا بذلك يحملون هويات سورية . على أننا لم نشاهد إيرانياً واحداً بين الموتى . ولكن ما أهمية هذا؟ هل كانت «وول ستريت جورنال» تعني أن قتل الإيراني أقّل أهمية من قتل اللبناني؟ أو أن قتل السوريين أقل عاراً من قتل الفلسطينيين؟ أم أن الأمر عكس هذا؟

لفهم الطبيعة المخزية لهذه الإفتتاحيات ـ ونقول افتتاحيات لأن «وول ستريت جورنال» لم تكن الوحيدة التي قللت من أهمية ما قد حدث في بيروت ـ كنا في لبنان نعكس ما يقال عن الحدث . فلو ذبح ـ مثلاً ـ ٤٦٠ إسرائيلياً ، هل كانت «وول ستريت جورنال» تقلل من مدى وحجم الوحشية بالإشارة إلى أن ٣٥ شخصاً فقط من اليهود الذين ذبحوا كانوا من النساء والأطفال؟ لو أن الصحيفة فعلت ذلك لاتهمت في الحال بأنها معاديةللسامية . ثم لو أنها قالت أن نسبة كبيرة من الرجال الإسرائيليين الذين قتلوا لم يولدوا في إسرائيل بل كانوا مهاجرين قدموا من اليمن مثلا أو مراكش ـ أو من نيويورك ـ أما كانت ستتعرض للإدانة العلنية العامة وتتهم بأنها مثيرة للنعرات وعنصرية في الوقت ذاته؟

كان من الصعب علينا دائماً أن نوضح للعرب لماذا نجد الصحافة الغربية ، باستثناء القلة منها ، موالية باستمرار لإسرائيل في صفحة الرأي ومؤيدة لها في غالب الأحيان في تقاريرها . والواقع أننا نحن العاملين في بيروت كنا ولا نزال نعتبر عجز محرري الصحف عن النظر إلى النزاع في الشرق الأوسط على أنه صراع بين الشعوب قاس غير قابل للتسوية أمراً مزعجاً ومثيراً في الوقت ذاته . إذ كان مصورو الصحف ومراسلوها يجدون دائماً أن مكاتبهم الرئيسية تعتقد بأن الصراع العربي الإسرائيلي هو معركة بين داود وغوليات ـ بين الخير والشر . وفي حين أن الإسرائيليين يمثلون الخير فإن العرب كذابون ، لا يوثق فيهم وقادرون على ارتكاب أكثر الأعمال وحشية . وهكذا كانت صور الكاريكاتير

في الصحف الغربية ـ ومن بينها التايمز بين الحين والآخر ـ تظهر العرب بأنوف معقوفة ونظرات خبيثة وذقون غير حليقة . ولو أن تلك الصحف صورت الإسرائيليين على ذلك النحو لأدينت ـ وبحق بأنها مناهضة للسامية .

وبالطبع فإن العرب ساعدوا على خلق هذا الانحياز . فقد تغلغل سرطان الدكتاتورية والكبت والفساد بعمق في نسيج بعض حكومات الشرق الأوسط التي حصلت على استقلالها بعد الحرب العالمية الثانية . ولم تستطع حتى أكثر الأنظمة العربية تحرراً وموالاة للغرب أن تنشىء ديمقراطية انتخابية كالتي أنشأتها إسرائيل . وفي حين أن القادة العرب قد يعتقدون أن الديمقراطية على النسق الغربي غير ملائمة لمجتمعاتهم ، فإنهم لا يستطيعون أن يقدموا تبريراً مشابهاً للنقص البالغ في الحرية السياسية والشخصية الذي يكبل حياة رعاياهم . وكذلك فإنهم لم يتمكنوا إطلاقاً من تعليل كون التعذيب فاشياً وأساسياً في أجهزة أمنهم .

لدينا فيض من الأدلة على أن إسرائيل كانت ولا تزال تستخدم التعذيب ضد العرب . ويمكن لكل من يشك في صحة هذا أن يطلب الاطلاع على «الحي الروسي» التابع لدائرة الأمن بالقدس . أو أن يطلب رؤية المساجين في سجن الخيام في الشريط الجنوبي اللبناني الذي تحتله إسرائيل . ثم إن ديمقراطية إسرائيل لا تشمل الفلسطينيين في الضفة الغربية وفي قطاع غزة ، وعزلت سلطات الاحتلال رؤساء البلديات والمسؤولين الفلسطينيين الذين انتخبوا بشكل ديمقراطي بسبب معارضتهم لسياسات إسرائيل .

إلا أن غزل العرب باشتراكية أوروبا الشرقية ، وذلك الخليط الغريب من الولاءات القبلية والمبالغة في وصف الانتصارات وما ولد هذا كله من بلاغة جوفاء خلق في الغرب شعوراً بعدم الثقة وفي أحيان كثيرة بالكراهية المباشرة . ومما ألحق الضرر بالقضية العربية ذلك التنافس الدائم بين الأنظمة العربية . وكان لبنان بميثاقه «الديمقراطي» غير المدوّن ، ومبالغته في الإقبال على كل شيء غربي ، وبمجتمعه المختلط يبدو جذاباً بعض الشيء .

من الملاحظ أن هناك قدراً متزايداً من الأبحاث عن تاريخ مواقف الغرب من فلسطين . ويمكن اعتبار كتاب «الاستشراق» لأدوارد سعيد أساس تلك الأبحاث . ولكن الإبادة الجماعية لليهود خلقت التعاطف والشعور بالذنب لدى الغرب تجاه إسرائيل . ثم إن الفكرة القائلة بأن يهود إسرائيل «قد جعلوا الصحراء تزدهر» ـ بالرغم من الدلائل الكثيرة على أن ذلك ينطبق على أجيال كثيرة من العرب واليهود ـ قد بدا براقاً لعالم ما بعد الحرب الذي دُمرت مدنه وذبح أهله على نطاق لم يسبق له مثل

في التاريخ . وكذلك فإن إنشاء دولة إسرائيل بواسطة أناس وقعوا ضحية أسوأ الجرائم وأبشعها جعل منها رمزاً لا يمكن مقاومته للتجدد الإنساني .

وفي حين أن البريطانيين لم ينسوا ان يهود فلسطين قد شنوا عليهم حرب عصابات استخدموا فيها الإرهاب الذي تدعي إسرائيل أن العرب يقومون به ، وأنها تحاربه نيابة عن العالم ، فإن ما فتن مخيّلة الغربيين بوجه عام هو صورة دولة صغيرة مستضعفة تنهض من ركام أوشفيتز لتعيد للقيم الاخلاقية اعتبارها بعد أن ضاعت في ثنايا حربين عالميتين . وحتى مجزرة دير ياسين عام ١٩٤٨ فشلت في التأثير على الإيحاء بأن القوة الإسرائيلية قد قامت على «طهارة السلاح» .

لقد توافق الدعم اليهودي الأميركي لإسرائيل مع السياسة الأميركية الرسمية لما بعد الحرب وهي الوقوف في وجه المد الشيوعي . ووجدت أميركا أن لوجود إسرائيل الصديقة الموالية لأميركا والمتعاطفة مع الغرب في الشرق الأوسط قيمة في ذلك الصراع . ولم يكن من الصعب على إسرائيل تصوير نفسها واحة للديمقراطية وسط بحر معاد من الدول العربية ذات الميول الشيوعية . وكان يجري تذكير من يجرؤ في الغرب على تحدي هذه الصورة ، بالإبادة الجماعية وبالجريمة الجماعية للعالم «المتمدّن» الذي أدار ظهره ليهود أوروبا عندما حاول هتلر أن يقضي عليهم .

في ياد فاشم صورة فوتوغرافية كبيرة أخذت من الجو لمعسكر أوشفيتز بيركينو للإبادة بواسطة طائرة أميركية خلال الحرب العالمية الثانية . وهي لا تظهر المساكن والثكنات ومحطة السكة الحديدية فقط بل وجماعة من اليهود وهي في طريقها من مكان الاختيار إلى غرف الغاز للتصفية . فلماذا لم يقصف الحلفاء حتى الخطوط الحديدية الموصلة إلى أوشفيتز؟ ولماذا تجاهلوا مناشدة اليهود لهم بأن يقصفوا غرف الغاز؟ إن الصورة في ياد فاشم تسوق الغرب إلى حلقة الاتهام تماماً كصور الحاج أمين الحسيني وهو يستعرض وحدات العاصفة المسلمة التي تحرج الفلسطينيين . ولماذا لم يتدخل البابا بيوس الثاني عشر من أجل الأرواح اليهودية؟ لماذا لم تنقذ المسيحية يهود أوروبا؟

كان مصير الفلسطينيين يبدو أمراً خارجاً عن الموضوع إذا ما قورن بهذه الأسئلة الخطيرة . ففي عالم كان يشهد إعادة إسكان جماعية لملايين الأوروبيين المدنيين ، لم يكن اقتلاع حوالي ٥٠٠٠٠٠ عربي من أجل شعب الإبادة الجماعية بالأمر الذي يثقل ضمائر الكثيرين من أهل الغرب . بل إن التضحية بهؤلاء الفلسطينيين كانت في الحقيقة إحدى الوسائل التي يتجنب فيها الغرب الإجابة على ذلك السؤال المخيف : لماذا سُمح لهتلر بإبادة يهود أوروبا؟

وفي عقود السنوات التالية صار كل من يجرؤ على انتقاد إسرائيل في أميركا أو أوروبا يعرّض نفسه للاتهام من قِبَل الإسرائيليين أو من قِبَل أنصار إسرائيل في الأقطار الأخرى بشكل مبطن أو مباشر بمناهضة السامية . لقد حصلت إسرائيل على حصانة معنوية من جميع الدبلوماسيين والكتاب باستثناء قلة منهم . وصار من الواجب اعتبار دوافعها فوق كل شك ، وأعدائها برابرة كالنازيين . وليس رؤساء الجمهوريات ورؤساء الوزارات والوزراء والدبلوماسيون والسياسيون ورجال الكنيسة والمؤلفون والممثلون ورؤساء التحرير والصحفيون في حاجة إلى زيارة ياد فاشم ليتذكروا ذلك . فمجرد القول بأن إسرائيل قد أخطأت في الشرق الأوسط يثير الاحتجاجات الغاضبة لا من قبل إسرائيل فقط بل من قبل البلد الذي جرى انتقادها فيه . ذلك أن دفاعات إسرائيل المعنوية توجد في كل المجتمعات اليهودية في الخارج وأقواها في الولايات المتحدة .

وهكذا ظهر ضرب جديد متكامل من الأدب والأفلام التي تؤيد إسرائيل ولا تنتقدها . وأكبر مثل شائع ومعروف على ذلك هو كتاب «الشتات» لليون أورس الذي يدور حول هجرة اليهود بعد الحرب العالمية إلى فلسطين وتأسيس دولة إسرائيل . على أن عرض قصة إسرائيل بشكل يمنع عنها أي لوم أدى إلى فهم خاطىء وناقص للشرق الأوسط . فمثلاً أشادوا بجيش إسرائيل كتابة وعلى الشاشة ووصفوه بأنه لا يقهر وأن أعماله السرية جريئة ولا تخطىء .

وهذا في أفضل الحالات يذكّر الإسرائيلين بالمستويات العالية التي وضعوها لأنفسهم . ولكنه في أسوأ الحالات أوجد مادة عن العرب عنصرية ومناهضة للسامية لأن العرب أنفسهم ساميون . وجاءت صورة العرب في الأدب والأفلام ـ كما أراد لها رجال الدعاية الإسرائيلية أن تكون ـ صورة شخص شرير ، قذر ، بشع ، غير متعلم وتنقصه النزاهة . ففي عام ١٩٤٩ مثلاً أقدم آرثر كويسلر في كتابه «الوعد والإنجاز» على وصف تشتت الفلسطينيين بقوله :

«سوف يضع الرجل المسن فرشة وإبريق قهوة نحاسياً على حمار تجره المرأة المسنة برسنه ، ثم يركب الرجل الحمار وهو متلفع بكوفيته وغارق في التفكير بالفرصة الضائعة التي كان يمكنه فيها أن يغتصب حفيدته الصغرى[(١)] .

وفي عام ١٩٥٦ كتب أدموند ولسون عن وضع العرب في إسرائيل فقال :

(١) آرثر كويسلر : الوعد والإنجاز (لندن ، ماكميلان ١٩٤٩) ص ١٩٩ ـ ٢٠٠ في غلمور ، المحرومون ، ص ١٥ .

- إنهم أشبه بشعب الناڤاهو في الجنوب الغربي الأميركي الذ ي كان فيما مضى متوحشاً ، ولا يزال يثير الاهتمام . إنه شعب متخلف يثير الشفقة فُصل عن مجتمعه ، ولكنه صاحب مشكلة لا تزول . ففي مدينة عربية كبيرة مثل عكا تجد أن قذارة الشوارع التي تعج بالناس تثير في نفس الإسرائيلي الاشمئزاز الذي تثيره في الزائر الغربي . بل إن منظر الزمر من الأولاد القذرين غير المتعلمين والمرضى الذين يصرخون ويزعقون ويتسوّلون تثير الرعب الأخلاقي لدى اليهود(٢) .

إن هذه هي لغة النازيين الذين وصفوا يهود الحارات المغلقة (الغيتو) في أوروبا الشرقية بذات العبارة فقالوا إنهم شعب يستحق «الرعب الأخلاقي»(٣) . وبالنسبة للفلسطينيين فإن العرب هم الذين خلقوا المشكلة .

وفي حين أن المراسلين لم يستخدموا هذه اللغة إلا في حالات نادرة ، فإن التغطية الغربية لأخبار الشرق الأوسط ظلت سنوات عديدة تعتمد على نظرة إسرائيل إلى الصراع . إذ كانت إسرائيل ترحب بالصحافة الأجنبية . فكافأتها هذه بتقارير مرضية لها بوجه عام . وكان المراسلون الصحفيون الأميركيون والغربيون الآخرون غالباً ذوي أصول يهودية تجعلهم يشعرون في الحال بقرابتهم للأمة التي أرسلوا لتغطية أخبارها . وعلى أي حال فإن معرفتهم بتاريخ إسرائيل وثقافتها وأهلها وفعالية الاتصالات الإسرائيلية كانت تجعل من السهل عليهم التعاطف مع الإسرائيليين ، وتجاهل بعض التناقضات الصارخة فيما يبثه رجال العلاقات العامة الرسميون . فإسرائيل مثلاً كانت تُصوَّر باستمرار على أنها أمة صغيرة مستضعفة من الناجين من الإبادة الجماعية تحيط بها من جهات ثلاث أنظمة عربية غير ديمقراطية ولا ترحم وتريد أن تكمل عمل هتلر بقذف اليهود في البحر . ومع ذلك كان جيشها القوي يوصف دائماً بالقوة التي لا تقهر ، وبالجيش الذي لا يُضاهى في أعمال البطولة والشجاعة . ونادراً ما كان أحد يهتم بهذا التناقض بين الضعف المخيف وبين القوة العسكرية الهائلة .

---

(٢) ادموند ولسون : الزيتون الأسود والأحمر والأصفر (نيويورك ، مطبعة جامعة اكسفورد ، ١٩٥٦) ص ٤٦٢ -٤٦٣ .

(٣) وأسهمت السينما التجارية بالحط من شأن العرب . ففيلم «أشانتي» الذي يدور حول قيام تجار العبيد العرب بخطف زوجة طبيب إنجليزي ، صُوِّر بعضه في إسرائيل في أواخر السبعينات ويصف العرب بأنهم يعتدون على الأطفال ويغتصبون النساء وقتلة ولصوص . والعربي النزية الوحيد في الفيلم قتل في نهايته . وقد اشترك في تمثيله مايكل كين وعمر الشريف وبيتر أستينوف . ونجد أن مخرجي الفيلم المبني على قصة «الطبالة الصغيرة» لجون لوكار الذي ينتقد الموساد الإسرائيلي ، اضطروا إلى الإعلان عن مناصرة لوكار لإسرائيل . وفي أحد المشاهد الأخيرة في الفيلم تقصف طائرة إسرائيلية «الإرهابيين» في مخيم للاجئين فلا تقتل أحداً .

أما الدور الذي أسند القيام به للعرب فهو دور المعتدي بسبب المطالبة بصلف بتصفية إسرائيل أو ـ بعد هزيمتهم في حرب ١٩٦٧ ـ بدعم «الإرهابيين» الفلسطينيين الذين أرادوا أن يقتلوا يهود إسرائيل وأن يأخذوا بيوتهم . وفي أكثر الأحيان كان لكل صحيفة مراسلان في الشرق الأوسط أحدهما في القدس ـ ليبعث بأخبار إسرائيل ـ والآخر في بيروت لتغطية أخبار باقي العالم العربي . غير أن هذا لا يعني أن كلا الجانبين كان ممثلاً تمثيلاً منصفاً . فالإسرائيليون كانوا يغمرون المراسلين بسيل من المعلومات ويقدمون لهم المساعدة ، في حين أن كثرة من الدول (العربية) كانت تنظر إلى الصحفيين الأجانب كجواسيس ، وترفض الإجابة على أبسط الاستفسارات أو مقابلة حتى أصغر الوزراء .

وخلال الحرب ، كان الإسرائيليون يأخذون الصحفيين إلى الجبهة ـ أو على الأقل إلى ذلك الجزء الذي يمكن أن يرسل منه الصحفيون أكثر التقارير ملاءمة لهم من الناحية السياسية . أما الدول العربية فكانت تبقي المراسلين الصحفيين في عواصمها ولا تزودهم إلا بالخطب الرنانة التي لا يمكن الاقتباس منها بسبب بلاغتها ، وبالتفصيلات عن انتصارات وهمية . وعليه فإن تغطية أخبار الحروب بين إسرائيل وسوريا والأردن ومصر كانت ترسل كلها باستثناء حالات قليلة من إسرائيل . إلا أن هذا الوضع اختلف في لبنان حيث كانت الحكومة بسبب ضعفها أو انقسام أجهزتها الأمنية عاجزة عن فرض رقابة على الصحفيين الغربيين الذين يراسلون من بيروت .

ولهذا أحدثت العمليات الحربية في لبنان انقلاباً بالغ الشأن . فبعد يوم واحد تقريباً لم يعد نظام التقارير الصحفية التقليدي من لبنان وبيروت في صالح إسرائيل . ففي حين أن قيوداً شديدة فرضت على تحركات الصحفيين الذين كانوا يرافقون القوات الإسرائيلية ، وأخضعت رسائلهم أحياناً للرقابة ، فإن زملاءهم في بيروت كانوا يتنقلون بحرية ويكتبون ما يشاؤون . وهذه هي المرة الأولى التي فُتح فيها المجال واسعاً أمام الصحفيين في الجانب العربي من حرب الشرق الأوسط ، ووجدوا أن أداء جيش إسرائيل الذي كان يفترض أنه لا يقهر بسبب معنوياته العالية وأهدافه العسكرية المحددة بدقة ضد «الإرهابيين» ليس كما تصوره الأسطورة . فقد تصرف الإسرائيليون بوحشية ، وأساؤوا معاملة الأسرى ، وقتلوا آلاف المدنيين ، وكذبوا في وصف ما قاموا به من أعمال ، ومكنوا حلفاءهم من الميليشيات من قتل سكان مخيم للاجئين وهم ينظرون إليهم . والحقيقة هي أنهم تصرفوا بالطريقة «غير المتحضرة» التي كانوا في السنوات الثلاثين الماضية ينسبونها إلى الجيوش العربية للحط من شأنها .

كان نقل الأخبار من لبنان ـ أولاً خلال الغزو الإسرائيلي الأول عام ١٩٧٨ ثم في عام ١٩٨٢ـ تجربة جديدة ومقلقة للإسرائيليين . فقد انتهى احتكارهم للحقيقة . ورفض الصحفيون البلاغات الرسمية الإسرائيلية بعد أن شاهدوا معاناة المدنيين من جراء القصف دون تمييز ، ولم يعودوا يقبلون الاصطلاحات القديمة مثل «الضربات الوقائية» ضد «الإرهابيين» والقصف بدقة «كدقة الجراحة»

والدقة «التي لا تخطىء» و «عمليات التطهير» وذلك لأنهم شاهدوا بأنفسهم ما تعنيه هذه المصطلحات في الواقع . .

إن انهيار الصورة الإنسانية لإسرائيل لحظة مدمرة في تاريخها . فقد كان لأخبار حصار بيروت الغربية ـ وخاصة التلفزيونية التي يظهر فيها جيش في غاية القوة وهو يقصف في أكثر الأحيان مناطق مدنية ـ تأثير لا يوصف على الرأي العام في الغرب . فأولئك الذين كانوا يشعرون ـ ولو بدون وعي ـ أن إسرائيل راعية القيم والاخلاق في عالم مضطرب اضطروا إلى إعادة النظر في ذلك . وليس هناك ما يثير الدهشة في أن مناصري إسرائيل في الخارج ـ وخصوصاً يهود الشتات ـ أصيبوا بصدمة كبيرة وتملكهم الشعور بالغضب عندما رأوا الشواهد والأدلة .

وهكذا وبارتياح عميق استقبلوا تفسير إسرائيل للظواهر التي لا تُفسَّر بطريقة أخرى وهو القول بأنها مؤامرة ولكن بعيدة الشبه عن المفهوم العربي للمؤامرة . وصارت هذه الكلمة تتردد في كل مقابلة أو نقاش حول إدارة الحرب اللبنانية . فالصحفيون يكذبون .

كانت إيرلين تاترو العاملة بالأسوشيتد برس من المراسلين الأوائل الذين فهموا عملية تحطيم الصحافة . ففي صباح يوم من أيام آب/ أغسطس ١٩٨٢ وبينما كانت منظمة التحرير الفلسطينية ترحل عن بيروت ألقت أمامي على المكتب ملفاً سميكاً من الأوراق ، وقالت :

ـ أنظر إلى هذه الأوارق يا فيسك . لقد بدأوا يعيدون كتابة التاريخ .

كان الملف ترجمة لمقالة طويلة في صحيفة «معاريف» الإسرائيلية بعنوان «لقد باعت وسائل الإعلام ضميرها لمنظمة التحرير الفلسطينية» . ونقلت عن «صحفي طويل في منتصف العمر» لا يعرف اسمه وهويته قوله إن المراسلين الأجانب في بيروت «قد باعوا ضميرهم الصحفي وأنهم يتلقون الرشاوى كل على قدر أهميته ونفوذه مقابل السكوت أو مقابل مقالات متعاطفة مع النضال الفلسطيني . . . ولم يكن من الضروري رشوة غيرهم لأنهم أكرهو على الصمت» .

وتتابع الاستشهاد في المقالة ذاتها بصحفيين مجهولين يقيمون «وزناً أكبر للدور المدمر للإعلام في المؤامرة اللبنانية (كذا) ، ويتحدثون عن بيع الصحف والإذاعة وشبكات التلفزيون إلى المنظمات الإرهابية» . لكن المقالة لا تورد أي دليل على هذه الاتهامات . لكن بعد سبعة أيام نشرت «معاريف» ما ادعت أنه تقرير مفصل عن «التصفية الجسدية» للصحفيين في بيروت ، و «أعمال إرهاب ارتكبت ضد وسائل الإعلام حتى . . . فرض نظام منظمة التحرير على الصحافة في بيروت الغربية» . وقالت الصحيفة ذاتها أن «الإرهابيين قتلوا . . . لاري بوخمان مراسل شبكة الإي بي سي التلفزيونية ومراسلها سين تولان» .

ولا بد أن بوخمان ضحك في قبره من هذا الكذب الذي يدعو للشفقة عن قتله . فقد كان مراسلاً لإذاعة الإي بي سي لا لشبكتها التلفزيونة . وكان مراسلاً مرحاً مجتهداً . غير أنه لم يقتل على يد «الإرهابيين» في بيروت ، بل مات في حادث تحطم طائرة في الأردن . فبينما كان يطير من عمان على ظهر طائرة خاصة استأجرتها الاي بي سي ، خرجت الطائرة عن السيطرة وهبطت قرب المدرج مقلوبة ، فقتل بوخمان ومخرج الشركة ذاتها واسمه ديفيد جين ، وملاحا الطائرة . وكان بوخمان وجين يحملان شريط فيديو لمقابلة مع عرفات أجرتها باربرا وولترز في بيروت لحساب شبكة الاي بي سي التلفزيونية . وأرسل الشريط إلى عمان لتحريره وارساله بواسطة الأقمار الصناعية إلى الولايات المتحدة الأميركية . وكانت نهاية بوخمان مأساوية ، وحدثت في غير وقتها . ولم تتحطم الطائرة بسبب «الإرهاب» ولكن لأن الطيار الأردني ـ ورغم التحذيرات المسبقة له ـ جلس في غرفة القيادة وفي رجليه حذاء راعي بقر (كاوبوي) . وعند الإقلاع علق كعبه تحت دفة التوجيه ، فانقلبت الطائرة . ولو قُدّر لتولان أيضاً أن يسمع ما قاله الإسرائيليون عنه لضحك أكثر من بوخمان .

ولد تولان بإيرلندا وعمل مراسلاً لجريدة «الأويزرفر» وإذاعة الإي بي سي ، وأقام علاقات مع عدة نساء متزوجات في بيروت . وكانت إحداهن زوجة لأحد موظفي السفارة البريطانية . كما كانت بينهن شابة فلسطينية قرر زوجها الغيور وضع حد للعلاقة بينهما ، فاستأجر مسلحيْن لقتله . وبينما كان عائداً إلى منزله في عين المريسة بعد أن غادر بار فندق الكومودور في ساعات الصباح الأولى من يوم من أيام ١٩٨٠ ، هاجمه الرجلان وضرباه على وجهه بقضيب لكسر الثلج ، ثم أطلقا النار على عنقه من الخلف . وقيل إنهما قبضا مبلغ ٧٥٠ ليرة لبنانية ـ أي حوالي ٦٠ دولاراً ـ مقابل قتله . ولم يتسن لنا أن نعرف ما إذا كان الرجلان فلسطينيين أو لبنانيين . لكن حتى لو حدث هذا في عاصمة عربية أكثر تقيداً بالقانون ، فإن تولان كان يمكن أن يواجه نفس المصير لتغريره بزوجة عربية .

غير أن الإسرائيليين جعلوا منه ضحية «الإرهاب» . وزعموا فيما بعد أنه قُتل بسبب فيلم تلفزيوني لحساب الإي بي سي يهاجم منظمة التحرير الفلسطينية . وتناولت «معاريف» أيضاً قضية إدوار صعب رئيس تحرير «الأوريان لوجور» الذي كان يراسل في الوقت ذاته صحيفة «لوموند» الفرنسية . ففي عام ١٩٧٦ قالت «معاريف أنه انتقد الفلسطينين بمرارة ، فأوقفوه عند حاجز على خط التماس حيث «أفرغ إرهابي» عدة رصاصات في رأسه تركته يتخبط في بركة من الدماء . وكان إلى جانبه عندئذ صديق أميركي وهو مراسل «النيوزويك» في بيروت . لكن هذا لم يصب بأذى»(٤) . ولكن رواية معاريف هذه

(٤) راجع معاريف ، ٢٠ و ٢٧ آب/ أغسطس ١٩٨٢ .

لم تكن صحيحة . صحيح أنه قُتل عام ١٩٧٦ على خط التماس ، ولكنه قُتل كغيره من مئات اللبنانيين بواسطة قناص لم تُعرف هويته . ولم يُقتل عند حاجز ، بل بينما كان يخترق بسيارته فجوة أحدثتها قنبلة ، فأطلق القناص النار عليه من مسافة مئات الياردات . وكان صديق صعب الأميركي هو هنري تانر مراسل «النيويورك تايمز» وليس «النيوزويك» .

إن الصحفي الغربي الوحيد الذي يمكن أن تُعزى وفاته بدون أي تردد إلى الفلسطينيين إنما هو روبرت بفيفر ، وهو مراسل ألماني أخذ إجازة من مجلته عام ١٩٧٧ ليكتب كتاباً عن تهريب الفلسطينيين للأسلحة . وبعد تجاهله بجرأة سلسلة من المكالمات التلفونية التي حذرته بأن عليه أن يغادر بيروت ، قُتل على باب منزله من قبل ثلاثة أشخاص على الأقل أطلقوا عليه النار من بنادقهم الأوتوماتيكية . ويعتقد أنهم كانوا جميعاً ينتمون إلى الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين .

نحن هنا أمام قضية واضحة لصحفي يفقد حياته من أجل التحري عن الحقيقية . لأن الاعتذار ـ فيما بعد ـ بأنه قُتل على أيدي مسلحين شكوا في أمره ، فقتلوه حفاظاً على أمنهم الداخلي العسكري لا محاولة منهم لإرهاب الصحفيين ، لم يكن موفقاً . إذ نفت منظمة التحرير أن يكون لها ضلع في عملية القتل ، ولكنها أوحت بأن التحريات الصحفية عن تهريب الأسلحة خارج عن الحدود المسموح بها . وقد تحدثت أنا ودوغلاس هيوم عن هذا عندما كنت أقوم بتحرياتي عن العلاقة بين منظمة التحرير وبين جماعة هوفمان التي كانت تزوّد بيروت بالسلاح . وقررت عندئذ أننا لا نستطيع أن نسمح لمصير بفيفر أن يؤثر على التايمز . فإما أن تكتب الصحيفة عما يجري في بيروت وإما أن نترك لبنان كله . ووافق دوغلاس هيوم ، ونشرت نتائج تحقيقاتي التي أدانتها المنظمة بوصفها «أكاذيب» كاملة وفي مكان بارز من الصحيفة .

ومما لا شك فيه أن الصحفيين كانوا ضحايا غياب القانون في لبنان . إذ شهد ربيع ١٩٨١ حادثاً مستهجناً وقع عندما ذهب فريق من الصحفيين الأميركيين في بيروت بينهم فولي ومصور من الأسوشيتد برس عند منتصف الليل وبعد عشاء زاخر بالشراب للتحقيق في تقارير عن نزول الإسرائيليين قرب الدامور . وكانت الطائرات الإسرائيلية قد قصفت الطريق الرئيسي خلال النهار . وذهل مقاتلو الجبهة الشعبية حينما شاهدوا على الطريق الساحلي خمسة أشخاص بالجاكيتات وربطات العنق يتقدمون على الطريق الرئيسي نحوهم في ساعات الصباح الباكرة .

ذُهل الفلسطينيون لأنهم بينما كانوا يخشون وقوع غارة إسرائيلية ، رأوا أمامهم خمسة من الغربيين يدعون أنهم صحفيون ولكن لا يحمل أي منهم بطاقة صحفية ، وكاميرا أحدهم بلا فيلم .

وزاد من شكوكهم أنهم وجدوا سترة ضد الرصاص في صندوق السيارة . فأوقفوا الصحفيين الخمسة لمدة عشرين ساعة أخضعوا فيها لتفتيش دقيق جداً في سجن تحت الأرض في مخيم صبرا . وجرى استجوابهم لمعرفة ما إذا كانوا عملاء لإسرائيل . وقيل لواحد منهم على الأقل بأن يكتب «رسالة أخيرة» إلى أحد الأصدقاء . وكان الهدف بالطبع معرفة ما إذا كان الأسير في نهاية المطاف سينهار ويكتب إلى عائلة في إسرائيل . وعندما كتب فولي «رسالته الأخيرة» إلى نك تاترو معتذراً لأنه جعل من الأسوشيتد برس أضحوكة ، تأكد للفسلطينيين بوضوح أن هؤلاءالرجال الخمسة كانوا بالفعل ما قالوه عن أنفسهم أو صحفيين حمقى لا جواسيس متهورين . فتواصل تقديم القهوة ، ثم أطلق سراح الخمسة المحرجين .

واغتنم الإسرائيليون الفرصة واستغلوا الحادث بعد سنة . وزعموا أن «الإرهابيين» هددوا الجسم الصحفي في بيروت . واعتقد كرستوفر ووكر مراسل التايمز بالقدس أن الذي دفع الإسرائيليين إلى ذلك هو أن شبكة الاي بي سي التلفزيونية كانت عندئذ تعرض فيلماً شديد الانتقاد للسياسة الإسرائيلية في الضفة الغربية واسمه «تحت الإبهام الإسرائيلي» . ولم يدر في خلدنا آنذاك بالطبع أن هذا الادعاء يمكن استغلاله لنسف مصداقية الصحفيين الأميركيين الذين سيغطون عما قريب لا عملية غزو إسرائيلية ليلية ، وإنما غزواً إسرائيلياً كاملاً شاملاً .

ولم تكد تنقضي خمسة شهور حتى كان الإسرائيليون يروون للعالم قصة استشهاد بوخمان وتولان التي تلقفتها الصحف اليهودية في الولايات المتحدة وبريطانيا . وكانت «الجيروزاليم بوست» قد تحدثت لقرائها عن «مؤامرة صمت» في بيروت على أثر قيام منظمة التحرير بإرهاب الصحفيين وأحياناً بقتلهم . وقالت الصحيفة «إن دائرة الأنباء في منظمة التحرير على درجة كبيرة من الكفاءة لا يحتاج معها الصحفيون إلى مغادرة بار الفندق في بيروت»(٥) .

وظل محمود اللبدي الناطق باسم عرفات مسروراً بهذا الوصف لدائرته المتعبة ، المتداعية التي بدت منظمة ميئوساً منها في حقل الدعاية .حتى بيّنا له أن ذلك غير صحيح . وكان رجال الصحافة الإسرائيليون يمطرون الصحفيين المقيمين في بيروت الغربية من مقرهم ببعبدا بسيل من الأسئلة : لماذا لم نقل «الحقيقة» عن منظمة التحرير؟ لماذا لم نسجل مقتل الصحفيين على يد «الإرهابيين»؟ لماذا لم نخبر قراءنا عن إرهاب المنظمة لقرى جنوب لبنان؟ لماذا لم نصف كيف وضعت منظمة

(٥) الجيروزاليم بوست ١٤ تموز/ يوليو ١٩٨٢ .

التحرير الفلسطينية مدافعها قرب بيوت المدنيين وأبنيتهم في بيروت الغربية؟ لماذا ـ وجاء هذا السؤال بعد مذبحة صبرا وشاتيلا ـ لم نرسل أخبار القتلى في حماة؟

وكنت في كل يوم أوضح أننا قمنا حقيقة بنقل أخبار سلوك منظمة التحرير في بيروت وفي جنوب لبنان . وكنت اقول للمسؤولين الإسرائيليين أنني في عشرات الزيارات للقرى في لبنان الجنوبي عاينت عجرفة منظمة التحرير الفلسطينية وكتبت عن تخويفهم للناس . وعددت لهم الحوادث التي شاهدتها بنفسي شخصياً[٦] . وأشرت إلى أننا قد أرسلنا التقرير عن موت الصحفيين اللبنانيين والأجانب ، وأشرنا إلى هوية الجناة ، وقلت إن التايمز قد نشرت لي سلسلة من التقارير عن استخدام منظمة التحرير للمدنيين كغطاء لمدفعيتهم ، وأنني شخصياً كنت في حماة خلال إخماد الثورة هنالك ولكن دون جدوى . فكنت لا أكاد أنتهي من شرحي لأحد الإسرائيليين أن «مؤامرة الصمت» هذه ليست سوى اختراع إسرائيلي ، حتى يأخذ مسؤول إسرائيلي بوزارة الخارجية أو ضابط من الجيش بالسؤال مطالباً بالإجابة على الأسئلة ذاتها . لماذا لم أملك الجرأة على الذهاب إلى حماة حينما كان السوريون يقتلون الناس؟ لماذا أخلدت إلى الصمت خوفاً من المنظمة؟ وكان علي أن أشرح مرة بعد أخرى أنني ذهبت إلى حماة ، وأننا لم نجبن خوفاً من منظمة التحرير . ودون جدوى أيضاً .

وقال الرائد يهودا واينروب في مجلة جيش الدفاع الإسرائيلي ومقرها القدس متذمراً : «إن تغطية عملية السلام للجليل في الصحافة الدولية غير مرضية ، وأنها حافلة بالأخطاء وباستخدام أساليب لا تتناسب مع الصحافة كالإستشهاد بمصدر واحد ، واللجوء إلى الأحكام بدون تقديم المعلومات ، واستخدام الكلمات المشحونة بدلالات عاطفية كريهة» .

وكان لا بد لأي محاولة للنقد الذاتي في إسرائيل أن تركز على الرقابة الصحفية الشديدة التي مارستها السلطات الإسرائيلية العسكرية في أيام الغزو الأولى للبنان . ونسب الإسرائيليون فشلهم في حرب العلاقات العامة إلى بعض الأخطاء الإدارية أو إلى سياسة غير ملائمة نحو وسائل الإعلام يمكن تعديلها في المستقبل ، مثل عدم السماح للصحفيين بدخول لبنان من إسرائيل قبل الغزو ، ومثل عدم قيام «الناطق» الإسرائيلي غير المعروف بتقديم المزيد من التفصيلات في أوائل حزيران/ يونيو عن مدى العملية . إلا أن هؤلاء الإسرائيليين لم يواجهوا أبداً حقيقة أنه لا يمكن لأية جهود في حقل العلاقات العامة مهما بلغت أن تغيّر من حقيقة الحرب في لبنان التي تحولت من حرب ضد

(٦) إن جميع الحوادث المتعلقة بمنظمة التحرير والواردة في الفصول ٣ ,٤ ,٦ ,٧ ,٨ ,٩ من هذا الكتاب نشرت كلها ونشر بعضها موسعاً في التايمز باسمي بين ١٩٧٦ و ١٩٨٢ .

«الإرهاب» إلى سفك لدماء آلاف المدنيين بلغ ذروته في مجزرة كان الجيش الإسرائيلي مسؤولاً عنها ولو بشكل غير مباشر .

وكان غالبية الإسرائيليين يصدقون دعايتهم ، ومقتنعين بأن الصحافة تكذب كاقتناعهم بأنهم كانوا يشنون حرباً على «الإرهاب» . وانحوا باللائمة على الصحفيين . فلولاهم لما تلطخ فجأة في لبنان اسم إسرائيل الذي كان حتى ذلك الوقت يعامل باحترام كبير من قبل الصحافة والتلفزيون ـ وأخذ الإسرائيليون ببطء ولكن باستمرار يتهموننا بأننا مناهضون للسامية مثل هتلر وعرفات .

إن مجرد حجم العمل ـ والخطر ـ الذي كان الصحفيون يواجهونه في لبنان يعني أنه لم يكن لدينا الوقت لملاحظة تلك الهجمات . وحتى لو قرر الإسرائيليون عندئذ أن يتبعوا قصف بيروت الغربية بتحويل مدافعهم على الصحافة ، فإن واجبنا كان التركيز على مهمة تتبّع نشر القوة الدولية المتعددة الجنسيات ، وعلى انهيار النظام المدني في تلك المناطق من لبنان التي تقع تحت الاحتلال الإسرائيلي ، وذلك لأن الدروز كانوا عندئذ في حالة حرب مع الميليشيات المسيحية التي زرعها الإسرائيليون بدون حكمة في الشوف في الأيام الأولى من حزيران/ يونيو .

ولو أراد أي جيش أجنبي في لبنان أن يقوم بجرد حساباته ، لوجد هذا أنسب وقت لذلك . فمما خيب آمال السوريين أنهم لم يدركوا أنه لم يعد لأهدافهم البعيدة صلة بما يجري . ورفض الإسرائيليون باصرار مواجهة أي تحليل علني لأهدافهم السياسية التي لا أمل فيها والتي جاؤوا إلى لبنان من أجلها . فلبنان الموحد الذي ينعم بالسلام أفلت من يد اليهود كما أفلت من يد السوريين . فعلى الرغم من أن منظمة التحرير قد أخلت بيروت فإن ما يقرب من ١٦٠٠٠ مقاتل فلسطيني ظلوا في أنحاء متفرقة من لبنان وخاصة في طرابلس والبقاع .

ومع ذلك فإن التحليل العلني الوحيد الذي وجد الإسرائيليون فيه تحليلاً مناسباً للأخذ به في الأشهر التي تلت ـ خارج نطاق مداولات لجنة كاهان حول صبرا وشاتيلا ـ هو «ندوة» باهظة الثمن عن «الحرب والصحافة» نظمتها الجيروزاليم بوست كجزء من احتفالاتها في عيدها الخمسين . ذلك أن المعلقين ـ مثل مارتن بيريز رئيس تحرير «النيوريببلك» الأسبوعية التي تصدر في واشنطن والمتعاطفة مع إسرائيل ، والدكتور كونور كروز أوبريان وحتى الكولونيل بول كيدار الذي كان الناطق الرسمي العسكري الإسرائيلي في بيروت ـ انتهزوا الفرصة وأخذوا يهاجمون الصحفيين بسبب تغطيتهم للحرب(٧) .

(٧) راجع الجيروزاليم بوست ، ٥ كانون الثاني/ ديسمبر ١٩٨٢ .

قال بيريز لمستمعيه أن منظمة التحرير الفلسطينية في لبنان «قد أخضعت للرقابة صور مخابىء الأسلحة بين المدنيين بحيث أن الصور التي عرضت على شاشات التلفزيون أظهرت القذائف الإسرائيلية التي أطلقت ، وأغفلت الأهداف التي أصابتها . . . أما أوبريان ، الذي كانت مقالاته في الأوبزرفر متعاطفة كثيراً مع إسرائيل خلال الحرب لدرجة أنها صورت عدة مرات ووزعت على الصحفيين الزائرين من قبل موظفي الصحافة العسكرية الإسرائيلية ، فقد قال إن رئيس تحرير جريدته «قد وضع جميع رسائله عن (لبنان ومنظمة التحرير) عام ١٩٨١ في أماكن غير بارزة من الصحيفة ، غير أنه بعد أن غزت إسرائيل لبنان أصبحت تغطية أخبار لبنان هي المرغوب فيها» .

وأما كيدار الذي كان قد أُرغم في تموز/ يوليو المنصرم على الاعتراف بأن الإسرائيليين قد كذبوا حينما قالوا بأنهم لم يقطعوا الكهرباء وإمدادات المياه عن بيروت الغربية ، فقد أعرب عن اعتقاده بأن السكان المدنيين لم «يعضّهم الجوع بعد» وأدان «الجهل المطبق» للصحفيين في لبنان «الذين يتباهون بصلف بأنهم حماة ضمير العالم» . وأشار ديفيد لانداو المراسل الدبلوماسي للجيروزاليم بوست إلى أن رد الفعل ذاته كان سيحدث لو أن الجيش البريطاني قام بقصف حي بوجسايد في بلفاست لينال من جيش التحرير الإيرلندي فأصاب مدرسة[٨] دون قصد ؛ أما أوبراين فقد واجه موضوع أخلاقية إسرائيل متسائلاً لماذا على اليهود الذين اضطهدوا طويلاً في التاريخ أن يتصرفوا «بشكل أفضل» في الوقت الذي يقضي فيه المنطق «بأنه ينبغي أن يغفر للمضطهَدين سوء سلوكهم» .

على أن هذا كله تحاشى القضية الأساسية وهي لبنان . فإسرائيل كانت في وضع حرج لا بسبب الصحافة بل لأنها غزت لبنان . لقد وقعت في شرك هذا البلد بسبب أوهامها ـ وهي محاربة «الإرهاب» ، وإنقاذ المسيحيين ، وخلق دولة يسهل التأثير عليها في لبنان ، وحتى الانتقام للإبادة الجماعية . كانت هذه الأحلام وراء المغامرة العسكرية في لبنان ، ولكن الإسرائيليين لم يعلنوا عنها . وحتى الصحف اليهودية في عالم الشتات (الدياسبورا) اختارت أن تتجنب هذه القضايا . أما «الجويش كرونيكل» ذات التاريخ الطويل المشرّف ، والمصادر المالية التي مكنتها من إرسال مراسليها إلى لبنان للوقوف على أخطاء الحرب ، فإنها لم تزد إلا القليل على رواية إسرائيل للأحداث إلى جانب عدد من رسائل القراء المعارضة .

وبحلول أيار/ مايو ١٩٨٣ أخذت القوات الإسرائيلية تواجه حرب عصابات خطيرة في مناطق الشيعة المسلمين في لبنان ، وسط السكان الذين كان يُظنّ أنهم رحّبوا بجيش الغزو قبل ذلك بأقل من

(٨) هذه الأخطاء المؤسفة هي التي جعلت «الجيروزاليم بوست» تعتقد أن حيّ بوغسايد الكاثوليكي في بلفاست بدلاً من لندندري .

سنة . ومع هذا فإن معهد الشؤون اليهودية في لندن عقد ندوة في ٥ أيار/ مايو لا حول إسرائيل والحرب اللبنانية بل حول «وسائل الاعلام وحرب لبنان» . وافتتح الرئيس الندوة بملاحظات قال فيها أن هناك «إجماعاً» ـ خففه فيما بعد إلى «شبه إجماع» في ضوء اعتراضات الحضور ـ على أن وسائل الإعلام العالمية «قد شوّهت ونددت» بالأفعال الإسرائيلية في لبنان .

وكنت بالصدفة في ذلك اليوم في لندن ، وجلست في آخر القاعة عندما أخذ ملفين لاسكي محرر مجلة «الأنكاونتر» يقول بأن الصحفيين في بيروت الغربية كانوا يخضعون للرقابة الصحفية من قِبَل السوريين ولكن صحفهم لم تنشر ذلك . وبالطبع لم يكن ذلك صحيحاً . وقال لاسكي إن اليهود «كانوا على الدوام موضوع الساعة ، وأن نصف الكتاب المقدس يدور حولهم . إنهم شعب وثقافة . لكن هذا السم انبثق من سطحية المراسلين وتفاهتهم» . ثم أضاف : «إن المراسلين تحدثوا عن قصف بلا تمييز . فكيف تأتّى لهؤلاء المراسلين أن يعرفوا ما هو القصف بلا تمييز؟ فالمراسل لا يعرف ما الذي تصيبه القذائف لأنه في الطوابق العليا من فندق الكومودور» .

وهتف المستمعون الذين كان قسم كبير منهم من اليهود لهذا الكلام الفارغ . فقد قارن لاسكي بين التغطية الصحفية في لبنان وبين تغطية الصحافة البريطانية في الثلاثينات لأخبار الاتحاد السوفييتي ، ولأخبار ألمانيا في أواخر الأربعينات عندما قال ان فليت ستريت (شارع الصحافة البريطانية) كان باستمرار يولد الانطباع بأن النازيين سيرجعون .وعندما ذكر اسمي عبّر المستمعون عن امتعاضهم بالهمهمة . وقال لاسكي «إن روبرت فيسك شخص ساحر وموهوب ، ولو استطاعت ابنتي في أكسفورد وهي في السابعة عشرة من عمرها أن تكتب مثله لافتخرت بها . ولكن لو كتبت مثله وهي في الثانية والعشرين . .» . وهنا ضجت القاعة بالضحك وصرخات الاستهزاء ، فمضى لاسكي يقول بأن فيسك فاز بجائزة للصحافة عن تقاريره حول الغزو الإسرائيلي ، ولكن ذلك كان «واحداً من أكثر الأعمال اللامسؤولة في الصحافة في زماننا» .

وكنت وأنا أستمع من مكاني في آخر القاعة أشعر بمدى بُعد هؤلاء الناس عن لبنان ، وبالنقص الشديد والمخيف فيما يسمعونه عن حرب كانت حتى عندئذ تُطبق على جيش الأمة التي كانوا يفاخرون بها . وحاول مايكل بنتو دوشينسكي ، وهو أكاديمي يهودي من أكسفورد ، الدفاع عن الصحفيين الأميركيين والإنجليز في لبنان ، ولكنه ووجه بصيحات التنديد والازدراء . فغضب لاسكي وأخذ يصرخ قائلاً : «إنها لم تكن حرب إبادة ، إنها لم تكن حرباً شاملة» .

وفي تلك الليلة كتبت إلى تشارلز دوغلاس ـ هيوم ، رئيس تحرير التايمز أصف له ما سمعته .

قلت : «من الواضح أنه كان من المفروض أن استخدم هذه الكلمات ـ «الإبادة» ، «الحرب الشاملة» ـ في تقاريري على الرغم من أنني لم استخدمها أبداً طيلة الحرب . وظل الناس خلال ذلك الاجتماع ينقلون عني مرة بعد مرة أشياء لم أكتبها إطلاقاً ـ وفيما بعد جاء الناس إليّ واتهموني بكتابة أكثر الأشياء غرابة وهو أن جميع الإسرائيليين كانوا قتلة . . .» .

وحاول دونلالد ترلفورد رئيس تحرير «الأوبزرفر» وجيريمي إسحق الذي كان آنذاك الرئيس التنفيذي للقنال الرابع في التلفزيون ان يدافعا عن الصحافة ، غير ان لاسكي أصرّ على أن جميع الصحفيين في بيروت الغربية كانوا يعيشون في غالب الأحيان تحت ظل التهديد . وفي تلك الليلة قلت في مذكرتي التي أرسلتها لدوغلاس هيوم :

ـ لقد كان ولا يزال هناك جو من الخوف في بيروت ، ولكن موقف الصحافة بشكل عام كان يتسم بالشجاعة . وحينما ابتدأنا نتلقى التهديدات بعد أن أرسلت تقاريري من حماه ، وأنت تذكر ذلك ، طلب إلي هورتون[٩] أن أذهب في إجازة ، ولكنني رفضت . وبدلاً من ذلك تحادثنا مع السوريين وصمدنا في مواقعنا . وواصلنا إرسال تقاريرنا بدون أن تخضع للتهديد . ولن أغفر لنفسي لو أنني هربت من بيروت . وبالطبع فإن لاسكي لا يعلم شيئاً عن ذلك ، ولو علم به لما أكترث له . إن لهجته ـ وهي لهجة خطيب عاطفي شعبي ـ تناسب مستمعيه تماماً . فقد كان يقول ما يريدون سماعه . فمن الواضح أن الصحافة ـ في نظر لاسكي ـ هيابة تسعى بجشع إلى الشهرة وتميل إلى الاثارة ، ولديها ميل لمناهضة السامية وكسولة .

حاول بينتو دوشنسكي الدفاع عني . وقال : «إن أحد الكتاب في «الجويش كرونيكل» قد انتقد حصول فيسك على جائزة الصحافة ، وأدان «حقيقة» أن فيسك قد قبل أرقام الفلسطينيين بخصوص الإصابات . لقد رجعت إلى الصحيفة ووجدت أن ما قاله فيسك هو : لم أثق في أرقام العرب وأرقام الإسرائيليين . وإذا ما رجعتم إلى ما تقوله الصحافة الغربية تجدون أن هذه الادعاءات (بالتحيز) غير صحيحة» . وقامت الضجة للمرة الثانية ضد بينتو دوشينسكي . وتساءل لاسكي : لماذا لم يقل الصحفيون للناس عن الدولة داخل الدولة التي أقامتها منظمة التحرير خلال السنوات التي سبقت الغزو الإسرائيلي؟ ولماذا لم يقل ذلك مثلاً روبرت فيسك؟

كان من الصعب أن تشعر بالغضب على لاسكي . إن ما قاله كان غير عادل بشكل مفضوح إلى

(٩) بريان هورتون الذي عيّن حديثاً محرراً للأخبار الخارجية في التايمز ، ولكنه لم يكن محبوباً .

حد لا يمكن معه الاكتراث له . غير أن الإنسان لا يمكنه إلا أن يشعر بالأسى نحو الحضور . جلستْ بقربي في المساء سيدة متوسطة العمر وكان اثنان من أصابعها قد قطعا بعد أن عضهما البرد في مخيم الأسرى في داخاو . ولم يبق من أسرتها غيرها وغير زوجها . وأصبحت تشعر بالالتزام نحو إسرائيل وترى نوايا شريرة في كل نقد لإسرائيل وأعمالها . وعندما هممت بتوديعها سألتني عن اسمي . ولما أخبرتها قالت : «حسناً ، إن آراءنا لن تتفق» . وحينما سألتها ما هو رأيها في أفكاري قالت إنها لا تدري . وقد افترضتُ أنها اطلعت فقط على ما اقتبسته الجويش كرونيكل عن بعض مقالاتي في التايمز .

وفيما بعد تلقيت رسالة من سيدة يهودية حضرت الندوة في معهد الشؤون اليهودية . قالت في رسالتها :

ـ إن جنون الشك وعدم الثقة في وسائل الإعلام وفي صحفيين ومراسلين معينين يصلان في بعض الأحيان إلى عدم المعقولية الكاملة وفقدان الاتزان والهستيريا . . . ولا يسمحان باتخاذ أحكام صائبة . هل لاحظتَ معدل أعمار المستمعين؟ أظن أن ثلاثة أرباعهم قد جاوزوا الخمسين من العمر ـ وأعني أنهم من جيل بيغن ـ الإبادة الجماعية . . . ومما يؤسفني أشد الأسف أن اليهود يجبرون على ابتلاع دعايتهم ذاتها» . وخلصت الكاتبة إلى أن معظم اليهود يكرهون التسليم بحقيقة أن إسرائيل قد أصبحت قوة كبرى في الشرق الأوسط .

ولم يكن هنالك حاجة إلى فرص للرد على ما تتعرض له الصحافة في لبنان من هجمات . وقد دُعيت ككثيرين غيري من الصحفيين في بيروت للتحدث في الندوات أو حتى في اجتماعات خاصة لأنصار إسرائيل . لكن تجارب زملائي لم تكن مشجعة . ففي معرض دفاعهم عن أعمالهم كانوا يضطرون إلى سرد حوادث حصار بيروت والإصابات الكثيرة التي أوقعها بين المدنيين . وعندئذ كانوا يتهمون بقبول إحصائيات منظمة التحرير والدفاع عن القضية الفلسطينية . وبدلاً من أن يساعدوا القراء على فهم ما حدث فعلاً ، كانوا يتهمون بما كانوا يحاولون تجنبه . وتبدأ الإشارة إليهم في الصحافة الإسرائيلية بالصحفيين «المثيرين للجدل» . ولما كان الجدل يشمل النزاع ، فإن ما يقوله الصحفي الذي يثير الجدل حول الحقائق لا يُقبل على علاّته . إذ يصبح عندئذ مشاركاً في الأحداث أكثر منه شاهداً عليها ، وبالتالي يفقد مصداقيته . لقد كان هذا شركاً حرصتُ على أن أتجنبه .

على أن هذا لم يكن يعني أنه ينبغي علينا عدم الإجابة على رسائل القراء . ففي عام ١٩٨٢ وحده وصلني أكثر من مئة رسالة موجهة إلى دوغلاس هيوم الذي أرسلها إلى بيروت ، أو موجهة مباشرة إلي . وكان ٨٠٪ من هذه الرسائل معادية ومعظمها من قراء يهود . ورغم أن بعض هذه الرسائل كان

مهيناً لي شخصياً أجبت على كل واحدة منها وأحياناً بشيء من التفصيل . وقد بدا لي آنذاك أن الدفاع الوحيد الذي يمكن للصحفي أن يتصدى به لهذه الهجمات كان هو الدفاع التقليدي الرفيع وهو التمسك بتقاريره .

لقد أظهرت ملفاتي للفترة بين ١٩٨١ ـ ٨٥ أن كلاً من حجم الرسائل وعدائية محتوياتها كان يتزايد بنسبة تزايد مشكلات إسرائيل في لبنان . فبعد الهجوم العسكري الإسرائيلي الأول في حزيران/ يونيو ١٩٨٢ ، مثلاً ، لم تصلني أية رسالة تنتقد تقاريري .

بعد ثلاثة أشهر ـ وبعد أن هاج غضب الرأي العام بسبب قصف بيروت ومجزرة صبرا وشاتيلا التي تلته ـ أخذت تصلني الرسائل بمعدل ١٥ إلى ٢٠ رسالة أسبوعياً ، وكلها تقريباً تنتقدني وتزعم أن الصحافة الغربية قد خضعت «للإرهابيين» .

وعندما بدأت إسرائيل تراجعها البطيء المؤلم في الفترة ١٩٨٣ ـ ١٩٨٥ صارت الرسائل تصل بمعدل واحد ثابت وكلها مشبعة بالمزيد من العداء ، وخاصة بعد ورود أخبار قتل الجنود الإسرائيليين للقرويين اللبنانيين ، واستباحة بيوت المدنيين ، أو السماح لحلفائهم من الميليشيات بتعذيب الأسرى .

وبدا عندئذ وكأن الانتقاد الذي كان يوجه للإسرائيليين قد تحول إلى الصحافة . وعندما كتبت مثل ذلك عن السوريين ـ حينما وصفت مثلاً معاملتهم للمساجين في بيروت في شباط/ فبراير ١٩٨٧ ـ لم تصلني رسالة واحدة تنتقد تقاريري . فقد كان المفروض أن يقال أن السورين متوحشون وأن الجيش الإسرائيلي حريص على «طهارة السلاح» . وكنت عندما ألتقي في جنوب لبنان بكثير من الجنود الإسرائيليين الشبان كانوا يعبّرون لي عن الرعب الذي تثيره في نفوسهم تصرفات رفاقهم . ولم يكن أنصار إسرائيل في أوروبا مهيئين لقبول الواقع .

في نيسان/ أبريل ١٩٨٤ كتب لي قارىء يقول : «فيسك . إنك تثير الشفقة وينقصك النضج كالعرب الذين أجريتَ معهم المقابلة» وكان ذلك بعد يومين من ملاحقتي لجرائم القتل في قرية جبشيت في الجنوب اللبناني . وكان قد قُتل فيها عدد من الأشخاص بينهم امرأة شابة ، وقام بقتلهم رجال الميليشيا الذين أرسلهم الجيش الإسرائيلي إلى القرية للتفتيش عن «الإرهابيين» . وكان هذا صورة مصغرة لما حدث في صبرا وشاتيلا .

ونشرت كذلك تقارير عن الجنوب اللبناني وخصوصاً عن مذبحة الزرارية التي قُتل فيها أكثر من

ثلاثين شخصاً داست بعضهم الدبابات الإسرائيلية التي تركت وراءها عبارة كُتبت بالطلاء الأحمر على جدار بئر في القرية تقول : «هذا هو انتقام الجيش الإسرائيلي» . وجلبت هذه التقارير المزيد من الرسائل التي كُتب بعضها بمنتهى السخرية . وكان بين تلك الرسائل رسالة بعث بها قارىء من لندن في آذار/ مارس ١٩٨٢ تقول :

« تقريرك في الأسبوع الماضي يدل على أنك تتظاهر بالكتابة للصحافة الحرة . والواقع أنك تتبع تعليمات هيئة الدعاية بوزارة الخارجية . ولهذا ادعيتَ أن سلوك الجيش الإسرائيلي الآن لا يبلغ المستويات المقبولة لدى الجيوش الغربية الأخرى . فهل سلوك الجيش الإسرائيلي أسوأ من سلوك الولايات المتحدة في مي ـ لي (هكذا) بفيتنام ، ومن ناغازاكي وهيروشيما؟ هل السلوك الإسرائيلي أسوأ من . . . تسليم ستة ملايين يهودي للنازيين . . .؟»(١٠) .

وأمطرني أنصار إسرائيل بسيل من الانتقادات بسبب تغطيتي للمقاومة بجنوب لبنان وكلها تحتج بأن رجال المقاومة بالجنوب اللبناني «إرهابيون» وعليه فإن الأساليب التي تتخذ ضدهم ـ كقتل القرويين وشيوخهم ـ وسلب بيوتهم وتدميرها أمام أعين قوات الأمم المتحدة مقبولة بشكل أو بآخر .

وفي بعض الحالات بعث القراء فيضاً من «الحقائق» لدعم ادعائهم بأن التايمز كانت متحيزة في تغطيتها لوجود إسرائيل في لبنان . وكان علينا أن نثبت عدم صحة ادعاءاتهم ، وذلك لكي لا تتهم الصحيفة بأنها فشلت في الرد على الاستفسارات . وانهالت عندئذ المزاعم المألوفة ذاتها فزعم بعضهم أن أرقام الإصابات في غزو ١٩٨٢ مبالغ فيها لأن مصدرها منظمة التحرير الفلسطينية التي ترهب رجال الصحافة في بيروت الغربية . وقال قارىء في آذار/ مارس ١٩٨٦ «إنه قبل الغزو الإسرائيلي عام ١٩٨٢ قُتل ما يزيد عن مئة صحفي في تلك البلاد» . وأضاف أن ذلك كان وراء «التقارير المختارة بكل دقة» من لبنان . وتساءل لماذا لم أكتب عن «واحد من أكثر جرائم الحرب الأهلية وحشية وهو قيام منظمة التحرير بذبح أربعة آلاف من سكان النبطية ، وعن امبراطورية المخدرات في لبنان . وقال إنني في تقاريري شوّهت الوقائع في ثلاثة وعشرين موضعاً . ولكنه لم يبيّن أياً منها .

ومرة ثانية أجبت بالتفصيل وقلت إن الادعاء بأن مئة صحفي قد قتل عام ١٩٨٢ هو غير صحيح .

(١٠) أجبت على هذا السؤال بصفحتين قائلاً إن الجنود الاسرائيليين هم الذين لفتوا نظري إلى ما اعتبروه «عدم انضباط» في جيشهم ، وأن هناك «اختلافات كبيرة ظاهرة» بين عمليات الجيش البريطاني ضد العصابات في إيرلندا وبين عمليات الإسرائيليين في لبنان . وقلت : «انك تذكر ان حوادث مثل مي ـ لي كانت «مقبولة» لدى الجيوش الغربية الأخرى . لكن من المؤكد أن مي ـ لي لم تكن مقبولة ، ولهذا السبب حوكم المسؤولون عنها في الولايات المتحدة .

كما ذكرت أننا كتبنا عن المراسلين القلائل الذين قتلوا ، وأننا ذكرنا أسماء المشتبه في أنهم قاموا بقتلهم وبينهم سوريون وكتائبيون . وقلت إني لم أكتب عن مذبحة النبطية لأنها لم تحدث إطلاقاً . وقلت في أجابتي :

ـ إن غالبية الذين قُتلوا في النبطية خلال السنوات الماضية وعددهم لا يمكن أن يصل إلى أربعة آلاف كانوا من ضحايا قصف رجال حداد . وأضفت أنني كتبت عن امبراطورية المخدرات قبل أن تلفت أنظار الإسرائيليين .

ولم ينقطع سيل الرسائل التي كانت باستثناء القليل منها تردد المزاعم ذاتها . وكنت في تلك الأثناء أتساءل لماذا جرى فجأة اكتشاف «الموتى» الغامضين الأربعة آلاف في النبطية؟ ألم يكن في لبنان خلال بضع السنوات الماضية ما يكفيه من الجثث حتى تخترع جثث جديدة؟ ولكن بالطبع لقي كثيرون جداً حتفهم في السنوات الأخيرة ـ ويُقدّر عدد الذين سقطوا بين ٤ حزيران/ يونيو ونهاية أيلول/ سبتمبر ١٩٨٢ بـ ١٧,٨٢٥ ـ وذلك نتيجة للغزو الإسرائيلي ، فكان من الضروري أن تطمس مسؤولية إسرائيل عن هذا كله وذلك بإلقاء اللوم على منظمة التحرير الفلسطينية وعلى الميليشيات والصحافة اللبنانية المناهضة للسامية .

إن الصحفيين يكذبون . كان هذا هو الموضوع الذي يجمع بين كل ما تلقته التايمز من رسائل حول لبنان . وفي عام ١٩٨٥ ظهر قارىء كان لا يزال ينكر بغضب أن مدنيين قد ماتوا من الحروق الفوسفورية في غرب بيروت عام ١٩٨٢ ، فكتب يقول :

ـ هل لي أن ألفت انتباهكم إلى بيان المراسلين الذي قالوا فيه أنهم رأوا طفلاً رضيعاً يموت بسبب التسمم الذي أصابته به الحروق الفوسفورية . أظن أن السيد فيسك لم يشاهد الرضيع نفسه ، وأنه لم تُذكر أية حادثة أخرى عن التسمم بالفوسفور . ألا يبدو ذلك غريباً؟» . ماذا يكن للمرء أن يقوله عن اعتراضات مثل هذه؟

كان العشرات من القراء يشكون من أرقام الإصابات . فكنت دائماً أصف كيف كنا عندئذ نعيد التدقيق ، ونجمع ما نشاهده بأعيننا من أدلة ، وعدد الجثث التي أحصيناها بأنفسنا . وبحلول عام ١٩٨٥ كان لا يزال بعض القراء يصر على أن عدد الإصابات أقل من العدد الذي قدّرته إسرائيل لمجموع ضحايا الغزو الإسرائيلي لعام ١٩٨٢ . وكتب أحد أولئك القراء رسالة للتايمز يصفني فيها بأنني «كذاب مدمن على الكذب ومتعصب» وهو طعن يستوجب اتخاذ إجراءات قانونية ضده . لكنني بعثت له صفحتين كاملتين من الإحصائيات والمعلومات المفصلة عن حوادث غزو لبنان .

في حزيران/ يونيو ١٩٨٥ بعثت لبارنز برقية أقول فيها :

«إن الغرض من تزايد تساؤلات القراء عن هذه الأرقام هو إظهارها بمظهر المشكوك في صحتها وهو ما يفسّر لماذا كثر الذين يريدون طرح الأسئلة» .

وبعد غزو لبنان بسنوات وجدت أنني لا أزال أقضي ثماني ساعات أسبوعياً في الرجوع إلى ملاحظاتي وملفاتي بحثاً عن تفاصيل الإصابات لأبعث بها إلى قراء كانوا في أكثر الأحيان يتجاهلون إجاباتي السابقة . وكانوا بكل بساطة يكررون اتهاماتهم الأولى : بأن المنظمة هي التي اختلقت قوائم الموتى ، وأن الصحافة قد خُدعت أو رُشيت ، أو خشيت «الإرهابيين» وأنه قد تكون مناهضين للسامية .

كان مجرد حجم الوقت والجهد اللذين تتطلبهما الإجابة على هذه الرسائل فوق طاقة المرء . ثم إن الساعات التي كان يمكن استغلالها في إرسال التقارير صارت تستخدم للاجابة على رسائل لا يفوق اسهابها في تفصيل الادعاءات عما جرى إلا كثرة أخطائها(١١) وكان من اليسير تجاهلها ومن الأيسر أن لا نرسل التقارير التي تؤدي إلى تلك المراسلات أو نكتب التقارير بطريقة تعكس رواية إسرائيل للأحداث . وذات يوم وبينما كنت أقلّب كوماً من الرسائل في بيروت قال لي تاترو الذي يعمل بالأسوشيتد برس : «إن هؤلاء الناس لا يحاولون الحصول على المعلومات بل دفعك إلى التوقف عن كتابة التقارير» .

ومن المؤكد أن سفارات الشرق الأوسط في لندن عملت ما بوسعها للتأثير على دوغلاس هيوم . فكثيراً ما اتهموني بأنني أكتب أشياء لا صحة لها عن الحرب في لبنان ، وكانوا أحياناً يتهمونني بالكذب . وطلب السفير الإسرائيلي من دوغلاس هيوم أن يسحبني من الشرق الأوسط . وفعل العراقيون الشيء ذاته عندما انتقدت بغداد . وحاول السوريون ذلك أيضاً لا لمجرد أنني قمت بتغطية أحداث حماة ولكن لأنه ظهر ـ كما قال السفير السوري في لندن ـ «أنني أحتقر العرب بشكل عام» .

---

(١١) في أيار/ مايو ١٩٨١ مثلاً بعث قارىء رسالة طويلة مفصلة لرئيس تحرير التايمز عن غارة جوية إسرائيلية على الدامور واعترض على روايتي لخبر الغارة . وكانت روايتي قد شككت في ادعاءات إسرائيل بأن الليبيين كانوا يقومون على بتشغيل صواريخ سام ـ ٩ في المنطقة . على أن الرسالة اشتملت على تفصيلات محددة جداً عن وصول القوات الليبية إلى لبنان ، ونشر بطاريات الصواريخ ، وأربع اقتباسات من صحف أخرى يبدو أنها تناقض ما جاء في تقريري . ولكن تواريخ وصول الليبيين إلى لبنان والزعم بأنهم لم يسحبوا من لبنان ، والتفصيلات الفنية عن صواريخ سام ـ ٩ كلها خاطئة . فالاقتباسات أخذت من تقارير الصحفيين الذين لم يكونوا مثلي في المكان . لكنني كتبت ألفي كلمة لتفنيد ما جاء في رسالة القارىء تفنيداً تاماً .

وفي تشرين الثاني/ أكتوبر ١٩٨٤ ، غضب السوريون من تقريري الذي قلت فيه أنه بينما كانت دمشق وعمّان في الظاهر تتجهان نحو التصادم العسكري فقد كان الرئيس السوري حافظ الأسد يتلقى مكالمات تليفونية شخصية وأخوية من الملك حسين . والواقع أنني حصلت على هذه المعلومات من الملك حسين نفسه . غير أن السوريين كانوا يعتقدون بأنني كنت أحاول أن أبيّن أن النزاع بين البلدين «لم يكن جدياً» . وأسوأ من ذلك أن السفير السوري قال لأدوارد موريتمير وهو كاتب افتتاحية رئيسي في التايمز ، أنه كان من الأفضل لو أني لم أصرف كل ذلك الوقت ولم أخصص تلك المساحة الكبيرة للكلام عن مقتل يهودي في لبنان ، في الوقت ـ وهذه هي كلماته ـ «الذي كان فيه القتل في لبنان لسوء الحظ أمراً عادياً جداً خلال السنوات العشر الأخيرة» .

غير أن الإسرائيليين فعلوا أكثر من ذلك ، فشكوا إلى وزارة الخارجية البريطانية من تقاريري كأنما كانوا يتوقعون أن تتدخل الحكومة البريطانية في تغطية التايمز لأخبار لبنان . وفي عدد من المناسبات أعرب السفير الإسرائيلي لموظفي وزارة الخارجية عن أن تقاريري المرسلة من بيروت كانت مختلقة . ولم تُقدم هذه الانتقادات في بريطانيا وحدها .

فقد نشرت التايمز الإيرلندية رسائلي بالاتفاق مع التايمز اللندنية ، فرأى حاييم هرزوغ الرئيس الإسرائيلي أن يهاجم تقاريري بينما كان في زيارة رسمية لإيرلندا في حزيران ١٩٨٥ . فتحدث مطولاً في دبلن مع غاريت فتزجرالد رئيس الوزراء الإيرلندي حول النزاع بين الجنود الايرلنديين في قوات الأمم المتحدة وبين الجيش الإسرائيلي في لبنان . وجاء في وقائع المحادثات لدى الحكومة الايرلندية ما يلي :

ـ قال الرئيس الإسرائيلي في محادثات تالية عن لبنان بأنه لا يثق في التقارير الصحفية الواردة من تلك البلاد وخصوصاً من بيروت . وقال إنه لا يمكن لأي صحفي يريد أن يكون موضوعياً أن يبقى في تلك المدينة لأنه يقتل . وسأل رئيس الوزراء عن روبرت فيسك مراسل التايمز اللندنية والتايمز الإيرلندية فقال الرئيس هرزوغ بلهجة حاقدة غير عادية بأن فيسك يكره إسرائيل كرهاً شديداً ومتحيز تحيزاً تاماً .

وكان في قيام الرئيس الإسرائيلي بإبداء تلك الملاحظات التي لا أساس لها عن الصحفيين العاملين في بيروت والطعن فيهم لرئيس وزراء دولة أجنبية رسالة واضحة للسلطات الايرلندية .

إلا أنه كان في ذلك أيضاً إشارة إلى المدى الذي كان الإسرائيليون على استعداد للذهاب إليه لوقف تلك التقارير التي أحدثت ذلك التغير العميق في صورة إسرائيل . وعلى الجانب الآخر من

الأطلسي تعرّضت تغطية مراسلي الصحف والتفلزيون للغزو الإسرائيلي للبنان لحملة خطيرة استمرت سبع سنوات على الأقل . واستهدف الإسرائيليون بحملتهم ٤٨ صحيفة أميركية يومية ادعوا أن تغطية ٣١ منها لإسرائيل سلبية حسب تصنيفهم . لكن لم يكشف أحد عن واضع التصنيف والأساس الذي بناه عليه ، وإن كان القصد من ذلك واضحاً وهو اعتبار الصحيفة معادية لإسرائيل ، وبالتالي وفي نظر إسرائيل مناهضة للسامية . وقال موشي أرينز السفير الإسرائيلي بواشنطن ووزير الدفاع فيما بعد لمحرري «الواشنطن بوست» إن أعمدة صحيفتهم أكثر «سلبية» نحو إسرائيل من أية صحيفة غيرها في أميركا(١٢) .

وأدانت الإذاعة الإسرائيلية توماس فريدمان الذي كان مراسلاً «للنيويورك تايمز» خلال الحصار بوصفه «يهودياً يكره ذاته» . وهاجم مارتن بيريز محرر «النيوريببلك» وسائل الإعلام الأميركية ، بينما أصبحت حتى المجلات التي تُعنى عادة بالجنس لا بإسرائيل منبراً لمنتقدي الصحافة .

وفي مقال عنوانه «الساعة الأكثر عاراً في تاريخ وسائل الإعلام» سأل فوستر قراء «البنتهاوس» : «لماذا انضم الصحفيون الأميركيون بحماسة إلى الجمهور الذي يقوم باعدام إسرائيل؟» وذكر كيف أن رئيس «دائرة الإعلام» في ميليشيا الكتائب (التي يدعوها بالطبع القوات اللبنانية) سأله في بيروت الشرقية لماذا لم يسع الصحفيون إلى معرفة عدد الإصابات «عندما كان الإرهابيون يتلذذون بشكل خاص بإحصاء العدد الأسبوعي للراهبات الكاثوليكيات اللواتي يغتصبونهن . . . ولماذا الآن فقط الاهتمام البالغ بمجموعة من الحيوانات البشرية؟» . وادعى فوستر أن الإسرائيليين قد جازفوا بأرواحهم لينقذوا المدنيين ، وأن عدد إصابات الغزو كان «مئات قليلة» لكن «الصحف ذات النفوذ وشبكات التلفزيون خصصت مساحات وأوقات غير عادية لتكرار الحديث بأشكال مختلفة عن جرم إسرائيل المزعوم»(١٣) .

ورفع آريئيل شارون قضية على مجلة «تايم» ، وادعى أنها ذكرت كذباً بأنه قد حرّض على جرائم صبرا وشاتيلا . وفي قرار لا سابقة له عقد القاضي جلسة سرية لمدة ٢٥ دقيقة حظر فيها على الصحافة

---

(١٢) راجع الجيروزاليم بوست ، ١١ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٨٢ .

(١٣) كتب في البنتهاوس ، شباط/ فبراير ١٩٨٣ يقول : «قبل أن يصل الاسرائيليون إلى موقع في بناية تضم عدة مساكن كانت تهاجم منه منظمة التحرير لم يكن من الجائز لهم أن يضربوه بالمدفعية . فالأمر الذي صدر إليهم يوجب القتال بالسلاح الأبيض لئلا يصاب غير المحاربين بأذى . صحيح أن ذلك كبّد الإسرائيليين كثرة من الإصابات بين قتيل وجريح ، لكن هذا يقع في الحروب التي يشنها الاسرائيليون .» تلك هي الصورة التي قدمها لأساليب الحرب الاسرائيلية.

والحضور دخول قاعة المحكمة . وكسب شارون القضية . ونشر زئيف شافتس ، المدير السابق للمكتب الصحفي الإسرائيلي الحكومي في القدس ، كتاباً ذكر فيه أن الصحفيين الغربيين في بيروت تعرضوا لإرهاب زمر اللصوص ، وكرر الادعاء بأن الفلسطينيين هم الذين قتلوا سين تولان انتقاماً لعرض برنامج معاد لمنظمة التحرير الفلسطينية على شاشة الاي بي سي (١٤) وكان الموضوع الرئيسي الذي تناوله شافتس كما قالت إحدى المجلات الأميركية هو : «أن الصحافة الأميركية سواء بالصدفة أم عن سابق تصميم تشارك في مؤامرة لتشويه سمعة إسرائيل»(١٥) .

ويحلول عام ١٩٨٨ وجد مركز الإعلام والشؤون العامة في واشنطن ما أسماه «مادة سلبية ملفقة» أكثرها «معاد لإسرائيل» في قصص ظهرت في «النيويورك تايمز» وشبكات تلفزيون أميركية . ومن «المادة السلبية» عبارة لفلسطيني أبعد من الضفة الغربية إلى لبنان ويقول فيها «إنني فقدت أهم شيء في حياتي . . . بلدي» ومنها أيضاً تصريح لوزير كندي وصف ضرب السجناء الفلسطينيين وتشويههم على أيدي الجنود الإسرائيليين في الضفة الغربية بأنه : «غير مقبول على الإطلاق وفي كثير في الحالات مخالف للقانون الدولي» . ومنها تعليق ينتقد السلوك الإسرائيلي العسكري اقتبسته صحيفة «نيويورك تايمز» عن جريدة «هآرتس» الإسرائيلية . ونتيجة لهذا السخف ادعت جين كركباترك ، مندوبة الولايات المتحدة السابقة في هيئة الأمم المتحدة أنه «الآن وأخيراً توافرت الأدلة على وجود تقارير غير منصفة لإسرائيل»(١٦) .

لم يكن تأثير الهجوم الإسرائيلي على الصحافة واضحاً إلى ذلك الحد في بريطانيا ، ولكنه كان هناك على كل حال . ففي تموز/ يوليو من عام ١٩٨٣ تلقى تشارلز دوغلاس هيوم رئيس تحرير التايمز من السفارة الإسرائيلية بلندن دعوة لزيارة إسرائيل مع روبرت ميردوخ صاحب الجريدة الذي كان يناصر إسرائيل بصورة مستمرة . ولم يكتشف دوغلاس هيوم أنه سيقوم هو وصاحب الجريدة بالزيارة مع صهيوني معروف من نيويورك يقوم بجمع التبرعات إلا بعد أن قبل الدعوة . وقامت طائرة هليكوبتر عسكرية إسرائيلية بنقل هيوم وميردوخ وديفيد كمحي مدير وزارة الخارجية الإسرائيلية إلى لبنان . وقال هيوم إنه بينما كانت الطائرة فوق أجواء صيدا أشار كمحي إلى المدينة وصاح قائلاً : «هذا هو

(١٤) زئيف شافتس : الرؤية المزدوجة ، كيف تشوّه الصحافة الأميركية نظرتنا إلى الشرق الأوسط (نيويورك ، وليم مورو ، ١٩٨٤)

(١٥) واشنطن جورناليزم ريفيو ، كانون الأول/ ديسمبر ١٩٨٤ .

(١٦) أنتوني لويس : «الحقيقة في إسرائيل ليست حيادية» في الهيرالد تريبون الدولية ، ١٨ حزيران/ يونيو ١٩٨٨ (أعيد طبعه من النيويورك تايمز) .

المكان الذي قال صاحبك فيسك بأننا سويناه بالأرض . فرد عليه هيوم بقوله إنه لم يسبق لي ان قلت شيئاً كذلك . وكانت هذه هي الحقيقة .

كان دوغلاس هيوم يجلس إلى جانب ميردوخ أثناء رجوعهم بالطائرة إلى لندن من تل أبيب . وقال لي فيما بعد : «كنت أعرف أن روبرت كان مهتماً بما كنت أكتبه . وكان ينتظر مني أن أعرضه عليه بالرغم من أنه لم يطلب ذلك . لكنني لم أفعل» . وسبق لدوغلاس هيوم أن أغضب الإسرائيليين عندما كتب سلسلة من المقالات لمجلة «المجلة» السعودية(١٧) . لكن زيارته لإسرائيل أثرت عليه . فاشتملت افتتاحيته على صورة متفائلة لنتائج الغزو الإسرائيلي للبنان . فتنبأ بأن قوس السلام سوف يمتد من شمال لبنان إلى غرب مصر . وتجاهل في افتتاحية تالية الدلائل المتزايدة على الانهيار في لبنان وتعاظم المقاومة ضد الجيش الإسرائيلي لكي يخلص إلى القول بأنه «لا يوجد الآن فلسطيني يستحق أن يتحدث العالم معه» ، وبأن «الفلسطينين في الضفة الغربية وقطاع غزة سوف يقطعون الأمل في أن ينجح أولئك الذين يختالون على المسرح مثل السيد عرفات في أن يأتوا بالمعجزات وينقذوهم من التعامل مع الإسرائيلين»(١٨) .

ومهما كان مدى التغير الذي أصاب آراء هيوم حول الشرق الأوسط ، فإنه دافع بإخلاص عما كنت أكتبه للتايمز . وفي بعض الأحيان كان يرد بقسوة بالغة على المسؤولين الإسرائيليين عندما يشجبون تقاريري ويطالبون بسحبي . فكان من هذه الناحية الرئيس المثالي الذي كنت أستطيع الاعتماد على دعمه المتواصل . ولم تثر عصبيته إلا مرة واحدة .وكان ذلك في عام ١٩٨٣ عندما كتبت تقريراً عن القتلى من السجناء اللبنانيين والفلسطينيين الذين أوقفهم الإسرائيليون في صيدا ، وما حدث عندئذ كان دليلاً مؤسفاً على أن طريقتنا في تدقيق الأحداث وإجراء المقابلات كان يمكن أن تُخيِّب أملنا ، وعلى أن الإطار الذي كنا نعمل فيه كصحفيين كان يمكن أن يستخدم حجة لعدم الكشف عن المعلومات .

كانت المرة الأولى التي سمعت فيها عن موت السجناء في حزيران/ يونيو ١٩٨٢ . وعندما انتهى حصار بيروت الغربية وتم جلاء المنظمة بعد ذلك بأشهر اقترحت على هيوم ضرورة قيامي بتحري الحقيقة عما سمعته . وبالنظر إلى خطورته ومضاعفاته بالنسبة للإسرائيليين في حال ثبوت صحته ،

(١٧) راجع دوغلاس هيوم : «القضية الكبرى بالنسبة لإسرائيل هي فلسطين» في المجلة عدد ٦ في ١٢ آذار/ مارس ١٩٨٢ .

(١٨) التايمز ٢٣ تموز/ يوليو ١٩٨٣ .

اتفقنا على ضرورة تخصيص الوقت اللازم للتحقيق على الأقل في وفاة سبعة شبان كانوا سجناء لدى الإسرائيليين .

فسافرت عدة مرات إلى صيدا خلال الشتاء الطويل الماطر عام ١٩٨٢ ـ ١٩٨٣ وبلغ عدد رحلاتي إلى المدينة سبعاً وعشرين رحلة تمكنت خلالها من أن أجمع مادة لكتابة تقرير مطوّل أصف فيه جثث سبعة أشخاص وجدت في حزيران/ يونيو ١٩٨٢ في الحبس الإسرائيلي ويدا كل منهم موثقتان بحبال نايلون . ونقلوا جميعاً تحت حراسة إسرائيلية عسكرية إلى مقبرة في صيدا حيث أمر الذي يحفر القبور هناك بدفن تلك الجثث كما هي .

وأشار تقريري إلى أن المزاعم عن أعمال القسوة والقتل جاءت من كلا الطرفين في صيدا في الأيام الأولى للغزو . ووصفت كذلك كيف أن آلاف المدنيين في صيدا قد أمروا بالتجمع على الشاطىء حيث قام رجال مقنعون بانتقاء المئات منهم للاستجواب من قبل رجال المخابرات الإسرائيلية .

أجريت مقابلة مع أحمد العطروني وهو إسكافي لبناني في الخمسين من عمره احتجز في مدرسة بعبدا في ٩ حزيران/ يونيو . قال : «عصب الإسرائيليون عينيّ غير أنه ظل بإمكاني سماع السجناء الآخرين وهم يتوسلون في حر الظهيرة للحصول على الماء . وكان بإمكاني سماع رجال آخرين وهم يسقطون على الأرض . واستمروا في طلب الماء والإسرائيليون يرفضون حتى أخذوا يموتون من العطش . وفي اليوم التالي أخذ الإسرائيليون يضربونهم فوقع أحدهم على الأرض بجانبي . وتمكنت من أن اختلس نظرة من وراء العصابة التي تغطي عيني فرأيت الذباب على وجهه . وجاء طبيب إسرائيلي طويل جداً ليرى ما إذا كان الرجل قد مات . ونظر إليه وقال : «لقد مات» .

رأيت آثار ضرب على رسغ عطروني فقال إنها آثار الحبل الذي قيدوه به . وقال لي إن سيارة إسعاف عليها شارة الصليب الأحمر قدمت إلى داخل المدرسة وأن ضابطاً إسرائيلياً نزع العصابة عن عينيه وطلب منه أن يضع جثة الميت مع جثة أخرى في السيارة .

وتحدثت في محطة كهرباء الجية على بعد عشرة أميال من صيدا مع مهندس مسيحي لا يحب الفلسطينيين . وكان حوالي منتصف نهار الحادي عشر من حزيران/ يونيو بجانب المقبرة . وكان في منتصف العمر متزوجاً وصاحب أسرة . قال إن المحققين العسكريين الإسرائيليين استجوبوه . ورجاني أن لا أنشر اسمه مخافة أن يعتبر جاسوساً . وأضاف أنه بينما كان يقترب بسيارته من المقبرة استوقفه رجل شرطة لبناني برتبة نقيب كان يعرف أنه مهندس ، ومعه شرطي عسكري إسرائيلي . فطلب هذا

منه أن يكسر بوابة المقبرة بأدواته الهندسية وأن يساعد في نقل خمس من الجثث السبعة من ناقلتين إحداهما سيارة إسرائيلية والأخرى سيارة إسعاف كانت من قبل تابعة للهلال الأحمر الفلسطيني. وذكر المهندس اسم سائق تاكسي من صيدا كان قد أُجبر كذلك على نقل الجثث. وتحريت عن مكان هذا السائق ورجل الشرطة اللبناني، وتحدثت مع حفار القبور في صيدا وهو سوري مُسن يدعى شحادة كان قد حارب مع الفرنسيين في الحرب العالمية الثانية. وأكد الثلاثة على صحة القصة والأحداث.

وما كدت أتم عشراً من رحلاتي إلى صيدا للتحقيق في موت هؤلاء الرجال السبعة حتى لاحظ إن الإسرائيليين قد ابتدأوا يهتمون بوجودي. ولاحقتني سيارة ملأى برجال مدججين بالسلاح مرتين حول المدينة. وكنت كلما توقفت توقفوا على بعد مئة ياردة مني إلى الوراء. وأخذوا يراقبون البيوت التي أزورها. وكانت سيارتهم مرسيدس وعليها لوحة إسرائيلية. وبعد مرور أسبوع على أول لقاء لي مع عائلة المهندس طلب ثلاثة مسلحين إسرائيليين ـ اثنان منهم بملابس مدنية والثالث بلباس رسمي ـ رؤيته. ورفض أن يطلعني على ما قالوه له، ولكنه أخبرني أنه لا يريد الخوض في التفاصيل.

ذكر لي شحادة أنه ترك جثث الرجال السبعة طيلة يومين أمام مدخل المقبرة المفتوح، آملاً في أن يتعرف عليهم أقاربهم. وقال إن الرجال كانوا بثياب مدنية وأن أيديهم كانت مقيدة بحبال نايلون. وأضاف: «كانت هناك كدمات على رقاب اثنين منهم. وبعد يومين فاحت رائحة الجثث بسبب الحرارة فاضطررت لدفنها. وحفرت تحت قبر قديم لإحدى العائلات ودفنتهم هناك». وأخذني شحادة إلى القبر الذي دفن فيه الرجال السبعة وذكر لي أسماء ستة منهم استطاع معرفة هويتهم وهم: محمد عكرة، عبود قبرصلي، يحيى مصري، سمير صباغ، ومحمود منصور من اللبنانيين، ومحمد أبو سكيني من الفلسطينيين. ولم يستطع أن يكشف هوية الرجل السابع الذي كان مصرياً.

وفي أول اتصال لي بالسلطات الإسرائيلية للسؤال عن الأموات السبعة، قالوا بأنهم لا يعرفون شيئاً عنهم. ومن ثم ذهبت إلى مكتب الارتباط العسكري والصحفي الإسرائيلي في بعبدا وقدمت طلباً رسمياً للحصول على معلومات عن الرجال الستة الذين دفنهم شحادة وأخبرت الإسرائيليين أن القوات الإسرائيلية المسلحة احتجزتهم خلال الأسبوع الأول من حزيران/ يونيو ١٩٨٢. وقيل لي للمرة الثانية أن السلطات الإسرائيلية لا تعرف شيئاً عنهم. ونفى ناطق رسمي إسرائيلي بشكل قاطع أنهم ماتوا وهم محتجزون من قبل الإسرائيليين.

وبحلول أوائل آذار/ مارس ١٩٨٣ كنت قد أجريت في صيدا مقابلات مع عشرين على الأقل من الشهود على وفاة هؤلاء الرجال أو ممن شاركوا في نقل جثثهم أو في دفنها. وتحدثت أيضاً مع

الكولونيل عاشور قائد الشرطة اللبنانية في صيدا الذي أكد لي بدوره أن ستة أشخاص على الأقل قد لاقوا حتفهم في حزيران/ يونيو ١٩٨٢ وهم محتجزون من قبل الإسرائيليين . وبعد مضي وقت قصير على محادثتنا الأولى أخبرني أنه قد «زاره» عدد من الضباط الإسرائيليين ولم يعد من المسموح له التحدث معي . وكما كان يجري عادة فقد أُسكت الشهود . وفي آخر رحلتين قمت بهما إلى صيدا ظل المسلحون في أثري حتى مشارف بيروت . وكانت لوحة تسجيل سيارتهم في الرحلة الثانية لوحة إسرائيلية .

اتصلت بإيفن بارنز محرر الشؤون الخارجية وطلبت منه أن يقدم أسماء الموتى لووكر ، مراسل التايمز في القدس ، لكي يسعى إلى الحصْول على توضيح من السلطات الإسرائيلية . فقال الإسرائيليون لووكر أنه ليس لديهم ما يضيفونه إلى تصريحهم السابق ، وأنهم لا يعلمون شيئاً عن هؤلاء الأموات ، وفي أوائل آذار/ مارس بعث لي بارنز برقية علق فيها على ما جرى بقوله إن جواب الإسرائيليين ناقص بصورة فاضحة . وكان دوغلاس هيوم ذكر سابقاً بأنه قد يتصل بالسفارة الإسرائيلية في لندن للحصول على رد إذا تعذر الحصول عليه في لبنان أو إسرائيل .

وعدت مرة ثالثة إلى مكتب الاستعلامات الإسرائيلي في بعبدا ، وقدمت طلباً رسمياً مكتوباً أرجو فيه تزويدي بملعومات عن الستة المذكورة اسماؤهم . وفي خلال ٢٤ ساعة اعترف الناطق الرسمي أن سبعة جثث قد «وجدت» في مركز احتجاز إسرائيلي مؤقت في صيدا أثناء نقل السجناء منه إلى «مركز احتجاز» جديد في مصنع صفا لتعبئة الفواكه في صيدا . غير أنه لا يعرف شيئاً عن أي تحقيق عسكري في الوفيات واعتبر الأمر منتهياً .

فاتصلت هاتفياً في الحال بدوغلاس هيوم الذي بقي على اتصال معي بخصوص التحريات طوال أشهر الشتاء الأخيرة ، وقلت بأن الإسرائيليين أنفسهم أكدوا وفاة المحتجزين . وأعددت تقريراً مفصلاً من عشر صفحات عن قضيتهم وبعثته إلى التايمز ، إلا أن الصحيفة لم تنشره في اليوم التالي . فاتصلت بدوغلاس هيوم الذي قال : «من الواضح انك بذلت جهداً كبيراً يا بوب . ولكن هذا يحتاج في الحقيقة إلى «مرتكز» فلست متأكداً من أنه لدينا الآن مبرر لنشر هذه القصة بعد مرور هذا الوقت الطويل على حدوثها . سيقول الإسرائيليون إننا نحيي ما أندثر» . وكانت هذه من المرات القليلة جداً التي عبّرت فيها عن غضبي لدوغلاس هيوم . ولم أر مخرجاً من هذا المأزق الذي وضعني فيه . فلو أني قمت في الخريف السابق بإعداد تقرير خال من الأسماء والشهود لشك الإسرائيليون في صحته ، وربما تمكنوا من أن يوجهوا للتايمز تهمة التحيز ذاتها التي كنا دائماً نرفضها . وعندما صار لدينا تحقيق كامل يثبت أن أولئك الأشخاص ماتوا بينما كانت إسرائيل تحتجزهم ، وعندما أُجبر الإسرائيليون على

التراجع عن ادعاءاتهم السابقة بالجهل وعلى الاعتراف بموتهم ، اعتقد دوغلاس هيوم أن طول الوقت الذ ي استغرقه التحقق عن مصيرهم يحول دون نشر التقرير .

إن هؤلاء الأسرى لقوا حتفهم فيما كانت إسرائيل تحتجزهم . وكانت هنالك براهين ثابتة بأن معظمهم قد مات إما بفعل الإهمال أو بفعل الضرب . وأشار الصليب الأحمر الدولي نفسه بشكل خاص إلى هذه الوفيات واعتبرها جرائم . وتعرض الشهود للترهيب ، ولاحقني عملاء الشين بت (المخابرات الإسرائيلية) علناً حول صيدا . وها هو دوغلاس هيوم يفقد فجأة إرادة نشر تحقيق طالما شجعه . واتصلت به ثانية وكنت حانقاً .

إن أي رئيس تحرير يؤيد بإخلاص محرره بالطريقة التي كان يؤيدني بها دوغلاس هيوم خلال السنوات الطويلة ـ في شمال إيرلندا ولبنان ـ إنما يخلق رصيداً هائلاً من الولاء لدى هذا الصحفي . كان تشارلي أحد أبطالي . وأدركت أنه يريد ان يضمن خلو درعنا من أي صدع عندما يهاجم النقاد التايمز . وكنت أدرك أنه لن يجد مفراً من الدفاع عني إذا ما نشر المقال . إلا أنه كان لهذا الأمر وجهان : فإذا جازف محرر وأصيب في ساحة المعركة فإن على رئيس التحرير أن يكون مستعداً لمواجهة الغمز والتعليق الجارح في حفلات الكوكتيل نيابة عن مراسله أو رسالة غاضبة من سفير أو اثنين . لكن كان في الأمر عنصر ضعف أزعجني .

سألته : «ما الذي يمكن أن يغيّر رأيك؟» وفكر لحظة ثم سأل : «حسناً ! هل يقوم الإسرائيليون الآن بتحقيق عسكري حول الوفيات؟» كان ذلك أملاً ميئوساً منه ، فلم يكن لدى الإسرائيليين أية نية للقيام بذلك . وكنت أعلم أن المحققين العسكريين قد استجوبوا شحادة وبعض الشهود الآخرين عن قضية موت المساجين ، لكن الإسرائيليين أنفسهم أبلغوني أنه لن يكون هناك أي تحقيق . وكان من الممكن أن يعلنوا عن القيام بتحقيق لو أن التايمز نشرت تفصيلات عن وفاة المساجين ، وفي تلك الحالة يكون إعلانهم رداً على تقريري . وطلب دوغلاس هيوم مني أن أتصل به في اليوم التالي .

لكنني بدلاً من ذلك اتصلت بمكتب الاستعلامات الإسرائيلي في بعبدا مرة ثالثة . وتصرفت استناداً إلى حسي الباطني ، وأخبرني أحد الموظفين في بعبدا ، وهو رجل في منتصف العمر احتياطي في الجيش وولد في بريطانيا ، بأنه شخصياً غضب حينما سمع بوفاة أولئك المساجين . وتبادر إلى ذهني أنه إذا أبلغ السلطات الإسرائيلية بأن تقريري سينشر في الصحيفة فإن الإسرائيليين قد يصدرون بلاغاً أكثر تحديداً . فقلت له انني قد أعددت تقريري لإرساله إلى لندن ، وأنني أريد أن أعلم إذا كان الجيش الإسرائيلي بعد التفكير في الموضوع يرغب في إجراء تحقيق في الوفيات .

وبعد نصف ساعة اتصل بي الجندي الاحتياطي الإسرائيلي وقال لي : نعم سوف يكون هناك تحقيق . والواقع أن تحقيقاً عسكرياً واسع النطاق كان يجري في اللحظة ذاتها ، وكانت ستعلن نتائجه للرأي العام . فشكرته على معلوماته ثم اتصلت هاتفياً بدوغلاس هيوم وأخبرته بأن الإسرائيليين يقومون الآن بالتحقيق .

وقمت بكتابة فقرة أولى جديدة لتقريري الأصلي قلت فيها : «إن المحققين العسكريين الإسرائيليين يقومون الآن بإعداد تقرير واف عن الوفيات الغامضة لسبعة شبان وجدت جثثهم في مركز توقيف إسرائيلي في صيدا بعد الغزو الإسرائيلي للبنان بوقت قصير . .» . وأبقيت في التقرير جميع التفصيلات السابقة بما فيها أسماء المتوفين وهويات معظم الشهود . وعشية نشر التقرير سمعت من بارنز أن مساعداً لرئيس التحرير قد طلب حذف ثلثي المقال . وكان دوغلاس هيوم آنذاك يقوم بفحوص طبية ، ولم نكن قد عرفنا بعد أنه كان مصاباً بالسرطان . فاتصلت بسكرتيرته وطلبت إليها أن تسلمه رسالة تقول إنني في الوقت الذي أقبل فيه القرارات لأسباب صحفية ، فإنني أعتبر أي حذف من تقريري في هذه المرحلة بمثابة إعلان عن عدم ثقة الصحيفة بي . وأنني عندئذ سأفكر في الاستقالة . فاتصل بي دوغلاس هيوم فيما بعد وقال إن التقرير سينشر في التايمز بأكمله[١٩] .

أخذت أنتظر نتائج التحقيق الإسرائيلي . لكنها لم تظهر . ولم أفاجأ بذلك . والحقيقة هي أني لم أستبعد هذا . لكن عندما اتصلت بالجيش الإسرائيلي ببعبدا أصروا عى أن التحقيق جار . ورجوت بارنز الاتصال بووكر في القدس ليطلب إليه ملاحقة تقريري في إسرائيل ، فردّ بأنه ليس لدى وزارة الدفاع الإسرائيلية في تل أبيب مزيد من التفاصيل .

وعندما حل منتصف ١٩٨٣ لم يكن قد ظهر شيء . وكان قد مضى عام على وفاة هؤلاء الرجال . وعندما حل الخريف ابتدأ الجيش الإسرائيلي ، تحت ضغط هجمات المسلحين المتزايدة ينسحب من الشوف متراجعاً بخطه الأمامي إلى شمال صيدا ، وأصبح من الصعب أكثر فأكثر أن أتصل بالضباط الإسرائيليين . وكان ووكر قد قدم ١٣ طلباً مستفسراً عن نتائج التحقيق وأخيراً في آذار/ مارس ١٩٨٤ ـ أي بعد ٢١ شهراً من نقل الجثث السبعة إلى مدافن شحادة في صيدا ـ سلم ناطق إسرائيلي بلاغاً إلى ووكر أعلن فيه :

ـ لقد أجرت الشرطة العسكرية تحقيقاً وافياً حول هذه المسألة ، ولكن لم يظهر في التحقيق اشتراك أو تدخل أي فرد من أفراد قوات الدفاع الإسرائيلية بأي شكل من الأشكال . ولم يكن

(١٩) راجع التايمز ، ١٩ آذار/ مارس ١٩٨٣

باستطاعتنا اكتشاف المسؤول عن القتل (كذا) ولكن تبيّن لنا بعد تحقيق مستفيض أنه لا علاقة لأي جندي من جيش الدفاع الإسرائيلي بهم . وعليه فإننا نغلق الملف .

والواقع أنه أغلق .

لم أدرك أبداً السبب في تردد دوغلاس هيوم غير العادي في نشر تقريري . هل كان ذلك لأنه قد تأثرا تأثراً بالغاً بزيارته لإسرائيل؟ أم أن مرد ذلك إلى انشغاله بالسرطان الذي كان عندئذ يقتله؟ وعلى الرغم من أن موظفيه أبلغوا بأن سبب مرضه هو حادث عرضي وقع أثناء ركوبه الخيل ، فإنه هو نفسه كان يعلم أن منيته قد حانت . على أن شكوكه لم تظهر مرة أخرى حتى عندما أكدت صحة اتهامات أكثر إيذاء للجيش الإسرائيلي في جنوب لبنان .

وبالطبع فإن التقرير ذاته لم يكن له تأثير محسوس على الأحداث في لبنان . إذ طغت أحداث أكثر فظاعة على وفاة السجناء . ولكن ظل قتلهم مهماً لا بسبب الوحشية التي أدت إلى وفاتهم ، ولا حتى لأن الإسرائيليين لم يظهروا أي اكتراث بالمساجين الذين قتلوا بوحشية بالغة وهم محتجزون ،بل لأنه كان من الحوافز التي أدت إلى انطلاق حركة المقاومة اللبنانية في صيدا . إذ كان بين القتلى خمسة من اللبنانيين الذين ادعى الإسرائيليون أنهم قدموا من أجل تحريرهم من «إرهاب» الفلسطينيين . وحتى في ذلك الوقت كانوا في صيدا يتحدثون عن الانتقام لهذه الجرائم .

لقد كانوا رمزاً لتعطش اللبنانيين للانتقام من المحتلين الإسرائيليين . ولقد كانوا أيضاً سبباً جعل لبنان يحكم على المحتلين بالطرد .

على أنه ليس من الإنصاف القول بأن الحكومات غير الشريفة ، والجيوش المتوحشة ، والانحياز التاريخي وتخاذل المحررين والمخاطر الحقيقية كانت هي وحدها المسؤولة عن مشكلات إرسال التقارير عن لبنان أو تغطية أخبار الدول الشرق أوسطية الأخرى . فقد شارك الصحفيون أنفسهم في خلق المصاعب التي واجهتهم .

وخلال السنوات التي قضيناها أنا وزملائي في بيروت ، كنا نشعر بالغضب وحتى بالاشمئزاز من الطريقة التي كانت تسجل فيها الأحداث التي كنا نشاهدها ، ومن صياغة الكلمات غير المناسبة أحياناً التي كان الصحفيون يقتصرون عليها . كنا نسأل أنفسنا لماذا كانت الحوادث التي نشاهدها ، والمدينة التي نسكنها ، وثقافة المكان ، وجماله وقذارته ـ وحتى رائحة بيروت ـ كانت جميعها توصف على نسق واحد من المصطلحات المستهلكة العقيمة .

كانت بيروت بالنسبة إلينا حقيقية . كنت في الشتاء أقف على شرفة منزلي وأرقب العواصف وهي تلطم البحر وأسمع رذاذ الماء وهو يضرب نوافذي في الليل والبرق يلمع على جدارن غرفة النوم .

وعلى الطريق الساحلي جنوباً كنا نرى الجنود الذين يقومون بالحراسة في نقاط التفتيش التي تعصف بها الرياح وقد بدا عليهم الخوف والاضطراب وبنادقهم تلمع في المطر . وفي منتصف الصيف كان اللبنانيون يندفعون نحو الجبال هاربين من دخان المدينة وأخطارها نحو مراكز التزلج . وفي لحظات الخطر كنا نجد أنفسنا في أماكن غارقة في الدم والعفونة والعرق . غير أننا كنا نحب هذه المدينة ، وصرنا نحترم الطريقة التي كان باستطاعة الناس فيها أن يتحملوا الإذلال والتشبث مع ذلك ببيوتهم .

وعلى أي حال كان على الإنسان أن يشعر بسبب ذلك بالرد على المحرر الذي وصف بيروت في حزيران/ يونيو ١٨٩٢ بهذه الكلمات :

«هذه هي بيروت ـ الصاخبة العنيفة ، بيروت التي تلمع وتتوهج ، بيروت المنيرة التي تجد فيها قاعة موسيقى وراء أخرى وكلها تضج بموسيقى الشرق الأوسط المجنونة ، إنها حصاد ست سنوات من الحرب الأهلية ، والعنف الطائفي ، وحرب الدين على الدين[٢٠] . . .

هل كنت أنا الوحيد الذي وجد بأن هذه الكلمات ، وغيرها مما اشتلمت عليه آلاف التقارير المشابهة رخيصة ومؤذية؟ أم أن التذمر هو من قبيل الوعظ الزائف لأننا نحن الذين قررنا بأن بيروت بلد الخيانة والخوف؟

كنت أعرف شوارع بيروت وبناياتها أكثر من شوارع وبنايات أية مدينة أخرى ، وأكثر من شوارع لندن أو أبنية باريس ونيويورك . غير أنني كنت كلما قرأت ما يكتب عن بيروت أشعر غالباً بأني غريب عنها . فبعد أن نزح معظم الصحفيين الغربيين إلى قبرص في عامي ١٩٨٥ و ١٩٨٦ خوفاً من الخطف ، تحولت بيروت التي كنت أسكن فيها في الصحف والتقارير البرقية إلى «بيروت الغربية الاسلامية» أو «بيروت الغربية الاسلامية الموبوءة بالخطف» .

عندما وصلت في عام ١٩٨٧ إلى المطار في بيروت الغربية على متن طائرة من طائرات الميدل ايست من طراز ٧٠٧ القديم ، كان يفترض أن أعتقد أنني وصلت إلى المطار «الموبوء بالخطف» حتى

(٢٠) جيمس ووتن مراسل الاي بي سي من برنامج «هذا الاسبوع مع ديفيد برنكلي» ١٢ حزيران/ يونيو ١٩٨٢ .

قبل أن تختطف أية طائرة على مدرجاته بسنتين . وكنت أحياناً أطير إلى ذلك «المطار الموبوء الذي قوطع» لأن الرئيس ريغن بحكمته اختار أن يقنع خطوط طيران أخرى بإلغاء الرحلات إلى لبنان .

والحقيقة أنه صار من الصعب على المرء أن يجد ، جزءاً من لبنان قد سلم من ربطه بكليشيه من الكلمات المميتة التي دمرت بيروت بصورة أقوى مما فعله أي زعيم ميليشيا أو جيش احتلال . وتلخصت مأساة البلاد في مجموعة رموز مبسطة بقدر ما هي خطرة سياسياً .

كان فن أو صناعة كتابة التقارير في لبنان قد انحط إلى أسلوب في الكتابة يحوّل الأحداث المعقدة والمأساوية إلى قاسم مشترك يُلحق الإهانة بضحايا هذه الأحداث ويسخر من معاناتهم في الوقت ذاته . وأسهمت في هذا صحافة التلفزيون التي تعتمد الصور ة وتُخضع الكلمات لها . كما أسهمت فيه صحافة الراديو وخصوصاً في أميركا حيث تحدد فترة إذاعة أي تقرير عادة بخمس وثلاثين ثانية . وساعدت وكالات الأنباء الجديدة التي تزود الإذاعة والتلفزيون والصحف بالمواد والبرامج على خلق هذا العالم غير الحقيقي الذي تحددت فيه أطر هذه الأزمة . وابتدأت أعتقد أن الكليشيهات التي حكمت كثرة من التقارير والعناوين حول لبنان تعرقل بقوة مهمتنا في إظهار حقيقة ما يجري هناك .

وكان هذا من بعض النواحي غير مؤذ وحتى مضحكاً أو من قبيل جنون صغار المحررين الذي يبسّط المعقد بحقنه بتفاهة مريحة وودية لا معنى لها . وهكذا صارت وكالات الأنباء تصف الدروز المحاربين الأشداء وزعماءهم جميعاً وبلا تفريق بالمشايخ . وكذلك أطلقت على الأسلحة تعابير خاصة . فقاذفة الصواريخ وصفت بالقاذفة ذات «الفوهات المتعددة» وبندقية الكلاشنكوف «بالروسية الصنع» . أما الدبابات فلم تكن «تتحرك» عبر الحدود الدولية بل كانت «تتدحرج» . وكان يقال أحياناً وعندما تكون الإشارة إلى السوريين أن الدبابات «السوفييتية الصنع تدحرجت» وذلك لأن سوريا «مدعومة من السوفييت» .

كانت هذه العبارات من وجهة النظر الأدبية سخيفة . أما من الناحية الصحفية فكانت تقتل الكلمات . لقد كانت قائمة على لغة تتألف من تشبيهات سهلة وتلميحات مبسطة لا تساعد المحرر والقارىء على فهم المأساة التي كانت لا تزال مستمرة بلبنان . إذ يفترض في اللغة أن تعبر عن الفكر وأن تحرر الأفكار . ولكن مساعدي المحررين ووكالات الأنباء كانوا ولا يزالون في كثير من الحالات يستخدمون تلك الكلمات كبديل هزيل لا معنى له . إن لغة الكليشيهات لم تساعد على تحرير بل على أسر عقولنا .

إن هذا النوع من الكلمات ينطوي على خطر مضاعف لأنه كان يقتل الحقيقة أيضاً . لكننا هنا لا

نقصد تلك الحقيقة المطلقة التي لا يمكن التوصل إليها والتي يعرّض الصحفيون أنفسهم للخطر في سبيل الوصول إليها . وأدوارد مورتيمر هو الذي أشار إلى «التوهم . . . خارج الصحافة وإلى حد أقل داخلها . بأن الحقيقة هناك في مكان ما جاهزة تنتظر من يكتشفها ، وأنها كالكنز الذي يتسابق الناس إلى اكتشافه وأن مهمة الصحفي هي اكتشافها وإعادتها سالمة إلى جمهوره»(٢١) . غير أن تلك الكليشيهات تضافرت على خلق عملية انحياز سياسي . ففي حين أنه كان يقال إن الدبابات السورية «سوفييتية الصنع» فإنه قلما قال أحد بأن الدبابات الإسرائيلية «أميركية الصنع» . فكلمة «سوفييتية» في عبارة «سوفييتية الصنع» أصبحت كلمة «رنانة» تنذر القارىء بأن الموضوع ـ الدبابة السورية ـ ينذر بالخطر . فقد كان السوفييت في نظر ريغن أصحاب «الأمبراطورية الشريرة» . ولم يخطر ببال المحررين أن السلاح المصنوع في الولايات المتحدة قد يكون خطراً إلى الحد ذاته أو إلى حد أكبر عندما يكون في يد الإسرائيليين . وهل خطر ببال هؤلاء الذين كانوا يشيرون إلى سوريا المدعومة من قبل السوفييت أن يذكروا قراءهم بأن إسرائيل كانت مدعومة مالياً وعسكرياً إلى حد أكبر بكثير من قِبَل الولايات المتحدة . إننا لا نجد مثل هذه الإشارة في الرسائل البرقية ، وقل أن نجدها في التقارير الإذاعية والتفزيونية . فديون إسرائيل للولايات المتحدة والنفوذ الأميركي فيها كانت تبحث في تقارير منفصلة . ولهذا لا يجد المرء عبارة «التي تدعمها الولايات المتحدة» في الرسائل الاخبارية لأن ذلك ـ على ما يظن ـ قد يشوّه صورة إسرائيل الصغيرة والضعيفة . داود في مواجهة جوليات السوري الذي يدعمه السوفييت .

إن الأمثلة على هذه الأخبار الملفقة كثيرة جداً ، كأن يقال أن الفلسطينيين في لبنان يستخدمون بنادق كلاشينكوف «سوفييتية الصنع» ، لكن لم يذكر لنا أحد أن الكتائبيين كانوا يستخدمون إم ـ ١٦ «الأميركية الصنع» ، التي حصلوا عليها من الوحدات المسيحية في الجيش اللبناني الذي اشتراها من الأميركيين ـ أو من الإسرائيليين . وكان هؤلاء قد زودوا حلفاءهم من الميليشيات المتوحشة في لبنان بأسلحة أميركية . لقد قُتل جنود هيئة الأمم المتحدة في جنوب لبنان بقذائف دبابات أطلقتها ميليشيا جيش لبنان الجنوبي . وكانت هذه الدبابات من طراز شيرمان الأميركية الصنع . ومع ذلك فلم تشر إلى هذا وكالات الأنباء .

وكنا نتساءل : إذا كان من المتعذر شفاء المحررين من ادمانهم على استخدام الكليشيهات أفلا يمكن حثهم على استخدامها بإنصاف؟ وعلى سبيل المثال عندما كان الفلسطينيون يُغيرون على

(٢١) أدوارد مورتيمر : «الإسلام والصحفي الغربي ، ميدل ايست جورنال مجلد ٣٥ ، رقم ٤ ، خريف ١٩٨١ .

أهداف داخل إسرائيل كانت الوكالات في أحيان كثيرة تقول إنهم «تسللوا وهاجموا» ونحن لا ننكر أن هذا الوصف كان في أكثر الأحيان صحيحاً . لكن ماذا حدث عندما هاجمت إسرائيل معملاً ذرياً عراقياً؟ بعد الغارة الإسرائيلية على المفاعل النووي أوزيريس في بغداد عام ١٩٨١ ، تراهنّا في بيروت على وكالة الأنباء التي ستكون أول من يشير إلى الهجوم ـ الذي قُتل فيه فني فرنسي ـ «كغارة جريئة» . وكان الذي سبق إلى ذلك مكتب الأسوشيتد برس بتل أبيب وفي غضون ٤٨ ساعة .

أما هجمات الفلسطينيين فوصفت بأنها «جبانة» . وقد تكون الصفة في مكانها إذا قتل الفلسطينيون المدنيين . غير أنه في كانون الثاني/ يناير ١٩٨٨ وكنت آنذاك قد توقفت عن تغطية أخبار لبنان للتايمز ، أشارت الصحيفة إلى هجوم فلسطينيين على قاعدة عسكرية إسرائيلية ووصفته بأنه هجوم «جبان» ـ لأنه جرى ليلاً حين كان الجنود الإسرائيليين نائمين في مراكز حراستهم . والواقع أن وصف الصحيفة لذلك الهجوم بالذات الذي قام به أحد الفلسطينيين يتسم بشجاعة كبيرة . إذ ركب طائرة شراعية وقطع بها أجواء لبنان الجنوبي وهبط في داخل إسرائيل بدون أن يشعر به أحد ، وهاجم هدفاً عسكرياً لا مدنياً ، وظل يقاتل حتى قُتل . وصار بإمكان الفلسطينيين في المستقبل أن يتجنبوا الإدانة الأخلاقية لهم على صفحات التايمز بالهجوم بالطائرة الشراعية في وضح النهار .

غير أن الكليشيهات تناولت زوايا أقل وضوحاً من هذه . ففي عام ١٩٨٦ مثلاً أشار مراسل بريطاني لوكالة أنباء أميركية إلى ظروف الحرب اللبنانية بقوله «جنون لبنان الذي يبدو بلا نهاية» وقد يتعاطف المرء مع تعبير مثل هذا ، لكن المآسي التاريخية على ذلك النطاق الكبير الذي شهده لبنان لا توصف على هذا النحو . فالحرب الأهلية الإسبانية التي أزهقت فيها أرواح نصف مليون إنسان ، وحرب الثلاثين سنة في أوروبا ، وحرب الوردتين التي ظهر فيها أكثر من زعيم من أسرتي لانكستر ويورك ـ هذه الحروب فسّرها الغرب بشكل عقلاني . فلماذا لم تفسر في لبنان كذلك؟

إن استخدام كلمة «جنون» الرنانة التي توحي بالجنون الحقيقي ومستشفى المجانين لها دلالات مزعجة . فاللبنانيون ـ بذلك المفهوم ـ حمقى ومجانين وإلى حد ما غير بشر . وإذا كانوا غير بشر فلا بد أن يكونوا مختلي العقول ، وبالتالي لا يمكن أن يلام من يهاجمهم أو يقتلهم أو يشير إليهم كما فعل بوقاحة جورج شولتز وزير الخارجية الأميركية في شباط/ فبراير ١٩٨٧ عندما قال عن لبنان «إنه مكان موبوء بالطاعون من العصور الوسطى»[٢٢] . وهنا نجد أنفسنا أمام كلمة «وباء» التي دخلت في

(٢٢) يو . اس . نيوز اند وورلد ريبورت ٢ شباط/ فبراير ١٩٨٧ .

كليشيهات كثيرة مثل «وباء الخطف» و «وباء» خطف الطائرات اللتين صارتا جزءاً أساسياً من البرقيات التي ترسل من بيروت .

والواقع أنه لا بد من إزالة هذه الكلمة ـ أي وبأ ـ ويجب أن لا ننسى أنها كانت في المصطلح النازي تصف البلد الذي ينبغي «تطهيره» من الأوبئة والطواعين .

على أن هذا النوع من الكتابة لم يكن مؤامرة من الصحفيين . فكثيراً ما كانت تجد طريقها إلى آلات النسخ ومساعدي المحررين بسبب التعب أو الكسل أو عدم التفكير . ومن الجائز أن هرب غالبية الصحفيين في منتصف الثمانينات من أخطار بيروت إلى مباهج قبرص أسهم في ذلك . وقبرص جزيرة أوروبية ، لكن قيمتها كمصدر للأخبار لا تتناسب مع ما يجده المرء فيها من أحواض السباحة والسواحل الجميلة . والصحفيون الذين أقاموا فيها هم الذين أشاعوا أنها مركز للمعلومات . والواقع أن الأسوشيتد برس هي التي ادعت أن مكتبها بنيقوسيا هو المركز الذي تُسمع منه أخبار الشرق الأوسط[٢٣] ، وكأن قبرص ـ التي ليست حتى عربية ـ تقوم بالدور الذي قامت فيه هونغ كونغ خلال الثورة الثقافية الصينية عندما كان الاتصال بداخل الصين متعذراً . وفي هذه المرحلة فرضت ايران القيود على منح تأشيرات السفر للصحفيين . لكن العالم العربي لم يكن مغلقاً في وجوههم .

وبالطبع فإن بيروت أصبحت في تلك المرحلة مصدر خطر كبير على الغربيين . وجاء وقت في عام ١٩٨٦ كان فيه عدد الرهائن من الصحفيين الغربيين يفوق بكثير عدد من بقي يعمل منهم في بيروت وهو أربعة . ولم يتوقع أحد عندئذ من الصحفيين المتزوجين أن يجازفوا بحياة أبنائهم وزوجاتهم .

مرت سنوات كانت وظيفة الصحفي الغربي الذي يُرسَل إلى بلد عربي لتغطية أحداث الشرق الأوسط تعتبر وظيفة مريحة لا تنطوي على مجازفات لأن الحكومات العربية لم تكن تسمح للصحفيين بالذهاب إلى مناطق القتال . فلما وقعت الحرب بلبنان غيّرت ذلك كله .

ولم يستطع بعض الصحفيين أن يخفوا الإحراج الذي شعروا به بسبب قرارهم بالعيش هناك . فمراسلوا ال بي . بي . سي . (هيئة الإذاعة البريطانية) في الجزيرة لم يكونوا يحددون تواريخ تقاريرهم عندما يذيعون منها . وكانوا يكتفون بذكر المكان الذي زاره المراسل فيقولون بغداد وعمان مثلاً عندما يكون في العالم العربي . وعندما كانوا يكتبون تقاريرهم في قبرص كان المذيعون يكتفون بالقول ان الخبر من مراسلهم في الشرق الأوسط ، وبذلك يثيرون الشك في نفس المستمع . وعليه فإن

(٢٣) راجع نيوز فيتشرز ريبورت لمكتب الأسوشيتد برس ، ٢٧ تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٨٦ .

صلة هؤلاء المراسلين ببيروت انقطعت . وكانوا كلما طال بقاؤهم خارج بيروت الغربية أصبحت عودتهم أكثر خطراً عليهم .

كان استمرارنا نحن الأربعة بالعيش في بيروت الغربية شيئاً جميلاً . وكنا كل يوم نشعر بتقلب الأمزجة السياسية ، والشوارع «الآمنة» ومراكز التفتيش التي ينبغي تجنبها . لكن زيارة المرء لمدينة لم يعد يعرفها تتطلب شجاعة حقيقية . ولهذا فإن الصحفيين الذين كان يقيمون في قبرص والذين كان يتزايد عددهم يفضلون تغطية أخبار بيروت الغربية من نيقوسيا . وكان من أبرز من شذ عن هؤلاء كيث جريفز العامل بتلفزيون هيئة الإذاعة البريطانية الذي انتقل إلى قبرص من إسرائيل لا من لبنان ، وصار يطير إلى بيروت الغربية ليرسل أخباره منها رغم المخاطر الواضحة التي كان يتعرض لها . على أن قلة من الصحفيين من زملائه أظهر هذا التفإني في عمله .

وبالرغم من أن المسافة التي تفصل بيروت عن قبرص لا تتجاوز مئة ميل فإنها أضعفت حساسية المراسلين في قبرص وحصنتهم ضد معرفة حقيقة ما يجري في لبنان . فالشعب اللبناني الذي سبق لهم أن عاشوا في وسطه وعملوا معه أصبح أقل أهمية في نظرهم من التقرير الذي يكتبونه . ومن الأمثلة على هذا ما حدث في شباط/ فبراير ١٩٨٧ عندما هجم المسلحون الفلسطينيون والدروز على فندق الكومودور ونهبوه وسرقوا المال وجوازات سفر العاملين فيه ، وقام صاحبه يوسف نزال بعد أيام بإقفاله وتسريح الموظفين باستثناء عد د قليل منهم .

رأيت علائم اليأس والتأثر البالغ على وجوه الموظفين وهم مجتمعون في بهو الفندق . وكان بعضهم يُعيل أسراً كبيرة وبحاجة إلى النقود . ومنهم من كان يبكي .

وكان الصحفيون في قبرص يعرفون كثيرين من موظفي الفندق الذين كانوا يسهرون على راحتهم وهم مقيمون ببيروت ، ويمازحونهم ، ويقدمون لهم النصائح عند قيامهم برحلات خطرة . لكن قبرص أنستهم هؤلاء اللبنانيين . وبدلاً من ذلك أعلن أحد الصحفيين البريطانيين ـ عن مكافأة قدرها خمسمائة دولار لمن يعيد ببغاء الفندق التي اختفت خلال نهبه . وبدا هذا التصرف للعاملين في الفندق غير قابل للفهم . إذ كيف تأتّى لهؤلاء الغربيين الذين كانوا أصدقاءهم طوال تلك السنين أن يهتموا ببغاء أكثر من اهتمامهم بالبشر؟

ومن المؤكد أن الصحفيين لم يجمعوا أي مبلغ من المال لأصدقائهم اللبنانيين القدامى في فندق الكومودور . ولم يشر أحد منهم إلى تعاسة هؤلاء في التقارير التي أرسلوها من نيقوسيا . لكن قصة الببغاء المفقودة عرفت في جميع أنحاء العالم . هذا ما فعله أولئك الصحفيون .

كان هذا التصرف الصحفي المشين رمزاً لمدى العزلة التي ضربها هؤلاء المراسلون حول أنفسهم . فقد تبيّن أن قبرص شرك أكبر حتى من الكومودور خلال الغزو عام ١٩٨٢ . وصاروا يبسّطون كل ما يجري في لبنان . فلم يعد الدم حقيقياً في نظرهم ، وتجاهلوا ما فيه من شقاء . وصارت أرقام الإصابات مجرد أعداد تسجل على لوحة . فما السبيل إلى إضفاء شيء من الحياة على قصة من هذا القبيل؟ بدا لهم الأمر سهلاً . فما كان عليهم إلا أن يتحدثوا عن حنينهم إلى فندق الكومودور القديم والببغاء كوكو الذي كان يحذرهم من القصف قبل وقوعه . وأضافوا إلى هذا كله الكليشيهات مثل «الممزقة بسبب الحرب» عند وصف بيروت و «الموبوءة بالخطف» عند التحدث عن الشوارع ، و «المتعصبون» عند وصف المسلمين المتطرفين في المجتمع .

وحدث مثل هذا للصحفيين في بلفاست في أوائل السبعينات وذلك لأسباب منها الضجر . ففي تلك الأيام ابتلعت الكليشيهات مأساة إيرلندا الشمالية . وكنت عندئذ أتساءل عن مخترع كليشيه «رؤساء الأمن» و «الاستقطاب» و «الانقضاض» . فمن الذي قرر أن بلفاست البروتستانتية كانت «منيعة» و «مخلصة» بينما كانت بلفاست الكاثوليكية تشتمل على «مناطق جمهورية متشددة» وقال الشاعر الإيرلندي سياموس هيني في هذا :

. . . إن مذكرات وتحليلات
السياسيين والصحفيين
الذين يشنون حملاتهم بالغاز
ويهددون بالنسف وإطلاق الرصاص
الذين كتبوا بنبضاتهم «التصعيد»
و «الارتداد» و «الانقضاض» و «الجناح المؤقت»
و «الاستقطاب»
و «الحقد المتأصل»
ومع هذا فأنا أعيش هنا ، وأعيش هنا أيضاً(٢٤) . . .

قال هيني بأن «صوت العقل» أخذ يخشن . وكنا نشعر بالشيء ذاته في بيروت عندما كنا نتحدث

(٢٤) قصيدة «مهما قلت ، لا تقل شيئاً» في ديوان الشمال للشاعر سياموس هيني (لندن ، فابروفابر ، ١٩٧٥) .

ونكتب عن الرهائن الغربيين في المدينة . والواقع أنهم أبرياء حجزوا بقسوة ، وانتزعوا من أسرهم وأصدقائهم لدوافع سياسية . لقد سجنوا بلا محاكمة ويستحقون مثل المساجين القابعين في سجون الشرق الأوسط كل ذرة من عطف لجنة العفو الدولية . أما الحجز الأطول مدة فكان من نصيب تيري أندرسون مدير مكتب الأسوشيتد برس ببيروت عام ١٩٨٣ . وعندما خطف في عام ١٩٨٥ كنت من أصدقائه .

ولكن ـ ولا بد من «لكن» عند الحديث عن أخبار الشرق الأوسط ـ وصف الرهائن الغربيون بأنهم «رهائن» في حين أنه كان يشار إلى الشيعة في السجون التي تسيطر عليها إسرائيل بجنوب لبنان بأنهم مجرد «مساجين»؟ فهؤلاء كانوا أيضاً محتجزين بصورة غير قانونية وبدون اتهام . وكما قال أحد زعمائهم فإنهم كانوا محتجزين لضمان سلوك أبناء قومهم اللبنانيين بجنوب لبنان . وقد عبّر الصليب الأحمر الدولي ولجنة العفو الدولية عن القلق الشديد بسبب تعذيب الرجال والنساء في سجن الخيام . وقمت بإجراء مقابلات مع بعض هؤلاء الأسرى الذين أطلق سراحهم ، فتحدثوا عن تعذيبهم بتوصيل الكهرباء إلى أعضائهم الجنسية . وقيل أن حرية هؤلاء كانت رهناً بإطلاق سراح الرهائن المحتجزين ببيروت . ومع هذا واصلنا وصف هؤلاء «بالسجناء» ووصف المحتجزين الغربيين «بالرهائن» .

لكن ما أهمية الاسم؟ قبل خطف تيري أندرسون بوقت قصير ـ على ما أذكر وربما غيّر رأيه فيما بعد ـ أصدر تعليمات لموظفيه تقضي بعدم استخدام كلمة «إرهابيين» لأنها ـ كما قال ـ «تدل على الاحتقار هنا» . وكان أندرسون محقاً . فإن كلمة «إرهابي» استخدمت في الشرق الأوسط خلال عقد السنوات الماضية لتبرير الإجراءات السياسية والعسكرية أكثر مما استخدمت لوصف أية سياسة محددة .

لقد أسهم الصحفيون في نشر كلمة «إرهابي» والتحريض على استخدامها . واستخدمت أنا الكلمة عند وصولي إلى الشرق في أول رحلة لي إليه وقبل أن أدرك مدى ما تنطوي عليه من خطر وتضليل . ومنذ ذلك الوقت شكّلَت موضوع عدد من المذكرات بعثت بها إلى التايمز في محاولة لإقامة توازن في أخبارنا عن المنطقة . ففي تموز/ يوليو ١٩٨١ كتبت لمحرر الشؤون الخارجية فيها أقول :

«إن العرب واليهود كما تعلم يتبادلون الاتهام بالإرهاب . وهناك أدلة كثيرة تبين أن كلا الجانبين على حق . فالهجمات الفلسطينية على المدنيين الإسرائيليين تستهدف إرهابهم ، كما أن الغارات الإسرائيلية الانتقامية على القرى اللبنانية (حيث يفوق عدد اللبنانيين عدد الفلسطينيين) تستهدف إرهاب السكان المحليين وحملهم على طرد رجال منظمة التحرير من المنطقة .

«على أننا حالما نستخدم كلمة «إرهاب» في هذه القرية ، نفتح صندوق الآلام فيخرج منه عربي أو إسرائيلي يطالب بمعرفة السبب في أننا لا نصف الجانب الآخر بأنه إرهابي . . . فإذا أشرنا إلى الهجمات الإرهابية على إسرائيل ، فإن علينا أن نبدأ بالكلام عن هجمات حداد على جنود قوة حفظ السلام وعلى المدن اللبنانية الجنوبية باعتبارها أعمالاً إرهابية . وإلا فكيف نصف أمر حداد بقصف صيدا في اثنين الفصح وسقوط عشرين مدنياً ، وقوله بأنه أصدر تلك التعليمات لأن رجاله يطالبون الحكومة اللبنانية برواتبهم المتأخرة؟ إننا لم نصف هذا بالإرهاب ولا نشير إلى «الإرهابيين الذين تدعمهم إسرائيل» . . . . إنني شخصياً اعتقد أن رجال منظمة التحرير الذين يقتلون النساء والأطفال الإسرائيليين إرهابيون مثلما أعتقد شخصياً أن المسلحين اليمينيين الذين ينسفون البيوت على رؤوس النساء والأطفال في مناطق تواجد قوات الأمم المتحدة في جنوبي لبنان هم أيضاً إرهابيون . ولكن . . . وفي الشرق الأوسط بصورة خاصة أعتقد أنه يجب علينا أن نتجنب هذه التعابير المشينة إلا إذا كنا نريد أن نطبقها على الجميع بالرغم من تأثيرها القاسي على القراء» .

بعد ذلك بعامين ونصف ، وعندما كان المقاتلون اللبنانيون يضحون بأنفسهم في هجماتهم الانتحارية في الجنوب اللبناني ، كانت تقارير وكالات الأنباء الصادرة من القدس وتل أبيب تصف هجماتهم بأنها «إرهابية» ، هذا بالرغم من أن قوات الأمم المتحدة اعتبرت تلك الهجمات جزءاً من حرب تشنها مقاومة وطنية ضد جيش احتلال . لكن بعض تلك التقارير وجدت طريقها إلى التايمز . فكتبتُ رسالة في تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٨٣ لتم أوستن مساعد محرر الشؤون الخارجية كررتُ فيها ذكر المخاطر التي ينطوي عليها ذكر كلمة أصبحت تجرح أكثر مما تصف لأسباب منها أنها «تضفي شرعية على الهجمات . وهذا ما لا يحق لنا أن نفعله . فالأفغاني الذي يضحي بحياته لتفجير معسكر سوفييتي في كابول لا يمكن أن يوصف في التايمز بأنه إرهابي . وحتى لو افترضنا أن الذين يقومون بالهجمات الانتحارية في لبنان مضللون ، فإنه لا يجوز أن نشير إلى مناوئي الاحتلال الإسرائيلي الذي يضحون بأنفسهم بأنهم «إرهابيون» . . . ومثل هذا يقال عن كلمة «يثير الغضب» التي ترد في معرض الإشارة إلى مهاجمة الإسرائيليين في الجنوب اللبناني المحتل . . . في حين أن العبارة لا تستخدم في وصف القصف الإسرائيلي لأهداف في لبنان ووقوع إصابات كثيرة بين المدنيين من جراء ذلك» .

والواقع أن استخدام كلمة «إرهابي» كان يزعج كثرة من الصحفيين في الشرق الأوسط . لكن لم يكن يعبّر عن ذلك سوى قلة منهم . ففي حزيران/ يونيو ١٩٨٦ مثلاً بعث أحد موظفي الأسوشيتد برس في الشرق الأوسط - وهو أميركي - برسالة رسمية إلى زميل يعمل في الاتصالات البرقية يشكو من إشارة إلى محمد عباس الذي قتلت مجموعته راكباً يهودياً مسناً على ظهر الباخرة السياحية الايطالية آخيل لورو . قال في رسالته :

ـ إن استخدام كليشيه مثل «إرهابي فلسطيني» و «إرهابي عربي» يسيء إلى كثرة من الناس في هذا الجزء من العالم وإلى الأميركيين العرب في الولايات المتحدة . . . من المؤكد أن عباس اقترف أعمالاً يعتبرها معظم الناس في الولايات المتحدة إرهاباً . . . ولكن ، نجد أن رجال الكونترا والسافمبي في أنجولا الذين اقترفوا مثل هذه الأعمال لا يوصفون أتوماتيكياً في رسالتنا بالإرهابيين . كما أننا هنا لا نشير إلى الحاخام كاهانا الذي حكم بالقبض عليه في الولايات المتحدة بسبب التآمر على صناعة المتفجرات بأنه أرهابي . . .

وجاء الرد على هذه الرسالة كما يلي :

ـ إنني شخصياً متفق معك على هذا ، ولكني أخشى أن نخسر المعركة بصدد ما يصدر من واشنطن أو نيويورك ، لأننا نجد الموظفين متأثرين بدعاية الإدارة والجو العام المعادي للعرب الخ . . .

لم يكن من الصعب اكتشاف هذا المقياس المزدوج لصياغة الأخبار . فإذا كانت الهجمات على الإسرائيليين في جنوبي لبنان من عمل إرهابيين ، فلماذا لا تستخدم الكلمة ذاتها في وصف الكتائبيين المسيحيين الذين قصفوا القوات السورية في لبنان؟ ولماذا يكررون دائماً في الرسائل الواردة من إسرائيل الإشارة إلى أن الإسرائيليين قتلوا «عرباً» في لبنان فيخصون جيش الاحتلال بنعته بكلمة تدل على الجنسية ، بينما يصفون أعداءه (أي العرب) بكلمة تدل على الجنس أو العرق . فهل سبب هذا أن المواطن الذي يحمل الجنسية اللبنانية أو الفلسطينية المولد أقل أهمية بكثير من الإسرائيلي؟

وكذلك فإنه عندما يجبر الإسرائيليون السفن في المياه الدولية على التوجه إلى حيفا حيث يقبض على الكثيرين من الركاب ويسجنون ، يبذل الصحفيون جهوداً غير عادية في تجنب استخدام أية عبارة قد تسيء إلى الإسرائيليين . لكن إذا أجبر السوريون أو الفلسطينيون سفينة تحمل إسرائيليين على التوجه إلى طرطوس أو صيدا مثلاً فإن عملهم يوصف في الحال بأنه «خطف إرهابي» . وهكذا فإنه عندما أوقفت البحرية الإسرائيلية المركب الذي يعمل بين بيروت ولارنكا في تموز/ يوليو ١٩٨٤ وصف مندوب التايمز في تل أبيب كيف جرى «تحويل» السفينة إلى حيفا حيث«احتجز» بعض ركابها . صحيح أن المقاتلين الفلسطينيين كانوا أحياناً يستأجرون السفن للسفر إلى لبنان ولكن المسافرين على ظهر ذلك المركب الذي كنت أسافر عليه لم يكونوا من المسلحين . ومع هذا ألقي القبض على امرأة من ركابه وزجت في سجن بحيفا ، وصدر بعد ذلك حكم بسجنها بموجب قانون إسرائيلي محلي . وعندما وصفت الحادث بأنه خطف ـ وهو كذلك في الواقع ـ تلقى تشارلز دوغلاس هيوم (رئيس تحرير التايمز) التقريع المتوقع من إسرائيل وادعى الإسرائيليون أنه لم يكن حادث خطف ، بل «دفاعاً عن النفس» .

وهكذا أجاز الإسرائيليون لأنفسهم أن يشيروا إلى المنطقة التي يحتلونها من جنوبي لبنان بأنها «منطقة أمنية» ، وسرعان ما حذت حذوهم بحماس وكالات الأنباء وبينها أحياناً هيئة الإذاعة البريطانية التي لم تقم إلا مؤخراً بالإشارة إليها بعبارة «المنطقة المسماة بالمنطقة الأمنية» وكان الإسرائيليون قد أقاموا هذ ه المنطقة (أو الشريط كما تعرف أحياناً) لمنع تسلل الفلسطينيين إلى إسرائيل . إلا أن العبارة أضفت على الاحتلال الإسرائيلي شرعية كانت ستنكرها على السوريين أو اللبنانيين لو أنهم احتلوا الجزء الشمالي من إسرائيل وأعلنوا أنه «منطقة أمنية» لمنع التسلل الإسرائيلي إلى لبنان .

وواجه الصحفيون في إسرائيل صعوبات عندما خطف الإسرائيليون المواطن الإسرائيلي موردخاي فانونو من روما إلى تل أبيب لمواجهة تهمة تسريب الأسرار الذرية لصحيفة الصندي تايمز اللندنية . فنحن هنا أمام عملية اختطاف قد لا تنتهك القانون الإسرائيلي لكنها تنتهك القانون الدولي وبالتأكيد القانون الإيطالي . لكن لم يكن هناك ما يوجب قلق إسرائيل إذ سرعان ما وجد الصحفيون عبارة جديدة وهي «نُقل سراً» .

وعندما أسر المقاتلون اللبنانيون جنوداً إسرائيليين ، ذكرت الأخبار أنهم «خطفوا» وكأن الوجود الإسرائيلي في لبنان شرعي على نحو أو آخر . لكن كان يقال أن القوات الإسرائيلية «أسرت» عدداً من المشتبه في أنهم من المقاومة اللبنانية(٢٥) . وحيثما أجبر الإسرائيليون طائرة تابعة للحكومة السورية على الهبوط في تل أبيب في شباط/ فبراير ١٩٨٦ وصفت تقارير التايمز هذا الحادث بأنه «اعتراض» و «انقضاض من الجو» ، في حين أن الصحيفة ذاتها نشرت عنواناً لخبر بعث به مراسلها الجديد في القدس يقول : «إرهابيون مشتبه بهم يُستجوبون» . والحقيقة أن جميع ركاب الطائرة كانوا من موظفي الحكومة السورية(٢٦) .

بل ذهب الصحفيون إلى حد اختراع عبارات ملتوية معقدة عندما أخذ المسلحون والمدفعيون الإسرائيليون يشنون هجمات على الفلسطينيين في الضفة الغربية لا يمكن وصفها بأي مقياس إلا بأنها «إرهابية» . لكن كان وصفها كذلك ـ لو وصفت ـ سيجرد الحرب الإسرائيلية ضد الإرهابيين من شرعيتها الخلقية . ولهذا استخدمت كلمة «يهود متطرفون» بدلاً من «إرهابيين» أو «رجال المقاومة السرية» كما فعلت الأسوشيتد برس واليونايتد برس . ولا تخلو كلمة «سرية» من الطرافة . فإنها تحمل

(٢٥) راجع مثلاً تقرير الأسوشيتدبرس من صور عن إطلاق سراح خمسة من رجال المقاومة الشيعة في ٦ كانون الأول/ ديسمبر ١٩٨٤ .

(٢٦) راجع التايمز ، ٥ و ٦ شباط/ فبراير ١٩٨٦ .

دلالات من المقاومة السرية الفرنسية في الحرب العالمية الثانية للحكم النازي ، وحركة المقاومة السرية في بولندا التي شاركت في ثورة ١٩٤٤ . فالكلمة كانت تضفي الشرعية وحتى البطولة على أعمال الإسرائيليين الذين كانوا يمزقون أرجل رجال البلديات الفلسطينيين . ولم يَقُم الصحفيون بوصفهم بالإرهابيين إلا بعد عدة أشهر ، وبتردد شديد(٢٧) . وواجهت الصحافة مشكلة لغوية أخرى من هذا النوع عندما عُرف أن عملاء إسرائيليين بثياب مدنية أخذوا بعد القبض على فلسطينيَّيْن خطفا حافلة ركاب يضربونهما حتى توفيا . وأشار إسحق شامير رئيس الوزراء الإسرائيلي إلى قتلهما بأنه «حادث مؤسف» . وحذا حذوه الصحفيون ، فأشاروا إلى «موت» الفلسطينيين اللذين كان ينبغي محاكمتهما وكأنهما ضحيتا سكتة قلبية أو ظاهرة طبيعية أخرى . على أن بعض وكالات الأنباء الأجنبية أشارت إلى ما حدث للفلسطينيين عندما كانا يُضرَبان كما كان يجب أن تفعل ، فوصفته بأنه عملية قتل .

لكن كلمة «إرهاب» هي التي اكتسبت قوة غريبة مخيفة تحدد هوية أعداء الوطن والحلفاء السياسيين حتى خارج الشرق الأوسط وبعيداً عنه . فباستخدام تلك الكلمة صارت وكالات الأنباء تكشف عن عواطفها القومية والسياسية . وفي منتصف الثمانينات أخذت الأسوشيتد برس تستخدم كلمة «إرهابي» لوصف العرب ، ولكنها لم تستخدمها إلا نادراً عند وصف جيش التحرير في شمالي إيرلندا حيث كانت كلمة «رجال العصابات» هي الكلمة المتفقة عى استخدامها ، وذلك ـ على ما يظن ـ لأن الأسوشيتد برس تزود كثرة من الأقنية في الولايات المتحدة حيث يكثر المستمعون الأميركيون من أصل إيرلندي . أما البي بي سي (هيئة الإذاعة البريطانية) فكانت تصف مقاتلي جيش التحرير الإيرلندي بأنهم إرهابيون . لكنها نادراً ما وصفت المقاومين بجنوب إفريقيا (الاي إن سي) بأنهم «إرهابيون» ربما لأنها رأت أن قضيتهم أعدل من قضية الفلسطينيين أو جيش التحرير الإيرلندي .

وبالطبع فإن تاس والبرافدا كانتا تصفان ثوار الأفغان بالإرهابيين . أما الصحافة الغربية فلم تصنفهم كذلك بالرغم من أن المقاتلين الأفغان الذين كانوا يوصفون بعبارة أخرى مثل «المقاتلين من أجل الحرية «المتمردين» كانوا يقتلون زوجات وأطفال المسؤولين في الحزب الشيوعي ويحرقون المدارس ويطلقون الصواريخ على السكان المدنيين في كابول . ومن الأمثلة المذهلة على ازدواج المقاييس ما حدث في أيلول/ سبتمبر ١٩٨٥ عندما نقلت صحيفة بريطانية خبراً مفاده أن طائرة ركاب مدنية قد «أسقطها الثوار» . ولا شك أن في هذه العبارة خطأ . «فالإرهابيون» هم الذين يدمرون

(٢٧) راجع التايمز ، ٥ و٦ شباط/ فبراير ١٩٨٦ .

الطائرات المدينة . ولم يكن هذا موضع شك عندما انفجرت قنبلة في طائرة بوينغ ٧٤٧ تابعة لشركة البان أميركان فوق أسكتلندا في عام ١٩٨٨ وقتل جميع ركابها .

لكن لا . فالصحيفة ـ وهي الصندي تايمز اللندنية كانت تتحدث عن تحطيم طائرة أفغانية مدنية تابعة للحكومة الشيوعية في كابول ، التي لم يكن أحد يشك في أن السوفييت كانوا يدعمونها . وقتل الركاب وعددهم ٢٧ وطاقم الطائرة المؤلف من خمسة[٢٨] .

كيف أصبح هؤلاء الإرهابيون ثواراً؟ وهل يمكن للثوار أن يصبحوا إرهابيين بمثل تلك السهولة؟ وما الذي يجب أن يتوافر فيهم لكي يحدث لهم ذلك التحول؟ وهل الألم الذي يسببه نسف الطائرة بصاروخ ستنغر أرض جو أميركي أقل من الألم الذي يسببه نسفها بصاروخ سام ـ ٧ أرض جو سوفييتي الصنع؟ وهل يعني الانتماء السياسي أن الموت يأتي بسرعة أكبر وربما بسعادة أكثر في حالة الانتماء إلى شيء آخر . وما الذي حدث لمساعد المحرر في الصندي تايمز فجعله يختار ذلك العنوان؟ فالمسألة ليست مجرد كون الشخص إرهابياً لدى هذا ، ومقاتلاً من أجل الحرية لدى غيره . فهذا في حد ذاته كليشيه . وإنما المسألة هي أن يكون الشخص إرهابياً أو لا يكون .

لم يظهر في الصحافة الإسرائيلية جدل يذكر حول الموضوع . ففي بداية الغزو الإسرائيلي عام ١٩٨٢ ، كانت «الجيروزاليم بوست» مشغولة بالتلاعب بتقارير الأسوشيتد برس الواردة من بيروت ، وأخذت تستبدل بكلمة «عصابات» كلمة «إرهابيين» ، مما اضطر الأسوشيتد برس إلى أن تطلب من محرر الصحيفة التوقف عن ذلك . وتناولت الجيروزاليم بوست مقالاً قصيراً بعنوان «سياسات الإرهاب» وردت فيه كلمة «إرهاب» و«إرهابي» في ١٩ فقرة منه ٣١ مرة ، فقال هيرش غودمان منذراً بأنه «إذا كانت الحكومة الإسرائيلية تريد عرقلة الرسالة السياسية للإرهاب فعليها أن تعالجه بعيداً عن الأعين وعدسات الكاميرا . .»[٢٩] .

ونادراً ما اعترض صحفي إسرائيلي على وجهة النظر الرسمية التي يتلقاها كما فعل مايكل الكنز في عام ١٩٨٣ . إذ يقول في معالجته للهجوم اللبناني الانتحاري على الثكنة العسكرية الإسرائيلية في صور أن الهدف كان عسكرياً وأن القصد منه كان قتل العسكريين الإسرائيليين . وعليه كما قال :

«فإنه يمكن القول استناداً إلى المعايير التي طالبنا نحن بها والتي تدعمها السوابق التاريخية ،

(٢٨) الصندي تايمز ، ٨ أيلول/ سبتمبر ١٩٨٥ .
(٢٩) الجيروزاليم بوست ، ٢٠ نيسان/ أبريل ١٩٨٣ .

وبالرغم من تأثيره المحزن والمأساوي علينا ، بأن ما حدث في صور لا يمكن تجاهله بوصفه إرهاباً ، بل ينبغي ـ بدلاً من ذلك ـ اعتباره عمل عصابات .

«وأقول بألم . . . إنني أرى أننا بوصف ما حدث بصور «إرهاباً» ، إنما نكشف عن رفضنا العنيد والشامل أن نلمح أدنى عنصر من عناصر الشرعية في الطرف الفلسطيني والعربي للنزاع بيننا» .

لقد انتقد الكنز «العناد الإنهزامي» للحكومات الفلسطينية (هكذا؟) والعربية في انكار حق إسرائيل في الشرعية . فمن الممكن ـ كما يقول ـ أن تظل إسرائيل وأعداؤها على هذه الحال «فيعيد كل طرف خلق الصورة المتوافرة للآخر ويعكسها ، ثم يعكس انعكاساتها إلى ما لا نهاية وبحقد كما يحدث في قاعة للمرايا» . وختم يقول :

«وسينتهي الأمر بنا جميعاً ـ إسرائيليين وفلسطينيين وعرباً ـ إلى حبس أنفسنا في حومة صراع عنيف دموي لا نهاية له داخل قاعة مرايا من صنعنا ولا مخرج منها .

«أم علينا أن نبدأ بتبني قسط من النزاهة والكرم في استخدام لغتنا؟

«إن هذا ليس بالأمر الصعب . إنه أسهل الأمور الصعبة التي ينبغي أن نفعلها إذا أردنا التوصل إلى سلام فيما بيننا ومع أنفسنا»[٣٠] .

إن القضية التي أمامنا ليست قضية تعريف الإرهاب بقدر ما هي قضية سلامة الكلمات . فما من محاولة جرت لتعريفه إلا باءت بالفشل . وجاءت محاولة جورج شولتز ضعيفة كأي محاولة أخرى . إذ قال في حزيران/ يونيو ١٩٨٤ بواشنطن كلمات اقتبسها من السناتور هنري «سكوب» جاكسون وهي :

«إن المقاتلين من أجل الحرية أو الثوار لا ينسفون باصات فيها أشخاص غير محاربين . لكن القتلة الإرهابيين يفعلون ذلك . والمقاتلون من أجل الحرية لا يغتالون رجال الأعمال الأبرياء أو يخطفون الأشخاص والنساء والأطفال الأبرياء . لكن القتلة الإرهابيين يفعلون ذلك» .

على أن شولتز كان يدرك جيداً أن «المقاتلين من أجل الحرية» الأفغان الذين كانت حكومته تدعمهم و«المقاتلين من أجل الحرية» الكونترا القريبين إلى قلب الرئيس ريغن كانوا يقتلون غير المحاربين بما فيهم «الرجال والنساء والأطفال الأبرياء» .

(٣٠) الجيروزاليم بوست ، ١٣ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٨٣ .

ومن هذا القبيل تعريف «للإرهاب الدولي» لا يقل سوءاً صدر عن وزارة الخارجية الأميركية في عام ١٩٧٦ . والإرهاب الدولي حسب هذا التعريف يمكن أن يتخذ شكل الاغتيال أو القتل أو الخطف والدافع إليه سياسي ، ويتجاوز نطاق الحدود القومية(٣١) . ولكن هذا التعريف لا يشمل جرائم الإرهاب الفلسطيني وحدها بل وتلك الجرائم الإرهابية التي قام بها الإسرائيليون أو كلّفوا غيرهم بالقيام بها . فاغتيال الإسرائيليين لخليل الوزير الرجل الثاني بمنظمة التحرير في نيسان/ أبريل ١٩٨٨ ، مثلاً ، يندرج تماماً تحت تعريف وزارة الخارجية الأميركية للإرهاب الدولي . لكن لم يصدر عن أي دائرة من دوائر الحكومة الأميركية ما يشير إلى أن إسرائيل تمارس الإرهاب .

لكن حتى لو أن وضع أبو جهاد القتالي جعل من قتله عملية اغتيال مقبولة ، فمن المؤكد أن أعمال الميليشيات من صنائع إسرائيل في لبنان ـ بما في ذلك الكتائب «وجيش لبنان الجنوبي» ـ تندرج تحت مفهوم وزارة الخارجية الأميركية للإرهاب . لكن وزارة الخارجية لم تصف أعمالهم بأنها إرهابية . وحتى مجازر صبرا وشاتيلا التي أعادت مشاة البحرية الأميركية إلى لبنان لم تُشجب في واشنطن بوصفها جرائم إرهابية .

لكن مثل هذا التردد لم يعقب مقتل الراكب اليهودي المسن على متن السفينة أخيل لورو على يد مسلحي محمد عباس ، ومقتل أحد غواصي البحرية الأميركية على متن طائرة تابعة لشركة الخطوط الجوية العالمية في بيروت عام ١٩٨٥ ، والقنبلة التي وضعت على طائرة أميركية ونسفت ثلاثة ركاب وقتلتهم فوق اليونان عام ١٩٨٦ ، ومقتل الركاب في مطاري روما وفيينا أو تحطيم طائرة البان أميركان ٧٤٧ فوق أسكتلندا في عام ١٩٨٨ . وكان يجب أن لا يكون هناك تردد . فكل هذه جرائم إرهابية .

لكن «الإرهاب» لم يعد يعني الإرهاب . فهو ليس بتعريف بل وسيلة سياسية . «فالإرهابيون» هم

(٣١) See Statment by Robert A. Fearey, Special Assistant to the Secretary of state and "Coordinator for Combatting Terrorism" before the Los Angeles World Affairs Council, 19 February 1976. For other contributions- of varying sanity - towards the definiton of terrorism, see Who is a Terrorist ? by Charles Hoffman in the "Jerusalem post 8 Febuary 1984, "One Man's Freedom Fighter is..." by sean Cronin in the Irish Times, 13 July 1985, "'Murder Inc." or Freedom Fighters? by Neal Ascherson in the observer (London) 14 July 1985 Double Standards on Terroism by Max Hastings in the in The Sunday Times, 29 December 1985, and 'Cruel Murderers, not Freedom Fighters' by Irving R. Kaufman in International Herald Trirbune, 25 August 1986 (originally printed in the New York Times).

أولئك الذين يستخدمون العنف ضد الطرف الذي يستخدم الكلمة . والإرهابيون الوحيدون في نظر إسرائيل هم الذين يقاومون إسرائيل . والإرهابيون الوحيدون في نظر الولايات المتحدة هو الذين يقاومونها هي أو حلفاءها . والإرهابيون الوحيدون في نظر الفلسطينيين ـ فهم أيضاً يستخدمون الكلمة ـ هم الذين يقاومون الفلسطينيين .

إن تبني الكلمة يعني اختيارنا في الشرق الأوسط لا بين الخير والشر والصواب والخطأ ، بل انحيازنا لجماعة مقاتلة ضد أخرى . ويرى الصحفيون أن استخدام كلمة «إرهاب» هو شبيه بحمل بندقية . وعليه فإنه ما لم تستخدم لوصف جميع الأعمال الإرهابية ـ وهي لا تستخدم كذلك ـ فإن استخدامها يعني تحويل المراسل الصحفي إلى مشارك في الحرب . إنها تجعله محارباً .

وفي لبنان تعني أيضاً أن الصحفي يعتقد بأنه من الممكن تقسيم الجيوش والميليشيات ذات القوة الهائلة في البلاد إلى «فئات طيبة» و«فئات سيئة» . لكنهم لا يستطيعون أن يفعلوا ذلك في لبنان لأن الجميع سيئون .

وكان هذا هو الخطأ الذي اقترفه الأميركيون عندما أعادوا مشاة بحريتهم المارينز إلى بيروت في أيلول/ سبتمبر ١٩٨٢ . وإذ كانوا يجهلون تاريخ لبنان ، ومقتنعين بأن مهمتهم العمل على استقرار البلاد ، ومؤمنين بمسلمات أخلاقية لا وجود لها في هذه البلاد ، فإنهم تشربوا كليشيهاتنا وورثوا ساحة القتل .

الفصل الثالث عشر

الروت (بيروت)

«لقد أتينا إلى هنا لنساعد أصدقاءنا اللبنانيين . لكن الذي أريد معرفته هو ما الذي سيحدث للفلسطينيين؟ علينا أن نفعل شيئاً ما من أجلهم» .

الكولونيل «جيمس ميد» قائد الوحدة البرمائية

٣٢ في البحرية الأميركية .

بيروت ، تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٨٢

«نريد أن نرشد شعب لبنان . وهدفنا الوحيد هو إضفاء الطابع الإسلامي على المكان ، وكما يقول الإمام الخميني ، علينا أن نصدّر الثورة الإسلامية إلى العالم . لذا أتينا إلى هنا كغيرنا من المسلمين الآخرين بهدف تخليص الفلسطنيين واللبنانيين المحرومين» .

أحد حراس الثورة الإيرانية .

بعلبك ـ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٨٢

في عام ١٩٨٢ هطلت أمطار الشتاء في وقت مبكر . ففي الأسبوع الأول من تشرين الأول/ أكتوبر انهمرت الأمطار فوق البحر ولبنان وسط العواصف والرعد والبرد . وغمرت مياه المطر والمجاري شوارع بيروت التي لم تقدر يوماً على تصريف السيول المنهمرة .

وهطلت الأمطار على جنود القوة المتعددة الجنسيات من الأميركيين والفرنسيين والإيطاليين الذين تجمّعوا وعليهم معاطفهم الواقية من المطر في مداخل البنايات والمخابىء . كما بلل المطر

أطقم الدبابات الإسرائيلية المرابطة جنوبي المطار . وفي مخيم شاتيلا غمرت الأمطار القبر الجماعي الغائر للفلسطينيين الذين قتلهم حلفاء إسرائيل المسيحيون قبل ذلك بأسبوعين .

وغسلت الأمطار منازل الناجين من المجزرة وأكواخ الآلاف من المدنيين الفلسطينيين الذي كانوا يواجهون عالماً جديداً غير مستقر في لبنان . وكانت العواصف أسوأ من فيضان عام ١٩٧٦ . وكان الإسرائيليون قد أكملوا تدمير مخيم عين الحلوة في صيدا بجرف ما تبقى من حطام البيوت بعد نسفها . وهكذا اختفت البيوت ، وحلت محلها الخيام . وجاءت الأمطار .

وفي غابات الصنوبر المحيطة بالمتحف ، وهي الغابات التي أتت عليها النيران ،اكتشف مشاة البحرية من فوج المظليين الفرنسيين الثامن أن العواصف أزالت التراب الأحمر عن جثث المقاتلين الشيعة والفلسطينيين الذين قتلوا حول بيروت الغربية خلال الحصار . وجرفت السيول الوحل عن المقابر الصغيرة في مواقف السيارات القذرة . وعندما خرق المطر الحواجز الرملية الكبيرة التي أقيمت كالستار الواقي حول منطقة الشياح ، كشفت أن الأموات قد طمروا حتى في قلب هذه الأسوار الدفاعية .

وكشفت الأمطار في خرائب شاتيلا عن ضحيتين أخريين من ضحايا المجزرة ، جثة امرأة شابة طعنت بالسكين حتى ماتت وجثة طفلها الذي لم يولد بعد وقد انتزع بعنف من رحمها وألقي في المقبرة الموحلة نفسها . وفي منطقة خلدة ، وجد أميركيون من الوحدة البرمائية ٣٢ التابعة للبحرية أن الأمطار التي هطلت على الشاطىء أزاحت الرمل عن اللحم واللحم عن العظم .

وكانت عوامل الطبيعة قد أخرجت الجماجم وعظام الأفخاذ وقطعاً من الجثث المنسوفة بالقنابل من المواد المترسبة ، وأخذت المياه تجري فوق الهياكل العظمية التي خلفتها الحرب وتحتها وحولها . وعندما زحفت العواصف من البحر ولمع البرق فوق المطار المهجور وأكواخ حي السلم بدا وكأن لبنان أخذ يسلّم الموتى ويكشف عن الأسرار المرعبة لشبان القوة المتعددة الجنسيات .

ما هي الرسالة التي قرأوها في تربة بيروت الحمراء خلال ذلك الخريف الممطر؟ في حين أن الجنود الذين قدموا إلى لبنان كانوا شباناً مهذبين يحفزهم الإحساس بالهدف الأخلاقي والعزة الوطنية ، فإنهم لم يكونوا يدركون أنه لم يسبق للبنان أن كافأ ضيوفه . وشهدت عدة شوارع في المدينة ماء الورد وهو يرش والأرز وهو ينثر على المظليين الفرنسيين ومشاة البحرية الأميركية كما حدث عند دخول الإسرائيليين والسوريين من قبلهم ـ لكن هذا التقليد حمل في طياته نُذراً مخيفة لم يفهمها الذين تلقوها .

وكان الذي حمل الأميركيين والفرنسيين والإيطاليين على العودة إلى بيروت مجدداً بعد أقل من أسبوعين على رحيلهم المبكر هو الشعور بالذنب . ولم يعودوا وفي جعبتهم أهداف سياسية صريحة ، رغم أنه لم يمر وقت طويل قبل أن يكتشف الرئيس ريغن واحداً منها . واتخذ هو وشولتز قرار إعادة نشر الجيش الدولي في بيروت في ١٨ و١٩ أيلول/ سبتمبر أي في نهاية الأسبوع الذي شهد انتهاء مجازر صبرا وشاتيلا . فكان القرار ، كما قال أحد كبار مستشاري ريغن ، استجابة عاطفية لحدث مأساوي وتحت تأثير «الشعور بأن الولايات المتحدة قد أخذت على عاتقها مسؤولية المحافظة على سلامة الفلسطينيين ، وبأن أصدقاءنا الإسرائيليين سمحوا بوقوع الأسوأ»[(١)] .

كانت هذه طريقة خجولة للتعبير عن العار والحرج السياسي اللذين فرضتهما مجازر قتل الفلسطينيين على إدارة ريغن . إذ كان الأميركيون قد تعهدوا بضمان سلامة المدنيين الفلسطينيين في بيروت الغربية ووثقوا في أن «أصدقاءهم» الإسرائيليين سوف يتصرفون على ذلك الأساس . ولكن الضمانات والثقة الأميركية أثبتت في تلك اللحظة نفسها أنه لا قيمة لها . ذلك أن مقترحات ريغن السياسية حول الحكم الذاتي للفلسطينيين في الضفة الغربية وقطاع غزة بالاتحاد مع الأردن ، دعت العرب للوثوق في واشنطن .لكن بيغن رفض خطة ريغن هذه بشدة وبشكل مهين . فأي قيمة بقيت لنفوذ أميركا بعد ذلك؟

بقيت أسس الاستراتيجية الإسرائيلية على حالها . ففي أول أيلول/ سبتمبر كشف واينبرغر في تصريح ساذج له بميناء بيروت أمام رجال الصحافة عن الجوانب الرئيسية لسياسة واحد ، اثنين ، ثلاثة ـ أي عمل عسكري تتبعه الأهداف السياسية ثم «الحل» ـ التي تؤمن بها المدرسة السياسة الأميركية والتي كنا نسخر منها في بيروت . فكان المفترض أن يمثل جلاء الفلسطينيين عن بيروت المرحلة الأولى (أي العمل العسكري) وأن يتبعه إخراج جميع القوات من لبنان «الأهداف السياسية» وأخيراً الحل الذي لا يُصدّق وهو حل المشكلة الفلسطينية .

وكان الفرنسيون والإيطاليون قد استجابوا لطلب الإدارة الأميركية بالعودة إلى بيروت لأنهم كانوا كالأميركيين يشعرون بالذنب ذاته ، ولأنهم كانوا يكررون الوعود ذاتها . وكانت تلك اللحظات تاريخية ، والحاجة ماسة إلى حد أن التناقضات السياسية التي كانت تنطوي عليها إعادة الانتشار لم تظهر حتى لأولئك الذين كانوا أقدر من غيرهم على فهمها .

(١) من محاضرة ألقاها جيوفري كمب المختص بشؤون الشرق الأوسط في مجلس الأمن القومي راجع : دور قوة السلام الأميركية في لبنان ١٩٨٢ ـ ١٩٨٤ (المعهد النرويجي للشؤون الدولية ، أوسلو ، ٢٨ تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٨٥) .

كيف كان يمكن إقناع «الجيوش الغربية بمغادرة لبنان؟» كيف كان يمكن لأميركا أن تحتال على خروج السوريين من لبنان بعد أن أعلنت أن إسرائيل «صديقة» لها؟ وإذا كان الجيش الدولي قد عاد لحماية مسلمي بيروت الغربية وخاصة الفلسطينيين ، فكيف كان هذا سيتفق مع التزامه نحو الحكومة اللبنانية صاحبة السيادة التي كانت قد دعت الأميركيين والفرنسيين والإيطاليين إلى القدوم إلى بيروت؟ ثم هل كانت هذه الحكومة ديمقراطية فعلاً أم ممثلة للكتائبيين وحدهم؟

لم تطرح هذه الأسئلة الأساسية . فقد كانت عودة هذه القوة في أيامها الأولى مهمة إنسانية ، وبدا عندئذ أنها على جانب من القوة لا قِبَل لأحد بمقاومته . وأخذنا نراقب هذه القوات وهي تغيّر وجه بيروت الغربية . وأنقذت المدينة التي بقي مستقبلها مع ذلك موضع شك . وشعر سكانها اللبنانيون والغربيون الذين ظلوا فيها بأنها مكان آمن . وكيف كان لها أن لا تكون كذلك بعد أن سخّرت أقوى دولة على الأرض هيبتها السياسية لحمايتها؟

إن الذين عاشوا منا في بيروت خلال الحصار وشاهدوا القصف ، وساروا بين الجثث في صبرا وشاتيلا شعروا بالرهبة لدى رؤية تلك القوة العسكرية الهائلة . وهذا ما شعر به اللبنانيون أيضاً . وكنتُ حيثما ذهبت بسيارتي في العاصمة أصادف القوات الأميركية أو الأوروبية . وكان مشاة البحرية الأميركيون يسيّرون دورياتهم على طريق المطار ،بينما كانت القوات الإيطالية تحرس أطراف صبرا وشاتيلا ، والمظليون الفرنسيون يسيطرون على خط التماس . وكانت أصوات الطوافات الأميركية تدوي ليل نهار فوق العاصمة وهي تنقل المعدات والذخائر إلى الخطوط الأميركية تحت منطقة الحدث .

وأُنزلت دبابات إم ـ ٦٠ الأميركية على الشاطىء عند خلدة في منطقة الإنزال البحري للقوة المتعددة الجنسيات . وقضيت النهار بطوله مع فولي نرقب المارينز وهم ينقلون صواريخهم الموجهة باللاسلكي ومدافع الهاون وعربات الهجوم البرمائي . ورأيت في هذا كله ـ كما كتبت في رسالتي مساء ذلك اليوم ـ «برهاناً جلياً» على أن مهمة القوات المتعددة الجنسية في لبنان قد تتحول إلى عملية طويلة الأمد وحتى خطرة» .

على أنني وجدت من الصعب تصديق ما تنبأت به . ففي البحر ، وحول شبه جزيرة بيروت الغربية ، وفي القوس الأكبر لخليج بيروت كان يرسو أسطول من أكبر الأساطيل البحرية في العالم . وحيثما نظر المرء كان يرى في البحر حاملات الطائرات الفرنسية والأميركية والمدمرات ذات الأسلحة النووية والبوارج ومراكب الإنزال وقوارب الدوريات . وفي الليل كنت أستطيع من شرفتي المطلة على البحر أن أشاهد الأضواء تتلألأ في أجواء المدينة وتحميها من ظلمة الليل .

ولا ريب في أن ذلك كان يمثل كليشيه كاملة . إذ أصبح من المؤكد أن هناك «ضوءاً في نهاية النفق» وفرصة للسلام ونهاية للحرب ، وإعادة الإعمار الأخيرة لبيروت . وكان هذا التفاؤل بمثابة مخدّر أقوى من أي مخدر آخر يزرع في سهل البقاع . وعليه وفي آخر لحظة مُنح اللبنانيون فرصة لإعادة إنشاء لبنان القوي السعيد والموحد الذي لم يوجد إطلاقاً إلا في مخيلتهم .

وفي كلمته أمام الجمعية العامة للأمم المتحدة في تشرين الأول/ أكتوبر قال أمين الجميّل : «لقد تنبه الناس اليوم في لبنان إلى التحدي التاريخي الذي يواجههم . إنهم شامخون كجبالنا ،وطموحاتهم عالية كأرزنا «أعطونا السلام وسندهش العالم» . والواقع أنهم سيدهشون العالم ولكن ليس على النحو الذي تنبأ به أمين الجميّل .

واكتسبت هذه الأحلام قوة ذاتية ، تحتاج إلى قوى أكبر منها للإبقاء عليها . وقال الرئيس اللبناني خلال جولة له في أميركا وأوروبا أنه يريد رفع عدد القوة المتعددة الجنسيات البالغ عدددها ٣٨٠٠ إلى ثلاثين ألفاً . ثلاثون ألفاً . لِمَ لا؟ طلب قوات من بريطانيا وكندا وأستراليا وبلجيكا والنمسا وحتى من كوريا الجنوبية . وكان من المؤكد أنه يمكن التدليل على صحة الأحلام بما لدى الغرب من قوة اقتصادية هائلة . وقال الجميّل إن لبنان في حاجة إلى مساعدات اقتصادية طويلة الأجل بقيمة ١٢ بليون دولار . وطلب مالكوم كير رئيس الجامعة الأميركية في بيروت استثمار ١٠٠ مليون دولار في كلّياته . فوعدت الحكومة الأميركية بتقديم مئة وخمسة ملايين دولار قبل نهاية عام ١٩٨٢ .

وأصابت عدوى هذا التفاؤل المجنون حتى محيط الأسوشيتد برس المتشائم . إذ وضع موظفو المكتب خططهم لقضاء عطلهم خارج لبنان . ووصل تيري أندرسون من إفريقيا الجنوبية مع زوجته وابنته وأخذ مكانه كموظف دائم في الوكالة بلبنان .

ولما كان أندرسون من المارينز القدامى الذين أرسلوا إلى الفيتنام ، فقد عُهد إليه على الفور بتغطية وحدة المارينز الأميركية في بيروت الغربية . وعاد نك تاترو من إجازته مقتنعاً بأن إعادة بناء الجيش اللبناني من شأنها أن تنقذ لبنان .

ولم يسلم من عدوى هذا التفاؤل غير فاروق نصار . اعتاد فاروق أن يتكيء على شرفة الوكالة في فترات الظهيرة الحارة يقلّب الاحتمالات السياسة .

وقال لي ذات يوم في أواخر تشرين الأول/ أكتوبر :

ـ هل تعلم يا فيسكي أن هذا الأمر قد ينتهي بحمام دم؟

وعندما سألته عن السبب قال :

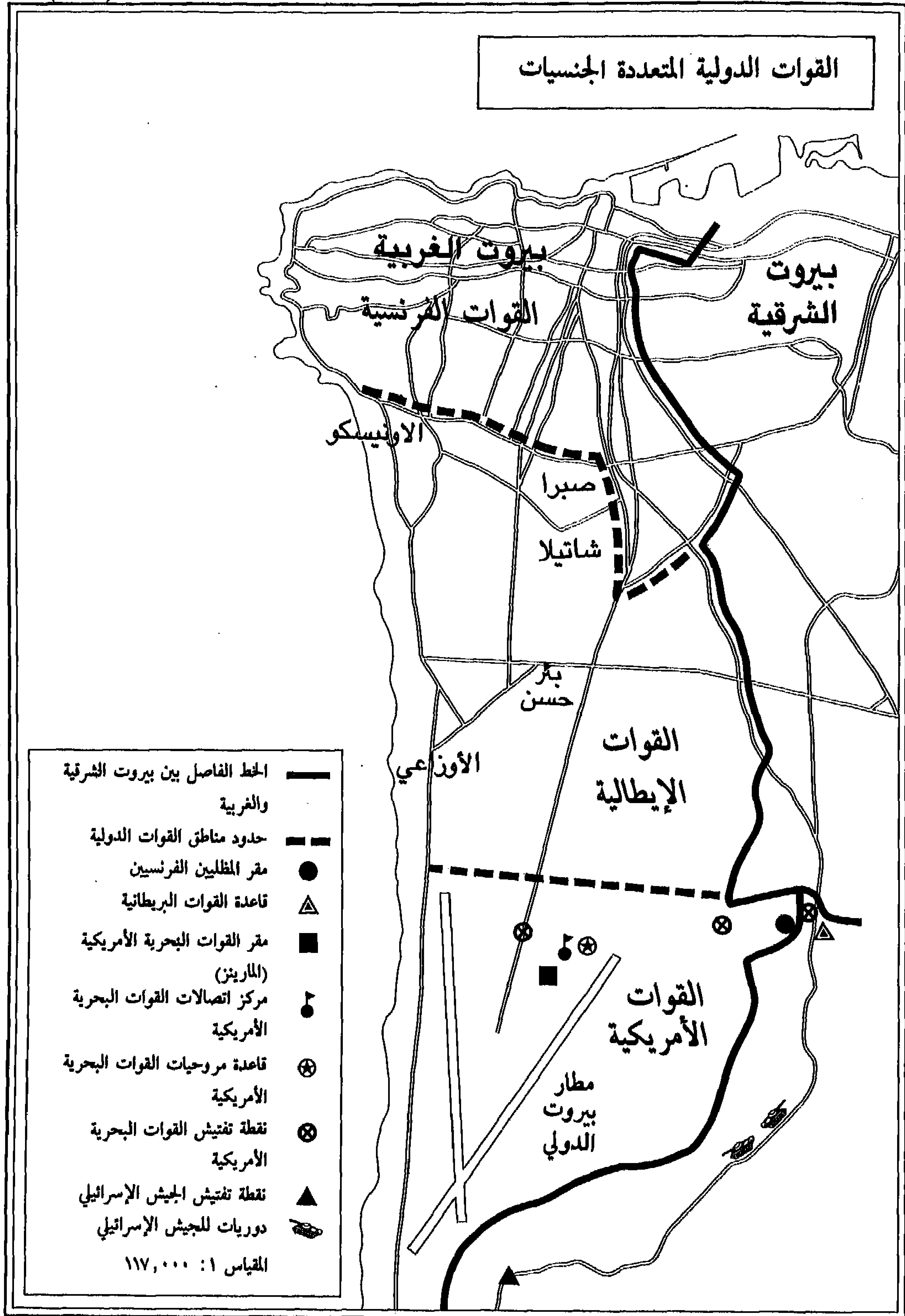
ـ لأن أمين الجميّل كتائبي وأصدقاؤه في الحكومة . وسينتهي الأمر بدعم القوة المتعددة الجنسيات للكتائب .

إذا كانت دلالات ما قاله رهيبة ، فإنه لم يكن قد ظهر بعد ما يؤيدها . وعلى أي حال فقد استُقبلت القوة المتعددة الجنسيات في بيروت الغربية استقبال الفاتحين . لقد قدموا لا كغزاة وإنما كمنقذين لشعبها . وأخذ الإيطاليون يشترون السلع من شارع الحمراء ، والفرنسيون يتناولون العشاء في مطعمي سباجتيرينا وكوفادس . وصار المارينز يرتادون مقهى فندق الكومودور وهم خارج عملهم . وبدت بيروت لنا وللعديد من جنود القوة المتعددة الجنسيات مدينة غربية . لكنها بالطبع لم تكن كذلك .

وكنا كاللبنانيين نرى ما نريد رؤيته . كانت المقاهي مزدحمة بروادها ، والمخازن تُبنى من جديد في قلب المنطقة التجارية . وللمرة الأولى منذ سبع سنوات أخذت الخطوط الجوية الغربية تسيّر الرحلات على طائرتها إلى بيروت . واستأنفت البان أميركان رحلاتها إلى لبنان . وكان على مشاة البحرية الأميركية لسبب لا نعرفه أن يؤدوا التحية لكل طائرة بان أميركان مقلعة . وازدحم المرفأ بالسفن التجارية . وأخذ الضباط الفرنسيون من ذوي الخبرة بالمتفجرات ينزعون الألغام من خط التماس وأزقّته الرطبة التي تجولنا فيها عام ١٩٧٦ . لقد كانت بيروت تؤدي طقساً من طقوسها وهو طقس العودة إلى الحياة العادية . فأخذنا نقيم الحفلات ونذهب للنزهة على الشاطىء . وبدا وكأن سكان المدينة لا يشعرون بأن باقي البلاد واقع تحت الاحتلال الإسرائيلي والسيطرة السورية .

كانت بيروت ذاتها سراباً خادعاً . كانت مرآة ننظر إليها نحن واللبنانيون لنرى فيها أنفسنا . فإذا ابتسمنا ابتسمت لنا. لقد كان لها تأثير غريب . وكان إيمان اللبنانيين بالسعادة يتسم بحماسة المبشرين . وإذا آمنوا إيماناً قوياً بشيء ، اعتقدوا أنه لا بد أن يتحقق . وكان هذا مرضاً لم يسع الكثيرون إلى علاجه . ولم يكن أحد يرغب في مغادرة المدينة عبر خطوط التماس إلى خارجها . كانت قد أصبحت دولة مدينية (أي قائمة على المدينة) . أو عاصمة بلا بلاد .

وبدا انتشار القوة المتعددة الجنسيات على الخرائط التي ألصقها «تاترو» على جدران مكتب الوكالة عملية واضحة غير معقدة . فقد اقتسمت الوحدات الثلاث بيروت فيما بينها . فأخذ مشاة البحرية الأميركية المطار ومحيطه حتى خلدة جنوباً ، أي المنطقة التي نصب فيها الجيش الفرنسي خيَمه قبل ١٢٢ سنة عندما قدموا إلى لبنان لإنقاذ الموارنة بعد اندلاع الحرب المسيحية ـ الدرزية .


القوات الدولية المتعددة الجنسيات
بيروت الغربية
القوات الفرنسية
بيروت الشرقية
الاونيسكو
صبرا
شاتيلا
بئر حسن
الأوزاعي
القوات الإيطالية
القوات الأمريكية
مطار بيروت الدولي
الخط الفاصل بين بيروت الشرقية والغربية
حدود مناطق القوات الدولية
مقر المظليين الفرنسيين
قاعدة القوات البريطانية
مقر القوات البحرية الأمريكية (المارينز)
مركز اتصالات القوات البحرية الأمريكية
قاعدة مروحيات القوات البحرية الأمريكية
نقطة تفتيش القوات البحرية الأمريكية
نقطة تفتيش الجيش الإسرائيلي
دوريات للجيش الإسرائيلي
المقياس ١: ١١٧,٠٠٠

وبينما سيّر جنود البحرية الاميركية دورياتهم في الأحياء الإسلامية الشيعية الفقيرة فإن المظليين الفرنسيين احتلوا الجزء الأكبر من الوسط التجاري ببيروت الغربية . ولم تشمل منطقة العمليات الإيطالية صبرا وشاتيلا فحسب ، بل وبرج البراجنة والمناطق الشيعية المجاورة . وإذا نظر المرء إلى خريطة بيروت الغربية وجد الفرنسيين في أعلاها والإيطاليين في وسطها والأميركيين في أسفلها .

على أن الأمر لم يكن سهلاً إلى هذا الحد . فالقوة المتعددة الجنسيات لم تأت إلى بيروت لتقف حاجزاً بين فريقين ، ولا بناء على تفويض من الأمم المتحدة . والواقع أن الأميركيين وقفوا ضد مشاركة الأمم المتحدة ، لأنهم أرادوا الحؤول دون التدخل السوفييتي في لبنان . وإذا استثنينا جلاء منظمة التحرير الفلسطينية وانسحاب الجيش الإسرائيلي عن بيروت الغربية مسافة لا تزيد على ستة أو سبعة أميال ، فإن الجيوش والميليشيات اللبنانية بقيت في المواقع التي كانت تحتلها عند وقف القتال في شهر آب/ أغسطس .

وأما خط المواجهة الإسرائيلي فقد امتد على طول محيط بيروت الغربية من تقاطع خلدة ، وعبر طريق صيدا القديمة إلى المدرج الثاني للمطار شرقي بيروت وحتى آخر نقطة في غاليري سمعان . وكان هذا هو الخط نفسه الذي اتخذه الإسرائيليون خلال الحصار . وكانت القوات الإسرائيلية وحلفاؤها الكتائبيون يحتلون بيروت الشرقية . ولم تبدأ القوات الفرنسية بتسيير دورياتها في القطاع المسيحي من المدينة إلا في تشرين الأول/ أكتوبر ، ولكن حتى عندئذ كان الخوف يسيطر عليه . ولم يكن الكتائبيون يحبون القوة المتعددة الجنسيات ،فتشبثوا بحماسة بمراكز تفتيشهم ومناطق سيطرتهم شمال العاصمة وفي الجبال إلى الشرق .

وكان الجيش السوري يسيطر على الطريق الجبلية ابتداء من الخط الساحلي وعلى طول قمة جبل لبنان وصولاً إلى «صوفر» على طريق بيروت ـ دمشق ثم شرقاً عبر سهل البقاع .

وفي منطقة الشوف ـ جنوب السوريين وشرقي القوة المتعددة الجنسيات ـ كانت الميليشيا الدرزية والميليشيا الكتائبية في حالة شبيهة بحالة الحرب . ولم يستطع الإسرائيليون الذين جلبوا الكتائب إلى منطقة الشوف في حزيران/ يونيو أن يوقفوا النزاع بينهما ،بالرغم من أنه من صُنع إسرائيل ذاتها . ويبدو أنهم عجزوا عن ذلك أو كانوا لا يريدونه . وكانت قوات الاحتلال الإسرائيلي في الجنوب تحارب حركة المقاومة اللبنانية التي كان عداؤها يشتد يوماً بعد يوم .

ولم يختف الفلسطينيون من لبنان . إذ بقي عشرة آلاف منهم في البقاع ومدينة طرابلس الشمالية . وفي بعلبك ، سيطر مئات من حراس الثورة الإيرانيين على المدينة برضا السوريين . فسوريا كانت

الحليف العربي الوحيد لإيران ، وهي التي شجعت التدخل الإيراني في لبنان . وولّد «كوكتيل» الجيوش هذا نوعاً خاصاً من الإعياء . فبعد أن قمت بزيارة لبعلبك في خريف ١٩٨٢ ، توجهت بسيارتي عبر نقاط التفتيش المتتالية التي كان يقف فيها إيرانيون وفلسطينيون من الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ، والقوات السورية النظامية ، ورجال المخابرات السورية بثيابهم المدنية ، ووحدات القوات السورية الخاصة ، والإسرائيليون والكتائبيون والجنود اللبنانيون والمظليون الفرنسيون والمارينز الأميركيون . وعليه فإنه صار بلبنان بعد وصول القوة المتعددة الجنسيات ٣٣ جيشاً غريباً وميليشيا مسلحة على الأقل .

وحتى في داخل منطقة عمليات القوة المتعددة الجنسيات ، وسط الشوارع المغبرة الخانقة وشبه المهدمة ،حيث انتشرت دوريات الأميركيين والفرنسين والإيطاليين ، كان رجال الميليشيات المسلمون الذين حاربوا الإسرائيليين لا يزالون في مراكزهم .

وبالرغم من أن هؤلاء أخفوا أسلحتهم مؤقتاً عندما عادت الحكومة اللبنانية وبسطت سلطتها على بيروت الغربية ، فإنهم ظلوا على الساحة . وكان أقوى هؤلاء طائفة الشيعة . فقد واصلت شبكاتها العسكرية ومخابراتها عملها متسترة بالحركات السياسية .

وكانت أمل أبرز هذه المنظمات بالرغم من وجود منافسين أصوليين لها سبق أن أظهروا شجاعة كبيرة في المعارك التي دارت حول منطقة خلدة .

جاء نشر وحدات القوة المتعددة الجنسيات ثمرة دراسة مستفيضة . فوُضع الأميركيون قبالة الإسرائيليين على أساس أنهم سوف يستطيعون السيطرة على «أصدقائهم» الإسرائيليين . ووضع الفرنسيون قبالة الكتائب لأنه كان يحتمل أن يكون المسيحيون أكثر ليونة مع الأمة التي كانت تحميهم منذ أكثر من قرن . ولما كان الإيطاليون من شعوب البحر الأبيض المتوسط فقد كان من المحتمل أن يكسبوا تعاطف الفقراء المسلمين من اللبنانيين والفلسطينيين . ولهذا وضعوا في صبرا وشاتيلا .

كان هذا التخطيط ينطوي على دهاء ،لكنه يقوم على افتراضات ذات أفق محدود جداً . فلو كان هذا الجيش الدولي سيبقى في لبنان لفترة محدودة - لثلاثة أشهر - لكان من المحتمل أن يتمكن الإيطاليون والفرنسيون والأميركيون أن يرحلوا بنظام بعد أن يساعدوا «السلطات اللبنانية الشرعية» على السيطرة على جميع بيروت ، وبعد أن يقنعوا الإسرائيليين والسوريين بالانسحاب من لبنان . لكن «السلطات اللبنانية الشرعية» كما أدرك فاروق نصار الذي يعمل بالأسوشيتد برس كانت تعمل من

أجل إدارة كتائبية وبمساعدة إسرائيل على وجه التحديد . هذا فضلاً عن أنه لم يكن هناك أية ضمانة بأن السوريين والإسرائيليين سوف يتكرمون بالخروج من لبنان بتلك السرعة .

وإذا حدث في تلك الأثناء أن أقحمت الحكومة اللبنانية نفسها في الحرب الأهلية وخصوصاً في نزاع مع قوات الميليشيات التي كانت لا تزال داخل منطقة عمليات القوة متعددة الجنسيات ، فإن تحزب الجيش الدولي سيكون واضحاً وسيصبح دوره المعلن موضع سخرية . أضف إلى هذا أن ريغن كان قد أبلغ الكونجرس في ٢٩ أيلول/ سبتمبر ١٩٨٨ أن مهمة القوة المتعددة الجنسيات «تستبعد بوضوح اضطلاع القوة الأميركية بأية مسؤوليات قتالية» .

وعليه كان المنطق يفرض على القوة المتعددة الجنسيات أن ترحل في حال تجدد الحرب الأهلية . لكن من الناحية الفعلية لم يكن من المتوقع أن تفعل ذلك . فالجيوش لا تعترف بالفشل ، خصوصاً وأن مهمة القوة المتعددة الجنسيات لم تكن مثقلة بعبء مأساة لبنان ، بل تمثل هيبة دولة عظمى ودولتين أوروبيتين من أقوى الدول . وهكذا أصبح المسرح مهيأً لكارثة من كوارث الملاحم . وقُدّر لجميع عناصر المهزلة والمأساة ـ من التبجج والخداع إلى الكارثة النهائية ـ أن تتكالب على مهمة القوة المتعددة الجنسيات . وقُدّر لنا خلال سبعة عشر شهراً أن نشهد انهيار الغرب في لبنان الذي أدى إلى عواقب مخيفة لا يمكن إزالتها .

لكن حتى قبل وصول هذه القوة إلى لبنان كانت نُذر الشر بادية للعيان . وقمنا كالعادة بإرسال تقارير عنها ، ولكن دون أن ندرك ما ستجره من دمار . فبينما كان الإسرائيليون يحاصرون بيروت بدأت سلسلة من أعمال القتل الطائفية المخيفة في الشوف . إذ وجد قتلى من القرويين الدروز كانت قد أطلقت النار على رؤوسهم من الخلف وألقيت جثثهم في أخاديد بجانب بيوتهم . وعثر كذلك على مسيحيين ذبحوا من الوريد إلى الوريد . وكان الدروز يعتبرون الكتائب أكثر شراً عليهم من الإسرائيليين . وعليه فإنهم اعتبروا رئيس لبنان الكتائبي عدواً لا صديقاً . إذن فكيف كانوا سيتصرفون عندما تحاول القوة المتعددة الجنسيات دعم إدارة أمين الجميّل؟

لم يُخف الكتائبيون الذي عُيّنوا في الحكومة بعد انتخاب أمين الجميّل طموحاتهم الكبيرة . فأعلن الفرد ماضي المستشار الخاص للجميل في واشنطن وممثل الكتائب في الولايات المتحدة «مولد حليف ثان لأميركا في الشرق الأوسط»[٢] . وكان هذا وهما خطراً . إذ كان على لبنان إذا أراد أن

(٢) المندي مورننج ، ٢٥ ـ ٣١ تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٨٢ .

يحتل مكانة مساوية لمكانة إسرائيل في الشرق الأوسط أن يصبح أيضاً حليفاً لإسرائيل . ترى هل أعيدت القوة المتعددة الجنسيات إلى بيروت من أجل ذلك الغرض؟ إننا كصحفيين سخرنا من هذه النظريات عن المؤامرات . لكن اللبنانيين نظروا إليها بصورة جدية . وكان لنظرتهم ما يبرّرها .

كانت كل الدلائل تشير إلى أن تغطية القوة المتعددة الجنسيات ستكون سهلة . إذ يقال عادة للجنود بأنهم إلى جانب الملائكة . لكن نادراً ما يصدقون ذلك . وبدا وكأن تقارير وكالات الأخبار تكتب نفسها . فعندما نزلت قوة المارينز الرئيسية إلى الشاطىء في الأوزاعي قام عشرات من الصحفيين بتسجيل كل حركة من حركاتهم . وكانوا يشاهدون سبع سفن حربية في عرض البحر وناقلات تنزل سيارات الجيب والجرافات على رمال الشاطىء . وربما شعر المارينز الذين كانوا يتراكضون نحو الشاطىء بالانزعاج عندما وجدوا أن الأوزاعي لم يكن ذلك الشاطىء الذهبي الذي تخيلوه .

كان الشاطىء عندئذ مغطى بأكوام من القمامة يصل ارتفاعها إلى ستة أقدام ولهذا كان لا بد للمارينز من أن يخوضوا أطناناً من علب الصفيح الصدئة والأكياس المهترئة وحطام السفن قبل أن تطأ أقدامهم الأرض الجافة . وفي غضون أيام أخذوا الفاصوليا المطبوخة التي تشتمل عليها وجباتهم إلى أطفال برج البراجنة . وكانت شبكة من مطاعم الوجبات الجاهزة في مدينة ديتن بأوهايو تشحن ٣٠٠٠ ساندويتش هامبورغر للمارينز الذين بلغ عددهم ١٣٠٠ . أما الجنود الفرنسيون فكانوا يشترون الصودا والسجائر من عشرات الباعة المتجولين الذين كانوا ينصبون أكشاكهم حول مقار وحدات القوة المتعددة الجنسيات . وكان الصحفيون يكتبون التقارير عن كل ما يجري من هذا القبيل بحماسة أكاديمية .

وامتلأت تقاريرنا بمثل تلك التفاهات . فقد كانت كل صغيرة وكبيرة في نظرنا تستحق التسجيل . وعندما دعي الجنود اللبنانيون لمشاركة رجال المارينز في تأدية صلاة في الكنيسة العسكرية الأميركية داخل مقر فريق الإنزال في الكتيبة الأميركية ـ وهو مكان شبه مهدم كان يستخدم لتدريب طياري شركة الميدل ايست اللبنانية ـ توافد عشرات المصورين إلى المكان . وفي صباح الأحد الموافق أول تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٨٢ سمعنا في الغرين بيتش قسيس البحرية الأميركية الكاثوليكي يعلن للمصلّين من المارينز عند منطقة الإنزال البحرية الواقعة غرب المطار أنهم سيصلّون «تكريماً لسيدة جبل لبنان شفيعة البلاد التي تستضيفنا» . وفي القداس البروتستانتي الذي أقيم على الشاطىء أخذ الأميركيون يرتلون «النعمة» بعد أن دعوا الله أن يهب البلاد سلاماً دائماً» وبدا أن اللبنانيين سينعمون بالمساعدة الإلهية والدولية .

وبالطبع كان من الأفضل أن يصل إلى لبنان جيش يحمل أدعيته بدلاً من القصف «بالدقة الجراحية» . بيد أن الأميركيين نزلوا على الشواطىء ومعهم الأوهام المعروفة . فقد كانوا يقولون لنا إنهم أتوا لإحلال السلام . وهذا هو ما سبق للسوريين أن قالوه لنا عندما دخلوا إلى البلاد عام ١٩٧٦ . واستخدم الإسرائيليون التعبير ذاته عندما غزوا البلاد في حزيران/ يونيو ١٩٨٢ . إلا أن الأميركيين هم الآن «السمسار النزيه» ـ وهذا أيضاً أحد كليشيهاتنا ـ وهم مصممون على منع وقوع حرب أخرى بين أطراف النزاع الذي طال أمده . وكان الأميركيون يدعمون «سيادة» لبنان ـ مهما كان معنى السيادة في نظرهم ـ ويريدون ـ كما قال واينبرغر ـ خروج جميع «الجيوش الأجنبية» من لبنان .

لم يكن هناك ما يؤخذ على هذه المقاصد من الناحية الأخلاقية . وكان مجرد سماع الأميركيين من المصلين أو جنود الميدان أو جنود الإشارة يرددونها يكفي للاعتقاد بأن تحقيق هذه الأهداف الغامضة أمر ممكن .

كان الجنود الأميركيون يعنون ما يقولون . وكانت عبارة «النية الطيبة» من العبارات التي تتردد كثيراً على ألسنتهم ـ فبالنية الحسنة يمكن تحقيق كل شيء .

وفي ذلك الخريف كان كل طن من الذخيرة يفرغ على شاطىء بيروت أو «الروت» على ألسنة المارينز يحمّل بذخائر من حسن النية .

أما أوهام الفرنسيين فكانت وليدة التاريخ لا السذاجة . إذ كان مجيئهم تأكيداً على قرن من العلاقات مع البلاد والتصور الفريد الذي تمخضت عنه تجربتهم كدولة منتدبة على لبنان .

وبالطبع كانت لفرنسا بوصفها دولة أوروبية كبرى مطامعها . وعليه فلم يكن من الممكن إبقاؤها خارج مشروع له مثل تلك الأهمية السياسية التي تتمثل على الأقل في تدخل أميركا فيه . وكان الضباط الفرنسيون يتناولون طعام عشائهم في قصر سفارتهم المهدمة في غابة الصنوبر ، وحولهم الخدم ، وبينهم الحسناوات من اللبنانيات اللواتي يضفين جمالاً وحيوية على المائدة . وكان الجيش الفرنسي الذي لم يربح حرباً منذ ستين عاماً حريصاً على أن لا يخسر مهمة حفظ السلام في لبنان .

ويبدو أن الإيطاليين وحدهم هم الذين كانوا يعرفون دواعي وجودهم في لبنان . إذ كان كثرة منهم من أسر فقيرة في جنوب إيطاليا ، مما جعلهم يتعاطفون بشكل غريزي مع سكان الأحياء الفقيرة التي تمركزوا فيها . كانوا على جانب كبير من التواضع ، وأبعد ما يكونون عن التعالي والتبجح الذي

كان الفرنسيون والأميركيون يظهرونه ولو عن غير قصد أمام اللبنانيين . وكانت الأوامر قد صدرت للإيطاليين بحماية صبرا وشاتيلا وهذا ما فعلوه بإخلاص . ورفضوا فيما بعد الزج بأنفسهم في المعارك التي نشبت بين القوة المتعددة الجنسيات وبين اللبنانين .

وقام الإيطاليون ببناء مستشفى ميداني عند أطراف مخيم شاتيلا . وفي الوقت الذي كان فيه جنود المارينز يشاهدون أفلامهم التي أحضروها معهم وخاصة الفيلم المحبوب رامبو ـ ٢ ، كان الإيطاليون يدرسون اللغة العربية . وقام الجنرال فرانكو أنجيوني قائد الوحدة الإيطالية بتوزيع كتب عن تاريخ لبنان بين جنوده . ولهذا كانوا خلال زياراتنا لهم في محيط شاتيلا يتحدثون حديث المطلع عن الفلسطينيين والشيعة والدروز والموارنة . ولم يكن لديهم تفاؤل زملائهم الأميركيين .

كانت لدى الكولونيل جيمس ميد قائد المارينز فكرة عن المأساة . وكان ميد يحمل النجمة الفضية ، وهي الثالثة بين أعلى الأوسمة الأميركية التي تُمنح تقديراً للشجاعة ، ومُنحت له تقديراً لإشرافه على عملية إنقاذ للمارينز من الأدغال . وأثبت كناطق باسم القوة المتعددة الجنسيات أنه ناطق صريح . وكانت عبارته المعهودة التي يختم بها كلامه : «ويمكنكم أن تقولوا ذلك على لساني» . وفي أحد مآدب «الباربكيو» (الشواء في العراء) التي أقامها المارينز للصحفيين مساء يوم في أوائل تشرين الثاني/ نوفمبر قال ميد : «لقد جئنا إلى هذه البلاد لمساعدة أصدقائنا اللبنانيين . ولكن الذي أود معرفته هو ماذا سيحدث للفلسطينيين؟ هل يقوم أحد بعمل شيء من أجلهم؟ ما الذي نستطيع عمله لهم؟ لقد قمت بزيارة المخيمات . هل رأيتموهم؟ هل تدركون ما عانوه؟ علينا أن نفعل شيئاً من أجلهم» .

لكن هذا الكلام المعقول كان مضللاً كما تبيّن من تصريح له قرأه على الصحفيين بعد يومين فقط في مقر كتيبته . وكان المقاتلون عندئذ يشنون سلسلة من الهجمات على الدبابات الإسرائيلية وهي تسير على طريق صيدا القديمة المحفرة التي كانت تدور حول منطقة المارينز ،والتي استخدموها طريقاً رئيسياً لإمداد قواتهم فوق بحمدون . وادعى الإسرائيليون أن هؤلاء المسلحين يخرجون من برج البراجنة داخل منطقة المارينز ، ثم يعودون إلى المنطقة الأميركية بعد قيامهم بالهجوم . على أن ميد كان على يقين من أنه لا صحة لادعائهم . قال لنا :

ـ يمكنني القول إن الإرهابيين الذين يهاجمون الإسرائيليين لا ينطلقون من هنا على حد علمنا . ويمكنكم أن تقولوا هذا على لساني .

إرهابيون؟ إرهابيون؟ هل قررت القوة المتعددة الجنسيات بعد وجودها بلبنان بأقل من أسبوعين أن من يقوم بمهاجمة الإسرائيليين «إرهابي»؟ وعندما سألت ميد عن سبب استخدامه لكلمة «إرهابي»

ضحك ضباطه الكبار . وسأل ميد بدوره : «حسناً ، حسناً ، ماذا أسميهم؟ إن كنت لا تحب كلمة إرهابيين فسأقول : الخارجون على القانون . ما رأيكم؟ خارجون على القانون . ذلك أنه لا يفترض أن يذهب المرء ويطلق النار على الناس» .

لقد أخطأ ميد الهدف . فحتى في هذه المرحلة المبكرة من انتشار القوة المتعددة الجنسيات كان من الواضح أن لدى الكتيبة الأميركية فكرة مفادها أن واحداً على الأقل من الجيوش الغربية في لبنان له بعض الحق في أن يكون فيه ، وله الحق في أن لا يتعرض لأي هجوم . فالجيش الإسرائيلي كان ـ وكان سيظل ـ يتعرض لإطلاق النار لأنه جيش غزاة في أرض أجنبية . لكن ميد أسبغ عليهم الشرعية بالإشارة إلى أن أعداءهم «إرهابيون» أو «خارجون على القانون» . وظهرت هذه الحاجة ذاتها إلى سعة الأفق في رد القوة المتعددة الجنسيات على أعمال حكومة الجميّل .

لم تكد طلائع القوة المتعددة الجنسيات تصل إلى بيروت لدعم الحكومة اللبنانية حتى تحول الجيش الضعيف والمكتب الثاني الذي كان يغط في نومه منذ وقت طويل إلى طغاة صغار . لقد كانوا هم أنفسهم ضباطاً ضعفاء يستولي عليهم الخوف ويتصفون بالاستكانة التي تبلغ حد الجبن . لكن عندما شعروا أن ثلاثة جيوش غربية تحميهم استأسدوا في يوم وليلة . فأخذ جنودهم يداهمون عشرات الآلاف من البيوت في بيروت الغربية ، ويصادرون الأسلحة ، ويلقون القبض على الشبان ، ويستجوبون الآلاف من المدنيين . على أنهم لم يفعلوا الشيء ذاته في بيروت الشرقية . فالإدارة الكتائبية لا تلاحق المسيحيين .

وعند فجر الثالث من تشرين الأول/ أكتوبر قام آلاف من الجنود اللبنانيين بتطويق ربع المدينة بأكملها . وأخذوا يحتجزون كل من يشتبهون في بطاقة هويته . وكان المرء يشاهد على الكورنيش خارج بيتي وخارج مكتب الأسوشيتد برس وفي شارع الحمراء والضواحي فلسطينيين مسنين وشيعة من الجنوب اللبناني وطلبة سودانيين وأكراداً وهم يُحمّلون وبعضهم معصوب العينين بقميصه في ناقلات . وقد نُقلوا إلى بيروت الشرقية لكي يستجوبهم المكتب الثاني . وحدث كل هذا بحضور وحماية القوات الفرنسية والإيطالية التابعة للقوة المتعددة الجنسيات .

وداخل الحزام الإيطالي حول شاتيلا كان العملاء اللبنانيون يقومون في ساعات الصباح الأولى وهم بثياب مدنية باحتجاز الرجال الفلسطينيين بحراسة الجنود الإيطاليين . وكانت وحدات الجيش اللبناني لا تكتفي بالتدقيق في الأوارق الثبوتية للمارة ، بل كانت تقفل مناطق بأكلمها بداخل بيروت ولا تسمح لأحد حتى من المواطنين اللبنانيين بالدخول إليها أو الخروج منها . وكانت المصارف تقفل

أياماً بطولها . لكن الناس كانوا يتحاشون القيود بدخول العمارات والخروج من الأبواب الخلفية التي لا مراقبة عليها من قبل الجنود . وكان جنود القوة المتعددة الجنسيات يشرفون على هذه العملية التي تشبه الحزازير .

وشاهدت بالقرب من نادي الحمام العسكري التابع للجيش اللبناني مظلياً فرنسياً يرقب اللبنانيين وهم يجبرون فلسطينياً والبندقية مصوبة إليه على الصعود إلى مؤخرة إحدى الشاحنات ويداه معقودتان خلف رأسه . وقال لي المظلي الفرسي :

ـ لاعلاقة لي بهذا . إن القضية سياسية . ونحن هنا من أجل رعاية الجيش اللبناني .

وأخذ المحتجز الذي كان يلبس بنطلون جينز وذقنه بلا حلاقة يتوسل من أجل إطلاق سراحه . وعندما صعدت إلى الشاحنة لأتحدث معه ، أخرج بطاقة الإقامة التي كانت مدتها قد انتهت . ووجدت أنه كان يعيش في لبنان منذ نزوحه من فلسطين عام ١٩٤٨ . وانطلقت الشاحنة وهو فيها .

وهكذا فإن القوة المتعددة الجنسيات التي كان يفترض أن تقوم بحماية الفلسطينيين الناجين من مجازر صبرا وشاتيلا كانوا يراقبون احتجازهم ونقلهم بالعنف أحياناً إلى بيروت الشرقية ليستجوبهم رجال الميليشيا التي اقترفت المجازر . ولم يستطع الإيطاليون تحمّل هذا . وعندما داهم الجنود اللبنانيون شاتيلا رفضوا السماح لهم بأخذ الفلسطينيين . فلما رفض اللبنانيون إطلاق سراح المحتجزين منهم هاجموهم بأعقاب البنادق وأجبروهم على ذلك .

كان آلاف المحتجزين يُنقلون أولاً إلى ثكنة للجيش اللبناني بالقرب من المتحف ، ثم إذا أبدى المكتب الثاني اهتماماً خاصاً بأحدهم ينقلونه إلى الأدوار السفلى من وزارة الدفاع اللبنانية القريبة من قصر الرئاسة في بعبدا . وهنا كانوا يُقيّدون ويُضربون خلال استجوابهم . وأخيراً كانت الشاحنات تنقلهم إلى خط المواجهة بين السوريين والإسرائيليين قرب صوفر ويؤمرون بالعبور إلى الجهة السورية .

وكان الأسوأ من هذا كله قوائم المحتجزين الذين اختفوا . ويعتقد الإيطاليون أن نحو مئة رجل من منطقة عملياتهم اختفوا بعد أن تم توقيفهم . لم يعودوا إلى منازلهم ولم يشاهدهم أحد بعد ذلك . ولم نستطع أن نكتشف ما إذا كان الجيش اللبناني سلّمهم لميليشيا الكتائب أو للإسرائيليين . ولا يساور جنود القوة المتعددة الجنسيات أدنى شك في أنهم قُتلوا . وقام سفراء الدول الثلاث المساهمة في الجيش الدولي بزيارة الجميّل وعبّروا عن استيائهم مما يتلقونه من تقارير عن أعمال القتل

والتعذيب . وقال دبلوماسي فرنسي بأن ما فعلوه كان «تعبيراً خفيفاً مهذباً»عن القلق للرئيس اللبناني فور عودته من الولايات المتحدة حيث تلقى وعداً شخصياً من الرئيس ريغن بدعم الحكومة اللبنانية[٣] .

وكانت نوايا الحكومة اللبنانية تجاه مخيم عين الحلوة المهدم الواقع شرق صيدا واضحة وان تكن قد عبّرت عنها بطريقة أقل عنفاً . وعندما زرنا أنا وفولي المخيم في منتصف تشرين الثاني/ نوفمبر ، غاصت عجلات سيارتي في الوحل . وانهمرت الأمطار فوق الحطام ، وحوّلت أرضه إلى طين كثيف متماسك كالطوب علق بأحذيتنا وجعل من الصعب علينا أن نسير في المجاري المتدفقة التي تقوم مقام الشوارع . وشاهدنا قناةموحلة تتدفق فيها مياه المجارير ، وتجري بحذاء جدار أسر فلسطينية أخذت ترقبنا والمطر يجدل شعر رؤوسهم ويغرق ملابسهم .

كان هؤلاء قد ذاقوا الأمرّين خلال الغزو الإسرائيلي . وسجن المئات منهم في السجن الإسرائيلي الجديد بمعسكر أنصار بسبب مشاركتهم الفعلية أو المزعومة في حركات الفدائيين الفلسطينيين[٤] . ووجدتهم مصابين بإحباط شديد . كانت هناك خمس عشرة خيمة من قماش القنب الأخضر القاتم أرض كل منها من الإسمنت المسلح تقوم على مستطيل من الحجارة المكسرة . وكانت باستثناء واحدة فقط بلا سكان . وكان من المفروض أن تؤوي اللاجئين خلال أشهر الشتاء وأن يبلغ عددها كلها ٢٥٠٠ خيمة . ولكن اللاجئين رفضوا العيش فيها .

---

(٣) جرى في الشهور التالية توقيف بعض الغربيين الذين أمروا بمغادرة لبنان . وكان بينهم المصورة الإيطالية باولا كروشياني التي تعمل لحساب مكتب الأسوشيتدبرس ببيروت مع تاترو . واتهمها الكتائبيون بإقامة علاقات صداقة مع الفلسطينيين . وقضت بعد توقيفها ليلة في السجن سمعت خلالها صرخات الألم التي كان يطلقها المحتجزون . ولم يُسمح لباولا أن تتصل بسفارتها . ونُقلت إلى مطار بيروت ووضعت على متن طائرة متوجهة إلى روما . وبعد هذا بأسابيع عديدة وبعد وصول وحدة بريطانية صغيرة عاملة في إطار القوة المتعددة الجنسيات إلى بيروت ، رفض الكتائبي المشرف على المكتب الثاني تجديد إقامتي وبطاقتي الصحفية لأن تقاريري عن الكتائب خلال حرب السنتين ـ كما زعم ـ كان «مشوهاً» . ولما قلت للمسؤولة المارونية في وزارة الاعلام أن ترحيل صحفي بريطاني قد تسيء فهمه الحكومة البريطانية التي أرسلت قبل ذلك بقليل جنوداً لدعم حكم الجميّل قالت : «هل تظن أننا بحاجة إلى مساعدة جيشكم؟ في استطاعتنا تدبير أمورنا بدونكم . لقد استعاد لبنان قوته . وليس بحاجة لأحد» . وكان ما قالته عن وحدتنا صحيحاً .

(٤) كان في أنصار بين ٤٠٠٠ و ٤٥٠٠ معتقل فلسطيني . ويقول الدكتور إسرائيل شاحاك رئيس الرابطة الاسرائيلية للحقوق المدنية والانسانية ، بأن نحو ٢٠,٠٠٠ سجين ـ ثلاثة أرباعهم من اللبنانين ـ كانوا في السجون الاسرائيلية عند نهاية عام ١٩٨٢ .
راجع تشومسكي : المثلث المشؤوم ص ٣٩١ .

كانت هذه الخيام تمثل مشكلة سياسية واجتماعية . إذ أقامتها وكالة غوث اللاجئين (الأونروا) بموافقة السلطات اللبنانية التي كانت مستعدة لحماية اللاجئين من قسوة الشتاء ، لكن بشرط أن لا تصبح منشآت دائمة . وبلغة أقل دبلوماسية نقول بأن الحكومة اللبنانية لم تكن متحمسة لإعادة بناء السقائف التي كان الفلسطينيون يعيشون فيها خصوصاً وأنها كانت تحاول إعادة إعمار لبنان للبنانيين . وكانت أيضاً لا تريد أن يشجعهم ذلك على الإقامة في لبنان بشكل دائم . والواقع أنها كانت تريد منهم أن يعودوا إلى «وطنهم» أنّى كان ذلك الوطن .

كان الفلسطينون في عين الحلوة يدركون تمام الإدراك المغزى السياسي للخيام . ولهذا قاموا بحرق أول خيمة من قماش القنب أقامتها الأونروا على ذلك المستطيل من الحجارة المكسوّة . وكان هذا في حد ذاته ينذر بعمل متهور في وقت كانت فيه أولى السحب المتلبدة تلوح فوق مياه البحر . لكن بدا وكأن سكان عين الحلوة قد وضعوا ثقتهم في الأشخاص الذين دمروا الجزء الأكبر من مخيمهم ـ في الإسرائيليين . إذ كانت الحكومة الإسرائيلية قد أعلنت أنها تود رؤية اللاجئين يسكنون بنايات حقيقية جدارنها من الإسمنت المسلح ، وحتى عرضت إرسال عشرات من أكياس الإسمنت لكل فلسطيني لامنزل له في المخيم . وكانت إحدى المنظمات اليهودية الأميركية قد تبرعت بقسم من المال اللازم للمشروع . وقام الإسرائيليون بدعاية واسعة لهذه المبادرة ، بالرغم من أنهم كانوا يدركون ما فيها من تناقضات . فكانوا يقولون إنهم يريدون العمل على استقرار لبنان وهم يعتقدون أنه كلما زاد عدد الفلسطينيين الذين يرحلون من لبنان أصبح لبنان أكثر استقراراً . لكن لم يكن بوسعهم أن يحثوا الفلسطينيين على العودة إلى وطنهم لأن ذلك يعني العودة إلى إسرائيل .

كان لا يزال للاجئين في عين الحلوة شيء يؤويهم حتى ولو أن الفجوات التي أحدثها القصف في السقوف سُدّت بألواح من البلاستك للوقاية من المطر . ووجدنا عدة مئات منهم يعيشون في سلسلة من الكراجات (ورش تصليح السيارات) والمدارس المقصوفة . ولم يرق هذا للبنانيين المحليين الذين كان بعضهم يملك أرضاً في عين الحلوة ، ويريدون استعادتها على حساب الفلسطينيين . وكانت حكومة الجميّل تدعمهم .

وفي بيروت خارج مخيم شاتيلا ، كنا نراقب الجيش اللبناني وهو يهدم عشرات السقائف الفلسطينية التي بُنيت ـ كما قال اللبنانيون ـ بصورة غير قانونية خارج المخيم . واستخدمت السلطات اللبنانية الجرافات لإزالتها . أما داخل المخيم الذي لم تُبنَ فيه سوى مبانٍ قليلة جداً فقد كان الكتائبيون قد نسفوها بالديناميت وهدموا بعضها فوق كثرة من الجثث . وبالرغم من هذا وقفت القوة المتعدددة الجنسيات موقف المتفرج .

وفي مساء أحد الأيام داهم الجيش اللبناني مستشفى غزة في بيروت الغربية ونهب الأدوية والمواد الطبية التي كان قد تبرع بها الإيطاليون ،ونقلها جنودهم .

في أعقاب انتخابه وضع بشير الجميّل خطة لإخراج الفلسطينيين من لبنان معتقداً أن بامكانه ترحيل ربع مليون منهم . وناقش هذه المقترحات مع المسؤولين في وزارة الخارجية اللبنانية . وحتى الآن وبعد وفاته بأكثر من شهر لا تزال قوائم المفقودين والمبعدين ومن قُبض عليهم ومن جرى استجوابهم تعكس صورة مخيفة للبنان كما أراده . وحاول أمين الجميّل أن يكمل ما فعل أخوه ، ولو قُدّر له أن ينجح في ذلك لحول لبنان إلى دكتاتورية صغيرة متوحشة .

غير أن الكتائب أساءت إلى نفسها على نحو لم يبق معه أمل فيها . فالجيش (الإسرائيلي) الذي أوصلها إلى السلطة وجد نفسه يقطف ثمار غزوه المسمومة . إذ صار كل يوم يتعرض للهجوم عليه عند غاليري سمعان وعلى طريق صيدا القديمة قبالة المارينز ، وعلى طريق الجنوب الساحلي ، وفي القرى والمدن التي اقتحمها واحتلها في حزيران/ يونيو . ونصب مقاتلو الشيعة كميناً لدورية إسرائيلية من المشاة عند أطراف بيروت الشرقية أسفر عن مقتل جنديين . ولم يؤكد الإسرائيليون الخبر فور وقوعه . لكنني وصلت إلى غاليري سمعان في الوقت المناسب ،ورأيت أرجل إسرائيليين ميتين تتدليان من خلف ناقلة جند مدرعة . وبينما كانت شهرزاد فارمارازي التي تعمل بالأسوشيتد برس قادمة بسيارتها من صيدا ، انفجرت قنبلة قرب دورية إسرائيلية . وكانت هي قد وصلت إلى مكان الانفجار ، فنجت بأعجوبة . وأسفر الحادث عن إصابة مدنيين من أسرة واحدة . ورأت فارمارازي الأب على جانب الطريق يبكي والدم ينزف منه .

وعلى الجبل في عاليه قام مسلحون يرجّح أنهم من الفلسطينيين بإطلاق النار على باص إسرائيلي يقلّ جنوداً إلى بيروت من أسلحتهم الأوتوماتيكية فقتلوا ستة إسرائيليين وجرحوا اثنين وعشرين آخرين . والواقع أن ثقة الإسرائيليين الكبيرة بقوتهم العسكرية كانت كبيرة إلى حد أنهم لم يتنبهوا لخطر الهجوم عليهم داخل المنطقة التي يحتلونها . ولما وصلنا إلى مكان الحادث ، اكتشفنا أن الإسرائيليين كانوا قد وضعوا بنادقهم تحت مقاعدهم ، ولكنهم لم يتمكنوا من إطلاق رصاصة واحدة على مهاجميهم .

كانت ثقة الإسرائيليين بأنفسهم وهم في لبنان تفوق كل حد . إذ أقاموا جهاز إرسال بالقرب من منطقة عاليه لنقل برامج التلفزيون الإسرائيلي إلى بيروت . وفتحوا كذلك فروعاً متنقلة لبنك لومي الإسرائيلي في منطقة الشوف وفي بيروت الشرقية وذلك لتبديل العملة اللبنانية بالشاقل الإسرائيلي

لمن يرغب في ذلك من اللبنانيين . وفي صيدا تمكنوا من إقناع وكيل سفر لبناني بأن يكون وكيلاً أيضاً لطائرات العال الإسرائيلية .

وعندما زعزعت هجمات المقاتلين هذا الهدوء ، عمد الإسرائيليون إلى الرد عليها بوحشية . فانتقموا لكمين عاليه بغارة جوية على بطارية صواريخ سورية منصوبة على منحدرات ظهر البيدر . وفي أعقاب كمين آخر نُصب لهم على طريق صيدا القديمة ، أحضروا دبابة ميركافا من خلدة ، وقصفوا المبنى الذي زعموا أن الرصاص انطلق منه . وانفجرت أول رشقة من القذائف في مطبخ أحد المنازل وقطعت رأس والدة عقيد في الجيش اللبناني . ومن الطريق ذاتها أطلقت دوريات المشاة الإسرائيليين النار على المنازل والغابات والأشجار حولهم مما أدى إلى قتل وجرح عدد من ربات البيوت والمزارعين وقاطفي الفواكه . وكادت رشقات رصاصهم أن تصيب مراكز المارينز مما جعل الكولونيل ميد يقدم سلسلة من الشكاوى الرسمية . وأعلن أمامنا «أن أساليبهم القتالية غير فعالة ولا يتبعها المحترفون» . وأضاف قائلاً لنا بصورة خاصة : «يظن الإسرائيليون أنهم على جانب كبير من المهارة ، ولكنهم جيش من الدرجة الرابعة يقاتلون جيشاً من الدرجة السابعة» .

على أنه كان من الواضح أن جيش الدرجة السابعة ـ سواء أكان مؤلفاً من المسلمين اللبنانيين أم من الفلسطينيين ـ أخد يتحدى الإسرائيليين . وتجلت آثار هذا التحدي بوضوح في أعمدة الصحف الإسرائيلية التي لم تعد تشير إلى لبنان بوصفه بلداً يجري تحريره ، أو بلداً سيصبح حليفاً في المستقبل ، بل كمستنقع ومكان بلا مبدأ وناكر للجميل . فأخذت افتتاحيات الصحف الإسرائيلية تشكو من أن الكتائب حمّلت الإسرائيليين عبء القتال حول بيروت . وأشارت إلى أن الكتائب لطخت سمعة إسرائيل باقترافها مجازر صبرا وشاتيلا ، وإلى أن اللبنانيين الشيعة الذين رحبوا بالإسرائيليين ترحيباً صادقاً في جنوب البلاد يساعدون «الإرهابيين» على مهاجمة الجنود الإسرائيليين . وقالت بأن اللبنانيين يشعرون بالخوف من سوريا . والغريب أنها أضافت أن الجنود الإسرائيليين يقومون بأعمال «الشرطة» في لبنان ويحولون دون قتل الدروز والمسيحيين بعضهم بعضاً .

ونادراً ما لام الإسرائيليون أنفسهم في هذه الفترة المبكرة من احتلالهم للبنان على المأزق الذي وجدوا أنفسهم فيه . فأخذوا يعلنون في المؤتمرات الصحفية وفي بياناتهم أنهم يقومون بدور رجال الشرطة وحتى بدور «المحافظين على السلام» في منطقة الشوف . وعليه فقد صار من المفروض أن يكون في لبنان جماعتان تقومان بالمحافظة على السلام ،وهما القوة المتعددة الجنسيات في بيروت ، والإسرائيليون في الشوف . ورفض المسلمون اللبنانيون تحديد الوضع على تلك الصورة رغم أن وجود الإسرائيليين إلى جانب القوة كان خطراً عليها .

ووقع الزلزال الأول الذي ضرب الإسرائيليين في مدينة صور التي استولوا عليها خلال الأيام الأولى للغزو ، وأقاموا مقرهم في مبنى يتألف من ثمانية أدوار ، ويقع إلى الشمال تماماً من تقاطع الطريق الرئيسي مع طريق الميناء . وكان المبنى كالمباني الأخرى التي انهارت على رؤوس من فيها ، ويضم غرف عمليات ، ومساكن للجنود ووحدة من رجال المخابرات (شين ـ بت) بالإضافة إلى عدد من المساجين اللبنانيين والفلسطينيين الذين كانوا ينتظرون استجوابهم . وفي ١١ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٨٢ دوّى انفجار هائل قوّض المبنى وأسقطه على الأرض في أقل من عشر ثوان .

وكانت محطات الاذاعات اللبنانية أول من أورد نبأ قتل الإسرائيليين في صور . وبعد أن ذكر فاروق نصار ما أذاعه صوت لبنان الكتائبي عن الحادث ، دقت أجراس جهاز الأسوشيتد برس اللاسلكي في مكتبها ببيروت . ولم تكن أجراس الطوارىء تلك قد سُمعت ببيروت منذ عدة أسابيع . وكانت الرسالة الأولى من تل أبيب ، واشتملت على تقرير من فقرة واحدة عن الانفجار وأشارت إلى وقوع إصابات .

في تلك الأثناء عادت إلى لبنان كريستينا جويلسن التي سبق لها أن كانت في بيروت خلال الحصار وراسلت صحيفة فنلندية . فتوجهت معها إلى الجنوب . وقطعنا الخطوط الإسرائيلية عند خلدة . لكن الشرطة العسكرية الإسرائيلية أوقفتنا خارج مصفاة الزهراني إلى الجنوب من صيدا . وأبلغنا الإسرائيليون بأنه لا يُسمح بالتوجه إلى صور لأن جميع الطرق المؤدية إليها مقفلة . وكان رجال الشرطة مهذبين ، ولكن أثر الصدمة كان بادياً عليهم . وقال أحدهم : «لا نعرف عدد الذين ماتوا . الأمر سيء جداً» .

وسرنا شرقاً باتجاه بلدة النبطية . وظننت أنا وجويلسن أننا لو سلكنا الطريق الملتوية عبر وادي الليطاني أسفل النبطية ثم قطعنا خطوط قوات الطوارىء عند الجهة الثانية للنهر ، فقد نتمكن من دخول صور من شرقها . وفي هذه الحالة سيعتبرنا الإسرائيليون مزارعين محليين أو أصحاب مخازن بيوتهم في صور فيسمحون بمرورنا تجنباً لعرقلة السير . وكانت قد تمركزت قبل ذلك بوقت قصير وحدة فنلندية من القوات التابعة للأمم المتحدة عند جسر قعقعية الجسر فوق الليطاني . لكن ميليشيا الرائد حداد أقامت مركز تفتيش لها على بعد ٢٠ ياردة شمالي الجسر . وكان الفتيان المسلحون يرمقوننا بنظرات ملؤها الشك . فسأل أحدهم :

ـ إلى أين تذهبون؟ أجبنا :

ـ إلى قوات الأمم المتحدة . قال :

ـ هل معكم سيجارة؟ وعندما ناولته سيجاراً ، قال :

ـ حبيببي . حظاً سعيداً . وعندئذ لوّح لنا الفنلنديون .

وأقبل الظلام وأخذت السيارة ترتطم بحافات حُفَر في الطريق عرض الواحدة قدمان . وسمعنا الإسرائيليين على الراديو يتحدثون عن إصابات كثيرة في مقرهم . وأعلنوا عن ثلاث دقائق صمت حزناً على الضحايا . وعمّ إسرائيل الحداد . وتوقفت سيارة جيب إسرائيلية على مسافة عشرة أميال من الليطاني عند تقاطع طرق . وصوّب جندي بندقيته مشيراً إلى الطريق على يساره . وكان سلوك الطريق الفرعي الذي أشار إليه يعني قطع مسافة عشرين ميلاً أخرى قبل أن نصل إلى صور . ورأينا نقطة تفتيش فنلندية أخرى . وقال لنا ضابط من قوات الأمم المتحدة كان يقف بالقرب من آلية مدرعة : «إن الإسرائيليين لا يسلكون هذه الطريق ، تابعوا سيركم . أظن أنكم ستنجحون» .

كانت الأنوار قد أطفئت في صور . ورأينا الإسرائيليين في مداخل البنايات المظلمة ونحن نتسلل بالسيارة ببطء إلى داخل المدينة . وكنا قد أطفأنا أنوار السيارة الأمامية وأبقينا على الأنوار الداخلية لكي يعرف الجنود الإسرائيليون بأننا مدنيون .

وتوجهنا مباشرة إلى المبنى المدمر . وكان الذعر الذي استولى على الإسرائيليين قد أفقدهم كل شعور بالأمان . وفي اللحظة التي نزلنا فيها من السيارة غمرتنا سحب بيضاء من الغبار . وكان المبنى الذي انسحق بفعل الانفجار يبدو كأنه مَسْرح مهيأ لتمثيلية . وكان الإسرائيليون يقفون وقد استولى عليهم الذهول وصدمهم الحادث . وقاموا بسحب ٧٥ من رجالهم من بين الأنقاض بينهم عدد كبير من رجال الشين بت . وكانوا جميعاً قد قضوا نحبهم . كما أنهم سحبوا من بين أطنان من الإسمنت جثث ١٥ من المساجين اللبنانيين والفلسطينيين .

كان كثرة من الإسرائيليين يحملقون في كتل الإسمنت الكبيرة التي قتلت أصدقاءهم وزملاءهم وهم غارقون في صمتهم . وظننت أنهم سيوقفوننا . لكن لم يقل أحد منهم شيئاً لنا . فقالت جويلسن : «لم نر ما فيه الكفاية» وتبعتها إلى الجهة الأخرى من الطريق ، فمررنا بخيمة على أرضها خرائط ، وفيها ضابطان كل منهما برتبة جنرال . وكانا يتحدثان ووراءهما مستودع كبير ينبعث الضوء من أسفل بابه .

دفعنا الباب برفق . ورأينا جثث الإسرائيليين ممدة على الأرض في أكياس بيضاء طويلة برّاقة . وبدت هذه الجثث تحت الأنوار غير حقيقية ، كما لو أن الموت غائب عن البناية ، حتى وصل حاخام

ببذلته السوداء إلى المبنى وأخذ يردد الصلوات والأدعية . وكانت الجثث مسجاة في صفوف وكأنها تستقبل الموت ، وكان من الصعب عليّ تصديق ما أرى . فقد كان الإسرائيليون يبدون أقوياء لا يقهرون ومحصنين ضد المكاره . وما لبث أن دخل الجنود لنقل الجثث والدهشة لا تزال على وجوههم وتعقد ألسنتهم . وحملق ثلاثة منهم في أرجاء المبنى . وبدا كأنهم ينتظرون تفسيراً لما حدث من الأموات . وتحركت سحب الغبار رويداً رويداً فوق المصابيح .

أخذنا نراقبهم وهم يبذلون جهداً كبيراً لرفع أحد الأكياس البيضاء لوضعها على النقالة . ووجدوا صعوبة في رفعه وكأنه يرفض الاستسلام للموت . وكان يقف خارج المبنى ضابط إسرائيلي ترك التعب بصماته على وجهه وبلله العرق . وكان يتكئ على سيارة جيب . قال وهو يشير إلى كتلة من الإسمنت طولها ثلاثة أقدام ونتأت أسلاكها بكل اتجاه وكأن الجنون أصابها :

ـ هل ترى الإسمنت هناك؟ تلك كانت دعامة المبنى الرئيسية . لم يترك الانفجار فرصة لمن فيه .

إن مثل هذه الأحداث يلهب العواطف . وبدا هذا في جدل مرعب كان يجري بجانب المستودع الذي وضعت فيه الجثث . وكانت خارج الأبواب سيارة إسعاف تحمل نقالتين عليهما فلسطينيان يتلويان من الألم . وكانا قد وجدا بين الأنقاض ونقلا إلى مستشفى بصور ، ولكن الصليب الأحمر الدولي أحضرهما لنقلهما إلى إسرائيل للمعالجة . وقال الإسرائيليون إنهم على استعداد للعناية بهما ، ولكنهم أصروا على استخدام الطوافات لنقل الجثث وحدها إلى موطنها .

سألت أحد الفلسطينيين عن اسمه ، ولكنه لم يستطع أن يفتح شفتيه أكثر من جزء من الإنش . وكانت عظامه مكسرة ، والدم ينز من فمه . وذكر الصليب الأحمر أن ثلاثة من الفلسطينيين الذين ماتوا وجدوا وأيديهم مقيدة بسلاسل حديدية .

وكان إلى جانب سيارة الإسعاف مسؤول سويسري في الصليب الأحمر يناشد ضابطاً إسرائيلياً شاباً بقوله :

ـ أعرف شعورك . وأعرف أن هؤلاء هم أمواتكم وأنكم تريدون نقلهم إلى الوطن . ولكن اسمح لي أن أقول إن هؤلاء ماتوا ، ولكن هذين الفلسطينيين جريحان ولا نستطيع نقل كسيحين بالسيارة إلى إسرائيل . أرجوك أن تسمح لنا بنقلهما على طوافتكم» .

ورفض الإسرائيلي بشدة وقال :

ـ أوافقك مئة بالمئة . لكن مسؤولينا اتخذوا قرارهم وسننقل الجثث على متن الطوافة . آسف جداً .

وبعد بضع دقائق ، قام الحاخام وثلاثة جنود بنقل أولى الجثث إلى داخل الطوافة ، وانطلقت سيارة الإسعاف على الطريق خارج المستودع بينما كان الفلسطينيان داخلها مشدودين إلى نقالتيهما من أجل سلامتهما . وهز المسؤول بالصليب الأحمر كتفيه وقال :

ـ أخذ الإسرائيليون معهم جريحاً فلسطينياً آخر لمعالجته في مستشفياتهم وقبلوا جميع توصياتي . ولا أستطيع أن أفعل شيئاً آخر .

وكان قد انضم إلى الجنرالين ضباط صغار ، وعُلّقت الخرائط على أحد الجدران . وهكذا ظهرت معالم مقر جديد وسط الغبار . ولكن ما الذي سبب هذه المجزرة؟ أعلنت الحكومة الإسرائيلية أنه قد يكون تسرب الغاز بالرغم من أنه لا يوجد في لبنان شبكة من أنابيب الغاز بل قناني غاز . وشك الجنود الإسرائيليون في صحة هذا التفسير . وكان قد أرسل إلى إسرائيل محرك سيارة وبقايا ثياب من أجل التحقيقات الجنائية . فإذا كان المبنى قد تهدم بفعل المتفجرات فلا بد أن يكون السائق قد مات أيضاً . فهل كانت عملية انتحارية؟ لقد استبعد الإسرائيليون هذا تماماً .

وكان على الطريق الرئيسية إلى جانب شاحنة للاتصالات بالراديو ، إسرائيلي طويل ، على عينيه نظارتان وعلى وجهه علائم اللطف والتأمل . وكان متعباً إلى حد يمنعه من الكلام . ترى هل كان يعتقد أن أعداء إسرائيل هم الذين هاجموا المبنى؟ وهل كانت صور لا تزال مكاناً آمناً للإسرائيليين؟ نظر الجندي إلى الشمال حيث أخذت الطريق الرئيسية تختفي في الظلام . وقال :

ـ قد يكون هناك فلسطينيون . لا أعرف عدد من تبقى من الإرهابيين . ولا أحد في الحقيقة يعرف ذلك .

وبدا أن الثقة بالنفس التي كان الإسرائيليون يبدونها عندما يحيّون الغرباء قد تلاشت .

لم تكن هناك سيارات على الطريق التي تتجه إلى الشمال بين بساتين البرتقال ، ولم يظهر أحد قبل وصولنا إلى جسر نهر الليطاني . وكانت على الطريق الرئيسية وراء ضفة النهر الأخرى قافلة تابعة للجيش الإسرائيلي ، فأضأنا الأنوار الأمامية وهم يقفون ويحدقون باهتمام وبنادقهم بأيديهم تحسباً لأي عدوان ضدّ وجودهم .

وأما في بيروت ، فقد اعتبرت مجزرة الجنوب هذه سبباً آخر يدعو إلى عدم قيام القوة المتعددة الجنسيات بتوسيع رقعة عملياتها . وكانت واشنطن قد طلبت من المارينز القيام بأعمال الاستطلاع في منطقة صيدا تمهيداً لتحرك القوة المتعددة الجنسيات جنوباً حالما يتأهب الإسرائيليون للانسحاب . وتوجه الكولونيل ميد يرافقه ضباط من الجيش اللبناني إلى صيدا وشاهد الفوضى والخراب ، وحطام عين الحلوة ، ودوريات المشاة الإسرائيليين وهم يسيرون في الشوارع ، وقد استولى عليهم الخوف . وعاد إلى بيروت ولكن بعد أن اتخذ قراره . فأبلغ واشنطن أنه ينبغي عدم إرسال القوات المتعددة الجنسيات إلى الجنوب مهما كانت الظروف ، وأن المارينز آمنون في بيروت وسيبقون فيها .

ولم يقع سوى حادث واحد يدل على أن للأميركيين أعداء في بيروت . ففي ١١ تشرين الثاني/ نوفمبر ، وهو اليوم ذاته الذي نُسف فيه المقر الإسرائيلي في صور ، جُرحت يد أحد المارينز عندما انفجرت سيارة بالقرب من موقعه على الجهة الغربية من المطار . فالمتفجرات التي كانت مخبأة تحت المقعد الخلفي لسيار فولسفاكن ذهبية اللون ، تمّ تفجيرها بواسطة ساعة يد ، فتطايرت شظاياها فوق رؤوس المارينز ، مما دفعهم على الفور إلى أخذ الحيطة وتجهيز بنادقهم .

وكانت التعليمات الصادرة إليهم تقضي بأن تكون بنادقهم معبأة . وكان اللبنانيون يعرفون ذلك . وحارت الصحافة اللبنانية في معرفة الجناة ، فلم تترك ميليشيا واحدة في لبنان إلا واشتبهت فيها . على أن الشيء الذي بات مؤكداً هو أن للقوة المتعددة الجنسيات أعداء في لبنان(٥) .

واستمر الحلم . وكان الفرنسيون ينزعون الألغام والقنابل والقذائف غير المنفجرة من الطرقات الفرعية الممتدة أميالاً بين شطري بيروت الغربي والشرقي ، ويجرفون آلاف الأطنان من التراب والإسمنت . وكشفت بيروت عن أنيابها ، فللمرة الأولى منذ زيارتي الأولى لبيروت عام ١٩٧٢ ، استطعت أن أسوق سيارتي من المتحف إلى غاليري سمعان على الطريق المباشرة التي تمر في مدينة أشباح ملأى بالمباني والمكاتب والمصانع ومحطات الوقود والمتاجر المهدمة التي لم يعش ولم يعمل فيها إنسان منذ سبع سنوات . ووجدت في أحد المكاتب المهدمة هاتفاً على طاولة وسماعته مدلاة بسلك معدني علاه الصدأ . ولا بد أن صاحب هذا الهاتف قد أفلت السماعة من يده عندما فرّ

(٥) تكبدت القوة الأميركية أولى خسائرها في ٣٠ أيلول/ سبتمبر عندما وجد أحد رجال المارينز وهو يقوم بإزالة الألغام قنبلة عنقودية إسرائيلية كانت قد سقطت قرب المطار ولم تنفجر . ولم يعلن الأميركيون أن القنبلة كانت من المعدات الحربية الإسرائيلية . ولكنهم سمحوا لنا برؤية الكيس المعدني المثلث المثقوب الذي قتل رجل المارينز ، وذكروا أن القنبلة قد أسقطت في الأصل من الجو . ولم يسقط القنابل من الجو إلا

مذعوراً في عام ١٩٧٥ . وأخذنا ، كزوار حُطام التيتانك ، نعود بذاكرتنا إلى الماضي بمزيج من الافتتان والاحترام . فالذي كان أمامنا هو الخرائب الأولى للحرب اللبنانية . ولم ندرك حتى عندئذ ما لتلك الأطلال من أهمية في معرفة هوية بيروت .

كان أمين الجميّل في تلك الأثناء يستعرض وحدات من القوة المتعددة الجنسيات ويعلن أنه لم تعد هناك بيروت شرقية وبيروت غربية بل بيروت واحدة . ولم يكن هذا صحيحاً . فالجميّل كان يريد أن يراه الناس أمام أعلام الجيش الدولي . وكانت النجوم والأشرطة والألوان المثلثة الفرنسية والإيطالية تؤدي التحية له ، وفرقة موسيقى الجيش تعزف الأناشيد الوطنية الثلاثة لدول القوة المتعددة الجنسيات ملتزمة اللحن دون الإيقاع . ولم تكن نقطة تفتيش الكتائب بعيدة عن المكان . فقد كان الإسرائيليون قد تركوا للجميّل عاصمة يميل فيها الميزان العسكري إلى جانب الموارنة المسيحيين بحيث أصبحت الكتائب الميليشيا الوحيدة القادرة على السير على الأقل في شوارع الشرقية . ولم يكن في وسع الرئيس أن يقضي على القوة التي كان لا يزال هو نفسه منتمياً إليها . وكانت الأرزة المثلثة رمز الكتائب لا تزال معلقة في شوارع بيروت المسيحية ، وهذا هو السبب في أن العبور من بيروت الغربية إلى بيروت الشرقية كان بمثابة العبور من مدينة إلى أخرى .

وفي حين أن الجيش اللبناني قام بجمع السلاح من بيوت جميع الأسر الإسلامية تقريباً في بيروت الغربية ، فإنه لم يصادر بندقية واحدة في بيروت الشرقية . وهكذا أصبحت بيروت الغربية مجردة من السلاح وبقيت بيروت الشرقية معسكراً مسلحاً . وكنا قد أدركنا منذ شهر أيلول/ سبتمبر أن هذا الاختلال في توازن القوى قد يؤدي إلى كارثة . وعندما انسحبت إسرائيل من بيروت الشرقية وتركتها تحت سيطرة الكتائب ، أصبح وضع الجيش الدولي محفوفاً بالشكوك . وكانت الأوامر قد صدرت للمارينز بمساعدة الجيش اللبناني على توقيف المسلحين في بيروت الغربية . أما في بيروت الشرقية فكانت القوات الأميركية والفرنسية تمر بنقاط تفتيش الكتائبيين ولا تقوم بأي حركة لمصادرة سلاح الميليشيا .

و قلت في تقريري الذي أرسلته إلى التايمز في أيلول/ سبتمبر ذاك أنه من الصعب أن لا يشتبه الإنسان في أن إسرائيل هي التي أوقعت الجيش الدولي في ذلك المأزق . وتذهب إحدى النظريات في تفسير ذلك إلى أن إسرائيل كانت قد فقدت الكثير من الاحترام الدولي لها ، فاستدرجت ذلك الجيش إلى شرك نصبته له لكي تنال الدول الغربية نصيبها من العار الذي لحق بإسرائيل .

واستمر البحث عن الأسلحة في بيروت الغربية أسابيع طويلة . على أني كنت عندما أسوق سيارتي في منطقة الفاكهاني ، حيث كان مقر عرفات ، أشاهد صفوفاً من المدافع المتحركة المضادة

للطائرات في الشوارع ، وأكداساً من قاذفات الصواريخ والقذائف المدفعية على الأرصفة . أما الاكتشاف المذهل فكان تحت المخيمات الفلسطينية . إذ وجد الجيش اللبناني بمساعدة القوات الفرنسية والإيطالية سرداباً تتفرع منه أنفاق جدرانها من الإسمنت وتمتد مسافة أربعة أميال تحت المخيمات ، وكان بعضها مليئاً بالصواريخ ومدافع الهاون وذخائر الأسلحة الصغيرة الحجم . وسرت مع الجنود الإيطاليين في نفق منها فإذا به يمتد عل طول المخيم وعلوه ثمانية أقدام وعرضه ستة . وكانت فيه سلسلة من الغرف جدرانها من الإسمنت وفيها صناديق صواريخ الغراد ذات المرحلتين ، وذخائر حربية على أكثرها علامات روسية وتشيكية وبولندية ، ومئات من كتب التعليمات بالإنجليزية والروسية . وكانت على جوانب بعض الأنفاق غرف مليئة بألبسة التمويه والأحزمة والقبعات والكوفيات والأوشحة والكتب .

تبيّن من هذه الأنفاق أن منظمة التحرير الفلسطينية كانت تستطيع تخزين كميات ضخمة من الذخيرة في مأمن من أشد الغارات الإسرائيلية على المخيمات . كما تبيّن أنه كان لدى منظمة التحرير في الأيام الأخيرة لحصار بيروت ذخيرة أكبر بكثير مما تصوره أي شخص في تلك الفترة . وكان طول أحد الأنفاق المليئة بالقنابل وقذائف الهاون ثلاثمئة ياردة . واضطر الإيطاليون المختصون بنزع فتائل المتفجرات إلى عدم قطعه كله لأنه كان يمتد أيضاً تحت منطقة الوحدة الفرنسية . ونزل الفرنسيون بدورهم إلى هذا القسم ليطلعوا على ما فيه . ولم يتمكن الإسرائيليون خلال احتلالهم لبيروت الغربية من اكتشاف أي من تلك الأنفاق .

كان خلفاء إسرائيل الكتائبيون اللبنانين الوحيدين الذين استفادوا من عودة الحكومة إلى بسط سلطتها على بيروت الغربية . وظل بشير الجميّل زعيمهم بالرغم من اغتياله . وبقي بينهم بالرغم من موته . وادعى الموارنة في بيروت الشرقية أنه بعد العثور على بشير وسط أنقاض مقر حزبه في ١٤ أيلول/ سبتمبر قام ودخل سيارة إسعاف . ولم يكن هذا سوى كلام فارغ فالقنبلة التي إنفجرت بجانبه سحقته وشوهته إلى حد أن امرأته صولانج لم تستطع التعرف على جثته إلا بواسطة خاتم الزواج . ومع هذا فقصة قيامه بقيت حية . فبشير لم يقم من حطام المبنى فحسب ، بل صعد بنفسه إلى سيارة إسعاف على بابها الرقم ٩٠ . لكن بالرغم من أنه لم يكن للسلطات في بيروت سيارة تحمل هذا الرقم ، فإن الاسطورة أخذت تكبر . فقالوا أن بشيراً لم يمت يوم ١٤ أيلول/ سبتمبر ، بل اختفى مؤقتاً ليعود كالملك آرثر عندما يكون لبنان في أشد الحاجة إليه ، ويحرره من ظالميه . ورسخت هذه الأسطورة في نفوس الذين لا يعترفون بالواقع . وسارعت زعامة الكتائب إل تبني الأسطورة .

وفي اليوم الأربعين الذي تلا وفاته أقام الكتائبيون حفلة تأبين له . فكانت حفلة حزن وتقمص .

ولم يُلق فادي أفرام قائد الميليشيا الجديد الشاحب أية كلمة في الحضور ، لكنه رثا الزعيم بكلمة غريبة مزعجة . إذ نظر إلى حيث كان قبر الزعيم وخاطبه قائلاً :

ـ لا يمكن لأحد أن يصدق أن غيابك يعني موتك أو أن موتك نهائي . إننا ننتظر عودتك كل صباح ومساء . وقبل أن نتخذ أي قرار . . . نتوجه بنظرنا إلى مكتبك لعلنا نرى الشعلة مضيئة . لأننا عندما نرى الغرفة مظلمة نقول : «لم يرجع الزعيم بعد» .

لم يكن رجال الميليشيا هم الوحيدين الذين أبّنوه . فالأب بولس نعمان رئيس الرهبانيات المارونية رأى في موت بشير استشهاداً الهياً فقال :

ـ وكما فعل المسيح ، وبفهم كامل لمهمته المسيحية ، ضحى بشير بكل شيء . . . من أجل جميع اللبنانيين ، إذن فالإله حي .

ولم تكن تمضي خمس عشرة دقيقة على بدء القداس حتى مرت فوق بيروت الشرقية طائرتان مقاتلتان إسرائيليتان من نوع كفير . ورفع الكتائبيون رؤوسهم وأخذوا ينظرون إليها . وقال لنا أحد رجال الميليشيا :

ـ يريد الإسرائيليون أن يذكّرونا بأنهم نصبّوا الشيخ بشير ملكاً .

وعادت الطائرتان مرتين . وهكذا كرر الإسرائيليون ما فعلوه أثناء تشييع الجميّل قبل ذلك بأربعين يوماً .

لكن من الذي قتل بشير الجميّل؟ حاول الكتائبيون معرفة المجرمين ، وقبضوا على شاب بائس المنظر ادعت إذاعة الكتائب أنه قام بقتل زعيمهم بناء على أوامر سورية . لكن بعد أن حمّل الإسرائيليون الكتائب مسؤولية اقتراف المجازر في صبرا وشاتيلا قال الكتائبيون بأنه يحتمل أن تكون إسرائيل هي التي اغتالت زعيمهم بعد أن رفض الرضوخ لما طلبته ، وهو عقد معاهدة سلام معها . ولم يُعدم الكتائبيون الشاب الذي اتهموه بقتل زعيمهم . فهل كانوا يستطيعون إعدام متهم بقتل شخص لم يمت؟

كان شتاء بيروت في ذلك العام غريباً وفي معزل عن معاناة باقي لبنان وفوضاه . إذ أصرت الحكومة اللبنانية على أن مسألة استعادة السيادة على جميع الأراضي اللبنانية ـ على ما مساحته ١٠٤٥٢ كيلو متر مربع مسألة وقت كما كان بشير الجميّل يردد دائماً . وظهرت القمصان من نوع

«التي شيرت» التي تحمل الرقم السحري ١٠٤٥٢ في متاجر الحمراء . وكنا نستطيع شراء «الجيروزاليم بوست» وجريدة «البعث» من أرصفة بيروت . وكنت أشاهد خارج منزلي شاحنات المارينز التي تحمل النجوم والأشرطة خارجة من الميناء وهي محملة بالمؤن والذخائر ، بينما كانت سفن الأسطول السادس تتراءى في الأفق على طول الساحل اللبناني .

وأخذ الوجود الأميركي في لبنان يعيد المستثمرين إليه . وأخذت الأموال تتدفق على بيروت مرة أخرى . وعاد سعر صرف الليرة اللبنانية الذي وصل إلى ست ليرات مقابل الدولار إلى ثلاث ليرات . وأخذ المهاجرون يستثمرون المال في مخازنهم ومتاجرهم المهدمة . وعمد أحد الرسامين الألمان في شارع اللنبي إلى تسجيل مناظر الخراب في لوحات زيتية قبل أن تزال تمهيداً لبناء بيروت الجديدة .

وكنت أخرج ليلاً حتى في الأيام التي كانت عندئذ تعرف «بالأيام السوداء» . وصار من السهل الذهاب بالسيارة بدون أن أمر بثلاث نقاط تفتيش تابعة للميليشيات إلى مطعم «الغرنييه» ، وهو نزل قديم ذو سقوف خشبية عالية ومصابيح قديمة ومقاعد واطئة . وكان عندئذ معروفاً بمقبلاته العربية الكثيرة المتنوعة . وتشجع الناس على الخروج ليلاً إلى حد أن المطعم صار يعج بزبائنه ، وصار الذهاب إليه يتطلب حجزاً مسبقاً قبل يومين . أما في «الأيام السوداء» فكان الزبون الذي يتردد عليه بانتظام لا يحتاج إلى مثل هذا الحجز المسبق . ووعدت وزارة البريد والبرق والهاتف بتركيب خطوط جديدة للتلفون . وبدأت إحدى الشركات الألمانية بمّد أنابيب مياه جديدة في بيروت الغربية .

وغُرست أشجار نخل جديدة على كورنيش البحر وأعيد تزفيت الطرقات . وتبرع المحسن الكبير السعودي اللبناني المولد رفيق الحريري بملايين الدولارات لتنظيف شوارع العاصمة . واستخدم لهذا الغرض أربعين شاحنة ، ومئة جرافة و١٣٠٠ عامل . وتكوّن من الركام الذي ألقوه إلى جانب الميناء جبل كريه الرائحة زحف على الماء وغمر المياه بغشاء من الأوساخ فريد من نوعه .

وأخذت بيروت المدوّلة تستقبل وزراء الدول والبعثات الدبلوماسية ورجال الأعمال . وقامت الأميرة آن بزيارة عيادة طبية وسط حطام برج البراجنة ، وصافحت الطالبات الشيعيات تحت صور الإمام موسى الصدر . كما تحدثت مع الأطفال الفلسطينيين مع أنها أحدثت بذلك اضطراباً في السفارة البريطانية في بيروت التي كانت تخشى الاساءة إلى حكم أمين الجميّل . ووصل السفير ديفيد رويرتس ليلة الزيارة الملكية إلى فندق الكومودور وهو يتفجر غضباً على الصحفيين الذين اقترحوا على الأميرة الاجتماع بالفلسطينيين ، وذلك لأن هؤلاء لم يعودوا قضية الساعة في لبنان .

وأسدل الستار لا شعورياً على المجازر التي أعادت القوة المتعددة الجنسيات إلى بيروت . وحل

محل قضية حماية الفلسطينيين هدف سياسي استراتيجي وهو انسحاب جميع الجيوش الأجنبية من لبنان ، وإعادة بسط السيادة اللبنانية ، والتدويل ، وإضفاء الطابع الغربي على لبنان . وكانت نتائج الغزو لا تزال ظاهرة لمن يريد رؤيتها . كما أنه كان من الممكن للمرء أن يلمس وراء النمو الاقتصادي الجديد وتفاؤل بيروت الصاخب أهوالاً لا نهاية لها .

اصطحبت زائراً أجنبياً إلى مخيم شاتيلا في أواخر شهر تشرين الثاني/ نوفمبر . وكانت الزهور المربوطة بالأشرطة السوداء تتمايل على قبر جماعي بسبب رشقات المطر . وعندما عبرنا زقاقاً موحلاً باتجاه جدار الإعدام الذي وجدنا أنا وجنكنز وتفايت كومة الجثث أمامه في شهر أيلول/ سبتمبر ، ركضت نحونا فتاة فلسطينية ترتدي ثياباً سوداء وعلى شفتيها مع ذلك ابتسامة ، وقالت :

ـ صوروني . صوروني .

ثم أشارت إلينا بأن نتبعها . وعبرت الزقاق كالجنية وهي تعرج بسبب جرح كان قدأ أصابها خلال غارات الصيف الجوية ، وتصيح مبتهجة لدى رؤية زوار أجانب . وكانت قد فقدت أخوتها وأختها وعمها وأحد أبويها في المجزرة .

ولما بلغنا الجدار الذي أُعدم أمامه أولئك الشبان كانت الخروق التي أحدثها الرصاص لا تزال بادية عليه . ووقفت الفتاة على حطام الكلس والتفتت إلينا والمطر يتساقط وكأنها مخلوق غريب في مسرحية عجيبة . فالتقطنا لها صورة ونحن لا نصدق أعيننا .

كانت الثلوج تتساقط وتضرب المنطقة من أرز بشري إلى تلال الشوف . وتساقط للمرة الأولى منذ عشرين عاماً حول الحازمية والضواحي المحيطة بها . وكانت تلال صنين كتاج من الجواهر يلمع فوق المدينة ويخطف الأبصار .

ومررنا أنا وفولي بإزاء خط المواجهة السوري الإسرائيلي تحت صوفر وسط عاصفة من الثلوج الثائرة . وكانت طوافات المارينز تحلق على سفوح الجبال وهي تحمل الغذاء للآلاف من سائقي السيارات الذين حاصرتهم الثلوج . ورحبت بها القوات السورية لأنها كانت تقوم بمهمة إنسانية . ومات أكثر من خمسين شخصاً في العاصفة الثلجية . وزعم الجنود الإسرائيليون الذي كانوا يرابطون على الخطوط الأمامية وهم يرتدون ثيابهم المبطنة بالفرو ويضعون أقنعتهم الواقية من الجليد أن ٣٠٠ جندي إسرائيلي تجمدوا وقضوا نحبهم . ولكن هذا لم يكن صحيحاً . إذ لم يتجمدعدد يذكر بالقياس إلى ما حدث للناس على سفوح الجبال .

وعندما خرجنا أنا وفولي من الضباب والسحب على طريق دمشق الدولي ، وسلكنا الطريق الذي راقبنا منه الغارات الجوية الإسرائيلية في حزيران/ يونيو السابق ، أخذنا نشاهد بوضوح تام ما يجري ببيروت . كان خليج البحر قد تحول إلى قاعدة للأسطول الأميركي . وتجاوز عدد البوارج والطرادات ما تتطلبه القوة المتعددة الجنسيات التي كان يدعمها . وعليه فإن لبنان لم يعد يُنظر إليه من الزاوية الإنسانية . لقد أخذ يكتسب أهمية عسكرية خاصة به ، حولته إلى مركز استراتيجي . كما أخذ خليج بيروت بما فيه من سفن حربية أميركية وفرنسية وإيطالية يتحول إلى قاعدة لحلف شمالي الأطلسي .

وأخذت الطوافات تحملنا يوماً بعد آخر إلى الأسطول . وطلبت زيارة كل سفينة حربية وصلت إلى سواحل بيروت . وكنت إذا سمعت رجل المارينز بقاعدة الطوافات المجاورة للمطار يصرخ «طوافتكم هيا اذهبوا» أقطع ساحة المطار راكضاً إلى الطوافة وأربط الحزام قبل أن تنطلق فوق طائرات البوينغ التابعة للميدل ايست وعبر الطريق الساحلية وشاطىء الأوزاعي إلى البوارج التي تتهادى فوق أمواج البحر . وسرعان ما عوّدنا أنفسنا على كتابة التقارير بسرعة . وبعد سنوات من الكفاح في سبيل نقل الكلمات العربية بحروف انجليزية وجدنا أنفسنا فجأة نسجل حركات سفينة «أيووا جيما» و«هارلان كاونتي» و«الباسو» و«بورتلاند» و«أيزنهاور» .

وبدلاً من أن نتخلى عن مهمتنا في بيروت ونعود إلى الغرب ، حضر الغرب إلينا . وكنا حين نهبط على السفن أو ننزل من الطوافات بالحبال إليها يرحب بنا ضباط البحرية الأميركية ببزاتهم الأنيقة ووجوهم التي تملؤها الثقة بالنفس ، ويعرضون صور قادتهم وطائراتهم ، ويوزعون ملفات تشيد بفضائل قوتهم البحرية الفريدة . وكان أحدها ، وهو ملف أزرق ضخم يشتمل على تاريخ حاملة الطائرات «أندبندنس» . وكانت هذه الحاملة القديمة المزعجة تؤمن الغطاء الجوي للقوة المتعددة الجنسيات في بيروت . وتصف الوثائق حاملة الطائرات هذه بأنها «حارسة الحريات» وأن من يصعد إليها يجد نفسه «على متن أجمل حاملات الطائرات» وأنها هناك «للمحافظة على حرية البحار» . ولغة هذه العبارات كما هو واضح وطنية وصحية ولكن تتردد بشكل آلي . وقيل لنا إن سرب الطائرات المعترضة (A - 6E) مستعد للقيام «بأية مهمة حربية في أي ظرف » ، وأن القاذفات (EA - 6B) للحرب الألكترونية ، والكوسير (A - 7E) «للإصابة بدقة » ، وطائرات الهليكوبتر(SH - 3H) المضادة للغواصات «لحراسة الطائرات» ، وطائرات توم كات (F - 14A) لحراسة الأسطول . وقيل لنا إن هذه كلها تؤلف «فريقاً مظفراً» .

وكان هذا أكثر بُعداً عن الواقعية حتى من بيروت .وبالرغم من أننا ـ أنا وفولي ـ كوّنا فكرة عن «المهمات الحربية» وعن «دقة الإصابة» ، فإن هؤلاء الشبان الظرفاء كانوا في واد ونحن في واد آخر .

فمحاضراتهم وبلاغاتهم كانت مزيجاً من السذاجة السياسية والتعابير شبه العلمية وحسن النية الشبيه بحسن نية المسيح . وكان نقل كلماتهم يتطلب قطع مسافات أطول بكثير من تلك التي كانت تفصل بين سفنهم وبين بيروت .

ومهما يكن من أمر فقد قدمَنا الجنود إلى ضباطهم الذين كانت بعض وكالات الأنباء تذكر أسماء بلدانهم وميدالياتهم وخصوصاً إذا كانوا من محاربي فيتنام . وأخذ الضباط يشرحون بلهجة من يؤدي امتحاناً في قاعة الامتحانات . قال أحدهم : إدوارد هـ . مارتن قائد الأسطول السادس ، من مدينة سفانا بجورجيا ، حائز على النجمة الفضية ، وعلى ميدالية خدمات الدفاع العليا ، وعلى وسامي استحقاق في الميدان ، وعلى وسام الطيران الرفيع ، ونجمتين برونزيتين ، ووسامين من الأسطول وقلب أرجواني . وأضاف أن مارتن يقوم في البحر الأبيض المتوسط «بتقديم الأسطول كجزء من القوة المتعددة الجنسيات العاملة بمنطقة بيروت ولخلق جو يسمح للقوات اللبنانية المسلحة بأن تقوم بمسؤوليتها في بيروت وما حولها» .

وكان الإسرائيليون والسوفييت يراقبون القوة الضاربة ٦٠ التي تعمل بإمرة مارتن . واستخدم السوفييت لذلك الغرض سفينة تجسس صغيرة اسمها فيرتكال . وكانت الزوارق الإسرائيلية المسلحة بالصواريخ تمر في الليل بين السفن الأميركية وتلتقط لها صوراً بكاميرات الأشعة دون الحمراء . أما السفينة الروسية التي كانت مزودة بما يشبه الغابة من أجهزة الالتقاط والمراقبة فكانت تتنصت على الأميركيين والإسرائيليين . ذلك أن الروس لم يتوقعوا مثل ذلك الالتزام الجدي من الولايات المتحدة .

أخذ السوفييت يستثمرون مكانتهم السياسية والعسكرية في إعادة تسليح سوريا بقدر ما فعلت الولايات المتحدة مع حكومة الجميّل في بيروت . فقامت موسكو بإعادة تجهيز القوات السورية الجوية وأمدته بصواريخ سام ـ٥ جديدة . ونصبت ثلاث بطاريات من صواريخ سام ـ ٥ البعيدة المدى ، اثنتان منها بالقرب من دمشق والثالثة بالقرب من درعا . وذلك بإشراف فعلي من السوفييت[٦] .

(٦) كانت بطاريات سام ٥ ـ إس ذات المدى البالغ ١٦٠ ميلاً بدورها تحت حماية خمس بطاريات من نوع سام - ٣ إس وست بطاريات من نوع سام ـ ٦ إس وأحزمة سام ٢ ـ إس وكانت تدعم هذه البطاريات ٣٠ محطة انذار تمتد منتصف الطريق بين سوريا والعراق . وكانت هذه أكثر نظم الدفاع الروسية التي جلبت إلى الشرق الأوسط تعقيداً وحداثة . لقد كانت شركاً للإسرائيليين .

وأكد السوفييت للأسد خلال زيارة له إلى موسكو أنه في حين أنهم لن يتدخلوا إذا تورطت سوريا مرة أخرى في القتال بلبنان ، فإنهم سيقيمون على الفور جسراً إذا قام الإسرائيليون بمهاجمة الأراضي السورية . وقد سمح الوجود العسكري الأميركي في بيروت لموسكو بتعزيز وجودها العسكري في سوريا ، وتغير ميزان القوى في الشرق الأوسط تغيراً كبيراً ، وصار مستقبله يتوقف على قدرة حكومة الجميّل الكتائبية على إقناع جيشي القوتين المحليتين ـ جيش سوريا وجيش إسرائيل ـ بمغادرة البلاد .

لكن الجميّل أخذ يتذمر من أن الخصمين يراوغان بالنسبة إلى مسألة الانسحاب المتبادل . فالإسرائيلون رفضوا التحرك إلا إذا انسحب السوريون . لكن هؤلاء اعتقدوا بأن انسحابهم سيكون بمثابة انتصار تكتيكي للإسرائيليين .ولم يكن في نيتهم أن يسمحوا لإسرائيل بتحقيق أي مكسب من غزوهم للبنان . هذا فضلاً عن أن السوريين دخلوا لبنان عام ١٩٧٦ بدعوة من الرئيس اللبناني ، وأن الإسرائيليين كانوا غزاة . فكيف يمكن مساواة الطرفين؟ وكانت حجة السوريين بسيطة : في حين أن الوجود السوري شرعي ، فإن الوجود الإسرائيلي ليس شرعياً . لكن سوريا لم تكن تستطيع الإدعاء بأن لجميع حلفائها حق مشابه في الوجود بلبنان .

ولم يكن لدى الأميركيين ما يبرر الاستمرار في التوهم بأنه ليس لهم أعداء في لبنان . إذ كان عدة مئات من الحرس الثوري الإيراني بزيهم الخاص وبنادقهم قد تمركزوا قريباً من المعبد الروماني ببعلبك في سهل البقاع ، واتخذوا مقراً لهم في مستشفى حديث مهجور ، وأخذوا ينشرون أفكار ومبادىء الثورة الإسلامية في المنطقة ذات الأكثرية الشيعية . واتخذوا لهم مكتباً لهذا الغرض في مبنى من دورين على بعد ٣٠٠ ياردة من السوق . وعندما قمنا أنا وشهرزاد فارامارزي التي تعمل بالأسوشيتد برس بزيارة المبنى ، رأينا إعلاناً على الباب الأمامي يقول بأن من فيه من «محبي الاستشهاد» . وكان الإيرانيون يلقون دروساً في القرآن للأطفال . وكانت بعلبك مغروسة بالأعلام واليافطات التي تهاجم الإسرائيليين و«الاستعمار» الأميركي ، وتحث اللبنانيين على سلوك طريق الاستشهاد لإنقاذ لبنان .

كنت قد زرت إيران مرات عديدة وأصبحت هذه الشعارات مألوفة كالحرس الثوري . فقد تعرّضت معهم لإطلاق النار في حرب الخليج . والواقع أنهم جديرون بما يشتهرون به من شجاعة . فالقصف الذي يتعرّضون له لا يزعزع إيمانهم . ومن الغريب أن بساطتهم شبيهة ببساطة الأميركين ، وإن كانت أسبابها مختلفة . فهم يؤمنون إيماناً لا يتزعزع بأن الله قادر على قهر جميع الأعداء ، والأميركيون يؤمنون ايماناً شبيهاً بالتكنولوجيا . فإذا وجد الأميركيون أنفسهم في مواجهة خصم لهم فإنهم يستطيعون الاعتماد على ما تحمله «الأندبندس» من عتاد . أما الإيرانيون فإنهم يستلهمون عقيدة

الاستشهاد . ترى أي القوتين تكسب المعركة إذا حصل صدام بينهما؟ طائرة ف ـ ١٤ أم العملية الانتحارية؟

لم يكن حراس الثورة في بعلبك يختلفون عن إخوانهم في إيران . لكن وجودهم في لبنان كان مثيراً من بعض الوجوه . ولم يكن مصدر الإثارة هو وجودهم فيه ، لأنه كانت فيه عدة جيوش أجنبية ، إنما كان مصدره هو أن الحرس الثوري جلب معه مبادىء الثورة الإسلامية في إيران التي كان من المنتظر أن يكون لها تأثير عظيم على مسلمي لبنان الذين عانوا الكثير من الآلام . ففي حين أن إيران كانت تشهد نهضة إسلامية ، فإن لبنان كان قد تحطم وفسدت مؤسساته . وعليه فقد كان نشر تلك المبادىء كمن يصب الماء الغالي على الزجاج الهش .

لم يتجاوب أهل بعلبك في البداية تجاوباً كاملاً مع مشاعر الإيرانيين البطولية ، لكنهم لم يلبثوا أن أحسوا بوجود أولئك الشبان الجديين ذوي اللحى الذين احتفلوا بعاشوراء ودعوا الفتيات إلى لبس الشادور ، وأخذوا يتجولون في المدينة ببنادقهم ، وأقاموا متاريس من أكياس الرمل والتراب ، ونصبوا عليها المدافع الرشاشة لحراسة مكاتبهم . ورفعت لوحة طولها ٣٥ قدماً عليها صور إيرانيات بألبستهن السوداء لتذكير النساء بضرورة الاحتشام .

يبدو أن الإيرانيين لم يشتبكوا في القتال ضد الإسرائيليين بالرغم مما قيل عن وجود كتيبة من القوات الإيرانية على سفح تلة قرب ظهر البيدر ، وأنها شاركت في القتال على خطوط المواجهة مع الإسرائيليين . ولم يكن من السهل جمع المعلومات عن الحرس الثوري ، وذلك لاشتباههم بالغرباء . وعندما طلبنا التحدث مع رئيسهم ظهر شاب بزي أخضر باهت يلف شالاً حول عنقه ويعلق شارة ترمز إلى القرآن الكريم . وقادني الشاب من غير أن يبتسم إلى خارج المكتب من الخلف وسأل عما نريد معرفته ولماذا نحن ببعلبك . فأجبناه بأننا نرغب في معرفة سبب وجوده بلبنان . وجرى بيننا حديث مقتضب غير عادي اتسم بالغموض .

وكان يجيب على أسئلتنا وهو ينظر إلى الأرض ، وذلك ليتحاشى رؤية شهرزاد فارامارزي . فقد كان شديد الحياء . وأخذ يتحدث بنبرة واحدة وكأنه يقرأ سلسلة من الردود . قال بالإيرانية :

ـ إننا نريد أن نرشد ونعلم شعب لبنان . وهدفنا الوحيد إضفاء الطابع الإسلامي على المكان . وعلينا كما يقول الإمام الخميني تصدير الثورة الإسلامية إلى العالم . وقد أتينا إلى هنا مثل باقي المسلمين بهدف إنقاذ الفلسطينيين المحرومين واللبنانيين المحرومين .

لكن هل كان الفلسطينيون في حاجة إلى هذه المساعدة؟ ثم إن غالبية الفلسطينيين من السنة . فلماذا جاء الإيرانيون إلى لبنان؟ وظهر شاب آخر ملتح وأعمق تفكيراً من زميله وقال :

ـ سأجيب على سؤالك إذا كنت على استعداد لنشر دعوتنا في صحيفتكم . لماذا لا تطبعون التايمز بالإيرانية؟

وتخلل الحديث بعض الومضات . فهذا الشاب الثاني كان قد حارب العراقيين في معركة خُرّم شهر ، وشعر بأن هناك خطأ في رد إيران على الغزو الإسرائيلي للبنان قال :

ـ لقد أوضحتْ فتوى الإمام الخميني أن الغزو الإسرائيلي للبنان مؤامرة تهدف إلى حمل إيران على إرسال قواتها إلى لبنان وعلى التخلي عن الحرب ضد العراق . وكما أعلن الإمام الخميني ، فإنه لا طريق إلى القدس إلا من خلال العراق . ولهذا عاد معظم الجنود الإيرانيين الذين أتوا إلى لبنان . وتسألني عن سبب مجيئنا؟ ربما كان خطأ .

لكن هناك بعض الأدلة التي قد تفسر سبب مجيء الإيرانين إلى بعلبك . إذ كان رجال الحرس الثوري يدخلون مبنى المستشفى ـ الذي شُيِّد في الأصل بأموال إيرانية ـ ويخرجون منه بشاحنات جديدة . وكانت واحدة منها فقط تحمل لوحة تسجيل سورية . وكان المفروض أن تكون بعلبك تحت سيطرة الجيش السوري . لكن يحتمل أن يكون الجيش السوري قد شعر بأنه لا يستطيع مراقبة المدينة بسبب القتال الدائر على مسافة تقل عن أربعين ميلاً . فلم يجد ، سبيلاً إلى ذلك أفضل من تشجيع الإيرانيين على القدوم إليها . ولم يكن هناك ما يقلق السوريين في وجودهم ما داموا يعتبرون مهمتم جزءاً من الثورة الإسلامية .

كان لدينا جميعاً عندئذ شعور بالكارثة ،إلا أنه لم يتوافر إذ ذاك دليل يذكر يدعمه . وكان تيري أندرسون قد تولى إدارة مكتب الأسوشيتد برس ببيروت بالنيابة عن تاترو وأخذ يقضي عشرات الليالي الباردة مع المارينز حول المطار ، وهم جاثمون في مخابئهم المبللة ، ويعود عند الفجر وقد هدّه الإعياء وتملكته الدهشة من جهل الأميركيين .

وانتقل أندرسون وزوجته وابنته إل شقة تطل على البحر في المبنى الذي أسكن فيه ، ومعهم كلب عالي الظهر من جنوب إفريقيا وقطتان صغيرتان لطيفتان . وكان أندرسون من أكثر الصحفيين خشونة ، ويستطيع الاستمرار في العمل أياماً بلا نوم يذكر ، كما كان يستطيع أن يحضر عشاء يستغرق وقتاً طويلاً ويقوم بعد ذلك مباشرة بتحرير آخر الأخبار وإرسالها تلغرافياً إلى نيويورك . أما من الناحية الجسدية

فكان ككلبه ـ ضخماً ، عنيداً ، وفي منتهى النشاط والحيوية . وكانت تجربته في جنوب إفريقيا قدعلّمته احتقار التمييز العنصري . وحدث مرة أن كان يتناول العشاء مع ضابط بريطاني فاستولى عليه الانفعال الشديد عندما وصف الضابط رجال الميليشيات اللبنانية بأنهم زنوج ، وهب واقفاً :

ـ ماذا تعني بذلك؟ فقال الضابط :

ـ إني أصف الزنجي بأنه زنجي . والزنجي أسود وشعره مجعد .

فتملك الغضب أندرسون وكاد يضربه ، وقال :

ـ إننا لا نتكلم بتلك اللغة في بلادنا عندما نتحدث عن البشر .

قال أندرسون هذا وخرج .

على أن أندرسون لم يكن يشبه كلبه من بعض النواحي . فعندما كانت الصواريخ تسقط حول منزلنا ، كان الكلب يختبىء في الحمام ، بينما كان أندرسون يخرج إلى الشوارع كما كان يفعل خلال حصار بيروت عندما يقصف الإسرائيليون المدينة . وكانت ابنته غابراييل التي تبلغ السابعة من العمر متعلقة به إلى أبعد الحدود .

كنا سعداء على ما أظن . ولكننا أنا وأندرسون أدركنا أن ذلك قد لا يدوم . إذ شعرنا بأن المزاج اللبناني أخذ يتغير بشكل مخيف . فالجميّل كان يرفض تقديم تنازلات للمسلمين تسمح لهم بأن يلعبوا دوراً أكبر في الحكم . وكان الكتائبيون الذين تدعمهم إسرائيل لا يرون داعياً للتخلي عن هيمنتهم على الإدارة . ولم يكن لدى الشيعة والدروز ما يمنع من السماح للموارنة بالاحتفاظ بمنصب الرئاسة . ولكنهم كانوا يرون أن تكون سلطة الرئيس إسمية ، وأن تسند السلطة الحقيقية لرئيس الوزراء . وحث سفراء الدول المشاركة في القوة المتعددة الجنسيات الجميّل على تقديم التنازلات .

وفي بادىء الأمر رفض الجميّل التجاوب معهم ، وقال بأن حكومته ضعيفة إلى حد لا تستطيع معه تقديم تنازلات . وكان يعتقد أنه عندما تتم إعادة تدريب جيشه على يد الأميركيين فإنه يصبح من القوة بحيث لا يحتاج إلى تقديمها . وهكذا صار الجيش الدولي الأداة التي تدعم السلطة الكتائبية المارونية المسيحية .

وفي كل يوم كان يمر أمام بيوتنا باص يحمل القوات الأميركية الخاصة إلى ثكنات الجيش اللبناني قرب المطار حيث كانوا يدربون فريقاً جديداً من الكوماندوز اللبنانيين . وفي هذه الأثناء كانت حكومة الجميّل تقوم بشراء الدبابات من أميركا وفرنسا بملايين الدولارات . وكانت القوات الأميركية

والفرنسية تسيّر دورياتها بانتظام . وأراد ريغن أن يرسل فرقة من الحرس السود . وساهمت مسز تاتشر بإرسال مئة من «حرس الدراغون» للمساعدة في إعادة بسط الحكومة سيادتها وسلطتها على منطقة بيروت . وأخذ هؤلاء بتسيير الدوريات في مكان مهجور كان يستخدمه السوريون ،ويقع قرب مصنع التبغ في الحدث داخل المنطقة التي كانت إسرائيل تحتلها . وكان يقوم بغسل بذلاتهم العسكرية ماروني عجوز سبق أن قام بالشيء ذاته للقوات البريطانية التي غزت لبنان عام ١٩٤١ .

واحتدم القتال بين المسيحيين والدروز في الشوف . وصار ساكن بيروت كالجاثم فوق كوم ضخم من ورق اللعب في وجه ريح قوية . وكان لا بد للكوم أن ينهار إذا لم يتغير بناؤه . لكن بدلاً من ذلك وبينما كانت الريح تطير الأوراق ، وضعت أوراق جديدة عليه . وهكذا صارت الدلائل على قرب وقوع الكارثة واضحة ، وأصبحت قصصنا اليومية سلسلة من الملاحظات المضحكة والمرعبة في الوقت ذاته .

ولننتقل الآن إلى سطح مقر الوحدة البريطانية في الحدث . كان قائد القوات البريطانية في لبنان اللفتنانت ـ كولونيل جون كوشران . وعندما هبط الظلام استأنف الدروز إطلاق النار على مسلحي الكتائب في المرتفعات الواقعة إلى الجنوب . وكان الضباط الشبان من السرية ج يقفون على السطح ويشاهدون عرض المساء . وقال أحدهم للقائد : إنهم مشتبكون هذه الليلة ، أليس كذلك يا سيدي؟ يا سلام . انظر إلى هذا . » ففي تلك اللحظة رأينا خطاطاً زهرياً لامعاً يمتد من قمة الجبل الذي كان يبدو باهتاً في المساء إلى طريق كفرشيما الرئيسية .

وتأوه الضباط الصغار في يأس وصرخ أحدهم : «يا لها من قذيفة ملعونة» ولم يكد زملاؤهم يبدأون بالضحك حتى هزّ المبنى دوي انفجار هائل ، فقال أحدهم : «لا بأس ، لا بأس . ولكنهم كانوا البارحة أفضل . أليس كذلك يا سيدي؟» وكان كوشران يراقب بلا تعليق .

وفي تلك الأثناء أخذت القذائف تنطلق من مدفع وراء البناء . فقال آخر بشيء من السخرية : «بطيء جداً عليه اللعنة . على هؤلاء الكتائبيين أن يكونوا أفضل» .

كان كوشران يراقب مجموعة من الأشجار الصغيرة على بعد ٣٠٠ ياردة من مقره ، وهو يعرف تماماً أن ثمة دبابة ميركافا إسرائيلية في المكان . قال : «بعد أن يسمح لهم الإسرائيليون بالاقتتال فيما بينهم أو عندما تقترب طلقات النار من طريق صيدا القديمة ، يقومون بإسكاتهم» . لكن إطلاق النار لم يتوقف . وكان البريطانيون قد أنذروا الفريقين بعدم إطلاق النار على مواقعهم . فالقواعد التي كانوا يتبعونها تسمح لهم بالاقتتال فيما بينهم بشرط أن لا يطلقوا النار على القوة المتعددة الجنسيات .



وليد جنبلاط

ولما سمع صفير إحدى القذائف فوق مقر الوحدة البريطانية صفر رقيب بريطاني . وانطلق الرصاص الخطاط من بين الأشجار ، ولمع الضوء فوق الدبابة الإسرائيلية وسمع صوت فرقعة على التلال . و(بقدرة قادر) توقف إطلاق النار . فقال الرقيب : «حسناً . يكفي هذه الليلة» .

وبينما كنا في مكتب الأسوشيتد برس سمعنا دوي انفجار هائل . فهب نصار واقفاً وقال وهو يصرخ : «انفجار سيارة مفخخة . أسرعوا . أحضروا تاترو وأندرسون» . وشققنا طريقنا وسط الحشود المذعورة إلى منطقة القنطاري . وكان اثنان من الفرقة ١٦ اللبنانية يركضان وهما يحملان وليد جنبلاط على أكتافهما والدم يسيل على وجهه وقميصه ، وعيناه جاحظتان . كانت هناك سيارة تحترق . وتحطمت سيارة الزعيم الدرزي . وكان أحد حراسه الذي أصيب بجرح في بطنه وتناثرت أجزاء من كليتيه داخل السيارة ممدداً على الأرض إلى جانبها . كان جنبلاط عائداً من حفل غداء أقيم في مطعم مارتن هاوس النمساوي الذي يقع على الجانب الآخر من الطريق . ووجدت قطعاً من السيارة المفخخة على بعد عشرات الياردات منها .

وكانت على الطريق امرأة في مقتبل العمر ترتدي تنورة سوداء ، وتولول وتلطم وجهها بيديها ، وهي واقفة أمام سيارة صغيرة تندلع منها ألسنة اللهب . وحاول مظلي فرنسي أن يفتح بابها لكنه تراجع بعد ثلاثين ثانية ، وبعد أن احترقت يداه . ولم يكن في وسعنا أن نفعل شيئاً سوى مراقبة النار وهي تأتي على ما بداخلها . واحتشد المصورون حول السيارة . وكانت بداخلها سائقتها التي كانت تمر بالشارع عندما انفجرت السيارة المفخخة على بعد ٢٠ ياردة منها . وانتظرنا طوال دقيقتين حتى اشتعل وقود سيارة الفولكسفاغن ، بينما كان المصورون يلتقطون صور المحرقة في صمت . وعندما خمد اللهب وخفت الحرارة بعد ذلك بأربع دقائق ، قام أحد رجال الصليب الأحمر بكسر بابها .وكان على المقعد الأمامي الذي لم يبق منه سوى اطاره المعدني هيكل عظمي أسود اللون التوت جمجمته قليلاً وأفرزت عظامه عصارتها الأخيرة . وصعد رجل لبناني من المكتب الثاني يحمل جهازاً لاسلكياً مزدوجاً إلى شاحنة وأخذ يصرخ على رجاله الذين كانوا بألبسة مدنية :

ـ أوقفوا التصوير . انتهى التصوير . اذهبوا إلى بيوتكم .

وتجمع خارج مستشفى الجامعة الأميركية مئات الدروز ليتأكدوا من أن جنبلاط كان ما يزال حياً . وهدد شاب وهو يشهر مسدسه بإطلاق النار على العاملين في المستشفى إن لم يسمح له بدخول المبنى والتأكد بنفسه من أن قائده على قيد الحياة . وحمل هياج الجمهور جنبلاط على الخروج من غرفة الطوارىء في المستشفى وهو يترنح واللفائف حول وجهه وصدره ، ليطمئنوا عليه . وشجب

الكتائبيون جريمة الاغتيال واعتبروها محاولة لتحطيم وحدة لبنان . ولكن الدروز لم يصدقوهم . وجاء الآن دور المظاهرات احتجاجاً على الذين أوقفهم الجيش اللبناني والذين اختفوا . وعاد شبح مجزرة الصيف ليقضّ مضجع بيروت . وشقت امرأة قصيرة القامة ترتدي معطفاً أزرق اللون طريقها نحوي وهي تلوح ببطاقة هوية لأحد الفلسطينيين وقالت :

ـ هذا ابني . عمره عشرون عاماً ، ولكن الجيش اللبناني أخذه منذ شهر وأربعة أيام ، ولم يذكر السبب . ورأيته فيما بعد بثكنة بدارو وأعطيته ثياباً نظيفة . وعندما عدت مرة أخرى قالوا إنهم أخذوه إلى المقر العسكري في اليرزة . ولم أسمع عنه شيئاً بعد ذلك . إنني أريد ابني . أريد ابني .

وأخذت تبكي بينما أخذ جمهور من النساء يتدافعن نحوي وهن يعرضن قصاصات من الورق والصور الباهتة اعتقاداً منهن بأن مجرد ذكر أسماء مثل : شحادة شهاب وزهير أحمد أدلبي ومحمد حسن فقيه وبسام عبده وسلام البيبي في صحيفة بريطانية من شأنه حمل محتجزيهم على إطلاق سراحهم أو بعثهم من بين الأموات . وما أكثر النساء اللواتي فقدن أقرباء لهن في صبرا وشاتيلا ولم يعثرن قط على جُثثهم . وهناك نحو ٩٩١ رجلاً وامرأة من صبرا وشاتيلا لم يعثر أحد بعد على جثثهم . ويستحيل معرفة عدد الضحايا بالتحديد . وكانت حكومة الجميّل قد كلّفت المدعي العام أسعد جرمانوس بفتح تحقيق عن المجزرة مشابه للجنة كاهان في إسرائيل . ولكن لجنة التحقيق اللبنانية بقيت تعمل بسرية بعكس اللجنة الإسرائيلية في القدس . ولا أحد يعرف كيف أو أين أو كم مرة تنعقد . وسينتهي الأمر بها إلى القول بأن الضحايا «قتلهم أشخاص مجهولون» .

وغني عن القول أن هؤلاء «المجهولين» يعيشون في بيروت الشرقية . وقد استطعنا معرفة بعض أسمائهم التي يعرفها أمين الجميّل . وأقلقت مظاهرة النساء الحكومة اللبنانية لأنها كانت تذكر بالماضي . وعاد الجميّل وكرر ثقته بمستقبل لبنان . لكن لم يصدقه أحد منا . وفي هذه الأثناء أعلن السوريون أنهم لن يغادروا لبنان حتى ينسحب منه «آخر جندي إسرائيلي» . وكان الإسرائيليون يرغبون في الانسحاب من لبنان .لكنهم طالبوا أولاً بإبرام اتفاق رسمي أو معاهدة سلام غير رسمية مع لبنان تؤمن لهم وجوداً عسكرياً في جنوب لبنان أو ضمانات أمنية ، أو شيئاً يثبت أن غزوهم للبنان لم يكن بلا جدوى . وشجع الأميركيون هذه الخطوة وهم يرفضون أن يصدقوا بأن السوريين كانوا يعنون ما يقولون .

على أن السوريين كانوا يعرفون أن الإسرائيليين لا يستطيعون البقاء في لبنان في ظل هجمات المسلحين المستمرة حتى ولو بقي الجيش السوري فيه . كما كانوا يعلمون أن رغبتهم في الرحيل

ستشتد مع كل خسارة عسكرية يمنون بها . واكتسب السوريون ثقة جديدة بالنفس . ولم يعودوا يكتفون بتحقيق انتصار سياسي في لبنان . لقد أرادوا أيضاً تلقين الإسرائيليين درساً . كان الرئيس الأسد يريد من أعدائه أن يتعلموا من أخطائهم ، كما يريد أن يلحق بهم من الإذلال ما يمنعهم من القيام بمغامرة أخرى في لبنان . وكان في إذلال إسرائيل وإذلال الأميركيين إذا أرادوا مشاركتها ما يرفع من شأن سوريا في العالم العربي وغيره .

وما لبث الأميركيون والإسرائيليون أن أخذ يذل أحدهما الآخر . إذ ادّعت القوات الإسرائيلية أنها تريد ملاحقة «الإرهابيين» على طريق صيدا القديمة ،وقامت بسلسة من الاختراقات المجنونة للمنطقة الأميركية على طول خط سكة الحديد المهمل منذ مدة طويلة بين بيروت وصيدا . وعندما حاولت وحدة من الدبابات الإسرائيلية التقدم إلى منطقة المارينز في كانون الثاني/ يناير ١٩٨٣ ، صعد كابتن المارينز تشارلز جونسون إلى الدبابة الإسرائيلية الأولى وهي من نوع ميركافا وشهر مسدساً في وجه القائد الإسرائيلي . وقال كاسبر واينبرغر ، وزير الدفاع الأميركي ، أنه ينبغي ترشيح جونسون لنيل إحدى الجوائز . فأعلن الإسرائيليون بلطف أن جونسون كان على ما يُظن عندئذ سكراناً . ولم يكن ذلك صحيحاً لأنه لم يعرف عنه شيء من ذلك . وكان الإسرائيليون قد وجهوا التهمة ذاتها قبل ذلك بعامين للقوات الايرلندية التابعة للولايات المتحدة . وأتبع الإسرائيليون التهمة لجونسون بالتشهير بالمارينز بأنهم يشترون الحشيش من حي السلم ، حي الأكواخ والفقراء . وقال الناطق الإسرائيلي بتل أبيب إن المارينز كانوا بلا قصد يوفرون الغطاء «للإرهابيين» .

ولم يكن من الصعب تمييز الحد الفاصل بين المارينز وبين الجيش الإسرائيلي إلى الغرب من طريق صيدا . وذلك لأن صفاً طويلاً من براميل الزيت الفارغة ذات الطلاء الأبيض التي أخذ يعلوها الصدأ بسبب المطر كان يخترق الأرض المقفرة الموحلة بين خلدة وأطراف حي السلم حيث كان بعض الفقراء يتحكمون بأسعار الحشيش .

في أوائل ربيع ١٩٨٣ زرت هذه المنطقة عدة مرات . وكنت أقف على الطريق أراقب دورية الصباح الإسرائيلية التي تتألف من دبابة ميركافا إسرائيلية مرشوشة بالوحل تتلوى على الطريق المدمر وبرجها متجه إلى الغرب . وكنت أستطيع أن أرى وراء الحقول إلى الغرب عشرة أو أكثر من المارينز منتشرين على الجانب الآخر من صف البراميل . وكانوا أحياناً يسيرون على هذا الجانب بموازاة الدبابة ويتبادلون الحديث مع طاقمها قبل انسحابهم .

على أن الإسرائيليين كانوا لا يزالون يتبعون طريقتهم العشوائية في الاستطلاع ، فيطلقون النار بلا

تمييز لإبعاد من تحدثه نفسه بمهاجمتهم . وأدت طريقتهم هذه إلى قتل خمسة مدنيين أبرياء . وكان رصاصهم يصيب بانتظام مراكز المارينز أيضاً . وزعم الإسرائيليون أنه يمكن حل المشكلة إذا سمح المارينز بعقد اجتماعات دورية بين ضباط ارتباط من الطرفين . لكن الأميركيين رفضوا ذلك ، خوفاً من أن يقال إذا رآهم أحد بأنهم حلفاء للجيش الإسرائيلي بلبنان .

وفي إحدى المرات أقنعت قائد دبابة إسرائيلية بأن يسمح لي برؤية خارطة المنطقة التي يستخدمها . كانت الجهة الأخرى من البراميل مظللة وتضم كلية العلوم التابعة للجامعة اللبنانية . وكان من الواضح أنها منطقة المارينز . وفي أواسط آذار ادعى الإسرائيليون أنهم لا يعترفون بخط فاصل بين الخطوط الأميركية والخطوط الإسرائيلية . على أن رصاص الإسرائيليين المتطاير ظل يضرب مخابىء المارينز .

وبعث الجنرال روبرت هـ . بارو قائد وحدة المارينز الأميركية يشكو إلى كاسبر واينبرغر من المضايقات المنظمة التي تتعرض لها القوات الأميركية من القوات الإسرائيلية على محيط بيروت . وفي ١٩ آذار/ مارس حاولت سيارتا جيب إسرائيليتين محملتان بالجنود اختراق الخطوط الأميركية قرب المطار ، ونجا عدد من المارينز بصعوبة من النيران الإسرائيلية . وقال الكولونيل ميد بغضب :

ـ هذا الأسلوب ـ أسلوب فيتنامي قديم . وكل ما يفعله هو تعريض القوات الأخرى والمدنيين للرصاص المتطاير . إنه لم يردع إرهابياً واحداً . وأعتقد بسبب كثرة الحوادث أنه لا يحدث بشكل عرضي . ويمكنكم أن تقولوا هذا على لساني» .

إلا أن الإسرائيليين واصلوا استخدام الأسلوب ذاته إلى أن حققوا غرضهم من ذلك . إذ صدرت التعليمات من واشنطن للمارينز تطلب منهم عقد اجتماعات منتظمة مع ضباط الارتباط الإسرائيليين . وعلى الفور توقفت المواجهات . فاستخلص مقاتلو ميليشيات الشيعة في ضواحي بيروت الجنوبية التي كان الأميركيون يسيّرون دورياتهم فيها من ذلك ما كان لا بد من استخلاصه ، وهو أن المارينز كانوا يُطلعون الإسرائيليين على نشاط استخباراتهم . وكانوا على حق في ذلك . ففي أول نيسان/ أبريل أعلن الكولونيل ميد أنه صار مستعداً لاطلاع الإسرائيليين على ما تعرفه الاستخبارات الأميركية عن الهجمات المتوقعة عليهم ـ أي الإسرائيليين ـ خارج بيروت . وأضاف قائلاً :

ـ كلما حدثت خسائر في الأرواح ، سوف أطلع أي شخص وأية جماعة على ما لدينا من معلومات .

وفي هذه الأثناء كانت تواجه القوة المتعددة الجنسيات مشكلات أكثر خطورة . ففي ١٦ آذار/ مارس وبعد وصول هذه القوة إلى بيروت بستة أشهر تماماً هوجمت ثلاث مرات في بيروت الغربية من قبل جماعات شيعية على ما يظن .

وفي خلال ٤٨ ساعة جُرح عشرة إيطاليين وخمسة أميركيين . ونجا الفرنسيون من هذه الاعتداءات لأن القنبلتين اليدويتين اللتين ألقيتا على أحد مواقعهم لم تنفجرا . وكانت جروح اثنين من الإيطاليين بالغة ، وغادرا إلى بلادهما وهما مصابان بشلل دائم . وبترت ساق جندي آخر عندما أجريت له عملية جراحية مستعجلة خلال الليل . وأصيب الأميركيون الخمسة إصابات طفيفة عندما ألقى أحدهم قنبلة يدوية على دوريتهم من منزل مؤلف من طبقتين في الأوزاعي . وشاهد أحد الأميركيين القنبلة وهي تسقط من المنزل ، ولكنه لم يتمكن من تحذير زملائه . ووقعت هذه الهجمات بدون إنذارات مسبقة .

وبعد ظهر اليوم الذي ألقيت فيه القنبلة اتصل لبناني بوكالة الصحافة الفرنسية وقال إن المسؤول عن تلك الهجمات هو منظمة الجهاد الإسلامي . وكتبت في تقريري في تلك الليلة أنه لم يسبق لأحد منا أن سمع بهذه المنظمة .. ولم أربط بين تلك وبين الشبان الجديين الذي التقيت بهم في بعلبك . واستبعد أندرسون ما قاله اللبناني ، وقال بأنه قد يكون خدعة .لكن تاترو لم يكن متأكداً من ذلك .

وتحدث السفير الإيطالي ذاك المساء بتشاؤم عن «مؤامرة منظمة» تهدف إلى اخراج القوة المتعددة الجنسيات من بيروت . ولم يعد يُسمح لجنود هذه القوة بالخروج ليلاً لتناول العشاء . وصارت القوات الفرنسية تتجول بسترات واقية . وصدرت الأوامر لقوات المارينز بحمل الذخيرة لأسلحتهم خلال القيام بأعمال الدورية . وبتغيير أعلامها ، لأن لبنان انقلب غاضباً على آخر زواره .

لكن من كان أولئك الأعداء؟ قام قائد الجيش اللبناني الجنرال إبراهيم طنوس بتحذير ميد من تزايد «احتمال ضربه» . وبعد أن قام الجيش اللبناني بتوقيف ثلاثين من الشيعة في برج البراجنة في شهر آذار/ مارس ، أخبر طنوس ميد أنه سيقع يوم الأربعاء الأخير من الشهر هجوم على قواته . لكن الهجوم لم يقع . ولم يستطع المارينز والفرنسيون تحديد هوية مهاجميهم . وعندما كنا نسأل ضباطهم على انفراد عن الذين يهاجمونهم ، كانوا يعترفون بالإحباط وبأنهم لا يعرفون ؛ وكانت تلك هي الحقيقة .

كانت أجهزة الاستخبارات الأميركية والفرنسية مرتبطة منذ البداية بجهاز الاستخبارات اللبناني الوحيد المتوافر لهم ، وهو المكتب الثاني الذي كان في الواقع منظمة كتائبية . فوحدات الجيش

اللبناني وبعض الضباط الذين اضطرت القوة المتعددة الجنسيات إلى الاعتماد عليهم كانوا من أنصار حزب الكتائب ، وأحياناً من أعضائه . وتدفق سيل المعلومات في الاتجاهين . فالكتيبة البريطانية الجديدة كانت تتناول العشاء بانتظام مع ضابط في المكتب الثاني في مقرها في الحدث . لكن لما كان أفراد حزب الكتائب من الموارنة المسيحيين ، فإنهم لم يكونوا يعرفون شيئاً يذكر عن الطائفة الشيعية التي كان يحتمل أن يكون أعداؤهم منها . ولهذا لم يتلق الحلفاء الغربيون معلومات دقيقة عن الميليشيات الإسلامية .

وبحلول ربيع ١٩٨٣ كانت القوة المتعددة الجنسيات قد أخذت تدعم الإدارة الكتائبية ،وتعترف باتصالاتها مع القوات الإسرائيلية وتشجع من خلال الأميركيين على عقد معاهدة سلام بين لبنان وإسرئيل .

وفي العاشر من نيسان/ أبريل قضى الملك حسين في بيان رصين مقتضب أصدره بعمان على خطة ريغن لإحلال السلام في منطقة الشرق الأوسط ، التي تقترح تجميد إقامة المستوطنات اليهودية في الضفة الغربية المحتلة وفتح باب المفاوضات الأردنية الفلسطينية مع الإسرائيليين لإقامة الحكم الذاتي للفلسطينيين . فمنظمة التحرير الفلسطينية ـ كما قال الملك حسين ـ حاولت تغيير مشروع الاتفاق الذي كان الملك مستعداً لبدء محادثاته مع إسرائيل على أساسه .

وتراجع ياسر عرفات في الكويت عن اتفاقه مع الحسين بعد أن بلغه أن الأجنحة الأكثر تطرفاً داخل منظمة التحرير الفلسطينية ترفض أن يمثلها الأردن في المحادثات التي لا تلبي على أي حال مطلب منظمة التحرير المعلن ، وهو إقامة دولة فلسطينية مستقلة . وهكذا فإن خطة ريغن التي ولدت وسط خرائب الحرب اللبنانية وجلاء المنظمة بعد ذلك عن بيروت ماتت ، لا بسبب عدم الاهتمام بها بل بسبب انقسام العرب .

وكذلك فإن الفرص التي أتاحها الأميركيون لم تحمل «الحل» لنزاع الشرق الأوسط كما رأى كاسبر واينبرغر في بيروت خلال شهر أيلول/ سبتمبر الماضي . وكل ما كان الفلسطينيون سيحصلون عليه هو العيش في بلاد يحكمها الأردنيون بدلاً من الإسرائيليين ، وبلا حكومة وطنية أو علم وطني أو جوازات سفر فلسطينية .

في منتصف شهر نيسان/ أبريل سافرت بالطائرة إلى الأردن لأكتب عن موت خطة ريغن ومستقبل الفلسطينيين بعد أن انهارت واجهة من واجهات السياسة الأميركية في المنطقة . وفي مساء السابع عشر من الشهر ذاته ، تناولت طعام العشاء مع السفير الأميركي في عمان ريتشارد فيتس الذي كان من

أصدقاء الملك حسين . وجلس قبالتي بروس لنجن الذي شغل منصب القائم بأعمال السفارة الأميركية في طهران ، ووجد نفسه رهينة في وزارة الخارجية الإيرانية عام ١٩٧٩ . وتحدث الرجلان طويلاً عن ضعف إدارة الرئيس ريغن وفشله في فهم الأحداث ،واعتماده الدائم المدمر على إسرائيل . وقالا أن الولايات المتحدة لا تتحمل مسؤولياتها إلا في لبنان . لكنهما عبرا عن خشيتهما من أن تنتهي مهمتها هناك بكارثة .

وفي اليوم التالي ـ الثامن عشر من نيسان/ أبريل ـ عدت إلى بيروت على متن طائرة من طائرات الشرق الأوسط . وتوجهت إلى مكتب وكالة الأسوشيتد برس حيث وجدت إيرلين تاترو التي بادرتني بقولها :

ـ حسناً يا فيسك . لقد تنازلتَ وعدتَ إلينا بعد أن فرغت من المآدب في الأردن المشمس . وأنا على ثقة الآن بأنك لن تضيع وقتنا ، فلدينا أعمال كثيرة .

وفجأة اهتز المكتب . وسمعت فاروق نصار يصرخ في الغرفة المجاورة ويقول «يا إلهي . ماذا حدث؟» وصعدنا أنا وإيرلين بسرعة إلى السطح . وإذا بنا نرى في الجهة الشمالية الغربية سحابة عظيمة سوداء ترتفع بقوة هائلة نحو السماء ـ وكان في وسطها لهب يرتفع مئتي قدم تقريباً . وبهذا انتهى شهر العسل الأميركي في لبنان نهاية وحشية مروّعة .

كانت السفارة الأميركية تقع على البحر على بعد ٥٠٠ ياردة من منزلي و ٢٠٠ ياردة من شقة تاترو . لكن الجيش اللبناني كان يوقف السير في كل الطرقات . وركضت أنا وايرلين عبر الشوارع ، وتجمع مئات الناس خارج المخازن والمكاتب يحملقون في السماء . وكانت سحب الدخان تكبر وتسودّ ، وتحجب أشعة الشمس . ولما بلغنا بيت الممرضات الواقع وراء السفارة وجدنا ممراً يوصلنا إلى ملعب كرة المضرب . وكانت ألسنة النار الأرجوانية وراء الأسلاك على الجهة الأخرى تعلو فوق رؤوس الأشجار . فشدت إيرلين الأسلاك بقوة لعلها تنفذ منها ، ولكن بدون جدوى . وصاحت قائلة :

ـ لعنة الله عليك . كيف يمكننا اختراقك .

وظننت أنها قد تحاول تسلّق الأسلاك كالقردة فقلت لها :

ـ علينا أن نستخدم الدرج خلف منزلك . وبالفعل نزلنا على الدرج إلى منطقة عين المريسة . وعندما أوقفنا مظلي فرنسي صرخنا في وجهه : «صحافة» فقال :

ـ صحافة فرنسية ، نعم . إذهبا .



انفجار السفارة الأميركية في بيروت ـ تشييع الضحايا الأميركيين في مطار بيروت

كان وراء الفرنسي ستار من الدخان الرمادي . فانطلقنا ، ثم توقفنا . كانت السفارة مبنية على شكل مثلث من سبعة أدوار وفيها الإدارة المركزية ولها جناحان . وشاهدنا كرات النار تنطلق من سحب الدخان . فقالت إيرلين وهي تنظر أمامها :

ـ لا أصدق هذا . لا أصدق عيني يا فيسك .

وهبت نسائم البحر على ستار الدخان ودفعته جانباً . فإذا بقلب السفارة قد تهدم ، واختفت قاعدتا الجناحين . لقد أتى الدمار على نصف المبنى وتدلت الطوابق العليا على شكل شرائح كبيرة . وبدا وكأن أحدهم قام بقطع الجزء العلوي من البناء بسكين . وكان وراء كل شريحة طاولات وأجهزة تلفون وسجاجيد وكراسي . ورأينا دبلوماسياً بثيابه الرسمية علقت قدماه بإحدى الشرائح ،وتدلت جثته ورأسه إلى الأسفل ، وذراعاه تتدليان إلى جانب رأسه الأصلع وكأنهما تودعانه .

أخذنا نقفز فوق الجثث المتناثرة لئلا نتعثر بها . وكانت الطريق زلقة بسبب الماء والزجاج والدماء وأشياء أخرى تثير الرعب والهلع . وكان أفراد فريق الصليب الأحمر اللبناني رجالاً ونساء يحملونها على نقالاتهم . واخترق داخل قسم التأشيرات عشرات الرجال والنساء الذين كانوا يقفون صفوفاً للحصول على تأشيرات لزيارة الولايات المتحدة . وعندما أخرج هؤلاء لم يكونوا جثثاً كاملة بل جذوعاً بشرية وأشلاء أقدام وأمعاء تكومت فوق النقالات بينما وضعت الرؤوس المنفصلة داخل إحدى البطانيات . ورأينا إحدى فتيات الصليب الأحمر تجمع البقايا في سلة . كما شاهدنا حارس أمن السفارة الذي قُدّر له أن ينجو . لكنه بدا منذهلاً ومشوشاً بسبب تأثير الانفجار على طبلتي أذنيه . وأخذ يروح ويجيء بين الحطام الأسود ، ثم أخذ يصيح قائلاً :

ـ سينفجر المكان . سينفجر المكان .

وكرر ذلك عدة مرات . وكانت بعض الجثث والأشلاء طافية على مياه البحر .

كل ما عرفناه في الدقائق الأولى أن القنبلة أُدخلت إلى باحة السفارة في شاحنة . ولم يكن أمامها سوى حاجزين هزيلين بلا جهاز إنذار . ولو أطلق حراس السفارة النار عليها لما تفادوا الكارثة . فقد قتلوا على الفور . وكان الانفجار قوياً لدرجة أن نصف السفارة انهار بسهولة وسط ألسنة النار وسحب الغبار ، فقتل كل من بداخلها . ونسف الانفجار آلية عسكرية لبنانية مارة ، وألقى بها في البحر ، بينما تطايرت الجثث إلى علو خمسين قدماً قبل أن تسقط فوق حطام الزجاج والمبنى . وكانت حصيلة الإصابات ٦٣ قتيلاً ومئة جريح .

كما نسف الانفجار ثقة القوة المتعددة الجنسيات بنفسها ورضاها بالواقع ، ودمرت الشعور بالأمن الذي ولده الوجود الأميركي في نفوس عشرات الآلاف من اللبنانيين . ووقع الانفجار بعد أيام قليلة من انهيار مبادرة واشنطن في الضفة الغربية ، وفي وقت كانت الولايات المتحدة تحاول فيه دون جدوى تأمين انسحاب الإسرائيليين والسوريين من البلاد ، فأصاب سياسة ريغن الشرق أوسطية في الصميم .

وحتى بينما كانت ألسنة النار تتلوى في أرجاء السفارة ، زعم بعض الناجين أن الذي كان يسوق السيارة هو أحد الانتحاريين . لكن هل كان هذا ممكناً؟ أعربت في تقريري الذي أرسلته في ساعة متأخرة إلى التايمز عن «شكوكي القوية» حيال هذا الموضوع . وكان اللبنانيون يحرصون على الحياة ويقدرونها . ورأيت أنه من المحتمل أن تكون القنبلة خبئت في إحدى سيارات الشرطة وفُجّرت لاسلكياً . وللمرة الثانية نسيت بعلبك وعقيدة الاستشهاد لدى أولئك الشبان الهادئين .

لم تكد تمر عشر دقائق على الانفجار حتى رن الهاتف من جديد في مكتب وكالة الصحافة الفرنسية ببيروت . وكان المتحدث هو نفس الرجل الذي اتصل في السادس عشر من آذار/ مارس وتحدث مرة أخرى باسم الجهاد الإسلامي . وتحدث بتروٍّ وعناية باللهجة اللبنانية .

قال :

ـ إن هذه العملية جزء من حملة الثورة الإيرانية على الوجود الإمبريالي في العالم . سنستمر في ضرب الوجود الإمبريالي في لبنان ، بما في ذلك القوة المتعددة الجنسيات . قال هذا وأقفل الخط .

واندفع موريس دريبر أحد مفاوضي ريغن خارجاً من سيارته التي كانت خارج السفارة وهو منفعل ودموعه تسيل من عينيه وأخذ يصرخ : «أين زوجتي .؟» وظل يكرر ذلك حتى قال له أحدهم إنها أخرجت من المبنى حية ومصابة بجرح طفيف . ووقف ريان كروكر الذي كان يعمل بالقسم السياسي في السفارة أمام المبنى والدماء تغمر وجهه كرجل ينتظر المصير المحتوم حتى رأى زوجته بين حشد الناجين . واعتقد كلاهما أن الآخر توفي فتعانقا .

واصل الجنود اللبنانيون والفرنسيون سحب الجثث من الأنقاض عند أسفل القسم المركزي للسفارة ، بينما كان بعضهم ينتحب . وعندما اتضح حجم المجزرة أخذ أحد الجنود يصرخ على نحو هستيري . وألقى أحد الجنود الفرنسيين قبعته على الأرض وتسلق جدران السفارة المحترقة . وفيما بعد رأيناه يسير ببطء على طول حافة من الإسمنت حادة كالسكين تعلو أربعين قدماً فوق الأنقاض .

وما لبث أن حشر نفسه في فجوة لينظر إلى أراضي الغرف المنسحقة لعله يعثر على أشخاص على قيد الحياة . وفي هذه الأثناء كانت حاملة الطائرات «غواد الكنال» تتحرك ببطء ، باتجاه الخط الموازي للسفارة ترافقها إحدى المدمرات . وكانتا رمزاً لقوة أصابها العجز .

نسي الأميركيون بسرعة معنى هذا الخراب والدمار ربما لأن ١٧ أميركياً فقط من أصل ٦٣ لاقوا حتفهم ، أو ربما لأن وكالة الاستخبارات الأميركية المركزية (السي . آي . إي) أخطأت فتقاعس أفرادها عن إبلاغ الحكومة الأميركية خطورة الفاجعة الناجمة عن تفجير انتحاري . والواقع أن الذي ساق الشاحنة وانتحر قضى على جميع المسؤولين الكبار في وكالة الاستخبارات والعاملين في المنطقة . وكانوا قد دُعوا إلى بيروت لعقد لقاء في القسم الأوسط من السفارة .

أما السفير الأميركي روبرت ديلون الطويل القامة والأبيض الشعر الذي بدا مرتبكاً عندما تم إخراجه من أنقاض مكتبه فقد نحا في كلامه منحى خاطئاً . إذ قال لنا تلك الليلة ، إن على أميركا أن تواصل جهود السلام في لبنان وأضاف :

ـ سوف تستمر المفاوضات (من أجل الانسحاب الإسرائيلي) . إن ما حدث مأساة . تستطيعون تخيل مقدار حزننا وسخطنا ،ولكن ذلك لن يغير شيئاً ، فالمهمة الأميركية ستستمر .

وهذا ما حدث . فقد واصل المارينز حمل السلاح بلا ذخيرة في قاعدتهم قرب المطار . ولم لا ، ألم يكونوا حماة السلام؟

وظل الأميركيون يسعون إلى تحقيق إنجاز واحد بارز في لبنان ألا وهو إبرام اتفاقية بين لبنان وإسرائيل تقضي بانسحاب القوات الإسرائيلية ، أو معاهدة سلام غير رسمية من شأنها أن تصبح جزءاً لا يتجزأ من عملية السلام الأميركية في الشرق الأوسط . فلو صار لبنان صديقاً لإسرائيل ، وأمكن ضمان عدم مهاجمة إسرائيل من حدودها مع لبنان لكان هذا نصراً سياسياً مساوياً لمعاهدة كامب ديفيد التي أرست أسُس السلام بين مصر وإسرائيل . ومن شأنها أيضاً أن تزيد من عزل الاتحاد السوفييتي في الشرق الأوسط ، وأن تجعل المنطقة الممتدة من شمالي لبنان إلى الحدود الليبية المصرية هلالاً يضم دولاً موالية للغرب .

وتفاوض الوفدان اللبناني والإسرائيلي في سلسلة اجتماعات عُقدت بالتناوب في مستوطنة كريات شمونة الإسرائيلية وفي فندق على شاطىء خلدة تم إصلاحه . وتداولا في مواد الاتفاقية ، وطلب الإسرائيليون في أحدها حقوق تسيير طائرات العال من مطار بيروت . وحاول أنطوان فتال ـ ممثل لبنان في المفاوضات ـ أن يبقي عل مظهر السيادة اللبنانية . فقال إن لبنان دولة صغيرة غير قوية

لكنه مع ذلك يستحق أن يُحترم استقلاله . وطالب فتال في إحدى مراحل المفاوضات وحين طرح اقتراح يسمح لإسرائيل بموجبه بتسيير دوريات في جنوب لبنان بأن يخفض عدد القوات الإسرائيلية هناك .

وفي نهاية كانون الثاني/ يناير ١٩٨٣ أشار وفد فتال إلى أن الإسرائيليين لا يهتمون كثيراً بالحقوق الوطنية في «الذكرى الخمسين لوصول هتلر إلى الحكم» ورأى ديفيد كيمحي الممثل الإسرائيلي أن اللبنانيين يتصلبون في مواقفهم . وكتب في بيان من صفحتين مطبوع على ورق زهري أنه «إذا خضع لبنان لضغوط الدول العربية وأوامرها فسوف يعود مرة أخرى إلى عهد الضعف وعدم الاستقرار وإلى جو العنف «والإرهاب» . ولما كانت إسرائيل قد غزت لبنان قبل ستة أشهر ، فقد اعتقد اللبنانيون أن «الضغوط والأوامر» تصدر في الأغلب عن إسرائيل وليس عن العالم العربي . لكنّ خطأ كيمحي الحقيقي كان واضحاً لكل من كان يقف خارج فندق خلدة . إذ كنا نسمع دوي القنابل في مرتفعات الشوف الجبلية ونحن ننتظر خروج الوفود من اجتماعاتهم .

باقتراب الربيع (١٩٨٣) صارت الحرب الأهلية بين الدروز والموارنة أكثر شراسة ، وأخذ لبنان ينزلق إلى ما كان عليه من «ضعف وعدم استقرار» ، حتى عندما كان الوفدان اللبناني والإسرائيلي يجريان مباحثاتهما في خلدة أي في المنطقة التي كانت تحتلها القوات الإسرائيلية . وأخبرنا الكتائبيون فيما بعد أن شارون هدد بسحب الجنود الإسرائيليين إلى صيدا والتوقف عن دعم المسيحيين هناك في الجبل ـ الأمر الذي كان يعني نهاية المسيحيين هناك ـ إذا لم يدعم المارونيون محادثات الانسحاب .

وطار شولتز إلى دمشق في محاولة يائسة لإقناع سوريا بقبول اتفاق الانسحاب اللبناني الإسرائيلي . وبعد محادثات استغرقت أربع ساعات مع الأسد الذي كان لطيفاً ولكن معادياً للاتفاق في ٨ أيار/ مايو ، ظهر شولتز في بيروت وأعلن «أنه من الإنصاف القول بأنهم ـ أي السوريين ـ ليسوا متحمسين للاتفاق» . ومع هذا فإن شولتز كان يأمل في أن يقوم السعوديون بتهدئة الأسد . وكان الجميّل يريد من القوات الأميركية والفرنسية المشاركة في القوة المتعددة الجنسيات أن تدخل إلى الشوف عندما يتركه الإسرائيليون . على أن هذا لم يرق للأميركيين . وفي الصباح الذي تلا وصول شولتز إلى بيروت غرقت التلال فوق المطار في دخان النيران والانفجارات عندما أخذ الدروز يطلقون القنابل من عيار ١٢٠ ملم من محيط بيروت الغربية على بيروت الشرقية حيث أخذت تسقط بمعدل قنبلة في كل عشر ثوانٍ . وكان من الممكن رؤية المسلحين الكتائبيين يردون على ذلك من فجوة في تلة فوق مقر القائد البريطاني الكولونيل كوشران . وقبل الطرفان بوقف الاشتباكات قبل وصول شولتز بالطائرة إلى المطار ، ولكنها استؤنفت فور مغادرته له .

إن الاتفاق اللبناني الإسرائيلي حول الانسحاب الذي تم التوصل إليه في ١٧ أيار/ مايو بدا أنه ينص على استقلال لبنان واحترام سيادته ونقض جميع المعاهدات والقوانين المعادية لكل من الطرفين ، وإنهاء «حالة الحرب» التي كانت قائمة نظرياً منذ عام ١٩٨٤ . كما أنه ـ أي الاتفاق ـ كان يقضي بانسحاب ٢٥,٠٠٠ جندي إسرائيلي من لبنان . على أن «ملحقاً أمنياً» له ، نص على قبول مقاتلي حداد في قوات الجيش اللبناني التي ستقوم بحفظ الأمن في غالبية الجنوب اللبناني بمرافقة الجنود الإسرائيليين في «مركزين للإشراف على الأمن» داخله ، وعلى قيام كل من إسرائيل ولبنان «بمنع دخول أو نشر أو مرور . . . قوات عسكرية . . . أو أي دولة معادية للطرف الآخر في منطقتها» . وبعبارة أخرى كان على السوريين أن ينسحبوا من لبنان .

فلا عجب إذن أن الأسد أعلن أن الاتفاق «يهدم سيادة لبنان واستقلاله ويخضع لبنان للهيمنة الإسرائيلية والاستعمارية ، ويشكل خطراً جسيماً على أمن سوريا» . وأعرب الرئيس السوري عن مخاوفه أمام فريق من الدبلوماسيين الألمان الغربيين في قصره بدمشق . وأمر أحد رجاله بنشر خريطة ضخمة لسوريا ولبنان وشمال إسرائيل ثم تناول مسطرة وركع على ركبتيه وأخذ يشرح كيف تستطيع إسرائيل مهاجمة سوريا إذا نُفّذ الاتفاق اللبناني السوري حول الانسحاب .

كان كلام الأسد محدداً ودقيقاً . إذ أوضح أنه إذا أرادت إسرائيل خلق المتاعب لسوريا في المستقبل فإنها ستعيد قواتها إلى لبنان . وحتى إذا عارض اللبنانيون ذلك في «لجنة الارتباط المشتركة» التي ينص عليها الاتفاق ، فإنه سيكون باستطاعة الولايات المتحدة بوصفها طرفاً في اللجنة أن تصوّت إلى جانب إسرائيل وأن تسمح بذلك لها بمهاجمة سوريا من الأراضي اللبنانية . وأخذت مسطرة الأسد تنتقل فوق الخريطة من البقاع إلى حدود سوريا باتجاه حمص ، ومن شمال لبنان إلى مدينة حماة . وأعلن أن بقاء إسرائيل في لبنان يهدد سوريا كما يهددها الاتفاق اللبناني الإسرائيلي .

ورأى الأسد أن اتفاق ١٧ أيار/ مايو يقدم مكافأة لإسرائيل على غزوها للبنان ، وأن عليه لحرمانها من هذه المكافأة أن يبقي جيشه في لبنان ، وأن يدعم السياسيين اللبنانيين ومقاتلي الميليشيات اللبنانية الذين يعارضون المعاهدة التي ترعاها الولايات المتحدة .

وجاء الرد السوري على الفور . وبينما كنت أقطع سهل البقاع رأيت القوات السورية تقيم الاستحكامات الترابية الضخمة ومرابض للدبابات وللمدافع المضادة للدبابات من الإسمنت ، وتنصب الرادارات حول قرية تربل ، وتجلب شاحنات محملة بالفدائيين الفلسطينيين من دمشق . ولم تكد تمر ساعات على توقيع اتفاق ١٧ أيار/ مايو الذي وقعه دريبر عن الولايات المتحدة حتى أعلنت

سوريا أن دمشق لا ترحب بعد اليوم بفيليب حبيب ، كبير مفاوضي ريغن في الشرق الأوسط[٧] . وسُدّت جميع الطرق التي تمر بالخطوط السورية في الجبال فوق بيروت أكثر من يوم . وكان معنى هذا واضحاً . فإذا صدّق الجميّل المعاهدة مع إسرائيل ، فلن يكون له أي نفوذ في لبنان تحت ظل السوريين .

ومن ثم لم يقم الجميّل بأية خطوة نحو توطيد الاتفاق إلا وجعله السوريون يدفع المزيد من الثمن . فعندما صادق البرلمان اللبناني على المعاهدة في ١٥ حزيران/ يونيو أعلنت الإذاعة السورية أن أعضاءه باعوا بلادهم للشيطان . وقام الدروز والشيعة بتشجيع من السوريين بتحويل بنادقهم لا إلى الجيش الإسرائيلي وحده ، بل وضد الحكومة اللبنانية . وسمح السوريون لياسر عرفات بالعودة إلى لبنان للاجتماع بأتباعه في البقاع .

وفي واشنطن أطلق ريغن العنان لأسوأ شكوكه في الاتحاد السوفييتي . وكان اعتبار كل ما هو غربي جيداً وكل ما هو مناهض للأميركيين سيئاً عصب السياسة الأميركية في الشرق الأوسط . وكان السوفييت يتبعون سياسة معاكسة . وعندما فُرضت السياستان على الشرق الأوسط أصابهما التشويه بشكل بشع ، ولكن أصبح من المستحيل تجاهلهما . وهكذا جرى تشجيع الأميركيين على الاعتقاد بأن موسكو كانت وراء الإجراءات السورية .

وفي حين أن مناحيم بيغن رئيس الوزراء الإسرائيلي شجع هذه الفكرة ، فإن جورج شولتز وزير خارجية الولايات المتحدة لم يشاطره رأيه ، واعتقد أن لدى الأسد من الثقة في نفسه ما يجعله يتصرف تصرفاً مستقلاً . لكن المسؤولين في السفارة الأميركية ببيروت أبلغوا الصحفيين بأن هناك تقارير «موثوقة» عن وجود عسكريين سوفييت في البقاع . وداخلنا الشك في أن الأميركيين عمدوا إلى ترويج تلك القصص في محاولة منهم لضمان دعم داخلي لسياستهم في لبنان التي كانت تواجه معارضة في الكونجرس . ومهما يكن من أمر فإننا لم نستطع التثبت من صحة تلك الإشاعات[٨] .

---

(٧) إن الذي قضى على فيليب حبيب هو وقف إطلاق النار الذي رتبه بين القوات السورية والإسرائيلية خلال غزو لبنان عام ١٩٨٢ . وتقول المصادر السورية إن هدنة ١٠ حزيران/ يونيو قبُلت على أساس أن إسرائيل ستنسحب انسحاباً كاملاً من لبنان حالما يسري مفعول وقف إطلاق النار . وقال الأسد بأن فيليب حبيب وقّع وثيقة تنص على هذا . ولكن الأميركيين نفوا وجود هذا الاتفاق ووصفوا هذا الأمر - بشكل غير مقنع - بأنه «سوء تفاهم» . أما الضربة القاضية التي تلقاها حبيب فكانت الاتفاق اللبناني الإسرائيلي حول الانسحاب .

(٨) وجدت خلال أربع زيارات للبقاع أن أكثر الروس إثارة للريبة هو الملحق العسكري الروسي بدمشق الذي كان يقوم بزيارات أسبوعية منتظمة إلى البقاع لشراء السجائر والمشروبات بأسعار رخيصة . ولما كان الدبلوماسيون البريطانيون بدمشق يفعلون الشيء ذاته ، فإنه لا يمكن اعتبار ما كان يقوم به الروسي مزيداً من تدخل دولة عظمى بلبنان .

لكن من المؤكد أن السوفييت كانوا على استعداد للسماح لاستخباراتهم بمساعدة سوريا . ففي أواسط حزيران/ يونيو أرسلت البحرية السوفييتية الطرّاد سدرجاني وهو من نوع كاشن ووزنه ٤,٧٥٠ طناً مع بارجة وسفينة لجمع الأخبار إلى موقع يبعد خمسة أميال عن الساحل اللبناني . وأخذت هذه القطع البحرية الثلاث تجوب الساحل جنوب بيروت ربما لالتقاط الاتصالات الإسرائيلية التلفونية في محاولة لاكتشاف الموعد الذي يعتزم فيه الجيش الإسرائيلي الانسحاب من الشوف . وكانت المقاتلات الإسرائيلية تلقي خلال الليل مواد لتعطيل أجهزة الاتصالات السوفييتية . وأرسل السوفييت مستشفى عائماً إلى ميناء اللاذقية ، وذلك احتياطاً كما ظننا لتعرّض مواقع صواريخ سام ـ ٥ للغارات الإسرائيلية .

واتسمت تصرفات الأميركيين بعصبية واضحة . وكنت أنا وتيري أندرسون وزوجته وابنته نجلس على الشرفة المطلة على البحر نرقب أضواء المدمرات والبوارج الأميركية ، وكل اثنتين منها تتحركان معاً وتذرعان الساحل جيئة وذهاباً ، فتزيدان من سرعتهما عندما تصلان إلى رأس شبه جزيرة بيروت ، ثم تدوران فجأة حول الميناء قبل أن تعودا جنوباً . وكانت قد صدرت الأوامر للسفن بأن تتحرك باستمرار خوفاً من أن يقوم رجال الضفادع بربط الألغام بها ، كما أُمر البحارة بحمل الأسلحة الأوتوماتيكية دائماً وإطلاق النار على من يظهر في البحر . وكان البيت الذي نعيش فيه أنا وأندرسون يجاور السفارة البريطانية حيث كانت السفارة الأميركية تعمل بصورة مؤقتة . وكنا نشاهد تحت شرفتنا عربة أميركية برمائية مسلحة يستخدمها المارينز . ونُشرت على سطح السفارة أغطية واقية من الصواريخ تدلت على جوانبها . وبدا من فيها وكأنهم يعيشون بالقرب من قنبلة ينتظر أن تنفجر .

ووقعت الدول الغربية في الشرك . إذ عجز الجميّل عن كسب إجماع سياسي في بلاده ، ووقع نظامه تحت سيطرة الكتائب ، واعتبرت سوريا حكومته غير شرعية . ولم يُقدّر لاتفاق ١٧ أيار/ مايو ـ أي الانجاز السياسي الأميركي الوحيد ـ أن يرى النور لأن سوريا لم تسحب قواتها . وكان ترك الإسرائيليين للشوف في حالة الفوضى التي كانت تسوده سيؤدي إلى تورط جيش حكومة الجميّل في القتال ، وبالتالي إلى اشتراك الجيوش الغربية في الحرب الأهلية اللبنانية .

كان الجميّل في واشنطن في ٢٠ تموز/ يوليو عندما أعلن الإسرائيليون أنهم على وشك الانسحاب من الجبل . فاستولى الرعب على السفراء الغربيين ببيروت . وفي حين أن الأوامر صدرت للجنود الفرنسيين بالقيام مؤقتاً بمرافقة الجنود اللبنانيين بالشوف ، انتشر المارينز على الطريق الساحلية حتى الخط الأمامي الإسرائيلي الجديد على نهر الأولي . غير أن الدروز الذين كانوا يسيطرون على الطريق الرئيسي وعلى الجبال قالوا بأن الجيش اللبناني يسمح للكتائبيين بذبح السكان من الدروز . فما هو الثمن الذي كان على ريغن الآن أن يدفعه مقابل التزامه بسيادة لبنان؟

كان في نية السوريين أن يجعلوا ذلك الثمن باهظاً . فأخذ السوريون يزودون الدروز في منطقة الشوف بالكاتيوشا ، وشجعوا جنبلاط على إنشاء جبهة الإنقاذ الوطنية المقابلة لإدارة حكومة الجميّل . كما أخذوا يجلبون المزيد من الحرس الثوري الإيراني إلى لبنان . وفي بعلبك مُزّق العلم اللبناني في مكتب المحافظ . ولم يبق في الشوارع سوى علم الجمهورية الإسلامية بإيران . وصار لهب النار في الشوف يبعث شعاعاً من الرضى في دمشق .

وإذا كان اتفاق أيار/ مايو قد أصاب سوريا بنكسة ، فإن الإسرائيليين تخلوا بالفعل عن كل مسؤولياتهم في الجبل وتركوا الساحة للمجازر المتبادلة بين الدروز والمسيحيين . وادعى الإسرائيليون أن عمر الصراع بين الطرفين يزيد على قرن من الزمن . وما لم يذكروه هو أن ذلك الصراع ظل منذ ١٨٦٠ خامداً حتى مجيئهم في عام ١٩٨٢ . وتحولت حياة ٤٠٠,٠٠٠ مدني يعيشون في رقعة جبلية لا تتجاوز مساحتها ٢٠٠ ميل مربع إلى كابوس . ففي حين أن الكتائب والدروز كانوا يتبادلون القصف ، أخذ المغامرون من مسلحي الطرفين يهاجمون القرويين ويغتصبون النساء .

وبالقرب من دير القمر ، وعلى بعد ٦٠٠ ياردة تقريباً عن نقطة تفتيش إسرائيلية ، قام مسلحو الكتائب بخطف سائقي السيارات الدوزر من سياراتهم . واختاروا خمسة عشر شاباً وأبعدوهم عن زوجاتهم وأطفالهم وأجبروهم على السير إلى جسر قديم فوق مجرى صخري ضيق . وسار هؤلاء واحداً بعد الآخر نحو الجسر . وكان إذا وصل أحدهم إلى منتصف الجسر قام رجل بغرس سكين طولها قدمان في قلبه وبإلقاء جثته في المجرى . وحدث أن أخطأت السكين قلب أحدهم ؛ وعندما هوى وقع على جثث رجال طائفته ، مما خفف من أثر الارتطام فقدّر له أن يبقى حياً وأن يروي قصة ما حدث . وربما كان هذا هو السبب في أن الجثث التي وجدت فيما بعد كانت بلا ألسنة .

ولقي الأسرى المسيحيون المصير ذاته وأحياناً بعد أن صُبّ الماء الغالي على أجسادهم العارية أثناء تعذيبهم في قبو ببيت الدين . وعندما حاولت أنا وتاترو أن نذهب بالسيارة إلى دمشق عبر الخطوط الدرزية المسيحية ، أقبل مسلح مسيحي عليه سترة سوداء راكضاً نحو الطريق وشهر مسدسه الصغير . وعندما توقفنا ، تقدم منا بسرعة . وكان ضخم الجثة وحول عنقه صليب طوله ست بوصات . وصوّب مسدسه إلى رأسي وقال : «إلى أين يا ابن (الفاعلة)؟» وعندئذ خَرجتْ من البيوت المدمرة خلفه زمرة من ذوي اللحى القذرة والملابس الوسخة وبأيديهم بنادق وسكاكين وأخذوا يسيرون نحونا .

إذن هكذا كانت تجري الأمور . ولا بد أن هذا هو ما كان يحدث للدروز . كان يوقفهم مسلح ولا

يلبثون أن يجدوا أنفسهم أمام آخرين . وابتسمنا بصعوبة وقلنا أننا صحفيون . فسألوا إن كنا أميركيين أو بريطانيين . وقلت بكلام شبيه بالثرثرة أنني لـم أعرف أن هذه منطقة خطرة وأنني تناولت الغداء مع بشير الجميّل . لكن هؤلاء لم يكونوا من المقاتلين بل من المغامرين الذي يعملون لحسابهم ويقومون بقتل الناس . على أننا لم نكن عادة من ضحاياهم . فذكرنا كذباً بأننا على موعد مع القائد الإسرائيلي ، وأننا سنتناول الغداء معه ، وأن الإسرائيليين سيغضبون إذا تأخرنا كثيراً عن الموعد . وفكر المسلح ذو السترة السوداء في هذا وأدرك أننا كنا نكذب . ولكنه تراجع إلى الخلف وأدار مسدسه ناحية الطريق وقال «انصرفوا من هنا» .

وبعد أيام قليلة حاولت جارة لي درزية جميلة وذكية وتعمل قابلة للمسلمات والمسيحيات على السواء أن تسلك الطريق ذاتها ، فأوقفها المسلحون واعتدوا عليها ، ثم ذبحوها ورموا جثتها في بئر . وكان هذا كله يقع في منطقة كانت الخرائط التي يقدمها الأسرائيليون لرجال الصحافة تشير دائماً إلى أنها تخضع «للسيطرة الإسرائيلية» .لكن الإسرائيليين لم يحموا المدنيين في منطقتهم . ورأيتهم وهم يمرون بسياراتهم بعصابات المسلحين بدون التوقف حتى للتعرف على هويتهم ، هذا بينما كانوا لا ينفكون عن التحدث عن الحاجة إلى القضاء على «الإرهابيين» بينما كان الشوف يعج بالإرهابيين الذين لا يتعرض لهم أحد .

ومنذ بداية العام خُطف أكثر من ألف رجل وامرأة وقتلوا في الشوف . وقام تاترو بزيارة الإسرائيليين عندما قاموا بترتيب تبادل الرهائن . فسلّم الدروز الكتائب مقاتلين مسيحيين بعد أن ضربا بوقت قصير . وقيل لدرزي جاء لاستلام قريب له أن الرجل مات ، وقدموا له كيساً من العظام .

فلا عجب إذن أن عدداً من الدبلوماسيين في القسم السياسي بالسفارة الأميركية قالوا لنا إن الإسرائيليين يريدون أن تستمر الفوضى . وكان من الواضح أنه إذا لم يُعد الإسرائيليون النظام إلى الشوف فإن الجيش اللبناني لن يستطيع إعادته . فكانت إسرائيل تستطيع في حال تعذر فرض سلطة الحكومة اللبنانية عليه أن تتخذ من ذلك مبرراً لبقائها في جنوب لبنان .

انهمرت القذائف على بيروت الشرقية . ولم يكن في استطاعتنا أن نسجل سوى تأثيرها . ففي الشوارع رأيت فتاة في السابعة من عمرها مقتولة وممدة بجانب لعبتها ورجلاً مسناً قطعت القذائف رأسه . وفي ٢٢ تموز/ يوليو انفجرت في المطار صواريخ الكاتيوشا التي أطلقت من المنطقة الدرزية الواقعة في منطقة الاحتلال الإسرائيلي على الجهة الأخرى من طريق صيدا . وضربت الصواريخ المدرجات وكادت تصيب طائرة تابعة للخطوط الجوية القبرصية كانت على وشك الإقلاع إلى

لارنكا ، وأجبرت طياري القوات الجوية اللبنانية على أن يبعدوا طائرات الهوكر هنتر بينما كان الركاب والمستخدمون في خطوط الطيران المذعورون يبعدون سياراتهم عن القاعة الرئيسية للمطار . وتوفي أحدهم وهو يحاول الفرار إلى الطريق الرئيسي . وكان أحد الصواريخ قد اخترق شجرة فوقه وسقط على ظهر سيارته وانفجر داخلها . وشاهدت ما تبقى منه بعد ذلك ببضع دقائق . كانت قد قطعت يده وهي لا تزال ممسكة بعجلة القيادة في سيارة من طراز بيجو . وأصابت الشظايا ستة عشر آخرين بينهم اثنان من المارينز ومراقب جوي من البحرية الأميركية .

وكان الجنرال أنجيوني قائد القوات الإيطالية على الجانب الآخر من القاعة الرئيسية ينظر إلى حُفرة أحدثها الصاروخ . وقال لي وهو يشير إلى أثر الانفجار على الإسفلت الذي كان يشبه النجمة :

ـ هل ترى هذا يا روبرت؟ إنه هدية من الدروز لنا . جميعهم الآن يرسلون لنا الهدايا . فالناس هنا كرماء ويحبون تقديم الأشياء للآخرين . وسيتلقى الأميركيون الآن الهدايا .

ونظر إليّ كمن يحاول أن يعرف ما إذا كنت فهمت ما كان يعنيه . وسألته إن كان يعني أن الجيوش الثلاثة (المشاركة في القوة المتعددة الجنسيات) قد أصبحت طرفاً في الحرب . فقال : «سنرى» .

أُطلقت تلك الصواريخ من بحمدون ، أي من مسافة نحو ميل في منطقة الاحتلال الإسرائيلي . وفي تلك الليلة قتل القصف تسعة مسيحيين آخرين في بيروت الشرقية . ووقف المارينز موقف العاجز عن عمل شيء . كانوا يسيطرون على المطار لكنهم لم يستطيعوا إبقاءه مفتوحاً . وتوقفت جميع الرحلات .

وطغى انشغالنا بتوسع القتال حول بيروت على كل شيء ، فكدنا لا نلحظ أمراً غريباً ،وهو ظهور ديفيد دودج نائب رئيس الجامعة الأميركية ببيروت الذي كان قد خُطف خلال حصار المدينة عام ١٩٨٢ . عاد إلى بيته في أميركا بعد أن احتجز عدة أشهر في إيران . وامتنع هو كما امتنعت الحكومة الأميركية عن توضيح ما حدث له . لكن الرئيس ريغن شكر علانية الرئيس الأسد وأخاه رفعت على مساعدتهما في إطلاق سراح دودج . ومرة أخرى تظهر إيران . وقال المراسلون اللبنانيون أن دودج قضى جزءاً من فترة احتجازه في قرية الزبداني وفي بيت يسيطر عليه الحرس الثوري الإيراني .

لكن بالرغم من تساهل السوريين في أمر احتجاز دودج فإنهم ظلوا على معارضتهم الشديدة للخطط الأميركية في لبنان . وعندما قام روبرت مكفرلين الضابط الحربي السابق الذي خلف فيليب حبيب كمبعوث للرئيس ريغن بزيارة دمشق في محاولة لإقناع السوريين بسحب قواتهم ، استقبله عبد

الحليم خدام وزير الخارجية بمحاضرة قصيرة ولكن واضحة الهدف . قال خدام إنه يرحّب بمكفرلين في دمشق لكي «يعرف المزيد عن مشكلات المنطقة ولبنان» . ولم يرد أي ذكر فيما قاله لانسحاب القوات السورية أو أي تلميح إلى أن الرئيس السوري قد يرضى عن حكومة الجميّل . وكان مكفرلين يستمع وهو صامت ، ويسجل ملاحظات متفرقة على أوراق صفراء ويجيب على ما يُسأل بابتسام .

وفي العاشر من آب/ أغسطس ١٩٨٣ أمر الجميّل الجيش اللبناني بالرد على قصف الدروز لبيروت . فبدأت مدافع الهاون التابعة للجيش والمنصوبة قرب طريق المطار تطلق قذائفها على الشوف . فرد الدروز بصواريخ الكاتيوشا . وعندما وصلت إلى القاعدة الأميركية بالمطار وجدت المارينز في مخابئهم وقال أحد ضباطهم وهو يدفعني أنا وخمسة من المارينز إلى الخندق :

ـ أصبحنا في الحالة الحمراء . انزل إذا كنت لا تريد أن تموت .

كانت الشظايا قد أصابت أحدهم في عنقه وأخذ الدم يسيل على قميصه . وفي تلك الأثناء كانت الأرض تهتز بسبب إطلاق المدافع وسقوط الصواريخ الدرزية .

وبعد ساعة وصل مكفرلين في سيارة إلى السفارة الأميركية . وعندما خرجت من أحد المخابىء رأيته يسير بنشاط وسط القتام والدخان باتجاه غرفة عمليات المارينز . ووجدت نفسي كمراسل في فيلم سينمائي من الثلاثينات أسير إلى الخلف أمامه وبسرعة كبيرة ومعي كراستي وأسأله :

ـ هل من تعليق يا مستر مكفرلين .

لم أكد أتم كلماتي حتى انفجرت الصواريخ مرة أخرى ، فحملق مكفرلين فيّ من خلال الدخان كما لو كنت مجنوناً وقال :

ـ وهل هناك ما يستحق التعليق؟

قال هذا واختفى في غرفة العمليات .

وفي ١٦ آب/ أغسطس وصل موشي أرينز وزير الدفاع الإسرائيلي الجديد إلى بيروت الشرقية بدون دعوة من الجميّل لتقديم تحذير له ، فحواه أن إسرائيل سوف تنزع السلاح من الميليشيات في الشوف ، وأن المفاوضات بين الكتائبيين والدروز ستبدأ لأن إسرائيل تعتزم الانسحاب من الجبال حتى ولو لم يتوقف القتال بين الجانبين . قال :

ـ ليس لدينا أية نية في البقاء بلبنان يوماً واحداً أكثر مما هو ضروري .

كانت عبارة «لا (نبقى) يوماً واحداً أكثر» قد أصبحت كالدعاء أو الطقوس الدينية . وعندما سألت أرينز عن اليوم الذي أخذت فيه أمور إسرائيل في لبنان تسوء ، تجهم وجهه وسأل :

ـ ماذا تعني بقولك «أخذت تسوء»؟ ما الذي ساء؟

وبدا وكأن مكفرلين وأرينز قد أصمّا آذانهما عن سماع دوي المدافع التي تردد بيروت صداها .

كان قد حل محل ميد في قاعدة المارينز قائد جديد وهو الكولونيل تيموثي جيراغتي وهو متدين ، دمث ، ولطيف لا تفارق البسمة شفتيه ، ولا يعرف الخوف . وبالرغم من أنه سبق له أن طاف في مقاطعة روسكوموت بإيرلندا بحثاً عن قبور أجداده ، فإنه لم يستطع أن يحل عُقد الحرب اللبنانية . ومن عاداته المزعجة أنه كان يسأل الصحفيين عما يجري في بيروت . ومن الجائز أنه كان يفعل هذه من قبيل التأدب ، ولكننا لم نستبعد أنه كان يفعل ذلك بسبب القصور الشديد لضباط المارينز الذين يعملون بالمخابرات . وفي الأيام التي تلت اتفاق ١٧ أيار/ مايو ضمّن جيراغتي تقاريره أخبار عدد من الحوادث الصغيرة والمزعجة . فخلال دوريات المارينز في برج البراجنة وحي السلم ـ وهما الحيان الفقيران المجاوران للمطار ـ بدأ الشبان بشتمهم وإلقاء الحجارة عليهم[(٩)] . وكان الأميركيون يرفضون الرد على ذلك ، لكنهم لم يفهموا سببه . ألم يأتوا إلى لبنان لحماية اللبنانيين؟

وفي أواخر آب/ أغسطس قام معارضو الجميّل بأولى محاولاتهم لإحداث انقلاب في البلاد . إذ شهدت أحياء برج البراجنة والبسطة والشياح عودة الميليشيات الإسلامية التي قامت بجهد قوي منسّق لانتزاع بيروت الغربية من الجيش اللبناني . فأخذت تهاجم مراكز الجيش اللبناني قرب المطار وعلى ساحل البحر وداخل ضواحي بيروت الجنوبية . وفي الوقت ذاته أخذت بطاريات المدافع المنصوبة في تلال المتن الواقعة شمالي الشوف والتي كانت تحت سيطرة السوريين تطلق قذائفها على بيروت الشرقية . وبينما كان مجلس الوزراء يعقد اجتماعاً استغرق النهار بطوله ، والقذائف تحطم زجاج القصر ، عاد مكفرلين إلى لبنان وهو يشعر باليأس الشديد .

ولم يأبه جنود الجميّل للكلفة في أرواح المدنيين ، فأخذوا يقاتلون في سبيل الخروج من منطقة الميناء التي كان كثرة منهم قد حُشروا فيها ، واستخدموا نيران الدبابات لشق طريقهم نحو منطقة الحمراء . وقد واجهوا إحدى أشرس معارك المقاومة في أزقة وادي أبو جميل ، الحي اليهودي

---

(٩) من أروع ما كتب عن تورط الأميركيين المفجع في الحرب اللبنانية هو الذي نشره توماس فريدمان مراسل «النيويورك تايمز» ببيروت . راجع : «فشل أميركا في لبنان» في مجلة النيويورك تايمز ٨ نيسان/ أبريل ١٩٨٤ .

القديم ، حيث راح مسلحون من الشيعة ـ من حركة أمل ، ومن تنظيم جديد موال لإيران لم نكن بعد قد تأكدنا من هويته ـ يطلقون النار من سطوح المنازل . وكان المسلحون الذين رأيتهم فتياناً يحمل أكثرهم المسدسات . وكان الجيش قد صادر بنادقهم خلال الشتاء السابق . لكن بعضهم ـ كما لاحظت ـ كانوا ذوي لحى مدببة مرتبة وأوشحة عليها كلمة واحدة ـ الله .

وأصدر جنبلاط من دمشق سلسلة من التصريحات المثيرة ضد الجميّل وصفه فيها بأنه جزار ، ووصف هجوم الجيش المضاد على بيروت الغربية بأنه «مجزرة شبيهة بمجزرة صبرا وشاتيلا» . وكانت نيران دبابات الجيش تنهمر على الحمراء والدبابات تشق طريقها من خلاله . وانزوى موظفو الأسوشيتد برس في آخر المكتب . وكانوا أحياناً يتسللون إلى غرفة التلكس المكشوفة لإرسال الأخبار إلى نيويورك . وبعد ظهر الحادي والثلاثين من آب/ أغسطس انفجرت القذائف خارج المكتب . وفاحت رائحة المتفجرات في أرجاء الغرف . وعندما اندفعت نحو غرفة التلكس لأبعث برسالة إلى التايمز انفجرت قذيفة قريبة من البناية إلى حد أنني رأيت الوميض الأصفر والأبيض قبل أن تتهاوى أطنان الزجاج على الطريق في الخارج .

كان الجيش اللبناني عندئذ منهمكاً في القتال . لكن تفوّقه في السلاح أجبر رجال الميليشيات على التراجع إلى الأحياء الفقيرة . وتحدثت الإذاعات المسيحية عن مجزرة للأسر المسيحية في تلال المتن ، فقالت إن دروز بمريم انتقموا لهجوم الجيش على بيروت الغربية بذبح أربعة وعشرين شخصاً غالبيتهم من النساء والأطفال . وفي برج البراجنة ظهر المسلحون الملثمون في الشوارع ومعهم أسلحة جديدة بما فيها الرشاشات وقاذفات الصواريخ اليدوية . وفي هذه اللحظة بالذات قرر الإسرائيليون الخروج من الشوف .

وأبلغ الإسرائيليون الجيش اللبناني قرارهم قبل رحليهم بأربع وعشرين ساعة . وساد جو من التوتر اجتماع المراسلين ومندوبي التلفزيون في فندق الكومودور الذي نسفت القذائف نوافذه خلال القتال في اليوم السابق . والواقع أن نطاق القتال وشراسته ملأ قلوبنا بالخوف . وفي ليل ٥ أيلول/ سبتمبر أعرب عدد منا عن خوفه من وقوع إصابات بين الصحفيين إذا واصلنا نقل أخبار المعارك من ساحاتها . ولم يشك أحد منا في أنه ستقع مجازر بعد رحيل الإسرائيليين . وكنا نعلم أن الإسرائيليين قد استعدوا لإطلاق القنابل الضوئية عندما تخرج آخر آلياتهم من كل بلدة في الجبال ، وذلك إشارة منهم لرجال الميليشيات بأنهم يستطيعون تحطيم بعضهم بعضاً إذا أرادوا . وكان قد ذهب إلى الشوف عدد من المراسلين لمشاهدة ما سيحدث . وذهب غالبيتهم إلى القرى الدرزية اعتقاداً منهم بأن الدروز سيهزمون الكتائبيين . فكلارك تود الذي يعمل لحساب التلفزيون الكندي اصطحب

رجال شركة إي . بي . سي إلى قرية كفرمتى التي تطل على الطريق الساحلية والبحر . وقررنا أنا وفارامارزي من الأسوشيتد برس أن نغطي التراجع الإسرائيلي من المنطقة المسيحية الواقعة على طريق دمشق الدولي فوق الكحالة .

وصلنا في الثانية صباحاً . كانت الأسر المسيحية على الشرفات تنتظر الفجر بقلق وأعينهم مركزة على خط التلال القاتم فوقهم . وكانت أسهم الاشارة الإسرائيلية الضوئية تتوهج توهجاً باهتاً فوق التلال . كانت تُطلق فوق قمم الجبال ثم تهوي ببطء عبر غطاء السُحُب بوميض أصفر فوسفوري يحوّل الظلام إلى نور بلون الخردل . ولم تلبث أن ظهرت عبر هذا الضباب عشرات الدبابات والشاحنات الإسرائيلية والآليات المجنزرة وناقلات المسلحين المدرعة . وعندما مرت بنا رأينا العديد من الجنود الإسرائيليين نياماً محشورين بين زملائهم وقد أنهكهم التعب ، وهم يغادرون الجبال التي دخلوها مبتهجين قبل ذلك بخمسة عشر شهراً .

لم تكن هناك بسمات ولا تلويح للجيش الذي ادعى قبل أشهر كثيرة أنه أراد إعادة السلام والسيادة إلى لبنان . ولم يكن هناك ما يشهد على رحيلهم سوى دوي مدافع السوريين التي كانت تطلق قذائفها بانتظام عبر المتن ، وانفجار القذائف الذي يوقف شعر الرأس على بعد بضع مئات من الياردات .ومال نحونا فتى إسرائيلي من آلية في الظلام الذي أخذ ينقشع وقال :

ـ اسمعوا ذلك . إن السوريين يعرفون أننا راحلون ـ وها هم يرسلون إلينا بعض الأزهار . .

وبدا الاستسلام على من في الشاحنة الإسرائيلية من الجنود . كان بعضهم يغالب النعاس في الخلف لكنهم تنبهوا عندما سمعوا من يتحدث بالإنجليزية . كانوا جميعاً قد تركوا مراكزهم في بحمدون قبل بضع دقائق ويعرفون إلى أين هم ذاهبون : فعندما سألتهم عن وجهتهم قالوا بصوت واحد :«إلى البلاد» وأخذ جندي اسمه موتي يغني . فلما سألته إن كان يريد الرحيل قال :

ـ ماذا تعتقد؟ لا نستطيع أن نفعل شيئاً هنا . المسيحيون والدروز . إنهم مجانين .

وأخذت القذائف السورية تقترب ، وأخذ اللهب الزهري القرمزي يومض على جوانب الجبال فوقنا .

كانت مئة دبابة وشاحنة على الأقل تسير صفاً واحداً على الطريق نزولاً من الجبل إلى بيروت ، وتزحف بسرعة خمسة أميال في الساعة ، وأضواؤها الأمامية تلمع فوق الأعشاب وعلى واجهات الطرق التي ترك الرصاص بصماته عليها . وسرنا معها عبر ثكنات الجيش اللبناني المطفأة الأنوار ،

التي لم يطل فيها أحد من خيمته . ولم نلتق إلا بحارس لبناني واحد بعد أن قطعنا ميلين . وكان يقف على جانب الطريق ، فاقترب منا وسألنا عما يجري . فقلنا له بأن الإسرائيليين يرحلون فقال وكأن لبنان ليس بلده ، وكأن الشوف ليس منه :

ـ إذن هذا هو سبب كل تلك الضجة .

عند الفجر كنا نمر ببعبدا التي انطلقت منها أول دبابة إسرائيلية لحصار بيروت قبل ذلك بخمسة عشر شهراً . وحاول عندئذ ضابط إسرائيلي من الوحدة الطبية وجد نفسه هناك بين أول عشرة إسرائيليين ، أن يفسر للصحفيين المتشككين أن الإسرائيليين قدموا لإعادة النظام إلى البلاد ووقف جميع أعمال القتل فيها . ومن هناك استطعنا أن نرى الشوف حيث كان القتال قد بدأ وأخذت سحب الدخان الأسود تغمر قمم الجبال .

وكان الإسرائيليون ينظرون من آلياتهم نصف المجنزرة إلى التلال فوقهم وهم في طريقهم إلى خلدة على ساحل البحر ، بينما كانت أصداء القذائف التي تنفجر وسط أعمدة اللهب الأرجواني تتردد في الوديان وتعلو فوق جلجلة قوافل الدبابات والشاحنات . وكان الإسرائيليون في خلدة قد استيقظوا من نومهم . ومرّت القوافل تكتنفها سحب الغبار ودخان المحروقات وجنودها يلوّحون ويرفعون شارات النصر ، بينما كان فريقان تلفزيونيان إلى الجنوب منها على جانب الطريق . وشاهدنا بالونين معلّقين على أنتين راديو إحدى الدبابات ، وصورة تنين صفراء على مقدمة آلية نصف مجنزرة . وأوقف جنديان سيارة الجيب التي كانا فيها والتفتا نحو الشوف وأخذا يودعانه بحركات بذيئة .

وظهرت نفاثتان إسرائيليتان عندما كانت آخر الشاحنات قد وصلت . وكان في استقبالها ضباط إسرائيليون أداروا ظهورهم لبيروت وأخذوا يلتقطون صوراً لبعضهم البعض . وتحدث إلينا بعضهم وأصر على أن ما يجري في الشوف لا يعنيهم ، وأن اللبنانيين فشلوا في تسوية خلافاتهم ، وأنهم وحدهم يتحلمون مسؤولية ما يحدث .

لكن أميركا أيضاً كانت مسؤولة عما حدث . فعلى بعد خمسمائة ياردة فقط من المكان الذي كنا نقف فيه كان صف من المارينز في المخابئ يرقب الإسرائيليين وهم يغادرون بيروت .

إن الغزو الإسرائيلي هو الذي أدى إلى قدوم الأميركيين إلى بيروت ، كما أن إسرائيل هي التي تخلت عندئذ عن أطماعها السياسية في لبنان التي يدعمها الأميركيون وشاركوا فيها . وإسرائيل هي التي أسندت الرئاسة إلى الكتائب ، ثم يئست منهم . وبقي على الأميركيين أن يدعموا نفوذ الجميّل

المتداعي وسط حرب أهلية كانت تهدد المدينة بأسرها . وإذا عدنا إلى الوراء وجدنا أن انسحاب الإسرائيليين من الشوف هو الذي قضى على المارينز .

وربما نسي البعض أنه عندما ينسحب جيش لا بد أن تبقى وراءه دبابة . وكانت هذه قد وصلت إلى خلدة وبرجها محوّل إلى الخلف وماسورة مدفعها تتحرك يمنة ويسرة . كانت هذه الدبابة مؤخرة الجيش الذي أخرج الفلسطينيين من بيروت ، ولكنه عجز عن جلب السلام إلى لبنان . وكان طاقم الدبابة يلقي بقنابل زرقاء وحمراء وصفراء على جانب الطريق لكي يكون آخر عهد لنا بها لا وسط الغبار وإنما وسط شعلة ذات ألوا ن تصرف المرء عما يجري . وخيّم ما يشبه الصمت على المكان . ولم نعد نسمع سوى جلجلة الجنازير وزمجرة نيران الشوف المتزايدة .

الفصل الرابع عشر

وداعاً يا بيروت

«لن ندع زمرة من الإرهابيين الغادرين الجبناء تزعزع السياسة الخارجية للولايات المتحدة . فلن يُملي الإرهاب السياسة الخارجية ولن يغيرها» .

جورج بوش ، نائب الرئيس الأميركي ، أثناء زيارته موقع مقر المارينز المدمر ببيروت .

٢٦ تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٨٣

«أنا شخصياً أعتبر هذا العمل عملاً صالحاً يحبه الله تبارك اسمه ورسوله صلوات الله عليه . واني لأنحني أما أرواح الشهداء الذين نفذوا هذه العلمية » .

حسين موسوي قائد حركة أمل حول تفجير مقر المارينز الأميركي ، بعلبك ، لبنان .

٢٧ تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٨٣

كان الكتائبيان خائفين . قفزا إلى الطريق وصوّب كل منهما بندقيته على تيري أندرسون وعليّ . وصاح أحدهما :

ـ انصرفا ، انصرفا من هنا .

فأخرج تيري رأسه ونصف جسمه من السيارة . وطلبت منه أن يعود إلى مقعده ، ولكنه ظل ينظر إلى المسلحين وقال :

ـ هوّن عليك . نريد فقط أن نعرف ما إذا كان صعودنا لهذا الطريق مأموناً . فقال الآخر وكان أصغر سناً من زميله .

ـ يا ابن (كذا) . . . قلنا انصرف .

وعندما شاهد الكاميرا أضاف .

ـ لا صور يا . . . لا صور .

كان الجبل فوق الطريق ـ وحتى الهواء ذاته ـ يرددان أصداء إطلاق النار . وتصاعد من التلال إلى الجنوب ستار كثيف من الدخان الأزرق حيث كانت النيران تلتهم الغابات . وأخذ الكتائبي الأصغر سناً يراقب أندرسون وهو يعود إلى مقعده . وكان لا يزال يصرخ وكأن وجودنا كان أكثر خطراً من القذائف التي تئز فوق رؤوسنا . وقال :

ـ لا صور . انصرفا من هنا .

وفهمنا ما يقول . وإذ كنا نعرف معناه جيداً . فعندما تخسر الجيوش تمنع التقاط الصور .

استولى علينا الخوف . وكنا حتى ونحن في مكتب الأسوشيتد برس نخشى الرحلة أو المهمة التالية . فالقذائف كانت تنقضّ كالصواعق ، وانقطعت الكهرباء ، وأخذ مولد فرنسوا يدور . وكان عَرقنا ينقط على جهاز الإرسال . وبعثت برسالة إلى التايمز أقول فيها :

ـ لمعلوماتكم ، الحالة هنا كما يلي . انسحبت جميع ـ أكرر جميع ـ القوات الإسرائيلية من الشوف هذا الصباح . . . جاءت النتيجة تماماً كما توقعنا . استولت الميليشيات على جميع المراكز الإسرائيلية . ويحتدم القتال العنيف الآن في جميع أرجاء الشوف بين الدروز والمسيحيين . بل سيطر الدروز على الطريق الرئيسية بين بيروت وصيدا وهي الطريق المقابلة للمارينز الأميركيين على أطراف المدينة الجنوبية . أخذ القصف يتسع ليشمل بيروت الشرقية . . . آخر التقارير تقول إن الدبابات السورية تدعم المقاتلين الدروز الذين يحاولون مهاجمة المسيحيين في بلدة بحمدون الخالية . . .

كان أندرسون عندئذ يميل على كتفي . قال :

ـ فيسكي إننا بحاجة إلى الجهاز . هيّا أكمل رسالتك . فالمارينز يتعرّضون للقصف . فلدى فاروق رسالة مستعجلة . إنك تطيل . لا أدري لماذا لا تقول للتايمز أن تطبع رسائلك فلا تحتاج إلى كتابة التقارير . . . وكان أندرسون في حالة عصبية ربما لأنه أصبح رئيس مكتب الأسوشيتد برس . إذ

كان تاترو وزوجته قد نقلا إلى تل أبيب . وبدا الخوف على أندرسون . وقمنا برحلة أخرى . وكانت هذه المرة إلى ضواحي بيروت الجنوبية . وانطلقنا بسرعة ونحن ننظر إلى الشرق ، نحو تلك النيران في التلال .

مضى وقت كانت فيه الجبال التي تشكل نصف دائرة حول بيروت جزء من زينتها . كانت عباءة من الجمال فوق المدينة الحديثة المنفرة . إنها الآن جزء من عذابها ـ منصة لمدافع أعداء الرئيس أمين الجميّل . وأبطأنا في سيرنا عندما اقتربنا من نقطة تفتيش للجيش اللبناني . وكان الجندي رابضاً وراء أكياس الرمل . فصرخ علينا قائلاً :

ـ لا تقفا . إنهم يقصفون . تابعا السير .

وعندما انطلقنا مسرعين تحول صوت محرك السيارة إلى ضجيج حال دون سماعنا القذائف إلا إذا سقطت بالقرب منا . وهذا هو السبب في أننا أبقينا نوافذ السيارة مفتوحة . لقد تعلمنا مراقبة الإشارات التي تدل على قرب وقوع حدث ، مثل قيام المشاة فجأة بالركض ، أو إرسال سائقي السيارات إشارات ضوئية متقطعة .

قال أندرسون فجأة : «فيسكي ، أوقف السيارة» . فلما سألته عن السبب قال : «أوقف هذه السيارة اللعينة . إنك لا تعرف إلى أين سائر بها» . فأوقفتها فوق مكان للقمامة بجانب بعض المباني . وعندئذ سقطت ست قذائف هاون على الطريق التي كنا عليها ، اثنتان متقاربتان على كل جانب واثنتان في وسط الطريق . وانفجرت وسط هبات من الدخان سمراء وقذرة . فركضنا نحو بناية كان يجري ترميمها بعد أن أصابها القصف الإسرائيلي خلال العام السابق . وكان بوابها رجلاً جسيماً له شارب ، ومتزوجاً من امرأة في غاية الجمال أخذت تنظر من مدخل المبنى بلا اكتراث .

قال البواب :

ـ تعالا معي إلى السطح فهو لا يقل أماناً عن أي مكان آخر .

ولم يكن ذلك صحيحاً . لكن أندرسون وافق وقال :

ـ إذا لم تكن لديك يا فيسكي فكرة عما يجري ، فإنك ستقتل على أي حال .

قال أندرسون ذلك وهو يلهث من التعب . فقد كان لديه زيادة كبيرة في الوزن . لكنه كان يدّعي بأنه فقد عشرة أرطال (باوندات) في غضون أربع وعشرين ساعة . وصدّقته . ووقفنا على شرفة تم بناء

نصفها خلف البيت ، وأخذنا نرقب خلدة حيث كان الجيش اللبناني يحاول الاحتفاظ بمواقعه تحت وابل من القذائف . وبالرغم من أن سحب الدخان كانت تتدافع فوق التلال إلى الشرق ، فقد كان بإمكان المرء أن يستدل من الكرات الضوئية التي تتخللها أن القذائف كانت تنفجر حول القرى الدرزية . وكانت سفن الأسطول السادس تُشاهَد وهي تنساب عند الأفق عدا طراد وزورق مسلح بالصواريخ كانا أقرب إلى الشاطىء ومدافعهما مصوّبة نحو الجبال وكأنها توبّخ أهلها على ما يقومون به .

قال أندرسون :

ـ علينا أن نذهب إلى المارينز . فقلت :

ـ لا يا تيري ، ذلك خطر جداً ، فقال :

ـ ما الذي نفعله إذن إذا لم نقف على ما يجري؟ هيا بنا . سننجح . فالخطر الحقيقي الوحيد هو قيادتك للسيارة .

فسلكت طريقاً جانبياً إلى المطار . وكانت القذائف تنفجر في الجو . وأمكننا عندئذ أن نسمع صوتها الذي طغى على صوت محرك السيارة . وبدا أن المطار قد أصبح خطاً أمامياً . وكان الدخان يلف نصف القاعة وهو يزحف عبر الطريق المهجور إلى مقر المارينز .

وغادرت المكان من تحت الأشجار . فركض نحونا أحد المارينز وقال :

ـ عليكما مغادرة هذا المكان . فنحن في أقصى حالات التأهب . أبعد سيارتك عن هذا المدخل .

وصوّب بندقيته إلينا . وكان أندرسون جاثماً تحت الأشجار ينظر إلي وعلى شفتيه ابتسامة مزعجة . قال :

ـ حسناً يا فيسكي . اعمل ما يقوله لك هذا الرجل . اذهب وأوقف سيارتك على الجانب الآخر من الطريق . وفي تلك الأثناء كانت الشظايا تتساقط على الطريق . فضغطت برجلي على دواسة البنزين بسرعة ، وعبرت تقاطع الطريق بأقصى سرعة ، ووجدت نفسي وسط كوم من النفايات ، ففتحت الباب وعدت راكضاً إلى أندرسون وأذناي تؤلمانني بسبب الضجة .

وظهر ضابط آخر من المارينز وقال :

ـ هيا اخرجا من هنا . هذه حالة التأهب القصوى . إننا الآن نتعرّض لقصف . سوف تقتلان .

ودوّى انفجار مروّع في تلة صغيرة داخل منطقة المارينز وتصاعد عمود من التراب والغبار إلى علو ٤٠ متراً . فانتصب أندرسون وقال للضابط :

ـ انظر يا سيدي . أنا أميركي وعليك أن تسمح لنا بالدخول . يمكننا الاحتماء معكم . نريد الدخول . فقال الضابط وهو يرفع بندقيته :

ـ لا ، لا تستطيعان الدخول . اذهبا . فرمقني أندرسون بنظرة قاسية وقال :

ـ فيسكي ، من الواضح أن هؤلاء لن يتعاونوا . فلنعد إذن إلى البيت . ثم نظر إلى سيارتنا بينما كانت الشظايا ترتطم بالطريق وقال :

ـ لا فائدة من أن يُقتل كلانا . لم لا تذهب وتحضر سيارتك؟

التقينا بفاروق نصار عند باب مكتب الأسوشيتد برس ، فسألنا :

ـ ما هذا الذي نسمعه عن الكندي الذي يعمل بالتلفزيون؟ قال أحدهم بأنه جُرح .

إن الذي سأل عنه فاروق هو كلارك تود الذي يعمل لحساب التلفزيون الكندي . وكان قد ذهب إلى كفرمتّى الدرزية التي تطل على البحر مع فريق شركة الإي بي سي الأميركية . فتوجهت في الحال إلى فندق الكومودور حيث وجدت المخرج الميداني لهذه الشركة . كان ما قاله نصار صحيحاً . وقال المخرج :

ـ أصيب كلارك بشظية في صدره . وتركه الفريق في إسطبل . ويقوم الدروز بالاعتناء به . وأصيب أيضاً أحد أفراد الفريق في رجله ، لكنه استطاع السير إلى «غرين بيتش» حيث أحاطه المارينز برعايتهم . ونحاول الآن الوصول إلى كلارك .

لكن لم يكن باستطاعة أحد أن يصل إليه ، لأن كفرمتّى كانت تتعرّض للقصف . وسأل مراسل أميركي رجال البحرية الأميركية إذا كان بإمكانهم إرسال طائرة هليكوبتر لإنقاذه . فتبرع طيار أميركي يعمل على إحدى حاملات طائرات الهليكوبتر بالقيام بهذه المهمة إذا أمكن ترتيب وقف لإطلاق النار هناك . ولكن الشوف كله كان غارقاً في الحرب الأهلية . وكانت المصيبة أنه إذا لم نصل إلى تود بسرعة فإنه قد يقضي نحبه . إذ كان جرحه بليغاً إلى حد أنه هو نفسه لم يصدق بأنه ستكتب له

الحياة . وهذا هو ما حدا به إلى أن يطلب من زملائه النجاة بأنفسهم . وأعطى مصوّره جواز سفره وخاتم زواجه وخاتماً آخر لوالد امرأته ، وطلب من زملائه أن يبلغوا زوجته الإنجليزية وأطفاله الثلاثة بأنه يحبهم .

كانت كفرمتى من القرى القليلة جداً التي احتلها الكتائب . وبعد ذلك بأسبوع عثر الصليب الأحمر على جثة تود . وبعثنا برسالة تقول بأنه مات متأثراً بجروحه . وبعد خمسة أشهر دخل فريق تلفزيوني كفرمتى ، وعثر أفراده في الخرائب على كيس مخدة حاول تود أن يكتب عليه رسالة لامرأته . وبالفعل كتب عليه عنوان امرأته في بيروت مع كلماته الأخيرة التالية لها :

ـ «كلارك تود (من) التلفزيون الكندي ١٠٠ شارع فور ، أولد هاتفيلد ، هيرتس ، إنجلترا . الرجاء أن تبلغوا (أفراد) أسرتي بأني أحبهم» .

وبعد وفاة تود بعشرة أشهر تلقت زوجته رسالة من درزي من المنطقة اسمه عدنان ديب يقول فيها إن الكتائبيين استولوا عل كفرمتى ، وأنهم وجدوا تود على قيد الحياة ، لكنهم قتلوه بإطلاق النار عليه لأنه كان في قرية درزية . وختم ديب رسالته بقوله :

ـ لقد كان رجلاً طيباً يميّز بين الخطأ والصواب ولهذا توفي .

كفرمتى ، خريف ١٩٨٤

كانت في أزقة كفرمتى أزهار قرنفلية اللون ، لكن القرية قد دمّرت عاطفياً ومادياً . كنت كلما سألت عن أحداث أيلول/ سبتمبر ١٩٨٣ أجهش أهلها نساء ورجالاً في البكاء . فعندما اقتحمها الكتائبيون قتلوا برصاصهم ١١٠ قرويين كان ٦٥ منهم من أسرة واحدة وهي آل الغريب . وتذكر جميع الناجين تود ، وبينهم رجل اسمه ملحم غريب في الثامنة والخمسين من العمر ، وكان في الأيام الخوالي البيض يعمل بنقل حقائب المسافرين في مطار بيروت .

أخذني ملحم إلى تقاطع صغير لثلاث طرق فيه حُفرة كبيرة أحدثتها إحدى القذائف . قال :

ـ إنها القذيفة ذاتها التي جرحت تود . فنقلناه إلى هناك .

وأشار ملحم إلى إسطبل قديم مبني بالحجر الأصفر . وأخذ يروي ما حدث ببطء وترو . قال :

«كان مرحاً جداً ، لا يتوقف عن إلقاء النكات . وأحببناه . كان رجلاً لطيفاً . وقال لنا بأنه لا داعي للقلق لأنه معنا وأنه إذا أتى الكتائب فسوف يطلب منهم أن لا يقوموا بإيذائنا . وبعد أن رحل أصدقاؤه استلقى على أريكة في الإسطبل . وأخذت تعتني به ممرضة من القرية . ومن ثم شعر بأن حالته ساءت وأراد أن يكتب لزوجته . ولم يكن لدينا ورق ووجدت كيس وسادة قديماً وناولته قلمي ليكتب به . ثم جاء الكتائبيون إلى كفرمتى . وكانوا ثلاثين مسلحاً . فأدخلوا عدداً من شبابنا في غرفة مجاورة للأسطبل وأطلقوا عليهم النار . وتركوني بسبب كبر سني . لكنهم سمعوا تود في الإسطبل . وكان يئن من الألم . فسألوا : «من هناك؟» فأجبتهم بأنه صحفي أميركي مصاب وينبغي أن يتركوه . فذهب أحدهم إليه وصرخ : «يا ابن (الفاعلة) . أما زلت حياً؟» وسمعت الطلقات . ثم طلبوا منا أن نخرج» .

وأخذني غريب إلى باب الإسطبل حيث تمدد تود . وكانت في طرف الغرفة أريكة قديمة ملطخة بالدم مزقها الرصاص . فقال غريب :

ـ أرجوك أن تقول هذا لامرأته . وإذا شاءت أن تأتي إلى كفرمتى فإننا نرحب بها دائماً في بيوتنا . يمكنها أن تأتي وتبقى معنا .

هل مات تود على هذا النحو في ذلك الصباح الرهيب وقتله الكتائبيون وهو جريح وممدد على الأريكة؟ ولم يترك الدروز فرصة إلا استغلوها لتشويه سمعة الكتائب . وكان الشاهد الوحيد الآخر الذي وجدته صبياً في العاشرة من عمره . وتلقت آن تود فيما بعد شهادة وفاة من إسرائيل لأن جثته كانت قد نُقلت إليها . وكانت مؤرخة في ١٤ أيلول/ سبتمبر وتحمل توقيع طبيب من حيفا اسمه ليختنج . ووصف سبب الوفاة كما يلي : «إصابة بليغة في الصدر . نزيف داخلي» . وطلبت من توماس ووكر مراسل التايمز بالقدس أن يتصل بالطبيب ليختنج وأن يسأله كيف مات تود . قال لي ليختنج : «كانت الجثة قد تآكلت ولم يجر فحص داخلي ، فكان من المستحيل معرفة ما إذا كان الذي قتله هو الرصاص أو الشظايا . .» .

بيروت ، ٦ أيلول/ سبتمبر ١٩٨٣

لم نستطع الوصول حتى إلى المارينز . فقد كانت القذائف تتساقط على بيروت الغربية على شكل مجموعات متوازية ، وأعمدة الدخان تتصاعد من بين أشجار الصنوبر قرب مخيم شاتيلا . ووصلنا أنا وأندرسون إلى القاعدة العسكرية الإيطالية ، وحاولنا أن نقابل الجنرال أنجيوني . ولكن الهواء كان مثقلاً بقطع الفولاذ التي كانت تنقر السطوح والطرق . وعندما عدنا إلى مكتب الأسوشيتد

برس رأى أندرسون أن فاروق نصار قد أعدّ الخبر الأساسي وهو مقتل اثنين من المارينز من جراء القصف ، وأن الصليب الأحمر يسعى إلى ترتيب وقف لإطلاق النار لإجلاء عشرات الآلاف من اللاجئين .

واشتملت برقيات الأسوشيتد برس على سلسلة من الكوارث . بينها مقتل ضابط فرنسي خلال القصف ، وتهديد فرنسا بالقصف من البحر ، وسقوط بحمدون ، إذ أعلنت إذاعة «صوت لبنان» أن الدروز كانوا على وشك الاستيلاء على بحمدون وأن الكتائبيين المدافعين عنها كانوا يسقطون «شهداء» . وكانت جولاتنا الجريئة والمحفوفة بالمخاطر في أرجاء المدينة تؤكد الأدلة على وقوع الكوارث . إذ وجدنا نوافذ وزارة الدفاع قد طارت ، والشاحنات تحترق وهي مقلوبة ، والجنود مختبئين في الطوابق السفلى .

كم كان سيطول الوقت قبل أن تقوم الجيوش الغربية بالرد بنيرانها على الدروز ومن معهم من المقاتلين المسلمين الآخرين؟ ففي تلال سوق الغرب فوق بيروت تعرّض جنود كتيبة المشاة الميكانيكية ٨٤ بإمرة الجنرال عون ـ وهي الوحدة الحديثة التي أنشأها ودرّبها الأميركيون ـ لهجوم من قبل الفدائيين الفلسطينيين ومسلحين سوريين بثياب مدنية ومقاتلين من الميليشيات الشيعية والدروز . وشجبت حكومة الجميّل الهجوم ووصفته بأنه من أعمال الحرب ، كما وصفت أعداءها بأنهم برابرة . وادعت أن إحدى الهجمات الليلية تمكنت من التغلب على وحدة من تسعين جندياً تابعة للواء الثامن من الجيش اللبناني ، وأن قائدها قُتل ببلطة وقطع جسده ، ومات معه أربعة عشر من رجاله وجُرح عشرون وفُقد أربعة وعشرون .

عاد جيري لابل من عطلته إلى بيروت ليصبح نائباً لأندرسون في مكتب الأسوشيتد برس . وتلقى اتصالاً تلفونياً من وزارة الدفاع وقال له المتحدث : «لدينا بعض الجثث التي نريد أن تراها» . فسأل لابل : «هل تود أن ترى بعض الجثث يا بوب؟» وكان يبدو متعباً وهو يدخن سيجارة بعد أخرى ويبتسم بألم بسبب سخريات المسرحية ، التي لم يأت على ذكرها الصحفي هـ . ل . منكن . ففي بعبدا كان الجنود اللبنانيون قد ألقوا بثلاث جثث في الساحة الداخلية إحداها بلا رأس بسبب قذيفة أصابت صاحبها ، وأخرى بدون القسم الأسفل من رجل صاحبها اليسرى . وكانت هوياتهم تدل على أن اثنين منهم من عملاء المخابرات السورية . أما الثالث فكان من رجال العاصفة الفلسطينية الموالية لسوريا . وكانت القذائف تتساقط حول المباني وتزلزل الأرض تحت أقدامنا . وأخذ لابل يبحث عن سجائره . وكانت يداه ترتعشان كلما أشعل واحدة . ووكز ذراعي وهو يبتسم بقسوة وقال :

ـ لم لا تدعوني إلى الغذاء؟

على أن هوية الجثث كانت أمراً في غاية الخطورة ، وذلك لأن درجة تورّط الفلسطينيين أو السوريين في القتال كان ستقرّر إلى أي مدى ستذهب القوة المتعددة الجنسيات في الدفاع عن حكومة الجميّل . وكان الكتائبيون عندئذ يقاتلون جنباً إلى جنب مع الجيش ضد أعدائهم المسلمين . وكانت القوة المتعددة الجنسيات في لبنان لدعم الجيش اللبناني والحكومة اللبنانية .

وتبادر إلى ذهننا أننا لن نستطيع اكتشاف عمق التورط السوري إلا ببلدة بحمدون المجاورة للخطوط السورية التي كان الدروز قد أعلنوا أنهم استولوا عليها . وجاء عندئذ في الإذاعات اللبنانية أن البلدة تحترق . وكان أندرسون هو الذي فكر في أن نذهب إليها . ولكن لم تكن هناك طريق للوصول إليها بدون أن نُقتل في الحرب الدائرة إلا بطريق خلفية يزيد طولها على مئتي ميل . فإنطلقنا بالسيارة شمالاً إلى قمم الثلج فوق طرابلس مروراً بأشجار الأرز القديمة . وقطعنا سلسلة الجبال إلى بعلبك التي انتشر فيها وعلى طرقها المسلحون بثيابهم السوداء ، وحول رؤوسهم العصابات السود التي تحمل اسم الله ، والتي رأيتها في الأسبوع المنصرم خلال معركة الميليشيات ببيروت .

وسأل أندرسون : «من هؤلاء؟» كانت هناك أعلام خضراء على بيوت القرى وأعلام إيرانية تتدلى من المساجد . على أننا لم نر أثراً للابتسام على وجوه المسلحين ، ولم يبادرنا أحد منهم بشكل ودي بطلب السجائر والصحف أو بالسؤال ببراءة عن سير القتال . كانوا جميعاً ملتزمين بشيء أكثر أهمية من حرب الميليشيات . وفي عدد من نقاط التفتيش ارتفعت الأعلام التي تدل على أنهم من مقاتلي «أمل الإسلامية» لا أمل بيروت .

وعند إحدى المنعطفات على طريق زحلة أوقفنا مسلحون على رؤوسهم ووجوهم القلانس السوداء . ولم يَبدُ أن السوريين المرابطين على جوانب الطرق قرب المسلحين يعترضون على وجودهم . وكانت رؤية القلانس السوداء تبعث الخوف في قلب أندرسون . واقترب من السيارة أحدهم . وكانت قلنسوته عبارة عن كيس أحمر مصقول فيه فتحة للفم وفتحتان للعينين . وعندما قلت له بأنني صحفي بريطاني أبدى اهتماماً بسياسة التايمز وأخذ يناقشني بالإنجليزية وبطلاقة وسلاحه بيده حول أخلاقيات حرية الصحافة . وعندما قلت له بأنني أعتقد مخلصاً بأن القلم أقوى من السيف ابتسم . وعرفت أنه يبتسم لأن فتحتي القلنسوة فوق العينين ضاقتا بعض الشيء .

وفي صوفر الواقعة بعد بحمدون على طريق دمشق كانت قذائف الكتائبيين تتساقط على جوانب التلال . وكان الدروز وأكثرهم من ذوي اللحى والسراويل الواسعة يعرفون أنهم كسبوا المعركة . وأوقفنا مسلح درزي كان يقف إلى جانب طريق بحمدون العام ويمسح بكم سترته آثار فطوره من

الحمص عن ذقنه السوداء المشعثة . وكانت خلفه شاحنة سورية تشق طريقها إلى مدخل الكنيسة طار سطحها من جراء القصف المضاد خلال اقتحام بحمدون . وبدت تلك الشاحنة مثقلة بقنابل مدافع عيار ١٢٢ ملم وصناديق لأجهزة الراديو الذي يعمل على خطين . وكان المسلح يبدو مسترخياً واثقاً من نفسه ، وراضياً كل الرضى عما يجري على الجانبين .

وارتج أصبعه وهو يشير إلى الشاحنة المحملة بالذخيرة من العيار الثقيل وقال :

ـ شكراً لك يا سوريا .

ثم حنى رأسه قليلاً وهو ينظر إلى بحمدون والقرى المسيحية التي كان قد جلا عنها الجيش الإسرائيلي واستولى عليها الدروز وقال :

ـ من أجل هذا نشكرك يا إسرائيل . شكراً لكما يا إسرائيل وسوريا .

وانطلقنا أنا وأندرسون بالسيارة إلى بحمدون التي كان أكثرها قد دُمّر . وكانت لا تزال تُشاهدَ فيها ستة حرائق على الأقل تعذّر اخمادها . كانت تعج بالشبان من مقاتلي منظمة التحرير المعارضين لعرفات ، ومقاتلي الميليشيات الشيعية بعصاباتهم الخضراء ومقاتلي الحزب الشيوعي . كان يغمرهم الابتهاج ويضحكون عندما تتساقط القذائف المدفعية فوق سطوح المنازل . ورفرفت أعلامهم فوق حواجز التفتيش التي أقاموها في الشوارع المحطمة . وكان كثرة منهم يجلسون على الأرصفة المحفرة . ومنهم من كان يدخن السيجار الكوبي . وثب أحدهم واقفاً على قدميه وأشار بحماسة إلى صورة بيروت الظلية البعيدة التي كانت تتراءى من خلال السديم وقال :

ـ كان هذا نصراً عظيماً . سوف نصل إلى بيروت في غضون يومين .

كانت المدفعية الدرزية تُطلق من وراء الأزقة والتلال المحيطة ببحمدون وترسل رشقات متتالية من القذائف عبر الجبال إلى بيروت وإلى جيش عون في سوق الغرب . وكانت طلقات المدافع والانفجارات تدوي في أرجاء بحمدون التي اكتنفتها سحب الغبار والدخان الأسود . وأصيبت ونهبت كل بنايات بحمدون تقريباً بما فيها فندق لامارتين الكبير الواقع على طريق بيروت دمشق الدولي . وكانت تماثيل عرض الأزياء التي يستخدمها أحد الخياطين قد تناثرت على طول الطريق من بحمدون إلى محطة سكة الحديد القديمة . وتابعنا طريقنا فوق الأشجار المقتلعة وفي شوارع تناثرت عليها كبسولات الرصاص الصغيرة ، وكبسولات القذائف التي يبلغ طول الواحدة منها قدمين .

وصادفنا مسلح فلسطيني في عينه احمرار وعلى وجهه علامات الارتياب وحاول أن يتحدث بالإنجليزية فسألنا :

ـ لماذا أنتم هنا؟

فاخرج أندرسون بطاقته الصحفية وقال :

ـ صحفيان أميركي وإنجليزي . فقال المسلح :

ـ إن أميركا تقتل الفلسطينيين . فقال أندرسون :

ـ لا . لا . صحافة . إننا مراسلان صحفيان . وفي تلك الأثناء تجمّع حولنا مقاتلون آخرون يحملون الأسلحة الأوتوماتيكية وأحزمة الذخيرة ، ولا أثر للابتسام على وجوههم . ونظر مقاتل عليه ثياب سوداء إلى أندرسون وقال :

ـ إن أميركا تقتل المسلمين .

ولم يكن المكان مناسباً لشرح الحقيقة . وحدث ما كنت أخشاه . إذ قال :

ـ هل أنت جاسوس؟

فاحتججنا على قوله وقلنا بأن واجبنا يفرض علينا أن نكون هناك ، وأننا في حاجة إلى مساعدتهم ، ونريد التحدث معهم ، وأننا نعمل لحساب صحف مستقلة عن الحكومات ، وأننا لا نوافق على ما يفعله الأميركيون . ورفع أندرسون بطاقته مرة أخرى .

لا بد أن خطأ ما قد وقع . فطيلة السنوات الماضية كان أمثال هؤلاء المسلحين بغضّ النظر عن عدائهم وعدم انضباطهم يحترمون عملنا ويحترمون كلمة صحافة التي تبدو على النوافذ الأمامية في سيارتنا . لقد كانوا في السابق يفهمون ما نفعله . ولكن فجأة تغيّر الوضع . فلم نعد في نظرهم صحفيين ولم يعد عملنا يعني شيئاً لهم . اعتبرونا أجانب فحسب .

وكان قد وصل إلى المكان رجل مسن أعتقد أنه فلسطيني ، فنظر إلينا وقال :

ـ من هذان ؟ أجنبيان؟ فقال أحدهم :

ـ ليسوا صحفيين إنهما أجنبيان . ونظر الرجل إلى أندرسون وسأل بأدب :

ـ من أنتما أيها الأجنبيان؟

فلما أجبناه نظر إلى زملائه وقال :

ـ هذان صحفيان جاءا لمشاهدة انتصارنا . ينبغي عليكم أن تساعدوهما . من واجبكم أن تحموهما . ساعدوا الأجانب .

ثم ابتسم وقال :

ـ لا بأس عليكما . يمكنكما أن تشاهدا ما تريدان . لا تبقيا طويلاً . لكن المسلحين الآخرين لم يبتسموا . وعندما تركناهم كانوا ينظرون إلينا بارتياب .

من المحتمل أنهم لم يكونوا قد أفاقوا بعد من الصدمة التي أصابتهم من جراء الاستيلاء على بحمدون . إذ كان انسحاب الإسرائيليين سريعاً إلى حد أنهم تركوا مراكزهم واستحكاماتهم وأكياس الرمل والأسلاك الشائكة وحتى الأغطية الواقية من الشمس في نقاط التفتيش وإشارات الطرق كما هي . انسحبوا وتركوا حلفاءهم الكتائبيين لمصيرهم . فطُرد السكان المسيحيون أو قتلوا . ولم يفاجأ أحد بأن مناحيم بيغن أخذ يتراجع عن وعوده لمسيحيي لبنان بمرارة متزايدة .

لم يكن قد مضى سوى سنتين وخمسة أشهر على ما قاله رئيس الوزارة الإسرائيلية بحرارة كبيرة عن معاناة المسيحيين في ظل الحصار السوري لزحلة ، قال عندئذ :

ـ إن إسرائيل كلها تريد أن توقف سفك الدماء ، وتواصل إسرائيل مساعدة الأقلية المسيحية كما تساعد أي أقلية أخرى مهددة بالخطر . وبوصفنا يهوداً لا نستطيع أن نقف مكتوفي الأيدي أمام أعمال القتل في بلد مجاور كما تفعل كثرة من الأمم الغربية .

أما بعد الانسحاب من بحمدون فقد وقف الإسرائيليون مكتوفي الأيدي بينما كان الكتائبيون يتحدثون بمصداقية من مجازر المدنيين المسيحيين في الشوف[1] . وعندما قُتل الكتائبيون الذين كانوا يدافعون عن بحمدون ظلت إسرائيل تقف موقف المتفرج ، بينما كانت الدول الأربع المشاركة في القوة المتعددة الجنسيات تحاول ترتيب وقف لإطلاق النار وذلك لوضع حد لسفك الدماء .

وعدنا أنا وأندرسون بالسيارة إلى بيروت عبر تلال المتن وبإزاء خط القتال في الغابات فوق بيروت . وكانت المدافع السورية المنصوبة على السطح بين أشجار التنّوب تطلق القنابل من عيار

(١) بعد أن سقطت البيرة مثلاً التي تقع على مسافة ستة أميال جنوب بحمدون جمع الدروز والفلسطينيون والسوريون السكان المسيحيين في الكنيسة . ويقول الناجون أنه سُمح لأربعين شخصاً بالعودة إلى بيوتهم لجلب أمتعتهم وعند عودتهم أطلقت النار عليهم جميعاً . ولسبب غير معروف أطلق سراح الباقين .

١٥٥ التي كانت تمر مصفرة إلى بيروت . وقطعنا الخط المهجور بين القوات السورية والقوات اللبنانية في ظهور الشوير . لكن الطريق إلى بيروت عبر برمانا كان يتعرّض للقصف . وكانت إحدى دبابات الدورية قد اصطدمت بالأشجار وسال وقودها على الطريق وحَوّل سطحها إلى ساحة تزلج . فسرنا بسرعة خمسة أميال في الساعة . وكنا نحاول أن نحفظ توازن السيارة بإخراج عجلتها من جهة اليمين إلى الأعشاب فوق الطريق .

كنت كلما انفجرت قذيفة أقوم بشكل غريزي بالضغط على دواسة البنزين ، فتتحرك السيارة يميناً وشمالاً حتى تصبح في وسط الطريق . فضاق نفس أندرسون وقال :

ـ على مهلك يا فيسكي . يكفي أن تخفف من السرعة .

وكنت كلما انفجرت قنبلة هاون أهب من مقعدي وتترنح السيارة . وتابعنا طريقنا وعجلة القيادة تدور بين يدي كما تدور عجلة الروليت . فقال أندرسون :

ـ ارفع رجلك عن البنزين يا فيسك .

وعندما بلغنا القسم الجاف من الطريق انطلقت مسرعاً إلى بيروت . وقلت لأندرسون إنني مررت بأوقات شعرت فيها بأنني ضقت بالعمل كله وأنني سأتخلى عنه . فسكت لحظة وهو يمسك بمقعد السيارة وهي تدور حول المنعطفات بسرعة . وبدا لي أنه هو الآخر منشغل بأمر يستحوذ على اهتمامه كله . لكنه تنبه أخيراً وقال :

ـ فيسكي ، هل سبق لي أن قلت لك بأنك أسوأ سائق في هذا العالم (كذا) كله؟

في بيروت كان سفراء الدول الأربع المشاركة في القوة المتعددة الجنسيات يسعون إلى الدخول في مباحثات مع جنبلاط والجميّل ، لكن بلا أمل . إذ بدأ مقاتلو الشيعة يهاجمون المارينز ، فأمطروا مراكزهم بوابل من نيران البنادق والقذائف الصاروخية اليدوية من حي السلم ـ «هوترفيل» ـ وأكواخ برج البراجنة . وبعد ساعتين سُمح للمارينز بالرد ، ولكن على أهداف محددة . فالأميركيون كانوا لا يستطيعون رؤية المهاجمين في مخابئهم بالشوارع والأزقة .

وكثرت الإعلانات عن وقف إطلاق النار ، وعن الهدن التي لم تكن تحترم أكثر من ساعات أو دقائق فقط . وكانت شروط الهدنة في العادة شاملة تنبع من الوهم والخيال وحب الجزم : فتقول بوقف إطلاق النار في جميع أرجاء لبنان ، وعودة جميع المسلمين والمسيحيين الذين هجروا من

بيوتهم خلال السنوات الثماني الماضية ـ نعم ثماني سنوات . ومساعدة جميع ضحايا الحرب ، ووضع مراقبين من هيئة الأمم والقوة المتعددة الجنسيات في الشوف ، والسماح للبوليس بالحلول في مراكز الجيش اللبناني في الجبل ، وعقد مؤتمر مصالحة يحضره الجميّل وجبهة الإنقاذ التابعة لجنبلاط ، وممثلون عن سوريا والمملكة العربية السعودية . وكانت التفصيلات في الصيغ تُراعى بنفس الدقة التي كان يُراعى فيها تسديد القذائف التي كانت تدمر بيروت .

كان الإيطاليون مثلاً يعربون عن آمالهم في عقد هدنة ، وعندما يتوقف إطلاق النار يقوم الكولونيل تيموثي جيراغتي بنقل جرحاه بالهيلكويتر إلى الأسطول السادس لإجراء عمليات جراحية لهم وهو يظن بأن الحرب انتهت . وكان جنبلاط يجادل في مسألة مكان مؤتمر «المصالحة» وهل يعقد في المطار أو على ظهر حاملة طائرات فرنسية أو في أجمل فندق بسويسرا . وبدا وكأن الجميع كانوا وسط دخان المدافع يوقعون اتفاقات لإطلاق النار مع الجميع .

ووصلت إلى بيروت وحدة بحرية جديدة ضاربة خاصة تتألف من ألفين من المارينز . و شعر الجميّل بأنه أقوى . فأخذت بطاريا ت الجيش اللبناني المنصوبة على بعد بضع مئات من الأمتار وزارة الدفاع تطلق القذائف مع الكتائب . وتلقى لابل في مكتب الأسوشيتد برس مكالمة تلفونية أخرى من وزارة الدفاع تقول بأن على جميع الصحفيين أن يذهبوا إليها لتجديد بطاقاتهم . فتوجهت إلى هناك مع شهرزاد فارامارزي ، وقد تبادر إلى أذهاننا أن الوزارة هادئة في ذلك اليوم .

لم نتقدم وراء بيت الحرس المحاط بأكياس الرمل على المدخل الرئيسي . وعندما أوقفت السيارة سمعنا القذائف تئز في الجو فوق رؤوسنا . فركضنا نحو بيت الحرس حيث كان ثلاثون جندياً وضابط قال إنه اللفتننانت ـ كولونيل طارق نجيم . وبعد أن حيّانا سألنا عن سبب قدومنا إلى الوزارة فأجبنا بأننا جئنا لاستلام بطاقاتنا الصحفية الجديدة . فخيّم صمت مذهل لم يقطعه سوى دوي المدافع . فقالت شهرزاد بأنه طلب منا أن نأتي من أجل البطاقات الجديدة . فحملق فينا الجنود وكأنهم ينكرون علينا إضاعة وقتنا على ذلك النحو .

أرجأ نجيم النظر فيما جئنا من أجله ، وقال أنه يجب علينا أن نكتب عن النصر الآتي وأن الحكومة ستنتصر . وبدا واثقاً تماماً من ذلك . وقال للجنود الجاثمين حولنا :

ـ لا نريد وقفاً لإطلاق النار . نريد أن نتقدم كل يوم .

لم يكن هناك ما يحمينا سوى جدار من أكياس الرمل . ولم يبد على الكولونيل أنه يدرك أن

كلامه هذا قد يغري سوء الحظ بنا . ولم يفارقه الهدوء حتى عندما أخذ مكبر الصوت يشتمنا ويطلب منا النزول إلى المخابىء . ولما كانت المخابىء بعيدة جداً فإنه تعيّن علينا أن نبقى ، ونكل أمرنا إلى الله . فجلست أنا وفارامارزي على الأرض المبلطة بالإسمنت بجانب ملازم . فوقف الكولونيل نجيم بجسمه الممتلئ المائل إلى السمنة وقال لجنوده الذين كانوا ينظرون إليه لطمأنتهم :

ـ ان الشعب اللبناني معنا .

وضحك الجنود من حولنا . إذ لم يكد يتم كلامه حتى سقطت القذيفة الأولى .

سمعنا عندئذ صوت شيء يتمزق ، كما لو كان ستارة ضخمة أخذ أحدهم يشقها فوق رؤوسنا ، ثم دوى انفجار قطع أنفاسنا وصم آذاننا . وكان عالياً إلى حد أن كل شيء حولنا ـ سحب الدخان الأسود وشظايا القذائف الصغيرة التي كانت تنقر أكياس الرمل المهلهلة ، وقطع الزجاج ـ أخذ يتحرك بصمت وبطء . ثم وقف جندي على بعد ثمانية أمتار منا والدم ينزف من رأسه ويسيل على وجنتيه ويضغط على سترته . وترنح قليلاً قبل أن يمسك به رقيب بذارعه اليمنى ويجبره على الجلوس على سرير من أسرّة المعسكرات .

وسعل الملازم الذي كان بجانبي على الأرض ، ووضع يده على صدره فوق قلبه ، وسحب قميصه بلطف فإذا بالدم يسيل نحو معدته . وتجهم وجهه وسحب قطعة من ور ق التنشيف (كورق الكلينكس) وهو لا يرفع عينيه عن زميله الجريح . ووقف الكولونيل نجيم مرة أخرى وأخذ يصرخ قائلاً :

ـ حافظوا على هدوئكم . حافظوا عل هدوئكم .

ثم اتجه الينا وقال :

ـ لا تقلقوا . إن القذائف لا تسقط مرتين في مكان واحد .

وفي تلك الأثناء كان اثنان من الجنود يمسكان بالجندي المصاب في رأسه . وأخذ رأسه يتمايل وكأنه دائخ ، بينما أخذ جندي آخر يسحب الأربطة والضمادات ويضغط بها على رأسه لوقف نزيف الدم . وكان الملازم يضغط بعصبية على بقعة الدم الظاهرة على صدره . وسمعنا صوت نفاثة من طائرات هوكر هنتر اللبنانية تنطلق في غارة على التلال فوقنا . ومما لا يُصدّق أن الجميّل أرسل قوته الجوية التي تتألف من ست طائرات قديمة قدم الحرب العالمية الأولى لضرب الدروز .

وهب الكولونيل واقفاً مرة أخرى وقال :

ـ إننا لا نخاف . اجلبوا المزيد من أكياس الرمل .

ثم سمعنا الدويّ مرة أخرى وهبطنا على ركبنا قبل أن تنفجر القذيفة فوق رؤوسنا ، وتمطرنا بالقطع المعدنية الصغيرة التي لم يكن طول بعضها يتجاوز ثمن إنش . ثم صرخ أحدهم بصوت عال واضح : «جرح جندي . جرح جندي» . كانت القذيفة قد انفجرت على الجهة الأخرى من أكياس الرمل وتناثرت شظاياها على موقف للحرس يبعد عشرين قدماً . وكان يجثم فيه أربعة جنود طلباً للسلامة .

ولم يُرد الجنود من حولنا أن يظهروا خوفهم . فعمد الكولونيل نجيم إلى دفع أحدهم بالقوة ليذهب ويحضر سيارة للجرحى . وصرخ أحد الجنود قائلاً :

ـ إن الذين يفعلون هذا هم السوريون والفلسطينيون .

لقد كانوا جميعاً مقتنعين بأن الذين كانوا يطلقون القذائف عليهم هم الدروز والفلسطينيون والسوريون لا اللبنانيون . فلو اعتقدوا بأن اللبنانيين بينهم لكان معنى ذلك أنهم يشاركون في حرب أهلية .

استولى الخوف علينا جميعاً . وكنا كلما وقعت قذيفة التصقنا بالأرض وأحسسنا بعد ذلك بالإعياء الشديد . وتمدد ثلاثة من الجنود على الأرض وهم بين النوم واليقظة . وسألني الكولونيل :

ـ إنك في لبنان منذ سبع سنوات . فلماذا لا تحصل على جواز سفر لبناني؟

وضحك الجنود ، وسقطت قذيفة أخرى وتصاعد الدخان . وأضاف الكولونيل بعد ذلك :

ـ الحقيقة هي أن لدينا اليوم حكومة تصدر لنا الأوامر . وهذا هو السبب في أننا لا نريد وقفاً لإطلاق النار . ولهذا السبب أيضاً سننتصر .

لكن لم يبد أن أحداً كان ينتصر . وفي اللحظة التي طلبوا منا فيها أن نركض مسافة ١٥٠ ياردة إلى المخابئ في الوزارة ، لم يكن موضوع النصر وارداً . واندفعنا بأقصى سرعة فوق العشب وشظايا القذائف وإسمنت ساحة العرض . وفجأة وجدنا الدفء والنور والأشجار . وعندما وصلنا إلى الجانب الآخر ، غمرتنا النشوة .

وبعد أن نزلنا دورين تحت الأرض وجدنا الكولونيل توم فنتل الضابط الأميركي الكبير المسؤول

عن التدريب في لبنان . وكانت عيناه تعكسان الثقة بكل شيء لبناني . وسألناه كيف تجري الأمور وكأننا نسجل نقاط الفوز في لعبة الكريكت أو نسأل عن حالة اللعب في ويمبلدون . قال :

ـ ليست سيئة جداً . إن اللبنانيين يتعرّضون لنيران غزيرة في سوق الغرب لكنهم بحال جيدة .

وعندما سألناه ان كان متأكداً من ذلك ، قال :

ـ طبعاً متأكد . هناك عون وتحت إمرته لواء . لا يمكن لأحد اختراق ذلك المكان .

لكن بدا أن فنتل كان مخطئاً . ففي ليل ١٨ أيلول/ سبتمبر أعلن الجيش اللبناني أن الدورز استولوا على أكثر سوق الغرب ، وأن دبابات عون الأميركية الجديدة تطلق نيرانها على الأعداء القريبين منها .غير أن الأميركيين ادعوا فيما بعد أن الجيش اللبناني كذب ، وأنه تعمد المبالغة بالمأزق الذي هو فيه لتوريط البحرية الأميركية في حرب الجميّل . ومهما يكن من أمر فقد بدا عندئذ أنه لن تمر إلا ساعات حتى يكون الدروز وحلفاؤهم قد استولوا على سوق الغرب . ولهذا أخذ الجيش اللبناني يقيم خطوط دفاع جديدة بجانب وزارة الدفاع . وكان انهيار هذه الخطوط يعني وصول الميليشيات إلى وسط بيروت ، وسقوط حكومة الجميّل ، وإذلال القوة المتعددة الجنسيات : ألم تأت هذه القوة إلى لبنان لدعم الجميّل وحكومته؟

لم ير روبرت مكفرلين ، مبعوث الرئيس ريغن ، سوى حل واحد ، وهو أن تقوم البحرية الأميركية بدعم الجيش اللبناني بإطلاق النيران (على أعدائه) ، أي أن تقوم السفن الحربية الأميركية بقصف الخطوط الدرزية في سوق الغرب . وقام الكولونيل جراغتي الذي كان عندئذ في قاعدته البحرية ويتعرّض لإطلاق النار بمعارضة اقتراح مكفرلين ، لكن بلا جدوى . وسبق للأميركيين أن أعلنوا مراراً أنهم لن يقوموا بأعمال عسكرية إلا عندما تتعرّض قواتهم في لبنان لتهديد مباشر . ولم يحدث ذلك من قبل إلا مرة واحدة في ٨ أيلول/ سبتمبر عندما قامت البارجة «بوون» بإطلاق قذائفها على مدفعية للدورز كانت تطلق القذائف على المجمع الأميركي قرب المطار .

لكن قيام الأسطول السادس بإطلاق النار لمساعدة قوات الجميّل كان كفيلاً بجعل المارينز في بيروت طرفاً مشاركاً في الحرب الأهلية . كما أن سقوط قذيفة من الأسطول الأميركي على الدروز بسوق الغرب كان كفيلاً باعتبار المارينز في بيروت حلفاء للكتائب في حربهم ضد مسلمي لبنان . وهذا كله يعني نقض كل قاعدة فرضتها قوة «حفظ السلام» على نفسها .

في صباح ١٩ أيلول/ سبتمبر تناولت الفطور مع صاحب البناية التي أعيش فيها . وجلسنا في

الحديقة بين الأزهار الصفراء والحمراء ، إلى جانب صف من الأقفاص فيها طيور مغردة . وكان الجو حاراً . والفراش يحط على الأزهار . وبينما كنا نشرب الفنجان الثالث أو الرابع من القهوة العربية ، رأينا الدخان يتصاعد من المدمرة الأميركية «جون روجرز» وهي تتجه شمالاً نحو الساحل . وتمكنا حتى من رؤية البحارة على ظهرها والأعلام ترفرف في وجه النسائم الدافئة .

واستدارت المدمرة فجأة نحو الميناء فساقت المياه التي أهاجتها بضعة قوارب صيد نحو الكورنيش . وعندما صارت بموازاة شبه الجزيرة (في بيروت) خرج منها صوت فرقعة غير حادة يشبه صوت رجل يلعب كرة المضرب تحت مياه البحر ، وكأنه لا علاقة لذلك بالأعمال الحربية . لكنه لفت أنظار الذين كانوا يتمشون على الكورنيش ، فدفعهم حب الاستطلاع إلى النظر إلى المدمرة . وأحضر صاحب بنايتنا منظاراً وركزت أنا نظري عليها .فرأيت على مؤخرتها علماً وعلى جانبها اثنين من البحارة .

ولمح صاحبي بمنظاره دخاناً أسود لا يزيد عما ينطلق من فوهة مدفع عيار خمس بوصات . وأمعنت النظر من خلال المنظار في المدفع ، فصدرت فرقعة أخرى ، ورأيت عندئذ كبسولة قذيفة نحاسية ينعكس منها شعاع ذهبي ، وارتدت نحو ظهر السفينة قبل أن تنحرف إلى اليمين وتسقط في البحر ، وتتالت الفرقعات . هكذا دخل الأميركيون الحرب في لبنان .

قال لي تيري أندرسون أن الأسطول السادس يقصف سوق الغرب ، فقلت له بأنني رأيته يقصف . وكانت بيد أندرسون «نشرة» تلقتها وكالة الأسوشيتد برس من واشنطن وفيها فقرة واحدة تعلن أن السفن الحربية الأميركية كانت تطلق نيرانها على الجبال المطلة على بيروت ، وأن القذائف الدرزية تهدد المارينز ومقر إقامة السفير الأميركي ، وبالتالي فإن الأسطول الأميركي يطلق النار لدعم القوات الأميركية في لبنان .

تلك هي الحجة التي كانت ستتذرع بها الحكومة الأميركية والتي يحتمل أن يصدقها العالم ، لكن لم يكن من المتوقع أن يصدقها اللبنانيون الذين أدركوا أن واشنطن كانت تحاول إنقاذ الجميّل . وكانت نظرتهم إلى الأمر في النهاية هي المهمة .

وبعد الظهر انضمت إلى المدمرة حاملة الصواريخ «فرجينيا» وأخذ كلاهما يفرش أرض سوق الغرب بالقذائف مما أدى إلى قتل عدد من جنود الجيش اللبناني ومن جنود الميليشيات . أما في المدينة فبدأ تهديد مدافع السفن الأميركية وهي تضرب الشوف أكثر خطراً . وفي تلك الأثناء كانت المدمرة وحاملة الطائرات الأميركيتان تنطلقان بسرعة ترافقهما سفينتان حربيتان فرنسيتان والسفينة

البرمائية «تراوا» التي تحمل ١٢٠٠ من جنود المارينز . وتجمعت في الخليج سفن أخرى وصدرت بلاغات أميركية جديدة .

وصدر بيان عن مكتب السفير الأميركي بالسفارة الأميركية صيغت عباراته بدهاء لكي تعترف بحقيقة وتخفي أخرى . قال البيان :

ـ إن مدافع البحرية الأميركية موجهة ضد أهداف عسكرية تهدد القوات اللبنانية التي تدافع عن سوق الغرب . إن نجاح القوات اللبنانية المسلحة في حماية المنطقة ذو أهمية حيوية لسلامة الموظفين الأميركيين والقوة المتعددة الجنسيات وآخرين من الدبلوماسيين والعسكريين الأميركيين . وعليه فإن مهمات الدعم التي تقوم بها مدفعية الأسطول الأميركي هي إجراءات دفاعية .

كان بيان السفارة هذا صياغة جديدة جامعة لمدرسة السياسة الأميركية في الشرق الأوسط التي تقوم على ثلاث خطوات متتالية واحد ـ اثنان ـ ثلاثة . وكان لابد ذلك اليوم يتمثل بقول من أقوال الصحفي منكن ، فقال :

ـ يمكن الآن تلخيص السياسة الأميركية بكلمة واحدة وهي «بانج» أي إطلاق النار .

على أن هذه البيانات الأميركية لم تذكر على الإطلاق حقيقة أن تلك «الأهداف العسكرية» كانت درزية ، وأن الأميركيين كانوا يطلقون نيرانهم على اللبنانيين لدعم اللبنانيين . ولو أنها ـ أي البيانات ـ ذكرت هذا لكان معناه أن القوات الأميركية انحازت إلى طرف في الحرب الأهلية . وتبنت حكومة الجميّل التفسير الأميركي . فأخذت الإذاعة اللبنانية الرسمية تذيع الموسيقى العسكرية ، وتختم إذاعة منتصف النهار بلحن «لألغار» اسمه «بومب وسير قمستانس» . وبهذا خلعت على المعارك ثوباً وطنياً . ولهذا الغرض نفسه قامت الحكومة اللبنانية بدعوة الصحفيين إلى المستشفى العسكري ببدارو .

أُخذ الصحفيون إلى جناح طبي فرنسي قديم في الدور الخامس حيث كان مقاتل فلسطيني تعس ممداً والألم يعصر وجهه ، وعلى كتفيه سترة سورية عسكرية . وبينما كان يتأوه من الألم بسبب جرح خطر في ظهره ويودع الحياة ، أخذت مراسلتان لبنانيتان تمطرانه بالأسئلة . واستطاعتا أن تستخلصا منه أن اسمه فادي عبد المولى وأنه كان يعيش في درعا ومن «الكتيبة الرابعة» في جبهة التحرير الموالية لسوريا . وعندما سئل عمن يدعمه أجاب بسخرية لا شعورية «المدفعية» . وتوفي بعد ذلك بثلاث ساعات .

كان كل يوم يشهد مزيداً من التورط الأميركي وأدلة مخيفة على تفكك لبنان . وشاهد أندرسون خلال زيارة له لسوق الغرب سبعة من ضباط المارينز الكبار يخرجون من ناقلة جند لبنانية ويركضون

لأنهم كانوا يتعرّضون للقصف . واستنتج أندرسون أنهم كانوا طليعة من مراقبي الأسطول الأميركي ، كما اكتشف أنهم كانوا في سوق الغرب يوم فتحت المدمرة «جون روجرز» نيرانها عليها . وبهذا دخل المارينز الشوف ولو بقوة رمزية . وعندما طلب من السفارة الأميركية أن تعلق قالت بأنها تنتظر توجيهات وزارة الخارجية .

وفي تلك الأثناء كانت القوة الجوية اللبنانية التي تتألف من ست طائرات قد أخذت تتناقص . فقد أسقط الدروز طائرة استطلاع ضخمة فوق الشوف . وتُركت جثة الطيار أكثر من أسبوع في أحد الخنادق تآكلت خلاله . وأصيبت طائرة من طائرات الجميّل وهي من نوع هوكر هنتر بالمضادات الأرضية وهوت في البحر . وقام الأسطول الأميركي بإنقاذ الطيار . وعُطبت طائرة هوكر هنتر أخرى فوق الشوف فطارت إلى قاعدة للقوات الجوية الملكية البريطانية في قبرص لإصلاحها . وهكذا تقلصت القوة الجوية اللبنانية إلى ثلاث طائرات هوكر هنتر أخذت تستخدم طريقاً للسيارات من أربع مدرجات شمال جونية للهبوط الاضطراري . وواصل الأسطول الأميركي القصف .

وكانت سخافة هذا كله بادية لكل شخص إلا للأميركيين . وربما كانت تبدو معقولة في واشنطن . إذ قيل هناك إن الولايات المتحدة تقاتل من أجل ديمقراطية الجميّل التي تدافع عن نفسها ضد قوات سوريا التي يدعمها السوفييت . لكن النظرة في لبنان كانت مختلفة . إذ بدا فيه أن الأميركيين يحاربون المسلمين انتصاراً للكتائب . وعليه فإن التناقضات المأساوية في لبنان لم يكن لها أي تأثير في خطط البيت الأبيض . أما الرمز الأكثر منافاة للمنطق في سخافة أميركا فكان بعثها من الموت سفينة عمرها أربعون سنة ووزنها ٤٥٠٠٠ طن وهي «نيو جيرزي» . وكانت الإدارة الأميركية مغرمة بمثل هذا الحدث الذي يحتل مكاناً كبيراً على شاشات التلفزيون .

أُعيد تجهيز هذه السفينة الحربية الضخمة بصواريخ بحر ـ جو وأُرسلت لدعم المارينز في بيروت . وكانت مدافعها من قياس ١٧ بوصة وهو الأعلى في الأساطيل الأميركية وتصل قذائفها إلى مسافة ٢٠ ميلاً داخل لبنان ، ووادي البقاع . وعندما بُنيت في الأصل استخدمت في القتال بالمحيط الهادي لتدمير المواقع المحصنة على السواحل قبل غزوها . وقال لنا رجال الأسطول بأن حجم كل قذيفة من قذائف هذا الحيوان البحري الضخم كحجم سيارة الفولكسفاجن ، وأن تأثيرها مخيف إلى حد أنه يصيب مساحة كمساحة ملعب كرة القدم . وكانت قذائفها قد صُنعت إبان الحرب الكورية . وعليه فقد كانت نيوجرزي أصدق ممثل لسياسة الولايات المتحدة بلبنان : لا تفكير ، وضخامة بلا حركة ، وأفكار عفى عليها الزمن . وكانت كمبيوترات هذا العملاق البحري قديمة إلى حد أنها كانت لا تزال تشتمل على أجزاء متحركة .

وكان علينا إذا أردنا أن نفهم التضارب الخادع بين بيروت وواشنطن ، أن نكون على طائرة هليكوبتر تنطلق من الأسطول السادس . قدمنا طلباً للصعود إلى ظهر السفينة فرجينيا التي كانت تتسلى بقصف بيروت . وبالطبع كان في استقبالنا ضباط شبان وجوههم مشرقة وفي منتهى الأناقة . وأخذوا يتحدثون عن «نوعية» عملهم كما لو كانوا يبيعون أعمالاً فنية . وأخذوا يصفون «تفوقهم» كأنهم في مدرسة تعلم إدارة الأعمال .

وحتى بحارة فرجينيا ـ الذين كانوا يطلقون النار على سوق الغرب ـ كانوا أيضاً يعملون «بتفوق» . والواقع أن ذلك كان مدوّناً على جانب المدفع خمس بوصات . إذ كان عليه حرف (E) وتحته ثلاثة خطوط وذلك للإشارة إلى كفاءتهم في مناسبات ثلاث متتالية في البحر الكاريبي ، بالرغم من أنه لم يبد أن بينهم من يعرف على ماذا أطلقت النار في تلك المناسبات . وكان كل من على «فرجينيا» واثقاً من أن فريق المدافع قد أحسن الأداء خلال الأيام الثلاثة السابقة بالرغم من أنه لم يكن أحد منهم يعرف تماماً على ماذا أطلقت السفينة قذائفها التي بلغ عددها ٢٣٨ قذيفة ، وعلى أي ناحية من الجبال سقطت .

وقد أنكر آل دياموند اللفتنانت كوماندر في سفينة القيادة «أيووا جيما» الطبيعة العدائية التي تجلت في قصف فرجينيا للجبل . قال لنا في مطعم الضباط :

ـ إن عبارة «أطلقت (النار) بغضب» ليست موفقة . إنها «كليشيه» قديمة جداً ولا يليق بنا استخدامها هنا . إذ يمكنك أن تقول أننا أطلقنا النار لأغراض غير التدريب . ووجدتُ في غرفة التدريب من تحدث بصراحة أكثر وكان زميلاً لأحد رجال المدفعية واسمه كيلي هاردن . قال هاردن :

ـ لانعرف على ماذا نطلق النار . يأمروننا بإطلاق النار فنطلقها . وضرب بيده على مفاتيح جهاز ألكتروني وقال :

ـ في هذا الجمع رجل واحد يسيطر على «العرض» .

كان هذا «العرض» أشبه شيء بالمطهّر . إذ كان القائد مورجان فرانس يحدد الأهداف لسفينة الأيوواجيما . فلم تكن هناك أسماء مزعجة مثل عاليه وسوق الغرب ، بل كانت سلسلة من الأرقام التي يجري إدخالها في الكمبيوتر في غرفة المعلومات القتالية . ثم يقوم الكمبيوتر بفحص الأرقام والتأكد من أن آخر قذيفة لدعم حكومة الجميّل سقطت فعلاً على الهدف المقصود .

وحاول اللفتنانت جاك ستومبورغ الضابط المسؤول عن المدفعية على السفينة إيووا أن يشرح لنا تلك العملية الغامضة فقال :

ـ بعد أن نطلق النار على أحد الأهداف ، لدينا الوسائل لمقارنة موقع الهدف بموقعه على الكمبيوتر ، وبذلك نستطيع تتبع المسار مرة أخرى ومعرفة المكان الذي سقطت فيه القذيفة . . . وعندما نفعل هذا نشعر أننا أطلقنا النار على المكان الذي كان في نيتنا إصابته .

وكان قائد السفينة الكابتن جوزف كنج يعتقد أن سفينته تضرب على بعد خمسين ياردة من أهدافها . لكنه رفض أن يذكر تلك الأهداف بالرغم من أنه قيل لقادة البوارج والسفن الحربية أنهم كانوا يطلقون النار على الدبابات وقاذفات الصواريخ .

هل كان الأميركيون (في لبنان) يدركون أنهم يسهمون في أخطر تورط لأميركا بعد حرب فيتنام؟ يبدو أنهم لم يقدروا أهمية الأحداث . إذ قال لي مهندس أميركي شاب أنه كان في تلك الليلة يراقب معارك الشوف ، وأضاف :

ـ لا أدري لماذا يفعل كل من الطرفين هذا بالآخر . يؤسفني ما يحل بهم . لكن لا أدري كم سيطول الوقت قبل أن يبدأ هؤلاء الذين نطلق النار عليهم بالرد على النار؟

وذكر لي بعضهم ـ ولكن في السر ـ أنه عندما أخذت سفينة «بوون» بإطلاق النار ، شوهدت قذائف الهاون تسقط في البحر .

وتذكر ضابط من ضباط الكابتن كنج أنه قرأ في رواية لجوزف كونراد وصفاً لسفينة حربية من القرن التاسع عشر كانت تطلق القذائف بصورة رمزية على أدغال على الساحل الإفريقي لا يمكن اختراقها . وكان من الصعب عليّ عندئذ أن أركز على علاقة ما قاله بما يجري بينما كان الشاي المثلج والقهوة يقدمان باستمرار في مطعم الضباط ، والخدم يروحون ويجيئون بستراتهم الحمراء ، وهسيس مكيف الهواء يملأ المكان . وحتى أصوات الانفجارات في الجبل على بعد ثلاثة أميال ونصف فقط لم تصل إلينا إلا على شكل خافت كأصوات الطبول البعيدة .

وعلى ظهر السفينة المشمس كان البحارة يتجهون بأنظارهم ناحية الشرق حيث كانت سحب الدخان الأسمر تتصاعد من اثني عشر حريقاً على سفوح التلال إلى علو ميل وهي تنتشر وتزحف على مياه البحر . وكان من الممكن باستخدام منظار الميدان رؤية القذيفة الواحدة وهي تنفجر في الشوف . وبينما كان لبنان يحترق كنا على ظهر السفينة نشارك البحارة كعكهم الساخن وشرحات اللحم وما يلحق بها من بصل وكبيس وخردل .

كان لبنان يحترق بالفعل . كنا ونحن في بيروت الغربية نشم رائحة الأشجار المحترقة بفعل

القذائف . وفي تلك الأثناء نُسف مستودع ذخائر القوة الإيطالية كلها في بيروت الشرقية عندما سقطت عليه قذيفة وفجّرت ما فيه . وبلغ علو اللهب ثلاثمئة قدم . وبقيت النار مشتعلة يوماً بطوله . وأخذ الدخان الأسود يزحف على شكل مظلة فوق قمم الجبال حتى بلغ طرابلس والبقاع ، وألقى بظلاله السوداء حتى الحدود السورية . وأخذت النفاثات الأميركية تطير على علو منخفض فوق سطوح المنازل ، وطائرات «السوبر أتاندار» الفرنسية تمر كالشهب فوق الوديان إلى الشرق من المدينة ، وطائرات «البوكانير» المقاتلة البريطانية تحلق في أجواء العاصمة .

كان هذا بمثابة إنذار لأعداء القوة المتعددة الجنسيات . وبدا وكأنها تقول : «انظروا إلى أسلحتنا ، وفكروا فيما سيحدث لكم إذا تجاوزتم الحدود . انتبهوا . لا نريد أن نستخدم قوانا المخيفة» . على أن اللبنانيين نظروا إلى ذلك من زاية مختلفة . كانوا يعرفون كل شيء عن الجيوش والغزاة . ولهذا فهموا من العرض الجوي أن القوة المتعددة الجنسيات ستقوم بالهجوم ، وأن طائراتها ستقوم بالقصف . ورأوا في هذا التأهب للحرب تحدياً لهم .

هوجمت الكتيبة الفرنسية مرة أخرى بإطلاق القذائف الصاروخية على شارع فؤاد شهاب قرب وسط المدينة . فقد كانت قريبة من منطقة شيعية أخرى أخذت مثل برج البراجنة تتخلص من سيطرة الحكومة . وعندما قُصف مقر الفرنسيين ، قام الرئيس ميتران شخصياً بالموافقة على قيام طائرات سوبر اتندار بقصف بطاريات المدفعية في تلال المتن . وقُدّر لتلك الغارة الفريدة من نوعها أن تصبح حدثاً سياسياً مثل القرار الأميركي بقصف سوق الغرب . لكن القصف الأميركي من البحر كان عندئذ شيئاً روتينياً ، ولم يعد يستحق أن يكون موضوع خبر مستعجل على أسلاك الأسوشيتد برس . وخصصت الأخبار لمدافع نيوجيرزي .

استقالت الحكومة اللبنانية لتفسح المجال ـ كما زعمت ـ لقيام حكومة وحدة وطنية . وسرت إشاعات بأن الجميّل سوف يفسخ الاتفاق اللبناني ـ الإسرائيلي حول الانسحاب . وكان عندئذ نحو ثلاثين سفينة من سفن حلف شمال الأطلسي قبالة الساحل اللبناني .

اشتد الضغط على موظفي أندرسون في مكتب الأسوشتيد برس كما حدث إبان الغزو الإسرائيلي . إذ كان فولي قد نُقل إلى مجلة «التايم» بعد أن كسب جائزة بولتزر على الصور التي التقطها لشاتيلا ، وحل محله في مكتب بيروت مصور شاب اسمه دون مل أو إذا أردنا الدقة «دونالد س . مل الثالث» . وكان في الحادية والعشرين من العمر له عينان كعيني الظبي ، وشارب رفيع كقلم الرصاص جعله يبدو كصورة من صور مارسيل بروست الأولى . وساعده تهوّره خلال إطلاق النار

على التعويض عن حبه لتكرار ما يقوله مرة بعد أخرى عندما يريد شرح مستقبل لبنان السياسي . وكان أندرسون يعتقد بأن على المراسلين أن يقوموا بالتفكير ، وأن على المصورين أن يتقيدوا بما تسميه الأسوشيتد برس «العمل الفني» وانقضت عدة أسابيع قبل أن ندرك أن أحاديثه عن مشكلات لبنان لم تكن سخيفة كما بدت لأول وهلة .

كان عندما يلتقط الصور لجنود الجيش اللبناني يسمع الجنود المسلمين في اللواء السادس يتهامسون عن شعورهم بالاستياء من تعسّف ضباطهم المسيحيين معهم . وشعر خلال الأوقات الطويلة التي كان يقضيها بين المارينز بخوف هؤلاء من احتمال حدوث شيء يسحقهم . كانوا يعتقدون بأنه قد يُطلب منهم أن يتقدموا وسط إطلاق النار إلى الجبل فتلحق بهم خسائر كبيرة في الأرواح . واعتاد مل أن يجلس معهم في مخابئهم والرصاص ينقر أكياس الرمل التي يحتمون بها . قال بعد ظهر أحد الأيام :

ـ إنه وضع قذر . فهؤلاء الشبان يكرهون هذا المكان . فلا هم يستطيعون التقدم ، ولا هم يستطيعون الثبات في مواقعهم . وقد أخذ بعضهم يطلب مني عدم التقاط صور لهم .

لا صور . إنها الرائحة المعهودة للجيش عندما تتملكه الكآبة .

كنا أنا ومل نجلس بعد الظهر على سطح مقر كتيبة الإنزال ، وهو مبنى كئيب غائر كالكهف يتألف من أربعة أدوار تقع إلى جانب ساحة لوقوف السيارات بالمطار . وكان غالبية المارينز ينامون فيه . وكان مقاتلو حركة أمل يعرفون المبنى جيداً لأنهم كانوا يحتلونه خلال حصار بيروت . كانت فيه قاعة طعام وكنيسة ومركز اتصالات بالراديو للأسطول الأميركي ، وأماكن للنوم تتسع لمئات الأشخاص ، وتحته مرآب للشاحنات ، وعلى سطحه نقطتا مراقبة للمارينز .

كان باستطاعة المرء أن يرى من سطحه المطار الخالي وسطوح التلال الغارقة في الدخان وحي السلّم . وكنا أنا ومل نراقب القذائف وهي تضرب مدرجات المطار بينما كان المارينز يسجلون انفجار كل منها . والواقع أنهم كانوا في غاية النشاط ويرحبون بوجودنا معهم . فكنا نقاسمهم أنصبتهم من الطعام ، ونلبس ستراتهم الواقية خلال القصف .

كنا نشاهد سفن الأسطول السادس وهي تتحرك ببطء عند الأفق . وقبل أقل من ثلاثة أشهر نُقلنا بالقوارب إلى حاملات الطائرات لحضور الاحتفالات بعيد الاستقلال . وكنت لا أزال أحتفظ ببطاقة الدعوة التي تقول :«اللباس عادي ـ لباس النزهة . سوف تواصل القوارب رحلاتها من «غرين بيتش»

لنقلكم إلينا . . . الواحدة بعد الظهر : فرقة الفولكلور اللبنانية السياحية على ظهر السفينة «أيوواجيما» . . . الخامسة بعد الظهر قطع الكعكة واستقبال الضيوف الكرام على المنصة على ظهر السفينة . . . السادسة بعد الظهر الوداع» .

وفي الأيام الحارة كان يذوب القار على سطح مقر كتيبة الانزال ويلصق بأنعال أحذيتنا . وكنا في العادة نتناول القهوة مع المارينز ، وعندما يُكمل مل «العمل الفني» نستقل السيارة ونعود . وكان شعورنا بالاطمئنان يضعف عندما نغادر المقر . فبالرغم من القذائف ، كنا ونحن على السطح نشعر بمزيد من الاطمئنان . وربما لأن المارينز هناك لم يكن ينتابهم الخوف . إذ كانوا ينظرون إلى الحرب من زاوية أكاديمية (نظرية) لا عملية . وكان من الطبيعي أن نتأثر بعدم اكتراثهم الظاهر هذا ، فنشعر بالاطمئنان .

وأُعلن عن وقف آخر لإطلاق النار عندما وافق الجميّل على عقد «مؤتمر مصالحة» . لكن في منتصف تشرين الأول/ أكتوبر هاجم مقاتلو الشيعة في برج البراجنة المارينز مرة أخرى . وأصيب أحدهم إصابة قاتلة في صدره بينما كان يسوق سيارته حول المطار . وظل الرصاص المنطلق من حي السلم ـ «هوترفيل» ـ يخترق الأشجار والأعشاب الطويلة حول المراكز الأميركية عشر دقائق قبل أن سُمح للمارينز بالرد . إذ كان المفروض أنهم لا يزالون يقومون بمهمة حفظ السلام . وأصيب جندي آخر من المارينز بجراح بالغة ، وتوفي وهم ينقلونه بسيارة جيب إلى مركز الكتيبة الطبي .

وفي هذه الأثناء كانت لجنة لبنانية لوقف إطلاق النار تُعدّ هدنة جديدة بحضور ممثل عن كل ميليشيا لبنانية وبرئاسة ضابط من الجيش اللبناني . وفي ١٤ تشرين الأول/ أكتوبر انسحب ممثلو الشيعة من اللجنة ، وذلك لاعتراضهم على العقوبات التي وقعت على الجنود المسلمين بالجيش اللبناني لأنهم رفضوا إطلاق النار على مقاتلي الميليشيات الشيعة خلال القتال الأخير . وتعرّض المارينز للمزيد من إطلاق النار . وكما حدث بالنسبة لقصف سفن الأسطول ، فإن حوادث إطلاق النار عل المارينز لم تعد بين الأخبار «المستعجلة» على أسلاك الأسوشيتد برس .

بيروت ، ٢٣ تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٨٣

أيقظتني أول هزة خفيفة من النوم . وكان الصباح مشرقاً ، والبحر تحت شرفتي يداعب الشاطىء بأمواجه . وكانت انفجارات القنابل والقذائف في بيروت قد أصبحت كنبضات القلب ، فقررت أن أعود إلى النوم . كان ذلك صباح يوم أحد . وبعد بضعة ثوان سمعت هزة أخرى خفيفة جداً ، وطرأ

تغير طفيف على ضغط الهواء داخل الغرفة . وكان المتكلم صاحب البيت الذي يعيش في الدور الأول . كانت لهجته توحي بالخطورة . قال :

ـ مستر روبرت . مستر روبرت . هذا أنا . انهض ، انهض . لقد نسفوا المارينز . ان مستر تيري وفولي ذاهبان .

هل ذلك ممكن؟ أين؟ كان أندرسون يركض باتجاه سيارته وإلى جانبه فولي والكاميرا معلقة بكتفه . فصحت : «تيري ، انتظرني» ولولا ذلك لذهب أندرسون بدوني . وساق السيارة بسرعة وشراسة على الكورنيش . وكان فولي ينظر إلى الطريق ويتحدث بدون أن يلتفت إلي . وقال أندرسون :« لقد ضربوا المارينز . لقد ضربوا الفرنسيين ، سيارات مفخخة . هذا كل ما تقوله الإذاعات» . لكن كيف؟

فقال فولي غاضباً :

ـ وكيف لي أن أعرف؟ قد يكون حملاً من النفايات . ولكني سمعت الانفجارات .

كان مقر الكتيبة الفرنسية في مبنى من تسعة أدوار يعرف باسم «الدراكار» بين الروشة والمطار . وعندما أوقف أندرسون السيارة عل جانب الطريق صاح فولي «هذا هو الجحيم» . وجدنا أنفسنا وسط مئات من المظليين الفرنسين والجنود اللبنانيين . لا بد أنه زلزال . لقد اختفى مقر المظليين الفرنسيين . اختفت طبقاته التسع . وتوجهت إلى حفرة عمقها عشرون قدماً وعرضها أربعون ، وإلى جانبها ركام الأدوار التسعة التي بدت كالساندويتش . كانت الأرجل والأذرع على النفايات وبينها صدر ضابط فرنسي لا تزال الأوسمة عليه ولكن بلا رأس . وسحبوا رجلاً من حطام البناء تدلت أمعاؤه على الأرض . وسألنا أحد الجنود :

ـ كم تُقدّر عدد الذين سينجون منهم؟ ما عددهم؟ كم عدد الذين سينجون؟

ومد يده بطريقة حزينة وبلطف وكأنه يريد أن يظهر احترامه لشيء بيننا على الأرض وقال :

ـ أرجوكم أن تنتبهوا وأنتم تسيرون .

أخذ اللفتنانت ـ كولونيل فيليب دي لونجو يحدّق بشكل مخيف في الحفرة . أخذ ينظر إلى الكارثة التي أصابت رجاله . وقال ببطء وكأنه يحلم بسبب الصدمة :

ـ وجدنا ثلاثة أحياء . ولا يزال نحو مئة جندي تحت الأنقاض . لقد رفعت القنبلة المبنى . رفعته ، هل تفهم؟ رفعته وألقت به هناك .

وأشار اللفتنانت ـ الكولونيل إلى الأنقاض . كانت القنبلة قد رفعت المبنى في الهواء وأبعدته مسافة ٢٠ قدماً . كأن المبنى كله قد حُمل في الهواء ، والآن حلت الحفرة مكانه . ولكن كيف أمكن عمل هذا؟ هذا ما سألنا اللفتنانت كولونيل عنه . أجاب :

ـ سائق انتحاري . كما حدث للسفارة الأميركية .

ووراءه كانوا يسحبون من البناء جندياً في طور المراهقة . فوقف والدم يغمره . ثم أخذ يصرخ على الأطباء الذين كانوا حوله . وعندما أقبل ضابطه ، استل السكين الذي يستخدمه الكوماندوز وحاول قتله . لقد جن ! ورفع جندي آخر في طور المراهقة كان بجانبي قبعته وعصرها ، ثم جلس متهالكاً على الأوساخ ، وأخذ ينتحب كالأطفال .

وفي تلك الأثناء ظهرت يد من فجوة في الإسمنت المحطم ،فزحف جندي فرنسي إلى الفجوة وأمسكها بيده . فشدت على يده ثم أمسكت بذراعه وتشبثت به إلى أن مات صاحبها .

قال أندرسون وهو يشد على ذراعي :

ـ فيسك ، دعنا نذهب ، عليّ أن أتوجه إلى المارينز .

كانت الطريق إلى المطار مهجورة . لكن شاهدنا دخاناً أبيض يتصاعد من الطرف الآخر حيث كانت قاعدة المارينز . قال أندرسون :

ـ سوف نبحث عن بوب جوردان . حاول أن تجده في غرفة الصحافة ، وسأبحث عنه في مقر فريق الإنزال . وكان جوردان هذا هو الضابط المسؤول عن القسم الصحفي . لكن عندما أوقف أندرسون السيارة تجهّم وجهه . إذ كان المارينز يصرخون من وراء الأسلاك الشائكة ، ودوي الانفجارات يهز المكان . لكن لم يكن هذا هو ما يقلق أندرسون . فسألني عن مكان مقر فريق الإنزال ، فلما أشرت إلى الطرف الأخر من الأسلاك قال :

ـ لقد اختفى . إنه وراء الدخان . أليس كذلك؟ اختفى .

وألقى أندرسون بنفسه على حاجز الأسلاك وقال :

ـ أسوشيتد برس . أسوشيتد برس . لا بد لي من الدخول . ينبغي عليكم أن تدعوني أدخل .

وكان على الحاجز حارس من المارينز قد يبلغ الثامنة عشر من العمر . وعندما سمع أندرسون ، رفع الحاجز وسمح لنا بالدخول . فركضنا فوق الركام وأغصان الأشجار ووسط الدخان ، فإذا بنا أمام أكوام من الجثث بينها جثث بلباس المارينز وأخرى عارية كسرت ظهور أصحابها أو سحقت عظامهم . وصرخ أندرسون على المارينز :

ـ من فعل هذا؟

وكان أمامنا ثلاثة منهم ، أخذوا ينظرون إلينا بذهول وقال أصغرهم :

ـ شاب ومعه متفجرات . جاء في شاحنة . ونُسف معها .

وكانت خلف سيارة جيب عشر جثث أو أكثر من جثث المارينز ممددة على الأرض في صف واحد وكأنها عرض (أو مهرجان) والوجوه مغطاة بالقماش المشمّع والأقدام عارية وسوداء بسبب الغبار ومؤخراتها نافرة . وكانت إحداها بلا غطاء فبدت عارية ولكن مكسوة بطبقة سميكة من التراب . وكان الفم مفتوحاً وكأن صاحبها حيّ يتحدث ، لكن جزءاً من قمة الرأس كان قد زال .

كانت وراء الجثث أعمدة سمراء وبيضاء تبدو كشعائر جنائزية . وأحسسنا بذبذبات رتيبة كثيبة بسبب انفجار الذخيرة الحربية في المستودع . وكان اللهب المرتفع منها يعلو ٢٠ قدماً . وكانت كلما انفجرت قذيفة في المطار انطرح المارينز الثلاثة أرضاً وطلبوا منا أن نفعل مثلهم . وتوارينا أنا وأصغرهم خلف سيارة إسعاف ، فإذا به يبكي وبندقيته بيده اليسرى ويده اليمنى تمسح الدمع المنهمر .

رأيت توماس فريدمان مراسل النيويورك تايمز يقطع الحاجز ويركض نحونا . وعندما رأى النيران والدخان هز رأسه وقال :

ـ فيسكي ، هذا شيء لا يصدق . إنه «أبرز» أعمال الإرهاب .

وأخذت أفكر في كلمة «أبرز» التي كانت تعبّر بقسوة ولكن بدقة عما جرى ، وفي دلالة صدقها : إذ كانت مجزرة مدبّرة بخبرة لم نشهد لها مثيلاً بعد .

في تلك الأثناء أقبل روبرت جوردان من طريق إلى شمالنا . وكان هذا الرجل لا يعرف الدعابة .



تفجير مقر الوحدة الأميركية في مطار بيروت

فأخذ ينظر بذهول والدم ينزف من ذراعيه على وجهه وسترته . وقال انه كان يسحب الجثث من الركام . وكانت الانفجارت تتوالى أمامنا بين الأنقاض . وشاهدت المارينز يجرون زميلاً أسود لهم يتمايل رأسه من جانب إلى آخر كأنه لعبة . وعندما أمسك زملاؤه بذراعيه سقطت رجلاه .

لم يكن لدى جوردان تفسير لما حدث ولا اعتذارات عسكرية عنه . قال :

ـ اقتحم أحدهم بشاحنته المجمع ، وحطم البوابة الجنوبية قبل أن يقتحمها إلى قاعة الجلوس ، وفجر الشاحنة وانهارت الجدران وتراكم بعضها فوق بعض .

وحدث المزيد من الانفجارات ، وصدرت هذه المرة دمدمة أخف وأعمق . وأُخرج اثنان آخران من المارينز وضع كل منهم على نقالة . وكان ذراع أحدهما يتأرجح على جانب النقالة ويده ترتطم بوحشية بالركام والزجاج المكسور .

ذهبت مع أندرسون إلى غرفة العمليات . وكان الكولونيل تيموثي جيراغتي قد عاد من رحلة تفقدية لوحداته التي فقدت مقرها . وكان فكّه بارزاً من وجهه الأسمر ووجنتاه غائرتين وعيناه تائهتين . وشاهدنا وراءه الجنود يجرّون الأنابيب وقناني الأوكسيجين إلى ركام البناء المهدم ويغرسون الأنابيب في أتون الأطنان من الحديد والإسمنت . وكان المقر قد تحطم تماماً وانشق من الأسفل كالبركان بفعل ٤٠٠٠ رطل (باوند) من المفجرات . وذكر أحد المارينز أن عدد الموتى بلغ ستين . ولكنه كان يعلم أن المئات قد ماتوا . وكان المارينز يجلسون في سيارتهم المسلّحة حول الركام المتصاعد دخانه يحرسون المقر الذي لم يبق منه ما يستحق الحراسة .

كانت البوابة الحديدية الملتوية التي دخل منها صاحب العملية الانتحارية قطعاً ممزقة إلى الجنوب من الأنقاض . كما أن الانفجار مزق الأشجار الواقعة حول السياج المحيط بالمقر ، وغطى الأرض بكساء مبكر من أوراق الخريف الخضراء المتشحة بالسواد . وتناثر على مساحة لا تقل عن ربع ميل آلاف من ملفات الإدارة العسكرية وأوراقها التي تشتمل عل سير العسكريين وأعمالهم . والتقطنا أنا وأندرسون أحد الملفات فإذا بداخله وثائق سرية عن مراكز القناصين ، وتعليمات حول كيفية الصعود إلى طائرات الهليكوبتر ، وصحف لوحدة المارينز ، ورسائل من الولايات المتحدة . وكان بينها رسالة زرقاء من كارولاينا الجنوبية لم تُفتح بعد . وربما كانت مرسلة إلى أحد ضحايا الانفجار . وكانت الصفحة ٢٢ من ملف سري للمارينز ملقاة خلف الأنقاض وتشتمل على مذكرة مرحة تبلّغ وزارة الدفاع الأميركية عن العلاقات الودية بين المارينز واللبنانيين . جاء فيها :



المارينز - بيبي وسجائر وأم ١٦

ـ ليس عليكم سوى أن تروا كيف يتعامل المارينز لكي تعلموا أن هذا أجمل اعلان حصلت عليه وحدة المارينز .

ووجدت عند جذور إحدى الأشجار نسخة من مجلة وحدة المارينز البرمائية ٢٤ واسمها «سكوب روت» ومؤرخة في ١٥ أيلول/ سبتمبر ١٩٨٣ ، أي قبل ذلك بثلاثة أسابيع . وعلى الصفحة الثانية مقال للفتنانت مايلز بوردين عنوانها «الشعب يعتمد على المارينز» . ويشكو بوردين في مقاله من البعوض الذي يبعث فيه الجنون ويقول إنه منهك من الوقوف خلال أدائه لعمله يقطر عرقاً ويريد التحدث إلى فتاة لكن ـ كما يقول :

«(ما يؤلم) هو رؤية الناس الذين يستحقون الشفقة ، والذهاب إلى «هوترفيل» (حي السلّم)» والاطلاع على ما يعيش عليه الناس ، والطعام الذي يأكلونه ، والملابس التي يرتدونها ، والنظر إلى وجوه الأطفال وإدراك ما حل بهم من موت وخراب وفقر . . . سوف نترك هذه البلاد بعد وقت قصير للتمتع بنعمة البلاد . . . لكن الشعب اللبناني في بلاده الآن ، ويعتمد اللبنانيون علينا لإعادة السلام لكي يتمكنوا من إعادة بناء اقتصادهم ومدينتهم وبيوتهم وحياتهم . وبفضل جهودنا قد يأتي يوم يكون فيه لبنان كأميركا بلداً ينعم بالراحة» .

كانت الأوراق تتطاير فوق الأنقاض عندما رأينا أحد رجال المارينز على عربة برمائية بجانب الأشجار . وكان منظره وهو جالس خلف رشاشه يدل على أنه لم يكترث حتى بالتظاهر بأنه يؤدي واجباته العسكرية . فوضع أحد ضباطه يده عل كتفه والتفت إلينا أنا وأندرسون وإلى فريق المصورين الذين توافدوا عل قاعدة المارينز وقال :

ـ يمكنكم التقاط صورة لنا ، لكن لا تصوروا الجثث . تذكروا أن هناك الآن أشخاصاً يرغبون في إطلاق النار عليكم . فهناك حزن كثير . ولاح لنا من خلال الضباب فوق البحر شي ضخم يتحرك إزاء الأفق . ولم يكن ذلك إلا نيوجيرزي التي كانت تزحف على مياه البحر . كانت قد خسرت المعركة قبل أن تطلق مدافعها .

أسفر التفجيران الانتحاريان عن قتل ٢٤١ أميركياً غالبيتهم من المارينز ، و ٥٨ مظلياً فرنسياً . وكان هؤلاء الفرنسيون الضحايا الأول من المقاتلين منذ الحرب الجزائرية . ولم يفقد الأميركيون حتى في فيتنام مثل ذلك العدد في يوم واحد . ومات لبناني مسن كان له كشك في مقر المارينز يبيع فيه المرطبات . وقتلت كذلك زوجة البواب وأطفالها في المقر الفرنسي . وعندما وصل الرئيس ميتران لرؤية الدمار وجد البواب ـ الذي كان قد ترك المقر قبل وقت قصير من الانفجار لشراء السجائر ـ

جالساً بصمت مع أم زوجته قرب الحفرة الكبيرة التي أحدثها الانفجار بانتظار معجزة ، فعانق ميتران المرأة بلطف ، وصافح البواب الذي قال له بأن أصغر أطفاله في الشهر الثالث من عمره . وظل ينتظر طيلة خمسة أيام قبل أن يخرج الفرنسيون جثث امرأته وأطفاله المتحللة من الأرض .

ووعد الأميركيون بالانتقام . إذ اعتبروا الهجوم هجوماً «إرهابياً» . وكانت الأسوشيتد برس حتى ذلك الوقت قد تجنبت استخدام الكلمة عند الإشارة إلى الهجمات على الإسرائيليين . أما بعد هذا الانفجار فقد أصبحت كلمة «إرهاب» كلمة شائعة . وفي بيروت لم يكن لدى جيراغتي وغيره من قادة المارينز أدنى شك في أن لإيران أو لسوريا ـ أو لكليهما ـ يداً في الانفجارات . إذ لم يكن باستطاعة جماعات المسلحين من الشيعة أن يخططوا لذلك ، وأن ينفذوا هجوماً عسكرياً على ذلك النطاق .

انفجرت القنبلة الأولى في مقر المارينز في الساعة السادسة والثلث صباحاً . وضحّى السائق الانتحاري بنفسه تحت المقر الفرنسي بعد ذلك بعشرين ثانية بالضبط . وقال أحد الناجين الفرنسيين انه كان يحلق ذقنه عندما سمع الانفجار الأول ، وأنه خرج إلى شرفة غرفته لأنه ظن أن الانفجار وقع نتيجة لهجوم على المارينز ، ثم حدث الانفجار الثاني عند قاعدة بنايته .

عشرون ثانية . عمل علمي ، وتوقيت علمي . كان هذا ثمرة تحضير وتدبير منهجيين استغرقا أسابيع . وأيا كان مدبر الهجوم فلا بد أنه كانت لديه خطط بديلة ، وعدة تجارب من أجل التوقيت الدقيق ، وقوى مساندة في حال فشل أجهزة التفجير .

إن الكتيبتين اللتين تعرّضتا للهجوم هما الكتيبتان اللتان تدخلتا في الحرب ـ الأميركيون بقصفهم ، والفرنسيون بغاراتهم الجوية . وبعد ثوان من تفجير المقرين العسكريين وضع الجنرال أنجيوني مئات من جنوده الإيطالين حول قاعدتهم على الطرف الشمالي من طريق مطار بيروت ، حيث كانت الاستحكامات والأسلحة الأتوماتيكية المصوبة نحو كل شاحنة تقترب منهم . قال لي أنجيوني فيما بعد :

ـ انتظرنا دورنا . انتظرنا وانتظرنا . لا تستطيع أن تتخيل كيف كانت تلك الثواني التي انتظرناها . هل تظن أنهم لم يفجرونا لأننا لم نحارب ضد الميليشيات؟ لست متأكداً من ذلك . لقد انتظرنا المفجّر الذي سيرسل إلينا . وإذا كان لم يرسل إلينا بالفعل فإنه لم يفارق أذهاننا . لا أدري كم انتظرنا . ثم أدركنا أنه لن يأتي . ربما عجز عن تفخيخ شاحنته في اللحظة الأخيرة .

كانت المخابرات الأميركية قد تلقت تحذيراً من الهجوم : فلدى الاستخبارت الأميركية المركزية

(السي . آي . اي) تقرير يدور حول التنصت إلى محادثة في مقهى بباريس قيل فيها ان هجوماً سيقع على «مجمع في بيروت» لكنها ـ أي الاستخبارات المركزية ـ تجاهلت المحادثة . وقيل لضباط فرنسيين في القوة المتعددة الجنسيات لجأوا إلى مساعدة ضباط المكتب الفرنسي الثاني في دمشق بأن جماعة من الحرس الثوري الإيراني يقودهم شيخان مروا بسوريا قبل تفجير المقرين بشهر ، ونقلهم السوريون إلى معسكر جنوب بعلبك ، ومن هناك جرى تهريبهم إلى بيروت .

وذهب الدبلوماسيون الأميركيون ببيروت إلى أن السائقين الانتحاريين إيرانيان وأن الشيخ محمد حسين فضل الله الذي يقيم ببئر العبد بارك مهمتهم . وقد قمت مع مراسلين آخرين بسؤال الشيخ فضل الله ، فنفى ذلك . وتحدثت مع عشرات من مقاتلي الميليشيات الشيعة فنفوه هم أيضاً . سألني بعضهم : وهل كان الانتحاريان بحاجة إلى مباركة فضل الله؟ إذا اعتقدا بأنهما كانا يقومان بالمهمة في سبيل الله فلم يكونا في حاجة إلى تأكيد من الشيخ فضل الله على ذلك . كانا يعرفان أن الجنة تحت ظلال السيوف .

قرأنا كل البيانات التي أصدرها أعداء أميركا في الشرق الأوسط عن التفجيرين : أدانهما جنبلاط بوصفهما «هجومين مأساويين» . وأشاد بهما الليبيون بوصفهما «من أعمال الشجاعة التي قامت بها القوى الوطنية في لبنان» . ونفى الإيرانيون أي تورط لهم فيهما . ولم يقل السوريون شيئاً . لكن في ٢٢ تشرين الأول/ أكتوبر ، أي قبل التفجيرين بيوم واحد ، حذرت سوريا من أنها مستعدة لاستخدام الصواريخ ضد سفن الأسطول السادس إذا حاول الرئيس ريغن «إرهاب» سوريا . وبعد التفجير قام ضباط المارينز بإرسال معلومات «سرية» تقول بأن المخابرات السورية وحدها هي القادرة على تنظيم تفجير على ذلك النطاق وبذلك الحذق .

وأخذت ترد من واشنطن شكوك أكثر خطورة تشير إلى احتمال تورط عملاء سوفييت أو أوروبيين شرقيين . وروّجت السفارات الغربية ببيروت ذلك بهمة ونشاط . فطالما أن السوفييت كانوا حلفاء سوريا ، وأن الالمان الشرقيين قد ساعدوا في تدريب المخابرات السورية ، فقد كان من الطبيعي إدخالهم في قائمة المجرمين المشتبه فيهم . وبدا أن مسألة تبلور لبنان كموضع تتنافس عليه القوتان العظميان ، على الأقل في ذهن ريغن ، ليست إلا مسألة وقت .

لو أن لبنان نعم بتلك المكانة لفرض على الجيش الدولي في بيروت الغربية التزاماً نهائياً مدمراً . فبعد عودته إلى لبنان لحماية المسلمين ، وبعد أن تحالف مع حكومة الجميّل فانحاز إلى الكتائب في الحرب الأهلية ، سيصبح حاجزاً غربياً في الحرب الباردة ضد النشاط السوفييتي المدمر . فبعد نسف

مقر المارينز بيوم واحد اكتشف الرئيس ريغن أن هذا في الحقيقة هو سبب وجود القوة المتعددة الجنسيات في بيروت . فلبنان كما قال :

«عماد مصداقيتنا على الصعيد العالمي . فلا يمكننا أن نختار المكان الذي سندعم فيه الحرية . وكل ما يمكننا عمله هو أن نقرر كي نفعل ذلك . . . فإذا خضع لبنان في النهاية لطغيان دول معادية للغرب ، فإن ذلك لن يهدد مركزنا الاستراتيجي في شرقي البحر الأبيض المتوسط فحسب ، بل واستقرار الشرق الأوسط كله بما في ذلك منطقة شبه الجزيرة العربية الغنية بمواردها» .

كان من السخريات الوحشية أن الذي شارك ريغن في التحليق بعالم الوهم في لبنان هم الذين وعد ريغن بالانتقام منهم . فالشبان الإيرانيون في بعلبك ، والجماعات الشيعية التي كانت تعتبر أميركا وإسرائيل عدواً مشتركاً ، والعدد المتزايد من المقاتلين المسلمين الذين تأثروا بالصراع الهائل بين إيران والعراق ـ هؤلاء كلهم كانوا يعتقدون بأنهم يهددون الولايات المتحدة . لقد كانوا بالفعل «معادين للغرب» وكان يسعدهم أن يجدوا من يطمئنهم بأنهم كانوا يساعدون على زعزعة مصالح الغرب في الشرق الأوسط . وعليه فقد كان الصراع في نظر هؤلاء الشبان ـ وفي نظر الانتحاريين أنفسهم ـ صراعاً ملحمياً عالمي النطاق . ألم يكونوا يكافحون في سبيل إخراج أميركا الشيطانية من العالم الإسلامي؟

إلا أنه لم تكن للقوى التي كانت أميركا تدعمها أو تعارضها حول بيروت علاقة بهذا السيناريو المثير . إذ كان سيثير دهشة المقاتلين الفلسطينيين ببحمدون ، ومقاتلي الميليشيا الدرزية في التلال فوق المطار ، والقوات السورية بالبقاع أن يعلموا أنهم يلعبون دوراً تاريخياً في تدمير المركز الاستراتيجي للعالم الغربي في شرقي البحر الأبيض المتوسط ، هذا إذا تركنا جانباً تهديدهم لشيء عظيم مثل «المناطق ذات الموارد العظيمة» في شبه الجزيرة العربية . لكنهم كانوا سيعتقدون ذلك إذا انسحب الأميركيون . وكان انسحابهم قد أصبح حتمياً في اللحظة التي اكتشف فيها ريغن مصالح استراتيجية حيوية في لبنان . وهكذا نجح ممثل السينما في أن يطمئن أعداءه حول حقيقة مهمتهم .

وبينما كان ريغن يحدد الدور الجديد المحكم للقوة المتعددة الجنسيات في لبنان ـ ويغزو جزيرة غرنيادا الصغيرة في البحر الكاريبي حيث جرى اكتشاف المزيد من المصالح الأميركية الحيوية ـ كنا نحاول الإجابة عل سؤالين : من الذي فجّر الشاحنة بالمارينز؟ وكيف؟ كانت الإجابة على السؤال الثاني أسهل . إذ قام أندرسون ولابل بإجراء مقابلات مع كل من نجا من وحدة المارينز البرمائية ٢٤ وكان مستعداً للتحدث معهما . كانوا جميعاً متفقين على أن سائق الشاحنة شوهد قبل التفجير .

وجميع الذين رأوا الشاحنة قالوا بأنه اتجه إلى يسار طريق المطار إلى موقف للسيارات يستخدمه موظفو المطار ودار حوله مرتين قبل أن يقتحم البوابة الحديدية المهلهلة إلى مقر المارينز .

لماذا دار مرتين حوله؟ ربما لأن سيارة وقفت في طريقه وهو يتأهب للقيام بمحاولته الأولى ، وربما لأنه كان يوقت محاولته بالثانية . ومن الواضح أنه كان من المفروض أن يقوم المفجران بالتفجير في اللحظة ذاتها . إلا أنه حدث خطأ في التوقيت مقداره عشرون ثانية . وفي الحال أدرك لابل أهمية إعلان كبير خارج المقر الأميركي العسكري فيه تنبيه للمارينز كان يمكن لأي شخص يمر بالمدخل أن يقرأه . ويقول التنبيه :

ـ تحذير . أفرغ الأسلحة قبل دخول المقر . وكان المارينز قد أُمروا بأن يخرجوا مخزن الذخيرة من بنادقهم عندما يدخلون المقر .

كنت أجلس ساعة بعد أخرى في مكاتب شبكات التلفزيون الأميركية أشاهد المقابلات مع المارينز على الفيديو لعلّي أكتشف دليلاً لم نلحظه من قبل . فوجدت في مكتب الأن . بي . سي . شريطاً لمقابلة مع كالهون وكيل العريف البالغ من العمر ٢٧ سنة ، وقد ظهر على الشاشة وعلى أذنيه سماعتان . وكانت أذناه قدأصيبتا في الانفجار .

روى كالهون قصة زميل له كان يحرس «نقطة المارينز ٧» خارج مقر فرقة الإنزال ، فقال بأن الشاحنة اقتحمت البوابة وعندما مرت :

«حاول (زميلي) أن يسحب مخزناً لبندقيته لأنه لم يكن من المسموح لنا أن نبقي المخازن في بنادقنا . وحاول أن يضع المخزن وأن يحرك الزناد . وعندما كان قد تهيأ لإطلاق النار انفجرت الشاحنة . وقال إن كل ما يتذكره هو أن السائق كان يبتسم عندما مر بنا» .

تأمل . «لم يكن يُسمح لنا أن نبقي المخازن في بنادقنا» . إذاً هذا هو ما حدث . كان المارينز مستعدين للقيام بهجوم خارج مقرهم . لكن لم يكن في بنادق الحراس رصاص . فالمارينز الذين كان عليهم أن يقوموا بحماية قلب مقر كتيبتهم ـ التي كانت أقوى وحدة في القوة المتعددة الجنسيات ـ كانوا بالفعل غير مسلحين . فلأنهم كانوا حماة للسلام ، ولأنهم ما كانوا في بيروت إلا لمساعدة اللبنانيين ودعم الحكومة اللبنانية ، اقترفوا الخطيئة الكبرى التي اقترفها من قبلهم كثرة من الجيوش الأجنبية في لبنان وهي أنهم أرادوا أن يحبهم الجميع ، فأقنعوا أنفسهم ـ بالرغم من كل الشواهد على عكسه ـ بأن الجميع كان يحبهم فعلاً . لقد كان السائق الانتحاري يبتسم . بالطبع كان يبتسم . لقد كان في طريقه إلى الجنة .

كان محظوراً على المارينز أن يحملوا الذخيرة في بنادقهم وهم خارج عملهم في القاعدة الأميركية . لكن يبدو أنه جرى التوسع في نطاق الحظر ، فصار يشمل حرس المارينز الذين لم يكونوا يؤدون واجبهم على محيط مجمّعهم . وعليه فإن المفجّر الانتحاري كان سيصبح في مأمن تام تقريباً حالما يدخل سياج المجمّع . وحدث أن واحداً منهم فقط ـ وهو رقيب أول كان في موقف سيارات مقر وحدة الانزال ـ كان لديه من الوقت ما يكفي لتعبئة الرصاص وإطلاق خمس رصاصات من بندقيته الأوتوماتيكية عندما كانت الشاحنة تندفع نحوه واخترقت حاجز أكياس الرمل . فقُتل إما من جراء اصطدام الشاحنة به ، وإما عندما انفجرت شحنتها المؤلفة من ٤٠٠ رطل (باوند) من المتفجرات . واختفى كل أثر للسائق الانتحاري ، وتمزق حتى محرك الشاحنة المصنوع من الحديد .

كان الأميركيون قد تلقوا تحذيراً كافياً مما قد يحدث لهم لأن تدمير قاعدتهم كان صورة طبق الأصل تقريباً لحادث تفجير السفارة الأميركية في نيسان/ أبريل من العام ذاته الذي تلاه وعد من «الجهاد الإسلامي» بشن هجمات أخرى على «الوجود الاستعماري في لبنان بما في ذلك القوة المتعددة الجنسيات» . ولم يتردد مستشارو ريغن ـ مثل جيوفري كمب الذي كان في مجلس الأمن القومي ـ أن يعتبروا «عدم الكفاءة العسكرية» مسؤولة عن الكارثة . لكن المارينز أيضاً ماتوا بسبب عدم الكفاءة السياسية . فالذين زاروا لبنان عجزوا عن التمييز بين الحلم والحقيقة حتى فات الوقت .

وبعد الانفجارين بيومين كانت رائحة تحلل الجثث مرعبة إلى حد أنه جرى توزيع الأقنعة الواقية على المارينز . وانتشر الحرس على السياج ، وأُمروا بإطلاق النار عل كل من يقترب من البوابة الرئيسية .

ورأيت خارج بيتي رجال أمن أميركيين بألبسة مدنية وهم يخرجون من السفارة البريطانية التي كانوا قد أقاموا فيها سفارتهم وهم يحملون البنادق الرشاشة ، وصاح أحدهم قائلاً :

ـ أخلوا الطريف ، إنهم في طريقهم إلينا ، هناك شاحنة قادمة إلى هذا المكان .

و أخذت تتوالى تقارير المارينز عن شاحنات ضخمة مشبوهة تسير بسرعة على طريق المطار مضغوطة عند محور العجلات وفيها سائقون يبتسمون . وعُلّقت قرب حُطام مقر وحدة الإنزال لافتة علبها تحذير يقول : «ابتعد ـ منطقة إجرام» .

ووصل جورج بوش نائب الرئيس ليشاهد الخراب . وكان المارينز إذ ذاك يتعرّضون لقذائف صاروخية تُطلق باليد مما دعا بوش إلى ارتداء سترة واقية وخوذة وأن يسير على حطام الإسمنت المسحوق . قال :

« لن ندع زمرة من الجبناء الإرهابيين الغادرين تزعزع سياسة الولايات المتحدة الخارجية . ولن ندع الإرهاب يُملي أو يُغيّر السياسة الخارجية» . لكن هذا حدث . فأعداء أميركا في لبنان لم يكونوا من السائقين الذين يضربون ويهربون . ومهما قيل فيهم فإنهم لم يكونوا جبناء . كان ينطبق عليهم تعبير يحبه الأميركيون وهو «ذو حوافز في غاية القوة» . هذا فضلاً عن أنهم كانوا لا يعرفون التهاون ويعملون بالسر .

فبالرغم من تحريات الاستخبارات الأميركية المركزية (السي . آي . إي) والتحقيق الرسمي في الانفجار ، وما تسرّب من أخبار من واشنطن واعتقاد ريغن «بالإرهاب الدولي» فإنه ليس لدى الأميركيين إلى اليوم فكرة عن هوية السائقين اللذين ضحّيا بنفسيهما عندما اقتحما بالشاحنتين القاعدتين الأميركية والفرنسية في ٢٣ تشرين الأول/ أكتوبر .

استطعنا بتحرياتنا أن نجمع بضعة تفصيلات من أصدقاء من الشيعة بينهم مقاتلون لهم صلة قرابة بأتباع لحزب الله . هؤلاء جميعاً أصروا عل أن مفجري الشاحنتين لبنانيان لا إيرانيان وهما مسلمان ـ فهم لا يفرقون بين السنة والشيعة ـ وأنهما اعتُبرا شهيدين . وقيل لنا إن صورتيهما ألصقتا على صور غيرهم من الشهداء على الجدران في بيروت الغربية ، لكن بدون إشارة إلى هويتهما أو ظروف استشهادهما . وجاء في التعريف الذي ظهر تحت الصور أنهما استشهدا في منطقة شيعية بالمدينة وهما يقاتلان «أعداء الإسلام» .

أما الدليل الآخر على هويتهما فكان مصدره المكالمة التلفونية التي كان لا بد منها لوكالة الصحافة الفرنسية . وكان صاحبها هو نفسه الذي اتصل من قبل وذكر بالعربية «الجهاد الإسلامي» قال :

ـ لقد نفذنا هذه العملية ضد قلعتي الاستعمار الرجعي لنبرهن للعالم أن قواتهم البحرية ونيران مدفعيتهم لا تخيفنا . نحن نحب الله ونحب الموت . لسنا إيرانين ولا سوريين ولا فلسطينيين . نحن مسلمون لبنانيون نتبع تعاليم القرآن الكريم .

وخرجت السفارة الأميركية من تحرياتها عن المتهمين ـ وأي متهمين ـ بالإشارة إلى أن نبيه بري ـ زعيم حركة أمل ـ قد يكون وراء التفجيرين . لكن بري نفى ذلك بشدة وقال أنه قدم تعازيه «بالمجزرة» لدبلوماسي أميركي لم يكشف عن اسمه . ولكنه لم يدافع عن حسين موسوي نائب الرئيس السابق لحركة أمل الذي كان قد أخرج من الحركة قبل ذلك بسنة بسبب الخلاف حول التوجيه السياسي للميليشيا والذي أنشأ حركة «أمل الإسلامية» ببعلبك . قال بري :

ـ ليس علي أن أدافع عن حسين موسوي . . . وغيره .

بعلبك ٢٣ تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٨٣

عندما وصلنا أنا وأندرسون إلى خارج بيت موسوي وجدناه بحراسة بضع عشرات من المسلحين ذوي اللحى ، وبعضهم يرتدي زي المارينز والرينجرز . ولم يفسروا لنا لماذا يلبسون الزيين . تحدثوا عن حركتهم لا بوصفها حركة «أمل الإسلامية» فحسب ، بل بوصفها حزب الله . وكان مكتب موسوي خلف سراي بعلبك المهدمة في بيت عمره مئة سنة ، له نوافذ ألوانها زاهية ، وأمام بابه مزهرية فيها نبتة ذابلة . وكانت على جدارن صالونه صور الإمام آية الله موسى الصدر . وشاهدنا حول البناء أعلاماً سوداء ولافتات تقول «الموت لأميركا» ، وعلى كل منها كلمة «شهيد» .

موسوي معلّم مدرسة سابق نحيف الجسم له لحية علاها الشيب وعينان سوداوان . صافحنا بوقار وسألنا عن هوياتنا والجهة التي نعمل لحسابها . وسألناه بدورنا ذلك السؤال الذي تدور حوله المقابلات الصعبة قلنا :

ـ كيف ترى الوضع يا سيد موسوي؟

فنظر إلينا بتمعّن وهو يعلم أننا لم نأت إلى بعلبك لمعرفة آرائه في المصالحة الوطنية . وتحدث لمدة عشر دقائق عن عدوان الأجانب . فسألناه :

ـ تقول الحكومة الأميركية بأنها تشتبه في أن تنظيم موسوي هو الذي فجر المارينز . هل هذا صحيح؟ فأجاب على الفور :

ـ بالنسبة لهذا السؤال الذي حملكما على المجيء إلى بعلبك أود أقول إنني شخصياً أعتبر العمل عملاً صالحاً يحبه الله ورسوله صلوات الله عليه . إنني أنحني أمام أرواح الشهيدين اللذين نفذا هذه العملية . ثم أرجع جسمه على الكرسي وأخذ ينظر إلينا بعينيه السوداوين . ولم يكن في عينيه أثر للقسوة أو سوء الظن بنا . لكنه كان يرمقنا بنظرات المعلم الذي يبحث بين تلاميذه عمن يحتمل أن يكون من المشاغبين .

أثرتُ مسألة الاستشهاد وسألته :

ـ هل يود السيد موسوي أن يفسر لنا هذا؟ فأجاب :

ـ من واجب كل مسلم ظلمه أو قتله أو ساعد على قتله أو دمر بيته أو احتل أرضه الأميركيون والفرنسيون وإسرائيل أن يدفع الشر بالشر . ودخل شيخ على رأسه عمامة سوداء وهمس بأذنه . فعاد موسوي بعدئذ إلى حديثه وقال :

ـ إن الله قادر على نصر المسلمين سواء جاء الاعتداء من فرنسا أو أميركا أو إيطاليا أو أي قوة أخرى . يقول الإمام علي كرم الله وجهه أنه يجوز لنا أن نرمي الحجر الذي قُذف علينا على من قذفه . فالرسول صلوات الله عليه قد أمرنا بحمل السلاح للذود عن شرفنا .

لكن لدى موسوي نظرات سياسية محددة يحاول بها أن يبرر إيمانه بالعنف . ففي نظره أن الأميركيين جاؤوا إلى لبنان «لتحقيق الأغراض التي تريدها أميركا» والقوة المتعددة الجنسيات هي قوة شمال أطلسية ، وأميركا تتعامل مع «بعض الزعماء التقليديين في لبنان بينما تتجاهل ما يصفه ـ أي موسوي ـ «بالعناصر الإسلامية الشعبية» . قال :

ـ أُصرّ على أنه لا علاقة لنا على الإطلاق بما جرى يوم الأحد للأميركيين والفرنسيين . وإذا كانت جميع الشعوب المحبة للسلام تريد أن يسود السلام بينها وبين المسلمين ، فليس لها خيار سوى أن تضغط على حكوماتها لتسحب قواتها . ومن المؤكد أنه ستكون هناك عمليات جديدة ضدهم . . . وآمل أن أشترك في العمليات القادمة .

وخلال خروجنا من البيت الصغير اللطيف المزين بالصور الجميّلة ، طلب أحد المسلحين الذين يرتدون زي «الرينجرز» من أندرسون أن يريه جواز سفره . ولم يطلب جواز سفري لأنه يبدو أنه ، لا يريد أن يرى إلا جوازات سفر الأميركيين . وجلست مع أندرسون في مدخل البيت . وعاد الرجل وهو يحمل علبة كعك هولندية . فأخذ كلٍ منا بسكويتة صغيرة وشكرناه وأخذنا ننتظر . وبعد بضع دقائق عاد مسلح آخر له لحية وناول أندرسون جواز سفره . وكان قد أخذ صورة عنه . وكان يحمل الصورة بيده وقد ظهرت عليها بوضوح صورة أندرسون إلى جانب عمره ومكان ولادته . وتناسينا هذا . لكن ما الغرض من أخذ صورة عن جواز أندرسون بينما كنا نتأهب للخروج ؟

تركت التفجيرات بيروت في حالة حصار ذهني ومادي كاد أحياناً أن يبلغ حد الشعور بالاضطهاد . وكان من الواضح لكل شخص إلا للقوة المتعددة الجنسيات أن الأميركيين سيرحلون . وصار الآلاف من اللبنانيين يقفون صفوفاً أمام السفارتين الأميركية والفرنسية للحصول على تأشيرات سفر . وطلب لبنانيان من موظفي أندرسون أن يعدهما بإجلائهما قبل أن يرحل المارينز . وبعد ظهر

أحد الأيام دعاني أندرسون إلى شقته لمراقبة نصب بطارية (مدفع) هوك المضادة للصواريخ على سطح الشقة المجاورة حيث كان يعيش كثرة من رجال الأمن بالسفارة الأميركية . وأخبرنا الأميركيو ن أن واشنطن حذرتهم من «هجمات انتحارية لطيارين شيعة» .

أما المكتب الثاني اللبناني ـ وهو المنظمة التي عجزت عن التنبؤ بوقوع الهجومين الانتحاريين في ٢٣ تشري ن الأول/ أكتوبر ـ فقد أبلغ الأميركيين أن الروس شوهدوا في البقاع ، وأن كولونيلاً سوفييتياً قد سكن ببيت في ظهور الشوير لقيادة البطاريات السورية المضادة للدبابات ومواقع المدفعية الأمامية . وتبادر إلى ذهننا أن المكتب الثاني حصل على هذه المعلومات من الكتائب الذين كانوا بدورهم لا يزالون عل اتصال بوكالة أمن المخابرات الإسرائيلية في إسرائيل .

كانت التقارير تشير إلى أشياء محددة . فقالت إن الروس شوهدوا في شتورا ، وأنهم لم يكونوا من الدبلوماسيين السوفييت في دمشق ، ولا حتى عسكريين بثياب مدنية ، ولكن عسكريين سوفييت بأزيائهم الداكنة ويعتمرون قبعات من الفرو على مقدمة كل منها نجمة حمراء وباقي الإشارات . فغادرت بيروت صباح أحد الأيام وقطعت حواجز تفتيش القوة المتعددة الجنسيات والجيش اللبناني والجيش السوري ، ودرتُ حول شتورا أسأل أصحاب المخازن المذهولين في تلك البلدة الريفية إذا رأوا أيا من أفراد القوات السوفييتية يمر بسيارته أمام مخازنهم . وطبعاً كان الجواب بالنفي .

وتوجهت بسيارتي إلى ظهور الشوير . وكان قد قيل لنا في بيروت إن كولونيلاً سوفييتياً يعيش مع ضباطه في الدور الثاني من بناية مجاورة لفيلا يقيم فيها لواء سوري . وقيل إن البيت الذي يقيم فيه السوفييت واسع وله سطح أحمر . وعندما وصلت إلى الفيلا أخذوني إلى وكيل قائد اللواء الذي اصطحبني بمرح إلى البيت المذكور . وعندما صعدت إلى الدور الثاني لم أجد كولونيلاً سوفييتياً ، بل لبنانياً يقوم برعاية الحديقة أمام الفيلا .

وبالرغم من محاولات مراسلي شبكات التلفزيون الأميركية ببيروت «قتل» تلك التقارير الخادعة ، فإن تلك الشبكات كانت تذيعها وتقول إنها مستمدة من مصادر «موثوقة» في وزارة الدفاع الأميركية . وكانت وكالات الأنباء في نيويورك تبعث بها إلى الخارج . وبعد ظهر أحد الأيام ، اتصل بي تشارلز دوغلاس هيوم من لندن وقال :

ـ بوب ، هل أنت متأكد وعلى يقين من أن تلك التقارير عارية عن الصحة؟ يبدو أن الأميركيين متأكدون من تلك الحقائق .

لكن لم يكن لتلك الحقائق وجود[٢] .

كنا كلما نجحنا في قتل خرافة ، خرج الأميركيون بخرافة أخرى أدهى وأمرّ . قيل لنا مثلاً إن الطيارين الانتحاريين وُضعوا في بعلبك ، وأنهم يخططون لمهاجمة الأسطول السادس بطائرات انزلاقية خشبية من صنع الروس ، وانها وصلت إلى بعلبك من سوريا بصناديق معدنية كبيرة وضعت خارج المدينة .

وذات صباح توجهت مع لابل إلى بعلبك لمقابلة أولئك الطيارين الأشباح إلى جانب المصنوعات الخشبية الطائرة . فكانت الصناديق الوحيدة التي رأيناها صناديق صدئة في حقول جنوبي المدينة يسكن فيها أكراد فقراء ينشرون غسيلهم على أغصان الأشجار .

كان ذلك شيئاً غريباً مضحكاً . لقد كنا نطوف بلبنان بحثاً عن نسيج الأحلام والكوابيس . ففي كل يوم كانت الدول الغربية تغذي خيالها بخطر المؤمرات الشريرة ضدها . المؤامرة مرة أخرى . ومن هذه الناحية بقي نجاح المفجّرَين الانتحاريَّين يؤرق الأميركيين مدة طويلة بعد أن رُفعت آخر جثة من جثث الضحايا في مطار بيروت بتوابيت معدنية ، ووضعت في طائرة هيركوليز نقلتهم إلى بلادهم . وهكذا هرب الغرب .

وأخيراً عقد الجميّل وزعماء لبنان مؤتمر «المصالحة» في جنيف . وسافرت بالطائرة لمراقبة الطقوس . عانق فرنجية الجميّل علناً وبذلك وضع في الظاهر حداً للنزاع الدموي بين الأسرتين . وتحدث شمعون مع فرنجية لأول مرة منذ خمس سنوات . وأخذ جنبلاط معه كاميرا إلى قاعة المؤتمر لأخذ صور للمسنين «المحنطين» كما وصفهم . واتفق الجميع على «هوية (لبنان) العربية» التي قضت على الصيغة القائلة بأن هوية لبنان غير شرقية وغير غربية . واتفق الجميّل مع جنبلاط وفرنجية وبري على أن لبنان لن يصدق على اتفاق ١٧ أيار/ مايو مع إسرائيل ، وأنه بدلاً من ذلك سوف يعقد معاهدة تحل محلها وتضمن جلاء القوات الإسرائيلية .

كان عذاب أميركا شديداً . قامت بمحاولة يائسة لمنع تجدد القتال في بيروت . فحث الدبلوماسيون الأميركيون الجميّل على التوصل إلى تسوية مع معارضيه الموالين لسوريا . لكن تحقيق

(٢) جاء في الأخبار أن مكفرلين كان يعتقد أن السوفييت وراء الفوضى في بيروت . وكان ريغن نفسه هو الذي بدأ في ٨ تشرين الأول/ أكتوبر بنشر الإشاعات عندما سأل في معرض كلامه عن لبنان : «هل يمكن للولايات المتحدة أو العالم الحر أن يقف موقف المتفرج وهو يرى ابتلاع الاتحاد السوفييتي للشرق الأوسط؟»

هذا كان يتطلب تخليه عن اتفاق ١٧ أيار/ مايو . وهكذا اضطر الأميركيون إلى المساعدة على دفن إنجازهم السياسي الوحيد في لبنان . وحتى وهم يفعلون ذلك قام المفجران الانتحاريان بهجوم آخر استهدف هذه المرة المقر العسكري الجديد في صور وقتل ستين شخصاً من الإسرائيليين ومن مساجين المخابرات الإسرائيلية (الشين بت) .

عندما عدت إلى بيروت وجدت كل شيء على حاله . كان القناصون يطلقون النار على المارينز . وقضى اندرسون ومل وفارامارزي ساعات بعد ظهر أحد الأيام ، توقف شعر الرأس ، مع مقاتلي الشيعة الذين كانوا يركضون من جدار إلى آخر والمارينز يطلقون صواريخ تذيب الجسم على سطوح بيوت المدنيين . وكان بعض المسلحين من حزب الله . وجازف أندرسون بحياته معهم . وقال عند عودته .

ـ لقد جُنّ المارينز . هل لديهم فكرة عما يفعلون؟

حضرت أنا وأندرسون مؤتمراً صحفياً للمارينز تحدث فيه ثلاثة ضباط مسؤولين عن العلاقات مع وسائل الاعلام . وكان ذلك هو الاجتماع الأسبوعي الذي حضرناه بالرغم من أن خوفنا كان يفوق حماسنا لروح التحقيق الصحفي . وكانت طريق المطار نتعرّض للقصف بقنابل الهاون ، والبارجة بيدل تقصف هي والمارينز الشوف . وبعد بضع دقائق انفجرت بعض القذائف القادمة حول قاعدة المارينز فأُمرنا بالنزول إلى المخابىء .

هناك وبين الاستحكامات الترابية قام الضباط الشبان الثلاثة الذين كرّسوا عملهم للحفاظ على الحقيقة والعلاقات الصحفية الطيبة بقراءة قائمة بالحوادث مع آخر بيان صدر عن البيت الأبيض حول مشاركة أميركا في القوة المتعددة الجنسيات . وقال أحدهم بصوت مرتفع ليعلو على أصوات القذائف :

ـ إن النقطة التي ينبغي لكم أن تتذكروها هي أننا لا نزال هنا في مهمة سلام .

وفي ١٧ تشرين الثاني/ نوفمبر هاجم الفرنسيون الحرس الثوري الإيراني ومقاتلي «أمل الإسلامية» التي أنشأها حسين موسوي في بعلبك . وكان الفريقان قد احتلا مؤخراً ثكنات الجيش اللبناني فوق بعلبك . وكانت هذه الثكنات هي الهدف الذي حاول الفرنسيون تدميره . فإنطلقت عند الغسق أربع عشرة من القاذفات المقاتلة «سوبر اتندار» من حاملة الطائرات كليمنصو التي كانت راسية في مياه بيروت ، وأغارت لمدة ساعة ونصف على تل رأس العين وهو موقع مقبرة كلاسيكية فوق معبد بعلبك .

وادعت الحكومة الفرنسية بفخر أن قوتها الجوية سجلت «ضربات مباشرة» للثكنات ولفندق الخوّام الذي كان مقراً «لأمل الإسلامية» . لكني وجدت أن الطائرات الفرنسية أخطأت أهدافها في بعلبك . وأخذني الإيرانيون إلى «ثكنات الإمام علي» حيث انفجرت عدة قذائف . لكن غالبية القنابل انفجرت فوق سلسلة من التلال الصغيرة على بعد ميل ونصف ولم تدمر سوى أشجار الزيتون . ولم يُصب فندق الخوّام . ولم يكسر زجاج أي من نوافذه . وكان الضرر الوحيد الذي ألحقته الطائرات الفرنسية وهي فوق معبد باخوس خرقاً صغيراً في سطح فندق بالميرا . ونفذت إحدى الشظايا إلى غرفة مندوب الصليب الأحمر الدولي في الفندق ذاته .

بنى الأميركيون والفرنسيون أسواراً حول مقرّيهما في بيروت وعززوا المتاريس الترابية التي بلغ علوها عشرين قدماً بدعائم من الحديد والإسمنت . وأقام المارينز الذين كانوا يعيشون في ظل تهديد دائم[٣] تحت محيط المطار البالغ أربعة أميال ، سلسلة من الأقبية والخنادق وفتحات للتهوية . وكانت هذه المنشآت التحتية أعمق وأكثر إتقاناً من أي دفاعات عرفتها بيروت حتى ذلك الحين . وملأوا مليون ونصف مليون كيس من الرمل ليصفّوها حول عالمهم التحتي . فبعد أن أصبحوا من الناحية السياسية لا يستطيعون الانسحاب إلى سفنهم ، ومن الناحية العسكرية غير قادرين على السيطرة على المدينة ، تقهقروا إلى باطن الأرض . فمنذ الحروب الصليبية لم يقم مثل هذا العدد من الجنود ببناء دفاعات معقدة في لبنان كالتي أقامها الأميركيون . وخيّل لهؤلاء أنهم لم يتركوا لأعدائهم فرصة ضربهم مرة أخرى .

لكنهم ضربوهم . فحتى عندما كان المارينز في مطار بيروت يستخدمون الخشب للإحاطة بمخابئهم تحت الأرض بجانب البحر نُسفت السفارتان الأميركية والفرنسية في الكويت . واعتقل الكويتيون سبعة عشر شخصاً بينهم عدد من اللبنانيين . وكان هؤلاء جميعهم من منظمة الجهاد الإسلامي . وادعى الأميركيون أن هناك مؤامرة دولية عليهم . لكنهم هم أنفسهم لم يصدقوا دعايتهم .

من المؤكد أن الأميركيين لم يقوموا بأية محاولة لاخفاء تحالفهم العسكري المتزايد مع إسرائيل . ففي تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٨٣ عرض لورنس إيجلبرغر وزير الدولة الأميركي «تنشيط الحوار

(٣) كان البريجادير - جنرال جيمس - ر . جوي لا يزال غارقاً في طوفان المعلومات التي انهالت عليه من المكتب الثاني ببيروت ، عندما قال في مؤتمر صحفي للمارينز في ٢١ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٨٣ : «ربما كان في استطاعتنا أن نقابل تلك المعلومات بالتهديدات وأن نأخذ كلاً منها مأخذ الجد» .

الاستراتيجي» مع إسرائيل الذي كان قد عُلّق بعد غارة إسرائيل على المفاعل الذري العراقي وبعد غزو لبنان . بل إن موشي أرينز وزير الدفاع الإسرائيلي الجديد ألمح إلى أن إسرائيل قد تنسّق أعمالها الحربية في لبنان مع الولايات المتحدة .

على أن الأميركيين كانوا لا يزالون في الشرك ببيروت لأنهم كانوا لا يزالون يدعمون الجميّل . وكذلك كان الفرنسيون ولو أنهم قاموا بتعديل التزامهم بإعادة سيادة لبنان تعديلاً ضمنياً ، وذلك في عبارة وردت على لسان وزير الخارجية كلود شيسون في ٢ كانون الأول/ ديسمبر ١٩٨٣ قال فيها إن فرنسا لن «تتخلى عن اللبنانيين» ومعنى ذلك أنه كان يأمل أن تقوم حكومة الجميّل «بتمثيل لبنان كله وذلك لكي تستمر عملية المصالحة وتؤدي إلى قيام قوة تمثيلية حقيقية» .

رأى شيسون أن مغادرة القوة المتعددة الجنسيات للبنان في ذلك الوقت الحرج سيعتبر عملاً «مجرداً من (الشعور) بالمسؤولية» . ومن ثم أخذت تتكرر هذه العبارة ، وتزايد تبني الأميركيين لها . فصار يقال بأن القوة المتعددة الجنسيات موجودة في لبنان لإفساح المجال للبنانيين لتسوية خلافاتهم . وعليه فإنه صار يُنظر إلى المعارك بين القوة المتعددة الجنسيات والميليشيات ، والقصف البحري ، والتضحية بذلك العدد الكبير من الأرواح على أنها جزء من واجب يتعين على تلك القوة القيام به لتوفير الوقت للسياسيين اللبنانيين . وبذلك تحولت القوة ذاتها إلى مؤشر زمني يُعيّن درجة المصالحة بين اللبنانيين قبل انتهاء المباراة . على أن تصميم فرنسا على عدم «التخلي عن اللبنانيين» لم يأخذ بعين الاعتبار حقيقة أن عدداً كبيراً من اللبنانيين كانوا عندئذ يريدون أن تتخلى عنهم القوة المتعددة الجنسيات .

وعندما تعرّض المارينز لقنابل الهاون التي أطلقها الدروز والشيعة في كانون الأول/ ديسمبر ، طلبوا الدعم من مدافع أسطولهم . فرست سفينتان حربيتان في ميناء جونية لقصف المتن . وبدا أنه لا نهاية لتلك الحرب العبثية التي تورطت فيها الولايات المتحدة . فالقصف البحري لم ينجح في الحؤول دون قصف المارينز . فهل يستخدمون الآن قواهم البحرية الهائلة .

كنا نعلم أن طائرات السفن البحرية الأميركية تريد دخول المعركة . إذ كان طياروها قد أبلغونا ذلك بأنفسهم عندما قمنا في الخريف بزيارة حاملة الطائرات أيزنهاور وهي في مياه بيروت . وكانوا قد رسموا علامة على ذيل كل من طائراتهم من طراز ف ـ ١٤ وهي عبارة عن جمجمة داخل شريط أسود وتحمل سيفاً ملتوياً يقطر الدم من رأسه . ودعوا أنفسهم «سرب الأشباح» وكانوا ينتظرون المشاركة في القتال بفارغ الصبر .

لكن عندما قاموا بذلك تسببوا في وقوع كارثة . ففي ٤ ديسمبر قام الأميركيون بغارة جوية على البطاريات السورية في البقاع . فأسقط السوريون إحدى طائراتهم بصاروخ وقُتل الطيار . وأسر السوريون الطيار المعاون ، ولم يطلقوا سراحه حتى كانون الثاني/ يناير ١٩٨٤ على أثر وساطة قام بها جيسي جاكسون الأميركي الأسود من الحزب الديمقراطي المناوىء لريغن .

ولم يبق لدى أميركا سوى سلاح واحد كنا نعرفه مسبقاً . فبينما كنا أنا وفاروق نصار في ١٤ كانون الأول/ ديسمبر نبحث في خروج بعض أعضاء منظمة التحرير الفلسطينية على زعامة عرفات ، ارتجت جدران مكتب الأسوشيتد برس . ولم يكن ذلك بسبب انفجار سيارة مفخخة بل بسبب ضجة أعمق وأوسع نطاقاً وأقوى حتى من الانفجارين الانتحاريين . وترددت أصداؤها في جميع أرجاء بيروت . وعندما صعدنا إلى السطح دوّى انفجار آخر لا يقلّ عنفاً . وشعرنا بالانفجار فوق رؤوسنا . ثم تلاه آخر . وفاروق نصار هو الذي لاحظ أننا كنا بعد مرور ثلاثين ثانية على كل انفجار نسمع صوت انفجار صغير مكتوم في الجبال إلى الشرق . ثم فهمنا ما كان يحدث . فركبنا السيارة أنا وفاروق وتوجهنا إلى الروشة وصعدنا إلى ظهر الصخرة (البيجن ـ روك) فرأينا على بعد ميلين من الشاطىء السفينة الحربية الأميركية العملاقة ـ آخر أداة للسياسة الأميركية ـ وسط حشد من الطرادات والمدمرات . وأخيراً عاد وحش البحر الأميركي العجوز إلى العمل .

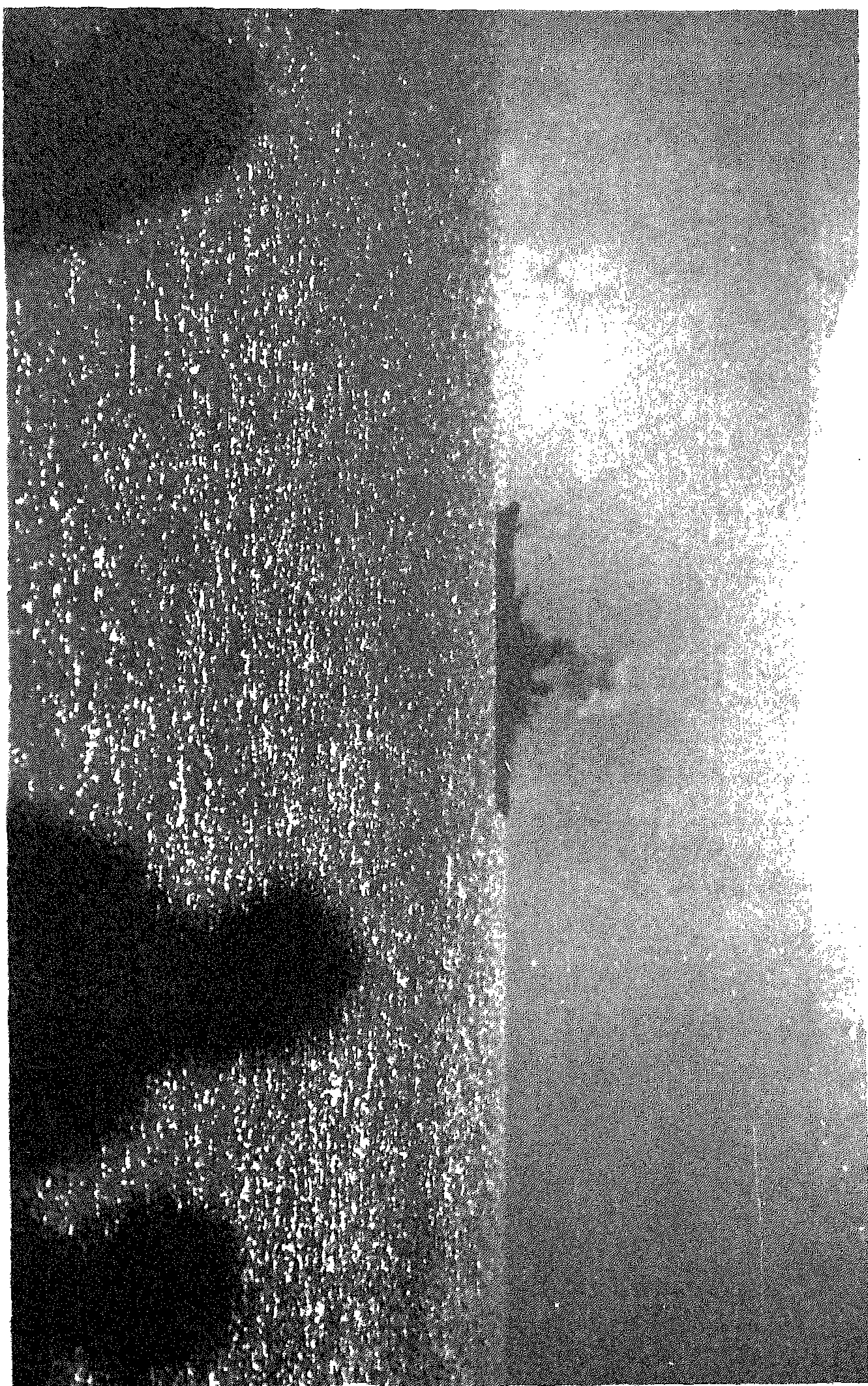
كان ذلك كرقية سحرية تملك عليك أنفاسك لمدة نصف دقيقة . إذ كانت النيران التي تنطلق من فوهات المدافع تتصاعد على شكل زهرة توليب ضخمة من اللهب ، أو بالون ضخم من الغاز المشتعل الذي لا يلبث أن يتبدد في أجواء المساء . وكان صوت كل منها يستمر ثلاثين ثانية . أما الارتجاج الذي يعقب الانفجار فكان يجتاحنا كما تغلق الرياح بعنف باب سجن ضخم في قلعة كبيرة . وذهل فاروق نصار وقال : «حبيبي ، هذا غير معقول» . واندلع اللهب مرة أخرى على شكل انفجار ضوئي دائري في سماء بيروت الغربية ، ورددت أصداءه الجبال . «ذلك هو العنف ضد لبنان . .» .

قرية بتبيات ، لبنان الأوسط ، ١٣ شباط/ فبراير ١٩٨٤

وداد سويد راقدة في سريرها بالمستشفى تدير رأسها عنا لئلا نرى جميع الحروق والشقوق التي شوّهت وجهها . وكانت على جبينها ندوب زرقاء لوحها السواد ، وعلى وجنتيها سلسلة من العلامات القرمزية الواضحة ، وكان منديلها على رأسها وهي تصف الليلة التي قامت فيها نيوجرزي ـ كما قال



الطيار الأميركي الذي سقطت طائرته خلال الإغارة على مواقع السوريين



خلال قصف نيو جرسي القرى الجبل

ريغن ـ بالرد على الهجمات التي شُنّت على القطاع المسيحي من بيروت ، فأمطرت قريتها بنيرانها . فقبل ذلك بأسبوع كان الأميركيون قد وافقوا على الرحيل عن لبنان لكن الحرب لم تنته . وكان مل وفارامارزي من مكتب الأسوشيتد برس معي يميلان فوق سرير وداد لسماع كلماتها .

وداد في الحادية والخمسين من عمرها وأم لتسعة أبناء ، وواحدة من ٢٥٠ شخصاً يعيشون في قرية بتبيات الدرزية التي تقع في واد ضيق مكسو بأشجار الكرمة والصنوبر شرقي بيروت وداخل المنطقة التي يحتلها السوريون . وكان أخو زوجها قد قُتل من جراء قصف نيوجرزي وأخذت تشكو إلى الله وهي تصف مصابها . على أنها كانت وهي تتكلم تحرص على أن تضبط عواطفها . قالت :

«كنا مختبئين في الدور السفلي من بيتنا . حيث حوّلنا غرفتين من غرفه إلى ملجأ . وكنا خمسة وعشرين شخصاً ، بمن فيهم أبنائي . جلسنا على الأرض أحدنا إلى جانب الآخر . وسمعنا في البداية انفجاراً ضخماً ، ثم سقط الجدار على رؤوسنا . فانقطع نفسي . وسقط الجدار المواجه لي عليّ . ونظرت إلى زوجي فإذا بالركام على رأسه . فأخذنا كلنا نصرخ» .

جُرح خمسة عشر شخصاً من جيران وداد سويد داخل البيت . وقال لنا أهل القرية إن اثنين من أطفال القرية أصيبا باضطراب عقلي ، وأخذا يصرخان مما استدعى نقلهما بسيارة إسعاف إلى دمشق مع ستة جرحى . وقال رجال الميليشيا الدرزية في بتبيات أن ٢٤ مدنياً قُتلوا وجُرح ١١٥ على طول ثلاثين ميلاً من تلال المتن والشوف من جراء القصف البحري . واستناداً إلى حال الجريحات في مستشفى الجبل يبدو أن الرقمين معقولان . فكثيرون منهم تبدو وجوههم زهرية وأرجوانية وأذرعهم محروقة .

وتمشينا في الغابة الباردة خارج بتبيات فرأينا فوهات الحفر محاطة بالثلج . وليس من الصعب على الزائر أن يجدها . فقد غاصت قذائف نيوجيرزي خمسة أقدام في أرض الغابة غربي حمانا ، ففتحت جروحاً في الأرض عرض الواحد منها ١٥ قدماً ، وأحرقت أشجار الصنوبر على طول ربع ميل في كل اتجاه . وصعد مل إلى قمة فوهة إحدى الحفر وأخذ يسحب قطعة من الفولاذ كانت تعلوها طبقة رقيقة من الصدأ بسبب أمطار الليل . وساعدته على سحبها من التراب . كان طول القطعة قدماً وسمكها ثلاث بوصات ووزنها كبير إلى حد أننا حملناها معاً إلى السيارة . ورأينا قطع حديد ذات أطراف قاطعة وطول الواحدة ١٨ بوصة . وقد قطعت هذه أغصان الأشجار وأحدثت فجوات في جدار بيت إلى جانب الطريق الموحل .

وكان في بتبيات فوهة حفرة إلى جانب الدور السفلي المحطم حيث كان ملجأ وداد سويد

وأسرتها . وكانت داخل البيت المدمر الذي كسته الثلوج فرشات وحصر ملطخ بعضها بالدماء . ومن الواضح أن الأشخاص كانوا يجلسون عليها عندما ضربتهم القذيفة .

لكن هناك أسئلة لم تجد إجابات في تلال المتن التي صبّت عليها نيوجيرزي جام غضبها . في بتبيات تبعت سيارتنا إحدى الفتيات . لكن أحد رجال الميليشيا منعها من التحدث معنا . وعندما دخلنا إلى المستشفى ، انتحى مسلح آخر بالأطباء الثلاثة قبل أن نطرح أسئلة على العاملين فيه . وكانت في المنطقة إشاعات عن مقتل عدد من الضباط السوريين من جراء القصف . وثارت أعصاب أحد المسلحين عندما سألنا عن الإصابات بين السوريين . وفجأة سألنا :

ـ هل تتكلمون باللغة الروسية؟

وأخذنا نتساءل :

ـ ترى هل كان في حمانا روس ، كما كان في بيت مري جنود من المارينز يغامرون بالخروج إلى التلال حولها؟ ومن هم الجرحى الستة الذين نقلوا مع الفتاة بسيارة الإسعاف إلى دمشق؟ أم نحن نعاني من الأوهام التي يعاني منها الدبلوماسيون في بيروت؟ أم أن لبنان يصيب كل من يعيش فيه من اللبنانيين والأجانب باختلال الأعصاب ، الأمر الذي يجعل الأطراف المتصارعة تكرر نفسها باستمرار؟

عندما تفجرت حرب الميليشيات مرة أخرى في بيروت ، طرح اقتراح آخر لعقد مؤتمر «مصالحة» يقوم على مجموعة من الإصلاحات الدستورية التي تحرم الجميّل من سلطته السياسية الحقيقية وتحوّله إلى رمز ، وتنقل الجيش اللبناني من أيدي المسيحيين إلى أيدي المسلمين . وكان هذا كله وسط قصف المدافع . فَقَلَبَ لبنان (الضابط البروسي وعالم الحرب) كلوزويتز على رأسه ، وجعل من السياسة امتداداً منطقياً للحرب .

لم نعد في ذلك الشتاء نحسب الإعلانات عن وقف إطلاق النار . فالمارينز كانوا يتعرّضون لإطلاق النار ، والأسطول الأميركي يقصف الدروز ، وإسرائيل تُغير على أهداف في البقاع . وأخذت العناوين الفرعية في برقيات الأسوشيتد برس تثير الأعصاب بدلاً من الضجر . وصرنا نحرص على التثبت من تاريخ الرسالة الاخبارية ، فنتساءل إن كانت هذه رسالة اليوم أو الأسبوع الفائت أو الشهر الماضي . فهل كُتب على كل من يعيش في بيروت أن يقوم بسلسلة من الأعمال المكررة؟ في كانون الأول/ ديسمبر ١٩٨٣ ساعدت سفن القوة المتعددة الجنسيات على إجلاء عرفات ومنظمة التحرير الفلسطينية . لكن ألم نبعث تقريراً عن هذا في عام ١٩٨٢؟

لكن ربما فعلنا ذلك بمزيد من الحماس . فقد كان المشهد الأخير لعرفات في بيروت محزناً .

فكما توقعنا ، انقسمت المنظمة على نفسها في أعقاب الجلاء عن المدينة . وخلال محنتها حاولت أن تطهر صفوفها من الفساد ولكن بإثارة حرب بين فصائلها . فبعضهم أراد تطهير المنظمة من أولئك الذين أثروا خلال حرب لبنان ، ومن الذين هربوا من جنوب لبنان عند بداية الغزو الإسرائيلي ، ومن الذين تجرأوا على التحدث عن الاعتراف بإسرائيل . وهؤلاء كلهم وجدوا من يسمع لهم في دمشق .

وأدى هذا إلى انشقاق المنظمة . واتخذ المنشقون مكتباً لهم بدمشق إنتقل إليه محمود اللبدي الذي كان قبل ذلك بثمانية عشر شهراً الناطق باسم عرفات . وانضم إلى هؤلاء بالإقناع وغير الإقناع الفلسطينيون في البقاع . ولم يبق على ولائه لعرفات من الفلسطينيين الذين ظلوا في لبنان وعددهم ١٠,٠٠٠ سوى ٤٠٠٠ ، تجمع أكثرهم في طرابلس .

وفي هذه المدينة اللبنانية مرّ عرفات بآخر محنة له بلبنان . إذ نشب الصراع بينه وبين أولئك الذين كان قد دافعوا عن بيروت تحت قيادته . وحاصر المنشقون مخيمي البداوي ونهر البارد بمساعدة البعثيين اللبنانيين ومدافع الجيش السوري التي كانت تقصف عرفات وحلفاءه من الأصوليين . وكان حصار طرابلس صورة مصغرة عن حصار بيروت .

ذهبت مع أندرسون بالسيارة إلى المدينة المحطمة وعبرنا الشوارع خلال القصف إلى المستشفى الإسلامي وسألنا عن عدد الضحايا . وكان بجانب المستشفى شاحنة براد ملأى بالجثث التي وضعت بعناية في أكياس من البلاستك . وبعد ظهر أحد الأيام سمعت السائق ينادي على أسرة وهو يسحب فتاة من الكيس وسأل «هل هذه ابنتكم؟» وكان شعرها مقلوباً على ذارعيها ورأسها مائلاً وكأنها حية تدير رأسها لترانا .

وأبدى عرفات تصلباً وعناداً وسعة حيلة وقسوة . وكان يساوم على وقف إطلاق النار كما فعل في بيروت . زرته ذات يوم في مكتبه ورجاني وهو جالس مكشوف الرأس أن لا أسأله عن الأصدقاء الذين خرجوا عليه . قال :

ـ أرجوك أن لا تسأل عن هذا الأمر ، لا تسأل عنه .

ثم وضع رأسه بين يديه وأنحى باللائمة على سوريا وعلى الذين غدروا به وعلى أميركا وإسرائيل . وقال إنها مؤامرة . وفي ٢٠ كانون الأول/ ديسمبر أعلن أن قضية فلسطين تبقى مقدسة وأن دماء شهدائه تضمن لشعبه النصر السياسي والعسكري . ثم غادر طرابلس ومعه ٤٠٠٠ مقاتل إلى تونس على ظهر مراكب يونانية تحرسهم خمس سفن حربية وحاملة طائرات فرنسية . فكان هذا هو الجلاء البحري الثاني لعرفات . وعندما وصلنا في عام ١٩٨٣ إلى الميناء شاهدنا بيروت ١٩٨٢ مرة أخرى .

كانت علامات النصر هي ذاتها ، وإطلاق النار ، وحتى بعض الوجوه من قبل . وها هي أمامنا مرة أخرى في مشهد آخر باهظ الثمن من مشاهد الملحمة . لكن عرفات حوّل الهزيمة إلى نصر أسطوري . فأقنع رجاله الأربعة آلاف أنهم في طريقهم إلى فلسطين ، وأنهم يبحرون على قارب من قوارب الأحلام يحمل اسماً مناسباً وهو اسم أوديسوس (زعيم الإغريق في حرب طروادة) .

ترك هؤلاء خلفهم بيروت أخرى . وأخذوا معهم كل شيء . أخذوا معهم سياراتهم المرسيدس والليموزين وشاحناتهم المحطمة وبطانياتهم الممزقة وعجلات السيارات المستعملة لئلا تقع في أيدي مناوئيهم من السوريين والفلسطينيين . كان ذلك مشهداً حزيناً لشعب مشرد غلب على أمره ، وزعيم لا يدري أين يذهب بهم . وقال رجال البوليس اللبناني الذي كان على الميناء أنهم انتهوا .

كانت طقوس المأساة قد أصبحت أمراً مألوفاً مثل تاريخ فلسطين . وصار المسافرون على القوارب من وإلى فلسطين جزءاً لا يتجزأ منها . ومما لفت الأنظار في الميناء تقدم أولئك المقاتلين الفلسطينيين في السن ، فبعضهم كان يسير متكئاً على عصاه لا لأنه جرح وإنما لطول القتال . لكن الشبان الصغار منهم كانوا يتصرفون وكأنهم نسوا أسباب ما حدث .

رفع شاب على الميناء يده اليسرى ملوّحاً بعلامة النصر وعلى كتفيه قاذفة صواريخ . وفتح فمه ليحمي أذنيه من ضغط الهواء ، ثم أطلق صاروخاً فوق رؤوس الآلاف ممن كانوا حوله ، ولم نكتشف ما حمله على ذلك إلا عندما شممنا رائحة فمه . وبالرغم من مرور ثلاث نفاثات إسرائيلية فإن بعضهم ألقى قنابل يدوية لمجرد التسلية ، فدوّى انفجارها تحت الماء وهز المراكب التي كانت ستحملهم . ورأيت هناك مقاتلاً سنياً لبنانياً لم يحلق ذقنه وبيده بندقية قدمتها له منظمة التحرير . وكان جالساً قبالة المراكب التي ستحمل الفلسطينيين ، فنظر إليها بسخرية وقال :

ـ لم يكن لهم أي نفع . والآن صرنا أحراراً ونفعل ما نريد .

كانت هناك مشاهد أخرى منها مشهد شبان أنهكهم القتال وأخذوا يودّعون زوجاتهم وهم ينظرون خلفهم إلى الجبال المطلة على مخيم البداوي حيث خسروا المعركة الأخيرة . ورأيت على جانب الميناء شابة جميلة شعرها أسود تلبس فستاناً أسود وحول رقبتها وشاح . جلست مدة ساعة ترقب ما يجري في صمت ودون حراك .

أما المشهد الأخير فكان مشهد عرفات وهو في طريقه إلى الميناء . كان في سيارة «رينج روفر» مليئة بالمسلحين إلى حد أنه كانت تصعب رؤيته من خلال الزجاج . ورأيناه مرة واحدة على مؤخرة المركب وهو يقبّل شاباً على وجنتيه . ثم لوّح بيده علامة النصر وهو يبتسم قبل أن يخفيه حراسه عن الأنظار خوفاً من الاغتيال .

وجاءت النهاية في بيروت على النحو المثير ذاته ولكن مع بلاغة أقل . ففي كانون الثاني/ يناير اغتال بعض المسلحين مالكولم كير رئيس الجامعة الأميركية في بيروت الذي كان يكافح بقوة للحصول على تبرعات لتلاميذه اللبنانيين . أطلقت النار على رأسه بمسدس كاتم للصوت . وقام الدروز والشيعة بإطلاق النار على المارينز مرة أخرى . وخيّم على الشوارع جو معاد للغرب . وظهرت على الجدران ملصقات تحمل صوراً لحرق الأعلام الأميركية . وفي شارع الحمراء أوقف شاب ملتح امرأة أميركية وأشار بإصبعه إلى رأسها وقال ببطء وهدوء : «بانج . بانج» . ثم سار في طريقه بدون أن يبتسم .

وفي شباط/ فبراير هاجم مقاتلو الميلشيات الشيعية في برج البراجنة الجيش اللبناني في ثمانية أميال مربعة من الأحياء الفقيرة . فذهبنا أنا ومل مع أندرسون بسيارته إلى غاليري سمعان . وكانت الأنقاض التي تغمرها أشعة الشمس تردد أصداء نيران الدبابات والقناصين . وأخذ مل ينظر إلى الجنود اللبنانيين وحلفائهم الكتائبيين . وكانت هاتان القوتان في ذلك الوقت تحاربان معاً ضد المسلمين وتتبادلان المحاربين أحياناً . قال مل وهو ينظر إليهما :

ـ إنهم يخسرون .

وكان قد قال الشيء ذاته لفارامارزي في اليوم السابق . فكيف عرف؟ قال :

ـ استمع لهم : لاحظ الطريقة التي يتحدثون بها .

تحدث الجنود اللبنانيون والكتائبيون إلينا عن الوحدة الوطنية . وأشار كتائبي اسمه وليد إلى فوهة حفرة وقال :

ـ أطلق الدروز القذيفة من الجبال ، وقتلوا خمسة جنود . وقُطعت يد أحدهم . وقُطعت رِجل آخر . ثم أشار وليد إلى جدار . وسار إليه وركع فوق دم في أسفله . وأخذ يصرخ قائلاً :

ـ وجدت أحدهم راكعاً مثلي ، وعجبت من أمره ، فإذا برأسه مقطوع . هذا ما فعله الدروز .

كان يتكلم ودويّ القصف يعلو ويطغى على صوته ، بينما كانت رشقات الرصاص تضرب هنا وهناك بين مباني الشقق إلى الغرب . وكانت الأرض تهتز كل بضع ثوان . لكن وليد واصل صراخه :

ـ الدروز ، الدروز .

ثم عاد إلى مكتب في دور سفلي بينما كانت يده تلامس باستمرار قنبلة يدوية في حزامه ، ثم فك القنبلة وأخذ يلعب برأسها . وقال :

ـ هذا شيء عادي بالنسبة لي . إن القتل لا يزعجني . عندما رأيت رأس صديقي مقطوعاً تبدلت مشاعري . ومن الأمور العادية الآن أن أقتل ، وأن أقتل كل شخص ـ كل شخص يريد تقسيم لبنان . ودخل علينا زميل لوليد من المدنيين يحمل بندقية أوتوماتيكية . وصار يهز رأسه موافقاً كلما قال وليد شيئاً . ثم قال :

ـ نحن نحارب ضد الجميع ضد جميع العالم . نحن نحارب الخميني ، وسري لانكا ، والفيليبين وإيران . إننا من غير المعجبين بأميركا . إنهم أقوياء بقنابلهم ولكنهم في حاجة إلى مليوني سنة ليصبحوا مثل فتى من لبنان في الخامسة عشرة من عمره . لقد اعتدنا على المعارك ، وعلى القتل .

وهمس مل في أذني قائلاً : «هل رأيت ماذا أعني؟» ووجدنا في الخارج رجلاً مسناً واقفاً في مدخل مصدع ، وبجانبه امرأة وطفلان .فسرنا نحوه . وكان عندئذ يستمع إلى أصوات الرصاص والقذائف ، وينظر إلى دبابة لبنانية وهي تدخل شارعاً ضيقاً لتطلق قذائفها على الميليشيات الشيعية خلف كنسية القديس مار مخايل المحطمة ، وهي الكنيسة ذاتها التي راقبنا أنا وكودي منها الفتيان الفلسطينيين وهم ينشدون نشيدهم الثوري عند نهاية الحرب الأهلية الأولى قبل ثماني سنوات .

كان هذ ا الرجل ـ كما قال ـ لاجئاً للمرة الثالثة . إذ طرده الدروز مرتين من حمانا ، وأخرجه الشيعة من غاليري سمعان . وقبل ذلك بثماني سنوات ذبح مسلحون مقنعون أكبر أولاده لأنهم ظنوا أنه مسيحي ماروني ، مع أنه كاثوليكي . ولم يكن قد حلق ذقنه منذ أيام كثيرة . قال :

ـ خسرت بيوتي . خسرت كل شيء . لا يوجد مكان أذهب إليه . وكل ما أستطيع أن أفعله هو أن أراقب هذا .

وبعد ظهر ذلك اليوم ـ ٥ شباط/ فبراير ١٩٨٤ ـ رأيت على طريق المطار جنوداً لبنانيين يتركون دباباتهم ويذهبون إلى الضاحية الجنوبية . كانوا من الجنود الذين فروا من الجيش . وإذ أصبح نصف العاصمة معرضاً للقصف ، قبل الجميّل استقالة الوزارة على أمل أن تحل محلها وزارة وطنية ائتلافية لكي لا تلتهم الحرب الأهلية ما تبقى من بيروت . وقدم له شفيق الوزان ، رئيس الوزارة ، استقالته قائلاً :

ـ أرجو ـ بل أصر ـ على أن تقبلها فوراً .

وفي المساء ذهبت بسيارتي إلى طريق المطار ثانية . فوجدت هناك مقاتلي الشيعة الملتحين . فعزلوا بذلك المارينز .

وفي صباح اليوم التالي انفجر السد . إذ شاهد أندرسون وفارامارزي خلال عودتهما من مقر المارينز مسلحين مقنعين يركضون على كورنيش المزرعة . ورأى مل في الروشة مسلحين يهاجمون وحدة مدرعة من الجيش اللبناني . فقفز إلى مركز للجيش والتقط عدة صور للجنود ، وأدرك أنهم كانوا يحاربون لإنقاذ أنفسهم . فلما أخذت القنابل تنفجر فوق رأسه ولّى هارباً .

وأُطلقت النار في شارع الحمراء عدة مرات . ورفض الجنود اللبنانيون الذين كانوا يحرسون وزارة الإعلام أن يتحدثوا معي . كانوا قد رفضوا المشاركة في القتال وجلسوا في الردهة وبندقية كل منهم إلى جانبه . ثم تدافعت السيارات بجنون خارجة من شارع الحمراء ببيروت الغربية وقبضات السائقين على أبواقها . وأخذ بعضها يصطدم ببعض ويخرج على الأرصفة حيث كان المشاة يركضون ويصيحون وهم يهربون من ذلك الشارع . ووقفت في مدخل إحدى البنايات ، فوقع نظري على موترسايكل يقوده شخص على وجهه قناع أسود من الجلد ويده اليمنى على المقود واليسرى على زناد بندقية كلاشنكوف . لقد عاد المسلحون .

ورأيت خارج مبنى ناروندي بنك قرب مكتب رئاسة الوزراء مسلحاً يلبس بدلة خضراء ، وعليه سترة تمويه وله لحية مدببة جميلة ، وعلى جيب السترة الأمامية آية قرآنية وتحتها رمز لخنجر أبيض . وكان هذا المسلح ينظم المرور ويأمر بعض الشبان أن يحرسوا مباني الشقق المجاورة من اللصوص . ولم تفارق البسمة شفتيه وهو يرقب سائقي السيارات الذين تملكهم الرعب . لقد وصل حماتنا الجدد .

وقبل ذلك بيومين اعترف الرئيس ريغن بأن «الحالة في لبنان صعبة ، مخيبة للأمل وخطرة» . وقال :

ـ لكن هذا ليس بالسبب الذي يدعونا إلى أن ندير ظهورنا لأصدقائنا ونلوذ بالفرار . فقيامنا بمثل هذا هو بمثابة إشارة للإرهابيين بأنهم يستطيعون أن يخرجوا منتصرين من شن الحرب على الأبرياء . وعندئذ ، وبعد ظهر ذلك اليوم بالذات ، وبعد أن عُزل المارينز ، ووقعت بيروت الغربية في أيدي الميليشيات ، تكلم ريغن مرة أخرى . قال :

ـ إن التزام الولايات المتحدة بوحدة لبنان واستقلاله وسيادته ستبقى ثابتة لا تتزعزع .

والحقيقة هي أن الولايات المتحدة كانت بعيدة من هذا وكأنها في عالم آخر .

في تلك الليلة قصف الجيش اللبناني ـ أو بالأحرى الوحدات المسيحية الموالية للجميل ـ بيروت الغربية بلا رحمة ، وبالمدافع الجديدة التي اشتراها الجميّل من الأميركيين . فقتل نحو مئة من المدنيين واحترقت بيوت كثيرة بالمدينة . ولم نر لذلك القصف مثيلاً منذ الحصار الإسرائيلي . فانقسم الجيش اللبناني إلى فئات مسيحية وأخرى إسلامية متنازعة . ولم يعد هناك جيش لبناني تقوم القوة المتعددة الجنسيات بدعمه .

وبعد ذلك بعدة ساعات أعلن ريغن أنه ستجري «إعادة نشر» المارينز في بيروت إلى سفنهم في البحر الأبيض المتوسط . إعادة نشر . وشبّه رسام كاريكاتوري أميركي ذلك بإعادة النشر التي قام بها نابليون من موسكو . و إعادة النشر البريطانية من دنكرك . كان معنى هذا انهيار السياسة الأميركية في الشرق ، والمشهد الأخير للمغامرة الدموية الإسرائيلية في لبنان .

كان أول الفارين من بيروت الكتيبة البريطانية التي لم تُشعر حتى زملاءها في القوة المتعددة الجنسيات بذلك . ونزلت مسرعة إلى الميناء ورحلت على ظهر سفينة بريطانية بسرعة كبيرة إلى حد أنها تركت شاحنتين عسكريتين من شاحناتها على الميناء للكتائب . ومكث الإيطاليون فترة أطول ظلوا خلالها يقومون بحراسة الفلسطينيين كما فعلوا طوال سبعة عشر شهراً ، وحتى اقتنعوا بأن ميليشيا أمل ستقوم بالمهمة الإنسانية ذاتها . لكن ذلك لم يتحقق ، وثمنه كان باهظاً . وكتب جندي إيطالي بحروف ترتفع خمسة أقدام فوق نقطة تمركزه بالأوزاعي : وداعاً يا بيروت .

ونقل الأميركيون والبريطانيون غالبية مواطنيهم جواً إلى سفنهم البحرية التي أقلّتهم إلى قبرص[٤] .

---

(٤) وأُحرج الدبلوماسيون الأميركيون بهذا المنحى للأحداث في بيروت ، إلى حد أنهم في البداية حاولوا منع الصحفيين من تغطية الاجلاء . وعندما وصل دون مل العامل بالأسوشيتدبرس إلى الكورنيش لتصوير الانسحاب منعه المارينز من التقاط صور لهم بالرغم من أن مسلحي الميليشيات كانوا يمرون من خلال نقاط التفتيش الأميركية . وعندما طلب مل من رجل الإعلام بالسفارة الأميركية ـ جون ستوارت ـ تفسيراً أجاب هذا : «ليس سبب هذا أن الكاميرا التي تحملها خطرة ، بل لأن البعض يرى أن ردود الفعل قد تكون خطرة أو ـ ولا أدري كيف أعبّر عن ذلك ـ لأنها قد تضر بالسياسة الخارجية أو ما أشبه ذلك (الملاحظات عن الحديث في مذكرة ٩ شباط/ فبراير ١٩٨٤ ـ من إيلين بول في الأسوشيتدبرس إلى تيري أندرسون) .

وغادرت بيروت زوجة أندرسون وابنته غابرييل التي قصفت مدرستها في الليلة السابقة واستولى عليها الخوف . والواقع أن أندرسون طلب مني قبل ذلك أن أذهب إلى شقته واستشارني في أمر ترحليهما . وعندما سألت غابرييل إذا كانت تريد الرحيل ـ وكانت عندئذ جالسة وضفيرة شعرها الطويلة مدلاة خلفها ونظارتاها الكبيرتان على عينيها ـ قالت بعد دقيقة من الصمت كانت خلالها تنظر إلى أمها انها تريد ذلك . فأصعدهما أندرسون إلى إحدى طوافات الأسطول الأميركي .

وغادر بيروت بالطوافات الأميركية أيضاً جمع من أساتذة الكليات ورجال الأعمال الأميركيين والبريطانيين مع أسرهم . وشاهدت فتاة أميركية تدرس في نيويورك وهي تجادل المارينز الذين كانوا سيبقون في بيروت لحراسة السفارة البريطانية الأميركية بجوارنا . قالت للمارينز الأربعة :

ـ لقد أضعتم وقتكم وفشلتم في كل عمل قمتم به .

وقاطعها رقيب أميركي أسود بقوله :

ـ لقد كنا نحارب الإرهاب . وسنقوم بنقلك من أجل سلامتك .

وانهمرت الدموع من عيني الفتاة وقالت :

ـ لا ، لم تفعلوا ذلك . جئتم إلى هنا وحوّلتم أصدقائي إلى أعداء ، وبيتي إلى مكان يشيع فيه الخوف .فهز الرقيب كتفيه وتركها .

وقبل أن يحين وقت رحيل الكتيبة الأميركية المشاركة في القوة المتعددة الجنسيات بأربع ساعات ، اعترف ريغن بأن سبب «إعادة نشرهم» هو «أنه إذا بدأت الهجمات الإرهابية فليس هناك وسيلة تمكننا من أن نُسهم حقيقة في مهمتنا الأصلية والبقاء . .» . والواقع أنه لم تعد هناك وسيلة كما قال . كان ريغن يغادر بيروت كما يتخلى صاحب سيارة عن سيارته المحطمة .

ورث أبو مصطفى وهو من بعلبك الأرض التي اتخذ المارينز قاعدتهم فيها . وهو رجل ضخم له لحية سوداء كثة وابتسامة كابتسامة المارد . وعبر الحاجز المعدني الصدىء إلى مقر المارينز بناقلة جند من الجيش اللبناني وعلى واجهتها الأمامية صورة الإمام موسى الصدر . وحيّاه مسلحو الشيعة التابعون له ، وقال وهو ينظر إلى آخر القوات الأميركية وهي ترحل بالبحر :

ـ نحن هنا لنمنع أي شخص من الاستيلاء على المكان . وإذا أردت أن تأتي على دبابتي فعلى الرحب والسعة .

وهكذا غربت شمس الغرب .

كان أول ما عثر عليه رجال الميليشيات من مخلفات الأميركيين هو الفرش النقالة وهي من البلاستك الأخضر الثقيل . وقد عُرضت أمام أبو مصطفى وعلى وجهه علامات الرضا . وكان المقاتلون قد أخذوا يجمعون المخلفات من المخابىء ومن متاريس أكياس الرمل حتى قبل أن يغادرها آخر فوج من المارينز . وخرجوا من الأرض ، من المخابىء المحصنة ضد القصف ومعهم كراسي قديمة وصناديق الأطعمة المجففة والفرش والحليب الأميركي . لكن لم يلتفت أحد إلى الكلبين الحزينين الجميّلين اللذين كانا يلهثان في الشمس قرب مخبأ عليه عبارة «شركة الفنادق» ، وذلك بانتظار عودة أصحابهما الذين تخلوا عنهما . وكانت هناك أعلام أميركية ونحو مليون ونصف من أكياس الرمل . تلك هي تركة الأميركيين في لبنان .

وقد لا يجد المرء في النفايات التي تتركها الجيوش المتقهقرة وراءها ما يستخلص منه الشيء الكثير عنهم . لقد كان المارينز شباناً مهذبين في الغالب ، يبذلون غاية الجهد لكسب محبة الناس لهم ، ولكن في غاية الجهل بالعالم الذي أرسلوا إليه . وكانوا أشبه بالفلسطينيين الذين رحلوا قبلهم بشهرين يدركون أنهم لم يحرزوا نصراً مؤزراً . هذا بالرغم من أنه لو قُدّر لريغن أن يكون عندئذ على رمال لبنان لهتف لهم . فقد كانت الأضواء تلمع في سماء الربيع الزرقاء الباهتة ، وأخبار مجدهم تنبعث من أجهزة الراديو في الزوارق البرمائية ، وآخر صف من المقاتلين يجثمون في الكثبان عند البوابة الرئيسية وكأنهم إفريز في فيلم من الأفلام القديمة التي يحبها ريغن .

كان المارينز يهزون أكتافهم عندما نسألهم عن موطن الخطأ كما يتصورونه . فقال بعضهم إنه الجيش اللبناني . ولم يفهموا كيف يمكن للجندي أن يرفض إطاعة الأوامر . وقال أحدهم : «لم نوفق» . وقال الرقيب جيري إيلوكوتيش آخر من غادر من المارينز : «لقد قمنا بالمهمة . أترى الموج هناك . إنه يروي لك كل شيء» .

ليس تماماً . وذلك لأنه كانت هناك أشباح حول محيط المارينز ببيروت . فقد ترك الأميركيون بلا احتفال وبدون أثر تذكاري منصة من الإسمنت محطمة تذكّر بذلك اليوم المرعب في تشرين الأول/ أكتوبر (يوم الانفجار الانتحاري) ، عندما كشف لبنان لهم عن الوجه الدموي لمهمتهم . وانفجرت على التلال خلف آخر فوج منهم قذيفة فسفورية بعثت سحابة بيضاء زحفت على التلال لتذكّر الأميركيين بالحرب التي فشلوا في وقفها . كان أعداؤهم يحيطون بهم خلال أيامهم الأخيرة . فأين هم الآن؟

وجد الأسطول الأميركي بعضهم بعد أن صار آخر فوج من المارينز على ظهر السفن . إذ اقتربت نيوجيرزي من الشاطىء وقامت وسط دهشة المشاة على كورنيش البحر بإطلاق نيرانها . ومرة أخرى انتشرت النيران الذهبية فوق الماء ، ودوّى الصوت المزلزل . وربما كان هذا مشهداً صالحاً للعرض مع الأخبار الرئيسية على التلفزيون .

على ماذا كانت السفينة تطلق نيرانها؟ لم يكن لذلك أي تأثير على المقاتلين المسلمين الذين دخلوا بهدوء إلى آخر معقل أميركي على الغرين بيتش ، ورفعوا العلم الإسلامي الأخضر مكان العلم الأميركي الذي أنزل قبل ذلك بساعات . وهكذا فإن الأميركيين غادروا لبنان وقواربهم الأخيرة تمخر المياه الملوثة وسط دويّ إطلاق النار .

وبعد ذلك بستة أيام أجرت الأسوشيتد برس مقابلة مع قائد نيوجيرزي الكابتن ر . د . مليغين في نادي الباشا الليلي بميناء حيفا فقال :

ـ أعتقد أن السفينة الحربية سلاح أكيد من أسلحة السلام . آمل أن نكون قد أسهمنا في عملية إعادة السلام إلى لبنان[٥] .

(٥) الديلي ستار ، ٥ آذار/ مارس ١٩٨٤ التي اقتبست تقرير الأسوشيتد برس من حيفا بتاريخ ٤ آذار/ مارس .

الفصل الخامس عشر

التقهقر

يا طائرة اهبطي إلينا

طيري بنا إلى لبنان

سنقاتل من أجل شارون

ونعود بالأكفان

(أغنية للجنود الإسرائيليين على غرار أغنية أطفال إسرائيلية . كانون الثاني/ يناير ١٩٨٣) .

خلال أربع وعشرين ساعة صار منبوذ لبنان ضيف سوريا المكرّم . فعندما هبطت طائرة أمين الجميّل في مطار دمشق الدولي ، في التاسع والعشرين من شهر شباط/ فبراير من عام ١٩٨٤ ، استقبله الرئيس حافظ الأسد بكل التكريم الذي يليق برئيس دولة ، بما فيه إطلاق إحدى وعشرين طلقة . فبعد أن كان يوصف بعميل أميركا وإسرائيل ، وبأنه مجرد صنيعة كتائبية ، وبأن حكومته لا تعدو كونها حكومة الجميّل الكتائبية ، فإن الرئيس الأسد استقبله بعبارة «فخامة أمين الجميّل رئيس جمهورية لبنان» . وبهذا تكون إسرائيل قد خسرت حربها في لبنان .

إلاّ أن إسرائيل كانت تعرف ذلك منذ أكثر من سنة . ففي الأشهر الأربعة التي أعقبت انسحابها بعد مجازر صبرا وشاتيلا في أيلول/ سبتمبر من عام ١٩٨٢ ، تمكن رجال المقاومة اللبنانية والفلسطينية من قتل سبعة عشر جندياً إسرائيلياً ومن جرح ما يزيد على سبعين منهم ، وذلك إما بالألغام أو في هجمات بالقنابل اليدوية والأسلحة الأوتوماتيكية[١] .

(١) كرستوفر ووكر « جنود إسرائيل نفد صبرهم ويتطلعون إلى العودة إلى وطنهم » في التايمز ١٤ كانون الثاني/ يناير ١٩٨٣ .

وفي تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٨٢ ذكرت الصحافة الإسرائيلية أنه «يعتقد أنه تجري الآن إعادة تكوين خلايا إرهابية بواسطة ضباط من منظمة التحرير عادوا وتسللوا إلى جنوب لبنان »(٢) .

وبعد ذلك بشهرين حذر رفائيل إيتان رئيس الأركان الإسرائيلي خلال حرب لبنان «من أن الحرب قد انتهت شكلياً ولكنها ما زالت مستمرة بالفعل . وأن على إسرائيل أن تتوقع مئة سنة أخرى من حرب الإرهاب» . وبالطبع لم تكن هذه هي النتيجة التي كان يطمح إليها جنود إسرائيل الذين قاتلوا حتى أبواب بيروت في حزيران/ يونيو من عام ١٩٨٢ ، والذين بلغت إصاباتهم حتى نهاية ذلك العام ٤٥٥ قتيلاً و٢٤٦٠ جريحاً .

كانت زيارة أمين الجميّل لدمشق تكريساً لهوية لبنان العربية . كما أنها مهّدت للإلغاء الرسمي للمعاهدة التي وقعها لبنان مع إسرائيل في شهر أيار/ مايو الماضي(٣) . فبعد عودته من دمشق بأربعة أيام أعلن إلغاء ذلك الاتفاق واعتباره باطلاً . وفي الأشهر اللاحقة ولا سيما في مؤتمر الوفاق الثاني في لوزان في ربيع ١٩٨٣ شدد اللبنانيون بقوة على أنهم ما كانوا ليوقّعوا مثل هذه المعاهدة لولا الضغط الأميركي . وقد قال لي الوزير إيلي سالم في لوزان : «لا يمكنك أن تتصور مدى الضغوطات الأميركية التي تعرضنا لها لتوقيع تلك المعاهدة . لقد كان ضغطهم بعيداً عن قواعد الأخلاق . قالوا : «إذا لم توقعوا فسوف نتخلى عنكم . فماذا كان باستطاعتنا أن نفعل؟ إننا دولة صغيرة»(٤) .

أما إسرائيل فإنها لم تَعزُ اضطرار لبنان إلى توقيع المعاهدة معها إلى الضغوط الأميركية ، لأن هذه

---

(٢) الجيروزاليم بوست ١ تشرين الثاني/ نوفمبر ، ١٩٨٢ .

(٣) قرر الجميّل الذهاب الى دمشق بعد أن تأكد له أن أمريكا قد تخلت عنه . وبعد أن غادر آخر المارينز بيروت تقدم الجميل إلى أميركا يطلب منها دعماً مدفعياً من سفن الأسطول السادس لوحدات جيشه التي كانت تقاتل الدروز في الشوف . إلاّ أنه لم يكن بنية أميركا مطلقاً أن تعيد المارينز إلى بيروت . وحسب قول وزير الدفاع الأميركي واينبرغر فإن المهمة التي انتهت كانت مهمة تعيسة بما فيه الكفاية . وكذلك فقد أظهرت أميركا حكمة كبيرة حينما رفضت طلب الجميّل .

(٤) وقع إيلي سالم في الخطأ اللبناني المعهود وهو الاستناد إلى فكرة خادعة عن أهمية لبنان في الشؤون الدولية . ففي حديثه إلى الصحافيين في إحدى قاعات قصر سرسق في بيروت الشرقية في السابع والعشرين من كانون الثاني/ يناير لعام ١٩٨٣ ، أقر مطالبة إسرائيل «بأن لا يكون لبنان أبداً مقراً لقواعد تستغل لشن هجمات ضدها» . ولكنه رفض القبول بإقامة محطات للمراقبة العسكرية على الأراضي اللبنانية قد تهدد « أمن لبنان وأمن سوريا» . كما أنه شدد على أن تواجد قوات اسرائيلية في جنوب لبنان هو أمر غير مقبول البتة . لكنه شوّه محاضرته بزعمه العاطفي بأن تقسيم لبنان سيقود إلى نهاية الجنس البشري . فحتى ريغن لم يذهب إلى ذلك الحد .

الضغوط لم تكن تمارس عليها إلا بالقطارة فعزت ذلك إلى ثقة الأميركيين الزائدة بقدرتهم . وهذا ما علمته من ديفيد كيمحي الذي وقّع المعاهدة نيابة عن إسرائيل بحكم كونه المدير العام لوزارة الخارجية الإسرائيلية وذلك في مقابلة أجريتها معه في أيار/ مايو ١٩٨٣ . إذ قال كيمحي أنه تأثر بالتأكيدات الأميركية بأن الأسد سوف يسحب قواته من لبنان . وأضاف : «لقد جاءنا شخص مقنع جداً جثم على صدورنا وهو فيليب حبيب الذي حثنا مرة بعد مرة على توقيع الاتفاق وقال لنا : «إذا تم هذا الأمر ، فستتولى الولايات المتحدة أمر سحب سوريا لقواتها من لبنان ، حالما نوقع للاتفاق» . وكان هذا الأمر في غاية الأهمية بالنسبة لنا . وقد دأب فيليب حبيب على ترديد قوله : «لا تقلقوا لهذا الأمر . فإننا سننجز ما نعدكم به . يجب أن لا تشغلوا أنفسكم بقضية انسحاب السوريين هذه» . أما الاتفاق فلم يكن «معاهدة سلام» بقدر ما كان «علاقة أمر واقع» حسب قول ديفيد كيمحي الذي أضاف : «إن ذلك أقرب ما كان باستطاعتنا الوصول إليه نحو السلام في تلك الظروف»(٥) .

غير أن سياسات وتصرفات إسرائيل في جنوب لبنان المحتل كانت كفيلة بأن تجعل تحقيق السلام أمراً مستحيلاً . فقد نص الانسحاب على «الاحترام المتبادل» وعلى توقف حالة الحرب بين إسرائيل ولبنان . إلاّ أن المسؤولين العسكريين الإسرائيليين كانوا قد بدأوا يذيقون أكثرية سكان الجنوب وهم من الشيعة الطعم الحقيقي للصداقة مع إسرائيل . فحتى عندما كان الجيش الإسرائيلي يحاصر بيروت ، شرع في بسط سيطرته على بقعة تزيد على ألف ميل مربع من الأراضي اللبنانية ، وذلك بتكوين جيوش جديدة خاصة لتدعيم ميليشيا حداد في الجنوب . فقد تمركزت ميليشيا حداد تساندها ميليشيا الكتائب في مدينة صيدا ، بينما بدأ رجال المخابرات الإسرائيلية (شين بت) بتجنيد المئات من المسلحين الذين سبق لبعضهم أن كان مع أمل ، بغية بسط سيطرتهم على القرى الشيعية التي كان بعضها يقع في منطقة قوات هيئة الأمم المتحدة .

وفي نهاية حزيران/ يونيو من عام ١٩٨٢ اكتشفت قوات الأمم المتحدة كما جاء في تقريرها : «ظهور فئات مسلحة جديدة في منطقة قوات الأمم المتحدة تسلحها وتسيطر عليها إسرائيل . وقد تم تجنيد هذه الفئات من السكان المحليين ، وأطلق عليهم الإسرائيليون اسم «الحرس الوطني» أو «الحرس الأهلي» . وقد حاولت هذه الفئات إقامة حواجز وتسيير دوريات في القرى . وفي بعض المناطق أدى سوء تصرف هذه الفئات وعدم انضباطها إلى الاحتكاك مع الأهالي . .»(٦) . وفي كثير

(٥) من مقابلة أجراها الكاتب مع ديفيد كيمحي في تل أبيب في ١٦ نيسان / أبريل من عام ١٩٨٧ .
(٦) تيمور جوكسل : تقرير الأمم المتحدة ، ٢٤ آذار/ مارس ١٩٨٣ .

من الحالات تبيّن أن أعضاء «الحرس الوطني» هذا كانوا من المجرمين المحليين أو ممن كان يحمل السلاح مع المقاومة الفلسطينية في الجنوب .

أما في صيدا فقد أنذر الإسرائيليون محافظ الجنوب بإخلاء مكتبه في غضون أربع وعشرين ساعة . وقاموا بإلقاء ملفات المحافظ على قارعة الطريق خارج مكتبه . وفيما تربع الضباط الإسرائيليون داخل مكاتب قصر الحكومة في صيدا فقد أُخضع سكان صيدا وفلسطينيو عين الحلوة لسطوة الكتائب وميليشيا حداد . وبدأت جثث الفلسطينيين تُرى على الطريق المؤدي إلى القطاع المسيحي في صيدا .

ثم بدأت تظهر مناشير تحت الأبواب تدعو إلى ترحيل جميع الفلسطينيين . يقول أحدها :

«إلى جميع اللبنانيين ،لقد وجدت الشمس لتنير أرضنا ولتحرق أولئك الذين يدنسونها ، ولتطهرها من جميع أولئك الذين أساءوا ولا يزالون يسيئون إلى جمالها وأمنها . . . يا أبناء صيدا الكرام . . . ساعدونا على طرد الغرباء من أرض لبنان ، ولا سيما من مدينة صيدا التي طالما قاست من اضطهاد الفلسطينيين ودمارهم . هدفنا أن لا نسمح ببقاء فلسطيني واحد على أرض لبنان وإننا لمصممون على تحقيق هذا الهدف . ولن تقف أية عقبة في طريقنا . .» .

إن هذا المنشور الذي وزع في أوائل شهر شباط/ فبراير من عام ١٩٨٣ ، انتهى بعبارة : «عاش لبنان» وبتوقيع : «ثوار الأرز» . ولم يكن في صيدا من سمع بثوار الأرز . ونسبهم الصحفيون إلى عالم الإرهاب اللبناني المشبوه . أما في عين الحلوة فقد كانت لديهم فكرة أوضح عن هذه الفئات المشبوهة . لقد رأوا فيها أصبع منظمة «حراس الأرز» سيئة الذكر ـ تلك المنظمة التي أصبحت تتمتع برضى الإسرائيليين وحظوتهم .

وقد كان الفلسطينيون على حق في أن يرهبوا هذه المنظمة المنتمية إلى أقصى اليمين . ففي القتال الذي دار عام ١٩٧٥ ـ ١٩٧٦ كانت هذه المنظمة تقوم بصورة منتظمة بتعذيب أسراها من الفلسطينيين والمسلمين قبل أن تعدمهم بطريقة مريعة . فقد كان يُربط الأسرى وهم أحياء بحبال خلف سيارات تجرهم عبر طرقات بيروت الشرقية وشوارعها . وبعد أن تتمزق أجسادهم وتتكسر عظامهم تربط جثثهم بسلاسل في مؤخرة سيارات التكسي التي كانت تقلهم ودماؤهم تسيل منهم إلى جونيه حيث يجري إلقاؤهم في واد بعد مراسم تقام لهذه الغاية . أما زعيمهم إتيان صقر ـ أبو أرز ـ فكانت له سمعة تقشعر منها الأبدان . إذ أخذ شعاراً لميليشيته يقول : «لن يبقى فلسطينيّ واحد في لبنان» . وفي بيان رسمي صادر عنه وباسم منظمته بتاريخ ٢٠ حزيران/ يونيو ١٩٧٦ عدّل هذا الشعار بحيث أصبح

ينص على «إن على كل لبناني واجب قتل فلسطيني واحد»[٧] ولا يزال بالإمكان رؤية هذا الشعار مكتوباً على بعض جدران بيروت الشرقية . وهناك حوادث موثقة قام فيها أتباع أبي أرز ببتر آذان الأسرى من المسلمين وبتعليقها بأحزمتهم . أما رمز ميليشيا أبي أرز فقد كان سيفاً أبيض تحيط به نار متأججة . ويكفي أن يستمع الإنسان لبعض خطب أبي أرز كي يتأكد له أن هذا الشخص يمثل حالة نفسية تشكو من اختلال تام في التوازن يقود إلى تبني التطرف والعنف . وكان يحب أن يردد في خطاباته قوله الشهير : «من يطبخ السم يأكل سماً» .

أما شكوك الفلسطينيين والمسلمين من اللبنانيين في أن إسرائيل سعت إلى تجنيد أبو أرز «وزلمه» فقد كانت صحيحة . ففي كانون الأول/ ديسمبر من عام ١٩٨٢ وجهت دعوة رسمية إلى أبي أرز لمقابلة رئيس وزراء إسرائيل مناحيم بيغن . واستغل أبو أرز هذه الزيارة للدفاع عن مجازر صبرا وشاتيلا وللمطالبة بطرد نصف مليون فلسطيني من لبنان .وأشاد أبو أرز في حديث من راديو إسرائيل بإنسانية إسرائيل في لبنان . وشكر لحكومة إسرائيل تحرير لبنان «من كابوس الإرهاب الفلسطيني والاحتلال السوري» . ولكنه لم يؤكد اشتراك مسلحيه جنباً إلى جنب مع ميليشيا حداد في خدمة إسرائيل بجنوب لبنان إلا في زيارة ثانية لإسرائيل . ونزل في هذه الزيارة ضيفاً على رئيس الوزراء الجديد إسحاق شامير . فقد قال أبو أرز لجريدة «الجيروزاليم بوست» بتاريخ ٢٤ كانون الثاني/ يناير من عام ١٩٨٤ انه يتعاون مع ميليشيا حداد في الجنوب «لأنه من الأفضل لنا أن نكون جيشاً واحداً في الجنوب بدل أن نكون ثلاثة أو أربعة جيوش»[٨] . أما الإسرائيليون فقد كانوا يرددون بكل ثقة أن أبا أرز قد تاب عن ماضيه الأسود . ولكنهم لم يتقدموا بأية أدلة على هذا الأمر . وصرّح مسؤول إسرائيلي لجريدة التايمز اللندنية «بأن أبا أرز هو صديق عظيم لإسرائيل» .

أما الإسرائيليون فقد فضلوا عدم التعليق بصورة رسمية على مسلسل الجرائم والإرهاب الذي بدأ يسود منطقة صيدا ، لأن في هذا إدانة لسلطات الاحتلال . ففي ٢٦ كانون الثاني/ يناير ١٩٨٣ اكتشفت جثتان تم التعرف على صاحب واحدة منهما ، وهو الفلسطيني نبيل شقوي . كما تم اكتشاف ثلاث جثث أخرى بالقرب منهما كانت في حالة متقدمة من التحلل . وفي اليوم التالي بدأ المسلحون بطرد الفلسطينيين من ضاحية عبرا . وبعد ذلك بيومين تم اغتيال الفلسطيني أحمد سباعي أمام منزله في حي القياعة . وبعد ذلك بيومين ألقى أحدهم قنبلة على بيت أخته . وفي ٩ شباط/ فبراير تم اكتشاف ثلاث جثث مشوهة بالقرب من مخيم عين الحلوة .

---

(٧) حراس الأرز : «بيان القائد أبو أرز» ٢٠ حزيران/ يونيو ١٩٧٦ .

(٨) الجيروزاليم بوست ، ٢٤ كانون الثاني/ يناير ١٩٨٤ .

أما أهل صيدا فإنهم لم يكونوا يخفون حقيقة شعورهم تجاه كل هذا عندما كنا نزورهم في بيوتهم . ففي شباط/ فبراير ١٩٨٣ جلست مع رجل مسن وزوجته في مدخل بيته بشارع رياض الصلح في صيدا . وفيما كانت زوجته تصب لنا القهوة التفت إليّ الرجل وقال : «لقد سررنا بقدوم الإسرائيليين لأنهم نظفوا البلد من قرف الفلسطينيين . واعتقدنا بأننا سوف نسترد بلدنا لبنان . هذا ما اعتقدناه . ولكن انظر خارج البيت ، ترى أن الإسرائيليين ما زالوا هنا ، وهم يسلّحون عصابات محلية ، والغرباء من كل الأصناف يتدفقون على صيدا بأسلحتهم ويفرضون علينا سيطرتهم ، والإسرائيليون هم الذين يجلبونهم . يكفي أن تنظر إلى ما يجري في الشارع خارج بيتنا لترى ماذا أقصد» .

قمت لأنظرمن فتحة الباب . وبالفعل كان هنـاك مسلحان يقفان في منتصف الشارع العام على بعدمئة مترمن البيت .كان كل منهما يحمل بندقية أوتوماتيكية ، وأحدهما يلبس بنطلون جينز فوقه سترة عسكرية إسرائيلية ، والآخر يعتمر قبعة كاوبوي .كانا يوقفان السيارات ويستجوبان راكبيها وخلفهما مباشرة ناقلة جنود إسرائيلية يجلس فوقها جنديان إسرائيليان يطالعان الصحف . هذا المنظر ذكّرنا بأمثاله في مئات الأماكن في الجنوب . وترك هذا أثراً عميقاً في نفسية الشعب اللبناني . فقد تأكد لهم أن الإسرائيليين بدأوا بتطبيق خطة كانوا اتبعوها في الضفة الغربية بعد احتلالها عام ١٩٦٧ : كانوا ينوون البقاء . وبدأت عصابات المسلحين الذين تمولهم إسرائيل تظهر في جميع أنحاء الجنوب . ولذلك أطلقت عليها قوات الأمم المتحدة اسم لاوي وهو اختصار لأسم الفئات (أو العصابات) اللبنانية المسلحة والمنظمة من قبل إسرائيل كما يظهر باللغة الإنجليزية .

وفي وقت مبكر أدرك رجال الدين المسلمون أن هذه الفئات تشكل خطراً أساسياً . فخضوعك لاحتلال أجنبي هو في حد ذاته أمر مهين ومشين للغاية . أما أن تخضع لسطوة بني وطنك المتعاونين مع المغتصب فهو أمر يقود إلى الفساد . وهكذا وحتى أثناء حصار بيروت اجتمع المجلس الشيعي الأعلى داخل المدينة المحاصرة ليدين «تشكيل إدارات محلية في جنوب لبنان وتحت أسماء مختلفة وبأعذار متعددة متجاهلة المؤسسات الرسمية ومتحاشية لها» . وحث الشيخ محمد مهدي شمس الدين نائب رئيس المجلس الإسلامي الشيعي الأعلى (الرئيس هو الإمام موسى الصدر المختفي منذ سنين) اللبنانيين «على رفض الاحتلال وعدم التعاون بأي شكل من الأشكال مع الإدارات المحلية المفروضة من قبل إسرائيل» .

تجاهل الإسرائيليون بوادر الاستياء هذه .وتوالى توزيع المناشير في صيدا . وفي إحدى زياراتي للمدينة وجدت أحد هذه المناشير خلف مسّاحتي زجاج السيارة . أما فحواه فقد كانت دعوة موجهة إلى المسلمين كي لا ينساقوا خلف أولئك الذين يحثونهم «على محاربة الصهيونية» باسم العروبة

والاسلام . بل عليهم الالتفاف حول المسيحيين كي يتم طرد «الغرباء» من البلد . أما الغرباء فهم الفلسطينيون بالطبع . ويستمر المنشور في تحريضه : «فلنسحق الأفعى التي ما زالت تعمل في الظلام وتبث دعايات تسعى لهدم ما بدأنا بناءه ، وتبث بذور الفتنة بيننا وبين أولئك الذين يجب أن يكونوا شركاءنا في الوطن . ولنتذكر أن الجراثيم لا تعيش الا على العفن» أما الجراثيم فقد كانت تعني الفلسطينيين بالطبع . هذا المنشور ظهر باسم «صوت صيدا اللبنانية» وربما كان من عمل الكتائب(٩) . أما مسلمو صيدا فقد كان رأيهم أنه من عمل المخابرات الإسرائيلية .

وإلى الجنوب من صيدا حاول الاسرائيليون القضاء على المقاومة التي كان يبديها المخاتير للعصابات المسلحة التي استخدمتها إسرائيل ، وبدأوا بتسيير دورياتهم في أراضي الضيع الجنوبية . وفي تقرير سري أعدته قوات الأمم المتحدة(١٠) في الجنوب ورد أن الجنود الإسرائيليين يمارسون «الضغط والاعتقال والابتزاز» في المنطقة الخاضعة لتلك القوات ضد زعماء القرى اللبنانية بغية إرغامهم على الانصياع لرغباتهم . ففي منطقة تبنين وهي منطقة القوات الإرلندية التابعة للأمم المتحدة أبلغ الجنود الإسرائيليون زعماء القرى «بأن عليهم تجنيد عشرة شبان للقيام بمهام الميليشيا في قراهم ، وأن عليهم جمع الأموال من أهالي القرى لتسديد نفقاتها . وأضافوا أنه في حالة رفضهم تسلّم مهام الميليشيا في قراهم ميليشيات تأتي من قرى أخرى»(١١) وهكذا بات على القرى الشيعية في جنوب لبنان أن تمول مضطهديها .

(٩) كان عنوان هذا المنشور كما يلي : بيان : «الفلسطينيون في صيدا وجوارها» . أما تاريخه فكان ٢٣ شباط/ فبراير ١٩٨٣ .

(١٠) من تقرير العمليات للأمم المتحدة ، الناقورة في ٣٠ كانون الأول/ ديسمبر ١٩٨٣ .

(١١) وقد جاء في هذا التقرير أيضاً أن الأمم المتحدة تعتقد بأن اسرائيل سوف تستغل وتضخم «كل حادث» يمكن أن يبرهن للعالم أن الأمم المتحدة غير قادرة على ضمان الأمن على حدودها الشمالية . «كما أن التقرير قد سجل «حوادث المضايقات التي يتعرض لها أهل الجنوب من قبل جنود الاحتلال» وكذلك تصرف هؤلاء الجنود غير اللائق واللاانضباطي نحو أفراد قوة الأمم المتحدة» . ففي حادثة وقعت يوم ١٤/ ١/ ١٩٨٣ حسب ما ورد في التقرير توقفت سيارة بي . أم . دبليو تحمل رخصة ألمانية أمام نقطة التفتيش رقم ٧ـ ٢٣ د ـ ١٧٩١ ـ ٢٨٦٩ التابعة للأمم المتحدة . وقد كان ركابها بالزي المدني ويحملون بطاقات هوية اسرائيلية . وكانت هناك بندقية إم ـ ١٦ موضوعة على مقعد السيارة الخلفي . وكانت تتبع هذه السيارة سيارة بيك أب من طراز بيجو بيضاء اللون يستقلها جنديان إسرائيليان بالزي العسكري ومسلحان ببندقيتي إم ـ ١٦ . وفيما كان أفراد قوة الأمم المتحدة يدققون في هويات مستقلي السيارة الأولى خرج أحد راكبي البيجو وهو برتبة كابتن واحتج على التباطؤ في عملية التدقيق موجهاً بندقيته نحو رأس جندي الأمم المتحدة المسؤول . وفي ظرف شهر واحد رفض الإسرائيليون ٢٥ طلباً من الأمم المتحدة للسماح بطوافاتها بالاقلاع من قاعدتها في الناقورة . وفي اثنتين من هذه الحالات كانت الرحلة لنقل الجنرال وليم كلاهان قائد قوة الأمم المتحدة ، وأما في الحالة الثالثة فقد كانت لنقل جثمان جندي فنلندي .

انطلقنا من بيروت في جولة إلى صيدا وقرى الجنوب . وكانت أولى عشرات الجولات في عمق المناطق المحتلة . وفي كل جولة كنا نلمس أن شعور الشعب اللبناني القابع تحت الاحتلال وكذلك شعور قوى الاحتلال نفسها تجاهنا وأحدهما تجاه الآخر ، كانا في تحوّل مستمر يصعب تحديده . وكان واضحاً أن لديهم شعور من يريد أن يختبيء من المجهول . وهكذا بعد كل مقابلة صحافية كنا نسمع نفس عبارة الرجاء : «أرجوك أن لا تذكر اسمي» . وعليه فقد امتلأت تقاريرنا بالأسماء الأولى ، وكأنّ جميع الذين كنا نجري مقابلاتنا معهم قد فقدوا هوياتهم . وكنت أسافر إلى الجنوب بصحبة أندرسون وفارامارزي أو باولا كروتشياني من الأسوشيتد برس . وقد كان فساد الاحتلال يتغلغل في نفوس الناس . ففيما كانت نقمة المسلمين في تصاعد ، كانت غطرسة المسيحيين في تزايد بعد أن ذاقوا طعم القوة . وخلال زيارة قمت بها لصيدا مع باولا كروتشياني في ٩ شباط/ فبراير ١٩٨٣ كانت هاتان الظاهرتان جليتين ومخيفتين .

دعونا رجلاً مسناً في السبعين من عمره يعمل في إصلاح الطرق ليركب معنا ، ونقلناه إلى بيته الواقع في الطرف الآخر من المدينة . وهناك دعانا لتناول القهوة في منزله . وحالما أصبحنا في الداخل لم يتمالك نفسه ، والتفت إلينا قائلاً : «يأتي الضابط الإسرائيلي أسبوعياً لرؤيتي ، ويقول لي بأنني إذا زودته بمعلومات عن المخربين فإنه سيطلق سراح ابني من سجن أنصار . ولكنه يكذب . لقد زودته بمعلومات ، ولكنه لم يطلق سراح إبني» . وأطرق العجوز بنظره إلى الأرض ثم رفع بصره إلينا وقال : «إذا استطعتما إطلاق سراح إبني فإنني سأقدم المعلومات لكما أيضاً» .

وعلى طريق في سفح تلة تقع إلى الشرق من عين الحلوة تم اكتشاف جثة رجل فلسطيني كانت يداه مقيدتين خلف ظهره فيما كان رأسه مهشماً من الخلف على أثر طلق ناري . وقررنا أن ندخل إلى أقرب بيت من مكان الجريمة . وكان يسكنه الأخوان جورج وطوني . سخنت لنا زوجة طوني القهوة وقدمت لنا شوكولاتة محلية ملفوفة بورق ذهبي لمّاع ، بينما كان طفلا طوني يرقباننا من باب الغرفة ويدلكان ريش طائر صغير كانا قد عثرا عليه . وكان الرجلان في لباس الكتائب العسكري بلونه الأخضر الزيتوني .

بدأ جورج بالكلام . «لقد خلّصنا الإسرائيليون من الفلسطينيين المجرمين ونحن نعيش بسلام الآن . لقد كان الفلسطينيون يغتصبون بناتنا ويسرقون سياراتنا . لقد كانوا أنجاساً» . وهنا سألناهما عن جثة الفلسطيني التي وجدت على بعد بضعة مئات من الأمتار من بيتهما . فأجاب جورج قائلاً : «نحن لا نعرف شيئاً عن هذا الأمر . إننا نتبع القانون في كل أمر . إلاّ أن الفلسطينيين غرباء هنا وليس لهم حق التملك في صيدا» . ولم يكن جورج يتكلم بل كان يصرخ ، وأضاف :

ـ لقد كان بشير الجميّل زعيمنا ـ كان إلهاً بالنسبة لنا ـ لا يمكن لكم أن تفهموا هذا . كان إلهاً ، كان زعيماً وطنياً» . وفجأة لاحظنا أن الولدين الصغيرين ـ ولدي طوني ـ قد بدآ بتمزيق جناحي الطائر الصغير وهو حي .

وفي سوق صيدا القديم المسقوف قابلنا دورية إسرائيلية من سبعة جنود يسيرون كالتماسيح وأصابعهم على الزناد . كانوا فيما مضى يحبون أن نلتقط صوراً لهم . أما اليوم فإن ضابطهم صرخ على باولا كروتشياني : «ممنوع التقاط الصور . هاتي القلم !» كان هذا الضابط يلبس نظارات سوداء وقد شبهته بالممثل الأميركي بيتر فوندا . وتجمع الناس لرؤية ما سيحدث . وهنا انبرى جندي من الصفوف وصرخ في وجه ضابطه : «لماذا تمنع التقاط الصور؟» واقترب منا ماداً يده ليصافحنا وهو يبتسم وقال : «أنتما صديقان . بإمكانكما التقاط صور لنا» . لاحظت أنه لم يحلق ذقنه ذلك الصباح . ولم يسبق لنا أن رأيناه . وكان الناس لا يزالون يرقبوننا . وبعد أن مضى الجنود في طريقهم اقترب منا أحد التجار وسألنا وهو يحاول أن يجبر نفسه على الابتسام : «هل أنتما من إسرائيل؟» فأجبنا بأننا من بيروت . وهنا أومأ الجميع برؤوسهم . فلا بأس ما دام الصحافيان قد جاءا من بيروت .

مدينة صيدا سوق مركزي للحمضيات في لبنان . ولكن لم يكن بإمكاني شراء برتقال لبناني هناك . ففي سوق الخضروات المجاور للسوق الرئيسي حيث ذهبت أبحث رغم الجو البارد والريح القارسة لم أستطع العثور على أي حامض لبناني أو أفكادو لبنانية . لم يكن هناك أية فاكهة لبنانية إطلاقاً . فكل صندوق برتقال وكل قفص فاكهة كان مصدره إسرائيل . وكانت الفاكهة تحمل من إسرائيل إلى نقطة الحدود الإسرائيلية في رأس الناقورة ، ومن هناك يتم نقلها بواسطة شاحنات . وكان سائقو هذه الشاحنات يهددون الصحفيين الذين يحاولون التقاط صور لهذه العملية . وكانت إسرائيل بتصدير فاكهتها إلى لبنان تعمل على إخراج المزارع اللبناني من السوق . لقد فشلت في إقامة علاقات سياسية مع لبنان ، لكنها نجحت في إقامة علاقات اقتصادية .

يقع مخيم الميه وميه فوق صيدا على التلة المشرفة على مخيم عين الحلوة .وفي ربيع ١٩٨٣ كان موحلاً تفوح منه رائحة الخوف . وكان المطر المتساقط ينساب من سطوح البيوت المحطمة ويملأ الحفر التي أحدثتها قنابل القصف المدفعي في طرقات المخيم الضيقة . وعلى جدار مرحاض بدا رسم علم فلسطيني باهتاً بسبب الخربشة عليه . ومن خلال نوافذ البيوت التي كانت بلا زجاج كنا نشاهد الناس يرقبوننا من داخلها . وشاهدنا في الخارج صبياً يحتمي من المطر تحت سقف من التنك ويراقبنا بعينين صفراوين توحيان بإصابته باليرقان . لقد كان الخوف يملأ عينيه وهو يرقب الطريق أمامه وخلفه . وقال أنه بإمكانه أن يأخذنا لزيارة أهله . وعبرنا ساحة قذرة إلى باب حديدي تقف عنده امرأة في ثوب طويل ، لكنها لم تقابلنا بالترحيب والكرم العربي المعهودين وسألتنا :

ـ من أنتم؟ من أين أنتم؟

ففي غضون ستة أسابيع قُتل اثنا عشر فلسطينياً في صيدا . وصار الأجانب لا يلقون الترحيب . وكانت الولايات المتحدة الأميركية قد حذرت إسرائيل من احتمال وقوع مجزرة أخرى فوق تلة المية مية التي كان يلفها برد قارس يجمّد الجسم . وقالت لنا السيدة وهي ترفع شعلة فانوس كان على الأرض وبجانبها طفلة صغيرة ورجل مسن ينظر إلى النار :

ـ عندما جاء الإسرائيليون في أواخر حزيران/ يونيو الماضي قالوا إنهم أتوا لحمايتنا ، لكنهم ساقوا رجالنا إلى أنصار . وجاء الكتائبيون في الخريف وأحرقوا بعض البيوت . فذهبت النساء إلى السراي في صيدا وشكونهم للإسرائيليين ، لكن الإرهاب لم يتوقف .

وفي هذه الأثناء سمعنا ضجة في الخارج . وبالرغم من أنها لم تكن سوى صوت سيارة على الطريق . إلا أنها دفعت الجميع إلى النظر من فتحة الباب المكسور . وواصلت السيدة كلامها وقالت :

ـ منذ ذلك الحين أخذت ميليشيا الكتائب وسعد حداد ترسل مسلحيها إلى المخيم . كانوا يهاجموننا ثم يأتي الكتائبيون ويقولون لنا إن المسلحين مجانين وأنهم غير مسؤولين عما حدث . ومنذ أسبوعين انفجرت قنبلة على طرف المخيم ودمرت أربعة عشر بيتاً . وسقط جزء من سطح بيتنا وتناثرت شظايا زجاج النوافذ فوق فراشنا ونحن نيام .

وبينما كانت السيارة تبتعد سمعنا صوت أقدام تعبر الساحة . فقالت السيدة :

ـ إنهم يحاولون طردنا من بيوتنا . إننا نعيش في ظل تهديد وخوف دائمين ، وبلا حماية .

وعندئذ دخل صبي وهو يلهث وقال لنا :

ـ لقد رأى الكتائبيون سيارتكما .

فوقفت المرأة وقالت :

ـ أرجوكما أن تمزقا الأوراق التي كتبتما عليها . لا تطلعوهما على شيء . قولا لهم أننا قلنا إننا لا نتعرض لأي أذى . قولا لهما أننا سعداء .

فخرجنا على عجل لا من أجلنا نحن بل من أجلهم . ورأينا ثلاثة شبان يرقبوننا . ولم يكن على وجوههم أثر للابتسام .

كانت ضيعة المية ومية المسيحية تقع على الجانب الآخر من سياج غير مرتفع من الأسلاك الشائكة . ورأينا خارجها رجلين متوسطي العمر يتحدثان . وإذ كان الثلج يكسو الجبال إلى الشرق فقد كان الرجلان يتدثران بمعطفين للوقاية من سياط الريح التي كانت تجتاح الشارع الضيق خلفهما . وكان أحدهما يلبس طاقية ضيقة . سألنا :

ـ هل أنتما صحفيان؟ لماذا لا تحملان الناس على أن ينسوا الفلسطينيين ويكتبوا عنا؟ لقد أرهبنا هؤلاء طيلة ثماني سنوات .

وتدخل زميله الذي كانت على عينيه نظارتان مشدودتان إلى أذنيه بأسلاك دقيقة فقال بفرنسية محلية :

ـ لبنان للبنانيين وليس للغرباء . يجب أن تكتبوا ذلك في صحيفتكم . وتذكروا أننا وطنيون .

وتبيّن أنه أستاذ جامعي من الروم الأرثوذكس وأنه ولد في الضيعة .

وسار بنا إلى زقاق قرب الكنيسة وأشار إلى جدار فوق الطريق تظهر عليه آثار الرصاص وقال :

ـ قتلوا ثلاثة منا عام ١٩٧٥ . إذ اشتبه الفلسطينيون بأنهم على صلة وثيقة بالكتائب . ولم يكن هذا صحيحاً . لكن الفلسطينيين أخرجوهم من بيوتهم وقتلوهم هناك .

كان بيت هذا الأستاذ على بعد مئة متر . وأصر على عدم الكشف عن اسمه ، لكنه أراد أن نجلس داخل بيته . وكان بيته جميلاً ولكن مشبعاً بالرطوبة . ودخلت إليه وأنا وراءه خلال حديقة معشوشبة فيها أزهار برية . وكانت فوق بوابته شجرة كرمة قديمة معرشة . واستقبلتنا أمه وكانت مسنة نحيلة . ورحبت بنا بتلك اللغة الفرنسية الصافية التي كان أهل الطبقة الوسطى اللبنانية يحرصون على تعلمها خلال عهد الانتداب . وكانت الجدران مزدانة برفوف عليها كتب من الأدبين العربي والإنجليزي . ولمحت كُتيّباً في القرنة تبيّن أنه قاموس عربي عبري . ولاحظ اهتمامنا به فقال :

ـ جاء الإسرائيليون لإنقاذنا . وأنقذونا جميعاً . ولم نعد نعيش في خوف من الإرهابيين . . . إذا تضامن لبنان مع إسرائيل فسوف يكونان قويين لأن لهما حضارة مشتركة . هل تفهمني؟

وكأنه شعر أننا لم نفهم مغزى قوله ، فاندفع إلى مكتبته ، وعاد بترجمة لأحد روائع السير موريس بورا وإحدى روايات خليل جبران وصرخ قائلاً :

ـ أنظر . هذا هو أدبكم وأدبنا . فنحن اللبنانيين ـ أعني المسيحيين ـ أصحاب الحضارة . إننا من

شعوب الغرب . نحن الشعب المتطور الوحيد في المنطقة إذا استثنينا إسرائيل . أما المسلمون فشعب رجعي .

ثم سار إلى الطرف الآخر من خزانة الكتب وأشار إلى ترجمة فرنسية للكتاب المقدس قائلاً :

ـ هنا يتداخل تاريخنا وتاريخكم . ما الذي يستطيع المسلمون أن يقدموه للبنان؟

ثم تناول القاموس العبري وقال :

ـ أجل . إنني أحاول أن أتعلم شيئاً من هذا . إذ أعتقد أن فيه فائدة لنا .

لم نجد من يشاركه هذا الرأي في القرى الشيعية الواقعة إلى الجنوب . فالثقافة الوحيدة التي عرّفهم عليها الإسرائيليون هي دفع الضرائب من أجل الميليشيا التي جنّدوها .

كان الكولونيل حاييم رجل المخابرات الإسرائيلية دائم التجوال . إذ لم يترك ضيعة في الجنوب إلا وخصّها بما كان يسميه زيارة اجتماعية . كان قصير القامة أشيب ممتلئ الجسم يميل إلى الدعابة .

كان وسط نقاش حاد في ساحة ضيعة حاريص مع المختار محمد يوسف علي عندما رأيناه . فلما وقع نظره علينا قال :

ـ الكولونيل حاييم ليس هنا .

وبدا واضحاً أنه نسي أننا التقينا به من قبل . وكان حوله في الساحة بالإضافة إلى المختار أربعة جنود إسرائيليين ، وثلاثة مسلحين من ميليشيا حداد ، وضابط هولندي من قوات الأمم المتحدة . فصرخ علينا أحد الجنود الإسرائيليين قائلاً :

ـ كيف عرفتم أننا هنا؟ فرفع الكولونيل حاييم يده وهو يبتسم وقال :

ـ الصور ممنوعة .

غير أن أهل الضيعة لم يتكتموا على وجود حاييم . وقال لنا أحدهم :

ـ حضر حاييم إلى الضيعة قبل أسبوعين وطلب من المختار أن يدفع مبلغ ١٥ ألف ليرة لبنانية (خمسة آلاف دولار) في الشهر لتجنيد ميليشيا محلية . ويريد الإسرائيليون إخراج قوات الأمم المتحدة وإحلال رجال حداد محلهم . لقد أمرونا بأن ندفع لهم . إلا أن المختار يرفض ذلك .

وعندما سألنا حاييم إذا كان ذلك صحيحاً أجاب عنه جندي إسرائيلي بقوله :

- لم نبحث الأمور المالية . إنكم في إنجلترا تدفعون الضرائب ، فلماذا لا يدفعها اللبنانيون؟

وعندما قلنا بأنه لا علاقة لإسرائيل بالضرائب اللبنانية ، أضاف :

- هؤلاء الناس يطلبون المساعدة . إنهم يريدون الحماية . قالوا هذا مرات عدة . وأعتقد أنه يتوجب علينا أن نساعدهم . وهناك من يستطيع أن يقوم بهذا . فسألناه :

- وهل يفعلون ذلك باستخدام الأسلحة الإسرائيلية . قال :

- لديهم ما يكفيهم من السلاح .

- وهل يلبسون الزي الإسرائيلي .

- سنقدم لهم الألبسة إذا احتاجوا إليها .

- وهل إذا رفضوا الدفع تتركونهم؟

وعندئذ تدخل الكولونيل حاييم وقال :

- من الجائز أننا تحدثنا عن المال . وداعاً .

ثم ركب الكولونيل وهو يبتسم مع رجاله في سيارة مرسيدس صفراء ليس عليها لوحات وانطلق بحراسة المسلحين .

ورفض المختار أن يقول شيئاً . وعندئذ مال عليّ أحد القرويين وقال :

- طلبنا من قوات الأمم المتحدة أن تبقى هنا ، لكن حاييم أمهلنا إلى آخر الشهر لندفع له .

وكان القلق ذاته يسود ضيعة شيعية مجاورة . لكن مختارها المسن أيضاً رفض أن يذكر لنا اسمه ورجانا أن لا نذكر اسم ضيعته . وكان حوله سبعون رجلاً من أهل ضيعته . وأخذ هؤلاء يرقبوننا بقلق عندما سألنا إن كان الإسرائيليون يطالبونه بدفع مال لهم . وقال المختار :

- وكيف لي أن أعرف أنكم لا تعملان لحساب الإسرائيليين؟

فلما رأى جوازي سفرنا انفرجت أساريره وقال :

- أجل ، سأقول لك . هذا الصباح حضر إسرائيلي اسمه حاييم ومعه جنود . وطلبوا أن تدفع هذه الضيعة أربعة آلاف ليرة لبنانية في الشهر . وليس لدينا مال . ما الذي نستطيع أن نفعله؟

وعندما سألنا المختار إذا كانت الضيعة ستدفع قال :

ـ إذا لم ندفع سوف يضايقنا الإسرائيليون ورجال حداد . ويقول حاييم أنه يريد جمع المال من ثمان وعشرين قرية ، وأنه في حاجة إليه ليدفع للمسلحين الذين سيقومون بحمايتنا من الإرهابيين . لكننا نريد تواجد جنود الأمم المتحدة هنا . كان حاييم في غاية الأدب والهدوء . وأخبرته أننا سندفع إذا دفعت القرى الأخرى .

وأخرج المختار من جيب جاكتته ورقة صغيرة فيها الرسالة التالية :

ـ هذا أمر من قائد جيش حداد . عليكم أن تدفعوا أربعة آلاف ليرة لبنانية للذين سيحمون قريتكم . التوقيع : «ميليشيا حداد في ٢٧ شباط/ فبراير» .

وعندما خرجنا من غرفة المختار المعتمة أشارت إلينا سيدة كانت تقف في الخارج وعلى رأسها منديل ، وقالت :

ـ سأقول لكم ما يخاف المختار قوله . في معسكر أنصار عشرون سجيناً من أهل هذه القرية . وقد أبلغونا أنه لن يطلق سراحهم حتى نوافق على دفع المال . إنهم يستولون على قريتنا بهذه الطريقة ، كما يستولون على أرضنا ونريد أن نكون لبنانيين .

وتضاعفت شكوك شيعة الجنوب عندما قام الجيش الإسرائيلي بإحصاء مفصل جداً لا سابقة له لما يزيد عن ربع مليون نسمة من سكان الجنوب فيما يقارب ربع مساحة لبنان . فوزع على المخاتير استبياناً يملأ ٢٧ صفحة من الأسئلة المتنوعة والشاملة التي تبدأ بأسماء اللاجئين و «الغرباء» في الضيعة وتنتهي بأرقام محركات السيارات الخاصة وأسماء السيدات الحوامل .

وكانت الغاية من هذه الوثيقة الحصول على معلومات كاملة عن البنى التحتية لكل قرية من قرى الجنوب ـ خدمات الكهرباء والماء والتلفون والبريد والخدمات الطبية وحتى «المواقع ذات الأهمية الدينية والأثرية» . وكان الغرض من بعض الأسئلة واضحاً . فأكثر الغرباء كانوا من الفلسطينيين وأرقام محركات السيارات تساعد على معرفة أصحاب السيارات الملغومة . لكن الأسئلة ككل كانت توحي بأن إسرائيل تخطط للبقاء مدة طويلة في لبنان .

حتى هذا التاريخ كانت أكثر الهجمات على القوات الإسرائيلية محصورة في المنطقة الواقعة إلى الشمال من صيدا حيث كانت غالبية الإصابات تقع في صفوف اللواء ١٦٢ بقيادة البريغادير جنرال

أمنون ليفكين . وكان أشيب مشعث الشعر في التاسعة والثلاثين من العمر ومن الذين شاركوا في حرب تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٧٣ . وقد ارتبط اسمه بنشاط حربي سري في لبنان لم يشر إليه عندما قابل الصحفيين في لبنان .

فقبل ذلك بعشر سنوات قاد فريقاً من الجنود الإسرائيليين وعملاء الموساد نزل إلى بيروت الغربية واغتال عدداً من الضباط الفلسطينيين الذين كانت لهم علاقة بمنظمة أيلول الأسود التي قتلت الفريق الأولمبي الإسرائيلي بميونيخ عام ١٩٧٣ . وقتلت زوجة أحد أولئك الفلسطينيين بإطلاق النار على وجهها عندما اقتحم مسلح بيتها . ووقعت إصابات بين المهاجمين الإسرائيليين . فقتل اثنان منهم خارج مكتب لإحدى منظمات الفدائيين(١٢) .

والآن مُنيَ جنود ليفكين بمزيد من الخسائر في لبنان . فمن أواخر شباط/ فبراير إلى آذار/ مارس ١٩٨٣ تكبّد لواؤه قتيلين وسبعة جرحى فيما لا يقل عن ثمانية كمائن نصبت لهم . وقد كان يعتقد بأنه بإمكان جنوده الصمود لهذه الهجمات ما دام يؤمّن قدراً معقولاً من الأمن . ففي ٢٤ شباط/ فبراير قال لنا : «هذا ليس بالأمر السهل ، ولكنه ليس بالمهمة المستحيلة» . إلا أنه كان مخطئاً . فقد كان رجال المقاومة من لبنانيين وفلسطينيين يقومون بمهاجمة رجاله يومياً . وكان يندر أن يتمكن الإسرائيليون من القبض على مهاجميهم الذين كان غالبيتهم يهاجمونهم من المناطق التي يهيمن عليها السوريون .

كنا ونحن نعبر الخطوط بين هذه الجيوش ونتحدث إلى الفلسطينيين والإسرائيليين والسوريين والقرويين الشيعة كمن يعبر الزجاج في الليل . ففي بيت أسرة فلسطينية في المية ومية كان وجود الإسرائيليين وحلفائهم خارج النوافذ مصدر تهديد لنا . وعندما كنا نجلس مع الإسرائيليين كان الفلسطينيون مصدر خطر حقيقي في الليل . وكنا دائماً نشارك الذين نتحدث إليهم مخاوفهم ، لأننا كنا نعلم أن الإسرائيلي أو الكتائبي الذي يجدنا في بيت فدائي مسلم سينظر إلينا بالحقد ذاته الذي ينظر به إلينا الفلسطيني الذي يرانا نتحدث إلى الإسرائيليين .

وفي أواخر آذار/ مارس ١٩٨٣ وصلت بصحبة تاترو وفارامارزي إلى مقر جماعة إسرائيلية على الخطوط الأمامية في الشوف . وصادف حضورنا الليلة الأولى من عيد الفصح اليهودي . وكان الضباب الكثيف يلف الفيلا الواقعة خارج عاليه التي كانت مقراً للميجر هليل . وكان الكل يتوقع أن

(١٢) تاريخ دور ليفكين في هذه العملية في بيروت يرد في كتاب : البحث عن الأمير الأحمر ، تأليف بارزهار وايتان هابر (وليام مورو وشركاه : نيويورك ، ١٩٨٣) ص ١٧٦ ـ ١٧٧ .

ينصب الفدائيون كميناً للإسرائيليين في تلك الليلة . أما في الداخل فقد انتشر الجنود الشباب اليهود حول الطاولات وهم يغنون الأغاني الدينية بسعادة حقيقية . وكانت الطاولات عامرة بالشراب والأعشاب والخبز الخالي من الخميرة الذي يذكّر اليهود بهروبهم المفاجئ من أرض مصر .

وقف الحاخام تسفي يسأل جنوده السؤال الذي يسأله رجال الدين دوماً فوق مائدة عيد الفصح : «ما الذي يجعل هذه الليلة تختلف عن جميع الليالي الأخرى؟» ولم يكد ينهي كلامه حتى هز الفيلا صوت الانفجار الأول المدوي كالرعد . فجلسنا معاً وتوقف الغناء وغرق المكان في صمت عميق . والتفت الحاخام تسفي إلى الميجر هليل الجالس على الطاولة الرئيسية وكأنه يسأله ما العمل . لقد كان جميع الجنود يتحدثون عن احتمال قيام الفلسطينيين بهجوم في أول ليلة من عيد الفصح . ولكن لم يصدق ذلك أحد منهم ، وأخذ الحاخام يتلو الصلاة الثانية . إلا أن الانفجار الثاني الذي زلزل المنطقة كلها قطع عليه صلاته .

وهكذا توقف الاحتفال . وتقضي تقاليد اليهود بأن يبقى باب الاحتفال بعيد الفصح مفتوحاً للنبي إيليا ،لكن الذي حدث هو أن الباب غص بالجنود الذين تراكضوا إلى الخارج . وفيما وقف الحاخام تسفي وسط الغرفة تحت اللمبات الكهربائية العارية وهو لا يزال يتلو الصلاة ،خطف الجنود بنادق الجليل الهجومية وقفزوا من مقاعدهم حول الطاولات . وكان يجلس إلى جانبي جندي احتياط يعمل مهندساً مدنياً في القدس . فالتفت إليّ وقال : «أعتقد أنه وقع» وركض وركضنا خلفه إلى الخارج . ودوى عندئذ انفجار أقوى أحدث تغييراً في ضغط الهواء ، كنا قد ألفناه . وفي تلك الأثناء سطعت مجموعة من الأنوار الكاشفة التي كوّنت مظلة فوق رؤوسنا .

كان كل ضوء كاشف يتفجر وسط هسيس متواصل ، وينير الشارع الضيق الغارق في الضباب ، فنراه يعج بالجنود الذين يصرخون ويتراكضون في جميع الاتجاهات . وعلى بعد مئتي متر أخذت تنطلق رشقات من الرصاص لم يلبث أن تلاها دوي مدفع رشاش ثقيل . ثم سمعنا همساً بالعبرية على الراديو تحول إلى كلام ثم إلى صراخ . وفجأة أقبل علينا ملازم أول إسرائيلي وقال :

ـ أطلق المخربون قذائف صاروخية على إحدى دورياتنا التي كانت تسير على الطريق في الخارج فأصابوا العربة الأولى . لا أعرف المزيد .

وهنا عاد الهمس إلى الراديو فأضاف الملازم :

ـ أعتقد أننا فقدنا شخصاً .

على أن التحول في مشاعر الجنود كان غير عادي . كان صورة مصغرة عن موجات الصدمة التي كانت تهز الأميركيين عندما يتعرضون للهجوم عليهم في بيروت . فعلى طاولة الفصح رجا أحد الجنود الحاخام أن يكمل صلاته ، لكي يبدأوا بتناول العشاء . ووقف جندي احتياط وأخذ يتحدث عن بيغن . وعبّر عن أمله في أن يعاد انتخابه . وقبل ذلك حاول الجنود الذين كانوا يجلسون معنا في المركز الطبي للمقر أن يبرروا حربهم واحتلالهم للبنان . وكانوا يتساءلون مرة بعد أخرى لماذا تقف الصحافة العالمية ضدهم ، ولماذا تريد أميركا أن تسيء إليهم ،ولماذا لا يوجد من يفهم ما يفعلونه . لم يكونوا قد رأوا بعد أي خطأ في احتلالهم . وطلب منا بعضهم أن ننظر إلى صور اللبنانيين وهم يرحبون بجيشهم في شهر حزيران/ يونيو الماضي .

ثم أخذوا يرددون الحجج القديمة . فقالوا إنهم لو انسحبوا من لبنان فإن الفوضى ستعم لبنان ، كما قالوا بأنهم غزوا لبنان لأن الجليل عرضة لهجمات الإرهابيين المستمرة . وعندما سألناهم عن سبب زحفهم على بيروت اختلفت إجاباتهم . وقال اثنان منهم بأنهما يعتقدان أنه كان على شارون أن يزحف على بيروت الغربية في حزيران/ يونيو ١٩٨٢ . ورأى آخر أنه كان ينبغي عليهم أن يتوقفوا عند نهر الأولي شمالي صيدا .

كان إلى جانبي جندي آخر يحرص على اختيار كلماته قال :

ـ لبنان بلد لا مستقبل له .

وتحدث أحدهم عن «تدمير» منظمة التحرير الفلسطينية . لكن الآخر قاطعه قائلاً :

ـ الضغط على منظمة التحرير لا تدميرها . فالمشكلة ليست في الفلسطينيين أو الإسرائيليين بل في زعمائهم . إن هناك سبيلاً واحداً إلى جعل منظمة التحرير توقف الأشياء الإرهابية ـ وهو إقامة صداقة مع الفلسطينيين .

على أن الانفجارات نسفت كل تلك الاعتبارات الأخلاقية في الغرفة فحلّت محلّها صيحات الغضب والشتائم وخرج من الضباب الرطب الملازم الأول الإسرائيلي وقال :

ـ قُتل واحد منا كان في العربة الأولى ، وجُرح الآخران . وفرّ الإرهابيون . هذا كل ما وجدناه .

ثم رفع بيديه كوفية فلسطينية بيضاء وسوداء مزينة بالمربعات .

وما أن حل منتصف شهر أيار/ مايو حتى كان تفاؤل الإسرائيليين قد تبخر . ففي مؤتمر صحفي عقده أمنون ليفكين في ذلك الحين ادعى أن القتال قد اشتد في الشوف بسبب تدخل وزير الخارجية

الأميركي جورج شولتز في المفاوضات اللبنانية ـ الإسرائيلية حول انسحاب القوات . وبدلاً من التعهد بفرض الأمن في الشوف ، اعترف بأن المنطقة التي تحتلها قواته هناك تشكل كارثة حقيقية . وبدا مقهوراً ووقف موقف المدافع في المؤتمر . فلم يقم كالعادة بسرد أهداف إسرائيل السياسية أو العسكرية في لبنان ، ولم يحاول حتى لوم السوريين بسبب تصاعد القتال في الشوف . ولم توزع عند باب المؤتمر كالعادة منشورات جديدة توضح رؤية الإسرائيليين لحرب لبنان . وحتى المنشورات القديمة التي كانت تعلن عن منافع التعاون الإسرائيلي اللبناني ظلت ملفوفة في إحدى زوايا الغرفة تنتظر من ينفض عنها الغبار .

فقد قُتل من الإسرائيليين خلال الشهور الستة التي تلت خروجهم من بيروت الغربية ١١٨ قتيلاً ، أي أكثر من ربع قتلاهم منذ بدء غزوهم للبنان . كما أن أكثر من سدس جرحاهم أصيبوا في هذه الفترة . وهكذا تبيّن أنه لم يتم دحر «الإرهابيين» على الإطلاق . أما في الجنوب فقد تمكن الكولونيل حاييم وضابط إسرائيلي آخر يسمي نفسه «أبو نور» من «إقناع» القرى الشيعية بتمويل عصابات الميليشيات التي شكلها الإسرائيليون وأصبحوا يطلقون عليها اسم «لواء الإقليم» .

وهكذا أخذ الجنوب يكتسب جميع مظاهر الدولة التابعة . ولكن الإسرائيليين كما يبدو تناسوا تحذيرات التوراة مما ينتظر أولئك الذين يتدخلون في صراعات لبنان . فالخط الأمامي للقوات الإسرائيلية أصبح يمتد الآن من نهر الأولي عبر وادي نهر بسرّي الجميّل حتى سفوح الباروك . وعبر هذا الخط شرع الجيش الإسرائيلي في إقامة شبكة ضخمة من القواعد العسكرية ومهابط طائرات الهليكوبتر ومحطات الرادار وحظائر الدبابات وثكنات من الإسمنت المسلح . وبدا وكأن الجيش الإسرائيلي كان ينوي البقاء في لبنان سنوات طويلة لا أسابيع معدودة .

وفي حزيران/ يونيو ١٩٨٣ بدأ رجال المخابرات الإسرائيلية (شين بت) بألبسة مدنية يداهمون المخيمات الفلسطينية حول صور تحت حراسة الجنود الإسرائيليين . واعتُقل في يوم واحد ما يزيد على ٦٠ شاباً منها . أما في البقاع الجنوبي فقد بدأت إسرائيل بشق طريق رئيسي في وسط السهل لتجنب الكمائن التي كانت تُنصب لجنودها على الطريق القديم . ففي شهر واحد قام رجال المقاومة بنصب ٣٥ كميناً للإسرائيليين في المنطقة الواقعة حول بحيرة القرعون . أما في صور فقد كوّن الإسرائيليون ميليشيا جديدة بقيادة رجل لبناني يسمى الهرطاوي ، في حين أن إبراهيم فرحان الذي كان يدير ميناء المدينة للجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين صار يديره للإسرائيليين .

وكانت مصلحة إسرائيل تقضي بكسب ود الشيعة قبل غيرهم ، لأنهم هم الذين كانوا سيصبحون

جيرانها بعد انسحاب جنودها إلى الحدود الدولية . وطبعت في هرتسليا بإسرائيل بطاقات سياحية عليها نجمة داود وعبارة «الجار القريب ولا الأخ البعيد» . على أن كل عمل قامت به إسرائيل لم يزد الشيعة إلا نفوراً ومرارة . فقد شجعت المزيد من المسلحين المرتزقة على جمع المال . وواصلت هي ما يمكن تسميته بحملات الابتزاز . وفي صباح أحد الأيام نزل مسلحو حداد بقيادة شيعي اسمه أحمد شبلي على قرية بيت ليف وطلبوا مالاً لإقامة تحصينات للإسرائيليين . فبعث مختار ياطر رسالة إلى مقر الكتيبة الهولندية التابعة لقوات الأمم المتحدة تقول :

ـ هل نعيش في دولة إسرائيل أم في دولة أحمد شبلي أم في دولة الشيطان؟

لقد تمكن الإسرائيليون بمداهماتهم المستمرة ومخبريهم وعملائهم المحليين من فرض الهدوء على الفلسطينيين في الضفة الغربية المحتلة . وأرادوا اتباع النظام نفسه في لبنان . ونسوا أن اللبنانيين كانوا في وضع يختلف عن وضع الفلسطينيين . إذ كانت حركة المقاومة الشيعية الناشئة تملك السلاح ولديها خبرة عسكرية وحوافز دينية قوية لم تتوافر للفلسطينيين . فبينما كان المتظاهرون الفلسطينيون يقذفون الإسرائيليين بالحجارة ، كان اللبنانيون يطلقون الرصاص . وكان اللبنانيون يعرفون عن حرب العصابات ما لا يعرفه الإسرائيليون .

فبينما كانت ناقلتا جنود إسرائيليتان مدرعتان تخرجان في ١٠ حزيران/ يونيو ١٩٨٣ من قرية دير قانون الشيعية ، انقضّ عليها من بساتين البرتقال على جانبي الطريق الضيق عشرة مسلحين وقتلوا ثلاثة من الجنود قبل أن يتمكن الإسرائيليون من إطلاق رصاصة واحدة . فتجمع رجال المخابرات الإسرائيلية مرة أخرى في المخيمات الفلسطينية حول صور بحثاً عن المسلحين . لكن هؤلاء لم يكونوا فلسطينيين بل لبنانيين .

بدأ لبنان يتحول إلى شرك موت للإسرائيليين ، وإلى مكان للكمائن المتلاحقة والفخاخ المضللة التي عجز أقوى جيش في الشرق الأوسط عن حماية نفسه منها . لكن الإسرائيليين واصلوا فرض ميليشياتهم على القرى الشيعية . ففي ياطر دفع المختار أول قسط من المال المفروض عليه ، لكنه رفض دفع المزيد . وتقع قريته جنوب نهر الليطاني . وهي ضيعة وادعة تقع بين ثلاث تلال تنتهي في واد صخري يبعد ثلاثة أميال عن الطريق الرئيسي . وعاقب الإسرائيليون المختار بوضع مسلحين اثنين من ميليشيا حداد على نهاية الطريق الوحيد إلى ياطر . وفرض هذان خمس ليرات على كل سيارة تخرج من القرية ، وعشر ليرات على سائقي الشاحنات والتراكتورات . وكانت تقوم بمراقبة المسلحين نصف مجنزرة إسرائيلية .

وفي قرية جبشيت التي لا تبعد كثيراً اقترف الإسرائيليون أخطاء كان لها أسوأ الأثر على وضعهم في لبنان . وجبشيت قرية وادعة تقوم على تلتين تبعدان ١٢ ميلاً إلى الشرق من الساحل ، وفيها كروم عنب وأشجار قديمة تطل من وراء جدار أخضر مهلهل يرد عنها غائلة الرياح . ومنذ أول أيام الغزو الإسرائيلي أخذ إمام القرية الشيخ راغب حرب بالتنديد به ، وحثّ أبناء قريته على عدم التعاون مع سلطات الاحتلال . فاقتحمت القرية في حزيران/ يونيو ١٩٨٣ قافلة من شاحنات الجيش الإسرائيلي وألقى رجالها القبض على الشيخ راغب ، وقيدوا يديه وحملوه معهم إلى صور . وهكذا أخذت أرض جبشيت تنبت الحقد بدلاً من أشجار الزيتون التي اشتهرت بزراعتها فوق الأرض الصخرية .

كانت زيارتنا لجبشيت درساً في مستقبل لبنان . توجهنا إلى حسينية (جامع) الضيعة التي كانت ترفرف عليها أعلام سود قست عليها الرياح فشققتها . ورأينا في باحة الجامع يافطات من القماش تتجلى فيها قدرة الشيعة على الجمع بين الطموحات السياسية والإيحاء بالاستشهاد . وكان مكتوباً على إحداها : «لا سلام في لبنان بدون سلام في الجنوب» وكتب على يافطة سوداء بخط أبيض : «إن الموت من شيمنا . والاستشهاد نعمة من الله» .

أما في داخل المسجد فقد وجدنا عدداً من المعتصمين احتجاجاً على الطريقة المهينة التي اعتقل بها الشيخ راغب حرب الذي كان يكره العملاء . ودُعينا إلى مكتب أنيق داخل المسجد تزين جدرانه صور الإمام الخميني والإمام موسى الصدر . واستقبلنا فيه شاب ملتح قدم لنا نفسه باسم جهاد . وأخذ يتكلم ببطء عن «أميركا الشيطان الأكبر» ولم أعلم إلا فيما بعد أنه من حزب الدعوة ـ المنظمة الدينية الموالية لإيران التي كانت تسعى للإطاحة بنظام الرئيس صدام حسين . وبعد ساعتين من مقابلتي لجهاد وخلال حديثي مع أحد أبناء الضيعة علمت أيضاً أن جهاداً ينتمي إلى منظمة الجهاد الاسلامي .

كان جهاد ذا لحية قصيرة وجبين مثلّم وفي غاية الأدب . قال :

ـ اسمي غير مهم . جهاد وكفى . منذ عدة أشهر والشيخ راغب حرب يخضع للمراقبة الإسرائيلية . وطيلة هذه المدة كان ضابط استخبارات إسرائيلي يلقب بأبي نور يحاول مقابلته ، والشيخ يرفض ذلك . وفي ليل ١٧ آذار/ مارس دخل الإسرائيليون الضيعة في الليل واعتقلوا الإمام وهو في منزل قريب له . وشدوا وثاقه بحبل واقتادوه معهم .

عامل الإسرائيليون جبشيت كما عاملوا القرى الشيعية الأخرى . جندوا ستة مسلحين من الضيعة في ميليشيا «الحرس الوطني» وعهدوا إليهم بمراقبة أهلها . وبعد أسبوع من اعتقال الشيخ راغب حرب قدم هؤلاء المسلحون بسياراتهم إلى مركز المخابرات (شين بت) الإسرائيلي في النبطية ،

حيث سلّموا أسلحتهم وانسحبوا من «الحرس الوطني» غير أن الإسرائيليين لم يفهموا مغزى هذه الخطوة .

وكما أن الإسرائيليين رفعوا من مكانة جيش حداد شبه الريفي فسموه باسم أطلقه عليه ضباط الارتباط الإسرائيليون وهو «ترس الجليل» ، فقد وضعوا ثقتهم بميليشيا أقل قيمة .وجندوا كبار ضباط المخابرات لتسليح أفرادها ببنادق م . ك ـ ٤٧ ، وتدريبهم على الاتصالات بالراديو وإرسالهم إلى القرى لحفظ السلام خدمة لإسرائيل ، وإلى الضيع الشيعية للسيطرة عليها . وكما هو منتظر فقد طبلت وزمرت الدعاية الإسرائيلية لهذا الإنجاز . وكالعادة صدّق الإسرائيلون دعايتهم . ففي جويا مثلاً كان خمسة مسلحين بثياب مهلهلة وذقون غير حليقة يمثلون قوات إسرائيل الجديدة التي أطلقوا عليها اسم «قوات كربلاء» . وفي جنوبي صور نظم الإسرائيليون ميليشيا أخرى سموها «أنصار الجيش» وذلك لحراسة حواجز التفتيش التي كانت تبتز المال من سائقي الشاحنات الذين ينقلون الأغذية والمؤن بين قرى الجنوب(١٣) .

كان قائد قوات كربلاء صاحب محطة بنزين في جويا اسمه حيدر الدايخ . قابلني في مقره بجويا بلحيته الكثة المتشعبة وبزي عسكري أخضر داكن ادعى أنه انتزعه عن أحد الفدائيين الفلسطينيين . وكان معه مسدس يضعه في حزام سرواله ، وعلى عينيه نظارات سوداء ، وعلى رأسه قبعة جولف أميركية . بدأ يحدثني عن ولائه للبنان وعن استقلاله عن الإسرائيليين . غير أن لهجته بدأت تتغير وحماسه في الحديث عن استقلاليته بدأ يفتر عندما انضم إلينا رجل طويل القامة لم أره من قبل ، وجلس إلى جانبنا بدون أن يتفوّه بكلمة .

كان جليسنا ممتلئاً بعض الشيء ويتصرف كرجل له مكانته . وكان شعره الكثيف قد بدأ يعتريه الشيب ، ويلبس قميص «تيشرت» عليه كتابات عبرية . ومنذ حضر أخذ يهمس في أذن حيدر دايخ بالأجوبة التي يجب أن يرد بها على أسئلتي خلال المقابلة . وعندما عرفت أنه أبو نور ، قال محتداً : «كيف عرفت اسمي؟» وكان حيدر دايخ قبل الغزو الإسرائيلي من مسلحي أمل . وجرح في معارك مع

(١٣) هذه قائمة «بالضرائب» التي كانت تفرض على حاجز رأس البياضة منذ أول آب/ أغسطس١٩٨٣ :
٦٠ دولاراً على شاحنة تحمل مسجلات فيديو أو أشرطة أو أجهزة راديو .
١١٠ دولارات على تريللا تحمل عجلات مطاطية .
٨٠ دولاراً على تريللا تحمل منتوجات زراعية أو أدوية زراعية .
٧٢ دولاراً على شاحنة تحمل سكراً أو طحيناً أو بذاراً أو خضروات أو فاكهة .

الفلسطينيين ، وتمت معالجته في مستشفى مرجعيون التابع لسعد حداد . ومن هنا كان ولاؤه المستجد للإسرائيليين . ولكنه عندما بدأ بانتقاد الكتائب في بيروت ، أسكته أبو نور بحركة من يده .

وجدت في شوقي عبد الله رجلاً أقوى شخصية من حيدر الدايخ . وكان شوقي رئيس «جمعية الجنوب المتحدة» التي أنشأها هو وأصدقاؤه ، وأوجدوا لها مكتباً على رصيف الميناء في صور . وعندما قمت بزيارته استقبلني ببدلة بيضاء رائعة . وأكد لي أنه صديق للجميع . ولكن هذا لم يمنع مجهولين من إلقاء قنبلة على دكان للصرافة يمتلكها في صور وذلك في شباط الماضي . وقال إنه لا يعرف سبب ذلك . وعندما فتح خزانة حديدية على يساره رأيت ثلاث بنادق إسرائيلية وضعت احتياطاً .

التفت شوقي إلى شاب مسلح عليه بدلة خضراء فاتحة وطلب منه أن يحضر لنا القهوة ثم قال :

ـ لست بالرجل المعقد . كل ما أريد أن أفعله هو أن أحل لأهل بلادي مشاكلهم . وأحياناً يأتي الكولونيل حاييم من الجيش الإسرائيلي لاستشارتي ، وأحياناً يأتي الفلسطينيون لرؤيتي ، ويطلبون مني أن أطلق سراح أقربائهم في سجن أنصار . وأحياناً أنجح .

ولا ريب في أنه كان ينجح أحياناً لأنه كان من أولئك الذين يبرزون في أي بلد يحتلها جيش أجنبي ، ويكتسبون أهمية في نظر قوى الاحتلال ومن يخضعون لها على السواء .

كان رجلاً آخذاً في الصلع وله عينان واسعتان وشارب صغير وسيم . تناول ورقة انتزعت من كراس مدرسي وأشار إليها قائلاً :

ـ هنا قائمة بأسماء ٤٧ شخصاً من اللبنانيين والفلسطينيين الذين اعتقلهم الإسرائيليون . وسجن الإسرائيليون ثلاثمئة آخرين . وربما استطعت عند نهاية الأسبوع إطلاق سراح ١٤ منهم . سوف أدرس القائمة مع الإسرائيليين . وقد لا يكون ١٤ إسماً من ثلاثمئة عدداً كبيراً ، لكنه أفضل من لا شيء .

وعاد المسلح بالقهوة وبصحبته رجل في منتصف العمر مد يديه بطريقة تدل على التوسل والرجاء . وقال إن الإسرائيليين قد اعتقلوا ابنه قبل وقت قليل ، وقدم ورقة تحمل اسم ابنه لشوقي . فأبدى هذا تعاطفه معه ، ووعده بأنه سيبحث قضيته مع الكولونيل حاييم . والتفت شوقي إليّ وقال :

ـ أرأيت؟ أرأيت كيف يحتاج مواطني إليّ؟

لم يخبرني شوقي عبد الله كيف حصل على مركزه ،ولكنه اعترف لي بأن الإسرائيليين يدرسون

طلبات من يريدون الانضمام إلى هيئته شبه الديمقراطية . وهنا أراني بعض الطلبات وقال إنها لأشخاص وافق عليهم الكولونيل حاييم . ثم استطرد قائلاً :

ـ إن تواجد الإسرائيليين في الجنوب هو أمر واقع . وإذا انسحبوا فسيعود الجيش الفلسطيني أو الجيش السوري . وليس هناك من يريد هذا . وقريباً سوف ينسحب الإسرائيليون من الجبال المحيطة ببيروت . وهم يريدون أن تكون الطرق هنا في الجنوب آمنة . يجب أن لا تكون هناك كمائن . وإذا نُصبت لهم كمائن أو فُجّرت فيهم ألغام فإنهم سيغلقون الميناء ، وفي هذا خسارة مالية للأهالي . ولا أحد يريد هذا . ولذلك يجب أن نتحدث مع الجميع . وعندما يفهم الناس طبيعة ما أقوم به هنا ، فلن يكون هناك من خطر علي .

شوقي عبد الله هذا شيعي . وقد علّق صورة للإمام موسى الصدر خارج مكتبه . وفي نهاية المقابلة قال :

ـ أرجوك أن تخبر العالم بأني لبناني وطني ، وأنني أعمل لخير بلدي . أنا لست إسرائيلياً أو فلسطينياً . أنا لبناني مخلص .

أما الجيش الإسرائيلي فكان لا يزال يصرّ في الظاهر على أنه قد حقق أهدافه العسكرية التي كان يتوخاها من غزو لبنان . وعند انسحاب هذا الجيش من الشوف جاء في أوامر آمنون ليفكين لجنوده ما يلي :

ـ لقد هُزمت المنظمات الإرهابية وتم تدمير بنيتها التحتية . أما الجيش السوري فحيثما تعرض لجنودنا فإنه لم يستطع الصمود أمامنا . لكن هذا الأمر اتسم بالتناقض . إذ أضاف ليفكين يقول :

ـ إننا في بلد تتقاسمه فئات مسلحة معادية لجيش الدفاع الإسرائيلي .

وختم ليفكين أمره بعبارة لا تخلو من الطرافة . قال :

ـ تذكروا أن أخلاقية السلاح أمر أساسي لجيش الدفاع الإسرائيلي . استخدموا سلاحكم فقط في الدفاع عن النفس ، وتجنبوا إيذاء غير المحاربين[(١٤)] . ومهما كانت قيمة هذه النصيحة ، فإن الإسرائيليين نسوا أن اللبنانيين لم يعودوا يؤمنون «بأخلاقية السلاح الإسرائيلية» .

(١٤) أمر لجيش الدفاع الاسرائيلي أصدره الجنرال قائد القطاع الشمالي في لبنان بتاريخ ٤ أيلول/ سبتمبر ١٩٨٣ .

عندما أخذ الجيش الإسرائيلي بالانسحاب إلى خط نهر الأولي شمالي صيدا ، كان بعض ضباط المخابرات الإسرائيليين يدركون أن الميليشيات المهلهلة التي شكّلها الكولونيل حاييم وزملاؤه في قرى الجنوب لن تستطيع حماية هذا الجيش . فقد علموا بأن هناك خططاً لمهاجمة مقرهم في صور قبل أن يقوم السائق بهجومه الانتحاري عليه وتدميره في ٤ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٨٣[(١٥)] بأحد عشر شهراً على الأقل .

أما وقد وجدت إسرائيل أن الشوف «كارثة» فقد أخذت تسحب جيشها إلى الجنوب . لكنها بذلك ألقت به في قبضة جيش من الثوار تغذى مقاتلوه على الحقد الذي كانت إسرائيل تغرسه في القرى اللبنانية الجنوبية . وأعيد تنظيم الجيش الذي كان يشمل ٢٥،٠٠٠ جندي و ٣٠٠ دبابة و ٤٥٠ عربة مدرّعة ومئة مدفع في خمسة ألوية مدرّعة اختبأت وراء خنادقها الأرضية على خط يمتد من البحر عبر ثلوج الباروك إلى الحدود السورية شرقي العرقوب .

واتجه الإسرائيليون على طول هذا الخط بأنظارهم إلى الشمال باتجاه الأراضي التي تركوها غارقة في الفوضى أو باتجاه «الإرهابيين» . لكنهم بهذا كانوا ينظرون في مرآة تعكس الوجه الآخر للواقع . فقد كان غالبية أعدائهم وراءهم في الجنوب .

ولو أن إسرائيل سألت مسيحيي لبنان لقام هؤلاء بتخليصها من جميع أوهامها التي نسجتها حول المسلمين الشيعة في الجنوب . إذ كانوا في نظر المسيحيين أشبه بالمنشقين الألبيجنسيين في جنوب فرنسا في القرن الحادي عشر . لقد تعرّض شيعة الجنوب لسنوات من الحرمان والفقر ولدت فيهم شعوراً عميقاً بالشك . وواجهْنا هذا الشعور بأنفسنا خلال زياراتنا للجنوب . ولقد أقمنا صداقات مع أهله وعلى مدى شهور طويلة . وتعرفنا على عائلات استضافتنا لأسابيع ، ووفرت لنا الحماية عند تأجج المعارك ، وساعدتنا على إكمال تقاريرنا الصحافية . ومع هذا وبدون استثناء وأيضاً بدون مقدمات كان يأتي الوقت الذي يلتفتون فيه إلينا فجأة إما ونحن على مائدة الفطور أو في السيارة في طريقنا إلى مهمة ويسألوننا : «هل أنتم جواسيس؟»

على أن الذين كانوا يطرحون مثل هذا السؤال لم يكونوا يفعلون ذلك بسبب شعورهم بالعداء للغرب بالرغم من أن هذا العداء كان آخذاً في النمو ، وإنما بسبب خوف عميق ينبع من عزلة الشيعة

(١٥) جاء في تقرير لجنة التحقيق العسكرية الإسرائيلية في هذا الحادث ما يلي :
«منذ مطلع عام ١٩٨٣ كان معلوماً أن الإرهابيين يزمعون مهاجمة مقر المخابرات وقوى الأمن العسكري في صور» .
المرجع : تقرير اللجنة المرفوع إلى اللفتانت جنرال موشي ليفي في ١١ و ٢٤ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٨٣ ، ص ٢ .

في الجنوب ، وحرمانهم التقليدي من السلطة السياسية الحقيقية في البلاد ، وعجزهم عن تحسين أوضاعهم . وقد حمل إفقار الجنوب أبناءه إلى القيام بمهام الحكومة حتى قبل انهيار السلطة المركزية في لبنان . ولم يكن من قبيل الصدف أن الإمام موسى الصدر أطلق على منظمته السياسية اسم «حركة المحرومين» . وقد أسس موسى الصدر المدارس وأنشأ مدرسة مهنية خارج مدينة صور . وكان الإمام نفسه إيرانياً وهكذا ممثلاً للدولة الشيعية الوحيدة في الشرق الأوسط التي أخذت تشهد حالة انبعاث بعد أن ألقت عن كاهلها نير التبعية الغربية . وكانت انتصاراتها تتوالى في حرب الخليج . ففي إيران ناضل المحرومون وانتصروا . فما الذي يمنع الشيعة في الجنوب من الانتصار على مضطهديهم؟

وقد تجلت هذه العواطف في تآلف غير معهود بين المطالب السياسية والمعتقدات الدينية . إذ أصبح توق الشيعة إلى السلام والأمان في الجنوب مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً مع عقيدة الاستشهاد عندهم . وهذا هو معنى الأعلام السوداء المرفوعة فوق حسينية جبشيت . وإزاء الاضطهاد الذي كان شيعة الجنوب يعانون منه من جراء تعسف المحتل الإسرائيلي ، فإنهم كانوا يتلمّسون الشجاعة لمجابهة وضعهم بالاقتداء بالإمام الحسين واستشهاده في كربلاء ـ هذا الاستشهاد الذي ركز في عقيدة الشيعة توقهم واستعدادهم للشهادة . فقد ثار الإمام الحسين ـ وهو الإمام الثالث عند الشيعة ـ على جبروت الأمويين وبذخهم . ووهبّ بنقائه لمساعدة أهل الكوفة . إلا أن هؤلاء ـ على حد قول شاعر شيعي ـ كانت قلوبهم مع الحسين وسيوفهم عليه . فخرّ صريعاً شهيد دعوته للمظلومين . وهكذا أصبحت الشهادة قلب الملحمة الشيعية .

وهكذا فإن كل ضربة كانت توجهها إسرائيل إلى شيعة الجنوب كان يتلقاها هؤلاء وكأنهم يعانون ما عاناه الحسين في ساحة كربلاء . لقد اعتبر الإسرائيليون اعتقالهم للشيخ راغب حرب جزءاً من حربهم ضد «الإرهاب» . أما الشيعة فقد رأوا فيه دليلاً على خداع الإسرائيليين . ورأوا في إطلاق إسرائيل اسم كربلاء ـ ميدان استشهاد الحسين ـ على منظمة حيدر دايخ التي تتألف من عملاء مأجورين تجديفاً وزندقة . ودأب الإسرائيليون على تضليل أنفسهم فيما يتعلق بعلاقتهم بشيعة الجنوب .إذ جاء على لسان يوري لوبراني منسق شؤون لبنان في الحكومة الإسرائيلية ما يلي : «حتى عام ١٩٨٢ كانت العلاقة بين إسرائيل وشيعة الجنوب ودية وصادقة» . وحتى هذا لم يكن صحيحاً . فقد كان معظم الشيعة في أحياء بيروت المعدمة هم من لاجئي الجنوب الذين فروا إلى بيروت هرباً من قصف قراهم من قبل إسرائيل في السبعينات . أما شيعة برج البراجنة والشياح وحي السلم فقد قاسوا الويلات من جراء محاصرة إسرائيل لمدينة بيروت .

والآن فقد أصبح موطنهم في الجنوب يرزح تحت تسلط احتلال إسرائيلي يزداد تعسفاً يوم بعد يوم . وفي أوائل شهر تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٨٣ هدد الإسرائيليون بإغلاق جسر نهر الأولي . وكان

هذا هو المعبر الوحيد الذي يسلكه الشيعة إلى قراهم في الجنوب . ولذلك دعا الشيخ محمد مهدي شمس الدين نائب رئيس المجلس الإسلامي الشيعي الأعلى ، شيعة لبنان إلى أن يقوموا «بالعصيان المدني الشامل على الاحتلال الإسرائيلي في لبنان» . وهكذا أصبحت مقومات الثورة ضد الاحتلال قائمة . وكان يكفي حادث واحد لتأجيج نيرانها .

وقد وقع هذا الحادث في النبطية المركز الديني للشيعة في لبنان ، حيث يقام الاحتفال بعاشوراء وهو اليوم العاشر من شهر محرم يوم استشهاد الحسين . في ذلك اليوم كانت ساحة النبطية أمام الحسينية تغص بالآلاف من الشبان الذين لفوا أنفسهم بالبياض وأخذوا يضربون أنفسهم بالشفرات والسكاكين أو السلاسل . وقد صادف عاشوراء يوم ١٦ تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٨٣ . ففي هذا اليوم العظيم قامت قافلة من السيارات الإسرائيلية العسكرية بمداهمة جمهور المحتشدين . وكانت ردة فعل المسلمين عنيفة ضد هذا الانتهاك لواحد من أقدس الأعياد الدينية . فهاجموا سيارات الإسرائيليين بالحجارة وبما توفر لهم ، وقلبوا شاحناتهم وأضرموا بها النار . وفي مواجهة هذه الجموع التي هاجمتهم بما في أيديها من سكاكين وهي تزمجر غاضبة بدأ الجنود الإسرائيليون بإطلاق النار . فقتلوا اثنين من المشاركين بالذكرى وجرحوا سبعة آخرين . وبعد أن فعلوا ذلك أنكروا أن يكون أحد قد أصيب بأذى . وقالوا إن ذلك حدث خطأ ، وأن القافلة ضلت الطريق .

وادعى الإسرائيليون في رواية ثانية لهم للحادث أن جنودهم هوجموا «بالأسلحة والقنابل اليدوية» وأنهم ردوا على نيران «المخربين» . ولكنهم لم يوردوا أي ذكر لوقائع عاشوراء . كما ادعوا أنهم اتصلوا بالمستشفيات المحلية ووجدوا أنه لم تكن هناك إصابات . وكان إنكارهم لوقوع قتلى كذباً .

عندما وصلت إلى النبطية في صباح اليوم التالي ،كانت إحدى شاحنات الإسرائيليين التي احترقت لا تزال مكانها أمام أبواب المسجد . كانت عجلاتها رماداً ومحاورها قد ذابت . وقال الأطباء في مستشفى الحكمة أنهم سجلوا إدخال اثنين مصابين بجروح من جراء عيارات نارية ، وأن إصابة أحدهما كانت خطرة فأرسلوه إلى صيدا . وكان اسم هذا المصاب حسين ضياء . وبالفعل تمكنت من العثور عليه في أحد مستشفيات صيدا . وكان يرقد في قاعة في الطابق الثالث من المستشفى يحيط به أهله وذووه ، وفي ذراعه اليمنى أنبوب التغذية ، بينما خرج أنبوب من مكان إصابته بالطلق الناري في معدته .

وفي مستشفى الجنوب الواقع مقابل مسجد النبطية أخبرني الأطباء أنهم قاموا بمعالجة ثلاثة مصابين بينهم شابة أصيبت بجراح من جراء طلقات نارية . أما في مستشفى النجدة قد علمت أنهم قد

أرسلوا مصابين اثنين إلى صيدا ، اسم أحدهما حسين مخزوم وكان يشكو من تهشم شديد في وجهه . وأخبرني الأطباء أنه قد ضُرب بأعقاب البنادق . أما المصاب الآخر واسمه سهيل حمورة فقد توفي من جراء إصابته . وكان في التاسعة عشرة من عمره ودفن في مدفن قريته ميس الجبل غير بعيد عن بيته .

ذهبت إلى بيت آل حمورة . فدعيت إلى غرفة مظلمة بعض الشيء تعج بالأهل الذين أتوا لتعزية اهل الفقيد وهناك قابلت علي حمورة أخا الشهيد الذي كان يعمل طبيباً في النبطية . فوصف لي علي حادث استشهاد أخيه بدقة الطبيب وموضوعيته ، قال :

ـ جاء سهيل من بيروت ليمضي يوم الأحد معه في النبطية . لم يكن شديد التدين ولكنه رغب في حضور الاحتفال بعاشوراء . لذلك سار مع الجموع نحو الساحة التي يقام فيها . أما أنا فبقيت أعمل في المستشفى . وكنت منهمكاً في عملي عندما عاد . وقف في باب المستشفى وقال : لقد أصبت . ثم سقط على وجهه .

وبدا والد سهيل حمورة صابراً على مصابه . وكان يجلس في غرفة في الطابق العلوي من المنزل ويعتمر كوفية أنيقة ويداه فوق ركبتيه ، وعيناه تحدقان فيهما . أما أمه وأخواته الثلاث فقد كن ينتحبن بصوت عال في الطابق الأرضي من المنزل . وأخرج د . علي حمورة ألبوم صور العائلة وقلّب صفحاته ليريني صور سهيل . بدا سهيل شاباً نحيلاً بشارب صغير ورأيته في الصور وهو يسبح ويغطس في الماء خلال حفلة عيد ميلاد . وتنهد علي حمّورة وقال لي :

ـ أصابه الإسرائيليون في ظهره . ماذا يمكننا أن نفعل . لا يمكنني أن أتحدث عن هذه الأمور . إننا تحت نير الاحتلال . إلا أن شعورنا كله حقد على قوى الاحتلال .

وفي غضون أسبوع أخذت المقاومة تشن هجمات متتالية على الجيش الإسرائيلي . وأدان شيوخ الدين الشيعة جميع المتعاونين مع الإسرائيليين والمنضمين إلى ميليشياتهم واعتبروهم خونة . وبحلول السنة الجديدة كان بعض المتعاونين مع الإسرائيليين قد تركهم وانضم إلى أمل . أما البعض الآخر فقد تمت تصفيتهم . ففي ١٥ كانون الثاني/ يناير ١٩٨٤ تمت تصفية محمد عاطف فرحات قائد الميليشيا أمام منزله في كفررمان ، وهوجم الجنود الإسرائيليون بالقنابل اليدوية والألغام والصواريخ تسع مرات خلال أسبوع واحد . وأظهر عدد من المتفجرات تقدماً في معرفة رجال المقاومة بتقنيات التفجير .

فتمكنوا مثلاً من معرفة درجة حرارة انصهار المتفجرات . وكانوا يقومون باعداد القنابل في المغاسل . وقد تم العثور على ألغام شاتشي الإيطالية ذات الثلاث صواعق مزروعة على جوانب بعض الطرق .

اتهم الإسرائيليون الشيخ راغب حرب والشيخ عباس حرب من الحلّوسية بأنهما كانا يحضان الشباب على الانضمام إلى «المنظمات الإرهابية» . ولم تكن هناك قرابة بين الشيخين على الرغم من اشتراكهما بالاسم . إلا أن تصرف الجيش الإسرائيلي كان كفيلاً بتأمين تدفق المقاتلين على حركة المقاومة . ففي كانون الثاني/ يناير ١٩٨٤ استخدم الجنود الإسرائيليون جرافة لهدم منزل الشيخ عباس حرب . دخلت الجرافة الطريق الضيق المحاذي للمسجد ونفذت إلى صالون المنزل فهبط باقي السقف على ألعاب الأطفال . وعندما زرت الحلوسية كانت آثار جنازير الجرافة لا تزال ظاهرة في صالون منزل الشيخ . وكان أهل القرية قد جمعوا ما تبقى من أثاث المنزل وأدواته في كومة وسط الركام . ثم قاموا بتغطية كل ذلك بعلم إسلامي كبير عليه آيات قرآنية تتوعد إسرائيل .

ادعى الإسرائيليون أنهم اعتقلوا الشيخ الشاب ودمروا منزله «للاشتباه بقيامه بنشاط إرهابي» . الإرهاب ثانية . لقد فشلوا في القضاء على منظمة التحرير ، وها هم الآن يتبعون أوهامهم إلى القرى الشيعية في هضاب الجنوب . وبالرغم من أن شيعة الجنوب لم يكونوا يسعون إلى تدمير إسرائيل ولا إلى مهاجمة الجليل وإنما إلى إخراج الإسرائيليين من لبنان ، فقد اعتبرتهم إسرائيل «إرهابيين» .

عندما اعتقل الشيخ عباس حرب ،حل محله الشيخ عادل مؤنس في إمامة المسجد وبالتالي طبعاً في التوجيه السياسي للضيعة . وكان الشيخ عادل مؤنس مثال الإمام الشاب بسحنته الصارمة ولحيته الأنيقة قال :

ـ دخل الإسرائيليون الضيعة بقوة كبيرة وألقوا القبض على الشيخ عباس حرب ثم أخذوه بطائرة هليكوبتر . وعندما عادوا به إلى الضيعة يوم الأحد كانت نظراته تبدو غير طبيعية . ولم يكن يعتمر عمامته وكانت يداه منتفختين . كان الإسرائيليون يحملونه من تحت إبطيه . . . طلبوا من عباس حرب أن يسمي خمسة أشخاص ويستدعيهم كي يتمكن الإسرائيليون من اعتقالهم . ولما تم ذلك أخذوه هو والأشخاص الخمسة في طائرات هليكوبتر وانصرفوا .

أما الشيخ راغب حرب فقد أطلق الإسرائيليون سراحه . وكانوا قد اعتقلوه في حزيران/ يونيو ١٩٨٣ . وسرت إشاعات وهو معتقل مفادها أن الإسرائيليين مصممون على اغتياله . وكان الشيخ راغب حرب قد زار إيران وقام بمقابلة مسؤولين في حزب الله ببيروت . وفي أواخر شباط/ فبراير ١٩٨٤ تم اغتياله وهو في حديقة منزله في جبشيت . أطلق الجناة عليه ثلاث رصاصات من خلف جدار منزله . فحمل شباب الضيعة جسمه مضرجاً بالدماء وساروا به في شوارع الضيعة . ولكن عندما حاولوا أن يتابعوا مسيرتهم إلى القرى المجاورة ، تصدى لهم أفراد «الحرس المحلي» الإسرائيلي وهاجموهم وجرحوا أربعة منهم .

وتزايد نصب الكمائن للإسرائيليين . وبحلول شباط/ فبراير ١٩٨٤ ارتفع عددها إلى خمسة عشر كميناً في الأسبوع . وبدأ الإسرائيليون يطلقون النار على المساجين في سجن أنصار بحجة «أنهم كانوا يحاولون الفرار من السجن» . وكان المخاتير يقاومون الاحتلال الإسرائيلي . لكن الأئمة الذين أخذوا يقودون المقاومة ضد الاحتلال فقد كانوا على اتصال بإيران . ولكنهم كانوا يصرون دوماً على أنهم لم يتلقوا تعليماتهم من نظام الخميني .

وفي قرية عدلون الواقعة جنوبي صيدا كان الشيخ علي مهدي إبراهيم البالغ من العمر ٦٤ عاماً يعرف الخميني معرفة وثيقة . إذ كان قد درس في مدينة النجف التي أقام فيها الخميني منذ ١٥ سنة وهو منفي . قال :

ـ نحن لا نتلقى تعاليمنا من أي إنسان . نحن نصل إلى تعاليمنا عبر نضالنا . وإيران هي التي تتعلم منا .

وكان حول الشيخ شبان يتلقون تعاليمهم منه وكلهم إعجاب به . ورأيتهم في بيته يتلقفون كل كلمة من كلماته وهم يهزون رؤوسهم علامة على الموافقة . وقدم لي بعض هؤلاء الشبان أنفسهم على أنهم من أعضاء حزب الله . وفي الخارج ظهرت فجأة طائرتان نفاثتان إسرائيليتان تمران على علو منخفض . فما كان من أحد الشبان إلاّ أن أمسك بذراعي وأشار إلى الطائرتين قائلاً :

ـ لا قوة لهما .

كان تدهور القوة الاسرائيلية يزداد وضوحاً يوماً بعد يوم . ففي كانون الثاني/ يناير ١٩٨٤ مات سعد حداد بالسرطان . وقد كان أخلص عملاء إسرائيل في جنوب لبنان . وعُيّن مكانه فريق متقاعد من الجيش اللبناني يغلب عليه التجهم والجمود وهو أنطوان لحد الذي تعرّض لمحاولات اغتيال عدة[١٦] . وترك العشرات من الشيعة «جيش لبنان الجنوبي» وانضموا بأسلحتهم إلى صفوف المقاومة . وحتى خارج مركز القيادة الإسرائيلي في كفرفالوس ، رأيت مسيحيين من هذا الجيش

(١٦) في عام ١٩٨٨ أصيب لحد بجروح بليغة عندما قرعت فتاة باب بيته وأطلقت عليه النار من مسدس كانت تحمله . ولد لحد في قرية كفر قطرا وكان متزوجاً وله ولد يبلغ الخامسة من العمر . أجريت معه مقابلة في بلدة مرجعيون في ١٩ نيسان/ أبريل ١٩٨٤ وكان قد ضاق بتحكم الإسرائيليين به . قال : «إذا كان الاسرائيليون يريدون الأمن على حدودهم الشمالية وإذا كان باستطاعتنا أن نؤمن ذلك لهم فلماذا لا ينسحبون؟» إلاّ أن الحقيقة أن جيش لحد لم يستطع أبداً أن يصمد أمام رجال المقاومة . ولهذا فلا تزال إسرائيل وحتى هذا العام ـ ١٩٨٩ ـ تحتل أقصى الجنوب اللبناني وتبقي فيه مئات من جنودها .

يصفون الإسرائيليين بأنهم «قوادون يستخدموننا في القيام بالأعمال اليومية» . وتبيّن لنا خلال جولاتنا في لبنان ذلك الربيع أن إرادة إسرائيل السياسية والعسكرية قد وهنت . فجميع من قابلناهم من الجنود الإسرائيليين كان يبدو عليهم الاكتئاب واليأس .

وهذا ما لمسناه على حاجز إسرائيلي خارج مدينة مرجعيون . كانت الساعة الحادية عشرة ليلاً والجو قارس . وكان أحد الجنود يتدثر بمعطف ضخم يغطيه من رأسه إلى أخمص قدميه وبندقيته تحت إبطه . قال :

ـ لا أريد أن أكون هنا في هذا البلد وتحت هذه النجوم في الهواء الطلق . أريد أن أكون في بيتي وفي بلدي مع عائلتي . ان الأمور لم تسر كما يجب . قُتل بشير ، وقويت سوريا ،وصار جنبلاط سيد الموقف . من الذي يهاجمنا؟ لا أدري : لا يبدو أنهم منظمون . بعضهم يفعل ذلك من أجل المال . إنهم يضعون ألغامهم على جانب الطريق ثم يختبئون في الحقول ويفجرونها . وأخذ جندي آخر ينظر داخل سيارتنا ويحيينا واسمه أشعيا . قال :

ـ إنها كارثة ، أعتقد أن شارون مجنون .

كان التلفزيون الإسرائيلي قد سجل أغنية للجنود الإسرائيليين أخذوها من أغاني رياض الأطفال في إسرائيل . وعندما سألنا جنود الحاجز عنها ، قالوا إنهم يعرفونها وغنوها لنا . وهذه هي كلماتها :

يا طائرة اهبطي إلينا

طيري بنا إلى لبنان

نقاتل من أجل شارون

ونعود بالأكفان .

في هذه الأثناء كان شبح الموت يخيّم أيضاً على بساتين البرتقال . وبدا ذلك واضحاً عندما ألقيت نظرة على الأشجار التي فقدت ذلك الوهج الذهبي تحت أشعة الشمس . كان لون البرتقال قد أصبح كلون الرماد . وكان الإسرائيليون قد دمروا الأسوار لأن رجال المقاومة كانوا يطلقون النار عليهم من ورائها ، وحولوا دبابة ميركافا إلى جرافة لهذا الغرض ، ووضعوها على الطريق العام جنوب صيدا .

وفي كل مكان آخر كان الإسرائيليون يبنون الأسوار المحصنة والمخابىء ويحفرون الخنادق حول قواعدهم العسكرية . وكانت متاريسهم من الإسمنت المسلح وطولها ستون متراً وارتفاعها عشرة وعرضها ستة . وصاروا يتنقلون في الباصات بحراسة الدبابات وبنادقهم ناتئة من نوافذها . وهكذا

بدت قوافلهم وكأنها قنافد . وعادت طائراتهم إلى قصف بلدة الدامور جنوبي بيروت . وعاد الحديث عن الغارات على قواعد «الإرهابيين» . كانوا يقومون بهذه الأعمال قبل غزو لبنان ، والآن وبعد الغزو بسنتين ، وبعد تقهقرهم الجزئي ، عادوا إلى شن الغارات . فلماذا إذاً غزوا لبنان؟ لقد أصابهم جنون التكرار كما أصاب جميع أصحاب الأطماع في لبنان من قبلهم .

وفي تلك الأثناء كان أعداؤهم يضعون اللمسات الأخيرة على سلاح جديد . فلم تكد الساعة تتجاوز الثالثة والنصف من عصر ١٢ نيسان/ أبريل ١٩٨٣ حتى كان طالب مدرسة لم يبلغ العشرين من عمره اسمه علي صفي الدين يجلس في سيارة فيات خضراء على الجسر الصغير الواقع إلى الغرب قليلاً من قرية قانون النهر . ورآه عدد من الأشخاص . ولاحظ أحدهم أنه يبدو مشتت الذهن وسأله إذا كان يشكو من شيء فأجابه بقوله :

ـ بلغ تحياتي لأسرتي .

ومرت طالبة من القرية في الخامسة عشرة من عمرها اسمها دولت هرمناني بصفي الدين وهي عائدة من بيت أقارب لها إلى بيتها . وجدته غارقاً في التفكير . وعندما عادت بذاكرتها فيما بعد إلى ذلك لم تستبعد أنه كان يبكي .

وما هي إلا ثوان حتى تقدمت ناقلتا جنود مصفحتان إسرائيليتان باتجاه الضيعة . فأدار علي محرك سيارته . ولم تر ما حدث بعد ذلك ، ولكنها سمعت دوي الانفجار الذي طرحها أرضاً . فارتطمت بالحجارة وسال دمها . إذ كان علي قد اندفع بسيارته بين الناقلتين وفجّر قنبلة هائلة كانت في داخلها . فمزقت القنبلة جسده . وكان على أهل الضيعة لملمة ما تبقى من جسده في مكان الانفجار . فتحولت إحدى الناقلتين إلى جحيم أججه تفجر ذخيرتها .

كانت هذه هي المرة الأولى التي عُرفت فيها هوية من يقوم بعملية انتحارية . ولكن هل كان علي صفي الدين ينتمي إلى «عصابة إرهابية متطرفة» كما ادعى الإسرائيليون؟ لقد بقينا أياماً نتحرى عن ذلك . كانت قصته مريعة بقدر ما كان فيها من عِبرة لمن يريد أن يعتبر . فقد كان الإسرائيليون قد اعتقلوا شقيق علي عام ١٩٨٣ ، واحتجزوه في مركز الاستجواب الإسرائيلي القائم إلى الجنوب بالقرب من مدينة صور . وكان أخوه لا يزال محتجزاً هناك عندما فجّر أحد أفراد المقاومة الشيعية ذلك المركز بشاحنة محملة بالمتفجرات . ومات أخوه مع من مات من السجناء وأيديهم لا تزال مكبلة بالقيود . أما علي فقد اعتبر الإسرائيليين مسؤولين عن مصرع أخيه ولم يحمّل المقاومة مسؤولية ذلك إطلاقاً . وثأر لأخيه بعملية جسر دير قانون .

أخذت رحلاتي إلى الجنوب تواجه صعوبات متزايدة . فقد بدأ الإسرائيليون يرفضون إدخال الصحافيين ويجبرونهم على العودة إلى بيروت . وكانت هناك نقطتان لدخول الجنوب . إحداها جسر الأولي شمالي صيدا ، والأخرى عبر جسر باتر في أعالي المنطقة الجبلية . وعلى هاتين النقطتين كان يصطف آلاف اللبنانيين للعبور . وعلى مدى أيام كانوا ينتظرون ويتوسلون ويحتجون ويدفعون الرشوات في سبيل أن يسمح لهم بعبور النهر . كان هذا هو الوضع في الاتجاهين : نحو الجنوب ومنه . فقد فرض خط الدفاع الإسرائيلي تقسيماً فعلياً للبنان .على أن هذه الجموع الفقيرة من أهل الجنوب التي كانت تصر على التنقل بين شطري لبنان ـ المحتل والمحرر ـ متحدية كل الصعاب ومتحملة بكل صبر أيام الانتظار الطويلة إنما كانت تعبّر بذلك عن رفضها لهذا التقسيم .

وعدنا إلى جبشيت التي أصبحت مركز المقاومة للحكم الإسرائيلي . ولم نعد نحصي عدد زياراتنا لهذه القرية والطرقات بين مزارع الزيتون والتبغ . وهكذا كان لا بد أن تزورها ميليشيا سعد حداد التي كوّنتها إسرائيل . وتركت عناصر هذه الميليشيا ضحايا الزيارة ترقد في برك من الدماء على الطريق خلفها . وكان بين القتلى نساء وأطفال . وهذه هي المرة الأولى التي تحدث فيها مجزرة بهذا الحجم في الجنوب . وزعمت الميليشيا أن أفرادها كانوا يتصيدون «المخربين» . أما أهل الضيعة فقد عبّروا عن حقدهم بقسوة لا ترحم ولا تغفر .

كانت خديجة عباس عطوي بين الضحايا . لقد نزفت حتى الموت ، ودفنت في مقبرة الضيعة المعشوشبة قريباً من المكان الذي استشهدت فيه . وكتبوا على قبرها ما يلي :

ـ هذا قبر المناضلة الطاهرة الشهيدة خديجة عباس عطوي التي سقطت وهي تجابه العدو الصهيوني لدى غزوه القرية . توفيت يوم ٢٤ آذار/ مارس ١٩٨٤ .

زرنا بيت خديجة . فأرتنا أمها صورتها . كانت فتاة في الثامنة عشرة من عمرها طويلة القامة قوية البنية تنظر بحياء نحو الكاميرا . أما والدها فقد حطمه مصابه . وكان يبكي وينتحب وأنا أجلس بجانبه . وعندما حاولت أن أواسيه كان جوابه :

ـ كيف تريدني أن أشعر عندما أدخل بيتي فأجد ثلاثة من أولادي وقد أصيبوا بالرصاص وواحدة من بناتي قد قتلت؟ لقد طار صوابي .

كان هناك في جبشيت آباء وأمهات غير آل عطوي ممن فقدوا مثلهم أبناءهم وبناتهم . ولكن كان هناك أيضاً من أهل الضيعة من ملأت المجزرة قلوبهم بالحقد والعداء لمسببيها . فقد تحولت جبشيت

إلى مأساة مصغرة للبنان ولما عاناه منذ بدء الاحتلال . ذهبت إلى المسجد لمقابلة الإمام الجديد الشيخ عبد الكريم عبيد(١٧) الذي حل محل الشيخ راغب حرب بعد أن اغتيل .

ووجدت حوله حلقة أخرى من الشبان المتقشفين . وكان يتحدث إليهم عن مجلس الأمن وعن الإسرائيليين الذين ينتظر من الجميع أن يكرهوهم . وسمعت الشيخ يقول : «كل مسلم يترك دينه يكون نصيبه الموت» . ووافقه جميع من حوله . وبين فقر جبشيت وصخورها وبعد فشل الحلول السياسية ، عمل الدين على تصلب الشباب واندفاعهم إلى التطرف . وكانت الحكمة تقضي بابتعاد الإسرائيليين عن جبشيت .

اتفق الجميع ، بمن فيهم الإسرائيليون ، على أن أول من اقتحم الضيعة هم رجال سعد حداد . وكان أول من أصيب هو حسن فحص الذي جرح ذراعه برصاص مسلحي حداد وهو يجلس داخل منزله . وسمع محمد عطوي وشقيقتاه خديجة وفاطمة إطلاق النار وهم في منزلهم الواقع على شارع فرعي في الجهة المقابلة للحسينية . وكان الفجر قد بدأ ينبلج . خرجوا إلى الشارع لرجم الجنود الإسرائيليين بالحجارة . وقال لنا محمد عطوي إن الجنود الذين شاهدهم كانوا إسرائيليين وأضاف :

ـ عندما خرجت بدأوا جميعاً بإطلاق النار في وقت واحد . وأصيبت خديجة أمامي وعندما انحنيت لأرفعها ، أصبت أنا أيضاً . ولم أعرف من أين أتتني الرصاصة . وبعدها أصابوا فاطمة في بطنها وخرجت رصاصة من ظهرها .

وحاول طبيب عسكري إسرائيلي مساعدتها . ولكن حسب ما أخبرنا به شقيقها فإنها صرخت في وجهه : «تطلقون النار ثم تأتون لمعالجتنا؟» وكان هناك خارج الضيعة حاجز مشترك للإسرائيليين وميليشيا سعد حداد . وقال لنا محمد عطوي :

ـ لم يسمحوا بنقل المصابين إلى خارج القرية . أبقونا ممددين على الأرض لمدة أربع ساعات . وبقيت خديجة تنزف أمام الحاجز حتى الساعة الثالثة من بعد الظهر . ثم توفيت .

كانت هناء عبيد في السادسة عشرة من عمرها ذات ملامح دقيقة لطيفة . وعندما وقع الحادث كانت في فراشها بلباس النوم ومنديلها . قالت وملامحها تعبّر عما تقول :

(١٧) خطفت القوات الإسرائيلية عبد الكريم عبيد في تموز/ يوليو ١٩٨٩ . وأدى خطفه إلى قتل الرهينة الأميركية الكولونيل وليم هيجنز والتهديد بقتل أسير آخر .

ـ عندما اقتحم الإسرائيليون القرية ذهبت إلى المسجد . وفي الطريق قمت بالتقاط بعض الحجارة لكي أرميهم بها . وحينما بدأت أرميهم بالحجارة أطلق أحد الجنود النار بين رجلي . فركضت باتجاه ساحة القرية . وهناك واجهت عربة إسرائيلية ، وبدأت أرمي الجنود الإسرائيليين الذين كانوا بداخلها بالحجارة . وحضر رجال ميليشيا سعد حداد ، فقمت عندئذ بالهرب . . . ولكن فيما كنت أركض وظهري إلى ميليشيا حداد قام أحدهم بإطلاق النار على رقبتي .

وعندما سألناها لماذا قذفت الإسرائيليين بالحجارة قالت :

ـ لأن الجنود جاءوا لاعتقال رجالنا . جاءوا لمحاربة الإسلام . لقد تعلمنا في المدرسة وفي المسجد أنه يتوجب علينا محاربة الإسرائيليين . كتبنا المدرسية تعلمنا أن إسرائيل هي عدوتنا وأن واجبنا هو مجابهتها . وهنا قاطعتها أمها التي قذفت الإسرائيليين أيضاً بالحجارة وقالت :

ـ ايماننا هو سلاحنا . إذا كان على بناتي أن يمتن في سبيل الإسلام فليكن .

واستشهد آخرون غيرهم في ذلك اليوم بينهم أم لعشرة أطفال اسمها صبحية علي أختر خرجت من بيتها تحمل بصلاً في حجرها . إذ تعلّم أهل الجنوب أنه إذا وضع عصير البصل حول العيون فإنه يخفف من تأثير الغاز المسيل للدموع . أصيبت صبحية في قلبها . ويبدو أن أحد أفراد ميليشيا حداد قد ظن أنها تحمل قنبلة . كما استشهد الحاج حسن حرب وهو عم الشهيد راغب حرب . وهرب من القرية في ذلك الصباح اثنا عشر شاباً ينتمون إلى المقاومة .

وفي قرية معركة اعتقل الإسرائيليون مئة شاب . فرفع الأهالي علماً أخضر فوق ساحة الضيعة كتبوا عليه :

ـ إن الاعتقال والتعذيب لا يزيداننا إلا إصراراً . ثم أطلق الإسرائيليون ٤٠ من معتقلي أنصار «بمناسبة عيد الفطر السعيد» على حد قول الحاكم العسكري الإسرائيلي في النبطية . لقد كان هناك نوع من الانحراف في هذا التصرف الإسرائيلي : القهر والاعتدال وكأن نضال الشعوب مهزلة .

ثم بدأ الإسرائيليون حرباً جديدة أكثر ترويعاً . فقد توافد العشرات من عملاء مخابرات الشين بت الإسرائيلية على الجنوب اللبناني . كانوا يظهرون بطاقات مرور إسرائيلية على نقاط تفتيش قوات الأمم المتحدة ، ثم يدخلون بسياراتهم إلى القرى والضيع اللبنانية ،ويقومون برمي الشباب بالرصاص ودوماً بحجة «الدفاع عن النفس» . وكان الأهالي على يقين أن هؤلاء من فريق الاغتيال . فبطاقات الهوية التي كانوا يحملونها كانت كلها موقعة من قبل ضابط إسرائيلي واحد . أما قائد عمليات الشين

بت فكان مقره في مبنى رئاسة المخابرات الإسرائيلية في صور . أما أعضاء الفرقة هذه فقد كانوا يستعملون سيارات لا تحمل رخصاً أبداً ، ولكنها كلها كانت معروفة لدى أهل الجنوب .

وفي وقت مبكر من عصر يوم ١٤ حزيران/ يونيو ١٩٨٤ وصلت ثلاث سيارات مليئة برجال أمن المخابرات الإسرائيلية (شين بت) بثيابهم المدنية إلى نقطة تفتيش قوات الأمم المتحدة خارج قرية بدياس . وكانت هذه هي قرية داود داود أحد قادة حركة أمل البارزين . كان هناك خمسة عشر عنصراً في السيارات الثلاث . وقاموا جميعاً بتقديم هوياتهم لجنود الأمم المتحدة للتدقيق فيها . وكانت كلها تحمل هذا العنوان : «قوة الدفاع الإسرائيلية : شيروت بيتاخون (شين بت)» . وكل واحدة منها كانت تحمل توقيع الكولونيل شنايدر . وحسب رواية أهل القرية توقفت أولى السيارات وهي مرسيدس بيضاء أمام محطة بنزين يمتلكها مرشد نحّاس أحد مسؤولي أمل . وكان يجلس على الكرسي الخلفي رجل أشقر الشعر ، أزرق العينين . وبدأ هذا ينادي مرشداً باسمه .

أما السيارتان الأخريان فقد بدأتا تدوران بسرعة حول الساحة . ويبدو أن الهدف من ذلك كان الحؤول دون اقتراب أهالي القرية . ثم رابط ثمانية من الإسرائيليين مسلحون ببنادق إم ـ ١٦ في مداخل الأبنية حول الساحة . وحسب ما أخبرتنا أم مرشد واسمها فوزية فإنها حينما وصلت الساحة رأت ابنها وهم يجرونه إلى داخل السيارة ورجلاه ما زالتا تتدليان من بابها . ولكنها لم تستطع الوصول إليه لأن أحد المسلحين أوقفها بعيداً . على أن إحدى بنات الضيعة واسمها لطيفة غملوش قالت لنا بأنها سمعت أحد المسلحين يقول لمرشد نحّاس : «إختر الميتة التي تريدها» .

بعد ذلك سمحوا له بالخروج من السيارة ، فبدأ السير مبتعداً عنها . وفي هذا الوقت كان العديد من عائلة نحاس قد حضروا إلى الساحة . وأخبرونا بأن مرشداً لم يكد يبتعد بضعة أمتار حتى بدأ أربعة مسلحين يلبسون قمصان «تي ـ شيرت» بيضاء وصفراء يركضون خلفه . ثم أخذوا يطلقون النار عليه مستهدفين رأسه . ثم ألقوا شيئاً على الأرض . أراني إياه داود داود فيما بعد . ولم يكن هذا الشيء سوى قناع . وحسب ما أخبرني داود داود فإن مرشد نحاس كان قد رفض أن ينضم إلى ميليشيا القرى التي كوّنتها إسرائيل . فقتلوه تحذيراً للآخرين . إلا أن الإسرائيليين أعلنوا أن مرشد نحاس قتل «وهو يحاول مقاومة القبض عليه» .

واقتحم رجال شين بت قرى شيعية أخرى . كما أنهم دخلوا بيوت قادة للمقاومة معروفين ، وحذروهم من مغبة استمرارهم في مقاومة الاحتلال . على أن هوية العملاء الإسرائيليين كانت معروفة لدى القرويين المسلمين . وكان الإسرائيليون يحبون استخدام أسماء عربية رمزية على غرار ما كان

يفعله رجال المقاومة اللبنانية والمقاومة الفلسطينية من قبلهم . ففي النبطية أطلق الضابط المسؤول عن شين بت على نفسه «أبو يوسف» وأطلق نائبه على نفسه اسم «أبو جورج» . وفي كفارفالوس كان رئيس المخابرات الإسرائيلية يلقب نفسه «الميجر سامي» . أما قائد مجموعة شين بت التي اغتالت مرشد نحاس في بدياس فقد كان «أبو غرزة» . ووضعت المقاومة «أبو يوسف» على قائمة المحكوم عليهم بالإعدام لاعتقادها بأنه دفع ٣٠٠٠ دولار مقابل اغتيال الشيخ راغب حرب . وفي بيروت قامت حركة أمل بتنفيذ حكم الإعدام في أحد عناصرها لاعتقادها بأنه هو الذي قام بعملية الاغتيال هذه بالاتفاق مع «أبو يوسف» .

وكان للقمع الإسرائيلي في جنوب لبنان آثاره في بيروت الغربية إذ بدأت الملصقات تشيد ببطولات أهل الجنوب . وعهدت أمل إلى أحد الرسامين بمهمة إعداد رسومات تمجد الكفاح ضد الإسرائيليين . وظهرت رسومات أخرى تتجاوز النواحي الفنية لإدانة الإسرائيليين والحط من شأنهم . فظهرت صور لنجمة داود داخل الصليب المعقوف النازي ، وأخرى لجنود إسرائيليين ذوي أنوف معقوفة يركلون النساء ، وغيرها لقوات إسرائيلية وأميركية تنهب قرية شيعية . وظلت بيروت تحت سيطرة الميليشيات الإسلامية واللواء السادس من الجيش اللبناني وغالبيته من الشيعة . و كان قد أصبح أداة طيّعة في يد قيادة أمل .

وكان لا بد لهذه الحالة النفسية الجديدة لبيروت الغربية أن تنعكس على عنفها . ففي تموز/ يوليو ١٩٨٤ قُتل أحد المواطنين اليهود الذين ظلوا في لبنان واسمه راوول صبحي مزراحي . وكان يمتلك دكاناً للأدوات الكهربائية في حي الصنائع . وكان هذا رجلاً مسالماً يبلغ الرابعة والخمسين من العمر . وكانت عائلته واحدة من العائلات الخمس الباقية في بيروت الغربية . دخل ثلاثة مسلحين إلى بيته وكبلوا يديه واقتادوه معهم . ولم يعرف أحد هويتهم . ووجدت جثته فيما بعد ملقاة على شاطئ البحر بالقرب من مطار بيروت . ووضعت في برّاد مستشفى المقاصد الاسلامية إلى أن تعرف عليها أخوه وزوجته . أما جرائد بيروت فلم تكن أكثر اكتراثاً بجثته . وحشرت أخبار الجريمة في صفحاتها الداخلية . ولم يزد أطول خبر منها عن فقرتين .

وأخذ الوضع يبدو قاتماً أيضاً للغربيين الذين ظلوا في بيروت . ففي كانون الثاني/ يناير عام ١٩٨٤ خُطف الأستاذ الجامعي الأميركي فرانك رجير ، والمهندس الفرنسي كريستيان جوبير . وبعد شهرين تمكن مسلحو أمل من إطلاق سراحهما من سجون حركة الجهاد الإسلامي . ولكن ماذا كانت تريد هذه الحركة؟ ألم تغادر القوة المتعددة الجنسيات بيروت؟ ألم تأخذ إسرائيل بالانسحاب من لبنان؟ ففي ٧ آذار/ مارس اختُطف جرمي لفين رئيس مكتب شبكة التلفزيون الأميركية (سي .أن .أن)

في بيروت . واتصلنا بزوجته نستفسر عما حدث ، فكان جوابها : «لقد غادر البيت في وقته المعتاد ذاهباً إلى مكتبه . إلا أنه لم يصل مطلقاً إلى المكتب» . وبعد ذلك بأسبوع تم اختطاف وليم بكلي فيما كان يغادر منزله في حي الروشة في بيروت الغربية . وكان يعمل في السفارة الأميركية كملحق سياسي حسب ما أوردته الأخبار الرسمية . إلا أنه بعد ذلك بوقت متأخر ، والواقع بوقت متأخر جداً ، اعترفت الحكومة الأميركية بأنه كان رئيس مركز دائرة الاستخبارات الأميركية (سي .آي . إي) في بيروت . على أنه كان عندئذ قد أصبح في عداد الأموات .

غادر آخر المارينز بيروت في ١٣ تموز/ يوليو ١٩٨٤ . وكان قد بقي مئة منهم في بيروت لحماية السفارتين الأميركية والبريطانية الواقعتين بالقرب من البيت الذي نسكن فيه . وللمرة الأخيرة والأخيرة فقط ، أمكننا رؤية السفن الحربية الأميركية في الأفق قبالة بيروت . كانت هناك حاملة طائرات هليكوبتر ومدمرة تلوحان كشبحي سفينتين رماديتين في عرض البحر تنتظران لإجلاء آخر العسكريين الأميركيين من بيروت . وجلست مع أندرسون ومل وفارامارزي على سطح المبنى الذي أسكن فيه مع أندرسون نرقب الطائرات وهي تخترق الأجواء نحو الكورنيش . وكان أندرسون ومل مسرورين لرؤية الأميركيين يغادرون بيروت . لقد تعبنا جميعاً من رؤية مصفحاتهم تقف قبالة أبواب مساكننا . وكان قد طفح الكيل من الإزعاج الذي كنا نتعرض له في جميع ساعات النهار والليل بسبب الأوامر العسكرية التي كانت تصدر للجنود ، ناهيك عن الجرذان ذات الذيول الطويلة التي تضاعفت أعدادها على أكوام القمامة التي كان يلقيها المارينز في الشوارع .

إلاّ أننا كنا جميعاً ندرك المغزى الحقيقي لهذا الرحيل . لم نشعر عندئذ بأنه قد تم التخليّ عنا .إذ كنا نعتبر لبنان بيتنا . وكان جميع أصدقائنا لبنانيين . والواقع أنني شعرت بارتياح بعد أن أخذ الأميركيون معهم بطاريات صواريخ هوك التي كانوا قد نصبوها على سطح البناء المجاور لمسكني . ولكننا كنا نعلم أن الرحيل المتواضع الرمزي للأميركيين سيترك خلفه فراغاً أكبر بكثير من حجمه . لم نكن قد بدأنا نقلق من جراء عمليات الخطف . صحيح أن أربعة غربيين خطفوا ، ولكن تم إطلاق سراح اثنين منهم . ولم يكن هناك أي سبب محدد يدعونا إلى الاعتقاد بأن هناك حملة موجهة ضد الأجانب . وهكذا قرر أندرسون أن يبقى ثلاث سنوات إضافية في لبنان . ومع هذا فقد كان هناك أمر غير مريح حول ذلك اليوم . وهذا الأمر ترك في نفوسنا شعوراً بعدم الإطمئنان ، وكأن الطبيعة أرادت أن تحذرنا من أمر ما .

ففي شهر تموز/ يوليو الذي لا يعرف المطر في لبنان انهمرت الأمطار بقوة وغزارة على المجموعة الأولى من الطائرات التي وصلت إلى الكورنيش . وكانت مراوحها تصارع رذاذ الماء

المتطاير بكبرياء من حولها . واحتشدت السحب القاتمة في السماء . ولم يكن في هذا كله ما ينذر بسوء ، ولكنه أوحى إلينا بشيء لا يمكن التعبير عنه . فكان حالنا كحال مدام رانفسكي وضيوفها في «بستان الكرز» عندما سمعوا وهم في إيران صوتاً متقطعاً يأتي من بعيد كما لو كان قد انقطع حبل مصعد في أحد المناجم . وكان نذيراً بالزوبعة القادمة .

قبل أن يغادر آخر المارينز بيروت بثلاث دقائق أخذ أندرسون آلة التصوير وتسلل إلى حيث كان يتجمع المارينز . وهناك وجد قائدهم وهو برتبة لفتنانت كولونيل يشرب نخب نجاته من بيروت . وما أن رأى أندرسون يهم بالتقاط صورة له وهو بذلك الوضع حتى هدده بسحق آلة التصوير إن هو أقدم على ذلك . وغادر المارينز بيروت على دفعات . وكانت آخر دفعة تتألف من ستة منهم كانوا يتمركزون في مكانين محصنين يقعان على نهايتي الشارع وفي كل منهما ثلاثة منهم . وأخذ هؤلاء ثلاثة بعد ثلاثة يسيرون القهقرى إلى الوراء وبنادقهم جاهزة في أيديهم . وما زالوا هكذا كل فئة تتجه نحو الأخرى إلى أن وصلوا إلى الهليكوبتر ، واستقلوها ،وارتفعت بهم مسرعة نحو السفن التي كانت تنتظر في الأفق . إلا أن مروحتها أثارت عاصفة من الحجارة ضربت أندرسون في رجله وجرحت كاحله . ولما عاد إلى حيث كنا نجلس كشف عن ساقه وأشار إلى جرحه ضاحكاً وهو يقول : «هذا أول جرح أصاب به في هذه الحرب» .

كانت الصعوبات التي تواجهنا عندئذ من الإسرائيليين . فعلى جسر الأولي شمالي صيدا كان قائد الفصيل الإسرائيلي ضابط يقال له اللفتنانت ألبرت . وقام هذا الضابط يشتم فريق شبكة سي . بي . اس . الأميركية ، ورفض السماح لهم بالعبور إلى الجنوب . وحينما حاولوا الاحتجاج ، بدأ أحد الجنود بإطلاق النار حول سيارتهم . ويبدو أن اللفتنانت ألبرت هذا كان في الأصل يهودياً لبنانياً ومن مدينة صيدا نفسها . وكان الضباط الإسرائيليون يصرون على حصولنا على تصاريح إسرائيلية لزيارة الجنوب . كما أنهم كانوا يصرون على الاطلاع على تقاريرنا الصحفية وعلى قراءتها . وكنا دوماً نرفض الأمرين . وكنت أنا أقبل أن أحمل تصريحاً بهدف التعريف بهويتي ولكن ليس كأذن يسمح لي بالتجول . ولهذا اتصلت تلفونياً برئيس تحرير جريدتي (التايمز) وهو تشارلز دوغلاس ـ هيوم .

كانت إجابة هيوم صريحة وواضحة . قال :

ـ في جنوب لبنان . ليس هناك ما يمنع أن نقبل تصريحاً من الهيئات العسكرية الإسرائيلية في الجنوب . ولكننا لا يمكن أن نقبل هذا على أنه إذن بالسماح بالتنقل . أنت مواطن بريطاني ، وجريدة التايمز موجودة في لبنان بصورة شرعية وتغطي الجنوب من بيروت . لن نقبل مطلقاً أن ترفض إسرائيل

السماح لممثل جريدة التايمز بالتنقل في جنوب لبنان لأنه لا يحمل تصريحاً إسرائيلياً . يمكنك أن تعبر نهر الأولي إلى حيث شئت . تجنب أن تستثير أحداً بتصرفاتك . ولكن يجب أن ترفض بصورة مطلقة تقديم تقاريرك للقوات الإسرائيلية . . .

عبرت نهر الأولي مرات لا تُحصى بالاتجاهين . وعبرته أحياناً في سيارات خصوصية ، وعبرته مرة مشياً على الأقدام . ودعوت نائب تحرير التايمز تشارلز ولسون لزيارة لبنان . وأخذته إلى الجنوب بصحبة لابل وفارامارزي . تجولنا معه في الجنوب كله . ثم رغب بالتحدث مع الجنود الإسرائيليين خارج صيدا للوقوف على وجهة نظرهم ، ولكن لم نكد نصل إلى هناك حتى تم اعتقالنا بأمر من ملازم إسرائيلي كان يعتمر القلنسوة الضيقة قال :

ـ ينبغي أن لا تكونوا هنا . إننا نأمركم بالعودة إلى بيروت في الحال . هذه أوامر عسكرية . سأعيدكم إلى بيروت .

وعندما أوضحت له أن بيننا مسؤولاً كبيراً في التايمز هز كتفيه .

ثم التفت هذا اللفتنانت ـ الذي اعتقد أنه «اللفتنانت ألبرت» الذي شتم الصحفيين على جسر الأولي ـ إلى أربعة من ميليشيا لحد قائلاً : «اطردوا هؤلاء الخنازير من هنا» . وهنا قلت له : «وداعاً يا لفتنانت ألبرت» . ولكنه احتج بأنه ليس اللفتنانت ألبرت . ثم سلّم مسلحي لحد أوراق طردنا . وعندما وصلنا إلى جسر باتر قال لنا أحد المسلحين : «إذهبوا ولا تعودوا» . ثم ألقى بأوراق الطرد الإسرائيلية في سلة للمهملات كانت على الجسر . وعندما ذهبوا أخرجت الأوراق من سلة المهملات وخبأتها في جيبي . وكانت هذه الوثائق ممهورة بالعربية بإمضاء «اللفتنانت ألبرت كوهين من قوة الدفاع الإسرائيلية رقم ٢٧٢٦٣٢ / ك» .

وعندما وصلت إلى بيروت لم يُبدِ أندرسون اهتماماً بقصتنا . إذ كانت لديه قصة أكثر أهمية : فقد قامت منظمة الجهاد الإسلامي بنسف السفارة الأميركية في بيروت الشرقية ، وجرح في هذا الحادث كل من السفير الامريكي والسفير البريطاني . وقال لنا أندرسون :

ـ لقد تمكن أحد الحرس من قتل السائق الانتحاري قبل انفجارها . ما هذا الشيء اللعين الذي يجري حولنا؟

كان كلانا يعرف ما يجري ، فالحرب على الغرب كانت مستمرة في بيروت ، ولكن ضد السفارات والدبلوماسيين لا ضد الصحفيين .

لم يكن اللفتنانت ألبرت بحاجة إلى خلق مبررات لإبعادنا عن الجنوب لأنه كان لديه منها ما يكفيه . إذ انهار الانضباط في صفوف الجنود الإسرائيليين الذين كانوا يخرّبون المنازل في قرية معركة . رأيناهم يصبون زيت الزيتون على الفراش ويخلطون الرمل مع الأرز في دكاكين الضيعة ، ويحطمون الأثاث بالمطارق . وعندما أرسل الإسرائيليون لواء ناحال للمظليين إلى شرقي صور بغية المحافظة على النظام ، خسر ضابطاً في كمين نصب له في أول يوم . وعلى جسر تبنين قام ضابط إسرائيلي بصفع لفتنانت من جنود الأمم المتحدة .

لم يكن من الصعب تصديق الاتهامات المتكررة للإسرائيليين بالقيام بأعمال النهب . إذ سبق لنا أن رأينا الجنود الإسرائيليين في بيروت وهم يقومون بنهب البيوت بالقرب من المطار . كانوا يأخذون أجهزة الفيديو وأجهزة الراديو والتلفزيونات . وبعد انسحاب الإسرائيليين من بيروت ذهبت مع مواطن بريطاني لتفقد بيته الذي فر منه على أثر اندلاع القتال حوله ، فاكتشفنا أن الجنود الإسرائيليين كانوا يقيمون في بيته خلال تواجدهم في بيروت ، وقبل مغادرتهم ملأوا جدران البيت بالكتابات العبرية التي خطوها ببرازهم .

كانت الأمثلة على عدم انضباط الجنود الإسرائيليين لا تقل عدداً عن الأمثلة على عدم كفاءتهم . فعشرون بالمئة من إصاباتهم خلال الإجتياح عام ١٩٨٢ كانت بسبب «نيران الأصدقاء» : نيران بنادقهم ودباباتهم وطائراتهم . ورُوي عن مسؤولين أميركيين قولهم إن الجيش الإسرائيلي «جماعات غير منضبطة وتنقصها الكفاءة[١٨]» . وحتى الطيران الإسرائيلي تسبب في مقتل ٤٣ من الجنود الإسرائيليين في غارة على البقاع[١٩] . أما في إسرائيل فقد تحقق البوليس من أنه قد تم سرقة ٤٠٠٠

(١٨) أنظر مقالاً بعنوان :« عدم كفاءة الإسرائيليين تتسبب بإصابات «من نيران صديقة» . جريدة الواشنطن تايمز عدد ٢٧ آب/ أغسطس ١٩٨٤ .

(١٩) لقد علمت بهذه الحادثة بمحض الصدفة . كنت أدرس قائمة العسكريين الإسرائيليين الذين تم تكريمهم في غزو عام ١٩٨٢ . فلاحظت أن هناك مداليات منحت للشجاعة في مواجهة هجوم جوي . وعلى سبيل المثال قام رئيس الأركان الإسرائيلي بتكريم الدكتور موشي دانيال وهو طبيب كتيبة عسكرية . أما سبب التكريم فقد كان معالجته ونقله لجرحى إسرائيليين بعد هجوم جوي جنوبي على بحيرة القرعون في ١٠ حزيران/ يونيو ١٩٨٢ . (المرجع : «تكريم بسبب القيام بخدمات أكثر من تلك المطلوبة» . نشر في إسرائيل في ٣٠ مآذار/ ارس ١٩٨٣) . وأعرف أن السوريين لم يشنوا أية غارات جوية خلال عملية الغزو . وهكذا اضطر الإسرائيليون إلى الإقرار فيما بعد بأن «مأساة» قد وقعت بالفعل في منطقة البقاع . وفي مقابلة مع الجنرال سبكتر من سلاح الطيران الإسرائيلي قال لي : «إن الطيار الإسرائيلي المسؤول عن الكارثة نفد وقوده وهو يقوم بعملية دعم . ولكنه لم يشعر بالمسؤولية الكافية . وعاقبناه عقاباً قاسياً» . إلا أنه رفض أن يقول لي ما هو نوع العقاب .

قنبلة يدوية و٣٠٠ بندقية جليل و٢٠٠ بندقية إم ١٦ و ٧ بازوكا و٤٥ مدفع هاون خفيف ومدفعين رشاشين ثقيلين وذلك من مخازن الجيش الإسرائيلي في لبنان . والمعتقد أن هذه الأسلحة كلها في حوزة مواطنين إسرائيليين[٢٠] . وضُبط جنود إسرائيليون أثناء خروجهم من لبنان وبحوزتهم حشيش اشتروه في البقاع . وبعث أحد قراء جريدة الجيروزاليم بوست رسالة لها يقول فيها : «لقد مرغ بيغن علم بلادنا بالوحل بما فيه الكفاية . إني أضرع إلى الله أن نترك لبنان في القريب العاجل لأن الانحلال والفساد قد بدآ يدبان في جنودنا هناك . وطالما بقينا في لبنان فإننا سوف نحقر أنفسنا أكثر فأكثر[٢١] .

كان اللبنانيون والفلسطينيون يرقبون عملية الإذلال هذه . كانوا يفهمونها جيداً . ففي حصار بيروت عام ١٩٨٢ لم تفاجئهم محاولات إسرائيل للتشكيك بمصداقية الصحفيين الغربيين الذين كتبوا عنه . أرادت إسرائيل أن تقنع الرأي العام الدولي بأن آلافاً من المواطنين العزل الذين ماتوا بسبب القصف الإسرائيلي لم يموتوا إطلاقاً . أما الذين اعترفت بموتهم فإنها أصرت على أنهم لم يكونوا ضحية قاتليهم الحقيقيين : فقالوا مثلاً أن الفلسطينيين هم الذين احرقوا الأطفال بالفسفور ، ثم استدعوا الصحفيين السذج ليروا نتائج القصف الإسرائيلي . أما المؤرخ اللبناني كمال صليبي فقد تعلم درساً من فنون إسرائيل في التضليل . قال لنا ذات يوم : «نحن العرب نعيد كتابة تاريخنا باستمرار . فعندما نخسر الحرب نقول بأننا قد ربحناها . وعندما نخطىء نعزو هذا الخطأ إلى الآخرين . والآن أصبح بإمكاننا أن نفهم إسرائيل أيضاً . لقد أصبحت مجرد دولة من دول الشرق الأوسط» .

أما الصحافة الإسرائيلية التي أيدت غزو لبنان في أيامه الأولى ،فقد أخذت تسلخ جلد الحكومة الإسرائيلية والجيش الإسرائيلي . فاعترفت الجيروزاليم بوست بأن الجيش الإسرائيلي «اتبع سياسة مدمرة . إذ سعى من ناحية إلى تركيع الشيعة في الجنوب ، وحاول من ناحية أخرى أن يخلق مارداً من جيش لبنان الجنوبي» . ورأت الجريدة أن المؤسسة العسكرية الإسرائيلية «قد بدأت تصدق أساطيرها»[٢٢] . وما هو أهم من هذا ـ في نظر الجريدة ـ هو أن الجيش الإسرائيلي خسر شيئاً له صلة قرابة بالمؤامرة وهو التهديد ـ التهديد بأن الحرب النهائية على «الإرهاب» ستشمل غزواً شاملاً للبنان .

كانوا يقولون : إذا لم يتوقف «الإرهاب» فإن غضب إسرائيل سيحل بلبنان . ولكنهم قاموا بغزو لبنان وتقهقروا . فماذا بقي؟ بقي التلويح بالمؤامرة .لأن التلويح بها كان ممكناً في أي وقت . أما

(٢٠) الجيروزاليم بوست في ٢٣ كانون الثاني/ يناير ١٩٨٤ وفي أول تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٨٤ .
(٢١) الجيروزاليم بوست ، ٢٤ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٨٢ .
(٢٢) الجيروزاليم بوست مجازين ، ٨ حزيران/ يونيو ١٩٨٤

التهديد بالغزو فلم يعد ممكناً . ولم يعد أحد يخاف الإسرائيليين . فقد تأكد أنه يمكن قتل الجنود الإسرائيليين وإذلالهم . وهكذا نجد كاتباً إسرائيلياً يشكو في مجلة نيوزفيو الإسرائيلية من أن الجيش الإسرائيلي لم يعد لغزاً محيراً ومخيفاً للعدو . إنه باختبائه خلف دشمه وتحصيناته وباعتماده على دوريات المظليين لم يعد يردع أحداً(٢٣) . وعند نهاية عام ١٩٨٤ أنحى اثنان من كبار المحللين العسكريين الإسرائيليين باللوم على شارون بسبب مآسي الغزو . ولخصوا رأيهم كما يلي : «لقد خرج غزو إسرائيل للبنان عام ١٩٨٢ من طموح وتصميم رجل واحد متهور (أي شارون) . لقد كان الوهم أساس هذا الغزو والخداع محركه .ولذلك كان لا بد أن ينتهي «إلى كارثة»(٢٤) .

في أيلول/ سبتمبر ١٩٨٤ وجدت مكتباً بسيطاً في مخيم برج البراجنة المدمر . ورأيت على حائط في الخارج اسم «الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ـ القيادة العامة» مخربشاً بالطباشير وبحروف إنجليزية وبخط كخط الطفل . ووجدت في أعلى الدرج ستة فلسطينيين أحدهم يلبس لباساً مرقطاً من ألبسة المارينز السابقة التي قدمتها الولايات المتحدة إلى الجيش اللبناني . وكان آخر جالساً وفي حزامه مسدس أسود صغير . وتقدم ثالث وعرّفنا باسمه وهو «محمود» وبدا عليه القلق عند دخولي ـ لكنه أبدى اهتماماً بتصوير منظمته المعروفة بأنها من أكثر المنظمات الفلسطينية تطرفاً على أنها منظمة سياسية أكثر منها عسكرية . قال :

ـ إننا نعتقد بأن تحرير فلسطين مستحيل بدون البندقية . ولكن ليس لدينا أي هدف عسكري هنا . فلا أعداء لنا في هذا المكان .

كان محمود ورفاقه ممن عارضوا عرفات . وكان وجودهم في بيروت لصالح سوريا ، ويستهدف عدم عودة من تبقى من الفلسطينيين إلى مناصرة عرفات . وكانوا مراقبين من قبل السوريين وأمل التي لم تكن تريد أن يتدخل الفلسطينيون في حكمها الإسلامي الوطني لبيروت الغربية . وفي شاتيلا أقامت منظمة الصاعقة الموالية لسوريا مكتباً لها في كوخ صغير . وفي مخيم مار الياس الواقع بالقرب من مخيم شاتيلا وجدت مكتب «مجلس فتح الثوري» التابع لمنظمة أبو نضال المشهورة التي تعتبر أكثر

(٢٣) أ . ي . نورون : «مسألة معنويات» في مجلة نيوزفيو عدد ٢٩ أيار/ مايو ١٩٨٤ . أنظر أيضاً ما كتبه بني موريس في الجيروزاليم بوست عدد ٥ حزيران/ يونيو ١٩٨٤ : «وقد تكون أسوأ نتيجة لإسرائيل في هذه الحرب هي تحقق لبنان وسوريا من أن إسرائيل قد اطلقت (آخر رصاصة في جعبتها) . فقبل الغزو كان الخوف من قوة إسرائيل العسكرية يعتري جميع الفئات اللبنانية وكذلك الفلسطينيين . وحتى السوريون لم يسلموا من مثل هذا الشعور . أما الآن فقد تلاشى كل خوف من إسرائيل» .

(٢٤) شيف ويعاري ، حرب إسرائيل في لبنان ، ص ٣٠١ .

المنظمات الفلسطينية تطرفاً . إذن فرجال أبو نضال في بيروت . وإذن عادت إلى بيروت المنظمات الفدائية التي أقسمت إسرائيل أنها لن تعود إليها أبداً .

جسر نهر الليطاني جنوب لبنان في ١٦ آب/ أغسطس ١٩٨٤

داني جندي من جنود الاحتياط الإسرائيليين أزرق العينين ، شعره أشقر ، ويبلغ الثامنة عشرة من عمره . ولد في واشنطن ويعيش في كيبوتز عين سموريان . جُند لمدة تسعة أشهر ، ويعتزم دراسة العلوم السياسية بالجامعة العبرية بالقدس . ويقول إنه صوّت إلى يمين اليمين في الانتخابات الإسرائيلية الأخيرة . كان يحمل مدفعاً رشاشاً مشدوداً إلى كتفه . ولم يكن في السن التي تؤهله للاشتراك في غزو لبنان .

كان هدير البحر يذكرنا أننا على شاطىء صرفند ـ وكان العرق يتصبب من سترته الواقية ، فالحر شديد حول الليطاني .

في البستان المجاور من ناحية الشرق كان فلاح لبناني يقوم بسقاية الأرض تحت أشجار الموز . نظر إليه داني وقال :

ـ هل ترى ذلك الرجل؟ قد يكون هو نفسه مقبولاً . ولكنه يرى ما نفعل كل يوم ويخبر أخاً أو صديقاً . وهذا بدوره يخبر شخصاً آخر . إنهم يرون ناقلات الجند المصفحة وسيارات الجيب والشاحنات ، ويعلمون إلى أين نذهب . إنهم يعرفون كل شيء عنا . لقد نصبوا لنا كميناً في بستان الموز ، وزرعوا قنبلة على جانب الطريق . . . وكان أفراد جماعتي في البستان . وأصبنا عندما انفجرت القنبلة . أصيب اثنان أحدهما برجليه .

ثم أشار داني إلى ركبتيه وقال :

ـ أعلم أننا عندما نقوم بعمل عدائي ضدهم فإنهم سيهاجموننا في اليوم التالي . علينا أن نفتشهم . فنحن نبحث عن الإرهابيين . ولهذا السبب تجدهم يكرهوننا . أتمنى لو أتكلم اللغة العربية لأستطيع التحدث معهم . فما أعرفه من تلك اللغة هو قول : «إفعل هذا . إذهب إلى هناك» . أتمنى لو أستطيع أن أقول «من فضلك» . أتمنى لو أقول «أنا آسف» .

كفارفالوس ، جنوب لبنان في ١٧ آب/ أغسطس ١٩٨٤

الجو حار ومئات المسلمين الشيعة يقفون في طابور طويل للحصول على تصاريح حمراء أو

خضراء لمجرد الخروج من المنطقة التي يسيطر عليها الإسرائيليون والذهاب إلى بيروت ، بينما كان جنود لحد يتولون حفظ السلام ورائحة العرق تفوح منهم .

رأيت جندياً إسرائيلياً شاباً يسير بين المصطفين . ولوّحت له فتاة شيعية جميلة بيدها فلوّح لها بيده قائلاً : «هاي» . فابتسمت له الفتاة ولكنها أخذت تشتمه وتلعنه بالعربية التي لا يتقنها . قالت : «لا تزال حياً؟ لعنة الله على شعبك» . كانت الفتاة جميلة ولكن الإهانة بدت قاسية لأنه لم يكن يفهمها . فاستمر بالابتسام ببراءة وهو يلوّح لها بيده .

وفي أواخر أيلول/ سبتمبر ١٩٨٤ اقترفت ميليشيا لحد مجزرة في قرية سحمر . إذ كانت المقاومة قد نصبت كميناً لهذه الميليشيا وقتلت ثلاثة من أفرادها الدروز . وعلى الأثر اقتحمت عناصر درزية تابعة لهذه الميليشيا قرية سحمر حيث وقع الكمين . وهناك جمعوا رجال القرية وأوقفوهم إلى حائط ثم أطلقوا النار عليهم . قتلوا ١٣ منهم في الحال . وعندما وصل الإسرائيليون إلى القرية كان هناك ٣٠ جريحاً لا يزالون ينزفون على الأرض . وهكذا تحول قسم من ميليشيا لحد ـ «ترس الجليل» كما أسماها الإسرائيليون ـ إلى مجرد عصابات فئوية .

وهنا بدأ مقاتلو المسلمين الشيعة يتدفقون على الجنوب من بيروت والبقاع . وأخذت حركة أمل التي آثرت في البداية عدم التورط في الحرب ضد الإسرائيليين تتطلع إلى أن تكون المقاوم الرئيسي في الجنوب .إذ كان تأثير إيران على حزب الله يعني قيام مقاومة إسلامية شاملة منفصلة في القرى شرقي صور . وإلى الشرق في العرقوب كانت قوى اليسار اللبناني تهاجم جيش الاحتلال . ونفذ بضعة مقاتلين من منظمة التحرير الفلسطينية إلى الجنوب لتمثيل جيش عرفات ولو صورياً في الصراع الأخير ضد المحتلين . وفي صيدا شكلت الميليشيات الناصرية السنية نواة لها . وتعاونت مختلف المنظمات فيما بينها . لكن دوافع المقاومة كانت سياسية بمقدار ما كانت وطنية . إذ كانت تسعى إلى الكسب السياسي والسيطرة على المناطق من أجل المستقبل . فلو سمحت أمل لحزب الله أن يقود المقاومة ضد الإسرائيليين في الجنوب فإنها كانت ستفقد مدينة صور والقرى الشيعية المحيطة بها بعد انسحاب الإسرائيليين . ففي حرب الخليج كانت إيران تهدد باقتحام العراق وتطويق جيوش صدام حسين في البصرة . وإذا تم لحلفاء إيران النصر على الإسرائيليين في لبنان فإن هذا يمكن الإمام الخميني من القول بأنه قد تمكن من تصدير ثورته الإسلامية .

وعندما بلغت المقاومة ذروتها كانت الإصابات عالية كالأهداف المتوخاة . ففي كانون الأول/ ديسمبر ١٩٨٤ تعرض الجيش الإسرائيلي لمئة هجوم من رجال المقاومة . وتكبد الإسرائيليون

في هذه الفترة ثلاثة قتلى و٢٧ جريحاً . أما ميليشيا لحد فقد خسرت ١٧ قتيلاً . كما تمت تصفية ثمانية من المتعاونين مع قوات الاحتلال . أما المقاومة فقد خسرت ١٤ عنصراً بينهم واحد منهم على الأقل من الفلسطينيين . كما أن منظمة التحرير الفلسطينية استطاعت أن تخترق الخطوط الإسرائيلية وأن تدخل صواريخ الكاتيوشيا .وفي أول أسبوع من كانون الثاني/ يناير ١٩٨٥ ظهرت على جدران صور منشورات تحمل اسم ٦٠ شخصاً ممن كانوا متهمين بالتعامل مع إسرائيل . وبدأ وضع الألغام في سيارات عصابات أبو أرز . وفي ١١ كانون الثاني/ يناير ١٩٨٥ أعلنت المقاومة الوطنية اللبنانية أنه تم تصفية خمسة عشر عميلاً .

وفي ٦ كانون الثاني/ يناير ١٩٨٥ تعرضت دورية مشتركة من الجيش الإسرائيلي وشين بت «المخابرات الإسرائيلية» لكمين نُصب لها بالقرب من قرية العباسية . وعندما خرج الجنود من عربتهم للتحري (عن الفاعلين) انفجر بهم لغم آخر على بعد ٦٠ متراً من اللغم الأول . وهنا هوجمت الدورية بالأسلحة الخفيفة ، ففرت إلى صور . وفي نفس اليوم بالقرب من دير قانون لوّحت امرأة مسنة لسيارة عميل يعرف باسم «رنغو» بالوقوف .وعندما توقفت السيارة هاجمها أربعة من رجال المقاومة كانوا يختبئون بين الشجيرات خلف المرأة . فقتل «رنغو» على الفور وجُرح جميع من كان معه في السيارة . أما حيدر دايخ قائد «قوات كربلاء» والذي كنت قد أجريت مقابلة معه في جويا فقد استقال من منصبه . لم يرد أن يقتل ، ولكن بعد فوات الأوان .فبعد أيام معدودة من استقالته تمت تصفيته أمام منزله . أصيب في رجله وتوفي في الحال .

وفي قرية العباسية دخل أربعة ملثمين إلى مقهى القرية ، وأشار أحدهم إلى الفلسطيني يوسف عبد الغني الذي يبلغ السابعة والثلاثين من العمر ، وصرخ في وجهه : «نحن رجال المقاومة الوطنية أيها العميل» . اقتادوه من المقهى وحشروه في صندوق سيارته . وتم العثور على جثته بعد بضعة أيام ملقاة في حفرة إلى جانب الطريق بالقرب من قرية برج رحال . وُجد مقيداً وعلى رأسه منشفة وفي ظهره فجوة حفرتها ثلاث رصاصات .

وأدخل الإسرائيليون لواء جولاني إلى الأوّلي ، وتركوا سرية منه في صور . ووضعوا اللواء المدرع السابع في جبال باتر . وكانت هذه هي الوحدات التي كان يصفها الصحافيون بالنخبة . وفي كانون الأول/ ديسمبر أدخلوا وحدة «سابيرت متقال» وهي وحدة الكومنادوس التي ساهمت في إنقاذ الرهائن في عنتيبي بأوغندا لتفتيش القرى الواقعة إلى الشرق من صور . ودخلت هذه الفرقة راجلة بين البساتين . إلا أن بحثها لم يسفر عن شيء . وفي كل عملية تفتيش كان رجال شين بت يشرفون على ضرب الشبان بشكل شرس . وأخذوا يستخدمون أسماء مستعارة جديدة . بدأوا باستخدام أسماء

مثل : «أبو موسى» ، «يونس» ، «كولونيل جابي» . وعندما عجز الإسرائيليون عن إبقاء الطرق مفتوحة أخذوا ينقلون جنودهم إلى الخطوط الأمامية بطائرات الهليكوبتر . وحتى جنود النخبة في الجيش الإسرائيلي فشلوا في محاولة إعادة سيطرة الجيش الإسرائيلي على الطرق . أما خط الدفاع الإسرائيلي إلى الشمال من صيدا فلم يعد خطاً إطلاقاً . لقد انهار وتحول إلى سلسلة من النقاط المحصنة المحاصرة التي كان رجال المقاومة يتجمعون حولها ليلاً .

كان الجميع في صيدا يعلمون أن الإسرائيليين يهمون بالانسحاب . وكانوا جميعاً ـ مسلمين ومسيحيين ـ يعلنون عن رغبتهم في أن يتولى الجيش اللبناني حفظ الأمن في مناطقهم . وفي ذلك الوقت كنت أقيم مع عائلة شيعية في حي القيّاعة الذي يقع على الحد الفاصل بين المناطق الاسلامية والمناطق المسيحية . وكنا نشاهد كل ليلة المشاعل المضيئة فوق مواقع الإسرائيليين . وفي كل ليلة كان يزورنا شباب يمتلكهم الخوف . كانوا يريدون أن يسألوا عما نعرفه . هل صحيح أن الكتائب سيهاجمون صيدا عندما ينسحب الإسرائيليون؟ في تلك الأثناء كان الناطقون الرسميون الإسرائيليون في تل أبيب يتحدثون عن حمام دم في الجنوب بعد انسحابهم من صيدا ، ويقولون بأن الوضع سوف يتدهور كما حدث في الشوف إن لم يكن أسوأ . وأخذ الإسرائيليون يسيرون دورياتهم في الشوارع بمساندة الدبابات .

وفي مساء ٦ شباط/ فبراير ١٩٨٥ زارنا شابان مهذبان ومتحفظان وقلباهما مفعمان بالأمل . وكان سيعقد اجتماع يضم جميع أهل الحي في الساعة الرابعة من اليوم التالي في بيت عمر الحريري وعبّرا عن رغبتهما في حضورنا . ولم نستغرب ذلك . فقد كانت الاجتماعات متتالية في منطقة صيدا بين المسلمين والمسيحيين لتحاشي اقتتالهم بعد انسحاب الإسرائيليين .

عندما وصلنا إلى بيت الحريري وجدنا ما يزيد على الخمسين رجلاً في صالة الطعام يجلسون على كراس خشبية . وكانوا كلهم متوسطي العمر ، أنيقي الملبس ، يبدو عليهم الجد ويدخنون بكثرة . وكان أكثرهم من السنة ، ويستمعون إلى متحدث مسيحي يدعى كميل معماري وهو يوضح أهمية الثقة المتبادلة بين المسلمين والمسيحيين في الأيام الحرجة القادمة .

كان كميل جذاباً ، كثير الابتسام ويحرك يديه وهو يتكلم ، وكرر كلمة تعاون عدة مرات . وكان هناك ما يبرر اهتمامه بهذه الكلمة . فقد كان هو المسؤول عن الكتائب في القيّاعة والتعاون هو ما يطلبه المسيحيون من الأكثرية السنيّة إذا هم أرادوا أن لا يطردوا من بيوتهم . قال كميل :

ـ سوف يأتي الجيش اللبناني . فإذا لم تجتمع كلمتنا حول الحاجة إليه فإننا سنفشل . . . أنظروا

إلى ما حدث للقوة المتعددة الجنسيات والأميركيين في بيروت . لقد رحلوا . وإذا اتحدت كلمتنا فسيحضر الجيش اللبناني بلا أسلحة ، وسوف ينجح .

ولم تخل كلمة كميل من شيء أرضى المستمعين . إذ تحدث عن الفلسطينيين فقال إنه لا يريدهم أحد في منطقته ، وأن أهل منطقته قد وعدوا بأن لا يقبلوهم . ثم قال :

ـ كنا في الماضي أغبياء . كنا أغبى أهل العالم لأننا دمرنا بيوتنا .

دارت فناجين القهوة وعلب السجائر وإبريق الماء . ولكن كانت هناك أسئلة تقلق بعضهم . سأل أحدهم عما سيفعلون إذا انطلقت السيارات المفخخة في الشوارع . فأكد له كميل بأنه ستكون هناك محاولات لمنع ذلك . وهنا استفسر رجل مسن عن الرجال المقنّعين الذين يجوبون الشوارع . فنفى كميل أن يكون لمثل هؤلاء المقنّعين أي وجود . وهنا أصرّ الرجل المسن على قوله ، وأكد لكميل أن الجميع قد رأوا هؤلاء المقنّعين في الطرقات . فقال كميل على الفور : «إنهم لا ينتمون إلى منظمتنا» . وهنا ساد صمت طويل أبلغ من كل حديث .

أصبح التنقل حول صيدا محفوفاً بالمخاطر . قمت بزيارة سوبر ماركت قريب من شارع رياض الصلح . وكان بجانبه مقهى ومحطة بنزين تملكها أسرة سنّية . واعتدت أن أستخدم هاتف المقهى للاتصال بزملائي في مكتب الأسوشيتد برس ببيروت . وكنت أملي عليهم تقاريري الصحفية لكي يرسلوها إلى جريدتي ـ التايمز اللندنية . وفيما كنت على التلفون دوى صوت انفجارين هائلين . انفجر لغمان بالقرب من دورية لجيش لبنان الجنوبي . وفي الحال بدأ رجال هذه الدورية يطلقون النار على نوافذ المقهى . ووقفت دبابة إسرائيلية في الخارج . ولم تلبث أن ارتدّت إلى الخلف وضربت حائط المحطة . فقد دأب الإسرائيليون على تحطيم أقرب بناء إلى المواقع التي يتعرضون فيها للهجوم . هذا هو العقاب الإسرائيلي . ودخل أحد الضباط إلى المحطة ، وألقى بعلب الدهان وغيرها على الأرض ، ثم خرج منفرج الأسارير فيما بدأ أحد جنوده بإطلاق النار .

وذات صباح ذهبت بسيارتي لإحضار مناقيش الفطور من فرن بلدة عبرا . وعند قمة تلة عبرا وجدت نفسي وراء دورية إسرائيلية راجلة . وكانت الدورية تسير بالاتجاه ذاته . وفجأة التفت آخر جنود الدورية وبدأ بالتلويح بيديه . واعتقدت أنه كان يحيي أحداً على جانب الطريق . ولكن ما أن وصلت إلى مكانه حتى كانت بندقيته جاهزة على كتفه ومصوّبة نحوي وهو يصرخ بأعلى صوته من خلف زجاج سيارتي المغلق . لقد ظن أنه هجوم انتحاري .

وللحظة خاطفة وجدت نفسي أتخيل كيف يكون شعور من تُطلق عليه النار ، ولا بد أن الجندي الشاب كان في تلك اللحظة يفكر كيف يكون شعور المرء وهو يطلق النار على آخر . كان الجندي ذا سحنة أوروبية ونظارات كتلك التي يفضلها الطلاب . حتى شعره الذي ظهر من تحت القبعة كشعر القنفذ خلع عليه هيأة طفل . ثم أنزل البندقية عن كتفه وهو يتنفس الصعداء . وكذلك فعلت أنا . إذ عدت مسرعاً بسيارتي بعيداً عن لقائي القريب هذا مع الموت .

وفي طريقي إلى الناقورة التقيت بثلاثة عناصر من لواء جولاني ، أحدهم في التاسعة عشرة من عمره ويدعى رافي . ولاحظت أنه يود أن يتحدث مع الصحفيين الأجانب . قال :

ـ لقد تعرضت لكثير من الكمائن . والأول دائماً صعب ، أما بعد ذلك فإنها جميعاً تبدو لك متشابهة ولذلك يمكنك تحملها . وأول كمين تعرضنا له كان في صيدا عندما وضع لنا أحد الفلسطينيين لغماً بجانب الطريق . وهنا سألته عن مصير ذلك الفلسطيني . أجاب :

ـ ماذا تظن؟ ماذا تظن أننا نفعل بمن يزرع الألغام لنا؟

وساد صمت طويل غير عادي . تلك هي أخلاقية السلاح . !

وفي هذه الأثناء رأينا رجلاً مسناً يلبس كوفية ويصعد الطريق باتجاهنا وهو يتعثر بسبب حاجز من الحجارة أقامه الإسرائيليون في الطريق . وتبيّن لنا أنه أعمى وأنه قد يؤذي نفسه إذا وقع على الحجارة . فأسرع رافي إليه ، وأخذ بيده بكل رفق وعبر به الحاجز وهداه إلى طريقه . وفي كل هذه الأثناء لم يتوقف الرجل الضرير عن شكر هذا المحسن إليه ، وهو لا يدري أنه جندي إسرائيلي .

وفي أوائل شهر شباط/ فبراير استدعي المتعاونون مع الإسرائيليين إلى كفارفالوس لمقابلة ضباط شين بت . استقبلهم الكولونيل جابي وأخبرهم بأن إسرائيل لن تؤمن لهم الحراسة من الآن فصاعداً . وعرض على عدد منهم حق اللجوء إلى إسرائيل وتجاهل الباقين . إلا أن المقاومة لم تتجاهلهم ، بل سحبتهم من بيوتهم بعد انسحاب الإسرائيليين وقامت بتصفيتهم . وكان أشهر المتعاونين مع الإسرائيليين في صيدا يسمي نفسه «أبو عريضة» . ورأيت اسمه على جدران كثيرة وتحته عبارة : «الموت لك يا أبا عريضة !» لكنه في البداية لم يأبه بالتهديدات . لقد كان رجلاً مخيفاً . لكن انسحاب الإسرائيليين تركه في خوف ـــ فقد ظل طيلة سنتين يزود الإسرائيليين بأسماء فلسطينيين كان يدعي أنهم إرهابيون .وكان بعض هؤلاء الفلسطينيين من الذين وجدوا مقتولين على الطرق إلى الشرق من صيدا في عام ١٩٨٢ . وفي أواسط شباط/ فبراير ١٩٨٢ غادر أبو عريضة ميناء صيدا في مركب مع أربعة وعشرين من رجاله .

كانت صيدا مسرحاً للإرهاب . فعلى جدار بالقرب من مكتب الكتائب كتبت عبارة : «مرّ الجاسوس من هنا» . وظهرت على جدار آخر عبارة : «سينال جميع العملاء مكافأتهم» . وكان هناك كثرة من المتعاونين من الذين سجنوا في أنصار . رأيت أحدهم وحيداً في مقهى يتملكه الخوف . قال :

ـ قال لي الإسرائيليون : إعمل معنا ، وسنطلق سراحك . وقالوا إن زوجتي صغيرة وجميلة وأن الكثيرين يحومون حولها ، وأنها سوف . . . إذا بقيت في أنصار . والواقع أن حرصي على زوجتي دفعني إلى العمل لحسابهم .

قال لي عميل آخر :

ـ جاءني إسرائيلي اسمه ميشيل في الخامسة والثلاثين من العمر . وكان في غاية التهذيب ويبدا منتفخ البطن . استجوبني في مصنع للتبغ وأطلق سراحي . ثم أبلغني «الحرس الوطني» أنه يريد أن يراني مرة أخرى . فلما رأيته طلب مني أن أمر بمركز إسرائيلي بين الزهراني والنبطية ، وقال :

ـ سنوقفك هناك . لكننا سنجعل ذلك يبدو طبيعياً . سنلتقي في الرابعة عندما يوقفك الحاجز . على أنني لم أذهب . فأبلغ ميشيل رجال المقاومة بأنني عميل جيد . فحاولوا قتلي مرتين في جبشيت .

سمعت صوت إطلاق نار في الليل . وفي الصباح أعلن الإسرائيليون أنهم اعتقلوا أحد عشر فلسطينياً كانوا يحاولون التسلل عبر نهر الأولي ، وأنهم قتلوا جميعاً في معركة مع القوات الإسرائيلية . أما المتعاونون مع الإسرائيليين فقد كانت لهم رواية أخرى حول ما حدث . قالوا إنه قُبِض على الفدائيين الأحد عشر وجرّدوا من سلاحهم ثم أوقفوا صفاً على حافة النهر وأطلقت عليهم النيران . هكذا تم إعدامهم . تلك هي عدالة البندقية . وتذكرت ما قاله لي الجندي الإسرائيلي رافي : «ماذا تظن أننا نفعل بمن يفجر بنا الألغام؟»

كان مصطفى سعد رئيس الميليشيا الناصرية في صيدا . وكان الجميع يدركون أن وجوده في صيدا أساسي جداً للحؤول دون اندلاع حرب أهلية في المدينة بعد انسحاب الإسرائيليين . ولكن قبل هذا الانسحاب انفجرت قنبلة خارج شقته فقتلت ابنته وأصيب هو بجروح بليغة في رأسه أعطبت جزءاً من دماغه . وكان لا بد من نقله في الحال إلى مستشفى الجامعة الأميركية في بيروت لإنقاذ حياته . وأعدت قوات الأمم المتحدة طائرة هليكوبتر لنقله إليها . وما حدث بعد ذلك عرفته من تيمور

جوكسل المتحدث الرسمي باسم قوات الأمم المتحدة في الناقورة . قال لي : «أخرّ الإسرائيليون السماح لطائرتنا بالإقلاع مدة نصف ساعة» . ولما سألته عن السبب في ذلك فضّل عدم التكهن بالإجابة . وقدر لمصطفى سعد أن يعيش . إذ أجريت له عملية جراحية في الدماغ في الولايات المتحدة ، وخرج شبه أعمى . وعليه فإنه لم يكن في صيدا خلال الأيام القليلة الصعبة التي أعقبت انسحاب الإسرائيليين .

ومن صيدا توجهت إلى قرية المية ومية . كنت أقصد صديقي أستاذ الجامعة المسيحي الذي كان يقرأ موريس بورا وخليل جبران . وفي تقريري السابق إلى التايمز أطلقت عليه اسم لويس . وقلت في تقريري أنه إذا كان يجب إخفاء الهويات وذلك ـ على حد تعبير الأفلام البوليسية الأميركية ـ لحماية الأبرياء ، ففي المية ومية لحماية المذنبين أيضاً . ذلك أنه طرأ تغيير مشؤوم على الأوضاع في قرية صديقي لويس الواقعة على التل فوق صيدا . وعندما وصلت إلى منزله كانت تقف بالقرب منه سيارة حمراء اللون يقودها جندي يرتدي الزي العسكري الإسرائيلي . أما في المقعد الخلفي فقد كان رجلان كل منهما يلبس جاكتة جلدية سوداء ومعه رشاش إسرائيلي من طراز أوزي . وكان هناك رجل آخر لبناني له لحية كشعر العنز أخذ باستجوابي . وفي هذه الأثناء اقترب منا رجلان لبنانيان آخران يدعيان أنطوان والياس أرادا معرفة سبب قدومي إلى المية ومية ، وسبب رغبتي في التحدث إلى الاستاذ لويس . وسألاني إذا كنت أنقل إليه أية رسالة .

وبعد كثير من الممانعة سمحا لي بأن أقرع جرس البيت . ومضى بعض الوقت قبل أن أسمع وقع خطوات لويس وهو يتجه إلى بوابة بيته . وعندما فتحت البوابة صعقت لما رأيته أمامي . ما رأيته كان شبح لويس . لحيته طويلة لم يحلقها منذ أيام ، وثيابه قذره وعيناه محمرتان . وعندما دخلت إلى المنزل ، دخل معي أنطوان والياس دون أن يدعوهما أحد للدخول . وكانت مشاعر الخوف بادية على لويس . أما أنطوان والياس فجلسا قبالتنا دون أن ينبسا ببنت شفة . ودخلت والدة لويس وابتسمت بصعوبة . فأصبح واضحاً لي أن لويس في وضع رهيب ومخيف . تحدثنا عن الشاعر الإنجليزي ووردزورث ، فقام لويس وأحضر مخطوطة دراسة كان قد أنهاها حول الشعر الفرنسي في القرن التاسع عشر . وكانت مليئة بالإشارات إلى الرومانطيقيين الإنجليز وإلى مقالات ت .س . اليوت . وعندئذ دق جرس الهاتف ، فأخذ لويس السماعة وأنصت لبضع ثوان . وبعد أن أعادها التفت إلي قائلاً : «سيحضر بعض الناس لمقابلتك الآن» . ثم جلس بعيداً عني . وعندما سألته عن أولئك الناس ، أجاب بلهجة حزينة فيها كثير من الاعتذار : «لا أعلم . وخيّم علينا الصمت إلى أن قرع أحدهم الباب» .

دخل رجلان وبدون مقدمات أخذا باستجوابي : «هويتك؟ أين تسكن في بيروت؟ هل تحمل

ترخيصاً إسرائيلياً يجيز لك التنقل؟ كيف تعرفت على لويس؟ وفجأة دخل رجل ثالث تجاهل لويس وأمه تماماً . ولمحت كعب مسدس فوق حزامه . كان ذا وجه مريب . وخرج فجأة مثل ما وصل . وقيل لي أنني أستطيع أن أغادر أيضاً ما رغبت بذلك . وكان ذلك مخرجاً جيداً . فنظر إليّ لويس بكل أسى وقال :

ـ في الحرب تموت الكلمات .

عندما خرجت إلى الشارع مرت بي السيارة الحمراء ، وفي مقعدها الخلفي ضابطا شين بت . وكانت شاحنة وسيارة جيب تقفان في زقاق مجاور ، قلت في نفسي : ماذا يحدث في قرية المية ومية؟ ووجدت الإجابة على سؤالي فيما بعد . شرح لي ذلك مسؤول كتائبي . قال إن أهل الضيعة قد انشقوا على أنفسهم . بعضهم أراد أن يتصالح مع الفلسطينيين في مخيم المية ومية قبل انسحاب الإسرائيليين ، وبالفعل اتصلوا بهم ، وبعضهم الآخر كان يعمل مع الإسرائيليين ويريد استفزاز الفلسطينيين . أما صديقي لويس فبعد طول تفكير قرر أنه يريد السلام مع الفلسطينيين ومع المسلمين في صيدا . قال إنه يؤمن بالديمقراطية وحرية الرأي ، وأنه لبناني مخلص لوطنه . وهذا ما جعل ضباط شين بت يحضرون إلى منزله . ووضعوه تحت الإقامة الجبرية وانتدبوا اثنين من مسلحي الكتائب لإقامة الحراسة خارج بوابة منزله ريثما يتم نقله من منزله إلى بيروت . فلا كلام عن السلام في المية ومية .

قلت في تقريري للتايمز ذلك المساء :

ـ من الطريف أن يكتشف المرء ما يفعله رجال شين بت في قرية المية ومية ، ولماذا يقوم المتمركزون منهم في الطابق الرابع من أحد الأبنية المشرفة على مخيم اللاجئين الفلسطينيين في عين الحلوة بإطلاق النار باتجاه المخيم بين الفينة والأخرى خلال النهار . ومهما يكن الجواب فمن المحتمل أن نسمع اسم المية ومية مرة أخرى . . .

وبمناسبة انسحاب الإسرائيليين ألصقت المقاومة الوطنية منشوراً جديداً على جدران صيدا ، أعلنت فيه بدعابة قاسية تغيير عنوان القوات الإسرائيلية . وجاء في هذا المنشور ما يلي : بيع أوكازيون بسبب إغلاق المؤسسة . ندفع بالدم وليس بالدولار . هذه قطعاً آخر فرصة لضرب دبابة . إننا بصدد نقل عنواننا إلى الجنوب .

عندما رحل الإسرائيليون عن صيدا دخلها الجيش اللبناني . وألقى الإسرائيليون من الجو مناشير

تحذر من أنهم سيضربون «بدون رحمة ولا هوادة» كل من يهاجم قواتهم . وفرح اللبنانيون المسلمون والمسيحيون ، لكن لمدة قصيرة . وفيما بعد وصلتنا أخبار المية ومية . وكلها كانت سيئة .

فلم يكد يتراجع الإسرائيليون إلى خط يحاذي نهر الليطاني حتى بدأت المقاومة بمهاجمتهم . ففي كمين نُصب لهم بالقرب من النبطية قُتل ضابطان إسرائيليان أحدهما الكولونيل أفرام هيلدو المستشار الأول لأنطوان لحد قائد ميليشيا جيش لبنان الجنوبي . فأغلق الإسرائيليون جسر الليطاني ، وحاولوا منع جنود فرقة فرنسية من قوات الأمم المتحدة من عبور الجسر باتجاه بيروت . وعندما صوّب إسرائيلي بندقيته ، حصل بين الفريقين عراك بالأيدي استمر إلى أن وجه الفرنسيون إنذاراً للإسرائيليين بأنهم سيقومون بهجوم شامل يستخدمون فيه الأسلحة النارية إذا لم تفتح الطريق . وعندما رأى الإسرائيليون أن الفرنسيين أخذوا في الانتشار في البساتين ومعهم الرشاشات الثقيلة ، فتحوا الطريق في غضون ثلاثين ثانية .

وهنا لجأت إسرائيل إلى ما أسمته «سياسة القبضة الفولاذية» نحو مقاتلي الجنوب . فصارت تشن الغارات على القرى بمئات الجنود في النهار وأحياناً في الليل . وكثيراً ما كان الأهالي يجدون في الصباح جثث ثلاثة أو أربعة من أبنائهم . وكان الإسرائيليون يزعمون «أنهم اضطروا إلى إطلاق النار عليهم عندما حاولوا الفرار» .

ومرة أخرى رفض الإسرائيليون السماح للصحفيين القادمين من بيروت بدخول المنطقة التي يحتلونها . وانطلقتُ بالسيارة مع دون مل مصور الأسوشيتد برس عبر جزين والجبال جنوبي الشوف واخترقنا الخطوط الإسرائيلية وسط عاصفة ثلجية ووجدنا أنفسنا بين دبابتي ميركافا مُنسحبتين فأخذنا نلوّح بأيدينا للجنود الإسرائيليين على الحواجز في الطريق . وكان من السهل علينا أن نفهم لماذا منع الإسرائيليون الصحفيين من زيارة الجنوب .

ففي ٢٣ شباط/ فبراير ١٩٨٥ بعثت من صور رسالة طويلة إلى رئيس تحرير التايمز تشارلز دوغلاس هيوم لكي أفسر خلفية التقارير التي كنت أرسلها كل يوم عن انهيار معنويات الجيش الإسرائيلي . وكانت الغارات الإسرائيلية على القرى تزداد عنفاً . ومما جاء في رسالتي :

ـ من الأمور العادية الآن أن أدخل قرية شيعية واستمع إلى أشخاص تبدو على وجوههم بوضوح الجروح التي أصابتهم خلال استجواب القوات الإسرائيلية لهم . . . وفي ثلاث حالات شرقي صور وجدتْ قوات الأمم المتحدة جثث شبان لبنانيين أطلق الرصاص على رؤوسهم . ففي غارة على البازورية . . . ادعى الإسرائيليون أنهم أطلقوا النار على شابين لأنهما حاولا الفرار . إلا أن مسؤول

الاستخبارات في قوات الأمم المتحدة الفرنسية قال لي أنه تبيّن من فحص جثث القتلى أن الإسرائيليين اقتادوهم ثم نفذوا فيهم حكم الإعدام . كما أنه أخبرني أن الفرنسيين دخلوا قبل ذلك الحادث بأسبوع إحدى القرى بعد أن غادرها الإسرائيليون ، فوجدوا في مسجد الجامع صفحات من القرآن الكريم ممزقة ومبعثرة على أرضه . وقال لي محدثي أنه لا يساوره أدنى شك في أن ذلك قد كان من عمل الإسرائيليين . . .

في هذا الوقت تولى قيادة المقاومة في الجنوب خليل جرادي الذي كان إسمياً من أعضاء حركة أمل ، وفعلياً من مؤيدي حزب الله . وكان يعيش في قرية معركة داخل منطقة الاحتلال الإسرائيلي . كان في الخامسة والعشرين من العمر يرتدي معطفاً أزرق ، ضئيل الجسم ذا لحية طويلة ، ويبدو عليه التوتر والغضب ويعتقد اعتقاداً جازماً بأن أعنف الأصوليين مقاومة هم الذين يمثلون الإسلام ولبنان . قابلته في غرفة تزين جدرانها صور لزعماء مسلمين بمن فيهم الإمام الخميني . وأكد لي أنه يمكن للإسرائيليين توقع المزيد من الهجمات الانتحارية . قال لي :

ـ إن وحشية الإسرائيليين قد أقنعت كل شخص في الجنوب أن إسرائيل تريد إذلاله . وعليه فقد أصبحوا أشد تصميماً على مقاومة الاحتلال ـ مقاومة مدنية وعسكرية . وكان جرادي يفهم سيكولوجية القمع وفائدتها للمقاومة .

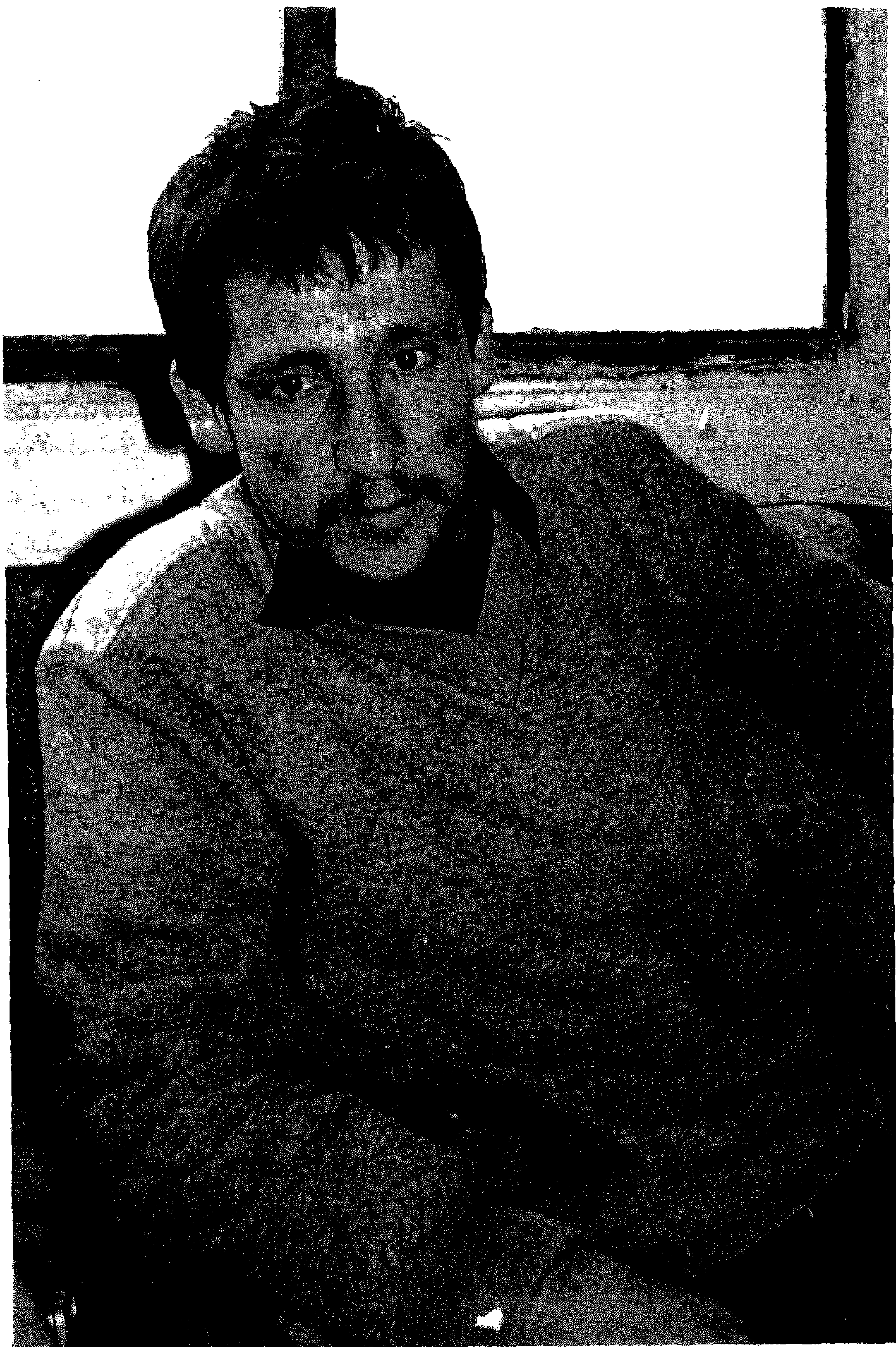
واستطرد جرادي قائلاً :

ـ إن ممارسات جيش الاحتلال تخدم مصالح المقاومة . فعندما يحتجز الإسرائيليون الناس العاديين يوثقون عرى اتحادهم . وهذا ما نجد المقاومة في أشد الحاجة إليه . فسألته :

ـ ومن هم الذين يؤلفون المقاومة؟ أجاب باللهجة ذاتها :

ـ إنها مقاومة وطنية . لكن مبادئها هي مبادىء الاسلام . وتستند إلى أن الله يكره الطغيان . تلك هي حقيقة المقاومة . وبعض ما ينشر في بيروت باسمنا غير صحيح . وما يقوله عرفات غير صحيح . فالمقاومة لا يقودها فلان أو فلان كما تقول وسائل الإعلام . إنها تعمل وفق مبادىء الإسلام .

ولم أدرك عندئذ أن تمسك جرادي بحرفية ما قاله يتجاوز ما تصورت . وأدركت ذلك فيما بعد عندما شرح لي أحد شيوخ القرى «اتجاه» المقاومة هذا . فقد أخبرني محدثي أنه يُطلب من أئمة المساجد أن يذكروا في خطبهم كلمات معيّنة . وأن مصدر الطلب هو بيروت ، وكثيراً ما يكون حزب الله ، وأحياناً ولكن ليس دائماً يقوم إيرانيون بابتداع الكلمات . وهكذا يطلب من الأئمة ذكر عبارات



الشهيد محمد سعد

مثل : «كتب عظيمة» ، «كرم زيتون» ، «فاكهة طيبة» إلى ما لا آخر له من هذه العبارات التي لا تعني شيئاً لشيوخ القرى ، ولكنها تحمل رسالة خاصة لشخص أو لأشخاص من المستمعين . وهذه هي الطريقة التي كانت تصل بها الأوامر إلى منفذي العمليات الانتحارية في لبنان .

وبعد أن أغار مئات من الجنود الإسرائيليين على قرية معركة (في ٣ آذار/ مارس ١٩٨٥) بساعات قليلة كان خليل جرادي وأقرب مساعديه في المقاومة محمد سعد يعقدان مؤتمراً صحفياً في القرية . وكانا قد اختبآ خلال الغارة في كهوف أرضية . وسمعناهما عندئذ يقولان عبر الراديو العسكري «إننا ما زلنا هنا . ولكن لا نستطيع أن نقول أكثر من ذلك» ولم يكد الإسرائيليون يخرجون حتى ظهر جرادي في مكتب صغير فوق المسجد وعليه سترة عسكرية داكنة ، وقال لمؤيديه وهو يبتسم بأنه لم يترك القرية مطلقاً ، وأنه راقب العملية كلها من نافذة قريبة .

قال في مؤتمره الصحفي :

ـ إذا عاد الإسرائيليون إلى مهاجمة قرانا فسوف نعني ما نقول عندما نتحدث عن الهجوم على قرى الجليل . لم يستطع الإسرائيليون القبض عليّ أو على أي مقاتل آخر من مقاتلينا في منطقة صور . وسنواصل قتال الإسرائيليين إلى النهاية .

وكنت أراقب جرادي وأنا جالس على أريكة في المكتب المحتشد بالناس . وكان هذا كله قبل أربع وعشرين ساعة تماماً من النهاية . أي قبل دورة عقارب الساعة دورة كاملة .

ففي اليوم التالي أي في ٤ نيسان/ أبريل ١٩٨٥ انفجرت قنبلة على سطح مكتب خليل جرادي فوق مسجد معركة ، وقتلت معظم قادة المقاومة . واستشهد فيها خليل جرادي ومحمد سعد وعشرة من رجال المقاومة كانوا مجتمعين معهما . واضطرت الفرقة الفرنسية من قوى الأمم المتحدة أن تهرع بكامل قواتها إلى القرية كي تبعد الأهالي الذين كانوا يصرخون وتزيل الركام . ووجد الفرنسيون قطعاً من جهاز القنبلة الكهربائي الذي يحمل اسم «شركة مينوسوتا للتعدين» . أما مكان إنتاجه فقد كان في ألمانيا الغربية . وقال لنا أحد زملاء خليل جرادي : «هذا من أعمال إسرائيل . لقد وضع الجنود الإسرائيليون هذه القنبلة الموقوتة قبل أن يغادروا القرية» . وكان هذا أيضاً هو رأي ضباط المخابرات الفرنسيين الذين كانوا مع القوة الفرنسية . وقال لي أحدهم :

ـ أنتم تتحدثون عن المقاومة . لكن هذا هو الإرهاب بعينه أو الإرهاب المعاكس . هذا هو ما كنا نفعله في الجزائر .

سُجّيت جثث الشهداء الإثني عشر على بلاطة كبيرة في ساحة قرب المسجد . وكانت أكواماً من

بقايا أجسادهم تحت أغطية تقطر دماً . ولم يكن هناك بالطبع ما يجعل مقتل هؤلاء الشباب في قرية معركة أكثر قساوة أو وحشية من مقتل العديد من شباب الجيش الإسرائيلي في جنوب لبنان . ولم يكن حزن وأسى وهلع أهالي قرية معركة يمثل حادثة فريدة من نوعها . فالصراع الذي كان قائماً في الجنوب كان صراعاً وحشياً لا رحمة فيه ولا رأفة .

وعشيّة استشهاد جرادي التفت إلي وقال كلمات اشتملت على تحذير رهيب ونبوءة . قال :

ـ أؤكد لك أن لن يكون باستطاعة إسرائيل أن تسحق شعب جنوب لبنان . إن أصابع أهل الجنوب بين أنياب إسرائيل . وكلا الطرفين يعض . وسنرى من يصرخ أولاً .

لم يكن لدى جرادي شك فيمن سيكون أقوى أنياباً . فقد تورّط الجيش الإسرائيلي في نزاع وحشي مع آلاف المواطنين ورجال المقاومة ، وأخذ يذوق طعم أول هزيمة له منذ وجوده ،تمثلت في تقهقره التكتيكي والاستراتيجي بعد أن اقترف أفدح خطأ عسكري في تاريخ الشرق الأوسط الحديث . وقد كان يحلو لأساتذة الجامعات وخصوصاً في أميركا وإسرائيل أن يعزوا التطرف الشيعي في الجنوب إلى نوع من الإيحاء الثوري من إيران ، وكأنّ الامام الخميني كان يؤثر تأثيراً فعلياً في الجنوب . لقد تجاهل هؤلاء حقيقة واضحة وهي أن إسرائيل شاركت في خلق ذلك التطرف . وأهم من هذا تجاهلهم أن الثورة الإيرانية لم تبدأ في قم أو في طهران وإنما في جنوب لبنان .

فموسى الصدر الذي كانت صورته على جميع حطام البيوت التي هدمها الإسرائيليون لم يكن مجرد إمام اختفى بل كان دائم الحضور والإمام العائد في نظر شيعة الجنوب . ولد في قم بإيران . والأهم من هذا أنه كان حلقة الوصل الرئيسية بين المعارضة الإيرانية للشاه وبين الخميني عندما كان هذا في منفاه في كربلاء . وكان موسى الصدر يقيم في مدينة صور . وتزوجت أخته رباب من حسين شرف الدين الذي ينتمي إلى واحدة من أبرز العائلات الشيعية في صور . وفي السنين الصعبة التي سبقت نجاح الثورة الإيرانية كانت مدينة صور هي قبلة قادة المعارضة الإيرانية . فلا تكاد تجد أحداً من قادة الجمهورية الإسلامية بعد ١٩٧٩ إلاّ وزار صور .

فمهدي بزرقان الذي صار فيما بعد رئيس وزراء الخميني جاء إلى كلية جبل عامل التي أسسها الإمام موسى الصدر خارج مدينة صور . أما صادق طباطبائي الذي أصبح نائب بزرقان وكان من أقرب معاوني الإمام الخميني فقد كان يزور صور سنوياً . وكذلك فعل آية الله محمد بهشتي الذي أصبح فيما بعد رئيس الحزب الجمهوري الإسلامي ووزير العدل في إيران . وممن كانوا يقومون بزيارةصور كل سنة صادق قطب زادة مستشار الإمام الخميني في باريس ، ووزير خارجيته فيما بعد .

ومصطفى شمران الذي صار وزير الدفاع كان من مؤسسي كلية جبل عامل ومن أساتذتها . ومن طلابه محمد سعد الذي كان يدرس الهندسة الكهربائية وصار فيما بعد كبير خبراء المتفجرات بين رجال المقاومة العاملين مع جرادي . وكان جرادي ومحمد سعد يصليان مع بهشتي في جامع واحد مثلهما مثل كثرة من فتيان القرى حول صور .

وكان كثرة من هؤلاء القرويين يرجعون بأصولهم إلى إيران . ففي قرية معركة التي تحملت وطأة «القبضة الفولاذية» الإسرائيلية كانت خمس عائلات تعود بنسبها إلى إيرانيين عاشوا في إيران خلال المئة سنة الماضية . وهكذا فقد شبّ كل من خليل جرادي ومحمد سعد وترعرعا في جو من الثورة الدينية والعسكرية . وفي السنوات التالية قُتل محمد بهشتي عندما نُسف مقر حزبه في طهران . أما شمران فقد مات في ظروف غامضة على جبهة القتال مع العراق . وعرف اللبنانيون الجنوبيون هؤلاء الشهداء وساروا في ركابهم . أما قطب زادة فقد حوكم وأعدم . وكذلك فإن الشيعة في الجنوب لم يرحموا من تعاون منهم مع إسرائيل .

ويرى كثرة من أهل الجنوب أن إسرائيل بغزوها كلية جبل عامل وحدت بين الثورتين الدينيتين الوطنيتين . إذ اقتحم الإسرائيليون الكلية وضربوا كثرة من الطلاب بينهم حسن قصير الذي صدم بسيارة ملغومة مركبة عسكرية إسرائيلية . وهكذا توحّد الاستشهاد لدى الشيعة الإيرانيين واللبنانيين سياسياً .

ففي الأشهر الأخيرة من احتلاله للمنطقة حول صور ، أصبح الجيش الإسرائيلي أسير أعنف قوة واجهته طيلة مدة وجوده . فاستخدم الإسرائيليون جميع الوسائل التي تستخدمها دولة بوليسية وحشية . قاموا بالمداهمات والاعتقالات بعد منتصف الليل ، وقاموا بنقل المعتقلين مقنعين ، وضربوهم في مقر الشين بت . وكان هناك قتل كل ليلة ، ومنع للتجول كل ليلة ، وغارات انتقامية على منازل المواطنين الآمنين ، وحظر عسكري إسرائيلي كامل أو شبه كامل على أخبار الصحافة المستقلة عن الحرب .

وبقيت أنا ومل وفارامارزي وثلاثة مراسلين من بيروت في صور والقرى المجاورة بمساعدة أسر شيعية عرّضت نفسها للخطر من أجلنا . فقد ألقى الإسرائيليون القبض على الرجل الذي مكننا من الاتصال تلفونياً ببيروت ولندن . وأوقفوا مل ليلاً وأجبروه على أن يسوق سيارته بصور خلال منع التجول . وكان الإسرائيليون يقومون بجوار بيوتنا بتوقيف المواطنين بصورة عشوائية ، وتغطية رؤوسهم وجرهم بالحبال إلى مركز المخابرات . وكانوا يرغمون المدنيين على الجلوس فوق عرباتهم المصفحة وذلك لردع المقاومة عن مهاجمتها .

وذات يوم أوقف رجال الشين بت اثنين من أقارب الأسرة التي أقيم معها فانتقلت إلى فندق قذر بصور . وفي الساعات الأولى من الصباح قرع الباب عميل للشين بت يحرسه بوليس الحدود . وعندما فتحت الباب أمرني بالخروج من الغرفة . ولم تكد عيني تقع عليه حتى عرفته . إذ كان الجنود الايرلنديون بقوة الأمم المتحدة قد أخبروني قبل ذلك بأربع سنوات بأنهم يرجحون أنه حضر مقتل اثنين من جنودهم وهما باريت وسمولهورن . وكان هذا العميل «أبو شوقي» . وكنت عندئذ متعباً وشعرت بالخوف منه . وعلى أي حال سألته : «هل كنت هناك مع باريت وسمولهورن؟» فنظر الي شزراً وصرخ بشكل مسموم : «انك قذر . عد إلى غرفتك» . لم أتهمه . لكنه فهم ما عنيته . لقد كان يعرف الاسمين . وعندما فتحت الباب بعد بضع ثوان كان قد اختفى .

وفي ٩ آذار/ مارس ١٩٨٥ انفجرت سيارة ملغومة بالقرب من مكتب الشيخ محمد حسين فضل الله في بيروت . وكان الأميركيون قد ادعوا أن الشيخ فضل الله شجع الفئات التي قامت بنسف ثكنة المارينز في بيروت . وقد كشفت جريدة «واشنطن بوست» فيما بعد عن هذا الحادث فقالت انه كان من تدبير عملاء أجهزة المخابرات المركزية الأميركية . وقتل في هذا الحادث ما يزيد على ٨٠ شخصاً أغلبيتهم الساحقة من المواطنين الأبرياء . ورفع حزب الله يافطة فوق مكان الدمار الذي أحدثته هذه القنبلة كتب عليها : «هذا من صنع الولايات المتحدة» . وقد كانوا على صواب .

وفي هذه الأثناء تعرّض الإسرائيليون لعملية تفجير انتحارية جديدة عندما اقتحم أحد الشبان الشيعة بسيارته قافلة عسكرية إسرائيلية بالقرب من مرجعيون . فقتل على الفور ١٢ من الإسرائيليين . فردّ الإسرائيليون بفرض قيود جديدة حظروا بموجبها على أهل الجنوب أن يقود أحدهم السيارة بمفرده . إذ اعتقدوا أن لن يرافق أحد صاحب سيارة انتحارية . وفي الوقت ذاته صبوا جام غضبهم على أهالي قرية الزرارية شمالي نهر الليطاني ، فسحقوا السيارات دون إنذار بدباباتهم وقتلوا من فيها من المسلحين والعجزة والنساء بلا رحمة .

وقبل أن يغادر الجنود الإسرائيليون ساحة القرية ، تركوا رسالة مكتوبة بالدهان الأحمر : «هذا هو انتقام الجيش الإسرائيلي» . وأخبرني واحد ممن نجوا أن جندياً لبنانياً جاء من نقطة الحراسة خارج البلدة وألقى ببندقيته على الأرض ورفع يديه مستسلماً . لكن ضابطاً إسرائيلياً توجه إليه وأطلق النار على رأسه فقتله .

وفي صور طبّق الإسرائيليون نظاماً لمنع التجوّل أكثر قسوة . فأطلقوا النار على سائق تاكسي يدعى حسن سكيكي فقتلوه . وكان وحده في سيارته . وعندما نقلت جثته إلى المستشفى كان وجهه

مقطعاً بسكين أو بلطة . فتوجهنا أنا وفارامارزي في اليوم التالي إلى مكان الحادث . وعندما عدنا أوقفنا جنود إسرائيليون في طريق بين البساتين . وكان هناك جندي يقف على حافة الطريق بدون خوذة أو بيريه ويحمل في يده بلطة . وعندما قلنا بأننا صحفيون ، لم يتفوهوا بكلمة بل استمروا بمراقبتنا في صمت . أما نحن فقد انسحبنا في سيارتنا وكلنا حذر وترقب .

وفي ١٥ آذار/ مارس ١٩٨٥ عدت إلى بيروت وسط الركام الذي سببه قصف المقاومة للمواقع الإسرائيلية على نهر الليطاني . وكان الدخان لا يزال يتصاعد من المؤن الإسرائيلية المحترقة . وكانت الأغبرة وعلائم التعب تعلو وجوه الإسرائيليين ، وأصوات انفجار قنابل المورتر لا تزال تدوي وأنا على الجسر . وكان لا يزال أمامي ساعتان للوصول إلى بيتي ببيروت حيث يمكنني أن أحلق ذقني وأن أستمتع بحمام ساخن ، وأن أنام براحة وطمأنينة .

ذهبت إلى مكاتب الأسوشيتد برس وأرسلت تقريري عن الجنوب إلى جريدة التايمز . وهناك وجدت أندرسون . وبدا لي بالرغم من مرحه عصبياً بعض الشيء . وعندما جلسنا في مكتبه الخاص حدثته عن أحوال الجنوب وعن الوحشية التي يتقاتل فيها الطرفان . وعندما سألته عن الأوضاع في بيروت ، أجاب : «لا بأس» لكنه صمت برهة ، ثم قال :

ـ أرجوك أن لا تخبر أسرتي . فقد وقع لي بالأمس حادث غريب بالقرب من الحمام العسكري . فبينما كنت عائداً بسيارتي من البيت إلى المكتب بعد الغداء حاول أربعة أشخاص في سيارة مرسيدس أن يعترضوا طريقي . لكنني انحرفت انحرافاً شديداً إلى اليسار وهربت . فإذا أخبرت أسرتي فسوف يستولي عليها الخوف . ولاضرورة لذلك . فربما كانوا زمرة من المغامرين الذين أرادوا تخويفي لتسلية أنفسهم على حساب أحد الأميركيين .

وفي تلك الليلة التقينا أنا ومل وفارامارزي مع أندرسون في شقة هذا الأخير . وكانت الأبواب مشرعة في وجه نسيم الليل البحري . لم نتحدث عن الحادث الغريب الذي تعرض له تيري أندرسون في اليوم السابق . لكن تحدثنا عن خطف جوناثان رايت الذي سبق للفلسطينيين أن خطفوه في البقاع عام ١٩٨٤ وأفلت منهم . وتحدثنا كذلك عن حجز أربعة من الموظفين اللبنانيين بمكتب الأسوشيتد برس لمدة ٢٤ ساعة بعد ذلك بشهر . وروى تيري أندرسون نكات تفجر الضحك عن محاولة اختطافي في العام السابق عندما حاول أربعة مسلحين أن يوقفوا سيارتي . وعندما أفلت منهم طاردوني عبر شوارع بيروت مطاردة أشبه بأحداث فيلم «العميل الفرنسي» .

وبينما أخذ مل يتحدث عن اعتزامه مباراة أندرسون في التنس صباح اليوم التالي ،أصرّ هذا على

أن مل لن يتمكن من أن يفيق من نومه . وكان مل معروفاً بالنوم الطويل . وكنت متعباً ولكنني تابعت الحديث عن حوادث الخطف . وأراد أندرسون أن يستفزني فقال :

ـ اسمع يا فيسكي ، لقد تمكنت أنتَ من الهرب من أولئك الأشخاص في السنة الماضية لأنك مجنون ولأنك تسوق السيارة كالمعتوهين . وعلى أي حال فقد فكرت في هذا الأمر ،ووجدت أن جميع الذين خطفوا تقريباً أطلق سراحهم بعد فترة وجيزة . هناك دائماً تسوية للأمور . فقلت له :

ـ اسمع يا تيري ، أعتقد أنه عليك أن تقاوم . يجب عليك أن تكافح . ولا أعتقد بأنه ينبغي علينا أن نسمح بخطفنا مهما كان الثمن .

ظللت سنوات أذكر هذه الكلمات . هل كنت على صواب أم على خطأ؟ على أي حال قال أندرسون وهو يبتسم ويحدق بعينيه من وراء نظارتيه السميكتين :

ـ فيسكي ، لقد فقدت عقلك . انهم مسلحون بالبنادق . ولا فرصة لك للنجاة منهم . كنت محظوظاً في المرة الأخيرة . وإذا عادوا فمن الأفضل لك أن تسمح لهم بأخذك .

وعادوا إليه في صباح اليوم التالي .

الفصل السادس عشر

انتظريني...

«مادلين حبيبتي ، قلبي ، رأيت ابنتنا ليل أمس على شاشة التلفزيون ، فبكيت فرحاً . رأيتها لمدة ثانيتين أو ثلاث ، لكنها كانت كافية لأن ألمح شعرك الناعم وعينيك الجميلّتين اللامعتين . لا أستطيع أن أصف لك كيف تكون الأشهر التي تنقطع فيها الأخبار . شاهد حرسنا صورتكما على الشاشة في أخبار المساء الأولى ، فأحضروا جهاز التلفزيون إلى غرفتي كي أشاهدكما في الأخبار المتأخرة . . .

لا أتوقف عن التفكير بك والتحدث إليك كل ليلة وفي ساعات الصباح الباكرة . تلك هي أصعب الأوقات . لكن التفكير فيك يساعدني . . . إنني افتقدكما .

لم أكن أتصور أنه من الممكن أن يتألم الإنسان إلى هذا الحد» .

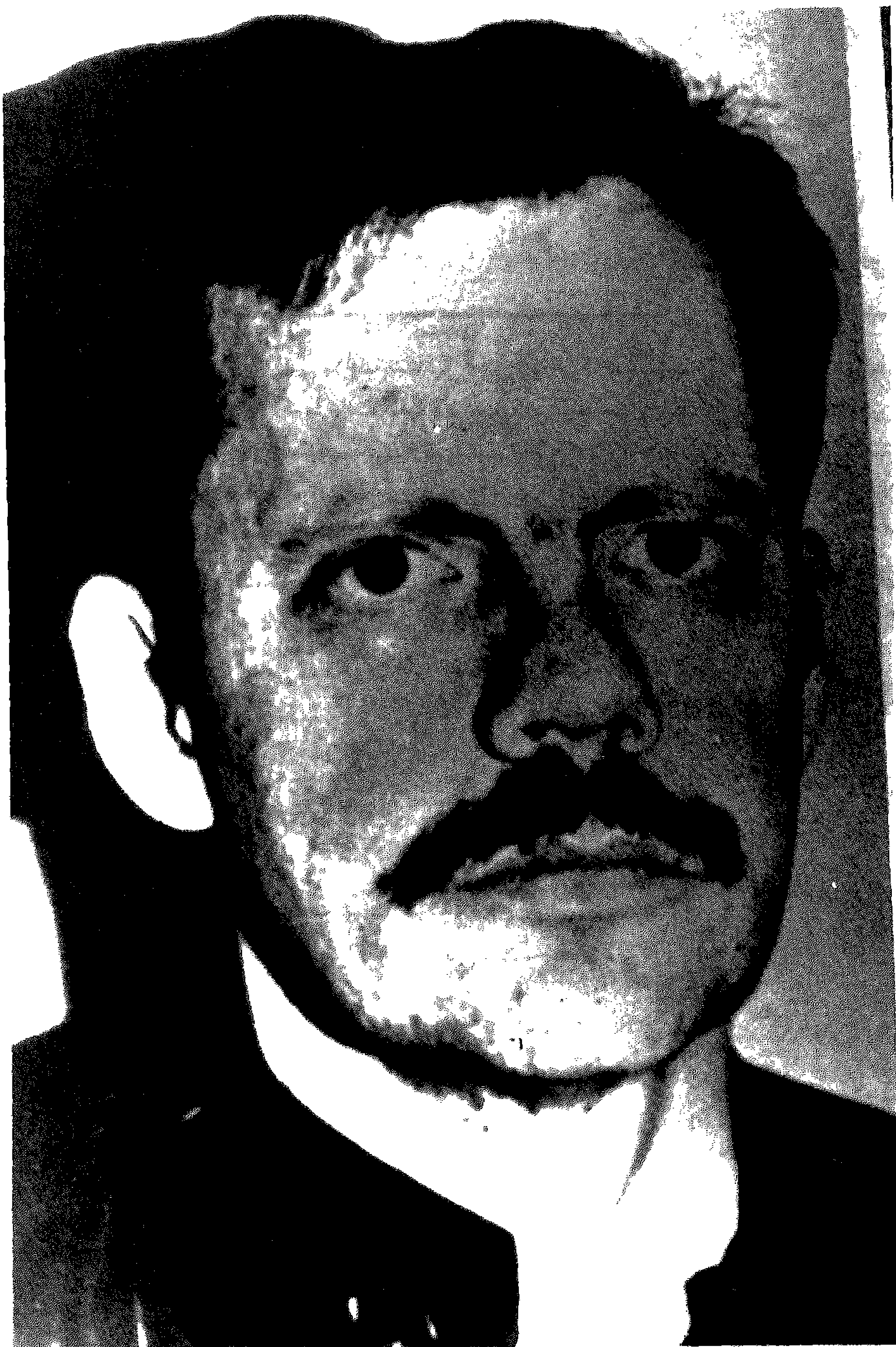
الرهينة الأميركية تيري أندرسون
بيروت الغربية ، ٨ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٨٥ .

«انتظريني فسوف أعود ،
انتظريني بكل قوة ،
انتظريني لأنني سأعود متحدّياً كل موت ،
ودعي أولئك الذين لا ينتظرون يقولون إنني كنت محظوظاً .
لن يفهموا أنه في أحضان الموت
أنقذتني أنا بانتظارك .
أنت وأنا وحدنا نفهم كيف نجوت .
ذلك لأنك انتظرت ، كما لم ينتظر أحد» .

من شعر قسطنطين سيمونوف

لقد خطفوا أندرسون . . . مستحيل !

كنت لا أزال في سيارتي وأنا أوقفها تحت منزلي عندما صرخ رود نوردلاند مراسل «النيوزويك» من نافذة سيارة أجرة :



تيري أندرسون

ـ لقد خطفوا أندرسون . هذا صحيح . خطفوه بينما كان يلعب التنس قرب جامع عين المريسة (ببيروت على الكورنيش) . . .هذا صحيح . كان مل معه . فصرخت :

ـ مستحيل ! فقال :

ـ الأفضل أن تكون حذراً . خطفوه على الطريق أمام الجامع .

لم يكن الجامع بحجارته الرمادية ومئذنته الرشيقة يبعد أكثر من تسع مئة متر عن المكان الذي كنت أوقف فيه سيارتي . وكان مل يسكن في شقة مقابلة للجامع .

وفي منزل تيري أندرسون كانت مادلين زوجته حاملاً للمرة الثانية . كانت جالسة على الصوفا تنتحب ورأسها بين يديها . وكان الزميل فولي هناك يحاول أن يواسيها ويقول بين الفينة والفينة :

ـ ستنتهي على خير . ستنتهي على خير .

وعندما رآني قال :

ـ ما سمعته صحيح . أوقفوا مل عند الحائط . كانوا ثلاثة . ومل الآن بخير في مكتب الأسوشيتد برس . أخذوا تيري إلى وادي أبو جميل .

ووادي أبو جميل هو الحي اليهودي القديم الذي كان عندئذ تحت سيطرة حزب الله !

ذهبت إلى مكتب الأسوشيتد برس وأنا أشعر كأنني في عالم آخر . كانت أمواج البحر تتكسر كالعادة على صخور الشاطئ . وأشجار النخيل تلقي ظلالها على نوافذ السيارة ، والمارّة يشربون القهوة . لكن تيري خطف ـ تيري القوي المندفع الذي يمكن الاعتماد عليه . تيري الذي كان يرفع يده إلى يمين وجهه إشارة إلى الشعور بالطمأنينة وعدم القلق . تيري الرجل الذي عرف كيف يبقى حياً .

كان لابل في غرفة التلكس يتصل بنيويورك ويخبر الأسوشيتد برس بأنهم فقدوا رئيساً آخر . وألقى علي نظرة خاطفة وقال :

ـ فيسك ، ذلك صحيح . ليس لدي وقت للكلام . مل هنا . إذهب إليه .

قال لابل هذا وأشار إلى الشرفة . ونظرت وإذا بمل واقف يحدق في الشارع وكأنه يحاول استعادة لحظات عاشها . قلت :

ـ من البداية يا مل . ماذا حدث؟ أين هو .

لكن بدا مل وكأنه فقد صخبه ، وحبه للتكرار ، وحكمته الغريزية ، وشبابه ! قال :

ـ عندما انتهينا من التنس توجهنا بسيارة تيري إلى منزلي لنغيّر ثيابنا . أوقف تيري سيارته أمام منزلي . وفي الحال توقفت سيارة أمامنا . كانت سيارة مرسيدس خضراء اللون يستقلها ثلاثة أشخاص . وكنت قد لمحت هذه السيارة نفسها قبل أن نبدأ باللعب وبعد انتهائنا منه . ولكنني لم أعر الأمر أي اهتمام . كان الثلاثة ذوي لحى كثيفة . وجدت نفسي أقول لتيري : «لست مرتاحاً لما أرى» . وفي هذه اللحظة فتح الخاطفون باب السيارة . ودفعني أحدهم إلى الحائط وشهر مسدساً في وجهي . لم يتفوّه بكلمة واحدة . نعم لم يتفوّه بكلمة واحدة وهو يدفعني . أما الاثنان الآخران فقد أمسكا بتيري وجرّاه إلى الخلف . فنظر إليّ وكأنه يتوقع مني أن أعمل شيئاً . وقال لي شيئاً . ولكنني لم أسمعه .

وكاد مل أن يبكي وهو يقول :

ـ لقد نظر إليّ يا فيسك . ظل ينظر إليّ . وسقطت نظارتاه في الشارع . وضعوه في المقعد الخلفي في سيارتهم التي كانت تغطي الستائر نوافذها الخلفية . لم أتمكن من رؤيته داخل السيارة . وانطلقت السيارة إلى اليسار باتجاه وادي أبو جميل .

بدأت أفهم لماذا أخذت سيارة الخاطفين طريق وادي أبو جميل . لم يكن على هذه الطريق أية حواجز لأمل الآن . كان هناك حاجز ، ولكنه أزيل منذ مدة . وهكذا اختار الخاطفون طريقاً بلا حواجز يوصل إلى الخطوط الأمامية ، أي خط التماس في بيروت الغربية .

وقال مل :

ـ ركبت سيارة أندرسون وذهبت إلى هناك فلم أعثر على شيء . لقد تمكنوا منه . ولا ريب أنهم كانوا بانتظاره .

ونظر مل إلى الشارع وكأن باستطاعته أن يعيد أندرسون بغضبه وقال :

ـ كان هناك أناس يا فيسك . كان هناك كثرة منهم . ورأوا ما حدث لكنهم لم يحركوا ساكناً .

طبعاً لا ! فليس سوى حادث خطف آخر ببيروت .

عدت إلى شقة أندرسون . كانت زوجته مادلين تبكي بينما كان فولي يواسيها . قالت :

ـ أنظر يا روبرت . أنظر إلى ما كتبه تيري ليلة البارحة على الورقة المعلقة على باب الثلاجة .

كتب قائمة بالأغراض التي نحتاج إليها بالعربية . واللغة ليست جيدة بالطبع ، لكنه كان مواظباً على تعلمها .

وانهمرت الدموع من عينيها وهي تقول :

ـ يا رب ! انهم لن يؤذوه .

ثم تحسست سلسلة ذهبية حول عنقها ، فإذا عليها جزء من آية قرآنية وقالت :

ـ لدي نصف الآية ، ولديه النصف الآخر ، من المؤكد أنهم حين يرونها سيعاملونه بلطف ، ولن يؤذوه .

ثم أخذت تبكي من غير توقف .

ذهبت إلى مسجد عين المريسة حيث وقع الحادث . خُطف أندرسون على رصيف الشارع تحت صورة كبيرة للرئيس جمال عبد الناصر . وكان على الطريق المقابل حاجز مهجور من أكياس الرمل لمسلحي أمل . ولم يكن في بيروت الغربية دبلوماسيون أميركيون لمتابعة قضية أندرسون . فبعد تهديدات ريغن وخطبه عن «الإرهاب الدولي» والعنترة ، وإبقاء العلم الأميركي مرفوعاً ، اضطر الدبلوماسيون الأميركيون إلى «إعادة انتشارهم» في بيروت الشرقية . لكن حتى هناك تعرضوا للتفجير . وكان لا يزال على الجانب الآخر من الجامع دبلوماسي إيرلندي اسمه بيراس ماك اينري ، وهو صديق قديم لي في دبلن . كان يعرف أندرسون وعلى استعداد للمساعدة .

أظهر هذا الدبلوماسي الإيرلندي شجاعة كبيرة يتجاهل الأميركيون أمثالها كعادتهم . إذ اتصل بالسفارة الأميركية في بيروت الشرقية وسألهم إذا كان بإمكانه أن يمثلهم في بيروت الغربية بخصوص قضية أندرسون ، في وقت لم يكن أحد يقدم على تمثيل «الشيطان الأكبر» (أميركا) في بيروت الغربية . فتوجه بهذه الصفة وبصحبتي إلى مكاتب حركة أمل . وقدم لنا المسؤولون الشاي والقهوة والجرائد بالرغم من انشغالهم .

وأخيراً جاء ضابط أمل المسؤول قرب شاتيلا . وسألنا عن اسم صاحبنا المخطوف فقلنا تيري أندرسون . وأخذ يتصل بالتلفون ، وفجأة جاء خبر عن هجوم الإسرائيليين على قرية في الجنوب . لكنه عاد مرة أخرى وسأل عن الاسم .

فقلنا له : أندرسون . فسأل :

ـ هل هو من السفارة الإيرلندية ! فقلت :

ـ لا انه صحفي ، ومن أهم الصحفيين في بيروت . ولهذا اختطفوه . ولا بد وأنهم كانوا يراقبونه منذ أيام .

وأخبرته عن سيارة المرسيدس التي حاولت قطع الطريق عليه في اليوم الذي سبق يوم اختطافه . فعاد وسأل :

ـ ما هي جنسيته؟ هل هو إيرلندي؟

فأوضحنا له أنه أميركي ، لكن التلفون رنّ مرة أخرى . وبعد انتهاء المكالمة قام عن كرسيه والتفت إلينا وقال :

ـ الإسرائيليون يتقدمون باتجاه الخرّوب .

ودخل إلى غرفة مجاورة . ثم عاد وهو يعتذر وقال :

ـ آسف ،علي أن أذهب . فاستوقفه ماك اينري وقال :

ـ نرجوك هذه قضية مهمة جداً . مواطن أميركي اختطف . إنه صديقنا . إنه رجل طيب . نرجوك مساعدته .

وصافحنا وذهب . وظللنا طوال اليوم ننتقل من مكان إلى آخر ، ومن شخص إلى آخر . ويبدو أن قضية الإسرائيليين شغلت المسؤول وغيره لأنه لم يكن في الحقيقة يستمع إلينا .

ذهبنا لمقابلة مسؤول آخر في حركة أمل . كان رجلاً هادئاً رصيناً وكنت أعرفه شخصياً . ولكنه أجاب :

ـ إسمع يا روبرت . يجب أن أكون صريحاً معك . لا يمكنني مساعدتك في هذا الأمر أبداً . هل تذكر حادثة روبرت ريجير وكريستيان جوبير؟ لقد استطعنا إنقاذهما . ولكن هل تعلم كيف أمكننا ذلك؟ كنت أعلم أن أحدهما كان مريضاً ، وكان يأخذ نوعاً معيناً من الأدوية . أرسلت رجالنا إلى جميع صيدليات بيروت الغربية إلى أن تمكنّا من معرفة الصيدلية التي تمّ الحصول على هذا الدواء منها . وبعد ذلك تمكنا من معرفة اسم الشخص الذي اشترى الدواء . وهكذا أمكننا معرفة هويّة الخاطفين . ومن ثم أمكننا إطلاق سراح الرهينتين . ولكن بعد ذلك حذّروني من المحاولة مرة

أخرى . قاموا بزيارتي وهدّدوني بالقتل إن أنا عدت إلى مثل هذا العمل . اضطررت عندئذ إلى الاستقالة من احدى الوظائف في الحركة .أنا آسف لا أستطيع مساعدتك .

«حزب الله» لم تعد هاتان الكلمتان تشيران إلى شيء خيالي ، بل إلى شيء حقيقي . وأخذ زميلي لابل الذي يعمل بالأسوشيتد برس يعلل النفس بأن الحادث كان مجرد خطأ ، وأن المسلح ظنّ أنه دبلوماسي ، وعندما يتأكد له أنه صحفي ، فسوف يطلق سراحه بعد يوم أو اثنين مع الاعتذار . ولكنا في أعماقنا كنا نعرف أن هذا غير صحيح ، وأن أندرسون كان مقصوداً .

كانت زوجة لابل ، إيلين باول ، قد وصلت قبل ذلك بستة أشهر من نيويورك وأخذت تعمل مع زوجها بالأسوشيتد برس . وكانت امرأة نحيفة شعرها أسمر . وكثيراً ما كانت تطرح أسئلة إدارية ونحن نبعث الأخبار . وقد برهنت على أنها كزوجها شجاعة وصلبة .

أخذت ايلين أيضاً تطرق أبواب الميليشيات بحثاً عن أندرسون . ذهبت إلى الدروز وإلى أمل وإلى من بقي من «المرابطون» . كما أنها ذهبت إلى مكتب رئيس الوزراء . توسّلت إلى الجميع وجادلت الجميع من أجله . وأبرق لابل إلى مراسل الأسوشيتد برس في دمشق يطلب مساعدة سوريا . صحيح أن بيروت الغربية كانت تخضع للميليشيات ،لكن البقاع كان تحت سيطرة السوريين .

وفي عصر ذلك اليوم ، أي بعد نحو أربع وعشرين ساعة من اختطاف أندرسون ، دعا لابل إلى مؤتمر صحفي . وكان الإعياء بادياً عليه وهو يدخن بصورة مستمرة . وفي السنوات القادمة كنت أعيد مشاهدة وقائع المؤتمر على الفيديو ، وأعجب كيف نضج لابل في غضون أربع وعشرين ساعة ،فتولى إدارة مكتب الأسوشيتد برس . استهل المؤتمر بالتصريح التالي :

ـ ليس لدينا أخبار جديدة . لا نزال نسعى إلى إنقاذ تيري . وفي هذه الأثناء سنبقى في بيروت لتغطية أخبار لبنان .

لكن الصحفيين الآخرين رأوا غير ذلك ، وأخذوا يغادرون بيروت . وأعدّت إيلين لزوجها مذكرة عن أحوال الصحفيين جاء فيها :

ـ رحّلت السفارة الأميركية ٢٩ شخصاً بينهم بعض الدبلوماسيين خلال الأيام القليلة الماضية . غادر بيروت تشارلز والاس مراسل «لوس أنجلس تايمز» بناء على طلب جريدته . طلبت شركة تلفزيون أن بي سي الأميركية من فريقها مغادرة لبنان . وبالرغم من أن دروين جونسون الذي يعمل مع شركة «اي .بي .سي» أكد على الحاجة إليه في بيروت ، فقد طلب منه في اليوم التالي أن يخرج من

بيروت ومن لبنان كله وأذاعت رويتر : «بتس سيبدأ إجازته قبل موعدها . ماكلين في بيروت الشرقية . آندرو تارنوسكي وجوناثان كوهوت في الكومودور ، ولا يمكنهما الخروج منه . ماسلند من صحيفة «فيلادلفيا أنكويرز» لن يترك بيته . كفنرز وزوجته (النيويورك تايمز) في عمّان . جيرالد بت (البي . بي . سي .) طُلب منه كما قال لي الخروج من لبنان .

اتصل بي أحد مسؤولي شركة تلفزيون «سي .بي .اس» . الأميركية من مانهاتن . أراد أن يعرف إذا كان جميع الغربيين في لبنان معرضين للخطف الآن . أجبت أنني لا أعرف ، مع أنه كان ينبغي لي أن أعرف . إذ اختطف بكلي في أيار/ مايو ١٩٨٤ . ولكنني كنت أقول إنه دبلوماسي . ثم اختطف لفيك من شركة سي . أن . أن ولكنه استطاع الافلات من خاطفيه . كان هناك من يجزم بأنه قد تم افتداؤه من قبل شركته ، وإن كانت الشركة لا تزال تنفي ذلك . واختطف آخرون . ففي ٣ كانون ال أول/ ديسمبر ١٩٨٤ اختطف بيتر كلبورن مدير مكتبة الجامعة الأميركية في بيروت من أمام منزله . وفي كانون الثاني/ يناير ١٩٨٥ اختطف الأب الكاثوليكي لورنس جنكو .

على أن اهتمامي بالفوضى التي نشأت على أثر التقهقر الإسرائيلي في جنوب لبنان لم يترك لي وقتاً للتفكير في أهمية خطف اثنين من البريطانيين . ففي ١٤ آذار/ مارس ١٩٨٥ وقبل اختطاف تيري أندرسون بيومين فقط خُطف جفري ناش ـ وهو اختصاصي في المعادن وكان يعمل في المعهد الصناعي اللبناني . خُطف في شارع المكحول من قبل ثلاثة أشخاص يستقلون سيارة مرسيدس صفراء . وفي اليوم التالي وقبل اختطاف أندرسون باثنتي عشرة ساعة ونصف الساعة اختطف بريان لفيك مدير عام شركة كورال للبترول . سحبه خمسة من المسلحين من داخل سيارته البويك في شارع أوستراليا ، ووضعوه في سيارتهم وانطلقوا به نحو ساقية الجنزير . لماذا؟ من أجل الفدية . ما الذي فعلته بريطانيا واستحقت به حقد اللبنانيين؟

كنا نعلم أن المخطوفين كانوا يُنقلون في كثير من الأحيان إلى سهل البقاع . وهذا ما حدث للفيك الذي تمكن من الفرار أو أطلق سراحه بالقرب من بعلبك . ترى ، هل نُقل تيري أندرسون إلى هناك أيضاً؟ جلسنا أنا ولابل نفكر في الأمر . قلت له :

ـ علينا أن نفكر كالخاطفين .ما الذي سيفعلونه الآن؟

لم يرق هذا للابل وقال :

ـ روبرت ، لدي الآن من المتاعب كمراسل ما يغنيني عن أن أتخيّل نفسي خاطف ابن «كذا» . قلت :

ـ أجل . لكن ماذا كنتَ ستفعل لو أنك أنت خاطف أندرسون؟ قال :

ـ أقلل من طعامه ليخف وزنه .

طلبت منه أن يكون جاداً فقال :

ـ أحبسه في مكان ما . وعندما تهدأ الضجة أخرجه من بيروت . قلت :

ـ إلى أين؟ قال وهو يهز كتفيه :

ـ إلى البقاع؟ بعلبك؟

كان يجلس معنا في المكتب سائق الأسوشيتد برس محي الدين حبال . وهو مسلم سنّي من طرابلس . وفي شهر تشرين الأول/ أكتوبر الماضي كان قد اختطف مع ثلاثة من مراسلي الأسوشيتد برس . وأخبره الخاطفون آنذاك أنهم يريدون احتجاز المراسلين فقط وأن بإمكانه أن يذهب طليقاً . ولكنه أصرّ على أن يبقى مع أصدقائه وأن يحتجز معهم . وتم الإفراج عنهم جميعاً فيما بعد وذلك بجهود تيري أندرسون . سألت محي الدين إذا كان يوافق على ما قاله لابل . أجاب بأنه يبدو معقولاً . وهنا سألته إذا كان على استعداد لأن يرافقني إلى بعلبك صبيحة الغد . فقال :

ـ لِمَ لا يا حبيبي .

خطر ببالي أن نسلك الطريق الجبلي إلى بعلبك ـ وهو الطريق الذي يحتمل أن سلكه الخاطفون . وقلت في نفسي إننا لو توقفنا عند كل حاجز وزودْنا مسلحيه بصورة لأندرسون ، ثم ذهبنا إلى أمل وحزب الله وحتى لرجال الأمن السوريين وفعلنا الشيء ذاته ، فقد يتعرف أحدهم عليه وهو محشور في صندوق سيارة الخاطفين . وراقت الفكرة لحبّال .

وفي فجر يوم ١٧ آذار/ مارس ١٩٨٥ تركت بيروت بصحبة محي الدين الحبال . وكان بل وزهير سعادة مصور الأسوشيتد برس قد أعدا لنا ٦٠ صورة لتيري أندرسون مع نبذة عن سيرته المهنية وعن تفاصيل اختطافه . ذهبنا في سيارتي . كنت أسوق ومعي على المقعد الأمامي الحبال حاملاً الصور . اختلست إليه النظر فوجدته ينظر إلى صورة تيري مطولاً ثم يهز رأسه ويبتسم ابتسامة حزينة تفيض رأفة وشفقة . وقال كأنه يحدث نفسه : «إنه رجل طيب . لماذا فعلوا هذا معه؟» كان جوابي انهم خطفوه لأنه أميركي . ولكن محي الدين لم يقتنع . قال :

ـ ولكن هناك العديد من الأميركيين في بيروت .

سألت الحبال :

ـ لماذا خطفوه إذن؟

فصمت خمس دقائق كاملة . وفي تلك الأثناء قطعنا الأوزاعي باتجاه خلدة . ومررنا بالمسلحين الشيعة يقفون فوق مخابئ المارينز . وأخيراً قال :

ـ لم يخطفوه لمجرد أنه أميركي . إنه مدير . إنه مدير كبير . والكل يعرفه . ظهر على التلفزيون هنا بعد أن خطفونا في السنة الماضية . لقد عرفه الناس .

عندما وصلنا إلى خرائب محطة إنزال المارينز في غولدن بيتش قدمنا صورة أندرسون لمسلحي أمل المرابطين عند حاجز لهم هناك . وكان هؤلاء في غاية اللطف والبشر . وقالوا إنهم سمعوا بخطفه . وفي خلدة قدمنا صورة أخرى لمسلحي الحزب التقدمي الاشتراكي الذي يتزعمه جنبلاط . ووضع الحبال صورة على الزجاج الأمامي للسيارة . فكان تيري ينظر إلينا ونحن نسير بوجهه الممتلئ وعينيه المركزتين على الكاميرا ، وشاربه الأنيق . لقد كانت صورته كمئات من صوره التي شاهدناها من قبل . واعتاد الناس عندما يختطف لهم أحد أن يطبعوا المئات من صوره ويوزعوها . والآن جاء دور أندرسون . كان المرء يسمع عن خطف الآخرين ، لكن عندما يختطف قريبه أو صديقه يصعب عليه تصديق ذلك . واكتشف حبال أننا كنا طيلة الوقت نتحدث عن أندرسون بصيغة الماضي . . . كان ، لم يكن ، فكأنه لم يعد موجوداً ،أو كأنه ابتلعته الهاوية فلم يعد له وجود في عالمنا .

توجهنا أنا وحبال إلى بحمدون . وفي شوارعها المدمرة التي سبق لي ولأندرسون أن واجهنا فيها المسلحون خلال القصف أثناء حرب الشوف قبل ١٨ شهراً قدمنا صورة أندرسون للمسلحين . وأذكر أنني وقفت مع أندرسون في الشارع ذاته وأنه أخذ عندئذ يجادل في أمر هوياتنا وبطاقاتنا الصحفية . لكن حتى عندئذ كانوا قد بدأوا ينظرون إلينا على أننا أجانب لا صحفيون . أي أن الثقة بنا كانت عندئذ قد أخذت تتبدد . لكن المسلحين أبدوا تعاطفاً واضحاً ولطفاً . قال أحدهم :

ـ لا تقلقا . سوف نعثر على صديقكما .

في بعلبك أكد لنا العقيد محمد عزمي من المخابرات السورية أنه تلقى من حكومته بدمشق أمراً بالبحث عن أندرسون . وطلب صوراً له وأخذ عشراً منها . وزودنا بأسماء ضباط من الجيش السوري بالبقاع . ثم أطلعنا على رسالة تلكس عسكرية بالعربية من دمشق تأمر بالبحث عن أندرسون في بعلبك . وإذن فالسوريون اعتقدوا أنه قد يكون هناك . وطلب عزمي أن نوزع الصور على الضباط وتمنى لنا التوفيق .

وقدمنا الصور للإيرانيين في بعلبك . فشكرونا بشكل رسمي . ولم يكن موسوي هناك . فقدمنا الصور لمقاتليه . ورجوناهم مرة بعد أخرى بأن يساعدونا . كان حالنا عندئذ كحال نساء بيروت اللواتي كنّ يأتين إلينا بتلك الصور التي تدعو إلى الشفقة ، ويصفن لنا أحباءهن الذين خطفوا بدون أن يشاهد خطفهم أحد .

وفي الطريق إلى زحلة تحدث الحبال مع ضابط سوري من المظليين . وقدمنا له صورة لأندرسون . فدعانا إلى التحدث مع رجاله . فتحدثت أمام خمسين من رجاله عن طلبي لمساعدتهم في العثور على صديقي .فقابلوا حديثي بالانشراح وصفق الضابط . كان موقفي محزناً . وفي حين أنهم كانوا بالنسبة لي يمثلون أملاً عزيزاً ، فإنني أعتقد أنهم وجدوا في حديثي ما يخفف عنهم ضجر ما بعد الظهر .

وفي طريق عودتنا إلى بيروت كنا نراقب السيارات التي تمر بنا لعلنا نرى أندرسون في إحداها . قال الحبال :

ـ إذا رأينا الخاطفين خفف السرعة يا حبيبي ، فسوف أتحدث إليهم . طبعاً كنا سنتحدث مع الخاطفين ، ونقول لهم بأنهم أخطأوا في خطفه . كنا سنقول لهم بأنه مراسل صحفي وأنه جازف بحياته من أجل أن يكتب عما كان المارينز يفعلونه بشيعة برج البراجنة عام ١٩٨٣ ، وأنه جازف بحياته عام ١٩٨٢ لتغطية القصف الإسرائيلي للمدنيين وقتلهم . كنا سنؤكد لهم أننا لسنا أعداءهم وأن أندرسون رجل طيب . وبالطبع كانوا سيستمعون إلينا وأندرسون يسمع ما نقوله وهو محشور في صندوق سيارة .

كنا لا نزال نأمل أن يكون الخاطفون من أولئك الذين يعملون لحساب أنفسهم ، أي بدافع فردي . وكانت ايلين تقول :

ـ أدعو الله أن لا يكون حزب الله (الخاطف) .

لكن في تلك الليلة تبدد الوهم نهائياً . إذ تلقت وكالة رويتر مكالمة من شخص يتكلم بالعربية قال :

ـ الجهاد الإسلامي . بسم الله الرحمن الرحيم . القصاص لعنة من الله وملائكته وخلقه . إن احتجاز تيري أندرسون ، وبريان لفيك وجيري ناش يأتي في إطار عملياتنا المتواصلة ضد أميركا وعملائها . ونحن على يقين من أن بيروت الإسلامية تعج بالعملاء من كل الجهات ، وعليه فنحن نعمل ليلاً ونهاراً على تطهير المنطقة من أي عنصر مخرب من عناصر الموساد ، ووكالة الإستخبارات

الأميركية المركزية (السي .آي .اي) أو حلفائها من وكالات الاستخبارات . إننا نوجه تحذيراً أخيراً للأجانب المقيمين في مناطقنا الإسلامية أن يحترموا ضيافتنا وأن لا يستغلوا وجودهم بيننا للقيام بنشاطات هدامة ضدنا . إن انتحال صفة الصحفي أو التاجر أو الصناعي أو العالم أو رجل الدين لن يجدي الجواسيس الذين يقيمون بيننا . لقد كشف أمرهم وعقابهم معروف . . . لقد أجلنا هذا البيان إلى أن أُخرج الثلاثة من بيروت .

كان هذا أمراً مرعباً . تيري أندرسون لم يكن جاسوساً . نحن لسنا عملاء . ان هذا الافتراء قد يُستغَل لقتله . لا ريب في أن هؤلاء الذين يتحدثون عن رحمة الله وعن ملائكته سيظهرون بعض الرحمة نحو رهينتهم . ذهبت إلى شقة تيري . كان عليّ أن أنقل هذا الخبر الرهيب إلى زوجته مادلين . وكتبت ما اعتزمت قوله على الآلة الكاتبة . أخذت رسالتي المكتوبة وذهبت بها إلى المطبخ .أرادت أن تقرأها على انفراد . عادت والدموع تنهمر فوق خديها . سألتني رأيي فيما قاله حزب الله . أخبرتها بأنني أعتقد أن تيري لا يزال في بيروت وأنه لو كان حقيقة خارج بيروت لما كان هناك من ضرورة لحزب الله كي يقول ذلك . ولكنني أخبرتها أن قضية تيري قد تطول أكثر من الحالات الأخرى . كان رأيي أن إطلاق سراحه قد يقتضي بضعة شهور . فقالت بأن ذلك رأيها أيضاً .

واصلت ايلين باول كفاحها من أجل تيري . أخذت تتردد على أمل مرتين في اليوم . أما الحبال فقد أخذ فاروق نصار لمقابلة الشيخ محمد فضل الله المرشد الديني لحزب الله . وكان أندرسون قد أجرى مقابلة معه في اليوم السابق لاختطافه . ومن المؤكد أن مقاتلي حزب الله كانوا يعرفون من هو أندرسون . ووعد الشيخ فضل الله أن يفعل ما بوسعه من أجل أندرسون . قال :

ـ كان في بيتي . ولهذا فهو بحمايتي . إنني أعتبره كصديقي .

على أن إيلين صارت تعتقد بأن الخطر يتهدد زوجها لابل . فلازم هذا مكتبه . وصار ينام في فندق الكومودور المقابل له . فعرضت عليه أن آخذه بالسيارة إلى مطعم ريجولتو (الإيطالي) . وسقت بسرعة هائلة في الشوارع التي أصبحت مألوفة لدي . وعلى أي حال فإنني في الشهور والسنين التالية صرت أسوق السيارة دائماً على ذلك النحو . وفي طريقنا من الروشة إلى الحمام العسكري سألت لابل كيف يشعر وهو معي . قال :

ـ تريد أن تعرف؟ لعن الله الخوف !

وسألته عن الخطف فقال :

ـ الخطف كسرعتك في السير .

لم يكن المطعم يبعد أكثر من مئتي ياردة عن المكان الذي خُطف فيه أندرسون . سألني :

ـ ما الذي سيحدث لي ولك؟ قد نرى أندرسون غداً . وقد نراه في الأسبوع التالي . وقد لا نراه أبداً .

لكن هذا ما كنا نتحاشى التفكير فيه .

لكن تيري لم يمت . إلا أننا لم نعرف ذلك عندئذ . وما كنا سنعرف إلا بعد شهور كثيرة . والواقع أنه لم يكن يبعد عنا إلا أقل من نصف ميل . كان في دور أرضي مظلم رطب لفندق مدمر على خط التماس . وكان مقيداً كالحيوان بسلسلة مثبتة بالحائط ، يبكي في يأس وينتظر دقيقة بعد أخرى لحظة إعدامه .

عدت بلابل إلى المكتب . وسألته إن كان سيغادر بيروت . قال :

ـ ليس قبل العثور على تيري . قلت :

ـ وكم سيستغرق ذلك؟ قال :

ـ لا أدري ! قلت :

ـ هل تدرك أنك قد تكون المخطوف التالي؟ قال :

ـ أفكر في ذلك . وعليك أنت أيضاً أن تفعل مثلي .

بالطبع فكرت في ذلك . إذ حدث في مساء يوم من تشرين الثاني/ نوفمبر الماضي ١٩٨٤ أن حاول مسلحون في سيارة أن يوقفوا سيارتي بينما كنت في شارع مدام كوري . وكنت في صباح اليوم نفسه قد استمعت إلى مسيحي كان يحدثني عن تجاربه كمخطوف . وظللت طوال ذلك اليوم أفكر في وصفه لإطلاق سراحه . إذ أخرجه الخاطفون وهو معصوب العينين إلى الشمس . وظن بسبب الحرارة الشديدة أنهم سيعذبونه . كنت لا أزال أفكر فيه وأنا في السيارة ذلك المساء عندما سلّطت احدى السيارات أضواءها عليّ من الخلف وأخذ سائقها يزمر . وظلّ يزمر وهو يحاذيني وباب سيارته المقابل مفتوح ، ورأيت مسلحاً يطل منه ويصوب نحوي بندقية أك ـ ٤٧ ويطلب مني الوقوف على جانب الطريق .

كانت السيارة ملأى بالمسلحين . وكل ما تركز فيه انتباهي عندئذ هو شعرهم الهائج المتطاير في الهواء . وفي مثل هذه المناسبات يعمل العقل بطريقة غريبة . قلت في نفسي :

ـ انها النهاية ! نهاية المطاف ! ثم قلت ذلك بصوت عال وصحت :

ـ جاء دوري .

كنت أحاول أن أخرج نفسي من الحياة العادية السعيدة إلى عالم الظلام . وفي تلك الأثناء أخذ المسلح يصرخ ويأمرني بالوقوف .

وأدركت عندئذ أنه لا تزال هناك فسحة إلى شمال سيارته . كانت فسحة صغيرة ولكن كافية لمرور سيارتي . وتظاهرت بتخفيف السرعة كما لو كنت سأطيع أوامره وأتوقف ، لكنني انحرفت إلى الشمال بقوة وكبست على دواسة البنزين . وكدت من الخوف أن أعجز عن تحريك المقود لكن الخوف نفسه لا الشجاعة هو الذي مكنني من تحريكه . وارتطمت أنوار سيارتي الأمامية بسيارتهم من الخلف ، وهي سيارة صالون أميركية خضراء مهلهلة . وكان يجلس في الخلف أربعة مسلحين . فانحرف سائقهم بقوة إلى اليسار نحو وسط الشارع ليقطع علي الطريق .لكن حاجز سيارتهم الأمامي ضرب بحاجز سيارتي الخلفي . فإذا بي أندفع إلى الأمام وهم إلى الخلف . وانطلقت .

يبدو هذا في الأفلام سهلاً ، ولكنه ليس كذلك . تخطيت سيارتين ،لكنه لحق بي . ورأيت المسلح يمد جسمه إلى الخارج ويلوّح ببندقيته . وفي تلك الأثناء استخدمت السيارة أضواءها القوية وأخذت تتخطى السيارات للحاق بي . فتوجهت إلى الكومودور ويدي اليسرى على زامور السيارة والأخرى على المقود . فارتطمت بسيارة متوقفة ثم بأخرى . وكنت كلما ظننت أنني تخلصت منهم رأيتهم من جديد . وكان بيني وبينهم أربع سيارات والسائقون يخلون وسط الطريق خوفاً من اصطدامي بهم .

بدأ السائل ينقط على يدي وعلى مقود السيارة وعلى بنطلوني . وعجبت من أمره لأنني لم أصب بجراح . وقلت إنه ماء المطر . لكن نوافذ السيارة كانت مقفلة . ولم أدرك أن ذلك من عرقي المتصبب على جسمي إلا بعد أن اختفى المسلحون ووصلت الكومودور . وقدم لي أحد المصورين من شركة سي . بي . أس . شراباً لكنه اندلق على الأرض لأنني لم أستطع أن أمسك بالكأس . واتصلت بتيري أندرسون وذهبنا معاً إلى شارع مدام كوري ووجدنا هناك رفراف سيارة المسلحين . وكان حاجز سيارتي قد اقتلعه . فسألني أندرسون :

ـ هل أنت متأكد من أن الخطأ لم يكن منك؟ هل أنت متأكد من أنك بسرعتك الجنونية لم تقطع الطريق على المسلحين فأثرت غضبهم؟ قلت :

ـ لا أعتقد ذلك .

وفي مكتب الأسوشيتد برس علّقت صورة أندرسون على لوحة الاعلانات . كان ينظر إلينا باستياء وفراغ صبر . هل كنا نعمل ما فيه الكفاية من أجله؟ الواقع أن لابل وزوجته إيلين كانا يتصلان يومياً بالميليشيات . واتصلا بادارة أمين الجميّل المنهارة ، وكذلك بضباط اللواء السادس من الجيش اللبناني . وبقيت غرفة أندرسون كما تركها والأوراق على مكتبه تنتظر عودته . واتصل بنا مراسل الأسوشيتد برس من دمشق وأخبرنا أن السوريين يعتقدون أنهم رأوا أندرسون ببيت في بعلبك ، وأنهم عرفوه من صورة له قدمها لهم صحفي أجنبي . وكانت لحظة انتصار . لكنها لم تدم . إذ أضاف المراسل أن السوريين لم يستطيعوا انقاذه لأن الخاطفين نقلوه إلى مكان آخر .

كنا أحياناً نتخيل أن خبر خطف أندرسون لم يتسرب إلى العالم الخارجي . إذ كان يقال بأن بعض الصحفيين خُطف ثم عاد ، وأن أندرسون سيعود . وهذا ما اعتقدناه أيضاً . وكان أقصى ما يمكن أن تفعله السفارة الأميركية التي انتقلت إلى بيروت الشرقية يوم خطفه هو الاتصال بنبيه بري رئيس حركة أمل . لكننا اعتقدنا أنه إذا أمكن لأحد أن يخلصه من الخطف فهو السوريون . ولهذا أرسلنا مدير أعمال الأسوشيتد برس في الشرق الأوسط إلى دمشق لطلب مساعدة الحكومة السورية . لكن لماذا لم يطر لويس بوكاردي ـ رئيس الأسوشيتد برس إلى دمشق ويقابل الرئيس الأسد؟ إذ كان إرسال شخصية أميركية بارزة للرئيس السوري دليلاً على أهمية خطف أندرسون . هكذا كانت تجري الأمور في الشرق الأوسط . لكن لم يبد أن المسؤولين عن الأسوشيتد برس في نيويورك كانوا يفهمون ذلك .

لما كانت الأسوشيتد برس لا ترغب في إرسال المزيد من الأميركيين إلى بيروت فقد أرسلت أحد موظفي مكتبها في روما وهو بوليفي واسمه خوان كارلوس جوموشيو ،أو جي .سي ، كما كان يحب أن يدعى . كانت بشرته سمراء وعيناه ضيقتان كعيون الهنود الحمر . فكان مظهره كما يقال في أوروبا عن الشرق أوسطي المتهم باقتراف إحدى الجرائم «يحمل ملامح شرق أوسطية» . وسبق له أن زار بيروت والتقى بأندرسون . وكان يبدو بلحيته الطويلة كرجال حزب الله ، الأمر الذي كان يوفر له بعض الحماية . وكان صلباً مثلهم ، ضخم الجثة ، يتمتع بنشاط هائل كنشاط جرو طائش ، وصاحب دعابة خفيفة خادعة تنطوي على فهم لنقاط ضعف زملائه ،وعلى نظرة مدمرة للطبيعة الإنسانية .

كان يمكن لهذا البوليفي ـ أو جي . سي ـ أن يقوم في السينما بدور ملاّك لاتيني أميركي غني يلاعب أطفاله على شرفة فيلا واسعة ، وصاحب مروءة يقدم الأسرة على النفوذ السياسي . على أن طموحاته في الواقع كانت تنحصر في مهنة الصحافة التي كانت بالنسبة له بمثابة الديانة .

فهم جي .سي ، اللبنانيين بطريقة غريبة علينا . كان يحس بخوف اللبنانيين قبل أن نحس به ، ويفهم أسبابه ، ويحتقر الدور البشع المغالي بالثقة الذي رسمه الأميركيون لأنفسهم في الشرق الأوسط . وكان تصرفهم هذا من وجهة نظره كأميركي لاتيني يتسم بالوقاحة . كان يرى فيه نوعاً من عدم المسؤولية . وبالرغم من أن احتقاره للضعف كان ينم عن الغرور ، فإنه كان أكثر مرونة من أي شخص قابلته في لبنان .

وفي ربيع ١٩٨٥ كانت لدينا أسباب تجعلنا جميعاً نشعر بالضعف وقلة الحيلة والخطر . ففي الجنوب اندلعت حرب أهلية على أثر قيام الكتائبيين بقيادة سمير جعجع بإطلاق النار على مخيم اللاجئين الفلسطينيين بعين الحلوة وعلى وسط صيدا لسبب لم نستطع تفسيره . وكان الكتائبيون قد نصبوا مدافعهم في قرية المية مية المسيحية الصغيرة فوق صيدا وهي القرية التي قابلت فيها الأستاذ الجامعي ، هذا بينما كان ضباط الشين بت خلف الخطوط الكتائبية . قصف سمير جعجع صيدا ورحل . كل ذلك خلال أربع وعشرين ساعة . لقد بدأ الحرب ثم ترك الأقلية المسيحية الصغيرة تنتظر هجوم المسلمين عليها . وهكذا أحرقت تلك النية الطيبة المتبادلة التي كانت تشغل بال المسيحيين والمسلمين عندما اجتمعوا قبل ذلك ببضعة أسابيع ببيت الحريري في صيدا . واستولى الذعر على المسيحيين في المية ومية والقرى المجاورة ولاذوا بالفرار .

وعندما وصلت إلى صيدا في اليوم التالي كان الفلسطينيون والميليشيات الإسلامية قد اجتاحوا المية ومية . واختفى الأستاذ الجامعي لويس الذي كان ينشد السلام مع جيرانه الفلسطينيين والمسلمين . وكان بيته يحترق وكتبه مبعثرة في فنائه . ونهبت منازل المسيحيين ودمرت .

وجدت عائلة فلسطينية في بيت خرب . كان أفرادها يجلسون على الأرض وسحب الدخان الأزرق تتلاحق فوق القرية . وكانت ربة المنزل تغلي القهوة على الأرض بينما أخذ زوجها المسن يقلب ألبوم صور عائلية وجده بين الأنقاض . وظهرت في الألبوم صورة فتاة صغيرة في أول قربان كنسي لها ، وصورة أخرى لها على الشاطئ شمالي صيدا وهي تبكي بين ذراعي أبيها بلباسه الأنيق ، وصورة للرجل وزوجته وذراعاهما متشابكان وهما يقفان عند الدرج الإسباني في روما ، وصور مآدب اجتذبت كاميرا المصور أنظارهم . أجل ، حياة كاملة داخل ألبوم رخيص وقع بين يدي شخص كان حتى تلك اللحظة يعيش على بعد ميل .

أشار الرجل وهو يتأمل صور تلك الأسرة المسيحية إلى صورة الفتاة الصغيرة وقال لزوجته : انظري كم هي جميلة . ثم أخذا يعبّران عن سرورهما لأنهما وجدا بيتاً جميلاً كهذا البيت الذي ورثاه من أسرة الفتاة الصغيرة .

واتجهت جموع اللاجئين المسيحيين جنوباً إلى إسرائيل التي تركت وراءها مرة أخرى الدمار والخراب . ذلك هو ما حدث في الشوف . لماذا أطلق الكتائبيون النار على صيدا وجروا الدمار على الأقلية المسيحية؟ ولماذا تركهم الإسرائيليون يفعلون ذلك؟ ولماذا سيطر رجال الشين بت على المية ومية في الأيام الأخيرة التي سبقت الانسحاب الإسرائيلي؟ ولماذا وضع بيت صديقي الأستاذ تحت الحراسة؟ كانت إسرائيل من ناحية المبدأ في حاجة إلى لبنان قوي موحد . لكنها لم تكن تريد لبنان موحداً مناهضاً لإسرائيل . وهكذا اشتبك المسلمون والمسيحيون مرة أخرى كما تنبأ بذلك الإسرائيليون ،وخططوا له .

كل مهمة من مهماتنا صارت الآن محفوفة بمخاوف جديدة . فعندما لم نكن نحاول تجنب القذائف المتساقطة ، كنا ننظر هنا وهناك لعل نظرنا يقع على سيارات غامضة ـ سيارات مرسيدس ليموزين يسوقها ملتحون والستائر على نوافذها الخلفية ، أو عليها إشارات حزب الله أو أعلام إيرانية . وكنا كلما عدنا إلى مكتب الأسوشيتد برس ببيروت نبادر إلى السؤال عن تيري أندرسون ، كما لو أنه اختفى خلال زلزلة أرضية ، أو عاصفة ثلجية ،وكان ضحية كارثة طبيعية قد تعثر عليه فرق الإنقاذ .

وفي هذه الأثناء سمح الجهاد الإسلامي للأب بنجامين فير بالكتابة إلى مسؤولي كنيسته في نيويورك ـ الكنيسة البرسبتيرية .فذكر الأب فير في رسالته الشروط التي وضعها الخاطفون لإطلاق سراحه وسراح تيري أندرسون . وكانت تشمل إطلاق سراح ١٧ شاباً تم القاء القبض عليهم وسجنهم في الكويت على أثر نسفهم للسفارتين الفرنسية والأميركية هناك عام ١٩٨٣ . وحذرت رسالة الأب فير من أن الخاطفين سيقومون بقتل الرهائن إذا ما حاولت أية جهة بما في ذلك سوريا انقاذهم .

كان الخاطفون يتبعون تقليداً لبنانياً كلاسيكياً ينطوي على تعليل الأجانب بآمال كاذبة ، ثم يشفعونها بمخاوف أعظم .فأطلقوا سراح الأب فير لكي ينقل رسالة إلى حكومة واشنطن . قال الأب فير انه كان محتجزاً مع تيري وأنه تحدث إليه ، وحمّله تيري حبه لعائلته وأصدقائه . وأضاف أن الأيام الأولى من احتجاز تيري كانت الأصعب عليه . فقد بقي وحيداً في ظلام دامس لبضعة أسابيع وهو مقيد بالأصفاد إلى الحائط . وقوي أملنا في أن ينتهي عذابه قريباً مثل فير . ثم أطلق سراح الرهينتين البريطانيتين ناش ولفيك اللذين ظن الخاطفون أنهما دبلوماسيان أميركيان . ولم يكن الجهاد الإسلامي يريد رهائن بريطانيين ، أو على الأقل لم يكن بحاجة لهم عندئذ . كان يريد رهائن فرنسيين . وبالفعل خطف الدبلوماسيان الفرنسيان مارسيل فونتين ومارسيل كارتون في ٢٢ آذار/ مارس .

وفي ٢٥ آذار/ مارس خُطف البريطاني ألك كولت البالغ من العمر ٦٤ عاماً . وكان يكتب عن

أحوال اللاجئين لهيئة الأمم المتحدة . كان يسوق سيارته في طريقه إلى بيروت عندما اعترضه مسلحون على بعد مئة ياردة من حاجز لأمل في خلدة وخطفوه . وعندما ذهبت إلى خلدة أبدى المسلحون جهلهم التام بذلك . لكنني استطعت أن أكتشف ما حدث . كان ألك كولت يحمل جوازي سفر ، يستخدم أحدهما للدخول إلى إسرائيل وعليه أختام إسرائيلية . ذلك أنه كان بحاجة إلى دخول إسرائيل من أجل أن يصل إلى قطاع غزة المحتل . وعندما مر بحاجز أمل أخطأ وأظهر لهم الجواز الإسرائيلي .

أعلنت «المنظمة الثورية الاشتراكية الإسلامية» التي ظننا أنها جزء من منظمة أبو نضال الفلسطينية عن خطفها له . ولم يطلق سراحه . وانتشرت عدوى حوادث الخطف في بيروت . فغادر لبنان المزيد من الصحفيين . وهكذا أخذ المسلحون يخرجوننا من البلاد . وطبعنا أسماء المخطوفين ونبذاً عنهم في قائمة علقناها بمكتب الأسوشيتد برس . وعندما كان يطلق سراح أحدهم ، كنا نشطب اسمه من القائمة . وإذا خُطف غربي آخر أضفنا اسمه في نهاية القائمة . وكانت تتصدرها أسماء الأميركيين ، وفي مقدمتهم أندرسون لأن اسمه يبتدئ بأول حرف من أحرف الهجاء وهو الألف . وكانت القائمة في أول أمرها قصيرة ثم طالت إلى أن بلغ طولها أربعة أقدام ، وعلى رأسها عبارة «حوادث الخطف في نظرة واحدة» . وكان طولها في البداية بضع بوصات ووضعناها خلف شاشات الكمبيوتر التي كان أندرسون قد جلبها إلى مكتب الأسوشيتد برس قبل خطفه بمدة قصيرة . كانت تلك حالها . لكن ظل الصحفيون يقتلون ويخطفون .

في ٢٢ آذار/ مارس بدأ الإسرائيليون يطلقون قذائفهم على القرى الشيعية ، على امتداد ١٦ ميلاً إلى الجنوب الشرقي من صيدا . وكان الغرض من ذلك وقف هجمات «الإرهابيين» قبل انسحابهم من صور . وتوجهت أنا وجي سي ومل وفولي بسيارة واحدة إلى الجنوب . ومررنا بعنقون وكفرملكي ، حيث استولى الذعر على السكان وأخذوا يغادرون قراهم وفرشهم على سياراتهم ، بينما كانت القنابل تتساقط في الحقول المجاورة وعلى الطريق وفوق سطوح المنازل . ووجدنا هناك كيث غريفز مراسل تلفزيون البي .بي .سي . مع فريق شركة التلفزيون الأميركية أن . بي . سي . وكانت شركة سي . بي . أس . التلفزيونية قد أرسلت اثنين من اللبنانيين وهما توفيق غزاوي وبهيج متني لتصوير أحداث القصف . فذهبنا إلى كفرملكي . وكان الإسرائيليون يستخدمون دبابات ميركافا المرابطة على هضبة في حومين وهم يدركون أن القرى المحيطة التي يقصفونها دون تمييز مأهولة بالسكان .

كان المسلحون في كل مكان ، لكن من غير مقاتلي أمل . كانوا من الشبان ذوي اللحى الصغيرة وعصابات الرأس التي تحمل اسم الله ، ومن جماعة حزب الله الذين لا يخشون الموت . وكنت مع

جي سي عندما قابلنا بعضهم بجانب كنيسة مهدمة فوق كفرملكي . تقدموا نحو سيارتنا وهم يحملون قاذفات صاروخية . وكانت القذائف لا تزال بغلافاتها وعليها كتابة بالروسية . سألنا أحدهم :

ـ هل تريدون أن تأتوا معنا لمحاربة الإسرائيليين؟ فأجابه جي سي :

ـ ليس اليوم . لا نستطيع . ثم نظر جي سي إلى ساعته وقال :

ـ نحن مراسلون صحفيون . ولدينا أعمالنا .

فابتسم المقاتل بطريقة لطيفة وكأنه واعظ وقال :

ـ تعالوا معنا . وسيكون لقاؤنا التالي في الجنة .

وتركناهم وتابعنا سيرنا . فالتفتَ جي سي إلي وقال :

ـ ألا تريد الذهاب إلى الجنة؟ فقلت :

ـ لا ، قال :

ـ إذن بإمكانك أن تعود عندما تريد .

وعندما قلت بأنني لا أريد العودة وأنني متأكد من ذلك سألني :

ـ فيسكي ، هل ترى أن نحاول الوصول إلى حومين؟

فقلت كلا . ولكنني منذ ذلك الوقت صرت أطلب نصيحته . وعلى أي حال فإنه تابع سيره مع فولي إلى حومين . لقد كنت جباناً فبقيت في قرية عنقون . وكان ذلك خطأ . وفيما كان جي سي في حقل ينظر إلى الدبابات الإسرائيلية وهي تقصف ، تساقطت القنابل على عنقون وسقطت إحداها بالقرب مني ، وقذفني انفجارها إلى داخل أحد البيوت . فاستولى علي الخوف إلى حد أني هربت من القرية وعدت إلى الطريق . وأخذت أبتعد حتى أدركني جي سي . ورمقني غريفر . بنظرة خبيثة وقال :

ـ يا لك من جبان لعين .

وعندما وصلنا إلى صيدا لم يكن هناك ما يدعو إلى الضحك . إذ كان غزاوي ومتني قد نُقلا قطعاً إلى المستشفى بعد أن أصابتهما قذيفة من إحدى الدبابات . وكنت قد رأيتهما قبل ذلك وهما يغادران مكتب السي بي أس الذي يقع في بناية مكتب الأسوشيتد برس . وهز عندئذ كل منا رأسه للآخر ، ، ولكن لآخر مرة . ولم يكن القصف الإسرائيلي غريباً علينا . كنا نعرفه تماماً .

ووصل إلى المستشفى فريق آخر من مصوري وكالات الأنباء الغربية وطلبوا السماح لهم بتصوير ما تبقى من الجثتين . وكان مل ينظر مشدوهاً . فصرخ :

ـ يا لهؤلاء الأوغاد الذين يريدون تصوير ما بقي من صديقيهما . زملاؤهم ينسفون وهم يصورون البقايا . وكان مل يغالب دموعه .

كان مكتب الأسوشيتد برس في بيروت يتلقى رسالة من تل أبيب تقول بأن مسؤولاً إسرائيلياً صرح بأن الدبابات الإسرائيلية قتلت ٢١ إرهابياً في الجنوب . إرهابيون . إرهابيون . إرهابيون . فنظر مل باشمئزاز وقال :

ـ هؤلاء الناس مرضى .

وفي مكتب السي . بي . أس . عرض وليد الحريري على الفيديو ما كان يفعله غزاوي ومتني قبيل مصرعهما .

كان غزاوي ومتني قد اقتربا من الدبابات . وأخذت الصورة على الفيلم تنتقل بين دبابتي ميركافا في حقل خشخاش . وكانت القذائف تنطلق من ماسورتيهما . وتتبع فريق الكاميرا أصوات القذائف وهي تئز فوق الحقول . وكانت إحدى هاتين الدبابتين هي التي ستقتل متني وغزاوي . وعندما تحولت الكاميرا إلى خلف إحدى الحفر سمعت صوت أحدهما ـ وأظن أنه متني ـ وهو يدعو الله أن يحميهما . وظهر على الفيلم منظر القرية وبعض المسنين وسيارة محطمة . ثم توقف الشريط . وكان غزاوي يستبدل الشريط بآخر على الطريق عندما سقطت القذيفة بين رجليه . وظل القرويون طيلة يومين وهم يكشطون ما لصق من جسديهما بالجدران .

وما حدث بعد ذلك كان عاراً ومذلة . فعندما اتهمت شركة سي . بي . أس .بنيويورك الإسرائيليين بقتلهما ، ادعى الإسرائيليون أنهما كانا «يتقدمان مع الإرهابيين» . ولم يكن هذا صحيحاً . فلم يكن من الممكن حتى رؤيتهما في القرية . وبعد بضع ساعات قال الإسرائيليون بأنه يمكن أن يكون المدفعي الإسرائيلي قد ظن بأن متني وغزاوي من أصحاب القاذفات الصاروخية ، وكان هذا أيضاً كذباً . فالمدفعي الإسرائيلي لم يرهما . إذ سقطت عليهما قذيفة كتلك التي سقطت إلى جانبي نتيجة للقصف بلا تمييز الذي أودى بحياتهما وحياة بعض المسلحين وعدد من رجال كفرملكي ونسائها . فهؤلاء كلهم «إرهابيون» .

أرسلت شركة السي . بي . اس . بنيويورك مسؤولاً كبيراً فيها إلى إسرائيل . فسُمح له بإجراء مقابلة مع قائد الدبابة لا مع مطلق القذيفة . وبعد ذلك أعلنت الشركة أن إسرائيل اعتذرت وأنه لم يكن في نية رجالها قتل فريق المصورين . وكان هذا لا يصدق . إذ لم يكن الإسرائيليون عندئذ يعرفون أو

يهمهم أن يعرفوا من يصيبون بقذائفهم . كانوا عندئذ يقصفون قطاعاً واسعاً من الجنوب بلا تمييز . وما لم يتوقعوه هو أن ترسل السي . بي . أس . فريق تصوير للمنطقة . وعلى أي حال قبلت الشركة التفسير الإسرائيلي . لكن هذا كان في نظر الصحفيين في بيروت كالصفح عن مخرب قتل أمك في فندق محتشد بالزبائن بحجة أنه لم يكن يعرف أن أمك فيه عندما أشعل فيه النيران . لكن ما قيمة حياتنا إذا قبل التفسير الإسرائيلي؟ جلس مل يائساً في مكتب الأسوشيتد برس وقال :

ـ ما الفائدة من مواصلة العمل؟

وفي ٢٢ أيار/ مايو ١٩٨٥ ، خُطف الباحث الفرنسي ميشيل سورا كما خُطف جان بول كوفمن الصحفي الفرنسي الذي كان يعمل لحساب مجلة «أحداث الخميس» الأسبوعية على طريق المطار إلى جانب الضاحية الجنوبية . وكان هذا مسرحاً محبباً للخطف وبجوار منطقة شيعية . ولكنه كان الطريق الوحيد إلى المدينة .وبعد ستة أيام خطف الجهاد الإسلامي أميركيا آخر وهو ديفيد جاكوبسون مدير مستشفى الجامعة الأميركية ببيروت .

طلب مكتب الأسوشيتد برس من مل أن يترك البلاد . وكان فولي قد اعتزم أن يرحل في أوائل الصيف . وعندما زار كل من لابل وباول نيويورك خلال إجازتهما طلب منهما المسؤولون أن لا يعودوا إلى لبنان . وبقيت مادلين في بيروت الغربية وسط كتب زوجها تيري أندرسون وملابسه وأثاثه إلى أن رحلت هي وابنتها إلى نيويورك طلباً للسلامة . وانتقل جي سي إلى شقة في المبنى الذي أعيش فيه . فصرنا نجلس في المساء على الشرفة المطلة على البحر ونتحدث عن المستقبل .وكان جي سي أكثر تفاؤلاً مني . قال :

ـ يمكننا أن نبقى . وما علينا إلا أن نأخذ جانب الحذر . ويتوجب عليك الحذر بشكل خاص .

وكان بالطبع على حق . وفي ٢٧ أيار/ مايو حاول المسلحون خطف معلم بريطاني في الكلية الثانوية العامة (الآي .سي) لكن يبدو أنه تعارك معهم فأطلقوا عليه النار وأصابوه في رأسه .

واستضاف مكتب الأسوشيتد برس صحفيين آخرين من لندن وبلاد اليونان . لكنه لم يفد عليه أحد من الأميركيين . وفي هذه الأثناء قمت بزيارة الجنوب ومدينة طرابلس في الشمال التي كانت عندئذ كلها تحت سيطرة المسلمين الأصوليين السنة ، كما زرت القاهرة وعمان والخليج . وكانت طريق المطار شوكة في الجنب . فكنت أسوق عليها مسرعاً وأحياناً بسرعة تزيد على مئة ميل في الساعة . وكنت كلما غادرت المطار أحتفل بسلامتي ، وكلما عدت شعرت بحرقة في معدتي .

وحرصت دائماً على أن لا يظهر اسمي في قائمة المسافرين . وكان يقف بانتظاري عند الحاجز ونحن خارجون من المطار محي الدين حبال أو حسين كردي الذي يعمل سائقاً بمكتب الأسوشيتد برس وقد امتزج قلقهما علي بفرحهما لوصولي . وكان الحبال يبادرني بقوله :

ـ حبيبي ، لا تسير الأمور كما نشتهي .

وكنا ننطلق على طريق المطار بأقصى سرعة ثم نسير في الطرق الجانبية خلف كورنيش المزرعة .

وسقت السيارة حول بيروت كالمجنون ،وأبقيت رجلي على دواسة البنزين خوفاً من المسلحين . وعندما وصلت إلى نقطة تقاطع على كورنيش المزرعة رأيت في مرآتي رجلاً يقترب من باب السيارة فاقتحمت الطريق ودرت بسرعة حول الشاحنات وشرطي السير يصرخ علي . وبعد أن ابتعدت ونظرت في المرآة تبيّن لي أن الرجل لم يكن سوى بائع لأوراق اليانصيب يريد أن يبيعني إحداها .

عندما رحل الإسرائيليون عن صور نهائياً خلع مقاتلو الشيعة اسماً جديداً على جسر الليطاني فسموه «جسر خليل جرادي» . وفي قرية معركة أوقفني نحو اثني عشر مسلحاً يلفون رؤوسهم بأوشحة سوداء ، وأخذوني إلى زعيم المقاومة الجديد ، واسمه جهاد . فقال إن المقاتلين سيواصلون قتالهم حتى يتحرر الجنوب كله . وكان الإسرائيليون قد أقاموا خطاً آخر على طول التلال التي كانوا هم والرائد حداد يسيطرون عليها قبل غزو ١٩٨٢ . وبقيت القوات الإسرائيلية خلف ذلك الخط ، وكذلك فعلت ميليشيات القرى التي أنشأتها إسرائيل . أما الأسر الشيعية التي رفضت الانضمام إلى المرتزقة فقد أبعدت من بيوتها إلى الشمال . وحدث هذا تحت سمع قوات الأمم المتحدة وبصرها ،ولكنها كانت عاجزة عن عمل أي شيء .

شهد لبنان في عام ١٩٨٥ موجة حر مبكرة . ولم يسبق لربيعه أن كان بذلك التجهم . إذ أخرجت أرض لبنان أسرارها مرة أخرى .

دُعي الصحفيون إلى مقبرة رهيبة في كثبان الرمل إلى الشمال من محطة الجية ليشاهدوا مثلاً على ما اقترفه الكتائبيون المسيحيون . وتقع الجية على الشريط الساحلي بين بيروت وصيدا ،وظلت بأيدي المسيحيين إلى أن استولى عليها الدروز عام ١٩٨٥ . رأينا بجانب الكنيسة المارونية بئراً مملوءة بالجثث وقبواًس فيه جثة شرطي . وأكد المسلحون المسلمون أن ذلك من عمل المسيحيين .

كان أصحاب بعض الجثث قد أحرقوا على الرمال . إذ كانت لا تزال على الحجارة أجزاء من عمود فقري وخصلة طويلة بنية من شعر امرأة . وكانت جثة الشرطي مسجاة بلباسه الرسمي وبدون رأس ، والذراعان مفتوحان ، والعظام ناتئة من البنطلون . وكانت في البئر كتل من العظام وجثة ألقيت بشكل مقلوب والرجلان مرفوعتان ومستندتان إلى الجدار . وقال أحد مسلحي حركة أمل التي ساعدت الدروز في الجية إن صياد طيور شم رائحة الجثث بينما كان يسير على الشاطئ ولاحظ أن سدادة البئر لم تكن مغلقة .

وكان الدروز والكتائبيون المسيحيون قد تبادلوا أعمال الخطف في السنتين اللتين سبقتا ذلك . لكن ندر أن عُثر على قبور جماعية بالرغم من أن الدروز في كفرمتى ، حيث قتل كلارك تود ، عثروا على جماجم قرويين لم يدفن أصحابها وملقاة على ظهر الأرض في الكروم بين الأعشاب والشجيرات التي نمت حولها . ووجد هيكل عظمي في أسمال بالية لأمرأة لا تزال تحتضن هيكلاً عظمياً صغيراً .

تمكن الدروز من أن يمسكوا بخيوط تلك الجرائم . فبقايا الشرطي كانت لتوفيق دقدوقي ، وهو مسلم سني كان يعمل في الجية ويسكن في قرية برجا فوق الساحل . وكان قد خطفه المسيحيون في محطة كهرباء الجية عام ١٩٨٣ .

وقال لنا ضابط من حركة أمل يدعونه أبو علي ، إن الرجل الذي ألقي مقلوباً في البئر هو بالتأكيد زوج امرأة شيعية كان يعيش بجوار الكنيسة . وأضاف :

ـ أوقفه الكتائب بسيارته قبل ثلاثة أسابيع ولم يره أحد بعد ذلك . لكن عندما سقطت الجية في الأسبوع الفائت وجدت هوية الزوج وأوراق سيارته في جيب مسلح كتائبي .

لم نجد في الجية أحداً من أهلها المسيحيين . ولم يبق لهم أثر سوى كنيستهم وجدار مذبحها الذي خرقه الرصاص والذي يحمل صورة القديس جورج وهو يقتل التنين . وقال لي مسلح درزي وأنا أطوف بالكنيسة :

ـ هذا ما فعله المسيحون بأنفسهم .

غير أني لم أصدقه . فبعد زيارتي للجية بأسبوع قام الدروز بوضع متفجرات حول جدران الكنيسة ونسفوها لكيلا يفكر المسيحيون في العودة إلى ضيعتهم القديمة . وقام اللاجئون من المسلمين الشيعة باحتلال بيوتها المهدمة . ولما كان الدروز لا يريدون أن يقترب الشيعة من الشوف إلى ذلك الحد فقد أخرجوا اللاجئين وسوّوا البيوت بالأرض .

وعدنا أنا وجي سي مراراً لزيارة مثل تلك الأمكنة . ففي صيدا عثر المقاتلون السنيون الناصريون والفلسطينيون على قبر جماعي . وأعلنت الإذاعة اللبنانية أن ذلك من عمل الإسرائيليين . وأخذ جي سي يفكر في الدور الذي ينبغي أن نقوم به في لبنان الجديد .

وسألني ونحن في طريقنا إلى الجنوب :

ـ هل نحن كتاب أخبار أم محللون؟ أعتقد أننا سنصبح مراسلي أخبار القبور الجماعية .

كانت العظام في كل مكان على العشب وفي الكهوف تحت التلة التي وجدت فيها بقايا الجثث . وكانت بعض العظام قد نشرت بآلة حادة . لقد دفن هناك خمسون إلى مئة من الرجال والنساء والأطفال . واقترب منا مقاتل فلسطيني وقال بالانجليزية .

ـ الإسرائيليون أطلقوا النار عليهم .

صحيح أنه كانت هناك نقطة إسرائيلية على قمة التلة . لكننا أنا وجي سي حرنا في الأمر . فالهياكل العظمية كانت بلا ساعات في أيديها . فربما سرقت . لكن لم يكن هناك أثر لأبازيم الأحزمة ولا لقطع من قمصان النايلون أو نعال المطاط .

أشعلت عود كبريت ودخلت أحد الكهوف فوجدت المكان مملوءاً بقطع الخشب المحترق . والتقط جي سي عظم فخذ أسمر ووضعه على رجله وضغطه وقال :

ـ هذه بقايا أناس صغار .

لقد أحس مراسل أخبار القبور الجماعية أن ثمة خطأ .

في تلك الأثناء دب النشاط على العشب في الخارج . وتبيّن أن عدداً من أبرز رجال الشبرطة في صيدا قد وصلوا برفقة المحقق في الوفيات . وكان رجلاً متحذلقاً على عينيه نظارتان وبيده حقيبة يد ويعرف شيئاً من الفرنسية . وقام بفحص بعض العظام وأخذ عينات من قطع الخشب المتفحمة وعاد إلى سيارته . فلحقت به وقلت :

ـ اسمح لي يا سيدي . متى قُتل هؤلاء الناس؟ فرمقني بنظرة فاترة وقال :

ـ قبل ألفي سنة . هذه مجزرة اقترفها الإسرائيليون ضد الفلسطينيين (القدماء) أو العكس .

ألهذا السبب لم تكن بأيدي الهياكل العظمية ساعات؟ في تلك الليلة أشارت الإذاعة اللبنانية إلى «فظائع» إسرائيلية أخرى في الجنوب . فقد عُثر على مئات من القتلى الفلسطينيين خارج صيدا .

كنا كلما عدنا إلى مكتب الأسوشيتد برس ببيروت نتلقى صدمة جديدة . وهذه المرة بلغنا نبأ تعيين إيلي حبيقة الكتائبي قائداً للميليشيا المسيحية ليحل محل جعجع لإرضاء سوريا . . وكانت لجنة التحقيق الإسرائيلية في تلك المجازر قد أعادت إلى الأذهان أن زميلاً لحبيقة سأله بالراديو ما الذي يجب عمله بخمسين امرأة وطفلاً من المساجين الفلسطينيين فأجابه بقوله :

ـ لتكن هذه آخر مرة تسألني فيها سؤالاً من هذا النوع . إنك تعرف تماماً ما يجب أن تفعله .

لكن حبيقة وبقدرة قادر نطق الآن بالكلمتين السحريتين «الهوية العربية» فقال إن هوية لبنان عربية . وصرّح بأن «لسوريا دوراً (في لبنان) بالنظر إلى الصلات الجغرافية والتاريخية والمصيرية» وغلّف تصريحه بالقول بأن الكتائب قبلت أخيراً دور سوريا كحامية للبنان . وبالطبع رحبت دمشق بذلك . ووصفه صحفي لبناني بأنه «حكيم» . وعندما قام جعجع بانقلاب عليه فر إلى دمشق التي وضعته في زحلة على رأس ميليشيا منافسة . ولم يقل عرفات ومنظمة التحرير الفلسطينية شيئاً .

راقبنا أنا وجي سي هذه الأحداث من منظار جديد . كان قد مضى على وجودي بلبنان تسع سنوات ، وعلى وجود جي سي شهران فقط . لكن كلاً منا فهم أن الصور التي تطالعنا تتغير كلمح البصر ، وأن المرآة التي ننظر فيها أخذت تتهشم ، وأننا لم نعد نستطيع أن نعلل الأحداث التي نشهدها . وأخذت أنسى أصدقائي الذين قضوا نحبهم . وفي عام ١٩٨٣ شغل المهندس منير الذي كان يعتني بسيارتي وظيفة جديدة في قسم التأشيرات بالسفارة الأميركية . وبدأ عمله الجديد في اليوم الذي قام فيه السائق الانتحاري بهجومه وقُتل مع ستة وأربعين لبنانياً . وكان هناك فؤاد السعيد الطالب السني الذي ركّب لي ولتاترو خلال الحصار الإسرائيلي عام ١٩٨٢ جهاز إرسال بالراديو . وبينما كان في سيارته مع أبيه رفيق عائدين من غداء يوم أحد في أوائل عام ١٩٨٥ أخذ جماعة من الأكراد بإطلاق النيران على بعضهم البعض في شارع مجاور . فأصيب فؤاد برصاصة طائشة في رأسه وتوفي وهو غائب عن الوعي .

وفي بعض الأحيان كان الحديث سبباً للصدمة . قال لي صديق درزي معجب بنفسه قرب مطعم للسمك على الروشة :

ـ رأيت اثنين من الكتائب هناك ، وعرفت من هما . وكانت سيارتهما مفخخة . فاتصلت بالحزب التقدمي الاشتراكي فأخذوهما للتحقيق معهما . فسألته :

ـ وماذا حدث لهما؟ قال :

ـ كانا يعرفان ما سيحدث لهما . كانا يعرفان أنه ليس لهما أمل . وقد استغرق التحقيق معهما يومين ثم نقلا إلى بيت الدين . فسألته :

ـ ولماذا بيت الدين؟ قال :

ـ هناك مركز . فيه أشخاص يحققون معهم وعندما يعترفون يقتلون . لا يطول الأمر أكثر من بضعة أيام . الواقع أنني لا أحب هذا . أؤكد أنني لا أحبه . لكن ما الذي أستطيع أن أفعله؟

لقد أصبح الناس يتحدثون عن هذه الأمور وكأنها شيء عادي . قال لي أحدهم :

ـ هل تريد أن ترى أجساد عملاء إسرائيل؟

كان الأطباء في مستشفى صيدا عندئذ مشغولين . فقادتني فتاة عبر ساحة مشمسة إلى دهليز يفضي إلى زقاق مظلم . وفتح أحدهم باباً صدئاً فرأيت ثلاث جثث مكومة كالأكياس بدون أي عناية أو احترام وجحافل الذباب فوقها وحولها .

وخطف مسلحو أمل طائرة أردنية وأحرقوها على المدرج بعد أن أطلقوا طاقمها . وأخذني مسؤول من أمل لمشاهدة حرقها . وكان ينظر إليها مسروراً لأنه كان يعتقد بأن شرطي الأمن الأردني تُرك فيها ليموت حرقاً . وعلى الأثر وفي اليوم نفسه قام لبناني بخطف طائرة بوينغ تابعة لشركة طيران الشرق الأوسط اللبنانية احتجاجاً على خطف الطائرة الأردنية . وكان أحد الركاب الأميركيين قد نقل من الطائرة الأردنية إلى الطائرة اللبنانية فخُطف مرتين في اليوم نفسه من قبل طرفين مختلفين .

لم يصدر تفسير لهذا . وخطف أحد رجال الأمن اللبنانيين بالمطار طائرة تابعة لشركة طيران الشرق الأوسط كانت متوجهة إلى لارنكا احتجاجاً على ضآلة راتبه .وأجبر ملاحي الطائرة أن يرتفعوا بها وأبوابها مفتوحة ومنافذ النجاة ناتئة منها . وقذفت الطائرة عند ارتدادها بأحد الركاب على المدرج فقتل في الحال .

وخطف لبناني مسن طائرة وهي في طريقها من لارنكا إلى بيروت بزجاجة بيبسي كولا ادعى أنها مملوءة بالبنزين . وأمر قائد الطائرة بالهبوط في بيروت .فلما هبطت استدعى مقاتلي الشيعة إلى المطار . وكنت عندئذ جالساً في بناية المطار بناء على أمر من طباخي المطار المسلحين أرقب وصول أي مسلح أو شيخ ليتحدث مع بطل من أبطال الثورة ، وإذا به رجل مخبول . وتبين أنه لم يكن في

زجاجة البيبسي كولا سوى بول الخاطف . وعاد المسلحون من المطار . وسُمح للخاطف المسن أن يذهب في طريقه نحو الضاحية الجنوبية .

هل كان باستطاعتنا أن نرسل أخبار مثل هذه الحوادث بشكل جدي؟ فالكتابة عنها ولو على سبيل الفكاهة تنطوي على سخرية بالبلاد وبالمأساة التي كنا نشهدها فيها . ثم إن الكتابة عنها كما يحدث يؤدي إلى الاعتقاد بأن هناك اختلالاً في عقول الناس وعدوى ووباً جامحاً . سألني جي سي ذات ليلة :

ـ لماذا تفترضون دائماً في اللبنانيين أن يسلكوا كالأوروبيين؟

لكن مع هذا فإن القيَم في نظر اللبناني لا تختلف عن قيمنا . فغالبيتهم يدينون أعمال الخطف والقتل . ثم إن الأحداث هي التي مزقت نفوسهم بطريقة غير مرئية . وأكثر هذه الأحداث من صنع الأجانب الذين لم يستطيعوا مقاومة جاذبية لبنان الشرسة . إنها هي التي جلبت الجيوش الأجنبية ، والدول العظمى ، ورجال الأعمال ، والجواسيس ، والجنود ، والميليشيات ،والصحفيين من أمثالنا .

الجواسيس . سألني صديق لبناني ذات ليلة ونحن بمطعم «الشي تمبوريل» :

ـ هل أنت جاسوس؟ وأجبته بالنفي وكأنني أنفي الاهتمام بالأوبرا الفرنسية أو الشعر الرومانطيقي . ودعتني أسرة لبنانية لتناول العشاء في بيتها . وتجنب أفرادها الحديث عن الخطف . لكن الزوجة سألتني بكل لطف ومن دون أي اعتذار :

ـ هل صحيح أن جميع الأجانب جواسيس؟ وماذا تقول في جورج بليك؟

فأجبتها بأن بليك كان بالفعل جاسوساً روسياً في لبنان . وأضفت متبرعاً أن فلبي أيضاً كان جاسوساً ، وأنه كان صحفياً وجاسوساً في الوقت ذاته ، ويعمل لحساب الروس . وقلت بأنه لا يعقل أن يكون جميع الأجانب جواسيس .

وفي مكتب الأسوشيتد برس كان فاروق نصار ينظر إلى صورة غير واضحة لأندرسون كان قد بعث بها الجهاد الإسلامي . لقد كان الوجه وجه تيري لكن بدون نظارتيه وبشاربين غريبين ونظرات مفعمة بالشك . وكانت مادلين على التلفون . قالت :

ـ فيسكي ، إنه لا يستطيع أن يرى بلا نظّارة .

ترى بم كان تيري يفكر؟ هل كان يفكر في ضرورة التعاون مع سجانيه من أجل البقاء؟ هل كان القصد أن لا تراه مادلين إلا على ذلك النحو؟

بدأنا ندرك شعور الرهائن وأقربائهم بالعجز . وفي كانون الأول/ ديسمبر أجريت مقابلة مع أصدقاء لشابة لبنانية تدعى نايفة نجار حمادة ، تنتمي إلى الطبقة الوسطى وفي السابعة والثلاثين من عمرها . ورأيت صورة لها تبدو فيها على جانب كبير من الجمال . كانت تعمل بجريدة النهار ، ولها ابن اسمه علي في الثالثة عشرة من عمره خطف في آذار/ مارس ١٩٨٤ واختفى . وكتبت سلسلة من الرسائل لأبويها وأصدقائها وحتى لعلي . قالت في رسالة كتبتها بخط يدها :

ـ ماذا أقول لأولئك الذين سيأتون بعد أيام يحملون تمنياتهم لي بمناسة العيد الجديد؟

ثم تناولت زجاجة ملأى بسائل مبيد للحشرات وشربتها .

وفي ٩ حزيران/ يونيو ١٩٨٥ خُطف أميركي آخر . وبذلك استضافت قائمة «المخطوفون في نظرة واحدة» اسماً آخر وهو توماس سذرلاند وتحته نبذة قصيرة عنه :

ـ عمره ٥٤ سنة ، ولد في اسكتلندا . عميد كلية الزراعة بالجامعة الأميركية ببيروت وذلك خلال اجازة حصل عليها من جامعته وهي جامعة كولورادو الرسمية . . . ادعت منظمة الجهاد الإسلامي أنها هي التي خطفته .

وفي عصر أحد الأيام وجدت جي سي ينظر إلى صورة أندرسون المعلقة على الجدار ويقارن بينها وبين صورته التي أرسلتها لنا منظمة الجهاد الإسلامي ، والتي يبدو فيها وجهه كوجه الغول وقال :

ـ إننا جميعاً آخذون في التحول إلى لبنانيين . فهم يعاملوننا الآن مثلهم .

أجل ، صرنا نحن أيضاً كالمخطوفين . فالإطار الزجاجي الذي كان يحمينا تحطم إلى الأبد . لم يعد الأجانب محصنين أكثر من اللبنانيين ، وحتى صاروا يعيشون في خطر أكبر . لقد أخذ لبنان ينظر إلى الأجانب من خلال الشظايا . وربما كان الشك في الأجانب هو الذي يشل الإحساس بما تقترفه الميليشيات .

في أواخر ربيع ١٩٨٥ أخذ نبيه بري يوطد سيطرته في بيروت الغربية بمهاجمة مقاتلي عرفات الذين عادوا إلى الظهور في المخيمات . ومن ثم أخذ مقاتلو أمل بمساعدة اللواء السادس من الجيش اللبناني يشنون هجمات متواصلة على مخيمات صبرا وشاتيلا وبرج البراجنة . وكان بري يستند إلى تأييد السوريين الذين لم تكن لديهم رغبة في إعادة جيشهم إلى بيروت الغربية ، فعهدوا إلى أمل بالقيام بسحق أنصار عرفات . وكانت سوريا لا تزال تسعى إلى إخضاع المنظمة لإرادتها . وعملت القذائف

والقنابل والجرافات على سحق المخيمات التي تحولت إلى ما يشبه الرماد . وفي تلك الأثناء كان الأحياء فيها يعيشون تحت الأرض .

على أن مهاجمة المخيمات كانت في نظر بري تتجاوز مجرد الرغبة في إرضاء دمشق . فالمخيمات كانت تقطع الصلة بين الضاحية وقلب بيروت الغربية . وكان النفوذ الإيراني أقوى ما يكون في تلك الضاحية . وكانت الأعلام الإيرانية وأعلام حزب الله ترفرف على الجانب الشيعي من مخيم برج البراجنة . وأنشأ الإيرانيون هناك مركزاً طبياً وأمدوا الفقراء بالمساعدات المالية وغيرها . وعليه فقد وقفت الثورة الإسلامية العامة والثورة الشيعية اللبنانية الوطنية وجهاً لوجه على أطراف المخيمات . وكان هذا مقدمة للصراع بين أمل وحزب الله . وكانت منظمة التحرير تقف حاجزاً بين أمل وبين مناطق النفوذ الإيراني .

كنا نرقب هذا التحول في دور بري خلال السنوات التي سبقت ذلك . ففي البداية كانت الصورة الوحيدة التي تظهر له ببيروت هي صورة عمرها سبع سنوات للمحامي الشاب وهو يصافح الإمام موسى الصدر . أما الآن فصار في الإمكان شراء شارات بري وملصقات بري وقمصان «تي شيرت» بري حيث تظهر صورته التي تعكس تقدمه في السن .

وخلال السنتين الماضيتين صار رئيس «حركة المحرومين» أقوى قائد من قواد الميليشيات ووزيراً للعدل في الحكومة اللبنانية ، ووزيراً للجنوب اللبناني ووزير المقاومة كما صار يصف نفسه . وبعد أن أمر أنصاره بتصفية ميليشيا «المرابطون» في نيسان ١٩٨٥ صار بإمكانه أن يضع تاج بيروت فوق رأسه . وكانت إنجازاته عظيمة . لقد كان أحد اللبنانيين النادرين الذي استطاع بلوغ الزعامة بعصاميته لا بطريق أسرته .

وهكذا فإن بري[1] لم يكن في الأصل من رجال الدين . ولهذا فإن صورته مع موسى الصدر

(١) إن سيرة نبيه بري وليدة الأعراف اللبنانية . فوالده وهو رجل أعمال ككثيرين غيره من المسلمين الشيعة في الجنوب كوّن ثروته في إفريقيا . وولد نبيه في سيراليون ولكنه ظل متشبثاً ببلد الأسرة في تبنين . درس المحاماة وتثقف في كلية الحقوق بباريس . لكنه بذكائه وجد ضالته في حركة المحرومين التي أطلقها الإمام الصدر . لكنه بالإضافة إلى تمثيله الشيعة بلبنان فإنه ممن يتذوقون الحضارة الغربية ، فيحب الألبسة الغربية الأنيقة ويفضل السجائر الفرنسية وطريقة الحياة الأميركية . ولديه بطاقة إقامة في الولايات المتحدة الأميركية . ولا تزال امرأته الأولى تعيش هناك مع ولديه . وهو ينظر إلى واشنطن كما كان ينظر إليها بعض زملاء الخميني الذين تثقفوا في الغرب في أوائل أيام الثورة . إنه معجب بقوتها لكنه يستنكر طرق استخدامها .

كانت تمثل اتحاد الدين والسياسة . ولم يكن لخصومه الشيعة في الأصل علاقة بسياسات لبنان المحلية . فحزب الله قام على الدين لا الوطنية اللبنانية . وكان الزعيم الديني هو الخميني . وبهذا يمكن التمييز بين توجهات الشيعة في بيروت . فنادراً ما يرى المرء صور بري والخميني . فبري يمثل لبنان والخميني يمثل حزب الله . وقد أدت الخلافات إلى وقوع صدام بين الفريقين . وعندما وقع أول صدام بينهما عادت الصحافة العالمية إلى بيروت ، ولكن رجالها عجزوا عن فهم معنى النزاع .

وفي حزيران/ يونيو ١٩٨٥ خطف عناصر من حزب الله طائرة تابعة لشركة الخطوط العالمية (تي .دبليو .اي) وهي في طريقها من أثينا إلى روما وأجبروها على الذهاب إلى بيروت . فكنا نتساءل أحياناً عما إذا كان الخاطفون يرغبون فعلاً في جلب الطائرات إلى بيروت أم أن كلمة «يخطف» أصبحت من الناحية اللغوية مرتبطة بكلمة «بيروت» . إلى حد أنه لم يعد باستطاعة الخاطفين الإشارة إلى أي مكان آخر . فلعل هذا يفسر على الأقل لماذا قام عدد من المسلحين بالطلب إلى طائرات شركة طيران الشرق الأوسط المتوجهة إلى بيروت أن تذهب إلى بيروت . لكن المسلحين الذين خطفوا طائرة شركة الخطوط العالمية كانوا يعرفون فعلاً ما يريدون .

أجبر هؤلاء الطائرة على الهبوط في بيروت حيث أطلقوا سراح النساء والأطفال . وبعد أن توجهوا بها إلى الجزائر للتزود بالوقود ، عادوا بها إلى بيروت ، حيث قتلوا أحد الركاب وهو روبرت ستيثام الغواص بالبحرية الأميركية . وكان الخاطفون من الجهاد الإسلامي ، ويريدون إطلاق سراح سبعة عشر سجيناً منهم في الكويت . كما طالبوا بإطلاق سراح ٧٥٣ لبنانياً شيعياً قبض عليهم الإسرائيليون بعد غارات «القبضة الحديدية» على قرى الجنوب اللبناني . ونقل الإسرائيليون هؤلاء إلى سجون إسرائيل منتهكين بذلك القوانين الدولية .

وهكذا بدأت الدراما التي كشفت الكثير من جوانب الهوة الحضارية بين الشرق والغرب ، والبلاغة غير المفهومة المتبادلة بين أميركا والمسلمين والدور المسرحي للتلفزيون . وسرعان ما أصبحت الولايات المتحدة الأميركية وإسرائيل وسوريا والميليشيات الشيعية بلبنان متورطة في مصير السياح الأميركيين على متن الرحلة ٨٤٧ لطائرة شركة الطيران العالمية . ووعد الرئيس ريغن بأن واشنطن لن تذعن لقوى «الإرهاب الدولي» . وأعلنت إسرائيل أنها لن تستسلم «للإرهابيين» . وقالت سوريا بأنه ينبغي إطلاق سراح المساجين اللبنانيين المسلمين (من سجون إسرائيل) . وطالب بذلك أيضاً المسلمون الشيعة في جنوب لبنان الذين شعروا أن العالم أخذ أخيراً يحس بآلامهم . ورأى بري أن هذا في صالحه .

وبعد أن قتل مسلحو حزب الله روبرت ستيثام بوقت قصير ، صعد مسلحو أمل إلى الطائرة ونجحوا في إخراج جميع من كان على متنها سوى تسعة ، ونقلوهم بالشاحنات إلى برج البراجنة . وكانوا جميعاً تقريباً من المواطنين الأميركيين . وكان بري ينوي ـ كما قال في سلسلة من المؤتمرات الصحفية ـ أن يحافظ على حياتهم مقابل إطلاق سراح المساجين الشيعة في إسرائيل . واستهدف بري كسب ود الأميركيين بإنقاذ حياة مواطنيهم ، وكسب تأييد الشيعة في جنوب لبنان بتحرير أقربائهم من السجون الإسرائيلية ، وإذلال إسرائيل بإجبارها على إطلاق سراح سجنائها ، وكسب ود سوريا بإرسال الرهائن المحررين إلى دمشق .

على أن الأحداث تآمرت على إحباط ما خطط له بري . فعندما خطفت طائرة شركة الطيران العالمية لم يكن قد بقي في بيروت أكثر من عشرة من المراسلين الأجانب . وعندما وصلنا أنا وجي سي وفارمارازي إلى مطار بيروت في صباح اليوم الذي وصلت فيه الطائرة ، كنا الأجانب الوحيدين هناك . لكن حالما أنزل الرهائن من الطائرة ، تدفق المراسلون على بيروت الغربية من جميع أنحاء العالم . إذ كانت قصة الخطف تستحق المجازفة على الأقل لبضعة أيام . وقرر مراسلو التلفزيونات الأميركية عندئذ أن بري «إرهابي» لأنه يحتجز الرهائن . وقالوا إنه لو لم يكن إرهابياً لأطلق سراح المواطنين الأميركيين الذين اعترف أنهم في حوزته . لقد أراد بري أن يعرف العالم أنه أنقذ الأميركيين من حزب الله . لكنه لم يستطع أن يفسر لماذا احتجز حزب الله تسعة من ركاب الطائرة : هل احتجزهم لأنهم عسكريون أميركيون أم لأنه اعتقد أنهم يهود . هذا بالإضافة إلى أن سوريا لم ترد أن يضر بري بسياستها مع إيران التي كانت ـ كما يعرف بري ـ تؤيد حزب الله .

وقدم بري رهينة من الرهائن الأميركيين نصب نفسه ناطقاً باسم ركاب الطائرة وقال إنه «اكتشف» الإسلام ، وردد مطالب أمل وأهمها إطلاق سراح المساجين في إسرائيل . وتنازل بري بهدوء عن الشرط الذي وضعه حزب الله في الأصل وهو إطلاق سراح سبعة عشر من الجهاد الإسلامي في الكويت . لكن هذا لم يلفت الأنظار . وأخذ المراسلون الأميركيون ـ وأكثرهم من الشركات التلفزيونية الأميركية الصغيرة في وسط الولايات المتحدة وممن يكتبون من الخارج لأول مرة عن قصة كبيرة ـ أخذ هؤلاء يرابطون يوماً بعد آخر خارج مكتب بري في كورنيش المزرعة . وكانوا يبدون متشابهين . إذ كانوا يلبسون بذلات زرقاء ويروحون ويجيئون بكل اهتمام وهم يتحدثون إلى كاميراتهم عن «الإرهاب» اللبناني وعن «إرهاب» بري ، وعن «الإرهابيين» الذين كان بري يطالب بإطلاق سراحهم ، والمصير الذي يحتمل أن يواجهه «الإرهابيون» ، وعن الرهائن .

والحقيقة أنه منذ اللحظة التي وقع فيها الرهائن بيد أمل أصبحت سلامتهم مضمونة . لكن الذي

أذيع على العالم كان شيئاً مختلفاً . وكما هو منتظر فإن المحاولة التي قامت بها أمل لتصحيح الصورة في مؤتمر صحفي بمطار بيروت فشلت ،لأن المسلحين قاموا بضرب المراسلين الذين حاولوا التحدث مع الرهائن . ورأت الصحافة الأميركية في هذا اختباراً لبلاغة ريغن . إذ أخذت تتساءل عما إذا كانت أعماله ستتناسب مع أقواله . والواقع أن بيروت بدت لعنة على إدارة ريغن .

كان الصُمّ عندئذ يتحدثون إلى الصمّ باللغة نفسها إذا لم يكن بنفس الطلاقة . قال ريغن انه كان «يفكر» في اغلاق مطار بيروت . وعندما طُلب من بري أن يعلق على ذلك شجب «استئساد ريغن على الشعب اللبناني» . وكان كل تصريح يصدر في بيروت يصل مباشرة إلى واشنطن ومن ثم تذيعه شبكات التلفزيون على العالم الخارجي . وشعر كلا الطرفين أنه ملزم بالرد على الآخر . وحاول البنتاغون تأييد كلمات ريغن الشديدة بأن كشف النقاب عن أن الأسطول السادس كان يقف بالمرصاد عند خط الأفق على ساحل لبنان . وبالطبع لم يكن في استطاعة الأسطول السادس أن يفعل شيئاً يذكر لمساعدة الرهائن الذين قام المدججون بالسلاح من المقاتلين بتوزيعهم حول الأحياء الفقيرة في بيروت . لكن شركات التلفزيون الأميركية عرضت شريطاً يظهر فيه الأسطول الأميركي وهو يجوب عامداً مياه البحر الأبيض المتوسط .

ماذا كان موقف بري من هذه التطورات؟ أعلن أنه يطالب بانسحاب الأسطول السادس كشرط لإطلاق سراح الرهائن . وبالطبع لم يكن باستطاعة بري أن يمنع قارب صيد من الإبحار قرب الساحل اللبناني ، فكيف إذا كان الأمر يتعلق بسفينة حربية؟ لكن في غضون دقائق قطعت شبكات التلفزيون ومحطات الإذاعة الأميركية جميع برامجها لتعلن شرط بري الدرامي الجديد . وهرع أصحاب البذلات الزرقاء (المراسلون) وأخذوا يتحدثون إلى كاميراتهم عن تغيّر التحالفات داخل أمل الذي قد يكون مسؤولاً عن هذا التصلب الظاهر في موقف بري .

أما نحن الصحفيين الذين حضروا مؤتمرات صحفية لا نهاية لها لبري خلال السنوات السابقة ، فقد أدركنا أنه طالب بانسحاب الأسطول السادس لأن هذا أول شيء خطر بباله . وكانت هذه مشكلة زعماء الميليشيات في لبنان الذين عندما يجدون أنفسهم وجهاً لوجه مع عشر أو أكثر من الكاميرات ، أو عندما يتصل بهم بالتلفون أحد مديري الإذاعات أو منسقي البرامج التلفزيونية من نيويورك يشعرون بضرورة قول شيء ـ أي شيء ـ لتحاشي الظهور بمظهر المتردد أو الصامت . كان على بري ـ كالبارجة نيوجيرزي ـ أن يواصل إطلاق النار حتى ولو لم يكن هناك هدف يطلق النار عليه .

وأخيراً انتهت المهزلة عندما تسلمت القوات السورية في برج البراجنة جميع الرهائن وبينهم

المحتجزون التسعة لدى حزب الله . ومن ثم نُقلوا إلى دمشق حيث أحسنت الحكومة السورية استقبالهم . على أن الحكومة السورية فيما بعد اتهمت الأميركيين بنقض وعدهم في إقناع إسرائيل بإطلاق سراح الرهائن الشيعة في إسرائيل . ونقول رهائن لأن إسرائيل احتجزتهم بالفعل كرهائن . والحقيقة هي أن إسرائيل قامت خلال الشهرين التاليين بتسليمهم للصليب الأحمر الدولي شمال الحدود اللبنانية وهم بثياب الركض . وقام الصليب الأحمر بتسليمهم لأمل . وكانت أمل تقوم باستجوابهم خشية أن يكون بينهم عملاء . ورأيت مسلحي أمل يلقون القبض على سبع من سيارات الصليب الأحمر السويسرية ، ادعت بأنهم من العملاء . وأعدم فيما بعد اثنان منهم على الأقل في صور ، وهما لا يزالان بثياب الركض .

وأسفر حادث خطف طائرة شركة الخطوط العالمية عن سقوط ضحايا ثلاث أولهما روبرت ستيثام الذي هشم المسلحون وجهه وجسمه بالهراوات قبل أن يطلقوا النار على رأسه . ثم ألقي به من الطائرة على أرض المطار . ورأيت جثته في مشرحة الجامعة الأميركية ببيروت إلى جانب جثة امرأة فلسطينية كانت قد قتلت عندئذ في حرب المخيمات بين أمل والفلسطينيين . وكان وجهه رمادياً شاحباً وشعره متناثراً . ورأيت ذبابة تحط على جثة المرأة وتنتقل إلى جثته قبل أن تستقر على يد المسؤول الذي كان يسدل الغطاء برفق على وجه ستيثام .

أما الضحية الثانية فقد كان المصور الصحافي الإيراني المسيحي ألفرد يعقوب زادة الذي حضر لتغطية حادث الخطف لوكالة «سيبا» الفرنسية . فخطفه مسلحون من حزب الله على مدخل الفندق الذي كان ينزل فيه ببيروت الغربية . وفي الحال قامت الدار التي كان يعمل لصالحها بالاتصال بوزارة الخارجية الإيرانية وبالرئيس حافظ الأسد وبالشيخ محمد فضل الله وبالمسؤولين الرئيسيين في حزب الله . وبعد ٦٠ يوماً من المفاوضات المضنية تمّ الإفراج عنه بأوامر من السفارة الإيرانية في بيروت . ورأيته بعد الإفراج عنه بدقائق . قال :

ـ لقيت معاملة حسنة . احتجزوني في ملجأ تحت الأرض مع عدد من المساجين . وأخبرني أحد الحراس أن المساجين كانوا إما عملاء أو من جنود جيش لبنان الجنوبي . ومنهم من كان ينقل إلى بعلبك تمهيداً لتصفيته . وكنت أسمع بعض المساجين وهم يساقون إلى غرفة صغيرة مجاورة . وأحد الحراس يصرخ : «أحضروا الكهرباء» ، ثم أسمع صراخاً رهيباً ينتهي إلى صمت مطبق . ولم ير أندرسون هناك .

وقيل لنا بأننا سنرى أندرسون . فانطلق مراسلو الأسوشيتد برس خلف الباص الذي نقل

المسافرين لعلهم يرونه بينهم . وكانت وزارة الخارجية الأميركية قد ألمحت إلى أنه سيتم الافراج عن أندرسون مع باقي الرهائن .

بعد سنوات كنت أنا وجي سي نعيد على الفيديو عرض فيلم مبني على وقائع خطف شركة الخطوط العالمية أُخرج في إسرائيل باسم «فريق الدلتا» . وكان من الواضح أنه استهدف إرضاء الأميركيين . ففي الفيلم تقوم إسرائيل بدعم فريق الكوماندوز الأميركي الذي يقتحم بيروت ، ويقتل مئات من رجال أمل ، وينقذ الركاب الأميركيين ،ويقوم بترحيلهم تحت القصف وفي الطائرة المخطوفة ذاتها . وأظهر الفيلم كل عربي فيه ـ باستثناء كاهن مسيحي يفترض أن تكون أبرشيته في أحياء الشيعة ـ بمظهر الجبان العاشق للتعذيب . وخرجت أميركا منتصرة . وهزم المسلمون اللبنانيون . أما الكذبة الوحيدة التي لم يذكرها الفيلم فهي إنقاذ تيري أندرسون . إذ لم يرد ذكره إطلاقاً .

ولم يرد كذلك ذكر الفلسطينيين . فخلال القصف واصلت أمل المعركة ضد منظمة التحرير الفلسطينية بقصفها لأنقاض صبرا وشاتيلا بالراجمات والمدافع . وعندما أعلن عن وقف لإطلاق النار وذلك بناء على أوامر سورية صدرت على أثر فشل أمل في سحق منظمة التحرير ـ كان قد قتل ٦٠٠ شخص . وعندما دخلنا أنا وجي سي برج البراجنة ، رأينا مئات البيوت التي تكوّم بعضها فوق بعض في بحر من الركام . وكانت جدران بعضها لا تزال قائمة ، ولكن في حالة يرثى لها بسبب ما فيها من فجوات أحدثتها القنابل والصواريخ . وبقيت من أشجارها الجذوع وبعض الأغصان العارية . وكنا من حين لآخر نرى بعض حبال الغسيل المنشور في ذلك الخضم الواسع من البيوت المدمرة مما يدل على أن الناس كانوا لا يزالون فيها . ومن المؤكد أن أشجار نهر السوم في الحرب العالمية الأولى لم تبدُ أسوأ من هذا الدمار .

كان الموتى الفلسطينيون تحت أرض البيوت والملاجئ والكاراجات السفلية . وعليه فقد كانت المقابر غارقة في الظلام . ومررنا بالقبر الجماعي لضحايا مذابح عام ١٩٨٢ في صبرا وشاتيلا ، فإذا به قد تحوّل إلى ساحة من الإسمنت المفتت والأشجار المكسرة بفعل القصف . وإبان هجوم أمل على مخيم شاتيلا في ١٩ أيار/ مايو ١٩٨٥ هرب من بقي فيه على قيد الحياة بعد المجازر المعروفة إلى ملاجئ المصيطبة وأنقاض السفارة الأميركية . وبهذا صاروا لاجئين من مخيمات اللاجئين .

وبعد أن بدأت حركة أمل بقصف الفلسطينيين عرضت السفارة الإيرانية منحي تأشيرة دخول إلى إيران . وكانت زيارتي للسفارة الإيرانية تجربة غامضة ممزوجة بالشعور بالخوف . وكنت متأكداً أن من

فيها هم الذين يتحكمون بمصير أندرسون . ومع هذا وجدت نفسي هناك للحصول على التأشيرة وكأن السفارة الإيرانية قرب الفاكهاني مثل غيرها من السفارات . كان حرسها من أعضاء حزب الله الملتحين . فقدموا لي الشاي وبعض الكتب عن الاستشهاد . وكانت على الطاولة مجلات ذات غلافات مصقولة براقة في داخلها مئات من صور الجنود الإيرانيين الذين قتلوا في حرب الخليج . وكانت وجوههم مهشمة وأعضاؤهم ممزقة . ثم منحني القنصل التأشيرة وقال :

ـ طاب يومك .

وعندما عدت من السفارة الإيرانية إلى مكتب الأسوشيتد برس سألني جي .سي :

ـ هل كانت زيارتك للسفارة الإيرانية موفقة يا فيسكي؟ أعتقد أنهم طلبوا منك أن تقرأ بعض كتاباتهم . قال هذا ونظر إليّ وقد زوى ما بين حاجبيه . وعندما عدت من طهران بعد ذلك بأقل من أسبوعين وجدت رسالة صغيرة منه في صندوق بريدي مرفقة بأخرى . وكتب على ظهر الرسالة :

ـ ليست مجزرة كالمجازر الأخيرة . لكن من الأفضل أن تقرأ الملاحظات المرفقة بها .

كانت الملاحظات المرفقة هي ملاحظاته عن زيارة قام بها لمنطقة المخيمات في ذروة القتال بين أمل ومنظمة التحرير الفلسطينية ، ويقول فيها :

ـ جاءت أولى الاشارات إلى قتل جماعي من رجل وامرأة قالا بأنهما هربا مع من هرب من صبرا ، ولكنهما لم يذكرا عددهم أو متى كان ذلك . وأضافا أنهما تركوا موتى كثيرين في الشوارع . كان هذا كل ما قالاه . ثم قال لي صديق لبناني انه رأى ٤٥ جثة مكوّمة في مشرحة مستشفى الجامعة الأميركية وان كثيرين منهم لم يكونوا من المقاتلين . . . ووصلتني إشارات أخرى من مستشفى عكا . إذ أخبرني أحد أطبائه بأنهم لا يستقبلون الجرحى لأنهم يخافون أن يأتي رجال أمل ويقتلوهم أو ينتقموا من المستشفى بسبب مساعدته للفلسطينيين . . . ومما قوى شكوكي في الأمر أن مقاتلي أمل ضربوا طوقاً حول المخيمات وصدرت لهم أوامر بعدم السماح لأي مراسل بالدخول إليها . وأطلقت النار فوق رأسي مرتين لتحذيري . وأوقفني أناس يعتمل الغضب في صدورهم عدة مرات .

ووصلتني رسالة أخرى من ريتشارد داودن أحد مراسلي التايمز الذي كان قد قام بتغطية أخبار بيروت خلال وجودي بإيران . وقال إنه تحدث مع مهندس في مستشفى صبرا ، وقال له هذا :

ـ إن الفلسطينيين أحضروا جريحاً من مقاتليهم إلى المستشفى في ٢١ أيار/ مايو وتركوه هناك .

فجاء مقاتلو أمل وأخذوه وقيّدوا يديه ثم أطلقوا النار على رأسه من الخلف . وأضاف أنهم أخذوا أيضاً عشرين شخصاً كانوا يعملون بالمستشفى .

وأورد داودن بعض مشاهداته فقال :

ـ إن الدمار في صبرا كبير إلى حد أنه لم ينج ممن كانوا يعيشون فوق أرضه لا (في المخابئ الأرضية) إلا قلة . ان الطريقة التي كان يتحارب فيها مقاتلو الفلسطينيين مع مقاتلي أمل في دهاليز المستشفى بينما كان المرضى فيه ، تدل على أن كليهما لا يعبأ بالمدنيين الذين تحبسهم النيران . ثم إن الطريقة التي يبني فيها الفلسطينيون البيوت فوق المخابئ تجعل وقوع الإصابات أمراً حتمياً . وهم يتوقعون وقوع الإصابات بين المقاتلين وغير المقاتلين . وإذا سألتهم عن عدد مقاتليهم قالوا إنهم جميعاً رجالاً ونساء وأطفالاً ـ مقاتلون . لكنهم يصرخون عندما تقتل امرأة أو يصاب طفل . . .

وفي ٦ حزيران/ يونيو وضعت زوجة أندرسون طفلة بنيويورك أسمتها سولوم .

وبينما كان الفلسطينيون يموتون في أكواخهم ، شن اللبنانيون هجوماً جديداً على الإسرائيليين أعداء منظمة التحرير ، فبدا وكأن النزعة إلى الانتحار تأججت بصورة مفاجئة . فإقدام الإنسان على قتل نفسه ـ كما فعلت نايفة حمادة التي شربت الدواء القاتل للحشرات حزناً على ابنها البالغ ثلاثة عشر عاماً ـ بسبب الحزن أمر يفهمه المرء . لكن أن يسعى الإنسان إلى السعادة بالتضحية بنفسه كان تجربة جديدة بالنسبة إلى اللبنانيين . فاللبناني يحب الحياة .لكنه بدأ عندئذ يفاخر بالإقدام على الموت عن سابق تدبير وسعياً إلى هدف عظيم وطلباً للشهادة . وهذا هو ما فعلته الشابة ابتسام حرب وخالد الأزرق في ٩ تموز/ يوليو عندما اقتحم كل منهما حواجز جيش لبنان الجنوبي بسيارته .

كانت ابتسام شابة لطيفة ذات شعر أسود . رآها أحد المقاتلين من الذين يعملون مع الإسرائيليين قادمة بسيارة بيجو بيضاء ووجهها متجهم . وعندما أطلق عليها النار تحولت سيارتها إلى كتلة من اللهب اخترقت الحاجز . وقام رفيقها الأزرق بالعمل ذاته في شرقي لبنان قرب حاصبيا وقتل خمسة عشر شخصاً بينهم اثنان من جيش لبنان الجنوبي والباقون من المدنيين .

كانت ابتسام من أعضاء الحزب السوري القومي الاجتماعي . وضحّت بنفسها لأسباب سياسية لا دينية . وظهرت على التلفزيون بعد استشهادها بأربع ساعات . ووصل الشريط إلى محطة التلفزيون قبيل موعد الأخبار . فكان عرضه بمثابة وداع عام لها . ظهرت بقبعة حمراء ، وسترة ميدان . وكان شعرها مضموماً خلف رأسها وعلى شفتيها أثر ضئيل للحمرة وعلى عينيها خط رفيع من الكحل .

فبدت وكأنها ممثلة تستعد لأن تقوم بدور البطولة في المقاومة بفيلم عن الحرب العالمية الثانية . وسئلت لماذا كانت مستعدة للموت فأجابت بهدوء وهي تنظر إلى الكاميرا :

ـ آمل أن أقتل أكبر عدد ممكن من اليهود وعملائهم . وآمل أن أنجح في مهمتي . . . وليكن هذا درساً لكل عدو وخائن .

وجرحت ابتسام اثنين من جيش لبنان الجنوبي .

وجدنا أنفسنا ، أنا وجي سي ـ في الطريق إلى حواجز جيش لبنان الجنوبي في أقصى الجنوب لنرى بأعيننا مسرح الاستشهاد ، وعدنا بسرعة إلى بيروت الغربية لنشهد الشريط الذي سيعرض على التلفزيون . وعلقتُ في مكتب الأسوشيتد برس قائمة أخرى وهي قائمة «المنتحرون في نظرة» :

ـ ١٥ تموز/ يوليو ١٩٨٥ ، هشام عباس . عشرون عاماً .فجّر نفسه وتسعة آخرين (اثنين من جيش لبنان الجنوبي وسبعة مدنيين) عندما اقتحم بسيارته حاجزاً لجيش لبنان الجنوبي قرب قرية كفرتبنين .

ـ ٣١ تموز/ يوليو ١٩٨٥ ، علي غالب . اثنان وعشرون عاماً . صدم بسيارته دورية إسرائيلية تقوم بدور الشرطة في قرية أرنون الجنوبية .

ـ ٦ آب/ أغسطس ١٩٨٥ ، جمال ساطي . ٢٣ عاماً . كان يركب حماراً محملاً بأربعمائة كيلو من مادة تي . إن . تي . وفجر نفسه وحماره قرب مقر الحاكم العسكري الإسرائيلي في بلدة حاصبيا .

وطالت هذه القائمة حتى بلغ طولها قدمين . وفي غضون ثلاثة أشهر جرت ستة هجمات انتحارية قامت بإحداها فتاة في الثامنة عشرة من العمر . وكان عدد من المنتحرين قد فقدوا أقارب لهم في الهجمات على الإسرائيليين قبل ذلك .

كان من الصعب على الغربي أن يفهم كيف يعمل عقل صاحب الهجوم الانتحاري . ولكن سبق لجي سي أن كتب كتاباً عن الطيارين اليابانيين الانتحاريين في الحرب العالمية الثانية فقال :

ـ إقرأ هذا يا فيسكي وستجد فيه ما يشبه ذلك .

وجدت الكتاب مليئاً بأوصاف شعائر الجنائز والاحتفالات باستشهاد الطيارين قبل انطلاقهم (لتنفيذ مهماتهم) . كانوا هم أيضاً يلفون رؤوسهم بأشرطة من القماش ـ أشرطة الاستشهاد . وكان أكثر ما يؤلمهم هو إلغاء مهماتهم . ترى هل قطعنا كل صلة لنا باللبنانيين الذين نعيش بينهم منذ سنوات؟ وأية فرصة ستكون لأندرسون في المجتمع اللبناني الجديد الذي أخذت معالمه في الظهور؟

بمناسبة عيد ميلاد أندرسون ، قامت زوجته مادلين واخته بيجي ساي بإعداد فيلم قصير عن الأسرة بما فيها المولودة ، وأقنعوا القائمين على التلفزيون الحكومي بلبنان بعرضه على أمل أن يُسمح له بأن يراه . ففي تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٨٥ سُمح لأندرسون أن يكتب رسالة خاصة لأسرته . فجاءت تعبيراً عن الألم والصراع من أجل الحياة . وكانت الرسالة موجهة إلى زوجته وأخته وأبيه وأخوته . قال فيها :

ـ مادلين ، حبيبتي ، قلبي ، رأيت ابنتنا ليل أمس على شاشة التلفزيون ، فبكيت فرحاً . رأيتها لمدة ثانيتين أو ثلاث ، لكنها كانت كافية لأن ألمح شعرك الناعم وعينيك الجميلتين اللامعتين . لا أستطيع أن أصف لك كيف تكون الأشهر التي تنقطع فيها الأخبار . شاهد حرسنا صورتكما على الشاشة في أخبار المساء الأولى ، فأحضروا جهاز التلفزيون إلى غرفتي كي أشاهدكما في الأخبار المتأخرة . . . لا أتوقف عن التفكير بك والتحدث إليك كل ليلة وفي ساعات الصباح الباكرة . تلك هي أصعب الأوقات . لكن التفكير فيك يساعدني . . . إنني أفتقدكما . كان الله رحيماً بنا ، وأنا متأكد أن هذا الانقطاع في مسار حياتنا لن يدوم بإذن الله . . .

حاولنا أن نتخيل ما يجري في عقل أندرسون . لا ريب في أن هذا الرجل ذا النظرة الواسعة والشخصية الطاغية الذي حُبس وقُيّدت حركته قد ارتد إلى شجاعته الذاتية التي لم يسبق أن تعرضت لمثل هذا الاختبار . فمن الواضح أنه وجد راحة كبيرة في الدين . وأدركت مادلين هذا في الحال ، وكشفت لي عن وجه أندرسون الذي لا أعرفه . قالت :

ـ انه كان يفكر كثيراً في الخالق عندما خُطف . وأذكر أننا عندما ذهبنا معاً إلى الكنيسة في يوم من أيام الآحاد قرب بيت أختي في شمال إنجلترا أخذ يبكي أثناء الصلاة .

قال أندرسون في رسالته انه في الأسر يصلي مع جنكو وفير ، ويقوم أحدهم في كل مرة بقراءة نصوص الكتاب المقدس . وأشار إلى علاقته الوثيقة بالأب فير الذي أطلقت منظمة الجهاد الإسلامي سراحه في وقت سابق من تلك السنة . إذ قال في ر سالته :

ـ آمل أن تسنح لك الفرصة للتحدث مع الأب فير . . . إنه رجل لطيف دمث ذو ايمان راسخ كالأب جنكو ، وهو أحد الثلاثة المحبوسين معي . فالفضل يرجع إليهم وإلى الكتاب المقدس الذي قُدّم إليّ بعد الأسابيع الأولى من خطفي في أنني ظللت سليم العقل . إننا نقيم الصلاة مرتين في اليوم ، ونختار القراءات بالدور . . . مشكلتنا الرئيسية هي أن نجد ما يشغلنا . فهذا هو السبيل الوحيد لتحاشي الانهيار . إنني أفتقدك كثيراً . لم أكن أعرف أن غيابك عني يؤلم إلى هذا الحد .

وظللنا أنا وجي سي نتنفس بعمق ونحن نقرأ الرسالة . كنا أمام عالم مظلم مخيف ،كانت روح أندرسون تحاول أن تخرج منه وتعيد النظر في حياته السابقة . قال :

ـ كنت أسمع نتفاً من الأخبار عن بيج (اخته) وجودي (أخت أخرى) وأبي وسعيهم إلى إيجاد من يمكنه أن يفعل شيئاً ، وهذا هو التشجيع الوحيد الذي نتلقاه . أحبكم جميعاً . ولدي الكثير ، ولكنني لا أستطيع أن أقوله الا عندما أعود إلى البيت . وأدرك الآن كم انقطعت عنكم في السنوات الماضية وكم خسرت لذلك السبب . كم أنا مشتاق لرؤيتكم جميعاً مرة أخرى . إنني أصلي كل ليلة لأجل كل منكم . . . في كل يوم أحلم ببتافيا (في ولاية نيويورك) وببناء كوخ صغير إلى جانب النهر الصغير ، وبتنظيف بركة الماء خلال الصيف . آمل أن يكون ديفيد (زوج بيجي) قد تمكن من إعادة فتح البئر . وإذا عدت في أوج فصل الشتاء أود أن أقضي هناك بعض الوقت . آمل أن تمنحني الأسوشيتد برس إجازة لبضعة أشهر لأستمتع مع أسرتي . فخلال السنوات العشر التي قضيتها في الخارج لم أقض مدة طويلة معها . . .

صُوَر وصور . كنا محاطين بالصور الصغيرة ـ صور مسلمين لبنانيين فقدوا في بيروت ، وصورة لوليم بكلي رجل السي . آي . إي . الذي مات على أثر تعذيبه . وعلمنا أنه كان على أندرسون أن يحمل جثة بكلي ويخرجها من الطابق السفلي للمبنى الذي حبسوا فيه ، وصور من الكويت ، وصفّ من الصور من الأعداد القديمة من مجلة الصياد . وصور السبعة عشر المسجونين في الكويت والذين تطالب منظمة الجهاد الإسلامي بإطلاق سراحهم . وبعضهم يبتسم . وبينهم الياس فؤاد صعب الذي قيل انه أعد السيارات المفخخة لتفجير السفارتين الأميركية والفرنسية عام ١٩٨٣ . وله شارب أنيق ووجه كبير ولطيف . إنه من الرجال الذين يمكن أن أجدهم على الحواجز وأتحدث معهم ، وأتمنى لهم السلامة قبل أن أنطلق بسيارتي . وكان آخرون من الرجال السبعة عشر يحملقون في الكاميرا .

وفي الأول من تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٨٥ جاء دور الروس . فخُطف ثلاثة منهم بينهم أركادي كاتكوف الذي أطلقت عليه النار وأبقيت جثته في خرابة ببيروت الغربية . ويبدو أن الخاطفين هذه المرة كانوا من الأصوليين السنة الذين كانوا يحاولون إقناع الإتحاد السوفييتي بوقف الأعمال العسكرية السورية ضد ميليشيا التوحيد في مدينة طرابلس بشمال لبنان . وكان الذي تعرّف على جثة كاتكوف صديقه قسطنطين كابيتانوف ، وهو صحفي سوفييتي يعمل في بيروت لحساب مجلة «ليتراتورنايا جازيتا» .

عرفت كابيتانوف عن كثب . كنت ألعب معه التنس . وأعتقد أنه كان عميلاً للاستخبارات (كي .جي .بي) الروسية . كان دائماً يهزأ بشكوكي فيه . رأيته جالساً في مجمع السفارة الروسية والدموع في عينيه . قال :

ـ بوب ، لقد كان صديقي ، وصديقي الحميم . كنت أقدره كثيراً ، وأنا على استعداد لأن أجازف بحياتي من أجله . لم أصدق أنه مات ، حتى عندما رأيت وجهه بلا حياة في المشرحة .

وأضاف كابيتانوف وهو يبكي :

ـ سنجد الفاعلين .

والواقع أن الروس وجدوهم بمساعدة الدروز . إذ خُطف أخ للمشتبه بأنهم خطفوهم . وفيما بعد سمعنا أن أسرته تلقت أحد أصابعه داخل مغلف . ثم تلقت أصبعاً آخر . فأطلق سراح المخطوفين الروسيين الآخرين سالمين . وكان كابيتانوف ينفي هذه الرواية باستمرار . لكنه قال بأن للاتحاد السوفييتي «أصدقاء» وأن هؤلاء الأصدقاء أنقذوا المخطوفين .

عودة إلى تيري . . منذ يوم اختطافه وأنا أفكر في نظارتيه . قالت لي مادلين إنه لا يستطيع الرؤية بدونهما . وأخيراً عرض صديق شيعي أن يحاول الاتصال بحزب الله . وسألني إن كنت أرغب في إرسال النظارتين وبعض صور ابنتيه له . فتحدثت في هذا الأمر مع جي سي ، وقررنا أن نرسل صورة لأبنته البكر جيزيل استطعت أن أجدها في المكتب ، وطلبت من مادلين أن ترسل لي صورة لابنته سولوم . وكتبت على ظهر كل صورة فيسكي وهو الاسم الذي كان يناديني به . ثم أخذت النظارات التي سقطت عن عينيه وقت اختطافه إلى أخصائي في النظارات في بيروت الغربية ، وحصلت على نسخة منهما .

حضر صديقي لأخذ الصور والنظارتين ، وأخبرني أن حزب الله يريد عنواني . فكتبت له العنوان وأرفقت به رسالة إلى تيري قلت فيها :

ـ عزيزي تري ، هذه الرسالة تحمل أطيب تمنياتي ودعائي إلى الله بأن يرعاك بحمايته ،وأن يمنّ عليك بإطلاق سراح عاجل . . . أفكر فيك دائماً ، وأرجو الله أن يلهم ساجنيك بأن يتكرموا بالسماح لي برؤيتك . . . صديقك إلى الأبد ، فيسكي .

وقدم الرسول النظارات والصور ورسالتي . وقال فيما بعد إنه شاهد فحص الصور بدقة بلغت حد نزع الوجه المصقول من الصورة .ولم نسمع شيئاً آخر .

في هذه الأثناء وصل إلى بيروت تيري ويت المبعوث الشخصي لرئيس أساقفة كانتربري . كان رجلاً جسيماً يتمتع بثقة غير محدودة بالنفس . نزل في شقة تيري أندرسون في المبنى الذي أسكن فيه . وزرته أنا وجي سي وبقينا عنده إلى ساعة متأخرة من الليل نحدثه عن تيري أندرسون .

تلقى ويت مكالمة هاتفية من شخص يدعى علي . وطلب منه هذا أن يلتقي به عند محطة للبنزين في الضاحية الجنوبية . ولكن ويت شك في وجود «علي» . وبدأنا نرى كيف أن حقائق الوضع اللبناني أخذت تتسرب إلى ثقة ويت بنفسه . وكان أخشى ما يخشاه عندئذ أن يتعرض إلى محاولة خطف من قبل احدى المجموعات اللبنانية المعادية لمنظمة الجهاد الإسلامي . وبدأنا نفكر كيف يمكننا أن نتحقق من صدق علي هذا . فخطر لنا أن نسأله أين أمضى تيري أندرسون عطلة عيد الميلاد عام ١٩٨٤ . ولكن هذا لم يُجدِ شيئاً لأن كثيرين جداً كانوا يعرفون أنه قضى صبيحة عيد الميلاد في الجبل يتراشق بالثلج مع زملائه من الأسوشيتد برس . خطر لنا أن نسأله إن كان يعرف بعض التفاصيل عن وظيفته السابقة . فوجدناه يعرف أنه كان في جنوب افريقيا . وخشينا أن يوحي هذا إلى الخاطفين بأن تيري أندرسون كان من مؤيدي الحكم في تلك البلاد .

وقضينا ساعة ونحن نفكر بسؤال آخر . وعندما اتصل طلبنا منه أن يسأل تيري أندرسون عن اسم صديقة فيسكي الفنلندية ، وذلك لأنه كان من المؤكد أن منظمة الجهاد الإسلامي لا تعرف اسمها . وهو كريستينا جويلسن . وسمعت ويت يعيد الاسم على التلفون . وبعد بضع ساعات اتصل علي وقال إن اسم الصديقة هو كريستينا . وفي الحال انطلق تري ويت إلى موعده مع الجماعة الذين نسفوا ثلاث سفارات أميركية وسفارة فرنسية وثلاثة مراكز قيادة عسكرية : واحد أميركي وآخر فرنسي في بيروت والثالث إسرائيلي في صور .

عاد تري ويت من المقابلة قبيل منتصف الليل . كان بادي الإعياء منهاراً ويملأ الخوف قلبه . لقد كان يكافح من أجل الرهائن . وحملته منظمة الجهاد الإسلامي رسالة إلى واشنطن . وهناك قابل جورج بوش (نائب الرئيس الأميركي حينذاك) . وكما علمنا من التحقيقات الأميركية في قضية إيرانجيت فيما بعد ، فإن ويت قابل أيضاً أوليفر نورث وهو من مساعدي الرئيس ريغن . وزار ويت بيروت مرتين بعد ذلك . وكان يظن أنه قد توصل إلى اتفاق مع الكويتيين حول السجناء السبعة عشر يقضي بعدم تنفيذ حكم الإعدام الصادر بحق ثلاثة من هؤلاء السجناء ، ووعد كويتي بالسماح لتيري ويت بزيارة هؤلاء السجناء في الكويت أو على الأقل السماح لهم بالكتابة إلى عائلاتهم .

وأبلغت منظمة الجهاد الإسلامي ويت أن بإمكانه تسليم رسائل إلى المخطوفين من أهلهم وأصدقائهم . وقمنا أنا وجي سي بإرسال بطاقة عيد ميلاد إلى تيري كتبنا عليها جملة واحدة تضرعنا فيها إلى الله أن يمن عليه بإطلاق سراحه قريباً . وقام كل منا بالتوقيع على البطاقة .

وقبل حلول عيد الميلاد بقليل أخبر الكويتيون ويت بأنهم لن يسمحوا له بزيارة المساجين . فلم

يضغط الأميركيون على الكويتيين الذين رفضوا أيضاً السماح بكتابة الرسائل . فطلب ويت من الجهاد الإسلامي السماح له بمقابلة أسر المساجين . ولكنه أمر بأن يغادر البلاد في غضون يومين . قال :

ـ تلقيت مكالمة تلفونية أبلغتني رسالة تقول : لقد أزعجنا ما فعلت . انتهت مهمتك . نمهلك ٤٨ ساعة لمغادرة لبنان .

فرحل ويت في الحال . وخلال زياراته كان المسلحون من الشبان ذوي اللحى يرابطون خارج المبنى الذي نعيش فيه ويراقبون ويت والبيت ، ويسيرون ورائي عندما أذهب لشراء حاجياتي . لكنهم توقفوا عن ذلك عندما رحل ويت . وقال جي سي ونحن في شقته :

ـ لا أظن أننا سنرى أندرسون مرة أخرى .

ترى ما الذي حدث؟ هل كان هناك خطأ؟ وما الذي كان يريده الخاطفون . فقد سافر ويت إلى واشنطن قبل أن يطلق سراح أندرسون الذي كتب في رسالته إلى مادلين : « . . . إذا لم يكن الشتاء في أوجه عندما يطلق سراحي» . ومر عيد الميلاد ولم يصل منه شيء .

مزيد من الخطف . فخُطف في الضاحية الجنوبية أربعة من موظفي محطة التلفزيون الفرنسية الثانية . وأعلنت «منظمة العدالة الثورية» مسؤوليتها عن اختطافهم . وتبادر إلى ذهننا أن المنظمة لم تكن سوى حزب الله . وكان هذا صحيحاً . واعترف أحد المخطوفين الأربعة فيما بعد بأنه حاول الانتحار عدة مرات وهو محتجز في زنزانة تحت الأرض . وتوفي الباحث الفرنسي ميشيل سورا بداء السرطان وهو محتجز لدى حزب الله . لكن الخاطفين وزعوا صورة فوتوغرافية لوجهه وهو يرقد في تابوته ، وادعوا أنهم نفذوا حكم الإعدام فيه .

صرنا نقوم برحلاتنا إلى الجنوب وسط مخاوف شديدة . وصار طريق المطار يثير لدي أشد الهواجس . ولم يبق في بيروت الغربية غير أربعة صحفيين غربيين : أنا وجولي فلنت من إذاعة إي . بي . سي . وأجنتا رامبرغ من إذاعة السويد ، وجي سي .

الخطف مرة أخرى . ففي ٢٨ آذار/ مارس ١٩٨٦ خُطف معلمان بريطانيان من أمام ناد ليلي في شارع المكحول وهما لي دوغلاس وفيليب بانفيلد . وبعد ذلك بأسبوعين أمر الرئيس ريغن بقصف ليبيا . وعادت واشنطن ثانية إلى الحديث عن «الإرهاب الدولي» وعن الحرب ضد «الإرهاب» إلى آخر الأسطوانة المعهودة . واتهمت واشنطن ليبيا بالاشتراك في نسف مرقص ببرلين الغربية أدى إلى مقتل مواطن أميركي . واتضح فيما بعد أنهم ليسوا المسؤولين عن نسفه . إلا أن ريغن قرر أن ينتقم من القذافي .

واختار الأميركيون الانتقام من القذافي الدكتاتور الصلب الذي كان اقتصاده آخذاً في الانهيار بسبب هبوط أسعار النفط . لقد حكم عليه الأميركيون بالموت . ونفوا أنهم قصدوا قتله بالرغم من أن الهدف الذي اختارته وزارة الدفاع الأميركية هو بيت القذافي . وقصفت الطائرات الأميركية بيته وأصابت أسرته وقتلت ابنة له بالتبني ، لكنها أخطأته فنجا . ودمرت الغارة منشأتين عسكريتين في طرابلس وبنغازي وألقت بعدد من القنابل على صف من بيوت المدنيين .

وقفنا أنا وجي سي في شرفة غرفة بالفندق الكبير فوق الميناء بطرابلس نراقب القصف في المدينة . وفي اليوم التالي شاركنا في تشييع الجنازات الجماعية . وكان بين الجثث جثة فتاة فلسطينية جاءت من لندن لتقضي إجازتها المدرسية بطرابلس . ويبدو أنه كتب علينا أنا وجي سي أن نكون مراسلي القبور الجماعية .

وفي تلك الليلة بلغنا خبر من بيروت يقول إنه عُثر على المعلمين البريطانيين دوغلاس وبانفيلد مقتولين في الشوف . ولقي المصير ذاته بيتر كلبورن مدير مكتبة الجامعة الأميركية ، وذلك بعد احتجاز دام سبعة عشر شهراً كانت أسرته خلالها تحاول أن تشتري حريته . لكن العملاء الليبيين دفعوا أكثر ، فاشتروه كما اشتروا المعلمين من الخاطفين الذين كانوا يعملون لحسابهم (لا لحساب المنظمات) . وحاول هؤلاء العملاء أيضاً شراء تيري أندرسون .

ثم أعلن عن قتل ألك كوليت . إذ أرسل أحدهم لشركة رويتر شريط فيديو يصور رجلاً يتدلى من حبل المشنقة وعليه القميص والبنطلون اللذان ظهر بهما ألك على شريط آخر أرسله لأسرته بمناسبة عيد الميلاد .

كان جون مكارثي المراسل التلفزيوني البريطاني الذي يعمل مع «وورلد وايد تلفيجن» لا يزال في بيروت أثناء قصف ليبيا . فهرب إلى المطار . لكنه هرب متأخراً ، فوقع في أيدي مسلحين غير بعيد عن طريق المطار . وجاءني جي سي في الفندق بطرابلس وعليه علائم الانفعال الشديد . وقال : أبلغتني الأسوشيتد برس أنني لا أستطيع أن أعود إلى بيروت بالرغم من أنني بوليفي . ورفضت تغيير رأيها .

قررنا أن نواصل عملنا بطريقة أو بأخرى من لبنان . كان هذا ممكناً . كان أمامنا موضوع الرهائن الذي أصبح من أهم موضوعات الأخبار في العالم ،وكذلك الجيوش الإسرائيلية والسورية ، والإيرانيون . وفي تلك الأثناء كان حزب الله يشن هجمات جماعية ضد ميليشيات الجنوب المتحالفة مع إسرائيل .

سألني جي سي ونحن في مصعد الفندق بطرابلس ذات صباح :

ـ هل سنعود إلى بيروت الغربية . فأجبته :

ـ بكل تأكيد .

فصافحني للتأكيد على ذلك . وأخذ إجازة من الأسوشيتد برس على الفور وعاد إلى بيروت .

وتوافد الأصدقاء إلى طرابلس من أماكن لم يتوقع أحد أن يأتوا منها . وكان بينهم صديقي قسطنطين كابيتانوف الصحفي السوفييتي الذي كنت ألعب معه التنس . وكان رأيه ورأي زملائه أن القذافي دكتاتور ، وأن الهواجس الأميركية هي التي رفعت شأنه وسألني إن كنت سأعود إلى بيروت فلما قلت إنني سأعود قال :

ـ إذا احتجت إلى مساعدتي اتصل بي ، ويمكنني أن أذهب إلى المطار لنقلك . لن يقوم أحد بخطف مواطنين سوفييت في لبنان .

كانت الأشهر التي أعقبت عودتنا إلى بيروت رهيبة حقاً . فقد عشت مع جي سي في خوف دائم مصدره السيارات المليئة بالشباب التي كانت تجوب شوارع بيروت باستمرار . كنت لا أزال أعمل من مكتب الأسوشيتد برس . وكان فيه فاروق نصار وعدد من المراسلات الصحفيات اللبنانيات . كانت هناك هالة جابر وريما سلامة وردينة كنعان . وفي كل مرة كنت أذهب فيها إلى الجنوب كان فاروق يحذرني قائلاً : «كن حذراً إلى أقصى حد» وكان حسين كردي ينقلني إلى المطار بسيارته محشوراً في المقعد الخلفي بين زوجته وطفلها وبين ابن نصار وسلامة . كما أنه كان يحضر إلى المطار لنقلي إلى بيروت عندما كنت أعود من القاهرة أو الخليج . إذ من كان يستطيع أن يخطف غريباً من بين النساء حتى ولو كان وحده في السيارة؟ وكان هذا على الأقل هو ما نعتقده .

أمضى جي سي عدة أيام في قرية دير قانون النهر في الجنوب اللبناني . وهناك أخذوه إلى سيدة قالت له إنها تعرف سبب تفجير مركز القيادة الإسرائيلية في صور في تشرين الثاني/ نوفمبر من عام ١٩٨٣ . وادعى الإسرائيليون عندئذ أن الانفجار وقع نتيجة تسرّب الغاز . قالت السيدة إن ابنها قد اختفى بسيارة العائلة يوم وقوع الانفجار ولم يروه بعد ذلك أبداً . وكانت العائلة تحتفظ في بيتها بأشرطة تسجيل للقرآن الكريم . وهكذا وفي يوم من أيام عام ١٩٨٦ أي بعد ثلاثة أعوام من اختفاء ابنها ، أسمعت هذه السيدة جي سي أحد تلك الأشرطة . ابتدأ الشريط بالفاتحة . وتلت الفاتحة رسالة مسجلة بصوت ابنها المفقود . قال إنه يقبّل والدته ووالده ويستودعهما لأنه ذاهب إلى الشهادة .

وهكذا تحقق لنا أن عشرات القتلى الإسرائيليين الذين رأيتهم ممددين في صفوف على أرض مخزن تغمره الأنوار في تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٨٣ كانوا قد قتلوا في هجوم انتحاري .

في أوائل حزيران/ يونيو ١٩٨٦ تناولت طعام الغداء مع مسؤول شيعي في بيروت الغربية . وكعادتي كلما قابلت أعضاء في الحركات الشيعية رجوته المساعدة في إطلاق سراح أندرسون . قال :

ـ ستسير الأمور على ما يرام . إن الأميركيين في طهران الآن .

ولم يستطع أو لم يُرد أن يفسر ذلك . ولم أفهم أنا المقصود مما قال . إذ كان وجود ممثلين للحكومة الأميركية في طهران أمر مستبعد .

تجددت حرب المخيمات بشراسة . ونشب القتال بين الدروز وأمل من أجل السيطرة على بيروت الغربية . كانت هناك وعود بإجراء إصلاحات حكومية لكن الميليشيات أخذت تتدخل في كل تغيير . وجلبت الميليشيات معها تناقضاتها .

ولنعد إلى الخطف . في ٩ أيلول/ سبتمبر ١٩٨٦ خُطف فرانك ريد الذي كان يعلّم في الكلية الثانوية العامة . وفي التاسع من الشهر ذاته خُطف جوزف سيسيبيو المدير المالي في الجامعة الأميركية . وبهذا أصبح طول قائمة الخطف في نظرة واحدة بمكتب الأسوشيتد برس خمسة أقدام . وخُطف إدوارد تريسي في ٢١ تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٨٦ . وأخذ أقرباء المخطوفين وأصدقاؤهم يقومون بالمظاهرات للمطالبة بالإفراج عنهم . وتظاهر الطلبة بشجاعة للغرض ذاته .

وفي عام ١٩٨٦ تم الإفراج عن الأب جنكو الذي حمّله المخطوفون رسالة إلى البابا وأخرى إلى الرئيس ريغن . واجتمع ببيجي ساي شقيقة أندرسون في دمشق . وعلمت منه أن أندرسون لا يزال يجهل أن والده وشقيقه توفيا ، ولكن وصلته صور ابنتيه التي كتبت اسمي على ظهر كل منها . كما وصلته بطاقة عيد الميلاد التي أرسلناها له أنا وجي سي مع ويت . ولكن لم تصله النظارات ورسالتي .

واتصلت بالتايمز . وكان دوغلاس هيوم قد توفي بالسرطان في تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٨٥ ، وحل مكانه في رئاسة تحرير التايمز تشارلز ولسون الذي سبق له أن زارني في لبنان عام ١٩٨٤ وقابل تيري أندرسون ، وكان قد تلقى مكالمة تلفونية من وزارة الخارجية البريطانية تبلغه فيها أنه ينبغي علي أن لا أعود إلى لبنان . وقال :

ـ إنني لا أكترث لأولاد (كذا) في وزارة الخارجية . أريد أن أعرف رأيك أنت .

وعندما قلت له بأنه ينبغي علي أن أعود إلى بيروت في الحال لكي أعرف إذا كان هناك تهديد حقيقي لي . ففي حال وجوده يتعيّن علي أن أرحل عن لبنان . فقال :

ـ حسناً أيها الزميل ، وحظاً سعيداً .

اتصلت بصديقي الروسي كابيتانوف . فقال :

ـ لا تقلق يا بوب . سألاقيك على المطار .

فرجوته أن يفعل ذلك وقلت إنني اعتمد عليه فقال : «اعتمد علي» .

كانت رحلتي إلى بيروت مزعجة . إذ أخذت الرياح تضرب طائرة البوينغ عندما اقتربنا من أجواء لبنان . وفي المطار كان المسلحون يجلسون في قاعة الوصول . ولم أشاهد كابيتانوف . وسألني مسلح ملتح يلبس معطفاً طويلاً :

ـ ما الذي جاء بك إلى هنا؟

فأخذت أبحث يائساً عن كابيتانوف . وأخيراً رأيته ومعه ألكساندروف الملحق الصحفي بالسفارة السوفييتية ومراسل «تاس» في بيروت . فقال :

ـ أهلاً بالزميل روبرت .

وكان لحزب الله حاجز تفتيش في منتصف الطريق إلى المطار . فأنزل ألسكاندروف زجاج السيارة وقال :

ـ سفارة سوفييتية .

فسمح لنا بمواصلة السير . فالتفت ألكسندروف إليّ وعلى وجهه بسمة تدل على شعوره بأهميته وقال :

ـ لقد أنقذتك المخابرات الروسية (كي .جي .بي) روبرت . إلى أين تريد أن نوصلك؟ إلى بيتك؟ إلى أحد المطاعم؟

وفهمت معنى السؤال وتوجهنا إلى مطعم سباغيتاريا على حساب التايمز . ورمقني كابيتانوف بنظرة تدل على الاهتمام وقال :

ـ هل تعتقد أنني لا أزال مع المخابرات الروسية؟ قلت :

ـ هذا ممكن . فقال :

ـ لا . أنا صحفي . وقد فعلت هذا لأنك صديق . وسوف تجدني دائماً على استعداد لمساعدتك . والواقع أن كابيتانوف لم يطلب مني شيئاً في مقابل ذلك . لقد كان عند كلمته .

عندما كُشف النقاب عن فضيحة إيرانجيت لعنّا أنا وجي سي تقاعسنا عن الأخذ بزمام المبادرة . فقد علمت أن الأميركيين كانوا في طهران خلال شهر أيار/ مايو السابق . لكنني لم أدرك أهمية الخبر وتشبثت ببيروت اعتقاداً مني بأنها أفضل عاصمة عربية في الشرق الأوسط للمراسل الصحفي . وبالرغم من أنني تلقيت معلومات صحيحة عن الرهائن ، فقد قررت تجاهلها على أساس أنه يصعب تصديقها . وكنا أنا وجي سي لا نقيم وزناً لحماسة ريغن للأخلاقيات ، كما كنا نسخر من حملته على «الابتزاز الإرهابي» ومع ذلك كان خضوعه لمثل ذلك الابتزاز مثار دهشتنا . فالمدافع مقابل الرهائن . والصواريخ مقابل السجناء . لكننا فهمنا أهمية هذا . إذ أصبحت ورطة تيري أندرسون كورطة غيره من الرهائن الأميركيين أسوأ بكثير .

قامت منظمة الجهاد الإسلامي بإرسال المزيد من صور تيري أندرسون . وبدا في إحداها ملتحياً ، وفي أخرى بلا لحية . وظهر في شريط فيديو بنظارات ربما كانت نظارات وليم بكلي الذي أعدم قبل ذلك بمدة طويلة . وأخذت مادلين تعلّق الصور على جدران غرفة ابنتها سولوم ، وذلك لكي تتعرف الصغيرة وهي تكبر على أبيها . وكان لسولوم شعر ناعم ورقيق وعينان زرقاوان . وبالرغم من أن مادلين كانت تبكي كثيراً فإنها أظهرت شجاعة كبيرة .

انتظرتْ مادلين عندما بلغها أن زوجها تري على وشك أن يطلق سراحه . وانتظرت عندما فقدت كل أمل .

انتظرت وكانت دائماً تنتظر .

عندما خُطفت طائرة شركة الخطوط العالمية للطيران (تي . دبليو . أي) تحلّق الصحفيون الذين عادوا إلى بيروت لتغطية أخبار الخطف حول البار وأخذوا يتحدثون عن أندرسون . وأخذ الذين كانوا يعرفونه جيداً يتنبأون حول مصيره بالطريقة ذاتها التي كانوا يجترون فيها أحاديثهم عن مستقبل لبنان . سألني أحدهم :

ـ هل تعتقد أن أندرسون لا يزال حياً يا بوب؟ ثم رفع كأسه وقال :

ـ نخب أندرسون .

كانت مادلين لا تزال تنتظر . سألتني مرة :

ـ هل تعتقد أنه سيظل يحبني عندما يخرج؟

فأكدت لها أنه سيفعل ذلك . وكان بيته مليئاً بالكتب . وتساءلت إذا كان قد قرأ قصيدة سيمونوف التي يعرفها كل جندي روسي انفصل عن أسرته في الحرب العالمية الثانية :

انتظريني فسوف أعود
انتظريني بكل قوة
انتظريني عندما يعتصرك الحزن . . .
انتظريني في الحر المحرق
انتظريني عندما يتوقف الآخرون عن الانتظار
لأنهم نسوا أيامهم الخوالي .
انتظريني حتى إذا لم تصلك من بعيد أية رسالة
انتظريني حتى عندما يملّ الآخرون من الانتظار .
وعندما يتحلق الأصدقاء حول النار
ويشربون نخب ذكراي
انتظريني فسوف أعود متحدياً كل موت
ودعي أولئك الذين لا ينتظرون يقولون إنني
كنت محظوظاً
لن يفهموا أنه في أحضان الموت
أنقذتني بانتظارك
أنت وأنا وحدنا نفهم كيف نجوت
ذلك لأنك انتظرت كما لم ينتظر أحد[٢] .

(٢) قسطنطين سيمونوف : «انتظريني» أخذت هذه الترجمة من حلقة تلفزيونية (كتبها نيل أنتشيسون) في مسلسل لمحطة «بريتش تيمز» بعنوان «العالم في الحرب» .

بدا لبنان عندئذ وكأنه ملحمة من الأرواح الضائعة من الرجال والنساء المفقودين الذين اختفوا ، أو احتجزوا ولم يعودوا ، أو خُطفوا أو عذبوا ، أو قضوا نحبهم . ذهبت من قرية إلى قرية في جنوبه أتحدث إلى الذين سُجنوا في معتقل الخيام الواقع تحت سيطرة جيش لبنان الجنوبي . ووصف لي هؤلاء كيف كانت تغطى رؤوسهم ووجوههم ويعذبون ، ويصرخون عندما توضع الأسلاك المكهربة على أصابعهم وأعضائهم الحساسة . ففي صور رأى جي سي شاباً في الخامسة والعشرين من عمره احدودب ظهره وتعفن لحمه بعد أن قضى ستة أشهر في سجن قذر تحت الأرض بالخيام غارق في الظلام . ورفضت إسرائيل السماح للصليب الأحمر الدولي بزيارة هذا المكان المرعب . وقال الإسرائيليون بأن السجن تحت سيطرة أنطوان لحد .

وامتلأ مكتب الأسوشيتد برس ببيروت بملفات الرهائن من اللبنانيين والأميركيين والبريطانيين والفلسطينيين وحتى الإيرانيين . وفي عام ١٩٨٢ ، وفي ذروة الحصار الإسرائيلي لبيروت الغربية خطف الكتائبيون ثلاثة إيرانيين ـ وهم موظف في السفارة ، وقائد للحرس الثوري ، وصحفي ـ على حاجز شمال جبيل . واختفى هؤلاء كما اختفى غيرهم . وكنا الوحيدين الذين لم يبعثوا تقريراً إخبارياً عن هذا الحادث . وعندما أبلغتني السفارة الإيرانية النبأ ، لم أجد في تقاريري التي بعثتها ومذكراتي للتايمز وملاحظاتي شيئاً بذلك الخصوص . كانوا أجانب لكن من الإيرانيين .

كان التأثير الفعال للخطف يستهوي اللبنانيين . فبخطف شخص واحد يخطف المرء أسرته وأصدقاءه ، ويحطم قلوب مئة آخرين . لم لا والاقتصاد اللبناني في طريق الانهيار؟ فالدولار الذي كان عام ١٩٧٦ يساوي ثلاث ليرات لبنانية صار يساوي أكثر من خمسمائة . فصرت أحتاج إلى أكياس لوضع ما يقابل عملتي من الليرات اللبنانية .

وعندما حل عيد الميلاد عام ١٩٨٦ شعرت أنني لا أستطيع البقاء في لبنان مدة أطول . كانت السيارات تذرع الكورنيش كأسماك القرش . وكان ركابها الملتحون يحملقون فيّ كلما مروا أمام المبنى الذي أسكن فيه . وصرت كلما دعاني أحدهم إلى العشاء في بيته أقضي عنده تلك الليلة . وذات صباح قرع صاحب المبنى جرس شقتي وقال :

ـ أرجوك يا روبرت أن تبقى في البيت . فسوف تشهد الشوارع اليوم مسيرات لحزب الله ضد الأجانب . فجلست وأخذت أقرأ في مكان قريب من الشرفة أطل منه على البحر ولكن بعيداً عن أنظار المارة . وشعرت كما لو أنني أصعد نفقاً طويلاً يضيق قطره باستمرار إلى أن يضغط بجانبيه على كتفي ، وكلما سرت فيه مسافة أطول انحشرتُ حشراً بين جدرانه .

ومع هذا حاولنا أن نقوم بعملنا ، وهذه المرة في قرية معركة الجنوبية . وكانت القوات الفرنسية التابعة لهيئة الأمم قد أطلقت النار عند حاجز لها على ثلاثة من الشيعة . فهاجمت أمل ومعها حزب الله الفرنسيين . وتمكنت أنا وجي سي من اتباع الطريق الساحلي إلى صور ، ومن هناك إلى قرية معركة داخل المنطقة . واحتمينا بأحد البيوت بينما كان رصاص الفرنسيين ينقر الجدران ، والمسلحون يطلقون نيران بنادقهم الأوتوماتيكية على مراكز هيئة الأمم . وأجرينا مقابلة مع قائد أمل ، وخرجنا مسرعين إلى بيروت . وبهذه الطريقة التي تمرسنا بها كنا نرسل الأخبار . وفي الطريق سمعنا مراسل هيئة الإذاعة البريطانية يشرح ما رأيناه . وكان قد استمع إلى إذاعة لبنان فأعاد ما سمعه من قبرص .

وفي عام ١٩٨٧ شن الإسرائيليون غارة جوية على عين الحلوة لضرب «الإرهابين» فانطلقت مع هالة جابر إلى الجنوب . فوجدنا في مستشفى حمود بصيدا فتاة فلسطينية في التاسعة من عمرها يعصر الألم وجهها اسمها جيهان أبو جريف . قالت :

ـ جاءت الطائرات وسقط جانب من البيت على رجلي .

وأضافت وهي تبكي :

ـ أرجوك أن لا تصور رجلي اليسرى .

كانت بلا رجل يسرى وقال الطبيب :

ـ قطعناها هذا الصباح . هل تتصور معنى هذا؟ إنها فتاة وبرجل واحدة . فكيف ستتزوج؟

واقترب مسلح من هالة جابر وقال :

ـ من هذا الصديق؟ هل هو أجنبي؟ هل هو جاسوس؟

في ٣٠ كانون الأول/ ديسمبر ١٩٨٦ كان جي سي سينتظرني في المطار مع مسلحين من المسلمين الشيعة . لكنه جاء بدونهما ، وقال بأنهما لم يحضرا لمرافقته . وكان جي سي عندئذ قد عُيّن مديراً لمكتب شركة سي . بي . أس . الأميركية ، وأحضر معه إلى المطار مصوره واسمه بشير . والتفت إليّ ونحن في طريقنا إلى بيروت وقال :

ـ فيسكر . الأحوال سيئة جداً . إنزع نظارتيك . فقد يكون أحدهم شاهدك في المطار ويبعث برسالة بواسطة الراديو بأنك على طريق المطار .

جلست في مقعد السيارة الخلفي أنظر بدون أن أرى . فالتفت جي سي إليّ وهو يبتسم بخبث :

ـ هل أحضرت معك لي هدية عيد الميلاد؟

فقلت نعم . ووضعت يدي في حقيبتي وأخرجت له كتاباً كنت اشتريته له وعنوانه «الوبأ الكبير» فقال وهو يدس الكتاب في جيبه :

ـ أحببت أن آخذ الهدية تحسباً لخطفك قبل وصولنا .

والواقع أن كلينا كان يدرك مدى سوء الأحوال . وفجأة توقفت شاحنة مملوءة بالمسلحين أمامنا . وأخذ جي سي يرقبهم . وتبيّن أنهم أرادوا التحدث مع أصدقائهم . فقال جي سي :

ـ ظننت أننا قد نفقدك يا فيسكر .

عشية رأس السنة ١٩٨٦ . اندلعت حرب المخيمات مرة أخرى . وأخذ مقاتلو أمل ومنظمة التحرير يقتل بعضهم بعضاً . فذهبت إلى علي حمدان المسؤول في أمل ووزارة الإعلام اللتين صارتا شيئاً واحداً ، وعبّرت له عن رغبتي في زيارة جبهة القتال ، فقال إن زيارة مقاتلي أمل على الجبهة أمر سهل . وانطلقت مع سائق اتفقت معه ومع مرافق من وزارة الإعلام . قال جي سي :

ـ يجب أن تذهب يا فيسكر . فعدم ذهابك يعني أنك لا تثق بحمدان . وفي طريقنا إلى الضاحية الجنوبية ركب معنا ثلاثة مسلحين يحملون بنادق كلاشنكوف . سألني أحدهم إذا كنت من إنجلترا ـ وهذا ما كنت أخشاه ـ فأجبته بأنني من هناك . فسألني إذا كان لبنان بلد جميل . فقلت : أجل . وكان أمامنا حاجز لحزب الله . وكان عليه ثلاثة من المقاتلين المعصّبين وعلى ستراتهم شارات صفراء . وبدا القلق على مقاتلي أمل . إذ كان يفترض أن تكون المنطقة تحت سيطرتهم .لكنهم في الواقع لا يسيطرون عليها . فأخذوا يدسّون بنادقهم تحت أرجلنا . وسأل أحد مقاتلي أمل :

ـ لماذا جئت إلى لبنان؟ قلت :

ـ أنا مراسل صحفي .

وكنا عندئذ قد وقفنا بين السيارات ننتظر تفتيشنا . فوجه إليّ سؤالاً آخر . قال :

ـ لماذا عندكم ملكة في بلادكم؟ عندكم ملكة ، أليس كذلك؟ قلت :

ـ أجل صاحبة الجلالة الملكة أليزابث . ولدينا جوازات سفر صغيرة زرقاء كتب عليها : إن وزير

خارجية صاحبة الجلالة والكومنولث يطلب باسم جلالتها من كل من يهمه الأمر أن يسمح لحامله بالمرور بحرية وبلا تأخير أو عائق .

ولم أكن على أي حال أنتظر من مقاتلي حزب الله أن يكترثوا لذلك . وبالرغم من أنهم سمحوا لنا بالمرور فقد أحسست أنني قد لا أعود من هذه الرحلة . وقبل أن نصل إلى الضاحية نزل مقاتلو أمل الثلاثة عند طريق المطار ، وتابعنا سيرنا شرقاً باتجاه الجامع الذي كانت ترفرف عليه الأعلام السوداء . ومن ثم دخلنا شوارع برج البراجنة . وكانت الأعلام الإيرانية تشاهد على سطوح البيوت .

كانت الشوارع تعج بالمسلحين وصور الأئمة والشهداء التي يبلغ طول الواحدة منها عشرين قدماً : صورة الإمام الخميني وبهشتي ومنتظري وتخيلت أنني في إيران وربما قرب تيري أندرسون . إذ كان يحتمل أن يكون مسجوناً في ذلك الشارع الضيق وفي تلك البناية المقابلة ذات الشبابيك الخضر ، وحوله المسلحون ذوو اللحى الدقيقة الذين يطلون من الشرفة . ترى هل هنا سجنه الذي يقرأ فيه الكتاب المقدس ويحلم ببناء كوخ على الجدول الصغير في بتافيا وينظف بركة الماء؟

وفجأة تطاير حولنا الرصاص . وفيما كنا نمر إزاء تلة من التراب قرب المخيم الفلسطيني ألقيت نظرة خاطفة من السيارة فإذا نحن أمام بحر من البيوت المغبرة . فوقفنا أمام بناء له جدران من الإسمنت عليها بصمات الرطوبة والرصاص . وكان على سطحه علم لأمل ، وبداخله صورة للخميني ومسلحون يحملون شارات حزب الله . وكان المسلحون في الأصل تابعين لأمل لكنهم كانوا عندئذ في مرحلة التحوّل إلى حزب الله . ترى في أية مرحلة من هذا التحوّل وصلنا؟

وجدت نفسي أمام شاب يجلس وراء مكتب عليه صورة بري . وطلب الشاي ، وقال :

- إننا نخوض حرباً قذرة . كان أبو عمار يستعد لهذه الحرب منذ سنوات وخصوصاً ضد أمل .

وسجلت قوله هذا . وعندما سألته عن عمره قال :

- أنا شاب صغير . ولولا هذا لما استطعت أن أقوم بهذا العمل . أنا مدرّب للاعبي كرة القدم . لعبت من أجل لبنان .

وعندما أخذت أصافحهم مودعاً قال :

- إنتبه لنفسك .

وفيما كنا على وشك الانطلاق بالسيارة طرق أحدهم على نافذتها وقال :

ـ ان ضابطنا يود التحدث معك .

عندما عدت إلى المبنى لفت نظري درج كريه الرائحة يؤدي إلى طابق سفلي . وكان الشاب الذي تحدثت معه يدوّن شيئاً على الورق . قال :

ـ لدي شيء آخر أود أن أصرح به للصحافة .

وناولني الورقة التي كانت بيده فإذا عليها العبارة التالية :

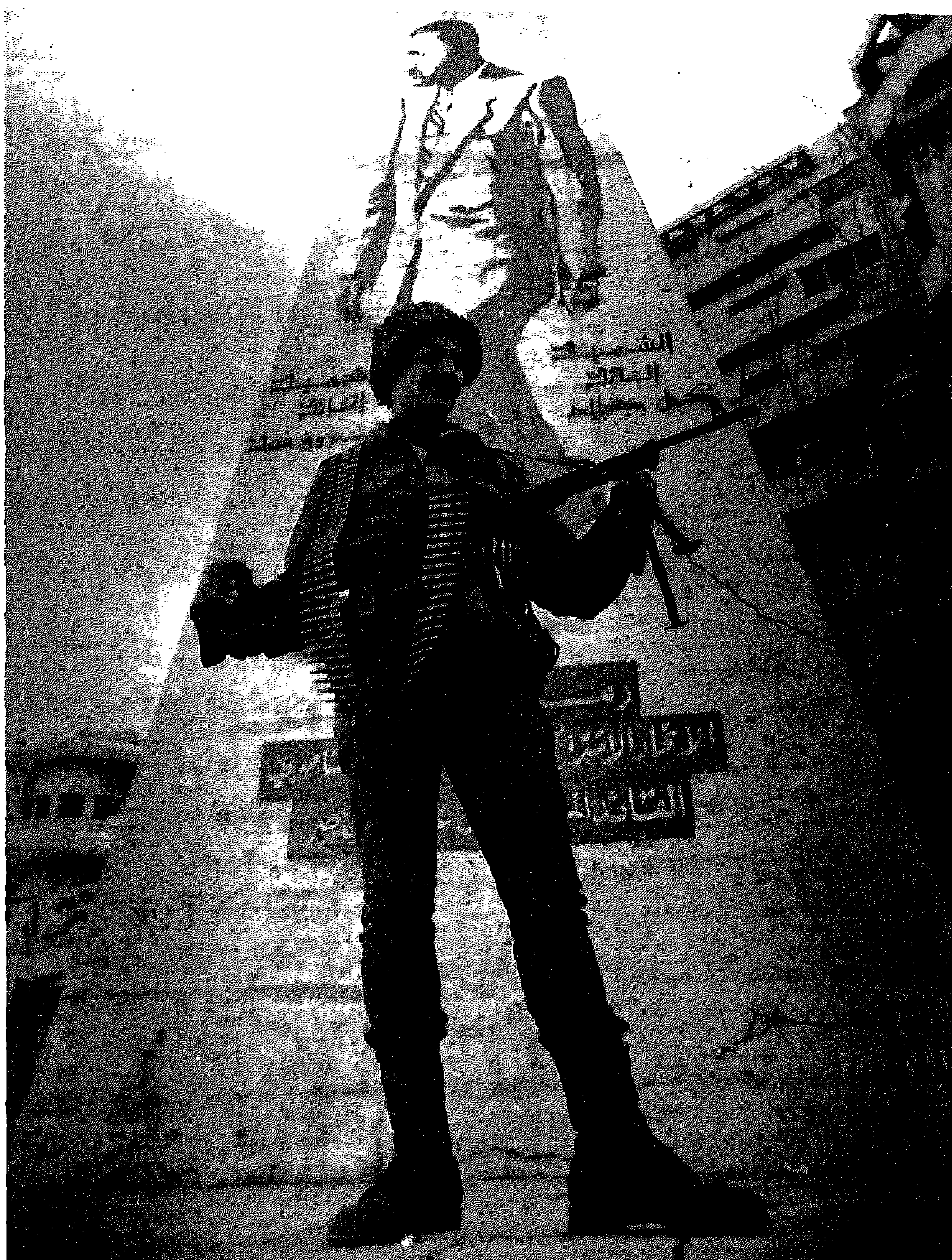
ـ إن الفلسطينيين باستثناء الذين يناصرون عرفات أخوتنا .

وعندما وصلت الجامع الذي ترفرف عليه الأعلام السوداء شعرت بالارتياح . وكانت تقف إلى جانب طريق المطار دبابة ت ـ ٥٤ مهداة من السوريين لبري . وكان أفراد طاقمها يشربون الشاي . ولم يسبق لي أن نظرت إلى طريق المطار بمثل ذلك الإطمئنان . وعندما غادرت المدينة بعد أيام أقنعني السائق بأن أضع على رأسي غطاء كالدروز وأن أرفع نظارتي وذلك لإخفاء هويتي .

ثم عاد السوريون إلى بيروت . واستقبلهم اللبنانيون في شباط/ فبراير ١٩٨٧ . وكانوا قد أعادوا تشكيل اللواء ٨٥ الذي أخرج من بيروت عام ١٩٨٢ . فبعثوا به إلى بيروت لإنقاذ ميليشيا بري التي كانت مهددة من قبل الدروز . وشعرت بمزيد من الأمان والطمأنينة في ظل السلم السوري . لكن لأي غرض؟

كان تيري ويت قد عاد إلى بيروت في الشهر السابق من دون أن يتلقى أية دعوة من الجهاد الإسلامي واختفى . كان قد أراد أن يبرئ نفسه وأن يظهر أنه غير متورط في فضيحة الأسلحة مقابل الرهائن . وطلب مقابلة الخاطفين من الجهاد الإسلامي مرة أخرى . لكن مصيره كان كالرهائن الذين جاء لإنقاذهم . وعلى أثر اشتباكات حزب الله وأمل عام ١٩٨٨ ، دخل السوريون الضاحية الجنوبية ودخلنا معهم إلى الشوارع التي تراءى لنا أن ويت فيها . وبالرغم من أننا تعرفنا على هوية زعماء من حزب الله كنا نعرف أنهم من الجهاد الإسلامي فإنه لم يظهر أي أثر لويت . وعرض الإيرانيون مساعدتهم مقابل قيام رئيس أساقفة كانتربري باعادة الإيرانيين الثلاثة الذين خطفهم الكتائبيون في عام١٩٨٢ . ومع أن هؤلاء أيضاً كانوا رهائن ، فإننا لم نكلف أنفسنا عناء الكتابة عنهم . وعلى أي حال كانوا عندئذ في عداد الأموات .

في آذار/ مارس ١٩٨٩ أكمل تيري أندرسون سنته الرابعة في الأسر . وآخر ما سمعناه منه نقله



جندي سوري في بيروت أمام نصب جمال عبد الناصر

إلينا أحد الرهائن الفرنسيين الذي تحدث عن شجاعته وإيمانه بالله وشعوره بالإحباط . وقال إن تيري بلغ في أحد الأيام مرحلة من الانهيار أخذ خلالها يضرب رأسه بحائط القبو حتى سال الدم على وجهه . وقبل أن يخطف بوقت طويل زار هو ومادلين لندن وشهدا فيلم «الحقول القاتلة» الذي يدور حول قصة مراسل التايمز في كمبوديا . إذ بقي هذا هناك بعد أن رحل الأميركيون ورأى كيف وقع مساعده الكمبودي في الأسر .

تأثر أندرسون يومها كثيراً بهذا الفيلم . قال :

ـ على كل مراسل صحفي أن يشاهده . إنه يشرح لك لماذا يتعيّن عليك أن تبقى بعد رحيل الكبار ، ولماذا ينبغي أن لا تظن بأن الأميركيين وحدهم هم محور الأخبار . كما أنه يبين لك كيف تعامل موظفيك . وبالفعل كان أندرسون شديد الاهتمام بمن يعمل معه من اللبنانيين .

لكننا ـ أنا وجي سي ـ أدركنا أن لبنان لا يتيح مجالاً للنهايات السعيدة . إنه بلد لا تكافأ فيه الشجاعة . وفيه جاذبية شبه قاتلة للشجاع والمتهور ولأولئك الذين تزدهر أحوالهم في الحروب الأهلية التي تسود نصف العالم ، ولهذا فإنهم يرفضون عمداً أو يهملون القواعد التي يتقيد بها الآخرون في حياتهم ، بحجة أن لهم أعرافهم وقوانينهم الخاصة بهم . وفي حين أن أندرسون من الفئة الأولى ـ أي فئة الشجعان والمتهورين ـ فإن خاطفيه الذين كانوا يعتبرون جنسيته الأميركية أثمن بكثير من نزاهته الصحفية كانوا من الفئة الثانية .

إن هذه الأحوال الفوضوية جعلتنا نسيء تفسير ما كنا نشاهده . إذ بدا لنا أن الخطف وتفخيخ السيارات كالكارثة الطبيعية التي لا يمكن السيطرة عليها . فكنا نعتبر الخطف من الحوادث المؤسفة ، وهو ما كان يعتقده أندرسون حتى تلك اللحظة في ١٦ آذار/ مارس ١٩٨٥ عندما ترك جو بيروت العالمي البراق الذي كان أصدقاؤه يعيشون فيه وينعمون به ، وغرق في غضون دقائق في عالم الظلام . ولجأنا إلى النكات المضحكة للتخفيف من رعب النفق المظلم . كنا نقول إننا لو ظهرنا في شوارع بيروت ورؤوسنا مغطاة فلن يلحق بنا أي ضرر لأنهم سيظنون أننا خُطفنا . ولو صوّبنا بندقية إلى رأس صديق ونحن نتجول في المدينة فلن يوقف سيارتنا أحد . فلم يحدث في لبنان أن خُطف خاطف إلا مرة واحدة . ولم يؤلف أندرسون هذه النكات بالطبع لكنه هو الذي جعل تأليفها ضرورياً .

عندما استطاعت جماعة الجهاد الإسلامي أخيراً إقناع أندرسون بتسجيل فيلم الفيديو لا بد أنه شعر بأن الكل تخلوا عنه . وبدا وكأنه يمضغ كلماته ، ورأيت على الشاشة فكّه الأسفل . ترى هل كان من أثر الضرب؟ وإذا كان يعني ما قاله على الشاشة ، فإنه كان يشعر بغضب شديد عندما أخذ الرئيس

ريغن يفاوض من أجل إطلاق سراح نيقولاس دانيلوف مراسل مجلة «يو أس أند وورلد ريبورت» من سجنه بموسكو مقابل إطلاق سراح روسي متهم بالجاسوسية . فقد تساءل عن السبب الذي يجعل ريغن يخضع لابتزاز ولا يخضع لآخر . والظاهر أن أندرسون لم يكن يعلم أن ريغن كان منذ كانون الثاني/ يناير ١٩٨٦ يقدّم البنادق مقابل الرهائن . كانت حجة ريغن بسيطة : للولايات المتحدة علاقات دبلوماسية مع الاتحاد السوفييتي في حين أن خاطفي أندرسون كانوا «إرهابيين غير معروفين» . لكنهم في الواقع لم يكونوا كذلك . إذ كان خاطف أندرسون الرئيسي معروفاً إلى حد أن العملاء الأميركيين حاولوا القبض عليه قرب باريس عندما كان يقضي عطلته في فرنسا . لكن الفرنسيين حملوهم على عدم التعرض له حرصاً على رهائنهم . وهكذا كان الفرنسيون يعملون طبقاً لقواعد اللعبة اللبنانية .

كنا جميعاً نراعي تلك القوانين غير المكتوبة . فما الذي كان في مقدورنا أن نفعله في بلاد بلا قوة شرطة فعلية ، ولا قانون ، ولا حق استئناف ، وحيث لا تكفي الصداقة والنزاهة لتحرير صديقنا؟ كان تيري أندرسون الذي دفع ثمن مثابرته على إرسال الأخبار برهاناً على ذلك .

في تلك الأثناء كانت تتراكم ملفاتي في بيروت . وكانت تقارير لجنة العفو الدولية مرتبة حسب المدينة أو نوع التعذيب ، وكل صفحة منها تدل على أن لبنان سوف يظل مأساة . إذ كانت الأطراف كلها تنتهك الأعراف والقوانين الدولية في معاملتها للأسرى . ويقول أحدها :

ـ هناك على ما يُعتقد أكثر من مئتي شخص بينهم فتيان ونساء ورجال مسنون في (معتقل) أنصار بلا محاكمة ولا يسمح لهم بالاتصال بمحاميهم . . .

بينما كنت أشتري بطاقة سفر إلى الخليج من مكتب السفر الذي أتعامل معه ، اقترب مني شخص متوسط العمر وقال :

ـ مستر روبرت ، أرجوك أن تساعدني . لقد اختفى أبي في المشرف قرب الدامور عام ١٩٨٣ وعمره ستون سنة . نحن دروز . احتجزه كتائبيون من كفرمتى ووضعوه مع نساء وأطفال في صندوق احدى الشاحنات خلال صيف ذلك العام ، وأقفلوه . فماتوا جميعاً من العطش . ماتوا جميعاً كما ترى .فقلت :

ـ وكيف أستطيع مساعدتك؟ قال :

ـ نرجوك أن تساعدنا في الحصول على جثته . أريد جثته . أناشدك الله . أريد أن أدفن أبي .

ملأت صور أندرسون ألبوماً : صوره وهو يقذف الثلج علي وعلى مادلين على جبل صنين ، وهو يجلس على شرفة شقتي ، وهو ينظر في تأمل إلى مادلين الحامل . وقبل أن يتوفى والده بالسرطان أطلق نداء من أجل إطلاق سراح ابنه . وفي عام ١٩٨٦ توفي أخوه غلن بغد أن بعث بنداء مشابه إلى الجهاد الإسلامي . وكان نداؤه يفيض شجاعة ويثير الحزن . واتصلت به على رقمه بالولايات المتحدة ٧١٦ـ٣٤٣ـ١٣١٣ غرفة ٤١٩ . قال غلن بصوت منكسر يكاد لا يسمع في بيروت الغربية :

ـ هالو روبرت . أخبرني تيري بكل شيء عنك . لا أزال أكافح من أجل الحياة . قال الأطباء بأنني مصاب بالسرطان الذي أصيب به أبي . وقبل أن يقضي عليه أقسم أن يغالب الموت إلى أن يرى تيري . وظننت أن ذلك سيتحقق . لكن الموت عاجله لسوء الحظ . وأنا أيضاً لا بد لي أن أرى تيري قبل أن أفارق الحياة . أريد أن يعود . وأقوم الآن بالاتصال بالذين يحتجزونه ليعيدوه إلى بيته قبل أن أموت . لا أريد أن يعود تيري ويجد أن أخاه وأباه في عالم الموتى . أريد أن أراه ولو مرة واحدة قبل أن يحين أجلي .

كان الوقت قد فات . إذ توفي غلن بعد أن تحدث معي بيومين . ولكن جماعة الجهاد الإسلامي لم يبلغوا أندرسون أبداً أن أباه وأخاه قد توفيا . وبعد مرور ثلاث سنوات على وفاة أبيه ظهر أندرسون في فيلم فيديو آخر . وبدا واثقاً من نفسه وهو يطلب من أبيه أن يقبل له (ابنته) سولون .

كانت أمسيات بيروت الطويلة فرصة للتأمل في صلب المأساة . كنا نتساءل عن العهد الذي نبحث فيه عن جذورها ، وهل هو أيام الأشوريين أو الأمبراطورية الرومانية أو ستينات القرن التاسع عشر ، أو الانتداب الفرنسي أو أوشفيتز ، أو فلسطين ، أو الغزو الإسرائيلي عام ١٩٧٨ وعام ١٨٨٢؟ وكنا نتساءل عن النقطة التي يمكن للمرء أن يفقد عندها كل أمل له في المستقبل . ترى هل شاهدت أنا نقطة اللارجوع عام ١٩٧٦ . إن ذلك الصبي الذي كان في الثانية عشرة من عمره يوم رأيته على كرسي المكتب المكسور في خرائب خط التماس قد بلغ نحو الخامسة والعشرين من عمره . إذا كان لا يزال على قيد الحياة . لا ريب في أنه اليوم مسلم مسلح . وربما كان هو خاطف أندرسون .

كانت التايمز تطلب مني في كل عيد ميلاد أن أكتب تقريراً فصلياً من بيروت الغربية . لكنني توقفت عن ذلك عام ١٩٨٧ . كيف يمكن لي أن أكتب عن الفرح والتجدد في بلد بلا أمل؟ أو بعبارة أخرى هل لبنان مجرد مسرح للأوهام كمرآة بيروت التي تبتسم لها ثم تتراجع وتكف عن الابتسام عندما تجد في النهاية أنها لا تبتسم لك؟

بينما كنت جالساً ذات أمسية دافئة عام ١٩٨٦ على بعد ثلاثة أقدام من الشرفة ، اكتشفت طريقة

استمتع بها بمنظر البحر والكورنيش ، ولكن بحيث لا يراني المسلحون أصحاب اللحى وهم يذرعون طريق الكورنيش بسياراتهم . أحضرت مرآة كبيرة من الحمام ووضعتها على كرسي إلى جانب الشرفة . وصرت أجلس آمناً بعيداً عن الأنظار مختبئاً وأراقب الحياة في بيروت من خلالها . كنت أشاهد البحر المتوهج وراء الصخور والمشاة في المساء يستندون إلى حاجز الكورنيش . كنت أستطيع رؤية عربات القهوة والأضواء تتلألأ فوق عرباتهم .

لكن السيارات التي كانت تبدو في المرآة هي القادمة من الاتجاه المعاكس ، وكانت الأشجار تظهر على الجانب الآخر الخاطئ من الطريق التي كنت أنظر إليها طوال سنوات . وكان البحر يبدو إلى الشرق ولبنان في الغرب . وكانت الأمواج تنطلق من لبنان لا من أوروبا ، والشمس تهبط متثاقلة نحو أمواج البحر في الشرق ، فيزحف الظلام على المباني والأشجار ويلقي بظلاله على المرآة . ونقلت المرآة إلى النافذة الخلفية فتكررت المعجزة . لاح جبل صنين في الغرب وسفوحه تبتعد عن البحر في ذلك الاتجاه ، وقممه الثلجية البرصاء تتلاشى وراء ستار من الظلمة . وكنت إذا أوقفت المرآة تجلت لي حقيقتان وعالمان ، وحكومتان تكمل كل منهما الأخرى وهي تتكسر وتلتئم على طول خط الخرائب تحت أعين الغرباء . هكذا بدا لبنان :

«انتصف الليل ، ونَمتْ رهبة السكوت ، وطلع القمر ناقصاً من وراء صنين وبان بين النجوم كوجه ميت شاحب غارق في المساند السوداء بين شموع ضئيلة تحيط بنعشه . وظهر لبنان كشيخ لوت ظهره الأعوام ، وأناخت هيكله الأحزان ، وهجر أجفانه الرقاد فبات يساهر الدجى ويترقب الفجر كملك مخلوع جالس على رماد عرشه بين خرائب قصره»[٣] .

(٣) جبران خليل جبران : الأجنحة المتكسرة ، بيروت ، لبنان ، لاتاريخ ، ص ٥٣ .

الفصل السابع عشر

الحرية

«روبرت، كانوا يلاحقونك، أؤكد لك ذلك. سألوا عن كل ما يتعلق بك. كانوا يسألون دائماً عمّن يسكن في بيتك. سألوني عمّن يكون ذاك البريطاني الصغير ذو النظارتين، الذي يتردد يومياً على مكتب وكالة الأسوشيتدبرس. كان هذا أنت. لكنني لم أقل لهم ذلك إطلاقاً».

تيري أندرسون، يوم استعاد حريته في ٤ كانون الأول/ ديسمبر ١٩٩١

كان الجليد يغطي صنين في أوائل كانون الأول/ ديسمبر ١٩٩١. لم يحدث أن تساقط الثلج على هذا النحو منذ العام ١٩٨٣. كنّا، حتى من خرائب بيروت ـ الكئيبة كآبة القبور في وسط سلْم لبنان المستجدّ ـ نستطيع أن نرى البريق على المرتفعات، فضيّاً أبيض يمتد وصولاً إلى الغيوم الرمادية. كانت العاصفة الثلجية تَعنفُ على الطريق أمامنا قبل أن نصل إلى صوفر. «تيري يريدك أن تكون هناك». هذا ما قالته رسالة الرهينة توم ساثرلاند، الذي كان قد أُطلق من الأسر قبل وقت قريب، وقد أُودعت باليد في صندوق بريدي القديم في مكتب وكالة الأسوشيتدبرس. لم تُفصح الرسالة عن متى وأين، لكن حركة الجهاد الإسلامي كانت قد ذكرت أن تيري سيُطلق في غضون ساعات. سوف يُنقل برّاً إلى دمشق، مثلما كان الحال مع كل من سبقه من الآخرين. كنّا واثقين من ذلك. لكننا لم نحسب حساب الثلوج.

كان تراكم الثلوج التي تذروها الرياح قد بلغ سماكة قدم على طلعة المديرج، حيث كدنا أن نُقتل فولي وأنا، في هجوم جوي إسرائيلي منذ سنين ـ قبل نحو عشر سنوات ـ وكانت السيارة التي تقلّنا تنزلق عن الطريق. مشى نحونا جندي سوري بخطى متثاقلة، وصاح بنا: «عودوا أدراجكم. الطريق مقطوعة. قد تعلقون هنا طوال الليل وتموتون». كان الجليد الذائب ينساب على الطريق السريع بين الحفاف الثلجية. وشاهدنا، في عتمة الضباب الكثيف، حاويات نقل وبطاريات مدفعية وشاحنات عسكرية عالقة في الجليد. كان المكان مطرحَ ذكريات سوداء.

فعلى مسافة بضع مئات من الياردات من هنا ، واجهنا تيري وأنا ، أولئك الفلسطينيين الغاضبين ، المتصلّبين ، في العام ١٩٨٣ . وقبلها بسنة ، انفجرت القذائف الإسرائيلية فوق رؤوسنا . كنت يومها ، مع كارستن تفايت ، مراسل الإذاعة النرويجية ، على منحدرات هذه التلال التي يحجبها الثلج الآن . وعلى بُعد أقل من ميل ، يقع ذلك المكان الذي شاهدنا فيه ، إد كودي وأنا ، أولى الدبابات السورية في العام ١٩٧٦ . خمسة عشر عاماً . كنت يومها شاباً ، رابط الجأش ، ومستعداً لأن أشهد التاريخ . اليوم ، بلغتُ الخامسة والأربعين ، وأشعر بالبرد هنا ، في الجبال . إنني بلا ريب أحد الناجين . ولكن لأي غاية؟ منذ سبع سنوات تقريباً ، وأنا أنتظر هذه اللحظة . مع ذلك كانت هناك أوقات ـ كانت هناك أيام بكاملها ـ كنت أنسى فيها صديقي القديم ، وأنا أثابر على العمل وسط دمار لبنان ، ملتزماً مواعيد الإنجاز ومتدّبراً أمر بقائي على قيد الحياة ، وأسافر إلى الخارج لتغطية وقائع حرب أعظم وأكثر تدميراً من تلك التي عملنا ، تيري وأنا ، على تغطية وقائعها في بيروت .

لكن تيري في غلال الأسر كان قد أصبح بالطبع ، حقيقة من حقائق حياتي ؛ نزيل قبو مجهول كنت أمرّ به كلما توجهت بالسيارة إلى المطار ، يتذكّر أصدقاؤه أعياد ميلاده بمقالات على المنوال نفسه ، وتتذكّرها مادلين برسائل مُثقلة بالغمّ ، تنشرها الصحف في بيروت على أمل أن يتمكن من قراءتها ومشاهدة صورة ابنته الجميلة التي لم يضمّها يوماً بذراعيه . أقنعتُ نفسي في وقت من الأوقات ، بأنني سوف أبقى في لبنان إلى أن يُطلق تيري من الأسر . لكنني كنت بذاك التفكير ، أُضفي رومانسية على علاقة صداقة : فقد بقيت في لبنان ولم أغادره ، لأنني كنت مراسلاً صحفياً ، ولأنني أردت أن أعمل هنا ، في هذه الأرض المُثخنة بالجراح ، وأكتشف ما إذا كانت حربها ستنتهي في يوم من الأيام . وبقيت أيضاً ، لأنه كان هناك تحد في التشبّث بالبقاء بعدما رحل الآخرون ، وفي الاكتشاف بنفسي أن هذا ممكن . لكن الإنجاز ـ إذا كان كذلك ـ كان عبثاً ، موحشاً ، لا يجد معزّة عند أحد سواي . كانت كلفة ارتكاب أي خطأ ـ مجرد خطأ واحد ـ إما الموت أو مشاركة تيري زنزانته .

أصبح هذا الخطر روتيناً . أمضيت ست سنوات أترقّب سيارات مُسدلة الستائر ، وقَتَلة مُلتحين ، وأتطلّع إلى الانعكاسات في واجهات المحال التجارية لأرى من يقفُ ورائي ، وأتفحّص كل شارع . قد يكون الرجل الملتحي الذي يحدّق من داخل سيارة ، بريئاً . ولكن إذا قامت السيارة بدورة ثم عادت لتمرّ بي مرة أخرى ، فهذا يعني أن الرجل من «الراصدين» ، وعلي أن أفرّ هارباً . كنت أشعر بأنني في غاية الأمان عندما كانت القذائف تتساقط حول منزلي في صيف ١٩٨٩ . فالقصف كان يُبقي الخاطفين خلف الأبواب الموصدة ، ويُخلي الكورنيش من السيارات .

في أسوأ ليالي الحرب التي شنّها العماد عون ، وباتت تُعرف باسم يحزّ في النفس ، باسم «حرب

التحرير» ، كنت ألجأ إلى مكتب الأسوشيتدبرس مع فاروق وموظفيه الأوفياء ، أتكوّر على الأرض لأنام ، كما تنام الكلاب ، في غرفة تيري الخلفية ، فيما المبنى يهتز مع الانفجارات . وكنت كلما أيقظني الاهتزاز ، أشعل النور فأرى هناك على الحائط لوحة الإعلانات المغطاة بصور تيري . إلى اليسار ، كانت تُعلّق صورة لتيري كما كنت أذكره ، مُشرقاً ، مبتسماً ؛ كانت الصورة مأخوذة من ملّف يعود للعام ١٩٨٤ . وإلى اليمين ، كانت تُعلّق صورة لتيري الآخر ، تيري الذي لم أعرفه . كانت عيناه تنظران مباشرة إلى كاميرا الخاطفين ؛ كان تيري مرتعباً ، تنطق عيناه الواسعتان بالقلق ؛ كان تيري غاضباً ، يتحدث لكاميرا الفيديو ، يتوسل الرئيس ريغن . بدا مُتعباً ، واهناً ، وقد ترك شاربين مستجدّين ، ينسدلان على خديه . هل كنت أعرفه الآن؟

خرجتُ مُتعثّراً من السيارة وغرقت قدماي في المياه . كانت بعمق ست بوصات ، تطفو على سطحها كتل الجليد وتغوص . شققتُ طريقي في العاصفة الثلجية وأنا أتنضّح بالماء . قال لي جندي سوري من جنود المدفعية أنه شاهد على ما يظن ، سيارة تمرّ بالاتجاه المعاكس للطريق المؤدّي إلى دمشق . لكن الثلج كان قد بدأ يتساقط من جديد . تجمّد على وجه الجندي وهو يكلمني ، واستقرّ في شعري . عُدتُ أدراجي إلى السيارة زحفاً على الجليد . أشعلت جهاز الراديو : «إذاعة البي . بي . سي . تقدم نشرة الأخبار العالمية . . . تيري أندرسون ، آخر الرهائن الأميركيين في لبنان ، أُطلق سراحه ، وهو الآن في طريقه إلى دمشق . . .» لم يكن هناك ما يوحي بالشك في لهجة مُقدّم الأخبار . لقد أُطلق تيري من الأسر ، استعاد حريته أخيراً . ويا لشعور الخجل الذي اعتراني ـ كما اعترفتُ لتيري بعد أشهر ـ يا لخجلي لحظة ضربتُ بقبضة يدي باب سيارتي المتجمدة ، وصرختُ : «يا للعنة !» .

هل يمكن أن تُغفر مثل تلك الأنانية؟ لقد عانى صديقي عذاباً عقلياً طوال سبع سنوات تقريباً ، ضُرب وعُذّب وهُدّد بالموت ، وها إنني أتلقى أول الأنباء عن تحرره بالسُباب . كنت أريد أن أكون هناك . كنت أريد أن أراه . ولكن ما خطر في بالي فجأة كان مقيتاً : ألم يكن بوسعهم الاحتفاظ به لساعة أخرى فقط أو ساعتين؟ لقد ناشدت كل زعيم من الزعماء الشيعة التوسط لإطلاق سراح تيري . وقبل أقلّ من شهر ، اجتمعت أخيراً مع خاطفي تيري وجهاً لوجه ، وسألتهم الرأفة به . والآن ، سوف يشارك في هذه اللحظة التي لا يمكن أن تُمحى ـ لحظة الإفراج عن تيري ـ مراسلون في دمشق كانوا قد رفضوا حتى الانتقال إلى لبنان ، فيما أنا أقبع هنا في صقيع صنين .

ومع ذلك ، كان هذا مناسباً في ناحية من النواحي . فقد أوقعني لبنان في شَرَكه أخيراً ، بعد كل تلك السنين ؛ أثبت لي أن جهودي المثيرة للشفقة من أجل تيري ، كانت عديمة الجدوى ، وذكّرني بأن الأجنبي لا يُكافأ في هذه الأرض الكئيبة ، الغامضة كاللغز . ألم أكن ، بعد كل شيء ، شاهداً على

مأساة حرب لبنان الأعظم بما لا يُقاس ، تلك الفظاعة التي حجبت إلى حدّ بعيد ، معاناة صديق لي؟ ألم أعطَ وحدي عملياً فرصة تغطية وقائع هذه الحرب حتى النهاية تقريباً؟ ولمّا كان هذا خياري ، فماذا عساي أطلبُ أكثر؟ أما زلتُ حراً طليقاً ، على عكس الكثيرين من رجال ونساء في لبنان؟

فيما كان تيري يذوي في زنزانته ، ذهبت إلى صحارى المملكة العربية السعودية والكويت ، لأرصد الحملة العسكرية التي جرّدها الغرب على صدام حسين ، وأشاهد اللاجئين الشيعة البائسين يفرّون ، متخلّين عن تمردهم الذي انتهى بكارثة عند وادي الفرات . وتوجهت أيضاً إلى جبال كردستان عندما حكمت الأهداف النبيلة المزعومة لتلك الحرب على آلاف المدنيين بالموت في ثلوج شمال العراق . كان اجتياح صدام حسين للكويت ، وردّ الغرب ، في النهاية ، على إعلان ضمّه لها ، بمثابة زلزال هزّ كل بلد في الشرق الأوسط ، حتى لبنان ، البلد الذي ستجري فيه أولى معارك هذه الحرب المُستجدّة في الخليج .

كان يمكن التنبؤ بتلك الزلازل في لبنان ، على الرغم من أن هذا لم يحصل . فمن بعد الثورات العظيمة التي اجتاحت أوروبا الشرقية في العام ١٩٨٩ ، بقي النزاع في لبنان ثابتاً على حاله ، لم يمّسه عالم الحرية الجديد الذي نشأ بين موسكو والغرب . وفيما كانت أوروبا تترقب وحدة جديدة ، حاز لبنان على حكومتين متنافستين ، حكومة يرأسها العماد ميشال عون المسيحي ، وأخرى يرأسها رئيس وزراء مسلم سنّي . وهكذا ظهر إلى حيّز الوجود لبنانان ، دولة منقوصة مسيحية يسيطر عليها نصف جيش البلاد ، ودولة إسلامية عاجزة تعتمد على سوريا . وفيما أُسقط جدار برلين ، راح عدد الجبهات يزداد في لبنان . وفي جنوب صيدا ، أسفل جبال جزين ، تقاتل المسلمون الشيعة حول السيطرة على أربع قرى مدمّرة ، وأسقطوا بعضهم بعضاً شهداء على الأرض نفسها التي حرروها من الإسرائيليين .

لم تبارك روح الانفراج [في الغرب] أي بلد في الشرق الأوسط . وراح الإذلال الذي مُنيت به إسرائيل في لبنان ، يتكرر في الضفة الغربية وقطاع غزة المحتلين ، حيث انطلق الفلسطينيون أخيراً ، يقاومون المحتلين ـ بالحجارة في البدء وليس بالبنادق ـ وبالعناد نفسه الذي أبداه الشعب في جنوب لبنان قبل خمس سنوات . وفي مكان أبعد إلى الشرق ، اختار صدام حسين ، بعد تحرره من عبء حربه الجبارة ضد إيران ، أن يأخذ على عاتقه قيادة العالم العربي ، مثيراً الرعب في وسط معظم جيرانه ، والاحتقار في سوريا . وأقدم على خطوة ستكون لها مفاعليها المشؤومة على لبنان ، عندما قرر أن يقدّم دعماً سياسياً وعسكرياً للعماد عون .

لقد مهّدت الثورة التي كان ميخائيل غورباتشيف مصدر إلهام لها ، لعملية تاريخية أخرى من

العمليات التي يكررها التاريخ ويبتلي بمفاعيلها الشرق الأوسط . فمثلما ساعدت المحرقة النازية على إنشاء دولة إسرائيل ، أدّى تخلي غورباتشيف عن الشيوعية ـ وكذلك السياسات التي واصل خلفاؤه انتهاجها في روسيا الجديدة ـ إلى إنعاش آمال اليهود بتحقيق إسرائيل كبرى جديدة في ظل حكم إسرائيلي يزداد نزوعاً إلى اليمين . وعوضاً عن وصول المهاجرين اليهود الجدد إلى إسرائيل على متن بواخر الشحن ، قادمين من مخيمات في أوروبا ، تدفقوا بعشرات الآلاف على مطار تل أبيب قادمين من الاتحاد السوفييتي . كان رئيس الحكومة آنذاك ، إسحق شامير ، الذي تتلمذ على زايمون داتنر في مدرسة ثانوية عبرية في بياليستوك ؛ وقد رأى في قدومهم شكلاً من أشكال الخلاص . وسوف يَثبت مع مرور الزمن ، أن وصول هذه الأعداد الكثيرة منهم إلى المستوطنات اليهودية في الضفة الغربية سيكون التهديد الأخطر لمؤتمر السلام في الشرق الأوسط ، في مرحلة ما بعد حرب الخليج .

في إيران ، توفي آية الله الخميني ، لكن الأصولية الإسلامية التي كان يمثلها لم تنته معه كما كانت تأمل الولايات المتحدة والبلدان الغربية الأخرى ـ وعدد من الزعماء العرب ، في الحقيقة . وكانت الأصولية ، أو «البعث» بالتسمية العربية الأكثر دقة ، ردّ الإسلام على عقود من الإذلال السياسي والاقتصادي . وقد دعم دعاتها النضال الفلسطيني ضد إسرائيل ضمن الأراضي المحتلة ، وزرعوا الرعب في مشيخات الخليج العربية ، وشكلوا معارضة نضالية قوية في مصر ، وكانوا ، في العام ١٩٩٢ ، على أهبة الاستعداد للاستيلاء على السلطة في الجزائر ، قبل أن يعمد الحكم المدعوم من العسكر إلى إلغاء الانتخابات وحظر الحزب الإسلامي . أما في لبنان ، فقد تشبّث الأصوليون بمكاسبهم بعناد . حتى أننا نجد في جنوب غرب آسيا روح التمرّد نفسها ، أو روح التجدّد ـ فالتعريف يعتمد على مَن تخاطب ، الحاكم أو المحكوم ـ نجدها وقد أطبقت على باكستان ، ثم على أفغانستان في نيسان/ أبريل ١٩٩٢ .

وفيما تغيّرت أوروبا الوسطى وتفكّكت الأمبراطورية السوفييتية ، كذلك توسّعت خارطتنا للشرق الأوسط ؛ امتدت شمالاً إلى أرمينيا وأذربيجان ، وشرقاً إلى إسلام آباد . وفي البلدان العربية ، فإن استجابة الأقليات ، بكثرتها المسيحية ، لهذه التغييرات اتّسمت بالرعب والقلق . ولم يتمكن لبنان من تفادي مفاعيل هذا التحوّل . فانهارت أخيراً في العام ١٩٨٨ ، التركيبة القديمة للميثاق الوطني . ومرة أخرى ، ساهم التدخل الأجنبي في إحداث الكارثة . فمن بعد أن كانت سوريا تُعتبر في عهد الرئيس ريغن مصدراً لكل الشرور الإقليمية ، أصبح الأميركيون في عهد الرئيس جورج بوش يرون في دمشق مفتاحاً للسلام في لبنان . وقد حاولوا مع السوريين ضمان انتخاب مرشح مسيحي طيّع ، موالٍ للسوريين ، يمكن الاعتماد عليه لحكم بلاده بما يخدم مصالح جارته العربية . لكن أغلبية المسيحيين اللبنانيين عارضت الخطة باعتبارها خيانة .

وفي ٢٢ أيلول/ سبتمبر ١٩٨٨ ، أقدم الرئيس أمين الجميّل ، قبل ساعات من انتهاء ولايته ، على خطوة مشؤومة النتائج ، عندما كلّف رئيس أركان الجيش ، العماد ميشال عون ـ عون نفسه الذي دافع عن سوق الغرب لردّ الميليشيات الإسلامية في العام ١٩٨٣ ـ رئاسة الحكومة الانتقالية إلى حين إجراء انتخابات جديدة . كان عون مسيحياً مارونياً ، ولكن السوريين رأوا فيه تهديداً لكل ما يمثلونه في لبنان . كان عون عسكرياً ، ويتمتع على ما بدا بولاء ٤٠٪ من عناصر الجيش اللبناني على الأرجح . وكانت وحداته تملك أكبر قطع المدفعية الثقيلة في الجيش وكل دباباته تقريباً التي كان لبنان قد اشتراها من فرنسا والولايات المتحدة خلال الوجود الغربي في بيروت ، في الفترة ما بين ١٩٨٢ و١٩٨٣ . ولمّا كان عون يقيم آنذاك تحالفاً عسكرياً فعّالاً مع الكتائب ، فإن الإسرائيليين سوف يمنحونه دعمهم . وكانت خشية الرئيس الأسد أن يحذو أعداء سوريا العراقيون حذوهم . وكان الرئيس السوري محقّاً . فقدكان صدام حسين في ذلك الحين بمزاج توسّعي بعد الانتصار الذي ادّعاه لنفسه على إيران ـ وسوف يكون هذا الدعم العراقي سبب سقوط العماد عون في النهاية .

أما الرئيس السابق لحكومة الجميّل ، سليم الحص ، الذي كان عاجزاً عسكرياً لكنه يتمتع بالدعم السياسي السوري ، فقد ادعى آنذاك أنه الرئيس الأصيل للحكومة الانتقالية ، ولم يعد المرء بحاجة إلى مرآة ليرى انعكاس بيروت . ففي شرق المدينة ، شكّل عون حكومة عسكرية ، وفي غربها ، شكّل الحص حكومة مدنية . وقد أجبرت الحكومتان كل وزارة على استنساخ نفسها ، فأصبح هناك وزارتان للصحة ووزارتان للدفاع ووزارتان للداخلية ، وراحت كل وزراة تلغي سلطة الأخرى . وأذكر عندما حصلت على بطاقة إقامتي الجديدة من الأمن العام في بيروت الغربية ، أنني أُرسلت حينها إلى بيروت الشرقية لتذييلها بالتوقيع الإضافي ـ لكن السلطات هناك ختمت البطاقة بعبارة «ملغاة» لأنها كانت صادرة في بيروت الغربية . وكان جهازا الأمن العام كلاهما يصدران جوازات سفر لبنانية متطابقة ، ولكن كان يتعذّر استخدام الجوازات الصادرة في بيروت الشرقية ، في مطار بيروت ، في القطاع الغربي ، مثلما كانت الجوازات الصادرة في بيروت الغربية غير مقبولة في مرفأ جونية المسيحي .

لم يكن الجنرال عون ، الذي تدرّب كضابط مدفعية في فورت سيل في الولايات المتحدة ، وفي الكلية العسكرية الفرنسية في شالون سور ـ مارن ، أقلّ طموحاً في بيروت الشرقية من طموح خصمه الدكتور سليم الحص في بيروت الغربية . وإذا كان بيار الجميّل فيما مضى ، قد استقى إلهامه المسيحي من انضباطية ألمانيا النازية ، فإن العماد عون سعى لاستيحاء أفكار حتى أكثر غرابة من الحرب العالمية الثانية . فالحص ، كما أعلن عون ، كان [المارشال الفرنسي المتعاون مع الاحتلال النازي] بيتان ، وأعضاء وزارته كانوا من «المتعاونين» مع الجيش السوري المحتلّ . وقد كان عون

معجباً بنابليون ، ويحاول أن يستمد القوة من تقييمه الشخصي وحده للجنرال ديغول ، وقد فاته أن ديغول هو القائل بأن العسكر سياسيون فاشلون .

وفي ربيع العام ١٩٨٩ ، أصدر عون أمراً يقضي بإغلاق المرافئ غير الشرعية للميليشيات المسيحية والإسلامية ، ليتسنّى لـ«حكومته» استيفاء الرسوم الجمركية ، ثم فتحت بطاريات مدفعيته النار على مواقع الجيش السوري في المناطق الكثيفة السكان في بيروت الغربية . أطلق عون على عملياته يومذاك اسم «حرب التحرير» ، وتلقّف المسيحيون الموارنة ومعظم وسائل الإعلام الفرنسية تلك الفكرة بحماس . وأصبحت حال الصحافيين الفرنسيين مثل حال أقرانهم المراسلين الأميركيين العاملين انطلاقاً من إسرائيل . كانوا في أحيان كثيرة يفقدون ملكة الإنتقاد عندما يكتبون عن مسيحيي لبنان . وكان المبعوثون الفرنسيون يأتون إلى لبنان للتشاور مع ميشال عون ، مثلما كان يفعل أعضاء الجمعية الوطنية الفرنسية من اليمينيين .

وكان المبعوثون العراقيون يفعلون الشيء نفسه ـ وإن كنا في البداية قد أغفلنا تلك الحقيقة باعتبارها غير مهّمة . كان صدام حسين يريد أن يعاقب سوريا ، وكان عون راضياً بقبول أي مساعدة كان العراق على استعداد لتقديمها . وقد أرسل مبعوثيه إلى بغداد للتشاور مع المسؤولين العراقيين ؛ حتى أنه أُرسل وفداً يمثل «حكومته» ، إلى معرض تجاري أقيم في العاصمة العراقية . كانت صداقته مع العراق تنمو بالتوازي مع عدائه المتزايد للولايات المتحدة .

رد السوريون على عون بقصف مدفعي مضاد ؛ كان قصفاً مدّمراً استخدموا فيه كل ما بحوزتهم من قوة نارية ساحقة . مات المدنيون في بيروت بالمئات في صيف العام ١٩٨٩ ، مزقتهم إرباً في غربي بيروت قذائف جيش العماد عون ، وفي شرقها قذائف جيش الرئيس حافظ الأسد . عاشت بيروت أياماً طويلة تحت سُحُب الدخان ، وكان الأهالي يهجرون العاصمة شيئاً فشيئاً ، حتى لم يعد فيها سوى عُشر سكانها المدنيين ـ قرابة المئة ألف نسمة . وكان في قدرة المدينة على البقاء سحرٌ آسرٌ مؤلم علينا ، نحن الذين بقينا فيها . إلى متى تستطيع بيروت أن تتلقى القذائف قبل أن يهجرها ناسها جميعاً ، مثلما هجر العالم لبنان آنذاك؟

كنت قد قابلت العماد عون خلال المعارك التي شنّها في سوق الغرب في العام ١٩٨٣ ، لكنني عندما رأيته مرة أخرى في العام ١٩٨٩ ، بدا لي أصغر حجماً بكثير . كان مقرّه المحصّن ضد القصف جزءاً من مرأب سيارات القصر الجمهوري تحت الأرض . اتّجه نحوي ، رجلاً قصير القامة في بزّة قتال أميركية ، ومدّ يده اليمنى بطريقة متكلّفة ، على شيء من الحرج ؛ كان يفضل لو يُلقي التحية

العسكرية . علَت وجهه ابتسامة متحفّظة ، مُتعبة ، وبدت أكياس العينين تحت جفنيه داكنة . لقد أمضى الليل بطوله يوجّه المدفعية ، وبدا وجهه شاحباً ومعتلاً ، فقد مضى على مكوثه تحت الأرض ستة أسابيع ـ كان مظهره يوحي بخلد خارج من سُبات طويل ، وكانت عيناه محمرّتين وتطرفان . كان الأنصار الأوفياء في كل مكان يرتدونً البذلات وربطات العنق الزرقاء ، ويردّدون في أذنه همساً «سيدي الرئيس» . كان نابليون لبنان على وشك أن يتكلم من مرأبه تحت الأرض . كان خطابه في شقّ منه كلاماً من باب مناجاة النفس ، وفي شقّه الآخر درساً في التاريخ . كان عون يريد لبنان بلداً من الطراز الغربي «مثل فرنسا ، مثل أميركا» . لم يكن يستطيع أن يفهم لماذا قد لا تروق هذه الفكرة للمسلمين ، الذين كان يدعي أيضاً تمثيلهم . وعندما ألمحت إلى أن «حرب التحرير» التي يشنّها ضد سوريا سوف تتحوّل إلى كارثة ، ألقى عليّ محاضرة ليبيّن لي كيف أن أي حرب من حروب التحرير لم تكن يوماً حرباً خاسرة . قال فيما كانت عيناه تلمعان ببريق الرضى : «هذا ما يبيّنه التاريخ ، تأمل في الماكي [المقاومة] الفرنسية أثناء الحرب العالمية الثانية ، تأمل في المقاومة الجزائرية للفرنسيين ، وفي الفييتكونغ» . ما هي خططك إذاً ، سألته . «خطط؟ أي خطط؟» . حسناً ، الخطط للحرب ، لمستقبل لبنان . كان عون مقطّب الجبين الآن . قال : «إنني جندي ، وأريد أن أحرّر بلدي» .

وكان أن جلبت حربه الموت لما لا يقلّ عن ألف رجل وامرأة من دون أن يكون «التحرير» من نصيب أحد . وكان أن حكم عون إقطاعته الخطرة بصلاحيات ديكتاتورية أكثر فأكثر . عمد إلى منع الصحف اللبنانية التي كانت تعارض سياسته ، وفرض حظراً على الصحافيين الذين لا يكتبون ما كان يريد أن يقرأ . وارتضى عون الإذلال العلني لرأس الكنيسة المارونية في لبنان ، البطريرك المسنّ نصرالله صفير ، الذي أرغمه العشرات من أنصاره على تقبيل صورته وهم يعيرّونه . كما التزم جانب الصمت حيال عمليات تفجير منازل النواب اللبنانيين المعارضين له . وراحت الحياة في بيروت الشرقية تتحول إلى ما يشبه الحياة في بغداد أكثر منها في لبنان «الحرّ» .

وسوف نشهد في الجبال إلى الشرق ، الأدلة على تورط العراق في حرب ميشال عون . سوف يجري نقل منصّات الكاتيوشا المطلية حديثاً ، وقطع المدفعية ، والشاحنات من صنع سوفييتي من مرفأ ضبية إلى منحدرات التلال في عتمة الليل . كانت هدية من صدام حسين بعدما انتفت الحاجة إلى الأسلحة للحرب التي كان يشنها العراق ضد إيران .

وقد حضر عون بنفسه إلى السفارة العراقية في بيروت الشرقية ـ وكانت السفارة العربية الوحيدة التي ترضى بفتح أبوابها للجنرال ـ للمشاركة في الاحتفال بالعيد السنوي لحزب البعث العراقي .

وكانت الابتسامة تعلو وجهه وهو يقطع قالب الحلوى المصمم على شكل علم العراق الأحمر والأبيض والأسود .

وقد أجاز عون أيضاً إشاعة خبر حصوله على المزيد من الأسلحة المتطورة من صدام حسين . وألمحت محطات الإذاعة المسيحية إلى أن العراق قد أرسل صواريخ سكاد البالستية إلى الجيب المسيحي الذي يسيطر عليه عون ـ هي الصواريخ نفسها التي سيطلقها العراق على إسرائيل والمملكة العربية السعودية بعد أقل من سنتين . وقالت تلك الإذاعات إن الصواريخ موجّهة ضد دمشق . وكان ذلك سبباً آخر للكراهية التي كان يكنّها حافظ الأسد لحليف صدام في بيروت .

كان «الجنرال» فؤاد مالك ، الذي نصّب نفسه رئيساً لأركان حلفاء عون الكتائبيين ، نموذجاً للذين ارتضوا بمساعدة العراق من دون سؤال . سألته بعد ظهر يوم في أيار/ مايو ١٩٨٩ ، عما إذا كان لا يجد غرابة في قبول المسيحيين الموالين للغرب بالتحالف مع العراق غير الديمقراطي ، وعما إذا كان قد تناهى إليه استخدام العراقيين الأسلحة الكيميائية ضد المدنيين الأكراد في العام ١٩٨٨؟ أجاب : «لقد قرأت عن ذلك في الصحف فقط . عدا عن أن العراقيين لم يؤكدوا الأمر بعد» . وهكذا ، علينا إذاً أن ننتظر إعلاناً رسمياً من بغداد يفيد بأن سلاح الجو العراقي قد ألقى قنابل غاز الخردل على المدنيين تنفيذاً لأوامر من الرئيس صدام حسين ، قبل أن يصبح الجنرال مستعداً لإعادة النظر في تحالفه .

كان تورط الكتائب في تلك المعارك نادراً ، كما تبيّنتُ بنفسي وأنا على مرتفعات صنين ، تلك القمم نفسها حيث كنت والكتائبيون ننبطح أرضاً لتفادي نيران القصف السوري خلال حصار مدينة زحلة قبل ثماني سنوات تماماً . كان الثلج لا يزال ملتصقاً بالصخور الباردة . وكان الكتائبيون المتدثّرون بالفراء ، يحملون بنادقهم إلى صدورهم ، متشبثين برباط الكلب الإلزاسي الشرس الذي راح يسيل لعابه ويجأر ما أن ترجّلتُ من شاحنة للميليشيا كانت تقدمة من إسرائيل . كان المقدّم بطرس نجار طويل القامة وكثير الابتسام . سألني إذا كنت أستطيع رؤية بطارية المدفعية التي أخفاها في تلك الجبال . قال : «إذا تمكنت من اكتشاف المكان الذي خبأت فيه دبابتي الأمامية أعطيك إياها» . أخذت منظاره الميداني ورحت أستكشف طوال ربع ساعة ، ومع ذلك لم أستطع رؤية شيء سوى المنحدرات وحقول الثلج» . «إنها هناك ، خلف الأشجار فوق المجرى في الأسفل» ، أعلن نجار بلهجة المنتصر : «سأحتفظ بدبابتي» .

كان السوريون قبالتنا . مازالوا هناك ، على متن ذلك الجبل الذي استولوا عليه في العام ١٩٨١ .

وكان نجار يحب مكمنه الصغير ذاك . ولكن لم يحدث أن أُطلقت طلقة واحدة منذ عدة أشهر ـ فقد بدت الحرب آنذاك ، وكأنها مخططة لإلحاق أكبر قدر من المعاناة في وسط المدنيين ، وأقل ما يمكن منها في وسط العسكريين . بدا نجار مسفوعاً من وهج الضوء والثلج . قال لي : «نستطيع مشاهدة قبرص في بعض الصباحات» . كانت الجبال تلفّنا ، ودياناً من الضباب الأزرق ، وقمماً بنية اللون موشّاة بالأبيض .

في ذلك الوقت ، كنت قد تركت عملي في صحيفة «التايمز» اللندنية ، التي لم تعد آراؤها اليمينية تمثّل تلك الصحيفة غير المتحيّزة التي التحقت بها قبل نحو عشرين عاماً ، وذلك بعدما انتقلت ملكيتها إلى رويرت مردوخ . كان مستحيلاً لمراسل صحفي أن يجازف بحياته تحت وابل النيران ، من أجل صحيفة لم يعد يؤمن بها . وقد انتقلت للعمل مع صحيفة «الأندبندنت» البريطانية الجديدة . لكن عملي بقي ، من نواحٍ عديدة ، كما كان دائماً . عملت مراسلاً للصحيفة في الشرق الأوسط ، انطلاقاً من مقري في بيروت . وكانت بيروت ، كعهدي بها ، في حرب مع نفسها . كم من السنين أمضيتُها ، أتنقل بالسيارة عبر شوارع بيروت الغربية ، تحت نيران القصف ، لأحتمي في مكاتب وكالة الأسوشيتدبرس .

أصبحت التجربة أكثر توحّداً من أي وقت مضى . لقد تزوج جي . سي . وانتقل إلى مدريد . ولم يعد في بيروت الغربية في تلك الآونة ، إلا صحافيان غربيان اثنان ، لارا مارلو من صحيفة «الفايننشال تايمز» وأنا . انتقلنا إلى شقة جي . سي . القديمة المطلة على البحر ، في الطبقة الثانية من المبنى الدي أقطن فيه . وفي كل ليلة كانت بطارية مدفعية سورية متمركزة على مسافة مئات من الياردات ، تطلق قذائفها من عيار ١٥٥ملم على سفن تحاول نقل التزويدات إلى القطاع المسيحي . وكانت مدفعية عون ترد بالمثل ، فتتساقط مئات القذائف حول بيتنا ، تُحطم النوافذ وتقتلع بلاط جدران المطبخ . وفي إحدى الليالي ، استهدف قصف عون والكتائب كورنيش البحر فاشتعلت النيران في ثماني شاحنات سورية محمّلة بالذخائر ، وتحولت الجادة إلى جحيم . طرق ليلتها باب منزلنا جندي سوري جريح يطلب إسعافه . كان فتى في سن المراهقة والدماء تسيل على صدره . اعتنينا به حتى انبلاج الفجر ، ثم أرسلناه إلى المستشفى . كان النوم مستحيلاً ، لذا كنا بدل أن ننام ، نجلس كل ليلة في رواق داخلي بلا نوافذ بالقرب من الباب ، متّسخين ، تتملكنا مشاعر الخوف والبؤس . سنين عديدة أمضيناها نكتب تقاريرنا الصحافية عن لبنان ، انتهت بنا إلى هذه الحال .

كنت أشعر أحياناً بوطأة الضغط على حياتي . كان بالأحرى ، ضغطاً مهنياً وليس جسدياً ، ولو أنه كان من الصعب تمييز الواحد عن الآخر في معظم الأحيان . كيف يستطيع المرء أن يستمر بالكتابة

ليصف المآسي نفسها ، تتكرر بلا نهاية ، بالعاطفة والحيوية التي تستحقها؟ وجدت نفسي طوال ذلك الصيف الطويل الرهيب ، أعود إلى مناطق بيروت نفسها ، إلى المباني عينها ، التي أجريت فيها فيما مضى مقابلاتي مع ضحايا نيران القصف الإسرائيلي في العام ١٩٨٢ . لقد أصيبت مستشفى البربير ثانية ، لكن بقذائف المسيحيين اللبنانيين هذه المرة ، وليس بالقذائف الإسرائيلية . كان في المستشفى الدكتور أمل شمّاع ، الطبيب نفسه الذي حاول يوماً ، إطفاء أجساد الأطفال المشتعلة ، وقد غطاها الفوسفور ، خلال الحصار الإسرائيلي لبيروت ، وعمل لإبقاء المستشفى مفتوحاً فيما كانت غرفة الجراحة تحترق .

وفي الناحية الأخرى ، على منحدر إحدى التلال في مدينة جونية ، سحق صاروخ «غراد» سوري منزل فؤاد صفير فقطع رأس زوجته الأردنية الشابة ناديا ، وشوّه أطفاله . كان بين الحطام بيانو صغير وتقرير مدرسي وبطاقة هوية عائدة لفؤاد صفير المحتضر . وعثر الجيران على ألبوم للصور بين الركام : ناديا في حفل تعميد أصغر أبنائها ، امرأة رقيقة ذات ابتسامة ناعمة ، وابنها الأكبر يحمل طفلاً . ها أنا مرة أخرى ، أنظر في الصور الفوتوغرافية كما لو كان هناك دليل مخفي في تلك الصور المتكررة باستمرار ، لعائلات مُصابة ، لرجال ونساء ميتين ، ورهائن وانتحاريين وضحايا مجازر ، دليل قد يكشف بطريقة من الطرق حقيقة التاريخ . لم تكن سوزان زوجة زايمون داتنر ؛ التي قُتلت منذ ردح من الزمن في غيتو بياليستوك ، تبدو مختلفة كثيراً عن ناديا صفير . كانت كلتاهما أماً ، وكلتاهما امرأة سعيدة ، وكلتاهما ضحية في الأيام الآتية .

جعلتني تغطية الأحداث في لبنان ومحاولة اكتشاف سبب ما كنت شاهداً عليه من قتل لتلك الكثرة من الناس هناك ، جعلتني أنظر إلى أشرطة الفيديو والصور واللقطات الفوتوغرافية ، حتى القديم منها ، كآثار لأقدام التاريخ ، واضحة أحياناً ، وباهتة في أحيان أخرى إلى حد أكاد لا أستطيع أن أكتشف معانيها . هل يا تُرى ، هناك ترتيب ما ينبغي أن تُنسّق فيه هذه الصور ، هناك سرّ ما في تكرّر ظهورها المستديم ، هناك دلالة فيها فاتنا التنبّه لها؟

وفي العام ١٩٨٩ ، نادراً ما كان منتظراً منّا أن نفكّ رموز معانيها . وفي إحدى ليالي ذاك الصيف ، وكنت أرقاً ومتعباً في آن ، غادرت مكاني في الرواق الداخلي لأجلس على الشرفة المُطلة على البحر ، أراقب وهج الإنفجارات في الجبال والقذائف العابرة أمامي من فوق البحر بوميضها الزهري والأصفر الخاطف كلمعان الخطوط المتحركة على شاشة كومبيوتر فَقَد عقله . كنت عندما يتوقف القصف لبرهة وجيزة ، أرفع ناظري إلى أعلى لأحدّق في موكب النجوم في سماء الليل . في لبنان وحده شاهدت مثل هذا الكمّ من النجوم .

لقد أثّرت أيام القصف بطرق غريبة في اللبنانيين . فعلى مسافة نحو نصف ميل من منزلنا ، بالقرب من مخفر حبيش ، كانت امرأة في حوالى الخمسين من عمرها ، تعيش وتنام على جدار على مقربة من حرم الجامعة الأميركية المُقفر . كانت تضع طبقة سميكة من أحمر الشفاه ويبدو شعرها كما لو كان لم يُغسل منذ أسابيع . وكانت تجلس بجانبها فتاة ينسدل شعرها البنّي إلى خصرها ، ويبدو مُتسخاً أيضاً كشعر المرأة . كانت في بعض الأحيان تنام بين ذراعي المرأة ، وتُشاهد عادة وقد تدلّت من عنقها لعبة بشكل هرة سوداء كبيرة . كان الحراس اللبنانيون في حرم الجامعة يحنّون عليهما ، فيقدمون لهما الطعام والماء . لم يعرفوا اسم تلك المرأة قط . وهي لم تتكلم معهم يوماً . لكن جلوسها طوعاً على جدارها الصغير خلال القصف ، كان وحده يكفي للوقوف على مدى اضطرابها النفسي . وكانت في بعض الأحيان تُشاهد وهي تطوف الشوارع المجاورة ، تتطلع إلى الأشجار مُمسكة بيد الفتاة الصغيرة .

وفي معظم الأوقات ، كانت تلك الشوارع مقفرة . كادت بيروت أن تفرغ من سكانها ، وكان العشب ينمو من شقوق الأرصفة على الكورنيش . إنها الطبيعة ؛ كانت تتسلل عائدة إلى إحدى أكثر المدن ضجيجاً في الشرق الأوسط . وحدث ذات يوم أن شاهدت بضعة طيور بيضاء كبيرة تعبر أجواء الناحية المواجهة للبحر ، متجهة جنوباً ، في موسم هجرتها الشتوية من رياح الأناضول الباردة إلى أفريقيا . كنت أستطيع أن أسمع تلك الطيور وهي تنادي على بعضها ؛ وقد قال لي اللبنانيون إنهم لم يسمعوا من قبل جلبة هذا القدر من الطيور . وفي الليالي ، كانت الوطاويط تندفع عبر أشجار النخيل بجوار بيتنا . وكان الغبار يغطي شقتنا ، ودخان البارود يلفّ كل ما نملك ـ الجدران وشراشف الأسرّة وملابس لارا وقمصاني ، وحتى فوط المطبخ . اشترينا مولّداً كهربائياً ـ لقد جعل لبنان منّي خبيراً بتشغيل قابس الإشعال بالشرر وتزييت المولّدات . كما اشترينا ثلاجة جديدة مُزوّد بابها بضوئين لإنذار مستخدمها بقوة التيار ، أحدهما أخضر إشارة إلى الأمان ، والثاني أحمر إشارة إلى الخطر . ولكنهما كانا يصرّان على الإضاءة في الوقت نفسه . كانا انعكاساً صادقاً للوضع في لبنان .

حتى خطوط الهاتف في مكاتب الأسوشيتدبرس ، التي لم تتوقف عن العمل خلال الحصار الإسرائيلي في العام ١٩٨٢ ، وخلال حروب الميليشيات ، باتت تنقطع في تلك الآونة ، وعلى مدى أيام في كل مرة . وفي مقابل مكتب الوكالة ، كان هيكل فندق الكومودور لايزال منتصباً ، هيكلاً للحقيقة بالنسبة لجيل من المراسلين ، معظمهم شدّ رحاله منذ زمن طويل ـ توجهوا إلى قبرص أو الهند أو إسرائيل ، أو انتقلوا إلى لندن ونيويورك لشغل مناصب مدراء تحرير في صحفهم . كان الجيش السوري يحتل خرائب الكومودور في تلك الآونة ، وكان جنوده يتناولون وجبات الحمص والفاصوليا

في الدور السفلي . كانت نوافذ الفندق محطمة ، وقد سَرَقَ أثاثه النزلاء الجدد . وكنت بين الحين والآخر ، أتعرّف إلى كراسي مألوفة وشراشف طاولات وفوط سفرة عائدة لهذا الفندق ، في البارات والمطاعم التي كانت أبوابها لا تزال مفتوحة في بيروت الغربية . كان الكومودور أشبه بسفينة قديمة ينفسخ هيكلها الضخم ببطء . ولكن البار ، بأثاثه المنجّد ببلاستيك الفينيل الأحمر ، حيث كانت كثرة منّا تتحلّق وتناقش الغزو الإسرائيلي ووصول القوات المتعددة الجنسيات ورحيلها ، واختطاف تيري أندرسون ، كان ذلك البار لا يزال يعمل . لكنه كان مكسواً بالغبار والشحم . لم يبقَ من تاريخ هذا الفندق المدمّر إلا تذكار واحد : لوحة نحاسية في الردهة تقدمة من صحافيين كان مقرهم في القاهرة ، سجلّوا عليها امتنانهم لموظفي الفندق الذين استمروا بالعمل تحت وابل القصف المدفعي الإسرائيلي . لكن الفندق كان مغلقاً في تلك الآونة ، في ظل قصف قوات الجنرال عون ، ولا يقيم فيه سوى جنود من اللاذقية وحمص وحلب . كان لحاقهم بالصحافيين إلى فندق الكومودور متناسباً مع واقع الحال ـ الواقع يحل محل الخيال .

وفي غمرة الفوضى الناشئة عن آخر ما استجد من حروب في لبنان ، ضرب الخاطفون مرة أخرى . اختطفوا مواطناً غربياً آخر . كان البريطاني جاكي مان طياراً متقاعداً من شركة طيران الشرق الأوسط ، يعيش في حالة أقرب إلى الفقر ، مع زوجته المسنّة في بيروت الغربية . وقد شاهد بعض المارّة هذا الرجل وهو يُدفع بخشونة إلى داخل صندوق سيارة في شارع الحمرا فيما كان ذاهباً سيراً على الأقدام ، إلى المصرف . لم يتبنّ أحد عملية اختطافه إطلاقاً . كان جاكي مان قد حارب في «معركة بريطانيا» ، وأصيب بحروق بالغة عندما هبط بطائرته من طراز «سبيتفاير» هبوطاً اضطرارياً ، في مدينة كينت في العام ١٩٤١ . وقد كوفئت شجاعته تلك بطريقة مستنكرة في بيروت الغربية ، في العام ١٩٨٩ . ففي الأسابيع الأولى على اختطافه ، لم تكلّف السفارة البريطانية نفسها عناء إرسال ولو دبلوماسياً واحداً لزيارة السيدة مان في منزلها المتواضع في بيروت الغربية . كان عليها أن تكتفي بمواساة أحد الموظفين اللبنانيين في السفارة .

في نهاية المطاف ، أفلح الضغط الدبلوماسي الأوروبي ـ وخصوصاً الفرنسي ـ في إقناع ميشال عون بقبول اقتراح لوقف إطلاق النار ، تقدمت به الجامعة العربية بواسطة أحد مساعدي أمينها العام ، الدبلوماسي الجزائري ، الأخضر الإبراهيمي ، الذي سوف يصبح فيما بعد ، وزير خارجية بلاده . فحرب «التحرير» التي شنّها الجنرال عون لم يتأت عنها استعادة ولا حتى شبر واحد من لبنان ، من تحت السيطرة السورية ، وكان قراره بـ«إعطاء فرصة للسلام» ، قراراً محتوماً بقدر ما كان تافهاً .

استُدعي أعضاء البرلمان الأكبر سنّاً فيما بعد ، إلى مؤتمر يُعقد في المنتجع السعودي في

الطائف ، لوضع تسوية أخرى للأزمة اللبنانية . كان بإمكانهم نبذ الميثاق ونظام المشاركة في السلطة ، الذي وضعه الانتداب الفرنسي قبل خمسة وأربعين عاماً . لكنهم ، عوضاً عن ذلك ، انشغلوا بإجراء إصلاحات في مبادئ النظام زادت من صلاحيات رئيس الوزراء المسلم وانتقصت من صلاحيات رئيس الجمهورية المسيحي الماروني ، وتُركت الطائفية كما هي بدون مساس . وبذلك ، سوف يبقى الموارنة مُمسكين ، بالدور الأكثر نفوذاً في مجال الأعمال ، وسوف يبقى المسلمون الشيعة غير ممثلين في البرلمان بالنسبة التي يستحقونها . ولن يكون بوسع أي مسلم أن يتبوأ منصب الرئاسة ، ولن يكون بوسع أي مسيحي أن يُشغل منصب رئاسة الحكومة . وهكذا ، أقدم مجلس النواب على وصف بضع حبّات من الدواء وسعى للحصول على وعود بالسلوك الحسن ، عوضاً عن إجراء عملية جراحية رئيسية تنقذ حياة الأمة المحتضرة .

لقد رفض ميشال عون حضور مؤتمر الطائف ، ودان البرلمانيين المسيحيين الذين ذهبوا إلى المملكة العربية السعودية بوصفهم خونة . وقبل ساعات معدودة من انعقاد مجلس النواب لانتخاب رئيس جديد ، أصدر الجنرال مرسوماً يقضي بحل المجلس النيابي ووعد بإجراء انتخابات جديدة . في هذه الأثناء ، كانت بيروت الشرقية تشهد أموراً غير مسبوقة . كان رجال عون ينشئون ديكتاتورية عسكرية صغيرة . كان الضباط الذين يشككون بحكمة سياسات عون يزجّون في السجن أو يوضعون في الإقامة الجبرية . وقد فرّ عدد منهم إلى بيروت الغربية . وعوضاً عن المجاهرة لأبناء قومهم بمعزّتهم لوطنهم ، اختار الجنود المسيحيون إلصاق صور الجنرال عون على دباباتهم وشاحناتهم ـ بطريقة أشبه ما تكون إلى ما يفعله الجنود العراقيون الذين يزيّنون آلياتهم بصور صدام حسين . كان رجال عون يقاتلون من أجل مفهومه للبنان المستقبل ، دولة عربية يقودها الموارنة الذين يؤمنون بأن لديهم رسالة «تمدين» . كانت القوات تحت إمرة عون تتحوّل إلى جيش كولونيالي ، إلى جيش صاحب رسالة ، مثلما كان الفرنسيون يظنون أنفسهم أصحاب رسالة إبّان عهد انتدابهم . وما لبث مسلمو لبنان ، الذين أعجبوا بشجاعة عون ووطنيته في بادئ الأمر ، أن اكتشفوا بأنهم لا يحبّون هذا الجيش الجديد . فقد كان بعد كل شيء ، الجيش نفسه الذي دخل بيروت الغربية في العام ١٩٨٢ ، واعتقل المئات من الشباب المسلمين الذين لم يُشاهدوا بعدها إطلاقاً . وعندما اجتاح الإسرائيليون لبنان في ذلك العام نفسه ، قرر جيش عون الامتناع عن محاربتهم . فلماذا يريد هذا الجيش أن يحارب السوريين ؟

استقل حسين الحسيني ، الرئيس الشيعي لمجلس النواب اللبناني ، الطائرة وتوجه إلى باريس ليقنع النواب المسيحيين الذين لجأوا إلى هناك بالعودة إلى لبنان لانتخاب رئيس للجمهورية . كان

هناك ما هو جدير بالاحترام في الطريقة التي عاد بها أولئك المسنّون الخائفون إلى بلادهم ، ولو من طريق مطار عسكري ناء في القليعات ، واقع خارج مدى مدفعية ميشال عون ، في مكان بعيد في شمال لبنان ، حتى ليكاد أن يكون في سوريا . انتخبوا هناك رينيه معوّض رئيساً لجمهورية لبنان . كان معوض محامياً ومسلّماً بطبيعة القوة السورية ـ ووجودها في لبنان . لكنه كان صادقاً في إيمانه بمبدأ التعايش المسلم ـ المسيحي إلى حدّ أنه أطلق على ابنه الوحيد اسماً مسلماً . لكنه سيبقى على قيد الحياة سبعة عشر يوماً فقط .

لم يتمكن الرئيس معوّض من الانتقال إلى قصر الرئاسة في بعبدا ، حيث كان العماد عون لا يزال يقيم مستكناً آمناً ، فأقام في مقر مؤقت في بيروت الغربية رئيساً ينتظر الانتقال إلى مقرّه الرسمي ، باعتبار أن إذعان عون كان مرجحاً أن يكون مسألة أيام فقط . وكلّف معوض سليم الحص تشكيل الحكومة . وفي ٢٢ تشرين الثاني/ نوفمبر ، استقبل السفراء الأجانب بمناسبة عيد الاستقلال اللبناني في السراي الحكومي في بيروت الغربية أيضاً . وفي الناحية الأخرى من العاصمة ، كانت حكومة عون العسكرية تحتفل بتلك المناسبة الوطنية ، باستعراض القوات المسلحة اللبنانية . لكن غياب العماد عون عن العرض العسكري كان مثيراً للاستغراب . فقد التزم مقرّه المحصن يومذاك ولم يغادره .

بعد ظهيرة ذلك اليوم بوقت قصير ، غادر معوّض السراي الحكومي للعودة إلى منزله ناحية البحر ، في موكب من السيارات الفخمة ، بحماية القوات السورية ورجال المخابرات السوريين . وما كاد الموكب يقطع مسافة سبعمائة متر حتى انفجرت قنبلة ضخمة مزّقت سيارة معوّض المرسيدس المصفّحة شرّ تمزيق ، وقذفت بجزئها الخلفي إلى سطح سجن في المحلّة ، فيما حطّ جزؤها الأمامي في مرأب للسيارات يقع على مسافة نحو مئتي متر من مكان الانفجار . وتبخرّت إلى حد ما ، جثث معوّض والعناصر المكلفة حمايته . وعندما وُري في مسقط رأسه في زغرتا بعد ثلاثة أيام ، لم يكن أحد يعرف ما إذا كان نعش الرئيس يحوي بقاياه أو بقايا أحد حرسه الشخصيين .

من قتل الرئيس معوّض؟ إن قائمة أولئك الذين كان يمكن أن يجنوا فائدة من مقتله ، تشمل تقريباً كل المجموعات [المتناحرة] في لبنان والجهات المساندة لها في دول أخرى . وفي الظاهر ، كان العماد عون أكبر الرابحين وأقل الخاسرين من اغتيال معوّض . فالمكتب الثاني كان يمكن أن يكون مسؤولاً عن العملية ـ إما مدعوماً من الكتائب ، أو مستعيناً ربما بخبراء متفجرات مأجورين من النظام العراقي الحليف للعماد عون . وهكذا ، يكون العراق قد ضرب «دمية» سوريا المفترضة في لبنان . إلا أن عون نفى أي تورط في العملية ، وبدا مجاوزاً حدود المعقول عندما طالب بتحقيق في الاغتيال تجريه الأمم المتحدة .

ولكن كانت هناك شائعات تقول إن معوّض اختلف مع السوريين وخسر ودّهم لأنه رفض أن يجيز استخدام القوة العسكرية السورية لإزاحة عون . ولو أراد السوريون التخلّص من معوّض لما عجزوا عن إيجاد قتلة في بيروت الغربية ينفذون أوامرهم . لكن غضب سوريا الشديد في أعقاب مقتل معوّض بدا صادقاً .

في أي حال ، كانت هناك احتمالات أخرى . فانتخاب معوّض رئيساً كان انتصاراً لاتفاقية الطائف ، اتفاق السلام الذي دبّره السعوديون لصالح إخوانهم في الدين ، المسلمين السنّة في لبنان . ولم يكن هناك آنذاك سوى قلّة تكنّ الكراهية للنظام السعودي بالحدّة التي يكنّها له الإيرانيون . فقد ساهمت السعودية بتمويل حرب صدام حسين ضد الجمهورية الإسلامية التي استغرقت ثماني سنوات . كما أن حكم القلّة في المملكة أصدر في أيلول/ سبتمبر ١٩٨٩ أمراً بقطع رأس ستة عشر شخصاً من المسلمين الشيعة الموالين لإيران ، كانوا قد قاموا بمحاولة لانتزاع مدينة مكة المكرمة من قبضة النظام السعودي «الفاسد» . وقد تعهّد حزب الله بالانتقام آنذاك . فهل تكون إيران الجهة التي تقف وراء اغتيال معوّض ، خصوصاً أنها ما كانت بدورها لتجد صعوبة في العثور على قتلة ينفذون مأربها في لبنان؟ ففي الغرب ، كان الكثيرون يعتقدون بأن الزعماء الإيرانيين هم الذين أصدروا الأوامر بنسف طائرة بان أميركان ، التي انفجرت فوق لوكيربي في سكوتلندة ، في كانون الأول/ ديسمبر ١٩٨٨ ، انتقاماً لإقدام سفينة البحرية الأميركية «ڤينسين» على إسقاط طائرة ركّاب إيرانية في الخليج في السنة السابقة . وقد وجّه الغرب في حينها إصبع الإتهام إلى الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ـ القيادة العامة ، التي يتزعمها أحمد جبريل ، محملاً إياها مسؤولية دسّ القنبلة في الطائرة بتكليف من إيران ؛ وهي التهمة التي وُجهّت فيما بعد إلى سوريا ، وأخيراً إلى ليبيا ـ التي ستعترف بعد سنين ، بمسؤوليتها ، وسيُحكم على أحد عملائها بالسجن في بريطانيا للجريمة التي اقترفها ، بعد أن دانته محكمة في لاهاي . ولكن إيران نفت مسؤوليتها عن اغتيال معوّض ، وكذلك فعل جبريل على الرغم من أن رجاله كانوا يتمركزون في بلدة الدامور ، على مسافة ١٢ ميلاً جنوبي بيروت .

لم يكن اغتيال معوّض عملاً من تنفيذ محترفين وحسب . كان الجريمة الكاملة ، نموذجاً مصغراً لتلك المهارة التكتيكية التي تجلّت في المجزرة التي نُفذت ضد رجال البحرية الأميركيين والمظليين الفرنسيين في بيروت ، في تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٨٣ . فقد بلغت زنة المتفجرات في القنبلة ٢٥٠ كيلو غراماً ، وُضعت في داخل محل مهجور لبيع الحلويات . ولا بد أن يكون نقل مثل هذه الكمية من المتفجرات وإخفائها في ذلك المبنى الحجري القديم قد استغرق أسبوعاً لإتمامه ، فقد تحوّل ذلك المحل بذاته إلى قنبلة . ولابد أن يكون هناك من شاهد أناساً يحملون الأكياس أو الحقائب التي كانت

تحوي المتفجرات إلى داخل ذلك المحل . لقد جرى تفجير القنبلة في اللحظة عينها التي مرّت فيها سيارة معوّض من أمام المحل . وهذا يعني أن القاتل كان يراقب الموكب ، وأنه فجّر القنبلة بواسطة جهاز للتحكم عن بُعد . ولا بد أنه استخدم جهاز لاسلكي لأن الأسلاك كان يمكن أن تُكتشف . ولا بد أيضاً ، أنه كان يترصّد هدفه من مبنى شاهق ، وقد وضع أكياساً من الرمل حول الغرفة التي كان يراقب منها الشارع لحماية نفسه ، وفتح النوافذ ليقي وجهه من تطاير الزجاج .

كل ما تبقى من ذاك المحل المهجور لبيع الحلويات كان حفرة في الأرض بعمق اثني عشر قدماً . وعندما وقفتُ على حافة تلك الحفرة بعد الانفجار ، تبيّنتُ أن هناك مبنيين شاهقين اثنين فقط ، كان بإمكان القاتل استخدامهما لتفجير القنبلة . لكن أحداً لم يُبلّغ عن مشاهدة أي شخص غريب في أي من المبنيين . والحقيقة أن أحداً لا يمكن أن يفعل ذلك ، لأن هذا هو لبنان ـ والتعرّف على قاتل في بيروت يعني الموت . إن اغتيال رئيس للجمهورية في أي بلد آخر كان سيستدعي تحقيقاً رسمياً وحملة تفتيش ومطاردة للقاتل يتولاها الجيش والشرطة . ولكن الذي حصل أنه في غضون ساعات على عملية الاغتيال ، كنت أراقب الجرافات ترفع الركام من المكان وتدمّر بتعمّد ودقّة كل ما من شأنه أن يشكّل دليلاً على لغز الاغتيال . كان هناك أيضاً ، ضابط أعرفه من مخابرات الجيش . وعندما سألته من قتل معوّض ، رفع يده اليمنى ورسم بإصبعه دائرة كاملة في الهواء . الجميع كانوا مذنبين . من قتل الرئيس؟ لبنان قتله .

نُقل جثمان رينيه معوّض من قبو كنيسة أجداده في زغرتا ، إلى عربة مدفع ، تتقدمه الأكاليل من الرئيس حافظ الأسد وجنرالاته . وحُملت أرامل حرس معوّض الشخصيين حملاً إلى داخل الكنيسة ، وقد علا صراخهن . وكانت إحداهن تلبس البيريه العسكرية العائدة لزوجها القتيل ، في محاولة أخيرة منها لحفظ صلة حسيّة بالرجل الميت الذي تحبه . لكن هيبة المكان ما لبثت أن فرضت الصمت .

لم يكن لدى الحكومة اللبنانية أي رغبة باكتشاف هوية القاتل . فحلّ لغز مقتله قد يكون مرعباً إلى حد لا قِبَل لأحد بالتفكير به . فعملية اكتشاف هوية القاتل قد تقود إلى كشف النقاب بمحض الصدفة ، عن أسرار لبنانية أخرى ، والإيحاء بإجابات على أسئلة أخرى . والجميع كان يعرف ماهية تلك الأسئلة . فمن قتل بشير الجميّل؟ أو من قتل رشيد كرامي؟ أو كمال جنبلاط؟

لقد انتخب مجلس النواب اللبناني ، حتى قبل مواراة معوّض ـ أو ما تبقى منه ـ رئيساً آخر للجمهورية . كان هذا الياس الهراوي ، ملاّك الأراضي المسيحي والسياسي الداهية الذي كان ، على الأرجح ، الماروني الوحيد في البرلمان اللبناني الذي يملك ما يكفي من رباطة جأش (وطموح)

للمجازفة بالسير على خطى معوّض . كان رجلاً فظّاً ، عيّن الجنرال إميل لحود قائداً جديداً للجيش ، وأعطى أوامره بطرد الجنرال عون من القصر الجمهوري في بعبدا . لكن عون لم يمتثل . وفي أوائل كانون الأول/ ديسمبر ١٩٨٩ ، أرسل الجيش السوري مئات الدبابات وقطع المدفعية إلى الجبال المطلة على بيروت .

ذهبت يومها في أعقابهم على طريق دمشق السريع ، من شتورا إلى خط الثلج في الجبال ـ قوافل طويلة من الشاحنات والمدافع من عيار ١٢٢ ملم ودبابات تي ـ ٦٢ ، كانت تتقدم ببطء وتأن على طريق الجبل وسط الضباب والجليد . ألم أتبع هذا الجيش نفسه ، وربما حتى عربات المدافع نفسها ، على هذه الطريق بالذات في العام ١٩٧٦ ، عندما كانت سوريا متوجهة لإنقاذ المسيحيين من الفلسطينيين؟ اليوم ، كان السوريون في طريقهم إلى مهاجمة المسيحيين الموارنة والاستيلاء على بعبدا من أجل رئيس مسيحي ماروني . ولكن السوريين لم يذهبوا يومها إلى بعبدا ، ولم يقصفوا جيش ميشال عون . ليس الآن . كان هناك كلام عن «خط أحمر» آخر ، وضعه على الأرجح ، الأميركيون الذين كانوا في تلك الأونة يدعمون سياسة سوريا في لبنان ، أو الفرنسيون الذين كانوا يرسلون سفنهم الحربية تكراراً ، باتجاه الساحل اللبناني في الناحية المسيحية ، ثم يسحبونها قبل أن تظهر في الأفق . ومع ذلك ، سوف يجري التخلي عن هذا الخط الأحمر في غضون أقل من سنة ، عندما يدفع العراق ، حليف ميشال عون ، بالأميركيين والسوريين إلى الوقوف في الجهة نفسها في الشرق الأوسط ـ وبالتالي في لبنان .

في هذه الأثناء ، قرر عون تصفية كل ما تبقى من معارضة سياسية له داخل الجيب المسيحي ، فانقضّ على حلفائه الكتائبيين ـ الميليشيا نفسها التي ارتكبت مجزرة الفلسطينيين في مخيمي صبرا وشاتيلا في العام ١٩٨٢ ـ في حرب كانت أكثر ضراوة من تلك التي خاضها ضد السوريين في العام ١٩٨٩ . إذ سقط في الفترة ما بين نهاية كانون الثاني/ يناير ونهاية أيار/ مايو ١٩٩٠ ، ما يزيد على ألف شخص في بيروت ، معظمهم من المدنيين ، وجميعهم تقريباً من المسيحيين . وفيما كان الرئيس الهراوي ووزارته يمارسون الحكم من فندق في بيروت الغربية ، كان بوسعهم مشاهدة النيران المشتعلة ليلاً ونهاراً في شرق المدينة فيما كان المسيحيون يدمّرون أنفسهم .

في أحد الأيام ، وفيما كنت أعبر إلى بيروت الشرقية ، عثرت على جثة مدير مسيحي لأحد المصارف اللبنانية تهترئ في الشمس ، بالقرب من سيارة مرسيدس بيضاء بدت كما لو كان قد اشتراها لتوه . كان في متوسط العمر ، مهندماً ومتكبّباً ، وكأنه أصيب بإغماءة وهو خلف المقود ، فسقط من باب السيارة المفتوح . كان ينتصب خلفه مبنى وزارة العدل المهجور . لقد صرعه القنّاصة قبل ثلاثة

أيام ولكن أحداً لم يجرؤ على الاقتراب منه خوفاً من المصير نفسه . كانت بعض الجثث تظل ملقاة في الشوارع طوال أسبوعين ، وكان العديد منها يتحلل في مقاعد السيارات التي كان أصحابها يقودونها عندما قُتلوا .

لقد كان الفرسان المسيحيون خلال الحروب الصليبية يتقاتلون في قتال كهذا بين الأخوة ، داخل أسوار صور ، فيما كانت جيوش المسلمين تترقب بصبر خارج بوابات المدينة القديمة . فلماذا يتدخل السوريون الآن عندما يتذابح موارنة لبنان؟

ومع حلول يوم أحد السعف ، كان الموارنة يهربون من الجيب الذي يسيطر عليه عون ، ويلجأون إلى القطاع الغربي المسلم من المدينة ، على الرغم من أن كثيرين منهم كانوا لا يزالون من مؤيديه . كانوا رجالاً ونساء لم يجرأوا على زيارة بيروت الغربية طوال خمسة عشر عاماً من الحرب ، ووجدوا أنفسهم فجأة ، في وسط مسلمين ، تبيّن لهم أنهم ودودون وليسوا أعداء . كان بعضهم قد نسي عاصمة بلده ، ولم يعرف طريقه إلى شوارع منطقة الحمرا للتسوق . وقد عاد إلى حرم الجامعة الأميركية في بيروت الغربية آنذاك ستمائة طالب من المسيحيين الموارنة . وهكذا ، نتجت عن ضراوة حرب الجنرال عون الأخيرة الوحدة الأولى التي يشهدها لبنان منذ خمسة عشر عاماً .

ومع ذلك ، كان عون لا يزال في بعبدا مع حلول شهر تموز/ يوليو ، فيما ظهر سمير جعجع ـ جعجع نفسه الذي قصف صيدا عبثاً ، في ربيع العام ١٩٨٥ ـ في إعلان على شاشة تلفزيون الكتائب ، مرتدياً قميصاً بنّي اللون ، ويرفع عالياً مجمرة نحاسية مشتعلة على وقع موسيقى فاغنر ، ويقدم له رجال ميليشياه التحية النازية . كان كّلاً من عون وجعجع يتقاسمان زعامة القطاع المسيحي .

وعندما اجتاح صدام حسين الكويت في الثاني من آب/ أغسطس ، كان عون أحد شخصيات قلائل في العالم العربي ، التزمت الصمت حيال الغزو . لم تصدر عن مقرّه المحصّن تحت الأرض لا إدانة للاجتياح ولا موافقة عليه . لكنه واصل انتقاده التدخل الأميركي في شؤون لبنان ؛ وكان أنصاره قبل فترة طويلة قد أجبروا السفارة الأميركية في بيروت الشرقية على إغلاق أبوابها . وهكذا ، أصبح حليف صدام حسين في بيروت البعيدة ، يَعدّ الولايات المتحدة وسوريا على حد سواء ، في عداد أعدائه . أما واشنطن فقد رأت أن السماح لدمشق بالتحرك ضد عون لن يكون فقط إشارة على موافقتها ، بل إجراء مؤثراً تُظهر فيه لصدام ماذا يمكن أن يحصل له إذا رفض سحب جيشه من الكويت .

لم يكن بوسع المرء أن يلوم اللبنانيين لنظرتهم إلى الغزو العراقي بذلك الافتتان الذي يأسر

جمهور المسرح . كان لبنان آنذاك ، في طور التعافي من تجربة خمسة عشر عاماً من سفك الدماء . وكان يساور بيروت شعور يكاد أن يُفصح بالقول ، إنه إذا كان للعرب أن تتواصل معاناتهم فقد آن الأوان لتكون المذلّة من نصيب آخرين . كما أن السنوات الطويلة من المشاعر المعادية للغرب في بيروت ، قد تركت بصماتها أيضاً : كان هناك في الواقع تعاطف كبير مع صدام حسين في لبنان ـ بصفة خاصة من جانب الفلسطينيين ، ولكن أيضاً من جانب آلاف مؤلفة من اللبنانيين الذين ، وإن كانوا يستهجنون نظرياً احتلال الكويت ، لم يتمالكوا عن الإعجاب برجل كان مستعداً لتجاهل مطالب دول نافذة ، والمضي في تسوية نزاعاته بحسم جلي لا رجوع عنه .

ولكن كان في وسط اللبنانيين أيضا قصور لافت عن إدراك مدى تصميم الغرب على إخراج العراق من تلك الإمارة . تجلّى هذا القصور حتى في وسط ملاّحي الطائرة اللبنانية التابعة لطيران الشرق الأوسط ، التي أقلتني إلى القاعدة الجوية في الظهران ، في أوائل آب/ أغسطس ، لمشاهدة أول جسر جوي أميركي إلى المملكة العربية السعودية . ففيما كنّا نحلّق فوق الصحراء ، بموازاة المجازات الجوية العسكرية التي حددتها قيادة القوات الحليفة ، راح هؤلاء يعنفونني لأنني لم أكن أصدق بأن كل هذا لم يكن أكثر من مناورة دبلوماسية . لقد دبّر لي أصدقاء لبنانيون في السعودية أمر المكوث لفترة سبع ساعات في الظهران للتحدث مع السعوديين وملاّحي طائرات النقل الأميركية العملاقة «غالاكسي» التي كانت تنقل طائرات الهليكوبتر والمدافع إلى البلد ـ علماً أن أحداً غيري من المراسلين الصحافيين لم يتمكن من الوصول إلى الظهران آنذاك . ولكنني ما أن بعثت بتقريري الصحفي الأول ، حتى أطلق أولئك الأصدقاء اللبنانيون أنفسهم العنان لسخريتهم من تلميحي بأن الأميركيين قد يذهبون فعلاً إلى الحرب في الخليج .

وفي إحدى الأمسيات بعد عودتي إلى بيروت ، كنت موضع توبيخ ودّي عابث من رئيس مجلس النواب اللبناني حسين الحسيني ، أثناء تناولنا العشاء . قال بصريح العبارة : «لن يذهب الأميركيون إلى الحرب . ما كانوا بحاجة إليه هو الحجة لإنشاء قواعد في الخليج . وقد نالوا تلك القواعد الآن . لن تقع الحرب» . إنها فكرة المؤامرة مرة أخرى . لقد أصبحت المؤامرة اليوم مقولة في مصاف الاعتقاد الديني تقريباً : لقد أراد الأميركيون أن يغزو صدام حسين الكويت . ألم يُعط صدام «الضؤ الأخضر» لاجتياح الكويت بواسطة السفيرة الأميركية في بغداد ، ابريل غلاسبي ، المرأة التي عملت من السفارة الأميركية في بيروت ، وكانت بالتالي معروفة جيداً من العديد من اللبنانيين؟ لقد أقنع اللبنانيون أنفسهم بتلك المقولة ، بحماسة وصدق نيّة ، بحيث تعذّر عليهم رؤية «الضؤ الأخضر» الآخر الأكثر قابلية للتصديق ، الذي قد تعطيه واشنطن بعد وقت قصير ، من أجل سحق حليف صدام في لبنان .

ومع ذلك ، كان عجز اللبنانيين عن إدراك حقائق أزمة الخليج مثيراً للحيرة . كنت في تلك الأسابيع من الصيف الحار ومطلع الخريف أتنقّل بين بيروت والمملكة العربية السعودية ، أتصبب عرقاً في الصحراء السعودية على طول الحدود مع الكويت ، وأنا أراقب تدفق حشود القوات الأميركية والبريطانية والفرنسية على هذا البلد الذي يضم أقدس أقداس الإسلام ، ثم أستقلّ الطائرة عائداً إلى لبنان لتمضية عُطل نهاية الأسبوع في سلام نسبي . وهناك ، أجد اللبنانيين ـ من رجال ونساء يتمتعون بحسّ شديد الحدّة بالتطورات المستقبلية في الشرق الأوسط ، وبقدرة على التكهن بتُّ أحترمها وأحسدهم عليها ـ أجدهم يصرّون مؤكدين على أن أي قتال لن ينشب في الخليج .

كان بوسعي إلى حد ما أن أفهم ذلك . فدول الخليج العربي كانت بالنسبة للبنانيين دولاً غير أصيلة بوجه من الوجوه ؛ ممالك صنيعة الغرب ، ذات حدود مُصطنعة ، ولا تاريخ لها . أما أرض لبنان ، إن لم تكن جمهوريته ، فكانت معروفة في العصور الغابرة . كانت أرضاً قديمة قبل مجيء الأمراء والشيوخ لاختراع دولهم في الخليج . وكانت هذه حقيقة بارزة في حضورها ، استحال عليّ إغفالها فيما كنت أتنقّل ذهاباً وإياباً بين الظهران وبيروت . فعندما عدت إلى لبنان ، كانت لا تزال تنتظرني بطاقة الهجرة اللبنانية التي ينبغي أن أملأ فراغاتها ، وأوراق الإقامة اللبنانية التي ينبغي أن أبرزها لمسؤول الجمارك ، والطابع الأميري الذي ينبغي أن ألصقه في جواز سفري . كان لبنان لا يزال موجوداً على الرغم من خمسة عشر عاماً من الحرب . قد يكون الفرنسيون قد اصطنعوا لبنان ، ولكن أحداً لم يكن يستطيع أن ينفي حقيقته حتى بعد عقد ونصف العقد من الحرب . في حين أن الكويت زالت من الوجود في غضون خمس عشرة دقيقة ـ وهو الوقت الذي استغرقته الدبابات العراقية للنزول إلى طريق المدينة الدائري في أولى ساعات النهار من يوم الثاني من آب/ أغسطس .

ولم تخفَ على اللبنانيين آنذاك إحدى سخريات القدر القليلة الأهمية . فعندما دخل جيش صدام إلى الكويت ، جرى تحرير السجناء السبعة عشر الذين كانوا معتقلين لمسؤوليتهم عن تفجير السفارتين الأميركية والفرنسية هناك ، في العام ١٩٨٤ ـ إنهم أعضاء حركة «الدعوة» الذين كان إطلاق سراحهم مطلباً رئيسياً من مطالب خاطفي تيري أندرسون اللبنانيين . كانوا جميعهم أعداء للعراق . وكان دعم الكويت لصدام حسين في حربه ضد إيران ، التي استغرقت ثماني سنوات ، القوة الدافعة وراء هجماتهم على السفارتين . ففي ساعات الصباح الأولى من يوم الثاني من آب/ أغسطس ، وعلى أثر هروب حرس سجن الكويت المركزي من مواقعهم ، فرّ هؤلاء المحكومون من سجنهم .

تخفّى العديد منهم وشقوا طريقهم إلى إيران عبر العراق ، في حين أن واحداً منهم على الأقل ،

يحمل الجنسية اللبنانية ، عاد إلى لبنان من طريق إيران . وقد أبدى أحدهم ، وكان خبير المتفجرات الذي صنع القنابل التي استُخدمت في الهجوم على السفارتين ، شجاعة مشهودة ، عندما التحق بالمقاومة الكويتية وراح يعلّم أفراد تلك المنظمة الناشئة كيفية إعداد القنابل الموقوتة ونصب الكمائن للمحتلين العراقيين . وفي لبنان ، أقرّ العلاّمة الشيخ محمد حسين فضل الله ، وهو أرقى المفكرين الدينيين في حزب الله ، بأن نبأ عودة أحد السجناء الكويتيين إلى لبنان ، قد تناهى إليه . وكان فضل الله بدوره ، من أصحاب الإيمان الراسخ الذي كان منتشراً على نطاق واسع في بيروت ، القائل بأن الأميركيين لا ينوون الذهاب إلى الحرب في الخليج .

حاولت خلال الأشهر التي سبقت الحرب ، أن أتحدث إلى خاطفي تيري أندرسون . طلبت لقاء مع مسؤولين في «حركة الجهاد الإسلامي» . كنت قد انتهيت من وضع كتابي «ويلات وطن» (الطبعة الأولى) الذي نُشر للمرة الأولى في بريطانيا ، وصدرت نسخة عنه طبق الأصل بالعربية ، في بيروت الغربية ، نُشرت كاملة على حلقات ، في صحيفة السفير ، إحدى أكثر الصحف شعبية في لبنان . وكانت رواية تاريخ لبنان الدامي متشابكة في الثلث الأخير من الكتاب ، مع رواية حياة تيري أندرسون في بيروت وعملية اختطافه . ولهذا ، رأيت أن على خاطفيه قراءته . لم يكن مقصوداً على الإطلاق أن يكون «ويلات وطن» وسيلة لمساعدة تيري ـ فقد بدأت أبحاثي لوضعه حتى قبل أن أتعرف عليه . لكنني شعرت بأن خاطفيه قد يصبحون سموحين أكثر تجاهه إذا فهموا أسباب مجيئه إلى لبنان ، وأسباب مجازفته بحياته من أجل أن ينقل للعالم إحدى مآسي لبنان . لهذا السبب أرسلت لهم نسخاً بالعربية ، مع نسخة بالإنكليزية من أجل تيري على أمل أن يعطوه إياها .

ولكن الهجوم العراقي على الكويت جعل مثل هذه المساعي تحركات تكاد أن تكون بلا أهمية ؛ فقد غيّر الاجتياح في أبعاد الشرق الأوسط ، ووضع معاناة الرهائن الغربيين ـ التي لا تُذكر مقارنة بمعاناة المعتقلين العرب في لبنان ، فضلاً عن معاناة العرب في الكويت ـ في سياق جديد مُفعم بالأمل أكثر من أي وقت مضى : فقد أصبح أفراد حركة «الدعوة» أحراراً .

أغلب الظن أن باب السجن يمكن أن يُفتح لتيري الآن ، بعدما استوفت حركة الجهاد الإسلامي مطالبها عملياً . فلماذا تواصل الحركة احتفاظها بتيري وبتوماس ساثرلاند وتيري ويت وجون مكارثي ، بعدما أصبح السجناء في الكويت أحراراً؟ لكننا كنا قد نسينا بالطبع المطلب الآخر لحركة الجهاد ، الذي يقضي بإطلاق سراح المئات من الشيعة المعتقلين بلا محاكمة في سجن إسرائيل الشهير ببلدة الخيام في جنوب لبنان . فبعدما أتاح اجتياح صدام حسين للكويت ، من طريق الصدفة ، تحرير السجناء السبعة عشر هناك ، احتلت قضية الأسرى ، من رجال ونساء ، في سجن الخيام ـ الذين

يتعرضون للتعذيب ، وتعتقلهم إسرائيل بلا محاكمة ، وتحتفظ ببعضهم منذ سنين طويلة لمجرد الشك باشتراك عائلاتهم في المقاومة ـ احتلّت مكانة أقرب إلى رأس قائمة أولويات حركة الجهاد الإسلامي .

ففي تلك الآونة ، راحت كل رهينة يقنعها الخاطفون بتسجيل مناشدة على شريط فيديو ، تطالب في ندائها بإطلاق سراح سجناء معتقل الخيام . وهكذا ، عوضاً عن المعتقلين السبعة عشر في الكويت ، بات مطلوباً مبادلة المئات من المعتقلين بالرهائن الغربيين الذين فُقدوا في لبنان .

ومع ذلك ، بدت نهاية عذاب تيري أندرسون وشيكة . صحيح أن عاماً ونيفاً سوف يمرّ قبل أن نرى تيري ، ولكن غزو صدام للكويت أحدث انقلاباً سياسياً وعسكرياً مفاجئاً وعنيفاً ، سوف يؤدّي في النهاية إلى فكّ أغلال الرهائن الغربيين في لبنان . فقد أُجبر الرئيس جورج بوش على اللجوء إلى الأمم المتحدة لاعتراض العراقيين ـ إذ إن انتهاء الحرب الباردة أعاد للأمم المتحدة حظوتها عند الأميركيين بعدما كانت لوقت طويل محط ازدراء واشنطن ، التي طالما اعتبرت المنظمة الدولية مطيّة لأحقاد العالم الثالث . وإزاء هذا التحوّل ، فإن المنظمة الدولية ـ التي يكابد جنودها في جنوب لبنان ، وأحياناً تحت نيران القصف الإسرائيلي ، من دون أن تتحقق بعد المهمة التي أنتُدبوا من أجلها ـ ستحوز الآن على الاحترام الذي طالما طالبت به . وقد أدركت الجماعات التي تمارس الخطف في لبنان معنى هذا الأمر ، كما أدركه مؤيدوها الإيرانيون . فإذا كان يمكن استخدام الأمم المتحدة من أجل تحرير الكويت ، سيكون بالإمكان استخدامها أيضاً لتحرير الرهائن في لبنان ـ وليس الغربيين منهم وحسب ، إنما المئات من الرجال والنساء في سجن الخيام أيضاً .

ومع ذلك ، كانت وحدة لبنان شرطاً أساسياً أيضاً لإطلاق سراحهم . وما دام عون في بعبدا ، وحكومة الرئيس الهرواي الجديدة في عزلة بفندق السمرلاند في بيروت الغربية ، غير قادرة على ممارسة الحكم ، لن يتحقق أي تقدم في قضية الرهائن . لقد كان عهد الرئيس الهراوي أول حكم لبناني يعكس سلطة سوريا في لبنان ، وكان على هذه السلطة أن تُمارس الآن . فأي حل سياسي في لبنان لن يكون ممكناً بدون سوريا ـ مثلما أن أي ائتلاف عربي ضد صدام حسين لن يكون مكتملاً بدون سوريا ـ وقد تقبّل الأميركيون هذه الحقيقة منذ زمن طويل ، كأمر لا بد منه .

منذ أولى أيام غزو الكويت ، دان الرئيس حافظ الأسد عدوان أعدائه البعثيين القدامى في بغداد ، وأعلن على الملأ أن احتلال صدام حسين للكويت مأساة للعرب ، وخصوصاً للفلسطينيين ، الذين انتقصت أزمة الخليج من قيمة انتفاضتهم ضد الحكم الإسرائيلي في الضفة الغربية وقطاع غزة . وفي غضون أسبوع ، كانت سوريا قد أرسلت إلى العربية السعودية فرقة من المدرعات للدفاع عن المملكة

في ظاهر الأمر ، ضد أي هجوم عراقي . وقد شاهدتُ تلك الفرقة لدى وصولها إلى ميناء يُنبع على البحر الأحمر . كانت دباباتهم ومدفع الشيلكا المتحرك المضاد للطائرات ، تسير في ركب المدفعية المضادة للطائرات ، التي نُقلت إلى الخليج من مرفأ اللاذقية ، على متن سفينة ايطالية مجهّزة لنقل العربات .

كانت تلك الوحدات السورية قد حاربت في الجولان في العام ١٩٧٣ ، لكن معظم الجنود كانوا قد حاربوا في لبنان أيضاً . حتى أنني عندما قمت بزيارة وحداتهم في الصحراء ، على مقربة من الحدود الكويتية ، تعرّفت على بعض جنود القوات الخاصة الذين سبق لهم أن خدموا في بيروت . والتقيت أيضاً محاربين سوريين قدامى ، قاتلوا أثناء الغزو الإسرائيلي للبنان في العام ١٩٨٢ . وكان عدد منهم قد نجح في صدّ هجوم المدرعات الإسرائيلية في عين دارة ، المعركة الجبلية الشرسة التي شهدتها بنفسي قبل ثماني سنوات . لقد انضمت القوات السورية إلى قوات التحالف الدولي ، وآن الأوان الآن ، لتُبدي الولايات المتحدة التزامها لسوريا . فإذا كان ممكناً لسوريا أن تلبي مطالب واشنطن في الخليج ، ينبغي أن تلبي واشنطن مطالب سوريا في لبنان . كنا ، لارا مارلو وأنا ، كثيراً ما نسافر معاً إلى الخليج ، خلال ذلك الصيف المُحرق ، ولكنني كنت وحدي في العربية السعودية خلال الأسبوع الثاني من تشرين الأول/ أكتوبر . كان الأميركيون ما زالوا يتدفقون بالآلاف يومياً على مدينة الظهران ، لكن أنظار العالم كانت مشدودة إلى العراق ، حيث كان صدام يحتفظ بالآلاف من الغربيين كرهائن ، ومعظمهم كان محتجزاً في القواعد الجوية والمعامل النووية ، التي كانت أهدافاً محتملة لقاذفات قوات التحالف الدولي في حال نشوب الحرب . وعندما خابرتني لارا من بيروت وسألتني بلهجة مرحة ، لـمَ لا آتي لتمضية عطلة نهاية الأسبوع ، استقليتُ طائرة تابعة لطيران الشرق الأوسط وعدتُ إلى لبنان في ١٢ تشرين الأول/ أكتوبر ، لأجد أن العاصمة كانت كل شيء إلا ملتجأ للسكينة في عطلة نهاية الأسبوع . كانت الدبابات والمدفعية السورية تتقدم لتدخل إلى الضواحي الجنوبية ، إلى حيّ السلّم وبئر العبد والشياح ؛ تلك المناطق نفسها التي يُحتجز فيها تيري أندرسون ورفاقه من الرهائن . لقد كان السوريون يتأهبون مرة أخرى لشن هجوم على جيب الجنرال عون .

كان من الصعب تصديق الأمر . فقد أُنذرنا منذ وقت طويل بأن السوريين سيطردون الجنرال من بعبدا ـ وكنّا قد استغرقنا في مراقبة استعدادات سورية مماثلة في كانون الأول/ ديسمبر الماضي ـ بحيث بدا الأمر الآن مجرد خدعة تستهدف إقناع عون بمغادرة حصنه سلمياً . لكنه في تلك الليلة خرج مرة أخرة كالمخلّص لملاقاة المئات من مؤيديه الموارنة في بعبدا ، «درعه البشري» كما كان يُحب أن يسميهم ـ فالجنرال ، مثله مثل صدام حسين ، كان يُدرك أهمية وضع المدنيين بينه وبين

أعدائه ، حتى ولو أن المسيحيين اللبنانيين أعلنوا استعدادهم للشهادة . وكان عون قد أعلن أنه يُفضل الموت على أن يستسلم لأعدائه السوريين . ولكن قبيل منتصف الليل ، حاول شاب شيعي اغتياله ، فألقي القبض عليه وضُرب ، واقتيد من الساحة ـ وما كان من عون إلا أن طلب من مؤيديه مغادرة بعبدا والعودة إلى بيوتهم .

فجر اليوم التالي ، كنت نائماً في سريري عندما تناهى إليّ دويّ سلسلة من الانفجارات . سمعت أصوات طائرات نفاثة ، ثم صوتاً مشؤوماً يُنذر بما هو أعظم ؛ صوتاً كالرعد ، بدأ خفيفاً ثم راح يزداد قوة كما لو كان زلزالاً . واشتدّت حدّة الصوت حتى لم أعد أستطيع أن أسمع صوت البحر وهو يغمر الصخور أمام بيتنا . أسرعت إلى الشرفة ، وشعرت بالمبنى يرتجف برفق يكاد لا يُستشعر ؛ شعرت ببيروت يرتعش كيانها . كانوا رجالاً ونساء ، يقفون على الكورنيش ويحدقون شرقاً وقد تسمّروا في أماكنهم من وقع ما يشاهدون . تطلعت نحو صنين . كانت شمس الفجر تخترق الوديان بين القمم ، وهناك ، ناحية المتن ، كانت كُرات النار الذهبية المتوهجة تتالى وتقرّح التلال ، فيما الدخان ينساب من غابات الصنوبر . وكان يصعب التمييز بين القذيفة والأخرى في الهدير الخافق بلا انقطاع . كان صدام حسين على وشك أن يخسر حليفه اللبناني . لقد بدأت أولى معارك حرب الخليج .

هاجم السوريون مقرّ عون المحصّن من الجو ، مستخدمين طائرة سوخوي قديمة لقصف بعبدا ، في مطلع صباح يوم الثالث عشر من تشرين الأول/ أكتوبر . واستسلم الجنرال على الفور تقريباً . فرّ في عربة مصفّحة إلى منزل السفير الفرنسي ، حيث أصدر على الفور أوامره إلى جنوده بالاستسلام . وما أن فعل حتى تقدمت القوات السورية من بيروت الغربية ، وعبرت خط المواجهة القديم برفقة وحدات من الجيش اللبناني تابعة للعماد لحود . وطوال ساعات كنا ، لارا وأنا ، نراقب الجبال تحترق حول بعبدا ، ونحن رابضين بالقرب من جنود لبنانيين من جيش الهراوي في شرق المدينة ، فيما كانت تنفجر آخر قذائف عون بالقرب من نهر بيروت . أصيب المسيحيون بالذهول من كثافة القصف المدفعي ضد الجنرال ، ومن استسلامه الفوري . فكم من مرة تعهّد عون أن يسقط وهو على سلاحه ، على أن يستسلم إلى السوريين؟ ومع ذلك ، وفيما كانت الدبابات السورية تتقدم إلى قصره ، اختار أن يحتسي القهوة مع السفير الفرنسي ، ويلتمس اللجوء في الحرم الدبلوماسي الفرنسي ، إلى أن سُمح له بالمغادرة إلى المنفى في مرسيليا ، بعد نحو سنة .

لكن العملية العسكرية التي أطاحت ميشال عون أخفقت إخفاقاً شنيعاً في الجبال خلف بعبدا . ففي الساعات الأولى التي تلت استسلام الجنرال ، زعمت حكومة الهرواي أن الخسائر في الأرواح بلغت ٣٦ قتيلاً فقط . وكان هذا الرقم متدنياً إلى حد لافت قياساً بحدة المعركة وإن كانت قصيرة .

وقد سارعت قوات إميل لحود إلى السيطرة على الطرقات السريعة الرئيسية في شرق المدينة ؛ وشاهدتُ الدبلوماسيين العراقيين وهم يلقون بحقائبهم في صناديق سياراتهم وينطلقون بسرعة فائقة عبر حواجز الطرق اللبنانية والسورية باتجاه مدينة جونية . وقد صادفنا خارج وزارة الدفاع في الحازمية ، وكانت مقر قيادة قوات العماد عون ، العشرات من العائلات المسيحية تقف وسط الدمار . كانوا رجالاً ونساء وأطفالاً ، وكانوا جميعاً ينتحبون . اعتقدنا للوهلة الأولى أنهم يبكون إطاحة الجنرال إلى أن اقتربت مني إحدى الراهبات ، بالقرب من منزل السفير الفرنسي وسألتني : «هل شاهدت جثث رجالنا»؟ أي جثث؟ «الجثث في مستشفى بعبدا . لقد قُتلوا بدم بارد . لقد قتل السوريون جنودنا» .

كانت الكهرباء مقطوعة منذ أيام عديدة في الطبقة السفلية تحت الأرض لمبنى برّاد جثث الموتى . كانت الرائحة المنُتنة طاغية حتى لمن يقف في الباحة ؛ تلك الرائحة القديمة المعهودة والمخيفة للجثث المتحلّلة ؛ حملت إحدى الممرضات قنديلاً كهربائياً وقادتني إلى مكان حفظ جثث الموتى المُعتم . كانت جثث العشرات من الشبان ملقاة على الأرض وعلى الطاولات المحطمة ، وكانت الرائحة المُنتنة مرعبة ، لكن المضامين كانت تفوقها ترويعاً . لقد قُتل العديدون منهم بإطلاق النار على الرأس من الخلف . وفي حين أن بعضهم كان لا يزال ببزته العسكرية ، كان عدد كبير آخر عارياً إلا من سرواله الداخلي . قالت الممرضة : «قطعنا الحبال التي كانت تقيّد أياديهم» .

اكتشفت أن معظم الجثث جيء بها إلى برّاد جثث الموتى من تلّة تقع شرقي بعبدا ، وتُعرف باسم ضهر الوحش . كان اسماً مشؤوماً ملائماً . وأخبرني مُقدَّم في جيش لحود تقدّم مع قواته إلى بيروت الشرقية مع السوريين ، أنه تعرّض لإطلاق النار من ضهر الوحش ، ثم ما لبث أن وجد فيما بعد مجموعة من القوات السورية تأمر عدداً من الأسرى من جنود عون بخلع ملابسهم فيما كانت هناك ثلاث جثث على الأرض ، عارية إلا من السروال الداخلي . قال المقدم : «اضطررنا إلى منع السوريين من إعدام هؤلاء الرجال . كان السوريون قد مُنيوا بخسائر فادحة خلال هجوم مضاد شنّه رجال عون . وكانوا الآن ينتقمون» .

كان ضهر الوحش جُرفاً مدمّراً من شجر الكرمة والجلالي ، حرثته الانفجارات ـ مكاناً من التراب الرمادي وجذول الأشجار المتكسّرة وكتل الشظايا الضخمة . وكانت ملقاة هناك ، في وسط ذاك الخراب ، قطع من البزّات والجزمات العسكرية السورية والضمّادات . ولم يطل بي الأمر لأكتشف أن ساحة المعركة الصغيرة تلك شهدت مجزرة مزدوجة . فقد اختار السوريون متن ضهر الوحش طريقاً للوصول إلى بعبدا ، وقد شقّ ما لا يقل عن ألف جندي سوري من المشاة طريقهم إلى قمة التلة بعد إعلان عون استسلامه فجر يوم الثالث عشر من تشرين الأول/ أكتوبر . وما أن بلغوا هذا المكان حتى

فتح رجال عون المتمركزون هناك النار على السوريين مستخدمين قنابل الهاون والمدفعية الخفيفة ، وتمكّنوا منهم في ذلك المكان المكشوف .

صادفت جندياً سورياً كان يقف على دبابته من طراز T-62 ، ببزته العسكرية الموحلة المغطاة بالتراب . كان صريحاً تماماً بشأن ما حدث . قال «كان من المفترض أن تكون قوات عون قد استسلمت . فقد كانوا يرفعون العلم الأبيض . لكنهم هاجمونا فقتلناهم» . بعد عدة أشهر أخبرني أصدقاء سوريون في دمشق أن جيشهم فقد ١٦٠ عنصراً في ضهر الوحش . وقال لي أحدهم : «كان جنودنا يشقون طريقهم إلى التلة متراصّين . كانوا يعتقدون بأن القتال انتهى . ثم أقدمت قوات عون على انتهاك وقف النار الذي كانت قد أعلنته من جانبها ، وفتكت بجنودنا . كان العديد من جرحانا يصرخون ويحاولون الهرب ، لكنهم دخلوا حقل ألغام ، كانت تلك الموقعة جريمة حرب . ولهذا ، عندما وصل السوريون إلى موقع جنود عون اللبنانيين أعدموا جميع الذين عثروا عليهم باعتبارهم جنوداً غير نظاميين» .

وقد ادعى المسيحيون اللبنانيون أن جنود عون ـ الذين قُتل نحو مئة منهم على الأرجح ـ لم يسمعوا بوقف إطلاق النار ، وأن إعلان الجنرال الاستسلام ، الذي بُثّ من كل المحطات الإذاعية في بيروت ، لم يُلتقط في ضهر الوحش . وفي وقت لاحق ، أخبرني جندي لبناني أن السوريين أعدموا ضابطاً من قوات عون يدعى إميل بطرس ، بإرغامه على التمدّد على الطريق ، ثم قادوا دبابة عليه . وعندما سألنا ألبير منصور ، وزير الدفاع في عهد الهراوي ، عن حقيقة ما حصل في ضهر الوحش ، وضع يديه على وجهه وتوسّلنا قائلاً : «لا تسألوني هذا السؤال . أرجوكم ، لا تسألوني هذا السؤال» . وفيما بعد ، قال منصور إن مجزرة مزدوجة وقعت هناك . وبدا ما قاله قريباً جداً من الحقيقة .

وفي الأيام التي تلت ، انتقل عملاء المخابرات السورية إلى بيروت الشرقية . ولكن ميليشيا سمير جعجع الكتائبية لم ترتدع إلا بوصول منافسه إيلي حبيقة على رأس قواته المسيحية الموالية للسوريين . أما داني شمعون ، عدو الكتائب القديم ، الذي كان مؤيداً لعون ، فقد اغتيل بوحشية في منزله في بيروت الشرقية . قتله مسلّحون اقتحموا شقته فيما كانت العائلة تتناول طعام الفطور ، وأطلقوا النار عليه وعلى زوجته وولديه الإثنين . لم يدّعِ أحد مسؤوليته عن العملية . لم تحصل توقيفات . إنها القصةُ إياها . لكن نمط عملية القتل كان مطابقاً لنمط عملية اغتيال الكتائبيين النائب طوني فرنجية مع زوجته وطفلته في العام ١٩٧٧ .

لكن الرئيس الهراوي لم ينتقل إلى بعبدا على الإطلاق . وأُعلن أن قصراً جديداً للرئاسة سوف

يُشيّد على خط المواجهة القديم في وسط بيروت ، كرمز للمدينة التي ستكون موحدة من حينها فصاعداً . أما العماد عون فقد راح يوزع سراً من منفاه أشرطة مسجلة على المتعاطفين معه من المسيحيين ، يدعوهم فيها إلى مواصلة المقاومة ضد سوريا وحكم الياس الهراوي . لكن إطاحة الجنرال اللبناني المتمرّد لم يكن لها مفعول الإنذار بالنسبة للزعيم العراقي . وفي غضون أقل من أربعة أشهر ، سوف يُصرع جنود صدام حسين بكفاءة تقنية على تلة أخرى أثناء تقهقرهم من صحارى الكويت .

في غضون أيام على وقف إطلاق النار في حرب الخليج ، بين العراق والحلفاء ، اجتمع المناوئون لصدام حسين في بيروت من أجل ترتيب مسألة نهايته السياسية والعسكرية . ونقلت الحكومة السورية رجال دين من الشيعة العراقيين وزعماء للتنظيمات الكردية المقاتلة إلى بيروت بواسطة الباصات . وقد جلس هؤلاء مع جنرالات عراقيين سابقين من الشرطة السرية البعثية لتخطيط إطاحة صدام . وجاء أيضاً من مدينة البصرة جنوب العراق أحد رجال الدين الشيعة ليبلغ المجتمعين عن تفاصيل الانتفاضة ضد الحرس الجمهوري العراقي ، في حين قدّم رئيس الاتحاد الوطني الكردستاني ، جلال الطالباني ، تقريراً موجزاً عن تقدم حركة التمرد الكردي في شمال العراق . لكن الوفود ، في جوّ الأناقة الذاوية لحجرة التدخين في فندق البريستول ، التي اختارها السوريون مكاناً للاجتماع ، لم يتكلموا يومذاك إلا عن الخيانة . عن خيانتهم لبعضهم بعضاً ، وخيانة الدول العربية ، وأكثر من كل شيء آخر ، عن خيانة الحلفاء الغربيين الذين كانوا من شجعهم على العصيان المسلّح .

إلا أن اجتماعهم في بيروت كان على الأقل تأكيداً على أن المدينة دخلت مرحلة أخرى في مسار عودتها إلى شكل من أشكال الحالة السويّة المعهودة . ففي العقود التي سبقت نشوب الحرب في لبنان في العام ١٩٧٥ ، كانت بيروت عادة المكان الذي يجتمع فيه المتآمرون والثوار . ففي بيروت اجتمع العراقيون المناوئون للملكية في عهد الملك فيصل . وفيها اجتمع الناصريون للتآمر على تقويض حكم الملك فاروق . وقد اجتمع الشيعة المؤيدون لإيران في فندق البريستول عينه ، قبيل غزو الكويت ، للدعوة إلى إطاحة النظام السعودي .

لكن تلك الدعوة بالذات لن تُسمع مرة أخرى في بيروت . فغداة هزيمة العراق ، راح الرئيس الإيراني علي أكبر هاشمي رفسنجاني يسعى لكسب صداقة الدول العربية في الخليج عوضاً عن عداوتها . في حين أن حجة الإسلام علي أكبر محتشمي ، وزير الداخلية الإيراني السابق ، الذي ساهم في إنشاء حزب الله في لبنان ، وجد نفسه موضع هجوم من تلك الجهات في القيادة الإيرانية التي

كانت ترغب بوضع حد لسنوات الشك والقطيعة بين طهران والغرب . وسوف يخسر محتشمي مقعده في البرلمان الإيراني في نيسان/ أبريل ١٩٩٢ .

في تلك الأونة كانت هناك قوى من خارج لبنان ، ذات سطوة ونفوذ ، تعمل من أجل وضع حدّ لمعاناة الرهائن الغربيين ، وأسرى سجن الخيام أيضاً ـ كما بدا الأمر في ذلك الوقت . فكان أن أطلقت حركة الجهاد الإسلامي الرهينة جون مكارثي متأثرة ببسالته وشهامته ، وحمّلته رسالة موجهة إلى الأمين العام للأمم المتحدة في حينه ، خافيير بيريز دي كويلار ، تطلب فيها وساطته لإطلاق سراح كافة السجناء في لبنان ، من غربيين وعرب . وقد عاد مكارثي إلى بريطانيا ليُخبر بأن تيري ويت كان على قيد الحياة ـ فقد كان محتجزاً مع ويت وتيري أندرسون وتوم ساثرلاند ـ وأن أندرسون أصبح قائد الرهائن في سجنهم ، والمتحدث باسمهم . وفيما راح حزب الله يسعى ، متعمداً لفت الأنظار ، من أجل إطلاق بقية الرهائن ، كان الرئيس الجديد لمجلس شورى الحزب ، الشيخ عباس الموسوي ، يتحدث علناً عن مشاركة حزب الله الممكنة في الانتخابات النيابية اللبنانية في المستقبل .

وراح السوريون أيضاً ، في تلك الآونة ، يتحدثون بمزيد من التفاؤل عن قدرتهم على تحرير الرهائن الغربيين . فالولايات المتحدة لم تبدِ أي اعتراض عندما أقدمت سوريا على تعزيز انتصارها في لبنان بأمر واقع عزيز على كل تلك الأنظمةَ العربية التي كانت تستلهم الاتحاد السوفييتي السائر إلى زوال : معاهدة صداقة . وفي الحقيقة ، لم تكن معاهدة صداقة وحسب ، بل «معاهدة أخوة وتعاون وتنسيق» أوقعت اقتصاد لبنان ودفاعه وأمنه بطريقة محكمة في شَرَك اقتصاد سوريا ودفاعها وأمنها . وهكذا ، من حينه فصاعداً ، سيكون عدو سوريا عدواً للبنان ؛ وما يُنذر بالمزيد من السوء للذين يعارضون استمرار الوجود السوري في لبنان ، أنهم سوف يُعتبرون الآن أعداء لسوريا . وقد سلّمت المعاهدة بكون لبنان دولة ذات سيادة ـ وكانت المرة الأولى التي تقّر فيها سوريا رسمياً بشرعية لبنان بهذه الطريقة . ولكن الإتفاقية لم تعادل ضم لبنان إلى سوريا كما سارع وادّعى منتقدو الرئيس حافظ الأسد آنذاك .

مع ذلك ، حوّلت المعاهدة لبنان إلى شبه محمية سورية وإلى حدّ أن بيروت سوف تتكلم دائماً بالصوت نفسه الذي تتكلم به دمشق ، وسوف تتبنى دائماً السياسات نفسها التي تنتهجها دمشق بخصوص محادثات السلام العربية ـ الإسرائيلية وشؤون الشرق الأوسط الأخرى . لقد حاولت إسرائيل في يوم من الأيام أن تحوّل لبنان إلى دولة تابعة لها من خلال تنصيب حكم كتائبي وفرض تمرير معاهدة «سلام» غير رسمية مع اللبنانيين في ١٧ أيار/ مايو ١٩٨٣ . لكن المعاهدة ما لبثت أن أُبطلت في وقت لاحق . وقد حرص الرئيس الأسد ، ذو الحسّ الحاد بتوقيت الأمور ، على إفهام

إسرائيل مذلّتها عندما بادر إلى إبرام معاهدته الخاصة مع لبنان ـ فقد اختار أن يعلن النبأ بعد مرور ثماني سنوات بالضبط على ذلك اليوم الذي ظنّت فيه إسرائيل بأنها قد ضمنت لبنان . فمن الآن وصاعداً ، سيكون هناك «اتفاق ١٧ أيار» آخر ، لكنه سيكون اتفاقاً مع سوريا هذه المرة .

على صعيد آخر ، ضمنَ تفاهم مستجد بين دمشق وطهران مواصلةَ حزب الله مطالبته بإطلاق سراح الرهائن ، الغربيين واللبنانيين على حد سواء . وربما كانت رغبة الحزب المستجدة بإنهاء معاناة الأسرى قد بدت متناقضة وتنطوي على نفاق بالنسبة لأولئك الذين طالما اعتبروا أن حركة الجهاد الإسلامي وغيرها من المجموعات التي تمارس الخطف ، لم تكن أكثر من جماعات تابعة تدور في فلك حزب الله . ولكن الحزب كان آنذاك يستجيب للأحداث بطريقة مماثلة إلى حد بعيد لاستجابة السوريين والإيرانيين . كان زعيم حزب الله آنذاك ، «السيد» الموسوي ـ الذي أعطي هذا اللقب لأنه كان يعتبر من سلالة النبي . ولم يكن الموسوي قد تجاوز التاسعة والثلاثين عندما تولى رئاسة التنظيم . كان ممتلئ الجسم قليلاً . وكانت نظارتاه باطارهما الثقيل ، وخصلة شعره المعقوصة الناتئة من تحت عمامته ، على طريقة رفسنجاني ، تجعله يبدو كما لو كان طالباً ، وهو الذي أمضى عشر سنوات في الحوزة العلمية في مدينة النجف في العراق .

كان الموسوي في تلك الآونة رجل رفسنجاني في بيروت ؛ كان شخصية أكثر أهمية من الدبلوماسيين الإيرانيين في لبنان ـ وفيما كانت صورة آية الله الخميني تزيّن جدار مكتبه في ضاحية بيروت الجنوبية ، كانت صورة رفسنجاني موضوعة على مكتبه . كان الموسوي محدّثاً يختصر كلماته لكنه كان يبوح بأكثر مما يقول . وخامرني الشعور بأنني أمام رجل لا بد أن يكون قد اقترب من فهم ذهنية أولئك الشبان الذين ضحّوا بأنفسهم في عمليات التفجير الانتحارية ضد الأميركيين والفرنسيين والإسرائيليين في لبنان .

وفيما كان الموسوي ينفي دائماً تورط الحزب في عمليات الخطف ، إلا أنه كان مستعداً لأن يناقش معي الأسباب الكامنة وراء عمليات خطف الغربيين واللبنانيين على حد سواء . قال لي في يوم من أيام تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٩١ : «بدأت مشكلة الخطف هذه في لبنان كممارسة روتينية بين المسيحيين والمسلمين اللبنانيين قبل ستة عشر عاماً عندما اندلعت الحرب . استخدم المسيحيون والمسلمون الخطف للضغط على بعضهم بعضاً . . . ولكن ما لبثت أميركا والغرب أن تورطوا في الحرب اللبنانية ، جاؤوا لمساعدة المسيحيين الموارنة والاجتياح الإسرائيلي ، فأصبحوا بذلك جزءاً من الصراع الداخلي في لبنان . وبدأ المسلمون يشعرون بالاختناق من الغرب . وعندما بات هذا شعور الناس تجاه الأميركيين والغرب ـ وفي الوقت الذي سادت فيه الفوضى هنا ـ أصبح ممكناً لأي كان أن

يؤلف مجموعة صغيرة أو «خلية» . كان الواقع أن تأييد الغرب لإسرائيل خلق أوضاعاً جديدة ، من بينها الوضع الذي راح فيه الغربيون يتعرضون للخطف . وبالنسبة لنا في حزب الله ، كانت سياستنا الاستراتيجية الثابتة هي هي دائماً ـ أن نطرد إسرائيل من جنوب لبنان وأن نطرد أيضاً القوى الغربية من لبنان . إننا في حزب الله مسؤولون عن ضبط عناصرنا . لكننا لسنا مسؤولين عن ضبط الجميع . إن هذا ليس في مقدورنا . . .» .

وإذا كان الشيخ عباس قد امتنع آنذاك عن تقديم المزيد من الايضاحات حول ممارسة الخطف ، فإنه لم يُبد مثل هذا التحفّظ في شرحه لمبادئ الشهادة . فقد أثنى على تفجير قواعد المارينز الأميركيين والمظليين الفرنسيين في تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٨٣ ـ وسمّاها «عمليات استشهادية» . إلا أنني طوال حديثنا ، الذي استغرق أربع ساعات ، ثابرت على سؤاله تكراراً ، كيف يمكن رجلاً أن يفجّر نفسه أشلاء ، وما الذي يحثّه على تلك الرغبة بالاستشهاد؟

تكلم الشيخ عباس الموسوي بصوت خافت ـ خافت إلى حدّ كان عليّ أن أنحني إلى الأمام لكي التقط كلماته ـ لكن صوته كان يخلو من التردد . قال : «قد يقع رجل في حب امرأة خلال حياته . وقد تجيء مرحلة في هذا الحب يفكر فيها بالانتحار . وهذا باطل ولا طائل تحته . ومع ذلك ، يفكر الرجل بهذه الطريقة ـ بسبب من حبه لشخص ما . فإذا كان يفكر بهذه الطريقة بسبب من أمر تافه ـ بسبب من حب لشخص ما ـ كيف لنا أن نتجاهل العلاقة الحقيقية بين الإنسان والله؟ إن للمسلم علاقة خاصة مع الله ، ونسمّيها علاقة بين معشوقين . . . النبي محمد ﷺ ، وكافة أتباعه من المسلمين ، كانوا يؤمنون بأن علاقتهم كانت تقوم على «الذوبان» ، على التوحد مع الله . . . وفي الوقت نفسه ، فإن المسلم الحقيقي يرى إلى وجوده في هذا العالم حاجزاً بينه وبين الله ، وأن هذا العالم لا قيمة حقيقية له . إلى أي سنّ يعيش الإنسان؟ مئة عام ربما؟» وراح مسؤولو حزب الله الآخرون في مكتب الشيخ عباس ، يهزّون برؤوسهم علامة الموافقة ، وكأنهم اكتشفوا فجأة طبيعة الحياة المؤقتة . وتابع الشيخ قائلاً : «في العالم الآخر ، سوف يعيش الإنسان أمام الله إلى أبد الآبدين . فهناك السعادة والحياة الأبدية . إن الرضا الذاتي وراحة البال موجودان هناك في العالم الآخر . وعندما يبلغ المسلم هذه المرحلة من الوعي ، سيحاول أن يكسر كل الحواجز ليصبح أبدياً ـ والشهادة هي الطريق إلى كسر هذا الحاجز . لذلك ، عندما يذهب المسلم إلى الحرب ، يأمل بالشهادة ويسعى إليها . فإذا أحرزها ، يكسب الكثير في هذا العالم ـ لكنه يكسب أكثر في العالم الآخر . هل تذكر كيف وُصف الذي دمّر قاعدة المارينز الأميركيين هنا؟ قالوا إن ابتسامة كانت تعلو وجهه فيما كان يفجّر نفسه» .

أجل ، كان هذا ما قالوه . فقد وصف الجندي كالهون ، وكان برتبة وكيل عريف في المارينز ، في

السابعة والعشرين من عمره ، مكلفاً حراسة المقّر رقم٧ ، وصف كيف أن زميله الأميركي لمح المهاجم الانتحاري في يوم ٢٣ تشرين الأول/ أكتوبر ، واستعاد كيف «أن كل ما استطاع أن يتذكره هو تلك الابتسامة التي كانت تعلو وجه الرجل عندما مرّ بهما بشاحنته» . هل كان هذا ما يفكر فيه ذاك الشاب المبتسم عندما مرّ بالجندي كالهون متوجهاً إلى تفجير نفسه رذاذاً فجّر ذلك اليوم الخريفي؟ هل كان يفكر بالأبدية ، بكسر الحواجز بين الإنسان والله؟ هل كان يفكر بأن ليس لهذا العالم أي قيمة حقيقية؟ هل كان يسعى إلى صيغة إسلامية لبنانية لـ «تقمّص الروح»؟

رحت أبحث عن إجابة على هذا السؤال . لماذا تحدو شاباً تلك الرغبة بالموت؟ سألت الشيخ عباس . أخبرته عن أبي الذي قاتل في حرب ١٩١٤ ـ ١٩١٨ ضد ألمانيا ، والذي كان يمكن أن يموت على الجبهة الغربية في فرنسا لو كان قليل الحظ . أخبرته بأنه لم يكن يرغب بالموت ، وأنه ما زال حياً اليوم في سنّه الثانية بعد التسعين ، لأنه كان يرغب بالحياة عندما كان جندياً . وأعتقد أن زعيم حزب الله لم يستسغ تلك المقارنة . قال : «أنت تعطي مثلاً بوالدك . لكنه لو كان مسلماً لفكّر بالشهادة وليس بالحياة . وأنا لا أتوخى الكياسة عندما أقول هذا الكلام ـ بل أتوخى الموضوعية» .

ولكن الموضوعية لم تكن أمراً من السهل إيجاده في ذاك الخريف . فقد كان زمن الانفعالات الشديدة . كان الرهائن الغربيون في طريقهم إلى ديارهم ـ مكارثي وتيري ويت وتوم سائرلاند . وكان الإسرائيليون قد أطلقوا على مضض أسرى سجن الخيام ، على دفعات قليلة ، مطالبين بالمقابل ، بمعلومات عن جنودهم السبعة المفقودين . وقد شاهدت بنفسي عودة تسعة رجال من سنوات الأسر الطويلة ، ولقاءهم بعائلاتهم في مسجد الرسول الأعظم على الطريق المؤدّي إلى مطار بيروت . كانوا يلقون بأنفسهم بين أذرع آبائهم وأمهاتهم وهم ينتحبون ويصرخون فيما كان أشقاؤهم وشقيقاتهم يتحسّسون شعورهم وأذرعتهم وأرجلهم ، يتحسّسون كل جزء من أجسادهم للتأكد من أنهم قد باتوا أحراراً . وأعيدت لإسرائيل من طريق النمسا رفات أحد الجنود الإسرائيليين ـ الذي قُتل عندما قصف سلاح الجو الإسرائيلي دون أن يدري السجن الذي كان محتجزاً فيه ، في العام ١٩٨٣ . وقف يومذاك ضابط فلسطيني بجانب جنرال إسرائيلي في براد حفظ الجثث في ڤيينا ، أثناء عملية التحقق من هوية الجثة . لكن بوابات سجن الخيام ما لبثت ان أُغلقت مرة أخرى .

فقد أصرّ حزب الله على أن تسلّمه إسرائيل عبد الكريم عبيد ، إمام جبشيت ، الذي اختطفه الإسرائيليون في ٢٨ تموز/ يوليو ١٩٨٩ . وكان خاطفون لبنانيون قد زعموا أنهم شنقوا الكولونيل الأميركي المخطوف من القوة الدولية ، وليام جيغينر ، انتقاماً لخطف عبيد . وكان من الواضح أن الإسرائيليين يحتفظون بعبيد في إسرائيل كرهينة . وعندما زرت بلدته جبشيت طالعني مشهد مألوف .

دخلت علينا ابنته مجاهدة ذات الستين ، وهي تثبّ وثباً وتحمل صورة لوالدها . قالت : «هيدا بيي» . ثم أعطتني الصورة . كانت التجربة غريبة . فقد بدت مجاهدة عن بُعد شبيهة بسالومي ابنة تيري أندرسون ، وقد حملت صورة الشيخ عبيد تماماً مثلما كانت سالومي أندرسون ترفع صورة والدها أمام كاميرات التلفزيون . وكان لدى زوجة الشيخ ، أم مصطفى عبيد ، المجلببة بالشادور الأسود من رأسها حتى أخمص قدميها ، نصيحة مختصرة لأسر المخطوفين الغربيين . قالت : «أطلب منهم أن يتحلّوا بالصبر ، وأن يكونوا أقوياء على محنتهم ، ويواصلوا حياتهم بأمل من أجل الذين خطفوا» . وباحت لي أيضاً بأن شقيق زوجها ، ويدعى محمود ، الذي كان قد اختُطف في كانون الثاني/ يناير ١٩٨٦ على أيدي عناصر من ميليشيا الكتائب المسيحية ، قد نُقل سراً إلى سجن إسرائيلي في عسقلان . وقد تمكن الصليب الأحمر الدولي من تأكيد هذه الواقعة فيما بعد .

في شهر تشرين الأول/ أكتوبر أتيح لنا أخيراً ، لارا وأنا ، أن نلتقي خاطفي تيري أندرسون . كنت أسعى لمثل هذا اللقاء منذ وقت طويل . عرفتُ هوية الرجل الذي قابلته . وعرّفني هو على نفسه بالاسم ـ معلناً أيضاً بأنه عضو في حركة الجهاد الإسلامي ـ ومدّ يده مصافحاً . كانت يداً قوية ، يداً توحي بقوة شرسة . ولكن المثير للقلق كان عينا الرجل . لم تشح عيناه عن وجهي إطلاقاً ؛ لم يتحوّلا عني ولو للحظة ، إلا عندما كان يريد أن يناقش عبارة أو جملة مع زملائه . وكان عندما يتكلم يستهل أقواله بالبسملة ـ الآية نفسها التي كان رهائن حركة الجهاد الإسلامي يستهلون بها أقوالهم .

على الصعيد المهني ، كان اللقاء «سبقاً» في ناحية من النواحي . إذ لم يسبق لصحافي غربي أن قابل أي عضو في حركة الجهاد الإسلامي وجهاً لوجه ـ إلا إذا كان الصحافي مخطوفاً بالطبع ـ فضلاً عن استجوابه حول أخلاقية احتجاز الرهائن . لكن هذا الرجل كان أيضاً سجّان تيري ، الرجل الذي يتحكّم بمصيره وقدره ، بحياته بالذات . إنه الرجل الذي كان يمكن أن يكون خاطفي أنا ، لو أنني أُخذت من بيتي في إحدى السيارات التي كانت تجوب الكورنيش في العام ١٩٨٦ . كان في منتهى التصلّب ، لا تخامر ثقته بنفسه أي شكوك على الإطلاق .

قال : «إن أخذ أناس أبرياء لاحتجازهم رهائن أمر باطل . إنه شرّ الشرور . ولكنه اختيار وليس هناك خيار آخر . رد فعل على وضع فُرض علينا فرضاً . . . وإذا كنت تريد أن تسأل عن وجود بعض الأبرياء بين الرهائن ، فإن هذا السؤال ينبغي ألا يُطرح علينا وحدنا عندما تختطف إسرائيل ٥٠٠٠ مدني لبناني وتسجنهم في معتقل أنصار في جنوب لبنان» . وكانت إسرائيل قد اعتقلت هؤلاء فعلاً في أنصار ، بعد اجتياح لبنان في العام ١٩٨٢ . وقد دانت منظمة العفو الدولية أوضاعهم في الأسر . «إن معظم المعتقلين في أنصار أبرياء ، ناهيك بالغزو بحد ذاته ، وقتل العديد من الناس» .

فكّرتُ ، وأنا أراقبه : ها هو رجل ارتحل بعيداً عن عالمنا ، باحثاً عن عزم يكبتُ أي خشية أو قلق أو خوف ، وقد وجده . كان من المفترض أن أشعر بالكراهية نحوه بسبب من المعاناة التي سببها لتيري . وقد وصف هو بنفسه أخذ الرهائن كـ : «شرّ» ذميم . لكنني لم أشعر بالبغض نحوه . وسوف يصبح غضبه مرئياً في سياق حديثنا . سوف يهزّ قبضة يده ويؤشر بسبّابته بضراوة وهو يدين دعم الولايات المتحدة لإسرائيل وإسقاطها طائرة الركاب المدنية الإيرانية في الخليج في العام ١٩٨٨ . وقد سبق لي أن شهدتُ مراراً مثل هذا الغضب الشديد ، في أعقاب الغارات الجوية أو القصف المدفعي ، في المدافن والمقابر الجماعية . وحتى إذا كان هذا الرجل متحالفاً مع آخرين ـ وقلائل في لبنان كانوا يشككون في حقيقة أن مجموعة إيرانية تسيطر على حركة الجهاد الإسلامي ـ فإن غضبه الشديد كان حقيقياً .

سألته إن كان يستطيع أن يشعر بشيء من الرأفة تجاه تيري . كانت تلك العينان الكبيرتان لا تزالان تحدّقان بي ، لم يشح ببصره عني إطلاقاً . أجاب : «سيكون من السهل جداً بالطبع إيجاد الجواب على هذا السؤال لو كنتُ أم أحد الرهائن في الخيام أو زوجته ـ أو أم تيري أندرسون أو زوجته . إن مشاعري تجاه معاناة تيري أندرسون العقلية هي نفسها مشاعري تجاه الرهائن اللبنانيين المعتقلين في الخيام ـ باستثناء حقيقة أن المحتجزين اللبنانيين هناك قد عانوا وما زالوا يعانون التعذيب العقلي والجسدي» .

ولكن تعليقاته على وليام باكلي رئيس محطة السي . آي . اي . الذي اختُطف في بيروت في العام ١٩٨٤ ، كانت خالية من أي مشاعر من هذا القبيل . قال إن باكلي اختُطف لأن حركة الجهاد الإسلامي كانت واثقة من أنه كان يسيطر على الحكومة اللبنانية في عهد الرئيس أمين الجميّل ، في الوقت الذي كان الجيش اللبناني الذي يسيطر عليه المسيحيون ، يعتقل آلاف المسلمين من مدنيين ورجال ميليشيات : «كان وِلْيم بَكلي ، وليس أمين الجميّل ، الرئيس الفعلي للبنان . ولدينا البرهان على ذلك . لدينا وثائق . كان أحد الأدوار الرئيسية ـ ولنقل الدور الأساسي ـ الذي تضطلع به محطة السي . آي . اي . هو التخطيط لحماية أمين الجميّل الشخصية» . وفي غضون أقل من شهرين على تلك المقابلة ، سوف تُلقي حركة الجهاد الإسلامي بقايا وِلْيم بكلي على إحدى الطرق في ضاحية بيروت الجنوبية ، كيساً بلاستيكياً مليئاً بالعظام .

كانت هناك تحذيرات مكدّرة . فقد تُستأنف عمليات اختطاف الرهائن إذا اعتقلت إسرائيل المزيد من العرب في جنوب لبنان . وفي غضون ثلاثة أسابيع ، سوف تقتل الميليشيا الحليفة لإسرائيل الطفلة أمل ياسين ذات العشر سنوات في جنوب لبنان ، وسوف تعتقل إسرائيل أفراد عائلتها الذكور وتودعهم سجن الخيام . ولكن ، أضاف هذا الرجل المطلوب أكثر من أي شخص آخر ، «ليست هناك عوائق في

الوقت الحاضر أمام حل مشكلة الرهائن . لن يطول الأمر» . ثم تناول تفاحة من وعاء للفاكهة كان موضوعاً أمامنا على الطاولة ، وأخذ سكيناً وفلقها بتأن . سألته إذا كان يود أن يقرأ كتابي ، فطلب مني أن أرسله له . ثم وقف ومدّ يده مجدداً ، تلك اليد التي كانت أشبه بفكّي الملزمة . لا بد أنه أخذ يدي بيده لثلاثين ثانية ـ مديدة هي النصف دقيقة لمصافحة رجل من حركة الجهاد الإسلامي ـ وكانت عيناه تحدّقان بعيني طوال الوقت .

تساءلت عمّا كان يبحث؟ عن الفهم؟ عن الصفح؟ هل كان يريد أن يُظهر لرجل غربي أنه إنسان وليس «الإرهابي» الذي يصوّره أعداؤه الأميركيون والإسرائيليون؟ أعتقد بأن هذا ما كان يريده . ولكن محادثتنا كانت في نواحٍ عديدة غير شافية ، كادت أن تكون محادثة فارغة . لقد امتنع عن الإقرار بأنه شاهد تيري على الرغم من معرفتي بأنه اجتمع به عدة مرات . وعندما سألته لماذا لم تُطلق حركة الجهاد الإسلامي رهائنها بعد فرار السجناء في الكويت ، أكتفى بالقول إن أولوية جديدة ـ أسرى الخيام ـ قد حلّت محل مطلب الخاطفين الأصلي . وأي أخلاقية هذه في «اختيار» فعل شرير ـ الخطف ـ بحجة توفر أي «خيار» آخر؟ أليس هذا مرادفاً للجندي الذي يمقت شرور الحرب لكنه يجد الأعذار للعمل الذي يمتهنه على أساس أن الحرب جحيم؟ وما هي تلك الوثائق التي أخذت من بكلي؟ هل كانت وكالة الاستخبارات المركزية الأميركية تدير لبنان آنذاك ، في العام ١٩٨٣ ، أثناء وجود القوة المتعددة ـ الجنسيات في بيروت؟ لقد بدا هذا هو المعنى الذي تضمنته ملاحظات الرجل . فأي أسرار كان يعرفها؟

أرسلت له كتابي وأرفقته بمناشدة أتوسّل فيها رؤية تيري في الأسر . قيل لي إن طلبي سوف يُنظر إليه بـ«إيجابية» . بدا الأمر غير عادي ومنافياً للعقل . كنت أتقدم بطلب لزيارة تيري بالطريقة التي قد أسعى بها للحصول على تأشيرة للدخول إلى بلد مُغلق الحدود . علينا أن نكون مهذبين دائماً مع المسؤولين عن التأشيرات . هذا ما نتلقّنه نحن الصحافيين . وفي هذه الحالة كان المسؤول عن التأشيرة رجلاً مثيراً للرعب الشديد ، وكانت المنظمة التي ينتمي إليها مسؤولة عن تفجير قاعدة المارينز الأميركيين ومقرّ المظليين الفرنسيين في بيروت ، وثلاث سفارات أميركية في بيروت والكويت ، والسفارة الفرنسية في الكويت أيضاً ، بالإضافة إلى ثكنتين إسرائيليتين على الأقل . وقيل لي أيضاً إن حركة الجهاد الإسلامي سوف تُعلمني بنتيجة الطلب الذي تقدمت به .

مع ذلك ، كنت أعرف بأن تيري موجود في بعلبك . كنت كلما زرت تلك المدينة أشعر بأن تيري كان قريباً ولا يبعد عني إلا مسافة ميل أو نحوه . ولكن ذلك الإحساس لم يكن يعني شيئاً بالطبع . كان ينبغي الحصول على الإذن ، والسعي لنيل الموافقة ، وفهم الضمانات وإثبات الثقة . وأي مسعى لزيارة

تيري بخلاف ذلك سوف يقودني إلى الأسر معه في زنزانته . كان لحركة الجهاد الإسلامي أمور عليها إتمامها في موعدها قبل أن تنظر في طلبي . ثم جاءتني تلك الرسالة من تيري ، وكانت تلك الرحلة اليائسة إلى جبال لبنان لبلوغ دمشق . وكانت الثلوج .

سرت في الثلج لنحو ساعة على الأرجح . كان البردُ قارساً جداً فتجمّدت طبقة من الجليد على الثلج . حتى إذا كان تيري قد وصل إلى سوريا الآن ، فقد أتمكن من رؤيته قبل أن يغادر إلى المستشفى الأميركية في ويسبادن ، المحطة الأولى التي لا مفر منها لكافة الرهائن الذين يُطلق سراحهم . وما لبثت أن وجدت ضالتي . شاحنة سورية كان سائقها الملتحف بمعاطف ومشالح ينطلق في الاتجاه المعاكس ، سالكاً حافة خط السير المرصوص بالثلج . من أين تأتي؟ «من الشام» . كانت الطريق من دمشق سالكة .

أوقفت سيارة تاكسي سورية وطلبت من سائقها أن يقلّني إلى وزارة الخارجية . ففي ذلك المكان كانوا يُخرجون الرهائن إلى العلن ، ليصير إلى التقاط صور لهم تحت صورة الرئيس الأسد ، وتذكير العالم بما كان وزير الخارجية السوري لا ينفكّ عن وصفه بـ«الدور الإنساني» الذي تضطلع به بلاده . كاد المكان أن يكون مقفراً . كانت هناك كاميرتان تلفزيونيتان متروكتين في الخارج ، فيما وقف مراسل لبناني وحده على الرصيف المقابل . قال لي : «أندرسون ليس هنا . ما زال في طريقه إلى دمشق . كانت البي . بي . سي . تبثّ النبأ من قبرص . لقد أخطأوا فهم الخبر» . وانقضت ثلاث ساعات قبل أن يُدعى المراسلون إلى دخول قاعة الاستقبال البعثية المتقشّفة ، التي تُستخدم مكاناً لاستقبالات الوزارة . وكانت صورة الأسد معلقة فوق الطاولة التي وضعت عليها مكبّرات الصوت .

ومن خلال باب ضيق خلف الطاولة ـ في الثواني المعدودة التي استغرقها فتح الباب وإغلاقه بسرعة لإدخال أحد الدبلوماسيين السوريين ـ شاهدت تيري أندرسون . كان يلبس نظارات ويبتسم . بدا نشيطاً ـ «نظامياً» كانت الكلمة التي خطرت ببالي ـ وفرحاً . وبعد دقيقة ، فُتح الباب مرة أخرى ، ودخل . «روبرت» ، صرخ بي وأمسك بيدي . وأذكر أنني تفوّهتُ بكلمة واحدة فقط ـ «لا يُصدّق» ـ قبل أن يُدفع تيري إلى الطاولة ليدلي بعبارات الشكر لسوريا وإيران والأمم المتحدة المطلوبة منه . تحدث بإيجاز عن أيامه الأخيرة في الأسر ـ وكان قد سمع هو أيضاً إذاعة النبأ نفسه عن إطلاق سراحه فيما كان لا يزال في زنزانته . وتحدث أيضاً عن الشجاعة التي احتاجها ليحافظ على قواه العقلية ، وعن أوقات الحسرة . «روبرت ، أريد أن أراك» ، قال لي ما أن انتهى من حديثه ، فيما كانت دبلوماسية متعجرفة من السفارة الأميركية تحيطه بذارعها وتقوده نحو الباب . وأعطيته قبل أن يغادر رقم هاتف فندق في دمشق . نزلنا لارا وأنا ، في هذا الفندق وجلسنا ننتظر . بعد ساعتين رن جرس الهاتف . قال

صوت لي : «السيد أندرسون في السفارة . سوف نأتي لنقلّكما إلى هناك» . لم يعجبني هذا الترتيب . لا أحب السفارات ، وبالأخص السفارات الغربية ، وخصوصاً في الشرق الأوسط . كنت قد قطعت عهداً على نفسي بألا أزور السفارات الأميركية . فأعداء أميركا يعتبرونها «أوكار تجسس» ، وكان لدي شكوك قوية بأن في هذا الإدعاء قدراً كبيراً من الصحة ؛ والتحدث مع دبلوماسيين أميركيين كان بمثابة استدراج للشك . فإذا كان أعداء أميركا يظنون أن الدبلوماسيين من الجواسيس ـ ومن الواضح أن بعضهم كان كذلك ـ فمن الأفضل تجنّب أي صلة بهم . ولكن حركة الجهاد الإسلامي كانت هي التي سلّمت تيري للسوريين ، والسوريون هم الذين سلّموه للسفارة الأميركية . ولم يكن ذنبي أنه أُخذ إلى هناك .

بعد دقائق كنت ألج حجرة الجلوس في السفارة الأميركية لأجد تيري جالساً على أريكة ، يضع ذراعاً حول مادلين ويحضن بذراعه الأخرى ابنته سالومي . هبّ نحوي وأخذني بين ذراعيه : «فيسكي ، أيها الأحمق ، ألم تتلقّ تحذيري بوجوب مغادرة بيروت على الفور؟ كنا جميعاً بانتظار أن تأتي وتشاركنا زنزانتنا هناك» . قرابة سبع سنوات . إنه الرهينة التي أمضت في الأسر مدة تفوق ما أمضته أي رهينة أخرى في العالم . لكنه بدا كما هو ، لم يتغيّر . وجهه ، نظارته ـ وقد انتُزعت إحدى مسكاتها ـ شعره ، مع صلع طفيف ربما في قمة رأسه ، صوته وظرفه . إنه تيري نفسه الذي جالسته لتناول كأس من النبيذ عشية الخامس عشر من تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٨٥ ؛ تلك الليلة التي قال لي فيها أنه من الأفضل للمرء أن يُخطف على أن يقاوم خاطفه . قلت له : لم تتغير ، ما زلت كما أنت تماماً . «طبعاً لم أتغير يا روبرت» ، أجابني وهو يضع ذراعه على كتفي كمعلم يحاول أن يشرح لتلميذ مسألة حسابية بسيطة . «كنت في خزانة طوال سبع سنوات يا روبرت . لقد توقف الزمن» .

وها هو الآن ، سعيداً ، وقد أصبح اليوم الصحافي الأكثر شهرة في العالم أجمع . وفكّرت بأنه ما زال بديناً بعض الشيء . كانت ذراعاه سمينتين وطريّتين كحال رجل أمضى مدة في السجن . كانت سالومي بوجهها المنمّش وشعرها البنّي الأجعد ، تجلس ملتصقة به ، تُمسك بكُمّ كنزته الصوفية الخضراء وكأنها تخشى أن تفقد الأب الذي نالته لتوّها . كان تيري يجري مكالمات هاتفية مع عائلته في الولايات المتحدة ، وكان يطلب ورقاً للكتابة وأرقاماً هاتفية ، وكان موظفو السفارة يلبّون كل طلباته . إنه رئيس مكتب وكالة الأسوشيتدبرس العائد ليستأنف حياته ويقوم بكل الأشياء التي كان يحلم بها طوال ما يقارب السبع سنوات . طلب كوباً من الماء ـ الماء المثلجة ـ وتحدث بهدوء وأناة ، بمنطق وتفكُّر . وأدلى بملاحظات وطرح أسئلة . كان الحديث أشبه بمحادثة تجري في زنزانته في السجن بعدما يغفو الحرس .

«روبرت ، كانوا يلاحقونك ، أؤكد لك ذلك . فقد سألوني عن كل يتعلق بك . كانوا يسألون عمن يسكن في بيتك . سألوني عمن يكون ذاك البريطاني الصغير ذو النظارتين ، الذي يتردد يومياً على مكتب وكالة الأسوشيتدبرس . كان هذا أنت ، لكنني لم أقل لهم ذلك إطلاقاً» . شكراً تيري ، شكراً . «لقد حاولت فعلاً أن أنذرك . كتبتُ في زنزانتي رسالة إلى مادي وفكّرت في طريقة لأخبرك بأنهم سيحاولون اختطافك . سألتها أن تطلب منك قراءة الآية ١٣ من الإصحاح ٢٥ في إنجيل متّى . اخترتها بكل عناية . تقول الآية : «فاسهروا إذاً لأنكم لا تعرفون اليوم ولا الساعة» . ولكن الخاطفين لم يبعثوا بتلك الرسالة إلى مادي» . وتساءلتُ لوهلة عمّا إذا كنت سأبالي بمثل هذا التحذير المُكرب ، الذي كان رسالة مثيرة للقلق أكثر بكثير من تلك التي تلقيتها من تيري وهو في الأسر .

وتابع تيري كلامه ؛ تحدث عن حارس يُدعى علي ، الذي لقّبه باسم «صدّقني» لأنه كان دائماً يستهل تأكيداته المخادعة عن إطلاق سراحه الوشيك بمطالبة تيري بأن يثق بصدق قوله ؛ وتحدث أيضاً عن الضرب الذي تعرّض له في أعقاب اختطافه ، ثم التحسّن التدريجي في معاملته . احتجزوا تيري في الأشهر الأخيرة من أسره في منزل في بعلبك ، حيث زوّد بجهاز تلفزيون وُضع عند أسفل سريره ؛ وراح يتلقى بانتظام مجلات «تايم» و«نيوزويك» و«الأيكونومست» و«يو . أس . أند وورلد ريبورت» . وكان يشاهد برامج المحطة التلفزيونية خاصة حزب الله في بعلبك التي كانت تقدم نشرة الأخبار بالعربية تقرأها نساء محجّبات يلبسن الشادور .

حتى أن خاطفيه جاؤوا له بالطبعة العربية من كتابي «ويلات وطن» وراحوا يترجمون له فقرات منه «علي أن أشكرك على شيء واحد ، فيسكي . لقد أعجبتهم تلك الفقرة عني ، وكيف تصدّيت للضابط البريطاني بالشتم لأنه وصف اللبنانين بـ«العبيد» . جاء «صدقني» إلى زنزانتي وقرأها لي ثم قال : «ربما لست على هذه الدرجة من السؤ بعد كل شيء ، يا مستر تيري» . توسّلتهم أن يعطوني الطبعة الإنجليزية لكنهم رفضوا . لا أعرف لماذا . كانوا يريدون أن يختاروا بأنفسهم الفقرات التي يقرأونها علي» .

لم يشأ تيري أن يحكي عن سؤ المعاملة التي تعرّض لها في أولى أيام أسره ، وهو جالس بين زوجته وابنته . كانت تلك ذكريات سوف يستعيدها فيما بعد ، وهو مُستلق على الشاطئ في الكاريبي في ربيع العام ١٩٩٢ يحاول أن يستجمع وقائع وتفاصيل الحياة التي عاشهاً في السجن ، والحياة التي فاتته خارج جدرانه . قال لي : «تعرف ، عندما وصلت كانت سالومي نائمة . لقد انتظرت النهار بطوله لترى والدها . عندما وصلت إلى هنا ، كانت نائمة على أريكة السفير . وعندما ذهبت لأراها ، كان كل ما فعلته أنها فتحت عينيها ونظرت إلي» .

لحقنا بتيري إلى ألمانيا حيث أخضعه الأميركيون للفحوصات الطبيّة ولجلسات الاستجواب نفسها التي كان على جميع الرهائن أن يعتادوا عليها . كانت تتخلّل دماثة الأطباء أسئلة عملاء مكتب التحقيقات الفدرالي ، التي كانوا يطرحونها بكياسة لكن بإصرار ، في سعيهم لوضع لائحة اتهام بحق الخاطفين . وقد رفض تيري الإجابة على العديد من الأسئلة باعتبار أن الإجابة سوف تشكّل انتهاكاً لآداب مهنته كصحافي . ولكنني عندما زرته في ويسبادن ، وجدت أن صديقي لم يعد ذلك الرجل المتكتم الذي تحدثت معه في دمشق . لم يكن من الممكن وقفه عن الكلام ، وكاد أن يفقد حذره تحت تأثير إحساسه الغامر بأنه على ما يُرام . كان يتكلم فتفيض الأفكار والمشاعر المكنونة ، وبدون إنذار يتداخل وصفه لسنوات عذابه مع مناقشة علاجه الطبي وحرب الخليج وأجهزة الكومبيوتر والكتب ، ليعود بعدها إلى الكلام مرة أخرى عن سنوات سجنه . كانت حاله أشبه بمن فُكّت غلاله فانفلت ذهنه حرّاً طليقاً .

وقد تساءلنا أيضاً عما إذا كان الأميركيون يعطونه أدوية لأغراض تتجاوز الضرورة العلاجية ، على أمل أن يُدلي تيري في لحظة غفلة ببعض الملاحظات غير المحسوبة التي تفيد أجهزة استخباراتهم . كنت أستمع إليه بانتباه وأراقبه وهو يكبح نفسه في اللحظات الحرجة فيتوقف عن الكلام في غمرة الحديث ، ليتفادى تحديد هوية أحدهم . لم يكن راغباً بالانتقام .

«احتُجزنا في عشرين مكاناً على الأقل في ضواحي بيروت الجنوبية ، بين صيدا وصور ، ونواحي كورنيش المزرعة ، وفي الأوزاعي وبعلبك . كانوا يشدّون وثاقي هكذا . . .» ـ ثم يغمر نفسه بذراعه ـ « . . . ويلقون بي في صندوق السيارة . في أحد الأيام كانوا ينقلونني إلى مخبأ جديد ، في مكان ما جنوبي بيروت . راح يرتطم رأسي وكتفي بأرض الصندوق ، وأصبح لون ذلك الجانب من جسمي ضارباً إلى الزُرقة . كان علي أن أطرق على غطاء الصندوق لأحملهم على إخراجي ووضعي على جانبي الآخر ، هناك على جانب الطريق الساحلي . شاهدنا حرب الخليج على شاشة التلفزيون ، أتعرف ذلك؟ تابعت الحرب مع السجانين . كان ثلاثة منهم لا يكفّون عن سؤالي حول سلاح البحرية الأميركي لأنهم كانوا يعرفون بأنني كنت في قوات المارينز في فييتنام . رفضت أن أتكلم معهم ، تجاهلتهم . إن الأطباء رائعون حقاً . هل تعرف أنهم أبدلوا نظارتي اليوم بثلاثة أزواج جديدة في غضون ساعتين فقط»؟

كل بضع دقائق ، كانت تأتي ممرضة مع ميزان الحرارة أو حبوب الأدوية أو صور الأشعة ، أو يأتي أحد الأميركيين في اللباس المدني طالباً التحدث مع تيري في غرفة أخرى . تشاور تيري عدة مرّات مع رؤسائه في وكالة الأسوشتيدبرس ورفض الإجابة على الأسئلة . «احتجزنا الخاطفون لعدة أسابيع في

دور سفلي من طبقتين تحت الأرض . كان المبنى مسجداً يقع في مكان ما بين صيدا وصور . وكانت هناك طبقة سفلى تحت المسجد ، وتحتها دور آخر . كان المكان حاراً جداً ويعجّ بالبعوض . ولكن كانت هناك ثقوب في الجدار المبني من الطوب الخفيف . وكانت هناك فأرة تعيش في تلك الجحور ، دربّتها على أن تقترب مني وتأكل من يدي ، وأطلقتُ عليها اسم ميهيتابيل . وفي أحد الأيام ، دخل علينا السجانون وسدّوا تلك الثقوب ، ولم أرَ ميهيتابيل من بعدها . زعم توم [ساثرلاند] أن ميهيتابيل قد دُفنت داخل الجدار . . . علينا أن نعدّل في خططنا . يريد مني الرئيس أن أكون في البيت الأبيض عندما يضيئون شجرة الميلاد ، مع كل الرهائن الآخرين . مادي؟ سوف نذهب إلى نيويورك مباشرة يوم الإثنين ، ومن هناك نتوجه إلى واشنطن . . .» .

جئنا بزجاجة شمبانيا ، وراح تيري يشرب من كأسه على مهل ، بارتياب تقريباً . قال : «قدموا لنا بيرة إسلامية من صُنع إيران . كان الطعام بلا نكهة ، أرز وخبز عربي ومأكولات عربية في معظم الأحيان . في إحدى الليالي نشب القتال في أنحاء الضاحية الجنوبية فأخرجنا السجانون من غرفتنا ، وكانت آمنة ، ووضعونا في غرفة في مقدمة المبنى حيث كانوا يحتجزون الرهائن الفرنسيين . كانت تُسمع أصوات الانفجارات في الخارج فيما كان الفريقان يتقاتلان . نقلنا السجانون من غرفتنا التي كانت أكثر أماناً لأنهم أرادوا الإيواء فيها أثناء القتال . تدهور الوضع في إحدى الليالي إلى حدّ أنهم جعلونا نرتدي السترات الواقية وأحاطونا بأكياس الرمل» .

كانوا معصوبي الأعين حتى لا يروا سجّانيهم ، يرتدون السترات الواقية ، محاطين بأكياس الرمل وعالقين في شرك الحرب . سألناه إن كان قد تعرض للضرب . «لم تكن الأمور حسنة تماماً بالنسبة لي ، في البداية . كانوا على شيء من الخشونة . . .» كانت في هذه الاجابة أشياء لم يُفصح عنها ، أشياء سوف نعرفها فيما بعد . لكنه كان أكثر صراحة في كلامه عن المعاملة التي تعرّضت لها رهينة أميركية أخرى . «أذاقوا الرجل عذاب الجحيم ؛ ضربوه ضرباً مبرحاً إلى حد أن حالته ساءت كثيراً ، ولم يكن لديهم أي سبب ليفعلوا ذلك به . كان ينكمش على نفسه خوفاً منهم . كان يرتعب إلى حد كان يجعلهم يرغبون بضربه . كانوا يضربونه ضرباً مبرحاً ـ بقبضاتهم وبأعقاب بنادقهم ـ حتى ساءت حاله إلى درجة أصبح معانداً ومشاكساً . في إحدى الليالي ، أشبعوه ضرباً إلى حد راح ينشج ويئن في زنزانته ، ثم ما لبث أن نادى على الحرس ، فعادوا إليه وضربوه مرة أخرى بأعقاب بنادقهم . من بعدها ، جاء السجّانون وقالوا إنه يرفض الأكل . فهل أذهب وأراه؟ أخذوني إلى زنزانته . كان مستلقياً على الأرض ، متكوّراً على نفسه كالحيوان . وحتى عندما اقتربت انا منه ، انكمش مبتعداً عني من الخوف . قلت للحرس : «إنكم تقتلون هذا الرجل . لماذا تفعلون ذلك؟ حملناه إلى زنزانتنا . كانت

حالته سيئة للغاية ، ولم يكفّ عن الأدعاء بوجود جهاز إرسال مزروع في دماغه ، وبأنه يتلقى الرسائل من السفارة الأميركية . . .» .

بقيت تلك الرهينة على قيد الحياة . تمكن تيري من تنظيم تفكيره وإعادته إلى الواقع ، إلى أن عاود الحرس اعتداءاتهم عليه . كانوا يعتدون عليه لأنه كان هدفاً قابلاً للاعتداء . ألم يكن هذا ما فعله اللبنانيون ببعضهم بعضاً ، نزولاً لرغبة أجانب عادة ، أو تنفيذاً لأوامرهم؟ «كان السجّانون يظنون أن صدام حسين يمكن أن يكسب الحرب . لم يكونوا يريدون له أن يكسب الحرب . كانوا يمقتونه . لكنهم كانوا يظنون أنه قد يكسبها . قلت لهم : مستحيل ـ لن تكون هذه الحرب مثل [تفجير قاعدة] المارينز في بيروت . فالأرض منبسطة ومكشوفة هناك ، في الصحراء ، ويستطيع الجيش الأميركي أن يكسب الحرب فيها . فهي حرب تقليدية . أجل تحسّنت الأمور مع مرور السنين . كانت رهيبة في البداية وأصبحت محتملة حقاً في النهاية ـ هذا إذا كان يمكن للاحتجاز الدائم في السجن أن يكون أمراً محتملاً . لم ننسجم مع تيري [ويت] دائماً . إنه رجل بالغ الضخامة . كان يريد أن يتحدث ، ولا يكفّ عن الحديث طوال الليل فيما كنّا نريد أن ننام . لم يكن يكفّ عن الحركة وإزعاجنا . إنه أضخم الرجال في العالم . كان يعاني من مشكلة ربو حادّ . كنت أجلس وأحادثه كل ليلة طوال أربع ساعات أحياناً ، وأقول له : «عليك أن تتنفّس ببطء ، تنفّس ببطء . تحسّنت حاله تدريجياً ، وأقنعت السجّانين بأن يأتوا له ببعض الأدوية للربو» .

أخبرنا تيري أن تيري ويت عقد مؤتمراً صحافياً لدى عودته إلى إنجلترا ، تحدث فيه طوال عشر دقائق بدون نصٍّ مكتوب ، وأثنى على رفاقه الرهائن . وقد قال ويت آنذاك إنه توسّل الحرس إزالة قيود تيري . «تيري [ويت] كان رجلاً مقداماً . ولكن بالتأكيد ، لم يكن هو من جعلهم يفكّون قيدي . كنت أنا من طلب من السجانين إزالة قيودي . كان فكّ قيدي مطلباً من المطالب التي تقدمت بها قبيل انتهاء أسري . تعرف ، تستطيع أن توقف تيري ويت عن عقد مؤتمر صحفي إذا استطعت أن توقف انسياب المياه على المنحدرات» .

لم يفقد تيري حسّ الدعابة . في اليوم التالي ، وبعد أول مناولة له في الحرية ـ أفسدها القسيس بقساوة تلميحه بأن القداس لن يعني للبروتستانت ما يعنيه للكاثوليك ـ توجه تيري إلى مخزن المستشفى ليلقي نظرة على أجهزة الكومبيوتر . وفي رواق المستشفى ، قال لنا وهو يبتسم : «فاتتني أشياء كثيرة . لا أعرف ما هو جهاز الأقراص المُدمجة ، كما فاتتني سلاحف النينجا» . وقفل عائداً إلى غرفته وهو يضع ذراعاً حول مادلين ويمسك يد سالومي بيده الأخرى . ومن الآن فصاعداً ، سوف تحمل توقيعه القصص التي سينشرها عن سنواته في الأسر .

في ذلك الشتاء في بيروت ، انهارت أشهر السلْم بانفجار سيارة مفخخة تُركت عند الجامعة الأميركية ـ دمرت قاعة دانيال بلس العائدة للقرن التاسع عشر ، وقتلت أحد الحراس ـ وبانفجار آخر في منطقة البسطة ، أوقع أكثر من ثلاثين قتيلاً من المدنيين . لم يتبنّ أحد هاتين العمليتين ، على الرغم من أن الحكومة اللبنانية قالت إن عناصر من جيش لبنان الجنوبي التابع لإسرائيل هي التي دسّت قنبلة الجامعة . كان لبنان في حالة سلْم بالمعنى الدقيق للكلمة ، لكنه كان بلداً يعمّه الخراب ، اقتصاده مُدمّر وتراثه مُقتلع من أرضه . فقد سقط لبنان ، بعد خمسة عشر عاماً من الحرب ، ضحية أضخم عملية نهب للكنوز العائدة للعصر الإغريقي الروماني والعصر البرونزي وعصر الحديد في الشرق الأوسط منذ أن نهب المستكشفون الأوروبيون المنطقة قبل مئة عام ـ نُهبت تماثيل لا تُقدّر بثمن ، ونُهبت الفسيفساء البيزنطية والأواني الزجاجية الرومانية والذهب الفينيقي ونُقلت المسروقات بطريقة غير شرعية إلى لندن ونيويورك وبون ؛ وتعرّضت أهم المواقع الأثرية لفينيقيا القديمة ، للتدمير على يد الباحثين عن الكنوز . ففي مدينة صور ، فُتحت النواويس ـ مدافن الملوك ـ بتفجيرها بالديناميت ، ونُهب الذهب والبرونز من مدافن نبلاء عصور ما قبل التاريخ المدوّن .

ولم تكن السنة الجديدة سنة سلام . فقد اغتال الإسرائيليون الشيخ عباس الموسوي في شهر شباط/ فبراير ، وقتلوا معه زوجته وابنه حسين ذا الخمس سنوات ، فيما كان الشيخ يقود سيارته من قرية جبشيت ، عائداً إلى بيروت ، بعد ظهر يوم أحد . كان الموسوي قد حضر يومها الصلاة التي أقيمت في ذكرى غياب الشيخ راغب حرب ، وقام بزيارة عائلة [الأسير عبد الكريم] عبيد . وقد استخدم الإسرائيليون مروحية من طراز «أباتشي» الأميركية الصنع لإطلاق صاروخ «هيلفاير» الأميركي الصنع على سيارة الموسوي المرسيدس المصفّحة . وقد احترق أفراد عائلة الموسوي وهم أحياء في المقعد الخلفي . والمعروف أن صاروخ «هيلفاير» سهل الاستخدام ، إذ لم يكن على الطيار إلا أن يُقفل جهاز الإرشاد على سيارة الموسوي ويطلق القذيفة . ولا بد أن الطيار الإسرائيلي قفل عائداً إلى إسرائيل وهو يشاهد في الصور التي ترسلها تباعاً الكاميرا التلفزيونية المركّبة في الصاروخ ، الثواني الأخيرة من حياة زعيم حزب الله ، الذي أخبرني يوماً ، كم كان دائم السعي للاستشهاد . وعلى الرغم من أن الموسوي لم ينفكّ يوماً عن تشجيع حركة المقاومة في جنوب لبنان ، لم يكن هناك استفزاز معيّن يستدعي قتله . وكان أبسط التفسيرات لاغتياله أن إسرائيل كانت تسعى بطريقة ما للتخفيف من وقع هزيمتها الكاملة في لبنان أو محوها من الذاكرة .

وهكذا ، أقدم حزب الله على قصف شمال إسرائيل بصواريخ الكاتيوشا انتقاماً لاغتيال الموسوي ، وقتلوا طفلة إسرائيلية في الخامسة من عمرها . فاخترقت قوة إسرائيلية خطوط قوات الأمم

المتحدة ، واشتبكت في عراك بالأيدي مع الضباط الإيرلنديين والفنلنديين ـ ثم هاجمت قريتين جنوبيتين وفقدت اثنين من عناصرها في انفجار لغم أرضي أثناء تبادل النار مع حزب الله . وفيما أعلنت حركة الجهاد الإسلامي مسؤوليتها عن عملية التفجير الانتحارية لسفارة إسرائيل في بوينس إيرس ، قتل الإسرائيليون طفلاً لبنانياً في الخامسة من العمر ، وقتل حزب الله طفلة إسرائيلية في الخامسة من عمرها أيضاً . واتهمت منظمة العفو الدولية الإسرائيليين بالتعذيب المنتظم لمعتقلي سجن الخيام .

كان مقتل عباس الموسوي ـ وتعيين القائد الشاب السابق لحزب الله في جنوب لبنان ، السيد حسن نصرالله ، ليخلفه كأمين عام للحزب ـ استهلالاً لحرب عصابات جديدة ضد جيش الاحتلال الإسرائيلي ، كانت أشد تدميراً من ذي قبل . إذ ما لبث الإسرائيليون وحلفاؤهم من قوات جيش لبنان الجنوبي ، المتمترسون خلف متاريس الأسمنت والتراب المقوّى بالأسلاك ، أن وجدوا أنفسهم في مواجهة هجمات يومية بقنابل الهاون والصواريخ المضادة للدبابات والتفجيرات الانتحارية . كانت حرباً مفتوحة على مصراعيها . كنت أتوجه بسيارتي من بيروت إلى الجنوب ، فأجد أسوار قلعة الشقيف الصليبية الضخمة ـ التي باتت آنذاك تحمي بطارية مدفعية إسرائيلية ـ تردد أصداء نيران المدفعية وينساب منها دخان قذائف الهاون البنّي على منحدرات الجبل .

ودأب حزب الله ، موطد العزم ، على تدمير جهاز الاستخبارات الإسرائيلية في المنطقة المحتلة من جنوب لبنان . راح يصفّي المتعاملين مع إسرائيل أو يقنعهم بالعدول وتغيير ولائهم والعمل ضد أسيادهم السابقين . كان من بين هؤلاء عناصر من جيش لبنان الجنوبي نفسه ، الوكلاء اللبنانيون المفترض فيهم أن يكونوا درعاً لمنطقة الجليل . وقد تمكن الإسرائيليون من اعتقال أبو عريضة ، الرجل الذي كان عميلهم الأول في صيدا العام في ١٩٨٥ ، وأودعوه سجن عسقلان . وكان شعار «الموت لأبو عريضة» مكتوباً رشّاً بالطلاء على جدران مدينة صيدا . لكنه غيّر ولاءه هو أيضاً في تلك الآونة ، ودانه الإسرائيليون بالتجسس لمصلحة الجيش اللبناني الجديد . لقد استطاع جيش لبنان الجنوبي أن يشتمّ رائحة الهزيمة حتى قبل الإسرائيليين .

في الخامس من أيلول/ سبتمبر ١٩٩٧ ، شنّ الإسرائيليون عملية تستهدف تصفية وحدة من وحدات حزب الله في أنصارية ، وهي قرية تقع وسط بساتين البرتقال وأحراج السرو ، على تلة صغيرة مطلة على المتوسط . كان أحد المتعاملين قد زوّدهم خريطة تحمل إشارة إلى موقع البيت الذي يمكن أن يعثروا فيه على عناصر حزب الله . جاءت الوحدة الإسرائيلية الصغيرة بقوارب مطاطية ونزلت ليلاً إلى الشاطئ ، عند نقطة تقع أسفل القرية ، تحمل معها المتفجرات . . كانت تنوي تفجير المنزل بالديناميت ، إلى أن بلغت مسلكاً بريّاً ضيقاً وبدأت تشق طريقها في أجمة من أشجار الصنوبر . لم يكن

الإسرائيليون يعرفون أن ألغاماً كانت معلّقة في الأغصان تخفيها عتمة الليل . كان «المتعاون» يعمل لصالح حزب الله ، وكان مقاتلو الحزب أنفسهم قد رسموا الخارطة للجنود الإسرائيليين واستدرجوهم إلى حقل الألغام المعلّقة . تمزّق الإسرائيليون أشلاء ، وفي بعض الحالات بانفجار المتفجرات التي كانت بحوزتهم . سقط منهم أحد عشر جندياً ، وحمل أحد مقاتلي حزب الله رأس أحدهم أمام كاميرات محطات التلفزيون المحلية . وقد عثرتُ آنذاك ، وسط الأشجار التي كانت لا تزال تحترق ، على لوحات من الكرتون علّقها أحدهم على جذوع الأشجار ، وقد نُقش عليها بالعربية ، بخط اليد ، رسالة تُنذر بالشؤم : « الأشجار تخاطب الأشجار تقول : هناك إسرائيليون بيننا . أقتلوهم» .

لقد اختُرعت تقانة جديدة لحرب العصابات . تقانة غريبة ومُفزعة . ففي بيروت ، كان العديد من العائلات يزيّنون شرفات شققهم السكنية بصخور اصطناعية مجوّفة ، مصنوعة من البلاستيك ومطلية بطلاء رمادي أو بنّي ، تبدو كما لو كانت صخوراً صخمة حقيقية . وقد اشترى حزب الله المئات من تلك الصخور من محال بيع الأزهار في المدينة ، ونقلها إلى الجنوب ، حيث عُبئت تجاويفها بالمتفجرات وفتائل التفجير ، وتُركت على جوانب الطرقات المكشوفة الموحشة التي يسلكها جيش الاحتلال وحلفاؤه . وراح الإسرائيليون يسقطون ضحايا تلك الأشراك الملغومة ــ وكان من بينهم أعلى جنرالات الجيش الإسرائيلي رتبة في لبنان . لكنهم ما لبثوا أن راحوا يصنعون أشراكهم الملغومة المماثلة . فبائعو الأزهار في تل أبيب كانوا قادرين بدورهم على إنتاج كميات مماثلة من صخور الحدائق الإصطناعية .

«تعال وانظر إلى هذه الصخور يا بوب» . ألحّ عليّ ضابط شُعبة المتفجرات في الكتيبة الدولية الإيرلندية ، أن أدخل إلى معرضه الصغير الغريب في مقرّ الكتيبة الإيرلندية في تبنين . «أي منها صخور حقيقية وأي منها محشوة بالمتفجرات؟» كان فتيل التفجير منزوعاً من القنابل ، فرحتُ أنا ، الضابط فيسك ، خبير المتفجرات ، أجول بين الصخور العملاقة ، إلى أن لاحظت واحدة كان لونها الرمادي باهتاً قليلاً ، فأشرتُ إليها . «لا . إنها تلك الصخرة بالقرب من قدمك يا بوب» . إذاً ، أنا رجل ميت ! وكان أن تخلّى حزب الله عن الأشراك الملغومة الموجّهة باللاسلكي ، وراح يستخدم تقانة مناظرة تقانة نظام الهاتف الخليوي الجديد في لبنان ، الذي حقق نجاحاً باهراً . ابتكروا طريقة لطلب رقم قنبلة على الهاتف الخليوي فتنفجر حيث هي مدسوسة : يتربص المقاتل بدورية إسرائيلية ، وما أن تأتي حتى يطلب رَقماً على هاتفه الخليوي فتنفجر القنبلة . كيف سينجو الإسرائيليون بأنفسهم من هذا السلاح؟ بصنع مثيل له . أصبح بمقدور الإسرائيليين تفجير قنبلة بواسطة رقم على الهاتف . وبعدما أتقنوا استخدام هذا السلاح انتقلوا به إلى ساحة نزاع آخر ؛ راحوا يستخدمونه ضد أعدائهم الفلسطينيين .

وفي أحد المرات ، قطع انفجار رأس أحد انتحاري حركة «حماس» في قطاع غزة ، ما أن ردّ على رنين هاتفه الخليوي . وبعد سنوات ، في ٢٤ حزيران/ يونيو ٢٠٠١ ، توجه أسامة فتحي الجوابرة إلى كشك للهاتف في مدينة نابلس ، وما أن رفع السماعة حتى نسف انفجار رأسه عن جسمه . وسوف يُثبت لنا التاريخ أن وسائل أخرى أشد عنفاً بكثير سبق أن استُخدمت في حرب لبنان ، ستكون بالمرصاد للإسرائيليين .

ومع مرور السنوت ، كانت حالة الحرب والسلم في لبنان تتحرك بتساوق غريب أثار في ذاكرتي صورة واهية لحالة ألفتها في أواخر سبعينات القرن الماضي . فقد وجدت نفسي مرة أخرى أقود سيارتي وأتوجه فجراً إلى الجنوب لمشاهدة نتائج غارة جوية إسرائيلية أو قصف مدفعي إسرائيلي لقرية من القرى ، «انتقاماً» لهجوم شنه حزب الله ، سوف يستتبع بدوره ، هجوماً من الحزب يكون انتقاماً لغارة إسرائيلية . كان الإزدراء للعرف والتقاليد ورأي عامة الناس ، الكامن وراء الحرب في جنوب لبنان ، مرعباً . ولكنه لم يكن أكثر ترويعاً من ذاك التناقض الذي كان ماثلاً في العودة إلى بيروت ـ وقد باتت آنذاك أكثر المدن أماناً في الشرق الأوسط ـ لتناول العشاء في مطعم للمأكولات الفرنسية في الأشرفية ، أو على ضوء الشموع على شرفة منزلي المطل على ساحل البحر . لقد ولّى زمن الارتداد هلعاً عن الطريق ، وزمن التحديق في المرايا لمراقبة حياة مدينة تعجّ بالرهائن . أصبح بوسعي أن أمشي على الكورنيش متى شئت ، وأسبح يومياً ٥٠ دورة ، ذهاباً وأياباً ؛ في حوض فندق السان جورج القديم ، القريب من منزلي ، قبل أن أحمل هاتفي الخليوي وأذهب لأباشر عملي مع فنجان القهوة وقطعة الكرواسان . بدت آنذاك ، آلات التلكس وأجهزة الهاتف القديمة والخطوط الهاتفية المقطوعة في مكتب وكالة الأسوشيتدبرس ، أشياء مضحكة من الماضي . كنت أسأل نفسي كيف نجونا؟ كيف نجوت أنا بنفسي؟ في أحد الأيام ، جاءت سيارة تاكسي لتقلّني من أمام فندق الريفييرا . كان السائق صديقاً قديماً من أيام الحرب . قال لي بعدما ابتعدنا بضع مئات من الأمتار : «لقد حالفك الحظ يا سيد روبرت ، فما زلت حياً تُرزق . لقد حالفنا الحظ جميعاً» .

وبدأت أفكّر بأنني حقاً محظوظ . لم أُصب بخدش . وحتى فيما أنا أكتب هذا الفصل ، ألمس كرسيّ الخشبي ، أحوط نفسي ، لأنني ما زلت هنا ، أواصل تغطية حروب الشرق الأوسط . . لقد كنت شاهداً على مآس وهزائم ، على تدمير بلد بكامله ، ثم وجدت نفسي لا أزال هنا لأكون شاهداً على انبعاثه ، بعدما رفَضت المغادرة فيما كان الخاطفون يقضّون مضجع بيروت . وإذا كنتُ سعيداً ، فإنه شعور لم يخالجني دائماً . فالحرّ وفساد بيروت ، وقدرتها على مواصلة تدمير نفسها في زمن السلْم ، وفشل ناسها في تعلّم دورس الحرب ، وقدرتهم على إيذاء أصدقاء لي كنت أحبهم وأكترث لأمرهم ،

كل هذه الأمور بدأت تمسّ حياتي . المباني العثمانية القديمة التي أحببتها طوال تلك السنين ، هدمها بين ليلة وضحاها مُستثمرو العقارات ـ فالأرض أغلى من المُلك ـ وكانت تسويتها بالأرض تضارع عربدة التدمير الغريبة في وسط بيروت على يد شركة سوليدير .

في العام ١٩٩٢ ، كان دويّ الانفجارات اليومية الهائلة يصل إلى ناحية البحر آتياً من قلب المدينة المدمّرة حيث كانت سوليدير تستخدم المتفجرات لهدم واجهات وجدران المباني القديمة المتضررة من القذائف . لقد حافظوا بشغف على بعض تلك المباني التي ظلت قائمة في وسط دونمات من الأرض اليباب ، لكنهم لم يوفروا العديد من المباني الأخرى . لقد أمضيت نهاراً كاملاً في تلك الناحية ، أراقب الرجال الذين يحملون معدات التفجير . استخدموا أطناناً من الديناميت لنسف واجهات المباني العثمانية ذات الهندسة المُرهفة ، والنوافذ المعقودة وشرفات الحديد المطاوع ، والمكاتب ودور السينما والمقاهي المنسية منذ ردح من الزمن ، وحطام سوق الصاغة ، وحتى جزء من جدار المدينة القديم العائد للقرون الوسطى . كانت المباني ، مثلما يحصل لجدّاتنا وهن على وشك السقوط ، تنزلق على نفسها وتزحل بتثاقل على دعائمها المُنسحقة ، قبل أن تنهار بشيء من انقطاع الرجاء . كانت تلفُّنا أطنان من الغبار الرمادي والبنيّ بعد عملية النسف ، كمثل عباءة الخطيئة نتلّفحُ بها جميعاً ، فيما نحن نمحي من الوجود ما كان في بعض الأحيان صامداً منذ قرون . وفكرّت أنه ضرب من الخيانة ألا أشعر بالندامة وأنا أعيش هذه التجربة في المدينة التي كانت لزمن مديد موطني المحفوف بالخطر .

أجل ، كنت على ما أظن ، أشعر بالأمان أكثر من ذي قبل . كنت مرتاحاً وأستمتع بالسلام للمرة الأولى منذ خمسة عشر عاماً . لقد مرّت سنون طويلة قبل أن أتمكن من التخلّص من الذكريات . كنت كلما مررتُ في شارع القنطاري أتذكّر دائماً تلك المرأة العالقة داخل سيارتها ، تحترق حيّة وتتحول إلى هيكل عظمي أمام ناظري ، في أثر محاولة أحدهم اغتيال وليد جنبلاط بتفجير سيارة مفخخة . وكنت أرى عظام الإسمنت المتشققة لقاعدة المارينز الأميركية القديمة ، وأتبيّن آثار احتراق الانتحاري ، الذي فجرّ نفسه بالشاحنة المفخخة في العام ١٩٨٣ ، في اسوداد الإسمنت حول الحفرة التي خلّفها الانفجار ، وقد أصبحت مغطاة بالعُشب ؛ وأتذكّر القتلى الأميركيين وقد رُصّت جثثهم صفوفاً على الأرض .

في يوم من الأيام ، بعد مضي سنوات ، ركنتُ سيارتي في ذلك المكان ، وسرتُ نحو الخربة . كانت أسلاك الدعم الصدئة تتمايل مع هبات الريح الخفيف ، وكانت هناك شجرة فتية بأغصانَ كثّة متشابكة تنمو من قلب الحفرة . وما لبثتُ أن لمحت خلف حاجز من الأشجار ما حبس أنفاسي . . بدا

كمثل صلة حسيّة مع أولئك الموتى . فعلى الجدار الخلفي للقاعدة المطلي بالأسود ، كان عدد من شبان المارينز من الوحدة البرمائية الرابعة والعشرين قد نقشوا أسماءهم باللون الأبيض ، خلال الفترة التي سبقت ذلك الانفجار الذي أودى بثلث أفراد كتيبتهم : «السرجنت روبنسون ، ويلمينغتون ، كارولينا الشمالية ؛ الكوربورال پالاس ، هو بارت ، أنديانا ؛ الكوربورال رافين ، شيكاغو ، إلينوي . . .» وكانت بعض الأسماء غير مقروءة ، فقد محت حروفها كتل الشظايا من القنبلة البركانية .

ولم يكن بوسعي إطلاقاً عبور المدخل المؤدي إلى مخيمي صبرا وشاتيلا بدون أن تؤرقني ، جليّة شفافة ، صور تلك الجثث المغطاة بالذباب ، والمرأة التي عثرت عليها ميتة لتوّها في باحة بيتها وقد أحاطت برأسها هالة من ملاقط الغسيل . ومع ذلك ، كنت دائماً أعود إلى هناك ، سنة بعد سنة ، لأتحدث إلى الناجين . ولكنني مازلت أذكر أيضاً يوماً في أوائل ربيع العام ١٩٩٥ ؛ كان يوم أحد بارداً مُشرقاً ، وكنت أقود سيارتي عبر سفوح جبال الشوف متوجهاً لتناول طعام الغذاء مع وليد جنبلاط بقصره في المختارة . كنت أقود تاركاً نافذتي مفتوحة ، والريح تعبث بشعري ، أتنشّق رائحة أشجار الصنوبر والورد البرّي وأشاهد أشعة الشمس تتوهج زرقاء بين الأشجار . ثم أدركت فجأة ، أن الحرب قد سهت عن بالي طوال الرحلة .

إذا كان هناك من وحوش مازالت قابعة تحت التراب ، فإن بعض الذين ساهموا في تدمير لبنان قد ولّوا إلى الأبد . أو هكذا كنّا نظن . لقد أُجبر شارون على الاعتزال المخزي بعد مجزرتي صبرا وشاتيلا . وكان ياسر عرفات بعيداً في منفاه في تونس . ولكن ما لبث أن حلّ علينا العام ١٩٩٣ ، وتلك المصافحة المتلفزة بين عرفات ورئيس الحكومة الإسرائيلية إسحق رابين في حديقة البيت الأبيض . . وفي وقت أقصر مما استلزمته قراءة نصّ اتفاقية أوسلو لـ «السلام» المحكوم عليها بالفشل لعيوبها الفادحة . . أعيد اختراع ياسر عرفات ـ من الإرهابي الأكبر إلى رجل الدولة الأكبر . كان ذلك التغيير في صورة عرفات محفوفاً بالخطر . إذ متى فشلت اتفاقية أوسلو ـ كما كان محتماً لها أن تفشل ـ سوف يحوّلون عرفات حتماً إلى ذاك الإرهابي الأكبر مرة أخرى .

كنت أتناقش مع اللبنانيين . . مع رئيس الحكومة اللبنانية الجديد رفيق الحريري ، الفاحش الثراء ، ومالك ١٠ بالمئة من أسهم شركة سوليدير . . مع الكتّاب الفلسطينيين ، ومع محرري صحيفة «الأندبندنت» اللندنية التي أعمل فيها ، لأقنعهم بأن اتفاقية أوسلو شرك منصوب للفلسطينيين : فهي لا تكفل منح دولة للفلسطينيين ، ولا عاصمة لهم في القدس الشرقية ، ولا تكفل وضع حد لبناء المستوطنات اليهودية في الأراضي الفلسطينية المحتلة ـ والمسروقة في أغلب الحالات ـ ولا تضمن

حلاً لمئات الآلاف من اللاجئين الفلسطينيين الذين تذوي حياتهم في المخيمات ، ولا تقدم ضمانات دولية . ولكن كل هذا كان بلا جدوى . كان كل من يعارض أوسلو «عدواً» ، كما كانت تقول لي الرسائل العدائية على نحو متزايد ، التي كنت أتلقاها في صندوق بريدي .

بعد توقيع اتفاقية أوسلو ، خابرني أندرياس ويتام ـ سميث ، رئيس تحرير «الأندبندنت» الذي لم يتوان يوماً عن نشر تقاريري مهما بلغ اختلافه بالرأي مع ما تتضمنه . عرفتُ من كلامه أنه قد حسم موقفه من الاتفاقية ؛ قال لي : «أبلغني أصدقائي اليهود بأن هذه هي فرصة حقيقية للسلام» . وتساءلت يومها ، يا تُرى ماذا أبلغه أصدقاؤه المسلمون؟ لقد سخر الحريري من تحذيراتي ، وقال بثقة العرّاف : «إن السلام آت» . وأكدّ أن ورشة إعادة الإعمار في لبنان لم تكن تعوّل على نجاح اتفاقية أوسلو . سُررت يومها بسماع ذلك الكلام ، لكنني شككت في صحته . فعندما تنهار هذه الاتفاقية لن يعود هناك استثمارات ، ولا مداخيل تسدد كلفة إعادة إعمار لبنان . ومع حلول العام ٢٠٠١ ، وكان قد أُعلن موت «أوسلو» ، كان لبنان قد أصبح مديناً بمبلغ مذهل ، دولة تبلغ قيمة دينها ٢٤ مليار دولار أميركي .

وبالنسبة لي ، أصبحت بيروت مرة أخر مقرّي المعتاد ، أنطلق منها لأتابع مهامي في منطقتي الشرق الأوسط والبلقان . كنت أستقلّ الطائرة في وقت متأخر من بعد الظهر ، أو في ساعات الصباح الأولى ، وأتوجه إلى ساحات القتل الجماعي في الجزائر أو البوسنة . كان مسلخ صبرا وشاتيلا يبدو أقل فظاعة بالمقارنة مع سربرينيكا ، وقد عرَفَت مدينة بن طلحة الجزائرية درجة من الهمجية فاقت في هولها كل ما عرفه لبنان تقريباً . وفي وادي درينا في البوسنة في العام ١٩٩٥ ، كانت المقابر الجماعية تُملأ بالجثث بمعدل ٣٠٠٠ جثة باليوم الواحد . وفي الجزائر كانت الناس تُذبح بالمئات بالسكاكين والفؤوس ، تقطعُ رؤوسها وتمثّل بجثثها القوى الظلامية من الإسلاميين المتشدّدين ورجال الشرطة العسكرية السرية ، الذين روّعوا بلدهم . وبدا لي . . باستثناء هجمات حزب الله المعتادة والردود الإسرائيلية الروتينية . . أن لبنان قد أمضى مدة عقوبته في عذاب النار .

ولهذا ، عندما تمزّق مازن فرحات ، الفتى ذو الرابعة عشرة ، أشلاء ، وجُرح بالانفجار ولدان آخران في أحد المسالك بالقرب من قرية برعشيت في جنوب لبنان ، في أوائل نيسان/ أبريل ١٩٩٦ ، بدا الأمر مجرد حادث مأساوي آخر معزول ، في حرب العصابات المتواصلة في المنطقة . فقد كان المسلك ممراً يستخدمه حزب الله للتسلل إلى المنطقة التي تحتلها إسرائيل ؛ وكان من الطبيعي أن يتجه ظنّ الضباط الدوليين الإيرلنديين في المنطقة إلى أن فرحات قُتل بانفجار «صخرة» مفخخة إسرائيلية الصنع ، بواحدة من تلك الأشراك العديدة ، المفخخة والمنقولة ، التي كانت تُزرع في أنحاء

جنوب لبنان في تلك الأونة ، وتُفجّر عن بُعد بواسطة الهاتف الخليوي . . وقد توصل حزب الله إلى الاستنتاج نفسه ، فأطلق ثمانية عشر صاروخ كاتيوشا عبر الحدود ، أوقعت خمسة عشر جريحاً من المدنيين الإسرائيليين في كريات شمونة . كان ذلك في أعقاب اغتيال إسحق رابين في تل أبيب . . في الوقت الذي كانت الصحافة الإسرائيلية ، على دارج عادتها في حادث كهذا ، تصف قاتله اليهودي بـ«المتعصّب» عوضاً عن «الإرهابي» ، وكان زعيم حزب العمل ، رئيس الحكومة شمعون بيريس ، مرشحاً يسعى لنيل تفويض شعبي في الانتخابات الإسرائيلية . يومها ، استهان بيريس بمقتل الفتى فرحات ، وزعم أن إسرائيل ليست مسؤولة ، وأبلغ إلى العالم أن الهجوم الذي شنّه حزب الله لم يكن رداً على استفزاز . كان المشهد آنذاك استعادة لطيف من العام ١٩٨٢ ، عندما اجتاح شارون لبنان «انتقاماً» لهجمات فلسطينية بالصواريخ ، كانت بذاتها رداً على غارات جوية إسرائيلية . كان شمعون بيريس يعرف أن خصمه مرشح الليكود في الانتخابات ، بنيامين نتنياهو ، كان من رجال الكوماندوس في الجيش الإسرائيلي ، في حين كان هو بحاجة ماسّة إلى ما يزكّيه عند العسكر . ولهذا سيتحوّل بيريس ، الحائز على جائزة نوبل للسلام ، إلى بيريس المحارب ، في غضون أيام ، فيظهر عند الحدود بالسترة المموّهة الواقية من الرصاص ، ليعلن : «سنفعل ما ينبغي أن نفعله . . . هذه الحكومة لا تنتهج سياسة ضبط النفس» .

خامرني الشعور بأن ثمة شؤماً ينتظرنا . سمعنا من واشنطن الملاحظات المبتذلة إياها . فقد ناشدت وزارة الخارجية الأميركية الطرفين «ممارسة ضبط النفس» ، بحسب ما أبلغ الناطق باسمها إلى الصحافيين . كنت أعرف تلك الكلمات عن ظهر قلب . كنت أفهم مدلولها : آن الأوان لأسحب سترتي الواقية من الخزانة العليا لحفظ الملابس ، في شقتي . خابرت تيمور جوكسيل ، المتحدث باسم الأمم المتحدة في الناقورة . قال لي : «سيكون هذا أمراً عظيماً» . كان جوكسيل تركياً ضخم الجثة ، وكان يتكلم كعادته بإنجليزية سريعة ولفظ أجش ، فتنهال الكلمات على السامع دفعة واحدة بلا فواصل بينها . كان من عادته أن يتكلّم بسرعة فائقة إلى حد أنني كنت أسأله أن يضع لي عناوين فرعية لما يقوله . كان الأمر شبيهاً بعملية فكّ شفرة رسالة عسكرية : «إنس الاجتياحات ، سيكون الأمر هذه المرة قصفاً برياً وجوياً ، لكن العملية ستكون كبيرة . لا تغادر لبنان» . وفيما كنت أفكّ رموز كلمات جوكسيل ، كان جزء من دماغي يعود إلى العام ١٩٨٢ ؛ إلى عمليات القصف الجوي وقذائف المدفعية والجثث . لا يمكن أن يكون الأمر بهذا السوء . لا يمكن أن يقع المزيد من المجازر . لكنني كنت مخطئاً . ففي غضون أسبوع ، سأمشي في وسط دماء بشرية ، في كمٍّ من الدماء لم أشهد له مثيلاً من قبل .

الفصل الثامن عشر

المجزرة

«كان هناك رجل مُلقى على الأرض وقد انشطر قطعتين . وكانت هناك امرأة حامل استطعتُ أن أرى ذراع جنينها ورجله ناتئتين من بطنها . وكان هناك أيضاً رجل انغرزت شظية في رأسه . لم يكن ميتاً ، ولكن كنتَ تستطيع أن ترى قطعة معدنية في رقبته ، كما لو كان قد حُزّ عُنقه . طلبَ من ابنته أن تجيء وتساعده على النهوض . وسمعتها تجيبه قائلة : «انتظر لحظة . أحاول أن أجمع أخي ـ لقد انشطر قطعتين» . وكان هناك شقيقٌ آخر لها يحمل طفلاً بين ذراعيه . كان الطفل بلا رأس» .

فوزية سعد ، إحدى الناجيات من

مجزرة قانا في ١٨ نيسان/ أبريل١٩٩٦

«إنها الحرب ، وفي الحرب تحصل مثل هذه الأمور . . . إنهم مجرد مجموعة من العرب . فما بالك متأثراً إلى هذا الحد؟»

الرقيب «ي» في الجيش الإسرائيلي ، الذي قصفت بطارية مدفعيته اللاجئين في قانا ، كما نقلت عنه أسبوعية «كول هاإير» الإسرائيلية في ١٠ أيار/ مايو ١٩٩٦ .

كانت تلك أبواب الجحيم تتدفق عبرها الدماء كالمجاري ، كالسيول الجارفة . كنت أستطيع أن أشمّ الرائحة . تدفقت الدماء على أحذيتنا والتصقت بها كالصمغ ؛ كتلة دبقة تحوّلت من لونها الأحمر القاني إلى لون بنيّ ، ثم أصبحت سوداء . كانت الطريق المرصوفة المؤدية إلى مجمّع القوة الدولية زلقة بالدماء ، وقد تناثرت عليها أشلاء من اللحم والأحشاء . وفي حطام مطعم المجمّع المحترق كانت هناك سيقان وأذرع وأطفال بلا رؤوس ورؤوس مسنّين بلا أجساد . في رأس شجرة تحترق تدلّت قطعتان من جسد رجل . وكانت هناك فتاة تضم رجلاً تسلل الشيب إلى شعره . كانت ذراعها حول كتفه وهي تهدهد جثته بين ذراعيها جيئة وذهاباً . كانت العينان تحملقان فيها وهي تعوّل وتنوح ، وتصرخ باكية : «أبي ، أبي» .

ماذا فعل الإسرائيليون بحق السماء؟ لقد مزّقت قذائفهم اللاجئين اللبنانيين إرباً . كانت تتفجر في الهواء فتبتر الأعضاء وتجرح ، وتخترق شظاياها الأذرع والأرجل والبطون كشفرة المنجل . كانت الجثث في مخيمي صبرا وشاتيلا مصابة بالرصاص وبطعنات السكاكين وقد أزيلت أعضاء منها وانتزعت أحشاؤها على يد الميليشيات المسيحية المتحالفة مع إسرائيل . أما هنا فكانت الساحة كمثل مسلخ . كان الأمر رهيباً يستعصي على الفهم إلى حد أنني بكل بساطة لم أستطع أن أصدق ما تراه عيناي . وكان الذين أطلقوا هذه القذائف جنوداً إسرائيليين . كانت هناك أكوام من البطانيات المغمّسة بالدم ، معظمها يلفّ أشلاء أجساد . كان بعض جنود الكتيبة الفيجية يسيرون عبر هذا المسلخ حاملين أكياس النفايات البلاستيكية السوداء فيلتقطون إصبعاً من هنا وذراع طفل من هناك . كان الدخان الأزرق الذي لفّنا جميعاً يحمل رائحة الدم المتفحّم . وظلّت تحضرني لوحة هيرونيموس بوش البانورامية عن الجحيم .

توقف جندي من القوة الدولية في وسط بحر من الجثث ، وبدون أن ينبس ببنت شفة ، رفع جثة طفل مقطوعة الرأس . ثم جاء جندي آخر ليقول : «أبلغنا الإسرائيليون لتوّهم بأنهم سيوقفون قصف المنطقة» . ثم سأل : تُرى هل من المفترض أن نشكرهم؟» . وفي المشهد خلفه بدت كومة من الجثث المكدّسة تحترق في وسط حطام غرفة اجتماعات الكتيبة الدولية ، بعدما انهار عليها السقف المشتعل ، وراحت ألسنة النار تأكلها أمام ناظري . وعندما خطوت متوجهاً نحوها انزلقتُ على يد بشرية .

التقيت بجندي آخر يقف شابكاً ذراعيه ، محاولاً أن يفهم ما شاهده لتوّه . قال : «لقد سبق أن أطلق رجال حزب الله ستة صواريخ كاتيوشا من نقطة على مقربة من موقعنا . وبعدها بدقيقتين ، تساقطت القذائف . ولكن الإسرائيليين يعرفون أننا هنا . إن هذا المكان مقر كتيبة دولية منذ ثمانية عشر عاماً . كانوا يعرفون أننا نأوي ٦٠٠ لاجئ هنا» . بالطبع كانوا يعرفون . كان الإسرائيليون يعرفون أن مجمّعات القوة الدولية البالغ عديدها ٤٥٠٠ عسكري ، تزدحم بنحو ٥٢٠٠ من الفقراء المُدقعين غير القادرين على الهرب إلى بيروت . وقد أبلغتهم الأمم المتحدة بذلك . وكان مقرّ الكتيبة الفيجية موسوماً بوضوح على خرائط إسرائيل . كما أن شارات الأمم المتحدة كانت موسومة على المواقع التي تشغلها القوة الدولية والتي كانت تُضاء ليلاً . لم يكن في جنوب لبنان من يجهل مواقعها ولا حتى حزب الله . ولم تكن تلك المرة الأولى التي يطلق فيها المقاتلون صواريخهم على الإسرائيليين من نقطة قريبة من موقع لقوات الأمم المتحدة . وهل يبرر إقدام حزب الله على اغتنام الفرصة لاستهداف الإسرائيليين هذه المشاهد التي نقف أمامها الآن؟

وصلت قوة من الجنود الفرنسيين في هذه اللحظة . تقدم جندي منها ، وكان شاباً قصّ شعره قصاً قصيراً ، ففتح حقيبة وهو يتمتم بالسباب ، ثم راح يلقي فيها أقداماً وأصابع وأشلاء أذرع بشرية ، فيما راح جنود آخرون من الفرنسيين والفيجيين يتعاونون على وضع مجموعة من الجثث في البطانيات . كان مشهد الجثث مثيراً للشفقة . كان أصحابها يضمون بعضهم بعضاً بشدة . لقد أصبح مجمّع الأمم المتحدة مكاناً لحفظ جثث الموتى .

وفيما كنا نسير وسط هذه الفظاعة ، اندفعت جمهرة من الناس إلى داخل المجمّع . توجهوا نحونا عبر مجاري الدم وقد أصابهم الذهول . جاؤوا في قوافل جامحة من مدينة صور وراحوا ينزعون البطانيات عن الجثث المشوّهة ، جثث أمهاتهم وأبنائهم وبناتهم ، ثم بدأوا بالصراخ والتكبير وتهديد الأمم المتحدة . لم نعد جنوداً ولا صحافيين . أصبحنا غربيين حلفاء إسرائيل ، وموضع بغض وحقد . حملق بنا أحدهم وكان ملتحياً ، ووجهه ممتقعاً بالغضب الشديد ، وراح يصرخ بنا : أنتم أميركيون . الأميركيون كلاب . لقد ارتكبتم هذه الفعلة . الأميركيون كلاب» .

أحد مسؤولي الأمم المتحدة الذي عاش ما يزيد على أسبوع تحت نيران القصف ، انهار بكل بساطة ، ولم يتمالك عن البكاء وهو يتكئ على ذراع ضابط سويدي من القوة الدولية . وكان كثيرون غيره من الجنود الفيجيين ينتحبون ممسكين أحياناً بأيدي بعضهم بعضاً . وكنا نسمع هزيم نيران القنابل حول قانا ، ونسمع صفير القذائف تشقّ الأجواء تباعاً من فوقنا . لكننا كنّا قد فقدنا القدرة على الإحساس بالخوف . بدأت أكبس الأرقام على هاتفي النقّال ، هناك في وسط الروائح المنتنة والدمار والقذارة . تمكنت من الاتصال بدائرة الشؤون الخارجية في صحيفة «الأندبندنت» . كنت مرتاعاً مما يحيط بي بحيث وجدتني أستمع إلى صوتي يصف كل ما أستطيع رؤيته من حولي بدقة طبية باردة . وعلى الرغم من الصراخ تمكنت من سماع صوت ستيف كروشو على الخط من مكتب الصحيفة في «كناري وارف» في لندن . لقد قرأ لتوّه التقارير الأولى من البرقيات . قال : «يرى مايكل وليامز وجوب دمج هذه العملية مع عملية قتل السياح اليونانيين في القاهرة» . فانفجرت صارخاً به : «لا يا ستيف ، لا لا !» . ففي ذلك الصباح عينه ، كان مواطن مصري قد أقدم على قتل مجموعة من السياح اليونانيين لظنه بأنهم إسرائيليون . كانت عملية قتلهم مروّعة . لكن دمج العمليتين كان ضرباً من الجنون . فمجزرة قانا سيكون لها أصداء في أنحاء العالم . ولكن ، ألم يكن عين الجنون هنا تحديداً في قانا؟ وما الذي أفعله هنا في هذه الجَمْجَمَة ، أحاجج بالأولويات الإخبارية وأنا أقف بالقرب من القتلى؟

لقد أدركت هول المأساة في غضون ثوان من سقوط أولى القذائف ، لأنني كنت مصادفة ، أرافق قافلة للأمم المتحدة وبالكاد كنا على مسافة ميلين من قانا عندما أُطلقت . كنت ولارا مارلو قد أمضينا

يوم ١٨ نيسان/ أبريل مع تلك القافلة التي تنقل المؤن إلى مواقع الكتائب الدولية في جنوب لبنان تحت قصف القنابل . وحدث يومذاك أثناء اجتيازنا الطريق الساحلي أن ألقينا بأنفسنا من المركبة التي تقلّنا عندما قصفت الطائرات الحربية الإسرائيلية بيتاً قريباً جداً من الطريق السريع إلى حد أن أجزاء من سقفه وشرفته تطايرت فوق رؤوسنا . وأثناء انتقالنا عبر المناطق الريفية متوجهين إلى مقر الكتيبة الإيرلندية ، عمد النقيب مايك ليندفال ، وهو ضابط الارتباط السويدي في القوة الدولية وصديق حميم لي ، إلى إشعال الراديو ليستمع إلى إذاعة البي . بي . سي . كان المذيع يقول إن طيار هليكوبتر إسرائيلية قد أطلق للتو قذيفة على بيت في بلدة النبطية ، أدت إلى مقتل عائلة مؤلفة من ١١ شخصاً ، من بينهم طفلة لا يتجاوز عمرها الأربعة أيام . وسوف يزعم الإسرائيليون فيما بعد أنهم شاهدوا رجلين من حزب الله يهرعون إلى داخل هذا المنزل . ولكن لم يكن بين القتلى فيه رجال من حزب الله . وهزّ مايكل رأسه غير مصدق وتساءل : «إلى متى تستمر هذه الحال؟» .

أنزلنا المواد الغذائية إلى المخيم في تبنين الذي كان أطفاله تحت رعاية الكتيبة الدولية الإيرلندية . وكنا في طريق عودتنا إلى صور عندما سمعنا سقوط القذائف الأولى . كانت قانا القائمة على هضبة ، على يميننا ، وكانت بطارية المدفعية الإسرائيلية على يسارنا ، تُطلق قذائفها جنوباً ، من داخل المنطقة التي تحتلها إسرائيل . كانت القذائف تمر من فوق رؤوسنا ، وكنا نستطيع سماعها وهي تسقط محدثة صوتاً مكتوماً قوياً داخل مركبتنا الدولية ذات الهيكل الرقيق . عمد قائد القافلة الآمر الإيرلندي إيمون سمايث ، إلى رفع صوت الشبكة اللاسلكية الخاصة بالقوة الدولية ، وفي غضون ثوان سمعنا صوت جندي على الهواء : «مقرّنا يتعرض للقصف» . رمقني سمايث بنظرة عجلى وسأل : «ماذا يقول؟» . لم يستطع تصديق ما سمعه مثلما هو الحال دائماً في الحرب . ثم سمعنا مقرّ القوة الدولية في الناقورة يطلب تأكيداً للأمر . فجاء الجواب من الفيجيين في قانا : «إن القذائف تتساقط هنا الآن» . من بعدها ، جاءنا صوت ضابط الارتباط في الجيش اللبناني ، الذي يعمل انطلاقاً من منزل يقع مقابل مجمّع قانا . كان يصرخ قائلاً : «أسمع صوت الموت» . وقال صوت آخر لضابط إيرلندي على ما بدا لي : «إنني بصدد الاتصال بالجيش الاسرائيلي» .

لكن هسهسة القذائف العابرة من فوقنا لم تتوقف . وكانت أصوات انفجارها تبدو لنا أقرب كلما اقتربنا من قانا . كنت وسمايث نعرف ماذا يجري . كنّا نعرف جيداً ماذا يمكن لقذائف المدفعية أن تفعله بجموع من البشر حُشرت في مكان يضيق بها مثلما كانت حال تلك الجموع المحشورة في مُجمّع القوة الدولية . وجاء الصوت الفيجي على الهواء مجدداً . كان يصرخ : « الناس تموت هنا . نحتاج إلى النجدة» . كانت التلال إلى الجنوب تعيق بثّ الفيجيين ، فحوّل سمايث مفتاح جهاز

اللاسلكي وكرّر الرسالة ، وسمعنا صوتاً ضعيفاً آتياً من الناقورة يحاول أن يجعل كلامه مسموعاً . كان يكرر قائلاً : «النجدة في طريقها إليكم . النجدة في طريقها إليكم» . ومع ذلك ظلّت القذائف تعبر فوقنا وتسقط على قانا . بلغ عددها عشر قذائف حتى اللحظة . وعاد الصوت من الناقورة يقول : «طائرات الإغاثة الطبية في طريقها إلى هناك لإجلاء المصابين» . ولكن كان الأوان قد فات .

والأوان يفوت دائماً . عندما شن (شمعون) بيريس هذه الحرب الأخيرة ، وكان اسمها الخبيث «عناقيد الغضب» ، أتحفونا بالهراء المعتاد عن الحرب على «الإرهاب» ، والحرب ضد «الإرهاب الدولي» ، وعن إسرائيل التي «لن تجلس مكتوفة الأيدي» : الإرهابيون . الإرهابيون . الإرهابيون . غسلُ الدماغ نفسه الذي أثرّ بعمق في الجنود الإسرائيليين الذين غزوا لبنان قبل ١٤ عاماً . والإسرائيليون الذين أطلقوا القذائف على قانا كانوا على الأرجح طلاباً في العام ١٩٨٢ ، لكنهم مع ذلك ، كانوا يؤمنون بالأوهام نفسها . وفي اليوم الأول للقصف أطلق الإسرائيليون صاروخاً على مقرّ «إرهابيين من حزب الله» في بيروت ، لكنهم لم يتمكنوا من إصابة مكاتب الحزب وقطع الصاروخ رأس فتاة صغيرة في شقة مجاورة . ثم أطلقوا صاروخاً آخر على سيارة تقلّ «إرهابياً» إلى بيروت ولكن السيارة لم تكن تقلّ «إرهابياً» ، وقتَلَ الصاروخ سائق السيارة ـ كانت امرأة شابة توقفت لشراء سندويش من محل يقع قبالة محطة توليد الطاقة في بلدة الجية .

قبل مجزرة قانا بخمسة أيام فقط ، أطلق طيّار هليكوبتر إسرائيلية من طراز أباتشي صاروخاً على سيارة إسعاف جنوبي صور . وأعلن الإسرائيليون أن السيارة كانت تقلّ إرهابيين . لكن الأمر لم يكن كذلك . كانت السيارة محمّلة بعائلات هاربة من قريتها التي تتعرض للقصف ، عملاً بالتعليمات بالمغادرة التي سمعتها من محطة إذاعة الميليشيا التابعة لإسرائيل . وقد قُتل في سيارة الإسعاف يومذاك امرأتان وأربعة أطفال . وسوف أتعرّف لاحقاً على الناجين وألتقي كل واحد منهم . لم يكن بينهم من ينتمي إلى حزب الله . في الواقع ، كان السائق وعائلته قد سبق لهم أن ذهبوا إلى ألمانيا طالبين اللجوء السياسي ، لكن السلطات الألمانية أقدمت على ترحيلهم إلى بيروت بحجة أن أرواحهم ليست في خطر في جنوب لبنان . ومع ذلك لم يكفّ الإسرائيليون عن الإدعاء بأن سيارة الإسعاف كانت تقلّ إرهابيين . وهم لم يعتذروا إطلاقاً . ولقد جمعت بنفسي معظم أجزاء ذلك الصاروخ وشريط الشيفرة الألكتروني المزوّد به . وسوف أحمل بعد أشهر ما جمعته من حطام الصاروخ ، وهو من طراز AGM114C ، وأعود به إلى صانعيه في شركة «بوينغ» ، وأضع الصور الفوتوغرافية للقتلى المدنيين على طاولة اجتماعات مجلس إدارة الشركة ، وأسأل رئيس الفريق صانع الصاروخ ما إذا كان يعتقد أنه يتحمّل أي مسؤولية عن مقتلهم . كان جوابه منوّراً . قال : «مهما فعلتَ ، لا أريدك أن تنقل عن لساني أي انتقاد لسياسات إسرائيل» .

كانت القصة القديمة عينها . ففي مساء السادس عشر من نيسان/ أبريل ، قبل يومين فقط من مجزرة قانا ، كانت هاني هيمي زوجة نائب رئيس بلدية كريات شمونة ، الضحية الإسرائيلية الوحيدة التي أصيبت بحروق خطيرة بانفجار صاروخ كاتيوشا أطلقه حزب الله ، في سيارة في البلدة . وحتى ذلك التاريخ ، كان حزب الله قد أطلق ١٢٠ صاروخ كاتيوشا بالضبط ، عبر الحدود ، وكان السكان الإسرائيليون على طول الحدود يمضون لياليهم في الملاجئ . وبالمقابل ، كانت إسرائيل تُطلق على لبنان ثلاثة آلاف قذيفة يومياً ، في حين كان سلاح الجو الإسرائيلي يُطلق في غاراته اليومية ٣٠٠ صاروخ كل ٢٤ ساعة ، وكان نحو ٤٠٠ ألف مدني لبناني يتدفقون على الطرقات متوجهين إلى بيروت ، وغالباً تحت نيران قذائف الزوارق الحربية الإسرائيلية التي كانت تجوب مياه الساحل وتطلق النيران على المركبات العابرة للطريق السريع الساحلي ـ لأن «الإرهابيين» طبعاً كانوا يستخدمون الطرقات . وبالإجمال ، سوف تموت حفنة من الإسرائيليين شمالي الحدود ، ولكن سيُقتل أكثر من ٢٠٠ مدني لبناني و١٣ عنصراً من مقاتلي حزب الله ـ المفترض أن يكون هدف الإسرائيليين ـ خلال عملية «عناقيد الغضب» . والأرقام بذاتها منوّرة . ففي القصف الإسرائيلي لجنوب لبنان في العام ١٩٩٣ ، قُتل ١٩٣ لبنانياً ، ولكن لم يسقط إسرائيلي واحد في ذلك الهجوم . ومع ذلك ، لم يجرؤ أي رجل دولة عالمي بارز على انتقاد إسرائيل إلا بعد مجزرة قانا .

ماذا حصل في قانا إذن؟ هل كان الإسرائيليون يعرفون أنهم يطلقون القذائف على قاعدة للأمم المتحدة تكتظ باللاجئين؟ أم كان الأمر مجرد «خطأ مؤسف» ، كما زعم إيهود باراك ، وزير الدفاع في حكومة شمعون بيريس ؛ خطأ جهاز الكومبيوتر في تعيين موضع المدفعية الإسرائيلية ناتج عن خطأ في إحداثيات الخارطة؟ ومن أي مكان في قانا كان مقاتلو حزب الله يطلقون قذائف الهاون؟ وعلى أي هدف؟

في الأيام التالية للمجزرة ، فيما كان القصف المدفعي مستمراً ، وبعد وقف إطلاق النار الذي التمسه بيريس ، قمت بزيارة المئات من الناجين ، ومعظمهم من الجرحى في مستشفيات جنوب لبنان . وأمضيت ساعات في معاينة مجمّع الأمم المتحدة في قانا مع ضباط إيرلنديين من مصلحة المعدات ، وأجريت مقابلات مع قائد القوة الدولية الفيجية ورجاله . وحدث أن التقيت رجلاً مسنّاً جريحاً في المستشفى في صور قال إنه يتذكرني : «أصبنا ولدي وأنا في القصف الإسرائيلي عام ١٩٩٣ . أعجب ابني بك آنذاك ، لكنه قُتل في قانا» .

وفي السنوات التي تلت مجزرة قانا في العام ١٩٩٦ ، اتخذت المأساة أحجاماً خرافية في لبنان بقدر ما جرى التقليل من أهميتها كحادثة تافهة في إسرائيل . وسوف يجانب الإسرائيليون الحقيقة على

غرار اللبنانيين الذين سيزعمون أن أي مقاتل من حزب الله لم يكن يطلق القذائف من القرية ، وأن الإسرائيليين أطلقوا على المدنيين اللبنانيين قذائف تحتوي على الآلاف من الأسهم الفولاذية الدقيقة . إذ سوف يتقدم بيريس بنفسه ليعلن أن مقاتلي حزب الله أطلقوا نيرانهم من داخل قاعدة القوة الدولية ، وهو زعم لم يكن فيه شيء من الصحة على الإطلاق . وسوف يغيِّر الإسرائيليون في شهاداتهم فيما بعد ، عندما يدلون بها إلى فريق التحقيق الخاص الذي شكلّته الأمم المتحدة ، ويعترفون بأن ما صرحوا به سابقاً لم يكن صحيحاً .

وعلى الرغم من عشرات آلاف الكلمات التي كُتبت في الصحف والتقارير الرسمية فيما بعد ، فإن هذا الكتاب هو الأول الذي يقدم الرواية الكاملة المفصّلة للدقائق السبع عشرة الدامية في قانا ؛ إنه بالفعل الرواية المفصّلة الوحيدة للمجزرة كما رواها الناجون . كان التحدث معهم تجربة تحمل المرء على التواضع ، وقد أدركت ، وليس للمرة الأولى ، أي صلابة وأي شجاعة يمكن أن يتحلى بها الشعب اللبناني . كان معظمهم يتكلم للمرة الأولى عن موت عائلاتهم ؛ فمن نواحي عديدة انتهت حيواتهم في قانا مع حيوات أقربائهم . وحتى أولئك الذين رفضوا أن يتحدثوا مع أطبائهم وصفوا لي ما حصل لهم لإدراكهم بأن عائلاتهم التي فقدوها سوف يكون لها تذكار في روايتي لمجزرة قانا . ولهذا أهديت إلى هؤلاء هذا الفصل من «ويلات وطن» الذي يشكّل على الأرجح سجلاً لمعاناة المدنيين في أفظع صورها .

ومع أن معظم الناجين كانوا ، على نحو بيّن ، لا يزالون تحت وقع الصدمة من الفظاعة التي كانوا شهوداً عليها ، فقد تحدثوا عن مشاهدة آلة ستكون ، فيما بعد ، عنصراً حاسماً في تقرير ذنب إسرائيل أو براءتها ، وفي تحديد ما إذا كان رجال المدفعية الإسرائيليين يعرفون بأنهم سيقصفون المدنيين . كانت تلك الآلة طائرة الاستطلاع بلا طيار من طراز MK ذات المحرك المزدوج . إنها طائرة بلا طيار ، على متنها آلات تصوير تلفزيونية تنقل الحدث مباشرة . وقد سبق لأهالي جنوب لبنان أن شاهدوا هذه الطائرات الإسرائيلية الصغيرة من قبل . وفي قانا ، أطلقوا عليها اسم «أم كامل» . وقد ذكر الناجون أنهم شاهدوا طائرة كهذه تحلق في أجواء القرية قبل المجزرة . كانت الأمطار قد هطلت في وقت مبكّر من صباح السادس عشر من نيسان/ أبريل ، ولكن الحاج قاسم عزام من قرية صديقين القائمة على مرتفع ، الذي جاء بعائلته إلى قاعدة الكتيبة الفيجية قبل ثمانية أيام ، ناشداً السلامة ، شاهد «أم كامل» بأم عينيه ، تحلّق فوق القرية قبل الظهيرة . وسوف يخبرني هذا الكهل السبعيني الذي كان في الماضي عاملاً في سبك المعادن ، أن الطائرة خلّفت وراءها سحابة من دخان منطلق من مراوحها . وقد شاهد هذه الطائرة أيضاً الطالب كامل سعد ، البالغ من العمر ١٦ عاماً . وفي قاعدة الكتيبة الفيجية في قانا ،

المؤلفة من ١٥٠ جندياً يعتنون بـ ٥٦٠ لاجئاً لبنانياً تحت علم الأمم المتحدة ، أبلغ اثنان من الجنود آمر الكتيبة ، الكولونيل وامي وكانيفانالاجي ، أن الطائرة الإسرائيلية بلا طيار من طراز MK ، تحلّق فوق القاعدة . وعلى بُعد ميل من قانا ، في الموقع الدولي ١ ـــ ١٥ ، بالقرب من مقر قوة الاحتياط الدولية النقالة ، رصد جندي نرويجي أيضاً طائرة الاستطلاع بلا طيار من طراز MK ، وهي تمر من فوق الوادي ، وتنطلق باتجاه قانا .

و MK هو بالطبع ، مجرد الاسم التقني للطائرة بلا طيار التي يستخدمها سلاح المدفعية لاستكشاف الأهداف . لكن القرويين من سكان المرتفعات في جنوب لبنان ، ومعظمهم من مربّي الأغنام ، أنسنوا هذا الحضور الباعث على الغمّ ، لأحدث طائرات التجسس الإسرائيلية ، لكي يهدئوا من مخاوف الأولاد . فلفظة حرف M تكاد تطابق كلمة أم بالعربية ، ولفظة حرف K هي الكاف بالعربية ، الحرف الأول لاسم العلم المذكر ، كامل . وقد حرص سعد الله بلحص على إفهام أولاده وأحفاده ، البالغ عددهم مجتمعين ٢٠ ولداً ، بألا يخشوا شيئاً من «أم كامل» عندما يسمعون أزيزها وهي تمر من فوقهم . وقد تذكر بلحص ذلك اليوم قائلاً : «كانت الطائرة في أجوائنا طوال ذاك الصباح . وكانت هناك طائرة عمودية أيضاً تحلّق إلى الغرب من القرية ، وطائرة أخرى أكبر حجماً كانت تحلّق عالياً وتثير ضباباً خلفها» . وكان مراقبو الأمم المتحدة قد رصدوا طائرة «أواكس» على علو مرتفع ، جالت فوق الجنوب اللبناني ذاك الصباح مخلّفة وراءها سحابة من بخارها الكثيف .

وقبل مجزرة ١٨ نيسان/ أبريل بوقت قصير ، رصدت وحدة من الجنود الفيجيين حضوراً آخر كان مثيراً للقلق : ثلاثة عناصر ملتحين من حزب الله كانوا يطلقون قنابل الهاون من مدفن قديم على مسافة ٣٥٠ متراً من القاعدة الدولية . وكان النقيب بيو قد شاهد قبل ذلك أربعة عناصر آخرين من الحزب ، على مقربة من الطريق العام لبلدة قانا . قال : «رأيتهم يطلقون قذائف الهاون . كانوا يرتدون السترات الواقية والخوذ الفولاذية . راقبتهم بمنظاري» . لقد كانوا ربما على مسافة ٦٠٠ متر من المجمّع الدولي . ولكن ضابط الاتصالات الدولي ، النقيب روني ، لم يتلق أي إنذار بالقصف من الإسرائيليين ، كما هو معمول به عادة ، عندما ينوي الإسرائيليون القصف بالمدفعية على أهداف تقع ضمن منطقة عمليات الكتيبة الدولية . ومع ذلك ، بلغ قلق الفيجيين أشدّه بعد إطلاق عناصر حزب الله قنابل الهاون ، فأصدروا الأوامر بواسطة جهاز الاتصالات إلى كافة الجنود بوجوب ارتداء السترات الواقية والاستعداد لنقل اللاجئين إلى الغُرف المحصّنة تحت الأرض .

كانت الساعة قد جاوزت لتوّها الثانية بعد الظهر . وقد استطاع القريون ، الذين اكتسبوا من المعاشرة شيئاً من اللغة الفيجية ، فَهْمَ ما أُعلن عبر جهاز الاتصال . وقال كامل سعد مستعيداً اللحظة :

«ذهبنا جميعاً إلى الغرف التي تقيم فيها عوائلنا» . وظنّ سعد الله بلحص أن لديهم مهلة خمس دقائق تقريباً . وسوف يخبرني فيما بعد جندي فيجي ، وهوتحت وقع الصدمة ، أن العديد من الأمهات لم يستطعن العثور على أولادهن ـ كان الأولاد يلعبون في نواحٍ أخرى من المجمّع ، الذي كان قائماً على مساحة خمسة فدادين ، وقد رفضوا النزول إلى الغرف المحصنة تحت الأرض . قال : «رحنا ندفعهم دفعاً إلى غرفنا المحصنة ونحشرهم فيها حتى لم يعد هناك من مُتّسع لنا . كان البعض يبكي ، وكنا نطلب من الآخرين الذهاب إلى الأماكن التي كانوا يقطنون فيها» . كان اللاجئون يقبعون في هذه الغرف الحارة تحت الأرض ملتزّين بعضهم ببعض . وقال الكولونيل وامي : «كانت غرفنا المحصنة تحت الأرض مخصصة لمئة وخمسين جندياً ولكننا حشرنا فيها نحو ٤٠٠ شخص وربما أكثر . لم يعد هناك من متّسع فيها» .

وفي الدقائق التي تلت التحذير الفيجي ، اندفع إلى المجمّع نحو ٣٠٠ شخص آخر من أهالي القرية الذين كانوا قد بقوا في بيوتهم حول القاعدة الدولية . ولجوا البوابات مذعورين يبحثون عن ملجأ ، وكان بينهم ، على ما تذكرّ أحد الجنود ، واحد على الأقل من رجال حزب الله الثلاثة أنفسهم . وبات عدد اللاجئين في مخيم قانا الدولي نحو ٨٥٠ مدنياً . وسوف يتذكر الناجون من الرعب الآتي أين كانوا في الثواني التالية . الحاج عزّام افترش الأرض في غرفة أحد الضباط الدوليين ، بالقرب من البوابة الخلفية ، مع زوجته رضيّة وابنه محسن وزوجته ؛ وكامل سعد لاذ مع والدته فوزية ذات الخمسين عاماً ، وأحد أبناء عمه ، إلى غرفة مجاورة مع عشرين آخرين ؛ في حين أن سليمان خليل ، وهو عامل في الثالثة والعشرين من عمره ، من قرية جبال البطم التي تعرضت كثيراً للقصف ، كان قد تسلّم لتوّه حصته من وجبة الغذاء وقفل عائداً إلى البيت المخصّص للجنود الدوليين حيث كان يقيم . أما أولاد سعدالله بلحص فكان عليهم حمله إلى غرفة اجتماعات الكتيبة الفيجية ، التي كانت بناء مستطيل الشكل من الحديد المموّج ، ذا سقف خشبي . فقد كان سعدالله لا يزال في مرحلة الإبلال من عملية زرع في العظم استوجبتها الجراح التي أصيب بها إبّان القصف الإسرائيلي في العام ١٩٩٣ وكانت ساقه اليمنى لا تزال في قالب الجبس .

كان أفراد أسرته الموسّعة المحشورون كلهم في الغرفة نفسها ، يجلسون من حوله :

زوجته زينب وأبناؤه غالب وعلي وفياض ومرهج وخليل ومحمد وإبراهيم ومحمود ؛ وبناته الست ، نجيبة ونايلة وفاطمة وزهرة وأمل وخديجة . وكان العديد من أولاده ما زال يافعاً : فاطمة في السادسة عشرة وأمل في الثانية عشرة ، ولم يكن محمود قد جاوز الخمس سنوات . وكانت زهرة زوجة علي محشورة أيضاً في الغرفة مع أولادها ـــ زينب ذات السنوات السبع وعباس ذو السنوات

الست وفاطمة ذات السنوات الخمس وسعدالله ذو السنوات الثلاث ، بالإضافة إلى ولدهما الأصغر حسّان البالغ من العمر أربعة أشهر فقط . وكان يلوذ في الغرفة نفسها أشقاء سعدالله ـ محمد ورحمة الله وزوجته مع خمسة أولاد ، وحفيدة وابنة أحد أحفاده . كان بعض الأولاد يبكون ، لكن معظمهم كان يلوذ بالصمت .

وكانت عائلة نايلة برجي في تلك الغرفة الضيقة نفسها مع بلحص وأولاده . كان هناك والدها عباس ذو السنوات التسعين ووالدتها خيرية وشقيقاها حسين ومصطفى ، وزوجة حسين فاطمة ، مع أولادهما الثلاثة ، منال في الخامسة عشرة ومريم في الحادية عشرة وإبراهيم الذي لم يكن قد تجاوز السادسة من العمر . وكانت معهم أيضاً غادة ، شقيقة نايلة ، ابنة العشرين ، وولداها وابنة شقيقة لها أخرى ، تدعى سكينة ذات الثلاثين عاماً مع أربعة أبناء عمّ . أما نايلة نفسها ، فكانت تقف عند باب إحدى الغرف المحصّنة .

وفي الساعة الثانية والدقيقة الثامنة من بعد ظهر ذلك اليوم ، وكان الكولونيل وامي متأكداً من الوقت ، انفجرت أولى القذائف الإسرائيلية بالقرب من برج خزّان المياه الخاص بالقوة الدولية ، على مسافة عشرة أمتار فقط من النقيب پيو ، العسكري عينه الذي كان قد شاهد عناصر حزب الله بمنظاره قبل الواقعة . كان پيو يقف خلف برّاد الطعام الخاص بالكتيبة ، الموضوع في الخارج بالقرب من البوابة الرئيسية . قال : «عثرت على شظايا كبيرة في سترتي الواقية بعد ثلاثة أيام . لم يصبني شيء منها . وقد ركضت حول المبنى وطلبت من الجنود الالتصاق بالجدران . وكان هناك أيضاً اثنان من اللاجئين اللبنانيين ، وطلبت منهم الاحتماء ، فسارعوا إلى الدخول إلى غرفة الاجتماعات . وعندما بلغتُ الملجأ الواقي من القنابل وجدته مكتظاً . حاولت أن أدفع المزيد من الناس إلى داخله . ثم انهمرت القنابل» .

كان سعدالله بلحص يجلس مع أفراد أسرته الموسعة في غرفة الاجتماعات . كانوا نحو أربعين يجلسون حوله ملتزّين بعضهم ببعض ، ولم يكن سقف الغرفة الخشبي ليقاوم حتى رصاصة واحدة ، فكيف بقذيفة تصيبه . وكان عدد من النسوة يتلون الصلوات طالبين حماية الله ، قبل أن تسقط القذيفة الإسرائيلية الثانية التي تحمل صمامة تقاربية تفجّرها عند اقترابها من الهدف . وسوف تنفجر هذه القذيفة على علو سبعة أمتار من الأرض وتقطّع أوصال البشر . وقد انفجرت مباشرة فوق غرفة الاجتماعات . قال سعد الله بلحص مستعيداً اللحظة : «حصل انفجار رهيب ، وكان أول ما شعرت به سائلاً ساخناً يغطي الجانب الأيمن من وجهي . إلتمع وهج ناري عظيم وأحسست بأنني أحترق . كنت أصمّ . لم يعد هنالك قذائف تتساقط . . . واختفت المسافة الفاصلة بين دوي الانفجار والآخر . كنت

ما أزال واعياً ، وشعرت بالدم ، بدم غزير ينساب على وجهي . مسحته بيدي ثم مسحت يدي بالفراش . وكان الكل يبكي ويصرخ» .

وفي غرفة الاتصالات اللاسلكية الفيجية بنوافذها المحطمة ، كان ضابط فيجي يجثم وحده على الأرض تحت هسهسة الشظايا المتطايرة ، ويرسل نداء النجدة ذاك الذي كنت أسمعه مع الآمر سمايث ولارا من جهاز مركبتنا في تلك القافلة الدولية التي كنّا نرافقها . كان يصرخ قائلاً : «مقرّنا يتعرض للقصف ، وقد دُمّر أحد مباني المقرّ» . وبعد قليل سمعنا صوت ضابط الارتباط في الجيش اللبناني في قانا ، يقاطع الإرسال ، قائلاً بصوت جهوري : «أسمع صوت الموت» . كان يقف إلى جانبه ضابط لبناني أعلى منه رتبة ، وقد شاهد بوابات المجمّع الدولي الخلفية تُفتح على مصراعيها لتندفع منها كالقطعان أفواج من الجرحى بلا أذرع ، ومنهم كثيرون بلا أرجل ، يفرّون هاربين على جدوعهم ، تاركين خلفهم «أنهاراً من الدم» .

في غرفة سليمان خليل ، قذف الانفجار صديقه إبراهيم تقي فانطرح أرضاً وقد حُزّ عنقه . ويستعيد خليل اللحظة قائلاً : «لم أعرف أنه مات ، وأردت أن أساعده . هرعتُ إلى الخارج واتجهت نحو مستوصف المجمّع ولكن أحداً لم يفتح لي الباب . قذفت النوافذ بالحجارة وكسرتها ، لكنني لم أجد فيه سوى مدنيين ، ولم يرض أحد منهم بالمجيء معي لمساعدتي» .

قرّر خليل أن يُسرع عائداً إلى غرفته : «لكنني ما أن استدرت حتى سقطت قذيفة على مقربة مني ، ربما على مسافة ثلاثة أقدام فقط . سقطت أرضاً . وعندما تطلّعت ، لم أستطع أن أرى رجلي اليسرى . عرفت أنها بُترت . أصابني الذهول وحاولت الوقوف عليها . حاولت الوقوف على الساق التي لم تعد موجودة ، ولم أستطع . رُحت أزحف مبتعداً عن المكان تحسباً لاحتمال سقوط قذيفة أخرى . زحفت بعيداً حتى بلغت أحد المستوعبات فاحتميت في ظله . وفي اللحظة التي جلست فيها ، انفجرت ثلاث قذائف تباعاً في المكان نفسه الذي أصبت فيه . وفقدت وعيي ما أن رأيت هذا المشهد» .

في تلك اللحظة كان الضابط الطبيب الفيجي المساعد ، ضابط الصف ايميليكي ، في ملجأ مركز الإسعاف الدولي ، المجاور لغرفة الاجتماعات . قال : «بعدما أصابت القذيفة الأولى تلك الغرفة سمعت صراخاً رهيباً آتياً منها ـ صراخاً حيوانياً . كان فيها أناس تقطّعوا إرباً ولكنهم كانوا لا يزالون أحياء . ثم سقطت القذيفة الثانية فأوقفت الصراخ . وساد الهدوء بعدها» .

كانت القذيفة الثانية قد اقتلعت سقف غرفة الاجتماعات ومزقت معظم الجدران الفولاذية وأشعلت النار في ما بقي من الغرفة ومن فيها . لكن سعدالله بلحص كان على قيد الحياة . قال : «انفجرت القذيفة الثانية على مسافة قريبة جداً مني . تطلّعت من حولي بعيني اليسرى . كان المكان

في دوّامة من الدخان . فالقذيفة الثانية . . كيف تقول ذلك؟ . . «أكملت المهمّة» . . . نظرت إلى أولادي لأرى من منهم لا يزال على قيد الحياة . كانوا كلهم من حولي ، أناساً صغاراً ، ورُحت أهز كل واحد منهم . . خديجة ، إبراهيم ، أمل ، محمد . . . كنت أجهش بالبكاء . هززت كل واحد منهم . لكن أحداً لم يتحرك . رُحت أقلب الواحد منهم بعد الآخر ، كانوا فوق بعضهم بعضاً ميتين . كانوا منطرحين أمامي كالخراف الميتة . أسرتي كلها» .

والدة الطالب كامل ، فوزية سعد ، ذات الخمسين عاماً ، انطلقت خارجة من المبنى المجاور . قالت : «كان المشهد رهيباً . كان هناك رجل على الأرض وقد انشطر إلى نصفين . وكانت هناك امرأة حامل أيضاً ، استطعت أن أرى ذراع ورجل جنينها يبرزان من بطنها . كما كان هناك رجل انغرزت الشظايا في رأسه . لم يكن ميتاً ولكن كان بوسعك أن ترى شظية معدنية في رقبته كما لو كان قد حُز عنقه . طلب من ابنته أن تأتي إليه لتساعده على النهوض . وسمعتها تقول : «انتظر لحظة ، أحاول أن أعيد جمع أخي . . لقد انشطر إلى نصفين . وكان هناك شقيق آخر لها يضم طفلاً بين ذراعيه . كان الطفل بلا رأس . وكان الشقيق ميتاً هو الآخر» .

أما المرأة التي كانت تحاول إعادة تجميع جثة شقيقها فكانت تدعى نجلا برجي ، وكانت في الخامسة والثلاثين من العمر . كانت تقف عند باب الغرفة المحصّنة عندما اخترقت القذيفتان غرفة الاجتماعات . وسوف تستعيد اللحظة بعد أيام لتقول : «حاولت أن أسحبَ أمي من بين ألسنة النار لكنني لم أتمكن . كانت بلا ذراعين ولم أستطع رفعها . في تلك اللحظة رأيت والدي عباس مُلقى على الأرض مع اثنين من أشقائي . حاولت أن أنجد زوجة أخي ليلى ، لكن وجهها المحترق كان مفصولاً تماماً عن رأسها . لقد أصابتها القذيفة مباشرة . أردت أن أرى ما إذا كان هناك أحد غيرهم ، لكن النيران كانت مشتعلة في أرجاء المكان ولم أتمكن من التوغل أكثر . حتى الأشجار كانت تحترق وأوراقها كلها مشتعلة . وكانت القذائف لا تزال تتساقط» .

وفي الناحية الأخرى من الوادي ، في قاعدة قوة الاحتياط الدولية النقّالة ، كان جندي نرويجي قد شرع كهاو ، بتصوير شريط فيديو للهجمة الإسرائيلية على مجمّع قانا ، وقد التقطت كاميرته مشهد «أم كامل» وهي تحوم على علو منخفض فوق المعسكر المشتعل . وعلى مسافة ميل من هناك ، في الموقع الدولي ١ ـ ١٥ ، سمع جندي نرويجي آخر صُراخ ألم بشري إثر انفجار قذيفة فوق مطعم الكتيبة الخشبي الهشّ حيث كان يلوذ خمسون لاجئاً آخرون . قال : « قد يبدو الأمر غير واقعي ، لكننا في الواقع ، رأينا بأم العين ما بدا حيواناً يُقذف عالياً من القاعدة إلى الجو مسافة ٥٠ قدماً وربما أكثر . ولكن ما أن ميّزنا لونه الأزرق حتى أدركنا أنه جسم بشري» .

لم يكن هناك ما هو غير واقعي في الأمر . كانت نايلة برجي على مسافة بضع ياردات فقط . قالت : «شاهدت هذا الرجل يطير في الهواء . قذفته قوة الانفجار وطار بعيداً وبعيداً وبعيداً ، ثم انفصل رأسه عن جسمه وعلق في شجرة تحترق ، وسقط ما بقي منه على الأرض . كان شقيقي الأكبر يطلب مني أن أبحث عن زوجته منال وابنتهما فاطمة . وجدتهما ميتتين وقد تفحّمت جثّتاهما . كما وجدت ابنة أخي مريم لكنني لم أستطع أن أميّزها ، فصرخت فيها : «هل أنت مريم؟» عندما وجدت أبي حاولت أن أرفعه لكن أحشاءه اندلقت عليّ . وعندما عثرت على شقيقي حاولت أن أرفعه هو بدوره ، لكن ما رفعته بيدي كان النصف السفلي من جسمه . لم يكن هناك رأس ولا ذراعان . كان منطرحاً هناك وقد خرجت أحشاؤه من بطنه» .

أدلت نايلة برجي بهذه الشهادة المرعبة عن نكبتها بعائلتها عندما تحدثت إلي تحت تأثير المهدئات ، في مستشفى جبل عامل في مدينة صور . قالت فيما انفجر صوتها المتهدّج بالنحيب : «لا أعرف من أين أتتني القوة لرؤية ما رأيت . كان أولئك الناس أعزاء علي جداً جداً ، ولا أستطيع أن أقول لك كم تألمت عندما رأيتهم في الحال التي كانوا عليها . أقول لك ، إن ما شاهدته وما عانيته . . دمّر ما تبقى من حياتي» .

في تلك الأثناء ، كان العشرات يتدافعون إلى داخل المركز الطبي الصغير حيث كان ضابط الصف ايميليكي الذي قال لي : «دخل علي أحد جنودنا الفيجيين ، وكانت ذراعه اليسرى تتدلى معلّقة بقطعة من الجلد . . . وقد أقتلعت منها عظامها . ثم ما لبث الناس أن تدفقوا على المركز ، وغطت الدماء الأرض والجدران . كان هناك أولاد وأطفال وطاعنات في السن ، وكان الصراخ على أشدّه . وراح الناس يصيحون : «لماذا الفيجيين؟ لماذا الفيجيين؟ ساعدنا» . لم يستطيعوا أن يفهموا لماذا تُستهدف القاعدة الدولية . بلغنا في النهاية غرفة المطعم نبحث عن الجرحى ، ولكن لم تكن هناك سوى الجثث . لم يخطر في بالنا قط أنهم جميعاً سوف يلاقون حتفهم في هذا المكان» .

كان الحاج عزام ، الذي سبق أن شاهد الطائرة الإسرائيلية بلا طيار في وقت مبكر من ذلك اليوم ، منطرحاً على أرض غرفة الضابط الفيجي التي كانت مخصّصة له . لكن الشظايا بدأت تخترق الجدران والسقف . «أصيبت امرأة في رأسها وقطعت الشظية شريحة منه . استقلى زوجها بجانبها وأخذها بين ذراعيه . كان يبكي ويصرخ طالباً المساعدة . وكان معهما طفلهما البالغ من العمر سنتين . توفيت المرأة فيما بعد ، في مستشفى حمود في صيدا» . وشقّ أحد الجنود الفيجيين طريقه عبر الدخان المتصاعد من جمار حُطام غرفة الاجتماعات ، وجرّ سعدالله بلحص عبر ما كان باباً للغرفة . قال بلحص : «شاهدَت ابن أخي جريحاً فطلبت من الجندي الفيجي مساعدته أولاً . . لكنه ما لبث أن

توفي . ثم وجدت عكازتيّ بالقرب من الباب ، فعكّزت عليهما وخرجت وحدي بلا مساعدة . وما شاهدته . . سوف تنهار لو شاهدت ما شاهدته حتى إذا كنت قوي القلب» . كان بلحص يستطيع أن يُبصر بعينه اليسرى فقط . . لم يكن قد أدرك بعد أن عينه اليمنى قد اقتُلعت من محجرها وسقطت في ألسنة النار التي اشتعلت جراء القذيفة الثانية التي أصابت غرفة الاجتماعات . قال : «وجدت ابني علي ، كان على قيد الحياة . أخذني من ذراعي وراح يريني الجثث لأتعرّف عليها . كان يخاطبني قائلاً : «ها،هو ابنك غالب ، إنه ميت» ، ثم يشير إلى جثة فتاة ويقول : «ها هي الصغيرة خديجة ، إنها ميتة أيضاً» ، و«هذه زوجتك زينب ، إنها ميتة» . ثم عثرنا على محمود الصغير حياً ، وكذلك مرهج وابن علي ، سعدالله ذي السنوات الثلاث . كانوا على قيد الحياة ؛ فقد حماهم أشقاؤهم وشقيقاتهم بأجسادهم ؛ كانوا مكوّمين فوقهم وجميعهم ميّتين» .

في داخل القاعدة الدولية الفيجية ، كانت القذائف قد قطعت التيار الكهربائي وعطلّت شبكة الاتصالات اللاسلكية . وكان الكولونيل وامي يستخدم جهاز اللاسلكي الاحتياطي لبثّ رسائله ، فيلتقطها الآمر سمايث على جهازه في القافلة ويبثها . وفي الخارج ، كان الجنود الفيجيون الذين هرعوا لمساعدة الضحايا ينزلقون على اللحم . وكان الجرحى من نساء ورجال يصرخون «يا الله يا الله» . وانهار عدد من الجنود الفيجيين ما أن تعرّفوا على جثث الأطفال الذين كانوا يحضنونهم بين أذرعهم قبل أسبوع ــ كان الفيجيون يحبّون مساعدة الأمهات في هدهدة الصغار وهزهزتهم ليخلدوا إلى النوم كل مساء ــ وقد انهاروا أمام اللاجئين الذين لم يعد باستطاعتهم حمايتهم .

كان الطالب كامل سعد ، ذو الستة عشر عاماً ، أحد آخر الذين أصيبوا . كان يقبع في غرفته داخل المجمّع ، مع عشرين آخرين . قال : «سمعت الكثير من الصراخ ، سمعت أناساً يصرخون "النجدة !" "أولادي !" . جاء والد أحدهم إلى غرفتنا ليتفقّد ابنه ، وما أن دخل حتى انفجرت قذيفة وطارت رجله ، هكذا ببساطة . كنت أحتمي بقدر ما استطعت ، منبطحاً على الأرض ، لكن شظية من القذائف اخترقت فخذي ، فرُحت أصرخ بدوري . عصّب أبي رجلي بمنشفة وحملني إلى خارج الغرفة . كانت الناس تصرخ في الخارج "ساعدونا ، رجاء ساعدونا" . استطاع كامل ، وهو ممدد على الأرض ، أن يشاهد غرفة الاجتماعات المشتعلة . قال : «كان هناك أناس يحملون أولادهم وقد بدوا غير مدركين بأنهم كانوا ميتين ، بأنهم كانوا بلا رؤوس أو أذرع . لم أعرف من كان ميتاً أو جريحاً . كانت الدماء في كل مكان ، وكان الناس يصرخون "ساعدنا يا ربّ ، رجاء ساعدنا" . لكن أحداً لم يأت للمساعدة في الحال ، لان الناس كانت تعتني بعوائلها» . وسقطت القذيفة الإسرائيلية الأخيرة في الساعة الثانية والدقيقة الخامسة والعشرين من بعد الظهر ذلك اليوم .

وقد شاهد جندي فيجي فيما بعد أحد رجال حزب الله الذين أطلقوا قذائف الهاون وهو يندفع إلى داخل مخيم قانا ، جاء يتفقد عائلته ، وما أن اكتشف أن أفرادها جميعاً قتلوا حتى راح يصرخ ويعاود الصراخ بلا توقف «هؤلاء أهلي ، هؤلاء أهلي» .

لقد تولّت الأمم المتحدة إخراج جثث القتلى من مخيم قانا في أكياس من النايلون بلغ عددها خمسة وسبعين كيساً ، لكن العديد من تلك الأكياس كانت تضم جثث ثلاثة أطفال وحتى أربعة . ووضع الجيش اللبناني لائحة باسم ٨٤ قتيلاً بمن فيهم عبوّدي وهادي من عائلة بيطار ، اللذان كانا قد جاءا إلى لبنان قبل بضعة أيام قادمين من الولايات المتحدة . كانت جدتهما البالغة التسعين من العمر ، قد توسّلت والديهما اللبنانيين المقيمين في ديترويت ، إرسال الطفلين إلى قانا لتراهما قبل أن تموت . وقد فقدت الجدّة ذراعها في المجزرة الإسرائيلية لكنها بقيت على قيد الحياة ، وقُتل الولدان . وكانت الحصيلة ١٠٦ قتلى من اللبنانيين المدنيين ــ قُتلوا في تلك الدقائق السبع عشرة في قانا ، من بينهم مسيحي واحد والباقون من الشيعة . وكان أكثر من نصفهم من الأطفال .

الحاج عزام من قرية صدّيقين ، فَقَدَ حفيدته وزوجها وطفلهما الوليد البالغ من العمر عشرين يوماً ، وشقيقين آخرين . نايلة برجي فقدت ستة عشر شخصاً من أفراد أسرتها ، من بينهم والدها عباس ، وشقيقة زوجها فاطمة ، وشقيقها حسين وابنته منال ، وشقيقها الآخر مصطفى وزوجته ليلى وشقيقتها غادة وابنها حسن البالغ من العمر تسعة أشهر ، وابنة شقيقها سكينة ، بالإضافة إلى أربعة من أبناء عمومتها . أما سعدالله بلحص فقد فَقَدَ ٣١ شخصاً من أفراد أسرته . وعندما حدثني للمرة الأولى عن المجزرة ، لم يطلب مني سوى أن أنشر أكبر عدد ممكن من أسمائهم كتذكار لهم . لذا ، أذكر منهم : زوجته زينب وأبناءه غالب وفياض ومحمد وابراهيم ، ومحمود ذو الخمس سنوات ؛ وبناته نايلة وفاطمة وزهرة وأمل ، وخديجة التي كانت في سن السادسة . وقُتلت أيضاً زهرة زوجة ابنه علي ، وابنهما عباس ذو السنوات الست ، وابنتهما فاطمة ذات السنوات الخمس ، وطفلهما الرضيع حسن ذو الأشهر الأربعة . كما قُتل شقيقا سعدالله ، محمد ، ورحمة الله وزوجته وأولادهما الخمسة ، بالإضافة إلى ابنة وابن أحد أولاده .

وقد حمّل الإسرائيليون حزب الله مسؤولية المجزرة زاعمين أن مدفعيتهم أطلقت قذائفها على المخيم من طريق الخطأ ، بسبب خلل تقني في التشغيل فيما كانت تستهدف مصدر قذائف الهاون . وأكدوا على أن أي طائرة من طائرات «أم كامل» لم تكن تحلّق فوق قانا وقت المجزرة . وكان هذا النفي على أهمية حاسمة بالطبع . فالناجون وجنود الأمم المتحدة أبلغوا جميعهم عن مشاهدتهم طائرة الاستطلاع بلا طيا ر فوق المخيم خلال القصف المدفعي . فإذا كان هذا صحيحاً فإن الدلالة

واضحة : كان الإسرائيليون يعرفون تماماً ماذا كانوا يفعلون . ولكن قصة شريط الفيديو الذي صوّره الجندي النرويجي كانت في ذلك الوقت لا تزال مجرد إشاعة . وقد باشرت الأمم المتحدة بإجراء تحقيقها العسكري الخاص ، بإشراف اللواء الهولندي فرانكلين ڤان كاپين ، الذي سأل الإسرائيليين تكراراً عما إذا كانوا قد أرسلوا طائرة بلا طيار كهذه ، لتحلّق فوق قانا خلال القصف . وذكر التقرير الذي وضعه ڤان كاپين «أن المحاورين الإسرائيليين قالوا ، رداً على الأسئلة المتكررة ، إنه لم تكن هناك أي طائرة أو مروحيّة أو آلية إسرائيلية أخرى تعمل بواسطة جهاز التحكم من بُعد في أجواء منطقة قانا في الثامن عشر من نيسان ، لا قبل القصف ولا بعده»(*) . وقد طلب ڤان كاپين من الإسرائيليين التحقق من الأمر مرة أخرى . ومن ثم ، ردّ العميد في الجيش الإسرائيلي ، ديفيد تسور ، بأنه «لم تكن هناك» لا حوّامات (هليكوبتر) ولا طائرات استطلاع بلا طيار في أجواء منطقة قانا في الثامن عشر من نيسان/ أبريل ١٩٩٦ ، لا قبل الحادثة ولا خلالها» .

ومن جهتي ، تحدثت إلى مئات الجنود من قوة الأمم المتحدة عن قصة شريط الفيديو الغامض . هل هو موجود؟ وإذا كان موجوداً لماذا لم يظهر إلى العلن؟ لماذا لم تعلن عنه الأمم المتحدة؟ ثم عرفت بعدها ، أن هذا الفيلم موجود لكنه سُلّم إلى اللواء ڤان كاپين ، وأن هذا العسكري تلقى الأوامر بالامتناع عن إعطائه لأي كان . وسمعتُ أيضاً أن التقرير النهائي للأمم المتحدة عن المجزرة سوف يبقى سرّياً خضوعاً لما وُصف بأنه ضغط أميركي مُورس على الأمين العام للأمم المتحدة آنذاك ، بطرس بطرس غالي .

وأثناء التشييع الجماعي لضحايا المجزرة في قانا ، وقفت على سطح القاعدة التي دمرتها القذائف أراقب مراسم الدفن . كان العديد من الجنود الفيجيين الشبان من حولي يجهشون بالبكاء . وما لبث أحدهم أن فاجأني بقوله إنه شاهد الفيلم إياه ، لكنه لم يستطع أن يتذكر ما إذا كان يتضمن لقطة لطائرة استطلاع بلا طيار . وقال إن الجنود ، في أي حال ، مُنعوا جميعاً من التكلّم عن هذا الفيلم . أصابني اكتئاب عميق ، وفكّرت أن مشاهدة الفيلم لا بدّ أن تكون ممكنة . لا بدّ أن يكون هناك من يتذكر ما تضمّنه هذا الفيلم من مشاهد .

بعد يومين ، كنت في منزلي في بيروت عندما رنّ هاتفي النقّال . سمعت صوتاً يحيلني إلى مرجع خرائط ثم يقول : «في الساعة الواحدة بعد الظهر» . هرعت إلى الغرفة في صدر الدار حيث

(*) «قصف مجمّع الأمم المتحدة في قانا ، في ١٨ نيسان/ أبريل ١٩٩٦» ، للواء فرانكلين ڤان كاپين ، المستشار العسكري للأمين العام للأمم المتحدة ، أيار/ مايو ١٩٩٦ .

أحتفظ بملفاتي الخاصة بجنوب لبنان ، وانتزعت خارطة كبيرة للمنطقة وفتحتها . كانت العلامة التي أعطاني إياها تشير إلى مفترق طرق بالقرب من قانا . لم يحصل من قبل أن قُدت سيارتي بتلك السرعة متوجهاً إلى جنوب لبنان . وفي تمام الواحدة بعد الظهر ، شاهدت في مرآة الرؤية الخلفية سيارة جيب تابعة للأمم المتحدة تتوقف خلف سيارتي . ترجّل منها جندي ببزته العسكرية ، يعتمر البيريه الزرقاء ، سار نحوي وصافحني ثم قال «سجّلتُ شريط الفيديو قبل أن تأخذه الأمم المتحدة . إن الطائرة ظاهرة في الفيلم . لقد اتخذت قراراً شخصياً . عندي ولدان صغيران بعمر الأطفال الذين حملتهم قتلى بين ذراعي في قانا . وهذا من أجلهما» . ثم أخرج من قميصه كاسيت فيديو ورماها على المقعد الأمامي بجانبي . ولا أظن ، وأنا أستعيد تلك اللحظة ، أنني شاهدت يوماً جندياً يُقدم بمفرده على فعل شخصي بهذا القدر من الدرامية . وقد تحاول القوى الجبّارة لفلفة القضية ، لكن الناس الضعفاء يستطيعون مع ذلك ، أن يظفروا أحياناً .

قدتُ سيارتي وأسرعت عائداً إلى بيروت . وضعتُ الكاسيت بسرعة في آلة التسجيل : لقد تمكن هذا المصوّر غير المحترف ، بتعديله للعدسة ، من تقريب الكاميرا بسرعة ، مخترقاً سحب الدخان ، والتقاط مشاهد انفجار القذائف فوق المخيم . وعلى الرغم من المسافة التي صُوِّر منها الفيلم ، كان ممكناً تمييز انفجار كل قذيفة من القذائف المتساقطة على المكان . ويمكن مشاهدة جنود نرويجيين على مقربة من عدسة الكاميرا : ما لبث أحدهم أن رفع ناظريه إلى الفضاء فتحركت الكاميرا فوراً صوب الاتجاه نفسه ، ليُسمع صوت أزيز ، ولا تلبث أن تتضّح صورة طائرة الاستطلاع بلا طيار ، تحلّق على علو منخفض فوق القاعدة تاركة خلفها سحابة من الدخان الصادر عن محرّكاتها . وفيما كانت هذه الطائرة تحلّق فوق المكان ، كان ممكناً سماع دوي الانفجارات ، كما كان ممكناً سماع الأصوات البعيدة الصادرة عن جهاز اللاسلكي الخاص بالقوة الدولية . كان الآمر سمايث يبعث برسالة تُبلّغ عن «تعرّض مقر الكتيبة الفيجية للنيران» . ثم تتحول الكاميرا بسرعة مرة أخرى ، إلى مشهد غرفة الاجتماعات وهي تحترق كالمشعل . إذن ، كل شيء كان صحيحاً .

أقدمتُ على طباعة صور فوتوغرافية للمشاهد ذات الأهمية الحاسمة . لم تكن الأمم المتحدة تعرف بأن الفيلم بحوزتي ، ولا حتى الإسرائيليون . ولكن إذا أقدمت صحيفة «الأندبندنت» على نشر كل التفاصيل مع الصور التي طبعتها من الشريط المصوّر ، سوف تُجبر الأمم المتحدة على نشر تقريرها . فهذه الصور طبق الأصل ولا يمكن إنكارها . ولم تتردد صحيفة «الأندبندنت» التي أعمل فيها ، فأبرزت القصة بنشرها على صفحات ثلاث تحت عنوان «فيلم المجزرة يضع إسرائيل في قفص الاتهام» ، الذي تصدّر صفحتها الأولى . وشكرت القديسين أياً كانوا ، الذين يحمون الصحافيين

بشفاعتهم ، على النعمة التي أعطتني ناشرين يتحلّون بقدر من الشجاعة لنشر هذه القصة . وتولّينا في الصحيفة ، في الوقت نفسه ، أمر توزيع نُسخ عن الفيلم بدون أي ربح بالمقابل ، على كافة محطات التلفزة التي طلبتها ـ البريطانية منها ، والأميركية والفرنسية والعربية والإسرائيلية . وقد بثّت جميعها الفقرة التي تُظهر طائرة الاستطلاع بلا طيار وهي تحلّق فوق قانا خلال القصف .

وما لبثت الأمم المتحدة ، وبالاستناد أساساً ، على هذا الفيلم ـ الذي كان بحوزتها طبعاً ، طوال هذا الوقت ـ أن توصلت إلى الاستنتاج القائل بأن المجزرة من المستبعد أن تكون ناجمة عن حصول خطأ . وكان هذا الاستنتاج طريقة لطيفة للقول بأنها كانت متعمّدة . أما الإسرائيليون فقد اضطروا إلى تغيير روايتهم عندما واجههم ڤان كايين بالفيلم . قالوا : «إنهم من شدة لهفتهم للتعاون مع الأمم المتحد»ة ، أعطوا اللواء [ڤان كايين] معلومات مغلوطة . وقالوا أيضاً ، إن الطائرة بلا طيار كانت تحلّق فعلاً ، فوق قانا ، لكنها لم تكن تصوّر المخيم ، بل كانت تقوم بـ «مهمة أخرى» . ولم يُفصح الإسرائيليون بشيء عن ماهية تلك «المهمة الأخرى» ، لكنهم قالوا إن تلك الطائرة بلا طيار ، المزوّدة بكاميرات تلفزيونية تنقل الحدث مباشرة ، وصلت إلى المنطقة بعدما كان القصف قد انتهى ـ وهو زعم باطل كما يظهر في شريط الفيديو بوضوح .

أما ما تلا ذلك فكان ممكناً التنبؤ به . إذ عمدت بعض جماعات اللوبي الإسرائيلي في الولايات المتحدة ، إلى اتهام المنظمة الدولية بـ «معاداة السامية» . وفي المؤتمر الصحفي الذي عُقد بمناسبة نشر تقرير الأمم المتحدة ، طرح المراسلون الصحافيون الأميركيون على مسؤولي الأمم المتحدة أسئلة عدائية ، أسئلة كادت أن تكون مهينة لهم ، ألمحت في أغلبها ، إلى وجود دوافع عنصرية وراء استنتاجات التقرير . وقالت صحيفة نيويوركية لقرائها إن الأمم المتحدة أظهرت تبلّداً في الأحساس عندما كلّفت جنرالاً هولندياً وضع التقرير ، لأن هولندا سبق لها أن أجازت إرسال رعاياها اليهود إلى مُعتقل أوشفيتز خلال الحرب العالمية الثانية . وهكذا ، جرى مرة أخرى ، استخدام الملايين الستة من اليهود الذين قتلوا على أيدي النازيين ، للتستر على آثام إسرائيل .

وقد تلقيتُ من جهتي ، معاملة مماثلة . ففي يوم المجزرة كانت الزوارق الحربية الإسرائيلية من طراز «حيتس» ، تُطلق النار على الطريق الساحلي السريع ، المؤدّي إلى بيروت ، وهو الطريق الوحيد الذي نستطيع أن نسلكه للعودة إلى المدينة . وقد أطلقوا النار على سيارتنا فيما كنا نعبر جسر نهر الأوّلي ، وسقطت القذيفة في حرج على تلّة فوق الطريق . في المقابل ، كتب الكثيرون من قراء «الأندبندنت» يعربون عن امتنانهم لنشرنا هذه القصة الرهيبة بكل تفاصيلها على الرغم من المخاطر . وكان هناك آخرون لم يكونوا ممتنين لذلك ، فقد تلقيتُ رسالة تميّزت بالحقد ، من قارئة في لندن

قالت إنها يهودية . وقد كتبت تقول : «لا أحب المعادين للسامية ولا أقدّرهم . كان هتلر واحداً من أكثرهم شهرة في التاريخ القريب . . . إنك عار على مهنة ينبغي أن تنقل الأخبار . . .» .

وكعادتهم ، نقّب الإسرائيليون بعمق يفوق كثيراً ما تبذله الصحافة الأميركية المدّجنة بحثاً عن الحقائق . وأتت المساهمة الأكثر إثارة للدهشة من أسبوعية «كول هاإير» الصادرة في القدس ، التي نشرت مقابلة مطوّلة مع جنود من طاقم بطارية المدفعية داخل المنطقة المحتلة في لبنان ، الذي تولى إطلاق القذائف على قانا(*) . في تلك المقابلة ، قال «الجندي أ» إن آمر بطارية المدفعية جمعنا كلنا وقال لنا ان هذه هي الحرب ، وأن علينا أن نواصل إطلاق النار ببراعتنا القتالية المعهودة . فقد دخل حزب الله إلى قرية فيها بعض العرب ، وهذه مشكلتهم هم . وكما تعرفون ، عربي واحد بالزائد أو عربي واحد بالناقص . . . حتى آمر البطارية قال هذا الكلام . . . قال لنا إنها الحرب . هيّا ، ما بالكم ، يُطلق أولاد الحرام النار عليكم ، فما أنتم فاعلون؟ أبلغنا بأننا كنّا نُحسن إطلاق النار وأن علينا أن نواصل القصف ، وأن العرب ، كما تعلم هناك الملايين منهم» . ونُقل عن «الجندي ت» قوله : «إن أحداً لم يتكلم عن الأمر كما لو كان غلطة . لقد قمنا بمهمتنا ، ولذا ، نشعر بسلام مع أنفسنا . . . حتى إن «س» قال لنا بأننا كنّا رائعين وأنهم مجرد جماعة من العرب(عربوشيم بالعبرية) . . . كم هناك من العرب وكم هناك من اليهود؟ ليمت قليلاً من "العربوشيم" فلا ضير من ذلك» . وقال «الرقيب ي» بدوره ، «إنها حرب ، وفي الحرب تحدث مثل هذه الأمور . . . إنهم مجرد زُمرة من العرب فما بالكم متأثرين إلى هذا الحد؟» ولم تُقدم أي صحيفة أميركية على إعادة نشر هذا التقرير الصحفي .

ومرت الأسابيع ، وغيّر الإسرائيليون في روايتهم مرة أخرى . قالوا إن مقاتلي حزب الله في مقبرة البلدة ، كانوا يطلقون صواريخ الكاتيوشا عبر الحدود على إسرائيل . وقالوا إن أرواح المدنيين الإسرائيليين كانت معرّضة للخطر . ولم يكن هذا الكلام صحيحاً . وقد اكتشفتُ بعد أكثر من شهر ، أن الإسرائيليين كانوا قد عرضوا على الأمم المتحدة ، بعد وقف إطلاق النار ، مجموعة من الخرائط ، مقترحين قيام مصلحة المعدات الحربية في القوة الدولية بنزع فتائل الألغام المزروعة في منطقة عملياتها إذا رغبت بذلك . وكما تبيّن ، كان الإسرائيليون قد أرسلوا وحدة من الجيش تغلغلت في عمق منطقة عمليات القوة الدولية من أجل زرع الألغام في مسلك وعر بالقرب من قانا ، يُفترض أن المقاتلين يتسللون عبره . وقد شاهد مقاتلو حزب الله زارعي الألغام الإسرائيليين وفتحوا النار عليهم فوراً من جبانة قانا ، مما حدا بالجنود إلى طلب دعم ناري ، استُجيب بقيام بطارية المدفعية الإسرائيلية

(*) مجلة «كول هاإير» ، ١٠ أيار/ مايو ١٩٩٦ ، القدس .

بقصف قانا . فشمعون بيريس لم يكن يريد أن يُقتل جنوده قبل الانتخابات العامة التي سوف يخرج منها خاسراً فيما بعد .

لقد أخذت عملية «عناقيد الغضب» اسمها من سفر التثنية في التوراة المليء بالدم وبالغضب التوراتي ووعود بالانتقام الإلهي . ففي الإصحاح الثاني والثلاثين ، نجد في نشيد موسى ، قبل أن يموت وهو يقود شعبه اليهودي إلى أرض الميعاد ، قولاً عن أولئك الذين سيدمرهم غضب الله : «مِنْ خَارِجٍ السَّيْفُ يُثْكِلُ وَمِنْ دَاخِلِ الْخُدُورِ الرَّعْبَةُ . الْفَتَى مع الْفَتَاةِ وَالرَّضِيعُ مَعَ الأَشْيَبِ» . كما جاء في الآية ٢٥ . فهل منَ وصَف أفضلَ من هذا لتلك الدقائق السبع عشرة في قانا؟

وفي السنوات التي تلت ، تحوّلت قانا إلى موقع للشهادة . أصبحت المقبرة الجماعية بالقرب من الثكنات القديمة للقوة الدولية مغطاة بالرخام اليوم . وهناك شواهد على المقابر يتضمن العديد منها عُلباً زجاجية فيها صوراً للأطفال . ولكن المكان مُفجع من نواح عديدة . فهناك مثلاً ، دكانة في البلدة تبيع صوراً فوتوغرافية للمجزرة تكاد تفاصيلها أن تُثير الغثيان . أما حزب الله الذي استخدم رجاله البلدة نقطة لإطلاق قذائف الهاون على الإسرائيليين ـ وكان يدرك بلا ريب الخطر الذي يعرّض اللاجئين له ـ فقد بات موضع مجافاة بعض الناجين من المجزرة . وهناك مَعْلَمٌ على جانب الطريق يعلن للزائرين أنهم على مشارف موقع «محرقة العرب» النازية ، مهملاً الإشارة إلى أن الضحايا البالغ عددهم ١٠٦ قتلى ، بالكاد يمكن مقارنتهم بالضحايا البالغ عددهم ستة ملايين نسمة . ويستطيع الزائرون التسلّق إلى قسم من المجمّع ومشاهدة الشكل المستطيل الإسمنتي ، وهو كل ما بقي من مطعم الكتيبة الفيجية القديم ، حيث قُتل نصف اللاجئين تقريباً في قانا . ويمكن للمرء أن يشاهد في معظم أيام الأسبوع باقات الأزهار ملقاة على الركام ، وقد ذبلت بسرعة في وهج الشمس .

ومع ذلك ، لو كان أولئك الضحايا من الإسرائيليين ـ لو أن ١٠٦ من المدنيين الإسرائيليين قد قتلوا في إسرائيل بنيران حزب الله ـ ألن تكون ردة الفعل أعظم شأناً بكثير؟ ألن يقوم كل رئيس أميركي بزيارة الموقع من باب أداء واجب الإجلال؟ ولو كان ضحايا مجزرة صبرا وشاتيلا من الإسرائيليين ، أما كنا سنشهد رجالات الدول الأجانب يزورون المقبرة الجماعية؟

لكن هذا لا يعني أن الأجانب لا يزورون قانا بين الحين والآخر . وقد حدث بعد مرور سنوات على المجزرة ، أن جاءت سيدة يهودية أميركية ، درجت على ترتيب برنامج محاضراتي في إحدى الجامعات الأميركية ، وسألتني أن أصطحبها إلى قانا . ذهبنا إلى هناك وتوجهنا إلى المقبرة الجماعية حيث التقطت صوراً للمزار . وقد التقطت أيضاً ، صورة للمعلَم المهين الذي يشير إلى «محرقة الإبادة»

النازية ، لكنها بدت غير منزعجة الخاطر منه ـ ثم طلبت مني أن أجمعها بسعدالله بلحص . وفكّرت أن مثل هذا اللقاء كان فكرة حسنة وسيئة على حد سواء . فتجربة سعدالله كأحد الناجين ، والذي فَقَدَ ٣١ فرداً من أسرته ، كانت على المستوى الشخصي الفردي تجربة مع محرقة . فقد هلك أناس أعزاء عليه بنسبة تعادل ما فقده العديد من اليهود الناجين من الإبادة النازية . ومع ذلك ، كنت أعرف ضراوة الكراهية التي يكنّها العديد من الناجين للإسرائيليين ، وكيف يستخدمون لفظة «اليهود» للإشارة إلى «الإسرائيليين» محوّلين بدلالتها جام غضبهم على عِرق من البشر عوضاً عن دولة . وقد حذّرت جينفر من هذا الأمر .

كنت قد بقيت على اتصال مع العديد من الناجين من مجزرة قانا ، وغالباً ما كنت أعرّج لزيارة سعدالله أثناء مروري بالقرب من منزله في صدّيقين متوجهاً إلى مكان أبعد في الجنوب . وقمت بزيارة نايلة برجي بضع مرات ، في منزلها الصغير في ضواحي قانا . ما زالت أمها حيّة ترزق ، لكنها تمضي نهارها جالسة على الأرض تتكلم مع نفسها عن ذراعها المفقودة . وبعدما درست الأمر من كافة جوانبه ، رأيت أن على جنيفر أن تقابل بلحص . كان يقف على شرفة منزله الإسمنتي الصغير . . . وشأنه شأن معظم الرجال المسلمين في المنطقة ، حيّا جنيفر بوضع راحة يده اليمنى على صدره . ولم أخبره بأنها كانت يهودية . سألته أن يحدثها عن خسارة أفراد عائلته ، وكانت صور العديد منهم ملصقة على بطاقة تتدلى من عنقه كالقُلادة . فروى لها عن مقتل زوجته وأولاده ، ولكنه كان متحفّظاً في رواية التفاصيل ظنّاً منه ، بلا ريب ، أنه لا يليق بامرأة أن تسمعها .

وعندما سألته جنيفر على من يضع اللوم ، أجاب على إسرائيل . ثم تحدث عن المسؤولية التي تتحملها الولايات المتحدة بسبب دعمها الأعمى لإسرائيل الذي لا يميّز بين الحق والباطل . وما لبث أن تلفّظ بكلام غير عادي إطلاقاً . قال : « عليك ألا تلقي بالملامة على كل اليهود . فهناك بعض اليهود الطيّبين ، وقد قالوا الحقيقة عما حدث لنا . وهناك يهود في الولايات المتحدة يحاولون مساعدتنا ولا يؤيدون ما تفعله إسرائيل بنا» . رمقتني جنيفر بنظرة من لا يصدق ما يسمعه . كان ذلك الكلام تعبيراً رائعاً ينمّ عن طيبة خُلق وذكاء وتفهّم حتى يصدر عن رجل قاسى بهذا القدر على أيدي إسرائيل . ومع ذلك ، كان هذا بالضبط ما قاله . ومع أن العبارة قد تبدو مبتذلة ، أقول إن جنيفر بدت شديدة التأثر .

رحل الإسرائيليون في غضون أربع سنوات على المجزرة . كان الاحتلال الإسرائيلي يحصد حيوات أعداد متزايدة من الجنود الإسرائيليين داخل لبنان ، ما أدى إلى تعاظم مساءلة الجمهور الإسرائيلي عن الغرض من وجودهم هناك . فإذا كان سيُعقد سلام مع الفلسطينيين [ولم تكن اتفاقية أوسلو قد انهارت بعد] ، فما هو الهدف من التمسك بما يسميه الإسرائيليون حزامهم الأمني ، الذي

كان يفتقر إلى الأمن مثله مثل أي مكان آخر في منطقة الشرق الأوسط؟ لقد ظل العمل جارياً في زنزانات التعذيب في بلدة الخيام، ولكن ميليشيا «جيش لبنان الجنوبي» كانت في طور الانهيار. كانت عناصرها تفرّ لتستسلم إما إلى حزب الله أو إلى الجيش اللبناني. وعندما أقدم رئيس الحكومة الإسرائيلية إيهود باراك، الجنرال السابق والرجل الذي وصف مجزرة قانا بـ «الخطأ المؤسف»، على الإعلان بأنه سينهي احتلال جيشه لجنوب لبنان، أدرك «جيش لبنان الجنوبي» أن النهاية قد أزفت.

في أيار/ مايو عام ٢٠٠٠، انصاعت إسرائيل أخيراً لقرار مجلس الأمن الدولي رقم ٤٢٥، الذي يدعو إلى الانسحاب الكامل للقوات الإسرائيلية من جنوب لبنان. وفي الحقيقة، رحلوا متأخرين اثنين وعشرين عاماً، تنفيذاً لهذا القرار الذي اتُّخذ في العام ١٩٧٨. ولكن أحداً لا يستطيع أن ينفي أنهم غادروا على عجل. ففي أوائل ذلك الشهر، بدأت عناصر «جيش لبنان الجنوبي» تفرّ من مواقعها على طول الخط الأمامي الإسرائيلي. تخلّوا عن بطاريات المدفعية والدبابات ومنصّات الأسمنت المسلّح، وتركوا القوات الإسرائيلية وحدها. وقد طلب الإسرائيليون هدنة من حزب الله لإتاحة انسحاب منظّم. لكن الحزب رفض معلناً أنه سيقاتل حتى اللحظة الأخيرة. وهكذا، وطوال أسبوع كامل، كان الإسرائيليون ينسحبون خلسة من لبنان، وقد تمسّكوا بقاعدتهم في قلعة الشقيف الصليبية القديمة حتى النهاية. وفيما كان قرويو جنوب لبنان يتجمّعون للانطلاق بالآلاف، عائدين إلى بيوتهم، كان عناصر «جيش لبنان الجنوبي» يُولّون الأدبار للنجاة بجلدهم، وقد استسلم بعضهم لحزب الله. وأقدم بعض الجنود الإسرائيليين، بعدما تخلّى عنهم حلفاؤهم، على ترك مواقعهم تحت جنح الظلام، وتسللوا عبر الحقول عائدين إلى إسرائيل سيراً على الأقدام لتفادي كمائن المقاتلين.

وقد أطلقت الدبابات يومذاك النار على بعض القرويين العائدين، وقتلت سائق سيارة فريق شبكة البي. بي. سي. للتلفزة، عبد طقوش، فيما كان يركن سيارته بالقرب من المكان الذي كان يقف فيه أحد مراسليها مع فريق التصوير. كنت أعرف عبد جيداً. كنّا دائماً نتبادل التحية مثلما كنت دائماً أتبادل التحية مع توفيق غزاوي وبهيج متني من فريق شبكة سي. بي. إس. للتلفزة، اللذين قتلا أيضاً بنيران مدفعية دبابة إسرائيلية في جنوب لبنان قبل نيف وستة عشر عاماً. وقد وصفت البي. بي. سي. مقتل عبد طقوش كعمل يمكن أن يُعدّ جريمة حرب. وقال الإسرائيليون آنذاك إنهم كانوا يطلقون النار على «إرهابي» كان يهددهم بأرواحهم. وقد جرى إجلاء القوة الإسرائيلية من قلعة الشقيف بواسطة طائرات الهليكوبتر في لحظات الانسحاب الأخيرة، قبل وقت قليل من وصول الطائرات النفاثة الإسرائيلية لقصف تحصيناتها وتدميرها. وقد لجأ المئات من عناصر «جيش لبنان الجنوبي» إلى إسرائيل ـ قُتل اثنان منهم فيما كانا يحاولان عبور الحدود برصاص جنود إسرائيليين

مذعورين ـ ومنحت إسرائيل معظمهم حق اللجؤ . وفي بلدة الخيام ، اقتحمت الجموع السجن الذي تركه الإسرائيليون خلفهم ، لتجد أن السجناء ما زالوا أسرى زنزاناتهم ، فأقدمت ، في غمرة انفعالها ، على تحطيم الأبواب . كان في هذا السجن رجال موقوفون بدون محاكمة منذ أكثر من عقدين ، وكانت أسلاك جهاز التعذيب الكهربائي لا تزال في مكانها . لم يأخذ الإسرائيليون معهم إلا المولدات التي تشغّلها . كانت هزيمة نكراء .

وبالنسبة للبنان كان الجلاء تحريراً . في بلدة الطيبة شاهدت أحد رجال حزب الله يعدو إلى بيت تجلّله العرائش ، ويُلقي بنفسه بين ذراعي أمه . بكت أمه على كتفه ، وقال هو لي : «لم أرها منذ خمسة عشر عاماً» . سرتُ مع الجموع عبر البلدة ؛ كانوا رجالاً من حزب الله مع عوائلهم ، يحملون أسلحتهم ويبكون فرحاً ، ورجال دين من الشيعة ، وقرويين مسنّين والمئات من الأطفال . كانوا جميعاً توّاقين للوصول إلى التلة المطلة على البلدة . وما أن بلغوا التلة وشاهدوا الطريق الحدودي الطويل يمتد أمامهم ، حتى توقفوا جميعاً غير مصدقين . فقد كانت إسرائيل منبسطة قبالتهم والضباب الأزرق الشاحب يغمر وادي الجليل . لقد طال انتظارهم تلك اللحظة سنوات كثيرة جداً . ففي العام ١٩٨٢ ، عندما اندفع الجيش الإسرائيلي بهجومه الساحق إلى بيروت ، لم يكن أحد يستطيع أن يحلم بهذه اللحظة . قال حزب الله بأنها آتية ولم أصدقهم . ومع ذلك ، كنت ها هنا اليوم ، أقف معهم عند الحدود ، وراياتهم الصفراء تخفق مع تنسُّم الريح . سألت رجل دين شيعياً ، ملتحياً ، يلبس نظارات سميكة ، عن رأيه بما حدث . أجاب :«أمر لا يُصدّق» . كان ذلك كل ما قاله . وعلى الجانب الإسرائيلي من أسلاك الحدود الشائكة ، بدت البساتين المخططة بإتقان ، ولم يكن يُسمع غير صوت قرقرة مضخّات الري فيما كان الضباب ينقشع عن الحقول .

لم تكن تلك الحربُ حربي أنا . لم تكن يوماً حربي . ولقد شاهدت من قبل رجالاً أشراراً في وسط العرب والإسرائيليين على حد سواء . كما شاهدت من قبل ، مجازر على نطاق غير مسبوق ، ارتكبها ديكتاتوريون عرباً وإسرائيليون لا يعرفون الرحمة . لكنني كنت فرحاً لرؤية كل هذا . كنت فرحاً لكوني أقف على الحدود في ذلك الصباح الربيعي الجميل . . كان الأمر في وجه من الوجوه خاتمة فصل آخر . كنت قد مكثت في لبنان لأشهد التاريخ . لقد جعل مني تتبّع مأساة هذا البلد شخصاً أرقاً ، كمثل من يجد كتاباً آسراً ليس بوسعه إطباق صفحاته وإطفاء النور ، فيروح يقرأ ويقرأ حتى ساعات الصباح الأولى . وكلما انتهى من فصل يبدأ بآخر واعداً نفسه بألا يستزيد . ثم يرفع ناظريه بعد حين ، ولشدّ ما تكون دهشته عندما يرى الفجر يتسلل عبر الستائر المُسدلة . وها أنا كنت أقرأ طوال الليل وقد أزحتُ الستائر الآن ، لأجد نفسي في قلب الفجر أسرح بنظري إلى حقول وجبال إسرائيل .

لكن لبنان حدّد سوابق مرعبة للإسرائيليين . فعندما أدرك الفلسطينيون في النهاية أن اتفاق أوسلو لن يعطيهم لا دولة ولا عاصمة في القدس ؛ وعندما تبيّن لهم أن العرض الإسرائيلي بإعادة ٩٦٪ من الضفة الغربية وغزة كان في الواقع إعادة ٤٦٪ من الأرض فقط ، لأن القدس وامتداداتها والأجزاء التي جرى ضمّها كانت من بين المناطق المستثناة من العرض ؛ لم يستطع ياسر عرفات أن يحول دون نشوب الانتفاضة الثانية . وردّ الإسرائيليون كعادتهم في كل مرة . راحوا يطلقون النار على راشقي الحجارة ، ويغتالون المناضلين بواسطة السيارات المفخخة ، ويواصلون البناء غير الشرعي في المستوطنات اليهودية في الأراضي العربية المحتلة . وفي اللحظة المتوقعة ، فقد ياسر عرفات صفة رجل الدولة المتفوّق على أقرانه ، ليستعيد صفة الإرهابي الأول . فعرفات ، بحسب الإسرائيليين ، ذو صلات بالإرهاب العالمي مهما كان يعني ذلك . ولكن كان لدى الفلسطينيين هذه المرة أكثر من الحجارة . ردّوا على النار بالنار ، وقتلوا مستوطنين وأرسلوا الانتحاريين لتفجير أنفسهم في قلب إسرائيل . وكانت العملية الأشد فتكاً تلك التي أدّت إلى مقتل ١٦ مراهقاً إسرائيلياً خارج ناد ليلي في تل أبيب في صيف العام ٢٠٠١ .

كان انتحاريو حزب الله يركزون على الأهداف العسكرية . لكن الفلسطينيين ، بدافع من البؤس واليأس ، استخدموا السلاح نفسه ضد الأهداف العسكرية والمدنية على السواء . ولم تتمكن إسرائيل التي تملك طائرات أف ـ ١٦ والطائرات العمودية والزوارق الحربية والأسلحة النووية ، من وقف العمليات الانتحارية .

كنت في هذه الآونة ، أتنقّل بين إسرائيل والمناطق المحتلة انطلاقاً من لبنان ، واستطعت أن أرى هناك في الضفة ، تأثير كل ما شهدته من أحداث في السنوات الأربع والعشرين الماضية . لقد برهن حزب الله على أنه لا موجب للاستسلام ، وعلى أن قهر أقوى جيوش الشرق الأوسط ممكن . وقد أثبت اللبنانيون ذلك خلال حصار بيروت في العام ١٩٨٢ . وتعلّم الفلسطينيون الدرس . فقد اكتشفتُ في غزة أن معظم الفلسطينيين يشاهدون قناة «المنار» الفضائية التي تبثّ من بيروت . وكان تلفزيون «المنار» يعرض أشرطة فيديو لعمليات نفّذها حزب الله ضد مجمّعات إسرائيلية ، تولّى تصويرها حيّة مصوّرون من المقاتلين ، وكان يحثّ الفلسطينيين على القتال مثلما قاتل اللبنانيون ، ويقول لهم بأن الله إلى جانبهم .

لكن الدرس كان خطراً . فالضفة الغربية ليست جنوب لبنان ، والقدس ليست بيروت . وقد وجدت نفسي في غزة أحيا من جديد حصار بيروت في العام ١٩٨٢ ، على نطاق أصغر . فقد طوّق الإسرائيليون القطاع البائس المنتن ، وحرموا الفلسطينيين المحشورين فيه من الغذاء والدواء والمال .

كانت طائرات أف ـ ١٦ تقصف مكاتب الفلسطينيين ، وكانت الهليكوبتر تهاجم قواعد «الإرهابيين» ، فيما كانت الدبابات تطلق قذائفها على مخيمات اللاجئين فيه . وكعهدنا بحالهم دائماً ، علق الفلسطينيون أسرى أزقّتهم ، ودفعوا بأرواحهم أغلى الأثمان على الإطلاق . وكعهدنا بهم دائماً أيضاً ، أعلن الأسرائيليون بأنهم هم من كانوا تحت الحصار ، يحاصرهم «الإرهاب» ، فيما وقف الأميركيون كعادتهم ، إلى جانب إسرائيل ، يلعبون دور الوسيط الحيادي المزّيف إيّاه . كان الأمر إعادة مطابقة تقريباً لكل ما شاهدته قبل نحو ٢٠ عاماً .

وقياساً بما كان يحصل هناك ، أصبحت قصة لبنان مُبهمة ، ولم تعد وجهتها مُستبانة . كان هناك نزاع مستمر حول ملكية مزارع شبعا . وقد زعم الإسرائيليون أنهم استولوا على هذه المزارع من سوريا بعد حرب ١٩٦٧ ، فيما ادّعى اللبنانيون ملكيتهم لها ـ وأثبتت وثائق ملكية الأرض أنهم كانوا على حق ، على الرغم من أنهم لم يظهروا يوماً هذا الولع المستجد باستعادة ملكيتها . مهما كان من أمر ، جاء إعلان حزب الله عن تصميمه على «تحرير» مزارع شبعا ، مؤشراً على أن الإسرائيليين سيصبحون مرة أخرى هدفاً للهجمات على طول الشريط الحدودي . فالإسرائيليون عندما غادروا لبنان مزّقوا أقوى الأوراق في يد سوريا لاستعادة هضبة الجولان : حرب متواصلة في الجنوب اللبناني إلى حين انسحاب إسرائيل من الجولان ولبنان . ولكن إثارة قضية مزارع شبعا أعادت ورقة صغيرة بديلة لسوريا التي كانت قد باتت بقيادة ابن حافظ الأسد ، بشار . وفي أوائل صيف العام ٢٠٠١ ، انسحبت بضع كتائب من القوات السورية من وسط العاصمة بيروت ؛ ولكن معظم الجيش السوري في لبنان ، البالغ عديده ٢١٠٠٠ عنصر ، بقي منتشراً في هذا البلد . وسوف يبقى لبنان في قبضة سوريا الأخوية إلى حين تحرير الجولان .

ربع قرن من الزمن . عندما أُفكّر بهذا الفوات ، أشعر بثقل السنين . ومع ذلك ، فإن العمل في المنطقة نفسها ومراقبة المأساة نفسها ينطوي على ما يوحي بشباب دائم . ما زلت أشعر أني في مقتبل العمر ومعافى مثلما كنت عندما جئت إلى لبنان للمرة الأولى في صيف العام ١٩٧٦ الحار والرهيب . كنت في التاسعة والعشرين آنذاك ، مزوداً بطاقة والديّ وحكمتهما والحماسة التي يستشعرها تلميذ المدرسة . كان أبي قد حارب في خنادق فرنسا في العام ١٩١٨ ؛ وفي السنة التي توفي فيها ، كنت في المدينة نفسها التي أرسلته إلى هناك ، أتابع تتمة الحرب الأهلية الأوروبية في سارايبفو . وتوفيت أمي بعده بست سنوات ، في العام ١٩٩٨ . ليس عندي أخوة أو أخوات ، وكنت أحياناً ، أشعر بوطأة كوني وحيداً . لكنني كنت أقول لنفسي أنني تجاوزت الصعاب ، وأنني نجحت في ما كنت مزمعاً عليه . فكم كان سهلاً أن أموت في لبنان .

ومع ذلك ، وفيما أنا أكتب الآن ، أشعر بالخوف من العُتاة المتوحّشين . ربما كنت أخاف التاريخ وما له من سلطان على حيواتنا ، ومن قدرته على إقناعنا بتكرار مآسينا مرة بعد مرة . وربما كان هذا ما يدفعني للعودة سنة بعد أخرى ، إلى أزقة صبرا وشاتيلا بنفاياتها وجرذانها ويأسها . لقد تآمر الجميع : بلفور ، والانتداب البريطاني لفلسطين ، وهتلر ، والصهيونية ، والعرب ، أجل ، هم أيضاً ، تآمروا لسجن هذا الشعب البائس في الأزقّة . وقد تخلّى عنهم ياسر عرفات من أجل دويلته السَقَط في غزة .

في شباط/ فبراير من العام ٢٠٠١ ، عدت مرة أخرى إلى المخيمين . كنت ما زلت أحاول العثور على دليل آخر على مجزرة العام ١٩٨٢ ، على شاهد آخر لم يتكلم مع أحد بعد . سلكتُ تلك الطرق نفسها . هنا ، في هذا المكان ، عثرت على جثة الرجل العجوز مع عصاه ، السيد نوري . وخلف المكان مباشرة ، هناك جدار الإعدام ، وإلى اليسار منه ، المكان الذي عثرت فيه على المرأتين والطفل القتيل . وخلفي ، تقع الباحة حيث اختبأنا ، لورين جنكينز وأنا ، بالقرب من جثة المرأة الشابة التي لم يكن قد مضى وقت طويل على مقتلها ؛ تلك المرأة التي كانت ملاقط الغسيل مبعثرة حول رأسها كالهالة . وهنا بالضبط ، على هذه الطريق الموحلة ، كان المكان الذي شعر فيه جنكينز بالغثيان من رائحة الموت ومن وطأة المسؤولية الشخصية التي تنتاب الفرد ، فصرخ : «شارون !» .

وبعد يوم واحد على زيارتي الأخيرة تلك لصبرا وشاتيلا ، في السادس من شباط/ فبراير ٢٠٠١ ، انتُخب أريئيل شارون رئيساً لحكومة إسرائيل .

فهرس الصور

فهرس الخرائط

الفهرس

سلسلة

الدراسات السياسية والتاريخية اللبنانية

صدر منها:

- □ الضوء الأصفر - عبد الله بو حبيب
- □ قصة الموارنة في الحرب - جوزيف أبو خليل
- □ لبنان وسوريا مشقة الاخوة - جوزيف أبو خليل
- □ لبنان لماذا؟ - جوزيف أبو خليل
- □ رؤية للمستقبل - الرئيس أمين الجميل
- □ فرنسا والموارنة ولبنان - اللواء ياسين سويد
- □ الأشياء بأسمائها - العقيد عاكف حيدر
- □ مبادئ المعارضة اللبنانية - الرئيس حسين الحسيني
- □ الخيارات الصعبة - د. إيلي سالم
- □ آل الصلح - محمد جابر آل صفا
- □ فؤاد شهاب، ذلك المجهول - باسم الجسر
- □ مذكرات قبل أوانها - شكري نصر الله
- □ وثيقة الوفاق الوطني
- □ الدستور اللبناني المعدّل
- □ قانون الشركة العقارية
- □ المال إن حكم - هنري ادة
- □ الأيادي السود - نجاح واكيم
- □ ثمن الدم والدمار - كمال ديب
- □ للحقيقة والتاريخ - تجارب الحكم ما بين ١٩٩٨ - ٢٠٠٠ - الرئيس سليم الحص
- □ نحن والطائفية - الرئيس سليم الحص
- □ صوت بلا صدى - الرئيس سليم الحص
- □ رئيس مجلس الوزراء في لبنان بعد الطائف ١٩٨٩ - ١٩٩٨ - محمود عثمان
- □ مزارع شبعا - حقائق ووثائق - منيف الخطيب
- □ الفرصة الضائعة في الإصلاح المالي في لبنان - د. جورج قرم
- □ التشيكلات الناصرية في لبنان - شوكت اشتي
- □ ويلات وطن - روبرت فيسك

ت : 515 تاريخ استلام : 22/8/2007

المؤلف

روبرت فيسك واحد من أبرز المراسلين الصحفيين في الشرق الأوسط، وحائز على أكبر عدد ممكن من الجوائز البريطانية الكبرى عن مقالاته عن الشرق الأوسط. وكان بين أربعة صحفيين ظلوا في لبنان طوال سنوات الحرب. ولد فيسك في «كنت» في انكلترا. ألف كتابين عن الصراع في ايرلندا. وكان مراسل التايمز في ايرلندا (١٩٧٢-١٩٧٥) ومراسلها في الشرق الأوسط حتى عام ١٩٨٧. ويعمل الآن مراسلاً لجريدة الاندبيندنت.

هذا الكتاب

في هذا الكتاب، الذي وضعه أحد أبرز الصحافيين البريطانيين، يجمع المؤلف بطريقة غير مسبوقة بين نقل وقائع الحروب والتحليل السياسي: إنه رواية ملحمية للنزاع في لبنان وضعها مؤلف كان شخصياً شاهداً على مذابح بيروت طوال ما يزيد على عقدين من الزمن. يروي كتاب فيسك تفاصيل حرب رهيبة، لكنه يروي أيضاً قصة الخيانة والضلال، وقصة عدم التبصّر الغربي الذي كان له أن يقود حتماً إلى كارثة سياسية وعسكرية. وفي هذا الكتاب الذي جرى تحديثه كاملاً، كما جرت مراجعته، يُطلعنا فيسك على التطورات التي استجدّت، مع رواية مروّعة ومُقلقة لمجزرة إسرائيل في قانا.

«كتاب روبرت فيسك الضخم عن عذابات لبنان المُبرّحَة واحد من أبرز الكتب الصادرة في أزمنتنا القريبة، كما أنه واحد من أكثر الأعمال المكنونة بالألم الممضّ والصلابة المُكتسَبة من الاكتواء بالتجارب. إن لتحقيقات فيسك الصحفية قوة يتوقعها المرء من الصحافيين لكنه لا يحصل عليها في أغلب الأحيان».

إدوارد سعيد

الاندبندت يوم الأحد

«إنه شاهد مروّع ومُقلق على فشل السياسة في حماية البشر من أنفسهم».

«إن في مجرّد تراكم تقارير شهود العيان قوة إق

«روبرت فيسك هو أحد أبرز مراسلي هذا الج

وليس هناك من يضارعه كمراسل حربي».



